

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

# الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية

المجلد الثاني

## الإسلام وبناء الدولة العربية

تونس 2005






الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية

**المجلد الثاني:** " الإسلام وبناء الدولة العربية "

الأمانة العامة للمجلس التنفيذي والمؤتمر العام

تونس - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم 2005

( 732 ص )

( I S B N. 9973 – 15 – 179 - 8 )

## المقدمة

ويجد المجلد الثاني من الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية طريقه إلى رفوف المكتبة العربية وأيدي الباحثين والدارسين ليضيء حلقة أخرى من حلقات التاريخ العربي المجيد .

وإذ كان المجلد الأول ( الجذور والبدايات ) قد عني باستكشاف مجاهل التاريخ العربي القديم ابتداءً من عصور ما قبل التاريخ ومروراً بحقب فجر التاريخ وانتهاء بالمراحل الأخيرة التي سبقت بزوغ نور الإسلام فإن هذا المجلد الذي يصدر تحت عنوان ( الإسلام وبناء الدولة العربية ) يتابع أحداث أزهى حلقة من حلقات التاريخ العربي – إن لم تكن أزهى حلقة من حلقات التاريخ الإنساني – فيستجلي التفاصيل ، ويتابع التطورات مؤسساً لذلك كله بالبحث في الخلفيات البكر التي قامت عليها منطلقات الدعوة الإسلامية السمحة أولاً ، فيتأمل في الفصل الأول منه الأرضية التي شاء الله سبحانه أن يجعلها مهاد رسالته ومهبط وحيه على خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله ﷺ وهكذا كانت ( مكة ) محور الفصل الأول الذي تقاسمته ثلاثة مباحث عني أولها بدراسة البنية التاريخية والاجتماعية والدينية ، وكان عنوانه ( مكة النشأة والتاريخ ) على حين أتجه المبحث الثاني إلى شيئ من التخصص بالجانب الديني فدرس ( الكعبة والحنيفية والوثنية ) أما المبحث الثالث فقد تخصص بالجانب الاجتماعي وظواهره، فدرس المجتمع المكي واللغة العربية تحت عنوان (المجتمع واللغة ) .

وهكذا استجلى الفصل الأول ملامح الأرضية التي بزغ فيها نور الإسلام ومهد للفصل الثاني الذي استجلى تفاصيل السيرة النبوية المطهرة متابعاً مولد الرسول ﷺونشأته ثم نزول الوحي عليه ، ودعوته أبناء قومه في مكة وما حولها إلى الإسلام وإعراضهم عن الاستجابة ولجوءهم إلى مجابهته ومجابهة من آمن معه بألوان الأذى والاضطهاد إلى أن اضطر هو والمؤمنون الأوائل إلى الهجرة إلى المدينة المنورة حيث أرسى الأسس الأولى للدولة الإسلامية ورصّن قواعدها ، ثم تناول الفصل جهاد المؤمنين في الغزوات والسرايا والوقائع التي انتهت أخيراً بفتح مكة وتبلور الملامح البكر للمجتمع الإسلامي الجديد القائم على التوحيد والعدل والمساواة .

أما الفصل الثالث فقد تابع مرحلة الخلافة الراشدة فتناول نشأة الخلافة بعد انتقال الرسول ﷺ إلى جوار ربه ، ثم تابع بالدراسة جهود الخليفة الراشد الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنهفي قمع الردة ثم اتجاه الخليفتين الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه والثالث عثمان بن عفان رضي الله عنهإلى نشر الدين الإسلامي خارج الجزيرة العربية عن طريق الفتوح التي امتدت

شمالاً وشرقاً وغرباً ، ثم ما تمخض عنه الواقع الجديد من أمور تنظيمية كان على رأسها جمع الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان ﷺ ما تفرق من آيات دستور الأمة – القرآن الكريم – وتوحيدها بين دفتي مصحف موحد لا يؤخذ بسواه . ثم تناول الفصل أخيراً أزمة الخلافة التي أفرزها استشهاد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ﷺ في الفتنة ثم وقوع الصراع بين الخليفة الرابع علي بن أبي طالب ﷺ ومناوئيه الزبيريين والأمويين وانتهاء هذا الصراع باستشهاد الخليفة الراشد الرابع علي بن أبي طالب ﷺ وانتقال الخلافة إلى بلاد الشام التي غدت مقر الدولة الأموية الجديدة .

وقد أفرد الفصل الرابع من المجلد لمتابعة المراحل السياسية للدولة الأموية ونشاطها في مجال استكمال الفتوحات في الشرق والغرب وتنظيمها لمؤسساتها لاسيما البريد والطرق والجيش والأسطول.

وفي إطار الفصل الخامس دارت الأبحاث حول التحولات السياسية والاجتماعية والاقتصادية في ظل الدولة الأموية، فتناولت الدعوات السياسية التي شهدها العصر الأموي وطبيعة العلاقات الخارجية ثم علاقة الشام بالحجاز وختم الفصل بدراستين تناولت إحداهما الزراعة والتجارة وتناولت الأخرى الحرف والصناعات .

وكما ختم المجلد الأول بفصل دارت بحوثه حول المظاهر الحضارية للعرب قبل الإسلام ختم هذا المجلد بفصل تناولت بحوثه المظاهر الحضارية في ظل الدولة الأموية فتناول أولها الفنون والعمارة وتناول الآخر المربد والشعر والغناء ثم تناول الأخير تمصير الأمصار في آفاق الدولة الشرقية والغربية التي شاء الله سبحانه أن ينير أديمها بنور الإسلام .

وإذ تبدو مادة المجلد برمته معنية بتصوير ملامح المرحلة المبكرة من مسيرة الحضارة العربية الإسلامية فإنها ستكون مفتاح مادة المجلد الثالث الذي ستعنى فصوله وبحوثه باستجلاء الأوج والازدهار في ظل الدولة العباسية التي قطعت الحضارة العربية الإسلامية على مدى تاريخها أشواطاً على صعد العلوم والفنون والآداب ، حتى أرست المثال الأسمى للحضارة التي يمتزج في عطائها إبداع الإنجاز العلمي وسمو الروح الأخلاقي والإنساني النبيل.

**المشرف العام: الأستاذ الدكتور المنجي بو سنينة**
**المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم**

**المشاركون في التأليف (وفق ترتيب الأبحاث)**


1- أ.د. عواطف أديب سلامة (السعودية)
جامعة الملك سعود

2- أ.د. خالد العسلي (يرحمه الله) (العراق)
جامعة بغداد

3- هاشم يحيى الملاح (العراق)
جامعة الموصل

4- أ.د. عبد العزيز الهلابي (السعودية)
جامعة الملك سعود

5- أ.د. غيداء خزنة الكاتبي (الأردن)
الجامعة الأردنية

6- أ.د. أحمد مختار العبادي (مصر)
جامعة الإسكندرية

7- أ.د. راضي دغفوس (تونس)
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - تونس

8- أ. د. غانم قدوري الحمد (العراق)
رئيس جامعة تكريت

9- أ.د. عبد الامير دكسن (العراق)
جامعة بغداد

10- أ.د. نجدة خماش (سوّريا)
جامعة دمشق

11- أ. د. نافع توفيق عبود (العراق)
جامعة بغداد

12- أ.د. إدريس صالح الحرير (ليبيا)
جامعة قاريونس

13- أ.دعبد الواحد ذنون طه (العراق)
جامعة الموصل

14- أ. د. محمود عبد العزيز سالم (مصر)
جامعة عين شمس

15- أ. د. ابراهيم بيضون (لبنان)
جامعة بيروت

16- أ.د. امينة محمد بيطار (سورية)
جامعة الملك سعود

17- أ.د. عبد الله العسكر(السعودية)
جامعة الملك سعود

18- أ.د. صالح احمد العلي (العراق)
جامعة بغداد (يرحمه الله)

19- أ.د. غازي رجب (العراق)
جامعة بغداد

20- أ.د. مشلح بن كميخ المريخي (السعودية)
جامعة الملك سعود

21- أ.د. طه عمران الوادي (مصر)
جامعة القاهرة

22- أ. د. أيهم عباس القيسي (العراق)
جامعة بغداد

**المراجعة العلمية** : الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري

الأستاذ الدكتور يوسف محمد عبد الله

الأستاذ الدكتور بهجة كامل عبد اللطيف

**التحرير النهائي** : الأستاذ الدكتور بهجة كامل عبد اللطيف

**المدير التنفيذي** : الأستاذ وجدي محمود

الأمين العام للمجلس التنفيذي والمؤتمر العام

الفصل الأول

# مـــــكة المكرمة

أولاً : سكانها ، اقتصادها ، دار الندوة ، علاقتها .

ثانياً : الكعبة ، الحنيفية ، الوثنية .

ثالثاً : المجتمع واللغة .

# مـــكة المكرمة

## النشأة والتاريخ :

### الموقع والتضاريس :

قال تعالى :﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [ سورة ابراهيم ، الآية : 37 ] هكـذا عـرف القرآن الكريم وادي مكة على لسـان النبي إبراهيم الخليل عليه السلام.

ووادي مكة المذكور في الآية الكريمة هو وادٍ ضيق يقع بين سلسلة جبال السروات في منطقة الحجاز في غرب شبة الجزيرة العربية

ومنطقة مكة جزء من منطقة الـدرع العربي Arabian Shield . وهي منطقـة ذات صخور شديدة الانحدار من نوع صخور الإنديست والجرانيت . وتقـع في منتصـف الطريق التجاري (درب البخور) بين الـيمن وبلاد الشام . ويرتفع وادي مكة ( ويسـمى وادي الأبطح ، ووادي إبراهيم ) ، عن سطح البحر بحوالي 909 اقـدام أي مـا يعـادل 277متراً . ويبعد الوادي عن سـاحل بحـر القلزم ( البحر الأحمر ) بحوالي 75كم . وتقع إلى الغرب من مكة مدينة جدة التي أصـبحت ميناء مكة منذ بداية العصر الإسلامي بعد أن كانت " الشعيبة " ميناء مكة القـديم وتقـع يثرب " المدينة المنورة إلى الشمال من مكة ". [الهمداني "1394هـ" 368 ]

يبلغ طول وادي مكة من الشمال إلى الجنوب حوالي ميلين ، ومتوسط عرضه حوالي ميل واحد . ويسمى الوادي المبارك وهو بطن مكة ، مساحته تقدر بحـوالي 10 أميـال مربعة ممتدآ بين جبال شاهقة تحيط بمكة نعرفها فيما يأتي باختصار لأهميتها .

الأخشاب أو الأخاشب : جبلا مكة الشهيران ، وقد يسميان الجبجبان أو الجباجب وأولها جبل " أبي قبيس " وهو الأخشب الشرقي ، يشرف على الصفا بين أجياد الصغير إلى السويداء والخندمة يبلغ ارتفاعه حوالي 1220 قدماً أي 372متراً ويعرف لدى العامة باسم " جبل قبيس " . ويعد أبو قبيس الجبل الأعظم والمبارك لوجود قبر آدم عليه السلام فيه ( كما يقول الرواة ) . ويسمى الجزء الذي يلي أجياد الصغير " رأس الإنسان" والجزء الآخر " فاضح " الذي يقابل المسجد الحرام ، وكان يتعبد فيه . [ الازرقي " 1979" 50/1 ]

وثاني الأخشبين جبـل قعيقعـان . (بلفظ التصغير ) . وهو الأخشب الغربي مـن جبل مكة ويسمى الجزء الذي يواجه جبـل قبيس " الأحمر " وسمي في الجاهلية الأعرف ، ويبلغ ارتفاع قعيقعان حوالي 1410 اقدام أي

427متراً . وتعزى تسميته إلى قعقعة السلاح في حرب جرهم وخزاعة . وكانت جرهم تتخذ الجبل مستودعاً لأسلحتها من القسي والجعاب والورق .

جبلا الصفا والمروة : من أهم جبال مكة . وهما نتوءان في البطحاء أو " وادي الأبطح " بينهما وبين المسجد الحرام ( الكعبة) والصفا أنف بارز من جبل أبي قبيس . والمروة أنف آخر من جبل قعيقعان . جباهما ملساء يمتد بينها المشعر الحرام " المسعى " ويسميان الميلان الأخضران قال تعالى ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾. [سورة البقرة ، الآية : 158 ]

جبل أجياد : يبلغ ارتفاعة ( 1332) قدماً أي 406 أمتار . وهو جبل خندمة المشرف على أجياد الصغير، والشعب أسفله حي كبير من أحياء مكة ويلحق " شعب ابن عامر " بظهر جبل قبيس ثم "جبل الفلق" يصعد إليه من " حي القرارة " ثم " جبل الكعبة " . وهما من منازل أهل مكة الآهلة بالسكان حالياً كغيرها من سائر الجبال التي تحد الوادي من جانبيه وتشرف عليه . [الازرقي "1979" 268/2-269 ]

جبل أبي دلامة : مشرف على منطقة الحجون ويعرف لدى العامة باسم " ريع الحجون " فتقلب " النون" إلى " لام " وهو جزء من ثنية جبل كدا . [ الحموي "1979" 459/2 ]

أما الجبال القريبة من مكة وتقع خارجها فأهمها : جبل ثبير وجبل ثور وجبل حراء وجبل النور وجبل الرحمة فضلاً عن جبال آخرى .

## المناخ:

يتسم مناخ مكة بأنه حار جاف صيفاً دافئ شتاءً ، لان مكة تقع في المنطقة المدارية " بين مدار السرطان وخط الاستواء " وقد سبقت الاشارة إلى ان القرآن الكريم وصف موقعها بأنه " بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ " [سورة ابراهيم ، الآية: 37 ] وعلى الرغم من الجفاف وقلة الأمطار فإن مكة ظلت تتعرض لفيضانات تحدثها سيول موسمية تهدد الوادي وأهله ، وثمة إشارات إلى ان هذه السيول كانت تحدث منذ عهد قبيلة جرهم وخزاعة وهي ما زالت تتكرر في العصر الحديث وتواجه مكة مشكلة نقص المياه التي عوضت عنها بالمياه الجوفية وقد حفرت آبار كثيرة بعد أن تفجرت " بئر زمزم " لإنقاذ حياة النبي إسماعيل عليه السلام وأمه السيدة هاجر .

عقب هذا الحدث العظيم بدأت الحياة في الوادي وأقبلت الأقوام على سكناه . وحفروا الآبار ومنها بئر العجول ، وبئر طوى، وبئر سجلة ، وبئر خم ، وبئر رم ، وبئر السنبلة .

وأثرت الظروف المناخية والبيئية الجافة في نشاط السكان ، مما أدى إلى إتجاههم إلى العمل في التجارة بالاعتماد على العلاقات المكانية ، وتوسط مكة بين مناطق استهلاك وإنتاج مختلفة في جنوب بلاد العرب وبلاد الشام وغيرهما من مراكز الحضارة في الشمال والشرق والغرب .

## ظهور مكة :

شهدت بلاد العرب (الجزيرة العربية ) إستيطانا بشرياً باكراً . بدأ منذ عصور ما قبل التاريخ بمراحلها المتتالية – ( من العصر الحجري القديم والوسيط ثم العصر الحجري الحديث – ) . وظل مستمراً إلى العصر التاريخي ، الذي حدد المؤرخون بدايته في بلاد العرب حوالي 1200ق.م . فقد عاش الإنسان وترك لنا بعض آثار حضارة عصره ، بدليل العثور على مستوطنات حجرية ، تزخر بأدوات حجرية أيضاً ، صنعها هذا الإنسان لاستعمالاته اليومية . فقد عثر على حوالي عشرين موقعاً من العصر الحجري القديم في غرب بلاد العرب ( الحجاز ) .ويقع أحد هذه المواقع إلى الجنوب من مكة ؛ على بعد 8كيلومترات فقط .ثم اكتشفت بعد ذلك حوالي عشرة مواقع حجرية أخرى ، قريبة من مكة ، فضلاً عن مواقع أخرى في ضواحي مدينة الطائف .

ويذكر د. مؤنس تواريخ سحيقة عن الاستيطان في شمال ووسط الجزيرة العربية على التحديد. فيرى أن العرب البائدة ظهرت في وسط وشمال الجزيرة منذ حوالي 50000 – 35000 سنة قبل عصرنا الحاضر . ["1988" 23 ] ولو تم استكمال البحث الأثري واستقراء اللقى الأثرية لأمكن تحديد الزمن الذي ظهرت فيه مكة إلى الوجود .

أما التدوين التاريخي عن مكة فهو نادر قديماً ، فقد اقتصر على ما ذكره بعض الكتاب الكلاسيكيين مثل بطليموس Ptolemy عندما أشار إلى مكة بصيغة Macoraba . ومكورابا (مكربة ) كلمة آرامية معناها (مكة الكبرى) أو بيت الرب (مك – رب ) أو تحريف يوناني للكلمة العربيه مقرب أو مقربة (مكربة ). والمكرب و ( المقرب ) لقب ديني سياسي في عهد مملكة سبأ من الألف الأول ق.م . في جنوب بلاد العرب . وقيل إن مكة أو مكا اسم بابلي يعني (البيت ) وأصبح نعتاً أو وصفاً للبيت حتى صار علما عليه .

بدأ التدوين عن مكة بغزارة في العهد الإسلامي إذ استكثر من ذكرها المؤرخون المسلمون ونقلوا روايات الإخباريين العرب عن تاريخها القديم .

ذكرها القرآن الكريم باسم مكه وبكة قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ..." . [ سورة الفتح ، الآية : 24 ] وقال تعالى " إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ(96)فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ

إِبْرَاهِيمَ...﴾ . [سورة آل عمران ، الآيـة : 96، 97 ]

ولا فرق بين الصيغتين مكة وبكة لأن العرب تقلب الميم باءً في بعض لهجاتها . وقيل إنما علمان أحدهما علم على بطن الوادي " وادي الأبطح " " ذي طوى " والآخـر لمـا حوله . وأشار القرآن إلى مكة بأسماء مختلفـة قال تعالى : " لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَـدِ " [ سـورة البلد , الآية :1 ] وقـال تعـالى ﴿ وَالـتِّينِ وَالزَّيْتُونِ(1)وَطُورِ سِـينِينَ(2)وَهَـذَا الْبَلَـدِ الْأَمِينِ" [ سورة التين ، الأيات : 1-3 ] قـال " وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَـا﴾[ سـورة الشـورى ، الآية:7]

ومكة هي أم القرى وهي ( معاد) قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَـرَادُّكَ إِلَـى مَعَادٍ﴾. [ سورة القصص ، الآية :85 ]

تعددت أسماء مكة وصفاقما ، وتزخر معاجم اللغة باشـتقاقات اسمهـا ومعانيـه . ونذكر بعضها وهي : البلد العتيق ، والبيـت الحرام ء وبيت الله والمسجد الحرام ، والبلـد الحرام ، وأم رحم وصلاح لأمنها وسلامها ، والباسة ، والناسة ، والحـاطم وكـوثي ، وسيل، والمعطشـة ، والعـروض ، وفـاران والناشة ، والرتاج ، وأم صبح ، وقرية النمـل ،و قرية الحمس ، ونقرة الغراب ، ومنونـة ، وسبوحة والسلام ، والعذراء ، ونادرة وهي الوادي ، والرأس ، وأم روح ، والمقدسـة ، والعرش ، وبساق ، وبـرة ، وأم الـرحمن ، والمكتان ، والحطـيم . [ الازرقـي "1979" 282-279/2 ]

وقد تطلق أسماء أخرى على مكـة وعلـى الكعبة أيضاً .

أصبحت مكة ذات شهرة منذ هجرة النبي إبراهيم الخليل عليه السلام ومعه زوجه السيدة هاجر وإبنهما إسماعيل عليه السلام. ثم لكونها محطة على درب القوافل التجارية بين جنوب بـلاد العرب وبلاد الشام . ثم لظهور الإسلام على يد نبي الرحمة محمد ﷺ في مكـة المكرمـة. وتحددت حـدود أرض الحـرم بعلامـات (أعلام) فأصبح في العرف كل ما بين الأعلام حرماً أي أنه ارض محرمة ومقدسة منذ بنـاء النبي إبراهيم عليه السلام للكعبة المعظمة وهو مـا أقره الرسول محمد ﷺ .

## سكانهـــا :

استقرت السيدة هاجر وابنها الـنبي إسماعيل عليه السلام في وادي مكة منذ أن أتى بهما النبي إبراهيم عليه السلام . و لم يكن وادي مكـة مهجوراً أو خالياً من السكان إبان هجرة النبي إبراهيم وآله معه .إذ تذكر الروايات العماليق وجرهم القبيلة القحطانيـة اليمنيـة .وتفيـد الأخبار أن جرهم مرت بمرحلتين خلال مـدة استقرارها في مكة ولذلك ذكـروا جـرهم الأولى وجرهم الثانية منذ نهاية القرن الثـاني حوالي 180م . كما تذكر الأخبار العماليق مع جرهم في مكة ، وأنهم كانوا شعبا كبيرا ،

انتشر في شمال غرب بلاد العرب . وذكرت التوراة اتحاد العماليق مع أهل مدين في حربهم ضد بني إسرائيل . ويذكر أن العماليق هم من سكان منطقة الحجاز . وكان لهم ملك ، حكم في مكة ويثرب . وسمى المسعودي أحد ملوك العماليق باسم السميدع بن هوبر بن حدر بن مازن ، وكان مستقراً في جبل قعيقعان . ويحكم إلى جانبه ملك جرهمي ، وكانا يعشران كل من دخل مكة.["1965" 49/2 ] وثمة رواية ثانية تجعل نابت بن إسماعيل بن إ براهيم أول من حكم في مكة ، أي أنه أول من تولى أمر البيت من نسل إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام . [الطبري"د.ت" 130/1 ]

وهذا الموضوع من أهم عناصر مسألة غموض تاريخ مكة القديم . أما متى هاجر النبي إبراهيم عليه السلام وجاء بأهله إلى مكة وكم لبث مع (هاجر وإسماعيل عليه السلام ؟ ومتى رحل عنهما ؟ ومتى عاد إليهما في مكة ؟ ومتى قام ببناء الكعبة " البيت المعظم " ؟ فهذه مسائل أخرى تحتاج إلى مزيد من التمحيص ، على الرغم من أن بعض الدارسين للتاريخ قدموا اجتهادات مختلفة لتحديد بعض تلك الأحداث، ومنها الحدث العظيم أي ظهور النبي إبراهيم بين القرنين التاسع عشر والثامن عشر حوالي ( 1850-1700ق.م)

ويبدو أن وجود جرهم وسيطرتها على الوادي وحكمها في مكة من الأمور التاريخية التي ما تزال تحتاج إلى تمحيص وسواء كان سكناها قبل هجرة النبي إبراهيم عليه السلام وتفجر ماء زمزم أم بعده فهو من أحداث تاريخ مكة . وقد يرى بعض الرواة أن ظهور ماء زمزم جعل جرهم تقيم في المكان . ولكن من الأرجح أن وجود جرهم في المنطقة وأن ظهور ماء زمزم جعلها تقترب من الوادي بدليل أن النبي إسماعيل عليه السلام نشأ بينهم .

فقد هاجر النبي إبراهيم عليه السلام بأهله وأسكنهم في الوادي ثم رحل عنهم . ونفدت من السيدة هاجر مؤونتها من الماء فأخذت تبحث عنه سعياً في المنطقة حتى أنقذهما الله هي وابنها وتفجر الماء المبارك زمزم تحت قدمي إسماعيل عليه السلام. وشب إسماعيل بين جرهم وأصهر إليهم فتزوج إمرأة جرهمية تسمى ( وعلة ) أو رعلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي ، . وأنجب منها أثني عشر ابنا.

أمر الله نبيه إبراهيم الخليل عليه السلام ببناء البيت العتيق " الكعبة المعظمة " وبوأ له مكان البيت قال تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(26)وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [ سورة الحج، الآيتان : 26-27 ]

وبنى النبي إبراهيم عليه السلام البيت "الكعبة المعظمة "، وساعده ابنه إسماعيل عليه السلام في البناء ورفع الأحجار فقد يفع

إسماعيل وكان عوناً لوالده قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [سورة البقرة ، الآية: 127 ]

لقد نزلت أكثر هذه الأوامر في سورة الحج ومن آياتها المذكورة نستلخص ما جاء فيها :

أولاً : تحديد مكان الكعبة في مكة بجوار بئر زمزم .

ثانياً : الأمر بتوحيد الله .

ثالثاً " تطهير البيت وإعداده لممارسة العبادات الآتية طواف – قيام – ركوع وسجود .

رابعاً : الأمر بمناداة الناس إلى الحج .

وقد نفذ النبي إبراهيم الأمر واعتلى المقام ( الصخرة ) مقام إبراهيم ، لإتمام البناء وكان يناوله ابنه إسماعيل أحجاراً رمادية اللون مهيأة من جبال مكة . حتى أنجز بناء الكعبة المعظمةً

**بئر زمزم** : تفجر هذا الينبوع المبارك ماء زمزم تلبية لحاجة إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر للماء . وتقع بئر زمزم داخل الحرم (بين الفرث والدم عند نقرة الغراب في قرية النمل مستقبلة الأنصاب الحمر) . [ الأزرقي "1979" 44/2 ]

وتتكون زمزم من ثلاث عيون الأولى بحذاء الركن الأسود ، والثانية بحذاء أبي قبيس والصفا ، والأخيرة بحذاء المروة . ومياهها غزيرة ذات طعم يختلف عن سواها من المياه . وماؤها مبارك يفضل حتى على المياه المعدنية وهي لما تشرب له . وذرع زمزم 60 ذراعاً ويبلغ عمق البئر إحدى عشرة قامة ، وارتفاع منسوب الماء فيها سبع قامات .

وقد طمرت جرهم زمزمَ على خيراتها وثروات الكعبة عندما حاربتها خزاعة وأخرجتها من مكة . فظلت زمزم مطمورة طوال عهد خزاعة وفي عهد قريش قام عبد المطلب بن هاشم بإعادة مائها وحفرها واستخرج ثروات الكعبة الدفينة وهي غزالان وسيوف ذهب أهداها ساسان أوسابور ملك الفرس إلى الكعبة .

**الكعبة المعظمة** :بنيت الكعبة على شكل مكعب ارتفاعه قامة ( حوالي 9 اذرع ), غير مسقوف . ويشرع مدخله إلى جهة الشرق وليس عليه باب والكعبة ذات اركان أربعة منسوبة إلى الجهات المتجهة إليها. (التفاصيل مكة , الكعبة , الحنيفية , الوثنية )

و الكعبة أول بيت مقدس وضع للناس في مكة ويحتوي على مقدسات أخرى مثل الحجر الأسود والحطيم . والملتزم ويقابل الكعبة مقدسات أخرى وهي " مقام إبراهيم " الذي أتخذ مصلى , وحجر إسماعيل , والبئر المباركة زمزم وكان تفجر الماء المبارك من أهم عناصر الحياة ومقوماتها في الوادي المقدس واكتملت القداسة ببناء البيت المعظم مما أدى إلى كثافة سكانية أكثر من ذي قبل .

وكما جذبت مياه زمزم القبائل وحثتها على الاستقرار حول الوادي نتوقع أيضاً أن الكعبة ، والحج كان لهما تأثير ديني وسياسي واقتصادي في مكة . ونتوقع تغير الأوضاع السياسية بعد هذه الأحداث المهمة . فلابد أن أتباع دين إبراهيم عليه السلام اتجهوا إلى مكة كمركز أو مقر ديني . كما أن الأذان بالحج أتى بالكثير إلى مكة لتأدية الحج في مواسمه المتوالية . كما أن النبي إسماعيل عليه السلام واصل الدعوة لمساعدة أبيه أولا ثم بعد ذلك بوصفه نبياً أيضاً قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ . [ سورة مريم,الآية :54 ]

وكان إسماعيل عليه السلام مستقراً في مكة ، ويبدو أنه حقق مكانة دينة وسياسية له ولبنيه من بعده ومعهم أصهاره ء وأخوال بنيه أي قبيلة جرهم ومن المقبول قيام ابنه " نابت بن إسماعيل" بالحكم ، وكذلك نقدر أن قيدار بن إسماعيل كان له وجود سياسي في المنطقة أيضاً .

وأثناء الحرب التي دارت بن قبيلتي جرهم وخزاعة ، لزم النبي إسماعيل عليه السلام وأبناؤه الحياد ؛ لذلك تقول المصادر إن خزاعه بعد أن غلبت جرهم وأخرجتها من مكة سمحت لإسماعيل عليه السلام بالبقاء والعيش في مكة لحياده وعدم تورطه في الحرب ولربما لمكانته الدينية .

أما الرأي الآخر فيرى أن دخول خزاعة إلى مكة أدى إلى خروج بني إسماعيل من مكة ، وانتشارهم حولها وفي تهامة . بل وصلت هجره بعض بني إسماعيل إلى شمال بلاد العرب ، وكل ذلك محتمل وجائز أن إسماعيل عليه السلام بقي في مكة ومعه بعض بنيه ، وهاجر الآخرون من أبنائه إلى جهات مختلفة .

دخلت خزاعه مكة في القرن الثالث الميلادي (حوالي 207م) ، وظلت تحكم إلى مجيء قريش حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي، ويرى بعض المؤرخين أن خزاعة حكمت حوالي 500 سنة ، ويبدو أنها مبالغة لأن الروايات تذكر خروج خزاعة من اليمن وهجرتها إلى مكة بسبب الاضطرابات السياسية والحروب ، وتصدع سد مأرب ، وحدوث سيل العرم ، والصراع الديني . ومن الأرجح أن ذلك كان في القرن الثالث الميلادي وليس قبل ذلك . المهم أن خزاعة صار لها حكم في مكة وكان زعيمها "عمرو ابن لحي الخزاعي" فأخذ يهتم بشؤون مكة السياسية والاقتصادية والدينية بعد تدهور أحوال مكة نظراً لبغي قبيلة جرهم واعتدائها على القوافل التجارية وعدم سلامة الحجاج ، وخوف الناس على الأرواح والأموال وعدم الشعور بالأمان . فأخذ عمرو بن لحي يعمل على تشجيع الحجاج والتجار ، وقام بدور اجتماعي وديني ، واهتم بنشر الأمن وإقامة موائد الطعام ، وجلب المياه من الآبار ثم جلب

أصناماً من جهات مختلفة من شمال بلاد العرب وأقام هذه الأصنام حول الكعبة حتى يرغب أبناء قبائل الشمال وغيرهم ممن كانوا يجهلون دعوة إبراهيم (عليه السلام)، ودينه الحنيف في الحج إلى مكة والقدوم إليها للحج والتجارة ، ونال عمرو بن لحي مترلة كبيرة بين قومه وغيرهم من قبائل بلاد العرب . ويبدو أن أمر "دين الحنيفية " ضعف نتيجة سوء الأحوال الاقتصادية والفوضى السياسية والحرب . حتى إن بني إسماعيل توانوا عن تأدية دورهم أو أبعدهم الخزاعيون . وقد لامهم على ذلك " إلياس بن مضر " الذي كان على قدر من الفضل والشرف .

تولى الخزاعيون سدانة " البيت العتيق " وتعشير التجارة المارة بمكة ، واعترفوا لبعض البطون المنتسبة إلى النبي إسماعيل (عليه السلام) من بني كنانة بتولي بعض وظائف الحج وخدمة الحجاج ؛ لأن هذه البقية من بني إسماعيل رفضت الخروج من مكة .

### قريش ومجتمعها :

تتحقق مقولة إن تاريخ مكة يبدأ مع قصي بن كلاب "مجمع قريش" وزعيمها . وذلك بسبب أن كل ما سبق ذكره لم يكن مدونا و لم تذكره وثيقة واحدة تثبته أو تنفيه ، ماعدا قصة النبي إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) ؛ فقد ذكرها القرآن الكريم وأثبتها . ويختلف الأمر مع قبيلة قريش وقصي حيث جاء اسم " قريش " منقوشاً في نص جنوبي قديم من عهد الملك الحضرمي "العز بن العزيلط " الذي حكم في نهايه عصر ما قبل الميلاد أو في بداية العصر الميلادي .

ويفيدنا هذا النقش أن وفوداً من الآراميين والتدمريين ومن الهنود ومعهم عشر نساء قرشيات رافقوا هذا الملك في زيارة إلى " حصن أنود" ، ومعهم كاتب يدعى " حبسل قرش " . لكن قريش لم تذكر لدى الكتاب الكلاسيكيين من يونان ورومان ، وما ذكرها أحد من قدماء السريان . وقد عاشت قبيلة قريش حول وادي مكة وانتشرت في المنطقة. ويقول اليعقوبي إن النضر بن كنانة أول من سمي " قريش " . [ "1960" 1/232-233 ]

وكتب كل المؤرخين المسلمين الذين أرخوا الإسلام وظهوره عن هذه القبيلة ، ووضحوا لنا تاريخ قريش وظهورها في مكة .

ويبدو أن "كلاب بن مرة " شرف على قدره في مكة لأنه اجتمع له شرف الأب والجد من قبل الأم وهو من البقية التي لزمت مكة ، وما زالت تتولى وظائف الحج . وكانوا يسمون "النسأة " يحرمون الأشهر الحرم ويحللونها ويجيزون بالحج ويسمون "القلامس".

ويؤكد اليعقوبي أن قريش لم تفارق الحرم ، و لم تغادر مكة ؛ إلاّ أنهم تكاثروا فضاق بهم الوادي وعانوا من شح المياه وقلتها فتفرقوا في شعاب مكة . [ "1960"1/237 ]

أنجب كلاب بن مره ابنه "قصياً" من زوجه فاطمة بنت سد بن سيل الأزدي . وبعد أن توفي كلاب تزوجت أم قصي من ربيعه بن حرام العذري ، وانتقلت مع زوجها مصطحبة ابنها قصياً (اسمه زيد )معها إلى ديار قضاعة وعاش هناك إلى أن أحس قصي بالرغبة في معرفة أهله ؛ فخرج مع حجاج قضاعه في الشهر الحرام قاصداً مكة .

ثم بدأ قصي صراعه ضد خزاعة ، وبمساعدة أخيه من أمه " دراج بن ربيعة العذري " مع نفر من قضاعةاستعاد إرث أجداده ، نزولاً على حكم "يعمر بن عوف بن كعب " من بني كنانة "الشداخ " أي الذي شدخ الدماء وحكم لصالح قصي . ثم بزواج قصي من المرأة الخزاعية " حبى بنت حليل بن حبشية " تحقق أمله . ففد قيل أن حليلاً أوصى بولاية البيت لصهره قصي ، وقيل أن قصياً اشتراها ، وقيل إنه انتزعها وعلى الرغم من معارضة خزاعة . دخل قصي ومعه قومه قبيلة قريش وادي مكة في القرن الخامس الميلادي حوالي ( 440م ).

و لم يكن في مكة دور مبنية أو بيوت سوى البيت العتيق "الكعبة المعظمة " ، وذلك إعظاماً لقداسة الحرم ؛ فقد عاش العرب خارج حدود الوادي ، وقرر قصي نزول الوادي والسكن فيه فجمع قريشاً وأدخلهم إلى أرض الحرم ، وثبتت قريش في مقرها و لم تخرج منه قط . وأثبت قصي بعمله أنه من دهاة العرب ، وقسم قومه واختط لهم مكة رباعاً ، وبنوا بيوتهم حول الكعبة ، واتخذ قصى لنفسه داراً بجوار الكعبة .

عرفت دار قصي باسم "دار الندوة " ، وسكن القرشيون بطن الوادي (أبطح مكة ) ؛ ولذلك سميت قريش باسم " قريش البطاح " وبنو قصي بن كلاب هم : بنو عبد مناف بن قصي وبنو عبد العزى بن قصي وبنو عبد الدار بن قصي وبنو عبد قصي بن قصي . أما سائر بني كعب بن لؤي فهم بنو زهرة وبنو تيم وبنو مخزوم وبنو عدي وبنو أسد وبنو جمح وبنو سهم وبنو عامر بن لؤي ودخل معهم بنو هلال بن ضبة رهط أبي عبيدة عامر ابن الجراح . وهؤلاء الأبطحيون هم أرستقراطية قريش .

أما القسم الثاني من قريش فسكنوا ظاهر مكة وضواحيها ؛ ولذا سموا " قريش الظواهر " . ومن بطونها بنو محارب والحارث ابن فهر وبنو الأدرم بن غالب وبنو معيص بن عامر .

وكانت قريش الظواهر تقوم بحماية نفسها ، وحماية قريش البطاح . وقد تغير قريش الظواهر أو تغزو، وكان سيدهم الخطاب بن مرداس ويفرض عليهم "المرباع " وشارك في حروب الفجار وتعد قريش الظواهر أعراب مكة وباديتها .

ومنذ أن استقرت قبيلة قريش في مكة عرفت بها حتى سميت " قريش مكة " و"أهل

البيت " و" أهل الحرم " و" أهل الله " ، وسميت " قريش البواطن " و" العصب " و"قريش الضب " لأنها لزمت مكة .

وتذكر المصادر أن تاريخ مكة يبدأ مع هذا الحدث أو هذه النقلة التاريخية بدخول قريش واستقرارها فيها . فأصبح الاستقرار دائماً ومنتظماً . وانتظمت أيضاً أمور الحكم وشؤون الاقتصاد ، وكذلك الطقوس الدينية وسدانة البيت ومواسم الحج ؛ حتى أصبح القرشيون زعماء مكة بل منطقة الحجاز بأكملها ؛ إن لم يمتد نفوذ قريش الديني والاقتصادي والأدبي إلى بلاد العرب كلها (الجزيرة العربية ) في نهاية القرن السادس الميلادي .

وقد ذكرنا كيفية نشوء مكة ؛ وأن مكانتها الدينية بل الاقتصادية أيضاً ظهرت منذ تفجر ماء زمزم وبناء الكعبة ، وتؤكد روايات الاخباريين والرواة مسألة الاستقرار حول وادي مكة وتجارتها وحضارتها ذلك لأن الاستقرار من أهم عوامل التطور الحضاري وهذا لا ينفي أن حياة الترحال والبداوة أسلوب حياة مختلف ولكنها حياة ذات حضارة أو ثقافة متفردة ومختلفة عن حياة المدن أو الحياة المدنية وكلاهما نمط طبيعي للحياة يقتضيه نمط العيش الدائم في المدينة باستقراره ، أو في البادية بترحاله . [ الزبيري "1976" 135/2 ]

إنما ميزة قريش في مكة أنها دخلت الوادي نفسه وسكنته وانتظم المجتمع المكي في طبقاته الاجتماعية المتمايزة التي هي :

1- قريش البطاح : بعشائرها وبطونها وتشكل الكثافة السكانية الأولى عدداً ومكانة.

2- قبيلتا خزاعة وكنانة وغيرهما .

3- مجموعات من حلفاء وموالٍ .

4- الرقيق ( عبيد وإماء) .

وقد قام قصي بتنظيم أوضاعه الداخلية ونظم وظائف الحج المختلفة التي تولاها القرشيون أنفسهم . تولوا كل المناصب من سدانة وحجابة ثم ابتدعوا وظائف جديدة مثل السقاية والرفادة . وبدأ قصي يسترضي الحجاج والعرب أيضاً ، وانتظم القرشيون في التجارة بل واصلوا مسيرتهم فيها حتى برعوا في عقد الصفقات التجارية وأصبحوا من أكابر تجار العرب وأسهمت المرأة القرشية في بناء مجتمعها وخدمته ، ومارست أعمالاً مختلفة وأهمها التجارة .

وأهم أعمال قصي تجديده بناء الكعبة وقيامه ببناء سقف لها .

وتولى قصي تنظيم شؤون مكة الداخلية في عهد قريش حتى اكتملت الوظائف التي نستطيع أن نصنفها إلى مجموعتين :

**أولا** : وظائف دينية وهي :

1- **السقاية** : سقاية الحجاج أي توفير المياه للحجاج في مكة وفي عرفات ومنى ، واعتاد القرشيون ان ينبذوا الزبيب في الماء لتحليته .

تولاها العباس من البطن الهاشمي وبقيت له في الإسلام .

2- **الرفادة** : تقديم الطعام للحجاج في أيام الحج وقد فرض قصي على قريش "خرجاً" من أموالهم يدفعونه إليه لصنع طعام الرفادة . وآخر من تولاها الحارث بن عامر من بطن نوفل .

3- **سدانة البيت وحجابته** : أي خدمة البيت العتيق وقفله وفتحه . وآخر من تولاها عثمان بن طلحة من بني عبد الدار .

**هذه الوظائف مقصورة على بني قصي .**

**ثانيا: وظائف إدارية ( مدنية )**

1- **الندوة** : إدارة شؤون دار الندوة وبقيت في بني عبد الدار .

2- **اللواء** : وكان أبو سفيان بن حرب من بطن أمية آخر من تولاها ، وهي تجمع القيادة في الحرب وحمل الراية .

3- **الاشناق** : كانت في بني تيم وآخر من تولاها أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

4- **السفارة** : وكانت لبني عدي وآخر من تولاها عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

5- **القبة والأعنة** : وهي مستودع السلاح كانت لخالد بن الوليد من بني مخزوم .

6- **المشورة** : تولاها يزيد بن زمعة الأسود من بنى أسد .

7- **الأيسار** : كانت لبني جمح وآخر من تولاها صفوان بن أمية .

8- **الحكومة والأموال المحجرة** : وكانت لبني سهم وآخر من تولاها الحارث بن قيس .

وقد ألغاها الرسول ﷺ بعد فتح مكة ما عدا وظيفتي السدانة والسقاية .

وأقر قصي النسأة من بني فقيم لتحديد الأشهر الحرم والإجازة بالحج لآل صوفة وكان هؤلاء (بنو فقيم وصوفة) يعيشون في مكة مع قريش وكذلك أفخاذ من طابخة بن إياس ومحارب . وسكن الآحابيش خارج وادي مكة وهم من بني عوف بن الحارث بن عبد مناة بن كنانة واسمهم " بنو غوى " ثم أسماهم الرسول ﷺ " بني رشد" وسيدا الأحابيش الشماخ وتيم ولدا عامر بن الحارث ، واجتمع إليهم بنو المصطلق الحيا بن سعد والقارة وهم بنو الديش بن ملحم بن غالب من بني الهون . وكان تجمعهم على " جبل حبشي " أسفل مكة على مسافة سبعة أميال . ثم تحالفوا بعضهم مع بعض وعقدوا " حلف الأحابيش " مع بني عبد مناف بن قصي .

وأحرز الآحابيش مكانة وسيادة مكافئة لمكانة القبائل الكبرى وسيادتها فهم قبائل عربية مؤهلة لعقد الحلف مع قريش . أما الموالي والحلفاء الآخرون فكانوا كثيراً ، وهم أخلاط من عرب وفرس وروم – " يهود النصارى " . فقد لجأ كل اولئك كأفراد لهم حلف وولاء مع القرشيين من السادة والأشراف ؛ لأسباب ومصالح مختلفة فكان

منهم الفار الناجي بنفسه من مشكلة خلع من القبيلة ، أو غيرها من مشاكل اجتماعية أو سياسية أو مالية . ويخلع الرجل من قبيلته لجريرة ارتكبها أو خصومة ، وربما يكون حلفه أشبه باللجوء السياسي بمفهوم العصر . وقد تأتي الفرس والروم للتجارة أو التجسس لحساب بلادهم فيقيم بعضهم إقامة ولاء وحلف وجوار ، وقد يكون الولاء طلباً للحماية ( حماية الأرواح والأموال ) مقابل إتاوة مدفوعة .

وهناك " المستلحقون " – والاستلحاق و يقابله التبني – فاللحقاء كالأبناء . وكذلك " اللصقاء " فهم في عداد الموالي والحلفاء وينضوي معهم الرقيق المعتق ( المحرر) وكان لهم وضع اجتماعي جيد ولهم مساهمة العمل والتجارة وخدمة مجتمع مكة.

والرقيق طبقة اجتماعية كبيرة العدد (عبيد وإماء) ولكنها متدنية المترلة، ومصدر الرق : الأسر، والسبي في الحروب، أو بالشراء من أسواقه المعروفة في آسيا وإفريقيا. وكانت تجارة الرقيق رائجة وأسواق النخاسة منتشرة في كل مدن العالم القديم . والرقيق من الذكور والإناث يكونون من العرب أو الأجانب ؛ وهم نوعان أو لونان رقيق أبيض ، ورقيق أسود . وقد سخر الناس وكذلك فعل سادات مكة وأشرافها هذا الرقيق للخدمة وتأدية كافة المهن والحرف . الخدمة في المنازل وفي السفر وفي البساتين وغير ذلك . وهم فئة محرومة من كل الحقوق، ولا ملك لها ولا مقاضاة أو تحاكم ، وليس لها أجور . تخدم مقابل قوتها وتأوي إلى منازل سادتها .

ولا يملك الرقيق شيئاً ولا أمر نفسه ؛ فلا يتزوج إلا بإذن سيده ، وربما لا يأكل ولا ينام إلا بإذنه أيضاً . فلا يملك من حياته شيئاً، وليس له على سيده أية حقوق سوى إطعامه مقابل الطاعة العمياء لسيده ، والخدمة وتأدية كل ما يطلب منه .

يعتق هذا الرقيق أو يحرر مقابل عمل بطولي يؤديه لسيده مثل إنقاذ حياة السيد ، أو أحد أفراد أسرة السيد أيضا ، أو البلاء في الحروب أو مناسبة سعيدة في حياة السيد ، أو يوصي السيد عتق هذا العبد أو تلك الأمة بعد وفاته ، أو يحرر العبد نفسه أي يشتري حريته بالمال يدفعه لسيده فينال العبد حريته ويسمى " المكاتب " .

ويمنح اللون الأبيض للرقيق بعض التميز ، وعادة يكون الرقيق الأبيض متميزاً بإتقان بعض الحرف الفنية الدقيقة والمهارات المختلفة فقد يكون متعلماً أي ملماً بالقراءة والكتابة ؛ مما يعطيه تميزاً في المهن التي يوظف فيها وتكون له مكانة أفضل من سواه من الرقيق الأسود الذي يتمتع بالقوة العضلية فقط لا غير. [النويري "د.ت"122/3 ]

ويعيش في مكة أيضا يهود ونصارى وافدون للتجارة أو للتجسس أو لغير ذلك ، وقد أثروا في بعض نفر من قريش فتهود

أو تنصر مثل : ورقة بن نوفل ، وعثمان بن الحويرث وهما من بني أسد . وقد طمع عثمان أن يكون ملكا على مكة؛ أما ورقة فقد عاد إلى الحنيفية .

وعاش هؤلاء القوم بصفة حلفاء وموالٍ مثل صهيب الرومي وكان حليفاً لعبد الله بن جدعان – أثرى أثرياء مكة – وجبر ويسار ، وسلمان الفارسي وكانوا كما يبدو متعلمين – يجيدون القراءة والكتابة . حتى ظنت قريش أن يساراً هو الذي كان يعلم الرسول محمداً ﷺ . وقد رد عليهم القرآن الكريم بقوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ . [ سورة النحل: الآية 103 ] ومن هؤلاء أيضاً النجار القبطي " باقوم أو باخور " الذي ساعد قريش في عملية تجديد بناء الكعبة .

وكان أغلب الرقيق – عبيداً وإماءً – داخل بيوت مكة يدينون بديانات مختلفة من وثنية أو مجوسية أو نصرانية . وتميزت الإماء بحرف خاصة منها " الغناء " ونحو ذلك .

## تجارة مكة :

الواقع إذا عدنا إلى تاريخ مكة والذي يرتبط بمجئ النبي إبراهيم وابنه إسماعيل (عليهما السلام ) ثم بناء الكعبة ، والأذان بالحج . وما تبع ذلك من قيام موسم الحج وإقبال بعض العرب على الاقتراب من الوادي والسكنى بجواره . وجدنا أن ذلك كله استلزم توفير المؤن والأرزاق حسب احتياجات السكان والحجاج الوافدين . مما استوجب بالتالي قيام تجارة لتوفير المؤن وسائر الاحتياجات الأخرى .وقد أشرنا إلى تجارة الاسماعيليين التي تعد دليلاً على انتظام قوافل التجارة منذ تلك المرحلة الباكرة . وكانت قافلة الاسماعيليين محملة بسلع تجارية مهمة ورائجة ومطلوبة جداً في ذلك العصر ألا وهي مواد البخور ( كثيراء وبلسانا ولاذنا ) وكان معهم قافلة أخرى للتجار المديانيين . وتجارة المؤن الغذائية أسبق وأهم من تجارات كل المواد الأخرى . ويذكر أن قافلة التجار المديانيين هي التي أنقذت النبي يوسف عليه السلام من الجب وباعته إلى الإسماعيليين ثم بيع في مصر .

والمهم في الموضوع أن الإسماعيليين كان مقرهم مكة أولاً ثم هاجروا وانتشروا في شمال بلاد العرب . ثم ظل موسم الحج السنوي الذي يستلزم قيام تجارة دائمة وموسمية . ولذا نتوقع أن بدايات تجارة مكة المنتظمة كانت مرتبطة بالحج مكانياً وزمنياً ، وأنها بدأت منذ القرن الثامن عشر ق .م .

ويؤكد ذلك النشاط التجاري ويدغمه موقع مكة الاستراتيجي في منتصف طريق قوافل التجارة بين الشمال والجنوب " درب البخور " ومنذ قيام مملكتي معين وسبأ في جنوب الجزيرة العربية (حوالي 1200ق.م) .

والذي دعم تجارة مكة في عصور لاحقة هو بعدها عن مناطق الصراع الدولي بين الفرس والروم ، على اطراف الجزيرة العربية مما وفر عوامل الاستقرار والأمان . ثم فقر الوادي فهو " واد غير ذي زرع " فليس لأهل مكة زراعة ، ولا رعي فاشتغل السكان بالتجارة. وغدت التجارة مصدر رزقهم فليس للمكيين سوى البيع والشراء والتكسب عن طريق التجارة الداخلية ثم توسعوا إلى التجارة الخارجية .

ولا نغفل عن دور قبيلة خزاعة في مكة ونشاطها التجاري ؛ ثم ما قام به زعيم خزاعة " عمرو بن لحي " من تنشيط لموسم الحج ، وجلب أصنام قبائل العرب ونحو ذلك من الأعمال .

**تنظيماتها – إيلاف قريش :**

وفي ظل الاستقرار السياسي والاجتماعي الذي حققه سادات قريش وأشرافها في مكة منذ القرن الخامس الميلادي نجح القرشيون في تنظيم التجارة وتوسيعها حتى جنوا ثروات طائلة منها ، حتى غدت قبيلة قريش في القرن السادس الميلادي ذات سيادة مرموقة في كل بلاد العرب . وغدا سادة قريش وأشرافها ذوو نفوذ اقتصادي قوي ، ولهم نفوذ معنوي وأدبي بين كل العرب . وذلك ما دعا بعض المؤرخين إلى القول إن تجارة مكة بدأت مع قريش في مطلع القرن الخامس الميلادي.

ولكن زعماء قريش وتجارها استطاعوا إنشاء تنظيمات تجارية دعمت اقتصاد مكة . وقد ساعد قريش على ذلك الأوضاع السياسية السائدة داخل شبة الجزيرة العربية ، والصراع الدولي بين الفرس والروم . ومن أهم الظروف الداخلية تدهور أحوال جنوب شبة الجزيرة العربية وانحسار نفوذ مملكة حمير تحت ضغط الصراع السياسي ، والحروب الطاحنه ، ثم الصراع الديني في الجنوب ومثال ذلك الصراع (حادثة الأخدود عام 523م ) . ثم الغزو الحبشي حوالي عام 525م . ثم بعد ذلك حوالي سنة 570م قيام أبرهه الحبشي بإعداد " حملة الفيل " لهدم الكعبة وفشل هذه الحملة مما أعطى قريش الهيبة والتوقير . فأصبحت القبيلة المبجلة والمعززة بين كل العرب . وكان موقف قريش من كل تلك الصراعات " الحياد التام" حتى حملة الفيل التي كانت موجهة إليها إذ ترك زعيمها عبد المطلب الأمر لرب البيت يحميه ، وهذا ما حدث بالفعل ، ومع الحياد التام قامت قبيلة قريش بدور الوسيط التجاري . وبذلك قامت بنقل السلع والبضائع التجارية المهمة بين الأطراف المتنازعة . بل حتى في الصراع الدولي كان لقريش موقف حيادي أيضاً .

ثم جاء دور الغزو الفارسي حوالي سنة 575م ، الذي قضى على كل نفوذ سياسي في جنوب بلاد العرب ، ولم يبق بعيداً

عنه سوى قبائل عربية نشطة وقوية في شمال اليمن . فانهارت اليمن سياسياً وتعطلت قوافل التجارة وجميع المصالح الأخرى .

وأدى احتدام الصراع الدولي بين الفرس والروم أيضاً إلى انشغال القوى العظمى وتوريط مملكتي الغساسنة ، والمناذرة في حروب الدولتين ، أو بعضهما ضد بعض أحياناً أخرى من أجل مصالح الفرس والروم . وأدى كل ذلك الصراع السياسي إلى قفل طريق التجارة المارة بالعراق ، ومدن الشام وما إلى ذلك من المشاكل الدولية . وظلت قريش على الحياد لا تريم عنه ولا تزول ، وتحالفت مع قبائل بلاد العرب .

استفادت قبيلة قريش من كل الظروف الدولية والداخلية وعكفت على تنظيم تجارتها الداخلية ثم التجارة الخارجية عندما سنحت لها الفرصة الذهبية في مكة فانطلقت .إذ قام زعيم قريش هاشم بن عبد مناف بن قصي بتنظيم القوافل التجارية ، وعقد المحالفات والعهود أو العصم ؛ أي المواثيق التي عرفت باسم " إيلاف قريش " أو كتب الأمان التي أخذها من ملوك ورؤساء . مطبقاً خبرته وذكاءه التجاري ؛ خاصة أن قريش عملت في التجارة منذ القرن الثالث (حوالي 270- 278م ) وقبل دخولهم إلى مكة واستقرارهم فيها . واستمروا في ممارسه التجارة من مكة باعتبارها محطة على درب قوافل التجارة بل غدت مركزاً موسمياً للحج وتجارته الموسمية أيضاً .

ويبدو أن قريش في مبدأ أمرها في مكة اهتمت بتجارة داخلية مع عرب الجزيرة ثم توسعت على يد هاشم بن عبد مناف بعد أن أخذ الإيلاف فانطلقت قوافل التجارة شمالا إلى بلاد الشام ثم إلى بلاد العراق وفارس ، وكذلك إلى الجنوب إلى اليمن والحبشة .

وخرج هاشم بن عبد مناف بنفسه يقود قافلة تجارية إلى بلاد الشام ، ونزل بها فأخذ يذبح الذبائح ويقري الأضياف حتى تمكن من ملاقاة القيصر وإقناعه بأن يكتب له ولقومه قريش – وهم تجار العرب – كتاب الأمان " الإيلاف " ، الذي ينص على أن يؤمنهم القيصر ويؤمن تجارهم حتى يجلبوا له المستطرف من الأدم الحجازية المدبوغة والثياب ، وفي رواية أخرى " مقابل خفض سعرها " ايضاً .

ومنح القيصر هاشماً ما أراد أي " الإيلاف " وعمد هاشم كلما مر بحي من العرب أن يأخذ من أشياخهم وأشرافهم " إيلافاً " أيضاً ، وهكذا حصل على " إيلاف قريش " المذكور في سورة قريش في القرآن الكريم .

وعقدت قريش هذه الصفقة التجارية الرابحة ، وانتظمت التجارة القرشية في رحلتي الشتاء والصيف المتفقة مع الظروف المناخية للبلاد ؛ فكانت رحلة الشتاء إلى الجنوب

جنوب بلاد العرب ( اليمن والحبشة ) ورحلة الصيف إلى بلاد الشام وأخرى إلى بلاد فارس .وذكرت المصادر أن هاشم بن عبد مناف أول من استن هاتين الرحلتين بنظامهما هذا في الشتاء والصيف .

وتجددت المواثيق " الإيلاف " مع إخوة هاشم فأخذها عبد شمس بن عبد مناف من نجاشي الحبشة ، وأخذها نوفل بن عبد مناف من كسرى الفرس مروراً بالعراق ، وأخذ العهد المطلب بن عبد مناف من ملك اليمن أيضاً . وعندما رحل المطلب إلى اليمن أناب عنه في مكة ابن أخيه عبد المطلب بن هاشم - جد الرسول محمد ﷺ . [ ابن سعد "1337هـ" 75/1 ]

وكان هاشم قد اتفق مع العرب أن يحمل لهم تجارتهم ولا يفرض عليهم أية أجور ولا ضرائب ثم يعيد لهم رؤوس أموالهم مع الأرباح فأصبح القرشيون تجاراً ووسطاء لنقل التجارات المختلفة .

وتاجر القرشيون ببضائع متنوعة ، فحملوا منتجات منطقتهم وغيرها مثل الأدم الحجازية والأصواف والثياب والتمور ، وبعض المواشي ، ثم أضافوا التوابل والعطور والمسك ومواد البخور والمرة واللبان والقرفة والقسط والرند وغيرها ونقلوا هذه المواد الثمينة من الجنوب منطقة إنتاج البخور وتم استيراد مواد وبضائع أخرى نقلها القرشيون أيضاً مثل الحرير والقطن ، والعاج ، والأحجار الكريمة من إنتاج الجنوب أو مما يستورده اهل الجنوب مثل اليشب والزبرجد والعقيق والمرجان وغيرها . وقد جلب أهل جنوب الجزيرة العربية بضائع متنوعة من أسواق آسيا وإفريقيا وكانت تجارة الهند والصين رائجة جداً في مكة وغيرها ، وتاجر القرشيون أيضاً بالرقيق المجلوب من إفريقيا بصورة خاصة .

ونقلت قوافل قريش التجارية إلى مكة كل ما يحتاج إليه أهل مكة وغيرهم من عرب الجزيرة كلها بوادي وحضراً . مثل بعض المؤن الغذائية - بر وشعير وحنطة وزيوت ودهون وخمور - ثم تاجروا بالأسلحة أيضاً - سيوف وخناجر وسكاكين - وأدوات معدنية متنوعة ، وأواني طعام وشراب . ثم أدوات حرفية مختلفة ، وسروج الخيل ومعدات الركوب ونحو ذلك ؛ فضلاً عن الملابس بكل أنواعها قطنية وحريرية — من برود وقباطي - وغيرها .

وازدهرت تجارة قريش وراجت لأسباب كثيرة مباشرة وأخرى غير مباشرة ؛ فقام التجار القرشيون من سادات مكة وأشرافها وسيداتها بنشاط تجاري يدعمه ذكاء وخبرات طويلة ونظام دقيق . وتعددت الطرق والأسواق أيضاً ، وتفوق التجار القرشيون في مكة بل في بلاد العرب .

ازداد حرص القرشيين على توفير المؤن الغذائية والميرة للحجاج في مكة ،

وشددوا على الالتزام بالمسالمة والآداب العامة لحماية الأرواح والأموال وعملوا على نشر السلام والأمان طوال مواسم الحج والعمرة ، وعلى مدار أيام السنة لتأمين قوافل التجارة وصيانة الممتلكات حتى أطلق بعض المستشرقين على قريش في مكة " الجمهورية التجارية " . ربما بسبب نجاحهم كتجار وجعلهم تجارتهم عماد اقتصاد مكة .

وبرز من قريش أثرياء منهم عبد مناف بن قصي ، وهاشم بن عبد مناف وعبد الله بن جدعان ، والعباس بن عبد المطلب ، وحرب بن أمية ، وأبو سفيان صخر بن حرب ، وهشام بن المغيرة ، والوليد بن المغيرة ، وعثمان بن عفان ﷺ، والسيدة خديجة بنت خويلد ﷺوغيرهم.

## دروب التجارة ومحطات القوافل :

**الطريق الأولى :** سلكت القوافل التجارية الخارجة من مكة والعائدة إليها طرقاً متعددة حسب الجهة التي تقصدها وأهمها الطريق الساحلية التي تسير بموازاة ساحل البحر الأحمر وتربط بين الشمال والجنوب عبر سهول تهامة واشتهرت باسم " درب البخور" حيث تخرج هذه الطريق من ظفار أو مخا إلى عدن ومأرب ثم نجران والقنفذة والليث ثم مكة والجحفة قرب يثرب ثم أرض مدين – العلا (مدائن صالح ) – إلى أيلة – تدمر ثم إلى دمشق وقد تخرج القافلة عبر فرع آخر إلى غزة .

**الطريق الثانية :** تبدأ من مكة إلى فلسطين وتمر بيثرب وخيبر وتيماء ثم تصل إلى دومة الجندل وتعبر وادي السرحان حتى تصل إلى بصرى الشام .

**الطريق الثالثة :** من يثرب (المدينة المنورة ) إلى العراق وتمر في فدك وتجتاز منازل قبائل غطفان وطيئ وأسد .

**الطريق الرابعة :** وتسمى الجادة وتمر بديار أسلم ثم بني سليم ومزينة إلى يثرب ، وطريق أخرى جانبية تعود وتلتقي مع طريق الجادة .

**الطريق الخامسة :** بين مكة وعدن وتمر بالطائف ونجران وصعدة وتعز والمعافر.

**الطريق السادسة :** وهي الطريق النجدية تبدأ من مكة وتمر بوجرة ومرات وخربة وجديلة وطخفة والنباح والحفير وكاظمة حتى تصل إلى الأبلة في جنوب العراق (عرفت هذه الطريق في الإسلام فيما بعد باسم درب زبيدة أي باسم زوج الخليفة العباسي هارون الرشيد) .

**طرق أخرى :** داخلية بين مكة والطائف وطرق أخرى كثيرة تسير على طول ساحل الخليج وتسير جنوباً بمحاذاة الساحل ، وطريق مهمة تخرج من مكة عبر وسط بلاد العرب تصل إلى مرات واليمامة ثم القطيف .

ترتبط أطراف الجزيرة العربية بشبكة طرق تعبرها القوافل ، وتعد كل المواقع المذكورة محطات للقوافل ، ومحطات تجارية أيضاً . بل أن بعضها اتسع نشاطها وعظمت

تجارتها حتى غدت مدناً تجارية أو مدن تجارة القوافل .

تصل القافلة التجارية إلى المحطة وتتوقف لتتمكن من أخذ قسط من الراحة والتزود بالماء ، والمؤن الغذائية ، والتزود بأعلاف الدواب .

وقد يقوم تجار القافلة بتصريف بعض السلع وبيعها في أسواق هذه الواحات أي المحطات .

وقد حددت بيزنطة ثلاث مدن لاستقبال تجارة العرب ولتكون أسواقاً كبرى لتجارة المكيين وهي أيلة وغزة وبصرى ؛ حيث يتعامل تجار مكة القرشيون مع تجار رسميين تعينهم بيزنطة أيضاً ، وذلك لأهداف أهمها حصر البضائع لفرض الرسوم وتحصيلها، وللتعرف على التجار ومعرفة ميولهم السياسية، والحد من أمور التجسس وما إلى ذلك .

وتحتاج القافلة إلى حوالي 40 يوماً من مكة إلى اليمن مروراً بالطائف حتى تصل إلى صنعاء أو تعز ، وتستغرق الرحلة من مكة إلى بلاد الشام حوالي 60 - 65يوماً (شهرين تقريباً) .

يتراوح عدد ( الإبل في القافلة بين 1500 – 2500 بعير . وتحتاج إلى عدد من الأدلاء والخفراء ومعهم التجار وعبيدهم حوالي مائة رجل لكل ألفي بعير تقريبا أي يرافق القافلة بين 100 – 300 رجل .وتقدر حمولة هذه القافلة الكبيرة بحوالي 400 طنّ من البضائع الغالية الأثمان . وقد تتعدد القوافل في الرحلة الواحدة . وتتعدد الرحلات خلا موسمي الشتاء والصيف ، وعلى مبدأ " إيلاف قريش ". [ Oleary " 1927" 185]

### المعاملات والنقود :

قامت داخل مكة أسواق تجارية متنوعة وكثيرة وكذلك أسواق في المشاعر المقدسة " منى " . تم فيها تبادل كل أنواع السلع بيعا وشراء بمعاملات تجارية مختلفة : مقايضة ، أو تبادل سلع ، وتعاملوا بالنقد – الدينار الذهبي البيزنطي ، والدرهم الفضي الفارسي ، والدرهم الحميري – ولرواج هذه النقود في مكة مارس بعض القرشيين عملية الصيرفة . وتعاملوا أيضا ببيوع فاسدة كانت شائعة لدى العرب ثم أبطلها الإسلام .وعملوا على استثمار الأموال في تجارة القوافل طوال أيام السنة وفي مواسم الحج لذا قامت بيوت مال في مكة ، وفرضوا المكوس على التجار الأجانب من الروم والفرس .ومارسوا الربا وتعاملوا به بصورة شائعة ومباشرة ..

وعرفوا نظام التامين على البضائع . فحققت تجارة قريش أرباحاً طائلة . أثرى المكيون ثراء كبيرا خاصة سادات وأشراف قريش . علما بان نفقات الرحلات والقوافل محدودة بسيطة حيث تقتصر على أجور الأدلاء والخفراء وأثمان الدواب ومعدات الركوب والأكل والشرب ، وبعض المكوس

أو " الجعل " الذي يدفع لبعض القبائل . وقد تستأجر المطايا للركوب من ابل وخيول وربما الحمير أولاً ، لان العرب استخدموا جميع أنواع دواب الحمل . مقابل ذلك تبلغ الأرباح أضعاف سعر البضائع حيث يكون الربح مائة أو مائتين في المئة أو أضعاف ذلك .

لقد عرف العرب في بلادهم أسواقاً موسمية تعقد في أماكن ومواقيت معلومة ثابتة.وتميزت بعض الأسواق الموسمية بخاصية أمنية وذلك لانعقادها في مدة الأشهر الحرم وذلك ما جعل ارتيادها ميسرا وآمناً . أما غيرها من الأسواق المنعقدة في أيام غير أيام الأشهر الحرم فلا يصلون إليها ولا يعودون منها إلا بخفارة .

وقد أمَّ العرب كافة هذه الأسواق الموسمية للتجارة ولممارسة كافة نشاطات الحياة من أدبية وسياسية ، واجتماعية لأن بعض الأسواق الموسمية تكاد تكون مهرجانات سنوية وتقام فيها أيضا محاكمات والعاب رياضية ، و إعلان وتشهير بمدح أو ذم ، ومفاخرات ومبارزات خطابية وشعرية .

ومما يذكر من أسواق الحجاز ونجد على وجه الخصوص أسواق مكة وهي سوق عكاظ والمجنة وذي المجاز .

صنفت أسواق العرب إلى ثلاثة أنواع تبعا لنظامها وخضوعها لحكومات تحميها .

1- أسواق خاضعة للنفوذ الاجنبي - نفوذ فارسي في شرق بلاد العرب ، وتدفع فيها عشور أيضاً لصالح دولة الفرس.

2- أسواق مختلطة في المناطق الساحلية ، يجتمع فيها تجار عرب وأجانب . وتدفع فيها عشور أيضا لصالح الدولة المسيطرة .وتعد مراكز قوية لأنها أسواق تدخل منها تجارة شرق آسيا وأفريقيا .

3- أسواق عربية خالصة لا يشرف عليها نفوذ أجنبي فهي مناطق حرة ولا تفرض فيها عشور ولا إتاوات .

ذكرنا أسواق مكة وهي : " عكاظ والمجنة وذو المجاز " . فأما سوق عكاظ فتقع على مسيرة ليلة من الطائف ( 10 أميال ) وعلى مسيرة ثلاث ليال من مكة ( 30 ميلا تقريباً ).

وتوجد في عكاظ صخور مقدسة كان العرب يطوفون حولها . وفيها يعكظ القوم بعضهم بعضا أي يتفاخرون ويتحاجزون . تبدا سوقها من أول شهر ذي القعدة وتستمر حوالي أسبوعين أو أكثر . وقد استمر قيام سوق عكاظ وانعقادها إلى العصر الإسلامي حوالي ( 129هـ/746م ) .

كانت أعظم أسواق العرب ، وامتازت بعدة مميزات أهمها انعقاد السوق في مدة الشهر الحرام وقبل الحج مباشرة ثم قربها من مكة ومناسك الحج . وأنها يوصل إليها بلا خفارة . ولا تفرض فيها عشور ولا مكوس

لأنها لا تخضع لملك أو حاكم . وأمها العرب من كل مكان من انحاء بلاد العرب ومارسوا فيها التجارة وكل أنشطتهم الحيوية وامتازت باستقبال لطيمة النعمان بن المنذر وهي قافلة المسك والعطور والطيوب وكان لهم فيها عادات وتقاليد وطقوس معينة عند أداء الفعاليات والأنشطة .

وامتازت بقبة " الأدم الحمراء " التي جلس فيها حكام الشعر واللغة من قريش ومن أهل اللغة ومنهم النابغة الذبياني منذ النصف الثاني من القرن السادس الميلادي . وتلقى القصائد الشعرية أمام الحكام لاختيار القصيدة الفائزة أو القصائد بمنحها الجائزة الكبرى أي كتابة القصيدة بماء الذهب وتعليقها على أستار الكعبة . ويمنح شاعر القصيدة وصاحبها الألقاب التي تميزه من غيره وتصبح قصيدته من " المعلقات " التي حفظ لنا التاريخ سبعاً أو عشراً منها .

وذكر الرواة أن ظهور سوق عكاظ يعود إلى مطلع القرن السادس الميلادي تقريبا (500م ) . وذلك لأن امرأ القيس الذي (توفي 540م) حضر عكاظ وشارك فيها بقصيدته التي فازت وعدت إحدى المعلقات أو المذهبات .

وأهل هذه السوق ونزلاؤها قبيلة هوازن ، ونزلها أيضا بنو غطفان وأسلم والأحابيش وغيرهم . وكان لقريش دور كبير فيها .

سوق المجنة :- تقع في وادي مر الظهران إلى الجنوب من مكة وتعقد سوقها بعد عكاظ مباشرة من عشرين ذي القعدة إلى نهايته . ويبدو أنها متممة لفعاليات سوق عكاظ . ثم ينتقلون إلى ذي المجاز وهي موضع سوق عرفة من جهة جبل كبكب .وقيل إنها ماء من أصل كبكب وهي لهذيل . تقام سوق ذي المجاز من أول شهر ذي الحجة إلى يوم " التروية " وهو اليوم الثامن من ذي الحجة . حيث يتم في هذا اليوم جلب الماء وتجهيزه لنقله إلى عرفة والمزدلفة لسقاية الحجاج .

وهذه السوق متممة لسابقتيها يؤمها كل من أم عكاظ والمجنة . ثم إلى مزدلفة ومنى لأداء مناسك الحج . وقد يقصد المناسك مباشرة من ليس له غرض أو دور في هذه الأسواق .

وقد جنت قريش من هذه المواسم والأسواق أرباحاً مادية وثروة ، ونجاحاً مادياً ومعنوياً بذكائها وفكرها العملي المنظم ، ونشاطها التجاري . ونظراً لمكانة مكة والكعبة وقر العرب كلهم قريشا وبجلوها ، وأكرموها وهابوا ساداتها وأشرافها لأنهم أهل مكة ، وأهل الله ، وأهل بيته العتيق .

### دار الندوة : تأسيسها ومالكها :

جعل قصي بن كلاب الكعبة المعظمة مركزا لخطته في مكة كالمحور في الدائرة . فابتنى داره في الجهة الشمالية الغربية (

الشامية). واشرع باب الدار إلى الكعبة . وسميت دار قصي هذه وعرفت باسم دار الندوة . وكان لها أهمية وحققت شهرة تاريخية. لأنها كانت مقرا رسميا لاجتماع قريش فهي دار المشورة والحكم .

كان عرض دار الندوة ( 70 ذراعا) وطولها ( 74 ذراعا) . ثم أصبحت في عصر الاسلام مقرا رسميا لنزول الخلفاء في عهد الدولة الأموية إلى أن اتخذ الخليفة العباسي المعتضد مقراً آخر عام 281هـ ثم هدمها فأزيلت . وأدخلت أرضها إلى المسجد الحرام. وسميت الندوة لأن قريشا كانت إذا حزبها أمر ندوا إليها .أي اجتمعوا فيها للتشاور والندوة الجماعة .

وصارت دار الندوة دار الجماعة والاجتماع . وكانت تشبه المزود ( المسود) في العاصمة صرواح ( عهرو) وكان لكل مدينه في جنوب بلاد العرب ( مسودها ) ثم وجدنا نظيرها في يثرب وهي سقيفة بني مساعده وهناك مجالس مماثلة في الطائف، ونجران ، ووادي القرى .

واختط قصي مكة رباعاً وقسمها بين قومه واعتمد خطة منظمة حيث بنيت الدور كل دارين متجاورين وتفصل الطرق بين كل دارين ، وآخرين . وترك دائرة المطاف حول الكعبة تفصل الكعبة عن دور قريش .

وقامت منازل قريش بجوار دار الندوة وحولها . ومن أهم دور مكة على سبيل المثال لا الحصر. دار عبد الله بن عبد المطلب والد النبي ﷺ في سوق الليل . ودار خديجة بنت خويلد في زقاق الحجر ويعرف باسم سوق العطارين . دار الارقم بن أبي الارقم المخزومي وتقع إلى يسار جبل الصفا وعرفت فيما بعد باسم دار الخيزران وكان الرسول محمد ﷺ يجتمع مع أصحابه فيها خفية عن قريش ، ودار القوارير وهى دار عتبة بن ربيعة بن عبد شمس . [ البتنوني "1329هـ" 52-53 ]

## دورها السياسي والاقتصادي والديني والاجتماعي :

منذ أن أسس قصي دار الندوة سكناً له ومقرا لمجلس قريش " مجلس الملأ " فإنها ظلت تضم النخبة الواعية من علية القوم وحكمائهم من ذوي السن والشرف والقدر سادات قريش وأشرافها .

فهي مجلس الملأ القرشي ( مجلس المدينة ) أو ما يشبه مجلس الشيوخ في أثينا (الاكليزيا EKY LESIA ) .

وصارت دار الندوة مقر الحكم ( ما يشبه دار الحكم ) وينتسب أعضاء دار الندوة إليها بشروط حددها القرشيون منها : بلوغ الرجل سن الاربعين من عمره . وإن يكون ذا شرف ، وجاه ، ومطاعاً في قومه ، ما عدا أبناء قصي فهي مفتوحة لهم بلا استثناء وهي دار أبيهم . وتكون مجلس الملأ القرشي من رؤساء العشائر والبطون وذوي السن والحكمة والمهارة العملية والقدرة على القيادة والثروة

والجاه . واستثنوا حكيم بن حزام فدخل دار الندوة,وهو ابن خمسة عشر عاما تيمنا به واعترافا ببركته لأن أمه ولدته في جوف الكعبة . وكذلك دخلها عمرو بن هشام (أبو الحكم ) شاباً لحكمته وسداد رأيه حتى إن العرب من غير قريش احتكموا إليه مرارا (كناه المسلمون باسم أبي جهل لشدة عدائه لهم ) .

صارت دار الندوة مركز الشؤون الدينية ، والمدنية أيضا يتم فيها عقد لواء الحرب ، وتعقد فيها الصفقات التجارية وتبدأ منها مسيرة القوافل التجارية وإليها تعود . لتنيخ القافلة عند باب دار الندوة بأحمالها وبضائعها .

ويعقد في دار الندوة عقود الأنكحة ويتم ختان الذكور، وتدريع الفتيات عند البلوغ إعلاما عن النضج والتأهل للزواج . ولعل من حقنا أن نستنتج أن دخول المرأة دار الندوة لم يكن لهذا السبب وحده بل ربما كان لأمور أخرى مختلفة .

وقد حددت قريش موعدا رسميا للاجتماع في دار الندوة كل يوم سبت ، للنظر والتشاور في الأمور العامة ، ويعقد اجتماع طارئ عند الضرورة لتدارس الأمر ومعالجته .

وكانت قرارات دار الندوة نافذة بالإجماع ويتعلق تنفيذ القرار على كفاءة أعضاء مجلس الملأ القرشي وعلى قوة نفوذه ، وعدم التهاون في تنفيذ الحدود والعقوبات التي استنوها مثل : قطع يد السارق ، أو مقاطعة المخطئ أو الخارج عن أعرافهم . وقد يلجأ إلى الاقناع أو المساومة وقد أوقعت قريش عقوبة المقاطعة على أبي طالب بن عبد المطلب عم الرسول محمد ﷺومن معهما من بني هاشم بسبب دعوة النبي محمد ﷺ وحاصرتهم في الشعب .

وبحق للسادة أو بعضهم الاعتراض على أي قرار ، فلا يلتزم به لكن مجلس الملأ القرشي حرص على توحيد كلمة السادة من قريش ووحدة القبيلة لأنهم عملوا على وفق مبادئ منها :

1- تقديم المصلحة العامة على الخاصة دون استثناء .

2- القرارات لا تنقض بعد إبرامها وإعلانها.

3- المحافظة على سرية المشاورات والمناقشات التي تدور في اجتماعات دار الندوة .

4- عدم نشر وجهات النظر المختلفة خارج دار الندوة ليسود الهدوء والاطمئنان بين الناس منعاً للبلبلة.

ولم يذكر الرواة والإخباريون أية انشقاقات في مجلس الملأ القرشي إلا ما ذكروه عن أحداث الصراع الذي دار إبان مرحلة الدعوة الإسلامية .

أولا : رفض أبو طالب التخلي عن ابن أخيه محمد ﷺ فاعتزل قريش ، وتضامن معهما بنو

هاشم وبنو عبد المطلب . وخرج عنهم ( أبو لهب ) عم النبي ﷺ وألد اعدائه .

ثانياً : انشقاق بني زهره وبني عدي عندما رفضوا الانصياع لقرار مجلس الملأ القرشي و لم يشاركوا في معركة بدر .

حدثت هذه الانشقاقات في مرحلة ظهور الإسلام عندما كانت قريش تعاني أعنف اضطراب سياسي وديني، واجتماعي واقتصادي أيضاً ، ولكن لم تحدث إراقة دماء و لم يحدث قتال .

وكان للبطون والعشائر القرشية مجالس خاصة للنظر في أمورهم الداخلية المتعلقة بخلافات العشيرة أي المشاكل الأسرية تقريبا . و لم تكن لهذه المجالس صفة رسمية ، وليس هنالك مقر أو منتدى رسمي عدا دار الندوة .

وتردد ذكر أندية قريش فيقال جلسوا في أنديتهم ويقصد بها مجالسهم العامة حول الكعبة للمحادثات العامة والعابرة والتي يذكر منها مثلا مجلس عبد المطلب بجوار الكعبة . أو مجلس في مترل أحد سادات قريش وأشرافها . ولكنها مجالس غير رسمية لا يتم فيها اتخاذ قرار أو سواه فهي أندية مجالسة ومسامرة ومنها أيضاً مجالس خاصة جدا تقتصر على الندماء فقط وعددهم محدود جداً.

نظمت قبيلة قريش شؤونها الداخلية في مكة وأشترعت سياسة داخلية لادارة كل أمور مجتمع مكة . وعمدت إلى الالتزام ببعض النظم القبلية وعمد رجال الملأ القرشي إلى التطوير بما يلائم أوضاع مكة بالنظر إلى كونها مركزاً دينيا . فأولوها جل اهتمامهم . وشمل تنظيمهم جميع النواحي السياسية والاجتماعية والعسكرية ، والمالية والتجارية . وقاموا باستحداث وظائف دينية ومدنية ذكرناها سابقا . وقد بدأ قصي بن كلاب هذه الأمور بتعيين الوظائف واكمل أبناؤه : عبد مناف وعبد العزى ، وعبد الدار وعبد قصي . دور أبيهم فقام كل منهم بدوره أيضاً . وأكمل القرشيون أعمالهم وخاصة زعماء قريش . وكان أولهم قصي ثم ورث الزعامة عبد مناف ابن قصي وتلاه هاشم بن عبد مناف ثم المطلب بن عبد مناف ثم عبد المطلب بن هاشم .

بداية أجلى قصي قبيلة خزاعة عن مكة ، وحكمها من دار الندوة فجمع المناصب في يده . ودانت قريش لقصي زعيمها ومجمعها ، حتى اصبح أمره كالدين المتبع يساعده أبناؤه وكل سادات قريش وأشرافها . ثم بعد وفاة قصي ورثوا مناصبه ، ولكنهم تنافسوا فيما بينهم على هذه المناصب فوقعت بعض الخلافات بسبب ذلك . وكادوا أن يحتربوا ولكنهم تعقلوا وعملوا على تلافي ذلك الخلاف فعقد الإخوة أحلافا حزبتهم إلى فريقين ومعهم اتباعهم .وتناصحوا ووضعوا

الأمور في نصابها . [ اليعقوبي "1960" 232،241،259/1 ]

ومارس الملأ القرشي حكم مكة ومن أساليبهم التي انتهجوها مثلاً أنهم فرضوا ما يشبه الضريبة . ضريبة دخول وهي إتاوة يدفعها الداخل إلى مكة وتتمثل في أخذ بعض تجارة التاجر ، أو ثيابه أو إبله أو نحو ذلك وعرفت هذه الإتاوة باسم " الحريم " وقد يمتنع البعض عن دفعها .

وجعلوا العرف والعادة والتقليد قانونهم ، وحافظوا على حرية الفرد وحقوقه وخاصة الفرد الصالح الذي يحترم حقوق القبيلة ورؤسائها . وبرز حكام من قريش منهم عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية والزبير بن عبد المطلب وعبد الله بن جدعان والوليد بن المغيرة

ولا بد أن أعضاء مجلس الملأ مثلوا -الهيئة التشريعية التي تحل الخلافات . وتفرض العقوبات وتحدد المغارم والديات مثلاً : حدوا السارق بقطع يده وكانت دية القتل تقديرية ، و لم تحدد بمائة من الابل إلا في عهد زعامة عبد المطلب بن هاشم تبعا لفداء ابنه عبد الله في الرواية المشهورة . وأما دية الخفارة أي دية الحليف فهي سبعون ناقة . ونستنتج أن هنالك هيئة تنفيذية لاقامة الحدود والعقوبات وانفاذها . ولكن لا ندري إن كانت منتخبة أم بالتعيين ؟ وقد قطعوا يد " دييك " ثم وابصة بن خالد ، ومدرك بن عوف المخزومي بعد تكرار السرقة منهم . وقيل انهم رجموا وابصة لأنه كرر السرقة بعد أن قطعوا يده .

وقد يرفض أهل القتيل الدية ويطالبون بالثأر وفي هذا إيذان بالحرب . لأن بعضهم كانوا يعدون قبول الدية ضعفا . وابتدع الوليد بن المغيرة حكيم قريش " القسامة " وبموجب القسامة يحلف خمسون شخصا من أهل القاتل أنهم بريئون من هذا الدم . فيقبل أهل القتيل منهم ذلك . وقد يؤدي القسامة أهل القتيل أيضا لاثبات استحقاقهم دم قتيلهم. ويؤدي اليمين الرجال البالغون العقلاء.

وعاقبوا المشاغب الذي يثير الفتن والخلافات " بالنفي " إلى خارج مكة ومن ذلك حكمهم بنفي "حرب بن أميه " إلى بلاد الشام لمده عشر سنوات .

قام مجلس الملأ باتخاذ كل التدابير والإجراءات لتحقيق الأمن في مكة ونشر السلام فيها وفيما حولها . بل اتخذت لضمان ذلك خطوات مهمة منها .

1- أعلنت حرمة الحرم والمنطقة المحيطة به إلى خارج حدود وادي مكة . وجعلت حدوداً رسمية معلومة اعترف بها كل العرب . وتمتد هذه الحدود من التنعيم على طريق سرف إلى وادي مر الظهران على بعد حوالي ( 5 – 6 أميال ) ، ومن ناحية طريق جده حوالي( 10 أميال ) ، ومن طريق اليمن حوالي(6 اميال ).

وبلغ محيط مساحة أرض الحرم حوالي 760 ميلا مربعاً .

2- فرضت قريش على جميع القبائل العربية نزع السلاح عند دخول مكة في كل مواسم الحج ، وكذلك الأسواق التجارية الموسمية . وتحفظ هذه الأسلحة عند عبد الله بن جدعان ثم يردها إليهم عند خروجهم من مكة ومغادرتها .

3- استفادت قريش من مدة الأشهر الحرم (ذو القعدة - ذو الحجة - المحرم - رجب) فحققت حرمة المكان والزمان معا. وأقر كل العرب بذلك وامتنعوا عن القتال في مكة وفي الأشهر الحرم في كل أنحاء بلاد العرب . وصانت قريش مكة وأهلها وحجاجها وحمت الأرواح والأموال .

ميزت قريش نفسها بأسماء خاصة منها " آل الله وقرابينه " "سكان بيت الله " "أهل الحرم" "أهل الله" "جيران الله العالمية " وكان لأهل الحرم شعار أو سيماء يتخذونها إذا خرجوا من أرض الحرم وهي العلائق "فيعرفهم الناس بها . وإذا نوى أحد رجال قريش الحج تزيا بزي الحاج " .

وعلا قدر قريش وزاد تعظيم الناس لها وعظمت قريش نفسها وخاصة بعد عام الفيل ( 570 م ) رأت أن تضاعف التعظيم لنفسها ليهابها الناس وليتعرفوا عليها فيقصدوها . فابتدع القرشيون نظام التحمس "أو حلف التحمس" أي قررت قريش أن تتحمس للدين ففرضت على نفسها عدم تعظيم شيء من الحل مثل تعظيمها للحرم . وترك القرشيون الوقوف بعرفة والإفاضة منها، مع إقرارهم بأن عرفة أول وأهم المشاعر المقدسة والوقوف بعرفة من أركان الحج . ولكنهم تركوا ذلك للحجاج العرب وقالوا نحن أهل الحرم فلا ينبغي لنا أن نخرج من الحرمة ولا نعظم غيرها كما نعظمها نحن الحمس ، والحمس أهل الحرم . وفرضوا التحمس أيضاً على كل مولود من أم قرشية . وتنضم المرأة غير القرشية إلى الحمس بزواجها من رجل قرشي مثل ضباعة بنت عامر زوج عبد الله بن جدعان .

وإذا دخلوا في التحمس وأحرموا به لم يدخروا لبناً ولا يحولون بين مرضعة ورضيعها حتى يعافه بنفسه. ولا يحلقون شعراً، ولا يقلمون ظفرا .ولا يلبسون في إحرامهم وبراً ولا صوفا، ولا شعرا، ولا يتطيبون ولا يتدهنون. ولا يمسون النساء، ويلبسون ثيابا جديدة. ويتركون أكل اللحم. ويطوفون بنعالهم إلى أن استن الوليد بن المغيرة خلع النعال عند الطواف. واتخذوا قبابا حمراء (وهي بيوت من الأدم الأحمر ) يعرفها الحجاج ويؤمونها لأية حاجة أو سؤال. ولا ينبغي للحمس أن يأقطوا الإقط ، ولا يسلؤوا السمن. ولا يدخلوا بيوت الشعر ، ولا يستظلوا بغير الأدم .

وفرضت قريش على أهل الحل عدم جلب أطعمة معهم إلى مكة . وفرضوا على من يحج لأول مرة كراء أو استعارة ملابس من الحمس . أو الدخول إلى الحرم والطواف به عاريا . أو بملابسه ولكن يجب عليه خلعها وإلقاءها أرضا بعد الانتهاء من الطواف . وطاف بعض الرجال عراة ، إلا النساء فان عليهن أن يضعن ثيابهن عنهن ما عدا درعا لهن يطفن به .

وتحمست النساء وعلامات أو شعائر تحمسهن أنهن لا ينسجن ولا يغزلن ء ولا يسلأن السمن .

ودخل مع قريش في التحمس كنانة وخزاعة وبنو عامر بن صعصعة ، إلا بكر بن عبد مناة .وكان بعض نساء غير قرشيات ينذرن تحميس أبنائهن . ومنهن سلمى بنت ضبيعة نذرت ذلك وحمست ابنها .

ونرى أن التمحس الديني في مظهره ذو أهداف سياسية واضحة أهمها تعميم التبعية القرشية (الهوية ) وإعلانها دائما وخاصة في موسم الحج داخل مكة بالتحمس ، وخارج مكة بلبس العلائق وتعبر فكرة التحمس أو حلف التحمس عن إقرار بحق المواطنة في مكة وتأكيد الانتماء إلى أرض الحرم والإعلام بذلك .

وكانت حرية الرأي ، والمناقشة ، والمطالبة بالحقوق مكفولة لكل قرشي وحتى أمام زعيم قريش بل مطالبته صراحة مثال ذلك مواقفهم مع عبد المطلب زعيم مكة يوم أن عزم على حفر بئر زمزم لأنها كانت مطمورة ، فرفضوا مساعدته . وبعد أن قام عبد المطلب بالحفر وأعاد ماء زمزم طالبوه بالمشاركة بل طالبوا بتوزيع كنوز الكعبة الدفينة التي استخرجها عبد المطلب . وما دار حول ذلك من أمور .

عقدت قريش علاقات خارجية مع جيرانها وغيرهم من عرب الجزيرة بل مدت علاقاتها إلى خارجها أيضا فعقدت قريش علاقة وثيقة وطيبة مع قبائل الحجاز ونجد . وأهمها علاقة قريش بقبيلة ثقيف في الطائف . وكانت الطائف مصيفا لأهل مكة نظرا لطيب مناخها صيفا واعتداله وجعلوها مركزا لاستثماراتهم حيث امتلك أغنياء مكة وأثرياؤها بساتين مثمرة فجلبوا من الطائف العنب والزبيب ، والخمور ، والرمان وغيرها من الفواكه . وجلبوا الأدم " الجلود المدبوغة ". وتقع سوق عكاظ على مقربة من الطائف وارتادتها قريش بل هي لها . كذلك عقد كبار سادات مكة وأشرافها أحلافاً مع رجال قبائل ثقيف وهوازن وهذيل ثم رغبت قريش في النزول في وادي وج من أودية الطائف لان عدد قريش تزايد عن سعة وادي مكة، ولكن قبيلة ثقيف رفضت وكادوا أن يحتربوا ثم تصالحوا وعقدوا حلفاً .

لم تحالف قريش أحداً من قبائل يثرب، وذلك نظرا لقيام حروب داخلية بين

الأوس والخزرج في يثرب . لكن قريش حرصت على عقد علاقات طيبة مع أهل يثرب بل هنالك علاقة مصاهرة مع بني النجار الخزرجيين فقد أصهر إليهم هاشم بن عبد مناف .

وعقد القرشيون علاقات طيبة مع يهود الجزيرة في يثرب ، وخيبر وتيماء وفدك، ووادي القرى . بل بلغت علاقتهم من التقدير والاحترام المتبادل مبلغا كبيرا بوصف قريش سادة العرب وأهل البيت المعظم . وقريش عدت اليهود أهل الكتاب الأول بل أقام بعض اليهود في مكة بصفتهم تجاراً مما يدل على قيام علاقات تجارية . [ ابن هشام "د.ت" 258/1، 330 ]

وحالفت قريش بني سليم ، بل أقام بعض أفراد من بني سليم في مكة . وتولى حكيم بن أمية بن حارثة السلمي الحسبة في مكة . واغضب ذلك بعض القرشيين . وقد حالفت قريش بني شيبان وبني عذرة ،وعقدت قريش مع قبيلة تميم صلات رحم ومصاهرة وخالطتها بكثرة فدخل بعض بني تميم في التحمس . وفاز بنو أسيد من بني النباش من تميم بحق المواطنة في مكة . وعقدت قريش حلفا مع قبائل تميم وكلب وأسد وطيئ . وتولت تميم أمر الإجازة بالحج من عرفة . و شاركت تميم في ادارة سوق عكاظ حيث كان لها حكومة السوق وربما وصلت إلى هذا المنصب " حكومة عكاظ " بمساندة الفرس .

واعتمدت قريش في سياستها على سياسية المسالمة واللين . وكانت خطة سياسية عملية ثابتة ، مارستها مع جميع العرب في داخل الجزيرة العربية ، ومع غيرهم في الخارج من فرس وروم وأحباش . ودأبت قريش عل نشر السلام واستتباب الأمن داخل مكة وما حولها وعبر طرق قوافل التجارة .

وأقلعت قريش عن الحروب والغزو ، والغارة واجتنبت ذلك تماما واستبدلت به الإيلاف والمسالمة وعقد الصلات والروابط مع الجميع . ما عدا ما تورطت فيه قريش من حروب منها : يوم ذات نكيف وقد قاد جيش قريش المطلب بن عبد مناف ، وكان على رأس ألف مقاتل ، ومعه الأحابيش وغيرهم ضد بني كنانة وهزموهم .وأخرى اشتهرت باسم " أيام الفجار" لوقوع هذه الحرب في الأشهر الحرم وقد خاضتها قريش مع القبائل الحليفة اضطراراً بسبب حلفائها وبسبب لطيمة النعمان إلى عكاظ .

الفجار الأولوقع حوالي عام 585م وكان عمر الرسول محمد ﷺ 15 منة . ودار القتال فيه على مدى ثلاثة أيام.

اليوم الأول : " فجار الرجل " بين كنانة وهوازن و لم يقع فيه قتال . اليوم الثاني " فجار المرأة " بين قريش وهوازن دار فيه قتال يسير . اليوم الثالث " فجار الرباح " بين كنانة وهوازن قتل فيه أحد بني كنانة ثم توسط عبد الله بن جدعان وعقدوا صلحا .

**الفجار الثاني :** وقع في العام التالي أي حوالي سنة 586م . استمر القتال خمسة أيام متفرقة على أربع سنوات وهي :

**اليوم الأول :** " فجار البراض " ويسمى يوم نخلة وكان لقيس عيلان على كنانة وقريش .

**اليوم الثاني :** " يوم شمطة " قرب عكاظ وكان لهوازن على كنانة .

**اليوم الثالث :** " يوم العبلاء " قرب عكاظ لقيس على كنانة وقريش .

**اليوم الرابع :** " يوم شرب " قرب عكاظ لقريش وكنانة على هوازن .

**اليوم الخامس:** "يوم الحريرة " التقت فيه الجموع وكان لقيس على كنانة وقريش فانهزمت كنانة واشتد القتل ثم تداعى القوم إلى الصلح واقترح عتبة بن وبيعة تعداد القتلى، قتيل مقابل أخر ، ثم تدفع دية الفضلة . وعرفوا نظام الرهائن في الحروب فقد رهن حرب بن امية ابنه أبا سفيان يوم الحريرة وفعل آخرون الشيء نفسه وبعد عقد الصلح أطلقوا الرهائن وانتهت حروب الفجار حوالي سنة 590 م . [ ابن هشام "ت." 1/188-189 ]

وكما استعملوا الرهائن في الحرب والسياسة استعملوها أيضاً مقابل مصالح اقتصادية ، وذلك عندما قدمت قريش الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي رهينة عند أبي يكسوم الحبشي؛ ولذلك اشتهر باسم الحارث الرهين .

ولم يكن لقريش جيش نظامي كغيرها بل اعتمدت على رجال قريش أنفسهم ، ومن يلحق بهم من حلفائهم وفي مقدمتهم جماعة الأحابيش والموالي والعبيد والمرتزقة من المحاربين المأجورين .

وتولى قيادة الجيش في الحرب كبار سادات قريش بل ظهر منهم قادة كبار عرفوا باسم ( الجرارون ). وهو لقب قائد جيش يبلغ تعداده ألف مقاتل وهما اثنان من قريش المطلب بن عبد مناف يوم ذات تكيف ، وأبو سفيان صخر بن حرب في معركة أحد ، ويوم غزوة الخندق . يضاف إلى ذلك قوة قريش المعنوية والمادية ، واتخذت قريش الشرطة من الرجال الأقوياء من قبيلة غفار لحفظ الأمن ونشر السلام داخل مكة وحولها . [ ابن حبيب "د.ت" 246 ]

**الأحلاف القبلية :**

ما عدا الحروب المذكورة سابقا بقيت قبيلة قريش على سياسة المهادنة والمسالمة وانتهجت سياسة الحياد التام على الصعيدين الداخلي مع عرب الجزيرة والدولي مع الفرس والروم والأحباش . وعقدت المحالفات وتعددت أحلافها الداخلية والخارجية . ومنها.

**حلف الاحابيش :** عقده عبد مناف بن قصي مع عمرو بن هلل بن معيص عامر مدبر بني كنانة .

**حلف المطيبين :** عقده بنو عبد مناف ومعهم بنو أسيد وبنو زهرة وبنو تيم ، وبنو الحارث بن فهر عقب النزاع الذي وقع بين بني قصي .

**حلف الأحلاف:** عقده بنو عبد الدار ومعهم بقية البطون القرشية .

وخرج عن الحلف قريش الظواهر (عامر بن لؤي ومحارب بن فهر ) فلم يكونوا مع أحد منهم .

وكاد القوم أن يحتربوا فتقع حرب أهلية داخلية في مكة بين البطون القرشية ، تمزقهم وتقضي عليهم وتفقدهم هيبتهم وكل مالهم . لذلك سارعوا إلى المفاوضة والتشاور . وقام عقلاؤهم بفض النزاع وحلوا الخلافات فأعطوا الرفادة والسقاية لبني عبد مناف ، والمناصب الأخرى لبني عبد الدار . ولكنهم ظلوا على حلفهم وتحزبهم .

وحرص شيوخ مجلس الملأ القرشي على وحدة القبيلة وحل مشاكلها وإرضاء طموح زعماء قريش إلى الوظائف حتى بلغت ست عشرة وظيفة توزعتها البطون القرشية في نهاية القرن السادس الميلادي كما ذكرناه .

وأمنوا وحدة القبيلة وتضامنها بل ضمنوا سلامة وأمن كل من يدخل مكة من القادمين للحج أو للتجارة .

**حلف الفضول :** عقد سادات قريش هذا الحلف وكان هدفهم حماية التجار القادمين أي الأجانب وضمان حقوقهم فقد وقعت مظلمة على رجل يمني باع بضاعته للعاص بن وائل السهمي فظلمه حقه وأبى أن يدفع له الثمن فلجأ اليمني إلى بعض الأحلاف فلم يساعدوه و لم ينصفوه فضلاً عن أحداث مماثلة .

وقد عقد بنو هاشم وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تميم هذا الحلف بعد نهاية حروب الفجار حوالي سنة ، 590م لتحقيق العدل وضمان الحقوق ، بالوقوف في وجه كل ظالم . فيكونون مع المظلوم ضد الظالم ، ولمساعدة كل محتاج . اجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان وحقق الحلف أهدافه فدفع العاص بن وائل ثمن البضاعة للرجل اليمني . واستمر دور هذا الحلف وحقق نتائجه حتى بعد الإسلام عندما طبقوه لنصرة الحسين بن علي وردوا عليه ماله من الوليد بن قتيبه بن أبي سفيان والي المدينة المنورة وذلك لان الرسول ﷺ . أقر حلف الفضول ومدحه.

**حلف لعقة الدم :** عقده بنو عبد الدار وبنو عدي عندما اختلفت البطون القرشية على من سينال شرف رفع الحجر الأسود ، لوضعه في مكانه عندما جددت قريش بناء الكعبة المشرفة قبيل الإسلام . وغمسوا أيديهم في جفنة فيها دم ولعقوه .ثم اهتدوا إلى حسم الخلاف بالتحكيم الذي وقع على يد الصادق الأمين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ وذلك قبل ان يبعث نبيا .

وحالفت قريش قبائل كثيرة وعرفت "الحلف الفردي" بين رجل وآخر فيعقد الرجلان الحلف بينهما بشهادة الشهود

عليهما . يدخل ضمن التحالف أيضا علاقة الجوار ، والموالاة ( فالمولى حليف ) . وقد يبلغ الأمر أن يتحول الحلف إلى انتساب أي تبني الرجل حليفه أو مولاه . ويترتب على الحليف كل التبعات العامة المناطة برجال القبيلة الصرحاء . وكان أكثر الموالي من العبيد العتقاء " المحررين " فيعرف العبد بعد عتقه بانه "فلان مولى فلان".

والحلف والولاء والجوار علاقات وروابط قابلة للإلغاء وتحل لأسباب قوية مخلة أو مشينة أو مضرة للحليف وذويه . فينذر الرجل قبل ثلاثة أيام وعليه أن يغادر أرض القبيلة ، أو يخرج خارج المدينة في نهاية المهلة مباشرة . [ السهيلي "1971" 39/1 ]

## العلاقات الخارجية مع مملكة حمير والفرس والروم والأحباش :

ذكر الرواة وأهل الأخبار أن تبع اليمن أسعد أبا كرب الحميري أول من كسى الكعبة المعظمة بالأنطاع ، بل أوصى بتعظيمها وكسوتها. كما أن مكة من عهد مملكة معين وسبأ ثم حمير( 1350 ق .م - 525م ) كانت محطة على درب قوافل التجارة (درب البخور ) ، الذي يربط بين اليمن في جنوب بلاد العرب وبلاد الشام في الشمال .

ثم هاجرت قبائل يمنية إلى مكة وسكنتها جرهم وخزاعه كما ذكرنا سابقا . ويدلنا وفد التهنئة الذي ضم نسوة قرشيات في عهد الملك العزيالط الذي ذكرناه على قيام علاقات صداقة وتجارة .

وعندما عقد سادات قريش الإيلاف توجه المطلب بن عبد مناف وعقد الميثاق أو العقد الاقتصادي ( إيلاف قريش ) مع أقيال اليمن .

بدأت العلاقات الاقتصادية بين مكة واليمن من قبل عهد قريش وتوثقت مع قريش من مطلع القرن السادس الميلادي .بل سيطرت قريش على نقل التجارة بعد الإيلاف الذي تعهد تجار قريش بموجبه بالقيام بهذه المهمة .

ومما يذكر أيضا علاقة الصداقة بين عبد المطلب بن هاشم " وذي نفر الحميري " وقد كان من نتائج هذه الصداقة أن قام ذو نفر الحميري بمحاربة أبرهه الحبشي وكذلك فعلت قبيلة ختعم . ولكن أبرهه هزمهم ، وتقدم سائراً إلى مكة لهدم الكعبة ثم هزمت الطير الأبابيل " أبرهه وجيشه " . وحمى الله بيته ، وقريش أهل الحرم .

كذلك جاء ذكر وفد عبد المطلب بن هاشم زعيم مكة ، الذي قدم إلى اليمن لتهنئة ملكها " سيف بن ذي يزن "عقب انتصاره على الأحباش ، وطردهم من اليمن عام 575م . [ ابن هشام "د.ت" 47/1-48 ]

وكان لقريش علاقات وطيدة من صداقة وتجارة ثم علاقات سياسية ودينية مع قبائل شمال بلاد العرب ومنهم الأنباط ( مملكة الآنباط شمال غرب بلاد العرب وجنوب بلاد

الشام قامت مملكتهم من حوالي القرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد واستمرت إلى عام 106م بسقوط عاصمتهم البتراء على يد الرومان ) . بل إن قريش انتسبت إلى النبط حسب مقولة العباس بن عبد المطلب (رضى الله عنه) وقد بدأت العلاقة بالمصاهرة عندما تزوجت فاطمة بنت سعد - ( أم قصي بن كلاب ) بعد وفاة زوجها - من ربيعه بن حرام العذري من قضاعة . ودامت الصلات والروابط حتى إن قصياً دخل مكة بمساعدة أخيه من أمه ورجال من قضاعة . وتدعمت هذه العلاقة بمصالح اقتصادية وتجارة دائمة عبر مرور قوافل قريش بأرض النبط حتى تصل إلى دمشق الخاضعة لحكم الروم .

أما العلاقة الدينية فقد قيل إن الأصنام في مكة أغلبها مجلوبة من الشمال بل من بلاد النبط عندما أتى بها عمرو بن لحي زعيم خزاعة آنذاك واكبرها هبل واللات والعزى ومناة .

اتصلت قريش بالغساسنة (مملكة الغساسنة حلفاء الروم) . وتأكدت العلاقة الرسمية بعد أن أخذ هاشم بن عبد مناف الايلاف من قيصر الروم في بلاد الشام . وتذكر الروايات أن القيصر ساعد قبيلة عذرة القضاعية (المتنصرة ) لأنها كانت خاضعة لنفوذه وحضها لمساعدة قصي بن كلاب فهبت لنصرة قصي في مكة ضد خزاعة . وذلك ما يدل على أن رغبة الروم مازالت مستمرة في النفوذ إلى بلاد العرب ولكن عن طريق حلفائها ، لأن فشل حملتهم ( حملة إليوس جاليوس Aeilus Gallus حوالي سنة 24ق .م ) ما زال درسا محفوظا في ذاكرة قياصرة روما أو بيزنطة . فهي لا تريد تكرار الهزيمة لذا اكتفت بالنفوذ إلى المنطقة عن طريق حلفائها . [ الشريف "2000" 238-237/138 ]

وحصل نوفل بن عبد مناف على عقد الإيلاف من كسري الفرس . وفتح الطريق لتجار قريش في بلاد فارس والعراق مروراً بعرب الحيرة ( مملكة المناذرة ) وتواصلت رحلات التجارة ولكن بحجم أقل وأضعف من تجارة مكة مع الجنوب ( اليمن ) والشمال بلاد الشام وأهم ما يمثل تجارة الفرس لطيمة النعمان إلى عكاظ . وكان للفرس صلات وثيقة بتميم التي كانت منازلها على طريقهم قبل قريش في مكة . وكان الفرس يحتكرون تجارة الهند والصين لأنها تمر ببلادهم ولاسيما تجارة الحرير ويفرضون عليها ضرائب باهظة . وكان أهل الحيرة يسيطرون على تجارة الفرس مع بلاد العرب بصورة عامة . وتولى عرب الحيرة وتميم وغيرهم حماية تجارة الفرس في دخولها إلى بلاد العرب . ولكن كان لقبيلة قريش صلة قوية بالحيرة وحكامها المناذرة ( اللخميين ) حتى قيل ان القرشيين تعلموا الكتابة من أهل الحيرة . ثم قوي نفوذ قريش التجاري مع الفرس بعد أن ضعف نفوذ

مملكة الحيرة وما تلا ذلك من سقوط الحيرة ثم هزيمة الفرس على يد العرب في " معركة ذي قار " في مطلع القرن السابع الميلادي.

واتصلت قريش بالحبشة منذ أن خرج عبد شمس بن عبد مناف إلى نجاشي الحبشة وأبرم معه العقد التجاري ذاته " الإيلاف " فانتظمت العلاقة التجارية بين الطرفين . وحرص تجار مكة على بضائع الحبشة مقابل أن تجلب لهم قريش منتوجات من بلاد الشام ومن بلاد العرب أيضاً ، لان الأحباش لم يتمكنوا من العمل في التجارة عبر بلاد العرب نظراً لاحتكار العرب للتجارة في بلادهم . فاعتمد عليهم الأحباش وخاصة تجار قريش لأنهم كانوا يتاجرون بأنفسهم بصفتهم تجاراً برؤوس أموالهم الخاصة . وكذلك عملوا كوسطاء لنقل التجارة الخارجية . وسيطروا على قوافل التجارة وطرقها . وكان هذا العامل الاقتصادي فضلاً عن العامل الديني من أسباب قوة قريش المعنوية أي النفوذ الأدبي ، وكذلك النفوذ الاقتصادي وكانا من الأسباب المباشرة ؛ التي دفعت أبرهه الحبشي إبان حكمه في اليمن إلى إعداد حملته المشهورة "حملة الفيل " حوالي سنة 570م فضلاً عن السبب المباشر الذي ذكره الرواة والإخباريون ألا وهو تدنيس أو حرق كنيسة القليس EKKLYSIA التي بناها أبرهه في صنعاء بدعم من الرومان . وذلك لينافس بها كعبة مكة بل لهدم الكعبة وتحويل حج العرب إلى كنيسته أي تحويلهم إلى الديانة المسيحية .ولكن الله حمى بيته " الكعبة المعظمة " ، وأفشل حملة الفيل . وحمى قريش أهل الحرم مما زادهم إعظاما بين كل العرب . وفشلت حملة الفيل بعد أن أرسل الله طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل . ففتكت بهم وفشى المرض بين رجال الحملة وحتى الفيلة . فعاد الناجون منهم يجرون أذيال الفشل والخيبة والمرض .

وظلت العلاقة الاقتصادية مستمرة بين قريش وأهل اليمن وكذلك أهل الحبشة لمصلحة كل منهما .ولأن اليمن سرعان ما تخلصت من الأحباش وطردهم بعد ذلك بخمس سنوات أي عام 575 م . وظل أهل الحبشة محتاجين إلى الوسيط القرشي لنقل التجارة بعيدا عن اليمن نظرا لوجود الفرس أعداء الأحباش في اليمن ، وهم الذين ساعدوا على إخراجهم من اليمن ، فضلاً عن العداء التقليدي بين الفرس الروم ، وكان الروم حلفاء الأحباش . وهكذا قوي نفوذ قريش التجاري مع الأحباش واصبح دورهم مهماً جدا واعتمد الأحباش عليهم . واستمرت العلاقات الطيبة بين مكة والحبشة ، حتى رأينا أول هجرة من المسلمين اتجهت إلى الحبشة في السنة الخامسة من البعثة (حوالي 615م ) حسب رغبة الرسول محمد ﷺ بناء على حسن العلافة . [ ابن هشام "د.ت" 356/1،243-361 ]

وعموما فإن تاريخ مكة حافل منذ بداية نشأتها كمحطة على طريق القوافل التجارية وتجارتها أيضا قديمة وما أضافته القبائل إليها كان نشاطا سكانيا كتب تاريخا حافلا للقبائل وأبرزها قريش ، واستمرارية لهيبة هذا البلد الأمين . زاده الإسلام نورا وتوجها صادقاً سليماً .

**د. عواطف اديب سلامة**

## ثانيا : مكة – الكعبة – الحنيفية – الوثنية

### الكعبـــــة:

منذ أن أسكن إبراهيم الخليـــل ﷺ إبنه إسماعيل وأمه هاجر (عليهما الســلام )في مكة ، وبدعائه كما قال تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنِّــي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْــدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَــرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [سورة إبراهيم، الآية : 37]

فمنذ هذا الحدث التاريخي بدأ ظهور مكة تاريخيا، واكتسبت صفة القداسة . فنمــا مجتمعها ، وراجت تجارة قوافل الإسماعيلين . تذكر المصادر أن إبراهيم ﷺ كرر زيـــارة إبنه إسماعيل ﷺ في مكة . وهو يعلم بوحي من الله ان مكة (بيت محرم). ثم أوحى الله إلي نبيه إبراهيم ﷺ تجسيد (البيت المحــرم ) في بناء ونفذ خليل الله إبراهيم ﷺ الأمر وقـــام بتشييد البناء بمساعدة ابنه النبي إسماعيل ﷺ. وقال تعالى﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِــدَ مِــنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّــكَ أَنْــتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .﴾ [ سورة البقــرة ، الآيــة : 127 ]

فظهر البيت المحرم مجسماً على أرض مكة أي " الكعبة الشريفة " أو " بيت الله العتيق " . و أصبح رمزاً مقدسا في البقعة المباركة في مكة بجوار النبع المقدس ( بئر زمــزم) ( ركضــة إسماعيل ، أو هزمة جبريل ) الــتي تفجــرت مياهها المباركة منذ وصول إسماعيل ﷺ إلى مكة .

تقع الكعبة في الموضع الذي يعلــوه " البيت المعمور " الــذي يوجــد في الســماء السادسة أو السابعة ويسمي " الضراح " كما ترويه المصادر . وقد طافت الملائكة بالبيــت المعمور بعد أن وضعوا العرش في السماء . ثم كان أول عمل آدم ﷺ بعد أن أهبط مــن الجنة أن طاف بالبيت سبعا أي أن الطــواف من أوائل العبادات وقــد طــاف إبــراهيم وإسماعيل (عليهما السلام ) البيت واســتلما الركن وأديا صلاة خلف المقام امتثالا لآمر الله بتطهير البيت للطائفين والقــائمين والركــع السجود . وكان ذلك في حوالي القرن 19-18ق.م.

ثم أعلن النبي إبراهيم ﷺ دعوتــه منذ أن أتم بناء الكعبة . وأذن في الناس بالحج إلى بيت الله الحرام في مكة ، والمشاعر المقدسة – عرفات والمزدلفة ومنى .قال تعــالي : ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِــي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّــعِ السُّجُودِ(26)وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَــأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُــلِّ فَــجٍّ عَمِيقٍ .﴾ [سورة الحج ، الآيتان : 26-27]

منذئذ استمرت قداسة الكعبة ، واستمر الحج إلى بيت الله . ودام الناس على تأدية الحج حتى بعد انحرافهم إلى الشرك .

وكانت قريش وحلفاؤها تحج في أشهر معينة ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [ سورة البقرة ، الآية :197 ] و لم تكن طقوس الحج إلى مكة واحدةً لكافة القبائل ، بل كانوا يختلفون ، ويصنفهم المؤرخون إلى صنفين عامين هما : الحلة ، والحمس ، ويضيف محمد بن حبيب صنفاً ثالثاً هم الطلس. [ " د.ت" 178-179 ]

فظل الحج ، قائماً ومستمراً إلى ظهور خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله ﷺ في مطلع القرن السابع الميلادي وأصبح الركن الخامس من أركان الإسلام .

وظلت الكعبة المعظمة قبلة المسلمين في مكة المكرمة . أما صفة الكعبة فهي بناء مكعب الشكل غير متساوي الأضلاع طوله قامة أي حوالي تسعة أذرع وغير مسقوف .يشرع مدخله إلي جهة الشرق وليس له باب. [الازرقي "1979" 1/289-290]

وسميت كذلك لتكعيبها على الأرض

وكانت الكعبة أول بناء مقدس وضع للناس في مكة وهي " البيت العتيق " و قادس " و " بنية إبراهيم " ، و " الدوار " و" نادرة " تطلق بعض الأسماء على الكعبة

وعلى مكة أيضاً مثل " بكة " و " قادس " وغيرها .

نسبت أركان الكعبة إلي الجهات المقابلة لها فعرفت باسم (الركن الشامي ) يتجه إلى الشمال الغربي و ( الركن اليماني ) ويتجه إلي الجنوب الغربي . ثم الركن العراقي ، ويتجه إلى الشمال الشرقي . أما الركن الرابع فهو (الركن الأسود ) ، والذي وضع فيه (الحجر الأسود) ويتجه إلى الجنوب الشرقي . وعلى بعد خمسة أقدام من الحجر الأسود يقع باب الكعبة (مدخلها ) في جهتها الشرقية بين الركنين الأسود والعراقي .

ذكرت المصادر أن (الحجر الأسود ) و(مقام إبراهيم ) حجران من أحجار الجنة [السهيلي "1971" 1/221 ] واستعمل إبراهيم عليه السلام للبناء أحجارا رمادية مهيأة من جبال مكة .

اشتمل البناء ( الكعبة ) على " الحجر الأسود " و " جب الكعبة" أما (الحجر الأسود) فهو حجر قاتم اللون لامع بيضاوي الشكل قطره سبع بوصات وهو مقدس للاعتقاد بنزوله من السماء أو من الجنة على يدي جبريل عليه السلام حيث سلمه إلى إبراهيم عليه السلام وهو جزء من نيزك أسود .

وضع الحجر في ركن الكعبة المتجه إلى الجنوب الشرقي ويرتفع عن سطح الأرض بخمسة أقدام مثبت في جدار الكعبة . [الازرقي "1979" 1/244، 117 ]

**جب الكعبة** : هو جب عميق حفره إبراهيم عليه السلام في جوف الكعبة إلى يمين الداخل ، بمثابة خزانة لحفظ ما يهدى إلى الكعبة . وقيل بل هي بئر كانت تسمي (الأخشف ).

**أما الحطيم** : فهو المنطقة التي بين المقام والباب وقيل بل هي المنطقة بين الركن والمقام وبئر زمزم . أي أنها خارج الكعبة . ويطلق الحطيم على جدار الكعبة أيضا وهو الجدار الذي فيه ميزاب الكعبة بعد تسقيفها . وتعليل هذه التسمية لأنهم كانوا يتحاطمون بالأيمان عنده ." مقام إبراهيم " صخرة صلدة (حجر صوان ) اتخذه إبراهيم عليه السلام مقاما له حيث ارتقاه أثناء بناء الكعبة ء وعند مناداة الناس إلى الحج (حج بيت الله ) . ويحمل حجر المقام آثار أقدام إبراهيم عليه السلام فهي محفورة وباقية إلى يومنا هذا ، يقابل المقام باب الكعبة.

حملت بعض جدران الكعبة أسماء تدل على استعمالها مثل " الملتزم " وهو ما بين الحجر الأسود وباب الكعبة ويسمي "المدعى" و" المتعوذ " .

أما الجدار من الركن اليماني إلى الباب المسدود (كان في دبر الكعبة وألغي) فيسمي " المستجار " وسمي أيضا ملتزم عجائز قريش، حيث يقف الملتزمون وقوفا بينما يجثون على الركب جثواً عند " المستجار" . [ الطبري "د.ت" 132/1 ]

ذكرت المصادر أن البناء " بنية إبراهيم " أي الكعبة المعظمة ، تعرضت للسيول الجارفة مما أدي إلى خراب وتدمير بعض أجزائها . فأجري لها الترميم والإصلاح على يد "عماليق " في عهد جرهم ، ثم في عهد خزاعة عملوا ترميماً آخر قبل دخول قريش إلى مكة . [ الازرقي "1979" 49/3، 42، 29 ]

ثم قام قصي بن كلاب بعد استقراره في مكة مع قبيلة قريش فهدم الكعبة رغبة في تجديد بنائها . وجعل قصي للكعبة سقفا من " خشب الدوم وجريد النخل " وظلت الكعبة على بناء قريش إلى قبيل البعثة النبوية ، عندما قررت قريش تجديد البناء مرة أخرى وذلك حوالي عام 605 م . ولما أتموا البناء ووصلوا إلى موضع " الحجر الأسود " اختلفوا على من منهم سينال شرف حمل الحجر الأسود ليضعه بيده في مكانه .

وكاد أن يجرهم الإختلاف إلى الحرب، ولكنهم ما لبثوا أن رشدوا واتفقوا على التحكيم . ثم انتهي الأمر إلى تحكيم أول من يدخل المسجد . وبوصول " الأمين " محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه قام بحل الخلاف على النحو الآتي، بأن وضع الحجر في وسط رداء ، وطلب من سادة قريش و شيوخ القوم ووجوههم حمله من الأطراف ، وإيصاله إلى موضعه . ثم تولي صلى الله عليه وسلم بنفسه حمل الحجربيده الشريفة ثم وضعه في مكانه .

واعتادوا على تقديس الكعبة ، وظلت البيت المعظم الأوحد في مكة بل في بلاد العرب (الجزيرة العربية ) على الرغم من وجود بيوت أخرى مثل كعبة العبلات قرب الطائف ، وكعبة نجران . ولكن تفردت الكعبة بقدسية خاصة دون البيوت الأخرى لأنها بنية إبراهيم عليه السلام ولأنها كانت منطلق عبادة الله رب العالمين وتوحيده " العقيدة الصادقة " . التي نادي بها النبي إبراهيم عليه السلام واستجاب لدعوته أهل بلدان العرب قال تعالى : ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.﴾ [سورة ال عمران ، آية : 67]

منذ أن فرغ إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام ) من بناء الكعبة المعظمة جهر إبراهيم عليه السلام بالدعوة إلى الله وإلى حج البيت. واتجه نحو جهات الكون الأربع من موقعه عند الكعبة معتليا مقامه

فاتجه إلى الشمال والجنوب والشرق والغرب ــ حيث استقبل اليمن ودعا ، واستقبل الشام ، والمشرق والمغرب ، وأجيب لدعوته " أن لبيك اللهم لبيك" واستمر الحج يمارس ويؤديه العرب بطقوسه ومارسه المسلمون بوصفة فريضة على كل مسلم ومسلمة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

واعتادوا كسوة الكعبة في الجاهلية فكسيت الأنطاع وأول من كساها تبع أسعد الحميري وقيل بل هو أبو كرب وذلك قبل الإسلام بحوالي سبعة قرون حوالي مطلع القرن الأول ق .م .وكستها نتيلة – أم العباس بن عبد المطب – ديباجاً وهي أول من كسى الكعبة الديباج . وكسيت الكعبة بالخصف والمعافر اليمانية والملاء والوصائل ،والعصب . وكسيت بمطارف الخز الأخضر والأصفر ، ونمارق عراقية ، وكساها أبو ربيعة المخزومي حبرات يمانية . وكستها قريش بعد أن قامت بتجديد بنائها. ثم كساها النبي ﷺ الثياب اليمانية . وكساها الخليفتان عمر بن الخطاب ء وعثمان بن عفان رضي الله عنه القباطي وكساها الحجاج الثقفي الديباج . وكانت الكساوي توضع بعضها فوق بعض أي الجديد فوق القديم ، إلى أن خفف عنها بإزالة الثياب القديمة عندما كساها الخليفة معاوية بن أبي سفيان القباطي والديباج فأستأذنه شيبة بن عثمان في إزالة الثياب القديمة . وتخلع الكسوة على الكعبة يوم التروية ثم يوم عاشوراء (العاشر من المحرم ) . وقد اعتادت قريش أن تترافد في كسوة الكعبة إلى أن أثرى أبو ربيعة بن المغيرة المخزومي فجعل الكسوة عليه عاما وعلى قريش كلها في العام الأخر. [ الازرقي "1979" 134،251،260،265/1]

**الحنيفية :**

جاءت في القرآن الكريم آيات تشير إلى الدين الحنيف الذي هو ملة إبراهيم عليه السلام والتي جاء الإسلام لتجديدها قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ

مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . ﴾ [ سورةالبقرة ، الآية :135 وانظر كذلك سورة الأنعام ، الآيتان : 79 ، 161؛ سورة آل عمران، الآيتان : 67- 68 ، سورة النحل ، الآيتان : 120، 123؛ سورة النساء ، الآية : 125؛ سورة يونس , الآيتان : 104-105؛ سورة الحج , الآيتان : 30-31 ؛ سورة الروم, الآية: 30 ؛سورة البينة ، الآية : 5]

ويظهر من الآيات القرآنية أن الحنيفية هي الدين الصحيح ، وأنها ديانة النبي إبراهيم الخليل عليه السلام وأنها تتميز من الديانات الموحدة الأخرى كاليهودية والنصرانية ، وهي تمثل الدين الأصلي الحقيقي النقي ، المقابل للوثنية أو لديانات أهل الكتاب المشوهة . وقد ذكر المؤرخون عدداً من رجالات قريش كانت تدين بالحنيفية عند ظهور الإسلام . [ابن هشام "د.ت" 242/1 ]

وصف الله تعالى نبيه وخليله إبراهيم عليه السلام بأنه كان إماما وحنيفا ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [ سورة النحل , الآية : 120 ]
وأنه لم يشرك بالله شيئا ، أي أنه موحد لله .

أما معني حنف ـ تحنف ـ حنيف ـ الحنيفية فقد فسرتها معاجم اللغة بدلالات متعددة ومختلفة وما نثبته هنا لصلته المباشرة بموضوع البحث ونشير إليه فيما يأتي :

الحنيف المسلم الذي يتحنف عن الأديان أي يميل إلى الحق . وقيل الحنيف هو الذي يستقبل قبلة البيت الحرام على ملة إبراهيم عليه السلام وقيل من أسلم لأمر الله تعالى و لم يلتو ، والحنيف المستقيم . ولكن العرب خصصت الحنيف بمن كان على دين إبراهيم عليه السلام لأن إبراهيم عليه السلام كان حنيفا و لم يكن من المشركين . [ابن منظور "د.ت" 738/1 ]

واعتادوا في الجاهلية على أن من اختتن ، وحج البيت ويضيف البعض الاغتسال من الجنابة ، واعتزل عبادة الأصنام فهو حنيف ، لأن العرب لم تتمسك بشيء من دين إبراهيم عليه السلام سوى ذلك . وهكذا فكل من سار على ذلك أي على نهج ملة إبراهيم عليه السلام فهو حنيف ويشمل ذلك جل العرب . أما في الإسلام فأصبح الحنيف هو المسلم . قال عبدة الأوثان نحن حنفاء على دين إبراهيم عليه السلام وقد تغير ذلك بعد الإسلام فأصبح الدين الحنيف : الإسلام ، والحنيفية : ملة الإسلام .

كانت غالبية العرب تحج إلى الكعبة المعظمة ، و تختتن . ومارس بعض العرب ذلك من سنن إبراهيم عليه السلام وبعض آخر إلتزم بأغلبها . وجاهر البعض بترك عبادة الأصنام واجتنبها ، فقيل انه تحنف ، وانقطع إلى عبادة الله وتوحيده .

نتساءل عن ملة إبراهيم عليه السلام أي ما هي الحنيفية التي نادي بها النبي إبراهيم عليه السلام وما سننها نعلم من كل ما تقدم في آيات الذكر الحكيم أن النبي إبراهيم عليه السلام دعا إلى عبادة الله وحده ، وحج البيت ،

وبقية العبادات والشعائر والسنن القويمة في الأقوال والأفعال . وقد استن الكثير من الشرائع ، وأهمها الطهارة " خمس في الرأس وخمس في الجسد " . في الرأس قص الشارب، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسواك وفرق الشعر . وفي الجسد تقليم الأظافر ، وحلق العانة ، والختان ، ونتف الأبط وغسل أثر الغائط والبول (غسل الدبر والفرج ) ، وغير ذلك مما ذكرته المصادر من سنن إبراهيم عليه السلام وأنه أول من استنها وعمل بها . [ الطبري "د.ت" 144/1 ]

ظل أغلب العرب في مكة بل في بلاد العرب يمارسون طقوس العبادة من إحرام بالحج والعمرة ، وطواف وسعي ثم الوقوف بالمواقف كلها في الحج ، وزيارة المناسك عرفة ومزدلفة ومنى . وداموا على تعظيم الكعبة وحتى من مال منهم وانحرف إلى عبادة الأصنام ، والأوثان فقد عبدها لتكون له زلفى إلى الله أي ليتقربوا بواسطتها إلى الله كما قال تعالى : ﴿...مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ...﴾ [ سورة الزمر ، الآية : 3 ]

نستنتج مما تقدم أن العرب الأحناف على فئتين.

1- من اختتن ، وحج البيت من العرب أحناف حافظوا على بعض مبادئ دين إبراهيم عليه السلام.

2- من اختتن وحج البيت واجتنب عبادة الأصنام والأوثان ، والتزم ببقية شعائر دين إبراهيم عليه السلام كانوا أحنافا مسلمين . وأغلبهم كانوا من أهل مكة (قريش ) وبعض العرب الآخرين . ومع ذلك فكلا الفريقين هم أحناف . ومن عداهم صابئة تشمل عبدة الكواكب والأصنام . [ الشهرستاني "1961" 231،232/1 ]

## الدين في مكة

إن في القرآن الكريم عن الدين قبل الإسلام في مكة صورة تختلف تماماً عما تقدمه كتب التاريخ والأدب ، والمعلومات التي فيه قلما يقدم الشراح والمفسرون معلومات أضافية مكملة عنها . كما أن القران الكريم أحياناً لا يشير إلى ما تردد في المصادر العربية ، هذا وسنذكر الصورة التي تتجلى في القرآن الكريم عن العبادة في مكة قبل الإسلام :

### الله:

يرد في القرآن الكريم بصراحة أن المشركين كانوا يعبدون الله تعالى : ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(84)سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(85)قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ(86)سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ(87)قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(88)سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [ المؤمنون ، الآية: 84-89 ]

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

[ سورة العنكبوت ، الآية : 63]

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [ سورة يونس ، الآية: 22؛ وانظر سورة الأنعام ، الآية: 61؛ سورة لقمان ، الآية : 25؛ سورة الزمر ، الآية: 38؛ سورة الزخرف ، الآية: 87؛ سورة فاطر ، الآية : 42؛ سورة النحل ، الآيتان: 53-54؛ سورة النمل ، الآيتان : 60-64 ]

غير أن المشركين ﴿ جعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾ [سورة إبراهيم ، الآية :30]، ﴿" قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [ سورة الرعد ، الآية : 16؛ وانظر كذلك سورة فصلت ، الآية :9 ؛ سورة سبأ ، الآية : 33 ؛ سورة البقرة، الآية :165؛ سورة الرعد ، الآية : 33؛ سورة يوسف ، الآية :106؛ سورة غافر ، الآية: 12]

وهؤلاء الشركاء هم أو معظمهم بنات الله ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ(57)وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [ سورة النحل ، الآيتان: 57-58 ؛ وانظر كذلك سورة الزخرف، الآيات: 15-19 ؛ سورة الصافات ، الآيات: 149-153؛ سورة الأسراء ، الآيتان : 39-40؛ سورة الأنعام ، الآية: 100 ؛ سورة الأنبياء ، الآيات: 26-29؛ سورة مريم ، الآيات: 88-93 ؛ سورة يونس ، الآية : 18؛ سورة الزمر ، الآيات: 3،8 ،43]

## الجبت والطاغوت :

ذكر القرآن الجبت والطاغوت [ سورة البقرة : الآيتان 256-257؛ سورة النساء : الآيات ،51 , 60, 76 ؛ سورة المائدة :الآية 60؛ سورة النحل :الآية 36؛ سورة الزمر:الآية 17]

أن الجبت ذكر مرة واحدة مع الطاغوت الذي ورد ذكره في ثماني آيات سبع منها مدنيه ، وقد ورد بصيغة المفرد المذكر مرة، والمؤنث الجمع مرتين . وهو ولي الذين كفروا ، يضلهم ، ويتجنبه من يعبد الله ، ويؤمن به الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ويريدون أن يتحاكموا إليه ويعبدوه ، ويقاتلوا في سبيله .

ان الجبت والطاغوت يمثلان تسميتين لا يزال يكتنفها الغموض ، ذلك أن الآيات القرآنية التي تذكر الجبت والطاغوت لا تتضمن من التفاصيل ما يكفي للجزم في المراد هاتين التسميتين . وهكذا نجد أن كلمة الطاغوت تتغاير بين آية وآخرى ، وقد يكون ذلك بيانا عن شمولية معانيها أو تعدديتها في

الأقل . ويذكر الجبت والطاغوت جنبا إلى جنب في آية واحدة وكأنهما لفظان مترادفان مما قد يمثل اشارة إلى تقارب في المعنى أو التداخل بين الجوانب الوظيفية لكل منهما.

وتذكر بعض التفاسير أن الطاغوت هو كعب بن الأشرف سيد اليهود أو أنه الشيطان . أو الأنداد والأوثان الذين يعبدونهم من دون الله . أو أنهما صنمان كان المشركون يعبدونهما من دون الله أو أن الجبت هو كاهن. وعن عمر بن الخطاب ﷺأن " الجبت السحر والطاغوت الشيطان " . أو ان الجبت الساحر والطاغوت الشيطان . أو أن الجبت الساحر والطاغوت الكاهن أو الجبت الشيطان والطاغوت الكاهن ، أو الجبت الكاهن والطاغوت الشيطان ، ويذكر القرطبي أن الجبت الساحر بلسان الحبشية . [القرطبي "1935" 283/4]

بينما يقول ابن اسحاق " كانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب وتهدي إليها كما تهدي للكعبة وتطوف بها كطوافها بها وتنحر عندها " [ابن هشام "1955" 94/1 ]

وهكذا يبدو وكأن تسمية الطاغوت أطلقت في القرآن الكريم لتمثل بصورة عامة نطاقاً واسعاً من المعتقدات الدينية قبل الإسلام بكل ما له علاقة بهذه المعتقدات والمفاهيم من الشعائر الخاصة بها والشخصيات المكلفة بخدمتها . كما يحمل لفظ الطاغوت في تفسيره الديني الإسلامي معاني سلبية ترد في القرآن لغرض ثني العرب عن التمسك بما كانوا عليه من الأوضاع إبان وثنيتهم سواء أكانت تتصل بعبادتهم للأصنام أو زيارتهم البيوت غير الكعبة ، أو التجائهم إلى الكهنة والسحرة والأوثان احتكاما لأمور دينهم ودنياهم . والظاهر أن الفرق بين الجبت والطاغوت لا يكون الأ فرقاً يسيراً ، اذ يذكر القرطبي بأن الجبت والطاغوت هما كل معبود من دون الله أو مطاع في معصية الله . [القرطبي "1935" 133/5]

## الوثنية :

ويقصد بها الشرك واتخاذ آلهة من الأصنام والأوثان تعبد من دون الله. وقد ورد ذكر الصنم (الأصنام ) في القرآن الكريم خمس مرات [سورة الأعراف , الآية : 138، سورة إبراهيم , الآية :35 ؛ سورة الأنعام الآية : 74 ؛ سورة الشعراء , الآية : 71 ؛ سورة الأنبياء , الآية: 57]

والصنم هو " إذا كان معمولا من خشب أو ذهب أو فضة صورة إنسان فهو صنم ، وإذا كان من الحجارة فهو وثن " [ابن الكلبي "1924" 53] أما الوثن فيذكر في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع [ سورة العنكبوت, الآيتان : 16، 17 ؛سورة الحج الآية: 30] وفي موضعين يشار إليه

ضمن قصة قوم إبراهيم ، في حين تنسحب سورة الحج على أحوال العرب قبل الإسلام [سورة الأنعام , الآية :74 ]

أما الأوثان فقد ذكرت في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع [ سورة المائدة , الآيتان : 3 ، 90 ؛ سورة المعارج , الآية : 43) وتتعلق كافة هذه الآيات بالعرب عند ظهور الإسلام ويصفها ابن الكلبي : إنه كانت للعرب حجارة غير منصوبة يطوفون بها ويعتزون عندها، يسمونها الأنصاب ، ويسمون بها الدوار . [ابن الكلبي "1924" 42]

أما أهم أصنام مكة فهو هبل ، وكان على بئر في جوف الكعبة تجمع فيه الهدايا وكان شعار قريش يوم أحد " أعل هبل ". ومن أصنامهم أساف ونائلة ونهيك ومطعم الطير. ومناف وقزح والعزى واللات ومناة والشعرى وبعل وود وسواع ويغوث ويعوق ونسر وذو الشرى والخلصة والفلس ، كما يورد ابن الكلبي آلهة أخرى كانت معروفة عند أهل مكة .

وكان عمرو بن لحي الخزاعي قد جلب أصناماً ووضعها في جوف الكعبة , وزداد عدد الأصنام بعد ذلك حتى بلغ يوم فتح مكة حوالي 360صنماً أمر رسول الله بتحطيمها وإخراجها من الكعبة ومن الحرم كله.

وعبد أهل مكة " الجن " ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ...﴾ [ سورة الأنعام , الآية:100؛ وانظر كذلك سورة سبأ , الآية : 41 ؛ سورة الصافات , الآية : 158] ، كما عبدوا الشعرى ، وكذلك الشمس [انظر سورة النحل , الآية : 24] وهناك أشجار مقدسة . وكان للعرب بيوت مقدسة أشهرها الكعبة .

وكانت قريش وحلفاؤها تحج في أشهر معينة ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ...﴾ [ سورة البقرة , الآية : 197 ] ولم تكن طقوس الحج إلى مكة واحدة لكافة القبائل ، بل كانوا يختلفون ، ويصنفهم المؤرخون إلى صنفين عامين هم : الحلة ، والحمس ، ويضيف محمد بن حبيب صنفا ثالثا هم الطلس . [ "د.ت" 178-179 ] وقد اقر الإسلام الحج ونظم الشرع طريقته .

**أ.د.عواطف اديب سلامة ، أ. د.خالد صالح العسلي**

## المصادر والمراجع

### المصادر الأولية :

القرآن الكريم .

التوراة .

ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد (ت 630هـ/1233م ) (1967) الكامل في التاريخ ، بيروت .

الازرقي ، أبو الوليد محمد بن عبد الله (ت 250هـ/864م) (1979) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، تحقيق رشدي الصالح محسن، بيروت، دار الثقافة.

الاصبهاني ، أبو الفرج علي الحسين بن محمد (ت 356هـ/966م) (1955) الأغاني ، القاهرة .

البخاري ، أبو عبد الله محمد (ت 256هـ/870م) (د.ت) ، صحيح البخاري، مكة المكرمة .

ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت 779هـ/1377م) (1389هـ) رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار ، القاهرة .

البكري ، أبو عبيد الله بن عبد العزيز (ت 487هـ/1094م) (1945) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، تحقيق مصطفى السقا ، القاهرة .

البلاذري، احمد بن يحيى (ت 279هـ/892م) (1959) ، أنساب الأشراف تحقيق ، محمد حميد الله ، القاهرة .

التجيبي، أبو يحيى محمد بن صمادح (ت 419هـ/1028م) (1971) مختصر تفسير الطبري ، القاهرة .

الجاحظ ، عمرو بن بحر ( ت 255هـ/868م)(1385هـ) البيان والتبيين، القاهرة.

ابن جبير ، أبو الحسين محمد بن أحمد (1964)، رحلة ابن جبير ، بيروت .

ابن الجوزي ، الأمام عبد الرحمن ( ت 597هـ/1200م) (1985) تلقيح مفهوم الأثر في عيون التاريخ والسير ، القاهرة .

ابن حبيب ، أبو جعفر محمد ( ت 245هـ/859م) (د.ت) كتاب المحبر ، رواية أبي سعدالحسن بن الحسين السكري ، تصحيح ايلزة ليختن شتيتر ، بيروت .

(1964) كتاب المنمق في اخبار قريش، تصحيح ، خورشيد احمد فاروق ، القاهرة .

ابن حزم ، أبو محمد محلي بن احمد ( ت 456هـ/1063م)

(1977) جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام محمد بن هارون ، القاهرة .

الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت ( ت 626هـ/1228م)

(1977) معجم البلدان ، بيروت .

ابن حوقل ، أبو القاسم النصيبي (ت 367هـ/979م) (1979)، كتاب صورة الأرض ، بيروت .

ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت808هـ/1405م) (1971) ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن

عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، بيروت .(1989) مقدمة ابن خلدون ، بيروت.

الزبيري ، أبو عبد الله المصعب بن عبد الله (ت236هـ/850م) (1976) كتاب نسب قريش ، نشره ليفى بروفنسال ، القاهرة .

ابن سعد ، محمد بن نبع (ت 230هـ/844م (1377هـ) الطبقات الكبرى ، بيروت .

السهيلي ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت 581هـ/1185م) ، (1971) الروض الأنف ، مصر .

السيوطى ، جلال الدين ابو الفضل عبد الرحمن بن الكمال (ت 911هـ/1505م) (د.ت) تفسير الجلالين ، بيروت .

الشهرستاني ، محمد بن عبد الكريم (ت 548هـ/1153م) (1961) الملل والنحل ، تحقيق محمد سيد الكيلاني ، القاهرة ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده .

الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310هـ/922م) (د.ت) تاريخ الأمم والملوك بيروت .(1954) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، ط 2، د . ن .

ابن عبد ربه ، أبو عمر احمد بن محمد الأندلسي ( ت328هـ/939م) (1940) العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، مصر .

العسكري ، أبو هلال بن عبد الله بن سهل ( ت 395هـ/1004) (1396هـ) الأوائل ، تحقيق محمد السيد الوكيل ، المدينة المنورة .

العصامي ، عبد الملك بن حسين ( ت 1111هـ/1699م) (1379هـ) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ، القاهرة.

الفاسي ، أبو الطيب تقي الدين محمد بن احمد (ت 832هـ/1428م) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، القاهرة .

القرطبي، محمد بن أحمد ت671هـ/1272م) (1935) الجامع البيان لأحكام القرآن ، القاهرة ، 20 ج .

القلقشندي، أبو العباس احمد (ت 821هـ/1418م) (1959) نهاية الأرب في معرفة انساب العرب ، تحقيق إبراهيم الابياري ، القاهرة .

ابن كثير ، عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمرو ( ت 774هـ/1372م) 1932) البداية والنهاية ، القاهرة .

ابن الكلبي ، هشام بن محمد بن السائب بن بشر ( ت 204هـ/1819م) (1924) كتاب الأصنام ، القاهرة .

المرزوقي، أبو علي احمد بن احمد ( ت 421هـ/1030م) (1322هـ) كتاب الأزمنة والأمكنة ، حيدر أباد .

المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين ( ت 346هـ/965م) 1965) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت .

ابن منظور ، محمد بن مكرم (ت 711هـ/1311م) (د.ت) لسان العرب ، إعداد يوسف خياط ، بيروت .

النهروالي ، الشيخ قطب الدين محمد بن احمد (ت 988هـ/1580م) د.ت) كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام .(1274هـ) أخبار مكة المشرفة ، الجزء3.

النويري، شهاب الدين احمد (ت 733هـ/1332م) (د.ت) نهاية الأرب في فنون الأدب .

ابن هشام ، عبد الملك بن هشام بن ايوب المعافري (ت 218هـ/833م) (د.ت) سيرة النبي ﷺ، القاهرة .

الهمداني ، أبو محمد الحسن بن احمد ( ت 334هـ/945م) (د.ت) الإكليل ، حرره نبيه أمين فارس ، بيروت .(1394هـ) صفة جزيرة العرب ، الرياض.

الواقدي ، أبو عبد الله محمد بن عمر (ت 207هـ/822م) (1948) مغازي رسول الله، مصر .

اليعقوبي ، احمد بن أبي يعقوب بن جعفر (ت 292هـ/904م) (1960) تاريخ اليعقوبي ، بيروت .

## المراجع العربية والمعربة :

الأفغاني ، سعيد (1924) أسواق العرب ، دمشق .

الألوسي ، محمود شاكر (د.ت) المختار من كتاب بلوغ الأرب معرفة أحوال العرب ، القاهرة .

البتنوني ، محمد لبيب (1329هـ) الرحلة الحجازية ، القاهرة .

بروكلمان ، كارل (1965) تاريخ الشعوب ا لإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ، منير بعلبكي ، بيروت .

البلادي ، عاتق بن غيث (1400هـ) معالم مكة التاريخية والأثرية ، مكة .

جاد المولى ، محمد احمد ، وعلي البجاوي ،ومحمد أبو الفضل إبراهيم
(1961) أيام العرب في الجاهلية،مصر .

جبران ، نعمان ، وروضة آل ثاني (1998) دراسات في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام ، اربد .

حافظ، علي (1396هـ) سوق عكاظ، الرياض

حتة ، محمد كامل (1978) في ظلال الحرمين ، القاهرة .

حتي فيليب ،وآخرون (1953) تاريخ العرب المطول ، ترجمة محمد مبروك نافع ، بيروت .

حسن، إبراهيم حسن (1964) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، القاهرة.

حسين ، طه (1967) إسلاميات (مرآة الإسلام على هامش السيرة ) بيروت .

حمور ، عرفان محمد (1979) أسواق العرب ، بيروت .

الحوفي ، احمد (1963) المرأة في الشعر الجاهلي، القاهرة.

دروزة ، محمد عزة (د.ت) تاريخ العرب قبل العروبة الصريحة ، بيروت .

الرفاعي ،أنور (1971) تاريخ العرب والإسلام منذ العصور القديمة حتى العهد العثماني ، دمشق.

رفعت، إبراهيم (1925) مرآة الحرمين والرحلات الحجازية ، القاهرة .

زيدان، جرجي (1979) العرب قبل الإسلام،بيروت.

سحاب ، فيكتور (1992) إيلاف قريش ، بيروت .

السالم ، السيد عبد العزيز (1971) تاريخ العرب في عصر الجاهلية والإسلام ، بيروت .

سيد يو ، ل . أ (1969) تاريخ العرب العام ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة .

سلامة ، عواطف أديب (1404هـ) قريش قبل الإسلام ، الرياض .

الشريف ، احمد إبراهيم (2000) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، القاهرة .(1996) دور الحجاز في الحياة السياسية ، القاهرة .

شلبي، احمد (1966) التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ،ط4 ،القاهرة .

عبد الجبار ، عبد الله .محمد عبد المنعم خفاجي (1400هـ) ، قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي ، القاهرة .

العطار ، محيي الدين (1319هـ) بلوغ الأرب في مآثر العرب ، لبنان .

على جواد (1970) ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، القاهرة .

عوض الله ، السيد احمد أبو الفضل (1398هـ) مكة في عصر ما قبل الإسلام ، الرياض .

كحالة ، عمر رضا (1978) قبائل العرب القديمة والحديثة ، بيروت .(1395هـ) مباحث اجتماعية في عالمي العرب والإسلام ، دمشق .كستر ، م . ج (1972) مكه وتميم ، ترجمة يحيى الجبوري ، بغداد .

كليك ، أيستر، وآخرون (1401هـ) التقرير المبدئي عن مسح المنطقة الغربية ، حولية أطلال ، الرياض.

لوبون ،جوستاف (1969) حضارة العرب ، نقله إلى العربية ، عادل زعيتر ، دار أحياء الكتب العربية

مهران ، محمد بيومي ، (1977) دراسات في تاريخ العرب القديم ، الرياضمؤنس ، حسين (1987) أطلس تاريخ الإسلام ، القاهرة .

(1988) تاريخ قريش ، جدة .

الهاشمي ، السيد احمد (1962) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب ، القاهرة .

ولفنسون ، إسرائيل أبو ذؤيب (1927)تاريخ اليهود في بلاد العرب ، القاهرة .

وهبة ، حافظ (1375هـ) جزيرة العرب في القرن العشرين ، ط 3 القاهرة .

الوهيبي ، عبد الله (1390هـ) الحجاز كما حدده الجغرافيون العرب ، مجلة كلية الأدب ، الرياض .

المراجع الأجنبية :

(1975) The Cambridge Ancient History , London.

(1995) Dictionary of the World , Oxford.

(1974) Encyclopedia Britannica , U.S.A.,.

Forster , ch. ,
(1984) Historical Geography of Arabia , London.,

Grunebaum , G.F. Von ,
(1970) Classical Islam History 600-1258 , Trans . By Katherine Waston , Eng. Ed. Londom .

Hitti , Ph. ,
(1966) The origins of the Islamic State , Beirut.,

Nayeem , M. ,
(1990) Prehistory and proto History of the Arabian Peninsula , Hyderabad.

O'leary , De lacy ,
(1927) Arabia Befor Monammed , London .

Ptolemy , Claudius ,
(1932) Geograph , Trans . By Edward Luther stevnon , Netwyork.

Rodnson , M. ,
(1971) Mohammed , Trans from French by Anne Carter , Penguin.

(1974) Shorter Encyclopaedia of Islam , Netherland .

Siddiqui , A.H.
(no.d) The Life of Mohammed , Beirut.

(1986) The World Book Encyclopedia , Chicago.,

## مكة المكرمة : المجتمع واللغة

### نشأة مدينة مكة:

تقع مدينة مكة المكرمة في إقليم الحجاز على طريق القوافل التجارية التي كانت – في العصور القديمة – تربط اليمن ببلاد الشام. وقد ساعدت المياه القليلة التي تجود بها بعض الآبار مثل بئر زمزم على استقرار بعض الناس فيها لغرض تقديم الخدمات الضرورية لأصحاب القوافل والمتاجرة معهم . إلا أن العامل الأكبر في نشأة هذه المدينة وتطور الحياة الاجتماعية فيها كان بناء الكعبة المشرفة.

وقد أورد القرآن الكريم دعاءً على لسان إبراهيم الخليل عليه السلام يوضح أهمية هذين العاملين في نشأة مكة أدق توضيح:

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [ سورة ابراهيم، الآية : 37 ].

ونستنتج من الآية القرآنية آنفة الذكر ، ومن الأخبار الواردة إلينا عن مجيء إبراهيم عليه السلام إلى مكة (حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد) أنه كان في موضع مكة مكان مقدس لعبادة الله تعالى، وأن إبراهيم قد أسكن من ذريته، ((زوجته هاجروابنهاسماعيل))إلى جواره لغرض عبادة الله تعالى [القرطبي "1962" 368/9- 371] .

وقد ذكر أهل الأخبار أن أول من أنشأ هذا البيت هو آدم عليه السلام، ثم اندرس بمرور الزمن، فقام إبراهيم عليه السلام بتجديده وأقام بناءه على قواعده الأولى بمعونة ابنه إسماعيل.

وإن مما يساعد على فهم تطور الحياة في مكة أن نشير إلى أن روايات الإخباريين تذكر أن إبراهيم عليه السلام كان من أهل العراق ، وأنه انطلق منه يدعو إلى عقيدة التوحيد، فاتجه إلى بلاد الشام مبشراً بهذه الدعوة، ثم سافر إلى مصر للغرض نفسه، وهناك تزوج من ((هاجر)) المصرية على زوجته ((سارة)). وبعد أن رزق منها بابنه إسماعيل قدم بها إلى أرض الحجاز وأسكنها مع ابنه إسماعيل في بطن مكة، قرب بيت الله الحرام [ الازرقي "1979" 54/1-56 ] .

في ضوء ما تقدم، فقد ذهب أحد الباحثين إلى أن تسمية مكة مشتقة من اللغة البابلية، لأن ((مكا)) في هذه اللغة تعني ((البيت))، وهو اسم الكعبة عند العرب. كما ذهب باحثون آخرون إلى أن اسم مكة مأخوذ من كلمة ((مكربة)) وهي تعني عند أهل اليمن المقربة من الله تعالى أي ((المقدسة)) [جواد علي "1976" 9/4-10 ] . وإن مما يقوي هذا الرأي أن قبيلة جرهم اليمنية كانت أول القبائل التي سكنت في مكة – حسبما يذكر الإخباريون – وأن إسماعيل عليه السلام قد

نشأ بينهم، ثم تزوج منهم، وتكاثر نسله بمرور الزمن، حتى ذهب النسابون إلى أن جميع عرب الشمال ((العدنانيون)) يرجعون في نسبهم إليه. وهكذا تلتقي أصول عرب الشمال بعرب الجنوب عن طريق هذه المصاهرة التي تمت من خلال زواج إسماعيل عليه السلام بإحدى نساء جرهم اليمنية.

### المجتمع المكي منذ عهد إسماعيل حتى ظهور قصي بن كلاب:

إن تاريخ مكة يبدأ منذ عهد إسماعيل عليه السلام في القرن التاسع عشر قبل الميلاد وحتى ظهور قصي بن كلاب في أوائل القرن الخامس للميلاد، وهي مدة تمتد حوالي ألفين وأربعمائة عام، وهو تاريخ يلفه الغموض، و لم يصل إلينا عنه سوى شذرات متفرقة من الأخبار، وقد أدرك بعض النسابين العرب هذه الحقيقة، فقال ابن حزم: ((فعدنان من ولد اسماعيل بلا شك في ذلك، إلا أن تسمية الآباء بينه وبين إسماعيل قد جهلت جملة، وتكلم في ذلك قوم بما لا يصح، فلم نتعرض لذكر ما لا يقين فيه، وأما كل من تناسل من ولد إسماعيل عليه السلام فقد غبروا ودثروا، ولا يعرف أحد منهم على أديم الأرض أصلاً، حاشا من ذكرنا من أن بني عدنان من ولده فقط)) ["1983" 7 ] .

وعلى الرغم مما تقدم، فإن روايات الاخباريين تذكر أن إسماعيل عليه السلامقد ولد له من زوجته الجرهمية اثنا عشر ولداً، وأن ولاية البيت أصبحت بيد ابنه نابت إلى أن توفي ... فولي البيت من بعده جده لأمه مضاض بن عمرو الجرهمي... وقد استمر الحكم والسلطان في مكة لبني اسماعيل ولقبيلة جرهم حقبة طويلة من الزمن (لم تذكر المصادر مداها)، حتى دب الفساد في قبيلة جرهم، فبغوا في حكمهم لمكة ((واستحلوا خلالاً من الحرمة، فظلموا من دخلها من غير أهلها، وأكلوا مال الكعبة الذي يهدى لها))، [ابن هشام "1955" 113/1 ] وقد حمل ذلك أحد بطون كنانة وهم بنو بكر بن عبد مناة – وهم من بني إسماعيل – على التحالف مع قبيلة خزاعة التي كانت قد قدمت من اليمن أثر انهدام سد مأرب، على محاربة قبيلة جرهم وإجلائها عن مكة وبذلك تمكنت خزاعة من الاستيلاء على مكة وحكمها. وقد ذكر الازرقي أن خزاعة لما حازت أمر مكة وصاروا أهلها ((جاءهم بنو إسماعيل وقد كانوا اعتزلوا حرب جرهم فلم يدخلوا في ذلك فسألوهم السكنى معهم وحولهم فأذنوا لهم)) ["1979" 96/1 ] وبذلك تآلف سكان مكة من خزاعة (اليمنية) وبنو إسماعيل، وهم بنو بكر من كنانة.

و لم تقدم لنا المصادر معلومات واضحة عن تاريخ استقرار خزاعة في مكة ولا مدة حكمهم لها، وهي على العموم تتردد في تقدير مدة حكمهم بين روايتين، تذهب الأولى إلى أن مدة حكمهم قد استمرت خمسمائة سنة ، بينما تشير الرواية الثانية إلى أنها كانت ثلاثمائة

سنة ، وليس بين يدي الباحث من الأدلة والقرائن ما يساعده على ترجيح إحدى الروايتين أو الجزم برأي معين في هذا المجال. وفضلاً عما تقدم فإن المصادر لم تقدم لنا سوى أسماء ثلاثة رجال ممن حكموا مكة من قبيلة خزاعة. كان أولهم هو ((ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر الملقب بـ لحي)) وهو أول من تولى الحكم في مكة. ثم خلفه من بعده ابنه ((عمرو بن لحي)) الذي اشتهر بأعماله التي أسهمت في تطوير الحياة العامة في مكة ولكنه في الوقت نفسه أدخل عبادة الأصنام إليها، مما أدى إلى ابتعاد العرب عن عقيدة التوحيد. وقد وصف الأزرقي ذلك بقوله أن عمرو بن لحي: ((نصب الأصنام حول الكعبة، وجاء بهبل من هيت بأرض الجزيرة، فنصبه في بطن الكعبة، فكانت قريش والعرب تستقسم بالأزلام، وهو أول من غير الحنيفية دين إبراهيم ﷵ، وكان أمره بمكة في العرب مطاعاً، لا يعصى)) . [ الازرقي "1979" 100/1 ]

ويبدو أن السبب الذي حمل عمرو بن لحي على إدخال الأصنام إلى مكة هو حرصه على تآلف قلوب القبائل البدوية التي كانت تعيش في جهات بعيدة عن مكة والتي لم تكن تعرف شيئاً عن دين الحنيفية من أجل ترغيبها في القدوم إلى مكة لأداء مناسك الحج فيها وتقديم النذور والقرابين لأصنامهم .

وقد ساعد هذا العمل – كما يرى أحد الباحثين – على أن تصبح مكة ((مركز استقطاب لعبادات البدو ومصالحهم وعلاقاتهم المتبادلة مع أهل مكة، وبذلك طرأ تغيير في شؤونهم الحياتية مع مكة )) . [ الجميلي "2002" 24 ]

وكان الرجل الثالث الذي أوردت المصادر اسمه ممن حكم مكة من رجال قبيلة خزاعة، حليل بن حبشية بن سلول، الذي زوج ابنته حُبى ، قصي بن كلاب وهو من قبيلة قريش، وقد كان هذا الزواج أحد الأسباب التي ساعدت قصيً على تولي السلطة والسيادة في مكة إثر وفاة حليل لأنه عهد إليه بتولي أمور الكعبة ومكة من بعده بحسب إحدى الروايات .

## المجتمع المكي منذ عهد قصي بن كلاب حتى ظهور الإسلام:

ولد قصي بن كلاب في مكة، ربما في أوائل القرن الخامس للميلاد، وهو الجد الخامس للنبي محمد بن عبد الله ﷺ. وينتسب إلى قبيلة قريش التي هي فرع من قبيلة كنانة التي كانت مقيمة في مكة منذ زمن بعيد، وشاركت قبيلة خزاعة في إدارة شؤون مكة.

تتفق المصادر على أن قصي بن كلاب قد ولد في مكة، وأن والده كلاب بن مرة قد توفي، وهو لا يزال طفلاً، فتزوجت أمه فاطمة بنت سعد رجلاً من بني عذرة يدعى ربيعة بن حرام.

وقد اضطرت فاطمة إلى مغادرة مكة إلى حيث يقيم زوجها مع أهله في ديار بني عذرة قرب منطقة تبوك في شمال شبه الجزيرة العربية، وصحبت معها طفلها قصياً الذي نشأ هنالك بعيداً عن قومه.

وقد ذكر ابن سعد أن قصياً كان بالأصل قد اسمي زيداً، إلا أنه دعي باسم قصي لأن أمه تقصّت به إلى بلاد الشام، فغلب عليه هذا الاسم حتى أصبح وكأنه اسمه الحقيقي. ويبدو للباحث أن هذا التفسير من اختراع وتأويل أهل الأخبار لأنه يتناقض مع سياق حياة قصي نفسه حيث تؤكد الروايات أنه كان يجهل أنه يقيم في مكان قصيٍ عن موطنه الأصلي مكة، وهكذا نلاحظ أن ابن سعد نفسه يذكر أن قصياً كان يعتقد أن أباه هو ربيعة بن حرام، حتى بلغ مبلغ الرجال، ووقع نزاع بينه وبين رجل من قضاعة فقال له الرجل معيراً: ((ألا تلحق ببلدك وقومك؟ فإنك لست منا. فرجع قصي إلى أمه، فقال: من أبي؟ فقالت أبوك ربيعة، قال: لو كنت ابنه ما نفيت، قالت: أوقد قال هذا؟ فوالله ما أحسن الجوار ولا حفظ الحق. أنت والله يا بني أكرم منه نفساً ووالداً ونسباً وأشرف منزلاً ! أبوك كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة القرشي، وقومك بمكة عند البيت الحرام فما حوله، قال: فوالله لا أقيم ها هنا أبداً)) . [ ابن سعد "1960" 67/1 ]

وهكذا ترك قصي أمه مع زوجها في بني عذرة، وأخاً له من أمه هو رزاح بن ربيعة وعاد إلى مكة حيث كان يعيش أخوه الشقيق زهرة بن كلاب، وكان أكبر منه سناً وقد تركته أمه مع قومه حين تزوجت ربيعة وغادرت مكة للإقامة معه في موطنه.

وقد أشارت المصادر إلى أن قصياً كان ((رجلاً جليداً، حازماً بارعاً)) . لذا فقد لفت الأنظار إليه في مكة، وتمكن من خطبة ابنة زعيم مكة في ذلك الوقت حليل بن حبشية بن سلول الخزاعي، حبى ابنة حليل، وتزوجها. وقد ولدت لقصي أربعة أولاد في حياة والدها هم: عبد الدار، وعبد مناف، وعبد العزى، وعبد. ((فلما انتشر ولد قصي، وكثر ماله، وعظم شرفه، هلك حليل)) . [ الازرقي "1979" 105/1 ]

لقد مهدت الظروف آنفة الذكر السبيل لأن يتولى قصي ولاية البيت والقيام بأمر مكة خلفاً لسيدها حليل الخزاعي على الرغم من أن قصياً لم يكن ينتمي إلى قبيلة خزاعة. وتختلف الروايات في بيان الطريقة التي تولى فيها قصي زعامة مكة.

فتذهب إحدى الروايات إلى أن حليلاً أوصى بأن يتولى قصي ولاية البيت والقيام بأمر مكة من بعده وذلك ((حين انتشر له من ابنته من الأولاد ما انتشر، وقال: أنت أولى بالكعبة والقيام عليها، وبأمر مكة من خزاعة)) ويبدو واضحاً من هذه الرواية أن حليلاً لم

يكن له ولد يصلح لتولي الزعامة من بعده، و لم يجد في قومه من هو أهل لها، لذا فقد عهد بها إلى زوج ابنته قصي بن كلاب.

أما الرواية الثانية، فتذهب إلى أن حليلاً – حينما ثقل عليه المرض –جعل ولاية البيت إلى ابنته ، فقالت: ((قد علمت أني لا أقدر على فتح الباب وإغلاقه، قال: فإني أجعل الفتح والإغلاق إلى رجل يقوم لك به. فجعله إلى أبي غبشان – وهو سليم بن عمرو بن بويّ ابن ملكان بن أوفى – فاشترى قصي ولاية البيت منه بزق خمر وبعود – أي جمل مُسن –، فلما رأت ذلك خزاعة كثروا على قصي فاستنصر أخاه، فقاتل خزاعة)) . [الطبري "1967" 2/256-257 ] وقد أورد ابن سعد رواية تشير إلى أن أبا غبشان هذا هو ابن حليل، وكان يلقب بـ ((المحترش)) . ["1960" 1/67-68 ]

ولكنه على ما يظهر من هذه الروايات كان ضعيفاً فلم يحصل على ثقة حليل لتولي الولاية من بعده إن صحت الرواية التي أوردها ابن سعد من أنه كان ابنه.

وقد أوردت المصادر رواية ثالثة حول هذه المسألة تقول: إنه لما انتشر ولد قصي ((وكثر ماله وعظم شرفه هلك حليل بن حبشية، فرأى قصي أنه أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة وبني بكر، وأن قريش فرعة اسماعيل بن إبراهيم، وصريح ولده، فكلم رجالاً من قريش وبني كنانة، ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبني بكر من مكة، فلما قبلوا منه ما دعاهم إليه وبايعوه عليه، كتب إلى أخيه من أمه رزاح بن ربيعة بن حرام – وهو ببلاد قومه – يدعوه إلى نصرته والقيام معه، فقام رزاح بن ربيعة في قضاعة فدعاهم إلى نصر أخيه والخروج معه إليه، فأجابوه إلى ما دعاهم من ذلك)) . [ الطبري "1967" 2/256]

يبدو من الموازنة بين الروايات الثلاث في ضوء المنطق وتطور الأحداث التاريخية، أن الرواية الأولى التي تؤكد أن قصياً قد تولى زعامة مكة استناداً إلى وصية حليل الخزاعي هي الأقرب للصواب، وذلك لأن الرواية الثانية تبدو ضعيفة إذ ليس من المعقول أن يعهد حليل لأبنته بولاية البيت وهي عاجزة عن الوفاء بمتطلبات هذا المنصب، ثم يعهد لشخص عاجز أيضاً لمساعدتها في هذه المهمة سواءً أكان ابنه أم غريباً عنه. أما الرواية الأخيرة، التي تذهب إلى أن قصياً قد انتزع زعامة مكة بالقوة ومن غير الاستناد إلى مسوغ شرعي، فتدفعها رواية أخرى تقول إنه لما رفضت خزاعة وبنو بكر أن يتولى قصي إدارة مكة وقامت بمحاربة قصي ومن نصره من قومه وكثر القتلى بين الطرفين تداعوا إلى الصلح واتفقوا على أن يحكم بينهم حكم من العرب، فقضى بأن قصياً أولى بالكعبة وأمر مكة من خزاعة.

نستنتج من كل ما تقدم، أن قصياً قد تولى إدارة مكة بناءً على وصية والد زوجته حليل الخزاعي، وأن المقاومة التي أظهرها بعض أبناء قبيلة خزاعة ترجع إلى رغبة هذه القبيلة بالاحتفاظ لنفسها بزعامة مكة، وخوفها من الآثار المترتبة على انتقال هذه الزعامة إلى رجل من قبيلة قريش. إلا أن قصياً عرف كيف يتغلب على هذه المقاومة بحكم كفاءته الشخصية وقدرته على الاستعانة بأبناء قبيلته من قريش وكنانة وبني عذرة من قبيلة خزاعة الذين كان له اخوة من أمه بينهم، فضلاً عن أنه كان قد نشأ معهم .

وإن ما تجدر الإشارة إليه في هذا المجال أن ابن قتيبة قد ذكر في صدد حديثه عن ملوك الشام أن قصياً ذهب إلى مكة فحارب خزاعة بمن اتبعه، وأعانه قيصر عليها، وصارت ولاية البيت له ولولده، فجمع قريشاً وكانت في الأطراف والجوانب فسمي مجمعاً. ولم يوضح لنا ابن قتيبة حقيقة أو شكل الإعانة التي قدمها قيصر لقصي، كما لم تشر أية مصادر أخرى إليها، مما يحملنا على الظن بأن ابن قتيبة قصد من كلامه معاونة حلفاء الروم من بني عذرة وقضاعة الذين كانوا يقيمون على تخوم الشام لقصي. ولا يبدو أنه كانت تقف وراء مساعدتهم لقصي عوامل سياسية تتصل بالسياسة العامة للروم تجاه مكة كما ذهب بعض الباحثين .وإنما تكمن دوافع المعاونة في العلاقة العائلية التي كانت تربط قصياً ببني عذرة، وعملاً بالتقاليد القبلية القائمة بين العرب. وإن مما يؤكد هذا الاستنتاج أن السياسة العامة لأهل مكة كانت الوقوف على الحياد في الصراع الدائر بين الإمبراطورية الساسانية والإمبراطورية البيزنطية منذ عهد قصي حتى عصر الرسالة.

### إسكان قصي لقريش في مكة:

بعد أن استتبت الأمور في مكة لقصي، وتولى شؤون إدارتها، قام بتجميع أبناء قبيلته قريش وإسكانهم في مكة من أجل أن ((يستعز بهم)). أي يقوي مركزه وحكمه بالاستناد إلى تأييدهم ومساعدتهم. وكانت قريش قبل ذلك تعيش في جوانب مكة وأطرافها، فكان بعضهم يعيش في ((الشعاب، ورؤوس جبال مكة)) .

لقد روى ابن اسحاق أن قصياً قام بتقطيع بطن مكة ((رباعاً بين قومه، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التي أصبحوا عليها، ويزعم الناس أن قريش هابوا قطع شجر الحرم في منازلهم فقطعها قصي بيده وأعوانه، فسمته قريش مجمعاً لما جمع من أمرها)) . [ ابن هشام "1955" 125/1 ]

إن النص المتقدم، يوحي بأن مكة كانت خالية من المساكن قبل أن يقوم قصي بإسكان قريش في بطن واديها وحول البيت الحرام. وقد ذهب بعض الباحثين إلى هذا الرأي، فذكر الدكتور جواد علي ((أن بطن مكة لم يعمر ولم تبن البيوت المستقرة فيه إلا منذ أيام

قصي. أما قبل ذلك، فقد كان الناس يسكنون (الظواهر): ظواهر مكة، أي أطرافها وهي ظواهر مرتفعة تكون سفوح الجبال والمرتفعات المحيطة بالمدينة. أما باطن المدينة، وهو الوادي الذي فيه البيت، فقد كان حرماً آمناً، لا بيوت فيه، أو أن بيوته كانت قليلة حصرت بسدنة البيت وبمن كانت له علاقة بخدمته، لذلك نبت فيه الشجر حتى غطى سطح الوادي)) . [ جواد علي "1976" 52/4 ]

والحقيقة، أن استقراء الروايات التي وردت في مختلف المصادر لا يؤيد هذا الرأي، ويرجح القول بأن باطن مكة كانت فيه منازل لأبناء قبيلة خزاعة وربما لغيرهم أيضاً. فقد أورد الازرقي رواية عن التحكيم الذي جرى بصدد التراع بين قصي وخزاعة حول ولاية البيت، فذكر أن الحكم قضى بأن تسلم خزاعة ولاية البيت إلى قصي ((وأن تخرج خزاعة من مساكنها من مكة)) . كما أورد الازرقي نصاً آخر يؤيد استمرار إقامة خزاعة في مساكنها في مكة جاء فيه: ((فولي قصي بن كلاب حجابة الكعبة وأمر مكة وجمع قومه من قريش من منازلهم إلى مكة يستعز بهم، وتملك على قومه فملكوه، وخزاعة مقيمة بمكة على رباعها وسكناهم لم يحركوا ولم يخرجوا منها، فلم يزالوا على ذلك حتى الآن)) . [ "1979" 107/1 ] وقد أورد الطبري رواية تؤكد سكن خزاعة في بطن مكة وتشير إلى أن قسماً منهم قد غادر مكة بسبب الوباء، مما أفسح المجال لتملك قبيلة قريش لمساكنهم. يقول الطبري: ((فبلغنا – والله أعلم – أن خزاعة أخذتها العدسة، حتى كادت تفنيهم، فلما رأت ذلك جلت عن مكة، فمنهم من وهب مسكنه، ومنهم من باع، ومنهم من أسكن)). [ "1967" 256/2 ]

إن ما تقدم، يدل على أن مكة كانت مدينة عامرة بالمساكن قبل أن يتولى قصي إسكان قبيلة قريش فيها، وإن هذا الوضع ينسجم مع ما ذكرته الأخبار عن مكة، وأنها مدينة عريقة تقع على طريق التجارة بين اليمن والشام وأنها قد نشأت منذ زمن اسماعيل عليه السلام، وأن أقواماً متعددة قد تعاقبت على السكن فيها ورعاية بيت الله الحرام الذي كان قائماً فيها.

ويلاحظ أن قصياً لم يقم بإسكان جميع بطون قبيلة قريش في مكة، وإنما أسكن فيها من أطلق عليهم ((قريش البطاح)) لأنهم سكنوا في بطاح مكة وهم: بنو عبد الدار، وبنو عبد مناف، وبنو عبد العزى، وبنو زهرة، ومخزوم، وتيم بن مرة، وجمح، وسهم، وعدي. أما البطون التي فضلت الإقامة في أطراف مكة فقد عرفت بـ ((قريش الظواهر))، وهي تتألف من بني محارب، والحارث بن فهر، وبني الأدرم بن غالب بن فهر، وبني هصيص بن عامر بن لؤي . [المسعودي "1968" 63/2-64 ] ويبدو أن مكة قد ضاقت بساكنيها في عهد قصي، فلجأ

إلى تقطيع الأشجار التي حول الحرم وتمهيد الأرض من أجل إسكان الناس فيها، وكان الناس قبل ذلك يتهيبون من قطع أشجار الحرم. يقول ابن سعد: ((وضاق البلد، وكان كثير الشجر العضاه والسلم،فهابت قريش قطع ذلك في الحرم، فأمرهم قصي بقطعه، وقال: إنما تقطعونه لمنازلكم ولخططكم، بهْلَةُ الله على من أراد فساداً، وقطع هو بيده وأعوانه فقطعت حينئذ قريش وسمته مجمعاً لما جمع من أمرها)) . [ "1960" 71/1 ]

### إدارة المجتمع المكي وحكومة الملأ:

يظهر من دراسة الأعراف والتقاليد القبلية في الإدارة عند العرب أن إدارة شؤون القبائل العربية كانت تتم بالتعاون الطوعي بين شيخ القبيلة ورؤساء العشائر والبطون، وكان هذا الأسلوب في الإدارة يسمى ((الشورى)). وكان الرجال الذين يضطلعون بهذه المهمة هم ((الملأ))، بل إن المعنى اللغوي لكلمة الملأ قد امتد ليشمل عملية الاجتماع والشورى واتخاذ القرار. وهكذا فقد ذكر الزبيدي أن الملأ هم: وجوه الناس، ورؤساؤهم، ومقدموهم الذين يُرجع إلى قولهم، وهي تعني: ((القوم ذوي الشارة والتجمع لأدارة المجتمع. لذا فإنه يقال: ((ما كان هذا الأمر عن ملأ منا)) أي تشاور واجتماع. وفي حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ حين طعن: أكان هذا عن ملأ منكم؟ أي عن مشاورة من أشرافكم وجماعتكم)) . وقد استعمل القرآن الكريم كلمة ((ملأ)) في حوالي ثلاثين آية بهذا المعنى ذاته، أو بمعان قريبة منه، مما يؤكد أهمية الملأ في إدارة شؤون مكة وحكمها عند ظهور الإسلام .

ويقدم لنا نظام الإدارة والحكم في المجتمع المكي الذي أخذ أبعاده الواضحة منذ عهد قصي بن كلاب خير نموذج لهذا النوع من النظام والذي يصح أن نسميه ((حكومة الملأ)). لهذا سنبدأ الحديث عن حكومة الملأ في عهد قصي بن كلاب من حيث نشأتها وواجباتها وطبيعتها، ثم ننتقل إلى دراسة أوضاع هذه الحكومة في عهد أبنائه وأحفاده حتى ظهور الإسلام.

### حكومة الملأ في مكة:

تألفت حكومة الملأ في عهد قصي من رؤساء الأسر التي تعاونت معه في توطيد سلطته على مكة مثل مخزوم، وجمح، وسهم، وزهرة، وغيرهم.

وقد أسكن قصي هذه الأسر في بطن مكة، حول الحرم، فعرفوا باسم ((قريش البطاح)) ...، وقد تزايد عدد أفراد هذه الأسر بمرور الزمن حتى أصبحوا يمثلون غالبية سكان مكة في عصر الرسالة. وعلى سبيل المثال، فقد نمت أسرة قصي نفسه لتصبح أربع أسر في حياته ((بنو عبد الدار، وبنو عبد مناف، وبنو عبد العزى، وبنو عبد قصي)).

أما في عصر الرسالة، فقد نشأ عن هذه الأسر ثلاث عشائر قوية وهم بنو عبد الدار،

وبنو عبد شمس، وبنو هاشم، كما برز إلى جانبهم عدة عشائر تفرعت من أبناء الرجال الذين ساعدوا قصياً في إدارة مكة وهم: بنو مخزوم، وبنو تيم، وبنو جمح، وبنو سهم، وبنو عدي، وبنو حسل بن عامر، وبنو فهر.

أما الأسر القرشية التي سكنت أطراف المدينة فقد عرفت بـ ((قريش الظواهر)) وقد تألفت من: بني محارب، وبني الحارث، وبني الأدرم بن غالب بن فهر، وبني هصيص بن عامر بن لؤي وقد ترتب على هذا التوزيع السكاني لقريش في مكة أن أصبحت إدارة شؤون الحرم وبقية أوضاع مكة بأيدي ((قريش البطاح))، كما أتاح لهم هذا الواقع الفرصة لممارسة التجارة وتنمية ثرواتهم. أما ((قريش الظواهر)) فقد غلبت عليهم حياة البداوة والرعي. لذا كان دورهم في السياسة المكية محدوداً .

ويلاحظ أن طبيعة الحياة في مكة، كانت تفرض على سكانها إقامة توازن بين إدارة كل أسرة أو عشيرة لأمورها الخاصة، وبين تعاون الجميع من اجل خدمة الأمور المشتركة ذات الطبيعة العامة في المدينة .

وكان من أبرز المؤسسات التي تحتاج إلى تعاون أهل مكة من أجل تقديم الخدمات ذات الصلة بها ((المسجد الحرام)) الذي يحج إليه الناس في موسم معين من السنة، الأمر الذي يدعو إلى ضرورة العناية به، و تنظيم أمور زيارته و الطواف به، فضلاً عن تقديم الخدمات للحجاج كالماء و الطعام و غير ذلك بصفتهم ضيوف مكة. فضلاً عن ذلك، فقد كانت الحياة في مكة تقتضي تنظيم العلاقات بين سكانها و بقية القبائل العربية المجاورة من أجل ضمان الأمن و الرخاء لأهلها.

إن ما تقدم، كان يتطلب إيجاد حكومة في مكة تهتم بأمورها العامة وتنشئ الوظائف التي تساعد على تلبية احتياجات الناس تلبية فعالة. وقد أشارت المصادر إلى أن قصي بن كلاب قد اضطلع بتحقيق هذه المهمات بكفاءة عالية عن طريق اتباع الخطوات الآتية:

1- إن نجاح قصي في تولي السلطة في مكة وإسكانه قبيلة قريش فيها، قد رفع من مكانته في نظر قومه، فمنحوه ثقتهم المطلقة، مما ساعده على توسيع سلطاته في مكة فجاوزت حدود السلطة التي كان يتمتع بها رؤساء القبائل حتى غدا كأنه ملك على مكة. لذا فقد ذكر ابن اسحاق أن قصياً ولي أمر بيت الله الحرام وأمر مكة ((وجمع قومه من منازلهم إلى مكة، وتملك على قومه فملكوه)). [ ابن هشام "1955" 124/1 ] وذكر الازرقي أن قصياً ((جمع قومه من قريش من منازلهم إلى مكة يستعز بهم، وتملك على قومه فملكوه)) . [ "1979" 107/1 ] كما قال ابن سعد: أن قصياً كان ((أول ولد كعب بن لؤي أصاب ملكاً أطاع له به قومه، فكان شريف أهل مكة لا ينازع فيها)) . ["1960" 70/1 ]

ويلاحظ أنه على الرغم من المكانة العالية التي احتلها قصي في قومه والسلطات الواسعة التي تمتع بها في إدارة شؤون مكة، فإنه لم يصل إلينا من الأخبار ما يدل على أنه تلقب بلقب ملك، أو اتخذ لنفسه المظاهر والشارات التي يتخذها الملوك. بل إن قصياً كان يتصرف بوصفه رئيس قبيلة، ويتقدم على أقرانه بفعاله وما اتصف به من صفات عالية جعلت قومه يحبونه ويحترمونه ويطيعونه بمحض إرادتهم من غير خوف أو إكراه، ((فكان أمره في قومه من قريش في حياته وبعد موته كالدين المتبع لا يعمل بغيره)) . [ ابن هشام "1955"125/1]

2- حينما قام قصي بتنظيم الوظائف الدينية والمدنية في مكة، أبقى الوظائف ذوات الطبيعة الدينية الخالصة التي كانت متصلة بمناسك الحج ((كالإجازة بالحج، والإفاضة)) من جمع غداة النحر إلى منى، والنسيء للشهور الحرم، بيد أصحابها القدماء، لأن قصياً – حسبما تذكر الأخبار – كان ((يراه ديناً في نفسه لا ينبغي تغييره، فأقر آل صفوان، وعدوان، والنسأة، ومرة بن عوف، على ما كانوا عليه)) . [ ابن هشام 157/1 ]

ويلاحظ أن أصحاب هذه الوظائف جميعاً لم يكونوا من قبيلة قريش، مما يدل على حرص قصي على إشراك العشائر الأخرى من سكان مكة وحلفائها في إدارة شؤونها، وقد استمر أبناء قصي وأحفاده في اتباع هذه السياسة حتى ظهور الإسلام.

وقد أشار أحد الباحثين إلى أن الإفاضة والإجازة بمعنى واحد وهي في حقيقتها تمثل وظيفة واحدة تتصل بتنظيم حركة الناس عند أدائهم لمناسك الحج في موعد معين، وانتقالهم بين عرفة ومنى ومكة .

أما ((النسيء)) فهي وظيفة تخول صاحبها صلاحية تثبيت مواعيد الحج من خلال زيادة شهر كل ثلاث سنوات إلى السنة القمرية لتصبح موازية للسنة الشمسية، وبذلك يتسنى للعرب أن يحجوا إلى مكة في فصل يعتدل فيه المناخ ويزداد فيه النشاط التجاري.

وقد أشير إلى أن أول من نسأ الشهور من العرب هو ((القلمس وهو حذيفة بن عبد الفقيم بن عدي ... بن كنانة)). وقد توصل أحد الباحثين من خلال مقارنة شجرات النسب إلى أن القلمس قد عاش قبل ظهور قصي بقليل أو أنه كان معاصراً له، ((وأن قصياً قد تولى أمر مكة والنسيء قائم فأقر للعرب ما كانوا عليه، واستمر بنو القلمس بالنسيء حتى كان آخرهم أبو تمامة جنادة بن عوف)) . [ الجميلي "2002" 158 ]

ويبدو أن القائمين على هذه الوظيفة كانوا قد أخذوا يسيئون استخدام هذه الوظيفة قبيل ظهور الإسلام، فقام الإسلام بتحريمها وعدها من آثار الجاهلية. جاء في القرآن الكريم:﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ

عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [ سورة التوبة ، الآية : 37 ] .

3- أما الوظائف المدنية والسياسية المتصلة بخدمة الحرم وإدارة المجتمع المكي فكانت خمس وظائف، وقد حصرها جميعاً بيده. وهي:

أ- الرفادة: وكان هدفها توفير الطعام للحجاج في موسم الحج. وقد سعى قصي لتنظيم هذه الخدمة تنظيماً فعالاً من خلال إشراك قومه في ذلك. لذا فقد توجه إليهم قائلاً: ((يا معشر قريش، إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم، وإن الحاج ضيف الله وزوار بيته، وهم أحق الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج، حتى يصدروا عنكم، ففعلوا. فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم خرجاً فيدفعونه إليه، فيصنعه طعاماً للناس أيام منى)) . [ ابن هشام "1955" 130/1]

وقد استمر هذا التقليد قائماً في مكة حتى عصر الرسالة، ولا بد أنه أسهم في توثيق وتوطيد علاقات قريش مع القبائل العربية، لأن الاستضافة والمؤاكلة تعد عند العرب نوعاً من أنواع التحالف وأسلوباً من أساليب منح الجوار.

ب- السقاية: إن وظيفة السقاية تتكامل في أهدافها مع وظيفة الرفادة، والغرض منها توفير الماء لشرب الحجاج في موسم الحج حيث يكثر الناس في مكة ويشح الماء. لذا فقد أولى قصيٌ هذه الناحية عنايته ((فصنع حياضاً للماء من أدم فيسقى فيها بمكة ومنى وعرفة)) . [ ابن سعد "1960" 73/1 ]

وإن مما له صلة وثيقة بوظيفة السقاية حفر آبار المياه وصيانتها ليتمكن الناس من إشباع حاجاتهم منها. لذا كان من مآثر قصي الكبيرة أنه حفر بئراً في منطقة الحرم يقال له ((العجول)) كما حفر بئراً آخر عند الروم الأعلى.

ج- الحجابة: تعد من أقدم الوظائف في مكة وأشرفها، لأن القائم عليها تكون لديه مفاتيح البيت الحرام فلا يدخله أحد إلا بإذن منه. وقد انتقلت هذه الوظيفة إلى قصي بن كلاب بعد وفاة حليل بن حبشية الخزاعي الذي كانت له الولاية على مكة كما قدمنا، ثم توارثها أولاده وأحفاده حتى عصر الرسالة.

د- اللواء: وهو العلم الذي يحمل في الحروب وتدور حوله المعارك وهو يرمز عادةً لمن تكون بيده قيادة قومه في القتال. وكان قصي هو صاحب اللواء في مكة يحمله بنفسه أو يدفعه إلى أحد فرسان القبيلة ليحمله نيابة عنه في أوقات الحرب. ومن المعروف أن ولاية مكة لم تستتب لقصي إلا بعد أن قاد قريشاً وحلفاءها في صراع مسلح ضد قبيلة خزاعة حتى سلمت بحقه في ولاية البيت وحكم مكة. وهذا يدل على أن قصياً كان محارباً شجاعاً فضلاً عن كونه قائداً حكيماً.

هـــ- دار الندوة: حاول قصي أن يقيم رباطاً بين موقعه السياسي بصفته سيداً لمكة وبين توليه ((حجابة)) بيت الله الحرام، فقام ببناء ((دار الندوة))، وجعل باها إلى المسجد الحرام، ربما من أجل منح هذه الدار وما يدور فيها من مناقشات، وما يصدر عنها من قرارات نوعاً من الحرمة. وقد ذكر ابن سعد أن هذه الدار سميت دار الندوة ((لأن قريشاً كانوا ينتدون فيها، أي يجتمعون للخير والشر. والنديُّ مجمع القوم إذا اجتمعوا)) . [ ابن سعد "1960" 70/1 ]

ويبدو أن دار الندوة أخذت تحتل في مكة مترلة أعلى من مترلة المنتديات العشائرية التي كان يناقش فيها رجال كل عشيرة أمورهم الخاصة على حدة ، لأهما كانت تعنى بأمور أهل مكة عامةً ((ففيها كانت قريش تقضي أمورها)) ، فكانت هذه الدار بمثابة دار الحكومة التي تدار فيها أمور قبيلة قريش كلها، وما أرادوا من نكاح أو حرب أو مشورة أو ما ينوبهم . كما كان يتم في هذه الدار الإعلان عن بلوغ أبناء القبيلة وبناهما سن الرشد. وفضلاً عن ذلك فقد أصبحت المركز الذي تنطلق منه القوافل التجارية وتعود إليه.

وقد ذكر الازرقي أنه ((لم يكن يدخل دار الندوة من قريش غير ولد قصي إلا ابن أربعين سنة للمشورة، وكان يدخلها ولد قصي كلهم أجمعون وحلفاؤهم)) . ["1979" 109/1 ]

ويفهم من هذا النص أن حضور اجتماعات دار الندوة كان مسموحاً به لجميع رجالات القبيلة ممن بلغوا سن الأربعين، وهي سن النضج العقلي عند العرب، فضلاً عن السماح بحضور جميع أبناء قصي وحلفائهم بغض النظر عن سنهم. ويبدو أن سبب هذا الاستثناء هو حاجة الدار إلى من يخدمها ويتولى رعاية شؤونها، وليس هناك من هو أولى بالقيام بهذا الواجب من أبناء قصي وحلفائهم. ويستنتج مما وصل إلى أيدينا من أخبار عن اجتماع الملأ في دار الندوة أن عقد الاجتماعات والمداولات وصدور القرارات كان محكوماً بالعادات والتقاليد العربية التي كانت تتسم بالتلقائية وعدم وجود قواعد محددة للتصويت واتخاذ القرارات بأغلبية الأصوات. فكان النقاش يستمر بين الحاضرين حتى يتوصلوا إلى قرار يحظى برضى الجميع أو قبولهم الضمني في الأقل. وكان ذلك أمراً ميسوراً في عهد قصي بن كلاب الذي كان يتمتع بمترلة رفيعة في قومه. أما في عهد أبنائه وأحفاده فقد غدا الحصول على الإجماع أمراً صعباً، لذا فقد ظهر العديد من الانقسامات والخلافات التي هددت وحدة المجتمع المكي بالخطر، وأضعفت الحكومة المكية التي نجحت بالرغم من ذلك في تسوية الخلافات عن طريق المساومة والسعي للوصول إلى حلول وسط بين الأطراف المتنازعة. وكان أبرز تلك الحلول هو تقاسم الوظائف المكية بين أحفاد

قصي، واستحداث وظائف شرفية لإرضاء بقية العشائر القرشية في مكة .

وهكذا فقد أدى تطور الأوضاع العامة في عهد أبناء قصي وأحفاده إلى اختفاء وظيفة الرئيس المهيمن على شؤون الحكم في مكة. ثم توزعت وظائف الإدارة بين أكثر من عشر عشائر مكية، فكانت كل عشيرة مسؤولة من خلال أحد رجالها عن وظيفة من هذه الوظائف أو أكثر .

وهكذا نجحت حكومة الملأ في تجاوز الصعوبات الناشئة عن توزع السلطة بين رجال الملأ، إذ تمكن هؤلاء الرجال من خلال الشعور بالمسؤولية وروح الحوار المتصل بينهم ((في تكوين فكر مشترك، ووضع حد للخصومات الصغيرة من أجل الخير المشترك)) كما يقول المستشرق وات ((Watt)) لذا فقد رأى أن مجلس الملأ في مكة كان ((مجلساً حكيماً مسؤولاً أكثر من مجلس الاكليزيا في أثينا)) ... لأن قراراته كانت ((تعتمد على ميزات حقيقية للأشخاص وليس على بلاغة مصطنعة يمكنها أن تظهر الباطل في صورة الحق)) . [ "د.ت" 28-30 ]

وهنا، قد يكون مناسباً أن نحاول توضيح طبيعة حكومة الملأ في المجتمع المكي، وهل كانت حكومة ملكية أم جمهورية أم هي بين هذا و ذاك؟ ... لقد ذهب محمد حميد الله إلى أنها حكومة ملكية مطلقة لاسيما في عهد قصي بن كلاب ، [ "1938" 256 ] كما رأى المستشرق لامانس أنها ((جمهورية بالمعنى الكامل للجمهورية)) . [ الشريف "1965" 112] والحقيقة التي بدت لنا من خلال البحث أنها لا هذه ولا تلك، فلم تعرف مكة الملكية المطلقة حتى في عهد قصي، إذ كان قصي يتصرف كسيد قبيلة ويعتمد الشورى في حكم قومه كما أوضحنا. أما في عهد أبنائه وأحفاده فقد توزعت وظائف مكة بين رجال الملأ الذين يمثلون عشائر مكة وبطونها، وتلاشت وظيفة الرئيس المهيمن، وغدا الحكم شورى بينهم. إلا أن هذه الشورى لم تتطور لتصبح نظاماً جمهورياً ذا معالم محددة، وربما كان سبب ذلك: أن المجتمع المكي كان مجتمعاً قبلياً في جوهر تكوينه وقيمه، وأنه لم يستطع مغادرة هذا الواقع على الرغم مما شهده من حياة حضرية مستقرة، وازدهار في نشاطه الاقتصادي والتجاري. إن تفسير هذه الظاهرة يفرض علينا التوسع قليلاً في بيان تكوين المجتمع المكي (القبلي) وطبيعته وكيف أثر نجاح عبد مناف في تنظيم عهود الإيلاف في العلاقات الاقتصادية والسياسية في مكة .

## الإيلاف وتأثيراته في الحياة الاقتصادية والسياسية في مكة :

من المعروف أن مكة تقع بواد غير ذي زرع عند بيت الله الحرام لذا اعتمد أهل مكة في حياتهم الاقتصادية على ما تدره عليهم مبادلاتهم التجارية مع زوار بيت الله الحرام وحجاجه من دخل ، فضلاً عن أرباحهم من

التعامل مع اصحاب القوافل التجارية الذين يمرون بمكة .

وقد أشارت المصادر إلى أن آفاق تجارة أهل مكة وأرباحهم كانت محدودة قبل ظهور عهود الإيلاف في مطلع القرن السادس قبل الميلاد ، لأنها كانت تجارة محلية محصورة في حدود منطقة مكة ، فكانت تجارة أهل مكة ( لا تعدو مكة ، إنما تقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم ، ثم يتبايعون بينهم ، ويبيعونها على من حولهم من العرب . [ القالي "د.ت" 199/2 ]

وقد ذكر الطبري أن أبناء عبد مناف وهم : كل من هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل قد نجحوا في الحصول على عهود من حكام بلاد الشام والعراق واليمن والحبشة بالسماح لقبيلة قريش للمتاجرة في بلادهم . وقد أطلقت المصادر على هذه العهود أسماء متعددة منها : الإيلاف ، والعهد والأمان ، والحلف ، والعصام ، والحبل ، ولكن أشهر هذه الأسماء هو الإيلاف . وقد أشار إليه القرآن الكريم بقوله : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ(1) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ(2)فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ(3)الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ(4)﴾ . [سورة قريش ، الايات :1-4]

ويلاحظ أن هذه العهود ما كان لها أن تحقق أهدافها من غير الحصول على عهود أخرى من القبائل العربية التي تقع ديارها على طرق القوافل التجارية بين مكة وبين هذه الدول . وقد نجح أبناء عبد مناف في الحصول على هذه العهود ( الايلاف ) من خلال تشجيع أبناء هذه القبائل على المشاركة في تجارة القوافل المكية ، سواء عن طريق توظيف أموالهم في هذه القوافل لقاء نسبة معينة من الارباح ، أم العمل في حراسة هذه القوافل وحمايتها من أي عدو محتمل .

وهكذا فقد ترتب على نجاح قبيلة قريش في تأمين حركة قوافلها التجارية من خلال هذه الشبكة من العهود مع القبائل العربية الرئيسية التزام هذه القبائل بمراعاة الأشهر الحرم، والقبول بنظام السلم ( Pax Meccana )، والاعتراف بمكانة المكيين وإقامة التعاون الاقتصادي المستند إلى المصلحة العامة.

إن ما تقدم ، قد أسهم في تحقيق الازدهار الاقتصادي لمدينة مكة في القرن السادس الميلادي ، وشجع معظم أهالي مكة على الاشتغال في تجارة القوافل ، وكان إسهام كل فرد يتناسب مع ثروته وإمكاناته الاقتصادية ، فكان كبار التجار يقومون بتنظيم القوافل الكبيرة وقيادتها ، بينما يقتصر دور صغار التجار على الإسهام بنسبة بسيطة، في الوقت الذي قد يقتصر دور الفقراء على العمل في خدمة هذه القوافل بصفة حراس وأدلاء وغير ذلك من الاعمال .

إن التحولات الاقتصادية التي أحدثتها عهود الإيلاف في مكة ، قد أدت إلى تزايد ثروات أبناء عبد مناف ونفوذهم . ومن ثم، فقد أخذوا بمطالبة أبناء عمهم بني عبد الدار بأن يتنازلوا لهم عن بعض وظائف مكة العامة، إلا أن بني عبد الدار رفضوا ذلك ، مما أدى إلى انقسام قبيلة قريش إلى كتلتين متصارعتين حول هذا المطلب ، وقد عرفتا باسم حلف المطيبين وحلف لعقة الدم . وقبل أن يتطور هذا النزاع إلى صراع مسلح تغلب منطق الحكمة والعقل فاتفق الجانبان على ( أن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة ، وأن تكون الحجاجة واللواء والندوة لبني عبد الدار ، كما كانت ) . [ ابن هشام 132/1] وهكذا حصل بنو عبد مناف على الوظائف ذوات القيمة والتأثير الاقتصادي في حين بقيت الوظائف ذوات القيمة الدينية والسياسية بيد بني عبد الدار .

يظهر مما تقدم ، أن التأثير الحقيقي في سياسة حكومة الملأ أخذ ينتقل بمرور الزمن إلى أيدي التجار وأصحاب الثروات بفضل الظروف التي وفرتها لهم عهود الإيلاف . كما أدى ذلك إلى ضعف السلطة المركزية في إدارة شؤون مكة لأنه اضطر حكومة الملأ إلى توزيع الوظائف العامة في مكة على العشائر والبطون القريشية من أجل الترضية واعتبارات الشرف والمكانة .

## تكوين المجتمع المكي وطبيعته :

إن دراسة الأوضاع الاجتماعية في مكة وتطورها في حقبة ما قبل الإسلام تشير إلى أن التشكيل الاجتماعي فيها كان تشكيلاً قبلياً شأنها في ذلك شأن بقية أجزاء الجزيرة العربية، وعلى الرغم من الغموض الذي يحيط تاريخ القبائل التي سكنت مكة في العصور البعيدة، إلا أن المصادر الإسلامية تؤكد أن هذه القبائل هي قبائل عربية من عرب الجنوب مثل جرهم وخزاعة، وقبائل شمالية من أبناء اسماعيل عليه السلام، وقد تداخل أبناء هذه القبائل وتصاهروا فيما بينهم حتى توحدوا في أمة واحدة في عصر الرسالة الإسلامية.

وكانت آخر القبائل التي استقرت في مكة هي قبيلة قريش، وقد أصبحت لها السلطة والسيادة فيها منذ القرن الخامس الميلادي وحتى ظهور الإسلام. وقد تألف سكان مكة من ثلاث فئات بحسب التشكيل الاجتماعي القبلي عند العرب:

**1- الصرحاء:** وهم أبناء قبيلة قريش الأصليون. وقد تألفوا من فئتين: قريش البطاح الذين سكنوا حول الحرم في بطن مكة، وقريش الظواهر، الذين سكنوا في أطراف مكة. وقد تركزت السلطة والثروة والنفوذ في الفئة الأولى – كما أوضحنا سابقاً – بينما غلبت على الفئة الثانية روح البداوة.

وعلى الرغم من أن العصبية القبلية كانت تشد أبناء قبيلة قريش بعضهم ببعض

لاسيما حين يجدون أنفسهم في مواجهة الآخرين، فإن المصالح الاقتصادية والسياسية قسمتهم إلى أغنياء وفقراء، ذوي نفوذ وسلطان وعاطلين عن ذلك، مما كان يفسح المجال لظهور بعض الأزمات التي هددت وحدة قبيلة قريش بالخطر. ومع ذلك فقد نجح رجال الملأ في حل تلك الأزمات والتغلب عليها.

**2- الموالي:** وهم حلفاء قريش الذين سكنوا مكة، وأقاموا بجوار إحدى عشائرها ومنحوها الولاء والإخلاص. وكان بعضهم من سكان مكة القدماء من كنانة وخزاعة، وبعضهم الآخر ((وفدوا إلى مكة لأسباب متعددة ومن أماكن مختلفة، فمنهم من جاء ليحتمي بالكعبة لحرمتها وقداستها لجناية قام بها أو جريرة مطلوب بها، ومنهم من جاء يعمل طالباً الكسب والعيش باعتبار مكة مركزاً تجارياً ...)) . [ الجميلي "2002" 36 ]

وقد لوحظ أن قريش أفسحت المجال لهؤلاء الموالي للعمل فيها، وكان معظمهم ينتمون لقبائل عربية كبيرة مثل تميم، وثقيف، وأسد وخزاعة وكنانة. لذا فقد أحلتهم منزلة رفيعة نظراً لسياستها العامة التي تقوم على تنشيط التجارة ، واشراك القبائل العربية فيها فضلاً عن رغبتها في تأكيد حرمة البلد الحرام، وانه ملجأ العرب جميعاً ومهوى قلوبهم .

ويستنتج من التطورات التي وقعت في عصر الرسالة ، ان نسبة الموالي الى عدد سكان مكة الصرحاء من قريش كان كبيراً ، اذ بلغت نسبة القتلى من الموالي في معركة بدر 40% من قتلى المشركين . اما في صفوف المسلمين فقد بلغ عدد المهاجرين الى المدينة المنورة بعد بيعة العقبة الثانية ستة وثمانين مهاجراً ، كان منهم من صليبة قريش واحد واربعون ، اما الباقون ((45 مهاجراً)) فكلهم من الموالي. ان ما تقدم يدل على ان نسبة الموالي في مكة كانت تتراوح بين 40% - 50% من السكان .

**3-الرقيق:** من المعروف أن الرقيق هم أفراد من الرجال والنساء الذين فقدوا حريتهم وأصبحوا مملوكين لغيرهم بسبب الأسر، أو البيع، أو الولادة لأبوين أرقاء أو غير ذلك. وكان الرق نظاماً شائعاً عند العرب شأنهم في ذلك شأن غيرهم من الأمم. وتشير المصادر إلى أن مكة قد عرفت بين سكانها عدداً من الرقيق من كلا الجنسين، وكانوا يعملون لصالح أسيادهم في مجال الخدمة المترلية أو ممارسة بعض الحرف، أو المساعدة في الأعمال التجارية لاسيما في خدمة القوافل .

وقد ذهب بعض الباحثين الى ان عدد الرقيق في مكة كان كبيراً ، إلا ان المصادر التاريخية لاتقدم الأدلة الكافية لدعم هذا الرأي وذلك لأن عدد الرقيق الذين ذكرهم المصادر ممن دخلوا في الإسلام أو وقفوا الى جانب اسيادهم في مناوأتهم كان محدوداً ، فضلاً عن ان حاجة أهل مكة الى الرقيق كانت قليلة

بسبب عدم وجود زراعة فيها ، واقتصار الخدمة فيها على العمل في بعض الحرف اليدوية او خدمة القوافل التجارية .

ومع ذلك ، وأياً كان عدد الرقيق في مكة فإنه لابد من الإقرار بأنه كان لهم تأثير في حياة المجتمع المكي ليس على المستوى الاقتصادي والاجتماعي فقط وانما على المستوى الثقافي والديني ، اذ كان بعضهم قد جلب من بلاد الشام او العراق او الحبشة أو غيرها ، وانهم قد حملوا معهم معطيات ثقافية ودينية مختلفة مما أفسح المجال لحصول بعض التأثيرات.

وفي ختام الحديث عن الفئات التي كانت تشكل المجتمع المكي ، لابد من الاشارة الى ان وجود نسبة عالية من الموالي والرقيق في مكة تكاد توازي عدد الصرحاء من أبناء قبيلة قريش كان قد جعل من مدينة مكة بمثابة بوتقة للتفاعل الحر بين المعطيات اللغوية والاجتماعية والدينية لأهل مكة وبين هؤلاء الوافدين عليها . كما فرض على رجال الملأ في مكة إتباع سياسة منفتحة على الآخرين تتجاوز الاطر القبلية الضيقة وتؤكد حق قريش في زعامة القبائل العربية على المستوى الديني والثقافي استناداً الى عدد المقولات التي اوجزها الأزرقي بقوله : ((وقالت قريش وأهل مكة : نحن أهل الله ، وبنو ابراهيم خليل الله ، و ولاة البيت الحرام ، وسكان حرمه وقطانه ، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل مترلتنا، ولا تعرف العرب مثل ما تعرف لنا)) . [ 176/1 "1979"]

يظهر مما تقدم ، ان قريشاً لم تستند الى الاساس القبلي وحده في تأكيد مكانتها وزعامتها بين العرب ، بل تعدته الى اسس أخرى ذات طبيعة دينية وثقافية . وقد تمثل ذلك في تمسكها الشديد بعقيدتها ورعايتها الفائقة لمناسك الحج الى بيت الله الحرام ، فضلاً عن اهتمامها بإقامة الاسواق ذات الطبيعة التجارية والثقافية مثل سوق عكاظ ، وسوق مجنة وذي المجاز حيث كان يتبارى الشعراء والخطباء والحكماء في عرض ما لديهم من مفاخر ومقولات وافكار.

ان هذا الواقع كان يفترض وجود لغة موحدة يتكلم بها هؤلاء العرب جميعاً ، فهل وجدت مثل هذه اللغة عندهم ، وماهي علاقة قريش بها وموقفها منها .

### قريش واللغة العربية الموحدة :

من المعروف أن أصول اللغة العربية ترجع إلى لغات شبه الجزيرة العربية القديمة التي عرفت باللغات السامية كاللغة الأكدية، والآرامية، والعبرية، وغيرها. وقد اتخذت كل لغة من هذه اللغات طريقها الخاص في النمو والتطور أو التوقف والتحجر. وكان من بين هذه اللغات اللغة التي يتكلمها سكان شبه الجزيرة العربية القدماء من البدو (الأعراب)

وغيرهم والتي عرفت بعد تكاملها ونضجها باللغة العربية.

وقد ساعد على تقارب لهجات القبائل العربية المختلفة وظهور اللغة المشتركة، حياة التنقل التي تميز بها البدو (الأعراب) بحثاً عن الكلأ والماء لرعي ماشيتهم، فضلاً عن مهنة التجارة لاسيما تجارة القوافل التي اشتهرت بها بعض القبائل العربية كقبيلة قريش، فضلاً عن وجود مراكز استقطاب ديني وسياسي تدعو العرب للاجتماع والحوار مثل مكة حيث بيت الله الحرام، وبلاطات بعض ملوك العرب مثل كندة والمناذرة والغساسنة وغيرهم حيث كان ينشد الشعر، وتلقى الخطب، وتعرض الحكم والأمثال وبعض الآراء والأقوال.

وقد استغرقت عملية التطور هذه زمناً طويلاً يتعذر على الباحثين تحديد مقدارها استناداً الى الادلة المتوفرة في الوقت الحاضر. إلا أن أول الأدلة التي ساعدت على معرفة بداية ظهور اللغة العربية الموحدة قد ظهرت من خلال اكتشاف نقش كتابي عرف بـــ (( نقش النمارة )) وكان مؤرخاً بسنة 328م، وهو يقترب اقتراباً شديداً من اللغة العربية الفصحى . ثم توالى اكتشاف النقوش التي تؤشر عملية تطور هذه اللغة باتجاه الفصحى مثل ((نقش زبد)) المؤرخ في سنة 512 م ، و((نقش حران)) المؤرخ سنة 568 م وغيرها.

إلا أن هذه النقوش، وعلى الرغم من أهميتها الكبيرة، لا تقدم لنا صورة متكاملة وواضحة عن معالم اللغة العربية الفصحى وتطورها بسبب قلة عددها وضآلة عدد الكلمات والجمل التي احتوت عليها. لذا فقد استعان الباحثون بالشعر العربي القديم ((الجاهلي)) الذي تناقله العرب عن طريق الرواية الشفهية منذ ظهوره في أواخر القرن الخامس الميلادي وحتى تدوينه في العصر الإسلامي .

وتظهر دراسة المفردات والتركيبات اللغوية للشعر الجاهلي الذي ظهرت أقدم نصوصه في أواخر القرن الخامس الميلادي وأوائل القرن السادس تكامل اللغة العربية الموحدة (الفصحى): ((فمنذ هذا التاريخ تقاربت لهجات القبائل وأصبحت هناك لغة أدبية عامة هي الفصحى، ينظم بها شعراء العرب جميعاً شعرهم)) . [ ضيف "1971" 120]

وقد تساءل عدد من الباحثين عن الموطن الذي ظهرت فيه هذه اللغة العربية الفصحى وعن القبيلة التي أصبحت لهجتها هي الأساس الذي تلتقي في إطاره كافة اللهجات العربية وتتوحد.

فذهب بعضهم إلى أن هذا الموطن هو مكة المكرمة ((أم القرى))، وأما القبيلة التي استوعبت لهجتها اللغة العربية الفصحى فهي قبيلة قريش، وذلك لأن مكة بحكم موقعها

الديني والتجاري كانت قبلة العرب ((فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج، ويتحاكمون إلى قريش في أمورهم ... وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب)) . [ ضيف "1971" 132نقلاً عن كتاب المزهر للسيوطي 211/1 ]

إن التأمل في النص آنف الذكر يشير إلى أن قريشاً قد اسهمت اسهاماً كبيراً في ظهور اللغة الموحدة، ولكن هل تطابقت هذه اللغة الموحدة التي غدت لغة الشعر والأدب والتي نزل بها القرآن الكريم مع لهجة قريش الخاصة بحيث أصبحت هي واللغة الموحدة (الفصحى شيئاً واحداً)؟

يجيب أحد الباحثين، وهو من أنصار الرأي الآخر بقوله: أن اللغة الفصحى هي لغة أسمى من كل اللهجات القبلية العربية بما فيها لهجة قبيلة قريش يقوله: إن اللغة المشتركة هي لغة عالية الأسلوب، فوق مستوى العامة من الناس ... وهي بصفاتها وعناصرها لا تنتمي إلى بيئة معينة من البيئات العربية المتباينة والمتعددة، أي أنها ليست لغة قبيلة بعينها، وإنما هي مزيج من كل هذا تكونت له شخصيته وكيانه. وإن مما يؤكد أن اللغة المشتركة لم تكن لهجة قريش وحدها، وجود ظاهرة الهمز فيها وعدم وجودها في لهجة قريش .

ويلاحظ انه على الرغم من وجاهة هذا الرأي وقوة حجته على المستوى النظري، فإنه من الناحية الواقعية يسلم بأن التطور في لهجة قريش قد انتهى بها إلى أن تصبح قريبة جداً من اللغة العربية الفصحى حتى غدا أمر ((إطلاق لغة قريش على اللغة الفصحى، ليس أمراً منكراً !، – على حد تعبير صاحب هذا الرأي – ، وذلك للإسهام الكبير الذي أسهمته هذه اللغة (أي اللهجة) في تكوين اللغة الأدبية، العربية الفصحى المشتركة)) . [الزيدي "1987" 123-124 ]

في ضوء ما تقدم، يبدو أن ثمة اتفاقاً عاماً بين الباحثين على أن لهجة قريش هي اللهجة التي انفتحت على كافة اللهجات العربية واستوعبتها في إطار لغة عربية موحدة، نطق بها الشعراء، وتحدث بها الأدباء والخطباء في شتى أنحاء شبه الجزيرة العربية، ونزل بها القرآن الكريم بكلام معجز مبين.

وكان مما ساعد على ظهور هذه اللغة امتزاج العرب بعضهم ببعض في مكة المكرمة، وانفتاح أبناء قبيلة قريش على سائر العرب سواءً عن طريق المصاهرة، أم التحالف، أم التجارة أم الحج أم غيرها من وسائل التعارف والتفاعل. ولا بد أن ذلك قد تحقق بطريقة تلقائية لا شعورية وعبر حقبة زمنية طويلة.

وهكذا ما كاد عصر الرسالة الإسلامية يطل على العرب والإنسانية حتى كانت اللغة العربية الموحدة قد عمت وانتشرت في كافة أنحاء شبه الجزيرة العربية، بدليل أن المعلمين والدعاة من أصحاب رسول الله ﷺ قد استخدموها في الدعوة والتبليغ، والتفاهم مع مختلف أبناء القبائل العربية من غير أن يجدوا صعوبة في ذلك بسبب اختلاف اللهجات القبلية والمحلية. مما يدل على أن هذه اللغة الموحدة قد غدت لغة مفهومة عند جميع العرب.

## مكة والشعــــر :

سبقت الأشارة إلى ان الشعر الجاهلي ازدهر في أواخر القرن الخامس الميلادي ،وعلى الرغم من أننا لا نعرف التاريخ الدقيق لظهور البواكير الأولى للنصوص الشعرية التي قيلت باللغة العربية الفصحى والتي اصطلح على تسميتها ب " الشعر الجاهلي " فإننا نعرف أن ما وصل إلينا من هذا الشعر يمثل – فضلاً عن قيمته الفنية – وثائق تاريخية تروي حياة القبائل العربية وما خاضته من حروب وصراعات وأحلاف ، وما كانت تمارسة من قيم ومثل وعادات ، وما تحتقبه ذاكرة أبنائها من أخبار ومعلومات ومعارف حتى صح أن يقول عمر بن الخطاب ﷺ : (كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه) . [ ابن سلام "1974" 24/1 ]

وبهذا الوعي لطبيعة المهمات التي كان ينهض بها الشعر الجاهلي يمكن القول إن أي حدث تاريخي ضخم وقع في المرحلة الممتدة بين أوائل القرن السادس الميلادي وبزوغ نور الإسلام لابد أن يجد صداه أو أصداءه في التراث الشعري الجاهلي ، بل إن هذا التراث كان المصدر شبه الرئيس لاستقاء أخبار الأحداث التاريخية التي وقعت في تلك الحقبة كحرب خزاز بين ربيعة والأحباش ، وحرب البسوس بين بكر وتغلب ، وحرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان ، ومعركة ذي قار بين بني شيبان والفرس ...الخ . وكان لكل قبيلة شعرها وشعراؤها ، وكان ظهور الشاعر في القبيلة أمراً ذا شأن ، يقول ابن رشيق في حديثة عن أهمية الشعر عند العرب : " كانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد ، أو شاعر ينبغ ، أو فرس تنتج " [ "1972" 65/1 ] ذلك أن الشعر عندهم ما هو إلا " حماية لأعراضهم ، وذب عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم وإشادة بذكرهم "

وما تناولناه من أخبار مكة وقريش قد يغري بالظن بغزارة الشعر وكثرة الشعراء من أبنائها ، ولكن الأمر لم يجر على ذلك فلم تكن قريش وافرة الحظ من الشعر والشعراء ، وربما كان ذلك بسبب إصرارها على موادعة العرب وتجنبها خوض الصراعات التي كانت هي الباعث الرئيس على قول الشعر في الأعم الأغلب ، وتلك حقيقة أومأ إليها الأصمعي

في قوله : " الشعر نكد بابه الشر فإذا دخل في الخير ضعف " . [ ابن قتيبة "1966" 305/1]

ويبدو أن ابن سلام انطلق من رؤية شيخه الأصمعي نفسها حين لاحظ قلة شعر قريش فأشار إلى سببها وهو يتحدث عن قلة شعر أهل الطائف بقوله : " وبالطائف شعر وليس بالكثير ، وإنما كان يكثر بالحروب التي تكون بين الأحياء نحو حرب الأوس والخزرج، أو قوم يغيرون ويغار عليهم ، والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا". [ "1974" 259/1 ]

على أن ذلك كله لا يعني أن مكة كانت صفراً من الشعر والشعراء ، فابن سلام نفسه يذكر ثمانية شعراء مكيين في إطار حديثة عن شعراء القرى العربية ويقول : " وبمكة شعراء ، فأبرعهم شعراً عبد الله بن الزبعرى ... وأبو طالب بن عبد المطلب ، والزبير بن عبد المطلب ، وأبو سفيان بن الحارث ،ومسافر بن أبي عمرو بن أمية ، وضرار بن الخطاب ، وأبو عزة الجحمي ... وعبد الله بن حذافة السهمي ، وهبيرة بن أبي وهب " . ["1974" 235-233/1 ] وحين نراجع أعداد شعراء القرى العربية الثلاث الأخرى التي ذكرها ابن سلام ثم نجد أنه ذكر خمسة شعراء في المدينة وخمسة في الطائف وثلاثة في البحرين ، يرقى إلى ظننا أن مكة أوفر حظاً من سائر القرى الأخرى ، وهو ظن صادق لو أن المسألة تتعلق بالجانب العددي وحده ، ولكن ابن سلام ما كان ينظر إلى ذلك وإنما كان ينيظر إلى غزارة الشعر وفحولة الشعراء ، فالشعراء المكيون الذين ذكرهم كان أكثرهم من المقلين الذين لم يُعنهم ظرفهم القبيلي على الاستكثار من الشعر وتنقيته وتجويده لمواجهة خصوم قبليين ومقارعتهم بشعر يسير به الركبان ويطرق قلوب الرواة ، بل إن شعراء مكة الذين كانوا ينتمون إلى أرهاطها المختلفة ما كانوا يجدون فرصة لمواجهة بعضهم بعضاً ، إذ طالما كان عقلاء القوم يعمدون إلى إطفاء نار الفتن قبل أن تستشري . يروي ابن سلام أن الناس أصبحوا يوماً وعلى دار الندوة مكتوب

أَلْهَى قُصَيّاً عن المَجْدِ الأسَاطِيرُ
ورِشْوَةٌ مِثْلَ ما تُرْشَى السَّفَاسِيرُ
وأَكْلُها اللَّحْم سُحْتَاً لاخَليطَ لَهُ
وقَوْلُها : رَحَلَتْ عِيرُ ، أَتَتْ عِيرُ

فأنكروا ذلك ، وتيقنوا أن الذي قالها عبد الله بن الزبعرى ، فمشوا إلى قومه بني سهم ، وطلبوا إليهم أن يسلموهم إياه ليقطعوا لسانه ، فما كان من بني سهم إلا أن قالوا لهم : شأنكم به ولكن اعلموا أننا لا يهجونا أحد منكم إلا قطعنا لسانه ، وكان شاعر بني عبد المطلب الزبير غائباً نحو اليمن . فقالوا : لا نأمن إن رجع وبلغه قول ابن الزبعرى أن يرد عليه فيؤتى إليه مثل ما نأتي إلى هذا . وكانوا أهل تناصف . فأجمعوا على تخلية ابن الزبعرى.

ولسنا نشك في أن هذه الحادثة لو جرت في غير مكة وفي غير قريش لكانت حرية بأن تنتج شعراً كثيراً في التهاجي ، ثم ربما أدت إلى خصومة وحرب تنتج شعر توثيب وحماسة ووصف معارك ، وربما تنكشف المعارك عن قتلى فتنتج شعر رثاء وحض على الثار . ولكن كون قريش ( أهل تناصف ) أطفأ نار الفتنة ، وانهى الأمر عند البيتين اليتيمين لابن الزبعرى اللذين لم يتجاوزهما إلا إلى بيتين آخرين قالهما عندما حاول بعض الناس أن يحملوه على رهطه إذ قالوا له: أسلمك قومك و لم يمنعوك . فقال :

لعَمْرُكَ ما جَاءَتْ بِنُكْرٍ عَشيرتي
وإنْ صالحَتْ إخوانَها لا أَلُومُها
يَوَدُّ جُنَاةُ الغَيِّ أنَّ سيُوفَنَا
بأيْمانِنا مَسْلُولَةً لا نَشِيمُها

لقد كان تناصف القوم فيما بينهم ، وحرصهم على توطيد علاقاتهم بالقبائل العربية بوجه عام سبباً أساسياً من أسباب قلة ما أُثر عنهم من شعر ، بيد أن ذلك لم يمنع من أن تكون مكة والأسواق المحيطة بها ، لاسيما سوق عكاظ – موطن حركة شعرية ناشطة – ففي هذه المواضع كان الشعراء من مختلف القبائل يجدون فرصتهم الكبرى لإنشاد أشعارهم التي يريدون لها أن تبلغ آذان أوسع قدر من الناس ممن يرتادون موسم الحج ومواسم الأسواق ، فضلاً عن وفود شعراء من مختلف القبائل لمديح سادة قريش أو لإنشاد أشعارهم في باحة الكعبة نفسها .

أما سوق عكاظ فقد كان موسماً للشعر بقدر ما كان موسماً للتجارة ، وكان الشعراء يتنافسون على شرف الإنشاد فية ، وربما جرت بينهم منافسات واحتكام إلى من يرتضون حكمه من كبار الشعراء الحاضرين في السوق ، بل ربما نصبوا لهم حكماً يقصدونه دون سواه ويرتضون أحكامه ، فإن لم يرتضوا حكماً من أحكامه خاضوا مناقشات حادة فقد روي أن النابغة الذبياني " كانت تضرب له قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ وتأتية الشعراء فتعرض عليه أشعارها ، فأنشده الأعشى أبو بصير ، ثم أنشده حسان بن ثابت ، ثم الشعراء ، ثم جاءت الخنساء السلمية فأنشدته فقال لها النابغة : والله لولا أن أبا بصير أنشدني آنفاً لقلت إنك أشعر الجن والإنس ، فقال حسان : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ومن جدك . فقبض النابغة على يده ثم قال : يابن أخي ، إنك لا تحسن أن تقول مثل قولي :

فإنَّك كالليلِ الذي هُوَ مُدْرِكي
وإن خِلْتُ أنَّ المُنْتَأى عَنْكَ واسِعُ

(ابن قتيبة "1966" 344/1)

وفي ضوء ذلك كله يمكن القول إن موادعة قريش قبائل العرب ومسالمتها لها قد تكون عامل قلة ما أنتجه أبناؤها من الشعْر ، ولكنها كانت في الوقت نفسه عامل إقبال

القبائل العربية على ممارسة طقوسها الدينية وأعمالها التجارية وإنشادها أشعارها في هذه البيئة الآمنة التي كفلت للجميع كرم الضيافة وحسن المعاملة وأمان الإقامة والرحيل ، ومن هنا تتجلى عظمة ما سبق في حكمة الخالق سبحانه من اختيار محمد بن عبد الله القرشي عليه أفضل الصلاة والسلام ليكون خاتم النبيين ورحمة الله الأبدية للعالمين.

**أ.د. هاشم يحيى الملاح**

## المصادر والمراجع

**المصادر:**

القرآن الكريم

الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت 244 هـ/858م) (1979) أخبار مكة، تحقيق رشدي صالح ملحس، بيروت،دار الثقافة.

الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت 356 هـ/ 966م) (1927 )كتاب الأغاني، مصر ، مصور عن طبعة دار الكتب المصرية.

ابن أبي الصلت الثقفي أمية (ت5هـ/626م) (1975) ديوان أمية بن أبي الصلت تحقيق د.بهجت عبد الغفور الحديثي بغداد .

ابن حبيب، أبو جعفر محمد (ت 245 هـ/ 859م) (1361) المحبر، بيروت .

ابن حزم ، ابو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت 456هـ/ 1063م) (1983) جمهرة أنساب العرب، بيروت، دار الكتب العلمية .

ابن رشيق أبو علي الحسن (ت 456هـ/ 1063م) (1972) العمدة في محاسن الشعر ونقده تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد بيروت.

ابن سلام محمد (ت 31هـ/845م ) (1974)طبقات فحول الشعراء تحقيق محمود محمد شاكر مطبعة المدني القاهرة.

الزبيدي، محب الدين محمد مرتضى الحسيني (ت 1205 هـ/1790م) (د.ت) تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق عبد الستار أحمد فراج .

ابن سعد، محمد (ت 230 هـ/ 844م) (1960)الطبقات الكبرى، بيروت ، دار صادر .

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310 هـ/ 922م) (1967) تاريخ الرسل والملوك، تحقيق أبو الفضل ابراهيم، مصر، دار المعارف .

القالي ، أبو علي اسماعيل بن القاسم بن عيذون ( ت356هـ/967م) (د.ت) كتاب النوادر ، مطبوع مع كتاب الأمالي ، بيروت ،دار الكتب العلمية .

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، (ت 276 هـ /889م ) (1964) الشعر والشعراء تحقيق محمود محمد شاكر ، مصر .

(1987) المعارف، بيروت ، دار الكتب العلمية .

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن احمد الانصاري (ت 671 هـ/ 1272م) (1952) الجامع لأحكام القرآن، القاهرة، دار الكتب المصرية.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت 346 هـ/ 966م)

(1968) مروج الذهب ومعادن الجواهر، شرحه وقدم له مفيد محمد قميحة، بيروت دار التراث.

ابن هشام، محمد بن عبد الملك (ت 218 هـ /833م ) (1955) السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مصر مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

**المراجع العربية والمعربة**

بيضون إبراهيم (1986) من الحاضرة إلى الدولة في الإسلام ، بيروت .

علي جواد (1977) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت دار العلم للملايين .

الجنابي، أحمد نصيف (1981) ملامح من تاريخ اللغة العربية، بغداد، دار الرشيد للنشر.

الجميلي، خضير عباس (2002) قبيلة قريش وأثرها في الحياة العربية قبل الإسلام، بغداد المجمع العلمي.

زيدان جرجي (د.ت ) العرب قبل الإسلام، بيروت.

الزيدي، كاصد ياسر (1987) فقه اللغة العربية، الموصل مطبعة جامعة الموصل.

الشريف، أحمد ابراهيم (1965) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، القاهرة ، دار الفكر العربي.

ضيف شوقي (1971) العصر الجاهلي، القاهرة، دار المعارف.

عبد الباقي، محمد فؤاد (1378 هـ ) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مصر.

العلي، صالح أحمد (1981) محاضرات في تاريخ العرب، الموصل.

كستر ، م ، ج (1976) الحيرة ومكة وصلتها بالقبائل العربية ، ترجمة دكتور يحيى الجبوري ،بغداد.

الملاح، هاشم يحيى (1994) الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، الموصل مطبعة جامعة الموصل.

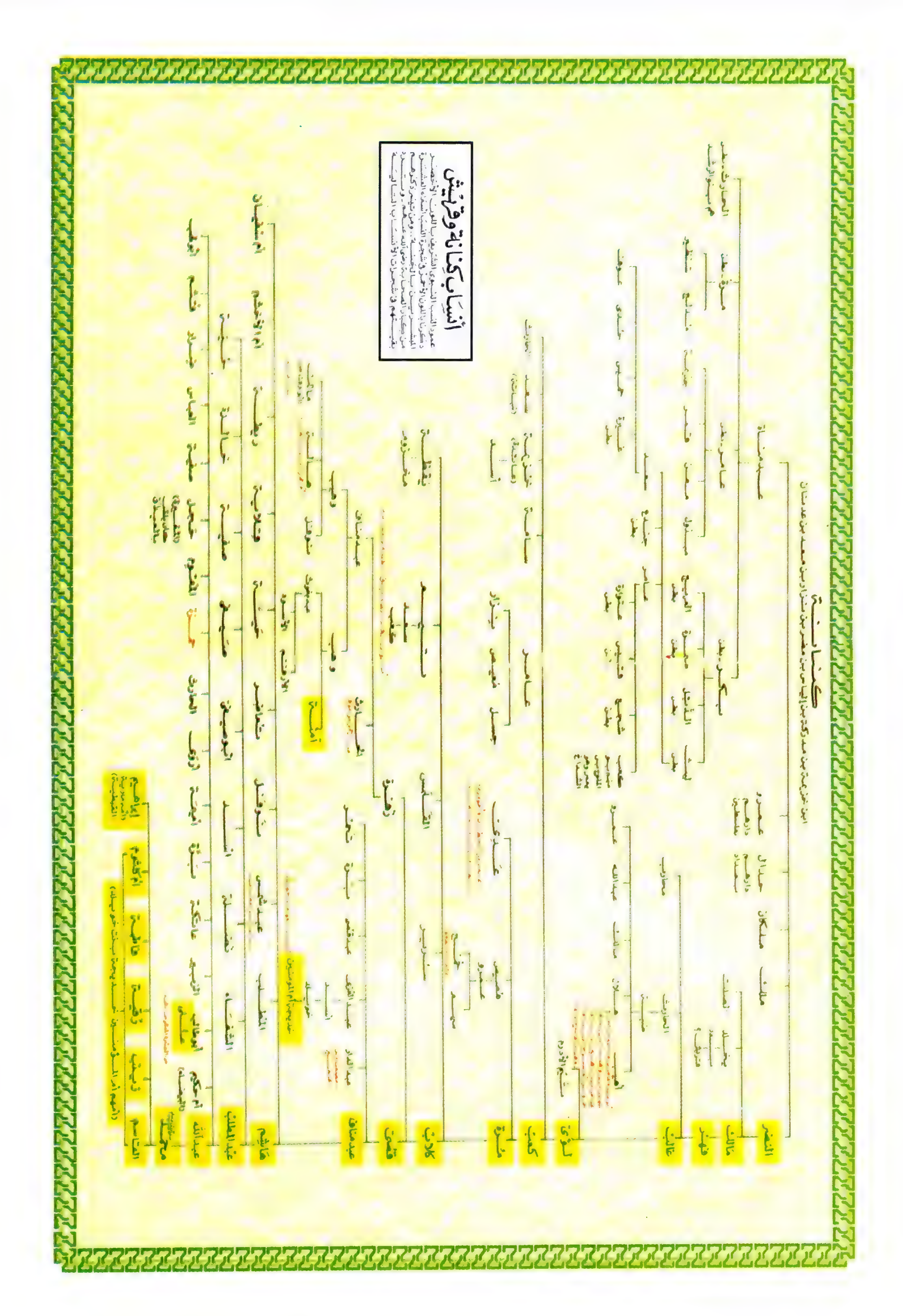
وات، مونتغمري (د .ت ) محمد في مكة، تعريب شعبان بركات، بيروت، (منشورات المكتبة العصرية)، بلات.

**البحوث :**

Hamidullah, M. The City State of Mecca, Islamic Culture, July, 1938, P. 256.

العسلي، خالد (2003) دور أجداد الرسولﷺفي مكة، بحث منشور في كتاب: دراسات في تاريخ العرب، ج 2، بغداد،.

الملاح، هاشم يحيى (دكتور) (2002) حكومة الملأ في مكة منذ عهد قصي بن كلاب حتى ظهور الإسلام، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ج 4، مجلد 49.



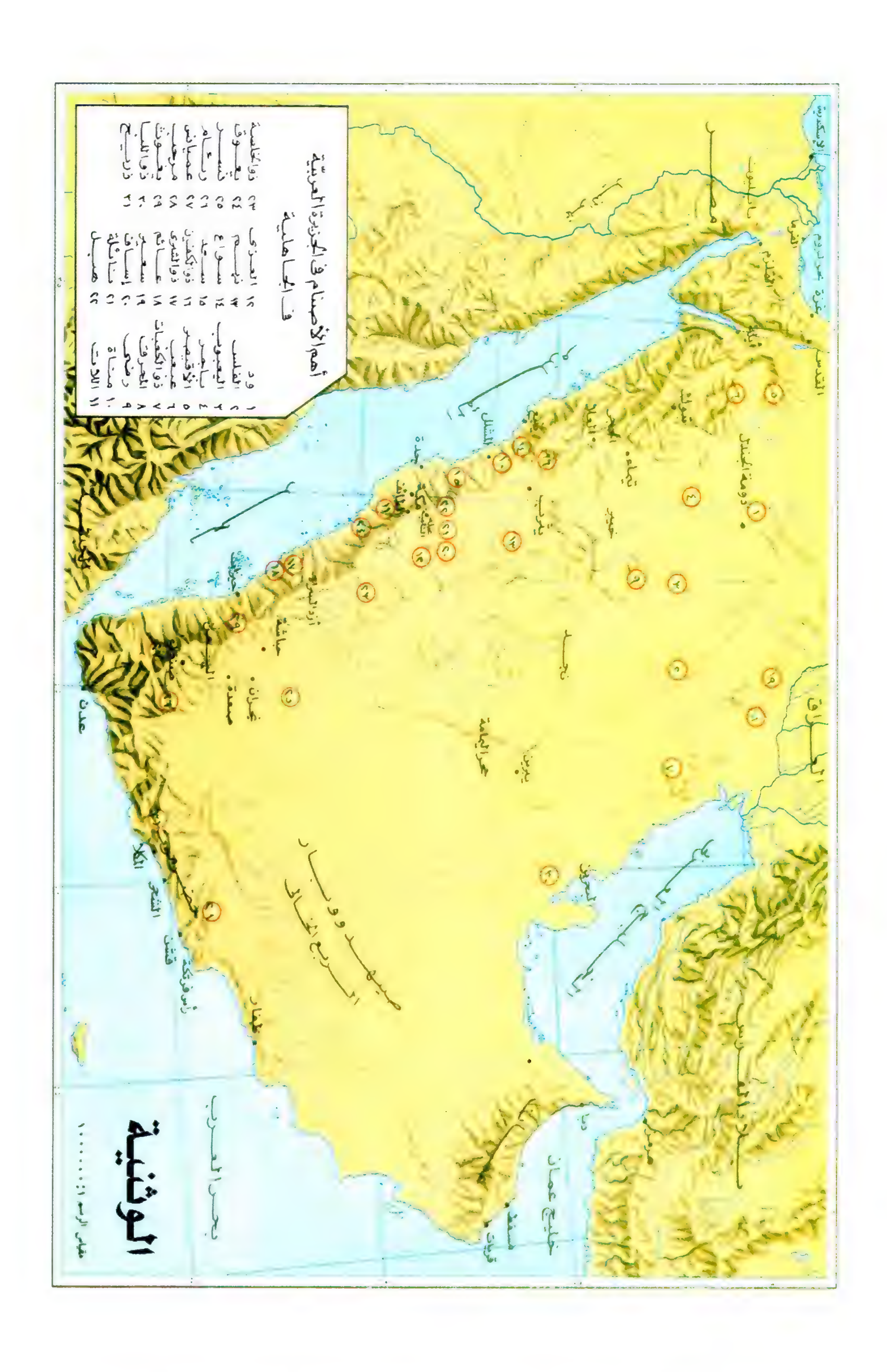

**المصدر : أطلس تاريخ الإسلام ـ د . حسين مؤنس مطبعة الزهراء ـ القاهرة 1984**

الطريق بين مكة والمدينة
والطرق بين
الحجاز والشام والعراق واليمن

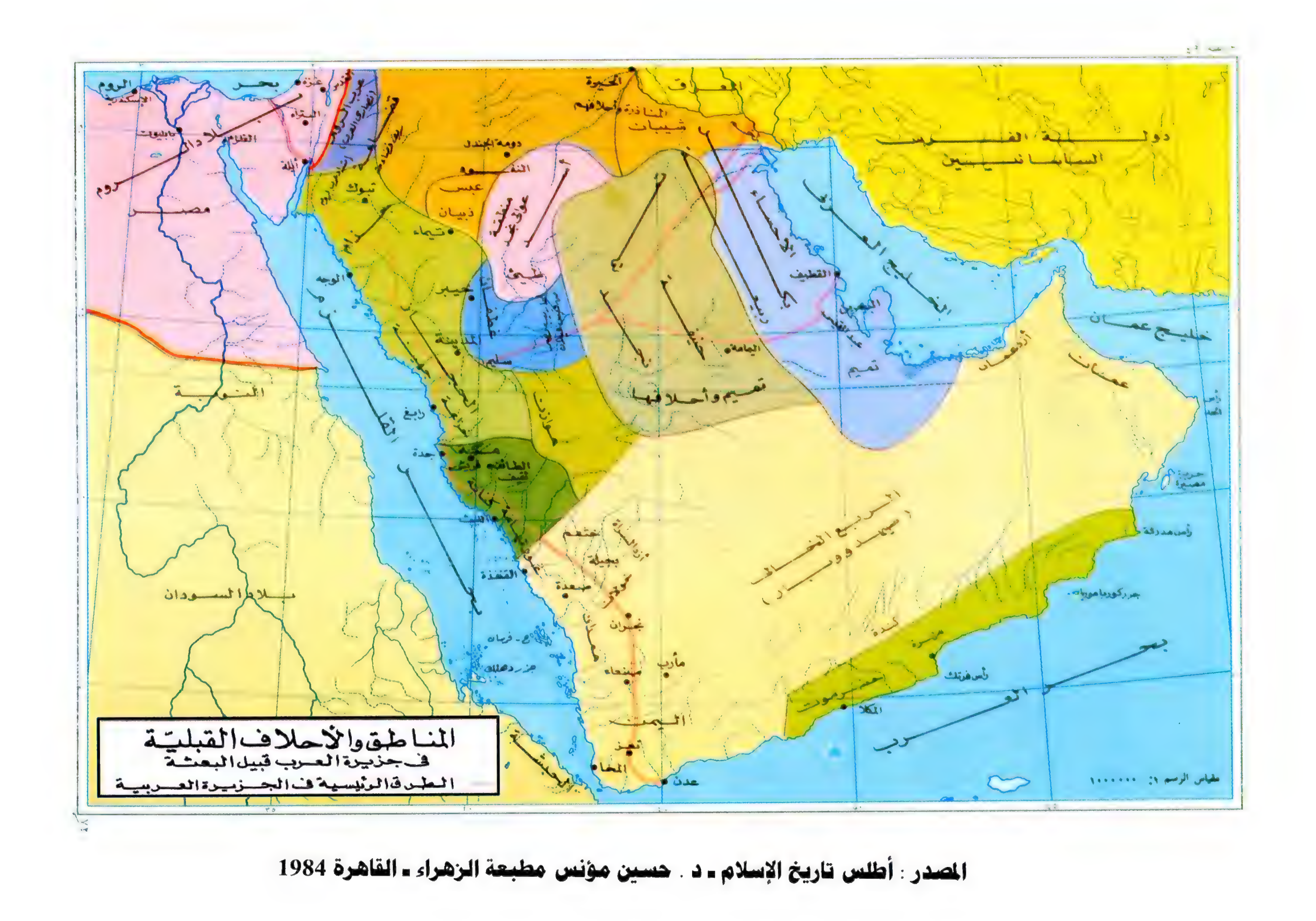
المصدر : أطلس تاريخ الإسلام - د . حسين مؤنس مطبعة الزهراء - القاهرة 1984




المصدر : أطلس تاريخ الإسلام ـ د . حسين مؤنس مطبعة الزهراء ـ القاهرة 1984



**المصدر : أطلس تاريخ الإسلام ـ د . حسين مؤنس مطبعة الزهراء ـ القاهرة 1984**




المصدر : أطلس تاريخ الإسلام - د . حسين مؤنس مطبعة الزهراء - القاهرة 1984

## الفصل الثاني

# السيرة النبوية

# السيرة النبوية

## تمهيد :

من المعروف أن اقوال الرسول محمد ابن عبد الله ﷺوأفعاله ، وإقـــراره لأقـــوال الآخرين وأفعالهم تمثل السنة النبوية ، وهـــي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإســـلامي بعد القرآن الكريم بإجماع المسلمين . لذا كان من الطبيعي أن يبذل المسلمون بعـــد وفـــاة الرسول ﷺ أقصى جهدهم في جمع أخباره من أفواه الصحابة ﷺ والسعي لتدوينها من أجل الحفاظ على أصول شريعتهم وصيانة أخبـــار نبيهم الذي جعله القران أسوة حسنة لهـــم : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [سورة الأحزاب , الآية : 21] .

وهكذا فقد أقبل الصحابة على جمع أخبار الرسول ﷺالقولية (الأحاديث) والعملية (السيرة) بعد وفاته ﷺ على مدى حوالي قرن ونصف . وكان أبرز الرجال الذين تركوا لنا آثارا مدونة في هذا المجال : عروة بن الزبير (ت 92هـــــ/710م) وأبـــان بـــن عثمـــان(ت 105هـــــــ/723م) ووهـــــــب بـــــن منبه(ت114هـــ/732م) ، و محمد بن ســـعد (ت 123هـــ/740م) ، ومحمد بن شـــهاب الزهـــــــــــــــــــــــــــري , (ت 124هـــ/741م) لقـــد مهـــدت هـــذه المدونات التي لم يصل إلى أيدينا منها ســـوى عدد من الروايات في المؤلفات اللاحقة لظهور

أوسع كتاب في سيرة الرسول (حـــتى ذلـــك التاريخ ، ألا وهو كتاب محمد بن إسحاق (ت 152هـــ/769م) . وإن مما يؤسف له حقا أنه لم يصل إلى أيدينا اصل هذا الكتاب كاملا ، وإنما وصل الينا كتاب السيرة النبويـــة لابـــن هشام ( ت218هــ/833م ) الذي هو تهذيب لسيرة ابن إسحاق . وقد عثر حـــديثا علـــى أجزاء من القسم الأول من سيرة ابن إسحاق، وقد قام بتحقيقها ونشرها كل من الـــدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادي والدكتور سهيل زكار .

وقد تواصل التأليف في السيرة النبوية بعد ابن إســـحاق ، فظهـــرت مؤلفـــات في السيرة، إما بصورة مستقلة أو في سياق الكتابة في التاريخ العام . وكان من أقدم وأشهر مـــا ألف فيها: كتاب مغازي رسول الله للواقدي (20هـــــ/822م) وكتاب الطبقات الكـــبرى لابن سعد , (ت230هــــ/844م) وتـــاريخ خليفة بن خياط(240هـــ/854م ) وكتـــاب أنســـــاب الأشـــــراف للـــــبلاذري (ت 279هـــ/892م) ، وكتاب تـــاريخ الرســـل والملوك للطبري (310هـــ/922م) .

وهكذا فقد أخذت (السيرة النبوية) بصفتها أحد أصناف التدوين التاريخي عند العرب صورتها المحددة ، وطابعها المميز بفضل جهود هؤلاء المؤرخين الرواد، وأخذ المؤرخون الذين جاؤوا من بعدهم يتابعونهم في مناهجهم وتوجهاتهم العامة ، مع بعض الإضافات والتغيرات التي تفرضها طبيعة العصر، ومستوى المعرفة ، واجتهادات المؤلفين.

لقد تميزت مناهج كتاب السيرة الأوائل بالحرص على ذكر السند في الرواية على طريقة المحدثين مع الرغبة في تنظيم الأحداث زمنيا وموضوعيا من أجل تقديم بنية متكاملة لقصة حياة الرسول ﷺ بحقبتيها المكية والمدنية ، مما يضفي عليها حيوية وقوة . وقد تأثروا في ذلك بمناهج الإخباريين والقصاص ، غير أن ذلك لم يؤثر كثيراً في حرصهم على قول الحقيقة والسعي لإبرازها.

انطلاقا من هذا التمهيد ، سنقدم للقارئ الكريم أحداث السيرة النبوية ووقائعها كما نقلتها لنا المصادر التاريخية ، وبحسب التسلسل الزمني للأحداث ، مبتدئين بولادة الرسول ﷺ ونشأته ، ومنتهين بجهاده ثم وفاته.

## أولا : نشأة محمد بن عبد الله ﷺ :

ولد الرسول ﷺ في مكة متحدرا من أعرق عشائر قريش نسبا فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي وينتهي نسبه بعدنان .

وكان مولده في يوم الإثنين 12 ربيع الأول ، وبحكم أنه لم يكن العرب يستعملون التاريخ في ذلك الوقت فقد ذكروا أن ولادته كانت في عام الفيل أي السنة التي غزا فيها أبرهة الحبشي الوالي على اليمن مكة.

### أجداد الرسول ﷺ :

1. **قصي** : هو الجد الرابع للرسول ﷺ وكان له دور تاريخي في قبيلة قريش ومكة لأنه هو الذي جمع قريشا الذين كانوا يقيمون خارج مكة متفرقين في قبيلة بني كنانة واستولى بهم على مقاليد الأمور في مكة من قبيلة خزاعة وذلك في النصف الأول من القرن الخامس للميلاد فوطنهم بها ورتب اوضاع المدينة الادارية والاجتماعية . ومن انجازاته في مكة إنشاؤه دار الندوة ففيها كانت قريش تتشاور في أمور السلم والحرب.
2. **عبد مناف** : هو الجد الثالث للرسول ﷺ وهو الذي قام بإدارة شؤون مكة بعد وفاة أبيه قصي.
3. **هاشم** : هو الجد الثاني للرسول ﷺ وكان له دور تاريخي أيضاً إذ إنه نجح في عقد عهود أمان مع الروم والغساسنة في الشام ومع القبائل المقيمة على طريق الشام وهي ما سميت بالإيلاف ، وبذلك مكن قريشا من أن تسير تجارة القوافل بين الشام واليمن ، كما عقد إخوته عهودا مماثلة مع السلطات

الاخرى المجاورة لشبه الجزيـرة العربيـة . ولهاشم مواقف بارزة أخرى في خدمة مكة وأهلها.

4. **عبد المطلب** : هو الجد الأول للرسـول ﷺكان أبرز اعيان مكة وهو الذي أعـاد حفر بئر زمزم والذي قاد المفاوضة مـع أبرهة الحبشي والي اليمن عندما غزا مكة لصده عن دخولها ، وقد زادت مكانتـه علوا عند أهل مكة والقبائل المجاورة بعـد ذلك.

5. **عبد الله** : والد الرسول ﷺ ، هو أصـغر أبناء عبد المطلب سنا ، تزوج من آمنـة بنت وهب من عشيرة زهرة القرشية وقد توفي وهو في ريعان شبابه وكان مسـافرا في مهمة تجارية في يثرب (المدينة) وتـرك أرملته وطفلها يتيما . واختلفت الروايات إن كانت وفاته قبـل مولـد الـنبي ﷺ أو بعدها بشهرين.

نشا رسول الله ﷺ في رعاية جـده عبد المطلب فعهد به بعد ولادته – على عادة علية القوم من المكيين – إلى حليمـة بنـت ذؤيب من بني سعد بن بكر من قبيلة هـوازن مساكنهم بجوار الطـائف لتقـوم بإرضـاعه وتنشئته في البادية .

عاش النبي ﷺالسنين الأولى من صباه عند عائلة مرضعته لكنهم لاحظوا عليه بعض الأعراض غير الاعتيادية فاصابهم بعض القلـق عليه مما اضطرهم إلى إعادته إلى أهلـه بمكـة بالرغم من محبتهم له وتبركهم بوجوده بينهم .

عاش رسول الله ﷺ بين أمـه آمنـة بنت وهب وجده عبد المطلب وأنبته الله نباتا حسنا لما يريد به من كرامته ، فلما بلغ سـت سنين توفيت أمه ، فظل في رعاية جده الذي محضه حبه ورعايته ولكن جده عبد المطلـب توفي لما بلغ ثماني سنين . وأوصى عبد المطلب ابنه أبا طالب خاصة بكفالة محمد ﷺ وتربيته، وكان أبو طالب وعبد الله والد الرسـول ﷺ أخوين لأب وأم، فاسبغ عليه أبو طالب محبته وحنانه ، وكان يحب ملازمته له في إقامته وفي سفره. فمن ذلك أنهُ عندما رغب أبو طالـب في السفر بتجارة إلى الشام اصطحب محمـداً ﷺ معه على الرغم من صغر سنه ( وكان لم يتجاوز الثانية عشرة ) وما فيها مـن عنـاء ومشقة . وقد أكسبته هذه السـفرة خـبرة ووسعت أفقه ومعرفته.

وشب رسول الله ﷺ ... حتى صار رجلا فكان أفضل قومه مـروءة وأحسـنهم خلقا وأكرمهم مخالطة وأحسـنهم جـوارا ، وأعظمهم حلما وأمانة وأصـدقهم حـديثا وأبعدهم من الفحش والأذى حتى سماه قومـه الأمين لما جمع الله له من الأمور الصالحة فيه . وظل أبو طالب يحفظـه ويحوطـه ويعضـده وينصره إلى أن مات .

وان مما يجسد جانبـا مـن أخلاقـه ومكانته بين قريش في شبابه الطريقة التي حل

بها خلاف قريش في وضع الحجر الأسود في الكعبة ، فعندما هدمت قريش الكعبة وشرعوا في إعادة بنائها تنازعوا حول من يعيد وضع الحجر الأسود في مكانه في الكعبة ، كل عشيرة منهم تريد أن تستأثر بهذا الشرف ثم اتفقوا على حل وسط وهو أن يحتكموا إلى أول داخل من باب المسجد فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ ؛ فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ! رضينا . فلما وصل إليهم اخبروه بأمر نزاعهم ، فقال لهم : أحضروا قطعة قماش كبيرة وأخذ الحجر الأسود بيده ثم قال: لتأخذ كل عشيرة بناحية من القماش ثم رفعوه جميعا حتى إذا بلغوا موضعه من الكعبة وضعه هو بيده ثم بنى عليه.

ولا تمدنا المصادر باية معلومات عن حياته بعد هذا إلا أنه اشتغل بعض الوقت في مرحلة من شبابه المبكر برعي غنم أهله وغنم بعض أهل مكة مقابل أجر زهيد.

## زواجه بخديجة رضي الله عنها :

بما أن التجارة هي النشاط الأوسع والأهم الذي يشتغل به أكثر سكان مكة بصفتهم تجاراً أو باعمال مساعدة تخدم التجارة فقد انضم الرسول ﷺ إلى العمل بهذا النشاط ، ولما يتمتع به من سمعة عالية بين أهل مكة في أمانته وإخلاصه وصدقه فقد عهدت إليه إحدى السيدات المكيات اللاتي يشتغلن بالتجارة وهي خديجة بنت خويلد بن أسد رضي الله عنها بالمتاجرة لها مع القوافل المكية يساعده غلامها ميسرة فوصل إلى سوق حباشة بتهامة وبصرى في الشام. ومن خلال تعامل السيدة خديجة رضي الله عنها المباشر مع الرسول ﷺ فقد أعجبت بشخصه وتأكدت من مناقبه الكريمة فضلا عن مكانة عشيرته بني هاشم في مكة وبين العرب فرغبت في الزواج منه على الرغم من أنه لا يملك من المال إلا ما حصل عليه مقابل عمله لها ، وهي يومئذ من أوسط قريش نسبا وأعظمهم شرفا وأكثرهم مالا ، وكل قومها كان حريصا على نكاحها لو قدر على ذلك ... فعرضت عليه نفسها فصادف ذلك رغبة عنده وتم الزواج. وأنجبت منه ابنين هما الطيب والطاهر ماتا رضيعين قبل البعثة ، وأربع بنات هن زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة وكلهن أدركن الإسلام واسلمن وهاجرن إلى المدينة .

وظل الرسول ﷺ يشتغل في التجارة وهو محل عناية ورعاية زوجه خديجة رضي الله عنها التي محضته حبها وإخلاصها ووقفت بجانبه وساندته حين واجه أقسى أزمة نفسية في حياته عندما أنزل الله عليه الوحي أول مرة ، فهونت عليه ما لقي من جراء ذلك فآمنت به وساندته في نشر الدعوة وعلى احتمال ما لقي من كفار قريش من كل صنوف الأذى ، وكانت فاجعته بموتها شديدة وذلك قبل الهجرة بثلاث سنوات. وقد قال عنها الرسول ﷺ : " ... لقد آمنت بي حين كفر

الناس ، وأشركتني في مالها حين حرمني الناس، ورزقني الله ولدها وحرمني ولد غيرها ".

**بدء نزول الوحي :**

لما بلغ محمد ﷺ الأربعين من عمره ، وكانت حببت إليه الخلوة والتعبد لربه، على دين إبراهيم عليه السلام . وكان يخلو بغار حراء في جبل النور الليالي ذوات العدد، وبغضت إليه الأوثان ودين قومه ، اختصه الله تعالى برسالته وبعثه إلى قومه فأنزل عليه الملك جبريل عليه السلام، وهو على جبل وقال : أبشر يا محمد أنا جبريل ، وأنت رسول الله إلى هذه الأمة ثم قال : اقرا ، قال : ما أنا بقارئ ، فأخذه فغطه بالنمط (بساط له خمل رقيق) ثم أرسله فقال : اقرا ، قال : ما أنا بقارئ ، فأخذه فغطه الثالثة، ثم أرسله فقال " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ(1)خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ(2)اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ(3)الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ(4)عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ " . [ سورة العلق , الآيات: 1-5] فرجع بها عليه (الصلاة والسلام) يرجف فؤاده مما ألم به من الروع الذي استلزمته مقابلة الملك جبريل لأول مرة فدخل على خديجة زوجه ، ولما ذهب عنه الروع أخبرها الخبر وقال : لقد خشيت على نفسي . فقالت : كلا ، والله ما يخزيك الله أبدا

وتقوم عقيدة الإسلام على أساس : " لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا رسول الله". ووصف القران الكريم الاسلام بأوصاف كثيرة منها : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ . [سورة التوبة , الآية :33] وأكد القرآن أن الرسول بشر أوحيّ إليه كما أوحىّ إلى الذين قبله من الرسل ، وأنه لا يستطيع أن يتجاوز في دعوته ما يأمره الله تعالى به وما يوحي إليه : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ [سورة الكهف , الآية :110]

**ثانيا : الدعوة الإسلامية في مكة :**

أخذ رسول الله ﷺ في أول الأمر يدعو إلى الاسلام أقرب الناس إليه فكان أول من آمن به زوجه خديجة، ثم توالى إيمان أعداد من أهل مكة ممن فتح الله قلبه للإيمان، وأخذ بعض المؤمنين الجدد مثل أبي بكر رضي الله عنه يبث الدعوة بين من يغشاه ويجلس عنده فاستجاب له طائفة من أوائل المؤمنين . وتتابع دخول جماعات من الرجال والنساء في الإسلام وفشا ذكره في مكة. وبعد مرور ثلاث أو أربع سنوات من بدء الدعوة أمر الله سبحانه وتعالى رسوله بإعلان الدعوة ، فقال تعالى له : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ﴾. [سورة الحجر , الآية : 94]

كانت استجابة كفار قريش للدعوة متفاوتة فاستجاب لها بعضهم واعتنقوا الدين الجديد و لم يبد البعض الآخر كبير معارضه في أول الأمر ، لكن الحال لم يلبث أن تغير عندما ذم القرآن آلهتهم وبين أنهم وآباءهم كانوا

على ضلال في عبادتها ، وسفه أحلامهم في إشراكهم معبوداتهم مع الله وهي لا تضر ولا تنفع . ترافق هذا مع تزايد عدد الداخلين في الإسلام من كل الشرائح الاجتماعية ومن كل الأسر المكية الأمر الذي مثل تحديا للقيم والأعراف المكية وأحدث خللا في النظام الاجتماعي بها فلم يعد شيوخ العشائر ولا الأسر قادرين على السيطرة على أبنائهم ومواليهم وعبيدهم وأفلت الزمام من أيديهم أوكاد . ومن أمثلة الآيات التي نزلت تعيب آلهتهم التي يعبدونها من دون الله : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا ﴾ [سورة الفرقان , الآية : 3] وقوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ . [سورة الحج, الآية : 73]

ولم تقتصر الآيات على تسفيه آلهتهم بل وصفتهم بأوصاف ذميمة : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا ﴾ [سورة الفرقان, الآية : 44]

وقد وصفهم القرآن الكريم بأنهم المشركون والكافرون والضالون والمجرمون والآثمون وغير ذلك من أوصاف الذم ، ووصف مصيرهم في النار وعذابهم فيها بأوصاف مريعة .

تبنى كفار قريش استراتيجية متعددة الأبعاد في مقاومة دعوة الرسول ﷺ منها : تسفيه دعوة الرسول ﷺوالصاق كل الأوصاف السيئة به مثل إنه ساحر ومسحور ومجنون وكذاب وشاعر . ووصفوا القران الكريم بأنه إفك وأساطير :﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا(4)وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلا﴾. [سورة الفرقان , الآيتان : 4-5]

ومنها : الاستهزاء به وتحديه ومحاولة تعجيزه مثل قولهم :﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنْ الأَرْضِ يَنْبُوعًا(90)أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا(91)أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلا(92)أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلا بَشَرًا رَسُولا ﴾ . [سورة الاسراء , الآيات : 90-93]

ومنها : إلحاق الأذى بالرسول ﷺ وبالمسلمين واتخاذ وسائل وأساليب متنوعة لجعلهم يتخلون عن دينهم الجديد منها : الإقناع والتهديد والإضرار بالمصالح وإنزال العقوبة الجسدية خاصة بالمستضعفين من

المسلمين وهم قوم لا عشائر لهم بمكة وليست لهم منعة ومعظمهم من العبيد والعبيد المحررين (الموالي) ومن هو في مترلتهم ، فكانت قريش تعذبهم في الرمضاء في أنصاف النهار ليرجعوا عن دينهم وغير ذلك من صنوف العذاب الأخرى . وقد ضعف قليل جدا من هؤلاء المسلمين ممن لم يكن الإيمان متمكنا من قلبه فخضع لطلبهم بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾. [سورة العنكبوت , الآية : 10]

ومنها : الضغط على عمه أبي طالب الذي كان يقدم له الحماية والمساندة المعنوية ، على الرغم من أنه كان على دين قريش ، فكانوا يشتكون إليه الأضرار التي أحدثها الرسول ﷺ ، ومن وجهة نظرهم ، في المجتمع المكي من انقسام الناس وتمرد الأبناء على الآباء والعبيد والموالي على الأسياد وتسفيه دين الآباء والأجداد ، ويطلبون منه كف محمد ﷺ عما يدعو إليه أو يتخلى أبو طالب عن حمايته ويخلي بينه وبين قريش .

الهجرة إلى الحبشة :

أدرك الرسول ﷺ حجم الضغوط التي يتعرض لها المسلمون من قبل مشركي مكة والمصاعب التي يواجهونها في ممارسة عبادتهم بل إن بعضهم قد يضعف ويستجيب لضغوط المشركين ويرتد إلى الشرك . فأشار على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة وقال لهم : " لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه" . [ ابن هشام "1997" 358/1 ]فخرج عند ذلك المسلمون أرسالا إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة (الإرتداد)، وفرارا إلى الله بدينهم ، فكانت أول هجرة في الإسلام. وكان بدء الهجرة إلى الحبشة في السنة الخامسة من البعثة ، وبلغ عدد المهاجرين إلى الحبشة حوالي 88 رجلا ، 20 منهم اصطحبوا زوجاتهم. وتفاوتت مدد بقائهم فيها فمنهم من عاد قبل الهجرة إلى المدينة ومنهم من عاد بعدها مباشرة ومنهم من استمر مقيما فيها إلى السنة السابعة من الهجرة. وكان استقبالهم من قبل السلطات والمجتمع في الحبشة كريما مما شجعهم على الإقامة في هذه البلاد حتى وصلت إقامة بعضهم إلى حوالي ثلاث عشرة سنة .

ومما يلاحظ على قائمة أسماء مهاجري الحبشة أنهم كلهم من قريش أو من العرب المقيمين في مكة والمرتبطين مع قريش في حلف أو مصاهرة . كما يلاحظ أن البطون القرشية ممثلة فيها بصورة متوازنة تقريبا مما يعكس أن اعتناق الإسلام لم يخضع لعلاقة القرابة من الرسول ﷺ. ويلاحظ كذلك أن المهاجرين تربطهم علاقة قرابة وثيقة بأشد أعداء الدعوة الإسلامية خصومة مثل عياش بن أبي ربيعة المخزومي رضي الله عنه فهو أخ لأبي جهل من الأم وابن عمه ، وابن عم أبي

جهل الآخر هشام بن المغيرة ، وام حبيبة بنت أبي حذيفة ابي سفيان ﷺ، وصهره وابن عمه أبي حذيفة بن عتبة أخي زوجه هند بنت عتبة، وابن عمه الآخر عثمان بن عفان ﷺوغيرهم. ويلاحظ أخيرا الهم كلهم كانوا شبابا .

أدركت قريش أنها ارتكبت خطأً كبيرا بالسماح للمسلمين بالهجرة إلى الحبشة لما أحدثه ذلك من أثر نفسي في أهلهم بمكة من ناحية ونجاحهم بإقامة علاقات جيدة مع حاكم الحبشة وأهلها من ناحية أخرى ، والحبشة تقليديا شريك تجاري مهم لمكة ، ومن ثم فوجود المسلمين بها سوف يعطي انطباعا سيئا عن مكة ومجمل الاحوال فيها . لذا فقد حاولت قريش تدارك الوضع فأرسلت موفدين إلى حاكم الحبشة لإقناعه بإعادة المسلمين إلى مكة لكنه لم يستجب لطلبهم .

**مقاطعة بني هاشم وبني المطلب :**

شددت قريش أساليب مقاومتها للدعوة الإسلامية بسبب تزايد انتشار الإسلام ووقوف أبي طالب ومعه بنو هاشم – باستثناء أبي لهب – وبنو المطلب مؤمنهم وكافرهم لحماية الرسول ﷺ من أذى قريش فقد لجأت إلى ابتكار وسيلة جديدة لمعاقبتهم جميعا وإجبارهم على التخلي عن حماية الرسول ﷺ وذلك بان اجتمعوا واتفقوا على أن يكتبوا بينهم كتابا يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب على : "ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئا ، ولا يبتاعوا منهم " فلما اجمعوا على ذلك كتبوه في صحيفة ، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة لتوكيد أهميتها وحتى لا يتجرأ أحد على خرقها وذلك في بداية السنة السابعة من البعثة. [ ابن هشام "1997" 388/1 ] فلما فعلت قريش ذلك اجتمع بنو هاشم وبنو المطلب في شعب أبي طالب خشية أن يقوم المشركون بالاعتداء على الرسول ﷺ أو غيره عندما يكونون متفرقين . ولبث بنو هاشم في شعبهم ثلاث سنين. وكان الرسول ﷺ في أثناء هذه المدة يقوم في موسم الحج والأسواق السنوية الموسمية التي تعقد في مكة وضواحيها كل سنة بعرض دعوته على القبائل لكنه لم يجد تجاوبا من أي منها . وحدثت في المدة الزمنية ذاتها حادثة الإسراء والمعراج . ونظرا لصمود بني هاشم وبني المطلب في وجه المقاطعة وتعاطف بعض الافراد معهم وإحساسهم بشيء من تأنيب الضمير فقد سعوا لنقض المقاطعة ونجحوا في ذلك .

وحدثت بعد نقض صحيفة المقاطعة مباشرة فاجعتان متتابعتان هما وفاة السيدة خديجة زوج الرسول ﷺ التي كانت تواسيه وتسانده معنويا أمام ما يتعرض له من محن من قبل كفار قريش ، ووفاة عمه أبي طالب الذي كان يقدم له الحماية ويمنع قريشا من أن تلحق به أذى جسديا ، وكان قادرا على توحيد موقف بني هاشم وبني المطلب وجمع كلمتهم،

فضلا عما كان يتمتع به من مكانة محترمة لدى زعماء قريش . وقد انتقلت زعامة بني هاشم إلى أبي لهب الذي اشتهر بعدائه الشديد للرسول ﷺ والدعوة الإسلامية .

اغتنمت قريش الفرصة فشددت ضغوطها على الرسول ﷺ ولهذا حاول نقل دعوته إلى بلدة الطائف الجبلية الواقعة على بعد 85 ميلا جنوب شرقي مكة . والطائف واحة زراعية ومعظم سكانها من قبيلة ثقيف وكانت علاقتهم باهل مكة وثيقة جدا من حيث المصاهرة والشراكة في التجارة والأموال. وعندما دعاهم الرسول ﷺ إلى الإيمان بالله وحده لم يجد عندهم سوى الاستهزاء والأذى فاضطر إلى العودة إلى مكة مكسورا حزينا . ولم يستطع دخول مكة ، بعد وفاة عمه أبي طالب ، بل مكث في خارجها وأرسل إلى اثنين من الوجهاء المكيين يطلب جوار أحدهما ليدخل مكة آمنا ، فاعتذرا له ووافق ثالثهم المطعم بن عدي بن نوفل وأعلن جواره لمحمد ﷺ في الحرم وعلى ملا من الناس حتى لا يتعرض له أحد بأذى. [ ابن هشام "1997" 419/1 ]

عاد الرسول ﷺ إلى دعوة القبائل إلى الإسلام في موسم الحج والأسواق السنوية الموسمية التي تعقد بضواحي مكة فصادف نجاحا لأول مرة إذ استجاب لدعوته افراد من قبيلتي الأوس والخزرج من أهل يثرب فآمنوا بدعوته ، ولما عادوا إلى يثرب أخذوا يدعون قومهم إلى الإسلام فقبله بعضهم وشاع ذكر الرسول ﷺ والاسلام فيها. ثم قدم اثنا عشر رجلا من المسلمين من أهل يثرب في موسم الحج التالي وقابلوا الرسول ﷺ سرا في العقبة في منى وبايعوه على : " ألا يشركوا بالله شيئا ... " وعلى الالتزام ببعض تعاليم الإسلام الأخلاقية وبعث معهم رجلين من أصحابه هما مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ليقرئوا المسلمين القرآن ويعلموهم الإسلام ويفقهوهم في الدين . وكان مصعب يؤمهم في الصلاة . ثم قدم وفد كبير من مسلمي أهل يثرب وعددهم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان من ضمن حجاجها من المشركين للعام الثالث على التوالي والتقى أيضا سرا وعلى حذر بالرسول ﷺ في العقبة في منى حتى لا يكشف أمرهم كفار قريش وكفار يثرب على حد سواء . وفي هذا اللقاء تم عقد اتفاق بين الرسول ﷺ وبين مسلمي يثرب سمته كتب السيرة " بيعة العقبة الثانية " يتم بموجبه هجرة الرسول ﷺوالمسلمين إلى يثرب ويقدم لهم المسلمون من أهلها الحماية والرعاية . وفي الاجتماع تكلم رسول الله ﷺ فتلا القران ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ثم قال : " أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم " فقالوا : نعم وبايعوه على ذلك . ثم طلب منهم أن يخرجوا إليه اثني عشر نقيبا ليمثل كل نقيب عشيرته . فاخرجوا اثني عشر

نقيبا ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس.
[ ابن هشام "1997" 56/2 ]

إن بيعة العقبة هذه تعد ثمرة للنجاح الكبير الذي أحرزته الدعوة الإسلامية في يثرب في هذه المرحلة المبكرة ، وتعكس مدى انتشار الإسلام وترسخه فيها لدرجة جعلت أهلها مستعدين لاستقبال الرسول ﷺ والمسلمين من أهل مكة والدخول في حرب ضد كفار قريش إذا لزم الأمر .

لقد توصل أحد الباحثين في السيرة النبوية إلى أن بيعة العقبة الثانية ، قد وضعت الأساس الشرعي والقانوني لقيام سلطة الرسولﷺ السياسية في المدينة وذلك " لأن البيعة عقد رضائي ، أعلن بموجبه المبايعون من أهل المدينة استعدادهم لطاعة الرسول ﷺ ، وتعهدهم بحمايته والدفاع عنه في مدينتهم . و لم تكن هذه البيعة مقصورة على الحماية السلبية لشخص الرسول ﷺ ، وإنما هي حماية له ﷺ وهو يمارس نشاطه الفعال في نشر الدعوة بين الناس ، وإطاعة أوامره في المنشط والمكره . ومن ثم ، فإن حدود هذه البيعة قابلة للتوسع ، وهي تسمح بالانتقال من حدود الدفاع عن الرسول ﷺ في داخل المدينة إلى الهجوم والقتال إلى جانبه في خارجها ".
[ الملاح "1994" 282 ]

### ثالثا : الهجرة إلى المدينة ونشوء الدولة:

بناء على اتفاقية العقبة أصبح بوسع المسلمين من أهل مكة الهجرة إلى يثرب ، وبتوجيه من الرسول ﷺ شرعوا مباشرة في الهجرة جماعات صغيرة وأفرادا متتابعين ، والكثرة منهم خرجوا من مكة مستخفين وقلة منهم كانت هجرته علنية مثل عمر بن الخطاب ﷺ . وأحسن المسلمون في يثرب وفادهم فاستقبلوهم استقبالا كريما فوفروا لهم الإقامة والمعاش معهم في منازلهم أو في منازل مستقلة . واشتد حنق كفار قريش على نجاح الهجرة فشددوا الأذى على من بقي من المسلمين فافتتن (ارتد) بعضهم وحبس البعض الآخر . ثم إنه أذن لرسول الله ﷺ بالهجرة في الوقت الذي كانت قريش تعد فيه مؤامرة لقتله ولكن الله نجاه منها ، ونزل في ذلك من القران : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ . [سورة الانفال ، الآية : 30] خرج رسول الله ﷺ سرا ومعه أبو بكر ﷺمهاجرا إلى المدينة وابقى علي بن ابي طالبﷺبعده بمكة لثلاث ليال وكلفه بأعمال منها إعادة ما لديه من أمانات لبعض أهل مكة. وسلك طريقا غير مألوف ولا متوقع إذ خرج من جنوبي مكة ثم اختفى هو وأبو بكر ﷺبغار في جبل ثور يقع جنوبي المسجد الحرام على بعد ثلاثة أميال لمدة ثلاث ليال من أجل التعمية على مشركي قريش عندما

يقتفون أثرهما، وقد نزل في حال مكوثهما في هذا الغار قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [سورة التوبة، الآية : 40] . ولما علمت قريش بذلك أرسلت رجالا لملاحقتهما وبذلت الأموال لمن يقبض عليهما. وقد استأجرا دليلا سلك بهما طريقا غير مألوف خاصة في المرحلة الأولى منه وأصبح اسمه فيما بعد طريق الهجرة .

وصل الرسول ﷺ إلى قباء وهي ضاحية تقع في جنوبي المدينة أول ما يمر بها القادم من مكة وكان ذلك يوم الاثنين الموافق للثاني عشر من ربيع الأول ، وكانت المدة الفاصلة بين بيعة العقبة ووصوله إلى المدينة قرابة ثلاثة أشهر . وقد اتخذ المسلمون هذا الحدث بداية لتقويمهم في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ ، وقد عرف هذا باسم التقويم الهجري ، على أنهم قدموا بداية العام لتكون من بداية شهر المحرم وهو أول يوم في السنة القمرية عند العرب .

استقبل المسلمون رسول الله (صلى الله عليه وسلم )بالبشر والسعادة وسكن في منزل أحد المسلمين وهو كلثوم بن هدم ﷺ، وأقام في قباء حتى يوم الخميس واسس في أثناء ذلك مسجده بقباء الذي نزل فيه قوله تعالى : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾. [سورة التوبة ، الآية : 108] وفي يوم الجمعة انتقل إلى المدينة واستقبله أهلها فرحين مسرورين وكل أهل بيت منهم يعرض عليه الضيافة والإقامة في منزله وتقديم الحماية له ، لكنه شكر لهم صنيعهم وطلب منهم أن يدعوا ناقته القصواء تسير على سجيتها " فإنها مأمورة " فانطلقت حتى بركت في الأرض التي أصبحت فيما بعد مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم )، فنزل عنها وجاء أبو أيوب خالد بن زيد ﷺ واحتمل رحل رسول الله ﷺ وأدخله في داره ونزل عليه رسول الله ﷺ ، وأخلى أبو أيوب ﷺ أسفل داره للرسول ونزل في أعلاها ثم جاء أبو أيوب فقال للرسول ﷺ : لا أعلو سقيفة وأنت تحتها فتحول النبي ﷺ في العلو وأبو أيوب في السفل.

شكلت الهجرة إلى المدينة منعطفا تاريخيا إذ أدت إلى نشأة أول دار إسلام وشرع رسول الله ﷺ منذ وصوله في بناء الأمة والمجتمع الجديد . فكان أول عمل قام به الشروع في إقامة مسجد فتم شراء الأرض التي بركت فيها الناقة من أصحابها إذ كان موقعها ومساحتها مناسبين وجهزت للبناء ، وقام الرسول ﷺ والصحابة بالتعاون على بنائه بأنفسهم، وتم في الوقت نفسه بناء بيوت (حجرات) الرسول ﷺ ملاصقة للمسجد ، وأنجز كامل البناء في شهر صفر من العام التالي، واستغرقت عملية البناء سبعة أشهر . وكانت مساحة المسجد 70×60 ذراعا

(30×35 م او يزيد)،ثم تمت توسعته في السنة السابعة أي بعد فتح خيبر.

وقد استلهمت المدن التي أنشئت في صدر الإسلام بعد ذلك جوهر تصميمها من هذا التصميم فضلا عن استفادتها من موقع وتصميم المسجد الحرام بمكة . ومثّل المسجد بالنسبة إلى المسلمين مكان العبادة يؤدون فيه فرائض الصلاة ومكانا لتعليم النبي ﷺ أصحابه القرآن وتعاليم الإسلام ومكانا لإدارة شؤون جماعة المسلمين الدينية والدنيوية .

بجانب اهتمام الرسول ﷺببناء المسجد اهتم ببناء المجتمع الجديد المكون في أول الأمر من مجموعتين : المسلمين المهاجرين من مكة والمسلمين من أهل يثرب ، واقتضى ذلك صياغة جديدة شملت كل شيء فأعطى ليثرب اسما جديداً هو المدينة ، وأعطى لمجموعة المسلمين المهاجرين من مكة اسما كريما يليق بهم هو المهاجرون . أما المسلمون من أهل يثرب وكانوا مكونين من قبيلتي الأوس والخزرج الذين كانوا في تنافس وصراع دائمين قبل اعتناقهم الإسلام فبدل اسمهم إلى الأنصار وذلك اشتقاقا من موقفهم من الإسلام والمسلمين فشرفوا بهذا الاسم وأصبحوا بعد ذلك يغضبون إذا ما نسبوا إلى قبائلهم التي كانوا قبل إسلامهم يتعصبون لها أشد التعصب . وقد أكرم الله المهاجرين والأنصار بان ذكرهم باسمائهم الجديدة في القرآن الكريم [سورة التوبة ، الآيتان : 117،100].

ولدت الهجرة وضعا اجتماعيا واقتصاديا جديدا فمعظم المهاجرين تركوا أموالهم وأهليهم في مكة واقتضى الحال تخفيف وطأة الغربة والحاجة عنهم في بلدهم الجديد فاستحدث رسول الله ﷺ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وقد شملت عند أول استحداثها تسعين رجلا خمسة وأربعين من المهاجرين وخمسة وأربعين من الأنصار واقتضت تقديم القادرين وهم الأنصار لغير القادرين وهم المهاجرون كل أنواع العون الممكنة من مأكل ومسكن وأعباء الحياة الأخرى وارتقت العلاقة بينهما إلى درجة التوارث بين المتآخيين . كل هذا لمعالجة ظروف استثنائية مر بها المجتمع الناشئ ، ولما أصاب المهاجرون من غنائم غزوة بدر ما كفاهم فضلا عن تكيفهم مع الأوضاع في المدينة ونجاح أكثرهم في كسب رزقه عن طريق التجارة وغيرها ، أبطل التوارث بين المتآخيين وعاد إلى وضعه الطبيعي وقد نزل في ذلك قوله تعالى : ﴿...وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّـهِ ...﴾ [ سورة الانفال ، الآية : 75] .

ويبدو أن النبي ﷺ استمر يؤاخي بعد ذلك بين أصحابه مؤاخاة مواساة وتعاون وتناصح.

وإذا كانت المؤاخاة عنيت بمعالجة الوضع الاجتماعي للمهاجرين خاصة وتوثيق علاقتهم بإخوتهم الأنصار فان الرسول ﷺ رأى ضرورة صياغة العلاقة بينهما وتحديد الحقوق والواجبات لكل طرف وشمل ذلك المجموعة السكانية بالمدينة من غير المسلمين وهم اليهود بوثيقة مكتوبة سمتها المصادر القديمة صحيفة المدينة وسماها الدارسون المحدثون دستور المدينة . بلغ عدد بنودها 47 بندا ، منها : "هذا كتاب من محمد النبي رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم وإنهم امة واحدة من دون الناس . المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين . ...**(وعدد عشائر الانصار)**

وإن المؤمنين المتقين أيديهم على من بغى منهم ، أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان ، أو فساد بين المؤمنين ، وإن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم .

...

وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن ...أنه لا يحل لمؤمن اقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا ولا يؤويه ، وإن من نصره أو آواه فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل . [ ابن هشام "1997" 115/2 ]

وقد عدت هذه الوثيقة الإسلام اساسا للمواطنة في الدولة الإسلامية الجديدة وقدمت الرابطة الدينية على الرابطة القبلية بين المسلمين وهذه ظاهرة يعرفها المجتمع العربي لأول مرة في تاريخه فلم يجتمع فيه الناس قبل الإسلام إلا على أساس من صلات القرابة والنسب . وعينت الوثيقة رئيس الدولة بالنص: " وانكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد " ... وبنصها كذلك : " على أن ما وقع بين أهل الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فساده فإن مرده إلى الله ومحمد رسول الله " . [ العوا "1981" 272/1 ]

## رابعا : الغزوات و السرايا:

كان رسول الله ﷺ رسولا وقاضيا ومعلما وقائدا فكان يدعو المشركين إلى اعتناق الإسلام ويفقه المسلمين ويعلمهم أمور دينهم ويؤدبهم بآداب الإسلام ويسعى إلى نشر المبادئ السامية بين أفراد المجتمع من مودة ورحمة وألفة ومحبة وتعاطف وتكافل وفعل كل ما هو خير وتجنب كل ما هو شر .

وبما أن الإسلام رسالة للناس جميعا وأصبح للمسلمين وطن يعيشون فيه ومجتمع خاص بهم أخذ الرسول ﷺ يواصل نشر الرسالة عن طريق الدعوة بين أهل المدينة والقبائل المجاورة لها ، وعن طريق الجهاد . أما الجهاد فقد اتخذ الرسول ﷺ استراتيجية

واضحة بشأنه وهي نشر الإسلام في مكة وبين أهلها وقد نجحت الدعوة في ذلك نجاحا كبيرا تعكسها الأعداد المتزايدة من أهلها التي تعتنق الإسلام بصورة مطردة كما تعكس ذلك الهجرة إلى المدينة . وجعل مكة وأهلها هدفا رئيسا لنشر الإسلام لمعرفة الرسول ﷺ أنه عندما تسلم مكة فان كل البلدان والقبائل سوف تتبعها أو في الأقل سوف تحجم عن مقاومة الدعوة.

ومن خلال معرفة الرسول ﷺ أن عماد حياة أهل مكة هي التجارة فقد اقتضت حكمته بدلا من الدخول مباشرة مع مكة في حرب غير متكافئة إلى الشروع في حرب موجهة لتدمير تجارة قريش ولاسيما أن المسلمين في المدينة أصبحوا في موقع يمكنهم من تعطيل أو إعاقة تجارة مكة مع الشام وهي أهم شريك تجاري لمكة وشرع في تجهيز السرايا ، وهي غارات أو حملات عسكرية متتابعة يكون عدد أفرادها من حيث الكثرة والقلة يتناسب مع المهمة المكلفة بها ، لتهديد طريق القوافل التجارية بين مكة والشام الواقع شمال شرقي المدينة . والحملة إذا قادها الرسول ﷺ بنفسه سميت " غزوة " وإذا عهد إلى أحد اصحابه بقيادتها سميت " سرية " وكانت أول سرية بعد هجرته إلى المدينة بسبعة أشهر ، ثم تلتها أخرى بعد شهر واحد ، وثالثة ايضا بعد شهر ورابعة في الشهر نفسه لكن إلى موقع آخر . وبعد أحد عشر شهراً قاد الرسول ﷺ غزوة للغاية نفسها وثانية بعد ثلاثة عشر شهراً من الهجرة وثالثة في الشهر نفسه ورابعة بعد ستة عشر شهرا من الهجرة .

لم يحدث في هذه الغزوات والسرايا قتال وإنما سببت الذعر لقوافل قريش وحطت من هيبتها بين القبائل العربية لاسيما المقيمة في المناطق الواقعة على الطريق وترتبط معها بعقود الإيلاف ونجح المسلمون في اجتذاب بعضها إلى الإسلام وتحييد البعض الأخر وكتابة معاهدات موادعة معها واخافة من ظلت متحالفة مع قريش .

وبعد شهر واحد من الغزوة الأخيرة عهد الرسول ﷺ إلى عدد قليل من أصحابه بمهمة مختلفة عن مهمات السرايا السابقة إذ أنه كلفهم ، بناء على معلومات استخبارية ، باعتراض قافلة اليمن في موقع شرقي مكة (نخلة) وهو أمر لم يتوقعه رجال القافلة ولا المكيون فاستولوا على القافلة وقتلوا أحد رجالها واسروا اثنين وفر الرابع مما يعد ضربة معنوية وخسارة اقتصادية لقريش .

## الحرب مع قريش :

ولما تحين رسول الله ﷺ موعد انصراف العير (القوافل) من الشام أرسل اثنين من أصحابه لجمع المعلومات من القبائل المقيمة على الطريق وعادا وأبلغا الرسول ﷺ بقدوم قافلة ضخمة يتزعمها أبو سفيان ، تبلغ ألف بعير فيها أموال عظام قدرت بـ (50000) دينار تخص رجال قريش ونساءها على تفاوت

في مقدار استثماراتهم فيها كثرة وقلة ، فدعا المسلمين لاعتراض القافلة قائلا : " هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها [ ابن هشام "1997" 123/2 ] فاستجاب عدد كبير من المسلمين للاشتراك في هذه الغزوة ، ولما سمع أبو سفيان بنبأ تحرك المسلمين لمهاجمة قافلته أرسل إلى مكة على جناح السرعة رجلا يستنفرهم ، فتجهزوا لحماية القافلة ووصل عدد المشاركين قرابة 1000 رجل . على أن أبا سفيان استطاع أن يفلت من قبضة المسلمين وتجنب الطريق الداخلي واخذ يسير في الطريق المحاذي لساحل البحر الأحمر ، ولما اطمأن على قافلته أرسل إلى مكة رجلا يبلغهم بسلامتها وعدم الحاجة إلى مسيرهم للدفاع عنها . لكن بعض زعماء قريش رأوا ضرورة إظهار القوة واستعادة بعض هيبتهم لدى القبائل التي اهتزت من جراء مهاجمة المسلمين لقوافلهم فقرروا استنفار الرجال المقاتلين والخيول والسلاح والمسير من مكة حتى بدر وهي سوق موسمية تتجمع فيها القبائل للبيع والشراء لمدة ثلاثة ايام وتقع شمالي مكة على بعد 305 أميال وجنوب غربي المدينة على بعد 155 ميلاً ليعسكروا فيها وغايتهم : " حتى تسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبد الدهر " . [ الواقدي "1984" 138/2-145]

علم الرسول ﷺ بتغيير مسار القافلة وبسير قريش إلى ماء بدر واحتمال تقدمهم منها لمهاجمة المسلمين في المدينة فانطلق في ( 12 رمضان 2هـ /624م) بأصحابه البالغ عددهم 313 رجلا (8 منهم كلفوا بمهام غير قتالية) ورتب جيشه استعدادا لقتال قريش . وفي يوم الجمعة 17 رمضان التقى الجيشان وبدأ القتال بالمبارزة الفردية ثم لم يلبث أن التحم الجيشان في معركة أظهر فيها المسلمون شجاعة واستبسالا فنصر الله المسلمين والحق الهزيمة باعدائهم فقتلوا منهم حوالي سبعين وأسروا مثل هذا العدد وغنموا غنائم وفيرة ، أما قتلى المسلمين فلم يتجاوزوا 14 شهيدا . وأخذوا فداء الأسير من الاغنياء 4000 درهم ومن الباقين حسب قدرتهم المالية أما من لا مال لهم فمن عليهم الرسول ﷺ بحريتهم دون مقابل. ونزل في غزوة بدر قرآن كثير مفرقا في سورة الأنفال وعدد من السور الأخرى . منها قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [ سورة الانفال ، الآية : 12] . وسماها يوم الفرقان لأنها فرقت بين الحق والباطل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ [ سورة الانفال ، الآية : 41] . وشرعت الغنيمة في قوله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [ سورة الانفال ، الآية : 41] .

لقد حملت غزوة بدر معاني كثيرة فقد وضعت المسلمين بالمدينة ندا لمكة بما لها من قوة وسمعة وهيبة لا تدانيها سلطة أي اقليم أو قبيلة في شبه الجزيرة العربية بعد حوالي عشرين شهرا من الهجرة فقط . ولم يتردد المسلمون في مواجهة قريش على الرغم من أنها تفوقهم ثلاث مرات من حيث العدد وكذلك من حيث التجهيز والتسليح والتموين .

إن الغزوات والسرايا السابقة لم يحدث فيها قتال بل مناوشات يسيرة وغايتها مهاجمة القوافل لخنق تجارة قريش وشريالها الحيوي وتدمير هيبتها وبالنتيجة قادت إلى المواجهة في ميدان القتال ببدر والهزيمة الساحقة التي لحقت بقريش وقتل زعمائها أو أسرهم مما أدى إلى زيادة تضعضع هيبتها وضعف معنويات المشركين جميعا ورهبتهم من المسلمين، وقوت معنويات المسلمين وعززت ثقتهم بأنفسهم وزادت من تلاحمهم وانصهارهم .

ولما عاد الرسول ﷺ إلى المدينة عمل على تطهير الجبهة الداخلية في المدينة من بعض العناصر من اليهود والمنافقين الذين كانوا يكنون له وللمسلمين العداوة والبغضاء ويؤلبون عليهم . وجرد حملات عسكرية على بعض القبائل المقيمة في شرقي وجنوبي المدينة وكانت محالفة لقريش وتمر بعض قوافلها بديار هذه القبائل .

رسمت قريش منذ غزوة بدر لنفسها استراتيجية تعتمد على الهجوم على المسلمين في المدينة ومحاولة القضاء عليهم ، وبدأت تعد عدتها لغزو المدينة بعد هزيمة بدر مباشرة . وبعد مرور ثلاثة عشر شهرا عليها (3هـ/ 625م) قدمت بجيش قوامه أكثر من ثلاثة الآف مقاتل أي ثلاثة أضعاف جيشها في بدر، وكان جيد التسليح والتجهيز يقوده أبو سفيان بن حرب وانضم اليهم بعض حلفائهم مثل قبيلة ثقيف في الطائف بمشاركة رمزية . وصلت معلومات سرية إلى الرسول ﷺ من مكة باستعداد قريش ثم بمسيرها فندب المسلمين للدفاع عن المدينة وجمع جيشا قوامه ألف رجل لم يلبث أن انسحب منه 300 رجل بزعامة عبد الله بن أبي سلول زعيم المنافقين بالمدينة بذريعة واهية وبقي جيش المسلمين 700 مقاتل.

وكان الرسول ﷺ قد شاور أصحابه في أمر ملاقاة جيش المشركين فانقسموا فريقين أصر أحدهما- وقوامه من لم يشترك في غزوة بدر- على الخروج من المدينة ومواجهة جيش المشركين خارجها , ورأى الآخر- وعلى رأسهم رسول الله ﷺ- البقاء والتحصن داخلها وإلجاء قريش إلى حرب شوارع المدينة , بيد أن الذي تغلب هو رأي الفريق الأول فاضطر الرسول ﷺ ومن شاركه الرأي من أصحابه إلى الخروج إلى ظاهر المدينة, وكان أن التقى الجيشان عند سفح

جبل أُحد الواقع في شمالي المدينة وتمت تعبئة الجيشين واستدبر جيش المسلمين جبل أُحد واستقبل المدينة وقابلهم جيش المشركين، وجعل الرسول ﷺ الرماة (وعددهم 50) على تل صغير في الأرض المنبسطة يسمى ((جبل عينين)) ( سمي فيما بعد جبل الرماة ) خلف الجيش يمكنهم علوه من الإشراف على حركة الجيشين وتصويب سهامهم نحو جيش المشركين وأمرهم قائلا : "احموا ظهورنا فلا تبرحوا مكانكم،وإن رايتمونا نقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا غنمنا فلا تشركونا، احموا ظهورنا " .[ابن كثير " 1983" 48/3 ] واحتدمت المعركة وحقق المسلمون نصراً أولياً على المشركين لكن معظم الرماة لما رأوا هزيمة المشركين وجنود المسلمين يطاردون المنهزمين ويحرزون الغنائم خالفوا أمر الرسول ﷺ وتركوا مواقعهم وقائدهم ونفراً قليلاً معه وأسرعوا يحرزون الغنائم ، واستغل قائد ميمنة جيش المشركين خالد بن الوليد الخلل الذي حدث في جيش المسلمين فالتف على جيش المسلمين ، وهم مشغولون بالغنائم وصفوفهم مختلة ، وجاءهم من خلفهم من الجبل الذي أخلاه الرماة وهم على هذه الحال ، فأعملوا في المسلمين السيف فتضعضعت صفوفهم ، ومما زاد في البلبلة بينهم انتشار إشاعة أن الرسول ﷺ قتل ، فانهزم أكثرهم وصمد رسول ﷺ مع جماعة من الصحابة حوله ، كل هذا أدى إلى انقلاب سير المعركة لمصلحة المشركين . وانجلت المعركة عن 74 شهيداً من المسلمين وجرحى كثيرين ، وعن 25 قتيلا من المشركين . وقد اعتبر المشركون هذا الانتصار كافيا للثار من بدر فأشرف قائدهم أبو سفيان على مرتفع عال ونادى : " أُعلُ هبل ! يوم بيوم بدر ، والحرب سُجال " . فقال النبي ﷺ لعمر رضي الله عنه : قم فاجبه وقل : " الله أعلى وأجل ، لا سواء : قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار ". [ ابن هشام " 1997" 104/3]

وفي اليوم التالي للمعركة (16شوال) نادى منادي الرسول ﷺ أن يتهيأ الناس لطلب العدو وألا يخرج معهم أحد لم يشترك في معركة أحد . فخرجوا يتعقبون المشركين حتى بلغوا حمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة . وكان يقصد من خروجه إظهار أن المسلمين ما زالوا في قوتهم وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم .

ونزل في غزوة أحد قرآن تضمنته سورة آل عمران بعد الآية 120. منه قوله تعالى :﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ(138)وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(139)إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(140) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ . [ الآيات : 138-141]

جرأ انكسار المسلمين في أُحد القبائل في نواحٍ متفرقة على القيام أو محاولة القيام بأعمال معادية للمسلمين أو إظهار الإسلام والطلب من الرسول ﷺ بعث معلمين معهم لتفقيه رجال القبيلة ثم الغدر بهم وقتلهم أو أسرهم وبيعهم إلى قريش ، كل ذلك استوجب القيام بعدد من السرايا والغزوات لإخضاع هذه القبائل أو تأديبها . على أن كلا من المسلمين وقريش لم يتعرض للطرف الآخر سوى أن المسلمين استجابوا لتحدي أبي سفيان في أعقاب غزوة أحد بقوله : "موعدكم بدر الصفراء على راس الحول نلتقي فنقتتل" . فوافق الرسول ﷺ على ذلك ووفى فاتى بدرا للموعد و لم يأت أبو سفيان وقريش وقد عوض الله المسلمين فتاجروا في سوق بدر الموسمي وربحوا [ الواقدي "1984" 384/1، 387 ] .

لقد رفعت نتيجة غزوة أحد غير الحاسمة نسبيا معنويات قريش لكنها لم تحقق شيئا من مخططها لذا فقد سعت جاهدة لتحقيقه بتخطيط وتنفيذ محكمين وعاونها في ذلك أعداء المسلمين من زعماء يهود بني النضير الذين أجلاهم الرسول ﷺمن المدينة واستقر بعضهم في خيبر في تأليب قبائل العرب على المسلمين فتجمع تحالف ضخم ضم كبرى القبائل مثل كنانة وغطفان وسليم وشاركت القبائل الأخرى مشاركة رمزية بمائة مقاتل فما فوق ووصل عدد قوات التحالف (الأحزاب) إلى 10000 مقاتل . و لم تصل المعلومات عن هذه الحملة المعادية إلى الرسول ﷺ إلا قبل أيام قليلة من اقترابها فقرر عدم الخروج من المدينة والدفاع عنها من داخلها ، وقد يكون ذلك خياره على أي حال بدليل الخلاف الذي حدث حول اختيار ميدان القتال في غزوة أحد . وللدفاع عن المدينة اختار – بناء على مشورة سلمان الفارسي رضي الله عنه – وسيلة دفاعية جديدة هي حفر خندق في الجهة الشمالية الغربية من المدينة لأن الجهات الأخرى فيها عوائق طبيعية أو بساتين نخيل جعلتها مكانا غير ملائم لياتي منه المهاجمون . واشترك الرسول ﷺ والمسلمون في حفر خندق . وزحفت جيوش الأحزاب ووصلت إلى المدينة يوم الثلاثاء 8 ذي القعدة ﷺ وحاصرتها مدة 15 يوما من جهة الخندق وعسكر المسلمون بإزائهم وجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع وكان عدد جيش المسلمين 3000 ، وكانت السنة مجدبة . لم يحدث قتال بين الطرفين سوى محاولة اختراق فاشلة للحصار ، وكان الأهم من الخندق هو تماسك الجبهة الاسلامية وصمودها على الرغم من تململ المنافقين وخيانة اليهود من بني قريظة في آخر الحصار . ومما ساعد في إضعاف التحالف هو اختلاف أهدافهم فغطفان فاوضت المسلمين لتنسحب من التحالف مقابل جزء من ثمار نخل المدينة ، وكلف الرسول ﷺ . أحد أفراد المهاجمين الذي اعتنق الإسلام سراً

بزرع الشك بين زعمائهم فضلاً عن انعدام التموين وندرة المراعي فضعفت معنوياقم وبعث الله عليهم ريحا حتى ما يكاد احدهم يهتدي لموضع رجله وخاف أبو سفيان أن تحل بهم الهزيمة فخاطبهم قائلا : إنكم والله لستم بدار مقام فقد هلك الخف والكراع ، وأجدب الجناب وأخلفتنا بنو قريظة وقد لقينا من الريح ما ترون فارتحلوا فإني مرتحل . [ الواقدي "1984" 489/2 ]

وسميت سورة كاملة باسم هذه الغزوة وهي سورة الأحزاب لأن صدر هذه السورة يقص خبر الغزوة ، ومنها قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾. [سورة الاحزاب , الآية :9 ] .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ ﴾ . [سورة الاحزاب ,الآية : 10] . وكان الذين جاءوهم من فوقهم يهود بني قريظة الذين نقضوا عهدهم مع المسلمين وغدروا هم والذين جاءوا من أسفل منهم قريش واسد وغطفان وسليم.

لقد سخرت قريش كل إمكانياقا لهذه الحملة وحشدت حلفاءها وبقيت في الميدان مدة طويلة نسبيا وقامت بجهود لتفكيك الجبهة الداخلية في المدينة ونجحت في إقناع يهود بني قريظة بالغدر بالمسلمين من الداخل لكن مع ذلك فشلت كل هذه الجهود في تحقيق غايتها مما يعد هزيمة لقريش دون الدخول في حرب مع المسلمين ، ووصلت إلى قناعة مؤداها عبث محاولة القضاء على المسلمين ودولتهم أو حتى شن حملات عسكرية جديدة عليهم . وقال الرسول ﷺ عقب انسحاب الأحزاب : "لن تغزوكم قريش بعد عامكم ولكنكم تغزوهم" . [ ابن كثير " 1983" 221/3] وفعلا فقد انقلب ميزان القوى لمصلحة المسلمين فقاموا بعدد من الغزوات والسرايا لتأديب عدد من القبائل سواء التي شاركت في تحالف الأحزاب أو التي قامت بأعمال عدائية تجاه المسلمين وأكثرها وجهت نحو القبائل الواقعة في شمالي غربي الجزيرة وخاصة طريق الشام.

وبعد تمام السنة من غزوة الخندق استنهض الرسول ﷺ المسلمين وتوجه بهم نحو مكة محرمين لأداء العمرة وساقوا الهدي معهم، وخرجوا بغير سلاح سوى السيوف في اغمادها ورفض دعوة بعض أصحابه لحمل السلاح تحسبا لعدوان تقوم به قريش وقال : "لست أحمل السلاح إنما خرجت معتمرا " . وتراوح عدد المسلمين بين 1400و1600 رجل، وربما كان الذين خرجوا من المدينة 1400 ولحق بهم الباقون أو انضموا إليهم في الطريق .

وحرص الرسول ﷺ على أن يكون عددهم كبيرا وذلك لإرهاب القبائل المشركة الواقعة

على الطريق ومشركي قريش فأخذ يمر بالمسلمين من الأعراب بين مكة والمدينة يستنفرهم لكنهم تذرعوا بانشغالهم بأموالهم وأبنائهم وذراريهم خوفا من لقاء قريش .

لما علمت قريش بقدوم الرسول ﷺ أخذت العدة لصده عن دخول الحرم وعسكروا خارج مكة استعدادا للقائه ونزل المسلمون على بئر اسمها الحديبية ويعرف المكان في الوقت الحاضر بالشميسي ، وهي غرب مكة خارجة عن حدود الحرم بينها وبين المسجد الحرام قرابة 22 ميلا . وسارت الرسل بين الطرفين لترع فتيل الحرب وقال الرسول ﷺ لأحد الوسطاء : " إنا لم نات لقتال أحد ، إننا جئنا لنطوف بالبيت فمن صدنا عنه قاتلناه ... فإن شاؤوا ماددهم مدة يامنون فيها ويخلون بيننا وبين الناس ..." . [ الواقدي "1984" 593/2 ] وتمخضت المفاوضات الشاقة عن عقد صلح من بنوده : " وضع الحرب عشر سنين يأمن الناس ويكف بعضهم عن بعض ... وإن من أحب أن يدخل في عهد محمد وعقده فعل ، وإنه من أحب أن يدخل في عهد قريش وعهدها فعل . وإن من أتى محمدا منهم بغير إذن وليه رده إليه، وإنه من أتى قريشاً من أصحاب محمد لم ترده . وإن محمداً يرجع عنا عامه هذا بأصحابه ويدخل علينا قابل بأصحابه فيقيم ثلاثا، لا يدخل علينا بسلاح إلا سلاح المسافر السيوف في القرب..." . [ الواقدي " 1984" 611/2] شعر معظم المسلمين باستياء من هذه الاتفاقية ورأوها تنازلا مهينا سواء قبول الرسول ﷺ العودة إلى المدينة دون تحقيق غايتهم وهي دخول المسجد الحرام وأداء العمرة أم إقراره بالشروط غير المتكافئة ، وبلغ بهم الاستياء أنه لما أمرهم الرسول ﷺ بنحر هديهم حيث كانوا لم يستجيبوا إلا بعد تمنع مما أحزنه وأغمه . ولقد استند المستاؤون على فهم سطحي لظاهر النص يناقض جوهر الاتفاق وحقيقته ، لكن الله سبحانه وتعالى وصف هذا الاتفاق بأنه اعظم الفتح في قوله تعالى : " إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ". [سورى الفتح , الآية : 1] و لم يلبث المستاؤون أن ثابوا إلى رشدهم وندموا على ما وقعوا فيه من سوء فهم .

إن من نتائج صلح الحديبية أن أصبح الرسول ﷺ حراً في نشر الإسلام بين القبائل دون أن يخشى تهديد قريش للمدينة كما أخذ الإسلام بعداً دولياً لأول مرة وذلك بأن أرسل الرسول ﷺ مبعوثين برسائل إلى ملوك الدول المجاورة ورؤسائها مثل فارس وبيزنطة والكيانات السياسية العربية المرتبطة بهما يدعوهم إلى الإسلام . وقد أعطته الحرية لإخضاع القبائل التي شاركت في تحالف الاحزاب والتي تشكل تهديدا للمسلمين وحملها على الدخول في الاسلام .

لاشك أن صلح الحديبية كان فتحا مبينا إذ اعتنق الإسلام في السنتين اللتين دام

فيهما أكثر ممن اعتنقه قبل ذلك بدليل أن المشاركين في غزوة الحديبية أكثر من 1400 رجل بينما المشاركون في جيش فتح مكة بعد أقل من سنتين بلغ أكثر من 10000 مقاتل.

**العلاقة بين الرسول ﷺ واليهود :**

**اولا. العلاقة مع يهود المدينة:**

شكل اليهود عند الهجرة المجموعة السكانية الثانية في المدينة بجانب العرب من الأوس والخزرج لكن الهجرة غيرت كل شيء في المدينة فالسلطة العليا أصبحت للرسول ﷺ وأصبح المهاجرون والأنصار " أمة دون الناس" مع ذلك حاول الرسول ﷺ استيعاب اليهود في المجتمع الجديد وتوثيق العلاقة معهم وإقامة علاقة متوازنة تقوم على المواطنة وحرية العبادة لليهود والمسلمين على حد سواء وتوثيق ذلك في دستور مكتوب يحدد حقوق كل طرف وواجباته ، وعدد هذا الدستور أو الاتفاق عددا من بطون اليهود مثل النص: "وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وانفسهم ... وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة . وإن بينهم النصح والنصيحة . والبر دون الاثم . وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره " . [ابن هشام "1997" 117/2 ]

وقد وجه الله سبحانه رسوله الكريم بدعوة أهل الكتاب باللين مثل قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ . [سورة آل عمران , الآية : 64] وقوله تعالى ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ . [سورة العنكبوت , الآية : 46] وغيرهما من الآيات . وعلى الرغم من إسلام عدد قليل من اليهود فانهم بصفة عامة لم يتقبلوا الرسول ﷺ وأخذوا يستهزئون به وبدينه وبالقرآن ويؤلبون عليه الأعداء ويحاولون بث العداوة والفرقة بين صفوف المسلمين خاصة الأوس والخزرج ويذكروهم بحروبهم وأحقادهم القديمة . وتحمل الرسول كل ذلك لكن عندما وصل الأمر إلى نقض العهودالمبرمة معهم والغدر بالمسلمين حاربهم كلا حسب جريرته و لم يعممهم بعقوبة أو حرب بل اتبع معهم قول الله تعالى : ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [سورة الأنعام , الآية: 164] . فطرد بني قينقاع في السنة الثانية من الهجرة بعد انتصار المسلمين في غزوة بدر ، ثم أجلى بني النضير في السنة الرابعة . أما بنو قريظة الذين غدروا بالمسلمين أثناء حصار الاحزاب للمدينة وتآمروا معهم ضد المسلمين

فحاصرهم الرسول ﷺ والمسلمون بعد انسحاب الأحزاب في نهاية السنة الخامسة من الهجرة وأنزلوا بهم عقوبة الخيانة . أما اليهود الذين حافظوا على عهودهم فظلوا في المدينة يمارسون حياتهم بشكل طبيعي ويتمتعون بكامل حقوقهم دون أن يتعرض أحد لهم بإساءة أو أذى .

### ثانيا : العلاقة مع يهود الواحات الشمالية:

لقد قام يهود بني النضير الذين استقروا في خيبر بعد إجلائهم من المدينة بدور رئيس بتحريض القبائل وخاصة غطفان ضد المسلمين في المدينة وأغروهم بالمشاركة في غزوة الأحزاب واستمروا يمارسون هذا الدور. وبعد أن أمن صلح الحديبية المسلمين من أخطار مشركي مكة أصبحت الظروف ملائمة لأن يقوم الرسول ﷺ بتفكيك الحلف بين يهود خيبر وهذه القبائل الذي يقف سداً أمام توسع الإسلام نحو الشمال وتمكين المسلمين في المدينة وغيرها من الامتيار من واحة خيبر الغنية بالمحاصيل الزراعية ، فدعا الرسول ﷺ المسلمين الذين اشتركوا في غزوة الحديبية دون غيرهم لغزو خيبر . أما اليهود فقد دفعوا إلى قبيلة غطفان نصف محصول الواحة السنوي من التمر لقاء معاونتهم في الدفاع عنها . ونجح المسلمون بالوصول إلى خيبر ( ربيع الأول 7هـ/ 628م ) . بطريق غير مألوف ، كما نجحوا بإبعاد غطفان عن حلفائهم في خيبر عن طريق إيهامهم أن المسلمين توجهوا لمهاجمة بلادهم مما جعلهم يتركون خيبر ويسرعون للدفاع عنها . حاصر المسلمون اليهود في حصونهم السبعة وضيقوا عليهم وانتهى الحصار باستسلام اليهود وقبول الجلاء عنها لكنهم عرضوا على الرسول ﷺ أن يقوموا بزراعتها مقابل نصف الثمر فوافق على ذلك . وأرسل الرسول ﷺ رسلا لليهود المقيمين في واحتي وادي القرى ( العلا حالياً ) وفدك ( الحايط حالياً ) ينذرونهم أنه سيحل بهم ما حل بيهود خيبر فوافق أهلهما على نفس شروط استسلام أهل خيبر دون قتال وهو ما أصبح يسمى " الفيء " وبالقضاء على نفوذ اليهود في المدينة وفي الواحات تم تحصين الدولة الإسلامية من خطرهم.

بعد العودة من خيبر انطلقت الغزوات والسرايا لنشر الإسلام أو تأديب مناوئيه في كل الاتجاهات وكان لإحدى هذه الغزوات أهمية خاصة لأنها اعطت الجهاد ضد المشركين بعدا دوليا تلك هي غزوة مؤتة التي وقعت في جمادى الأولى (8هـ /629م ) وكان عدد جند المسلمين فيها 3000 [ ابن هشام "1997" 20/4 ] . وسبب هذه الغزوة أن شرحبيل بن عمرو الغساني أحد عمال البيزنطيين على البلقاء أو غيرها اعترض رسول رسول الله ﷺ إلى ملك بصرى البيزنطي واسم الرسول الحارث بن عمير الازدي رضي الله عنه فقتله فأرسل الرسول ﷺ حملة للبلقاء في الشام لنشر

الإسلام وتأديب أعدائه . وواضح أن المعلومات عن هذه الحملة انتشرت في الشام فاستعد لها البيزنطيون وأتباعهم من نصارى العرب القاطنين بالشام منهم قبائل بهراء ولخم وجذام والقين وبلي يقودهم رجل من بلي وكان عددهم أضعاف عدد المسلمين ونشبت معركة غير متكافئة انجلت لمصلحة أعداء المسلمين على أن عدد شهداء المسلمين لم يتجاوز 8 شهداء . ويمكن عد هذه الحملة إرهاصا لحركة فتوح الشام في عهد الخليفة أبي بكر رضي الله عنه.

وفي نفس موعد غزوة الحديبية ( ذي القعدة ) انطلق المسلمون على تمام الحول (سنة 7هـ/628م ) لأداء مناسك العمرة وفقا لشروط صلح الحديبية واشترك في العمرة جميع من اشترك في الغزوة سوى من قتل في خيبر أو مات وتمسك كلا الطرفين بالصلح فبقي المسلمون بمكة ثلاثة أيام ثم عادوا بعد أن قضوا عمرتهم إلى المدينة .

وخلال مدة الصلح القصيرة حدثت تغيرات في غاية الأهمية وهي إسلام كثير من وجوه قريش مثل عمرو بن العاص وخالد بن الوليد رضي الله عنهوكثيرين غيرهما فضلاً عن دخول بعض القبائل المقيمة في الحجاز خاصة تلك التي شكلت تحالف الأحزاب ، باستثناء القبائل القاطنة جنوبي مكة مثل ثقيف وبعض بطون كنانة ، مما غير ميزان القوى تغيراً كبيراً لمصلحة المسلمين وقد أدركت قريش هذا الأمر لكنها كانت عديمة الحيلة تجاهه .

### خامسا : فتح مكة وعام الوفود:

لم يمض على مدة الصلح أكثر من 20 شهراً حتى تم خرقه وذلك أن قبيلتي كنانة وخزاعة الساكنتين في ضواحي مكة انضمت أولاهما إلى قريش في اتفاقية الصلح وانضمت الأخرى إلى المسلمين . وقامت كنانة باستغلال مدة الهدنة فهجمت على غريمتها خزاعة لتصفية ثارات لها قديمة وساعدها بعض رجال قريش سرا وعلنا بالرجال وبالسلاح . و لم يكن أمام خزاعة إلا الالتجاء إلى الرسول ﷺ فذهبوا إليه بالمدينة وأبلغوه بخرق قريش وخزاعة للصلح . وأدرك زعماء قريش خطورة الموقف فذهب أبو سفيان إلى المدينة وطلب من الرسول ﷺ تجديد الصلح وتجاوز ما حدث فلم يجبه إلى طلبه وتوسط بعدد من الصحابة ليفاتحوا الرسول ﷺ في هذا الأمر فلم يجبه أحد منهم وعاد إلى مكة خائباً . أخذ الرسول ﷺ يعد العدة لفتح مكة وسار في رمضان ( 8هـ/629م ) في جيش عدده 10000 مقاتل عماده المهاجرون وال أنصار وانضمت إليه معظم قبائل الحجاز. وقبل دخول الرسول ﷺ مكة لاقاه أبو

سفيان وأعلن إسلامه فحفظ له الرسولﷺ مكانه .

دخلت فرق جيش المسلمين مكة من شماليها الغربي وغربيها وجنوبيها ولم تبق مقاومة تذكر سوى مناوشة يسيرة بين خالد بن الوليد ﷺأحد قادة الجيش الذي دخل من جنوبي مكة ( أسفل مكة ) وبين قادة جيش المشركين عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو . وبعدها امر الرسول ﷺ بالأمانه لأهل مكة وأمر مناديا ينادي : من دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه دونه فهو آمن.

رتب الرسول ﷺ الأوضاع المدنية في مكة وعين عليها واليا شابا واستبعد الزعامات التقليدية وأوكل إلى معلمين من أصحابه يعلمون الناس الدين وفرائض الإسلام ، وفي الوقت نفسه واصل رسالته في نشر الإسلام فقام بغزوة ضد قبيلة هوازن في مكان اسمه حنين (اسمه الان: الشرائع) شرقي مكة أثمرت عن هزيمة القبيلة ثم دخولها الإسلام ، وتقدم نحو قبيلة ثقيف في مدينة الطائف لكنها احتمت بسور البلدة الحصين ووفرت كل المؤن في الداخل فصمدت واقتضت المصلحة انسحاب المسلمين لكن الرسول ﷺ أوكل إلى قبيلة هوازن التي اعتنقت الإسلام للتو وتقيم في بادية الطائف بالتضييق على ثقيف وحرمانها من المراعي فساعد هذا ، مع دخول قريش في الإسلام ، إلى أن تاتي ثقيف بعد أقل من سنة إلى المدينة معلنة إسلامها وتسليم مدينتهم للرسول ﷺ ، فعين عليها واليا شابا حسن الإسلام من القبيلة نفسها .

نتج عن فتح مكة عدم حاجة المسلمين إلى القيام بنشاط حربي مهم سوى ما قام به الرسول ﷺ في رجب سنة (9هـ/630م) من قيامه بغزوة للدفاع ضد هجوم مفترض يقوم به البيزنطيون وعملاؤهم من القبائل العربية الذين التقوا بهم في مؤتة قبل سنة . وتذكر بعض المصادر ، [الواقدي "1984" 990/3 ] أن البيزنطيين وعملاءهم تعمدوا تسريب معلومات مضللة ، عن استعدادات عسكرية لم تحدث في الواقع ، عن طريق تجار الطعام من أنباط الشام الوافدين إلى المدينة . لكن المتأمل لما قام به الرسول ﷺ من نشاط في اثناء هذه الغزوة التي عسكر فيها المسلمون مدة 20 يوما في تبوك الواقعة قرب المناطق الخاضعة للنفوذ البيزنطي وتمثل ذلك بإخضاع مناطق مثل دومة الجندل وكتابة عهود أمان لسكان البلدان الواقعة على الساحل مثل آيلة ومقنا أو الداخل من

النصارى واليهود وتقديم الحماية لهم مقابل دفع الجزية ، يرجح أن دوافع الغزوة كانت لنشر الاسلام بين القبائل العربية الشمالية وفي هذه المناطق الواقعة على طريق الشام وتثبيت نفوذ المسلمين فيها وهي ، كما يبدو ، استراتيجية واضحة ومتماسكة منذ أول سرية إسلامية انطلقت من المدينة . وأمر آخر هو أن الرسول ﷺ رغب في إظهار قوة المسلمين المكونة من 30000 مقاتل وعشرة آلاف فرس، [الواقدي "1984" 1002/3 ] حتى ينقل عملاء العدو أخبار ما رأوا لبث الرهبة في نفوس أعداء المسلمين .

نتج عن فتح مكة بما لها ولقريش من مكانة سامية بين قبائل العرب أن تخلت تلك القبائل عن مقاومة دعوة الاسلام ، بل أخذ زعماؤها يتسابقون من كل أنحاء الجزيرة العربية إلى المدينة معلنين إسلامهم أمام الرسولﷺ ، ولم يكونوا كلهم جاؤوا عن إيمان بل انتهاجا للسياسة الواقعية إذ أدركوا أنه لا قبل لهم بمقاومته ما دامت قريش عجزت عن ذلك فلابد إذا من التصالح معه . لكن الرسول ﷺ تعامل معهم بمنتهى الحكمة فاستقبلهم استقبالا كريما ورفع من اقدارهم وتجاوز عن مساوئهم السابقة لان " الإسلام يجب ما قبله " ورغبهم في الإسلام وشرح لهم تعاليمه فأحسن ضيافتهم وقدم لهم الهدايا ليؤلف قلوبهم على الإسلام . وسمت المصادر السنة التاسعة " عام الوفود " لكثرة من وفد في هذه السنة ، لكن الوفود استمرت في التدفق على المدينة حتى وفاة الرسول ﷺ . وكان إسلام الوفد يعد معبرا عن إسلام القبيلة ، وكان رمزا لارتباطها بدولة الإسلام .

لم يفرض الرسول ﷺ على القبائل التي أسلمت متطلبات ثقيلة أو قيودا شديدة فبقيت العشائر محتفظة بكيانها وديارها ورؤسائها ونظمها وقيمها وتقاليدها التي لا تتعارض مع الإسلام . غير أن الانتماء إلى دولة الإسلام وترسخ عقيدته التدريجي في النفوس أخذ يعمل على تحويل عقليات معتنقيه ومشاعرهم فأصبحت أخوة الإسلام تاتي قبل أخوة القبيلة والولاء للأمة قبل الولاء للقبيلة فأصبح العرب أمة واحدة تنبعث وحدتها من إيمانها بالله الواحد الأحد ، رب السماوات والارض له الملك لا شريك له ، وله الحكم وإليه يلجأ الناس . وهو تعالى يأمر بالعدل والإحسان ، وينهى عن الفحشاء والمنكر ، وأوامره مقدسة يخضع لها الجميع الحاكم والمحكوم . وأبناء الأمة إخوة متساوون ، لا فضل لفرد على آخر إلا بالتقوى ، وتجمعهم دولة واحدة لها سلطة عليا مركزية ، وعلى

الجميع طاعتها ، وقد مارس الرسول ﷺ هذه السلطة التي عززها القرآن بوجوب طاعة الرسول ﷺ وطاعة أولي الأمر : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [سورة النساء ، الآية : 59] .

في السنة العاشرة من الهجرة حج الرسول ﷺ وهي الحجة الوحيدة بعد هجرته إلى المدينة وصحبه بشر كثير من المسلمين ،وعرفت بحجة الوداع ؛ لوداع رسول الله ﷺ الناس وعرفت ايضا بحجة ( البلاغ ) ؛ لأنه أبلغ الناس بما بقيت من تشريعات وأحكام من دين الله وبلغهم باكتمال الدين وبحجة الإسلام؛ لأنها الحجَّة الوحيدة – بعد الهجرة وبعد فتح مكة – التي أداها الرسول ﷺ وخطب بالناس يوم عرفة وهو يوم الجمعة، ومما جاء في خطبته :

" أيها الناس ، إني والله ما أدري لعلي لا ألقاكم بمكاني هذا بعد يومكم هذا ، رحم الله امرءا سمع مقالتي فوعاها ، فرب حامل فقه لا فقه له ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ! واعلموا أن أموالكم ودماءكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. واعلموا أن الصدور لا تغل على ثلاث : إخلاص العمل لله ، ومناصحة أهل الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين فإن دعوتهم تحيط من ورائهم . ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ... اتقوا الله في النساء فانما اخذتموهن بإمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ... قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به – كتاب الله تبارك وتعالى ! وانتم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أن قد بلغت وأديت ونصحت ! قال : اللهم اشهد!". [الواقدي "1984" 1103/3 ]

وكانت هذه الحجة ذروة ما وصل إليه المسلمون في عصر الرسالة من وحدة وقوة وكمال وكان اعظم ما تم في هذة المناسبة أن أنزل الله سبحانه وتعالى على نبية : ﴿...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا...﴾. [ سورة المائدة ، الآية: 3] ومن عجائب الموافقات القدرية التي ما كانت لتشذ عن قدر الله المقصود . فهذه مكة التي ظهرت فيها الدعوة الإسلامية وأعلنت عن ميلاد هذه الأمة بكلمة : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، [ سورة العلق ، الآية: 1 ] صارت هذه البلدة المباركة نفسها هي التي يعلن منها عن اكتمال هذا الدين .

عاد الرسول ﷺ والمسلمون إلى المدينة بعد أن قضوا حجهم ، وأخذ بعد وصوله يتابع أمور المسلمين ومصالحهم من ذلك تجهيز جيش لغزو البيزنطيين (الروم) أسند قيادته إلى اسامة بن زيد بن حارثة لكنه في أثناء ذلك أصابه مرض في يوم الأربعاء 28صفر، واختاره الله سبحانه إلى جواره في

وقت دخوله المدينة في هجرته حين اشتد الضحى يوم الإثنين 12 ربيع الأول سنة (11هـ / 632م) لتمام عشر سنين من الهجرة ، ودفن يوم الثلاثاء، وبذلك انقطع الوحي من السماء وختمت خاتمة الرسالات السماوية .لقد أصابت كثيرا من الصحابة حالة من الذهول لهول الفاجعة لكن أبا بكرﷺخطبهم قائلا : أما بعد ، فمن كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، ثم تلا :﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ . [سورة آل عمران، الآية : 144]

## تدوين القرآن في عصر النبوة

من المعروف أن القراءة والكتابة لم تكن شائعة عند العرب في عصر النبوة وذلك لان طبيعة ذلك العصر – ليس في الجزيرة العربية وحدها ، وإنما في معظم انحاء العالم – لم تكن تتطلب أن يتعلم عامة الناس القراءة والكتابة ، لأن التدوين لم يكن وسيلة شعبية شائعة لنشر العلوم والمعارف بسبب عدم اكتشاف الطباعة وندرة وسائل الكتابة وغلائها . ومن ثم ، فقد كان الحفظ والرواية الشفهية هما الوسيلتان الأساسيتان لنشر العلوم والمعارف .

غير أن القول بغلبة الأمية على عامة الناس لا تنفي وجود نسبة معينة منهم ، ولاسيما في الحواضر والمدن كانت تحسن القراءة والكتابة بسبب حاجتها إليها في التجارة والثقافة وغيرهما . لذا فقد وصل إلى ايدينا كثير من الأدلة والشواهد على معرفة العرب للقراءة والكتابة واستخدامهم لها كالنقوش التي تدون آثارهم ومآثرهم، وكذلك بعض الكتابات التي يؤكدون فيها عهودهم ومواثيقهم ، فضلاً عن آثارهم الشعرية والأدبية والدينية .

إلا أن التعرف على نسبة من يحسنون القراءة والكتابة إلى غيرهم أمر يصعب تحقيقه، ولاسيما في المجتمعات القديمة . ومع ذلك فقد جازف بعض المؤرخين بتقديم بعض المعلومات المحدودة عن ذلك ، فذكر البلاذري عند حديثه عن انتشار الخط في مكة أن الإسلام دخل " وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب ..." [ 457 "1978" ]

والحقيقة أن هذا العدد يبدو متواضعاً إذا علمنا أن أهل مكة كانوا يشتغلون بالتجارة ، ويبدون اهتماماً واضحاً بالشعر والأخبار وغيرهما من صور الثقافة . لذا فقد شاعت على ألسنتهم مصطلحات الكتابة والقراءة وكل ما يتعلق بهما من وسائل .

وذلك واضح من كثرة إشارة القرآن الكريم إلى القراءة والكتابة وأدواتهما من كتب وقرطاس وورق وصحف وأقلام ومداد وسجلات ، بحيث " وردت كلمات الكتابة ومشتقاتها في القرآن نحو ثلاثمائة مرة ونيف، وكلمة القراءة ومشتقاتها نحو تسعين مرة ونيف بأساليب متنوعة " . [ دروزة " 1964" 442 ]

وقد قام أحد الباحثين بعمل إحصاء أولي عن عدد الرجال والنساء من أهل مكة الذين ذكرت المصادر التاريخية أنهم كانوا يجيدون الكتابة فبلغ عددهم اثنين وثلاثين شخصاً. ومن المرجح أن عددهم كان يزيد عن ذلك كثيراً لأن بعض الأخبار والنصوص توحي بذلك. فقد ذكر ابن سعد في معرض حديثه عن موقف الرسول ﷺ من أسرى بدر ما نصه : " وكان أهل مكة يكتبون ، وأهل المدينة لا يكتبون ، فمن لم يكن له فداء دفع اليه عشرة غلمان من غلمان المدينة فعلمهم ، فان حذقوا فهو فداؤه ". [ ابن سعد "1957" 22 ]

إن ما تقدم يوضح لماذا كان أول ما أنزل على الرسول ﷺ من آيات القرآن الكريم قد تضمن الأمر بالقراءة ، ولماذا أطلق على الكتاب الذي يضم مجموع الآيات التي نزل بها الوحي عليه ﷺ القرآن .

## نزول الوحي على رسول الله ﷺ :

تشير المصادر إلى أن الوحي نزل على رسول الله ﷺ في شهر رمضان بينما هو يتحنث ويتعبد في غار حراء ، وكان قد بلغ من العمر أربعين عاماً بحسب أرجح الروايات. ويقدم لنا ابن إسحاق رواية مفصلة تصف لنا كيف نزل الوحي على الرسول ﷺ فيقول : "حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى فيه ما أراد من كرامته ، من السنة التي بعثه الله تعالى فيها ، وذلك الشهر شهر رمضان ، خرج رسول الله ﷺ إلى حراء ، كما كان يخرج لجواره ومعه أهله ، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ، ورحم العباد بها، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى . قال رسول الله ﷺ : فجاءني جبريل ، وأنا نائم، بنمط من ديباج فيه كتاب ، فقال اقرأ ، قال: قلت : ما أقرأ ؟ ، قال : فغتَّني به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قال : قلت : ما أقرأ ؟ قال : فغتني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني فقال : اقرأ : ، قال : قلت: ماذا أقرأ ، قال : فغتني به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، قال : فقلت : ماذا أقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا اقتداءً

منه ان يعود لي بمثل ما صنع بي ، فقال :

" اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ(1)خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ(2)اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ(3)الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ(4)عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ(5) " .

قال : فقرأتها ثم انصرف عني وهببت من نومي، فكأنما كتبت في قلبي كتاباً " . [ ابن هشام "1955" 1/236-237 ]

وقد تعددت الروايات التي تتحدث عن كيفية مجيء الوحي إلى الرسول ﷺ، إلا أن أوثق هذه الروايات وأكثرها تفصيلاً تلك التي أوردها البخاري نقلاً عن عائشة رضي الله عنها قالت : سأل أحد الصحابة رضي الله عنه رسول الله ﷺ كيف يأتيه الوحي ؟ فقال : " أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول"، وقد أضافت عائشة واصفة معاناة الرسول ﷺ أثناء تلقيه الوحي " ولقد رأيته يتزل عليه الوحي في يوم شديد البرد فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقاً " . وقد أطلق القرآن الكريم على الملك الذي ينقل الوحي الى الرسول ﷺ اسم جبريل، ووصفه بـ(الروح) و (روح القدس) و (الروح الامين). [ سورة النمل، الآية : 104؛ سورة الشعراء ، الآية : 193 ؛ سورة البقرة ، الآية : 97-98؛ سورة التحريم، الآية : 4 ]

وقد أوضح أحد الباحثين أن جبريل عليه السلام هو الملك المكلف بإبلاغ الوحي إلى الرسل، وقد ذكر اسمه ثلاث مرات في القرآن الكريم وأن معنى (جبريل) في اليهودية والنصرانية: رجل الله ، وهو أحد الملائكة السبعة المقربين من الله في هاتين الديانتين ، وهو الذي حمل البشارة لزكريا عليه السلام في شأن ولادة يوحنا (يحيى) ، وإلى مريم (عليها السلام) بشأن ولادة المسيح. [الزبيدي "د.ت" 1/5 ]

وقد أوضح القرآن الكريم طبيعة الوحي الذي نزل على الرسول ﷺ بقوله :

"وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(192)نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ(193)عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ(194)بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ(195)وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ(196) " . [ سورة الشعراء ، الآيات 192-196 ]

يظهر مما تقدم ، أن الوحي الذي تترل على رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ، هو كلام الله ، وهو القرآن الكريم الذي حفظه الرسول ﷺ عن الملك جبريل وألقاه إلى المسلمين طوال مدة تبليغ الرسالة . وكانت آيات القرآن الكريم تترل على الرسول ﷺ بحسب احتياجات الدعوة الإسلامية بالآية والآيتين والخمس والعشر . وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا التدرج في التتريل بقوله :

﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلا ﴾ [ سورة الأسراء ، الآية : 10]

لقد كانت آيات القرآن تنزل على الرسول ﷺ لتجيب عن تسآؤل أو لتحل مشكلة او لتنشئ قاعدة جديدة ، وكما هو واضح من أسلوب الآيات القرآنية التي عالجت تلك الأمور نفسها ، وقد واكب الخطاب القرآني نشأة الدعوة ونموها وتطورها منذ نزول الوحي على الرسول ﷺ وحتى وفاته ، فكان القرآن الكريم هو المرآة الصادقة التي تعكس تاريخ الدعوة الإسلامية ومبادئها واهدافها في عصر النبوة .

**حفظ القرآن في عصر النبوة :**

وكان الرسول ﷺ شديد الحرص على حفظ ما تنزل عليه من آيات القرآن الكريم عن ظهر قلب ، لذا كان يردد " بلسانه ما يلقيه إليه الوحي من آيات قبل أن ينتهي من عمله . لذا فقد نبه القرآن الكريم على ضرورة الإصغاء إلى كلام الوحي حتى ينتهي من القائه إليه كما طمأنه الله تعالى على انه قد تكفل بجمع القرآن وحفظه . قال تعالى : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ . [ سورة طه ، الآية: 114 ] وقال تعالى في آيات أخرى ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ(16)إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ(17)فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ(18)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ(19)﴾ [ سورة القيامة ، الآيات :16-19]

ويلاحظ أن الرسول ﷺ كان يعول على ذاكرته في حفظ آيات القرآن الكريم التي يأتيه بها الوحي لأنه كان أمياً لا يحسن القراءة والكتابة . وقد أكد القرآن ذلك بقوله ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ . [ سورة العنكبوت ، الآية : 48 ] كما وصفه بأنه النبي الأمي :﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾ . [ سورة الأعراف ، الآية : 157 ]

ويبدو أن حفظ القرآن الكريم اعتماداً على الذاكرة كان ينسجم مع تقاليد العرب الذين جروا على حفظ الشعر والأخبار استناداً إلى ما يتمتعون به من استعداد وموهبة في هذا المجال ، لاسيما أن الكتابة والقراءة لم تكن شائعة بين غالبية الناس في عصر الرسالة . وهكذا ، فقد أقبل كثير من الصحابة (رضوان الله عليهم )على حفظ آيات القرآن الكريم عن ظهر قلب شأنهم في ذلك شأن الرسول ﷺ . وقد اطلق على من يجمع القرآن في ذاكرته صفة (حافظ) وجمعها حفاظ . وقد أشار الدكتور صبحي الصالح إلى أن جمع القرآن بمعنى حفظه واستظهاره في لوح القلب قد " أوتيه رسول الله ﷺ قبل الجميع ، فكان عليه السلام سيد الحفاظ وأول الجمّاع ، وتيسر ذلك

لنخبة من صحابته على عهده ، ولا بد أن يكون عدد هذه النخبة غير قليل ، فقد قتل منهم يوم بئر معونة سبعون وقتل في عهد رسول الله ﷺ مثل هذا العدد . ولو أخذنا بظاهر الروايات التي يذكرها البخاري في (صحيحه) لحسبنا عدد الحفاظ على عهد رسول الله ﷺ لا يزيد على السبعة . وهؤلاء السبعة أنفسهم لا ترد أسماؤهم متعاقبة في رواية واحدة في (الصحيح) ، وإنما تجمع من ثلاث روايات فيه مع ترك الأسماء المكررة . ولذلك يطلق المستشرق بلاشير الحكم بأن الحديث النبوي لا يعرف للقرآن إلا سبعة من الحفاظ. ويفوته ما علق به العلماء على هذه الروايات مستبعدة صيغة الحصر ، ومؤولين ما جاء فيها تأويلاً سائغاً مقبولاً . [ الصالح "1972" 65-66 ] وخلاصة ذلك التأويل هو أن المقصود بالحفاظ هنا ، هم الذين أكملوا حفظ جميع اجزاء القرآن الكريم وآياته وتيسر لهم عرض ما حفظوه على الرسول ﷺ فأقرهم عليه . أما غيرهم ممن حفظ كثيراً من آيات القرآن ولم يتسنَّ لهم عرضه على الرسول ﷺ فقد كانوا كثيرين وقد ، يعدون بالمئات ، ويصعب إحصاؤهم.

أما الحفاظ السبعة من الصحابة فقد ذكر أنهم : عبد الله بن مسعود ، وسالم بن معقل ، ومعاذ بن جبل ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد بن السكن ، وأبو الدرداء رضي الله عنه .

والحقيقة أن المصادر تورد أسماء صحابة آخرين كانوا ممن جمع القرآن وحفظه في عهد رسول الله ﷺ منهم أبو بكر الصديق وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وتميم الداري ، وسعد بن عبيد ، وعبادة بن الصامت ، وأبو ايوب الانصاري رضي الله عنه ، كما أشير إلى صحابية قد جمعت القرآن في عهد رسول الله ﷺ واسمها أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث رضي الله عنه ، وكان رسول الله ﷺ يزورها ويسميها الشهيدة ، لأنها كانت قد استأذنته ان يسمح لها بالمشاركة في غزوة بدر ، فقال لها الرسول ﷺ : " إن الله مُهد لك شهادة " وكان قد أمرها أن تؤم اهل دارها في الصلاة. ويلاحظ أن كثيراً من الصحابة الذين جمعوا القرآن والذين وردت أسماؤهم آنفاً كانوا ممن يحسنون القراءة والكتابة . وقد استخدم رسول الله ﷺ بعضهم في كتابة الوحي مثل : أبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وعلي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان رضي الله عنه.

## تدوين القرآن في عصر النبوة :

من المعروف أن اسم القرآن الكريم قد اشتق من فعل القراءة ، وهي بطبيعتها

ترتبط بالكتابة . كما وصف القرآن نفسه بـــ(الكتاب) " وفي تسميته بالكتاب إشارة إلى جمعه في السطور ، لأن الكتابة جمع للحروف ورسم للالفاظ ". لذا كان من الطبيعي أن لا يكتفي الرسول ﷺ بحفظ آيات القرآن عن ظهر قلب ، وإنما أن يعمل على تدوين تلك الآيات في صحائف . وبذلك يضمن حفظ القرآن ونشره عن طريق الكتابة والقراءة معاً .

ولما كان الرسول ﷺ نفسه أمياً من ناحية معرفة القراءة والكتابة فإنه قد طلب من بعض أصحابه كتابة الآيات التي يترل بها عليه الوحي من السماء فضلاً عن حثهم على حفظها في صدورهم .

وإن مما ساعد الرسول ﷺ . على تحقيق هذه الغاية ان كثيراً من المؤمنين الأوائل كانوا يحسنون القراءة والكتابة مثل أبي بكر الصديق ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وأبي عبيدة بن الجراح وأبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي، وخالد بن سعيد بن العاص، وعمر بن الخطاب، ومصعب بن عمير ، وأبان بن سعيد بن العاص ، والزبير بن العوام، وعبد الله بن الأرقم الزهري وشرحبيل بن حسنة ، وحنظلة بن الربيع الأسدي و معيقيب بن أبي فاطمة ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ﷺ. وقد ذكر ابن حجر العسقلاني ان هؤلاء جميعاً قد كتبوا الوحي للرسول ﷺ في المرحلة المكية . [ " 2000" 29/9 ]

و لم يكن الورق معروفاً عند العرب في ذلك الوقت فكانوا يكتبون على قطع مسطحة من الحجارة أو الخشب أو العظام أو الجلد . وقد قام صحابة رسول الله ﷺ. بكتابة آيات القرآن على هذه المواد حينما طلب الرسول ﷺ.منهم ذلك . وهكذا فقد كان القرآن مكتوباً على " الرقاع والعسب واللخاف وصدور الرجال " . [ ابن الديع " 1934 " 205/1 ] حينما قام زيد بن ثابت بجمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه كما جاء في الرواية التي أخرجها البخاري والترمذي بهذا الخصوص .

وتشير معاجم اللغة العربية إلى أن (الرقاع) هي جمع رقعة وهي في غالب الأحيان كانت من الجلد أو الرق الذي يكتب عليه . أو (العسب) وهو جمع عسيب، وهو جريد النخل ، كانوا يكشطون الخوص ، ويكتبون على الطرف العريض منه ، أما (اللخاف) فهي جمع لخفة، وهي الحجارة الرقاق .

كان الصحابة رضي الله عنهم يكتبون الآيات القرآنية على ما تيسر لهم من هذه المواد ثم يقومون بتداولها فيما بينهم كي يستعينوا بها

على حفظ القرآن وتدارسه . وقد أورد لنا ابن إسحاق رواية مهمة عن إسلام عمر بن الخطاب ﵁توضح هذه المسألة . يقول ابن إسحاق إن عمر بن الخطاب ﵁ اتجه إلى بيت أخته فاطمة بنت الخطاب ﵂ للاستفسار منها عن حقيقة ما بلغه عن إسلامها وإسلام زوجها سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ﵁، فلما دخل عمر بيت أخته – وكان لا يزال مشركاً – وجد في البيت خباب بن الارت ومعه صحيفة فيها سورة طه ، وكان يقوم بإقرائها لها ولزوجها . وحين استفسر عمر عن حقيقة ما يرى ويسمع أخبرته أخته أنها وزوجها قد أسلما ، فغضب عمر لذلك غضباً شديداً وحاول أن ينكل بها ، إلا أن غضبه سرعان ما هدأ أمام صمود أخته وثباتها على عقيدتها . فقال لها : " أعطني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون آنفاً ، أنظر ما الذي جاء به محمد ، وكان عمر كاتباً – كما يقول ابن اسحاق – فلما قال ذلك ، قالت له أخته : إنا نخشاك عليها ، قال : لا تخافي ، وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها ، فلما قال ذلك ، طمعت في إسلامه ، فقالت له : يا أخي إنك نجس ، على شركك ، وإنه لا يمسها إلا الطاهر ، فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة وفيها : (سورة طه) فقرأها ؛ فلما قرأ منها صدراً ، قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه .. ". وكان ذلك بداية تحوله ودخوله في الإسلام .

إن هذا الخبر ، يظهر كيف كان الصحابة في الحقبة المكية يتداولون القرآن في صحائف متفرقة ، وكيف كان بعضهم يعلم بعضاً من خلالها ، كما يظهر مقدار ما كانوا يحيطونها به من قدسية واعتزاز بحيث لا يسمحون لمشرك بأن يلمسها قبل أن يتطهر ويظهر الاحترام الواجب لها .

ولم تقدم لنا المصادر معلومات عن الكيفية التي كان يتلقى فيها الصحابة الآيات القرآنية عن الرسول ﷺ ثم يقومون بتدوينها ، في الحقبة المكية ، ولكن وصلت إلينا بعض الروايات عن ذلك في الحقبة المدنية ، ويبدو أنها لا تختلف في جوهرها عنها . روى أبو داود عن خارجة بن زيد أنه قال : " دخل نفر على زيد بن ثابت ﵁ فقالوا : حدثنا بعض حديث رسول الله ﷺ فقال : ماذا أحدثكم ؟ كنت جار رسول الله ﷺ فكان إذا نزل الوحي أرسل إلي فكتبت الوحي...." وكان ﷺ إذا نزل عليه الوحي قال لمن عنده : ادع لي زيداً، وليجيء باللوح والدواة أو الكتف والدواة ، ثم يقول له : اكتب .... ويملي عليه الآيات . ويروي أبو عبيد القاسم

بن سلام أن النبي ﷺ كان إذا نزلت عليه آية دعا بعض من يكتب فيقول ضع هذه الآية في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا .. " [ الحمد "1982" 97-98] .

وقد أوردت المصادر أسماء عدد من الصحابة الذين اشتهروا بكتابة الوحي بين يدي الرسول ﷺ فذكر القضاعي : " كان عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ﷺ يكتبان الوحي ، فان غابا كتب أبي بن كعب، وزيد بن ثابت ﷺ.... وقال ابن عبد البر في كتاب الاستيعاب : كان أبي بن كعب ﷺ ممن كتب لرسول الله ﷺ الوحي قبل زيد بن ثابت ومعه أيضاً ، وكان زيد ألزم الصحابة لكتاب الوحي " .["1985"، 171 ]

كما أورد ابن سعد رواية عن الصحابي عبد الله بن مسعود ﷺ قال فيها : "أخذت من في رسول الله ﷺ ، بضعاً وسبعين سورة ، وزيد بن ثابت غلام له ذؤابتان يلعب مع الغلمان ، ثم قال : والذي لا إله غيره ، لو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لأتيته " [ "1957" ،344/2 ] وقال في رواية أخرى " ما أنزلت سورة إلا وأنا أعلم فيم نزلت ، ولو أعلم أن احداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل أو المطايا لأتيته " . [ "1957 "2/ 342 ]

إن التأمل في اقوال عبد الله بن مسعود ﷺ المذكورة آنفاً ، يوصلنا إلى أنه كان قد أخذ عن رسول الله ﷺ . بضعاً وسبعين سورة من سور القرآن الكريم ، وكان زيد بن ثابت صغيراً ، مما يدل على أنه قد أخذها في الحقبة المكية وبداية الحقبة المدنية . ومن المحتمل أنه كان يقوم بكتابتها بين يدي الرسول ﷺ على نحو ما كان يصنع زيد بن ثابت ﷺ من بعد .

ويبدو ان ابن مسعود ﷺ قد استمر في مواكبة نزول الوحي على الرسول ﷺ . ومتابعة كل ما يتصل به من تغيرات حتى وفاته ﷺ، فقد ذكر ابن سعد رواية عن ابن عباس ﷺ جاء فيها : " أن رسول الله ﷺ . كان يعرض عليه القرآن في كل رمضان مرة إلا العام الذي قبض فيه فانه عرض عليه مرتين، فحضره عبد الله بن مسعود ﷺ فشهد ما نسخ منه وما بدل" [ابن سعد ، 342/2 ]

وكان الرسول ﷺ . يحب أن يسمع أصحابه وهم يتلون القرآن أمامه ويشجعهم على ذلك ، ربما للتأكد من حسن حفظهم وأدائهم في التلاوة، فقد روى ابن مسعود ﷺ ان رسول الله ﷺ قال له : " اقرأ علي، فقلت : كيف اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال : اني أحب ! (وقال في رواية اخرى) :

إني اشتهي أن أسمعه من غيري ! قال : فقرأت عليه سورة النساء حتى اذا بلغت : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾، قال : حسبك !... فنظرت اليه وقد أغرورقت عينا النبي ﷺ، وقال: من سره أن يقرأ القرآن غضاً كما نزل فليقرأه قراءة ابن أم عبد " . [ ابن سعد 342/2]

ويظهر مما أوردته بعض الروايات أن الرسول ﷺ كان يفسح المجال لأصحابه بأن يقرأوا القرآن كل بحسب لهجته ومن دون أن يلزمهم بلهجة واحدة ، ما دام ذلك لا يؤثر في معاني الآيات القرآنية. فقد أخرج أصحاب الصحاح الستة رواية عن عمر بن الخطابﷺ قال فيها : " سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ فكدت أن أساوره في الصلاة ، فتربصت به حتى سلم فلببته بردائه . فقلت : من أقرأك هذه السورة ؟ قال : أقرأنيها رسول الله ﷺ. فقلت : كذبت ، إن رسول الله ﷺ أقرئنيها على غير ما قرأت فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف كثيرة لم تقرئنيها . فقال: أرسله . إقرأ يا هشام ، فقرأ القراءة التي سمعت يقرأ . فقال رسول الله ﷺ : هكذا أنزلت ، ثم قال لي اقرأ يا عمر . فقرأت القراءة التي أقرأني . فقال رسول الله ﷺ هكذا أنزلت ، إن هذا القرآن أنزل على سبعة حروف فاقرأوا ما تيسر منه". [ ابن حجر العسقلاني " 2000 " 30/9-49 ]

وبالنظر إلى أن القرآن كان يترل على الرسول ﷺ (منجماً ) ، أي بصورة تدريجية وبأوقات متفاوتة ، فإنه كان يرتب الآيات القرآنية من حيث تسلسلها في السور ، ثم يقوم بتوجيه كتاب الوحي في وضع كل آية من آيات القرآن الكريم في موضعها المحدد . وقد أخرج لنا أبو داؤد والترمذي حديثاً يوضح لنا هذه المسألة توضيحاً جيداً : " عن ابن عباس ﷺ قال : قلت لعثمان بن عفانﷺ : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني ، وإلى البراءة وهي من المئين فقرنتم بينهما، و لم تكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموها في السبع الطوال؛ ما حملكم على ذلك ؟ قال عثمان : كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو يترل عليه السور ذوات العدد ، وكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن،

وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها في السبع الطوال" [ ابن الديبع 1/128-129 ]

لقد ذهب الفقهاء والمفسرون في ضوء هذا الحديث وغيره إلى إن الرسول ﷺ كان يتولى بنفسه توجيه كتاب الوحي عن الموضع الذي يضعون فيه كل آية من آيات القرآن الكريم وفي أية سورة من السور يضعونها . وكان رسول الله ﷺ يقوم بذلك استناداً إلى أوامر الوحي وتوجيهه ، لذا فقد ذكر السيوطي ان الاجماع منعقد بين الفقهاء " على أن ترتيب آيات القرآن الكريم توقيفي لا شبهة في ذلك " . [ السيوطي "1951" 1/60] أما ترتيب السور في القرآن الكريم فإن غالبية المفسرين والفقهاء يرون أن ذلك كان متروكاً لاجتهاد الصحابة ولم يرو نص متفق عليه من الرسول ﷺ يوضح فيه موضع كل سورة وتسلسلها في القرآن الكريم ، لذا فقد اجتهد الصحابة بعد وفاة الرسول ﷺ في تنظيم سور المصحف وكما هو بين أيدينا الآن . ومع ذلك فإن هنالك من يرى أن سور القرآن أو معظمها مرتبة ترتيباً (توقيفياً) أي بتوقيف الوحي وتوجيه من الرسول ﷺ ، وذلك لأن نزول الوحي كان قد اكتمل في عهده ﷺ.

ويبدو للباحث أن اصحاب هذا الرأي قد فاتهم أن مسألة ترتيب سور القرآن الكريم من حيث تسلسل موضعها في المصحف ، مسألة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بجمع سور القرآن بين دفتي مصحف واحد ، وهو أمر لم يتحقق إلا في عهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ .

ويلاحظ أن القرآن الكريم لم يجمع بين دفتي مصحف حتى وفاة الرسول ﷺ لأن التنزيل كان متواصلاً طوال حياته ﷺ. وبذلك بقي مدوناً في صحائف متناثرة عند زوجات النبي وبين يدي أصحابه. ومع ذلك فإن هنالك من الآثار ما يشير إلى أن هذه الصحائف أو معظمها كانت مجموعة عند بعض الصحابة فضلاً عن اشتهار عدد منهم . في جمع القرآن وحفظه في صدورهم .

ومن الأخبار ذات الدلالة في هذا المجال ما أورده الكتاني نقلاً عما رواه الزبير بن بكار في كتابه اخبار المدينة والذي جاء فيه أن رافع بن مالك الأنصاري ﷺ كان قد لقي الرسول ﷺ عند العقبة " فأعطاه الرسول ﷺ ما أنزل عليه في العشر سنين التي خلت فقدم به رافع إلى المدينة ثم جمع قومه فقرأ عليه في

موضعه قومه القرآن ، وأخذوا يتعلمون على يديه . [ الكتاني "د.ت" 44 ]

يظهر من هذا النص أن الرسول ﷺ . كان يحتفظ بصحائف القرآن التي تحوي ما نزل عليه من الوحي منذ بدء النبوة حتى بيعة العقبة وأنه قد زود رافع بن مالك رضي الله عنهما ليتولى إقراء قومه القرآن ولابد أن الرسول ﷺ . قد استمر على هذا النهج بعد هجرته إلى المدينة . لذا فان من الجائز للقارئ أن يفترض أن الرسول ﷺ كان يحتفظ في بيته بصحائف القرآن الكريم كاملة منذ نزول الوحي حتى وافاه الأجل في داره في المدينة . وقد أكد بعض الباحثين هذا الافتراض، فذهب الدكتور صبحي الصالح إلى ان كل ما كان يكتب من القرآن الكريم كان " يوضع في بيت رسول الله ﷺ .وينسخ الكتاب لأنفسهم نسخة منه ، فتعاونت نسخ هؤلاء الكتاب والصحف التي ببيت النبي ﷺ مع حافظة أصحابه الأمين وغير الأمين ، على حفظ القرآن وصيانته " ، وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [ سورة الحجر ،الآية : 9 ]

والحقيقة أنه لم تصل إلى ايدينا أدلة مباشرة من قرآن أو حديث صحيح أو خبر تاريخي موثوق تؤيد هذا الافتراض وتؤكده، بل إن ما وصل إلينا يتعارض معه وينقضه . فقد أخرج البخاري والترمذي حديثاً عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : " أرسل إلي أبو بكر رضي الله عنه مقتل أهل اليمامة – في حروب الردة – فاذا عمر رضي الله عنه جالس عنده ، فقال أبو بكر : ان عمر جاءني فقال : أن القتل استحر يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإني اخشى أن يستحر القتل بالقراء في كل المواطن فيذهب من القرآن كثير، وإني أرى ان تأمر بجمع القرآن. فقلت : وكيف أفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر ﷺ : هو والله خير ، فلم يزل يراجعني في ذلك حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر عمر رضي الله عنه...". [ ابن الديبع "1924" 203/1 ]

إن هذا الحديث يؤكد أن صحائف القرآن الكريم لم تجمع جمعاً كاملاً وتوضع في موضع محدد كأن يكون بيت رسول الله ﷺ ، في عصر النبوة ، ولو أن هذا حصل ، لما كان من المعقول أن يسعى عمر بن الخطاب وأبو بكر رضي الله عنه لاقناع زيد بن ثابت رضي الله عنه بالعمل على جمع القرآن ، ولما كان من المتصور أن يتردد " زيد في الاستجابة لهذا الطلب في البداية بحجة أن الرسول ﷺ لم يفعل ذلك في حياته . [ ابن حجر العسقلاني "2000" 9/14-21 ] لذا، فقد بات من الضروري تعديل هذا الرأي

والذهاب إلى القول إن القرآن الكريم كان مجموعاً في صدور عدد من كبار القراء والحفاظ من صحابة رسول الله ﷺ فضلاً عن وجود صحائف القرآن الكريم (متفرقة) في بيت رسول الله ﷺ وصحابته الكرام . وإن الرسول ﷺ لم يجد حاجة في حياته إلى جمع هذه الصحائف في موضع واحد لأنه كان مطمئناً إلى حفظ أصحابه للقرآن حفظاً متواتراً يؤمن معه الخوف عليه من الضياع والاختلاف .

## سابعا : ملامح المجتمع الجديد

إن من الأمور المتفق عليها بين الفلاسفة وعلماء الاجتماع أن الحياة الاجتماعية ضرورة ملحة لبني الإنسان . وقد عبر عن ذلك أرسطو بقوله : " إن الإنسان اجتماعي بطبعه". وقد ذهب ابن خلدون إلى أن ميل الإنسان إلى الاجتماع الإنساني ينبع من حاجة بني الإنسان بعضهم لبعض في تأمين سبل معاشهم عن طريق تقسيم العمل والتعاون فيما بينهم من أجل إشباع حاجاتهم الأساسية من غذاء وكساء وتكاثر ودفاع عن النفس .

وقد ترتب على هذه الحقيقة الأساسية نشوء (المجتمع) بابسط صوره وأشكاله منذ عصور سحيقة . ثم أخذ بالنمو والتطور بحسب نمو تجارب الإنسان وتطور معارفه عبر الزمن ، فظهرت مجتمعات كثيرة ، تتفاوت فيما بينها بحسب ما حققته في مجال التقدم الحضاري ، كما تختلف بعضها عن بعض في معتقداتها وقيمها وتنظيماتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

وقد لاحظ ابن خلدون ان المجتمع الإنساني ما يكاد يظهر ويصل في تطوره إلى درجة من الرقي تستدعي تقسيم العمل وظهور الملكية حتى تظهر المنافسة بين أفراده ويسعى القوي للسيطرة على الضعيف واستغلاله . ومن ثم ، تنشأ الحاجة الى ظهور السلطة أو كما يسميها ابن خلدون (الوازع)، لتتولى فرض النظام في المجتمع وتحقيق التوازن أو العدالة بين أفراده .

وهكذا ، فقد اقترن وجود المجتمع بوجود السلطة منذ العصور القديمة . وقد تنوعت أشكال السلطة بحسب حظ المجتمعات من الحضارة والعمران . وكان من أقدم أشكال السلطة سلطة الأب على أفراد عائلته ، وسلطة الشيخ على أفراد عشيرته أو قبيلته ، وسلطة الأمير أو السلطان على أمارته أو مملكته ، وهكذا.

إن دراسة تاريخ المجتمع العربي قبل الإسلام ، تشير إلى أن هذا المجتمع قد عرف كل هذه الصور من أشكال السلطة ، فعرف

السلطة الأبوية في الأسرة ، وعرف سلطة المشيخة في القبائل العربية ولاسيما في البدو وبعض مدن الحجاز ووسط الجزيرة العربية ، وعرف السلطة الملكية في شمال الجزيرة العربية وجنوبها .

ويرى فقهاء القانون الدستوري أن أي مجتمع من المجتمعات إذا استطاع أن يحقق عيشاً مستقراً على أقليم معين من الأرض ، وامتلك سلطة عليا تفرض النظام على أفراده فرضاً ملزماً ، ومن غير خضوع لسلطة أجنبية، فإنه يكون قد وصل في تطوره إلى مرحلة (الدولة) ، وهو ما عبر عنه ابن خلدون بـ(الملك) وهو يرى أنه من سمات الحكم في المدن والحواضر .

يظهر مما تقدم ، أن المجتمعات العربية قبل الإسلام كانت قد عرفت ظاهرة السلطة ، والعيش في ظل حكم الدولة او الملك لاسيما في اليمن والعراق والشام . أما في مدن الحجاز مثل مكة والمدينة والطائف فإنها كانت تعيش في ظل سلطة شيوخ القبائل الذين تطورت سلطاتهم بمساعدة مجلس القبيلة (الملأ) إلى ما يقرب من سلطة الدولة أو ما يعرف بـ(دولة – المدينة).

في ظل هذه الظروف الاجتماعية والسياسية ظهر الإسلام في مكة ، وأخذت تتحدد فيها ملامح المجتمع الإسلامي (الجديد) في إطار صراعه مع المجتمع المكي (القديم) ، فلنتعرف الملامح الأساسية لهذا المجتمع كي نستطيع من خلال المقارنة معه أن نتوصل الى تحديد المعالم العامة للمجتمع الإنساني الناشئ .

### ملامح – المجتمع القديم في مكة :

من المعروف أن الانتماء إلى الأسرة والعشيرة والقبيلة كان هو الأساس الذي يقوم عليه المجتمع المكي شأنه في ذلك شأن جميع المجتمعات الموجودة في شبه الجزيرة العربية في عصر الرسالة . فكان معظم أبناء مدينة مكة ينتمون إلى قبيلة قريش ، ويشعرون من ثم، أنهم ينحدرون من جد أعلى واحد . لذا فقد كانت العلاقة بينهم تقوم على أساس المساواة بين الأفراد ، والتعاون والتكافل فيما بينهم في السراء والضراء ولاسيما في مواجهة الأعداء . وكان العربي يعد كل من لا ينتمي إلى عشيرته أو قبيلته بالأصالة أو التحالف في حكم الغريب والعدو. وقد أطلق ابن خلدون على الرابطة الاجتماعية التي تشد أبناء القبيلة بعضهم إلى بعض اسم (العصبية) ، وهي أقوى ما تكون بين البدو بسبب قسوة الحياة التي يحيونها وكثرة المخاطر التي يواجهونها في حياتهم . وتقضي العصبية بأن ينصر ابن القبيلة أخاه ظالماً كان أو مظلوماً.

وكان يتولى قيادة المجتمع في مكة رؤساء الأسر والعشائر. وكان يطلق عليهم (رجال الملأ) . وقد استمد هؤلاء (الملأ) حقهم في القيادة من مكانتهم في أسرهم وعشائرهم ، فضلا عن تمتعهم ببعض الفضائل الأخلاقية التي تجعلهم جديرين بالزعامة كالحكمة وسداد الرأي ، والكرم ،والشجاعة.

وبالنظر الى شعور رجال (الملأ) المكي في عصر النبوة بأنهم متساوون في الشرف والمكانة فإنهم لم يسمحوا لأحدهم بأن يكون سيداً أو ملكاً عليهم . وقد فضلوا أن يكون الحكم (شورى) بينهم ، فإذا اتفقوا على رأي التزموا جميعاً بتنفيذه ، وحمل كل سيد عشيرة أو أسرة قومه على العمل بما اجتمع أمرهم عليه . أما إذا اختلفوا في أمر من الأمور ، فانهم يستمرون بالمشاورة والمناقشة والضغط على الأقلية من أجل حملها على موافقة الأغلبية . فإن عجزوا في خاتمة المطاف عن الوصول إلى الأجماع ، وهذا لا يكون إلا في الحالات الصعبة جداً ، فإن ذلك يؤذن بالانقسام والحرب بين الأخوة وأبناء القبيلة الواحدة . وهذا لم يحصل في تاريخ قبيلة قريش إلا عندما ظهر الإسلام ، وآذن بانهيار المجتمع القديم تمهيداً لظهور المجتمع (الإسلامي) الجديد. أما الأزمات التي سبقت ظهور الإسلام ، كأزمة تقاسم وظائف مكة بين أبناء عبد مناف ، والأزمة التي أدت إلى قيام حلف الفضول ، فقد تم التغلب عليها وتجاوزها بسبب ما اشتهر به زعماء مكة من براعة في المفاوضة والمشاورة والمساومة.

لقد كان المجتمع المكي يعتمد في حياته ورفاهه على التجارة التي ارتبطت بموقع مكة (الديني) ، حيث كان العرب (المشركون) يحجون إلى الكعبة ، ويطوفون حولها في مواسم معينة من السنة كما كانوا يزورون مكة لتقديم النذور والقرابين لأصنامهم التي يعتقدون – شأنهم شأن أهل مكة – أنها آلهة تشفع لهم عند الله تعالى ، وتساعدهم في التقرب من الله زلفى.لقد عد زعماء مكة دعوة الإسلام إلى التوحيد ونبذ الشرك خروجاً على تقاليد الآباء والأجداد ، وتقويضاً للأسس الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي يقوم عليها مجتمعهم . فلا غرابة أن يتصدوا لمعارضته بكل قوة وحزم ، ولا عجب أن يؤدي ثبات المؤمنين الأوائل على عقيدتهم ، وجلهم من أبناء قبيلة قريش ، إلى تفاقم الإنقسام في داخل قبيلة قريش وتحولها إلى جماعتين : جماعة المؤمنين المسلمين ، وجماعة المشركين الكافرين.

إن فهم أبعاد هذا الانقسام ، ومتابعة تطور الصراع بين المجتمع المكي (القديم) ، والمجتمع الإسلامي الناشئ (الجديد) يتطلبان الحديث عن نشأة هذا المجتمع الإسلامي والسعي إلى إبراز الملامح التي تميز بها . وبالنظر إلى أن هذا المجتمع لم ينشأ دفعة واحدة وإنما نشأ نشأة تاريخية امتدت طوال عصر النبوة ، لذا فإننا سنحاول مراعاة عناصر التدرج والتطور في ظهور هذه الملامح ابتداءً من ظهور الدعوة الإسلامية بعد نزول الوحي على الرسول ﷺ في نحو سنة 610 من الميلاد وحتى وفاته ﷺ في نحو سنة 11 من الهجرة الموافقة سنة 632 من الميلاد .

## مبادئ الإسلام ونشأة المجتمع الإسلامي الجديد في الحقبة المكية :

كان نزول الوحي على الرسول ﷺ . في غار حراء بمثابة إعلان أولي لثلاثة مبادئ أساسية من مبادئ الإسلام ، وهي ، الإيمان بالله تعالى وقدرته ، والإيمان بأن العناية الإلهية قد اصطفت محمد بن عبد الله ﷺ من بين البشر ليكون رسول الله إلى الناس ، والإقرار بدور الملائكة (جبريل عليه السلام) في إيصال الرسالة الإلهية إلى النبي محمد ﷺ عبر عملية الوحي .

ويتبين من دراسة آيات القرآن المكية الأولى أنها قد ركزت اهتمامها على توضيح عقيدة المسلمين في الله تعالى وما يجب على الناس القيام به تجاهه من شكر وعبادة . كما تولت توضيح مسألة البعث بعد الموت وما يتصل بها من ثواب وعقاب ، أو جنة ونار [سورة العلق , الآيات : 1-5 ؛ سورة القلم, الآيات : 1-7؛ سورة المزمل, الآيات : 1-9 ؛ سورة المدثر, الآيات : 1-10 ؛ سورة التكوير, الآيات : 1-14]

ويلاحظ أن القرآن الكريم قد تعامل مع مسألة الإيمان بوجود الله تعالى وقدرته غير المحدودة بصفتها من المسلمات التي لا تحتاج إلى برهان ، وذلك لأن العرب في عصر النبوة – بما فيهم المشركون– كانوا يقرون بوجود الله وعظمته : قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ...﴾ [ سورة العنكبوت ، الآية :61 ]

ومن ثم ، فقد انصب اهتمام القرآن الكريم في الحقبة المبكرة من حياة الدعوة الإسلامية على بيان فضل الله على الانسان ،" الذي خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ والذي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ." ، والذي خلق السماوات والأرض وما فيها من خيرات ومخلوقات وسخرها لخدمة بني الإنسان . لذا فقد أكد القرآن الكريم أن الله تعالى هو رب العالمين ، لأنه خالقهم ، ومالكهم ومربيهم . وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن " الرب هو

اسم الله العظيم لكثرة الداعين به ، ولما يشعر به هذا الوصف من الصلة بين الرب والمربوب، مع ما يتضمنه من العطف والرحمة والافتقار على كل حال " . [القرطبي " 1952" 137-136/1 ]

ويلاحظ أن القرآن الكريم وهو يوضح صفات الله وعظمته وتفرده بالوحدانية المطلقة، لم يلجأ في المرحلة الأولى من تاريخ الدعوة ، إلى مهاجمة الشرك والمشركين ، لأن الدعوة الإسلامية كانت في بدايتها ، وكان أفراد الجماعة الإسلامية قليلين ، ومن ثم كان من الحكمة تأكيد الجوانب الإيجابية من الدعوة، وعدم الإشارة الى ما ينفر المشركين منها ويدفعهم إلى مقاومتها .

و لم تقتصر آيات القرآن الأولى على توضيح صفات الله وقدرته ، بل إنها أكدت أن الله تعالى سيبعث الناس بعد موقم ويحاسبهم على أعمالهم في الدنيا ، فيكافئ المحسنين بإدخالهم إلى الجنة ويعاقب الكافرين بعذاب الجحيم . وهكذا فقد شغل الحديث عن البعث بعد الموت ، والجنة والنار ، حيزاً كبيراً من آيات القرآن الكريم ، وذلكم لأن معظم المشركين العرب لم يكونوا يقرون بالبعث بعد الموت ، و لم يكونوا يؤمنون بوجود ثواب أو عقاب بعد الموت، وكانوا يرددون ﴿ إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [ سورة الانعام ، الآية : 29 ] ، ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ﴾ [ سورة النحل ، الآية : 38 ]

إن حرص القرآن الكريم على إقناع الناس للإيمان بعقيدة البعث بعد الموت يرجع إلى أن هذه العقيدة تمثل الحافز الذي يدفع الانسان دفعاً ذاتياً لمراقبة نفسه ومراعاة القواعد الدينية والأخلاقية في سلوكه من غير حاجة إلى سلطة خارجية تلزمه بمراعاتها ، إذ إن المؤمن يعتقد أنه سيحاسب على أعماله يوم القيامة ، فيجزى عليها جزاءً عاجلاً إما بدخول الجنة أو المصير إلى الجحيم . وهكذا نلاحظ أن عقيدة الإيمان بالآخرة " تبعث الأمل وتحيي التفاؤل ، وتحمل الناس على عمل الخير والصلاح وتجنب عمل الشر ".

وقد أوضحت آيات القرآن الكريم معالم الطريق الذي ينبغي للإنسان سلوكه للوفاء بواجب الشكر والعرفان لله تعالى على فضله ونعمته على بني الإنسان . وربما كان من أبرز الواجبات التي ينبغي للإنسان عملها للتقرب من الله تعالى حسبما يؤكد القرآن الكريم هي أن يستسلم لأوامر الله تعالى في العقيدة والعمل ، فيصبح (مسلماً) .

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن آيات القرآن الأولى قد ربطت بين الإسلام والتزكي ، فمعنى (تزكى) في الآيات استسلم

لله تعالى وأصبح مسلماً. وهكذا ، فقد قرن القرآن الكريم بين التزكي والعديد من أعمال البر التي ينبغي للإنسان عملها . فهو قد قرن بين التزكي والصلاة : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى(14)وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾[ سورة الاعلى ، الآيتان :14 –15 ] ، وقرن بين التزكي ومساعدة الفقراء والمساكين : "وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى(17)الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى".[سورة الليل ، الآيتان :17،18 ] كما قرن بين التزكي والسعي من أجل التعلم والتفقه في الدين : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى(1)أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى(2)وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى(3)أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾.[سورة عبس ، الايات : 1-4 ] ويلاحظ أن أولى العبادات التي فرضها الله تعالى في المرحلة المبكرة من تاريخ الدعوة هي الصلاة وقيام الليل . وهكذا فقد أشار القرآن الكريم إلى أن الصلاة هي العبادة التي يذكر فيها الله ويتقرب بواسطتها إليه : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى(14)وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ [سورة الاعلى ، الايتان: 14،15 ] كما أمر الله رسوله بقيام الليل من أجل تهيئة نفسه لحمل عبء الرسالة الإسلامية : ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ(1)قُمْ اللَّيْلَ إِلا قَلِيلا(2)نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلا(3)أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا(4)إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلا ثَقِيلا.﴾
[ سورة المزمل ، الأيتان :1-5 ]

وقد أورد الطبري خبراً يشير إلى أن " أول شيء فرض الله عز وجل من شرائع الإسلام ... الصلاة" ( " 1967 " 307/2).
كما ذكر ابن إسحاق أنه حين فرضت الصلاة، جاء جبريل إلى الرسول ﷺ وعلمه كيف يتوضأ ويصلي ، ثم قام الرسول ﷺ بعد ذلك أمام زوجته خديجة " فتوضأ كما توضأ جبريل ، ثم ركع ركعتين ، وأربع سجدات ، هو وخديجة ﵂ . ثم كان هو وخديجة ﵂ يصليان سراً " . [ ابن إسحاق " 1967 " ، 117 ] وهكذا فقد فرضت الصلاة في البداية ركعتين ، ثم زيدت بعد ذلك إلى أربع ركعات ، فقد روى ابن إسحاق عن عائشة أنها قالت : " أول ما افترضت الصلاة ركعتان، فاثبتت للمسافر ، واكملت للمقيم أربعاً " . [ "1967" 117 ]

وكانت الصلاة في بدايتها تؤدى في أوقات الضحى والعصر من كل يوم وبمعدل ركعتين في كل صلاة ، ثم أصبحت تؤدى في خمسة أوقات في أواخر المرحلة المكية . و لم يفرض الاذان وسيلة للدعوة إلى الصلاة إلا بعد هجرة المسلمين الى المدينة.

إن دراسة الآيات القرآنية التي نزلت على الرسول ﷺ في بداية الدعوة تدل على أن الإسلام قد ربط بين عناية الله ورعايته للإنسان ، وبين تكليفه له بأن يرعى أخاه

الإنسان ويساعده على تجاوز المصاعب التي تواجهه في الحياة ان هذا التوجه الاجتماعي للإسلام يدل على مدى حرص الإسلام منذ البداية على تصحيح الخلل الاجتماعي والاقتصادي الذي كان قائماً في المجتمع المكي بسبب غلبة الروح الفردية التجارية على أفراده ولاسيما الأغنياء منهم .

لقد أخذ القرآن الكريم بتوجيه الرسول ﷺ بصفته القدوة الحسنة لغيره من المسلمين بضرورة رعاية المحتاجين ومساعدتهم كأحد مظاهر التعبير عن شكره لله تعالى على اهتمامه به ورعايته له منذ طفولته . فقد جاء في سورة الضحى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى(5)أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى(6)وَوَجَدَكَ ضَالا فَهَدَى(7)وَوَجَدَكَ عَائِلا فَأَغْنَى(8)فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ(9)وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ(10)وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ(11) ﴾ [سورة الضحى ، الأية : 5-11 ]

وقد قام القرآن الكريم بتنبيه الرسول ﷺ على خطورة مراعاة مقاييس المجتمع المكي التجارية التي تقوم الانسان استناداً إلى مركزه الاجتماعي وثروته وليس إلى خلقه وإيمانه ، لأن ذلك قد يقود إلى الانحراف عن المثل التي جاء بها الإسلام . لقد ذكر القرطبي أن سبب نزول سورة عبس على الرسول ﷺ أن " قوماً من أشراف قريش كانوا عند النبي ﷺ ، وقد طمع في إسلامهم ، فأقبل عبد الله بن أم مكتوم ، فكره الرسول ﷺ أن يقطع عليه كلامه فأعرض عنه" ، ففيه نزلت هذه الآيات: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى(1)أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى(2)وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى(3)أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى(4)أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى(5)فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى(6)وَمَا عَلَيْكَ أَلا يَزَّكَّى(7)وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى(8)وَهُوَ يَخْشَى(9)فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى(10)كَلا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . ﴾ [ سورة عبس ، الآيات : 1-11]

في ضوء ما تقدم ، فقد ربط القرآن الكريم بين التقوى ومساعدة المحتاجين ، وبين الكفر والبخل ، جاء في سورة الليل : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(5)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(6)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى(7)وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى(8)وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى(9)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى(10)وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾ [ سورة الليل ، الآيات : 5-11 ]

وقد عد القرآن الكريم الثروة وكيفية التصرف بها نوعاً من الاختبار والابتلاء الرباني للإنسان ، فأما الإنسان الصالح فهو يشكر الله تعالى في حالتي الغنى والفقر بينما يجزع الإنسان الطالح في حالة الابتلاء بالفقر ويعد ذلك عقوبة وإهانةً له من الله تعالى . أما في حالة الغنى فانه يبخل بماله ولا يساعد اليتيم والمسكين . جاء في سورة الفجر : ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ

فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ(15)وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ(16)كَلا بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ(17)وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ(18)وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلا لَمًّا(19)وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ . [ سورة الفجر ، الأيات : 15-20 ]

وهكذا ، فقد راح القرآن الكريم يدعو أبناء المجتمع المكي أن يعملوا على تجاوز عوامل البخل والشح التي أماتت نفوسهم من جراء إقبالهم الشديد على التجارة وجمع الأموال ، وأخذ يوجه أنظارهم إلى أن المال عرض زائل ، وأنه ينبغي أن يستخدم بالطريقة التي ترضي الله وتضمن للإنسان النجاة يوم القيامة . وقد عبرت عن هذه المعاني تعبيراً قوياً سورة البلد في الآيات الآتية : ﴿ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ(7)أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8)وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ(9)وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ(10)فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ(11)وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ(12)فَكُّ رَقَبَةٍ(13) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ(14)يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ(15)أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ(16)ثُمَّ كَانَ مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ(17)أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ(18)وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ(19)عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾

[ الآيات : 7-20 ]

إن القيم والمثل المذكورة آنفاً ، قد مثلت تهديداً خطيراً لزعماء مكة الذين تستند سلطاتهم الاجتماعية والسياسية في مدينتهم ومجتمعهم إلى ثرواتهم ونسبهم في عشائرهم . لذا فإنهم وجدوا أن مصلحتهم تفرض عليهم معارضة الدعوة الإسلامية بقوة . وهكذا اضطر الرسول ﷺ إلى أن يمضي في طريقه نحو بناء المجتمع الإسلامي الجديد من الأفراد الذين آمنوا بمبادئ الإسلام وسعوا بإخلاص للالتزام بها ، بينما وقف زعماء مكة يدافعون عن قيم المجتمع القديمة بحجة أنها تمثل تقاليد الآباء والأجداد .

لقد أكد القرآن الكريم في مواجهة هذا الواقع ان مسؤولية الانسان عن أعماله في الإسلام مسؤولية فردية ، وأن الانسان لا يسأل أمام الله تعالى يوم القيامة إلا عن أعماله التي قام بها ، فهو لا يسأل ولا يتحمل جريرة أفعال غيره من الناس سواءً أكانوا من أفراد عائلته أم عشيرته . [سورة الاسراء , الآية : 15؛ فاطر ، الآية : 18 ]

وهكذا فان الإسلام قد ألغى الأساس الذي تقوم عليه عادة التكافل بين افراد القبيلة ظالمين كانوا أو مظلومين ، كما ألغى المبررات التي تقوم عليها عادة أخذ الثأر التي كانت قائمة في المجتمع . لقد كان الإسلام يهدف من خلال هذا المفهوم للمسؤولية الفردية

استبدال قيم المجتمع القائم على تعاليم الدين والتشريع الإلهي بقيم المجتمع الجاهلي القائم على العصبية القبلية والتضامن بين أفرادها في الحق والباطل ، وجعل الأمة الواحدة هي البديل الأفضل عن القبائل المتعددة والمتصارعة.

وفي ضوء ما تقدم ، فقد تعاطف الإسلام مع جميع الفئات المظلومة في المجتمع كالفقراء والرقيق فدافع عنهم وتبنى قضاياهم ، وانتقد المشركين بسبب ظلمهم إياهم وعدم مساعدتهم ، كما وضع عدداً من المبادئ التي تساعد على تحقيق العدل بين أفراد المجتمع، وكان من أبرزها :

1. حث القرآن الكريم الناس على أن يكونوا كرماء ، وأن يساعدوا الفقير واليتيم ، والمسكين، من أجل الحصول على رضى الله تعالى وحده [سورة الليل ، الآيات : 5-18 ]
2. شجع القرآن الكريم المسلمين على تحرير الرقيق بشتى السبل . [سورة البلد ، الآيات:11-16 ]
3. حرم الإسلام عادة وأد البنات التي كان يمارسها قسم من المشركين وحارب جميع أنواع المظالم التي كانت منتشرة بين الناس. [سورة التكوير ، الآيتان : 8-9 ؛ سورة النحل , الآيتان : 58،59 ]

إن هذه المبادئ المنصفة التي جاء بها الإسلام ، قد ساعدت على اجتذاب المستضعفين إلى الإسلام ، وجعلتهم يرون فيه الطريق القويم لإنقاذهم وتحسين أوضاعهم وظروف معيشتهم العامة . وهكذا فقد أصبح الكثير من أفراد هذه الفئة من أتباع الدعوة الإسلامية وفي مرحلة مبكرة من تاريخها. [سورة الشعراء ، الآيات :111-114 ؛ سورة سبأ ، الآيات : 34-37 ]

وفضلاً عما تقدم ، فقد أولى الإسلام منذ سنواته الأولى ، عناية خاصة للجانب الأخلاقي من حياة المجتمع ، وسعى لتأسيس عدد من الفضائل العالية في نفوس المسلمين من أجل أن يقوم المجتمع الإسلامي الجديد على أساسها . لذا فقد حث الرسول ﷺ أتباعه على التحلي بصفات الصبر ، والتسامح ، والصدق ، والعدل ، ومساعدة الآخرين . [سورة النحل ، الآيات : 89 –91 ، 125 – 128 ] كما أمرهم باحترام حقوق الآخرين فحرم عليهم السرقة ، وأكل أموال الناس بالباطل ، والاعتداء على أعراض الناس عن طريق ممارسة الزنا ، وكل الأعمال المنكرة . [سورة الممتحنة ، الآية : 12 ]

ويلاحظ أن المبادئ التي جاء بها الإسلام في الحقبة المكية لم تقتصر على المبادئ

الدينية ذات الصلة بأمور العقيدة ، أو المبادئ الاجتماعية والاقتصادية فحسب وإنما امتدت لتشمل بعض المبادئ السياسية وذلك لأن الإسلام كان ذا طابع شمولي يحاول تنظيم حياة المجتمع كافة . ومع ذلك ، فإن المبادئ السياسية التي جاء بها الإسلام كانت امتداداً للمبادئ الدينية التي دعا اليها ، وكأنها التجسيد السياسي لتلك المبادئ .

وقد مثل الإيمان بالله تعالى وقدرته المطلقة القاعدة التي ينطلق منها التفكير السياسي في الإسلام بجميع مبادئه واهدافه . ويلاحظ ان أساس الاعتقاد بالله تعالى كان معروفاً عند العرب المشركين ، إلا أن هذا الاعتقاد كان مبهماً وسلبياً وليس له أثر واضح في حياتهم الاجتماعية والسياسية . فكان أبرز ما حققه الإسلام بعد ظهوره أن بعث الحيوية والنشاط في هذا الاعتقاد ، وجعل منه وسيلة فعالة في هدم المجتمع القائم على الشرك والعصبية القبلية ، وإقامة مجتمع جديد قائم عل أساس الايمان بالله وحده ، وتحت قيادة محمد بن عبد الله ﷺ (عبد الله ورسوله) .

وتتلخص المبادئ السياسية التي بشر بها الإسلام في النقاط الآتية :

1. السيادة : أكد القرآن الكريم ، ومنذ البداية ، أن الله تعالى هو خالق العالم وبضمنه بنو الإنسان ، وأنه القادر على كل شيء ، والمسيطر على كل شيء. ومن ثم ، فإنه الحاكم الحقيقي لهذا العالم ، وهو مصدر السلطة الوحيدة فيه ، لذا فإنه يجب على الناس كافة أن يخضعوا لأوامره، وان يطيعوا رسله إليهم.
2. الاستخلاف في الأرض : إن الله تعالى قد خلق الإنسان ، وجعله مستخلفاً فيها . أي أن يكون خليفة الله في الأرض يستثمرها ويعمرها لمصلحته بشرط أن يتصرف طبقاً لأوامر الله ونواهيه . [سورة النحل ، الآية : 62 ؛ سورة ص ، الآية : 26]
3. القيادة : لقد اقتضت حكمة الله تعالى ان يصطفي عدداً من البشر ليكونوا رسلاً وأنبياء إلى قومهم وليتولوا تبليغ أوامره إليهم ويقوموا بقيادتهم لما فيه مصلحتهم ونجاتهم . وقد كان من أبرز الأنبياء الذين تحدث عنهم القرآن الكريم إبراهيم وإسماعيل وموسى وداؤد وسليمان وعيسى ، الذين قاموا بقيادة قومهم على وفق أوامر الله ونواهيه . لذا فإن ، على الناس في عهد الرسول ﷺ ومن مصلحتهم أن يطيعوا الرسول ويمتثلوا لأوامره لأن

إطاعتهم له هي في حقيقتها طاعة لله تعالى. [سورة القصص ، الآيات :30-40 ؛ سورة ص ، الآيات :1-40 ]

4. المساواة الاجتماعية أكد القرآن الكريم حقيقة أن البشر جميعاً من أصل واحد ، وهم من خلق الله تعالى ، فهم متساوون أمامه تعالى لا فرق بينهم بسبب النسب أو المال : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ.﴾ [سورة الحجرات، الآية : 13 ]

ويبدو أن زعماء المشركين في مكة قد نظروا إلى هذا المبدأ من الناحية السياسية بصفته وسيلة لإضعاف نفوذهم في مكة لأن مراكزهم السياسية والاجتماعية كانت قائمة على أساس ما يتمتعون به من شرف في النسب وكثرة في المال .

5. المسؤولية : إن المسؤولية في الإسلام مسؤولية فردية ، فكل إنسان مسؤول عن أعماله الخاصة ولا يتحمل وزر أعمال غيره من الناس . وقد أسهمت هذه الفكرة في إضعاف تماسك المجتمع المكي القائم على الشرك والعصبية القبلية ، وشجعت الأفراد على الخروج على إرادة عشائرهم والدخول في الإسلام . [سورة الأسراء ، الآية : 15؛ سورة فاطر ، الآية : 18 ]

6. المجتمع الجديد (الأمة) بدأ المسلمون منذ بداية العهد المكي بتشكيل مجتمع جديد له مقوماته الخاصة وملامحه المتميزة تحت قيادة محمد ﷺ عبد الله ورسوله وقد أطلق القرآن الكريم على هذا المجتمع تسمية (أمة) . وقد وعد الله تعالى هذه الأمة بأن يدافع عنها وينصرها على أعدائها كما دافع عمن سبقهم من المؤمنين [سورة الانبياء ، الآية : 92؛ يونس ، الآيات : 12-42،19-52؛ غافر الايات 49-51 ]

وإن مما يجدر ذكره في هذا المجال أن القرآن الكريم قد أكد أن رسالة الإسلام التي نزلت على محمد ﷺ هي امتداد للرسالة الدينية التي نزلت على جميع الأنبياء السابقين :﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ.﴾. [ سورة الشورى ، الآية : 12 ]

إن اعتراف الإسلام بأنه امتدادٌ للأديان السماوية الأخرى كالمسيحية واليهودية قد مهد الطريق لإقامة علاقات إيجابية بين المسلمين وأتباع هذه الديانات .

وقد تجلى ذلك واضحاً في هجرة المسلمين الى الحبشة (المسيحية) طلباً للحماية والأمن ، وفي كتابة الصحيفة (دستور المدينة) التي نظمت العلاقات بين المسلمين ويهود المدينة كما سنشرح ذلك لاحقاً . وأخيراً ، وبعد سيادة الإسلام على الجزيرة العربية أعلن القرآن الكريم منح الأمن والحماية لأتباع هاتين الديانتين بصفتهم (أهل ذمة) ومن ثم ، فقد أصبحوا جزءاً من المجتمع الإسلامي الجديد يعيشون ويتكاملون مع بقية أفراده من المسلمين .

7. مقاومة الطغاة : لقد وصف القرآن الكريم زعماء المشركين في مكة بأنهم (طغاة) لأنهم رفضوا الخضوع للأوامر الإلهية ، وعارضوا الدعوة التي حملها إليهم رسول الله ﷺ لذا فقد حذرهم من أن مصيرهم في هذه الدنيا سيكون شبيهاً بمصير فرعون إذا لم يؤمنوا بدعوة الرسول ﷺ ويسلموا أمرهم الى الله تعالى . [سورة الصافات ، الآيات :30-40؛ سورة النازعات ، الآيات : 15-37،26-39؛ سورة الفجر ، الآيات:10-12؛ سورة المزمل ، الأيتان 15-:16؛ سورة ص ، الآيتان : 55-56 ]

وقد عد القرآن الكريم (فرعون) الذي كان ملكاً على مصر القديمة في عهد نبي الله موسى عليه السلام نموذجا لحكم الطغاة لأنه رفض الإيمان بالرسالة التي جاء بها موسى عليه السلام ، ودعا قومه لعبادته بدلاً من الله تعالى. وفضلاً عن ذلك فانه كان قد قسم قومه إلى شيع وأحزاب متنافره، كما اضطهد بني إسرائيل لأنهم آمنوا بالرسالة الدينية التي جاءهم بها موسى عليه السلام .

8. الأنبياء – الملوك : لقد تحدث القرآن الكريم عن النبي داؤد والنبي سليمان (عليهما السلام) اللذين حكما بني اسرائيل بصفتهما نموذجاً لحكم (الأنبياء – الملوك) الصالحين ، وذلك لأنهما حكما قومهما طبقاً لأوامر الله تعالى ونواهيه . [سورة طه ، الآيات : 43-81؛ سورة النازعات ، الآيات : 15-26، 26-40 ]

ويبدو أن القرآن الكريم كان يستهدف من خلال تقديم هذا النموذج ، إعداد الرسول ﷺ وأصحابه لإنشاء مجتمعهم المستقل عن المجتمع المكي الذي سيحكم طبقاً للأوامر الإلهية التي جاءت إلى محمد ﷺ عن طريق الوحي كما حصل في الماضي لبني إسرائيل في عهد الملوك الأنبياء.

في نهاية العهد المكي أصبحت صورة المجتمع الإسلامي الجديد واضحة ، بالنسبة إلى المسلمين وخصومهم . وكانت أهم الملامح

والسمات التي تميز أفراد هذا المجتمع ، أنهم مسلمون ، يخضعون لله ويخشونه ، ويتقربون إليه تعالى بالصلاة وغيرها من العبادات وأعمال البر ، وهم في الوقت نفسه عادلون في تعاملهم مع الناس ، ويحبون الإحسان إلى غيرهم ، ويساعد بعضهم بعضاً . كما أنهم يحترمون عهودهم ويلتزمون بتنفيذها . [ سورة النحل، الآية :90 ] أما إدارة شؤونهم بوصفهم جماعة ، فكانت تتم عن طريق (الشورى) ، وقد وصف القرآن الكريم حالة المؤمنين من هذه الناحية بقوله :﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ(37) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ.﴾ . [ سورة الشورى ، الآيتان : 37-38 ]

ويلاحظ أن القرآن الكريم كان طوال العهد المكي يحث المسلمين على تحمل أذى المشركين وعدم الرد على عدوانهم بالمثل . غير أنه قبيل هجرة المسلمين إلى يثرب بقليل نزل عدد من الآيات القرآنية التي تسمح لهم بالرد على إساءة المشركين وعدوانهم . [ سورة الشورى ، الآيات : 39 –44]كما أكدت حقهم في الثأر ممن ظلمهم . [سورة الاسراء ، الآية : 33 ] وتعد هذه الآيات مقدمة وتمهيداً لنزول الآيات التي تسمح للمسلمين باستخدام القوة في مجاهدة أعدائهم من المشركين الذين بدأوهم بالعدوان واضطهدوهم مدة طويلة من الزمن.

## تكامل المجتمع الإسلامي في المرحلة المدنية وتوسعه :

حينما هاجر الرسول ﷺ وأصحابه المكيون إلى المدينة كانت الملامح العامة للمجتمع الإسلامي الجديد قد أخذت صورها الواضحة كما قدمنا ، وان كان عدد أفراده لا يزال قليلاً ، إذ قدر عدد المهاجرين بنحو سبعين مهاجراً ، فإذا أضفنا إليهم بعض من كان مهاجراً إلى الحبشة ومن حبس في مكة ، فإن عددهم سيكون نحو مائة وخمسين مسلماً.

ويلاحظ أن المسلمين الأولين كانوا يمثلون جميع فئات المجتمع المكي ، ففيهم الرجال والنساء، والأحرار والموالي والرقيق ، كما أنهم كانوا يضمون في صفوفهم أفراداً من جميع العشائر التي تتألف منها قبيلة قريش . وهكذا فإن المجتمع الإسلامي الجديد الذي هاجر أفراده من موطنهم الأول مكة إلى موطنهم الثاني المدينة كان يمثل الفئة المؤمنة الواعية من أفراد المجتمع القديم .

لقد شهدت المرحلة المدنية من تاريخ الدعوة الإسلامية عمليتين خطيرتين في مجال بناء المجتمع الإسلامي الجديد وتطوره ، إذ

أدت هجرة المسلمين المكيين ومعظمهم كانوا ينتمون إلى قبيلة قريش إلى عملية توحيدهم مع سكان المدينة القدماء من الأوس والخزرج واليهود في إطار (الأمة الواحدة) ، كما أدت هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة بصفته رسول الله الذي آمن المسلمون به وأسلموا قيادهم إليه إلى ظهور السلطة السياسية المستقلة للمجتمع الإسلامي الجديد ونشوء دولة المدينة .

إن دراسة النصوص التي أوردها المصادر التاريخية عن هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة تشير إلى أن أهل المدينة قد استقبلوا الرسول ﷺ ليس بصفته لاجئاً يبحث عن الحماية ، وإنما بصفته رسولاً وقائداً للمسلمين الذين بايعوه بيعتي العقبة الأولى والثانية وأعلنوا استعدادهم لطاعته والخضوع لأوامره. أما غير المسلمين فانهم لم يظهروا معارضة لقيادة الرسول ﷺ بعد وصوله إلى المدينة مباشرة ، الأمر الذي عد بمثابة اعتراف ضمني بقيادته. وإن مما عزز من موقف الرسول ﷺ في المدينة وساعده على تولي القيادة فيها أن أهل المدينة كانوا منقسمين على أنفسهم انقساماً شديداً ، و لم يكن في المدينة زعيم معترف بزعامته من قبل جميع أهل المدينة.

وهكذا فإن الرسول ﷺ قد أصبح الرئيس الأعلى للمدينة وأخذ يمارس سلطته في إدارة شؤونها بالتعاون مع النقباء الاثني عشر من زعماء الأنصار فضلاً عن بعض كبار المهاجرين وفي المقدمة منهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب ﷺ.

ومع ظهور السلطة السياسية الموحدة في المدينة تكاملت لها "الشروط الضرورية كافة لقيام (دولة – مدينة) ، فقد كان لهذه المدينة (شعب) مؤلف من الأوس والخزرج والمهاجرين واليهود ، وهم يقيمون إقامة دائمة على (إقليم) مدينة يثرب ، ويحكمهم الرسول محمد ﷺ بمساعدة ممثلي الأوس والخزرج والمهاجرين ، وقد كانت هذه المدينة (مستقلة) أي غير خاضعة لدولة أجنبية".

ويلاحظ أن دولة – المدينة كانت ضعيفة في بداية نشأتها ، لأن شعبها كان منقسماً إلى فئات متعددة : أوس و خزرج ، ومهاجرين من مكة ، ويهود . كما أن السلطة الناشئة لم تتمتع بكامل تأييد هذا الشعب لإختلاف مواقف الفئات التي يتألف منها . لذا كان على الرسول ﷺ أن يبذل جهوداً كبيرة من أجل تقوية مركزه وسلطته في المدينة . كما كان عليه أن يتخذ عدداً من الإجراءات الضرورية لتوحيد شعبه . وكانت أهم الإجراءات التي إتخذها ما يأتي :

1. **بناء المسجد** : لقد كان الرسول ﷺ قائداً دينياً قبل كل شيء (رسول الله) ، وقد استمد من هذا المركز سلطاته السياسية والإدارية والقضائية . لذا كان من الطبيعي أن يعمد بعد وصوله إلى المدينة مباشرة إلى بناء المسجد . ثم قام ببناء

مسكنه بجواره ومن المسجد قاد الرسول ﷺ أفراد المجتمع الإسلامي الناشئ، ليس في مجال الصلاة والعبادات فحسب، بل في مجالات الحياة كافة.

2. **المهاجرون والأنصار** : من أجل توحيد مسلمي المدينة ، قام الرسول ﷺ بإطلاق اسم جديد عليهم ليحل محل الأسماء القبلية التي كانت مرتبطة بالانقسامات والصراعات. فبدلا من تسمية الأوس و الخزرج القبلية أطلق على مجموع مسلمي المدينة تسمية (الأنصار) ، لأنهم نصروا إخوانهم المهاجرين من مكة فمنحوهم الحماية والمساعدة . كما أطلق على المهاجرين من قريش وغيرها تسمية (المهاجرين) ، لأنهم هاجروا من ديارهم ، وبذلك أصبح المجتمع الإسلامي في المدينة يتألف من المهاجرين والأنصار.

3. **المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار** : في السنة الأولى للهجرة ، عقد الرسول ﷺ عهد المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك. وكان الهدف منه توحيد المسلمين على أساس رابطة العقيدة التي تقدمت على الرابطة القبلية في تكوين المجتمع الجديد . كما أراد الرسول ﷺ من عقد المؤاخاة زيادة التلاحم بين المهاجرين والأنصار، وحل المشكلات الاجتماعية والاقتصادية التي أخذت تواجه المهاجرين بعد وصولهم إلى المدينة.

وقد نص عقد المؤاخاة على أن يكون كل مهاجر أخاً لأحد الأنصار، ثم يصبح من الواجب أن يساعد أحدهما الآخر، كما يكون من حق أحدهما أن يرث الآخر عند وفاته.

وحين تحسنت الظروف الاقتصادية للمهاجرين بسبب الغنائم التي حصل عليها المسلمون إثر انتصارهم في معركة بدر في السنة الثانية للهجرة ، نص القرآن الكريم على إلغاء حق التوارث بين المهاجرين والأنصار ، ورد التوارث إلى قرابة الدم وأبقى على الحقوق المترتبة على الأخوة في الدين التي تربط بين المسلمين جميعاً.

4. **إعلان الصحيفة (دستور المدينة)** : بعد أن استقر الرسول ﷺ في المدينة وآخى بين المهاجرين والانصار سعى لتنظيم العلاقات بينه وبين جميع الفئات التي كانت تعيش في المدينة فكتب كتاباً بينهم يتألف من نحو خمسين فقرة لتنظيم هذه العلاقات. وقد اتسم هذا الكتاب بالشمول من حيث تنظيمه العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية. لذا وصفه كثير من الكتاب المعاصرين بأنه (دستور المدينة) [ التفاصيل ابن هشام" 1955 " 501-506 ]. وقد عالج هذا الكتاب الامور الآتية:

1. **الأمة:** عد دستور المدينة جميع المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب " ومن تبعهم، ولحق بهم ، وجاهد

معهم ، أنهم أمة واحدة من دون الناس ". وبذلك لم تعد المدينة مقصورة على المهاجرين والأنصار وحدهم وإنما تضم فضلا عنهم كل من ارتضى أن يكون معهم من مشركي الأوس والخزرج والعشائر اليهودية المتحالفة معهم . لأن يهود هذه العشائر كانوا يعدون (أمة مع المسلمين) أو أنهم (أمة من المسلمين) بحسب الرواية التي أوردها ابن سلام.

يتضح مما تقدم ، أن الأمة الناشئة في المدينة هي كيان (سياسي – اجتماعي) ، يختلف عن القبيلة من حيث إن القبيلة تقوم على رابطة الدم والقرابة بين أفرادها ، في حين تتجاوز الأمة حدود الروابط القبلية لتضم في إطارها أكثر من قبيلة . كما إن الامة تتخذ من العقيدة الدينية ، أو الولاء السياسي لها أساساً للترابط بين أفرادها . فهي من هذه الناحية أوسع من مفهوم الملة أو الجماعة الدينية التي تكون مقصورة على أتباع ديانة واحدة . وبذلك كانت الأمة حسبما حددها دستور المدينة صيغة وسطاً ، أو صيغة ثالثة بين الجماعة الواحدة التي تعتنق ديناً واحداً وبين الجماعة التي أرسل الله لها رسولاً سواء آمنوا به أم لم يؤمنوا .

إن الامة الجديدة هي الجماعة التي ارتضت أن تعيش في إطار النظام الإسلامي وتحت قيادة الرسول ﷺ سواء أكان أفرادها قد آمنوا بالرسالة الإسلامية أم لم يؤمنوا بها بعد . وهكذا شكلت الأمة الإطار السياسي الذي تعيش فيه جميع الفئات التي ارتضت أن يمثل الإسلام الإطار الفكري (الآيديولوجي) الذي تعيش فيه حياتها السياسية.

إن هذه الحقيقة ، قد جعلت المسلمين من المهاجرين والأنصار يشكلون النواة المركزية للأمة التي تعمل على تحقيق أهدافها والجهاد في سبيلها ، في الوقت الذي ينتظر من الفئات الأخرى من مشركين ويهود أن يؤدوا دوراً مساعداً ومسانداً للمسلمين.

إن الأمة في صيغتها التي نص عليها دستور المدينة قد جعل منها اطاراً سياسياً مفتوحاً لانضمام كل الأفراد والجماعات التي ترتضي الحياة في إطارها ، وبذلك أفسحت مجال النمو والتطور لدولة المدينة لتتحول إلى دولة كبرى تضم معظم القبائل في أواخر حياة الرسول ﷺ ، ثم لتتسع وتتحول في عهد الخلفاء الراشدين إلى دولة عالمية تضم شعوباً وقبائل متنوعة تعيش جميعاً في إطار النظام الإسلامي .

ويلاحظ هنا ، أن الرسول ﷺ لم يستخدم مصطلح (دولة) لوصف السلطة الناشئة في المدينة ، وإنما استخدم مصطلح أمة الذي يحمل معنى أوسع من معنى دولة أما مصطلح دولة فقد استعمل في العصور الإسلامية التالية بمعنى الأسرة الحاكمة نحو قولهم دولة بني أمية ودولة بني العباس.

بعد هذا التوضيح لمصطلح أمة ، فقد بات من الضروري أن نعرض لمضمون الفقرات التي وردت في الصحيفة (دستور المدينة) والتي تنظم العلاقات بين المؤمنين والمسلمين من أهل المدينة :

1. ان العلاقات بين المؤمنين من مهاجرين وأنصار الذين تضمهم الامة تقوم على أساس التكافل والتضامن . لذا فإن من الواجبات الملقاة على عاتق المؤمنين كافة ، ألا يتركوا أسيراً منهم بين الأعداء من دون أن يبادروا إلى تحريره عن طريق دفع الفدية.
2. عد دستور المدينة جميع المسلمين متساوين ، ومن ثم ، فإن من حق أي واحد منهم أن يمنح (الجوار) لمن يستجير به من الغرباء ، وإن من واجب جميع المسلمين أن يحترموا هذا التصرف.
3. لا يجوز لأي مسلم أن يتحالف مع (مولى) مسلم آخر من دون أخذ موافقته على ذلك دفعاً لأسباب الخلاف والنزاع بين المسلمين.
4. إذا اقترف أحد الأفراد جريمة قتل ضد أحد المسلمين فهو يعاقب بالقتل ، إلا أن يعفو ولي المقتول عنه ويوافق على أخذ الفدية.
5. على جميع المؤمنين أن يتعاونوا في تنفيذ العقوبات ضد الجناة حتى لو كان الجاني ولد أحدهم ، وبذلك لم يعد ثمة مكان في الأمة الجديدة للعصبية وعادة أخذ الثأر.
6. إن على المسلمين أن يتعاونوا ويتضامنوا في أوقات السلم وأوقات الحرب.

2. **تنظيم العلاقات القبلية** : اعترف دستور المدينة بالكيانات القبلية والعشائرية التي كانت قائمة في المدينة ، وتعامل معها بوصفها وحدات إدارية في داخل الأمة الواحدة . ومن ثم فهي تخضع للسلطة العليا للرسول ﷺ بصفته القائد الأعلى للأمة .

وهكذا فقد عد دستور المدينة المهاجرين وحدة قبلية إلى جانب بقية القبائل الموجودة في المدينة . وكان من واجبات هذه الوحدات القبلية بحسب نصوص دستور المدينة، المحافظة على التعاون والتضامن بين أبناء كل قبيلة كما كانوا يفعلون سابقاً . وأن يتحملوا جميعاً أعباء (فدية) أبناء القبيلة الذين يقعون في الأسر من أجل تحريرهم ، كما أن عليهم أن يساعدوا الأفراد المثقلين بالديون من أجل وفاء دينهم كي لا يصبحوا بمثابة أسرى عند دائنيهم.

3. **تنظيم العلاقات مع اليهود** : عد دستور المدينة كل عشيرة من العشائر اليهودية في المدينة جماعة قائمة بذاتها ، إلا أنها في الوقت نفسه تكون أمة من المؤمنين.

وقد نظم دستور المدينة العلاقات بينهم وبين المؤمنين على وفق المبادئ الآتية :

1. اعترف دستور المدينة لليهود بحرية ممارسة عقيدتهم.
2. لا يجوز لأحد أن يقوم بالاعتداء على أحد من يهود المدينة أو حلفائهم.
3. إذا ارتكب أحد اليهود اعتداء أو جريمة ضد أحد أبناء المجتمع فمسؤولية ذلك تقع عليه وحده
4. على اليهود أن يشاركوا المؤمنين في الدفاع عن المدينة ، وعليهم أن يساعدوهم في مقاومة أعدائهم.
5. على اليهود أن لا يتحالفوا مع قريش وحلفائها ، والا يوافقوا على حماية تجارتهم.
6. على اليهود أن لا يحاربوا أحداً أو يوافقوا على الاشتراك في حرب أي جماعة دون موافقة محمد رسول الله ﷺ.
7. إذا وقعت أية منازعة خطيرة بين اليهود أو بينهم وبين الآخرين من أهل المدينة فيجب أن تعرض على الرسول ﷺ ليفصل فيها.
8. إن جميع الحقوق والالتزامات المذكورة آنفاً تسري على حلفاء اليهود في المدينة

## مركز الرسول ﷺ وعلاقته مع أهل المدينة :

تحددت علاقات الرسول ﷺ مع أهل المدينة بحسب أحكام دستور المدينة على وفق الأسس الآتية :

أ-إن مركز الرسول ﷺ في المدينة وعلاقاته بأهلها قد نظمتها حقيقة أنه رسول الله . ومن ثم ، فقد نص دستور المدينة على أن يثرب هي (حرم آمن) لأنها مدينة الرسول.

ب-أقر دستور المدينة أن الرسول ﷺ يعد (حكماً) بين أهل المدينة وله الكلمة النهائية في فض المنازعات التي تحصل بينهم.

ت-إن مجموع نصوص دستور المدينة قد تعامل مع الرسول ﷺ بصفته الرئيس الأعلى لأهل المدينة وصاحب الحق في اتخاذ القرار النهائي في امور الحرب والسلام.

## الجهاد وسيادة المجتمع الإسلامي في الجزيرة العربية :

إن الاجراءات التي أتخذها الرسول ﷺ بعد هجرته الى المدينة والتنظيمات التي أعلنها في الصحيفة (دستور المدينة) قد منحت المجتمع الإسلامي الجديد ملامحه العامة ، و لم تبق سوى التفاصيل ولاسيما في مجال التشريعات القانونية والدينية التي تواصل نزول الوحي بها على الرسول ﷺ حتى نهاية المرحلة المدينة .

أما على مستوى حماية هذا المجتمع ونموه وامتداده ، فقد شكلت الهجرة إلى المدينة نقطة تحول كبرى في حياته ، إذ تحول بعد الهجرة من مجتمع مضطهد يعيش تحت سلطة أعدائه في مكة ، إلى (أمة) مستقلة ، تعيش وتنمو وتتوسع تحت قيادة الرسول ﷺ . ومن ثم فقد أصبح في إمكان هذه (الأمة – الدولة) أن تواجه أعداءها بالقوة إذا اقتضت الضرورة،

بعد أن كانت تكتفي بالصبر والمسامحة . لذا لم يعد (الجهاد) في سبيل الله مقصوراً على بذل الجهد في سبيل نشر الدعوة عن طريق الكلمة والإقناع ، بل انضاف إليها بذل الجهد في استعمال السيف في قهر الأعداء في ميدان القتال . وقد أوضح القرآن الكريم هذا التحول ودوافعه بقوله : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ(39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(40)الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [ سورة الحج ،الآيات : 39-41]

يتضح من الآيات المذكورة آنفاً أن الله تعالى أذن للأمة الناشئة أن تلجأ إلى السيف لمواجهة قبيلة قريش التي اضطهدت المسلمين ومنعتهم من حقهم في ممارسة شعائر دينهم والدعوة إلى الله ، وأخرجتهم في النهاية من موطنهم تحت وطأة الضغط والإكراه . لذا فقد شرع الرسول ﷺ بعد استقراره في المدينة في تنظيم سرايا مسلحة من أصحابه للقيام باعتراض قوافل قريش التجارية ومصادرتها. ويبدو أن الرسول ﷺ كان يستهدف من هذا العمل توجيه ضغط اقتصادي على زعماء مكة من أجل حملهم على تغيير موقفهم من المسلمين وإقامة علاقات طبيعية معهم . إلا أن قريشاً رفضت الخضوع لهذا الضغط ولجأت إلى المواجهة المسلحة ضد المسلمين ، مما أدى إلى حصول معركة بدر في السنة الثانية من الهجرة حيث تحقق فيها انتصار كبير للمسلمين.

وقد حمل هذا الانتصار قريشاً على إعداد أقصى ما تستطيع من قوة للثأر من المسلمين ، وقد تم لها ما أرادت في معركة أحد التي وقعت في السنة الثالثة للهجرة. ثم واصلت قريش جهودها في جمع الأنصار والحلفاء ، الأمر الذي ساعدها على حصار المدينة في غزوة الأحزاب في السنة الخامسة للهجرة ، ولكنها فشلت في اقتحام المدينة.وبذلك عدت نتيجة هذه الغزوة انتصاراً للمسلمين .

ويلاحظ أن القبائل اليهودية في المدينة (بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة) قد استغلوا ظروف الصراع بين المسلمين ومشركي مكة فنقضوا العهود المبرمة بينهم وبين المسلمين وخرجوا على أحكام دستور المدينة ، فاضطر الرسول ﷺ إلى اجلائهم عن المدينة الواحدة تلو الأخرى والتنكيل ببني قريظة خاصة . وبذلك لم يعد لليهود في المدينة وجود مؤثر ، واستمر الرسول ﷺ يتعامل مع اليهود الذين لم ينقضوا العهد بوصفهم معاهدين يعيشون في ذمة المسلمين وحمايتهم.

أما قريش ، فقد حاول الرسول ﷺ أن يستغل ظروف انكسارهم في غزوة الأحزاب. فقام في السنة السادسة للهجرة بقيادة حملة مؤلفة من نحو ألف وأربعمائة مسلم وتوجه بها إلى مكة ليس لغرض الحرب والقتال وانما لأداء العمرة وتشجيع قريش على الدخول في علاقات سلمية مع المسلمين . إلا إن قريشاً رفضت هذه المبادرة ، وهددت باستخدام السلاح لمنع المسلمين من دخول مكة . غير انها اضطرت في النهاية تحت ضغط حلفائها الذين استنكروا موقفها من المسلمين الذين جاؤوا مكبرين وزائرين لبيت الله الحرام إلى مفاوضة المسلمين وتوقيع صلح الحديبية معهم.

إن صلح الحديبية قد ضمن للمسلمين الحق في زيارة الكعبة في السنة التالية ، والحق في نشر الدعوة الإسلامية بين القبائل العربية ، مما فتح للرسول ﷺ المجال في كسب مزيد من الانصار والحلفاء والقضاء على معارضة بعض الخصوم الألداء كيهود خيبر . وبذلك أصبحت (الأمة) الجديدة مهيأة لمواجهة أي قوة تقف في وجهها أو تتحداها في الجزيرة العربية.

وتأكيداً لهذا الواقع ، فان قريشاً ما كادت تخل بأحد بنود صلح الحديبية في السنة الثامنة للهجرة حتى توجه الرسول ﷺ على رأس جيش مؤلف من عشرة آلاف مقاتل وفتح مكة من دون مقاومة يعتد بها. وبذلك تمكن من وضع حد لمقاومة قريش للدعوة الإسلامية التي استمرت عشرين عاماً . وهكذا فقد أقبل زعماء مكة وأبناؤها على مبايعة الرسول ﷺ والدخول في الإسلام بعد أن تبين لهم بالدليل العملي الملموس فساد معتقداتهم الوثنية ووهن الأسس التي كان يقوم عليها مجتمعهم الجاهلي القديم .

لقد كانت مكة عاصمة الشرك في شبه الجزيرة العربية ، ومن ثم فقد أدى فتحها ودخول أهلها في الإسلام الى دخول بقية بلاد العرب في الإسلام بسهولة ويسر ... ، فلم تلبث مدينة الطائف أن جاءت مسلمة ، ثم أخذت القبائل العربية ترسل الوفود إلى الرسول ﷺ لمبايعته على الإسلام ، حتى لقد أطلق على السنة التاسعة للهجرة عام الوفود لكثرة الوفود العربية التي وفدت على المدينة لمبايعة الرسول ﷺ على السمع والطاعة والدخول في الإسلام. لذا أعلن القرآن الكريم في هذا العام إلغاء الشرك من جزيرة العرب ، وحرم على المشركين زيارة الكعبة [ سورة التوبة ، الآيات :1-8 ] . وبذلك أصبح الإسلام هو العقيدة الإسمية للعرب وللأمة الجديدة تصديقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ . [سورة الأنبياء : الآية : 92 ]

وفي الختام ، فإن للقارئ المدقق أن يتساءل كما تساءل كاتب هذه السطور : أمن المعقول أن تكون الآلاف المؤلفة من

مشركي العرب قد آمنوا بالدين الجديد عن إيمان وقناعة و عزم على الإلتزام بأحكام الدين الجديد جملة وتفصيلاً أم أن في الامر غموضاً وهو بحاجة إلى شرح ؟

في الحقيقة ، إن الايمان واختيار العقيدة الصحيحة أمر شاق وعسير وهو يتطلب مستوىً من الفهم العميق ، وقدراً من الشعورالمرهف ، وعزماً وشجاعة لا يستطيع الجمع بينها إلا عدد قليل من الأفراد المتميزين في كل زمان ومكان . وكان الرسول ﷺ وصحابته الأولون خير من يمثل هذه الصفوة من الناس في ذلك الزمان .

أما عامة الناس ، فإن مستوى مداركهم العامة وطبيعة مشاغلهم الحياتية ، تجعلهم لا يهتمون بتفاصيل أمور العقيدة إلا قليلاً ، وهم يميلون إلى تقليد ما وجدوا عليه آباءهم واجدادهم وكبراءهم. لذا فقد جارى غالبية الناس زعماءهم في معارضة الدعوة الإسلامية ومحاربتها... واستمروا على هذا الحال حتى ضعفت شوكة زعمائهم وانهارت قدرتهم على مقاومة رجال الدين الجديد سواءً على مستوى المبادئ والحجج ، أم على مستوى القوة والقتال. عند ذلك ، وجد معظم العرب أن الحكمة والمصلحة تدعوهم إلى الدخول في الدين الجديد. فدخلوا فيه ما بين مؤمن مصدق , ومسلم خاضع ، ومسلم طامع .

وقد أثبتت حركات الردة التي ظهرت قبيل وفاة الرسول ﷺحقيقة هذا التفسير ، وهو تفسير سبق إليه القرآن الكريم حين أشار الى ظاهرة النفاق والمنافقين التي ظهرت في المجتمع الإسلامي في المرحلة المدنية [ سورة التوبة 64-73،70-110؛ سورة الاحزاب 10-60،20-73] . كما أشار إلى أن ليس كل من نطق بكلمة الإيمان غدا مؤمناً : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ . [ سورة الحجرات , الآية : 14]

ولا شك ، أن الرسول ﷺ كان مدركاً لهذه الحقيقة وهو يرى جموع العرب والأعراب تدخل في الإسلام . ولكن ، ما الذي كان بوسعه أن يصنعه لمعالجة هذه الظاهرة سوى أن يرسل المعلمين والمرشدين ليعلموا الناس القرآن ، ويرشدوهم إلى سبل العمل الصالح والالتزام الدقيق بأوامر الدين . وقد فعل ، وكان في فعله محكوماً بحدود إمكانيات عصره وبيئته ....، وترك ما وراء ذلك إلى الزمن ، فكان خير علاج في مجال تعميق أسس الهداية والإيمان في النفوس .

**أ.د. عبد العزيز الهلابي**

**أ.د هاشم يحيى الملاح**

# المصادر والمراجع

## المصادر الأولية :

القران الكريم

الأزرقي ، محمد بن عبد الله (ت 244هـ/858م):
(1969) أخبار مكة وما جاء فيها من الاثار ، ط3 ،تحقيق رشدي ملحس ، بيروت ، دار الاندلس.

البلاذري ، أحمد بن يحي (ت279هـ/892)
(1959) أنساب الاشراف ، الجزء الاول ، تحقيق محمد حميد الله ، القاهرة ، دار المعارف .

ابن حجر العسقلاني ، أحمد بن علي (ت 852هـ/1448م) (2000) فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، ط3 ، الرياض .

الخزاعي ، علي بن محمد بن مسعود (ت 789هـ/1387م) (1985) تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية ، تحقيق دكتور إحسان عباس ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي .

ابن الديبع ، الشيباني عبد الرحمن بن علي (ت 944هـ/1537) (1934) تيسير الؤصول إلى جامع الاصول، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

الذهبي ، محمد بن أحمد (ت748هـ/1374م)،
(1981) سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الارناؤوط ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، 1401هـ/1981م، جمع وتحقيق محمد مصطفى الأعظمي ، الرياض، مكتب التربية العربي لدول الخليج .

ابن الزبير ، عروة بن الزبير بن العوام (ت 93هـ/711م)
(1981) مغازي رسول الله، جمع وتحقيق محمد مصطفى الأعظمي ، الرياض ، مكتب التربية العربي لدول الخلي.

ابن إسحاق ،محمد بن إسحاق بن يسار (ت151هـ/768م)
(1976) المغازي والسير ، تحقيق محمد حميد الله ، الرباط ، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب .

ابن سعد ، محمد بن منيع (ت230هـ/844م)،
(1957/1958 ) الطبقات الكبرى،بيروت،دار صادر.

السمهودي، علي بن أحمد (ت911هـ/1505م)،
(1981) وفاء الوفا باخبار دار المصطفى ، بيروت ، دار احياء التراث .

ابن سيد الناس ، محمد بن عبد الله بن يحيي (ت 734هـ/1333م) (1986) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير .

السيوطي جلال الدين (ت 911هـ/1505م)
(1951) الإتقان في علوم القرآن،القاهرة ، مطبعة حجازي .

الطبري ، محمد بن جرير (ت 310هـ/922م)
(1967) تاريخ الرسل والملوك تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة ، دار المعارف.
(1954) جامع البيان في تفسير القرآن ، القاهرة ، مصطفى البابي الحلبي .

أبو عبيد القاسم بن سلام (ت224هـ/838م)،
(1981) كتاب الأموال ، تحقيق محمد خليل هراس ، القاهرة ،مكتبة الكليات الازهرية .

القرطبي ، محمد بن أحمد الانصاري (ت 671هـ/1272م)
(1952) الجامع لأحكام القرآن ، القاهرة ، دار الكتب المصرية .

ابن كثير ، إسماعيل بن عمر (ت774هـ/1372م)
(1983) السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، بيروت ، دار المعرفة .
ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك بن هشام (ت213هـ828م)
(1955) السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، مصر .
(1997) السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، بيروت ، دار احياء التراث ، ط2
الواحدي ، علي بن أحمد (ت468هـ1076م) ،
(1987 ) أسباب النزول ، تحقيق السيد أحمد صقر، جدة ، دار القبلة للثقافة الإسلامية .
الواقدي ، محمد بن عمر (ت207هـ/823م)،
(1984)كتاب المغازي ، تحقيق مارسدن جونز ، بيروت ، عالم الكتب

**المراجع الحديثة العربية والمعربة :**

البلادي ،عاتق بن غيث
(1979) معجم معالم الحجاز ، مكة المكرمة ، دار مكة ، 1399هـ .
الحمد ، غانم قدوري ،
(1982) رسم المصحف – دراسة لغوية تاريخية ، بيروت .
دروزة ، محمد عزة ،
(1948) الرسول ، القاهرة .
(1964) عصر النبي وبيئته قبل البعثة ، بيروت .
الصالح ، صبحي
(1972) مباحث في علوم القرآن ، بيروت
السيد , رضوان
(1984) الأمة والجماعة والسلطة ، بيروت
الشريف ، أحمد ابراهيم
(1965) الدولة الإسلامية الاولى ، القاهرة.
عبد الرحمن ، هاشم يونس ،
(1992) الحياة الفكرية في شبه الجزيرة العربية قبيل الإسلام وعصر الرسالة ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب /جامعة الموصل .
علي ، جواد ،
(1961)تاريخ العرب في الإسلام السيرة النبوية بغداد .
( 1977 ) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، بيروت .
العلي ، صالح احمد :
(1955) محاضرات في تاريخ العرب الجزء الاول ، مكان النشر لم يذكر .
العمري ، أكرم ضياء :
(1994) السيرة النبوية الصحيحة ، المدينة المنورة ، مكتبة العلوم والحكم .

العوا ، محمد سليم

(1981) النظام السياسي للدولة الإسلامية ، القاهرة ، المكتب المصري الحديث .

فلهاوزن ، يوليوس

(1968) تاريخ الدولة العربية ، ترجمة : محمد عبد الهادي أبو ريده ، القاهرة .

الكتاني ، عبد الحي ،

(د.ت ) نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الادارية ، بيروت دار الكتاب العربي .

الملاح ، هاشم يحيى ،

(2002) حكومة الرسول ، بغداد، مطبعة المجمع العلمي .

(1994) الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام ، الموصل .

(2003) الوسيط في السيرة النبوية ، عمان ، دار النفائس .

المودودي ، أبو العلى

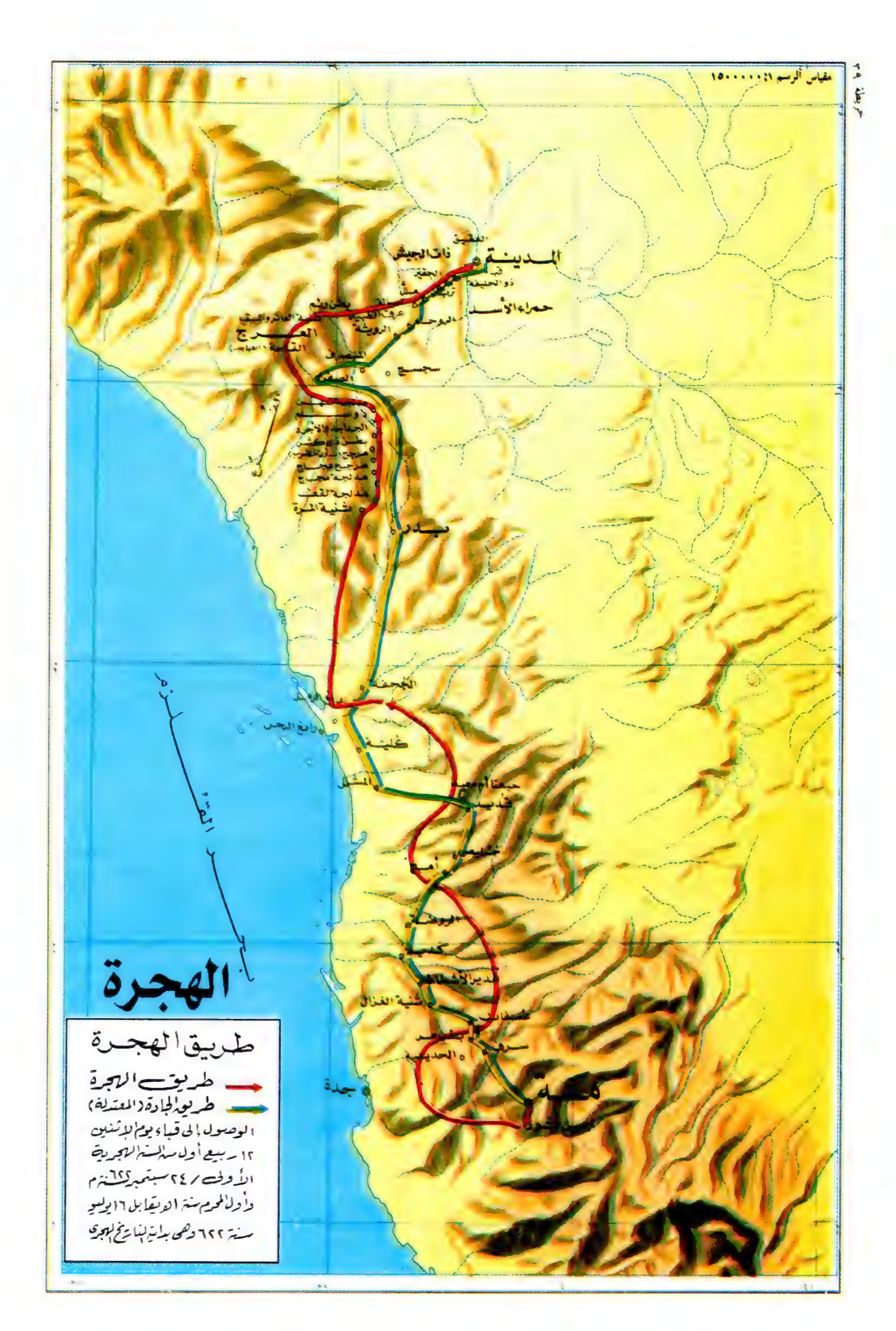
(1964) نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور ، تعريب جليل حسن الاصلاحي، دمشق.

وات ، مونتغمري

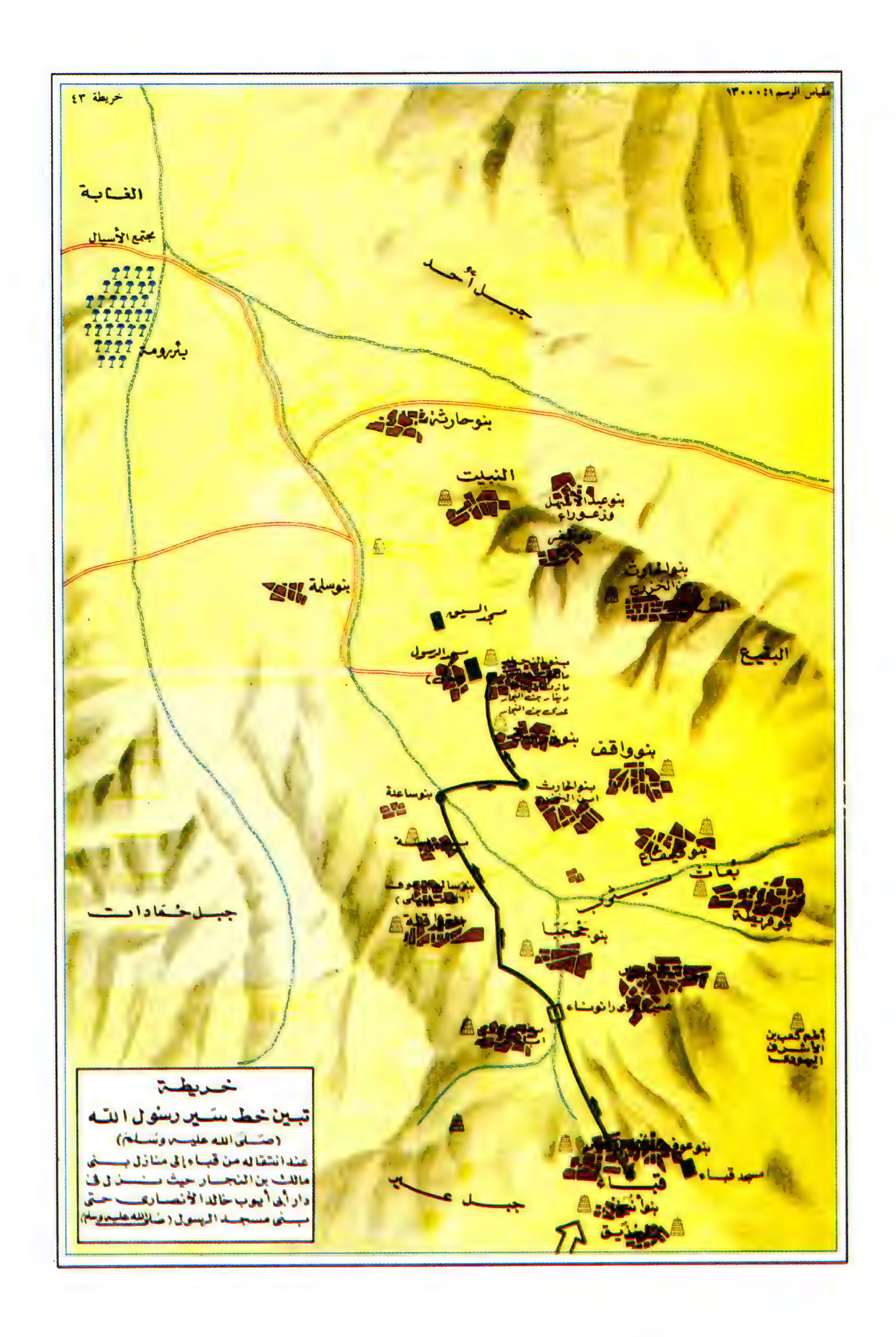
(د.ت) محمد في مكة ، تعريب : شعبان بركات ، بيروت (منشورات المكتبة العصرية).



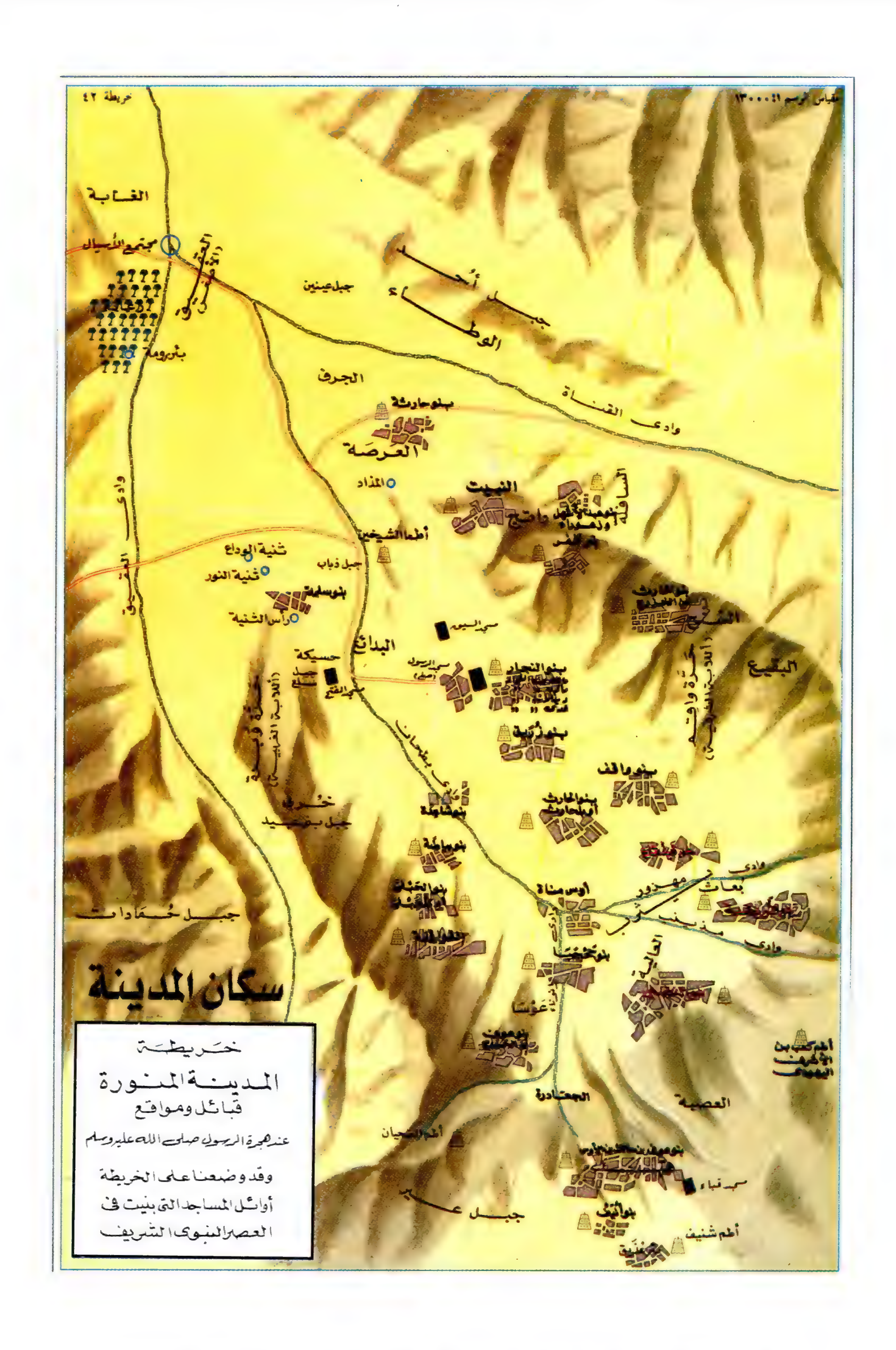

المصدر : أطلس تاريخ الإسلام - د . حسين مؤنس مطبعة الزهراء - القاهرة 1984




**المصدر** : **أطلس تاريخ الإسلام ـ د . حسين مؤنس مطبعة الزهراء ـ القاهرة 1984**

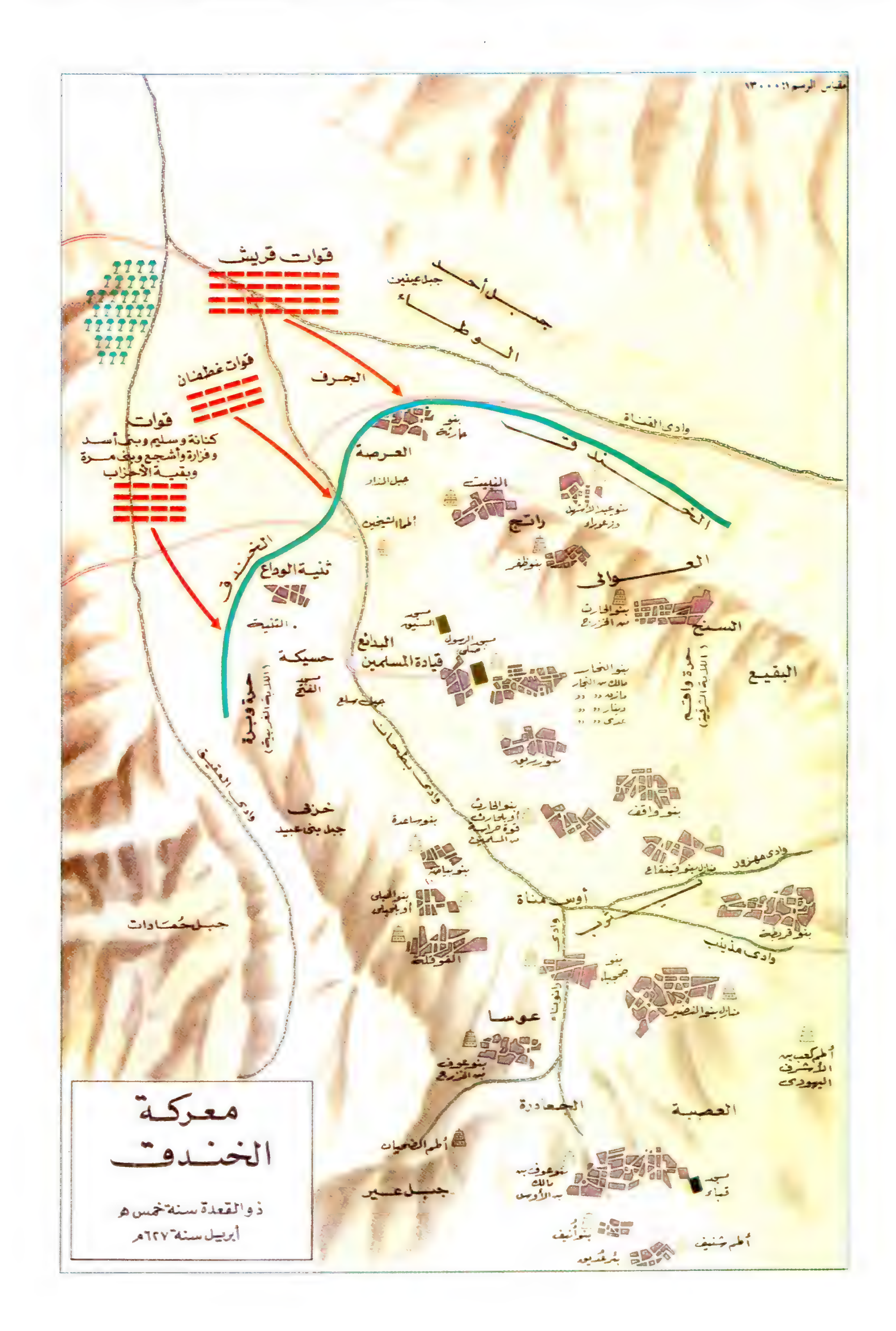



المصدر : أطلس تاريخ الإسلام - د . حسين مؤنس مطبعة الزهراء - القاهرة 1984

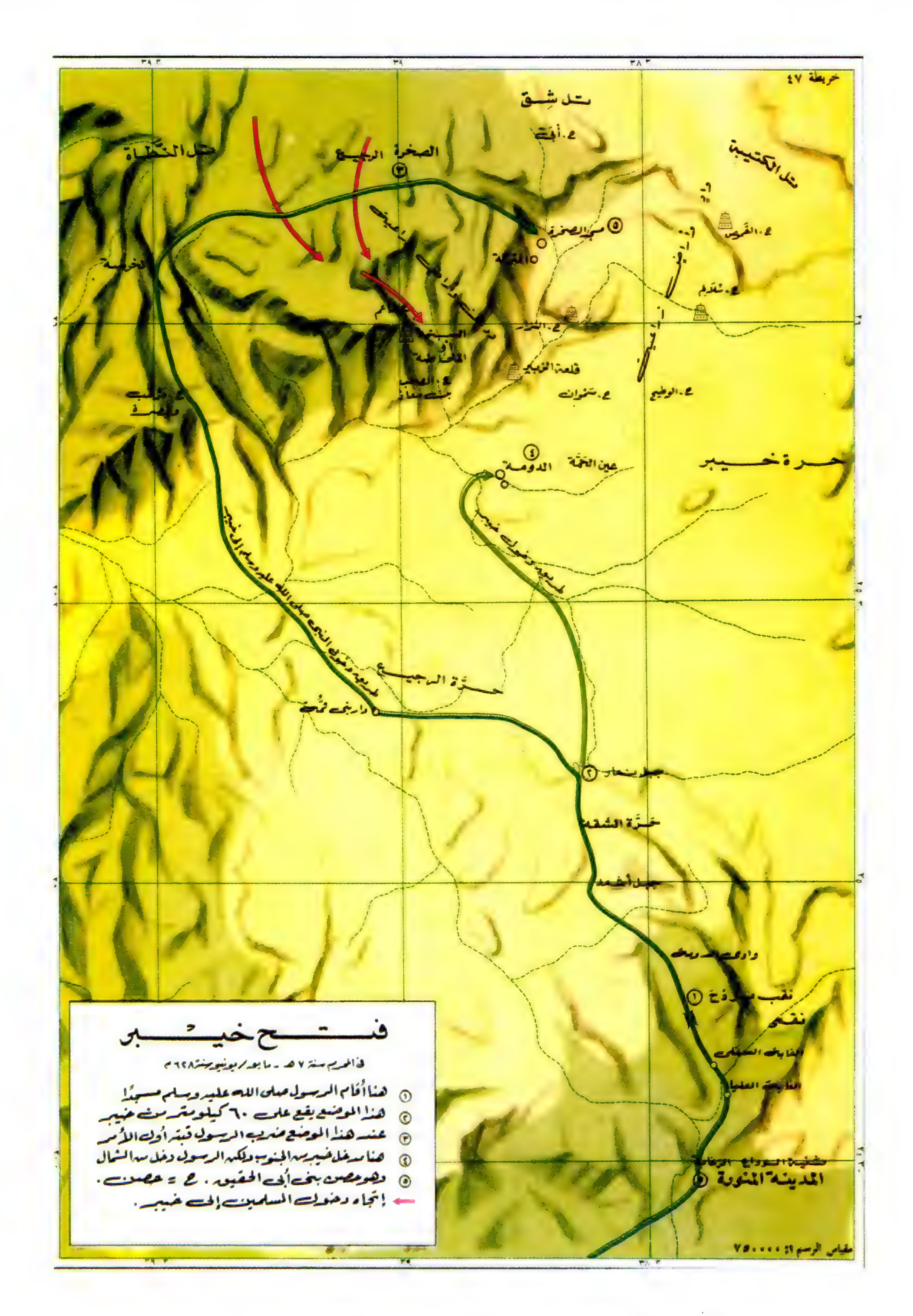



المصدر : اطلس تاريخ الإسلام ـ د . حسين مؤنس مطبعة الزهراء ـ القاهرة 1984

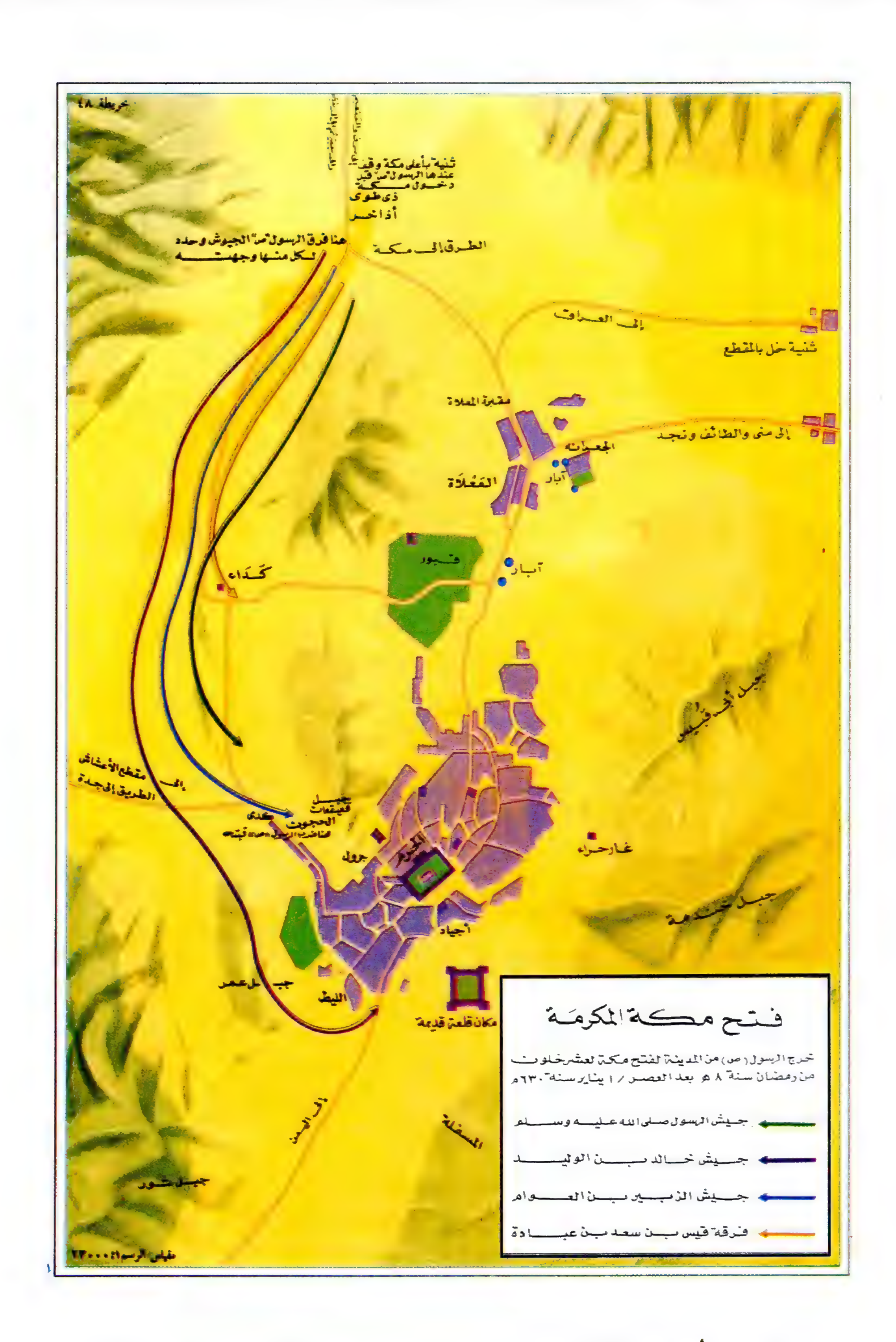
المصدر : أطلس تاريخ الإسلام ـ د . حسين مؤنس مطبعة الزهراء ـ القاهرة 1984



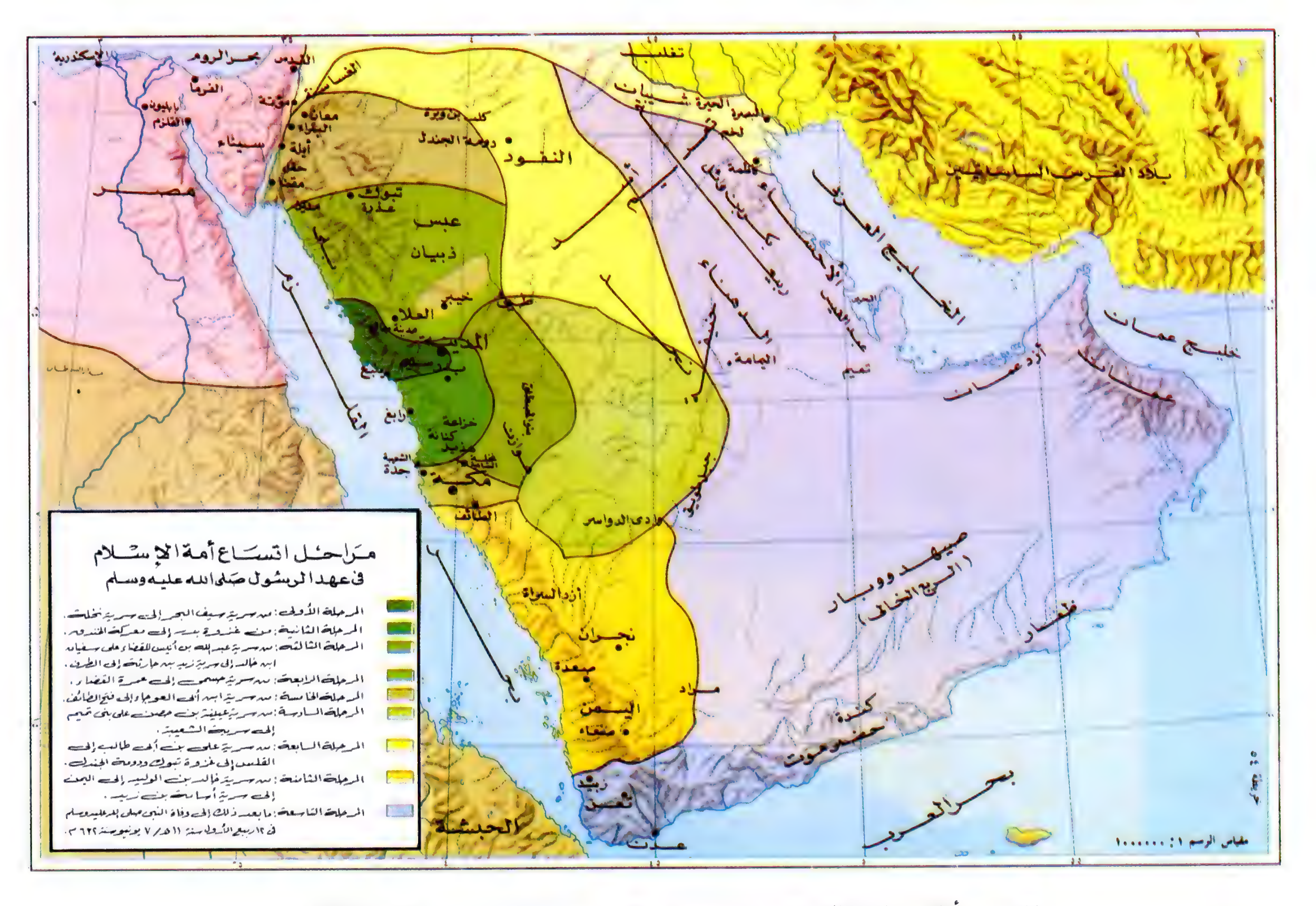

المصدر : أطلس تاريخ الإسلام - د . حسين مؤنس مطبعة الزهراء - القاهرة 1984




**المصدر : أطلس تاريخ الإسلام - د . حسين مؤنس مطبعة الزهراء - القاهرة 1984**




**المصدر** : أطلس تاريخ الإسلام ـ د . حسين مؤنس مطبعة الزهراء ـ القاهرة 1984




المصدر : أطلس تاريخ الإسلام - د . حسين مؤنس مطبعة الزهراء - القاهرة 1984

## الفصل الثالث

# الخلفاء الراشدون

أولاً : نشأة الخلافة .

ثانياً : القضاء على الردة وتوحيد الجزيرة العربية .

ثالثاً : الفتوحات .

رابعاً : أزمة الخلافة وانتقالها إلى الشام .

خامساً : تنظيم الدولة .

سادساً : المصحف الشريف .

## أولا : نشأة الخلافة

واجهت الأمة أول تحد لوجودها إثر وفاة الرسول ﷺ ، ووجدت نفسها أمام اختبار صعب يحتم عليها اختيار رئيس لها، بعد ان فقدت مؤسسها وجامع كلمتها. وهنا برزت مشكلة الحكم على سطح الأحداث لاسيما أن الرسولﷺ لم يستخلف كما لم يقرر شكلا معينا لنظام الحكم من بعده.

وتتحدث بعض الروايات عن رغبة الرسول ﷺ في العهد لابي بكر رضي الله عنه ، [ ابن سعد "د.ت" 18/3 ] إلا أنه لم يفعل، وترك هذا الأمر للأمة فقال " ويابى الله والمؤمنون إلا أبا بكر ، [ ابن سعد "د.ت" 226/2 ] " أو قوله " معاذ الله ان يختلف المؤمنون في أبي بكر" . [ البلاذري "1959" 541/1 ]

وتتحدث روايات أخرى عن رغبة الرسول ﷺ في أن يكتب للأمة كتابا لا يضلون فيه من بعده، ولكن اختلاف الحاضرين حال دون ذلك ، فأوصاهم بكتاب الله : وبامور عامة أخرى لا تمت إلى الحكم بصلة .

وتبلور موقف الجماعة الإسلامية من الحكم، بعد انتشار خبر وفاة الرسول ﷺ، حيث برز نوعان من التنافس، الاول تنافس قرشي/قبلي، والثاني تنافس قرشي/قرشي، وهو تنافس قديم تعود أصوله إلى أيام ما قبل الإسلام بالمنافسة على

وظائف السقاية والرفادة والحجابة. وقد تمثل التنافس الأول بمبادرة الأنصار وعلى رأسهم سعد بن عباده (رئيس الخزرج )، إلى الاجتماع في سقيفة بني ساعدة، معلنين حقهم في الخلافة، لانهم هم الذين حموا الرسولﷺوأصحابه، وأعزوا دينه، وجاهدوا عدوه، ودانت بأسيافهم له العرب.

ويبدو أن دعوة الأنصار كانت ارتجالية ضعيفة الجذور، زادها ضعفا تخوفهم من مكانة المهاجرين في الإسلام، فهم صحابة رسول اللهﷺ الأولون وعشرته. فضلاًعن انعدام التنسيق الداخلي فيما بينهم قبل اجتماع السقيفة. فقد أعلن ثلاثة من زعماء الأنصار عن حق المهاجرين في الحكم ، مع اعترافهم بمكانة الأنصار ودورهم في الاسلام.

وكان أول المتحدثين أسيد بن حضير الأنصاري الأوسي، فبين فضل الإسلام على الأنصار، ومكانة قريش بينهم فقال : " يا معشر الأنصار، إنه قد عظمت نعم الله عليكم إذ سماكم الأنصار، وجعل اليكم الهجرة، وفيكم قبض الرسول محمد عليه السلام، فاجعلوا ذلك شكرا لله، فان هذا الأمر في قريش دونكم، فمن قدموه فقدموه، ومن أخروه

فأخروه " وقام بشير بن سعد الأنصاري الخزرجي، وكان من أفاضل الأنصار، فاشار إلى مكانة قريش بينهم، وإلى ضعف دعوة الانصار : " يا معشر الانصار إنما أنتم بقريش وقريش بكم، ولو كان ما تدعون حقا لما اعترض عليكم فيه، فان قلتم بانا آوينا ونصرنا فما أعطاهم خير مما أعطيتم، فلا تكونوا كالذين بدلوا نعمة الله كفرا، وأحلوا قومهم دار البوار" ثم تحدث عويم بن ساعدة الأنصاري فخص أهل النبوة بالخلافة حيث قال: " فإن الخلافة لا تكون إلا لأهل النبوة، فاجعلوها حيث جعلها الله عز وجل، قال لهم دعوة إبراهيم ﷺ " أما معن بن عدي وكان أخر المتحدثين، فقد حاول حسم الأمر نهائيا لصالح المهاجرين بتسمية أبي بكر خليفة للمسلمين " ... فو الله ما مات رسول الله (صلى الله عليه وسلم ) حتى صلى بنا أبو بكر ﷺ، فعلمنا أنه قد رضيه لنا، لأن الصلاة عماد الدين". [ ابن اعثم "1968" ¼-5 ]

وهكذا ظهر التفكك بين الأنصار مبكرا لافتقادهم إلى التنسيق ووحدة الرأي.

وبرز في التنافس الثاني فئتان من المهاجرين، الفئة الأولى وتمثل الأقلية، وهم أقرباء الرسول ﷺ من بني هاشم، والفئة الثانية وتمثل الأغلبية من سائر المهاجرين. أما الفئة الأولى فقد ظهر طموحهم لتولي أمر الأمة مبكرا، والرسول ﷺ في مرضه الأخير. وتجمع الروايات على دور العباس ﷺ في إثارة موضوع خلافة الرسول ﷺ، وتاكيد حق بني هاشم في الخلافة من بعده. فيشير الزهري (ت 124 هـ/741 م) إلى محاورة العباس وعلي ﷺبخصوص هذا الأمر، والرسول ﷺ لا يزال حيا"... فانطلق بنا إلى رسول الله ﷺ فإن كان هذا الأمر فينا عرفناه، وان كان في غيرنا أمرناه فأوصى بنا الناس. قال : فقال له علي ﷺ: إني والله لا أفعل، والله لئن مُنعناه، لا يؤتيناه احد بعده " [ابن هشام "د.ت" 654/4 ] وقريب من ذلك رواية للواقدي (ت 207 هـ/ 822 م) عن محاولة العباس ﷺإقرار حق بني هاشم في الخلافة في حياة الرسول ﷺ، ولكن مرة اخرى يلاحظ ان تخوف علي ﷺمن رفض الرسول ﷺ قد أوقف تلك المحاولة. " أخشى أن يقول لا فاذا ابتغينا ذلك من الناس قالوا : اليس قد أبى رسول الله ﷺ ". [ابن سعد "د.ت" 246/2 ]

ونفهم من الروايات أن دور العباس ﷺ لم يقف عند هذا الحد، بل حاول ثانية إقرار حق بني هاشم في الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ

مباشرة، إلا أن ثقة علي بحقه في الخلافة قد أبطل هذه المحاولة. فيذكر الزهري أن العباس ﷺ قال لعلي ﷺ بعد وفاة الرسول ﷺ : " اخرج حتى أبايعك على أعين الناس فلا يختلف عليك اثنان، فابى وقال : أو منهم من ينكر حقنا ويستبد علينا ". [البلاذري "1959" 583/1 ] ويورد العرياني رواية فيها تأكيد لرواية الزهري، ولكن بوضوح أكثر، فيذكر قول العباس لعلي ﷺ " ابسط يدك أبايعك فيقال عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله ، ويبايعك أهل بيتك، فإن هذا الأمر إذا كان لم يؤخر، فقال له علي ﷺ : ومن يطلب هذا الأمر غيرنا ". [مؤلف مجهول "1978" 3 ] أما رواية الشعبي (ت 106 هـ/724 م) فتشير إلى دور العباس ﷺ بعد وفاة الرسول ﷺ دون أن تحدد موقف علي ﷺ . [ ابن عساكر "1952" 343/12 ]

ومهما تنوعت نصوص هذه الروايات، فإن الثقة الواضحة في نبرة علي ﷺ ، كما ظهرت في روايتي الزهري والعرياني، تعطي انطباعا عن وجود قناعة لدى بني هاشم في حقهم بخلافة الرسول ﷺ دون معارض.

أما الفئة الثانية من المهاجرين، وتمثل الاغلبية، فقد انحازت إلى أبي بكر ﷺ، ومعهم أسيد بن حضير في بني عبد الأشهل قبل اجتماع السقيفة. ويجمل ابن اسحاق ( ت 151 هـ/768 م) في روايته موقف المهاجرين بعد وفاة الرسول ﷺ فيقول : " ... واعتزل علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وطلحة ابن عبيد الله ﷺ في بيت فاطمة ﷺ، وانحاز بقية المهاجرين إلى أبي بكر ﷺ ، وانحاز معهم أسيد بن حضير في بني عبد الأشهل..." [ ابن هشام "د.ت" 656/4 ] ويبدو أن تسارع الأحداث بعد وفاة الرسول الكريم ﷺ، جعلت تلك الفئة تبادر إلى البت في أمر الحكم، والأخذ بزمام الأمور.

## احداث السقيفة واختيار ابي بكر :

علم المهاجرون باجتماع الأنصار في السقيفة لمبايعة سعد بن عبادة، فانطلق إليهم أبو بكر وعمر بن الخطاب، وابو عبيدة عامر بن الجراح ﷺ" ، مع بعض المهاجرين، للوقوف على حقيقة الأمر. وقامت بين الطرفين مناقشات حول من يصلح للخلافة وولاية شؤون المسلمين. وابتدأ الحديث رجل من الأنصار، فعرف الأنصار " بكتيبة الإسلام" وعرف المهاجرين "برهط النبي" وأحس عمر ﷺ بمحاولة الأنصار تقليص دور المهاجرين في الإسلام، وحسم أمر الحكم

لصالحهم."... يريدون أن يختزلونا من أصلنا ويغصبونا الأمر" . [ الطبري "1978" 205/3] وابتدر للرد عليهم، فنهاه أبو بكر ﷺ، وأخذ زمام المبادرة فاثنى على الأنصار ، وأورد ما جاء في الأحاديث عن فضلهم. " لقد علمتم أن رسول الله قال : لو سلك الناس واديا وسلكت الأنصار واديا، سلكت وادي الأنصار" ، ثم أشار إلى مكانة المهاجرين، مع اعترافه بفضل الأنصار وأهميتهم في الإسلام، فقال : " وأنتم يا معشر الأنصار، من لا ينكر فضلهم في الدين، ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام، رضيكم الله أنصارا لدينه ورسوله، وجعل إليكم هجرته، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا أحد بمترلتكم ..." [الطبري "1978" 220/3 ]

وتظهر الروح الإسلامية واضحة في إشادة أبي بكرﷺ بالمهاجرين الأولين "... فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه، والإيمان به، والمؤاساة له، والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم... فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشنف الناس لهم، وإجماع قومهم عليهم، فهم أول من عبد الله في الأرض، وآمن بالله وبالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم". [ الطبري "1978" 219/3-220 ]

كما تظهر الروح القبلية في تأكيد أبي بكرﷺ على مركز قريش بين القبائل، موضحا أن الأمر لا يستقيم إلا بها. فقال " وإن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، وهم أوسط العرب دارا ونسبا وفي رواية أخرى أنه قال : " فقد يعلم ملأ منكم أن رسول الله ﷺ قال : الأئمة من قريش، فانتم أحقاء ان لا تنفسوا على اخوانكم من المهاجرين ما ساق الله اليهم". [ البلاذري "1959" 582/1 ] ثم قال أبو بكرﷺ مخاطبا سعد بن عبادة : " وقد علمت يا سعد أن رسول الله قال وأنت قاعد : قريش ولاة هذا الأمر، فبر الناس تبع لبرهم، وفاجرهم تبع لفاجرهم ...". [ الطبري "1978" 203/3 ]

ونبه عمرﷺ بدوره إلى مكانة قريش بين العرب لقربها من الرسول ﷺ ، فقال : "والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم، ولكن العرب لا تمتنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم، وولي أمورهم منهم، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين ..."

هذا هو موقف الأغلبية من المهاجرين، وهو موقف ينم عن إدراك واسع لطبيعة

الأمور، من حيث الإقرار بمكانة قريش الدينية والاجتماعية، والتذكير به. أما احتجاج المهاجرين بحديث " الأئمة من قريش" من أجل إثبات حقهم في الخلافة ، ففيه نظر، إذ لا ينسجم مع ما تقدم ذكره عن نظرة الرسول ﷺ للحكم ونظرة بني هاشم أيضا. ولعل هذا الحديث يعود إلى مرحلة صدر الإسلام لدعم موقف قريش أمام القبائل الأخرى.

واختلف موقف الأنصار، فانقسموا إلى فئتين، فئة معارضة للمهاجرين وأخرى مؤيدة لهم. أما الفئة المعارضة ويتزعمها الحباب بن المنذر، فقد دعت الأنصار إلى المبادرة بتولي زمام الأمور، لانهم " أهل العز والثروة" وأولو العدد والمنعة والتجربة " و"ذوو الباس والنجدة" كما دعت إلى توحيد الرأي لضمان حق الأنصار في الحكم و"لا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم ... وهذا قد يعني ظهور بوادر للخلاف، دعت الأنصار إلى تلافيها حرصا منهم على وحدة الرأي.

ولاحت في مناقشات تلك الفئة من الأنصار، دعوات جانبية خطيرة، قد تكون سبيلا لحرب أهلية كبرى. فقد دعا الحباب بن المنذر الانصاري رضي الله عنه إلى إخراج المهاجرين من المدينة ، إن هم رفضوا دعوة الأنصار بتولي زمام الأمور ودعا أيضا إلى تبادل الحكم بينهم وبين المهاجرين، في حال رفض المهاجرين انفراد الأنصار بالحكم " منا أمير ومنهم أمير" . [الطبري"1978" 220/3 ]

وشعر أبو بكر رضي الله عنه بخطورة الموقف، فأشار إلى التنافس التقليدي بين هذين الحيين من الأنصار، الأوس والخزرج، فقال : " إن هذا الأمر إن تطاولت له الخزرج لم تقصر عنه الأوس وإن تطاولت له الأوس لم تقصر عنه الخزرج، وقد كان بين الحيين قتلى لا تنسى وجرحى لا تداوى..." ، [ الجاحظ "1985" 298/3 ] فجاءت إشارته مناسبة لإخماد الحركة في مهدها.

أما الفئة المؤيدة للمهاجرين، فكانت على قناعة تامة بحق المهاجرين في الخلافة ، وهذه هي المرة الثانية التي تعلن فيها تلك الفئة تأييدها للمهاجرين، أما المرة الأولى فكانت في أول إجتماع للأنصار في السقيفة . ويبدو أن هذا الموقف قد ساعد على تسارع الأحداث لصالح المهاجرين. فاقترح أبو بكر رضي الله عنه ترشيح عمر أو أبي عبيدة رضي الله عنه لولاية شؤون المسلمين، فرفضا ذلك، وقدما أبا بكر رضي الله عنه لأنه " أفضل المهاجرين، وثاني اثنين إذ هما في الغار، وخليفة رسول الله ﷺ على الصلاة، والصلاة أفضل دين

المسلمين..." ثم قالا : " فمن ذا ينبغي لـه أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك، أبسط يدك نبايعـك...". فتقـدم بشـير بـن سـعد الأنصاريﷺ وأعلن مبايعته لأبي بكـر ﷺ، على الرغم من احتجاج الحباب بن المنذر ﷺ، واتهامه بالتحامل على سعد بن عبادة. وتـلاه أسيد بن حضير الأوسي ﷺ فبايعه هو وقومه، خوفا من تفرد الخزرج بالأمر، "... والله لـئن وليتها الخزرج عليكم مرة لازالت لهم علـيكم بذلك الفضيلة، ولا جعلوا لكم معهم فيهـا نصيبا أبدا، فقوموا فبايعوا أبا بكر، فقاموا إليه فبـايعوه ..."[الطـبري"1978"3/220-221]

وهكذا تمت البيعة لأبي بكـر ﷺ في السقيفة، فبايعه من حضر مـن المهـاجرين، والأنصار ما عدا سعد بن عبادة ﷺ ، كمـا بايعته قبيلة أسلم الخزاعية، وهي من القبائـل المقيمة في غرب مكة والمدينة ، وقـد علـق عمرﷺ على بيعة أسلم فقال : " ما هو إلا أن رأيت أسلم فايقنـت بالنصـر" ، [ الطـبري "1978" 3/221-222 ] ويبدو أن عمرﷺ استذكر ماضي أسلم المشـرف في الإسـلام، ووقوفها إلى جانب الرسول ﷺ وقت الحاجة . [ الواقدي "1966" 2/782 ]

والذي يلفت الانتبـاه في اجتمـاع السقيفة، حدة أبي بكـرﷺ ومبادرتـه إلى الكلام دون عمر ﷺ، الذي آثـر الصـمت التزاما منه بأمر أبي بكر ﷺ، وهذا ما يفهم من روايتي ابن عباسﷺ (ت 68 هـ/ 687 م) وأبي مخنف ( ت 157 هـ / 773 م). يقول ابن عباس والكلام لعمر عن أبي بكـر ﷺ : وقد كنت أداري منه بعض الحدة، وكان هو أوقر مني وأحلم، فلما أردت أن أتكلم، قال : على رسلك، فكرهت أن اعصيه...". [الطبري 3/ 305 ] ويرد المعنى نفسـه في روايـة أبي مخنف عن قول أبي بكر لعمـر ﷺ: " رويـدا حتى أتكلم ثم انطق بما أحببت ...". [ الطبري "1978" 3/219] إلا أن الروايتين لم تـذكرا شيئا عن الأسباب التي دفعـت عمـر ﷺ إلى الالتزام بهذا الأمر، مع ما عرف عنه من شـدة وحزم في أغلب المواقف . وهناك رواية واحدة لداود بن عبد الله الأزدي تعطي تبريرا لموقـف عمر ﷺ بقوله " لا أعصي خليفة النبي ﷺ في يوم مرتين " ، [الطـبري "1978" 3/203 ] وهذا قد يعني وجود اتفاق مبدئي بين جماعـة من المهاجرين على اختيار أبي بكر ﷺ خليفة للرسول ﷺ مع ملاحظة أن هذا الاتفـاق لم يؤخذ فيه رأي بقية المهاجرين، كما لم يؤخـذ

فيه رأي الانصار والقبائل في الجزيرة. وهـذا ليس بغريب، فأغلب القرارات المهمة، وعلى مر التاريخ، تتخذها عادة قلة نشيطة من الناس، ويقبل بها الباقون. والقلة النشيطة هنا تلك الجماعة من المهاجرين، التي اتخذت من النسب القرشي أساسا لدعوتها، كون الرسول ﷺ من قريش. وأعلنت أبا بكر ﷺ خليفة للمسلمين في يوم الاثنين يوم وفاة الرسول الكريم في شهر ربيع الاول (سنة 11 هـ/632 م). وكانت تلك البيعة هي البيعة الخاصة ، وفي اليوم التالي، أي الثلاثاء بايعه الناس في المسجد البيعة العامة . [ ابن هشام "د.ت" 661/3 ]

واختلفت الروايات في تحديد موقف علي ابن أبي طالب ﷺ من البيعة، فبين بعضها أن عليا ﷺ لم يتأخر عن بيعة أبي بكرﷺ ، فبايعه برضى في اليوم الذي جرت فيه بيعة العامة، لأهليته وسابقته في الإسلام ، هذا ما ذكره حبيب بن أبي ثابت (ت 119 هـ وقيل 122 هـ/ 737 م/739 م) والزهري (ت124هـ/742م) مع إضافة جاءت في رواية الزهري عن عتب علي ﷺ على أبي بكر ﷺ لعدم مشاورته في الأمر وقوله له:"... وقد علمت أن رسول الله ﷺ أمرك بالصلاة وأنت ثاني اثنين في الغار، وكان لنا حق و لم نستشر..." وضمنت روايات عوانة بن الحكم (ت147 هـ/764 م ) وسيف بن عمر (ت 180 هـ/796 م) والمدائني (ت 225 هـ / 839 م) ومحمد بن عثمان بن صفوان الثقفي، إشارات عن مبادرة علي ﷺ إلى بيعة أبي بكر ﷺ إقرارا منه بأهليته.

وبينت روايات أخرى أن عليا ﷺ تأخر عن بيعة أبي بكر ﷺ، و لم يقدم علي مبايعته إلا مكرها. فذكر ابن عباس ﷺ أن أبا بكر ﷺ طلب من عمر ﷺ أن ياتيه بعلي ﷺ " بأعنف العنف" فلما أتاه قال علي ﷺ : " وما ننفس على أبي بكر هذا الأمر ، ولكننا أنكرنا ترككم مشاورتنا وقلنا : إن لنا حقا لا يجهلونه، ثم أتاه فبايعه ". [ البلاذري "1959" 578/1، 588]

وذكر أبو معشر (ت 120 هـ/ 737 م) أن عمر ﷺ أتى مترل علي ﷺ وفيه طلحة والزبير ﷺ،ورجال من المهاجرين لم يذكر أسماءهم فقال لهم : والله لاحرقن عليكم أو لتخرجن إلى البيعة " ، كما ذكر المدائني أن عمرﷺ " أتى مترل علي ومعه فتيلة، فقالت له فاطمة : يا ابن الخطاب أتراك محرقا علي بابي" وبعدها بايع علي ﷺ معتذرا عن تأخره لانشغاله بجمع القرآن . [ البلاذري 586/1 ]

أما حميد بن عبد الرحمن الحميري . [ "1983-1988" 7/382-383 ] فقد أشار في روايته إلى تخلف علي والزبير ﷺعن البيعة، وأنهما لم يبايعا الا بتهديد من عمر ﷺ " لتبايعان وأنتما طائعان أو لتبايعان وأنتما كارهان ، فبايعا". [ الطبري "1978" 3/203]

وضمن هذا الاطار، أشارت بعض الروايات إلى أن عليا ﷺ تأخر ستة أشهر عن بيعة أبي بكر ﷺ دون ذكر لتهديد في البيعة أو إكراه. فبين الزهري أن عليا سعى إلى مصالحة أبي بكر ﷺ بعد وفاة السيدة فاطمةﷺ، وانصراف وجوه الناس عنه، فأرسل إلى أبي بكر ﷺ فأتاه وعنده بنو هاشم فقال عليﷺ: ... فانه لم يمنعنا من أن نبايعك يأبا بكر إنكاراً لفضيلتك، ولا نفاسة عليك" بخير ساقه الله إليك، ولكنا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقا، فاستبددتم به علينا".

وكان قد حصل خلافٌ بعد وفاة الرسول ﷺ بين بني هاشم وأبي بكر ﷺ لرفضه مطالبة بني هاشم بأرض الرسول ﷺ في فدك وسهمه في خيبر، مستشهدا بقول الرسولﷺ : " لا نورث ما تركنا فهو صدقة، إنما ياكل آل محمد في هذا المال" وبعد إقرار من علي ﷺ بفضل أبي بكر ﷺ وسابقته قام إليه وبايعه بالخلافة. أما القول بأن عليا ﷺ تاخر عن بيعة أبي بكر ﷺ لانشغاله بجمع القران، فهو غير مقبول لعدم انسجامه مع المنطق، إذ لا يوجد تعارض في قيام علي بالأمرين معا.

ويبدو من الأحداث، أن عليا ﷺ وبني هاشم قد تأخروا عن مبايعة أبي بكر ﷺ بعض الوقت، يؤيد ذلك حديث عمر بن الخطاب ﷺ عن السقيفة فيقول " وانه كان من خبرنا حين توفى الله نبيه ﷺ ، أن عليا والزبير ومن معهما، تخلفوا عنا في بيت فاطمة " ، [الطبري "1978" 3/208، 205 ]

ويظهر أن تاخرهم جاء اعتراضا على تفرد المهاجرين بالأمر، قبل السقيفة وبعدها، مع تأكيد حق بني هاشم بالخلافة، يقول علي ﷺ: " أنا أحق بهذا الأمر منكم، لا أبايعكم وانتم أولى بالبيعة لي، أخذتم هذا الأمر من الأنصار واحتججتم عليهم بالقرابة من النبي ﷺ وتاخذونه منا أهل البيت غصبا " ، [مؤلف مجهول "1978" 10] وتجاوز علي أزمة الحكم وبايع أبا بكر ﷺ، حرصا منه على وحدة الأمة، إثر ظهور التحديات القبلية في معظم أنحاء الجزيرة، مهددة مكانة المدينة وسلطتها . وأشار المدائني في روايته إلى هذا الأمر فقال : " لما ارتدت العرب، مشى

عثمان إلى علي فقال له : " .. هـذا العـدو، وأنت لم تبايع، فلم يزل به حتى مشـى إلى أبي بكر، فقام أبو بكر إليه فاعتنقا... فبايعه، فسر المسلمون ". [البلاذري "1959" 587/1 ]

وتأخر عن بيعة أبي بكر ﷺ أفراد من الصحابة ومن رجالات قـريش، أجمعـوا في الغالب على تأييد علي بن أبي طالـب، فقـد انحاز طلحة والزبير ﷺ إلى علي، ومعهم سعد بن أبي وقاص والمقداد بن الأسود ﷺ. كمـا انحاز إلى علي خالد بن سعيد بن العاص وكان من عمال الرسول ﷺ على اليمن، داعيـا إلى بقاء الأمر في بني عبد مناف . "... أرضيتم يا بني عبد منـاف أن يلـي أمـركم علـيكم غيركم ؟... " وتكررت الدعوة لـبني عبـد مناف على لسان أبي سفيان فقال : " يـا آل عبد مناف فيم أبو بكر مـن أمـوركم " وفي رواية للمدائني (ت 225 هـ/839 م) انـه قال : " ... بايعتم رجلا من أذل قبيلة مـن قريش ... " وحاول استثارة علي والعباس ﷺ للمطالبة بالخلافة. فقال لعلي ﷺ: " أترضون أن يلي أمركم ابن أبي قحافة، أمـا والله لـئن شئتم لأملأنّها عليه خيلا ورجلا" ، [ البلاذري "1959" 588/1] وفي رواية أنه قال : " أبـا حسن ابسط يدك حتى أبايعـك". [ الطـبري "1978" 206/3] ولكن حكمة علي دفعتـه إلى رفض هذا الأمر، وقال ردا على دعوة أبي سفيان : " لست أشاء ذلك، ويحك يـا أبـا سفيان، إن المسلمين نصحة بعضهم لبعض وإن نات دارهم وأرحامهم، وإن المنافقين غششـة بعضهم لبعض وإنّ قربت ديارهم وأرحامهم، ولولا أنا راينا أبا بكر لها أهلا، مـا خلينـاه وإياها". وبهذا أوقف إمكانية تصـدع جبهـة المهاجرين وحفظ لهـا وحـدها وتماسـكها، كذلك فإن مبايعة علي ﷺوإن جاءت متاخرة بعض الوقت إلا أنها حسمت كـل خـلاف، وساعدت في توحيد صفوف الأمة لمواجهـة الأخطار المحيطة بها.

وأوضح أبو بكر ﷺ في أول خطاب له بعد البيعة، أمرين رئيسين، الأول : ظروف البيعة ، والثاني سياسته في الحكم ، فقال عن البيعة : " وقد كانت بيعتي فلتة ، وذلك أني خشيت فتنة، وايم الله ما حرصت عليها يوما قط ولا ليلة ولا طلبتها، ولا سألت الله إياهـا سرا ولا علانية... ". وذلك يعني أن اختيـار أبي بكر ﷺ تم سريعا خوفا من الفتنة، مع مـا يحتمله عنصر السرعة من أخطار تم تجاوزهـا بحكمة عمر وهيبته.

أما عن نهجه في الحكم، فقال : "... واني متبع ولست بمبتدع، وإن أضعف الناس عندي الشديد حتى اخذ منه الحق، وإن اشد الناس عندي الضعيف حتى اخذ له الحق، وإن أحسنت فاعينوني، وإن زغت فقوموني... مع التركيز على الجهاد" واعلموا أيها الناس أنه لم يدعْ قوم الجهاد قط الا ضربهم الله بذل ... ). [ البلاذري "1959" 1/590-591 ]

وهكذا أنهى أبو بكر ﷺكل جدال حول البيعة، وطمأن الأمة بالسير على خطى الرسول ﷺ تحقيقا للعدل ثم التفت لمعالجة بعض الأمور المعلقة أو المستجدة، فقام في البداية بتوجيه جيش أسامة بن زيد إلى بلاد الشام، وكان الرسول ﷺ من منطلق مسؤوليته بصفته رئيساً للأمة، قد جهز هذا الجيش لمواجهة خطر الروم في الشام إلا أن مرضه حال دون ارساله. ثم جاء تسيير الجيش في هذا الظرف دليلا قويا على الاستقرار الداخلي، ودعما لموقف الدولة في الداخل والخارج.

وقرر أبو بكر ﷺ مواجهة المرتدين ، واتخذ في مواجهتهم موقفا حازما من الصعب تفهمه إذا لم يحدد مفهوم الردة أو يحدد نطاقها، لاسيما بعض الحركات قد بدات في حياة الرسول ﷺ كحركة الأسود العنسي في اليمن، ومسيلمة الحنفي في اليمامة وطليحة الأسدي في بزاخة.

ويلاحظ من المعلومات التي أوردها أصحاب المصادر الأولية عن الردة، أنه لا يوجد بينهم اتفاق لما يعنيه مفهوم الردة. فبعضهم عد الجماعات التي اصطدمت مع المسلمين في مناطقهم ، والمتنبئين مرتدين. وعد بعضهم الاخر، وهم الأغلبية، أن المرتدين هم الجماعات الذين امتنعوا عن أداء الزكاة.

أما عن نطاق الردة، فيمكن تحديده تحديدا مقبولا بالإشارة إلى صلة القبائل بالرسول ﷺ، سواء كانت دينية أم سياسية ، للتعرف على انتشار الإسلام ومدى نفوذ الرسول ﷺبين القبائل في الجزيرة العربية، وهذا يساعد على تحديد موقف القبائل المسلمة وغير المسلمة من الردة. فقد اخلصت للرسول ﷺ العديد من القبائل المنتشرة في غرب مكة والمدينة، وإلى حد ما في شرقها ، فلم تظهر أية محاولة للخروج عن سلطان المدينة وخفت حدة معارضة القبائل الأخرى في نجد ، واليمن في الوقت الذي اتخذت فيه علاقة القبائل في شمال مكة والمدينة مع الرسول ﷺ طابعا

سياسيا، بتاكيد سيادة الإسلام فيها، والإقرار بسلطان المدينة عليهم.

أما القبائل الواقعة في جنوب مكة والمدينة، فقد تباينت مواقفها، ما بين مؤيد للدعوة، أو معارض لها تبعا للظروف . هذا إلى جانب قبائل أخرى في جنوب وشرق وشمال مكة والمدينة، حاولت الاتصال بالمدينة، إلا أن هذا الاتصال لم يؤد إلى أية نتائج دينية أو سياسية، تحمل لواء المعارضة في زمن الرسول ﷺ وخليفته من بعده .

واتخذ أبو بكر ﷺ في سنة (12 هـ/ 633 م) ، موقفا ثابتا في مواجهة تلك القبائل وضمها للإسلام ، كما واجه القبائل الأخرى التي امتنعت عن أداء الزكاة، واتخذت منها ذريعة لتحقيق غاياتها في الانفصال عن المدينة ، والخلاص من أعباء وواجبات لم تالفها من قبل. وهكذا نجح أبو بكر ﷺ في تثبيت معنى إسلام القبائل ، واستيعابها لأركان الإسلام وواجباته. [ ابن عساكر "1952" 413،423،424،426،427/1 ]

كما نجح في توحيد الجزيرة العربية بالإسلام، وكانت هذه بداية لفتوح إسلامية، وجه العرب بعدها في قضية مشتركة هي الجهاد، لنشر الإسلام خارج الجزيرة العربية تحت قيادة المسلمين الأولين.

## العهد إلى عمر بن الخطاب ﷺوردود الفعل تجاهه :

عهد أبو بكر ﷺ إلى عمر ابن الخطاب ﷺ بتولي أمر الأمة من بعده، وهو اختيار يتماشى مع العرف العربي القديم الذي يجيز للحاكم إذا حضره الموت أن يعين خلفا له. إلا أن أبا بكر ﷺ خرج عن إطار المفاهيم العشائرية الضيقة، إلى المفاهيم الواسعة، وهي مفاهيم المبادئ الإسلامية. فلم يول ذا قرابة إكراما لقرابته، أو إرضاء لعشيرة ينتمي اليها ، بل جعل الاهلية والقابلية هما المعيار في هذا الاختيار " فإني ما استخلفت عليكم ذا قرابة، وإني قد استخلفت عليكم عمر " من هنا يمكن القول إن اختياره جاء منسجما مع شخصية عمر ﷺ وقابلياته " واجتهدت لهم رأيي فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليهم وأحرصهم على ما أرشدهم " لتجنيب الأمة مخاطر الفتنة والانقسام اللذين كادا يعصفان بها بعيد وفاة الرسول ﷺ. فقال أبو بكر ﷺ: " اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة، فعملت فيهم بما انت أعلم به ... " ، [ ابن سعد "د.ت" 200/3 ] ثم قال

لعمر ﷺ : " يا ابن الخطاب أني إنما استخلفتك نظرا لما خلفت ورائي ... [ ابو يوسف "1979" 11 ] و"الله ما حبوتك بها يا عمر، ولكن حبوتها بك ..." [ مؤلف مجهول "1979" 19 ] وهكذا يبدو جليا حرص أبي بكر ﷺ على ترسيخ مفهوم وحدة الأمة، وتجنيبها الفتنة بعد وفاته.

ويفهم من بعض الروايات أن أبا بكر ﷺ شاور عددا من الصحابة قبل العهد إلى عمر ﷺ، فجاءت ردود فعلهم مختلفة بين مؤيد لهذا الاختيار أو معارض له. فقد أثنى عثمان بن عفان وأسيد بن حضير الأوسي وعبد الرحمن بن عوف ﷺعلى تسمية عمر لشخصيته المتميزة. فقال عثمان ﷺ : " اللهم علي به إن سريرته خير من علانيته وإنه ليس فينا مثله ". وقال أسيد بن حضير ﷺ: " اللهم أعلمه الخيرة بعدك يرضى للرضى ويسخط للسخط، الذي يسر خير من الذي يعلنه، و لم يلِ هذا الأمر أحد أقوى عليه منه "[ ابن سعد 199/3 ] . وبين عبد الرحمن بن عوف ﷺرايه بعمر ﷺ فقال : "... وما رأينا من صاحبك الذي وليت إلا خيراً..." [ مؤلف مجهول 17] .

وفي رواية أخرى انه قال : " إنه افضل من رأيك إلا أن فيه غلظة " [ ابن ابي الحديد "د.ت" 55/1] . ويلاحظ أن الإضافة الأخيرة التي ألحقها عبد الرحمن ﷺبرأيه عن عمرﷺ، هي المحور الذي ارتكز عليه الرأي المعارض لاختيار عمر. ويظهر هذا واضحا في حديث بعض المهاجرين والأنصار حين بلغهم خبر استخلاف عمر فقالوا : " نراك يا خليفة رسول الله مستخلفا علينا عمر، وقد عرفت بوائقه إلينا وأنت بين أظهرنا، فكيف إذا وليت عنا وانت لاق الله فسائلك عنا فما أنت قائل ؟ فقال أبو بكر ﷺ: والله لئن سألني الله لأقولن : استخلفت عليهم خيرهم في نفسي " . [مؤلف مجهول "1979" 18]

وأشارت بعض الروايات إلى موقف المعارضة التقليدية من هذا الاختيار، فبنت اعتراض طلحة والزبير ﷺعلى استخلاف عمر ﷺ لشدته فقالا : " إتستخلفه مع ما ترى من فظاظته عليها وأنت فينا" . [ ابن أبي الحديد "د.ت" 55/1 ] واختلفت في تحديد موقف علي ﷺ من هذا الاختيار بين مؤيد له أو معارض خوفا من شدة عمر. أما أطراف المعارضة الأخرى وهي المعارضة التي لم تكن واضحة الاتجاه- ناس من الناس- فقد بينت

الروايات أنهم خوفوا أبا بكر من لقاء ربه لاختياره عمر نظرا لشدته " ما تقول لربك إذا استخلفت علينا عمر، وقد عرفت فظاظته وغلظته وشدته ...". [ ابو يوسف "1979" 11 ]

يتبين مما تقدم أن المعارضة انحصرت ابتداء بعدد من المهاجرين والأنصار، وركزت معارضتها على جانب واحد من شخصية عمرﷺ وهو الشدة، وتجاهلت جوانب أخرى أساسية أعطت أبا بكر ﷺمطلق الثقة بشخصية عمر، فركز في رده على المعارضين على أهلية عمر، وقدرته على تحمل المسؤولية، لقابلياته العالية وشخصيته القوية . فقال : " إن هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما يصلح به أوله، ولا يحتمله إلا أفضل العرب مقدرة وأملكهم لنفسه، وأرشدهم في حال الشدة ، وأسلسهم في حال اللين، وأعلمهم برأي ذوي الرأي، لا يتشاغل بما لا يعنيه، ولا يحزن لما يترل به... ولا يستحيي من التعلم ولا يتحير عند البديهة، قوي على الأمور، ولا يجوز بشيء منها حدة وعدوانا ولا تقصيرا، يرصد لما هو آت عتاده من الحذر " , [ ابن ابي الحديد 55/1 ] ثم قال : " اللهم إني استخلفت عليهم خير أهلك ", [ ابن سعد"د.ت" 199/3 ]

كذلك فقد أعطت مداخلات عمر ﷺ في بعض الامور، ورضى أبي بكر ﷺ عنها، تأكيدا آخر على قناعة أبي بكر ﷺبشخصية عمر المتميزة ، على الرغم من الحساسية التي اثارتها تلك المداخلات عند بعض الصحابة، فاعترضوا عليها .

ويرد بعد هذا تساؤل عن الأبعاد الحقيقية للمعارضة، فالاعتراض على شدة عمر ﷺليس له ما يبرره إلا محاولة زعزعة ثقة أبي بكر ﷺ بشخصية عمرﷺ ، ربما لافساح المجال أمام مرشحين آخرين للوصول إلى الخلافة، فلا تقتصر التسمية على مرشح واحد كما حصل. ولعل أبا بكر ﷺ قد شعر بهذا الأمر، فقال لعبد الرحمن بن عوف ﷺيشكو موقف المهاجرين " وما ألقاه منكم يا معشر المهاجرين أشد علي من وجعي، إني وليت أمركم خيركم في نفسي فكلكم ورم آنفه من ذلك، إرادة أن يكون هذا الأمر له ..." , [ مؤلف مجهول "1978" 17 ]

وعلى الرغم من استبعاد عبد الرحمن بن عوف هذا الأمر ، فإنه يعبر عن وجود طموح لدى البعض يدفعهم للمعارضة. ويظهر أن قناعة أبي بكر بعمر ﷺكانت ثابتة، فدعا عثمان بن عفان ﷺ وأملى عليه كتاب العهد

لعمر ﷺ والذي جاء فيه :" ... إني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا ، وإني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيرا، فان عدل فذلك ظني به وعلمي فيه، وإن بدل فلكل امرئ ما اكتسب من الاثم، والخير أردت ولا أعلم الغيب..." [ ابن سعد "د.ت" 200/3 ] ثم أمر أن تقرأ وصيته على الأمة، فاقروا بها جميعا. ودعا عمر ﷺ فأوصاه قائلا : " إني مستخلفك من بعدي، وموصيك بتقوى الله، إن لله عملا بالليل لا يقبله بالنهار، وعملا بالنهار لا يقبله بالليل، وإنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا... وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل ... فإذا حفظت وصيتي فلا يكون غائب أحب إليك من الموت وهو آتيك، وإن ضيعت وصيتي فلا يكون غائب أبغض إليك من الموت ولست بمعجز الله". [ الجاحظ "1985" 45/2 ]

واستخلف عمر بن الخطاب ﷺ في أواخر جمادى الآخرة، لليلتين بقيتا منه أو سبع، سنة( 13 هـ/ 634 م) ، وخطب بالناس قائلا : " ما أنا إلا رجل منكم، ولولا إني كرهت أن أرد أمر خليفة رسول الله لما تقلدت أمركم ". [ اليعقوبي "1980" 139/2 ]

## تنظيم مجلس الشورى واختيار عثمان بن عفان ﷺ :

أثيرت مشكلة الحكم في حياة الخليفة عمر ﷺ، وطلب إليه أن يستخلف، فأبى ذلك. وهو ما بينه الواقدي في رواية تقول : كان عمر بن الخطاب ﷺ وهو صحيح " يسأل أن يستخلف فيأبى " , [ ابن سعد " د.ت" 62/2 ] وبقي عمر ﷺ رافضا لفكرة الاستخلاف حتى بعد أن طعن، لأسباب بينها لابنه عبد الله عند ما طلب منه ذلك فقال: " أكره أن أتحملها حيا وميتا " ، ثم قال:" إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني ﷺ".وأبدى ترددا في العهد لأحد الصحابة الأكفاء الأقران " ... فإني والله وهؤلاء نشأنا جميعا ، فلا أعرف مكان أحد أخصه بهذا الأمر...". [ ابن عساكر مخطوط م 12/ 344] ولكنه توصل إلى جعل الأمر شورى بين ستة من زعماء الصحابة- جميعهم من المهاجرين- مضى الرسول ﷺ وهو عنهم راض علي وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي

وقاص والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله – وكان غائبا في مال له بالسراة فقال مخاطبا إياهم " إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادهم، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ". [ الطبري "1978" 228/4 ]

ثم بين للناس مكانة هؤلاء الستة من الرسول ﷺ فقال : " إن مت فأمركم إلى هؤلاء الستة الذين فارقوا رسول الله ﷺ وهو عنهم راض". ويلاحظ أن عمر ﷺ لم يكن راغبا في تقديم واحدٍ منهم على التعيين للخلافة، بل جعلها في جملتهم. وقد ينسجم ذلك مع انطباعه عنهم، وهو انطباع يشعر بوجود تحفظات تجاه كل واحد منهم. فوصف علياً ﷺ بأنه رجل بطالة وفكاهة ، مع استبداد بالرأي... وحداثة بالسن. ووصف عثمان بأنه رجل فيه لين ، " مع عصبية لأهله. أما سعد فوصفه بأنه رجل حرب لا يصلح للسياسة ، " إنما أنت صاحب مقنب من هذه المقانب تقاتل به وصاحب قنص وقوس واسهم". ووصف عبد الرحمن بن عوف بأنه رجل فيه ضعف وبخل ، " وهذا الأمر لا يصلح إلا لمعط في غير سرف، ومانع في غير إقتار " إلا أنه امتدح رأيه السديد ونعم ذو الرأي عبد الرحمن بن عوف، مسدد رشيد...". كما وصف الزبير بأنه مؤمن الرضا كافر الغضب، مع بخل " إن كان ليكادح على المكيلة من بكرة إلى الظهر..." أما طلحة فوصفه بأنه رجل فيه بأو وزهو وكبر . [ اليعقوبي "1980" 158/3-159 ] تمنعه من استخدامه.

وهكذا اتجه عمر ﷺإلى اقرار مبدأ الشورى في الحكم، وهو تنظيم سياسي ينسجم مع مبادئ الشورى في الإسلام، ويعود في أصوله إلى النظام القبلي المتمثل بمجلس شورى القبيلة ، وهو أعلى هيئة فيها، تتكون من المتنفذين ورؤساء العوائل في القبيلة لانتخاب شيخ لها. وقد عرفت القبائل العربية الجنوبية مجالس الشورى ، كما عرفتها القبائل الشمالية، ولعل أبرزها الملأ في مكة.

واهتم عمر بن الخطاب ﷺبتنظيم أمر الشورى ، وضبط أحكامها تجنبا للفتنة أو الخلاف. فحدد أولا مدة التشاور بثلاثة أيام، كلف فيها أعضاء المجلس أن يتشاوروا في الرأي لاختيار واحد منهم. " فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام... ولا ياتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم ". ثم يبين طريقة الانتخاب، وهي طريقة فريدة في نوعها، فجعل ترتيب العدد في المجلس ، وما يتبعه من اتفاق الأعضاء أو اختلافهم ، سبيلا لإجماع المجلس

على واحد منهم" فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلا وأبى واحد فاشدخ رأسه- أو اضرب رأسه بالسيف- وإن اتفق أربعة فرضوا رجلا وأبى اثنان، فاضرب رؤوسهما، فان رضي ثلاثة رجلا منهم وثلاثة رجلا منهم فحكموا عبد الله بن عمر، فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف...". [ الطبري "1978" 229/4 ]

ويعبر هذا التدرج بالإجماع عن فهم دقيق لطبيعة الاوضاع، فعمر ﷺ لم يرد معارضة فردية أو ثنائية تضعف رأي الجماعة، وهو يعلم جيدا طموح بعض رجال الشورى. ولكنه في الوقت نفسه لم يعترض على انقسام المجلس إلى فريقين متساويين ثلاثة بثلاثة ، بل ربما نظر إلى انقسامهم تعبيرا عن اختلاف موضوعي في الرأي، جعل لابنه عبد الله او لعبد الرحمن بن عوف، مهمة الفصل فيه.

ومما يلفت الانتباه ذلك الدور المتميز لعبد الرحمن بن عوف في حسم الانتخابات ، وتنظيم الشورى فيما بعد. وهو أمر أجمعت عليه العديد من الروايات. فقد بين عمرو بن ميسون الكوفي ( ت 75 هـ/694 م) في روايته ان عمر ﷺأشار على رجال الشورى بالاحتكام إلى عبد الرحمن بن عوف ﷺ في حال التساوي في الأصوات، على أن ترجح كفة الفريق الذي يكون فيهم. وبين المسور بن مخرمة ( ت 64 هـ /683 م ) أن عمر ﷺ نبه ابنه عبد الله ﷺ على احتمال حدوث أحد الأمرين في اجتماعات المجلس، أولهما اختلاف رجال الشورى، وثانيهما انقسامهم إلى فريقين متساويين، وأشار عليه في الحالة الأولى أن يكون مع الفريق الأكثر عددا، وفي الثانية التزام جانب الفريق الذي يكون فيهم عبد الرحمن. وقريب من ذلك روايتا زيد بن أسلم المدني ( ت 136 هـ/753 م) عن مكانة عبد الرحمن بن عوف ﷺ المتميزة بين رجال الشورى. فقد بين في الرواية الأولى دعوة رجال الشورى إلى التزام جانب عبد الرحمن بن عوف ﷺ في حال التساوي في الأصوات" وإن اجتمع رأي ثلاثة وثلاثة فاتبعوا صف عبد الرحمن بن عوف واسمعوا وأطيعوا", [ البلاذري ق 500/1/4 ] وبين في الرواية الثانية دعوة رجال الشورى إلى التزام جانب عبد الرحمن بن عوفﷺ ، دون اعتبار لعدد الأصوات، قلت أم كثرت.

وإلى جانب كل الروايات المؤيدة لدور عبد الرحمن بن عوف ﷺ في الشورى، هناك روايات أخرى اغفلت له هذا الدور، وعدته واحدا من رجال الشورى لا غير. فقد بين ابن أبي مليكة ( ت117 هـ/735 م ) في روايته عن الشورى ، أن عمر ﷺ لم يخص أحداً من رجال الشورى دون أحد . [ ابن عساكر "1984" 181 ]وتبدو تلك الرواية مقبولة إذا أخذ بالاعتبار حيثيات الاجتماع الأول في حياة عمر، وفشلهم في التوصل إلى اتفاق ينهي الخلاف، على الرغم من وجود عبد الرحمن بن عوف ﷺ بينهم. مما جعل عبد الرحمن يأخذ من أهل الشورى موثقا في أعقاب فشل اجتماعهم الثاني بقبول اختياره لهم، بعد أن أخرج نفسه منها.

أما عن قرار عمر ﷺ بتسمية مجلس الشورى من المهاجرين دون الأنصار، فكان إقرارا منه بحق قريش في الخلافة، لمكانتها بين القبائل وتشرفها بالإسلام، وإقرارا أيضاً بدور المهاجرين الأولين وسابقتهم إلى الإيمان. ولكنه لم ينس دور الأنصار ودعمهم للإسلام، فأوصى بهم خيرا ، وترك لهم مهمة الإشراف والمراقبة على عملية الانتخاب. فقال لأبي طلحة الأنصاري ﷺ : " يا أبا طلحة، إن الله عز وجل طالما أعز الإسلام بكم، فاختر خمسين رجلا من الأنصار، فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلا منهم ". [ الطبري"1978" 229/4 ] أما القول بأن عمر ﷺ طلب من رجال الشورى، أن يحضروا معهم الحسن بن علي وعبد الله بن عباس ﷺ تيمنا بهما، فتبدو رواية عباسية انفرد بها صاحب الإمامة والسياسة للتذكير بفضل بني هاشم.

من ناحية أخرى، يظهر أن عمر ﷺ وبفراسة المؤمن، كان يتوقع أن ينحصر الاختيار في اثنين من رجال الشورى هما : علي وعثمان ﷺ، فلم يكلم أحداً غيرهما. فقال لعلي ﷺ : " يا علي لعل هؤلاء القوم يعرفون لك قرابتك من النبي (صلى الله عليه وسلم ) وصهرك وما آتاك الله من الفقه والعلم، فإن وليت هذا الأمر فاتق الله فيه ". ثم دعا عثمان ﷺفقال : " يا عثمان لعل هؤلاء القوم يعرفون لك صهرك من رسول الله ﷺ وسنك وشرفك، فإن وليت هذا الأمر فاتق الله ، ولا تحملن بني أبي معيط على رقاب الناس . [مؤلف مجهول"1978" 22 ] وجاءت هذه المزايا التي خص بها عمر ﷺ كل واحد منهما، تذكيرا بمؤهلات المرشح للخلافة، وهي مؤهلات تجمع

كما يبدو بين التقاليد العربية والمبادئ الإسلامية معا.

وعقد رجال الشورى اجتماعهم الثاني بعد وفاة عمر ﷺ ، وكانوا خمسة لغياب طلحة ، وتناقشوا طويلا فلم يصلوا إلى قرار، ربما لطموح كل واحد منهم. وتنبه أبو طلحة الأنصاري ﷺ لهذا الأمر، وكان رقيبا على اجتماعاتهم، فقرر أن لا يزيد مدة التشاور عن الأيام الثلاثة التي أمرهم بها عمر ﷺ. وعلى أثر هذا القرار، أخذ عبد الرحمن بن عوف ﷺ المبادرة للوصول إلى حل مناسب. فيذكر عمرو بن ميمون في روايته ان عبد الرحمن ﷺ اقترح على رجال الشورى أن يتولى مهمة الاختيار فيما بينهم، على أن يخرج نفسه من الأمر فوافقوا دون اعتراض باستثناء علي ﷺ الذي طلب منه موثقا بإيثار الحق والابتعاد عن الهوى، وأن لا يخص ذا رحم ولا يألو الأمة. فوافق عبد الرحمن ﷺ شريطة أن يعطوه مواثيقهم جميعا، بتأييد اختياره لهم. ويلاحظ أن تلك الموافقة المشروطة من علي ﷺ، قد تعطي مؤشرا عن عدم الثقة بعدالة عبد الرحمن بن عوف، لاسيما أنه سبق لعلي ﷺ أن أبدى تخوفا من تسمية عبد الرحمن بن عوف ﷺ بين رجال الشورى، مخافة انضمام عثمان وسعد ﷺ إليه، والعمل على تشكيل تجمع معارض له "... فسعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون، فيوليها عبد الرحمن عثمان أو يوليها عثمان عبد الرحمن، فلو كان الآخران معي لم ينفعاني...". وحاول علي ﷺ التأثير على سعد ﷺ بحق القرابة، بأن لا يكون مع عبد الرحمن لعثمان ظهيرا عليه . [ الطبري"1978" 231-230/4 ]

من جهة أخرى، تبرز بعض الروايات مبادرة عبد الرحمن بن عوف ﷺ لحث رجال الشورى على سرعة الاختيار وتقليد أمرهم واحدا منهم، ثم استجابة رجال الشورى لهذه المبادرة، وقبولهم بها، بما فيهم علي بن أبي طالب ﷺ ، الذي جاء رده على تلك المبادرة، التذكير بمكانة بني هاشم وتسامحهم. وهذا ما بينه المسور بن مخرمة في روايته ، وابن قتيبة أيضاً ( ت 276 هـ/ 889 م) ، مع إضافة له تعبر عن رضى علي ﷺ بمبادرة عبد الرحمن ﷺ بقوله : " .. والأمر إليك يا بن عوف على صدق التعيين وجهد النصح.

وحصلت تطورات سريعة، جعلت مجال الاختيار محصورا بين اثنين من رجال الشورى هما : علي وعثمان ﷺ. فقد ذكر

ابن أبي الحديد ( ت 656 هـ/1258 في روايته أن طلحة ﷺ وهب حقه من الشورى لعثمان ﷺ ، لعلمه أن الخلافة لا تخلص له بوجود علي وعثمان ﷺ . فضلاً عن أن طلحة ﷺ تيمي وابن عم أبي بكر الصديق ﷺ وسبق أن حصل شيء من الجفاء بين بني هاشم وبني تيم بعد انتخاب أبي بكر ﷺ خليفة للمسلمين، ربما ترك شيئا في النفوس. ومال الزبير ﷺ إلى علي ﷺ حمية للنسب. ووهب سعد بن ابي وقاص ﷺ حقه من الشورى لعبد الرحمن بن عوف ﷺ لأنهما من بني زهرة، ولعلمه بأن الأمر لا يتم له. أما عبد الرحمن ﷺ فقد أخرج نفسه من المجلس، محاولة منه لأنهاء الخلاف ، فانحصر الاختيار بين اثنين فقط هما : علي وعثمان ﷺ. [ابن عساكر مخطوط م 345/12 ]

ولاحظ عبد الرحمن بن عوف ﷺ توجه الأمة إلى عثمان ﷺ، وقد تاكد له ذلك بعد استطلاعه آراء اصحاب رسول الله ﷺ، ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس." فكان لا يخلو برجل إلا أمره بعثمان. كما لاحظ إجماع ضعفاء الناس ورعاعهم على عثمان أيضاً. يقول المسور بن مخرمة ﷺ عن مشاورات عبد الرحمن ﷺ : "وخرج يتلقى الناس في انقاب المدينة متلثما لا يعرفه أحد، فما ترك أحداً من المهاجرين والأنصار وغيرهم من ضعفاء الناس ورعاعهم إلا سألهم واستشارهم، أما أهل الرأي وذوو الأسنان فأتاهم مستشيرا، وتلقى غيرهم سائلا يقول : من ترى الخليفة بعد عمر، فلم يلق أحداً يستشيره ولا يسأله إلا ويقول عثمان ". [ مؤلف مجهول 25-26 ] هذا الإجماع العام على عثمان، ربما كان وراءه نشاط الأمويين، الذين استعادوا شيئا من نفوذهم أيام الرسول ﷺ ، وحصلوا على مكانة لهم في المجتمع الجديد، فنجحوا في التأثير في الناس، وترجيح كفة عثمان ﷺ. كما يبدو أن المسلمين عامة والقرشيين خاصة ، كانوا يفضلون من يسوسهم سياسة ألين من سياسة عمر بن الخطاب ﷺ ، التي اتسمت بالشدة عموما. إذ كان المهاجرون القرشيون متذمرين من منع عمر ﷺ إياهم من الخروج إلى الأمصار للأشتراك في الجهاد، والتجارة، فأحبوا عثمان ﷺ لما عرف عنه من سماحة ورفق ولين وكرم. وخشوا إذا وليهم علي ﷺ أن يواصل سياسة قريبة من شدة عمر، الذي وصفه بأنه جدير إذا وليهم أن يحملهم على طريق الحق.

وفي الوقت نفسه، كانت فكرة التخوف من استئثار بني هاشم بالخلافة وحجبها عن سائر العرب، أحد الأسباب وراء اندفاع الناس لعثمان ﷺ، وقد أشار علي ﷺ صراحة إلى هذا الأمر، فقال للمقداد بن الأسود"... إن الناس ينظرون إلى قريش، وقريش تنظر إلى بيتها فتقول : إن ولي عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبداً، وما كانت في غيرهم من قريش تداولتموها بينكم ". [ الطبري 233/4 ] هذا فضلاً عن أسباب أخرى خاصة بعثمان ﷺ، ربما أبرزها السن والغنى، فعثمان ﷺ شيخ بني عبد مناف وكبيرها، وصاحب اليد الطولى في دعم الإسلام ومساندته، مع استبعاد فكرة سيطرة راس المال على الأحداث في تلك المرحلة المبكرة من عمر الدولة. أما القول بأن عثمان ﷺ اختير لأنه أضعف الستة فهو مردود، لأن عثمان ﷺ كان أقواهم عصبية.

وحار عبد الرحمن ﷺ في كيفية حسم الأمر بين علي وعثمان ﷺ، فخاطبهما قائلا : "إني قد سألت عنكما وعن غيركما، فلم أجد الناس يعدلون بكما " ثم قال للناس : " أيها الناس، إني قد سألتكم سرا وجهرا عن إمامكم، فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين إما علي وإما عثمان ". واهتدى أخيراً بأن جعل العمل بسيرة الله ورسوله وسيرة الخليفتين من بعده، أساسا للترشيح، فضلاً عن شرط عمر الأساسي بأن لا يجعلا بني هاشم وبني أمية على رقاب الناس. فرفض علي ﷺ تلك الشروط واعتبرها عبئا لا يقدر عليه، وجعل الاجتهاد أساسا لبيعته، فقال : " أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي ". [ الطبري "1978" 238/4] ثم قال : اجتهد برأيي ". وفي رواية اخرى أنه قال : " لا أحمل عهد الله وميثاقه على ما لا أدركه ولا يدركه أحد، من ذا يطيق سيرة رسول الله ﷺ، ولكني أسير من سيرته بما يبلغه الاجتهاد في، وبما يمكنني وبقدر علمي " . [ البلاذري "1959" ق 507/1/4 ] واعترض علي ﷺ أيضاً على شرط عمر ﷺ، فقال لعبد الرحمن بن عوف : " مالك ولهذا إذا قطعتها في عنقي ؟ فان علي الاجتهاد لأمة محمد حيث علمت القوة والأمانة استعنت بهما، كان في بني هاشم أو في غيرهم " .[ مؤلف مجهول "1978" 26 ]

أما عثمان ﷺ، فاتخذ موقفا مغايرا لموقف علي ﷺ، وأعلن موافقته على تلك الشروط قائلا : " اللهم نعم" وفي رواية أخرى أنه قال : " أنا يا أبا محمد أبايعك إن وليتني

هذا الأمر على سنة الله ورسوله وميثاقه وسنة الماضين قبل – قالها عثمان في الثلاث " وكان لتلك الإجابة وقعها الإيجابي ، فبادر عبد الرحمن وأصحاب الشورى إلى مبايعة عثمانﷺ على سنة الله وسنة رسوله وسنة الخليفتين من بعده. وقال عبد الرحمن ﷺ ويده بيد عثمان ﷺ : " اللهم اسمع واشهد، اللهم إني قد جعلت ما في رقبتي من ذاك في رقبة عثمان". [الطبري "1978" 238/4 ] ثم قصد مقعد النبي من المنبر، وأقعد عثمان ﷺ على الدرجة الثانية، فتزاحم الناس على مبايعته من غير قهر واضطهاد. فكان عبد الرحمن ﷺ أول من بايع، ثم علي بن أبي طالب ﷺ الذي ضرب على كف عثمان بالبيعة، فكانت أول كف وقعت على يد عثمان ﷺ.

وأقبل طلحة ﷺ في اليوم الذي تمت فيه البيعة، فبارك تلك الخطوة، وبايع عثمانﷺ أسوة بقريش والناس كلها.

وتحسن الإشارة هنا إلى مضمون بعض الروايات عن اختيار عثمان ﷺ ، وعن نصيحة الأمة بهذا الاختيار. مع ملاحظة أن تلك الروايات لم تكن مدنية، بل عراقية، تناولت هذا الموضوع بواقعية بعيدة عن التحيز، وقد سأل المطرف بن عبد الله بن الشخير ( ت 95 هـ/713 م) حذيفة بن اليمان ﷺ ( ت 36 هـ/ 656 م ) عن اختيارهم لعثمان ﷺ ، وهل نصحوا الأمة بذلك أم غشوها ، فقال " نصحناهم". وقريب من ذلك رواية حفص بن غياث ( ت 194 هـ/809م) عن المحدث شريك بن عبد الله النخعي ( ت 177 هـ /793 م) الذي يقول..." فلما حضرته الوفاة ( أي عمر ﷺ جعل الامر شورى بين ستة نفر من أصحاب النبي ﷺ، فإجتمعوا على عثمان ﷺ، فلو علموا أن فيهم أفضل منه كانوا قد غشونا" وفي رواية أخرى أنه قال: "... فلو علم أصحاب محمد أن في القوم أحداً أحق بها من عثمان، ثم نصبوا عثمان وتركوا ذلك الرجل، لقد كانوا غشوا هذه الأمة " . [ الطبري "1978" 242/4 ] وهكذا تمت مبايعة عثمان، فاستقبل بخلافته المحرم من سنة (24 هـ/ 645 م) .

بدأ عثمان ﷺ خلافته بتوجيه العمال في الأمصار، للاهتمام بأمور المسلمين."... فان الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، و لم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة... ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فيما عليهم فتعطوهم مالهم، وتأخذوهم بما عليهم... وقريب من

ذلك توجيهاته لعمال الخراج" ... خذوا الحق وأعطوا الحق به ". ومن جهة أخرى أكد عثمان سيره على نهج أسلافه " مضى قبلي صاحباي رحمهما الله فهما لي سلف وقدوة ، فإنما أنا متبع... ". وقال فيما يخص الثغور: "... وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا، بل كان عن ملأ منا، ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم...". [ الطبري "1978" 245/4 ]
هذا التوجه الصريح لرعاية الأمة ، والسير على هدى مؤسسيها، يجعل الانتقادات الكثيرة التي طالت سياسة عثمان الإدارية، والمالية، موضع نظر. ولكن في الوقت نفسه يلفت الانتباه موضوع الفيء واختلاف النظرة إليه بين الدولة والمقاتلة. فقد توحد العرب تحت راية المثل الأعلى للجهاد، وتحولت الأمة إلى جيش كبير قوامه القبائل يأخذون الغنائم ويوزع عليهم العطاء ، إلى أن قرر عمر بن الخطاب ﷺ استثناء الأرض من الغنيمة، واعتبارها فيئا موقوفا لعامة المسلمين. وهذا يعني إلغاء فكرة تقسيم الأرض، وإبقاءها بين أصحابها مقابل ضريبة الخراج. وكان نتيجة هذا القرار أن ظهر مفهوم جديد للفيء وهو الأراضي المفتوحة عنوة. أما الغنيمة فقد اقتصر تطبيقها على الأموال المنقولة مثل الذهب والفضة والسلاح والكراع. وكانت دوافع عمر ومؤيديه من كبار الصحابة أساسية تنطلق من ضرورة توفير مورد ثابت للمقاتلة، والخوف من انفراد المقاتلة وأبنائهم بالأراضي دون سائر المسلمين، مع احتمال توقف الفتوح وبالتالي توقف مصدر تموين الجيوش، وتاثير ذلك في الأفواج القادمة. هذا إلى جانب الخوف من انشغال المقاتلة بالزراعة وانصرافهم عن الجهاد.

وعلى الرغم من معارضة المقاتلة لهذا القرار في البداية، لقناعتهم في حقهم بالأرض فإنهم قبلوا وعدوا وارد الأرض حقا لهم ، ربما لانشغالهم بالفتوح التي أدرت عليهم المال الوفير ، إلى جانب شخصية عمر ﷺ وشدته في الحق ولكن بعد توقف الفتوح ، برزت لدى المقاتلة مرحلة جديدة من التفكير و التدريب في علاقتهم مع الدولة التي تعاظم نفوذها ، وضعف دور المقاتلة ، فأصبحوا تحت رحمة الدولة ، توزع عليهم العطاء مع احتمال نقصانه أو انقطاعه حسب الظروف .

ووجدت المقاتلة في تدابير عثمان، مجالا للتعبير عما في خاطرها، فانتقد لمنحه بعض الصحابة قطاعات من أراضي الصوافي في السواد. والصوافي ابتداء هي كل أرض لم

يكن لها مالك عند الفتح، فعدت فيئا للمقاتلة، تقسم بينهم بعد أخذ الخمس للدولة. ولكن ولاعتبارات استراتيجية تركت تلك الأراضي دون تقسيم، واكتفي بتوزيع واردها على المقاتلة بعد عزل الخمس ورأى عثمان ﷺ أن من حقه منح الإقطاعات ما دامت من خمس بيت المال فأقطع أعدادا متواضعة لا تتجاوز التسعة، منهم خمسة من أصحاب الرسول ﷺ. [ أبو هلال العسكري "1987" 123 ]

وانتقد عثمان ﷺ لقراره مبادلة أراضي الصوافي في السواد بأراض في جزيرة العرب، وهو قرار جرئ اتخذه عثمان ﷺ بعد ظهور بوادر شغب أثارها المقاتلة في الأمصار، مطالبين بحقهم في الفيء. ويذكر سيف بن عمر أن عثمان ﷺ جمع أهل المدينة فقال : " يا أهل المدينة إن الناس يتمخضون بالفتنة وإني والله لا تخلص الذي لكم حتى انقله اليكم إن رايتم ذلك .... وعندما تساءلوا عن كيفية تحقيق هذا الأمر، قال " نبيعها ممن شاء بما كان له بالحجاز " ، [ الطبري "1978" 280/4 ] وهذا ما ذكره ابن عساكر ايضا ( 571 هـ/ 1176 م ) في روايته عن الموضوع. [ "1984" 312 ]

وأحس المقاتلة في الكوفة، أن قرار عثمان ﷺ ادى إلى تقليص أراضي الصوافي، وبالتالي تقليص واردهم منها. فكانت الصوافي من أسباب النقمة التي حصلت في مجلس سعيد بن العاص ﷺ في الكوفة، وأدت إلى توسيع الفجوة بين الدولة والمقاتلة . فقد أشار سعيد بن العاص ﷺ إلى السواد بانه بستان قريش، تتصرف به على وفق ما تراه مناسبا، مما أثار الخاصة والعامة لتجاوز الدولة على حقهم . يقول المدائني عن أبي مخنف : "... فقال سعيد: والله ما السواد إلا بستان لقريش ما شئنا أخذنا به، وما شئنا تركنا. فقال له الأشتر : أنت تقول هذا أصلحك الله وهذا من مراكز رماحنا وفيئنا ..." [ البلاذري "1959" 529/1/4 ]

وهكذا فإن اختلاف النظرة إلى الفيئ، بين الدولة والمقاتلة، كانت سببا لإثارة الفتنة في الأمصار، إلى جانب أمر آخر، وهو اعتزاز القبائل بدورها في الفتوح، وإظهارها عدم الرضى عن احتكار قريش للسلطة والنفوذ، مع ملاحظة أن هذا الشعور تجاه قريش كان قديما، لعله يعود إلى أيام بدر ولكنه لم يكن ظاهرا، فلما تحققت السيادة لقريش قوي هذا الشعور لدى القبائل، ووجدت في تدابير عثمان ﷺ حافزا لظهورها. إذ تتحدث الروايات عن

نشاط قريش التجاري أيام عثمان ﷺ، وتوسع استثماراتهم في الأمصار، بعد رفع الحظر الذي كان مفروضا عليهم أيام عمر ﷺ. يقول سيف في أحداث سنة (35 هـ/656 م) " لم تمض سنة من أمارة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش أموالا في الأمصار" وقد لفت هذا النشاط أنظار القبائل الاخرى، وشعرت بحصول تباين اقتصادي كبير بينها وبين قريش، زاد في حدة التذمر من قريش والنقمة عليها. ولعل في جواب أحد المبعدين إلى معاوية، وكانوا قد أرسلوا من الكوفة إلى الشام إثر احداث الشغب في سنة (33 هـ/ 654 م) ما يعبر عن تلك النظرة بوضوح. " أما ما ذكرت من قريش فإنها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهلية فتخوفنا ...". [ الطبري "1978" 198،319/4 ]

وتطاولت الأمصار على ولاة عثمان ﷺ، وطالبت بخلعهم. وكانت الكوفة من أكثر الأمصار اضطرابا، فاعترضت على ولاتها بدءا بالوليد بن عقبة الذي أحبته العامة وكرهته الخاصة ، وطالبت بعزله لمحاولته ضبط الأمور فيها وطلب عثمان ﷺ من سعيد بن العاص ، الذي جاء بعد الوليد بن عقبة، أن يقرب أشراف الكوفة ووجوهها ، وبعض اللواحق والروادف ، إلى أن لاحظ غلبتهم على الأشراف الذين أصبحوا قلة، فطلب منه تفضيل أهل السابقة. " ففضل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد، وليكن من نزلها بسببهم تبعا لهم.. واحتفظ لكل منزلته واعطهم جميعا بقسطهم من الحق...".

ويلاحظ أن حركة الأشتر في الكوفة، والتي جاءت تعبيرا عن رفض الأمصار لسلطان قريش، ضمت رهطا من وجوه الكوفة وأشرافها، فضلاً عما اجتمع إليهم من عامة الناس، فقوي الشغب بينهم، وأخذوا بالطعن على عثمان ﷺ وواليه سعيد بن العاص.

وحاول الأشتر توسيع نطاق المعارضة، لتشمل الناس كافة، فأثار موضوع العطاء ، وهو موضوع غاية في الأهمية بعد توقف الفتوح، وتراجع وارد الغنائم. فقال محرضا " أيها الناس إني قد جئتكم من عند أمير المؤمنين عثمان، وتركت سعيدا يريده على نقصان نسائكم إلى مائة درهم، ورد أهل البلاد منكم إلى الفين ". [الطبري "1978" 331/4 ]

وعلى الرغم من التزام حلماء الناس ووجوههم جانب سعيد بن العاص فان حركة الأشتر، ضمت جماعات وصفهم معاوية بن أبي

سفيان لعثمان ﷺ قائلا : " .. فانهم ليسوا لأكثر من شغب أو نكير شيئاً " وقال عنهم : " ليست لهم عقول ولا أديان، أثقلهم الإسلام وأضجرهم العدل، لا يريدون الله بشيء ولا يتكلمون بحجة، إنما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة .." ثم قال : "... ويأتون الناس – زعموا– من قبل القرآن ، فيشبهون على الناس، وليس كل الناس يعلمون ما يريدون، وإنما يريدون فرقة ويقربون فتنة...". ويظهر أن الخوف من الفتنة هو الذي دفع عثمان ﷺ إلى استرضاء أهل الكوفة بعزل سعيد بن العاص ﷺ، وتعيين أبي موسى الأشعري ﷺ واليا عليهم. [ الطبري "1978" 321،325،336/4 ]

وطالبت قبائل البصرة بعزل أبي موسى الأشعري، لأسباب تبدو خاصة به ، ولكنها في الواقع لا تخرج عن نطاق الأسباب التي دفعت قبائل الكوفة إلى الشغب على الولاة والمطالبة بعزلهم. وطالبت المقاتلة في مصر بحقهم في الفيء، واعترضوا على إرسال جزء منه إلى المدينة، أو النفل منه.

وتتطور الأحداث سريعا، وتتسع حدة الشغب، بتحرك المعارضة من الأمصار إلى المدينة، باعداد تقارب التسعمائة بظاهر الحج. فقدم من مصر ستمائة من عشائر بلي وتجيب والليث ويافع والسكون وعك، وعلى رأسهم عبد الرحمن بن عديس البلوى، وكنانة بن بشر بن عتاب الكندي. وقدم من الكوفة مائتان برئاسة الأشتر النخعي. كما قدم من البصرة مائة رجل برئاسة حكيم بن جبلة العبدي.ويبين سيف بن عمر أن المعارضة حاولت الاتصال ببعض الصحابة في المدينة بدعوى التنسيق معهم، إلا أن محاولتهم باءت بالفشل.

وحاول عثمان ﷺ معالجة الفتنة، بالاستجابة لمطالب المعارضة الخاصة بتوفير الفيء والعدل في القسمة على أن يعودوا لبلادهم. فكتب إلى المعارضين : ".. والمال يوفر ويسن فيه السنة الحسنة ". إلا أن اختلاف النظرة إلى الفيء جعلت التوصل إلى حل أمرا مستحيلا.

وتظاهرت المعارضة بالتفرق، ولكنهم تجمعوا ثانية، ودخلوا المدينة دون مقاومة تذكر، لعدم وجود قوة فيها تستطيع التصدي للمعارضة. وهذا يعني أن الذي كان يحمي الخليفة فعلا هو التقوى والولاء الرسمي، مدعوما بمركز المدينة الأدبي وإن تجاوز هذين الأمرين قد اظهر عجز مؤسسة الخلافة في

تثبيت تلك المفاهيم في الأمصار خاصة. فقد سيطرت المعارضة على المدينة دون الاهتمام بأية اعتبارات دينية أو أدبية، وطالبت عثمانﷺ بخلع نفسه "فليس مثلك من يلي، اخلع نفسك من هذا الأمر كما خلعك الله منه". فرفض عثمان ﷺ ذلك بمشورة من ابن عمر حتى لا تكون سنة. " فلا أرى لك أن تخلعها، ولا أرى لك أن تخلع قميصا قمصكه الله فيكون سنة، كلما كره قوم إمامهم أو خليفتهم خلعوه".

وافق عثمان ﷺ بأنه ليس من حق الخليفة أن يخلع أمر الله الذي خصه به على الآخرين " فلا أنزع قميصا قمصنيه الله عز وجل وأكرمني به وخصني به على غيري ". [الطبري "1978" 367/4 ] ثم قال "... فان تصلبوني أحب إلي من أن أتبرأ من أمر الله عز وجل وخلافته" ومع ذلك، تسارعت الأحداث وأقدمت المعارضة على قتل عثمان ﷺ في 18 ذي الحجة سنة 35 هـ/ 656 م. فكان استشهاده بداية لتحول بالغ الأهمية، ظهرت فيه الأمصار كقوة جديدة فاعلة في الحكم، كما كان نقطة البدء في الصراع السياسي الذي طبع تاريخ العرب بطابعه قرونا طويلة.

## ظروف اختيار علي بن ابي طالب وموقف المعارضة من ذلك :

بقيت المدينة بعد مقتل الخليفة عثمانﷺ تحت سيطرة المعارضة التي فشلت في توفير الأجواء المطمئنة للناس كما فشلت في الاتصال ببعض الصحابة، واقناع البعض الآخر للقيام بالأمر. وظل المعارضون أياما في حيرة لا يدرون ما يصنعون، إلى أن تذكروا وهم اصحاب القرار الآن، أن الأمر هو أمر أهل المدينة، فقالوا لهم : "... أنتم أهل الشورى وأنتم تعقدون الإمامة، وأمركم عابر على الأمة فانظروا رجلا تنصبونه ونحن لكم تبع ". ثم قرروا الضغط عليهم، للإسراع في عملية الاختيار. فقالوا لهم : " يا أهل المدينة فقد أجلناكم بيومين فو الله لئن لم تفرغوا لنقتلن غدا عليا وطلحة والزبير وأناسا كثيراً ".

وقدر أهل المدينة صعوبة الموقف وخطورته، فكان أمامهم أربعة من رجال الشورى هم : علي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص ﷺ ، فمالوا إلى علي ﷺ و لم يعدلوا به أحدا. " نبايعك فقد ترى ما نزل بالإسلام وما ابتلينا به من ذوي القربى ، فقال علي : دعوني والتمسوا غيري فإنا مستقبلون أمرا له وجوه وله ألوان لا تقوم به القلوب ولا

تثبت عليه العقول. فقالوا ننشدك الله ألا ترى ما نرى، ألا ترى الإسلام، ألا ترى الفتنة، ألا تخاف الله..." . [ الطبري "1978" 433،434/4 ] والذي يلفت الانتباه هذا التوجه لعلي ﷺ والإجماع على بيعته الآن، فمع تاكيد الروايات فضل علي ﷺ ، من حيث السابقة، والقرابة من الرسول ﷺ ، والمصاهرة، والعلم. وهي مؤهلات لا شك أعطت علياً ﷺ تميزا ونفوذا بين الصحابة، فضلاً عن كونه المرشح الثاني للخلافة، كما ظهر في استفتاءات الشورى، إلا أنها لم تعط عليا ﷺ سمات جديدة، تبرر هذا الاندفاع. ولكن يظهر أن تهديد المعارضة لأهل المدينة والضغط عليهم، كانا وراء هذا التوجه.

وقد حاول علي ﷺ التخفيف من حدة هذا الضغط بتأكيده على الشورى والمطالبة بها، فقال للناس : " لا تعجلوا فإن عمر كان رجلا مباركا وقد أوصى بها شورى، فامهلوا يجتمع الناس ويتشاورون ". وفي رواية اخرى أنه خطب في المسجد فقال : " ليس ذاك إليكم ، إنما ذاك إلى أهل بدر، فمن رضي به أهل بدر فهو خليفة ".

وكان متوقعا بعد هذا التاكيد أن يحظى علي ﷺ بتأييد واسع من أصحاب الشورى التقليديين، وهم المهاجرون. إلا أن التأييد لاختياره كان أقوى في الأنصار، " فلم يتخلف أحد منهم عن بيعته" ، [ الطبري "1978" 429،431/4 ] ووقفوا إلى جانبه، ونظروا إليه بعين الرضا لمكانته الأثيرة بينهم. يقول ثابت بن قيس الأنصاري ﷺ ، وكان خطيب الأنصار " والله يا أمير المؤمنين لئن كانوا تقدموك في الولاية فما تقدموك في الدين، ولئن كانوا سبقوك أمس فقد لحقتهم اليوم، ولقد كانوا وكنت لا يخفى موضعك، ولا يجهل مكانك، يحتاجون إليك فيما لا يعلمون وما احتجت إلى احد مع علمك" ويقول خزيمة بن ثابت الأنصاري ﷺ : " يا أمير المؤمنين ما أصبنا لأمرنا هذا غيرك، ولا كان المنقلب إلا إليك...". [ اليعقوبي "1980" 179/3] أما المهاجرون، فيبدو أنهم كانوا حذرين من اصرار علي ﷺ على اتباع أسلوب الاجتهاد في الحكم"... واعلموا إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم..." ، [ الطبري "1978" 434/4 ] مخافة الابتعاد عن سيرة السابقين. فضلاً عن أن بعض القرشيين لم ينسوا مضاة سيف علي فيهم يوم بدر. فقال الوليد ابن عقبة، وكان قد امتنع عن البيعة في بادئ الأمر: " يا هذا إنك قد وترتنا جميعا، أما

أنا فقتلت أبي صبرا يوم بدر، وأما سعيد (بن العاص) فقتلت أباه يوم بدر، وكان أبوه من نور قريش، وأما مروان ( ابن الحكم) فشتمت أباه وعبت على عثمان حين ضمه إليه..". [ اليعقوبي "1980" 178/3 ]

وبعد هذا يمكن القول بأن عليا ﷺ اختير باجماع أهل المدينة ، ورجال المعارضة، أو كما سماهم علي ﷺ ، أهل هذين المصرين، في ظروف صعبة تجرأت فيها المعارضة على المدينة، وتحكمت بمقاليد الأمور فيها. فكان أمر علي فيها كما وصفه أحدهم فقال " والله يا أمير المؤمنين لقد زِنْت الخلافة وما زانتك، ورفعتها وما رفعتك، وهي كانت أحوج إليك منك إليها" وتمت بيعة العامة في مسجد رسول الله تعبيرا عن رضى الناس . فبايعوه في سنة (36 هـ/ 657 م ) باستثناء نفر من الأشخاص ، وصفوا بأنهم عثمانية ، كانوا قد تخلفوا عن البيعة. أما طلحة والزبير ﷺ ، فتقدموا من علي ﷺ بعد اختياره مباشرة، مطالبين بإقامة الحدود على قتلة الخليفة عثمان ﷺ " يا علي إنا اشترطنا إقامة الحدود وإن هؤلاء القوم اشتركوا في دم هذا الرجل وأحلوا بانفسهم " . [ الطبري "1978" 437/4 ]

ونفهم من بعض الروايات أن المعارضة للخليفة عثمان ﷺ لم تكن من الغوغائيين من أهل الأمصار فحسب، بل كان معهم عبيد أهل المدينة والأعراب. فتنبه الإمام علي ﷺ على ذلك فقال : " يا إخوتاه، إني لست أجهل ما تعلمون، ولكني كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم، ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم أعرابكم، وهم خلالكم يسومونكم ما شاؤوا فهل ترون موضعا لقدرة على شيء مما تريدون؟ قالوا : لا ...قال فاهدأوا عني وانظروا ماذا يأتيكم..." ، [ الطبري "1978" 4/ 448،450 ] وتنبه معظم اهل المدينة على تلك الحقيقة، بما فيهم طلحة والزبير، فقالا للسيدة عائشة عندما سألتهما عن الأإوضاع في المدينة فقالت: " ما وراءكما؟ فقالا وراءنا أنا تحملنا بقلِّيَتَّنا هُرّاباً من المدينة من غوغاء وأعْراب...". [ الطبري "1978" 450/4 ]

وحاول علي ﷺ تفتيت تلك القوى تدريجيا، فطالب أولا بعودة العبيد إلى أسيادهم، ونادى معلنا برئت الذمة من عبد لم يرجع إلى مواليه ".

ويبدو أن هذا الإعلان قد أثار الأعراب، الذين ساندوا المعارضة تعبيرا عن

كرههم التقليدي لأهل المدينة، فقالوا: " لنا غدا مثلها، ولا نستطيع أن نحتج فيهم بشيء ". وتحقق ما اعتقدوه، إذ نادى علي ﷺ بعد أيام، مطالبا الأعراب اللحاق بمياههم " يا أيها الناس اخرجوا عنكم الأعراب، يا معشر الأعراب الحقوا بمياهكم " . وتلك محاولة ذكية من علي، لتجريد المعارضة من قوة بشرية كبرى كانت مساندة لها . إلا أن حرمة طلحة والزبير ﷺ قد أفسدت تلك المحاولة، وزادت في إرباك موقف علي ﷺ في المدينة خاصة.

وتسهب الروايات في الحديث عن مدلولات حركة طلحة والزبير ﷺ ، وعن دوافعها. فتشير بعض الروايات إلى وجود طموح خفي لديهما للوصول إلى الحكم دفعهما للخروج في حين تشير روايات أخرى إلى دوافع اقتصادية، كانت وراء خروجهما للاستفادة من ثروات العراق.

وبالرجوع إلى موقف طلحة والزبير ﷺ من الخلافة، ،وبالنظر إلى إمكانياتهما المالية، نستنتج ما ينفي فكرة خروجهما طمعا بمكاسب سياسية أو اقتصادية. وتبقى فكرة النخوة باقامة الحد على قتلة عثمان ﷺ ، وإعادة الهيبة للخلافة، دافعا لهما للخروج. أما السيدة عائشة، فكان موقفها واضحا تماما، بدعوتها إقامة كتاب الله بإقامة حدوده"... إلا أن مما ينبغي لا ينبغي لكم غيره، أخذ قتلة عثمان ﷺ ، وإقامة كتاب الله عز وجل ... [ الطبري "1978" 464/4 ]

و لم تلق الدعوة تاييدا واسعا في مكة، فتراوحت أعداد المؤيدين بين ستمائة إلى ألف، فضلاً عن الأمويين الذين كانوا قد لجأوا إليها بعد مقتل عثمان ﷺ.

أما البصرة ، فاستجابت لتلك الدعوة بأعداد تقارب 30.000 ، وسارعت إلى تأييد طلحة والزبير ﷺ لإقامة الحد على من شارك في قتل عثمان. فنادى مناد بالبصرة قائلا : " ألا من كان فيهم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة فلياتنا بهم، فجيء بهم كما يجاء بالكلاب، فقتلوا..." . ثم كتبوا إلى الشام والكوفة والمدينة طلبا للمساعدة . [ الطبري "1978" 472/4 ]

ووصل إلى الأمام علي ﷺ نبأ خروجهم إلى البصرة " قد اظهروا الخلاف " واشتد الأمر على أهل المدينة، ووقعوا في حيرة فكرية عنيفة منعتهم من الخروج "... لا والله ما ندري كيف نصنع، فإن هذا الأمر لمشتبه علينا، ونحن مقيمون حتى يضيء لنا ويسفر " وأضعف أهل المدينة موقف الأمام علي ﷺ،

فسار إلى الكوفة لوجود الرجال والأموال هناك، وربما كان الإمام علي ﷺ محقا في نظرته، فلم يخرج معه من المدينة سوى أعداد قليلة تتراوح بين 300، الى 800 رجل، مقارنة بالأعداد التي انضمت إليه في الكوفة، فكانت بين 7.000 ، إلى 12.000 رجل [الطبري "1978" 500/4 ]

وتوجه الإمام علي ﷺ إلى البصرة، في محاولة منه للتفاهم مع أقطاب الحركة. فكرروا المطالبة بدم الخليفة عثمان ﷺ، وجعل الأمر شورى بين المسلمين. وحاول الإمام علي ثانية فدعاهم إلى كتاب الله حقنا للدماء "…. هو بيننا وبينكم من أوله إلى آخره، والله في دمائنا ودمائكم ". إلا أن محاولته لم يحالفها النجاح فقامت معركة الجمل التي انتهت بانتصار جيش الإمام علي ﷺ في جمادى الآخرة من سنة (36 هـ/ 657 م) وأخذه البيعة من أهل البصرة والعراق ، فغدت الكوفة عاصمة الخلافة الجديدة. وبذلك انتقل مركز الثقل السياسي من المدينة إلى الأطراف، وانتقل معه الإجماع الذي كان منعقدا حول الخلافة (الشورى) وحل محله السيف والقوة في تقرير اسم الخليفة الجديد.

يتضح مما تقدم، أن مؤسسة الخلافة قامت بعد وفاة الرسول ﷺ، واستنار القائمون بها بالمبادئ الإسلامية،فضلاً عن بعض التقاليد السياسية العربية .

واقتصر النظر في تنظيم هذه المؤسسة على كبار الصحابة في المدينة ، لاسيما المهاجرين. وظهرت بعض الخطوط أهمها رفض فكرة الوراثة والأخذ بفكرة الاختيار. ووجد الصحابة أن طريقة الاختيار مسالة تقع في حدود الشريعة، بل ترتبط بالظروف المتغيرة من وقت لآخر، ولهذا لم يجدوا بأسا في أن تختلف وسائلهم للاختيار. فكان بطريق الانتخاب المباشر أو بالاستشارة التي تسبق التعيين أو بتسمية مجلس شورى، مع ملاحظة أن الاختيار كان من قريش.

**أ.د. غيداء خزنة كاتبي**

**المصادر والمراجع :**

البلاذري ، أحمد بن يحيى ت 279هـ/892م (1959) أنساب الاشراف تحقيق الدكتور محمد حميد الله ، مصر ، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالاشتراك مع دار المعارف بمصر .

ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي ( ت 852 هـ/1421م) (د.ت) الإصابة في تمييز الصحابة ، 13 جزءا في 6 مجلدات، وبهامشه الاستيعاب في معرفة الاصحاب، تحقيق طه محمد الزيني، القاهرة، مكتبة الكليات الازهرية.(1968) تهذيب التهذيب، (12) جزءا، نشر مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند، بيروت طبعة بالأوفست، دار صادر .

ابن أبي الحديد، عز الدين ابو حامد بن هبة الله ( ت 656 هـ/1258م) (د.ت) كتاب نهج البلاغة ومعه شرح عز الدين أبي حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائني الشهير بابن أبي الحديد، بيروت ، دار إحياء التراث العربي .

ابن حزم أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري ت (456هـ/1063م) (1975) الفصل في الملل والاهواء والنحل ،بيروت ، دار المعرفة . (1347هـ) المحلى ، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الفكر، طبعة مصححة ومقابلة على النسخة التي حققها أحمد محمد شاكر .

ابن خلدون، ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد التونسي ( ت 808 هـ/ 1405م ) (د.ت) مقدمة ابن خلدون ، تحقيق علي عبد الواحد وافي، ط3 ، القاهرة، دار نهضة مصر للطبع والنشر.

خليفة بن خياط العصفري ( ت240 هـ/854م ) (1977) تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، ط2، بيروت ،دار القلم ، دمشق، مؤسسة الرسالة .

ابن الديبع الشيباني، عبد الرحمن بن علي بن محمد ( ت 944 هـ/1537م) (1977) تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسولﷺ، تحقيق محمد حامد الفقي، بيروت، نشر دار المعرفة للطباعة والنشر.

الدينوري، أحمد بن داود ( ت 282 هـ/896م) (1960) الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة جمال الدين الشيال، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي، الطبعة الأولى.

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748 هـ/1347م ) (د.ت) تذكرة الحفاظ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي .(1981-1988) سير أعلام النبلاء، حقق نصوصه، وخرج أحاديثه ، وعلق عليه شعيب الارنؤوط وآخرون، الطبعة الأولى،

بيروت، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع .

أبو زرعة، عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله الدمشقي ( ت. 280 هـ/893م) (1980) تاريخ أبي زرعة الدمشقي، جزءان، تحقيق ودراسة شكر الله بن نعمة الله القوجاني، دمشق، مجمع اللغة العربية.

الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي ( ت 538 هـ/1143م) (1982) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تحقيق سليم النعميي، بغداد، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، إحياء التراث الإسلامي، مطبعة العاني .

ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري البصري (230 هـ/844م) (د.ت) الطبقات الكبرى، بيروت، دار صادر.

السيوطي، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن (ت 911 هـ/1505م) (1976) تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة، دار نهضة مصر.

الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم ( ت 548 هـ/1153م ) (1980) الملل والنحل، جزءان ، تحقيق محمد سيد كيلاني، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر.

الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى ( ت 336 هـ/947م ) (1341) أدب الكتاب، نسخه وعني بتصحيحه وتعليق حواشيه محمد بهجة الأثري، ونظر فيه محمود شكري الآلوسي، القاهرة ، المطبعة السلفية .

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير ( ت 310 هـ/922م ) (د.ت) تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر ، دار المعارف .(1968) جامع البيان عن تأويل أي القران، (30 ) جزءا في( 12) مجلدا، ط 3 ، القاهرة، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي.

أبو عبيد ، القاسم بن سلام ( ت 224 هـ/838م ) (1981) كتاب الأموال، تحقيق وتعليق محمد خليل هراس، منشورات مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، القاهرة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط3.

ابن العربي، القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد ( ت 543 هـ) (1979) العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، حققه وعلق حواشيه محب الدين الخطيب، بيروت ، مكتبة أسامة بن زيد .

ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي ( ت 571 هـ/1175م ) (1952) تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق ، مجمع اللغة العربية، المجلد

الأول تراجم، المجلدة الثانية : القسم الاول، خطط دمشق .(1984) تاريخ مدينة دمشق، عثمان بن عفان، تحقيق سكينة الشهابي، دمشق، مجمع اللغة العربية.

أبو علي الهجري (1968) وابحاثه في تحديد المواضع، تحقيق حمد الجاسر، الرياض، دار اليمامة للبحوث والترجمة والنشر.

الفاسي، محمد بن احمد الحسني المكي ( ت 832 هـ/1428م ) (1958-1969) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، تحقيق محمد حامد الفقي، وفؤاد سيد، ومحمود محمد الطناسي، مطبعة السنة المحمدية.

أبو الفرج الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين ( ت 352 هـ/963م ) (1963) كتاب الاغاني، بيروت، دار احياء التراث العربي. (د.ت) مقاتل الطالبيين ، تحقيق السيد أحمد صقر، بيروت، دار المعرفة.

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم ( ت 276 هـ/889م ) (د.ت) عيون الاخبار، المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعة والنشر.

(1969) كتاب المعارف، حققه وقدم له ثروت عكاشة، ط 2 منقحة، مصر ، دار المعارف.

القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد ( ت 821 هـ/1418م ) (1964) مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، الطبعة الاولى ، بيروت، عالم الكتب.

ابن كثير، اسماعيل بن عمر ( ت 774 هـ/1372) (1978) البداية والنهاية، ذ2، بيروت، دار الفكر.

الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت 450 هـ/1058م ) (1978) الأحكام السلطانية ، بيروت، دار الكتب العلمية .

المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد ( ت 285 هـ) (د.ت) الكامل، عارضه بأصوله وعلق عليه محمد أبو الفضل ابراهيم، السيد شحاتة، دار نهضة مصر للطبع والنشر.

المحب الطبري، أبو العباس أحمد بن عبد الله ( ت 694 هـ/1294م ) (1971) الرياض النضرة في مناقب العشرة ، تحقيق محمد مصطفى أبو العلا، القاهرة، مكتبة الجندي .

المزى، جمال الدين أبو الحجاج يوسف ( ت 742 هـ/1244م ) (1988) تهذيب الكمال في أسماءالرجال، (35) جزءا ، تحقيق بشار عواد معروف، ط 2 ، بيروت، مؤسسة الرسالة.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت 346 هـ/957م ) (1964) مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط 4، القاهرة، المكتبة التجارية .

مصعب الزبيري، أبو عبد الله مصعب بن عبد الله بن مصعب بن ثابت ( ت 226 هـ/840م ) (1976) كتاب نسب قريش، تصحيح وتعليق ا. ليفي بروفنسال، ط 2 ، القاهرة، دار المعارف.

ابن منظور، جمال الدين ابو الفضل محمد بن مكرم (ت 711 هـ/1311م ) (د.ت) لسان العرب، بيروت، دار صادر.

مؤلف مجهول من القرن الثالث الهجري (1978) الإمامة والسياسة، تحقيق سعيد صالح خليل، رسالة ماجستير، الجامعة الاردنية .

النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب ( ت 303 هـ/915م ) (د.ت) سنن النسائي، بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي، وحاشية الإمام السندي، بيروت ، المكتبة العلمية .

ابو نعيم الاصفهاني، احمد بن عبد الله (ت430هـ/1038م ) (1974) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، مصر ، مطبعة السعادة .

ابن هشام، جمال الدين أبو محمد عبد الملك بن هشام (ت 213 هـ/828م) (د.ت) السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الابياري، وعبد الحفيظ شلبي، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله ( ت 400 هـ/1009م ) (1987) الأوائل ، بيروت ، دار الكتب العلمية .

الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر ( ت 207 هـ/822م ) (1966) كتاب المغازي، تحقيق مارسدس جونس، جامعة اكسفورد.

ابن الوردي، زين الدين عمر (ت749هـ/1348م) (1285) تاريخ ، القاهرة ، المطبعة الوهبية.

يحيى بن معين ( ت 233 هـ/847م ) (1979) كتاب التاريخ، تحقيق أحمد محمد نور سيف، الطبعة الاولى.

اليعقوبي، احمد بن واضح ( ت 292هـ/904م) (1960) تاريخ اليعقوبي، بيروت دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر .

(1980)مشاكلة الناس لزمانهم، تحقيق وليم ملورد، دار الكتاب الجديد، بيروت ، ط2.

أبو يوسف، يعقوب بن ابراهيم الانصاري ( ت 182 هـ/798م )

(1979) كتاب الخراج، اعتمد في هذه الطبعة على نسخة مخطوطة في الخزانة التيمورية رقم 674 فقه، مع معارضتها بطبعة بولاق سنة 1302 هـ ، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت .

## المراجع :

أ/ العربية :


ابن بلهيد، محمد بن عبد الله

(1972) صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار، راجعه محمد محيي الدين عبد الحميد.

اسد محمد

(1978) منهاج الإسلام في الحكم، نقله إلى العربية منصور محمد ماضي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 5 ، كانون الثاني.

الأميني، عبد الحسين أحمد

(1977) الغدير في الكتاب والسنة، بيروت، ط ، 4نشر دار الكتاب العربي.

الترمانيني عبد السلام

(1982) أزمنة التاريخ الإسلامي، أهم أحداث التاريخ الإسلامي من السنة الأولى للهجرة إلى سنة 250 للهجرة مع الترجمة لأشهر الاعلام وتعريف بالمواقع والبلدان، تحقيق شاكر مصطفى، أحمد مختار العبادي، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب.

حتي فيليب ، ادورد جرجي، جبرائيل جبور

(1986) تاريخ العرب، ط 7 جديدة منقحة، بيروت، دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع.

حمدان سمير محمود

(1975) الخلافة، نشأتها وتطورها في المدينة زمن الراشدين، رسالة جامعية، الجامعة الأردنية.

عبد العزيز الدوري

(1960) بحث في نشاة علم التاريخ عند العرب، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية.

(1950) النظم الاسلامية، الطبعة الاولى، بغداد ، مطبعة نجيب .

علي جواد

(1976) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط2، بيروت، دار العلم للملايين.

كاتبي غيداء خزنة

(1994) الخراج منذ الفتح الاسلامي حتى أواسط القرن الثالث الهجري، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الاولى.

(1978) الردة، رسالة جامعية ، الجامعة الأردنية.

فلها وزن، يوليوس

(1958) تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية. نقله عن الألمانية وعلق عليه محمد عبد الهادي أبو ريدة، راجع الترجمة حسين مؤنس، لجنة التاليف والترجمة والنشر، القاهرة.

**المقالات**

أ/ العربية :

ابو سليمان عبد الحميد

(1982) إسلامية المعرفة وإسلامية العلوم السياسية، مجلة المسلم المعاصر، رجب، شعبان، رمضان / مايو، يونيو، يوليو .

الدوري عبد العزيز

(1979) الديمقراطية في فلسفة الحكم العربي، المستقبل العربي ، السنة الثانية ، العدد9 ، ايلول / سبتمبر .

(1981) في التنظيم الاقتصادي في صدر الإسلام ، مجلة العلوم الاجتماعية ؛ عدد خاص بمناسبة دخول القرن الهجري الخامس عشر .

العسلي خالد

(1989) الشورى في العرف القبلي، الشورى في مكة قبل الإسلام، الشورى في الإسلام، منشورات المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية مؤسسة أل البيت .

**الاجنبية / المراجع**

Atiyah, Edward
(1986) The Arabs. with a preface and new concluding chapter by Joseph J. Malone, new impression Librairie du liban, Lebanon,

Lewis, Bernard
(1975-1977)The Arabs in history, Reprinted, Hutchinson of London.

Muir, sir William
(1915)The Caliphate, ilts Rise, Decline, and Fall. Edinburgh.

Thomas, Bertram
(1937) The Arabs, the Life story of a people who have left their deeb impress on the world, London, Thornton Butter worth Ltd., first published.

**الأجنبية / مقالات**

The Encyclopedia of Islam " Ali B. Abi Talib , Uthman

Martin Hinds
(1971) Kufan political alignments and their background in the mid-seventh century A.D. International journal of middle east studies, vol (2) , October, n° 4, Cambridge university press, pp 346-367.

The murder of the caliph Uthman, ( 1972) International journal of middle east studes, vol (3) October, N° 4. Cambridge University press. Pp.450-469.

## ثانياً: القضاء على الردة وتوحيد الجزيرة العربية:

نجح رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فى تأسيس دولة المدينة المنورة وحقق لها انتصارات حاسمه تسع سنوات ،في موقعة بدر (17 رمضان سنة2هـ)، وموقعة الخندق أو غزوة الأحزاب سنة 5 هـ، وصلح الحديبية سنة 6 هـ، ثم فتح مدينة مكة المكرمة التي دخلها الرسول ﷺ سنة 8هـ ورأسه تكاد تلامس قربوس سرج فرسه خشوعا وشكراً لله عز وجل الذى سبق أن بشره بالعودة في قوله تعالى : إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ". [ القصص ، الآية : 85 ]

وفي السنة العاشرة للهجرة ذهب الرسول ﷺ إلى مكة يحيط به عدد كبير من المسلمين الذين جاءوا من كل أركان الجزيرة العربية ، وأدى بهم فريضة الحج ، وهى الحجة الأولى والأخيرة له ، وفيها سن شعائر هذه الفريضة المتبعة حتى اليوم ، وقد سماها المؤرخون بحجة الوداع لأن النبي ﷺ لم ير مكة بعد ذلك وسموها كذلك بحجة التمام والكمال ، إذ نزل فيها الوحى مبشراً ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ . [ المائدة ، الآية : 3 ]

ثم أخذت وفود القبائل العربية تصل تباعاً إلى المدينة المنورة ، بعد انتشار سورة براءة ، معلنة خضوعها للإسلام بحيث سمي هذا العام بعام الوفود ، وكان رسول الله ﷺ يرسل مع هذه الوفود معلمين مهمتهم تعليم هذه القبائل قواعد الإسلام وتحصيل الصدقات منهم .

وهكذا استطاع الرسول ﷺ بما له من قدرة سياسية امتاز بها من جميع الأنبياء أن يوحد صفوف هذه الأمة المعقدة بأحزابها وفرقها المختلفة، وأن يحدد شكل الدولة الإسلامية أو المدينة الإسلامية أو المدينة الإسلامية بوصفها دولة ومدينة في آن واحد City State تسكنها جماعة متجانسة من الناس، وتنظم أمورها على بنفسها وفق دستور مكتوب ومن هنا نجد أن بعض الباحثين يستعملون في دراستهم مصطلح المدينة الإسلامية La Cité Musulmane مرادفاً

للجماعة الإسلامية لأن كلهيما صار المثل الأعلى للجماعات والمدن الإسلامية بعد ذلك.

## حركة الردة وحروبها :

بعد وفاة الرسول ﷺ فى يوم الاثنين 19 ربيع الأول سنة 11 هـ /8 حزيران سنة 632 م ، وجد اتجاهان سياسيان فى الجزيرة العربية :

**الاتجاه الأول** : هو أتجاه الجماعة الاسلامية الصحيحة من المهاجرين والأنصار وهؤلاء رأوا أن المسالة الدينية أو النبوة قد انتهت بوفاة الرسول ﷺ ،أما الناحية السياسية فهى سائدة ما دامت الدولة الاسلامية قائمة ، ولابد أن تستمر فى شخص أخر يخلفه ، وهذا كان اتجاه أهل المدينة من مهاجرين وأنصار ، وانتهى الأمر بانتخاب رجل سياسى مجرب هو ابو بكر الصديق ﷺ فى سقيفة بنى ساعدة أما الخلاف الذى وقع أثناء هذا الانتخاب بين المهاجرين والأنصار ، فهو خلاف حزبى فقط، إذ سرعان ما تمت المبايعة (وكانت المبايعة ببسط اليد أو ضربها ) .

**الاتجاه الثانى**:هو اتجاه بعض القبائل العربية التى نظرت إلى المسألة نظرة أخرى وهى أن الأسلام دين فقط لا دولة، اى أنهم أغفلوا الناحية السياسية، فما دام النبي ﷺ قد مات فلا دولة بعده وهذه الحركة تسمى بحركة الردة وليس معناها كلها الخروج على الإسلام، لأن عدداً كبيراً من المرتدين قد اعترفوا بأن الأسلام دينهم، ولكنهم لم يعترفوا بوجود دولة تحكمهم ، وشق عليهم أن يقوم أبو بكر ﷺ ويقول إنه خليفة رسول الله, يبسط كلمتة على الجزيرة ويفرض عليهم القوانين والأحكام والصدقة أو الزكاة ، وقد قال أحد شعرائهم فى ذلك :

أطعنا رسول الله ماكان بيننا
فيا لعباد الله ما لأبي بكر؟
أيورثها بكراً إذا مات بعده
فتلك وبيت الله قاصمة الظهر

هذه هي وجهة نظر الفريق الآخر من العرب، وهي تقوم على روح الاستقلال القبلية التى تأنف الخضوع للآخرين، ولم تألف أى نوع من الوحدة السياسية والدينية فى تاريخها ، فلم تستسغ تبعيتها لدولة المدينة ، وفهمت الزكاة على أنها نوع من الأتاوة تؤدي لهذه الدولة ، وعلى الرغم من أن الرسول الكريم ﷺ قد بين لهم بكل وضوح وعن طريق عماله مفهوم الزكاة وأنها ركن من أركان الإسلام، وقد قرنت بالصلاة فى آيات القرآن الكريم لأنها

تمثل حق الله تعالى في الأموال الى الفقراء، وقد سميت بالزكاة لما يكون فيها من رجاء البركة وتزكية النفس والأموال وتطهيرها ، قال تعالى ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ . [ سورة التوبة ، الآية : 103 ] إلا أن هذه القبائل لم تتفهم هذا المعنى المكمل للعبادة ،وقد وصفهم القرآن الكريم بقوله ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ . [ سورة الحجرات، الآية : 14 ]

وكان موقف الخليفة أبي بكر ﷺ من هذه الحركة موقفاً صريحا حازماً ، إذ أنه نظر إليها على أنها ارتداد وخروج عن الاسلام وحاربها بكل شدة وعنف وصرامة ، ويؤثر عنه أنه قال فى هذا الصدد : " والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة " أما المتنبئون أو مدَّعو النبوة فى جزيرة العرب ، فقد شهد الرسول ﷺ منهم قبيل وفاته: الأسود العنسي فى اليمن، وطليحة بن خويلد الأسدى فى نجد، ومسيلمة الكذاب الحنفى فى اليمامة ، وسجاح بنت الحارث التميمة فى شمال شرق الجزيرة العربية، وهؤلاء الأشخاص أرادوا انتهاز الفرصة ليجعلوا لأنفسهم نفوذا كما فعل النبيﷺ ووجدوا تأييداً من بعض القبائل التى كانت تحن إلى الرجوع إلى نظامها السياسى القديم ، وتقطع علاقتها بدولة المدينة، كذلك تدل الأحداث على أن هذه القبائل المرتدة لم تكن تؤمن بصدق المتنبئين، وإنما تظاهرت بتصديقهم عصبية لهم، وكرها لانفراد قريش بالزعامة وفى هذا يقول أحد اتباع مسيلمة– من بنى حنيفة – أشهد أن مسيلمة كذاب، ولكن كذاب ربيعة (أصل بنى حنيفة)، أحب إلينا من صادق مضر (أصل قريش) وقد رفض الخليفة ابو بكر ﷺ أن يتفاوض مع هؤلاء المرتدين أو يتساهل معهم ، بل صمم على حربهم حرباً لا هوادة فيها، فكان بهذه السياسة الصارمة يطبق قانون الاستبراء أى بيان براءة – سالف الذكر – تطبيقاً عملياً .

وتذكر المصادر أن أول حروب الردة كانت حرب الأسود العنسى فى اليمن التى انتهت بمقتلة قبيل وفاة الرسول ﷺ ثم واصل أبو بكر ﷺ محاربة جنودة وأرملته على يد المهاجر بن أبي أمية وعكرمة بن أبي جهل . [ ابن الأثير "1965" 377/2 ]

على أن أكبر القادة المسهمين فى حروب الردة، هو بلا شك القائد خالد بن الوليد المخزومي وهو شخصية معروفة بشجاعتها وبطشها فى القتال ، وقد خرج خالد بن الوليد من المدينة

المنورة متجهاً نحو الشرق ، وفى منطقة البزاخة ( عين ماء لبنى أسد ) واشتبك مع قبيلة بنى أسد ومن حالفها من قبائل عبس وذبيان وطي يقودهم أكبر المتنبئين طليحة بن خويلد الأسدى ، وقد انتهت المعركة بانتصار خالد وفرار طليحة إلى الشام حيث أسلم وقبلت توبته . [ البلاذري "1959" 1/ 645 ]

واتجه خالد بعد انتصاره على طليحة الأسدى إلى منطقة الخليج حيث قبيلة بنى تميم وزعيمها مالك بن نويرة سيد بنى يربوع الذى كان متمسكاً بالإسلام لكنه امتنع عن دفع الزكاة، وان كانت بعض المصادر تشير إلى انه أجاب دعوة سجاح بنت الحارث التميمية (أم صادر) التى جاءت من العراق وانحدرت إلى الجزيرة العربية مدعية النبوة ، فوادعها ودخل فى حلف معها . [ الطبري "1939" 502/2]

واستطاع خالد بن الوليد أن يأسر مالك بن نويره في نفر من بنى ثعلبة بن يربوع ، فأمر بحبسهم في ليلة باردة ، ثم أمر رجاله أن يدفئوا الأسرى، والادفاء في لغه كنانة القتل، فظن جنده أنه أراد قتل الأسرى فقتلوهم، وقد أسف خالد لمقتل مالك بن نويرة، وتزوج امرأته أم تميم. ولقد أثارت هذه الحادثة غضب عمر بن الخطاب ﷺ الذى طلب من الخليفة أبي بكر ﷺ أن يعزل خالدا ، وقال اعزله فإن فى سيفه رهقاً أي حدة وتسرع ، فرد أبو بكر ﷺ: " لا أشيم سيفا سله الله على الكفار" على أن أبا بكر ﷺ استدعى خالدا وعنفه على ما بدر منه، فاعتذر خالد بقوله : " يا خليفة رسول الله ، إني تأولت و أصبت و أخطأت " فعذره الخليفة وتجاوز عنه". [ ابن الأثير "1965" 2/358-359 ]

وسار خالد بعد ذلك إلى اقليم اليمامة في أواسط الجزيرة العربية وكانت تحت قيادة المتنبئ مسلمة الحنفى او مسيلمة الكذاب كما يسميه المسلمون تصغيراً وتحقيراً ، وكان قصير القامة شديد الصفرة ، وكانت الدعية سجاح التميمية قد لجأت إليه واتفقت معه فتزوجها وكونا حلفا ضد الإسلام .

وفي مكان يسمى "العقرباء" بأطراف اليمامة وقع قتال عنيف بين الطرفين، استشهد فيه عدد كبير من وجوه المسلمين وحفظة القرآن ، وزال عن خالد فسطاطه ولكن الله أنزل سكينته فى قلوب المسلمين ، فصبروا واقتحموا حديقة الموت التى يقيم فيها مسيلمة الكذاب،واقتتلوا مع أتباعه حتى تحقق لهم النصر، بينما وقف مسيلمة وراء جدران حصونه يرغي ويزبد ويهيب بقومه أن يقاتلوا على أحسابهم ، فتقدم إليه وحشي وهو يصيح

بأعلى صوته : " أنا وحشي مولى جبيربن مطعم ، قتلت خير الناس فى أحد ( يقصد حمزة عم النبى) وأنا كافر ، وقتلت شر الناس وأنا مسلم " ثم سارع أبو دجانه سماك بن خرشة الانصارى الى مسيلمة وضربة بالسيف فسقط ميتاً ، ولذا كان وحشي يقول : " ربك اعلم أينا قتله " وكان خالد بن الوليد خلال المعركة قد أسر سيد بنى حنيفة، مجاعة بن مرارة، واستبقاه عنده و لم يقتله لدرايته بالحرب والمكيدة ، فلما انتهت معركة الحديقة، شرع خالد فى مهاجمة حصون بنى حنيفة التى لم تفتح بعد ، وهنا استشار أسيره مجاعة فى شأنها فخدعه وقال له " إنها مليئة بالرجال والمقاتلة ، فدعنى أذهب إليهم ليوافقونى على الصلح فدخل مجاعة الحصون وليس فيها سوى النساء والصبيان وشيوخ ضعاف .

عندئذ أمر النساء بنشر شعورهن والوقوف مع القلة الباقية من الرجال على أسوار الحصون والرماح في أيديهن ، فخيل للمسلمين أن المدافعين عن الحصون عددهم كبير، وقبل خالد مبدأ المفاوضة والصلح معهم، ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا جميعاً .

وقد تكلل هذا الصلح بزواج خالد بن الوليد من ابنة مجاعة سيد بنى حنيفة لتعزيز هذا الصلح ، كذلك كان من بين سبي اليمامة خولة بنت قيس الحنفية التى تسرى بها الامام على بن أبي طالب ﷺ وانجب منها محمد بن الحنفية الذى دعا له بالخلافة المختار بن عبيد الله الثقفى بعد ذلك في خلافة الأمويين .

كذلك كان من نتائج هذه الحرب أن خشي كل من ابي ابكر الصديق وعمر بن الخطاب ﷺ ان يذهب الكثير من القرآن الكريم بموت حفظته وقرائه ،وضرورة الحاجة إلى نص قرآني مضبوط يجمع كل أجزائه المدونة وغير المدونة، فعهد الخليفة ابو بكر ﷺ بهذه المهمة الى زيد بن ثابت الأنصاري ، كاتب الوحى للرسول ﷺ ، فتولى زيد جمع السور المكتوبة على الجريد والاحجار والعظام وقطع الأدم – فضلاً عما يحفظه – الرجال في صدورهم ، وذلك في صحائف أو صحف ولهذا سمي مصحفاً .

والجدير بالذكر أن كل وقائع حروب الردة بدأت فى عام (11هـ/ 632م) واستمرت ضد المرتدين فى البحرين واليمن وبقية أطراف الجزيرة العربية طوال عام (12هـ/633م ) وأوائل (13هـ/634م)، وكانت النتيجة النهائية هى انتصار دولة المدينة المنورةعلى روح الاستقلال القبلى وبسط

سيطرتها على الجزيرة العربية وجعلها وحدة سياسية ودينية لأول مرة فى تاريخها .

## ثالثا : الفتوحات الخارجية واتساع دولة المدينة في عهد الخلافة الراشدة ( 12-35هـ / 633 – 656م)

### دوافع الفتوح :

ذهب رجال الكنيسة المسيحية في العصر الوسيط وتبعهم بعض المؤرخين والمستشرقين إلى القول بأن الفتوح الاسلامية كانت نتيجةلحرص المسلمين الأولين على نشر الاسلام بقوة السيف وحده ، غير أن هذا القول فى الواقع لا يستند إلى أساس سليم ، والصحيح أن الفتوح الاسلامية إنما حدثت استجابة لعدة عوامل نذكر منها عاملين أساسيين هما :

**1-العامل الدينى :** ظهر الإسلام فى الوقت الذى كانت فيه البشرية تعانى اضطهادا وتقييداً فى الحرية الدينية، فكل دولة تريد أن تفرض على رعاياها مذهبها الديني الخاص بها، ثم جاء الإسلام ممثلاً لحرية العقيدة ، وقد نص القرآن الكريم على ذلك صراحة فى قولة تعالى: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [ سورة البقرة ، الآية:256]

وقوله أيضاً ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ، [ سورة النحل ، الآية :125 ] ثم هناك خطابات الرسول ﷺ إلى الأمم المجاورة، نجد فيها تأميناً على الحرية الدينية وعلى هذا الأساس كانت سياسة المسلمين مع أهل البلاد المفتوحة تقوم على تخييرهم فى غير إكراه بين الإسلام أو الضريبة الشخصية المعروفة باسم الجزية، أي مقابل ، أو جزاء ، حمايتهم والدفاع عنهم، والجدير بالذكر أن الحروب التي شنها المسلمون على الفرس والروم وغيرهم كانت في الحقيقة موجهة إلى حكام تلك البلاد وأعوانهم الذين وقفوا في وجه نشر الدعوة الإسلامية وحالوا دون وصولها إلى شعوبهم.

فلإسلام لم يفرض نفسه على الناس و لم ينتشر بحد السيف ،كما يدعي البعض، ولا أدل على ذلك من أنه إنتشر فيما بعد-وإلى يومنا هذا-بقوته الذاتية في أقطار شاسعة لم تصل إليها جيوش المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وعلى أيدي المجاهدين والتجار والرحالة والصوفيين الذين اجتذبوا الناس الى الاسلام بحسن المعاملة والقدوة الحسنة، فالى هؤلاء جميعاً وإلى غيرهم من

جنود الله المجهولين يرجع الفضل في امتداد الاسلام الى معظم بقاع العالم، وانتشار جماعاته فى كل بلاد الدنيا في أوربا وأسيا وجمهوريات أفريقيا الاستوائية والولايات المتحدة وامريكا اللاتينيه وغيرها ، إلى جانب الأمم الرئيسية الاسلامية والعربية .

2. العامل النفسي: ربما كان هذا العامل النفسي من أهم الدوافع إلى الفتوح أيضاً وقد لاحظ ذلك المؤرخ المعروف عبد الرحمن بن خلدون حين قال بمقدمة تاريخه " أن معنويات العرب قد ارتفعت وقويت بالدين الجديد ، فالاسلام قد ألف بين قلوب المؤمنين وجعل منهم دولة ذات دين واحد ، كما أخذ يثير في انفسهم الاحساس بالعزة والكرامة والثقة بالنفس ، إذ يقول عز وجل: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ ، [ آل عمران ، الآية: 110 ]

وهكذا نرى أن إرادة التغيير المنبثقه من روح هذا الدين الجديد قد نبهت العرب على انفسهم وأشعرتهم بذاتهم التي كانوا غافلين عنها ، فاندفعوا إلى تلك الحركة التوسعية التي أمتدت إلى أواسط آسيا شرقاً ، وإلى المحيط الأطلسى غرباً نتيجة حتمية أقتضتها طبيعة هذه الحركة الاسلامية . [ فيصل "1952" 82 ]

ولقد مرت هذه الفتوحات العربية فى دورين اساسيين :

**الدور الأول** : في عهد الخلفاء الراشدين (من 12- 35هـ/632- 656 م) ويشمل فتح العراق وفارس والشام ومصر وبرقة وطرابلس والنوبة.

**الدور الثانى** : في عهد بنى أمية ( 86- 114هـ/ 705- 732 م) ويشمل فتح أواسط آسيا واقليم السند شرقاً ، وبلاد المغرب والأندلس غرباً .

والذي يعنينا في هذا المقال هو احداث الدور الأول الذي يشمل الفتوحات العربية الاسلامية في عهد الخلفاء الراشدين :

## أولاً : فتح العراق وفارس

بعد ان انتهى خالد بن الوليد من محاربة المرتدين في منطقة البحرين واليمامة، امره الخليفة أبو بكر ﷺ بمواصلة السير نحو العراق .

وكان العراق خاضعاً لحكم الفرس وتسكنه عناصر متعددة اهمها الفرس او العجم الذين أتوا من فارس ، وعناصر سامية أرامية أو سريانيه قديمة قدموا إليه من الجزيرة شمالاً

وعرفوا بالانباط أو النبط ، وعناصر عربية يمنيه نزلت جنوبه في بادية العراق أو ريف العراق مثل قبائل المناذرة اللخميين الذين استقروا في الحيرة اقتصرت حروب خالد بن الوليد على المنطقة الجنوبية للعراق التي تمتد على الضفة الغربية للفرات ، من الخليج العربى جنوباً إلى مدينتي الحيرة والأنبار شمالاً ، ففي هذه المنطقة خاض خالد بن الوليد عدة معارك ضد الفرس انتصر فيها جميعاً ، أولاها معركة ذات السلاسل على الخليج العربي، وقد سميت كذلك لأن قائدها الفارسي هرمز ربط نفسه وأصحابة بالسلاسل خشية الفرار من المعركة ، ولكنهم مع ذلك اضطروا الى الفرار أمام خالد وقد ترتب على هذه الموقعة استيلاء المسلمين على ميناء الأبلة القديم Apollogas فى شط العرب، وهو ميناء عامر كانت له علاقات تجارية قديمة مع دول الخليج والهند والصين [ياقوت الحموي "1990" 99/1 ] وقد اضمحلت الأبلة تدريجياً بعد انشاء مدينة البصرة بجوارها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ . ثم واصل خالد بن الوليد تقدمه إلى نهر الفرات يحرز النصر تلو النصر إلى أن دخل الحيرة والانبار سنه (12 هـ 632م) وصالح أهلها وفرض عليهم الجزية في ذلك الوقت وصل خالد كتاب الخليفة أبى بكر ﷺ الذي يأمره فيه بالتحول إلى الشام ، فيضطر إلى ترك العراق في يد حليفه المثنى بن حارثة الشيبانى زعيم قبيلة بكر والاتجاه غرباً إلى الشام عبر الصحراء ، وهكذا تنتهى المرحلة الأولى من فتح العراق .

أما المرحلة الثانيه من فتح العراق ، فتبدأ مع خلافة عمر بن الخطاب ﷺ حيث نجح المسلمون فى فتح الشام وتحولوا الى العراق وفارس مرة اخرى ، وأسند الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ قيادة جيوش المسلمين في العراق إلى أبي عبيد بن مسعود الثقفي وهو ممن شاركوا فى موقعة بدر ، وانضم المثنى بن حارثة تحت لواء القائد الجديد .

وتقدمت الجيوش الاسلامية نحو شاطئ الفرات، بينما وقفت الجيوش الفارسية بقيادة قائد يدعى رستم على الضفة المقابلة، وقد استخدمت الجيوش الفارسية في هذه المرة سلاحاً جديداً على المسلمين وهو الفيلة، وكان يوجد بين الفريقين جسر مشدود على النهر ،وعبر المسلمون الجسر وانتصروا اولاً ولكن خيولهم سرعان ما جمحت امام الفيلة ، وسقط أبو عبيد الثقفى قتيلاً تحت أرجل الفيلة ،

وجرح المثنى جرحاً بليغاً ، وانسحب المسلمون.

وفي نوبة من الحماسه اندفع احد المسلمين دون أن يدري نتائج ما يفعل وقطع الجسر فتساقط المسلمون المنسحبون في النهر ، وكادت الكارثه تعم بقية الجيش لولاان المثنى تحامل على نفسه وهو جريح واستطاع مع بعض أتباعه أن يعقدوا الجسر فعبره المسلمون بعد ان قتل وغرق عدد كبير منهم ، ولهذا سميت المعركة بمعركة الجسر وتؤرخ بسنه ( 13هـ/ 634 م) . [ ابن الأثير "1965" 438/2 ]

سارع الخليفة عمر ﷺ بارسال الامدادات الى المثنى بن حارثة الذي – على الرغم من جراحه – قاد المعركة ضد الفرس بشجاعة في مكان يسمى البويب حيث انتصر المسلمون انتصاراً باهراً في سنة (14هـ/635م) . ولقد توفي المثنى بن حارثة بعد هذه المعركة متأثراً بجراحه ، فأرسل الخليفة مكانه صحابياً جليلاً وقائداً شجاعا أشتهر بشجاعته فى غزوة أحد وهو سعد بن أبي وقاص .

## معركة القادسية :

قرر يزدجرد ملك الفرس أن يستعد لخوض معركة فاصلة ضد المسلمين وأعلن التعبئة العامة وجند جميع القوى لهذا الغرض ، وفي الوقت نفسه قام الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ بحركة تعبئة عامة وسارع بارسال الامدادات كما أرسل الخطباء والشعراء والنساء لإثارة النخوة وتقوية الروح المعنوية .

واستفاد سعد بن أبى وقاص من تجارب الماضي ، فلم يتورط فى قتال ضد الفرس في اراضيهم المليئة بالمياه والمستنقعات ، بل تريث ورابط بجيوشه في مكان يعرف بالقادسية إلى ان نفد صبر يزدجرد فأمر قائده رستم ان يعبر الفرات إلى المسلمين ، وفي وسط حماسة المسلمين المتدفقة دارت بين الفريقين معركة عنيفة ضارية دامت ثلاثة أيام وانتهت بنصر حاسم للمسلمين على الفرس فى سنة (16 هـ / 637م) . عبر المسلمون على أثره الفرات وتقدموا نحو نهر دجلة شرقاً ودخلوا مدينة الطيسفون عاصمة الدولة الساسانيه وهي التي أطلق عليها المسلمون اسم المدائن .

وأمر الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ ببناء الكوفة جنوبي الحيرة على يد سعد بن أبي

وقاص، وبناء البصرة فى شمال غرب الأبله بنحو 15 كم في جنوب العراق على يد عتبة بن غزوان المازنى وذلك لأهداف عسكرية واستراتيجية واقتصاية واجتماعية ولقد نمت كل من الكوفة والبصرة بعد ذلك حتى صارتا من أهم المدن الاسلامية ثقافة وعلما ، وعرفتا باسم " المصران " وبفضل الامدادات من هاتين القاعدتين نجح المسلمون فى القضاء على المقاومة الفارسية نهائياً عند مدينة نهاوند التى سماها المسلمون بفتح الفتوح سنه ( 21 هـ /641 م ) أما يزدجرد فقد فر أمام زحف المسلمين مستنجداً باصحابه ضد المسلمين ولكنه قتل بيد بعض أعوانه بالقرب من مدينة مرو سنة (31 هـ/ 652م ) وبموته انقرضت دولة الفرس . [ الدينوري "1960" 133 ]

## ثانياً : فتح الشام

الشام هي البلاد المتمدة فى شمال الحجاز وشرق البحرالمتوسط ويقال إن العرب أطلقوا عليها هذا الأسم لأنها تقع على شمال الكعبة ، بينما تقع اليمن على يمينها ، اما الأغريق فقد أطلقوا على الشام اسم سوريا وهي التسمية التى أطلقوها أصلاً على مدينة صور ثم عممت على البلاد الشامية كلها .

والشام بلاد خصبة بوجة عام ، ففى شمالها سهل حلب ويليه سهول حماة وحمص التى يغذيها نهر الأرند ويسميه العرب أيضاً نهر العاصي لذهابه إلى الشمال بدلاً من الجنوب ، ثم يلي ذلك جنوباً سهول دمشق ( الغوطة ) التى يرويها نهر بردى، ثم يلى ذلك جنوباً نهر الأردن الذى يصب فى بحيرة طبرية ، ثم نهر اليرموك فى الشرق ويصب فى نهر الاردن ، وكان يسكن الشام من قديم عناصر أغلبها سامية هاجرت إليه من قلب الجزيرة العربية مثل الكنعابين والعبرانيين والآراميين ثم عرب اليمن المعروفين بالغساسنه ، فالشام لم يكن غريباً على عرب الجزيرة الذين عرفوه من قديم عن طريق التجارة أو الزيارة أو الهجرة . [ماجد "1956" 172/1فما بعدها ]

وكان الشام يخضع سياسياً لنفوذ الروم أو بمعنى أخر للامبراطورية البيزنطية التى أقامت على حدودها فى بادية الشام أمارات عربية موالية لها لحمايتها من غارات عرب الحجاز ومن هجمات الفرس ايضاً ونذكر على سبيل المثال إمارة الغساسنة التى كان يطلق على سكانها عرب الروم أو روم العرب .

وتبدأ حروب المسلمين فى الشام منذ عهد الرسول ﷺ ، ففي السنه (8هـ/629م)

أرسل النبي ﷺ حملة من ثلاثة آلاف محارب بقيادة مولاه زيد بن حارثة، إلى أطراف الشام، وهناك عند بلدة مؤته فى جنوب شرق البحر الميت في منطقة البلقاء التقت هذه القوة العربية الصغيرة بجموع تفوقها عددا وعدة من عرب الروم وحلفائهم البيزنطيين ، فلقيت مصيراً محزناً ، إذ استشهد فيها زيد بن حارثة والراية في يده ، فتلقفها منه جعفر بن أبي طالب (جعفر الطيار ) وقاتل عنها حتى قتل بعد أن قطعت يداه فأخذ الراية بعده عبد الله بن رواحة وقاتل حتى قتل ، ثم برز خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومى وتسميه المصادر البيزنطية Chaledos وكان العدو قد احاط بالمسلمين ، فكان كل همه أن ينقذ مقاتلي المسلمين من هلاك محقق ، فأخذ يتأخر بالمسلمين قليلاً قليلاً مع حفظ نظام المقاتلين ، فلم يتبعه الروم خوفاً من أن يرمى بهم فى الصحراء ، وهكذا انصرف خالد بالمسلمين في امان الى المدينة بعد أن كسر تسعة أسياف فى المعركة ، وقد لقبه الرسول ﷺ منذ ذلك الوقت بسيف الله المسلول [ ابن الأثير "1965" 234،238/2 ] وهذه الحملة وإن كانت قد فشلت إلا أنها قد أشعرت عرب الشام بقيام دولة المدينة الجديدة في الحجاز ، كما مهدت الطريق لنشر الدعوة الإسلامية فى الشام والتحالف مع عرب الشام الذين سوف يكونون أكبر عون للمسلمين فى الحملات الكبرى التى وجهت إلى الشام بعد ذلك في أيام أبى بكر وعمر رضي الله عنهما.

وكانت الحملة الثانيه التي اتجهت الى الحدود الشامية فى عهد الرسول ﷺ كانت أكبر من الأولى وقادها الرسول ﷺ بنفسه فى السنة التالية سنه (9 هـ/ 630م ) وكان هدفها الاستيلاء على موقع استراتيجى مهم على حدود الغساسنة هو بلدة تبوك التي تبعد عن ميناء العقبة بنحو ستة أميال ، وكان غرض الرسول ﷺ من ذلك تأمين حدود المسلمين وتجارقم ، واستصلاح واحات تلك المنطقة وعيونها المائية، والتحالف مع بعض القوى التى تقيم على الحدود هناك فى عقبة أيلة وأذرح، ودومة الجندل.

وفى شهر المحرم سنة (11هـ/ 632 م) أي قبل وفاة الرسول ﷺ بشهر واحد ، أعد الرسول ﷺ حملة لغزو الروم وجعل قيادتها في يد أسامة ابن مولاه زيد بن حارثة الذي استشهد فى مؤته ، وكان اسامة شاباً في العشرين من عمرة ، ولكن الرسول أختاره كي يجعل له من فخار النصر ما يعوضه عن فقدان ابيه ، وأمره ان يكتسح بخيوله تخوم

البلقاء من أرض فلسطين ،ولكن لم يكد أسامة يتهيأ للخروج حتى مرض الرسول ﷺ مرضه الأخير الذي مات به ، واضطر ،أسامة أن يتوقف عن السير حتى يأذن له الخليفة أبو بكر رضي الله عنه وعلى الرغم من اعتراض بعض الصحابة على خروج هذه الحملة فى تلك الظروف الصعبة ، فإن الخليفة أبا بكر صمم على تنفيذ بعثه أسامة كما أمر الرسول ﷺ وخرج مودعاً لها. ونجح أسامة في مهمتة وعاد مظفرا إلى المدينة بعد ان اغار على البلقاء وانتقم لأبيه وللمسلمين وكانت صيحة قتال المسلمين فى هذه الحرب ! " يا منصور أمت!" وهي صيحة الرسول ﷺ في غزوة بدر ، وقد صارت بعد ذلك شعاراً لكثير من قادة المسلمين في المشرق والمغرب.

اما الحملات العربية الكبرى التى وجهت إلى الشام ، فبدات فى عهد الخليفة أبي بكر رضي الله عنه حيث يروي المؤرخون أنه في سنه (12 هـ / 633م ) سير أبو بكر رضي الله عنه ثلاثة جيوش الى الشام بقيادة عمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة ، ويزيد بن أبي سفيان ، وأمرهم أن يكون زحفهم من جهات متعددة:

فسار عمروبن العاص فى طريق عقبة أيلة (العقبة) وأغار على الاجزاء الجنوبية من فلسطين ، وسار يزيد بن أبى سفيان وشرحبيل بن حسنة فى طريق تبوك والبلقاء نحو شرق الاردن ، وهناك فى وادي عربة جنوبى البحر الميت جرت بينهما وبين الروم بقيادة سرجيوس حاكم قيسارية معركة عنيفة انتهت بقتل القائد البيزنطي وهزيمة جيشه أوائل سنة (13 هـ/634 م ) .

وكان الامبراطور البيزنطي هرقل مقيماً في ذلك الوقت فى مدينة حمص بالشام فلما بلغه خبر دخول المسلمون فلسطين ، حشد جيشاً كبيراً بقيادة أخيه تيودور ، وأمره أن يتجه جنوباً لقتالهم. فى خلال ذلك الوقت كان الخليفة ابو بكر رضي الله عنه قد امر خالد بن الوليد الذي كان يحارب فى العراق بالتوجه الى الشام والانضمام الى جيوش المسلمين هناك على أن يكون له القيادة العامة ، واستطاع خالد أن يخترق الصحراء العربية من العراق الى الشام فى بضعة أيام ، وهذا العمل يعد من روائع العمليات العسكرية فى التاريخ اذ يروى المؤرخون أن خالدا لجأ الى تعطيش الجمال قبل سفره من العراق ثم سقاها ماء كثيرا وكمم أفواهها كى لا تجتر ، ثم قام برحلته الشاقة عبر

الصحراء الجرداء ، فكان كلما بلغ مكانا ليس فيه ماء ، نحر بعض الجمال وشق بطونها وأخذ ما فيها من الماء لسقي الخيل . [ ابن الأثير "1965" 408/2 ]

ثم وصل خالد إلى مشارف مدينة دمشق ، وكان الجيش البيزنطى الذي يقوده تيودور متجهاً نحو الجنوب ، فلما بلغه ذلك اتجه هو أيضاً نحو الجنوب سالكاً ضفاف نهر الأردن الى أن بلغ وادى عربة جنوبى البحر الميت حيث يعسكر المسلمون. وهناك أمر خالد الجيوش الاسلامية الثلاثة بالتجمع في "أجنادين" ، وهي قلعة بفلسطين بالقرب من الرملة فى الطريق بين القدس وغزة. وهناك في اجنادين جرت أول معركة كبرى بين المسلمين والروم منذ ظهور الاسلام ، وذلك في (جمادى الأولى سنة 13 هـ/تموز 634م ) ، وقد انتهت بانتصار المسلمين على الروم.

وقد ادى انتصار اجنادين الى انتشار الجيوش الاسلامية فى الشام فدخل خالد دمشق، واتجه عمرو بن العاص الى فلسطين، وشرحبيل بن حسنة الى الأردن ، ويزيد بن أبي سفيان الى ساحل البحر المتوسط. [ البلاذري "1959" 136] على أن الامبراطور هرقل لم ييأس مع ذلك من انقاذ الشام ، وأخذ يعمل فى انطاكية على حشد جيش كبير من عرب الروم والأرمن والبيزنطيين بقيادة أخيه تيودور. ثم زحف هذا الجيش الضخم جنوباً ، وأدرك خالد صعوبة موقف المسلمين ، فأمر جميع قادة المسلمين بالانسحاب من المدن التى احتلوها ، والتراجع الى مكان صحراوى فسيح يسمى الواقوصة فى شرق الأردن عند وادي اليرموك حيث يمكن للمسلمين فى حالة الهزيمة الانسحاب الى داخل الصحراء والرجوع الى الحجاز.

وفي صيف سنة (15 هـ / 636م)، نشبت معركة اليرموك الفاصلة التي قررت مصير الشام نهائياً في يد المسلمين. ويلاحظ أنه في هذه الموقعة انضم عدد من عرب الشام النصارى الى اخوانهم عرب الحجاز المسلمين قبيل المعركة وفي خلالها مما ساعد على انهزام الروم وضياع الشام من أيديهم. ويؤثر عن الامبراطور هرقل انه حينما انسحب من الشام قال مودعاً : " عليك السلام يا سوربة ، سلاماً لا اجتماع بعده. " هذا ، وتنبغى الاشارة هنا الى أن وفاة أبي بكر ﷺ قد حدثت بعده نصرة اجنادين بشهر واحد تقريباً، وخلفه فى الخلافة عمر بن الخطاب ﷺ

الذي أمر بعزل خالد بن الوليد من قيادة الجيش وتولية أبي عبيدة بن الجراح مكانه.

ووصل ابو عبيدة الى الشام قبيل موقعة اليرموك ، إلا أنه ترك إدارة الموقعة لخالد بن الوليد نظراً لخبرته – بملابسات الموقف ، و لم يعترض خالد على عزله ، وقبل أن يعمل تحت امرة القائد الجديد. ولما انتهت موقعة اليرموك، باشر أبو عبيدة مهام منصبه. [ البلاذري "1959" 160/1 ]

ثم أخذت مدن الشام تتساقط فى يد المسلمين واحدة بعد الأخرى ، فاستولى ابو عبيدة وخالد على دمشق وبعلبك وحمص وحلب وقنسرين وانطاكيه وغيرها من مدن الشمال ، بينما استولى شرحبيل بن حسنة ، ويزيد بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص على معظم مدن فلسطين الداخلية والساحلية ماعدا مدينة قيسارية ( جنوبي حيفا ) التي فتحت بعد ذلك ولايه معاوية بن ابى سفيان سنة (19هـ/ 640م ) ومدينة بيت المقدس (ايلياء أو القدس ) التي رفضت التسليم الا للخليفة نفسه، وقبل الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ هذا الشرط ، وقدم فى عام (18هـ / 639م )، وتسلم مفاتيح المدينة ، وأعطى أهلها الأمان ، وصلى على الصخرة المقدسة ، وخط مسجده هناك. ثم عقد الخليفة ﷺ مؤتمرا عسكرياً فى بلدة الجابية قاعدة الغساسنة في هضبة الجولان جنوب شرق دمشق. وفي هذا المؤتمر تقرر فتح مصر جنوباً بقيادة عمرو بن العاص السهمى القرشى ، كما تقرر فتح الموصل والجزيرة شمالاً بقيادة عياض بن غنم. [خليفة بن خياط "1977" 139]

## ثالثاً : فتح الجزيرة الفراتية وأرمينية

يقصد بالجزيرة الفراتية المنطقة الشمالية الخصبة بين نهري دجلة والفرات والتي تجاوز بلاد الشام ، ثم تمتد شمالاً حتى الجبال التي تفصل بين العراق وفارس وبلاد الروم عند منطقة الدروب. وسكانها عناصر مختلفة منهم الآراميون ولكن قبيل الإسلام كانت غالبية سكانها من العرب وأصبحت الجزيرة بالنسبة لهم " دياراً " عرفت بأسماء قبائلهم التي استقرت فيها مثل ديار ربيعة ، ومضر ، وتغلب وبكر ولا تزال التسمية القديمة قائمة " ديار بكر " كما وجدت فيها بعض عناصر من السكان المجاورين من الأرمن والأكراد .

وبعد فتح العراق والشام واستيطان المقاتلة العرب المسلمين فيهما أصبح فتح الجزيرة أمراً حتمياً لموقعها الاستراتيجي بين بلاد الشام والعراق ولرغبة القادة العرب تأمين

حدود بلادهم في الشام والعراق وفارس ، ومما يؤيد ذلك أن فتح الجزيرة جاء مترتباً على السير في حركة الفتوح . فضلاً عن أن الجيوش البيزنطية كانت لا تزال تحتفظ فيها ببعض المواقع على الرغم من هزيمتها في الشام .

توجه القائد العربي عياض بن غنم – والي حمص وقنسرين – بأمر من أبي عبيدة الجراح – والي بلاد الشام – إلى الجزيرة في آخر سنة (18هـ/639م) وتمكن من السيطرة على معظم مدنها المهمة مثل الرّقة وحران والرها وقرقيسيا ونصيبين وميافارقين وقرى الفرات ومدائنها صلحاً وأرضها عنوةً . [ البلاذري "1957" 179 ] واتخذ الرّها قاعدة لفتح بقية المدن وقد واصلت جيوشه تقدمها حتى وصلت إلى اطراف بلاد الشام عند سميساط وإلى حدود أرمينية . وكان لإيمان مقاتلة العرب المسلمين واندفاعهم في سبيل نشر سيادة الإسلام وتجاوب سكان الجزيرة أثره الكبير في سرعة إنجاز الفتح .وفي سنة (20هـ/641م) توفي عياض فخلفه عمر بن سعيد الأنصاري فاستكمل فتح الجزيرة الفراتية وبذلك امتدت سيادة الخلافة الراشدة إلى هذه المنطقة الاستراتيجية التي تسكن معظم أراضيها قبائل عربية .

**أما أرمينية** فهي بلاد واسعة تمتد إلى جبال القوقاز والبحر الأسود شمالاً ، وبعض الجزيرة وبلاد العراق جنوباً وبحر الخزر وقزوين وهضبة أذربيجان شرقاً ، وآسيا الصغرى والجزيرة غرباً؛ فتشمل الأراضي الجبلية التي كان يخترقها عدة أنهار أهمها دجلة والفرات في الجنوب والرس والكر في الشمال . وكانت هذه البلاد محل نزاع جيرانها للسيطرة عليها كالسلوقيين والرومان والبيزنطيين من ناحية وممالك بلاد فارس من ناحية أخرى . وكان لطمع جيران أرمينية ، ولطبيعة أرضها الجبلية ، أن قسمت منذ القدم إلى أقسام مختلفة ( أرمينية الكبرى وأرمينية الصغرى ، أو أرمينية الداخلة أو أرمينية الخارجة ) .

وبعد أن فتح العرب بلاد الجزيرة ومنطقة أذربيجان أصبحوا على حدود أرمينية فأصبح من الضروري السير إلى أرمينية والسيطرة عليها لتأمين حدود الدولة العربية الإسلامية في الجزيرة والشام لوجود حدود مشتركة فضلاً عن عزم القوات العربية على تضيق الخناق على دولة الروم " البيزنطيين" بآسيا الصغرى بحرمانها من أرمينية الخاضعة لها ... وتشير المصادر الإسلامية إلى مسير حبيب بن مسلمة الفهري سنة (25هـ/646م) بأمر

من الخليفة عثمان بن عفان ﷺ ليغزوها بجنود من الشام والجزيرة والعراق والحجاز . وعلى الرغم من المقاومة التي لقيها الجيش الإسلامي من قبل الروم الذين جمعوا جموعاً عظيمة من الأرمن وشعوب الخزر ، فإن المدن الأرمينية المهمة وقعت في أيديهم وعقد حبيب مع أهلها معاهدات أمان وصلح مثل ( قاليقلا مركز أرمينية الرومية ، ودَبيل مركز أرمينية الفارسية ، وتفليس ) . ووصلت قوات أخرى من الجيش إلى بلنجر عاصمة الخزر ، وبرذعة في أقصى نواحي أذربيجان الفارسية وشمشاط في أقصى أرمينية . [ البلاذري "1957" 197-206 ]

وبعد أن استتب الأمن في أرمينية قام الخليفة بتعيين حذيفة بن اليمان والياً على أرمينية وبذلك حققت الدولة العربية هدفها في تأمين حدود بلادها وتضيق الخناق على دولة الروم . وتشير الروايات الإسلامية أيضاً إلى أن هذا التوسع في الفتوح وانتشار المسلمين في الآفاق واختلافهم في قراءة القرآن الكريم كانت عوامل بعثت على عملية جمع القرآن في نص موحد . [ الحمد ، م2 المصحف الشريف]

رابعاً: فتح مصر :

لا يرجع التفكير فى فتح مصر الى عهد الرسول ﷺ ، فالكتاب الذى أرسله النبى ﷺ الى مقوقس مصر كان مجرد دعوة سلمية للدخول في الاسلام. وأول تفكير في فتح مصر جاء في وقت مناسب بعد فتح الشام ، ولضرورة عسكرية حتمية لتعقب قوات الروم التي لجأت الى مصر بعد انهزامها فى الشام مثل أرطبون قائد حامية بيت المقدس. ثم لأن مصر تعد منطقة أمان لكل من الشام والجزيرة العربية فضلاً عن مواردها الاقتصادية وخيراتها الزراعية. وقد تقرر فتح مصر بقيادة عمرو بن العاص .

وكان اختيار عمرو بن العاص لهذه المهمة ، اختيارا مناسباً لأنه هو الذى تولى قبل ذلك العمليات العسكرية في فلسطين وجنوب الشام ، كما أنه زار مصر فى الجاهلية بقصد التجارة في الأدم (الجلد) والعطور، فعرفها وخبر مسالكها.

خرج عمرو بن العاص بقواته من مدينة قيسارية بفلسطين على رأس قوة من أربعة آلاف مقاتل في اواخر سنة (18هـ 639م) ، واجتاز رفح والعريش عند الحدود المصرية دون مقاومة لخلوها من الحصون ، ثم سلك الطريق الساحلى،

وهو الطريق القديم الذى سلكه كبار الفاتحين والتجار والحجاج والأنبياء منذ أيام ابراهيم ويعقوب ويوسف (عليهم السلام )، وأسرة السيد المسيح ، والقائد قمبيز الفارسى.

وبلغ عمرو مدينة الفرما Pelusium القديمة (شرقى المحروسة أو بورسعيد الحالية ) وهي مدينة حصينة عند رأس الطريق الصحراوى المؤدي الى داخل مصر ، ولذا كانت تسمى " مفتاح مصر ". وبعد حصار دام شهراً استولى عليها عنوة في اوائل سنة (19 هـ/640م ) ثم دمرها تماماً لكى لا يستفيد العدو من موقعها الاستراتيجى فيقطع عليه خط رجعته. ثم واصل عمرو السير جنوباً متجنباً الأراضى الزراعية والموانع المائية فى الدلتا، ومستفيداً من الأراضى الصحراوية التى يحسن العرب القتال فيها الى أن بلغ مدينة بلبييس فاستولى عليها بعد الوقوف أمام حصونها شهراً آخر.

واتجه عمرو بعد ذلك نحو النيل واستولى على قرية أم دنين وهي مرفأ نيلى شمال حصن بابليون وموقعها اليوم حديقة الأزبكية وما حولها. وقد تكبد عمرو في هذه العملية خسائر فادحة نتيجة للغارات البرية والبحرية التي كان يشنها عليه الجيش البيزنطى المقيم فى حصن بابليون. [ البلاذري "1959" 249/1 ]

ثم حاصر عمرو حصن بابليون وبعث يطلب المدد من الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ فوصله بعد عدة أشهر حوالي اثني عشر ألف مقاتل تحت قيادة عدد من كبار الصحابة أمثال: الزبير بن العوام ، وعبادة بن الصامت، والمقداد بن الأسود، وأبى الدرداء(أو عويمر بن عبد الله ) ومسلمة بن مخلد وغيرهم. [ ابن عبد الحكم "1908" 56 ]

وتقدم عمرو بجيوشه كلها نحو رأس الدلتا فى السهل الواقع بين حصن بابليون ومدينة عين شمس (هليوبوليس) التى تقع فى شماله وهو المكان المعروف اليوم بالعباسية. وهناك اشتبك عمرو مع القائد البيزنطى تيودورد وانتصر عليه انتصاراً حاسماً سنة (19 هـ/640م) . ويرجع الفضل فى نصر عين شمس الى الخطة التى اتبعها عمرو فى هذه المعركة ، اذ أنه أرسل فى جنح الظلام كميناً من جنده استقر فى أم دنين غرباً ، كما أرسل كميناً آخر أختبأ فى تلال المقطم شرقاً ، ثم لجأ عمرو الى الدهاء لكى يخرج الرومان من حصنهم ، فتظاهر بالهزيمة والتقهقر ، فانخدع الرومان وتبعوه ، واذا بكمين المقطم ينقض عليهم ويحول بينهم وبين الرجوع الى الحصن ، فارتدوا غرباً الى أم دنين ، واذا بالكمين الثانى

ينقض عليهم وتدور الدائرة عليهم وتعتورهم السيوف من كل جانب ، فلا ينجو منهم الا القليل.

شدد عمرو الحصار على حصن بابليون لأهمية موقعه الاستراتيجي فهو يقع على رأس الطريق المؤدية الى العاصمة الإسكندرية ، كما أنه يحتل مكاناً وسطا بين الصعيد والدلتا مما أعطاه قيمة عسكرية تستوجب احتلاله.

وفي أثناء هذا الحصار توفى الامبراطور البيزنطى هرقل الأول ( 23 صفر 20 هـ / 11 فبراير 641م ) وكان لهذا النبأ وقع سيء على الجنود البيزنطيين ، وانتهز العرب هذه الفرصة وحملوا على الحصن حملة صادقة انتهت بسقوطه في أيديهم ، وعقد معهم حاكم مصر قيرس Cirus الذي يسمية العرب المقوقس ، معاهدة بابليون الأولى سنة (20هـ / 641م) . وهي تقضي بتسليم الحصن بكل ما فيه من ذخائر وأسلحة ، وأن يخرج الروم منه الى مدينة الإسكندرية فى ظرف ثلاثة أيام. [الطبري "1939" 229/4 ]

على أن سقوط بابليون لم يكن معناه نهاية الحرب بين العرب والروم ، إذ كانت العاصمة وهي مدينة الإسكندرية ما زالت فى أيدي الروم. وكانت محصنة تحصيناً قوياً وعلى اتصال دائم بالامبراطورية البيزنطية من جهة البحر.

عبر عمرو بن العاص النيل الى الضفة الغربية ، واتجه إلى شمال الدلتا بحذاء فرع رشيد نحو الإسكندرية. وهنا تجدر الإشارة الى أن مصر كانت تنقسم – كما هي اليوم – الى قسمين : مصر العليا أو الوجه القبلى ألى أقليم الصعيد جنوباً، ومصر السفلى أو أسفل الأرض أو الوجه البحرى إلى أقليم الدلتا شمالاً. ومما يلفت النظر فى هذا التقسيم أن الوجه البحرى أو الدلتا المصرية كانت فى ذلك الوقت مغطاة بعدة فروع للنيل وتغمرها مياه البرك والبحيرات ولاسيما فى وقت فيضان النيل حتى شبهها بعض المؤرخين القدامى بالمروحة. ولا شك أن سكان هذه الدلتا (البيما أو البيمايا ) قد كيفوا حياتهم ووسائل دفاعهم مع جغرافية هذه المنطقة وطبيعتها ، فأجادوا الزراعة والصيد فيها ، كما اتقنوا السباحة والقتال فوق الماء وتحته.

وقد أشار البلاذرى فى الجزء الخاص بفتح العرب للإسكندرية ، أن عمرو بن العاص حينما عبر النيل واتجه الى شمال الدلتا نحو الإسكندرية بحذاء فرع رشيد ، واجهته مقاومة

شديدة من هؤلاء البيما لما يفجرون من المياه فى الغياض .

واستطاع عمرو بن العاص أن يتغلب على هذه المقاومات التى واجهته في طريقه حتى بلغ الإسكندرية وشرع فى حصارها. وهنا يروى المؤرخ المصري عبد الرحمن ابن عبد الحكم ( ت 257 هـ / 871م ) أن المسلمين هالتهم قوة أسوار المدينة، وأن عمرو بن العاص صلى يومئذ بجيوش المسلمين صلاة الخوف طالباً من الله أن يعينه على فتحها اذ كانت بها حصون مبنية لا ترام ، حصن دون حصن ، على حد قوله . [ " 1908" 170 ]

حاصر عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية ، وتشاء الظروف فى ذلك الوقت أن يسود الاضطراب حكومة القسطنطينية بسبب وفاة الامبراطور هرقل وقيام نزاع بين ولديه قسطنطين وهرقل الثانى. وإزاء هذه الفتن الداخلية رأى الحكام البيزنطيون ضرورة انهاء الحرب وعقد صلح مع العرب. وقام بهذه المهمة المقوقس قيرس الذى أبرم معاهدة نهائية مع عمرو بن العاص أطلق عليها معاهدة بابليون الثانية تمييزا لها من الأولى ، وسميت كذلك بمعاهدة الإسكندرية لأنها خاصة بأهل الإسكندرية وذلك في سنة (20هـ / 641م) ومن أهم شروطها :

1. جلاء الجيش البيزنطى عن الإسكندرية في ميعاد غايته أحد عشر شهراً من تاريخ عقد المعاهدة.
2. أن يدفع كل من فرضت عليه الجزية دينارين في كل سنة ويعفى منها الشيوخ والنساء والصبيان والرهبان.
3. أن يضمن عمرو لأهل المدينة حريتهم الشخصية والدينية وسلامة أرواحهم وممتلكاتهم.
4. اشترطت المعاهدة بقاء اليهود في مدينة الإسكندرية ويقال إن عددهم كان كبيراً ( حوالى أربعين ألفاً ).

ولما حل الميعاد في أواخر سبتمبر سنة (21هـ/642م ) خرج الجيش البيزنطى من الإسكندرية ودخل العرب المدينة. ويقال أن منظرها أحدث في نفوسهم وقعاً جميلاً لعظمة قصورها وحماماتها واتساع شوارعها وكثرة ما فيها من مبان وآثار مثل عمود السواري ومسلات كليوباترا ، والمنارة التي كانت تؤدي رسالتها في هداية السفن وتعد أحدى عجائب الدنيا السبع ومكانها الآن قلعة قايتباى .

[ المقريزي "1324هـ" 232/1 فما بعدها ]

ويقال أن عمرو فكر في اتخاذ الإسكندرية عاصمة لمصر كما كانت من قبل قائلا عبارته المشهورة " منازل " قد كفيناها " وذلك لأنه وجد فيها بيوتاً صالحة للسكن بعد أن تركها الروم ، فرأى عمرو أن يتخذها مساكن لجنوده وهو ما عرف باسم الأخائذ بمعنى أنه لم يكن هناك خطط ( بكسر الخاء ) أو احياء يترل فيها الجنود كما حدث في بناء الفسطاط ، بل أخائذ أى المنازل التي أخذها العرب بعد أن هجرها الروم. غير أن الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ رفض أن تظل الإسكندرية عاصمة لمصر وقرر أن تكون العاصمة في موقع مدينة الفسطاط بين تلال المقطم شرقاً والنيل غرباً ، عند رأس الدلتا في منطقة مصرية صميمة اشتهرت بعواصمها الشهيرة مثل منف وعين شمس وبابليون ، فضلاً عن سهولة اتصالها بالجزيرة العربية عن طريق قناة تراجان القديمة التي تربط النيل بالبحر الأحمر عند مدينة القلزم (السويس) والتي أعاد عمرو بن العاص فتحها وأطلق عليها اسم " خليج أمير المؤمنين"، فصارت الغلال والأموال ترسل بحراً عن طريقه. ولقد أختط عمرو لكل قبيلة خطة أو حياً لتترل فيه عرف باسمها ، كما بنى داره وسط الفسطاط ، وبنى بجواره أول مسجد جامع أقيم فى مصر وهو مسجد عمرو الذي سمي فيما بعد تاج الجوامع او الجامع العتيق تمييزا له من المساجد التي بنيت بعده مثل جامع العسكر وجامع أحمد بن طولون والجامع الأزهر .

كذلك اهتم عمرو بن العاص باقامة مقاييس للنيل لتحديد قيمة الخراج على الاراضى الزراعية التي كانت تتوقف على حالة النيل من حيث زيادتة أو نقصانة هذا ، وتنبغى الاشارة اخيراً الى المساعدات القيمة التى قدمها أقباط مصر الى الجيش العربي أثناء حروبه مع البيزنطيين ، إذ أصلحوا لهم الطرقات ، وأقاموا لهم المنازل والجسور والأسواق وأمدوهم بالطعام وعلف الخيل ... إلخ .

قصة حرق مكتبة الاسكندرية وتهمة عمروبن العاص بحرقها :

هناك رواية إسلامية متأخرة وردت على لسان بعض مؤرخى القرن (السابع الهجرى الثالث عشر الميلادي ) امثال عبد اللطيف البغدادي ( الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة بأرض مصر) ، وأبي الحسن القفطي ( تاريخ العلماء بأخبار الحكماء) وأبي الفرج الملطي المعروف بابن العبري (مختصر الدول ) يتهمون فيها عمرو بن العاص بحرق مكتبة

الإسكندرية القديمة بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ ، وملخص القصة أن عالما إسكندرياً مسيحياً اسمه يحيى النحوى Gramaticus طلب من عمرو بن العاص كتب الحكمة الموجودة فى المكتبة الملكية بالمدينة فاستشار عمرو الخليفة عمر بن الخطاب الذي رد عليه بقوله:" إذا كان ما جاء فيها يوافق مع ما جاء فى كتاب الله ، فان كتاب الله غني عنه،

واذا كان ما فيها يخالف كتاب الله ،

فلا أرب لنا فيه وتقدم باعدامها " فأمر عمرو بن العاص بتوزيع الكتب على حمامات الإسكندرية واحراقها فى مواقدها ، وقد استغرقت هذه العملية مدة سته أشهر .

وفند هذه القصة السالفة عدد من المؤرخين ، نذكر منهم المؤرخ الإنجليزي إدوارد جبون Edward Gibbon في القرن الثامن عشر الميلادي ، الذي نفى هذه القصة باختصار فى كتابة المعروف باسم " اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية ، قائلاً إن صمت المؤرخين المعاصرين من العرب أو المصريين أو البيزنطيين الذين أرخوا الفتح العرب لمصر عن هذه القصة ينفي صحتها.["n.d " 5 / 482]

وفي القرن العشرين جاء مؤرخ انجليزى أخر وهو الفرد بتلر Alferd Butler في كتابة فتح العرب لمصر . [ 405 " 1902 " ] وقدم فيه تفنيداً مفصلاً لهذه القصة شكلاً ومضموناً وقد عرب كتابه الأستاذ المرحوم فريد ابو حديد وفيما يأتي أهم الحقائق التي أوردها بتلر:

1. إن مكتبة الاسكندرية الكبرى التى جمعها كل من بطليموس الأول والثانى (فيلادلفوس ) قد احرقت سنة 48 ق . م فى حرب الإسكندرية المشهورة بين الإمبراطور الرومانى يوليوس قيصر وبين البطالمة ... اما المكتبة الصغرى التي كانت بمعبد السرابيوم ( بجوار عمود السوارى ) فقد ضاعت أثناء الصراع الدينى بين الوثنيه والمسيحيه سنة 391م أى ان مكتبة الاسكندرية لم يكن لها وجود قبل الفتح العربى بمدة سته قرون !!
2. أثبت بتلر أن العالم يحيي النحوي الأسكندري الذى تقول القصة انه هو الذي طلب من عمرو بن العاص هذه الكتب ، مات قبل الفتح العربي لمصر بمدة طويلة .

3. لوحظ ان المؤرخين المعاصرين للفتح العربي لمصر ( القرن الأول الهجري أو السابع الميلادي) لم يذكروا شيئاً عن هذا الحريق ، ولا سيما المؤرخ القبطى حنا انقيوس الذى كتب تفاصيل دقيقة عن الفتح العربي لاسيما الحوادث التى تتصل بمثالب العرب ومساوئهم .
4. لوحظ كذلك أن مؤرخى القرون السته التي تلت الفتح العربى أمثال ابن عبد الحكم ( ت 253هـ/867م ) والبلاذري (ت 279 هـ/892م ) والطبري( ت 310 هـ/922م ) والكندي ( ت 350 هـ/961م ) وغيرهم ، لم يذكروا شيئاً عن هذا الحريق الى أن جاء أخيراً عبد اللطيف البغدادي ومعاصروه في القرن (السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي) بهذه الرواية الكاذبة .
5. لو كانت المكتبة موجودة بالاسكندرية عند الفتح العربي ، لكان فى استطاعة البيزنطيين نقلها معهم عند انسحابهم خصوصاً أن الهدنة المقررة كانت تقرب من سنة.
6. مسألة توزيع الكتب على الحمامات لحرقها فيها شئ من السذاجة ، إذ كان من الممكن لأي شخص الحصول على هذه الكتب بثمن بخس من أصحاب الحمامات، ثم إنه من المعروف أنه فى حالة إعدام أي شئ ممنوع أن يوضع هذا الشئ فى مكان واحد وتحت رقابة شديدة لإجراء عملية الإعدام، أما توزيع الكتب على جهات متفرقة ولمدة ستة أشهر ففيه شئ من الخرافة .
[ حسين "1941" 72،73 ]

**على كل حال صمت المؤرخين المعاصرين سواء كانوا صربا أو بيزنطيين أو مصريين ، يدل دلالة واضحة على ان العرب أبرياء من مثل هذا العمل .**

وتوفى عمرو بن العاص بالفسطاط سنة ( 43هـ / 663م ) ودفن بالقرافة الكبرى بالمقطم ولا يعرف المكان الذى دفن فيه إذ يؤثر عنه انه حين حضرته الوفاة قال : " وسنوا على التراب سناً، ولا تجعلوا في قبرى خشبة ولا حجراً " ويقال إنه دفن فى المكان الذي دفن فيه بعد ذلك سنه 58هـ عقبة بن عامر الجهني الذي كان ممن شهدوا فتح مصر مع عمرو وقال انه شاهد على العهد

الذي كتبة عمرو إلى أهل مصر ، وعينه معاوية بعد ذلك واليا على مصر ثم عزله سنه (47هـ/667م ) وعينه أميرا للبحر لجهاد الروم ،وتوفي الفسطاط سنة (58هـ/677م) ودفن بالقرافة في مكان عمرو بن العاص ، وهنا ينبغى عدم الخلط بين عقبة بن عامرالجهني وعقبة بن نافع الفهرى ، المجاهد الكبير فى فتح المغرب والذي استشهد في تهودة سنه (64هـ / 683 م ) ومقامه هناك فى بسكرة جنوب قسطنينة بالجزائر في واحة هناك تعرف بواحة سيدى عقبة . [ البلاذري "1959" 241/1 ]

## رابعاً :فتوحات برقة وطرابلس والنوبة

على الرغم من ان مدينة الإسكندرية قد فقدت مكانتها السياسية بوصفها عاصمة لمصر في العصر الاسلامى ، فإن هذا الوضع لم يقلل من خطورة البحر المتوسط في كيان مصر. وبعد ان دخل عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية، تقدم غرباً نحو اقليمى برقة وطرابلس سنة (22هـ/642م ) لتأمين حدود مصر الغربية من خطر الروم الذين كانوا يحكمون المغرب الأدنى ، إذ كان يخشى أن يحاولوا استعادة مصرعن هذا الطريق الغربى وتشير الروايات العربية إلى أن عمرو بن العاص أراد بعد استيلائة على برقة وطرابلس أن يواصل زحفه فى بلاد المغرب الأدنى (افريقية)وأنه استأذن الخليفة عمر بن الخطابﷺ في ذلك ، ولكن الخليفة رفض ان يجيبة الى طلبه خوفاً على جيوش المسلمين من أن تنساب فى هذه المناطق الشاسعه وهي لم تزل فى حاجة الى توطيد نفوذها فى البلاد التي استقرت فيها حديثاً كالشام ومصر . [ الكندي "1908" 13 ]

وحينما ولي عثمان بن عفان الخلافة سنة (24هـ/644م ) قرر بعث البعوث لفتح المغرب ، وعين أخاه من الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي سرح والياً على مصر بدلا من عمرو بن العاص سنة (26هـ/646م) .

وفي سنة (27 هـ / 647 م )استطاع هذا الوالى الجديد ان يمد حدود مصر غرباً إلى ما وراء برقة وطرابلس بعد أن انتصر على البيزنطين في موقعة سبيطلة Supetula (غربى القيروان) وقد قتل في هذه المعركة قائد الجيش البيزنطى وحاكم هذه المنطقة(نوميديا) جريجوريوس Gregorius ويسميه العرب جرجير أو جرجس كذلك استطاع عبد الله بن سعد بعد عدة سنوات أن يحرز نصراً بحرياً على الأسطول البيزنطى بقيادة الامبراطور نفسه

قسطنطانز الثانى ابن قسطنطين وحفيد هرقل الأول ، فى موقعة ذات الصوارى سنة (34هـ / 654 م) ويبدو أن انتصار المسلمين جاء نتيجة لخطة غير اعتيادية استخدمها المسلمون وهي ربط سفنهم بعضها ببعض بسلاسل ثقيلة ، فاستحال بذلك على الروم اختراق صفوف المسلمين ، كما استخدموا في الوقت نفسه خطاطيف طويلة يصيبون بها صوارى سفن العدو ويجروها الى جوار سفنهم فغدت المعركة كأنها برية .

أما من ناحية الجنوب ، فقد حارب عبد الله بن سعد بن أبي سرح مملكة النوبة في أعالى النيل لتأمين حدود مصر الجنوبية من غارات النوبيين الذين كانوا في ذلك الوقت يدينون بالمسيحية على مذهب الكنيسة المصرية الأرثوذوكسية .

وتجدر الإشارة هنا إلى ان هذه المنطقة النوبية الممتدة جنوبى أسوان من النيل غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً إلى الأطراف الشمالية لهضبة الحبشة جنوباً ، كانت تسكنها قبائل حامية تسمى البجة أو البجاة :كذلك اشتهرت هذه المنطقة منذ عهد الفراعنة بوجود معدن الذهب في أراضيها فضلاً عن بعض الأحجار الكريمة مثل الزمرد أو الزبرجد، ولهذا عرفت هذه المنطقة باسم أرض المعدن ووادي العلاقي.

ولما فتح العرب مصر كانت مناجم العلاقى مازالت عامرة بالذهب والزمرد، ولهذا اتجهت سياستهم وتجارتهم نحو بلاد النوبة ، فأرسلوا الحملات التأديبية ضد غارات النوبيين على أراضى مصر الجنوبية، واستطاع عبد الله بن سعد بن أبى سرح أن يحتل مدينة دنقلة،أهم مراكز تجارة الذهب فى السودان، وبنى مسجداً فيها كما عقد معاهدة سياسية وتجارية بين مصر ومملكة النوبة المسيحية سنة (31هـ/652 م) عرفت باسم البقط لعلها من الكلمة اللاتينيه Pactum بمعنى عقد أو اتفاق .

ومن أهم شروطها الا يعتدي أحدهما على الاخر ، وأن تؤدي مصر إلى النوبة قدراً معيناً من القمح والعدس وغيره من منتجات مصر كل سنة ، كما تعهد النوبيون بفتح الحدود أمام كل المسلمين من التجار أو الباحثين عن الذهب . [ البلاذري " 1959" 239/1 ]وتوقفت الفتوح الإسلامية بعد ذلك بسبب الفتنة الكبرى وأزمة الخلافة الإسلامية .

## رابعا : أزمة الخلافة وانتقالها إلى الشام

### أزمة الخلافة فى عهد عثمان بن عفان:

في ذي الحجه عام (23 هـ / 643م) استشهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ بعد حكم دام عشر سنوات وستة أشهر تقريباً. قتله فى المسجد النبوى عبد فارسى يدعى أبا لؤلؤة فيروز المجوسي.

وقبيل وفاة الخليفه عمر ﷺ، طلب منه أن يستخلف ، فأشار عليهم أن يختاروا واحدا من بين ستة من المهاجرين من رهط رسول الله ﷺ المبشرين بالجنة وهم : على بن أبي طالب وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام وطلحه بن عبيد الله ﷺ. وأشرك معهم ابنه عبد الله بن عمر ليكون رأيه استشارياً فقط.

وانتهت المداولات بينهم باختيار عثمان بن عفان ﷺ ومبايعته بالخلافة في المحرم عام (24 هـ / 644م) . ولقد دامت خلافة عثمان ﷺ أثنتي عشرة سنة تقريباً وانتهت باستشهاده بالمدينة المنورة في ذي الحجه عام (35 هـ / 655م) ويطلق على المرحلة التي تمتد من أواخر عهد عثمان الى بداية العصر الأموي اسم (الفتنة الكبرى) بسبب انقسام المسلمين على أنفسهم وانفصام وحدتهم واشتعال الفتن والحروب بينهم مما أدى الى قتل عدد من خيرة خلفائهم وزعمائهم.

وعلى الرغم من عدم وضوح الأسباب المباشرة التي أدت الى وقوع هذه الفتنه ، فإن هناك عوامل مختلفة ساعدت على حدوثها وهي على النحو الآتي :

**أولاً** : كان اختيار عثمان ﷺ للخلافه يرجع الى أسباب عديدة منها مآثره الطيبة وسابقته في الاسلام واصهاره للنبي ﷺ مرتين في ابنتيه رقية وأم كلثوم، فسمي بذي النورين، ولهجرته مع المهاجرين الأولين إلى الحبشة وإنفاقه الأموال في تجهيز بعض جيوش الإسلام، وحفر الآبار من ماله الخاص، وجمع المسلمين على مصحف واحد. لكن من المعروف عن عثمان ﷺ في الوقت نفسه أنه من أسرة أموية، فهو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. أي أنه يلتقي بالرسول ﷺ في عبد مناف ولهذا لقي انتخاب عثمان معارضة من بني هاشم واعدوه تحيزاً نحو الأمويين .

ولقد استغل بعض الدعاة المغرضين هذه الفرصة لإثارة الفرقة بين الفريقين، نذكر منهم

داعية يسمى عبد الله بن سبأ ويتلقب بابن السوداء، ويبدو أنه كان يهودياً وأسلم وأنه كان يجوب الحجاز والعراق والشام ومصر داعياً ضد الخليفة عثمان الذي اغتصب الخلافة مع وجود على بن ابي طالب ﷺ وصى النبي ﷺ. [ النوبختي "1931" 19-20 ]

**ثانياً**: كان من نتائج التوسع الجغرافي للدولة العربية في عهد عمر بن الخطاب ﷺ وما صحبه من تدفق للأموال والغنائم على الدولة العربية ، أن ترتب على ذلك انفتاح اقتصادي واجتماعي وعمراني كبير في عهد عثمان بن عفان ﷺ ، فانتشر الثراء واللهو والترف في الحواضر الحجازية على عكس ما كان عليه الحال في عهد سلفه الذي آثر الزهد والتقشف والقناعة وحض الناس على الجهاد وعدم الهجرة . ولهذا كان من عواقب هذا الانفتاح حدوث معارضة شديدة بين الكثيرين من عامة المسلمين واتقيائهم الورعين أمثال الصحابى أبي ذر الغفاري الذي أخذ يجوب بعض البلاد داعياً الناس الى ترك الرفاهية واكتناز الذهب والفضة منتقداً السياسة المالية لعثمان ﷺ وعماله مما اضطر الخليفة عثمان ﷺ إلى نفيه إلى قرية الربذه من أعمال المدينة وأجرى عليه كل يوم عطاء إلى أن مات عام (31 هـ/651م ) . [ البلاذري "1989" 88/5 ]

**ثالثاً**: شخصية عثمان بن عفان ﷺ تميزت بطبيعتها باللين والتساهل والحلم ، على النقيض تماماً من شخصية الذي اتصف بالحزم والقوة والشدة ، وهي صفات ربما كان ينبغي لها أن تستمر في حكام تلك الحقبة الإسلامية المبكرة، ولهذا اتهموا عثمانﷺ بالضعف. يضاف إلى ذلك اتهام عثمان ﷺ بعزل معظم العمال الذين ولاهم عمر بن الخطاب ﷺ وتعيين أقاربه من الأمويين مكانهم في الوظائف والولايات وتخصيص أرزاق كبيرة لهم . ومن أمثلة ذلك أنه عين على البصرة ابن خاله عامر بن كريز بن ربيعه بن عبد شمس بدلاً من أبي موسى الأشعرى، وولى أخاه من الرضاعه عبد الله بن سعد بن أبي سرح واليا على مصر وعزل عنها عمرو بن العاص، كما استعمل مروان بن الحكم على المدينة وزوجه ابنته، وعزل سعد بن أبي وقاص عن الكوفة وجعل مكانه الوليد بن عقبه وهو من أقربائه. وكان لهذه السياسة أثر كبير في

إثارة الأقاويل ضده وتوجيه اللوم له حتى من بعض الصحابة. [ المالكي "1951" 47/1 ]

رابعاً انتشرت الفتنة كذلك بين عرب البوادي والأمصار الذين تميزت طباعهم بالغلظة والقسوة والغلو، وكانت بلادهم مرتعاً خصباً لانتشار الأقاويل والسعايات والأرجاف لاسيما في الكوفة والبصرة ومصر، فاشتدت ثورتهم لدرجة أن قريب عثمان ﷺ معاوية بن أبي سفيان والي الشام شعر بالخطر الذى يواجه الخليفة ﷺ فزاره بالمدينة وعرض عليه أن يرسل إليه جنداً من أهل الشام أو أن يذهب بصحبته إلى دمشق حيث يجد أنصاراً يدافعون عنه؛ ولكن الخليفة ﷺ أبى إلا أن يظل بالمدينة إلى جوار النبي ﷺ وقال:" أنا لا أبيع جوار رسول الله (صلى الله عليه وسلم ) بشيء وأن كان فيه قطع خيط عنقى. كذلك رفض الخليفة ﷺ اقتراحاً بخلع نفسه وقال: أما قولكم بخلع نفسك فلا أنزع قميصا البسنيه الله عز وجل وأكرمني به وخصني به على غيري.[ الطبري "1939" 382/3 ]

خامساً: توافد الخارجون على المدينة من الامصار ( الكوفه والبصرة والفسطاط) ومعظمهم من الغوغاء والغلاة ، وحاصروا دار عثمان ﷺ ومنعوه من الخروج إلى الصلاة فى المسجد النبوى، كما منعوا وصول الماء إليه، ودخل عليه محمد بن أبي بكر ﷺ الصديق وأخذ بلحيته وهزها بيده وقال قد أخزاك الله يا نعثل!! وكانوا يلقبون به عثمان، فقال لست بنعثل ولكنى عثمان أمير المؤمنين. فقال محمد :ما أغنى عنك معاوية وابن عامر وابن أبى سرح! فقال عثمان ﷺ : يا ابن أخي ما كان أبوك ليقبض عليها، ولو رآنى لبكانى وساءه مكانك منى! فتراخت يد محمد بن أبى بكر وتركه وخرج.

ثم اقتحم المتمردون الدار ، وأدرك عثمان ﷺ أنه هالك لا محالة ، وأخذ مصحفاً وجلس فى محرابه يقرأ القرآن ، فهجموا عليه لقتله ، وحاولت زوجته نائلة اتقاء السيوف بيدها فقطعوا بعض أناملها ثم أجهزوا على الخليفة بقتله في يوم الجمعة 18ذي الحجة عام 35 هـ /17 حزيران 655م. [ خليفة بن خياط "1977" 173 ]

**أزمة الخلافة في عهد علي بن أبي طالب :**

لم تنته أزمة الخلافة باستشهاد عثمان ، بل على العكس ازدادت اشتعالاً واتساعاً وانخرطت فيها شخصيات بارزه من كبار الصحابة مثل السيدة عائشة ﵂ وعلي بن أبي طالب ﵁ ومعاوية بن أبي سفيان وطلحه بن عبيد الله، والزبير بن العوام وغيرهم. وقد انقسموا في آرائهم إلى فريقين :

**الفريق الأول :** يرى أن حالة الفوضى والفتن التي سادت المدينة بعد مقتل عثمان تستوجب وجود خليفة في الحال كي يعيد الأمور إلى نصابها ثم ينظر في الوقت نفسه فى مسألة القصاص والأخذ بثأر عثمان. واضطر علي بن أبي طالب ﵁ أن يقبل هذا الرأى وبايعه بالخلافه كبار أهل المدينة من المهاجرين والأنصار في مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة حيث أتخذ لقب الأمام لما فيه من معنى باحقيته إماماً للمسلمين. وإن كان بعض الصحابه قد توقفوا عن بيعته حتى تنجلى الأمور.

**أما الفريق الثاني :** فيرى أن عثمان ﵁ قتل مظلوما وأنه لابد أولاً وقبل أي شيء أخر من الأخذ بثأره وتسليم قتلته. وأيدت السيدة عائشة هذا الرأى لأنها كانت تكره عليا ﵁ لأسباب سياسية وشخصية قديمه كذلك تابعها فى تأييد هذا الرأى كل من طلحة والزبير اللذين كانا يطمعان أيضاً في ترشيحهما للخلافة. أما معاوية بن أبي سفيان والي الشام فإنه أعلنها صراحة رفضه مبايعة علي ﵁ بل طالبه بالتخلى عن الخلافة وجعلها شورى متهما الذين بايعوه بأنهم قتلة عثمان. ورفض الأمام علي ﵁ هذا الرأى وتمسك بالخلافة ومن ثم كان القتال بين الفريقين أمراً حتمياً.

انتقلت الحرب إلى العراق وبواديها حيث الرجال والسلاح والمال والأنصار، وهناك دارت ثلاث معارك حاسمة بين الإمام علي ﵁ وخصومه .

**المعركة الأولى:** كانت بينه وبين الثالوث :عائشة وطلحة والزبير في نواحي البصرة جنوباً في مكان يسمى الخربية حيث دار قتال عنيف انتهى بانتصار على ومقتل طلحة والزبير وعقر الجمل الذي كانت تركبه السيدة عائشة ﵂ فسقط وسقط الهودج وكأنه قنفذ من كثرة ما رمى فيه من سهام. ولذا سميت الموقعة بموقعة الجمل عام

(36 هـ / 656م ) ودخل الأمام علي ﷺ البصرة حيث بايعه أهلها كما أعاد السيدة عائشة معززة مكرمة الى المدينة صحبة أربعين امرأة من نساء البصرة المعروفات كما سير معها أخاها محمد بن أبي بكر. [ ابن الأثير "1965" 258/3 ]

وبعد أن استتب الأمر لعلي ﷺ في البصرة وجنوب العراق ، زحف بجيوشه شمالاً إلى الرقة على نهر الفرات. وهناك في سهل صفين خاض معركته الثانية.

**المعركة الثانية** : وكانت في أعالى الفرات في سهل صفين حيث وقف أهل الشام بقيادة معاوية بن أبي سفيان، وأهل العراق بقيادة علي ابن أبي طالب ﷺ وجهاً لوجه في ذي الحجة عام (36 هـ / 657م).

ثم دار بينهما قتال عنيف تفوق فيه أهل الشام أول الأمر ، ولكن جند العراق بقيادة الأشتر بن مالك النخعي تمكنوا من صدهم واختراق صفوفهم والانتصار عليهم. وهنا لجأ قائد فرسان الشام عمرو بن العاص الى حيلة ذكية ينهي بها القتال وهي أن أمر جنوده برفع مصاحف القرآن الكريم على أسنة الرماح طلباً لتحكيم كتاب الله بدلاً من تحكيم السيوف.

ورفض الأمام علي ﷺ هذا الطلب وحاول أن يقنع أصحابه بأنها خدعة ومكيدة لإثارة الفتنة بينهم ، ولكن عدداً كبيراً من اتباعه أصروا على قبول وقف القتال وبذلك انتهت وقعة صفين وحل محلها التحكيم. واتفق الفريقان على أن يكون أبو موسى الأشعري ممثلاً لعلي بن أبي طالب ﷺ وأهل العراق بينما يكون عمرو بن العاص ممثلاً لمعاوية وأهل الشام. [ الطبري "1939" 34/4]

وفي عام (37 هـ/658م ) اجتمع الحكمان وشهود العيان في مكان محايد بين الشام والعراق قيل في أذرح وقيل فى دومة الجندل ، والرأى الغالب هو في أذرح وإن كان يبدو أن الموضعين متقاربان والصحيح بأذرح والجرباء ويشهد بذلك أشعار ذي الرمة والأصمعي ... ألخ.

وتختلف المصادر حول حقيقة ما دار في هذا المؤتمر ، فهناك إجماع على أن الحكمين وافقا على خلع العاهلين علي ﷺ ومعاوية وجعل الأمر شورى بين المسلمين يختارون لأنفسهم من أحبوا أما الاختلاف في المصادر

فحول الخطبة التي صرح بها كل من الحكمين، فهناك رواية رواها الكثيرون مثل الطبري وغيره تشير إلى أن أبا موسى الأشعري وهو الأكبر سنا تقدم في خطبته وخلع علياً ﷺ ومعاوية. أما عمرو بن العاصي فإنه أعلن في خطبته تأييده لزميله في خلع علي ولكنه يثبت معاوية وكأن في الأمر خدعة أغضبت أبا موسى الأشعري وجعلته يسب عمرو بن العاص ويرحل إلى مكة. وهناك رواية أخرى رواها المسعودي ضمن رواياته ، تنفي وجود الخطبة أصلاً وتقول بأن الطرفين وافقاً على خلع العاهلين وأثبتا ذلك في الصحيفة بدون خطبة وفي ذلك يقول المسعودي " وقد قيل إنه لم يكن بينهما غير ما كتباه في الصحيفة وإقرار أبي موسى الأشعري بأن عثمان ﷺ قتل مظلوماً وغير ذلك مما قدمناه من خلع علي ﷺ ومعاوية ، وأنهما لم يخطبا ، وذلك أن عمراً قال لأبي موسى سم من شئت حتى انظر معك فسمى أبو موسى ، عبد الله بن عمر بن الخطاب وغيره ، ثم قال لعمرو : وقد سميت أنا فسم أنت ؟ فقال نعم ، أسمي لك أقوى هذه الأمة عليها ، وأعلمها بالسياسة ، وأسدها رأياً ، معاوية بن أبي سفيان.قال : لا والله ما هو لذلك بأهل. قال فآتيك بآخر ، قال : من هو ؟ قال : أبو عبد الله عمرو بن العاص فلما قالها علم أبو موسى أنه يلعب به فقال : فعلتها لعنك الله ، فتسابا ،فلحق أبو موسى بمكة. [ "1948" 411/2 ]

وغير بعيد بالمرة أن تكون رواية المسعودي هي الأقرب إلى الصحة والمعقول من الرواية الأولى لأن الاتفاقية تنص على خلع علي بن أبي طالب ﷺ من الخلافة وامارة المؤمنين وهذا هو ما يريده معاوية ، أما معاوية فلم يصبه شيء من هذا لأنه كان والياً على الشام و لم يبايعه أحد بإمارة المؤمنين ، فإذا عزل فإنما يعزل من ولاية الشام فحسب. وهكذا عاد معاوية إلى الشام ليبايعه أهلها بالخلافة ، بينما عاد علي بن أبي طالب ﷺ إلى الكوفة بالعراق ليواجه المعركة الثالثة وهي معركة الخوارج.

### المعركة الثالثة مع الخوارج في النهروان :

اعترض عدد كبير من أتباع علي بن أبي طالب ﷺ على قبوله مسألة التحكيم واتهموه بأنه أضاع حقاً كان مكتسباً له. ولما أصر الأمام علي ﷺ على موقفه خرجوا عليه وكونوا حزباً منشقاً عنه وانتقلوا إلى قرية مجاورة تسمى حروراء ولهذا سموا حينذاك بالحرورية نسبة اليها ، كما سموا بالمحكمة

لأنهم يقولون لاحكم إلا لله ، كذلك عرفوا بالاسم الغالب عليهم وهو الخوارج أي الخروج وهو ما يطلق عليه اليوم اسم "الثورة"، فالخوارج هم الثوار. لأنهم خرجوا على علي بن أبي طالب ، أو لأنهم خرجوا فى سبيل الله أخذا من قوله تعالى : ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾. [سورة النساء ، الآية :100 ] وسموا كذلك بالشراة أي الذين اشتروا أو باعوا أنفسهم لله من قوله تعالى : "ومن الناس من يشتري نفسه ابتغاء مرضاه الله ". ومن مبادىء الخوارج أنهم يرون عدم حصر الخلافة في بيت معين كالبيت العلوى أو في جنس معين كالجنس العربي. وانما الخلافة لله أي لأي شخص تختاره الأمة أو الجماعة الاسلامية وتجتمع عليه الكلمة ما دام مستوفياً لشروط الخلافه ولو كان عبداً حبشياً.

وبينما كان الأمام علي يعد العدة لمحاربة أهل الشام ، إذا بهؤلاء الخوارج يثيرون فساداً وارهاباً فيقتلون الرجال والنساء والأطفال ويقطعون الطرق وينهبون الأموال، و اضطر الأمام علي أن يستجيب لرأى أصحابه في الكوفة بضروة قتال الخوارج قبل الذهاب إلى الشام. وهناك في كورة النهروان على ضفاف دجلة في المكان الذي بين بغداد وواسط ( فيما بعد) دارت الحرب بين الفريقين وتمكن الأمام علي من هزيمتهم وتشتيت شملهم عام (38 هـ / 658م ) ولكنه لم يتمكن من القضاء عليهم ولا على آرائهم. [ ابن الأثير 274/3 ]

وانتهز معاوية بن أبي سفيان فرصة انشغال الأمام علي بمحاربة الخوارج ، وأخذ يحتل الولايات التي تحت سلطان علي بن أبي طالب فاستولى قائده عمرو بن العاص على مصر عام (38 هـ/658م ) وهزم واليها محمد بن أبي بكر الذى انتهى الأمر بقتله. كما استولى على الحجاز واليمن وشن غارات على أطراف العراق كما أخذ البيعة لنفسه في بيت المقدس عام (40 هـ/661م ). وفى خلال ذلك قتل الأمام علي بن أبي طالب في مسجد الكوفة في رمضان عام (40هـ / 661م) طعنه خارجي يدعى عبد الرحمن بن ملجم المرادي وهو يقول له : " الحكم لله لا لك ". وهكذا مات الأمام علي بن أبي طالب بعد خلافة دامت ما يقرب من خمس سنوات. وبوفاته انتهى عصر الخلفاء الراشدين

وبويع الحسن بن علي بالخلافة بعد مقتل أبيه وقد دعا لبيعته قيس بن سعد ابن عباده ( سيد الخزرج بالمدينه ) ولكن الحسن أدرك أن لا قبل له بمعاوية وجيوشه خصوصاً أن أهل العراق ليسوا جادين في نصرته ومن ثم آثر الصلح مع معاوية حقنا لدماء المسلمين ، وطلب من قائد جيشه قيس بن سعد بن عباده أن يدخل في طاعة معاوية ففعل بعد أن أعطاه معاوية الأمان له ولشيعة علي. وعاش الحسن فى المدينة المنورة في رغد من العيش بعد أن أرضاه معاوية بكل ما طلبه من أموال.

وهكذا تحولت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان بدمشق فى عام (41 هـ / 661م) وهو العام المعروف بـ"عام الجماعة" لاجتماع كلمة زعماء المسلمين على مبايعته وبهذا تنتقل الخلافة من الحجاز الى الشام مع قيام الدولة الأموية. [ الطبري "1939" 121/4 فما بعدها ]

## خامسا : تنظيم الدولة العربية في عصر الخلفاء الراشدين :

لا شك أن التوسع الكبير الذي تم للدولة العربية شرقاً وغرباً في عهود الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ، قد أستلزم إجراء تنظيمات إدارية واقتصادية وحربية تتناسب مع وضعها الجديد وتحافظ على وحدتها وسلامتها ، ويمكن تلخيص هذه التنظيمات على النحو الآتي:

**أولاً :** من مأثر الدولة العربية في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان ﷺأنها اهتمت بجمع أجزاء القرآن الكريم المدونة وغير المدونة، خصوصاً بعد قتل عدد كبير من حفظة القرآن الكريم في حرب الردة . فعهد أبو بكر الصديق ﷺ – وبإيعاز من عمر ﷺ – بهذه المهمة إلى زيد بن ثابت كاتب الوحي للرسول ﷺ فتولى زيد جمع السور المكتوبة على الجريد والأحجار وقطع الأدم (الجلد) والعظام ، فضلاً عما كان يحفظه الرجال في صدورهم ، وذلك في صحائف أو صحف ولهذا سمي مصحفاً . غير أنه يبدو أن جماعات من المسلمين المحاربين في الشام ومصر والعراق وفارس ، وجدوا بأيديهم أجزاء من القرآن يختلف الواحد منها عن الأخر ، فاشتد

الخلاف بينهم ، ولهذا لم يتم جمع القرآن في كتاب واحد إلا في خلافة عثمان بن عفان ﷺ الذي عهد بهذه المهمة إلى جماعة من كبار الصحابة من بينهم زيد بن ثابت .

[ التفاصيل م2،ف3 ، المصحف الشريف ]

**ثانياً** : اتخذ عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقب أمير المؤمنين لأنه يعني القيادة والقوة والإيمان وهي صفات تتناسب مع وضعه بوصفه قائداً عاماً للمسلمين في حركة الفتوحات العربية التي تمت في عهده ، يروي البلاذري في هذا الصدد : لما توفي رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر رضي الله عنه كان يقال له خليفة رسول الله فلما توفي أبو بكر رضي الله عنه واستخلف عمر رضي الله عنه ، قيل لعمر خليفة خليفة رسول الله، فقال المسلمون: فمن جاء بعد عمر رضي الله عنه ما يقال له؟ ايقال خليفة خليفة خليفة رسول الله !؟ هذا يطول ، ولكن اجمعوا على اسم تدعون به الخليفة، ويدعى به من بعده من الخلفاء، فقال بعضهم نحن المؤمنون وعمر أميرنا، فدعي أمير المؤمنين فهو أول من سمي بذلك. [البلاذري "1989" 689/5 ]

**ثالثاً** : جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه التأريخ الهجري بداية للتاريخ الإسلامي أي من هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة المنورة (يثرب) يقول البلاذري في هذا الصدد:"كتب أبو موسى الأشعري والي البصرة إلى عمر رضي الله عنه أنه يأتينا منك كتب لا نعرف عهدها وتاريخها فأرخ، فاستشار عمر رضي الله عنه أصحاب رسول الله ﷺ فقال بعضهم: أرخ لمبعث رسول الله وقال بعضهم ؛ أرخ لموته، فقال عمر رضي الله عنه : أؤرخ لمهاجر رسول الله ﷺ فانه فرق بين الحق والباطل مهاجرة ، فأرخ به .

**رابعاً** : قام عمر بن الخطاب رضي الله عنه بإجلاء اليهود والنصارى من الجزيرة العربية، وسمح لهم بالهجرة والإقامة في أي مكان أخر من بلاد المسلمين بالأمصار وذلك بناء على آخر وصايا الرسول ﷺ التي تنادى بعدم إبقاء ديانات أخرى في أرض العرب .

**خامساً** : أستن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سياسة رشيدة حاسمة تجاه الأراضي الزراعية الجديدة التي فتحها المسلمون مثل أراضي سواد العراق الخصبة التي طلب الجنود عدّها غنيمة حرب وتوزيعها عليهم كلها بعد إخراج الخمس للدولة وأن تعد ملكا لهم، لكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبى عليهم ذلك وقرر بأن تبقى الأراضي المفتوحة بدون تقسيم وأن

يستمر أصحابها في زراعتها كما كانوا يفعلون في الماضي على أن يدفعوا ضرائب الأرض (الخراج) وضرائب الرأس (الجزية) التي صار دخلها للمصلحة العامة للمسلمين، و لم يكتف عمر بذلك بل أرسل بعد الفتح مباشرة وفوداً لمسح (أي قياس) هذه الأراضي الزراعية الجديدة لتنظيم ملكيتها وزراعتها من جهة ، ولتقدير خراجها المفروض عليها من جهة أخرى، كما ألزم أهلها بمواصلة العناية بالقنوات والسدود والجسور .

**سادساً :** فصل عمر بن الخطاب ﷺ بين السلطتين التنفيذية والقضائية في البلاد المفتوحة، وأسند منصب القضاء إلى رجال صلحاء اشتهروا بالفقة واستنباط الأحكام الشرعية لإقامة العدل بين الناس بعيداً عن أي تدخل من جانب ولاة الأمصار . [ البلاذري "1989" 5/202-206 ]

**سابعاً :** لما كانت معظم الفتوحات العربية الأولى قد تمت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ ، فقد تطلب الأمر سرعة اتخاذ تنظيم عسكري لهذه الجيوش العربية المنتشرة في البلاد المفتوحة ، لهذا اتخذ عمر بن الخطاب ﷺ في هذا السبيل خطوات حاسمة تشهد ببراعته بوصفه قائداً حربياً ممتازاً ، مثال ذلك انه أوجد ما عرف باسم ( ديوان الجند أو الجيش أو العساكر) للإشراف عليهم بتقييد أسمائهم واحصاء أعمالهم والانفاق عليهم وعلى أسرهم بما يعرف باسم العطاء أو الرزق، فديوان الجند هو أول ديوان في الإسلام . [ العبادي "1999" 91-92 ]

**ثامناً :** يرجع الفضل إلى عمر بن الخطاب ﷺ أيضاً في إقامة الحصون والمعسكرات في البلاد المفتوحة لإقامة المحاربين العرب ، نذكر من أهمها البصرة على يد عتبة بن غزوان وأبي موسي الأشعري، والكوفه على يد سعد بن أبي وقاص، والموصل على يد عياض بن غنم ، والفسطاط على يد عمرو بن العاص، و لم تلبث هذه القواعد العسكرية أن تحولت إلى عواصم وأمصار أي مدن كبرى . [سالم "1971" 525 فما بعدها ]

**تاسعاً :** من الناحية الاقتصادية استمرت الدنانير الذهبية البيزنطية Nomisma والدراهم الفضية الفارسية Dinarius أساساً للتداول في المعاملات التجارية بين المسلمين وأهالي البلاد المفتوحة كما كانت أيام الجاهلية واستمرت في صدر الإسلام ، إذ لم يكن من السهل على العرب في مرحلة انشغالهم بالحروب والفتوحات أن يضربوا

عملات جديدة لا سيما أنهم تعودوا من قديم أن يتعاملوا تجارياً مع الروم والفرس بهذه الدنانير والدراهم .

ومن المعروف أن تعريب المصطلحات المالية والدواوين الحكومية قدتم بعد ذلك في العصر الأموي في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان وأبنائه من بعده إذ ضرب الدينار العربي الذهبي والدرهم الفضي العربي كما حلت اللغة العربية محل اللغات المحلية في إدارة البلاد المفتوحة وكان من نتيجة هذه السياسة العربية أن أقبل الناس على تعلم اللغة العربية للعمل في دواوين الحكومة من جهة ولفهم القرآن وتعاليم الاسلام من جهة أخرى .

**عاشراً** : يلاحظ أنه في هذه المرحلة الإسلامية الأولى وخلال خلافة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ﷺ وولاية معاوية بن أبي سفيان على بلاد الشام – كانت نشأة البحرية العربية الإسلامية ذلك لأنه بعد احتلال المسلمين لبلاد الشام ومصر وإفريقية ، وجدوا أنفسهم مطلين على البحر المتوسط من شواطئ طويلة شمالاً إلى برقة وطرابلس جنوباً ويواجهون أعداء ألداء مثل البيزنطيين الذين دأبوا على شن الغارات على هذه الشواطئ. ولهذا أدرك المسلمون الأوائل قيمة البحرية بوصفها سلاحاً حربياً مضاداً وأخذوا في إنشاء دور الصناعة لبناء السفن الحربية في معظم المرافئ التي تمتد على طول هذه السواحل مثل طرابلس وصور وعكا ودمياط ورشيد وتنيس والإسكندرية وبرقة ... إلخ وقد انتقلت كلمة دار الصناعة إلى اللغات الأوربية باسم Darsana (دارسانا)Arsenal (أرسنال) وتعني المكان الذي تصنع فيه السفن، وقد استعان المسلمون في بناء هذا الأسطول بحراج أو غابات شجر السنط Acacia الذي كان ينبت في صعيد مصر، فضلاً عن أخشاب الصنوبر Pinus التي تنبت في جبال لبنان وأسيا الصغرى فضلاً عن معدن الحديد الذي كان يستخرج من جبل بالقرب من بيروت والذي كان يستخدم في صنع مراسي السفن .

**حادي عشر** : يؤثر عن معاوية بن أبي سفيان حينما كان واليا على الشام أنه عمل على تدعيم الدفاع عن السواحل بالوسائل الآتية :

1. تقوية أجهزة الدفاع والحراسة الساحلية كالمحارس والمناور أو المنائر أو المواقيد، الممتدة على طول سواحل الشام ومصر، وكان على المنورين إذا ما كشفوا عدوا

في البحر إشعال النار على قمم المناور أو المواقيد، إذا كان الوقت ليلاً أو إثارة الدخان إذا كان الوقت نهاراً، هذا إلى جانب استخدام الطبل و النفير لتحذير أهالي المدن المجاورة من غارة العدو وكثيراً ما استعمل المنورون إشارات نارية أو دخانية بطرق معينة للإخبار عن حالة العدو أو عدده أو جنسيته أو غير ذلك وإن كانت المصادر للأسف لم تشرح لنا طريقة إرسال هذه الإشارات.

2. عمد معاوية إلى نقل أهالي البلاد الداخلية إلى هذه الجهات الساحلية ومنحهم فيها الاقطاعات الواسعة بقصد تشجيعهم على ركوب البحر من جهة وتعمير هذه البلاد من جهة أخرى، يروى البلاذري في كتابه فتوح البلدان أن معاوية نقل قوماً من فرس بعلبك وحمص إلى سواحل الأردن وصور وعكا كما نقل أقواما من هنود البصرة والكوفة إلى أنطاكية في شمال الشام .

3. يؤثر عن معاوية كذلك أثناء ولايته على الشام في عهد عمر وعثمان ﷺ أنه اعتمد على القبائل اليمينة في العمليات البحرية في الشام مثل الكلبيين وغيرهم ، لما عرف عنهم من طاعة وتنظيم وخبرة ملاحية ولأنها كانت تفوق منافسيها القيسية في هذا المضمار ، ولهذا ضرب بهم المثل فقالوا : أرش اليمن بزهيد الثمن والأرش هو العطية أو الإقطاع الذي يمنح لهم بثمن بخس مقابل تغميره والدفاع عنه، كذلك اعتمد معاوية على قبط مصر الذين تخصصوا في سد الثغرات في السفن واستخدام المسامير الحديدية في بنائها بعد ان ثبت أنها أفضل من السفن التي تشد بالحبال هذا إلى جانب السلاسل الحديدية التي كانت تشد في البحر عند مداخل الموانى فإذا أريد ادخال السفينة الى الميناء أرخيت السلسلة حتى تغوص في الماء فتمر السفينة فوقها ، أما إذا أريد منعها من الدخول فتشد السلسلة أمامها فتحول دون دخولها وقد عرفت هذه السلاسل باسم المأصر [هوترباخ " 1954"]وهكذا استطاعت دولة الخلفاء الراشدين تأسيس البنية الأساسية للدولة العربية الإسلامية الناشئة ثم تسليم راية النصر للدولة الأموية التي استطاعت أن تعلو خصومها في البر

والبحر وان تمد حدودها إلى أواسط أسيا
شرقاً والى المحيط الأطلسي غرباً

**أ.د.أحمد مختار العبادي**

## المصادر والمراجع

المصادر :

ابن الأثير علي بن ابي الكرم بن محمد الشيباني (ت630 هـ / 1338 م)

(1965) الكامل في التاريخ ، بيروت ، طبعة صادر .

البلاذري أحمد بن يحيي بن جابر ( ت 279 هـ / 892 م )

(1989) انساب الأشراف، تحقيق احسان صدقى العمد ، الكويت . (1959) فتوح البلدان ، تحقيق صلاح الدين المنجد القاهرة .

ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد ( ت 808 هـ / 1406 م)

(1384هـ) العبر وديوان المبتدأ والخبر، القاهرة، بولاق .

خليفة بن خياط ابو عمرو الليثي العصفري ( ت 240 هـ / 853م )

(1977) تاريخ خليفة بن خياط تحقيق اكرم ضياء العمري، بيروت ، دار القلم دمشق .

الدينوري ابو حنيفة أحمد بن داوود ( ت 282 هـ / 895م )

(1960) الأخبار الطوال ، تراثنا القاهرة .

ابن ابى زيد القيرواني عبد الله بن أبي زيد ( ت 386هـ/ 996 م)

(1960) رسالة في أصول الفقه على مذهب الامام مالك بن انس، نشرها مع ترجمة باللغة الفرنسية ليون برشيه Bercher ، الجزائر.

السيوطي جلال الدين عبد الرحمن ( ت 911 هـ / 1505 م )

(1969) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين، بيروت.

(1327هـ) حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة ، طبعة مصر .

الطبري أبو جعفر محمد بن جرير ( ت 310 هـ / 922م )

(1939) تاريخ الرسل والملوك، القاهرة، مطبعة الاستقامة .

ابن عبد الحكم ابو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت 257هـ / 871م )

(1908) فتوح مصر وأخبارها ، ليدن ، طبعة توري .

ابن عذارى ابو عبد الله محمد المراكشي ابو العباس أحمد (كان حيا 712هـ/ 1312م)

(1950) البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب ، بيروت ، مكتبة صادر .

القلقشندي ابو العباس أحمد ( ت 821 هـ / 1418 م )

(1917) صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، القاهرة .

الكندي ابو عمر محمد بن يوسف (ت 350 هـ/ 961م )

(1908) كتاب الولاة وكتاب القضاه، ليدن، طبعة روفن جست .

المالكي عبد الله بن محمد (ت 453هـ/ 1061م)
(1951) رياض النفوس ، تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ، مكتبة النهضة .

المسعودي ابو الحسن علي ( ت 346 هـ/956م)
(1948) مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة .

المقري أحمد بن محمد التلمساني ( ت 1041هـ/ 1631م)
(1949) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب طبعة محيي الدين عبد الحميد، القاهرة.

المقريزي تقى الدين أحمد بن علي (ت 845هـ/ 1441م)
(1972) اتعاظ الحنفاء بأخبار الائمة الفاطميين الخلفاء ، تحقيق محمد حلمى أحمد القاهرة . (1324هـ) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ، القاهرة ، طبعة النيل .

النوبختي الحسن بن موسى (ت 310هـ / 922م )
(1931) كتاب فرق الشيعة ، عني بتصححيه هـ . ريتز ، اسطنبول ، مطبعة الدولة

ياقوت الحموي شهاب الدين ابو عبد الله الحموي الرومي ( ت 626هـ/ 1228م ) ،
(1990) معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي ، بيروت .

اليعقوبى أحمد بن أبى يعقوب (ت عام 292هـ/ 904م)
(1358هـ) تاريخ اليعقوبى، النجف، المكتبة المرتضوية .

## المراجـــــع العربية والمعربة :

الأعظمى عواد مجيد

(1983) تاريخ الري في سهول الرافدين ، الكويت .

أبو ضيف مصطفى

(1983) دراسات في تاريخ الدولة العربية ، الدار البيضاء .

بتلر (الفرد )

(1933) فتح العرب لمصر نقله من الإنجليزية إلى العربية المرحوم محمد فريد ابو حديد ، القاهرة .

حسن إبراهيم حسن

(1948) تاريخ الاسلام السياسي والدينى والثقافي والاجتماعي ، القاهرة .

حسين طه

(1947) علي وبنوه ، القاهرة .

(1947) الفتنة الكبرى ، عثمان ، القاهرة .

حسين محمد أحمد

(1943) مكتبة الإسكندرية في العالم القديم ، القاهرة .

حمدان جمال

(د.ت) شخصية مصر وعبقرية المكان ،كتاب الهلال العدد 196.

الدوري عبد العزيز

(1949) مقدمة في تاريخ صدرا الإسلام ، بغداد .

سالم السيد عبد العزيز

(1971) تاريخ الدولة العربية ، بيروت .

سالم السيد عبد العزيز ، وأحمد مختار العبادى

(1981) تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ، الإسكندرية .

سرور محمد جمال الدين

(1975) الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية خلال القرنين الأول والثاني بعد الهجرة ، القاهرة .

العبادى أحمد مختار

(1978)تاريخ المغرب والأندلس ، دار النهضة العربية، بيروت .

(1968) دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ، الإسكندرية .

(1999)في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، الإسكندرية .

عبد الوهاب حسن

(د.ت) المساجد الاثرية ، د.م .

العدوي ابراهيم احمد

(1963) قوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط ، القاهرة .

العمد احسان صدقى
(1988) حركة مسلمة الحنفى، الحولية العاشرة ، كلية الاداب ، جامعة الكويت .

فهمى على محمد
(1973) " البحرية الإسلامية في البحر المتوسط من القرن السابع إلى القرن العاشر الميلادي " ( من كتاب تاريخ البحرية المصرية الذي أصدرته جامعة الإسكندرية ).

فيصل شكري
(1952) حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول الهجري ، مصر ، دار الكتاب العربي .

كاشف سيدة اسماعيل
( 1947) مصر في فجر الإسلام ، القاهرة .

لمباير موريس
(1991) الذهب الاسلامي منذ القرن السابع إلى الحادى عشر الميلادي
ترجمة توفيق اسكندر ، القاهرة ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

ماجد عبد المنعم
(1956) التاريخ السياسي للدولة العربية ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية .

مخلوف حسن محمد
(1982) صفوة البيان ، لمعان القرآن ، الامارات العربية .

مسعد مصطفي
(1960) الاسلام والنوبة في العصور الوسطى ، القاهرة .

النبراوي فتحية عبد الفتاح
(1415هـ) عصر الخلفاء الراشدين،جدة،دار السعودية للنشر .

هونيرباخ
(1954) البحرية وتطورها في البحر المتوسط في عهد معاوية ، تطوان ، مطبعة مولاي الحسن .

## المراجع الاجنبية :

Arnold, Thomas:
The Caliphate
Butler, Alfred:
( 1902) The Arab Conquest of
Egypt , oxford.
Encyclopaedia of Islam.
Gibbon: Eduard :
Dechine and Fall of the Roman
Empire Vol.5 (edited by I.B. Bury)
Le Strange:
Palestine under the Moslems ,
London .

Macknsen Ruth Stellhorn :
(1935) " Background of the
History of the Moslem Libraries"
(American Journal of semitic
languages and Literature , January
.
Nicholson R.A:
(1953 ) A literary History of the
Arabs , Cambridge
Muir , William :
(1924) The caliphate ,its Rise ,
Decline and Fall , London .

## سادسا : المصحف الشريف

الحمدُ لله ، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى، أما بَعْدُ فإن الله تعالى بَعَثَ الرسل والأنبياء لتعليم الناس وهدايتهم ، وقد قال رسول الله ﷺ: " إنما بُعِثتُ مُعَلِّماً " [ ابن ماجة " د.ت" 83/1 ] .

ولا شك في أن تعليم اللغة ليس جزءاً مما يهتم الأنبياء بتعليمه للناس ، ولكن ارتباط دعوتهم بلغات أقوامهم كان سبباً في نشاط لغوي كبير ، كانت آثاره واضحة في اللغة العربية فنزول القرآن الكريم باللغة العربية جعلها موضع عناية العلماء ، فدوَّنوا نصوصها ، واستنبطوا قواعدها ، وهذَّبُوا رَسْمَهَا ، فصارت لغة الحضارة والدين ، وكان المصحف الشريف محوراً لكثير من الدراسات ومنطلقاً لها .

إنَّ القرآن الكريم دستور الأمة ، ومنبع الحضارة ، حفظته الأمة في الصدور ، ودوَّنته في السطور ، فقد تلقى رسول الله ﷺ القرآن الكريم عن جبريل عليه السلام وَحْياً ، وتلاه على الصحابة حفظاً من صدره، وأمرهم بكتابته ، وتوفي رسولالله ﷺ والقرآن الكريم كله قد كُتِبَ، لكنه كان مفرقاً في الرقاع .

وحظي القرآن الكريم بعناية الخلفاء الراشدين والعلماء من الصحابة والتابعين ، ومن جاء بعدهم من الخالفين ، فقد أمر الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه بجمع القرآن في صحف منظمة ، من الرقاع التي كُتِبَ فيها في عصر النبوة ، وأمر الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه بِنَسْخِ الصحف في المصاحف ، وإرسالها إلى الأمصار الإسلامية.

وحَظِيَ المصحف بأعلى درجات العناية من لدن علماء الأمة ، فكانت في خدمته عدة علوم وفنون ، بعد أن ظهرت العلوم في الأمة وتطورت الفنون ، فكان لعلماء العربية دورهم في ضبط الكتابة العربية التي دُوِّنَ بها القرآن في المصاحف ، بعد أن كانت مجردة من العلامات ، وكان لعلماء القراءة جهد متواصل في تيسير القراءة في المصحف ، فوضعوا علامات للأجزاء وعدد الآيات ، وكان للخطاطين عمل متميز في تجويد الخط وزخرفة المصاحف وتجليدها.

إن أصول المصحف ترجع إلى عصر النبوة الزاهر ، ولكنه أخذ شكله المتميز في عصر الخلافة الراشدة .

### أصول المصحف الشريف

عَرَف العرب الكتابة قبل الإسلام على نطاق محدود ، ومن ثَمَّ لم يعرفوا الكتب، وكان المُصْحَفُ ، وهو القرآن المكتوب في الصحف ، هو أولَ كتاب عرفته المكتبة العربية ، ولم تكن كلمة المصحف متداولة في عصر النبوة ، لأن المصحف لم يأخذ شكله المتميز في هذه المرحلة ، فكانت الرقاع والصحف هي الكلمات التي تعبِّرُ عما يُكتب من القرآن قبل أن تشيع كلمة المصحف .

ولا يعني تأخر ظهور كلمة ( المصحف) بعض الوقت عدم وجود علاقة للمصحف بالرقاع والصحف ، فالحقيقة أن المصحف هو عينها تلك الرقاع والصحف ، لكن طبيعة نزول القرآن ، وطبيعة مواد الكتابة المتيسرة في عصر النبوة أدت إلى كتابته مفرقاً ، إلى أن جُمعَت الرقاع المتفرقة في صُحُف منظمة في خلافة أبي بكر الصديق ﷺ ثم نُسِخَت الصُّحُف في المصاحف في خلافة عثمانﷺ وما في الأرض من مصاحف إنما يرجع إلى المصاحف العثمانية التي نُقلَت من الصحف التي ضَمَّت الرقاع التي كُتبَ عليها القرآن في عصر النبوة ، ولكي تتضح أصول المصحف ينبغي الوقوف عند المدونات الأُولى للقرآن في الرقاع والصحف .

## أولاً : الرِّقاع المكتوبة في عصر النبوة

كان بزوغ شمس الإسلام في بلاد العرب إيذاناً بنهضة حضارية شاملة ، كان أحد مظاهرها انتشار الكتابة ، واستخدامها في أغراض الحياة المتعددة ، على الرغم من قلة الكُتّاب في بدء الدعوة ، وصعوبة وسائل الكتابة، ولا يخفى على القارئ أن الأمر بالقراءة وذكر التعليم بالقلم في أول آيات أُنزلت على رسول الله ﷺ شيءٌ ذو دلالة أكيدة على عناية الدعوة الجديدة بالكتابة والعلم ، كما أن تسمية القرآن بالكتاب في آيات كثيرة أمر يدل على استشراف آفاق المستقبل الذي يُجمع فيه القرآن في صحف على شكل كتاب .

وقد اعتنى رسول الله ﷺ بموضوع الكتابة كثيراً ، واتخذ له كُتّاباً يكتبون له الوحي، ويكتبون رسائله وعهوده ، وما كان يأمر به، حتى بلغ عدد كُتّابه من صحابته أكثر من أربعين كاتباً. [ الهوريني "1302هـ" 13 ] وكان ﷺ يقول : " قَيِّدوا العلم بالكتاب" [ الخطيب البغدادي "1949" 69 ] وهذا القول من جوامع الكلم ، وكان القرآن الكريم أولى بالتقييد من غيره ، حتى قال ﷺ في أول الأمر : " لا تكتبوا عني شيئاً غير القرآن " [ مسلم "د.ت" 129/18] .

ونقل الصحابة عن رسول الله ﷺ أنه كان كلما نزل عليه الوحي دعا بعض من يكتب له ، فيقول له : ضَعْ هذه الآية أو الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، يعني اسم السورة . وكان كثيراً ما يقول :" ادعُ لي زيداً ، ولْيَجِئْ باللَّوْح والدواة " [ البخاري "1927" 226/6 ]. فيكتب له الوحي . وكان زيد بن ثابت ألزَم الصحابة لكتابة الوَحْي في حياة رسول الله ﷺ لاسيما أنه كان جار رسول الله ﷺ في المدينة ، فقد قال ابنه خارجة :" دخل نفرٌ على زيد بن ثابت ، فقالوا حَدِّثْنا بعضَ حديث رسول الله ﷺ فقال : ماذا أُحدِّثكم ! كنت جار رسول الله ﷺ فكان إذا نزل الوحيُ

أرسل إليَّ فكتبتُ الوحي " [ ابن ابي داود "1936" 3 ] .

وإذا كانت ظروف الدعوة في مكة قد حجبت عنا كثيراً من أخبار كتابة القرآن فإن انتقال رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة قد أتاح الفرصة لتدوين القرآن الكريم كله، حتى قال محدِّث المدينة محمد بن شهاب الزهري :" قُبِضَ النبي ﷺ و لم يكن القرآن جُمِعَ في شيء ، وإنما كان في الكرانيفِ والعُسُبِ " [ الطبري "1968" 28/1 ].

وكانت كتابة القرآن في زمن النبي ﷺ تخضع للمراجعة والتدقيق في مرحلتين ، الأولى عند كتابة الآيات التي يترل بها جبريل الطّيّلا على النبي ﷺ ، والثانية عند مراجعة القطع التي كُتِبَ عليها القرآن لترتيبها .

روى سليمان بن زيد عن أبيه أنه قال :" كُنت أكتبُ الوَحْيَ عندَ رسول الله ﷺ وهو يُملي عليَّ ، فإذا فرغتُ قال ، اقرأْهُ فأقرؤُهُ ، فإن كان فيه سَقَطٌ أقامهُ ، ثم أخرجُ به إلى الناس" [ البسوي "1974" 377/1 ] ، ومعنى قو له : (فإن كان فيه سَقَط أقامه ) : إن وجد في الكتابة نقصاً أكمله وأصلحه.

وروى المحدِّثون عن زيد بن ثابت أنه قال :" كُنَّا عندَ رسول الله ﷺ نؤلِّفُ القرآن من الرقاع "، ومعنى التأليف : الترتيب ، لأنه يقال في اللغة : ألَّفتَ الشيءَ تأليفاً ، إذا وصلتَ بعضه ببعض ، وجمعتَ بعضه إلى بعض [ ابن منظور "1882-1890"352/10 ]. والرِّقاع جمع رُقْعة ، وهي تطلق على ما كان يكتب عليه القرآن آنذاك . [ابن منظور 491/9 ]

قال البيهقي:"وهذا يُشْبِهُ أن يكون أراد به تأليف ما نزل من الكتاب : الآيات المتفرقة في سورها، وجمعها فيها بإشارة النبيﷺ" [ "1985" 147/7 ] .

إنَّ رسول الله ﷺ سَنَّ كتابة القرآن ، وأمر بذلك ، وأملاه على كتبته ، وإنما لم يُجمع القرآن في صحف منظمة أو في مصحف واحد في حياة النبي ﷺ لأن القرآن الكريم كان يترل مفرقاً ، فكانت الآيات تُكتب على الرقاع وتُراجع بين آونة وأخرى ، (( فلما ختم الله (عز وجل ) دينه بوفاة نبيه ﷺ وكان قد وعد له حفظه بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [سورة الحجر :الآية 9]، وفَّق الله خلفاءَه لجمعه عند الحاجة إليه بين الدفتين ، وحَفِظَهُ كما وعده )) [ البيهقي "1985" 154/7 ].

إن تدوين القرآن الكريم مفرقاً على الرقاع المتعددة الأشكال والأنواع يعد إنجازاً تاريخياً عظيماً ، وهو يعكس إدراكاً لأهمية الكتابة في حفظ الوحي الإلهي ، ويدل على تصميم أكيد على كتابة القرآن الكريم ، لم تحل دونه الأحداث الجسام ، والظروف الصعبة ، والكفاح المستمر الذي صاحب حياة النبي ﷺ

ولم تمنع من تحقيقه وسائل الكتابة البدائية الصعبة الاستخدام ، مع قلة الكَتَبَةِ وضعف خبراتهم الكتابية .

إنَّ الرقاع التي كُتِبَ عليها القرآن في عصر النبوة ، والتي اعتمد عليها الصحابة بعد ذلك في تدوينه في الصحف والمصاحف ، دليل أكيد على حفظ القرآن واتصال روايته تلاوة ورسماً ، فقد تلقى الصحابة القرآن عن النبي ﷺ مشافهة ، فحفظوه منه ، ودوَّنه كتبة الوحي عن لفظه في الرقاع ، فليس هناك فاصل زمني بين تلقيه وتدوينه .

### ثانياً : الصحف المكتوبة في خلافة الصديق

إذا كانت الرقاع التي كُتِبَ فيها القرآن الكريم في عصر النبوة قد حققت حفظ ألفاظ الوحي مكتوبة فإنها لم تكن كافية لمواجهة حاجة الأمة في السنين اللاحقة ، كما أنها كانت أكثر عرضة للتلف أو الضياع ، ومن ثَمَّ كانت فكرة جمع القرآن في صُحُف منظمة تشغل بال بعض الصحابة ، وكانت الحروب التي وقعت في خلافة أبي بكر الصديق ﷺ ومقتل عدد من حفاظ القرآن فيها أهم العوامل التي أدَّت إلى تنفيذ الفكرة .

وكان عمر بن الخطاب ﷺ قد أحزنه مقتل عدد كبير من الصحابة في معركة اليمامة ،لاسيما أخوه زيد بن الخطاب ، وأقلقه مقتل الحفاظ منهم ، مثل سالم بن معقل مولى أبي حذيفة ، وهو من أشهر حفاظ القرآن من الصحابة ، فجاء عمر ﷺ إلى الخليفة أبي بكر الصديق ﷺ وقال له : إن أصحاب رسول الله ﷺ تهافتوا يوم اليمامة تهافت الفراش في النار ، وإن القتل استحرَّ بأهل اليمامة من قراء المسلمين ، وإني لأخشى أن يستحرَّ القتل بالقراء في المواطن ، فيذهب كثير من القرآن ، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن.

ولم تلق الفكرة في بدء الأمر موافقة الخليفة الذي كان شديد الحرص ألاّ يعمل عملاً لم يعمله رسول الله ﷺ لكن إلحاح عمر ﷺ جعله يقتنع بالفكرة ويوافق على جمع القرآن في الصحف ، ونقل البخاري وغيره من المؤرخين والمحدثين عن زيد بن ثابت قصة جمع القرآن ، ولعل من الأفضل هنا أن ننقل الرواية كما وردت على لسان زيد ، لما فيها من دقة التعبير وصدق التصوير.

قال زيد بن ثابت: (( أرسل إليَّ أبو بكر الصديق مقتلَ أهل اليمامة ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبو بكر ﷺ : إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بقرَّاء القرآن ، وإني أخشى أن يستحرَّ القتل بقراء القرآن في المواطن كلها ، فيذهب كثير من القرآن ، إلاَّ أن تجمعوه ، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن ، قال أبو بكر : قلتُ لعمر : كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال عمر :

هو واللهِ خيرٌ . فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت الذي رأى عمر .

قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجلٌ شابٌّ ، عاقل ، لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فَتَتَبَّعِ القرآن فاجمعه . قال زيد : فواللهِ لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كانَ أثقل عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن . قلت:كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال أبو بكر : هو واللهِ خيرٌ ، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنه . قال زيد : فقمتُ فتتبَّعتُ القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدورالرجال ، حتى وجدت آخر سورة التوبة ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [ التوبة ، الآية :128 ] حتى خاتمة براءة، مع خزيمة بن ثابت الأنصاري، لم أجدها مع أحد غيره ، فألحقتها في سورتها ) [ السيوطي "1967"1/167 ].

وكانت الصحف التي جُمِعَ فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياتَهُ حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر.

إن هذه الرواية المفصلة استوفت معظم ما يتعلق بعملية جمع القرآن ، وهي تشير إلى حقيقتين اثنتين :

الأولى : إن عمل زيد رضي الله عنه في جمع القرآن لم يكن كتابةً مُبْتَدَأةً ، ولكنه جمعٌ وترتيبٌ ونسخٌ لما كُتِبَ في عصر النبوة .

والأخرى : إن زيد بن ثابت في عمله انتج نسخة من صحف منظمة تجمع القرآن الكريم كله ، حُفظت في بيت الخليفة الصديق ، ولا تعني تسميتها بالصحف أنها لم تكن على شكل كتاب ، فقد جاء في بعض الروايات أنها كانت محفوظة بين لوحين.

ولا شك في أن الصحف كانت من مادة يمكن أن يُعمل منها قطع متساوية يَسْهُل ضمها بين دفتين ، وجاء في بعض الروايات أنها كانت من القرطاس ، وهو الورق الذي يصنع من البردي في مصر قديماً .وقيل : إن زيداً كتبه في قطع الأدم.

ويبدو أن زيد بن ثابت لم يكن يعمل وحده في جمع القرآن ، فقد جاء في بعض الروايات أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه طلب من عمر بن الخطاب رضي الله عنه وزيد بن ثابت أن يقعدا على باب المسجد ، وينادِيا : من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأت به ، وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعُسُب ، وكانا لا يقبلان من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان .قال بعض العلماء ، إن المراد بالشهيدين أن يشهدا على أن ذلك المكتوب كُتِبَ بين يدي رسول الله ﷺ .وقال أبو شامة

المقدسي : (( إنما كان قصدهم أن ينقلوا من عين المكتوب بين يدي النبي ﷺ و لم يكتبوا من حفظهم )) [ " 1975" 57 ].

ويتبين من ذلك أن زيد بن ثابت اتبع في جمع القرآن طريقة التحقيق العلمي التي تنأى عن الخطأ ، وقد اتبع الطريقة بدقة دونها كل دقة ، فقد طلب أبو بكر إلى كل من كان عنده شيء مكتوب من القرآن أن يأتي به إلى زيد بن ثابت ، واجتمع لزيد من الرقاع والأكتاف والعسب ، ومن كل ما كتب أصحاب رسول الله ﷺ القرآن عليه ، الشيءُ الكثيرُ ، عند ذلك جعل يرتبه ويوازنه ويستشهد عليه ، حتى أنجز كتابة الصحف على أحسن وجه.

ويمكن أن نستنتج من القرائن التاريخية أن عملية جمع القرآن قد تمت في أقل من سنة، فهي بدأت بعد معركة اليمامة التي وقعت في أواخر السنة الحادية عشرة ، وتمت قبل وفاة الصديق ﷺ في جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة. وبقيت محفوظة في بيت الصديق ﷺ حتى وفاته ، لتنتقل بعد ذلك إلى بيت الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ﷺ .إن جمع القرآن في الصحف كان من جلائل الأعمال التي ازدان بها عهد الصديق ﷺ ، إن لم يكن أجلها ، وقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ :"أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر ، فإنه أول من جمع القرآن بين اللوحين " [ ابن ابي داود "1936"5 ].

## كتابة المصاحف

كانت الصحف في مأمن من التلف أو الضياع أكثر من الرقاع ، لكن نسخة واحدة من الصحف لم تكن كافية لتلبية حاجة المسلمين المتزايدة إلى تعلم القرآن وقراءته ، فكان لابد من إكثار النسخ ، و لم يتحقق ذلك على نحو منظم إلا في خلافة عثمان ﷺ وقد اجتمعت عدة عوامل أسهمت في تحقيق ذلك ، على نحو ما يتضح من العرض الآتي :

### الدوافع :

اتسعت رقعة الدولة الإسلامية في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ ( من 13-23هـ ) وواكب ذلك الاتساع جهود كبيرة لتعليم الناس القرآن والفقه في الدين ، وكان الخليفة يوجّه كبار الصحابة إلى الأمصار لتعليم الناس ، وهو يقول :" اللهم إني أُشهدك على أمراء الأمصار أني إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنَّة نبيهم " [ الطبري "1960-1970"4/204 ]. ومما حفظته كتب التاريخ أنه بعث إلى الكوفة عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود، وكَتَبَ :" إني قد بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً ، وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً " [ ابن سعد "1957"7/6 ] . فكان ابن مسعود يعلّم أهل الكوفة قراءة القرآن. وكذلك أرسل أبا موسى الأشعري إلى البصرة ، فكان يعلمهم

القرآن ، وبعث إلى الشام معاذ بن جبل وعُبادة بن الصامت وأبا الدرداء ، حين كتب إليه والي الشام : إنَّ أهل الشام قد كثروا وملأوا المدائن ، واحتاجوا إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين ، فأعني يا أمير المؤمنين برجال يعلمونهم.

وكان علماء الصحابة الذين نزلوا في الأمصار يُعلّمون الناس أمور الدين ، ويقرئونهم القرآن على ما كانوا يقرؤون في حياة رسول الله ﷺ الذي رخَّص لهم في القراءة بقوله :" إن هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف ، فاقرؤوا ما تيسر منه " [ "1380هـ "15/9 ]. نظراً لاختلاف لهجاتهم وتقدم أعمارهم ، فلم يحملهم النبي ﷺ على قراءة القرآن بلسان قريش الذي نزل به القرآن .

وكانت كتابة القرآن في الأمصار تعتمد على قراءات الصحابة الذين نزلوا فيها ، فكان أهل الكوفة يكتبون مصاحفهم على قراءة عبد الله بن مسعود ، وكان أهل دمشق قد كتبوا مصحفهم على قراءة أبي الدرداء ، وهكذا في الأمصار الأخرى ، وكانت هذه المصاحف تعكس الاختلاف الذي كان في القراءة ، قال ابن عطية :" وانتشرت في خلال ذلك صحف في الآفاق كُتبت عن الصحابة ، كمصحف ابن مسعود، وما كُتب عن الصحابة بالشام ، ومصحف أُبي ، وغير ذلك ، وكان في ذلك اختلاف حسب الأحرف السبعة التي أُنزل القرآن عليها " [ "1991"65/1 ].

وبرزت بشكل واضح في خلافة عثمان مشكلة التنوع في قراءة القرآن ، مع وجود مصاحف متعددة ، تعكس تنوع قراءات الصحابة، مع ما قد يكون من تباين الدقة في الكتابة ، وكانت هذه المشكلة موضع عناية الخليفة الثالث ، وقد ألهمه الله تعالى القيام بعمل عظيم جمع المسلمين على مصحف موحد في رسمه وترتيبه ، يعتمد على قراءة واحدة ، وكان أول ما بدأ به الخليفة لتحقيق ذلك هو استشارته الصحابة الذين كانوا في المدينة في جمع الناس على مصحف واحد ، فقالوا : نِعْمَ ما رأيت.

## تنفيذ العمل :

كان تعدد القراءة وتعدد المصاحف ماثلاً أمام الخليفة الثالث ، لكن الحدث الذي دفع إلى تنفيذ فكرة توحيد المصاحف ما رآه الصحابي حذيفة بن اليمان من جدال بين جنده حول قراءة القرآن ، ومناشدته الخليفة أن يدرك الأمة قبل أن تختلف . والرواية التي تحكي خطوات ذلك العمل الكبير هي التي رواها كثير من المحدِّثين والمؤرخين ، ونصها كما نقلها البخاري في صحيحه ، عن أنس بن مالك :" إن حذيفة بن اليمان قَدِمَ على عثمان ﷺ ، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافُهم في القراءة، قال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان إلى

حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ، ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى الخليفة عثمان .

فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف.

وقال عثمان ﷺ للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم . حتى إذا نسخوا الصُّحف في المصاحف ردَّ عثمان ﷺ الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أُفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق " [ البخاري "1927"226/6 ].

وهذه الرواية جمعت العناصر الأساسية لعملية نسخ المصاحف ، وتوزيعها على الأمصار ، وبينت جملة أمور ، منها :

1. بينت السبب الذي حمل عثمان على الأمر بنسخ الصحف في المصاحف ، وهو الاختلاف الذي حصل في قراءة القرآن ، مع عدم وجود مصاحف في أيدي الناس ، يمكن أن يرجعوا إليها في ضبط قراءتهم .

2. ذكرت الرواية المصدر الذي اعتمد عليه الصحابة في كتابة المصاحف ، وهو الصحف التي جَمَعَ فيها زيد بن ثابت القرآن في خلافة أبي بكر الصديق ﷺ ، معتمداً على الرقاع التي دوِّن عليها القرآن في عصر النبوة ، وبذلك تكون المصاحف التي نسخت في خلافة عثمانﷺ تمثل نسخة مرتبة للقرآن الذي كُتِبَ بإملاء النبي ﷺ.

3. بَيَّنت وسائل حسم الخلاف بين المسلمين في قراءة القرآن ، وهي :

أ . نشر المصاحف الموحدة في الأمصار الإسلامية .

ب. كتابة المصاحف على اللغة التي أُنزل بها القرآن ، وهي لغة قريش ، ليكون رسمها موافقاً لنطق النبي ﷺ .

ج. إحراق ما سوى هذه المصاحف ، ولولا هذه الخطوة لما أعطى ذلك العمل ثماره ولا حقق أهدافه في توحيد الأمة .

4. ذكرت الرواية أسماء الصحابة الذين قاموا بالعمل ، وهم : زيد بن ثابت الأنصاري ، كاتب الوحي ، وجامع القرآن ، وأحد حفظة القرآن ، ومعه ثلاثة من شباب الصحابة من أبناء المهاجرين ، كانت أعمارهم تتراوح بين الخامسة والعشرين والثلاثين ، وهناك روايات تشير إلى مشاركة عدد آخر من الصحابة ، وكأن ابتداء الأمر كان للجماعة الأربعة الذين انتدبهم عثمانﷺ أولاً ، ثم احتاجوا إلى من يساعدهم في الكتابة.

5. لم تحدد الرواية عدد المصاحف التي كتبها هؤلاء الصحابة ، لكن عبارة (( حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف أرسل إلى كل أُفق

بمصحف مما نسخوا )) تشير إلى إنها كانت كثيرة ، وجاء في بعض الروايات الأُخرى أنها أربعة ، وفي بعضها سبعة : أرسلت إلى مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة ، وبقي واحد في المدينة .ومهما يكن عدد تلك المصاحف فإن المسلمين في الأمصار أقبلوا ينسخون منها نسخاً جديدة تخرج عن العد والحصر ، كلها موحدة في الرسم والترتيب .

6. لم تحدد الرواية السنة التي تم فيها نسخ المصاحف ، لكن من العلماء من حدد ذلك بسنة خمس وعشرين من الهجرة ، وهو الوقت الذي ذكر أهل التاريخ أن أرمينية فُتحت فيه ، وقال ابن حجر :" وغفل بعض من أدركناه فزعم أن ذلك كان في حدود سنة ثلاثين ، و لم يذكر لذلك مستنداً" [ ابن حجر "1380هـ"17/9 ] .

### العرض والتدقيق:

كان الصحابة وهم يعملون في نسخ المصاحف يدركون قيمة العمل الذي يقومون به، وما يتطلب من الأناة والدقة ، وكانوا يعملون على أساس القاعدة التي تضمنها قول الخليفة لهم:"إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش "، حتى يأتي الرسم مطابقاً لنطق النبي ﷺ لأن زيد بن ثابت كان من أهل المدينة ، فربما تأثر رسمه للقرآن ببعض خصائص لهجته ، ورُوِيَ عن محمد بن شهاب الزهري أنهم (( اختلفوا يومئذ في ( التابوت ) و( التابوه) ، فقال القرشيون: ( التابوت) ، وقال زيد : ( التابوه ) ، فَرُفِعَ اختلافهم إلى عثمان ﷺ ، فقال : اكتبوه ( التابوت ) ، فإنه نزل بلسان قريش )) [ الترمذي"1987"5 /266] .وجاء في بعض الروايات أن الذين كانوا يكتبون المصاحف ربما اختلفوا في الكلمة، فيتركون مكانها فارغاً ، ولا يثبتونها حتى يسألوا عنها ، وتتفق كلمتهم على رسمها ، وربما يذكرون الرجل قد تلقاها عن رسول الله ﷺ ولعله أن يكون غائباً أو في بعض البوادي ، فيُرْسَلُ إليه ، أو يجيءُ ، حرصاً منهم على الدقة في كتابة كلمات القرآن الكريم.

وكان الصحابة يدققون في كتابة المصاحف في أثناء العمل ،وبعد إنجازه ، فإن المصاحف لم ترسل إلى الأمصار إلا بعد عرضها ومراجعتها ، وجاء في عدد من الروايات أمثلة للكلمات التي توقف عندها الصحابة ودققوا في رسمها ، وهي مروية عن هانئ البربري الدمشقي، مولى عثمان ﷺ،ولدينا روايتان عنه هما :

الرواية الأولى: قال هانئ :" كنتُ الرسولَ بين عثمان وزيد بن ثابت ، فقال زيد : سَلْهُ عن قوله : ( لم يَتَسَنَّ ) ، أو ( لم يَتَسَنَّهْ )[ البقرة 259 ] ، فقال عثمان : اجعلوا فيها هاء".الرواية الأُخرى: قال هانئ :" كنت عند عثمان ، وهم يَعْرِضون المصاحف، فأرسلني بكَتِفِ شاةٍ إلى أُبيِّ بن كعب، فيها( لم يتسَنَّ)

و( فأمهل الكافرين ) و ( لاتبديل للخلق ) قال: فدعا بالدواة فمحا إحدى اللامين وكتب : ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم ، الآية :30] ومحا ( فأمهل ) ، وكتب : ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ﴾ [ سورة الطارق ، الآية : 17 ] ، وكتب : ( لم يَتَسَنَّهْ ) ألحق فيها الهاء " [ الطبري "1968"3/37-38 ] .

وهذا الحرص على التدقيق في رسم كلمات القرآن يدل على نحو لا يقبل الشك أن القرآن الكريم قد حُفِظَ نصه كما تلقاه الصحابة عن رسول الله ﷺ وأنه حظي في جميع مراحل كتابته بالمراجعة التي لا تدع مجالاً للنسيان أو الوهم ، ومن ثم قال العلماء : (( وجميع القرآن الذي أنزله الله تعالى ، وأمر بإثباته و لم ينسخه ، ولا رفع تلاوته ، هو الذي بين اللوحين ، الذي حواه مصحف عثمان ﷺ ، لم ينقص منه شيء ، ولا زِيدَ فيه شيء ، نقله الخلف عن السلف)) [الباقلاني "1971"59 ].

## صورة المصاحف الأولى

كُتبت المصاحف العثمانية سنة خمس وعشرين من الهجرة، وهذا يعني مرور أربعة عشر قرناً على إنجاز ذلك العمل، وقد يتساءل كثير من القراء عن صورة تلك المصاحف , وعن مدى التطور الذي أصابها خلال هذه الحقبة الطويلة وعن مقدار التطابق بين المصاحف المطبوعة في زماننا وتلك المصاحف ، وتقتضي الإجابة عن هذه التساؤلات الحديث عن جانبين: الأول النص وترتيبه , والثاني شكل المصحف ورسمه.

### النص وترتيبه:

يتألف المصحف من مائة وأربع عشرة سورة , تبدأ بسورة الفاتحة , وتنتهي بسورة الناس , وتتفاوت السور في الطول والقصر , فأطول سورة في القرآن هي سورة البقرة , وتتألف من 286 آية , وأقصر سورة هي الكوثر , وتتألف من ثلاث آيات .

وترتيب السور في المصاحف يبدأ بعد فاتحة الكتاب بالسور الطوال , ثم تتدرج نزولا, فنجد قصار السور في آخر المصحف ، ويقسم المصحف على ثلاثين جزءاً , وكل جزء يقسم على أحزاب وأرباع.

ومن المعلوم أن ترتيب القرآن لم يجر على أساس تاريخ النزول, وللدارس أن يتساءل عن الأسس التي اعتمد عليها الصحابة في ذلك , وكان الإمام مالك بن أنس قد لخص الإجابة عن ذلك بقوله: " إنما أُلِفَ القرآن على ما كانوا يسمعون من قراءة رسول الله ﷺ" [الداني"1940"8 ] .

والتأليف معناه الترتيب , وهو يشمل ترتيب الآيات في السور وترتيب السور في المصحف .

### 1- ترتيب الآيات في السور:

قال السيوطي : " الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توفيقيٌّ , لاشبهة في ذلك"

["1967"1/172 ]. أي أن رسول الله ﷺ هو الذي وقف الصحابة عليه, وبينه لهم ولم يكن باجتهادهم أو حسب آرائهم, ونقل السيوطي عدداً من النصوص الدالة على ذلك.

ومن تلك النصوص الحديث الذي نقلناه من قبل المروي عن زيد بن ثابت وقال فيه: " كنا نؤلف القرآن من الرقاع ", وقول البيهقي معلقاً عليه: " وهذا يُشبه أن يكون أراد به تأليف ما نزل من الآيات المتفرقة في سورها, وجمعها فيها بإشارة النبي ﷺ " ["1985"7/147].

وكان رسول الله ﷺ كلما نزل عليه الشيء من القرآن دعا بعض من يكتب له, ويقول: ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا, يعني اسم السورة.

وفي الرواية التي أخرجها البخاري عن عبد الله بن الزبير, وهو أحد من أسهم في نسخ المصاحف, ما يدل دلالة قاطعة على ذلك, ونصها:" قلت لعثمان بن عفان: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ﴾ [ سورة البقرة، الآية :240] قد نسختها الآية الأخرى فلِمَ تكتبها؟ قال: يا ابن أخي لا أُغيِّرُ شيئاً منه من مكانه" [ "1380هـ" 8/1930 ].

إن قراءة النبي ﷺ للقرآن على مسمع من الصحابة, في الصلاة وخارجها, وقراءة الصحابة المستمرة, من غير أن ينقل عنهم الاختلاف في موضع آية, أو ترتيب سورة, دليل أكيد على أن هذا الترتيب متلقى عن رسول الله ﷺ ومن تعليمه, ليس للصحابة فيه إلا حفظه وكتابته.

## 2- ترتيب السور في المصحف

لا يشك الدارس في أن الصحف التي جُمِعَ فيها القرآن في خلافة أبي بكر الصديق كانت منظمة, وأن الآيات مرتبة في سورها, وأن السور مرتبة فيها على نحو ما جاء في المصاحف العثمانية, ولم يُنقل عن الصحابة وهم ينسخون المصاحف أنهم اختلفوا في موضع آية أو ترتيب سورة.

ويذهب جمهور العلماء إلى أن ترتيب السور في المصحف توفيقي, وأن هذا الترتيب محفوظ عن النبي ﷺ وإن لم يكن في زمنه مصحف مكتوب, فقد كان حَفَظَةُ القرآن من الصحابة يحفظون ذلك, وليس فيما روي من أن في بعض مصاحف الصحابة اختلافاً في ترتيب عدد من السور دليل على أن ترتيب السور في المصحف كان باجتهادهم, فالمصاحف المكتوبة عن الصحابة أحرقت بعد نسخ المصاحف العثمانية وتوزيعها على الأمصار, وأجمع الصحابة على هذه المصاحف, وتابعتهم الأمة على ذلك. وإذا صح أن بعض الصحابة كان يرتب السور في مصحفه على غير ترتيب المصاحف العثمانية فإن ذلك ربما كان باجتهاد منه, قبل أن يعرف ترتيب السور كما رتبها رسول الله ﷺ في العرض الأخير للقرآن ويستدل العلماء بعدد من الروايات على أن ترتيب السور

في المصحف توفيقي , وأنه كان معروفاً في زمن النبي ﷺ منها ما ورد من أنه ﷺ كان يقرأ في صلاة الليل سور القرآن مرتبة على نحو ما هي عليه في المصحف ومنها ما جاء في قول النبي ﷺ : " أُعطيتُ مكان التوراة السبع الطوّال, وأُعطيت مكان الزبور المئين , وأعطيت مكان الإنجيل المثاني , وفُضِّلت بالمفصل" [ الطبري"1968"44/1 ] .

قال أبو جعفر النحاس :" وهذا الحديث يبين لك أن تأليف القرآن عن رسول الله ﷺ وأنه كان مؤلفاً من ذلك الوقت , وانما جُمِعَ في المصحف على شيء واحد , لأنه قد جاء هذا الحديث بلفظ رسول الله ﷺ على تأليف القرآن ["1978"82] .

وقال الحافظ ابن حجر : ومما يدل على أن ترتيب السور توقيفي ما أخرجه أحمد وأبو داود عن أوس بن حذيفة الثقفي, قال : كنت في الوفد الذين أسلموا من ثقيف . . فذكر الحديث ، وفيه : فقال لنا الرسول ﷺ : " طرأ عليَّ حزبي من القرآن , فأردت ألا أخرج حتى أقْضِيَهُ". قال أوس : فسألنا أصحاب رسول اللهﷺ : كيف تحزِّبون القرآن ؟ قالوا: نُحَزِّبُهُ ثلاثَ سورٍ, وخمسَ سور, وسبع سور, وتسع سور, وإحدى عشرة , وثلاث عشرة, وحزب المفصَّل من ( ق ) حتى نختم " . فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو في المصحف الآن كان على عهد رسول الله ﷺ . ["1380هـ"42/9]

واستدل العلماء بهذه الروايات وغيرها, على أن ترتيب السور في المصحف توفيقي , قال أبو بكر الأنباري :" اتساق السور كاتساق الآيات والحروف , كله عن النبي ﷺ " . ["1967" 1/ 177، 179 ]

وقال أبو عمرو الداني:" القول عندنا في تأليف السور وتسميتها وترتيب آيها في الكتابة : إن ذلك توقيف من رسول الله ﷺ لتوفر مجيء الأخبار بذلك, واقتضاء العادة بكونه كذلك, وتواطؤ الجماعة عليه". [ " 1960" 23 ]

إن قراءة النبي ﷺ للقرآن على مسمع من أصحابه في الصلاة وخارجها , وحثه لهم على تلاوته, واشتغالهم بقراءته وحفظه, وتعاهدهم للقرآن وختمه في أيام أو أسابيع, واتفاق الصحابة على إثباته في المصاحف على هذا الترتيب دليل على أن ذلك كان معروفاُ في حياته ﷺ تلقاه الصحابة عنه, وأثبتوه على نحو ما سمعوه وحفظوه.

### ثانياً: شكل المصحف ورسمه

لعل المصاحف القديمة التي يحتفظ بها عدد من المكتبات العالمية اليوم أقرب ما تكون في شكلها إلى المصاحف العثمانية الأولى التي يعتقد أنها اندثرت و لم يبق منها شيء , وكان عبد الله بن وهب المصري قد سأل شيخه الإمام مالك بن

أنس(ت 179هـ/795م) عن مصحف عثمان بن عفان ﷺ فقال له : إنه ذَهَبَ.

ويمكن إعطاء وصف للمصاحف الأولى من خلال بعض الروايات ومن خلال ما بقي من المصاحف القديمة التي أشرنا إليها , وأول ما تتصف به هو الفخامة, فقد كانوا يكرهون كتابة القرآن في الشيء الصغير, ويقولون : عظموا كتاب الله.

ويلاحظ على عدد من المصاحف القديمة الباقية كبر الحجم, مثل مصحف جامع عمرو بن العاص الذي تحتفظ به دار الكتب المصرية تحت رقم ( 139 مصاحف ) فإن عرضه 60 سم, وطوله 54 سم , وهو مصحف مكتوب على الرَّق بالخط الكوفي القديم .

وكانت المصاحف العثمانية مجردة من نقاط الإعجام ومن الحركات وغيرها من العلامات , لخلو الكتابة العربية في تلك الحقبة منها, وكان بعض الصحابة وبعض التابعين يقول:" جردوا القرآن ولا تخلطوه بشيء . وبرزت الحاجة إلى تنقيط الحروف وعلامات الحركات, بعد عصر الخلافة الراشدة مباشرة , بسبب ظهور اللحن والخطأ في قراءة القرآن , فاجتهد علماء العربية وعلماء القرآن في اختراع نقاط الإعجام وعلامات الحركات , حتى استكمل المصحف صورته الكتابية منذ القرن الثاني الهجري.وحظيت المصاحف بعناية كبيرة تتناسب ومكانة القرآن في قلوب المؤمنين ,

فكانت تُختار لكتابة المصحف أجود أنواع الورق, وأحسن الخطوط, وأجود وسائل التجليد والزخرفة, وتطور الخط على يد خطاطي المصاحف في العقود الأولى من القرن الهجري الأول , واشتهر أولاً " الخط المكي, وبعده المدني, ثم البصري, ثم الكوفي" [ ابن النديم "1971"9 ]وساد الخط الكوفي في القرون الأولى, قبل أن تشهر الخطوط اللينة على يد ابن مقلة ومن قلده من الخطاطين .

وتتميز المصاحف العثمانية إلى جانب ذلك بطريقة رسم الكلمات فيها, ففضلاً عن تجردها من النقط والحركات نجد أن كثيراً من كلماتها رسمت بطريقة خاصة , تعكس طريقة الكُتّاب في الرسم في تلك الحقبة , وتتلخص في حذف بعض الحروف , مثل الألف في ( الرحمن وملك والعلمين ) , وزيادة بعض الحروف مثل الواو في ( أولئك وسأوريكم ) والألف في ( مائة ولاأذبحنه ), والياء في ( بأييد وبأييكم ) , وكتابة بعض الأصوات بغير حروفها, مثل( الصلوة والزكوة, والهدى والضحى ) .

وألف العلماء منذ أوائل القرن الثاني الهجري كتباً في وصف طريقة رسم الكلمات في المصاحف العثمانية , التزم كُتّاب المصاحف بها وهم يكتبون المصاحف, وصار هذا الرسم يعرف بالرسم العثماني, ومن أشهر تلك المؤلفات المطبوعة كتاب ( المقنع في معرفة مرسوم

مصاحف أهل الأمصار) لأبي عمرو الداني( ت 444 هـ/1052م) .

وكان الإملاء الذي يكتب به الناس في عصر الخلافة الراشدة يتطابق مع رسم المصاحف , كما يدل على ذلك ما نجده في النقوش العربية التي ترجع إلى تلك الحقبة, لكن علماء العربية أعادوا صياغة قواعد الرسم في ضوء المقاييس الصرفية, فأثبتوا الحروف المحذوفة, وحذفوا الحروف الزائدة , وحاولوا المطابقة بين الرسم والنطق قدر الإمكان , ومن هنا افترق الإملاء عن الرسم المصحفي.

والتزم كتاب المصاحف بالرسم العثماني, وأفتى العلماء بوجوب المحافظة عليه , فقد سُئِلَ الإمام مالك بن أنس: هل يُكْتَبُ المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء , فقال ؛ لا , إلا على الكتبة الأولى , قال أبو عمرو الداني: ولا مخالف له في ذلك من علماء الأمة . [ "1940"10،9 ]

### بين مصاحفنا والمصحف الراشدي

إن مرور أربعة عشر قرناً على كتابة المصاحف الأولى يجعل المرء يتساءل عن العلاقة بين مصاحفنا وتلك المصاحف , وعن مدى التطابق بينها , وعن مقدار التغير الذي لحقها. وثمة تساؤل آخر هو أنه إذا كانت المصاحف موحدة فما بال القراءات متعددة؟ وهو ما يقتضي الحديث عن العلاقة بينهما.

### المصحف الراشدي أصل مصاحفنا

إن رحلة المصحف الطويلة عبر القرون لم تغير من نصه منذ كتابة الصحابة للقرآن الكريم في الرقاع حين تلقوه عن رسول الله ﷺ ثم جَمْعِهم الرقاع في المصحف, في خلافة أبي بكر الصديق ﷺ , ونسخهم الصحف في المصاحف في خلافة عثمان بن عفان ﷺ .

وإذا أخذنا نسخه من المصاحف المطبوعة في زماننا ووازنا بينها وبين نسخة من المصاحف القديمة التي تحمل صفات المصاحف الأولى لوجدنا النص واحداً , والتطابق بينها تاماً , سوى ما يرجع إلى نوع الورق , وشكل الخط , وعلامات الكتابة, ورموز الوقوف , وفواتح السور , ومواضع الأحزاب والأجزاء وأرقام الآيات , والتباين في هذه الأمور لا يؤدي إلى تباين في ألفاظ النص وطريقة تلاوته:

1. **نوع الورق** : إن الورق مثل الوعاء فسواء كان من الرَّق أو القرطاس , أو الورق, فالأمر واحد , والمصاحف القديمة معظمها مكتوب على الرقوق , وهو يصنع من جلود الغزلان , والمصاحف الحديثة مكتوبة على أجود أنواع الورق , والنص فيها واحد . ومثل ذلك كتابة النص القرآني على شاشة الحاسبة, أو أية وسيلة تستجد لحفظ النصوص .

2. **شكل الخط**: المصاحف القديمة مرسومة بالخط العربي القديم , ذي الخطوط المستقيمة , والزوايا القائمة , والذي يصفه البعض بالخط

اليابس , وغلبت عليه تسميته بالخط الكوفي , ثم تطورت خطوط المصاحف ومالت إلى الليونة على يد ابن مقلة وابن البواب ، وصارت تكتب بخط الثلث أو النسخ في بلدان المشرق العربي, وبالخط المغربي في بلدان المغرب العربي , ومهما تنوعت الخطوط فإنها لم تنقطع صلتها بخط المصاحف الأولى , والحروف رموز للأصوات تظل تدل عليها مهما تنوعت أشكالها.

3.علامات الكتابة: كانت كتابة المصاحف الأولى مجردة من العلامات , ونقط الإعجام , وكان المسلمون يقرؤون فيها اعتماداً على حفظهم وسليقتهم اللغوية, وبعد اتساع الدولة الإسلامية , ظهرت بوادر اللحن , وأحس علماء القرآن واللغة العربية بحاجة الناس إلى ضبط الكتابة , فوضعوا نقاط الإعجام, واخترعوا علامات الحركات , والهمزة والسكون ونحوها , وأدى ذلك إلى تصحيح القراءة والحفاظ على سلامة النص.

4. كانت المصاحف الأولى خالية من فواتح السور , وأرقام الآيات , ورموز الوقوف , ومواضع الأحزاب والأجزاء, ثم اجتهد العلماء والخطاطون في إثباتها في المصاحف خدمة للقارئ, و لم تؤثر الإضافات في النص لا بزيادة ولا بنقصان.

وقد يسر الله تعالى أسباب حفظ القرآن, كتابة في السطور , وحفظاً في الصدور, وتلاوة بالألسنة , وتحقق بذلك وعد الله تعالى بحفظ القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [ سورة الحجر ، الآية : 9 ] , ولاشك في أن كل كلمة في المصحف وكل حرف فيه نقرؤه اليوم نجزم بأنه لم يقبل أي تغيير من يوم نزوله إلى زماننا .

ويمكن للقارئ الإطلاع على ثلاثة نماذج من مصاحف ترجع إلى حقب متباعدة ، في آخر هذه الدراسة ، تدل على ما ذكرناه من أن نص القرآن ظل محفوظاً منذ كتابته في المصاحف العثمانية حتى زماننا هذا .

### القراءات وعلاقتها بالمصحف الراشدي

توحدت المصاحف رسماً وترتيباً منذ نسخ المصاحف العثمانية , ولا تزال كذلك, لكن المتأمل يجد تنوعاً في القراءات القرآنية , وقد يتساءل المرء هل يعكس ذلك التنوع اختلافا بين المصاحف , وتقتضي الإجابة عن هذا التساؤل البحث في أصل القراءات , وفي علاقتها بالمصاحف:

#### 1. أصل القراءات القرآنية

يقرر القرآن الكريم حقيقة في منهاج الرسالات , وهي أن كل رسول إنما يرسل بلسان قومه [سورة إبراهيم ، الآية : 4 ] , وقد وردت نصوص كثيرة تؤكد أن القرآن نزل بلغة قريش من بين لغات العرب , منها أن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ﷺ بعد أن أرسله الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ إلى الكوفة ليعلم الناس هناك الفقه وقراءة القرآن, كان يُقرئ

الناس بلغة قبيلته هذيل , فكتب إليه عمرﷺ :" أما بعد , فإن الله تعالى أنزل القرآن بلغة قريش , فإذا أتاك كتابي هذا فأقرئ الناس بلغة قريش , ولا تقرئهم بلغة هذيل" . [ ابو شامة"1975"101 ]

ومن تلك النصوص ما سبقت الإشارة إليه من قول عثمان بن عفان ﷺ لكُتّاب المصاحف :" إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش, فإنما نزل بلسانهم" . [ الترمذي "1987"265/5 ]

ومعنى نزول القرآن بلغة قريش هو أن النبي ﷺ كان يتلوه على الناس بنطق العربية السائد في مكة ، وأن معنى كتابته بلغة قريش هو أن الرموز الكتابية تُرسم لتمثيل ذلك النطق .

وهناك ما يشير إلى أن مِن الصحابة مَن شقَّ عليه قراءة القرآن بلغة قريش ، لأن الله تبارك وتعالى بعث نبيه ﷺ والعرب متناؤون في المحالّ والمقامات ، متباينون في كثير من الألفاظ واللغات . فكان من تيسير الله تعالى عليهم أنْ أمَرَ نبيَّهُ ﷺ بأن يقرئ كلَّ قوم بلغتهم وما جَرَتْ عليه عادتهم . قال الصحابي الجليل عبدالله بن عباس :" إن النبي ﷺ كان يُقْرِئُ الناس بلغة واحدة ، فاشتدَّ ذلك عليهم ، فنزل جبريل عليه السلام، فقال : يا محمد ، أقرئ كلَّ قوم بلغتهم" . [ ابو شامة "1975"95 ]

وروى الترمذي في سننه عن أُبي بن كعب أنه قال :" لَقِيَ رسولُ الله ﷺ جبريل عليه السلام، فقال : يا جبريلُ إني بُعِثتُ إلى أمَّةٍ أُمِّيِّينَ، منهم العجوز ، والشيخ الكبير ، والغلام، والجارية والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قَطُّ ! قال يا محمد : إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ". [الترمذي"1987"178/5 ]

وقد تواتر في أحاديث صحيحة كثيرة أن النبي ﷺ قال :" إنّ هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف ، فاقرؤوا ما تيسر منه " ، وبلغ عدد الصحابة الذين رووا ذلك عن رسول الله ﷺ واحداً وعشرين صحابياً ، في مناسبات متعددة ، ووردت روايات الحديث في أصح كتب الحديث، والتفسير ، وعلوم القرآن.

وكانت رخصة الأحرف السبعة حلاً لمشكلة واجهت الصحابة في عصر النبوة ، وهم يقرؤون القرآن ، وقد يسرت عليهم هذه الرخصة تلاوة القرآن ، من غير أن يختل نظمه ، أو تتحرف كتابته .

و لم تكن تلك الرخصة تتجاوز تنوع صور النطق إلى اختلاف المعاني ، قال محمد بن شهاب الزهري :" بلغني أن تلك السبعة الأحرف إنما هي في الأمر الذي يكون واحداً ، لا يختلف في حلال أو حرام " [مسلم"د.ت" 101/6 ]، كما أن تلك الرخصة لم تكن مطلقة ، فقد نص العلماء على (( أن الإباحة المذكورة لم تقع بالتشهي ، بأنْ يغير كلٌّ أحد الكلمة بمرادفها في لغته ، بل المرعي في ذلك السماع من النبي ﷺ )).

قال الداني :" وهذه القـراءات كلـها والأوجه بأسرها من اللغات هي التي أُنزل القرآن عليها ، وقرأ بها رسول الله ﷺ وأقرأ بها وأباح الله تعالى لنبيه القراءة بجميعها، وصوَّب رسـول الله ﷺ من قرأ ببعضها " . [ الدايني مخطوط ورقـة 8ظ ]

فأصل القراءات يرجع إلى رخصـة الأحـرف السبعة التي يسر الله تعالى بها على الصـحابة في تلاوتهم للقرآن , فكل القراءات القرآنية ترجـع إلى قراءات الصحابة , وكان رسول الله ﷺ قـد علَّم الصحابة القرآن , وسمع منهم قراءتهم , وأقرَّ لهم اختلافهم في النطق, كما جاء في عدد مـن روايات حديث الأحرف السبعة , وكما ورد في رواية أبي العالية الرياحي ( رفيع بن مهـران ت 92 هـ/710م ) التي نقلها الطـبري, وقـال فيها: " قرأ على رسول الله ﷺ . مِن كُلٍّ خمـسٍ رجلٌ, فاختلفوا في اللغة , فَرَضِيَ قراءتهم كلهم". [ الطبري "1968"190/1 ] وروي عن معاذ بن جبل أنه قال: عَرَضْنَا على رسـول الله ﷺ فلـم يَعِبْ أحداً منا. وكان ﷺ يقـول للصـحابة:" اقرؤوا كما عُلِّمتم", وينهاهم عـن الجـدال في القرآن وقراءته . [ الطبري "1968" 12/1 ]

## 2. علاقة القراءات بالمصحف

يشتهر في زماننا مصطلح " القـراءات السبع" أو " العشر" , وهما مصطلحان يرجعـان إلى حقبة متأخرة عن عصر ظهـور المصـاحف الأولى , لكن ذلك لايعني أن تلك القـراءات لم تكن معروفة في ذلك الوقت, فهـذه القـراءات جميعاً كانت معروفة في عصر النبوة , على نحو ما أوضحنا في الفقرة السابقة , لكنها لم تكن قـد تميزت بمثل هذه التسميات .

إن إجماع الصحابة علـى المصـاحف العثمانية جعل كثيراً من القراءات الـتي كـانوا يقرؤون بها كالمنسوخة, وهي القـراءات الـتي تخالف رسم المصاحف العثمانية , وأطلق عليهـا العلماء بعد ذلك اسم القراءات الشاذة , قال أبو منصور الأزهري :" من قرأ بحرف شاذ يخـالف المصحف ، وخالف بذلك جمهور القَرأةِ المعروفين فهو غير مصيب, وهذا مذهب الراسخين في علم القرآن قـديماً وحـديثاً". [الازهـري "1964-1967"14/5 ]

واخذ التابعون قراءة القرآن عن علمـاء الصحابة : زيد بن ثابـت , وعبـد الله بـن مسعود, وأبي موسى الأشعري, ومعاذ بن جبل , وأبي الدرداء , وعبادة بن الصامت, وغيرهـم . وكان كل واحد من هؤلاء الصحابة له مذهب خاص به في القراءة , ومن علماء القـراءة مـن التابعين من أخذ عن أكثـر مـن واحـد مـن الصحابة, واختار له مذهباً في القراءة صار ينسب إليه, وكثرت اختيارات علماء القراءة من التابعين وتابعيهم .

ووجد ابن مجاهد البغدادي ( ت 324 هـ/935م ) أن اختيارات القراء قد كثـرت , فأراد أن يضعها في إطار محدد, فدرس القـراءات

وميز بين القراءات المشهورة وجمعها في كتاب سماه ( السبعة في القراءات ) وجمع ما عداها في كتاب آخر سماه ( شواذ السبعة ). ونظراً لشهرة ابن مجاهد في علم القراءات فإن الناس اقتدوا به في عمله هذا , ومن ثم قالوا: إن ابن مجاهد هو أول من سبَّع السبعة.

وصارت قراءات القراء السبعة الذين اختار ابن مجاهد قراءتهم هي- وحدها- الصحيحة المشهورة , وهم : نافع المدني( ت 169 هـ/785م ) وعبد الله بن كثير المكي ( ت 120 هـ/737م) وعاصم الكوفي( ت 128 هـ/745م ) , وحمزة بن حبيب الزيات الكوفي ( ت 156 هـ/772م ), وعلي بن حمزة الكسائي الكوفي ثم البغدادي ( ت 189 هـ/804م ) , وأبو عمرو بن العلاء البصري ( ت 154 هـ /770م) وعبد الله بن عامر الدمشقي ( ت 118 هـ /736م) .

ووجد بعض العلماء بعد ابن مجاهد أن هناك من القراء من لايقل شهرة عن القراء السبعة , فألحقهم بهم , وهم ثلاثة: أبو جعفر القارئ المدني ( ت 130 هـ/747م ) , ويعقوب بن إسحاق الحضرمي البصري ( ت205 هـ/820م ) , وخلف بن هشام البغدادي ( ت 229 هـ/843م ) , ومن ثم ظهر مصطلح القراء العشرة , وهم السبعة مع هؤلاء الثلاثة . [ الحمد "2003" 120،133 ]

إن القراءات القرآنية كانت معروفة قبل كتابة المصاحف العثمانية , فكان المسلمون يقرؤون بقراءات شتى , لكن الإجماع على المصاحف العثمانية قد صيَّر القراءات المخالفة للرسم كالمنسوخة, وقد سمح تجرد كتابة المصاحف من نقاط الإعجام وعلامات الحركات بالاستمرار بالقراءة التي يحتملها خط المصحف, وتميزت تلك القراءات بعد ذلك بمصطلح القراءات السبع أو العشر .

إن رسم المصحف استند إلى لغة قريش , أي جاء مطابقاً لقراءة النبي ﷺ للقرآن حين كان يتلوه على كتبة الوحي, لكن القراءات تعددت بسبب رخصة الأحرف السبعة , ولا يعد ذلك اختلافاً إنما هو تنوع يسمح به رسم المصحف وطبيعة اللغة العربية, ولعل مما يوضح ذلك للقارئ الوقوف على ما ورد من قراءات في سورة الفاتحة [ ابن مجاهد "1972" 104 ] قرأ عاصم والكسائي ( مالك ) وقرأ الباقون من القراء السبعة ( مَلِك ) .

قرأ عاصم ونافع وأبو عمرو وابن عامر والكسائي ( صراط , والصراط) بالصاد , وقرأ ابن كثير في رواية عنه ( السراط ) , وقرأ حمزة بين الصاد والزاي ( يعني صاداً مجهورة ) .

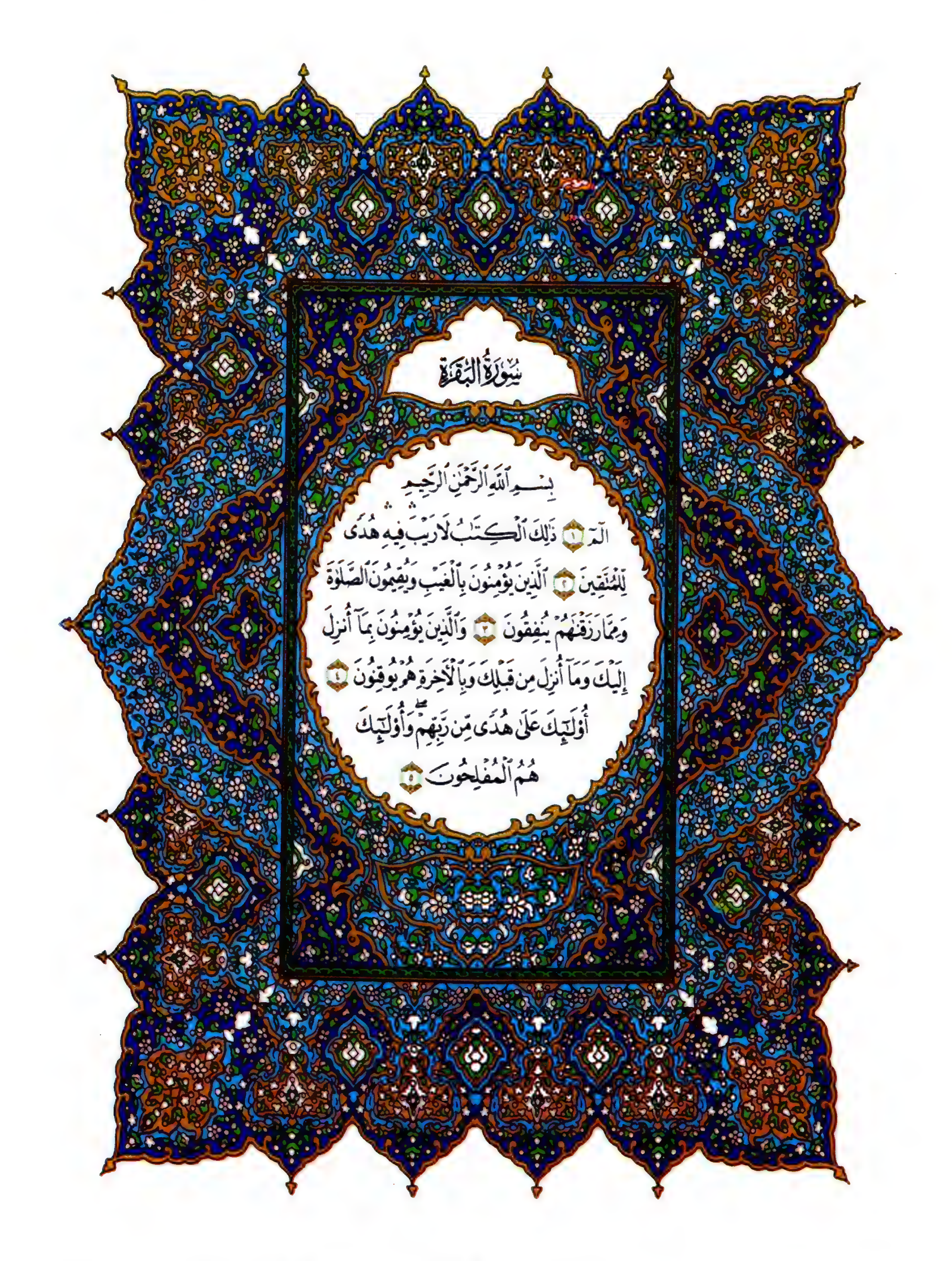
قرأ حمزة ( عليهُم ) بضم الهاء , والباقون بكسرها .

قرأ ابن كثير ( عليهمو ) بواو بعد الميم في الوصل , والباقون بإسكان الميم من غير واو .

ومما ينبغي التذكير به هو أن تجرد رسم المصحف لم يكن سبباً لنشأة القراءات القرآنية , كما قد يبدو للبعض, ولكن الرسم كان سبباً لحفظ الاختلاف الموجود أصلاً, لأن القراءة سنة متبعة. فالرسم لا يُنشِئُ القراءة ولكنه يحكم عليها.

وخلاصة هذا الموضوع هو أن النص المكتوب للقرآن واحد, هو ما تضمنته المصاحف العثمانية, وأن القراءة قد تتنوع لكن ذلك التنوع لايعني اختلافاً بين المصاحف, بل هو من التيسير الذي اقتضته ظروف الدعوة, وطبيعة اللغة .

**صفحة من مصحف ابن البواب الذي كتبه ببغداد سنة 391هـ ، وهو مخطوط في مكتبة جستر بتي في دبلن بايرلندة ، وفيها من الآية 11 – 12 من سورة النساء .**



سُورَةُ البَقَرَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ
وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ
إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾
أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

صفحة من مصحف المدينة المنورة المطبوع سنة **1424**هـ وفيها الآية **1- 5** من سورة البقرة .

صفحة من مصحف جامع عمرو بن العاص المحفوظ بدار الكتب المصرية برقم ( **139** مصاحف)

وفيها من آية **11 – 12** من سورة النساء

## المصادر والمراجع

المخطوطات

الداني أبو عمرو عثمان بن سعيد (ت444هـ/1052م)
(د.ت) جامع البيان في القراءات السبع المشهورة ، مخطوط ، دار الكتب المصرية، رقم ( 3م قراءات ) .

المصادر

ابن الأثير علي بن أبي الكرم (ت 630هـ/1232م)
(د.ت) الكامل في التاريخ ، المطبعة المنيرية بمصر .

الأزهري محمد بن أحمد (ت370هـ/981م)
(1964-1967) تهذيب اللغة ، القاهرة.

الباقلاني محمد بن الطيب (ت403هـ/1013م)
(1971) نكت الانتصار لنقل القرآن ، اختصره محمد بن عبدالله الصيرفي ، تحقيق د.محمد زغلول سلام ، الإسكندرية ، منشأة المعارف.

البخاري محمد بن إسماعيل (ت256هـ870م)
(1927) صحيح البخاري ، طبعة محمد صبيح القاهرة ،ج4.

البسوي يعقوب بن سفيان (ت277هـ/890م):
(1974) كتاب المعرفة والتاريخ ، تحقيق د. أكرم ضياء العمري ، مطبعة الإرشاد ، بغداد.

البلوي أبو الحجاج يوسف بن محمد (ت604هـ/1207م)
(1287هـ) ألف باء، جمعية المعارف بمصر .

البيهقي أحمد بن الحسين (ت458هـ/1065م)
(1985) دلائل النبوة ، تحقيق د. عبد المعطي قلعجي ، بيروت ، دار الكتب العلمية .

الترمذي محمد بن عيسى (ت279هـ/892م)
(1987) سنن الترمذي ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، بيروت ،دار الكتب العلمية .

ابن الجزري أبو الخير محمد بن محمد (ت833هـ/1429م)
(1932) غاية النهاية في طبقات القراء ، تحقيق برجستر آسر ، مصر ،مكتبة الخانجي.

ابن جني أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت392هـ/1001م)(1966) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات ، تحقيق د. علي النجدي ناصف وآخرين ، القاهرة .

الحاكم النيسابوري محمد بن عبدالله (ت405هـ/1014م)(1340هـ) المستدرك

على الصحيحين ، ط1، الهند، دائرة المعارف العثمانية .
ابن حجرأحمد بن محمد (ت852هـ/1448م)
(1325هـ) تهذيب التهذيب ، حيدر آباد الدكن ، دائرة المعارف العثمانية .
(1380هـ) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، القاهرة ، المطبعة السلفية .
الخطيب البغدادي أحمد بن علي (ت463هـ1070م)
(1949) تقييد العلم ، دمشق.
خليفة بن خياط (ت240هـ/854م)
(1967) تاريخ خليفة ، تحقيق سهيل زكّار ، دمشق.
الدارمي عبدالله بن عبد الرحمن (ت255هـ/868م)
(1930) سنن الدارمي ، بعناية محمد أحمد دهمان، دار إحياء السنة النبوية .
الداني أبو عمرو عثمان بن سعيد (ت444هـ/1052م)
(1994) البيان في عدِّ آي القرآن، تحقيق د. غانم قدوري الحمد ، ط1 ، الكويت ،مركز المخطوطات والتراث والوثائق .
(1930) التيسير في القراءات السبع ، تحقيق أوتو برتزل ، استانبول ، مطبعة الدولة .
(1960) المحكم في نقط المصاحف ، تحقيق د. عزة حسن ، دمشق ، مديرية إحياء التراث القديم ، .
(1940) المقنع في معرفة رسوم مصاحف أهل الأمصار ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، دمشق ، مكتب الدراسات الإسلامية .
ابن أبي داود عبدالله بن سليمان (ت316هـ/929م)
(1936) كتاب المصاحف ، تحقيق آثر جفري ، ط1، مصر ، المطبعة الرحمانية.
السخاوي علم الدين علي بن عبد الصمد (ت902هـ/1496م)
(1987) الوسيلة إلى كشف العقيلة ، رسالة ماجستير ، تحقيق صالح مهدي عباس ، الجامعة المستنصرية – كلية الآداب ، بغداد .
ابن سعد محمد بن سعد كاتب الواقدي (ت230هـ/844م)
(1957)الطبقات الكبرى ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت.
السيوطي جلال الدين عبد الرحمن (ت911هـ/1505م)
(1967) الإتقان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني.

أبو شامة المقدسي عبد الرحمن بن إسماعيل (ت 665هـ/1266م)
(1975)المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز ، تحقيق طيار آلتي قولاج، بيروت ،دار صادر .
الطبراني سليمان بن أحمد (ت360هـ/970م)
(1984) المعجم الكبير ، تحقيق حمدي السلفي ، ط2 ، الموصل ،مطبعة الزهراء الحديثة .
الطبري أبو جعفر محمد بن جرير (ت310هـ/922م)
(1960-1970) تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، مصر، دار المعارف.
(1968) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ط3 ، مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي.
عبدالله بن المبارك (ت 181هـ/797م)
(د.ت) كتاب الزهد ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ، بيروت، مؤسسة الرسالة .
ابن عطية عبد الحق بن غالب (ت 542هـ/1147م)
(1991) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المغرب ، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية
ابن قتيبة عبدالله بن مسلم (ت276هـ/889م)
(1981) تأويل مشكل القرآن ، ط3 ، تحقيق السيد أحمد صقر ، المدينة المنورة ، المكتبة العلمية .
القرطبي محمد بن أحمد (ت671هـ/1272م)
(1925) الجامع لأحكام القرآن، ط2، القاهرة ،دار الكتب المصرية .
القسطلاني أحمد بن محمد ت923هـ/1517م)
(1972) لطائف الإشارات لفنون القراءات ، تحقيق الشيخ عامر السيد عثمان والدكتور عبد الصبور شاهين ، القاهرة ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية .
ابن كثير إسماعيل بن عمر (ت774هـ/1372م)
(1347هـ) فضائل القرآن ، صححه محمد رشيد رضا ، مصر، مطبعة المنار .
ابن ماجه محمد بن يزيد (ت273هـ/886م) :
(د.ت) سنن ابن ماجه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الكتب العلمية .
ابن مجاهد أحمد بن موسى (ت324هـ/935م):
(1972) كتاب السبعة في القراءات ، تحقيق د. شوقي ضيف ، مصر ، دار المعارف .

مسلم بن الحجاج (ت261هـ/875م)

(د.ت) صحيح مسلم ( بشرح النووي)، المطبعة المصرية ومكتبتها .

(1960)الإبانة عن معاني القراءات ، تحقيق د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر.

ابن منظور محمد بن مكرم (ت 11هـ/1311م)

(د.ت) لسان العرب ، مصر ، طبعة بولاق .

النحاس أبو جعفر أحمد بن محمد (ت33هـ/949م)

(1978) كتاب قطع والائتناف ، تحقيق د. أحمد خطاب العمر ، بغداد ،مطبعة العاني .

ابن النديم محمد بن إسحاق (ت438هـ/1046م)

(1971) الفهرست ، تحقيق رضا – تجدد ، طهران .

نصر بن الشيخ نصر يونس الوفائي الهوريني (ت1291هـ/1874م):

(1302) المطالع المصرية ، ط2 ، بولاق، المطبعة الميرية.

مكي بن أبي طالب القيسي(ت437هـ/1045م)

**المراجع العربية والمعربة :**

الحمد غانم قدوري (دكتور ):
(1982) رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية ، بيروت ، مؤسسة المطبوعات العربية .
(2003) محاضرات في علوم القرآن ، دار عمار ، عمان

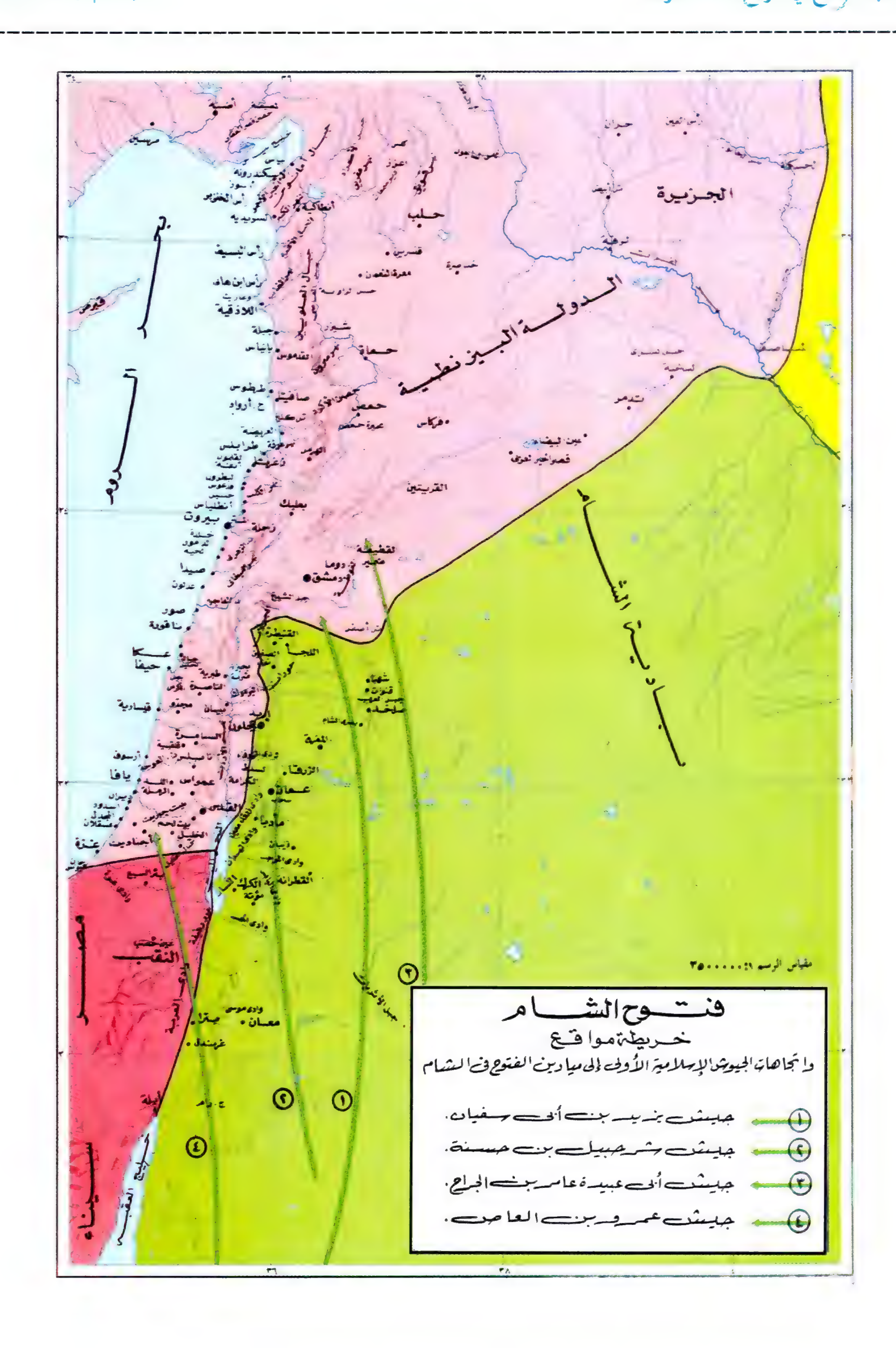
الراجحي عبده (دكتور )
(1969) اللهجات العربية في القراءات القرآنية ، مصر ، دار المعارف.

شاهين عبد الصبور (دكتور )
(1966) القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ، دار القلم .

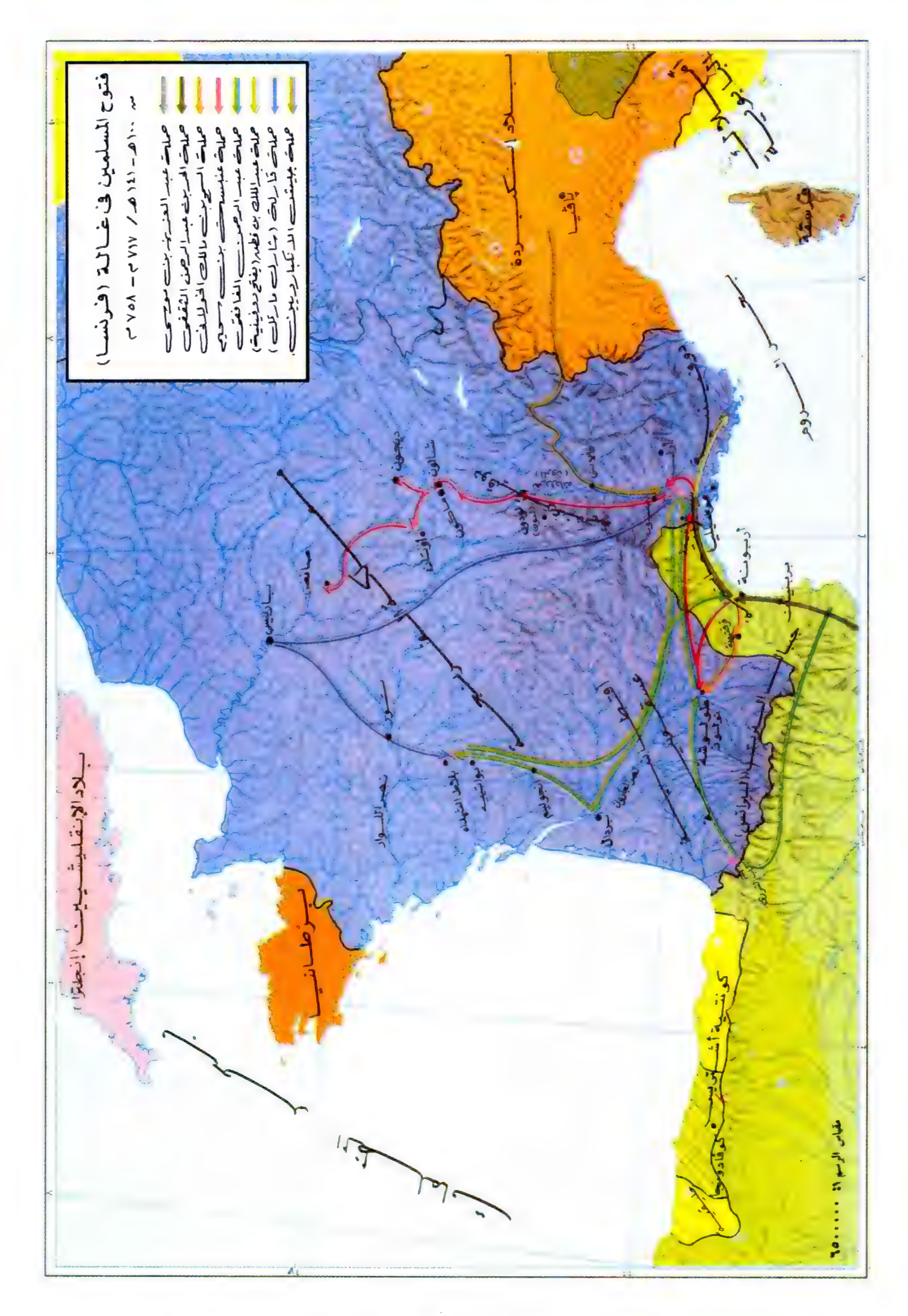
هيكل محمد حسين
(1964) الصديق أبو بكر ، ط5 ، مكتبة النهضة المصرية .

**المرجع الاجنبية :**

Arabic Moritz (B.) :
(1905)Paleograohy . Acollection of Arabic texts from the first century of Hidjra till the year 1000 . cairo.



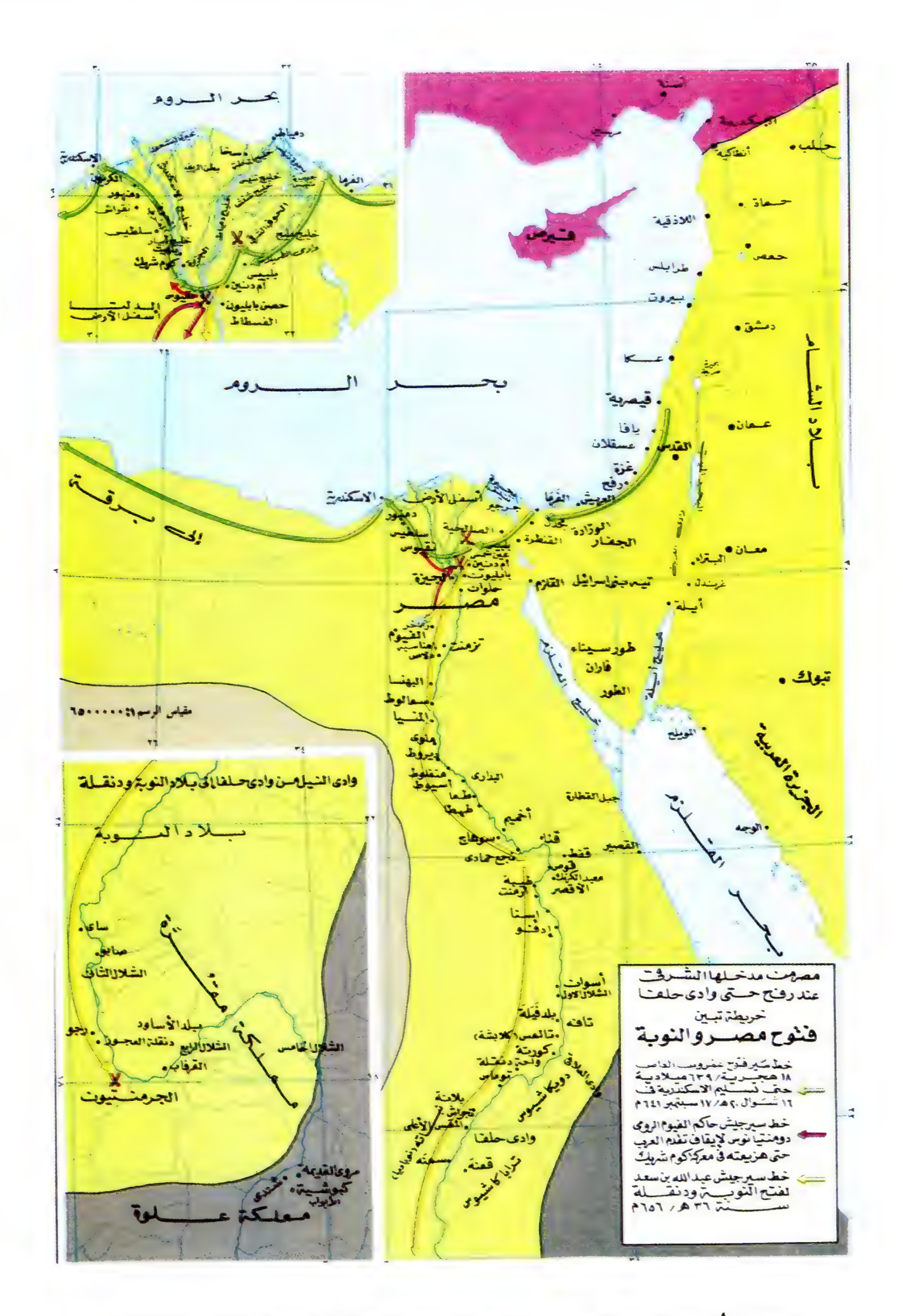

**المصدر : أطلس تاريخ الإسلام ـ د . حسين مؤنس مطبعة الزهراء ـ القاهرة 1984**




**المصدر : أطلس تاريخ الإسلام - د . حسين مؤنس مطبعة الزهراء - القاهرة 1984**




المصدر : أطلس تاريخ الإسلام ـ د . حسين مؤنس مطبعة الزهراء ـ القاهرة 1984




**المصدر** : **أطلس تاريخ الإسلام - د . حسين مؤنس مطبعة الزهراء - القاهرة 1984**

**الفصل الرابع**

# الدولة العربية (الأموية)

أولاً: مراحلها السياسية.

ثانياً: الفتوحات في المشرق والمغرب.

ثالثاً: النظم والمؤسسات:

أ-الإدارة المركزية والولايات.

ب-الدواوين والخراج.

ج-التعريب.

د-إصلاح النقد.

رابعا : البريد والطرق.

خامسا : الجيش والإسطول.

## أولا : المراحل السياسية :

شكل العصر الأموي (41-132 هـ/661-749م) حلقة في سلسلة التطور بين العصرين الراشدي والعباسي، وعلى الرغم من هذا التواصل والاستمرار، فإن لكل عصر من هذه العصور مراحل متميزة واضحة المعالم. والدارس للعصر الأموي يمكنه أن يميز فيه بوضوح تام ثلاث مراحل سياسية بارزة،الأولى مرحلة التأسيس والبناء، والثانية مرحلة إعادة توحيد الدولة واستقرارها وتوسعها، أما الثالثة فهي مرحلة الضعف والانهيار.

### المرحلة الأولى (التأسيس والبناء):

تبدأ هذه المرحلة بخلافة معاوية بن أبي سفيان (41هـ/ 661م) وتنتهي بنهاية خلافة مروان بن الحكم (65هـ / 684م).

ويمكن اعتبار عام ( 41 هـ /661م) الذي تم فيه تنازل الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن حقه في الخلافة إلى معاوية، والذي أطلق عليه "عام الجماعة" لاجتماع كلمة المسلمين على خليفة واحد، هو البداية الرسمية لقيام الخلافة الأموية. وما رافق ذلك من مظاهر قيام دولة جديدة لها سماتها واتجاهاتها الخاصة . [ ابن قتيبة "1957" 4/2 ]

ولعل أبرز ما يمثل هذه المرحلة من الناحية السياسية اتخاذ مدينة دمشق عاصمة للدولة العربية الإسلامية، وهذا يعني أن بلاد الشام أصبحت مقر الخلافة، مما ترتب عليه زوال النفوذ السياسي عن الحجاز.

وتبرز في مستهل هذه المرحلة تلك السياسة المرنة التي أبداها الخليفة معاوية بن أبي سفيان في احتواء معارضيه المتشنجين من مجيئه إلى الخلافة وكان من بين هؤلاء رجال يتمتعون بمكانة كبيرة في الأوساط الاجتماعية أمثال قيس بن سعد بن عبادة وعبد الله بن عباس وأبي موسى الأشعري والمغيرة بن شعبة وزياد بن أبي سفيان. وبفضل سياسة معاوية القائمة على الحكمة والدهاء وروح الصبر إزاء هؤلاء، استطاع أن يكسب بعضهم إلى جانبه ويضمن حياد آخرين منهم ، مما أعانه على انصرافه إلى الأمور التي من شأنها جعل خلافته تسير في الطريق الذي يعزز ترصين وحدة الدولة.

وشهدت هذه المرحلة من تاريخ الخلافة الأموية عدداً من حركات المعارضة السياسية – الدينية وفي مقدمتها حركة الخوارج التي زاد نشاطها آنذاك، وتمثل ذلك في أول معارضة واجهت معاوية من جانب فروة بن نوفل الأشجعي في سنة (41هـ /661م )، وجماعة المستورد بن علقة التميمي (43-44هـ /663-664م) ، وجماعة سهم بن الحطيم الهجيمي 46هـ/166م، وجماعة قريب الأزدي وزحاف الطائي (50 هـ / 670م). وأخيراً جماعة أبي بلال مرداس بن عمرو بن حديد من ربيعة الداين استطاعت الخلافة القضاء عليهم في سنة (61هـ / 680م) . [ الطبري "1979"

[ 209-171،172،181/5 ]

وفي هذه المرحلة ، وفي عهد يزيد بن معاوية ، أيضاً قامت ثورة الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ الذي عارض مبدأ الوراثة، فضلاً عن اعتقاده بأحقيته بالخلافة فهو ابن بنت الرسول ﷺ وأن أولاد الصحابة هم أولى بالخلافة. وقد انتهت ثورة الحسين ﷺ باستشهاده في وقعة كربلاء وذلك في العاشر من المحرم سنة (61 هـ/ العاشر من تشرين الأول سنة 680م).

وشهدت هذه المرحلة من تاريخ الخلافة حركة معارضة أخرى قادها أحد أبناء الصحابة الكبار في الحجاز هو عبدالله بن الزبير بن العوام الذي رفض مبايعة يزيد بن معاوية. وندد بالأمويين وأظهر مؤيدوه خلع يزيد من الخلافة وأخرجوا بني أميه من المدينة، وذلك في سنة (63هـ/682م) .

وإزاء هذا الموقف أرسل الخليفة يزيد جيشاً من أهل الشام قوامه اثنا عشر ألفاً بقيادة مسلم بن عقبة المّري الذي استطاع السيطرة على المدينة، ثم تابع سيره الى مكة لمقاتلة ابن الزبير الذي احتمى بالكعبة وشاء الله أن يتوفى مسلم بن عقبة في الطريق ،فخلفه على القيادة الحصين بن نمير السكوني الذي بلغ مكة وحاصرها سنة (64هـ/683م) وضربها بالمنجنيق الذي أصاب الكعبة . [الطبري"1979"485-484/5]

وفي هذه الاثناء توفي الخليفة يزيد فما كان من الحصين إلا أن دخل في مفاوضات مع ابن الزبير لم تسفر عن نتيجة، فانسحب بجيشه وعاد إلى الشام، في حين استمرت الحركة الزبيرية، وصارت تزداد قوة واتساعاً حتى امتدت الى مصر والشام، وساعدها في ذلك الخلافات التي حدثت بين أفراد البيت الأموي على أثر تنازل معاوية بن يزيد عن الخلافة ووفاته بعد مدة وجيزة، وما انتهت إليه الأحوال من انتقال الخلافة من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني من الأسرة الأموية بمجيء مروان بن الحكم الخلافة بموجب ما أسفر عنه مؤتمر الجابية سنة (64 هـ / 683م) الذي تقرر فيه "البيعة لمروان ، ثم لخالد بن يزيد من بعده، ثم لعمرو بن سعيد بن العاص من بعد خالد". [ الطبري "1979" 497/5]

وجدير بالذكر أن مروان رجع إلى نظام الوراثة سنة 65هـ / 684م، وبينما كان يعدّ لقتال عبدالله بن الزبير في الحجاز وافته المنية في السنة المذكورة، فكان على ابنه عبدالملك الذي أعقبه في الخلافة أن يتم هذه المهمة – على النحو الذي سنذكره في المرحلة الثانية .

وفي هذه المرحلة السياسية الأولى من تاريخ الخلافة الأموية، ينبغي الإشارة إلى خطر الروم البيزنطيين الذين كانوا يتطلعون إلى استعادة نفوذهم السابق على بلاد الشام ومصر، فكان على الخلافة الأموية أن تولي هذا الخطر اهتماماً كبيراً خاصة أن أراضي الدولة البيزنطية تتآخم الجهات الشمالية من بلاد الشام والعراق، التي كانت قواعد تنطلق منها الجيوش البيزنطية لمهاجمة الدولة العربية الإسلامية. ولابدّ من التأكيد هنا أن الهجمات

البيزنطية كانت تشتد كلما واجهت الدولة العربية الأسلامية أزمات أو مشاكل داخلية.

لقد فطن مؤسس الخلافة الأموية معاوية بن أبي سفيان –منذ مستهل خلافته– إلى الخطر البيزنطي الجاثم على حدود الدولة، لـذا مـال إلى عقد صلح مع البيزنطيين في سنة (41هـ / 661م) ليتفرّغ لتثبيت أركان خلافته وتصفية الكثير من المشاكل والمشاغل التي لابدّ من تصفيتها قبل الانصراف لأي عمل خارجي [ ابن خياط "1977" 205 ] .

وبعد أن استقرت الأمور لمعاوية، ودانت له أقاليم الدولة في المشرق والمغرب على حد سواء، أدرك ضرورة مجاهدة البيزنطيين، وشهد عهده إرسال حملتين كبيرتين نحو القسطنطينية عاصمتهم، كانت الأولى في سنة (49 هـ/ 669م) بقيادة ابنه يزيد، وعززها بأسطول بحري بقيادة فضالة بن عبيد الأنصاري، وقد حاصرت هذه الحملة القسطنطينية، لكنها عادت دون أن تحقق هدفها، وهو فتح العاصمة البيرنطية . [ الطبري "1979" 5/232،234 ]

أما الحملة الثانية فكانت في سنة (54 هـ / 673م ) واستطاعت محاصرة القسطنطينية مدة سبع سنوات أي حتى سنة ( 60 هـ / 680م) ، وكان الأسطول العربي الإسلامي قد اتخذ قاعدته في جزيرة أرواد القريبة من القسطنطينية.ومع ذلك لم تستطع القوات العربية اقتحام المدينة بسبب إستخدام البيزنطيين النار الأغريقية التي لايطفئها الماء ضد السفن العربية، وإزاء طول مدة الحصار الذي عرف بـ (حرب السنوات السبع) أمر الخليفة معاوية بعودة الحملة إلى دمشق، وربّما كان ذلك لإحساسه بدنو أجله ورغبته في أن يكون ما لديه من جيوش تحت تصرف ابنه يزيد ولي عهده .

و لم يكتفِ الخليفة معاوية بكل هذا، بل عمل على ترميم الحصون الساحلية في عكا وصور. كما جدّد حصن جبلة بساحل الشام قرب اللاذقية وشحنه بالمرابطة، ومصّر بلد أنطرسوس وأقطع فيها القطائع، وفعل الشيء نفسه ببانياس، وأسكن أنطاكية سنة ( 42 هـ / 662م ) جماعة من الفرس وأهل بعلبك وحمص، كما نقل جماعة من الزط والسيابجة من البصرة وأسكنهم سواحل الأردن وأنطاكية فضلاً عن حملات الشواتي والصوائف .[ البلاذري "1959"، 169 ]

وعمد معاوية إلى إنشاء أول أسطول عربي لمنازلة الأسطول البيزنطي العريق في البحر المتوسط، وكان ذلك أثناء ولايته على الشام، وعندما تسلّم الخلافة أقدم على تدعيم البحرية، حيث جمع الصناع والنجّارين وأقام داراً لصناعة السفن في عكا ومصر . وقد استطاع العرب المسلمون بفضل هذا الأسطول من فتح أهم الجزر التي كان الأسطول البيزنطي يتخذها قواعد للإغارة على سواحل الشام ومصر، نخص بالذكر منها – في هذه المرحلة الأولى– جزيرة أرواد التي فتحت سنة ( 52هـ / 672م) فأسكنها معاوية المسلمين، وكذلك جزيرة أرواد التي فتحت هي

أيضاً سنة (54 هـ / 673م) وسكنها جماعة من المسلمين. فضلاً عن ذلك واصل خلفاء المرحلة الأولى سياستهم في التصدي للروم البيزنطيين بدءاً، ويتجلى ذلك واضحاً بتعزيزهم للثغور والعواصم المتآخمة لحدود الدولة العربية مع البيزنطيين، فضلاً عن تسيير حملات الصوائف والشواتي التي كانت توغل بعيداً في بلاد الروم، وتنزل الضربات الشديدة بالعدو وهو في عقر داره .

أما ما يتعلق بسياسة الخلافة تجاه الفتوح الإسلامية في هذه المرحلة، فقد نشطت نشاطاً كبيراً، ففي عهد معاوية (41هـ – 60هـ/ 66– 680م) اتسعت حدود الدولة الإسلامية شرقاً حيث فتحت هراة وكابل في أواسط آسيا، كما غزا عبد الله بن سوار العبدي بلاد السند مما يلي خراسان سنة (43هـ /663م)، وفي سنة( 54هـ/673م) غزا عبيد الله بن زياد بخارى وسمرقند في تركستان. أما في بلاد المغرب فقد تمكن القائد العربي عقبة بن نافع الفهري سنة (50 هـ/670م) من فتح برقة وزويلة وأفريقيّة (تونس) وبنى فيها مدينة القيروان .

وقبل أن نختتم حديثنا عن هذه المرحلة، لابد أن نشير إلى سمة أخرى مميزة فيها، وهي تطبيق قاعدة الوراثة في اختيار الخلفاء بدلاً من الشورى التي كانت هي السائدة في العصر الراشدي وإن اختلفت أشكالها وصيغها. وقد بدأ تطبيق هذه القاعدة الجديدة بعهد معاوية بن أبي سفيان لابنه يزيد بالخلافة من بعده، استمرت كذلك في الفرع المرواني من البيت الأموي، حيث أسندت ولاية العهد لأكثر من واحد، وذلك حين عهد مروان بن الحكم لولديه عبد الملك وعبد العزيز ، وهذه أول مرة يعهد فيها لاثنين .

## المرحلة الثانية إعادة وحدة الدولة واستقرارها

تبدأ هذه المرحلة بخلافة عبد الملك بن مروان سنة (65هـ/684م) وتنتهي بخلافة هشام بن عبد الملك سنة (125هـ/742م) ، وتعد هذه الحقبة مرحلة مهمة في توحيد الدولة وتمكن الخلافة من القضاء على سلسلة من الحركات والثورات الداخلية فضلاً عن دفع خطر البيزنطيين الذين انتهزوا حالة الاضطراب السياسي التي كانت سائدة آنذاك، وصاروا يهددون بلاد الشام.

إستهل عبد الملك خلافته بعقد صلح مع البيزنطيين الذين تقدم فرسانهم عبر منطقة الأمانوس (اللكام) وتوغلوا حتى لبنان، وكان قد انضم الى هؤلاء أعداد كبيرة من الجراجمة [ البلاذري "1959" 164/163] والأنباط والعبيد الآبقين ، فوجد الخليفة عبد الملك نفسه مجبراً على عقد اتفاق مع البيزنطيين ضامناً لهم أتاوة أسبوعية مقدارها ألف دينار. وحفظت لنا المصادر النصرانية شروط الصلح بين الطرفين، ومنها أن يدفع عبد الملك ثلاثمائة وخمسة وستين فرساً أصيلاً سنوياً مع نصف جزية قبرص وأرمينية لقاء تعهد الأمبراطور جستنيان الثاني بسحب الجراجمة من الأراضي العربية الإسلامية، فاستدعى أثني عشر ألفاً منهم استقروا داخل الحدود البيزنطية .

لم يكن هذا إلا أجراءً مؤقتاً من الخليفة عبد الملك إذ سرعان ما استطاع من الإيقاع بالجراجمة بهجوم مفاجيء على وفق خطة محكمة أعدها لهذا الغرض، فقتل قائدهم وأتباعه، ومنح الجراجمة أماناً، فاستقر بعضهم في قرى حمص ودمشق بينما عادت غالبيتهم إلى منطقة الأمانوس، كما عاد الأنباط إلى قراهم ، وكان ذلك خلال المدة ( 65-66هـ/684-685م ) . بعد أن تحقق لعبد الملك درء الخطر البيزنطي – على النحو الذي ذكرناه-. انصرف للقضاء على الحركات السياسية المعارضة لخلافته، وفي مقدمتها الحركة الزبيرية وحركة الخوارج وحركة عبد الرحمن بن الأشعث وغيرها.

فالحركة الزبيرية كانت قد امتدت خارج الحجاز بعد وفاة يزيد بن معاوية سنة (64هـ/683م ) ، حيث أيدت بعض الأقاليم ميلها الى عبد الله بن الزبير، ومنها مصر التي أرسل ابن الزبير عبد الرحمن بن جحدم الفهري والياً عليها . وكذلك خراسان التي عين عليها عبد الله بن خازم السلمي، وكذلك فعلت الكوفة والبصرة واليمن، كما أظهر الضحاك بن قيس الفهري زعيم القيسية في الشام تأييده لابن الزبير ودعاه إلى الشام، ومع أن مروان بن الحكم استطاع أن يقتل الضحاك في معركة مرج راهط سنة (64هـ/683م) ، وأن يستعيد مصر في السنة نفسها، إلاّ أن أمر ابن الزبير ازداد علواً وصار له مؤيدوه في العراق أيضاً. وجدير بالذكر أن مروان سير جيشين أحدهما إلى الحجاز والآخر إلى العراق، ولكنهما لم يحققا هدفهما في قمع الحركة الزبيرية، وظل الموقف هكذا حتى وفاة مروان في سنة (65هـ/684م ) .

عندما تسنم عبد الملك الخلافة بعد وفاة والده سيّر جيشاً قوامه ستة آلاف رجل عليهم عروة بن أنيف إلى الحجاز، وأمره بعدم دخول المدينة وأن يجعل معسكره في (العرصة)، ولما سمع والي ابن الزبير على المدينة بهذا الجيش غادرها تاركاً ولايته، فبقي الجيش الأموي هناك مدة شهر رجع بعدها إلى الشام بناء على أمر الخليفة. وظل عبد الملك يضع نصب عينيه ضرورة التخلص من الحركة الزبيرية التي اشتد، أمرها في العراق خاصة بعد انتصار مصعب بن الزبير على المختار بن أبي عبيد الثقفي وقتله إياه في سنة ( 67هـ/686م)، وبذلك دان العراق للزبيريين مما أثار حفيظة عبد الملك ودفعه إلى توجيه همه للقضاء على الحركة الزبيرية في العراق والحجاز معاً.

بدأ الخليفة عبد الملك بالعراق الذي يتولى ولايته مصعب بن الزبير، فسيّر اليه جيشاً بقيادة خالد بن عبد الله بن أسيد في سنة (70هـ/689م) ، فاستطاع هذا السيطرة على البصرة بادىء الأمر، ولكنه هزم في معركة الجفرة –في منطقة المربد- ومنحه مصعب الأمان وعاد إلى دمشق . وأخيراً قرر عبد الملك الشخوص إلى العراق بنفسه، فقاد جيشاً كبيراً سنة (72هـ/691م) ، كلما بلغ العراق سعى الى

تفرقة قادة مصعب، فأغراهم بالأموال والأمان وتولي الولايات، ثم دارت المعركة الحاسمة بين الطرفين في السنة المذكورة بدير الجاثليق بالقرب من الأنبار، وأسفرت عن مقتل مصعب مع عدد كبير من أنصاره، ثم دخل عبد الملك الكوفة وأخذ البيعة من أهلها، وتبعهم أهل البصرة في ذلك بعد أن سمعوا بانتصاره، وعين عبد الملك أخاه بشر بن مروان والياً على العراق وعاد إلى الشام .

أما ما يتعلق بعبد الله بن الزبير الذي ظل في مكة، فقد سيّر إليه عبد الملك جيشاً بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي، فسلك هذا الطريق إلى الطائف دون المدينة، ثم زحف نحو مكة فحاصرها، ونصب المجانيق على جبل أبي قبيس المطل عليها، وبعد حصار دام أكثر من ستة أشهر، وهنت قوة ابن الزبير وأنصاره، ولما رأى الحال كذلك، خرج إلى ساحة القتال التي قتل فيها في جمادى الأولى سنة ( 73هـ/692م) ، ثم دخل الحجاج مكة وأخذ البيعة من أهلها للخليفة عبد الملك بن مروان، وأطلق على هذا العام (عام الجماعة) . [ابن عبد ربه "1940" 35/5 ]

## الخوارج

شهدت هذه المرحلة الثانية من التاريخ السياسي للخلافة الأموية، استمرار حركة الخوارج المعارضة للخلافة الأموية منذ نشأتها، والملاحظ أن هذه الحركة زادت من نشاطها لاسيما في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان (65هـ-86هـ/684-705م).

ففي اليمامة كان نجدة بن عامر الحنفي قد قاد الخوارج. وامتد نشاطه إلى حضرموت وأجزاء من البحرين واليمن وعمان والطائف . وفي الموصل والجزيرة الفراتية نشطت فرقة الصفرية، كما كانت هناك فرقة الأباضية في البصرة قد أدت دوراً مميزاً في تلك الحقبة، وإن لم يشهروا السلاح بوجه الخلافة. وكانت فرقة الأزارقة الخارجية أشدّ تطرفاً من غيرها، وقد أنبثّ أفرادها في مناطق البصرة والأحواز وما وراءها من بلاد فارس وكرمان في أيام عبد الله بن الزبير، وكان القائد المهلب بن أبي صفرة قد قاتلهم لحساب الزبيريين دون أن يحقق نصراً حاسماً عليهم ، لذا كان على عبد الملك محاربتهم والتخلص منهم – وذلك ما سنعرضه فيما بعد – .وإلى جانب هذه الثورات الخارجية الرئيسة، قامت في هذه المرحلة السياسية الثانية حركات قصيرة الأمد في أنحاء متفرقة في الجزيرة الفراتية والبحرين والبصرة، تم القضاء عليها في عهد عبد الملك بن مروان وعهود الخلفاء الأمويين من بعده، ونذكر منها حركة شبيب بن يزيد الشيباني وحركة مطرف بن المغيرة بن شعبة الثقفي.

إن اعتقاد الخوارج يمثل بالمساواة بين جميع المسلمين، وأن الخليفة يجب أن ينتخب انتخابا، وهم مع إمامة الصالح بغضّ النظر عن نسبه وجنسه

ولونه، هذا الاعتقاد هو الذي دفعهم –على الرغم من توزعهم الى فرق– إلى سلوك طريق الثورة والخروج لتسود أفكارهم– فإن فرقة من الفرق الإسلامية لم تسلك هذا الطريق كما سلكوه، حتى لقد أصبحت ثوراتهم وانتفاضاتهم أشبه بالثورة المستمرة في الزمان والمنتشرة في المكان ضد الخلافة منذ قيامها حتى نهايتها.

## النجدات:

كان على عبد الملك بن مروان في بداية المرحلة الثانية أن يتصدى للخوارج وملاحقتهم في مناطق نشاطهم ، ففي بداية خلافته كتب إلى نجدة بن عامر الحنفي يقره على اليمامة ولا يسأله عن الدماء التي أراقها والأموال التي استحوذ عليها بشرط أن يبايعه ، وكان عبد الملك يرمي إلى تحقيق هدفين من هذه المكاتبة:

الأول كسبه إلى جانبه أو ضمان هدوئه إلى وقت ما. أما الثاني فهو محاولة إحداث خلاف بين نجدة وأتباعه، وقد نجح عبد الملك في هدفه الثاني، حيث أخذ أتباع نجدة عليه مداهنته عبد الملك وفارقوه وانحازوا إلى زعيم آخر يدعى أبا فديك عبد الله بن ثور، وتعقبوا نجدة حتى ظفروا به في إحدى قرى هجر بالبحرين فقتلوه سنة (72هـ/691م) ، وكان مقتله سبباً في تفرق الخوارج النجدات، فاستطاع عبد الملك أن يسيّر إليهم جيشاً التقى بهم في المشقّر في البحرين، حيث قتل أبو فديك وأرسل رأسه إلى الخليفة، فتفرق أتباعه بعد أن قتل منهم من قتل، وكان ذلك في سنة ( 73هـ/692م ). وهكذا تم القضاء على فرقة النجدات من الخوارج بصورة تامة، ولم تقم لهم قائمة بعد هذا.

## الأزارقة:

عرف الخوارج الأزارقة بهذا الاسم نسبة إلى رئيسهم نافع بن الأزرق الذي انضم مع أصحابه الى حركة عبد الله بن الزبير في الحجاز، وفارقوه عندما تبين لهم أنه لم يكن على رأيهم فيما يذهبون إليه، وحاربهم في هذا السبيل ، وقد تميزوا في حروبهم بعنف واندفاع لانجده في خروج أية فئة على السلطان في ذلك العصر، فإنهم كانوا على قلتهم يغلبون قوات كبيرة في المعارك التي كانت تنشب بينهم وبين أعدائهم سواء من الزبيريين أم الأمويين، وشهدت لهم بذلك ميادين البصرة والأحواز وما وراءها من بلاد فارس.

وقد أسند مصعب بن الزبير مهمة محاربة الأزارقة إلى القائد الكبير المهلب بن أبي صفرة الذي باشر قتالهم في سنة (65هـ/684م )ونجح في إجلائهم عن البصرة، ثم أحرز انتصارات مهمة عليهم في (سلّى) و (سلّبرى) –وهما موضعان بالأحواز– حيث قتل رئيسهم نافع بن الازارق، كما قتل عبد الله بن ماحوز الذي ولّاه الأزارقة أمرهم بعد مقتل نافع .

وبعد أن تمكن عبد الملك بن مروان من قتل مصعب في سنة ( 72هـ/691م ). واصل الأزارقة حربهم ضد السلطة الأموية، وكان والي

البصرة خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد قد خرج في السنة المذكورة على رأس جيش إلى الأحواز وجعل المهلب على ميمنته، فحارب الأزارقة وأجلاهم بعد أربعين يوماً من القتال المستمر .

وفي سنة (74هـ/693م) ، عزم عبد الملك على استئصال شأفة الأزارقة، فعزل خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد عن ولاية البصرة وضمها الى أخيه بشر بن مروان والي الكوفة، ثم أعاد المهلب على حربهم، لما عرفه فيه من مزايا عسكرية، وقد استطاع المهلب بجيوش أهل البصرة والكوفة أن يصد الأزارقة ويجبرهم على الانسحاب من رامهرمز إحدى المدن المهمة بنواحي الأحواز . وبعد عشرة أيام من هذا الانتصار توفي بشر بن مروان، فلما بلغ الجند هذا الخبر، انتهزوا الفرصة، فعاد كثير منهم إلى البصرة والكوفة، فأحرج موقف المهلب واضطر إلى اتخاذ موقف دفاعي، ولولا الخلاف الذي دب بين صفوف الأزارقة لما ترك دون أن يهاجم .

وفي سنة (75هـ/694م ) تولى الحجاج بن يوسف الثقفي ولاية العراق، فقدّم هذا دعمه الفعّال للمهلب، وأعاد الجند الفارين بعد أن هددهم بقتل من يتخلف عن اللحاق بالجيش .

وظل المهلب مقيماً على حرب الأزارقة حتى سنة ( 78هـ/697م) وتمكن بجيشه وإمدادات الحجاج له بمستلزمات الحرب البشرية والمادية، أن يكسر شوكتهم، وساعده في ذلك أيضاً فرقة كلمتهم وانقسامهم على أنفسهم، ففي سنة (77هـ/606م) وقع الخلاف بين رؤسائهم وهم: قطري بن الفجاءة، وعبد ربه الكبير، وعبد ربه الصغير، وعمق المهلب هذا الخلاف بينهم، وكانت نتيجة حربه الطويلة لهم أن شتت شملهم وقضى على أكثرهم .

وجدير بالذكر أن جماعة من الأزارقة لاذت بطبرستان، ومعهم قطري بن الفجاءة وعبيدة بن هلال، فسيّر الحجاج اليهم سفيان بن الأبرد الكلبي على رأس جيش من أهل الشام وساعده جيش من أهل الكوفة جاء من طبرستان، وجيش آخر من الري، فاستطاعت هذه القوات دحر الأزارقة وقتل قطري وإرسال رأسه إلى الحجاج . أما عبيدة بن هلال وأتباعه فقد تحصنوا بقلعة قومس، فحاصرهم سفيان بن الأبرد ثلاثة أشهر، فاستسلم بعضهم وقتل آخرون بضمنهم عبيدة نفسه، وذلك في سنة ( 78هـ/697م). وهكذا تم القضاء على هذه الفرقة المتطرفة من الخوارج .

## الصفرية:

في أثناء حرب الأزارقة، ظهر خطر فرقة خارجية أخرى تدعى الصفرية التي اتخذت من منطقة الموصل والجزيرة ميداناً لنشاطها، وقد برز من زعمائها قائدان هما صالح بن مسرح التميمي، وشبيب بن يزيد الشيباني.

بدأت ثورة الصفرية في سنة (76هـ/695م)

عندما خرج صالح بن مسرح في ( دارا ) ومعه حوالي مائة وعشرين من أتباعه على محمد بن مروان والي الموصل والجزيرة لأخيه عبد الملك بن مروان، واستطاعوا الاستيلاء على خيل الوالي المذكور التي ساعدتهم في تكوين قوة من الفرسان، وصاروا يبثّون الرعب في دارا ونصيبين وسنجار.

ونتيجة لمقاومة محمد بن مروان لهؤلاء الخوارج، اضطروا إلى مغادرة منطقة الجزيرة، وقصدوا الكوفة حيث قوبلوا بقوات الحجاج بن يوسف والي العراق، وقتل أميرهم صالح بن مسرح، وعاد شبيب بن يزيد بالبقية الباقية منهم الى الموصل، وهناك أعدّ أصحابه ومن انضم اليهم فعاود الهجوم على الكوفة، ولكنه هزم أمام جند الشام الذين أرسلهم الخليفة عبد الملك مدداً للحجاج، فاضطر للانسحاب إلى الأحواز، ولكن القوات الشامية تعقّبته حتى فقد حياته غرقاً في نهر دجيل سنة (77هـ/ 196) . أما أصحابه الذين دخلوا الأحواز فإنهم فقدوا حماستهم السابقة، وقد استمر سفيان بن الأبرد في مقاتلتهم حتى اضطروا إلى طلب الأمان فمنحهم إياه ، وهكذا انتهى شأن هذه الجماعة الخارجية.

### الأباضيّة:

على النقيض من جميع الثورات الخارجية، كان سلوك فرقة الأباضية التي تمتعت بعلاقات ودية مع الخلافة منذ زمن قائدها الأول عبد الله بن أباض حتى وفاة الخليفة عبد الملك بن مروان سنة (86هـ/71م ) . و لم يكن خليفة ابن أباض جابر بن زيد صديقاً للخليفة فحسب، بل مع واليه الحجاج العدو اللدود للخوارج، حتى إن جابراً هذا كان يتسلم عطاء من الحجاج. [ Rubinacci "1953" 99-121 ] وليس مقنعاً تفسير هذه العلاقة بين الخليفة وواليه من جهة، والقائد الأباضي من جهة أخرى بمبدأ القعود أي عدم الخروج فقط، ذلك لأن الصفرية كانوا في البداية من (القعدة)، ومع ذلك فقد حاربوا عبد الملك بصورة متكررة، ولكن بالإمكان أن نجد تفسيراً أكثر، إقناعاً في المراسلات التي تمت بين الخليفة وعبد الله بن أباض مثل الرسالتين اللتين وجّهها الأخير إلى عبد الملك ، [الشماخي "1884" 77 ] ، وتلك التي كانت بين الخليفة ونجدة بن عامر التي تتلخص في عرض المال أولاً، كما في عرضه ولاية اليمامة على نجدة ومنح قائد الأباضية العطاء، وبينما رفض الأول عرض عبد الملك قبله الثاني، وهذا يتوضح في منح الحجاج عطاء إلى جابر بن زيد.

وكانت سياسة الخليفة عبد الملك هذه فعالة، فإذا فشل الإغراء بالمال فإن المراسلة قد تساعد على حدوث انشقاق بين صفوف الخوارج بعزل القائد عن أتباعه –كما في حالة نجدة مثلاً– أو كما في حالة القائد الأباضي، حيث ساعدت على توسيع شقة الخلاف في الرأي بين هذه الفرقة والفرق الخارجية الأخرى، وحالت دون قيام جبهة خارجية ضد الخلافة، لكن الخليفة عبد الملك يبدو وكأنه ترك هذه السياسة، ولذلك شهرت هذه

الفرقة الأباضية السيف بوجهه وخرجت عن قعودها.

## حركات معارضة أخرى:

إلى جانب هذه الحركات والثورات كانت هناك حركات معارضة أخرى منها حركة عبد الله ابن الجارود في البصرة (75هـ/694م) التي بدأت بصيغة خلاف على العطاء. ففي ولاية مصعب بن الزبير لم يتسلم أهل البصرة عطاءهم مرتين فحسب بل إنهم منحوا كذلك زيادة في عطائهم قدرها مائة درهم لكل منهم لكن الحجاج أعلن أن هذه الزيادة هي "زيادة فاسق منافق ولست أجزيها" [ البلاذري "1936" 280/11] ، وقد أدت المنافسات القبلية دوراً في تسهيل مهمة الحجاج في ان يقف إحداها ضد الأخرى وبذلك تمكن من القضاء عليها وكتب إلى الخليفة عبد الملك يخبره عن الثورة وعن الخطوات التي اتبعها في إخمادها فاقر الخليفة ما اتخذه وامتدح ولاءه واخلاصه. وهكذا قمع الحجاج أول ثورة عراقية معارضة ضده .

كان أول خروج للزنج في ولاية مصعب بن الزبير على البصرة حيث أعلنوا تمردهم وقاموا بنهب المحاصيل الزراعية، ولكن مصعباً كان مشغولاً جداً انذاك فلم يستطع اتخاذ أي أجراء رادع ضدهم. وبعد مقتل مصعب أصبح خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد والياً على البصرة فشكا إليه الناس ما كان يقوم به الزنج وطالبوه بوضع حد لتصرفاتهم، واستجابة لذلك جهز جيشاً ضدهم لكنهم تفرقوا قبل وصول هذا الجيش ومع ذلك فإن بعضهم وقع في أيدي الوالي فقتلهم . إن هذه الحادثة كانت عبارة عن تمرد عصابات قليلة العدد من العبيد يعيشون عيشة لصوص أكثر منها ثورة منظمة.

وعلى الرغم من هذا العقاب الشديد الذي أنزله الوالي بهم، فقد ثار الزنج مرة أخرى في ولاية الحجاج في البصرة لكن ثورتهم المسلحة هذه المرة دخلت مجالاً جديداً إذ لم تعد مجرد تمرد عصابات بل أصبحت منظمة ضمت إلى جانب الزنج عناصر أخرى مثل الزط فضلاً عن عدد من غير الزنج من البيض وعدد من الموالي، وكان قائد هذه الثورة رجلاً يسمى رياح ويلقب "شيرزنجي" . أي " أسد الزنج " الذي استطاع أن يجعل سلطته تشمل منطقة الفرات كما سمى نفسه "أمير المؤمنين" مما قد يشير الى سلطته الواسعة أو إلى طموحه. [ البلاذري "1936" 305/11 ] واستطاع شيرزنجي تحدي قوات السلطة عندما هزم جيشاً أرسله الحجاج ضده وقتل قائده. فما كان من الحجاج إلا أن هدد أهل البصرة بأشد العقوبات إن لم يضعوا حداً لتمرد عبيدهم وكساحيهم. وبعد قتال عنيف أجبر مقاتلة البصرة الزنج على التراجع إلى صحراء الدورق حيث دارت معركة حاسمة قتل فيها الزنج وقائدهم بعد أبدائهم شجاعة نادرة.

إن هذه الثورة على الرغم من فشلها قد تبدو وكأنها لم تترك أي اثر على المجتمع العربي الإسلامي آنذاك، إلا أنها من المؤكد كانت قد بذرت البذرة الأولى لثورتهم التالية في البصرة سنة (255 هـ/868 م) والتي استمرت أربع عشرة سنة وهزت بعنف أسس الدولة العباسية.

**خروج قبائل الأزد في عمان:** شعر العمانيون أن استقلالهم ضمن إطار الدولة العباسية الإسلامية الذي تمتعوا به منذ عهد الرسولﷺ بات مهدداً بسياسة الحجاج الهادفة إلى جعل سلطة الخليفة فعالة في جميع أنحاء الدولة العربية، وكان للحرب الأهلية بين عبد الملك وعبد الله بن الزبير فضلاً عن بعد عمان عن مركز الدولة أثر في تشجيعهم على استغلال هذه الفرصة لإعادة تأكيد ذلك الاستقلال.

ليس هناك تاريخ لأول حملة غير موفقة أرسلها الحجاج ضد سعيد وسليمان ولدي الجلندي وأتباعهما، ومع ذلك فبالإمكان الاستنتاج من رواية ابن عساكر أنها كانت قبيل ثورة ابن الأشعث. و لم تكن عمان ولاية نائية فحسب وإنما منطقة جبلية صعبة الاجتياز تحدها من الغرب صحراء الربع الخالي التي يمكن اتخاذها ملجأ للانسحاب عند الضرورة. وقد أسهمت صعوبة الاجتياز هذه دون شك في فشل حملات الحجاج الأولى.

و لم يتفرغ الحجاج لمواجهة ثورة عمان إلا بعد سحق ثورة ابن الأشعث عندما أرسل جيشاً كبيراً بقيادة القاسم بن شعوة المزني بالبحر إلى عمان لكن فرسان الأزد وعى رأسهم سعيد وسليمان تمكنوا من دحر هذا الجيش وقتل قائدهم القاسم. وعندما وصلت أنباء هذه الهزيمة للحجاج وضع زعماء الأزد في البصرة تحت المراقبة الشديدة لمنعهم من مساعدة الثوار كما جهز جيشاً كبيراً عدده أربعون ألفا من التراريين فقط أعطيت قيادته إلى مجاعة بن شعوة أخي القاسم الذي قتل في الحملة السابقة. وقد سلك نصف هذا الجيش طريق البر بينما سلك النصف الآخر طريق البحر. وعندما وجد سعيد وسليمان نفسيهما عاجزين عن الاستمرار في المقاومة مدة أطول خاصة بعد سماعهما بالمدد الجديد الذي ارسله الحجاج، فرا بعائلتيهما وممتلكاتهما المنقولة إلى ارض الزنج "ساحل إفريقيا الشرقي" [ ابن رزاق "1871" 201] ،حيث بقيا هناك حتى وفاتهما. وقد عين الحجاج بعد ذلك والياً جديداً على عمان هو الخيار بن المحاشعي الذي بقي هناك حتى وفاة الحجاج دون أن يواجه أية متاعب من الأزد.

**حركة عبد الرحمن بن الأشعث:** كانت هذه الحركة أكثر أهمية من أية حركة أخرى، اذ أنها هزت أسس الحكم الأموي وكادت أن تودي به. فبعد فشل حملة عبيد الله بن بكرة والي سجستان ضد زنبيل ملك كابل وزابل عام (79هـ/698م). الذي كان قد امتنع عن دفع الجزية إلى الحجاج، استأذن هذا الأخير الخليفة عبد الملك بإرسال جيش ضد زنبيل للثأر لما لحق

بالمسلمين من هزيمة فأذن له. فجهز جيشاً من أهل الكوفة وأهل البصرة كبيراً في عدده عظيماً في تجهيزه وعدته حتى سمي "جيش الطواويس " وعهد بقيادته إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي.

وصل ابن الأشعث وجيشه إلى سجستان سنة ( 80هـ/699م ) وانضم إليه جيش من طبرستان بقيادة أخويه القاسم والصباح، وما إن سمع زنبيل بذلك حتى كتب لابن الاشعث يعتذر له عما لحق بجيش ابن أبي بكرة ويعرض تسوية سلمية بينهما لكن ابن الأشعث لم يعر اهتماماً له وواصل زحفه. وقد أمل أن يوقع بهذا الجيش بالطريقة نفسها التي أوقع بها جيش ابن أبي بكرة فبدأ ينسحب أمامه لإغرائه بالتوغل بعيداً عن بلاده لكن ابن الاشعث كان حذراً جداً، فكان يقيم الحاميات في كل مدينة أو قلعة يحتلها ويؤمن خطوط مواصلاته بتنظيم البريد بين هذه المناطق مؤجلاً العمليات العسكرية إلى الربيع التالي (81هـ/700م) . وكتب إلى الحجاج يخبره بذلك لكن الحجاج رفض سياسته تلك وكتب إليه سلسلة من الرسائل المهينة والقاسية بأمره فيه بالاستمرار في تقدمه داخل بلاد العدو، وإلا فسوف يعزله عن القيادة ويجعلها لأحد أخويه. وبذلك يجعله مجرد جندي بسيط في الجيش . [البلاذري "1936" 324-323/11 ]

لقد كان رد فعل ابن الأشعث شديداً فجمع رؤساء أتباعه وأخبرهم بأمر الحجاج معرباً عن تحديه له قائلاً: "وإنما أنا رجل منكم أمضي إذا مضيتم وآبى إذا أبيتم" فقالوا: "لا بل نأبى على عدو الله ولا نسمع ولا نطيع ومن أجل أن يكون أكثر حرية في العمل على تنفيذ هدفه عقد ابن الأشعث صلحاً مع زنبيل تضمن الشروط الأتية : إذا انتصر ابن الأشعث يعفى زنبيل من دفع الجزية طالما بقي في السلطة. أما إذا حدث العكس فإن زنبيل يوفر ملجأً آمناً لأبن الأشعث لديه . بعد ذلك واصل ابن الأشعث زحفه باتجاه العراق وما إن وصل إلى فارس حتى أدرك ومعه جيشه أن خلع الحجاج لايمكن فصله بأي حال من الأحوال عن خلع عبد الملك، لذلك أعلن ثورته وبايعه جيشه على "كتاب الله وسنة نبيه وخلع أئمة الضلالة والجهاد ضد معارضيه وبقي في فارس وقتاً طويلاً حيث ضرب دراهم خاصة به هناك.

ومنذ هذا الوقت جرت سلسلة من الحروب بين جيوش الحجاج وجيش الطواويس بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث حتى تم القضاء على هذه الحركة نهائياً عام ( 85هـ/705م) ، وهي الحركة التي استقطبت مواقف ومظالم كل فئة من الفئات المختلفة حتى بات من الخطأ وصفها بأنها كانت متجانسة وربما كانت السمة العامة الوحيدة المشتركة بين جميع أتباع ابن الأشعث هي الكره الشديد للحجاج وسياسته الشديدة تجاه أهل العراق.

وحقق نجاح عبد الملك في قمع جميع حركات المعارضة وحدة سياسية جديدة للدولة

العربية الإسلامية التي وضعت أساساً صلداً لأعظم الإنجازات التي تحققت في عهد ابنه الوليد والمتمثلة في اتساع الدولة وعظمتها.

**العصبية القبلية:**

لقد كان الصراع القبلي موجوداً قبل عهد عبد الملك بمدة طويلة ولكنه وصل إلى ذروته في عصره. ومع ذلك فإن الغارات القبيلة ومظاهر العصبية الأخرى، كانت في اضمحلال وتدهور إلى درجة كبيرة في أواخر عهده نتيجة للسياسة الحكيمة التي اتبعها اتجاه القبائل المختلفة.

لقد انفجر الصراع في كل من بلاد الشام والجزيرة بين قبيلتي قيس وكلب أولاً ثم بين قيس وتغلب. كما كانت خراسان مسرحاً للصراع القبلي الذي بدأ بين ربيعة ومضر (بكر وتميم وقيس) ثم انقسم المضربون على أنفسهم وبدأ الصراع بين تميم وقيس، وأخيراً فإن تميم انقسمت على نفسها وبدأت بالصراع بعضها مع بعض.

إن نجاح سياسة الخليفة عبد الملك تجاه القبائل المختلفة يمكن تقويمها في ضوء الحقيقة الآتية، وهي أن السنوات الأخيرة من حكمه كانت خالية من أي صراع قبلي مسلح فقد نجح في توجيه المصالح القبلية لمصلحة الدولة في الوقت نفسه الذي قمع فيه مظاهرها العنيفة. ولكن خلفاءه – مع ذلك – كانوا أقل حذراً منه في اجتياز هذا الممر الخطر، لذلك عاد الصراع.

## أهمية استقرار الدولة وما أعقبه من أحداث

لقد نتج عن إعادة توحيد الدولة بفضل سياسة الخليفة عبد الملك وعزمه، أن أورث هذا الخليفة – في هذه المرحلة السياسية الثانية – دولة راسخة الأركان، يسودها الأمن والاستقرار، غنية بمواردها المالية والاقتصادية، وساعد ذلك في إنجاز سلسلة من عمليات الفتوح التي شهدها خلافة ابنه الوليد (86-96هـ/705-715م) والتي تمثلت في فتوح ما وراء النهر وبلاد السند، واستكمال فتح المغرب العربي والأندلس، بحيث امتدت حدود الدولة العربية الإسلامية إلى تخوم الصين شرقاً، وبلاد الغال غرباً. هذا فضلاً عن معاودة العرب منازلتهم للبيزنطيين التي تمثلت في دك حصونهم المنيعة المؤدية إلى القسطنطينية بهدف التمهيد لفتحها.

وكان للاستقرار الذي شهدته خلافة الوليد بن عبد الملك، الأثر الكبير في نجاح مساعيه في مجابهة الروم البيزنطيين، ففي عهده كانت هناك قيادتان على جبهة الروم، إحداهما كانت باتجاه القسطنطينية، والتي جعل قيادتها إلى أخيه مسلمة يساعد جيش أسندت قيادته الى العباس بن الوليد وقد استطاعت هذه القيادة فتح العديد من الحصون المنيعة. هذا فضلاً عن الاستمرار في توجيه حملات الصوائف والشواتي .

إن النجاحات التي حققتها القوات العربية في ضم العديد من المدن والحصون البيزنطية، والإجراءات التي اتخذت بقصد تأمين الحماية

الكافية لها، ما هي إلاّ جزء من الخطة التي أعـدّت لفتح القسطنطينية. فبعد نجاح الجزء الأول منها، لم يبق إلا الشروع بتنفيذ الجانب الأهم وهو الإعداد للحملة ولهذا أمر الوليد بتوسيع الاستعدادات البرية والبحرية للقيام بتلك المهمة ، ولكن وفاته في سنة (96هـ/715م ) أرجأت إنفاذ الحملة الى حين، وهذا ما حققه أخوه الخليفة سليمان بن عبد الملك في سنة ( 97هـ/716م ) بإسناده قيادة الحملة الى أخيه مسلمة بن عبد الملك، وأمره أن يقيم على القسطنطينية حتى يفتحها أو يأتيه خبره ، وأقام مسلمة محاصراً لها حتى دخلت سنة (99هـ/718م) فأمره الخليفة عمر بن عبد العزيز بالقفول منها بمن معه من المسلمين .

وفي هذه المرحلة السياسية الثانية تبرز خلافة عمر بن عبد العزيز (99-101هـ/717-719م) التي جاءت نتيجة خروج سليمان بن عبد الملك على وصية أبيه في أن يتولى يزيد بن عبد الملك الخلافة بعد أخويه الوليد وسليمان، فعين لها عمر بن عبد العزيز ولياً للعهد، غير آبه للمعارضة التي أبداها أفراد أسرته .

وقد تميزت مدة خلافة عمر باستقرار أمور الدولة من الناحية السياسية، فبعد أن أوقف عمليات الفتوح الإسلامية، انصرف إلى ترصين وحدة الدولة وصيانتها، لهذا نأى بعدالته الباهرة عن المهاوي التي تقود إليها العصبية القبلية، فإذا كان بعض من سبقه من الخلفاء قد توسلوا لدعم نفوذهم بشحذ العصبية القبلية والإقليمية، فاختص أحدهم بعطفه القيسية، واختص آخر اليمانية، فإن هذا النهج الخاطئ لم يأخذ طريقه إلى سياسته، إذ لم يتعصب لقبيلة دون أخرى، ولم يولّ والياً إلاّ لكفايته وعدالته، إذ استعمل أصلح من قدر عليه .

كذلك كان هناك بعض الفرق المعارضة التي تحمل السلاح في وجه الدولة، ومنها فرقة الخوارج، فلما بلغ عمر بن عبد العزيز خروج رجل في العراق يلقب بشوذب واسمه بسطام بن مري من بني يشكر، كتب إلى هذا الخارجي كتاباً قال فيه: " أنه بلغني أنك خرجت غضباً لله ونبيه، ولستَ بأولى بذلك مني، فهلمّ أناظرك، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس، وأن كان في يدك نظرنا في أمرنا". [ الطبري "1979" 556/6 ] وواضح من هذا ميل الخليفة عمر إلى حقن دماء المسلمين من خلال مناظرته للخوارج الذين لم يضعوا سلاحهم منذ عهد معاوية حتى عهد سليمان بن عبد الملك، وكان من أثر تلك المناظرات أن أغمد الخوارج سيوفهم، وكأنهم نسوا في عهده كل ما كان لهم من مواقف سابقة ضد الأمويين.

كذلك صالح الخليفة المذكور بني هاشم وأرضاهم بحسن معاملته لهم وتفقده لأحوالهم، ومن ذلك أنه كتب الى عامله بالمدينة قائلاً "إذا أتاك كتابي هذا فاقسم في ولد عليّ من فاطمة رضوان الله عليهم عشرة آلاف دينار، فطالما تخطّتهم حقوقهم، والسلام" .[ المسعودي "1958"194/6 ]

ومن المؤسف أن الخلفاء الأمويين الذين أعقبوا عمر بن عبد العزيز لم يسيروا على نهجه في مواجهة الأحداث السياسية التي كانت تنتاب الدولة وتكاد أن تذهب بريحها قبل الأوان، فلما توفي هذا الخليفة العادل وخلفه يزيد بن عبد الملك (101-105هـ/719-723م) زج نفسه في تيار العصبية القبلية، فاستقبل في مستهل خلافته ثورة يمانية قادها يزيد بن المهلب في العراق ، ولكن فشل هذه الثورة عاد على اليمانية بالإهمال، وعلو مترلة القيسية المعنوية التي كان الخلفاء منها.

ولما توفي يزيد بن عبد الملك وخلفه أخوه هشام في الخلافة (105-125هـ/719- 744 م) رأى أن القيسية قد علت كلمتها وازداد نفوذها على الدولة، فعمل على التخلص من نفوذهم بالانحياز إلى اليمانية ليعيد التوازن بين العنصرين اليمني والقيسي، فعزل الولاة المضريين وولى مكانهم بعض اليمنيين، فولى خالد بن عبد الله القسري على العراق، وولى أخاه أسداً على خراسان ، وتعصب هذان لليمانية، فأخذوا ينتقمون من المضريين، على أن هشاماً لم يتبع سياسة ثابتة بازاء القبائل المختلفة، فإنه بعد أن انحاز الى اليمنيين لم يلبث أن تحول عنهم الى المضريين وولى منهم العمال، فولى يوسف بن عمر الثقفي العراق، ونصرين سيار الكناني خراسان، وكانت تولية هذين قد تمت في سنة (120هـ/739م ).

وإذا كان اليمانية لم ينسوا للأمويين قضاءهم على المهالبة بعد إخفاق ثورة يزيد بن المهلب في سنة ( 102هـ/720م) ، فإنهم فوجئوا بقتل زعيمهم خالد بن عبد الله القسري في سنة (126هـ/745م) على يد يوسف بن عمر الثقفي الذي لم يكف عن ملاحقته وقتله بعد موت هشام ، وذلك لاتهامه بممالأة العلويين وإغداقه عليهم، حتى أعلن زيد بن علي زين العابدين ثورته في سنة (122هـ/741م ) ، وظل اليمانية يعملون على التخلص من حكم الأمويين من غير أن يقدر الخلفاء المتأخرون على الحد من هياج العصبية القبلية بين العنصرين المضري واليمني، فكان هذا سبباً من الأسباب التي أودت بالخلافة الأموية في سنة (132هـ/750م) ، على النحو الذي سنعرض اليه في المرحلة السياسية الثالثة.

ولعل من المناسب أن نشير إلى سمة أخرى من سمات المرحلة السياسية الثانية، وهي تبني بعض الخلفاء فكرة (الجبر) واستخدامها في تفسير وتبرير كثير من المواقف والإجراءات التي اتخذوها تجاه خصومهم السياسيين، ويظهر تطبيق هذه الفكرة بشكل جلي عندما قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد بن العاص (الأشدق) في سنة (70هـ/689م ) – وكان مؤيدوه وأصحابه يحيطون بقصر الخليفة- أمر عبد الملك "برأس عمرو أن يطرح إليهم من أعلى القصر، فطرح إليهم، وطرحت الدنانير، ونثرت الدراهم، ثم هتف عليهم الهاتف ينادي: إن أمير المؤمنين قد قتل صاحبكم بما كان من القضاء السابق، والأمر النافذ، ولكم على أمير المؤمنين عهد الله وميثاقه،

أن يحمل راجلكم، ويكسو عاريكم، ويغني فقيركم، ويبلغكم إلى أكمل مايكون من العطاء والرزق، ويبلغكم إلى المئتين في الديوان، فاعترضوا على ديوانكم واقبلوا أمره، واسكنوا إلى عهده، يسلم لكم دينكم ودنياكم.. فصاحوا: نعم ، نعم سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين". [ ابن قتيبة "1957" 2/27-28 ]

يتبين من تحليل هذا النص حقيقتان على جانب كبير من الأهمية هي:

**الحقيقة الأولى:** أن الخليفة عبد الملك كان يتبنّى فكرة الجبر، ويستعملها في المجال السياسي كوسيلة لإسكات المعارضة ضده. وقد أوضح ذلك ابن قتيبة عندما أشار إلى أن عطاء بن يسار وسعيد الجهني سألا الحسن البصري (ت 110هـ/728م) قائلين: "يا أبا سعيد، إن هؤلاء الملوك يسفكون دماء المسلمين، ويأخذون الأموال، ويقولون إنما تجري أعمالنا على قدر الله. فقال: كذب أعداء الله" . [ "1950" 114 ]

**أما الحقيقة الثانية:** فهي أن عدداً لا يستهان به من الناس في دمشق حاضرة الخلافة، كانوا يؤمنون بفكرة الجبر، ومما يعزز هذا الاتجاه الرسالة المتبادلة بين الخليفة عبد الملك بن مروان والحسن البصري ، والتي ذكرها الشهرستاني بقوله: "ورأيت رسالة نسبت إلى الحسن البصري كتبها إلى عبد الملك بن مروان وقد سأله في القدر والجبر، فأجابه بما يوافق مذهب القدرية، واستدل فيها بآيات من الكتاب ودلائل من العقل.. فما كان الحسن ممن يخالف السلف في أن القدر خيره وشرّه من الله تعالى". [ الشهرستاني "1923" 1/47]

ونلمس أثر فكرة الجبر في سياسة الخليفة عمر بن عبد العزيز كذلك، فقد كتب حين ولي الخلافة الى يزيد بن المهلب:(أما بعد، فإن سليمان (بن عبد الملك) كان عبداً من عبيد الله ثم قبضه، واستخلفني ويزيد بن عبد الملك من بعدي إأن كان، وأن الذي ولاّني الله من ذلك وقدّر لي ليس بهيّن" .[ الطبري "1979" 7/212-213 ]

كذلك نلمس فكرة الجبر أيضاً في كتاب الوليد بن يزيد بن عبد الملك – ولي عهد الخليفة هشام – بعد أن قطع عنه ما كان يجري عليه ومما جاء في الكتاب: "لقد بلغني الذي أحدث أمير المؤمنين من قطع ما قطع عنّي ... فإن يكن ذلك لشيء في نفس أمير المؤمنين عليّ، فقد سبّب الله لي من العهد، وكتب لي من العمر، وقسم لي من الرزق مالا يقدر أحد دون الله على قطع شيء منه دون مدته، ولاصرف شيء عن مواقعه، فقدر الله يجري بمقاديره فيما أحبّ الناس أوكرهوا، ولاتأخير لعاجله ولا تعجيل لأجله". [ الطبري "1979" 6/563 ]

## المرحلة الثالثة (مرحلة الضعف والانهيار):

تبدأ هذه المرحلة بخلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (125هـ/734م) وتنتهي بنهاية خلافة آخر خليفة أموي مروان بن محمد

(132هـ/750م)، وتعد هذه المرحلة من أخطر المراحل في تاريخ الحكم الأموي وأهمها، لما شهدته من انقسامات أثناء الأسرة الحاكمة، أذهبت وحدقم وأوهنت تماسكهم مما عجل في نهاية حكمهم. ولعل مما عجل في نهاية حكمهم عدم مجيء خليفة قوي له من الكفاءة والمقدرة السياسية والحزم ما كان للخلفاء الأوائل أمثال معاوية وعبد الملك يستطيع رأب الصدع والارتفاع فوق مستوى النزاعات الشخصية والتكتلات القبلية فيعيد الأمور الى نصابها.

وكان للخليفة الوليد بن يزيد دوره في تطور الأمور التي أودت بالحكم الأموي على الرغم من أن الخليفة هشام بن عبد الملك كان مسؤولاً عنها عندما عمل على إبعاد الوليد بن يزيد عن ولاية العهد، وما كان يروجه عنه بين الناس، مما ألحق الضرر بالوليد كما يقول هو نفسه: (لقد ذهب.. بعمري) مهيئاً الناس لتصديق ما يشاع عنه.وكان رد فعل الوليد بن يزيد عند اعتلائه الخلافة أن أنتقم ممن أعان الخليفة هشام عليه من أفراد البيت الأموي وغيرهم، مما لايتفق ومسؤوليته كخليفة عليه أن يسعى لوحدة الكلمة ولـيس إلى تفريقها دون تقدير لنتائج سياسته تلك.

وكانت مبايعة الوليد لولديه بالخلافة من بعده وهما لم يبلغا سن الرشد في الوقت الذي كان من هو أجدر منهما مثاراً لسخط بعض أفراد البيت الأموي كما أن قتل الخليفة الوليد لخالد بن عبد الله القسري زعيم اليمانية أثار ضغينتهم ولاسيما قبيلة كلب. وإن هذا التذمر من اليمانيين وخاصة في دمشق كان قد سبق مقتل خالد بسبب عدم رضاهم عن سياسته بتقريب القيسية واعتماده عليهم.[ الطبري "1979"7/231-232] حيث يقول المسعودي: "وقد قدم نزار وأستبطنها وجفا اليمن وأطرحها، واستخف بأشرافها"["1968" ، 180] مما دفعهم الى الوقوف ضده لأنهم عدوا قتل خالد بمثابة تحد لهم.

لقد بايع اليمانية يزيد بن الوليد وربما كان هذا يعود إلى عوامل عديدة فعلاقة يزيد باليمانية قديمة تعود إلى طفولته عندما "استرضع... في بني ضبة من قضاعة..." [ مؤلف مجهول "1869" 3/452]، ثم توثقت علاقته بهم باقترانه بامرأة من كلب، وربما كان النسك والتواضع الذي كان يظهره عاملاً آخر يضاف إلى هذه العوامل. ولم يكن موقف يزيد من اليمانية بسبب نقمته على الوليد لسياسته تجاه آل الوليد بن عبد الملك فحسب وإنما لأن يزيد كان يعتنق مذهب القدرية التي كانت تمثل أحد الأتجاهات المعارضة للخلافة الأموية لقولهم بحرية الإرادة التي تتعارض مع مذهب الجبر الذي اعتمده الأمويون لمحاربة خصومهم . وكان الوليد بن يزيد واحداً منهم كما يتوضح ذلك بقوله: "والله ما عمل هشام عملاً أرجى له عندي أن تناله المغفرة من قتله القدرية ". [ الطبري "1979" 1/247،238،237-248]

وعلى الرغم من جهود العباس بن عبد الملك ونصيحته لأخيه يزيد وتحذيره من نقض

البيعة بقوله: "مهلاً يايزيد فإن في نقض البيعة فساد الدين والدنيا" وتهديده أياه بفضح أمره لدى الخليفة، فقد قرر المضي فيما عزم عليه واستمر في تحريض الناس ضد الخليفة الوليد تسانده اليمانية وزعماؤها أمثال منصور بن جمهور الكلبي وحميد ابن نصر اللخمي والأصبع بن زياد بن علاقة فضلاً عن بعض الأمراء الأمويين مثل الوليد وآل هشام، وآل عمر بن عبد العزيز. ومع ذلك فإن الوليد لم يحسن تقدير الموقف واكتفى بالرد على الشائعات ضده. وقد حاول بعض أفراد البيت الأموي إبداء الحرص على وحدته أمثال مروان بن محمد والي أرمينيا والجزيرة الذي كتب إلى سعيد بن عبد الملك الذي عرف بتدينه يحثه على تدارك الأمر مادام هناك متسع من الوقت قائلاً: "عاجل وصل الألفة... والناس والثغور محفوظة". فبعث العباس ابن الوليد بعد اطلاعه على الكتاب إلى يزيد وحذره من العواقب المدمرة التي ستنتج عن فعله إلا أن يزيد امتص غضبه وحلف له أن يعدل عن الأمر فصدقه العباس.

لكن يزيد لم يف بوعده للعباس وواصل نشاطه حتى استجمع أمره فقرر الإعلان عن ثورته. وكانت خاتمة هذه التطورات أن اضطر الخليفة الوليد إلى خوض معركة غير متكافئة وقاتل ببسالة لكنه هزم فدخل حصن البخراء وفتح المصحف وجلس وقال: "يوم كيوم عثمانٍ" فاقتحم المهاجمون الحصن وقتلوه سنة (126هـ/743م). [الطبري "1979" 232/7 ]

لقد كان مقتل الوليد مؤشراً على نهاية الأمويين وضياع شرعية الخلافة واضطراب الأمور وتصدع قاعدة الحكم الأموي المتمثلة بأهل الشام. فقد خرج سليمان بن هشام بن عبد الملك من سجنه في عمان واستولى على الأموال. وأثار أهل حمص وفلسطين والأردن مطالبين بدم الخليفة المقتول. لذا أصبح من الضروري معالجة هذه الأمور من قبل الخليفة الجديد يزيد بن الوليد. ولما كان بحاجة إلى تأييد ومساندة البيت الأموي ليدعم موقفه خاصة ولكونه لم يحظ بمناصرة جميع أفراد البيت الأموي، فقد وجد من المفيد له التقرب إلى سليمان بن هشام فرد إليه ما صادره الخليفة الوليد من أمواله، وتزوج من ابنة عمه أخت سليمان بن هشام ، وكان الأخير هو أيضاً بحاجة إلى يزيد بن الوليد كونه خليفة وأنه انتصف له ولأمثاله ممن أضطهدهم الوليد.

لقد استطاع سليمان بن هشام أن يهزم أهل حمص فقتل وأسر بعضهم ومنهم أبو محمد السفياني الذي حبسه الخليفة لخوفه منه كون السفيانين أظهروا رغبة في الحصول على مكانة عالية من المروانيين ، أما وجهاء حمص فقد تسامح معهم وأجزل لهم العطاء وولاهم الولايات.

كما تمكن سليمان بن هشام من القضاء على ثورة أهل فلسطين والأردن، فقد دعا أهل فلسطين يزيد بن سليمان بن عبد الملك لتولي أمرهم فوافق واستعدوا لقتال الخليفة يزيد مما دفع أهل الأردن الى مبايعة محمد بن عبد الملك

واجتمعوا لمحاربة الخليفة يزيد كذلك.

إن تزعم أميرين من البيت الأموي للثائرين ضد الخليفة، يظهر بشكل واضح الحال الذي أصبح عليه البيت الأموي، فبعد أن كان موحداً متماسكاً أصبح أفراده يقاتل بعضهم بعضاً مما عجل في نهاية حكمهم .

لقد حاول سليمان بن هشام أن يستخدم الدبلوماسية في مواجهتهم فاتصل بزعماء البلدين بإعطائهم الأموال ووعدهم الجاه وكذلك فعل الخليفة مع كل من يزيد بن سليمان ومحمد بن عبد الملك فأقنعهما بالتخلي عن الثوار .

وبعد أن بايعته بلاد الشام استدعى الوفود من أقاليم الخلافة لبيعته وتأييده فألقى خطبة فيهم أوضح فيها سياسته الاجتماعية والاقتصادية محاولاً تبرير قتله الوليد برغبته في الإصلاح وأنه لم يخرج إلا "غضباً لله ورسوله داعياً إلى الله وكتابه وسنة نبيه" لأن الوليد بزعمه، خرج عن الطريق المستقيم فاستحق الخلع والقتل .

ومما يمكن استنتاجه من خطبة الخليفة يزيد أنه لم يتبن آراء جماعة معينة دون أخرى لإدراكه أن وصوله للسلطة لم يكن في ظروف طبيعية وأنه أخذها بالقوة لذا جهد للحصول على رضا الجميع بما فيهم القوى المعارضة سواء كانوا من الخوارج أم القدرية أم سواهما .

لم يبق الآن أمام يزيد بن الوليد سوى مروان بن محمد والي أرمينيا والجزيرة الذي كان أكثر أفراد البيت الأموي إنكاراً لفكرة الإطاحة بالوليد بن يزيد حفاظاً على وحدة البيت الأموي الحاكم وخوفاً منه على زوال حكمهم.

ولما لم يفلح في ذلك انتعشت آمال مروان بالخلافة لاسيما أن كونه من أم غير عربية لم يعد عائقاً أمامه طالما أن الوليد بن يزيد قد بايع لابنه الحكم وهو ابن أمة كما أن يزيد نفسه لم تكن أمه عربية فضلاً عن كبر سنه وإمكاناته المادية وكفاءته العسكرية مما يمكنه من حماية الخلافة التي أصبحت على حافة الهاوية. فظل يراقب الموقف لتحقيق هدفه.

فبعد مقتل الوليد كتب مروان رسالة إلى الغمر بن يزيد يحثه على الأخذ بثأر أخيه الوليد واعداً إياه بالمساعدة لكن الغمر لم يتحرك مما أعطى مسوغاً لمروان للسير والطلب بدم الوليد كما طالب معاوية بدم الخليفة عثمان ﷺ فتحرك من أرمينيا إلى الجزيرة بعد أن وطد له ابنه عبد الملك الأوضاع فيها. وقبل أن يخرج ترك حاميتين الأولى بإمرة إسحق بن مسلم العقيلي والأخرى بإمرة ثابت بن نعيم الجذامي .

استغل ثابت بن نعيم خروج مروان بتأليب اليمانية عليه فثار مطالباً بالعودة لبلاد الشام لكن مروان استطاع بحزمه وقوته من احتواء الموقف لصالحه وأن يعيد الأمور إلى نصابها. ثم سار بجيشه حتى حدود حران حيث أمر المقاتلة من اليمانية بالعودة إلى أجنادهم.

كان مروان متردداً في مواجهة الخليفة يزيد، ولعل خير ما يصور ذلك كتاب الخليفة إليه الذي جاء فيه: "... فإني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت والسلام. مما يظهر ثقة الخليفة بنفسه أو ربما أراد أن يوحي بذلك لمروان كي يحسم أمره وقد برهن على ذلك بإعداده قوة عسكرية من أهل الشام على رأسها طفيل بن حارثة الكلبي، على الرغم من أنه في الواقع لم يكن يريد تصعيد الموقف بينه وبين مروان، بل كان حريصاً بعد وصوله للخلافة على لم شمل الأسرة الحاكمة والعمل على استمرار الدولة وضمان وحدتها. لذا كتب الى مروان يعرض عليه مضاعفة سلطته بأن يوليه جميع البلاد التي كان والده محمد بن مروان يتولاها أيام عبد الملك وهي الجزيرة وأرمينيا والموصل وإذربيجان فوافق مروان لأن في ذلك زيادة في نفوذه كما أنه أدرك صعوبة التحرك لأن الخليفة كان قوياً يحسن تصريف أموره فبايع له .

وفي ذي الحجة سنة (126هـ/743م)مات الخليفة يزيد بعد حكم لم يستمر أكثر من ستة أشهر، فتولى أخوه إبراهيم بن الوليد الخلافة، وكان عاجزاً ضعيف التدبير لم يتم له أمر. وكان يسلم عليه جمعة بالخلافة وجمعة بالإمرة، وجمعة لا يسلمون عليه لا بالخلافة ولا بالإمرة . [ الطبري "1979" 296/6 ] كما لم يبايعه أهل جنوب الشام. لذلك أدرك مروان ضرورة التحرك فوراً ففضلاً عن طموحه السياسي وجد أن تدخله هذه المرة أصبح ضرورة ملحة تفرضها مسؤوليته تجاه البيت الأموي لأن إبراهيم لم يكن بالرجل المناسب آنذاك، ولعل الخليفة يزيد بن الوليد كان مدركاً لضعف أخيه إبراهيم لذلك لم يعهد له بالخلافة من بعده لكنه بايع له ولعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك من بعده بضغط من القدرية.ولعل مروان كان قد أدرك أن بقاء إبراهيم بن الوليد في الحكم سيجعل الخلافة العوبة بيد القدرية وعرضة للطامعين فيها فعزم على المسير إليه مبرراً ذلك بادعائه المطالبة بحق ولدي الخليفة الوليد بن، يزيد –الحكم وعثمان– اللذين كانا محبوسين في سجن الخليفة إبراهيم.

واصل إبراهيم سيره حتى وصل إلى حلب وتمكن من أسر مسرور بن الوليد بن عبد الملك وأخيه بشر اللذين أرسلهما الخليفة إبراهيم ضده بدون قتال ثم وصلت طلائع جيشه إلى حمص التي ثأر أهلها على إبراهيم، فدخل مروان المدينة حيث بايعه المضرية من مختلف أمصار الخلافة الذين غاضهم مقتل الخليفة الوليد وانتصار اليمانية على الثأر من قتلة الخليفة وإحقاق الحق لولي العهد الشرعيين الحكم وعثمان وإزاء هذا التطور عهد الخليفة إبراهيم لسليمان بن هشام بقيادة جيش الخلافة الذي قوامه مائة وعشرون ألفاً ضد مروان وهو على رأس ثمانية آلاف مقاتل. وقبل حصول أي قتال بين الجانبين لجأ مروان إلى حل دبلوماسي حين عرض على سليمان الكف عن القتال لقاء إطلاق سراح ابني الوليد الحكم وسليمان مقابل

عدم المطالبة بدم الخليفة الوليد. وكان هذا محاولة منه لإظهار نفسه كقوة مؤثرة في الأحداث لا تقل عن الخلافة فضلاً عن محاولته إظهار نفسه وكأنه غير طامع بالخلافة وأنه يريد فقط إعادة الحق لأصحابه (ولدي الوليد الحكم وعثمان) لكن سليمان رفض ذلك فدارت معركة واستمرت يومين هزم فيها سليمان وجيشه فر بعدها سليمان عائداً إلى دمشق في حين وظف مروان نصره بأن أطلق سراح الأسرى بعد أن أخذ منهم البيعة للحكم وعثمان.

وفي دمشق اجتمع الخليفة إبراهيم بن الوليد وسليمان بن هشام وعبد العزيز بن الحجاج ابن عبد الملك والأصبغ بن ذؤالة الكلبي ويزيد بن خالد القسري وقرروا الهرب من دمشق والتخلص من ابني الوليد الحكم وعثمان لاعتقادهم أنهما إن صار الأمر لهما لن يستبقيا أحداً من قتلة أبيهما. أو ربما أرادوا كذلك أن يسقطوا حجة مروان وهي حماية حقوق ورثة الخليفة الوليد. وعهدوا بهذه المهمة ليزيد بن خالد القسري الذي أرسل مجموعة من مواليه لقتلهما فتم لهم ذلك كما قتل معهما يوسف بن عمر. في حين تخلص أبو محمد السفياني الذي كان معهما من القتل بعد أن أحكم غلق باب سجنه فأرادوا إحراقه لكن وصول مروان إلى دمشق حال دون ذلك.

إن تقدم مروان بن محمد نحو دمشق دفع الخليفة إبراهيم بن الوليد وسليمان بن هشام إلى الهرب، وهكذا فإن التطور السريع للأحداث حقق لمروان الوصول إلى هدفه فدخل دمشق في صفر من عام 127هـ-744م وبويع بالخلافة. [ اليعقوبي "1974" 78/3 ]

لقد شجعت هذه الظروف المضطربة قيام حركات معارضة كثيرة ضد الحكم الأموي ومن هذه الحركات خروج يحيى بن زيد الذي انبرى للأخذ بثأر أبيه فضلاً عن اعتقاده بأن آل بيته أحق بالخلافة من غيرهم ويتوضح ذلك في قوله لأبيه بعد هزيمته: "أقاتلهم والله و لم أجد إلا نفسي . [ ابو نصر البخاري "1962" 58 ] وقد اتخذ من خراسان مكاناً لخروجه.

وبالرغم من الانتصار الذي أحرزه هو وأتباعه أول الأمر على جيش والي خراسان وقائده عمرو بن زرارة الذي قتل في المعركة فإن نهايته كانت القتل في معركة دارت بينه وبين جيوش الوالي سنة ( 125هـ/742م) . كما شهدت هذه الحقبة نشاط الدعوة العباسية التي كان تنظيمها السري الذي يمتد إلى سنوات طويلة السبب في قلب نظام الحكم الأموي ومجيء العباسيين للخلافة. لقد اتخذت الدعوة العباسية من خراسان مكاناً لها كما يتضح من وصية محمد بن علي لدعاته عندما أراد توجيههم إلى هناك حيث قال عن العرب في خراسان: "هناك صدور سالمة وقلوب فارغة لم تقسمها الأهواء و لم تتوزعها النحل. [مؤلف مجهول "1971" 204 ]

استمر محمد بن علي في قيادة الدعوة حتى وفاته أواخر عام 124هـ/742م وقد كان قد

أوصى لابنه إبراهيم أن يكون إماماً للدعوة من بعده .

وقد تزامن تولي إبراهيم بن محمد زعامة الدعوة مع بداية الانحلال الذي وصل إليه الحكم الأموي منذ خلافة الوليد بن يزيد. وقد ظهرت آثار هذا الانحلال وما تلاه من تطورات سياسية على الأوضاع في خراسان مركز نشاط العباسيين، فقد عزل الخليفة يزيد بن الوليد يوسف بن عمر عن العراق وعين منصور بن جمهور بدلاً عنه فأسند هذا الأخير ولايتها إلى أخيه منظور .

وكان لهذا التعيين رد فعل شديد في خراسان عندما رفض واليها نصر بن سيار هذا التعيين معتمداً على ما لديه من تأييد في خراسان وقام باتخاذ إجراءات فعالة من أجل جمع كلمة العرب. ولكن مع كل هذا فإن حكم نصر بن سيار لا يعد شرعياً لأنه لا يستند إلى تأييد الخليفة مما أضعف موقفه وشجع جماعة من الأزد على الانقضاض عليه سنة ( 126هـ/744م) .

حاول نصر بن سيار أن يبصرهم بعواقب الفتنة وأنهم "مسلحة في نحور العدو" دون جدوى سرعان ما تغير الوضع لصالح نصر بعزل الخليفة يزيد لمنصور بن جمهور عن العراق وتعيين عبد الله ابن عمر بن عبد العزيز لميل أهل العراق له ، فسارع هذا في تثبيت نصر في ولايته على خراسان مما أثار سخط الأزد و زعيمهم جديع الكرماني لخلافات بين الرجلين. وقد استطاع نصر النيل من جديع وسجنه سنة ( 126هـ/744م ) . لكن هذا الأخير استطاع في أقل من شهر الهرب من سجنه بمساعدة أعوانه فالتف حوله أتباعه ومؤيدوه وما أن علم نصر بذلك حتى استعد للحرب لكنهما لم يصطدما وجنحا للسلم وتصالحا لكن هذا الصلح لم يدم طويلاً وظل الموقف بينهما متوتراً.

ومما عقد الأمور أكثر ظهور الحارث بن سريج المرجئي على مسرح الأحداث في خراسان من جديد وسبب ذلك أن الخليفة يزيد بن الوليد كان قد منح الأمان للحارث بن سريج بناء على مشورة نصر بن سيار وعلى الرغم مما أظهره الأخير للحارث من احترام وتقدير فإن الحارث لم يلزم جانبه بل تحالف مع الكرماني ضده مما أضعف موقف نصر فانسحب من مرو وذهب الى نيسابور فدخلها الحارث والكرماني منتصرين. ان جميع هذه التطورات كانت في صالح العباسيين فاستغلوها أحسن استغلال وظلوا يراقبون الفرصة المواتية لإعلان الثورة.

**خلافة مروان بن محمد:** يعد عهد الخليفة مروان محمد من أكثر عهود خلفاء بني أمية اضطراباً من الناحية السياسية فالسنوات الخمس التي أمضاها خليفة كانت تعج بحركات المعارضة والفتن والاضطرابات وكانت هذه كلها أداة فعالة في تقويض أركان البيت الأموي وانهياره فيما بعد، لأنها تسببت في هدر طاقات بشرية واقتصادية من قوة الدولة مما أثر في وحدتها وتماسكها.

ففي العراق قامت حركة علوية تزعمها

عبد الله بن معاوية، كما شهدت بلاد الشام عدة انتفاضات كان آخرها حركة ابن عمه سليمان بن هشام، فضلاً عن عودة الخوارج إلى التحرك فسيطروا على منطقة الجزيرة الفراتية واحتلوا الكوفة، كما نشطوا في أماكن أخرى مثل الحجاز التي سيطر عليها الأباضية. أما خراسان فقد استغل دعاة العباسيين هذه الاضطرابات التي شغلت الخليفة مروان، فضلاً عن التنافر القبلي. و لم يمض وقت طويل حتى سقطت خراسان بأيديهم.

وعلى الرغم من ما كان عليه مروان من مقدرة عسكرية وإدارية فإن جهوده لم تنجح في مواجهة هذه الأوضاع التي وجد نفسه فيها ذلك لأن مجيئه كان متأخراً لذلك كانت عوامل الهدم في الدولة أكبر من كل ما بذله من جهود فلم يكن في مقدوره إيقاف التدهور الذي كان تسير نحوه الدولة بصورة سريعة. يقول قدامة بن جعفر كان مروان بن محمد "من أكابر ملوك بني أمية وشجعائهم وذوي الرأي والسياسة منهم، لما دفع إلى ملك قد وهت قواه، وانتفضت عداه، بإهمال المضيعين وتقصير المترفين فأخذ يروم تلافيه وقد عسر، وتقصد لرتقه وقد زاد الخرق واتسع. ["1981" 445-446]

ومع كل ما كان يتمتع به مروان من مواهب وقدرات فقد ارتكب أخطاء كان لها الأثر الكبير في زيادة الفوضى التي سادت في أواخر العصر الأموي، لعل أهمها تقريبه القيسية الذين بمؤازرتهم وصل إلى الخلافة وبذلك خسر تأييد اليمانية في بلاد الشام الذين يشكلون الأكثرية فيها.

ثم كان نقل العاصمة من دمشق إلى حران بمثابة الضربة القاصمة لأهل الشام الذين أدركوا أنهم خسروا مركزهم المهم الذي كانت دمشق قد وفرته لهم كونها مركز الحكم الأموي. على إن مروان دفع ثمن هذا الإجراء غالياً فيما بعد، كما دفع ثمن الدماء التي أريقت في الحركات التي قامت ضده في بلاد الشام حين عاد من معركة الزاب مع جيوش العباسيين، إذ لم يجد في الشام من يقف إلى جانبه فاضطر إلى متابعة السير فاراً إلى مصر بعد أن سير أمامه إليها ابنه عبد الله فأجمع أهل مصر على منع الخليفة مروان من الدخول إليها وولوا أمرهم عبد الله بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عميرة الحضرمي، فلما وصل عبد الله بن مروان إلى مصر ودعا بن عميرة الجند للقتال معه تثاقلوا و لم يقوموا بشيء مما عزموا عليه. [ الكندي "1959" 117]

أما والي مصر عبد الملك بن موسى بن نصير فقد اتخذ الاحتياطات لمقاومة العباسيين حين صادر كل ما وجد من الذهب والفضة والحديد والنحاس وغيره من الأمور اللازمة للدفاع. ولابد أن أهل مصر ومن بينهم الأقباط قد نالهم بلاء عظيم من جراء مصادرة أموالهم واستخدامهم في أمور ضرورية لمثل ذلك الدفاع إلا أن الوالي الأموي كان مضطراً لذلك إزاء الوضع السياسي الخطير الذي كان يتوقف عليه مصير الحكم الأموي .

وفي شوال ( 132هـ/750م) وصل الخليفة إلى مصر التي كانت تسودها الفوضى، فقد وجد أن الدعوة العباسية قد قطعت شوطاً بعيداً حيث أعلن أهل الجوف الشرقي تأييدهم للعباسيين وكذلك فعل أهل الأسكندرية والصعيد وأسوان. ومما زاد الوضع سوء حركة الأقباط في بشمور التي خرج أهلها رافضين دفع الخراج، وكان هذا قبل قدوم مروان إلى مصر، وما أن علم مروان بتمردهم حتى عمل على تسوية الأمر سلمياً عارضاً عليهم عفواً عاماً لكنهم رفضوا .

وإذا كان مروان قد نجح في إعادة الأمور إلى نصابها في الإسكندرية والصعيد فإنه فشل في إخماد حركة البشموريين الذين هزموا قواته مما دفع قائده الكوثر بن الأسود إلى حبس البطريق ميخائيل وتعذيبه في محاولة منه للضغط عليهم للكف عن مقاتلة الجيش الأموي فكانت النتيجة عكسية حيث انضم جميع النصارى إلى صف العباسيين .

ولما بلغت القوات العباسية مدينة الفرما ترك الخليفة مروان القسطاط بعد أن أمر بإحراق جميع المراكب في مصر ثم عبر الى الضفة الغربية للنيل، فسار أهل بشمور الى الفرما لمقابلة الجيش العباسي يشكون إليه مروان وسوء معاملته لهم .

وفي منتصف ذي الحجة (132هـ/750م) وصلت القوات العباسية إلى الضفة الشرقية للنيل وأصبحت وجهاً لوجه أمام مروان الذي كان مقيماً بالجيزة إلا أنها لم تتمكن من العبور إليه بسبب حرقه الجسرين اللذين يصلان القسطاط بالجيزة فدل أهل مصر العباسيين على مخاضة في النيل عبروا منها فدارت رحى الحرب بين الجانبين هزم فيها مروان وفر حتى وصل إلى بوصير، وهناك تعقبته قوة عباسية حيث قتلته في ذي الحجة ( 132هـ/750م) ، وبقتله انتهت دولة بني أمية في المشرق .

وتعليقاً على ما آل اليه أمر دولة بني أمية يقول الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور: "... ولم يزل بنو أمية ضابطين لما مهد لهم من السلطان، يحوطونه ويصونونه ويحفظونه ويحرسون ما وهب الله لهم منه، مع تسلمهم معالي الأمور، ورفضهم أدانيها حتى أفضى أمرهم إلى أحداث مترفين من أبنائهم، فغمطوا النعمة ولم يشكروا العافية وأساؤوا الرعاية فأبتدأت النقمة منهم .[ ابن قتيبة "1925" 205/2 ]

**أ.د . عبد الأمير دكسن**

## المصادر والمراجع

**المخطوطات :**

مؤلف مجهول:

غرر السير (مخطوط في مكتبة البودليان في اكسفورد برقم (Darville 542).

**المصادر:**

ابن الأثير، عزالدين علي بن محمد بن محمد الشيباني (ت630هـ/132م):

(1851) الكامل في التاريخ ، ليدن .

ابن جعفر الكاتب، قدامة (ت 337هـ/948م):

(1981) الخراج وصناعة الكتابة، (تحقيق الدكتور محمد حسين الزبيدي ، بغداد ، دار الرشيد .

ابن خياط العصفري، خليفة (ت 240هـ/854م):

(1968) تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري ، النجف ، مطبعة الآداب .

ابن سعد، محمد (ت230هـ/845م):

(1905) الطبقات الكبرى، ليدن .

ابن عبد ربه، أحمد بن محمد (ت 328هـ/939م):

(1940) العقد الفريد ، القاهرة .

ابن قتيبة الدينوري، عبدالله بن مسلم (ت 276هـ/889م):

(1957) الأمامة والسياسة ، القاهرة .

(1925) عيون الأخبار ، القاهرة .

(1950) المعارف ، مكتنجين .

أبو حنيفة الدينوري، احمد بن داود (ت 282هـ/895م):

(1888) الأخبار الطوال، تحقيق فلاديمير جرجاس، ط1 ، ليند .

أبو عبيدة، معمرين المثنى (ت 209هـ / 824-825م):

(1905-1909) نقائض جرير والفرزدق، تحقيق بيفان ، ليدن ، مطبعة بريل .

أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين (ت 356هـ/967م):

(1284-1285هـ) الأغاني، مصر، مطبعة بولاق.

أبو نصر البخاري، سهل بن عبد الله (ت 341هـ/952م):

(1962) سر السلسلة العلوية ، النجف .

البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت 279هـ/892م):

(1936) أنساب الأشراف ، القدس .

(1959) فتوح البلدان، اعتني بمراجعته والتعليق عليه رضوان محمد رضوان ، مصر ، مطبعة السعادة .

الجاحظ، عمرو بن بحر (ت 255هـ/868 – 869م ):

(د.ت) البيان والتبيين ، بيروت ، دار الفكر .

الشماخي،بدر الدين احمد بن سعيد (ت 928هـ/1521م ):

(1884) كتاب السير ، القاهرة .

الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم (ت هـ528/1133م):

(1923) الملل والنحل ، ليبزك .

الطبري، أبو جعفر محمد جرير (ت 310هـ / 922:

(1979) تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد ابو

الفضل ابراهيم ، مصر ، دار المعارف .
القلقشندي، أحمد بن علي (ت 821هـ – 1418م):
(1963) صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، القاهرة .
الكندي، ابو عمر محمد بن يوسف (ت 350هـ / 961):
(1959) ولاة مصر ، بيروت .
المبرد، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر (ت 285هـ/898م):
(1874) الكامل في اللغة والأدب ، ليبزك .
المسعودي، علي بن الحسين (ت 346هـ/ 957م):
(1968) التنبيه والأشراف ، بيروت ،دار التراث.
(1958) مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة ، مطبعة السعادة .
مؤلف مجهول:
(1971) أخبار الدولة العباسية وفيه أخبار العباس وولده، تحقيق الدكتور عبد العزيز الدوري والدكتور عبد الجبار المطلبي ، بيروت ، دار صادر .
مؤلف مجهول:
(1967) تاريخ الخلفاء ، نشر بطرس غريازينويج ، موسكو .
مؤلف مجهول:
(1869) العيون والحدائق في أخبار الحقائق – الجزء الثالث ، ليدن .
ياقوت الحموي، شهاب الدين بن عبد الله (ت 626هـ/1228م):
(1955-1957) معجم البلدان، بيروت، دار صادر .
اليعقوبي، احمد بن جعفر بن وهب، (ت 284هـ/897م):
(1974) تاريخ اليعقوبي، النجف، المكتبة الحيدرية .

**المراجع الحديثة (العربية والمعربة):**

ابن رازق، سليل:

(1871) تاريخ أئمة وسادات عُمان – الترجمة الأنكليزية ، لندن .

تاجر ، جاك:

(1951) أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي الى 1922 ، القاهرة .

حسن، حسن إبراهيم:

(1964) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والأجتماعي، ط7 ، مكتبة النهضة المصرية.

دكسن، عبد الأمير عبد:

(1973) الخلافة الأموية من 65-86هـ/684-705م – دراسة سياسية ، بيروت ، دار النهضة العربية .

الدوري، عبد العزيز:

(1988) النظم الأسلامية ، مطابع دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل .

شعبان، محمد عبد الحي:

(1977)الثورة العباسية، ترجمة عبدالمجيد حسين القيسي ، أبو ظبي ، دار الدراسات الخليجية .

العبود، نافع توفيق:

(1979) آل المهلب بن أبي صفره ودورهم في التاريخ حتى منتصف القرن الرابع الهجري ، بغداد ، مطبعة الجامعة .

عطوان،حسين:

(1981) الوليد بن يزيد – عرض ونقد ، بيروت .

كاشف، سيدة اسماعيل:

(1947) مصر في فجر الأسلام منذ الفتح العربي الى قيام الدولة الطولونية ، القاهرة.

**الرسائل الجامعية:**

النعيمي، وئام عدنان:

(1991) الخلافة الأموية من 86-96هـ/705-715م – دراسة في الأوضاع السياسية والإدارية، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب، جامعة بغداد .

(1996) الخلافة الأموية من 125-132هـ/744-750م – دراسة في أوضاعها السياسية والإدارية – أطروحة دكتوراه غير منشورة ، كلية التربية – ابن رشد، جامعة بغداد .

المصادر الأجنبية :

Bosworth C.E.
1968 Sistan under the Arabs form the Islamic Conquests to the rise of the suffered. Rome,.
Constantine Perphgrogentus. De. Administ Randoimperio. P39-5ed.
Ibn- Al-Ibri (Bar Hrbraeus ) Chronographia. I.P. 103.E. 12.
Lammens,H.
1930Erodes surlesiecledes Dmayyades,. Beyrouth. .
Michael
the Syrian. Chronigue.
Miles.S.B.
1960 the Countries and Tribes of the Persoan Gulf. London.
Rubinacci,B.
CaliffoAbd Al- Malikk b. Marwan egll- Lbediti, Annali Institute orientale divapli.
Theaphames
Chronographia. Mingne, Pt. 176.
Walker,J.
1914A catlogue of the Arabs Sassaniancoins, London.
Welthausen,
the Arab Kingdom and itsfall.

## ثانيا : الفتوحات في المشرق والمغرب

### 1. في المشرق

اتسم العصر الأموي بنشاط حركة الفتوح الإسلامية بعد الفتور الذي أصابها نتيجة الاحداث الداخلية التي رافقت الفتنة (35هـ/655م) التي أودت بحياة الخليفتين الراشدين عثمان بن عفان وعلي بن ابي طالب ﷺ.

لقد عني المؤرخون المسلمون القدامى عناية كبيرة بتدوين اخبار الفتوح والانتصارات التي أحرزها العرب المسلمون في شتى الجبهات ، سواء كان ذلك في العصر الراشدي أم في العصر الأموي.

ونظراً لامتداد هذه الفتوح امتداداً واسعا في نطاقي الزمن والمجال الجغرافي من جهة ، وتكدس أحداثها المتشابكة من جهة أخرى ، فان تناول جانب منها يتعلق بفتوح المشرق في العصر الأموي ، ليس بالمهمة اليسيرة ، إذ أن أقاليم المشرق مترامية من شرق العراق حتى مشارف الصين ، وهي أقاليم عدة تضم شعوبا مختلفة ، لكل منها إرثه الديني والحضاري والاجتماعي ، وقد استطاع العرب الذين وحدهم العقيدة الإسلامية ، أن ينثالوا على تلك الشعوب حاملين إليها القرآن الكريم هداية ورحمة ، داعين إياها الى عبادة الله الواحد الأحد ونبذ كل عبادة اخرى . وهذا هو الذي يفسر استمرارية حركة الفتوح الإسلامية وبلوغها أوجها في العصر الأموي.

لقد اهتم الخلفاءالأمويون بفتوح المشرق على الرغم من اهتمامهم المتزايد في الجهة الغربية ضد الروم البيزنطيين ، فمنذ مستهل العصر الأموي تركزت سياسة الخلافة على توطيد السلطان العربي الإسلامي في الأقاليم والمدن المشرقية التي سبق فتحها في العصر الراشدي ، ولاسيما تلك التي خضعت لكثير من حركات الارتداد والانتفاض ، وقد وفق العرب المسلمون في ذلك غاية التوفيق ، ثم تابعوا حركة الفتح التي سنعرض لها حسب الأقاليم ، في منهجيتنا التاريخية التي اعتمدناها لإيضاح مداها الزماني والمكاني ، وما كان من طبيعتها وتواصلها في العصر الأموي .

#### فتح خراسان

يعلم دارسو التاريخ الإسلامي ، ان العرب المسلمين استكملوا تحرير العراق من السيطرة الفارسية في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ وتعد معركة نهاوند سنة (21 هـ/640م) . من المعارك الفاصلة في حركة الفتوح الإسلامية وامتدادها نحو الشرق ، إذ كانت إيذاناً بسقوط المقاومة الفارسية المنظمة وتشتت قواها واقتصار مقاومتها للعرب المسلمين على جهود فردية أبداها حكام المقاطعات على غير تساند وعون.

ولا بد لنا ونحن نتناول دراسة حركة الفتوح الإسلامية باتجاه المشرق ، أن ننوه بدور كل من الكوفة والبصرة في انطلاق الحملات

العربية الإسلامية منهما على نحو منظم رافق سير عمليات الفتوح شرقاً .

ومن خلال متابعة عمليات الفتوح شرقا، يظهر لنا أيضا تركيز العرب المسلمين على فتح اقليم خراسان كونه أهم أقاليم الإمبراطورية الساسانية ، ولا نريد التفصيل في تقدم الحملات العربية نحو هذا الإقليم وفتحها له ، فالمصادر التاريخية تجمع أن فتح خراسان كان في عهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ تحت قيادة والي البصرة عبدالله بن عامر بن كريز العبشمي وذلك في سنة (31هـ/652م) ، وتلا هذا الفتح استقرار القبائل العربية في هذا الإقليم الذي صار يمثل مركز جذب لما يتمتع به من ثراء وسعة ، فضلاً عن تحوله الى ثغر جهادي لمد الفتوحات الى أقاليم الشرق الاخرى ولاسيما في العصر الاموي .

إن الحقبة الممتدة منذ فتح خراسان حتى تثبيت سيادة الخلافة الأموية عام (41هـ/66م) ليست واضحة تماماً في مصادرنا ، وربما يعود ذلك إلى كثرة اختلافات القبائل ، وانشغال العرب المسلمين بالأحداث الداخلية خلال السنوات العصيبة الأخيرة من العصر الراشدي والمتمثلة بالفتنة المؤسفة [ شعبان "1971" 68-69 ] .

وفي مستهل العصر الأموي ، وتحديداً عندما تسنم معاوية بن أبي سفيان الخلافة عام (41هـ/661م) سعى الى تثبيت دعائم حكمه ، وتصفية كثير من المشاكل والمشاغل التي لا بد من تصفيتها قبل أي عمل يتعلق بتنشيط حركة الفتوح شرقا وغربا ، ولعل الظروف المحيطة به آنذاك دفعته إلى ان يعقد هدنة مع الروم البيزنطيين في سنة (41هـ/661م ) ، حيث صالحهم على مائة الف دينار ، كما أنه صالح الجراجمة المقيمين في جبل اللكام ، والذين كانوا يكاتبون الروم ويمالئونهم . [ البلاذري "1959" 394 ]

لما استقرت الأمور لمعاوية وتوطدت أركان خلافته بعد أن دانت له أقاليم الدولة العربية الإسلامية في المشرق والمغرب على حد سواء عمد إلى استئناف العمليات الجهادية وتنشيط حركة الفتوح بدءاً من السنة الثانية لخلافته ، أي سنة (42هـ/662م )، وحظي تفكيره بمجاهدة الروم باهتمامه الكبير ايضا .

إن الذي يعنينا في هذا الصدد ، هو متابعة حركة الفتوح وتطورها باتجاه المشرق منذ مستهل خلافة معاوية ، حيث عمد هذا الخليفة بدءاً الى بسط سيادة الخلافة على الاقاليم والمناطق المفتوحة من قبل ، والتي ضعضعتها أحداث النزاع الداخلي المعروف في أواخر العصر الراشدي .

والحق أن سياسة الخليفة المذكور قد نجحت في إعادة السيطرة المركزية على إقاليم الدولة الإسلامية ، ومن بينها اقليم خراسان الذي اتخذه العرب المسلمون قاعدة لانطلاق حملاتهم نحو الأقاليم الشرقية الأخرى التي تمكنوا من فتحها خلال العصر الأموي .

وكان أغلب العرب في خراسان من القبائل البصرية التي قدمت إليها أثناء الفتح وبعده ،

حيث كانت من فتوح مصرهم (البصرة) وتابعة لها ادارياً . وظلت حالها هكذا في بداية العصر الاموي ، ففي سنة ( 41هـ/661م) ولى معاوية عبدالله بن عامر البصرة وتشمل ولايته خراسان وسجستان أيضا.

وفي سنة ( 45هـ/665م ) عزل الخليفة معاوية إبن عامر عن البصرة وولاها الحارث بن عمرو الأزدي الذي قدمها في أول السنة ، ولكن معاوية عزله في السنة نفسها، وولى مكانه زياد بن أبي سفيان ، فلما كانت سنة (50هـ/670م ) توفي المغيرة بن شعبة والي الكوفة ، وضم معاوية الكوفة إلى زياد ، فاستمرت ولاية هذا للمصرين حتى وفاته في سنة (53هـ/673م) . [ خليفة بن خياط "1967" 260/1 ] وفي سنة (51هـ/671م) حدث تطور مهم في سكنى العرب المسلمين بخراسان ، حيث تعزز وجودهم واستقرارهم هناك بعملية نقل زياد جالية عربية تبلغ خمسين ألف مقاتل مع عيالهم من الكوفة والبصرة مناصفة ، وكان هؤلاء من مختلف القبائل التي هي بكر وتميم وعبد القيس وأهل العالية والازد .

لقد نجم عن عملية النقل هذه زيادة في أعداد القوات العربية المعتمدة على رجالات القبائل المستقرة في خراسان ، فكان لذلك اثره الكبير في مد الفتوح إلى ما وراء النهر وأقاليم اخرى .

### فتح إقليم سجستان

يقع هذا الإقليم جنوب خراسان ، ويحده من الشرق كرمان والمفازة الممتدة بين مكران وأرض السند وشيء من أعمال الهند ، ومن الجنوب المفازة الواقعة بين سجستان وفارس وكرمان . وتوصف سجستان بأنها بلاد الرياح والرمال ، مما كان يسبب ارتباكاً في أحوالها الاقتصادية .

تعود البداية الأولى لمحاولة العرب المسلمين فتح سجستان إلى سنة ( 23هـ/643م) ففي هذه السنة ، قصدها عاصم بن عمرو التميمي ، وحارب أهلها في زرنج قصبة الإقليم واضطر أهل سجستان إلى طلب الصلح ، فصالحهم على الخراج [ الطبري "1968-1969" 180/1-181] ، ولكنهم لم يلبثوا ان نقضوا الصلح وعادوا إلى التمرد الذي كان ملازماً لهم ، وهذا ما يمكن استنتاجه من تعاقب الحملات العربية الإسلامية على سجستان في العصرين الراشدي والأموي .

ففي العصر الراشدي ، وتحديداً في سنة (33هـ/653م) ، وجه عبدالله بن عامر عبد الرحمن بن سمرة إلى سجستان ، فصالحه صاحب زرنج ، ومكث عبد الرحمن فيها مدة سنتين .

وفي سنة (37هـ/657م) ، قاد شريح بن هانئ حملة اخرى إلى سجستان. أما في العصر الأموي ، فقد توالت الحملات العربية على سجستان بهدف إخضاعها لسلطان الخلافة ، ففي سنة ( 42هـ/662م ) وجه والي البصرة

عبدالله بن عامر عبد الرحمن بن سمرة على رأس حملة إلى إقليم سجستان ، وضمت هذه الحملة كبار القادة أمثال الحسن البصري والمهلب بن أبي صفرة وقطري بن الفجاءة . [ خليفة بن خياط "1967" 237/1 ]

وفي سنة (43هـ/663م) قاد عبد الرحمن بن سمرة حملة أخرى إلى سجستان، فافتتح بعض أعمالها مثل الرخج وزابلستان وبست . وفي سنة (50هـ/670م) أمر زياد بن أبي سفيان عبيد الله بن أبي بكرة بأن يتوجه إلى سجستان ويقوم بقتل الهرابذة وتدمير معابد النار ، ولكن هذا الأمر لم ينفذ ، استجابة من زياد لرأي المسلمين وكبار الزرادشتيين الذين قالوا إنهم يعبدون الله وما معابد النار إلا أماكن للعبادة .

وفي سنة ( 79هـ/698م) امتنع رتبيل ملك الترك عن دفع الجزية للمسلمين ، فقاد عبيد الله بن أبي بكرة حملة عسكرية لتأديبه وإبعاد خطره عن سجستان ، ولكن هذه الحملة التي ضمت مقاتلة من أهل الكوفة والبصرة ، لم تحرز انتصاراً على الرغم من توغلها في بلاد العدو ، وقد كان رتبيل يخلي المواقع ويتراجع أمام المسلمين الذين شارفوا مدينته العظمى كابل ، وهنا أخذ الترك على المسلمين الطرق والشعاب ، وأوقعوا بهم خسائر كبيرة ، حين ذلك طلب عبيدالله الصلح لإنقاذ البقية الباقية من المسلمين ، وتم الصلح على سبعمائة ألف درهم يوصلها عبيد الله إلى رتبيل .

ولما بلغ الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق والمشرق نبأ هزيمة المسلمين لم يستكن لذلك، وكتب الى الخليفة عبد الملك بن مروان يعرفه ذلك ويخبره أنه قد جهز من أهل الكوفة وأهل البصرة جيشاً كثيفاً ويستأذنه في إرساله إلى بلاد رتبيل ، فلما وافقه عبد الملك على رأيه ، جهز جيشا بلغ تعداده أربعين ألفا عشرين ألفاً من أهل الكوفة وعشرين الفا من أهل البصرة ، وأسند قيادة الجيش المعد خير إعداد ، إلى عبد الرحمن بن محمد ابن الاشعث الذي بلغ به سجستان في سنة (80هـ699م) ، وهناك جمع أهلها المسلمين وحثهم على الجهاد ، وخاطبهم قائلاً : ((إن الحجاج ولاني ثغركم وامرني بجهاد عدوكم (رتبيل) الذي استباح بلادكم ، فإياكم أن يتخلف منكم أحد فتمسه العقوبة)) . [ ابن الأثير "1965-1966" 4/ 455]

لما بلغ رتبيل خبر عزم المسلمين على محاربته ، أرسل إلى عبد الرحمن يعتذر ويبذل الجزية، ولكن طلبه رفض ، وباشر جيش عبد الرحمن بالزحف نحو بلاده ، وكان رتبيل قد أخلاها أرضا أرضا وحصنا حصناً ، وغنم المسلمون غنائم عظيمة ، ويبدو أن عبد الرحمن اكتفى بتقهقر رتبيل ، فقرر إيقاف جيشه من التوغل بعيداً في بلاد عدوه وإرجاء ذلك الى العام المقبل، وكتب بهذا الشأن إلى الحجاج الذي لم يوافقه على رأيه ، وكان ذلك مبعث الخلاف بينهما الذي تطور إلى حركة قادها ابن الاشعث

ضد الخليفة عبد الملك ابن مروان وواليه الحجاج وذلك في سنة (81هـ/701م) ولكن هذه الحركة باءت بالفشل ولقي قائدها حتفه في سنة 84هـ وقيل( 85 هـ/704 - 705م) .

ويبدو أن حالة التمرد ظلت شيئاً ملازماً لأهالي سجستان على الرغم من سيادة الإسلام بينهم، ففي سنة (92هـ/710م) توجه قتيبة بن مسلم الباهلي والي خراسان لمحاربة رتبيل ، وقد أرسل هذا الرسل يطلب الصلح ، فصالحه قتيبة واستعمل على سجستان عبد ربه بن عبدالله بن عمير الليثي.

وفي سنة ( 105هـ/723م) قاد أسد ابن عبد الله القسري حملة عسكرية إلى سجستان ، ولكن المسلمين انكسروا في هذه الحملة .

بعد هذا الاستعراض للحملات العربية الإسلامية على إقليم سجستان خلال العصر الأموي ، يتبين لنا جليا أن الهدف من ذلك توطيد الإسلام في ربوعه واعادة هذا الاقليم إلى حظيرة الدولة الإسلامية ، لاسيما ان أهله كانوا كثيرا ما يعلنون التمرد ضد الدولة ، مدفوعين الى ذلك بتحريض بعض المغامرين أو بعض الفرق المعارضة للأمويين ، ومنها الخوارج الذين لاذوا بالتحصن بذلك الاقليم إثر الهزائم التي حلت بهم في الأحواز في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان (65-86هـ/685-705م) .

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن سجستان في العصر الأموي ، أصبحت تمثل في تفكير العرب المسلمين نقطة انطلاقهم لإنجاز فتوحات أخرى على الرغم من صعوبات المنطقة .

## فتح بلاد ما وراء النهر

يراد ببلاد ما وراء النهر البلاد الشاسعة الواقعة ما وراء نهر جيحون ، فما كان في شرقيه يقال له بلاد الهياطلة وفي الإسلام اسموه بهذه التسمية ، واستعملوها على جميع الشعوب والبلاد التورانية في ماوراء جيحون .

تقسم جبال البتم تلك البلاد إلى قسمين : شمالي وجنوبي بينهما ممر يدعى البوابة الحديدية ، والشمالي يقسم وادي زرفشان (نهر الصغد) وعليه تقع مدينتا سمرقند وبخارى. وكان العرب المسلمون يطلقون على هذه المنطقة بلاد الصغد، أما القسم الجنوبي ، فيدعى طخارستان وهي تسمية لولاية واسعة كبيرة تشتمل على عدة بلاد ، وهي طخارستان العليا والسفلى ، فالعليا شرقي بلخ وغربي نهر جيحون، وبينها وبين بلخ ثمانية وعشرون فرسخا وأما السفلى فهي أيضا غربي جيحون إلا أنها أبعد من بلخ وأضرب في الشرق من العليا .

منذ الفتح العربي الإسلامي لإقليم خراسان وما تبعه من استقرار عربي دائم في ربوعه ، استشرف العرب نهر جيحون الذي يمثل حداً فاصلاً بين خراسان وما وراء النهر، على الرغم من كونه حداً واهياً من الناحية الطبيعية ، ولكن مع عبوره بدأت مرحلة جديدة من مراحل الفتح ، لم

يكن خصومها الفرس وحدهم ، وإنما كان يشاركهم هذه الخصومة الترك أيضا .

كانت بلاد ما وراء النهر قبل الفتح الإسلامي موضع نزاع دائم بين الشعبين الإيراني والتركي ، ويرجح بعض الباحثين ان سكان حوضي النهر وسكان الصغد ليسوا تركاً في الأصل، بل هم إيرانيون في طابعهم وثقافتهم وأنظمتهم . وكانت طخارستان السفلى - مثلاً - تختلف كثيرا عن بلاد الصغد من النواحي السياسية واللغوية والدم ، حيث التمازج الواسع بين اقوام مختلفة الأصول .

وقبل المضي في تطور الفتح العربي الإسلامي لبلاد ما وراء النهر ، يمكننا القول، إن البلاد كانت منقسمة الى عدد كبير من الامارات التي لا يربطها رباط وثيق ، وكان الى جانب الأمراء سادة محليون لا تتجاوز سلطة الواحد منهم حدود قراه . ومع ان بعض الولايات ارتبطت برباط ثان يتمثل بسيادة اسرة معينة فيها على جميع الأسر الأخرى ، إلا أن هذا لم يكن رباطاً وثيقاً ، ومثال ذلك إن إمارة صغديان كانت مقسمة إلى ولايات صغيرة تقوم بينها معاهدات مرنة ، ولكنها تعترف بـ (الخان) سيدا لها وتدفع له شيئاً من المال . وما عدا ذلك فان التفكك السياسي كان سائداً في بلاد ما وراء النهر ، بل ازداد تعقيداً بسبب الطبيعة البدوية للترك ، فاستمرت حروبهم ومنازعاتهم الملازمة لهم ونفورهم من الانقياد لحكومة مركزية ولا شك أن أحوالاً اجتماعية وسياسية كهذه كانت في صالح الفتح العربي الإسلامي .

إن فتح بلاد ما وراء النهر المترامية من نهر جيحون إلى مشارف الصين ، كان مرتبطاً بما كانت عليه أحوال المسلمين في خراسان وبما كان يحيط حياتهم السياسية والحربية فيها من استقرار ، فالخلافات القبلية التي كانت تشغلهم أحياناً ، وتأثرهم بما جرى في العراق من أحداث ، ومواقفهم من بعض الولاة ، كل ذلك كان يترك أثراً واضحاً شديد الوضوح في حركة الفتح فيما وراء النهر .

إن البداية الأولى لعبور المسلمين إلى ما وراء النهر تعود إلى سنة (54هـ/674م) ففي هذه السنة استعمل الخليفة معاوية عبيد الله بن زياد على خراسان، فقاد هذا جيشاً قوامه أربعة وعشرين ألفا من عرب خراسان إلى ما وراء النهر فافتتح زامير ونصف بيكند . ثم واصل تقدمه إلى بخارى ، واستطاع أن يعقد صلحاً مع (خاتون) التي كانت تحكمها ، كما استطاع أن يصد هجوماً تركيا مضاداً يعد من أقوى الزحوف التي قاومت العرب هناك ، وقد أشار الطبري الى هذه الحقيقة بالقول : ((كان زحف الترك ببخارى أيام عبيد الله بن زياد من زحوف خراسان التي تعد)) . [ "1968-1969" 98/5 ]

لم يستطع ابن زياد أن يقود حملة أخرى إلى ما وراء النهر ، لانه عاد لتسلم ولاية البصرة عام ( 55هـ/675م) ، وترك أمور خراسان إلى

أسلم بن زرعة الكلابي وهو أحد رؤساء القيسية البارزين ، لكن هذا لم يقد حملة و لم يغز و لم يفتح شيئاً ، ويقال أن عبيد الله بن زياد حين غادر خراسان ، حمل معه الأموال والغنائم وأداها إلى الخليفة معاوية ، الأمر الذي لم يقبله العرب في خراسان ، لأنهم يعدون أنفسهم في ثغر محاربة لعدوهم ، مما يقتضي الكثير من النفقات الحربية . وربما كان هذا سببا في قعود الجيش عن الحركة عام (55هـ/675م) وبعضا من العام الذي بعده.

في سنة ( 56هـ/676م) ولى الخليفة معاوية سعيد بن عثمان بن عفان على حرب خراسان ، وضم تحت إمرته عددا من القادة الكبار أمثال المهلب بن أبي صفرة الازدي ، وأوس بن ثعلبة من بني تيم اللات ، وطلحة بن عبدالله الخزاعي وربيعة بن عسل اليربوعي وكان اختيار الخليفة لهؤلاء القادة موفقا لتميزهم بقدراتهم الحربية العالية ، فضلاً عن مكانتهم الرفيعة في نفوس اغلب رجالات القبائل التي استقرت في خراسان بفعل عمليات الفتح .

بعد أن وصل سعيد إلى خراسان في السنة المذكورة شرع باعداد جيش قوي فأعده وقطع به النهر ، وتوغل الى ما وراءه بعيداً ، فناهضه الصغد فقاتلهم حتى أحل الهزيمة بهم ، ثم حاصرهم في سمرقند حتى اضطرهم إلى مصالحته وأعطوه رهناً منهم خمسين غلاماً يكونون في يده من أبناء عظمائهم . وفي طريق عودته عبر إلى الترمذ ، وهي حصن مهم على نهر جيحون يسيطر على الطرق التجارية المؤدية إلى الشمال والجنوب .

وبعد هذا الإنجاز الذي حققه العرب المسلمون في ما وراء النهر ، أرجأ الخليفة معاوية الاستمرار في مد الفتوح إلى أبعد مما تحقق هناك ، ولعل همه كان منصبا على تثبيت النظام في خراسان وضمان ولاء قبائلها لسياسته ، لذا فإنه لم يأمر ولاته بالقيام بفتوحات جديدة حتى نهاية حياته سنة ( 60هـ/680م ) .

أما في عهد يزيد بن معاوية (60-64هـ/680-683م) فقد عين هذا الخليفة في سنة 61هـ/681م سلم بن زياد واليا على خراسان بهدف القيام بفتوح جديدة في ما وراء النهر ، وقد توقف سلم في طريقه إلى ولايته في البصرة فانتخب منها ألف رجل من خيرة المحاربين ، فضلاً عن عدد من القادة الكبار أمثال المهلب بن أبي صفرة وعبدالله بن خازم السلمي ، وطلحة بن عبدالله بن خلف الخزاعي وغيرهم من فرسان البصرة وأشرافهم .

ولما وصل سلم إلى خراسان ، لمس رغبة العرب في الجهاد وطلبوا إليه أن يخرجهم ، فبادر ألى إعداد جيش متكامل قاده بنفسه إلى بلاد ما وراء النهر ، وكان قد أخرج معه امرأته أم محمد ابنة عبدالله بن عثمان بن ابي العاص الثقفي ، وهي أول امرأة عربية قطع بها النهر .

كان الجديد في خطط سلم بن زياد ، أنه قرر الإقامة في سمرقند بعد عودته من خوارزم التي

صالحه أهلها على مال كثير ، واثناء بقائه في سمرقند دهمه الشتاء ، لأنه لم يجر على خطط الولاة والقادة الذين سبقوه في الفتوح حيث كانوا يعودون بجيوشهم إلى مرو الشاهجان إذا دخل الشتاء.

وقد أثارت خطة سلم هذه تذمر القبائل العربية المقاتلة معه في بخارى وسمرقند ، ولكنه استطاع بتدبير قائده المهلب أن يدفع العرب إلى الاستمرار في القتال ، حيث غنموا غنائم كثيرة أنستهم متاعب البرد والشتاء.

بعد هذه الحملة التي قادها سلم بن زياد ، لم نقف على أي نشاط لحملات أخرى في ما وراء النهر ، ويفسر ذلك بالظروف التي أحاطت بخراسان (قاعدة الفتح) خلال الحقبة الممتدة ما بين (64-77هـ/683-696م )، حيث انقسمت القبائل العربية على نفسها ((وخاف أهل خراسان أن تعود الحروب وتفسد البلاد ويقهرهم عدوهم)). [ الطبري "1960-1969" 199/6 ] غير أن الوضع في خراسان قد استقر عندما تولاها أمية بن عبدالله بن خالد بن أسيد القرشي ما بين (74-78هـ/694-697م) فقرر هذا الوالي العودة إلى السياسة الاموية في خراسان، وهي إشغال القبائل العربية فيها بفتوح ما وراء النهر ، لذلك أعد في سنة (77هـ/696م ) جيشا قاده بنفسه إلى بخارى ، فصالحه أهلها على فدية قليلة ، ثم عاد بجنده إلى مرو بعد أن لقي وأصحابه جهداً كبيراً .

في سنة (78هـ/697م) أقصى الخليفة عبد الملك بن مروان عن خراسان وسجستان أمية ابن عبدالله بن أسيد ، وضمها إلى الحجاج بن يوسف الثقفي واليه على العراق ، فأصبح هذا مسيطراً على النصف الشرقي من الدولة الإسلامية تقريبا وخوله صلاحية كافية لحل مشاكل الشرق وقد وقع اختيار الحجاج على المهلب بن أبي صفرة بعد فراغه من حرب الخوارج بالأحواز وعينه واليا على خراسان ، نظراً لما عرفه فيه من قابلية عسكرية وإدارية ، تتناسب وحاجة ذلك الإقليم في تلك الظروف.

ويبدو أن الحجاج كان يهدف من تعيين المهلب على خراسان ، إلى موازنة قوة تميم بقوة قبيلة أخرى هي الأزد ، كما كان يأمل من المهلب أن يشغل القبائل العربية هناك بالفتح في ما وراء النهر وبذلك يقضي على الخصومات القبلية فيما بينها ، وقد نجح المهلب إلى حد ما ، في تنفيذ ما كان يأمله الحجاج فيه ، فاهتم بتشجيع استقرار الأزد في خراسان ، لكي يوجد نوعاً من التوازن القبلي ، إذ لم يسمح للعصبية القبلية أن تفصح عن نفسها في خراسان لاسيما أنه شغل القبائل بالفتوح في ما وراء النهر .

انصرف المهلب إلى الفتح والجهاد ، وغزا الكفار غزوا متواصلا اثناء ولايته ((فخيل له بسمرقند ، وأخرى ببخارا ، واخرى ببلخ ، واخرى بطخارستان ..)) . [ ابن أعثم "1971" 78/7 ] ففي سنة (80هـ/699م )، استخلف

ابنه المغيرة على عمله بخراسان ، وتوجه إلى ما وراء النهر ، وعند وصوله إلى مدينة كش اتاه ابن عم ملك الختل . ودعاه إلى قصد بلاد ابن عمه ، فوجه ابنه يزيد الذي تمكن من محاصرة ملك الختل في قلعته واضطره إلى مصالحته على فدية حملت إليه ورجع .

وفي السنة نفسها أيضا وجه المهلب ابنه حبيباً إلى بخارى ، فظفر هذا بجماعة من جيش العدو عند إحدى القرى ، فقتلهم وأحرق القرية التي سميت بالمحترقة ، ثم عاد الى والده.

وقد بقي المهلب بكش مدة سنتين ، واصل خلالهما شن غاراته على بلاد الصغد ، ولكنه لم يتمكن من التوغل فيها لخشيته على جنده ، فضلاً عن عدم اطمئنانه إلى المضرية في جيشه ، والذين على ما يبدو قد تآمروا عليه ، حيث قبض على جماعة منهم وحبسهم من غير اتخاذ إجراء حازم ضدهم وهو في بلاد العدو . ولعل هذه المؤامرة دفعت به إلى مصالحة أهل كش على فدية يؤدونها له.

وبعد أن صالح المهلب أهل كش على الفدية آثر العودة إلى مرو الروذ متجنباً زج نفسه في مخاطر جديدة في ما وراء النهر ، وبعد عودته بقليل توفي ابنه المغيرة نائبه في مرو الروذ ، فحزن عليه حزنا شديداً ولازمه المرض فاخذ يتهاوى أمام ضعفه الإنساني ، ثم مات بعد ذلك بأيام في سنة (82هـ/701م) ، وانتهت بموته حياته الحافلة بالحروب والفتوح.

كان المهلب قد استخلف قبل وفاته ابنه يزيد على خراسان فاقر الحجاج هذه التوليه، واستمر يزيد في ولايته أربع سنوات (82-86هـ/701-705م) انصرف خلالها إلى الفتوحات لاسيما في بلاد ما وراء النهر ، حيث قاد في سنة (84هـ/704م) جيشا إلى باذغيس، التي كانت دار مملكة الهياطلة ، فتمكن من فتحها بعد أن صالحه صاحب قلعتها، واضطره إلى ان يدفع إليه كل خزائن القلعة ، مقابل السماح له بالارتحال عنها مع عياله ، فوافق يزيد على ذلك ، وامر كاتبه يحيى بن يعمر العدواني ان يكتب عنه كتاباً إلى الحجاج ، يحيطه علما بهذا الفتح ويشيد بانتصاره على الأعداء ويصف لقاءه لهم ، فكتب الكاتب كتاباً جاء فيه : ((إنا لقينا العدو ، فمنحنا الله اكتافهم ، فقتلنا طائفة وأسرنا طائفة ولحقت طائفة برؤوس الجبال، وعراعر الاودية ، واهضام الغيطان ، وأثناء الأنهار)) . [ الطبري "1960-1969" 387/6 ]

وفي سنة (85هـ/704-705م) أمر الحجاج يزيد بن المهلب بغزو خوارزم ، ولكن هذا اعتذر عن غزوها متذرعاً بأنها ((قليلة السلب ، شديدة الطلب)) . [ الطبري "1960-1969" 396/6 ] فهيأ بذلك مجالاً للحجاج لمعاداته والتنكر له ولأهل بيته ، حيث كتب إليه يستدعيه إلى واسط ، وربما كان يهدف من ذلك إلى اعتقاله والتخلص منه ، ولكن يزيد لم يجبه إلى طلبه ، بلتوجس منه خيفة فاقدم حينذاك على غزو

خوارزم، وأصاب سبيا من أهلها الذين سارعوا إلى مصالحته.

وفي سنة (86هـ/705م) ألح الحجاج على الخليفة عبد الملك بن مروان أن يوافقه على عزل يزيد عن خراسان فلما وافقه عبد الملك على رأيه ، استدعى يزيد إلى واسط وأمره أن يستخلف اخاه المفضل بن المهلب مكانه ، وبعد تردد وتوجس قدم يزيد إلى واسط ، وحال وصوله إليها قبض الحجاج عليه والقى به في غياهب السجن، وأكبّ عليه يعذبه أشد التعذيب .

ظل المفضل بن المهلب في ولاية خراسان مدة تسعة اشهر ، ويعود إليه فضل حملتين أحداهما إلى باذغيس التي انتقضت ، والثانية إلى اخرون وشومان من بلاد ما وراء النهر ولكن لقصر مدة ولايته لم يتح المجال أمامه لتحقيق فتوحات اخرى ، إذ اقصاه الحجاج عن ولايته ، وعين مكانه قتيبة بن مسلم الباهلي في سنة ( 86هـ/705م) .

وعلى أية حال ، فقد ترك عزل يزيد بن المهلب وأخيه المفضل عن ولاية خراسان، آثاراً في مناطق ما وراء النهر التي دانت للمسلمين ، فوجد الصغد سكان اسيا الوسطى فرصة سانحة لنيل استقلالهم ، فوثبوا بالعرب وآذوهم ، وأنفذ اليهم الخليفة الوليد بن عبد الملك (86-96هـ/705-715م) في الحال جيشا كثيفاً ظل يحاربهم طيلة عشر سنوات ، حتى أتيح لقتيبة بن مسلم الباهلي أن يخضع بلادهم نهائياً حتى حدود كاشغر.

ولما كانت خراسان والأقاليم المشرقية المفتوحة تابعة للحجاج إداريا ، وبعد إقصائه لبني المهلب ، وقع اختياره على صاحبه قتيبة بن مسلم وولاه خراسان ودامت ولايته عليها عشر سنوات (86-96هـ/705-715م) حين وصل قتيبة إلى خراسان حثّ القبائل العربية على الجهاد ، وجاء ذلك في خطبة له يذكر فيها بالأخرة ويتحدث عن الجنة ونعيمها، وقد لقيت دعوته استجابة في نفوس عرب خراسان لأنها فتحت من نفوسهم ما أغلقت الخلافات .

استهل قتيبة برنامجه في الفتوح بقصد بلاد ما وراء النهر ، ففي السنة الأولى من ولايته لخراسان ، أعد جيشا من قبائلها وعبر به نهر جيحون وتوغل في ما وراء النهر ، وهناك تلقاه ملك الصغانيان وملك كفتان وملك شومان وأخرون – وهما من طخارستان – وسلموا له بلادهم ، وأظهروا له الطاعة والولاء ، ثم عاد إلى مرو .

ولما بلغ نيزك الهيطلي أمير باذغيس ما قام به أولئك الملوك من تسليم بلادهم ومصالحتهم قتيبة ، وفد بنفسه على قتيبة في سنة (87هـ/706م )فصالحه اهلها وانصرف.

وقد قاد قتيبة بن مسلم سلسلة من الحملات العسكرية على مدى عشر سنوات بين سنتي (87-96هـ/706-719م ) كان من نتائجها فتح بيكند ( أدنى مدن بخارى إلى

النهر ) وفتح بخارى وشومان وكش ونسف وسمرقند وكابل وفرغانة فضلاً عن مصالحته ملك خوارزم . [ الطبري "1960-1969" 500/6 ] وفي سنة (96هـ / 715م) عبر قتيبة نهر جيحون وبعد أن عبر النهر استعمل عليه حرسا ليمنعوا الناس من العودة إلى مرو إلا بجواز . وفي فرغانة أتاه خبر وفاة الخليفة الوليد وتولية سليمان الخلافة وحينئذ عاد إلى مرو ، من غير أن ينفذ عزمه على غزو الصين التي شارفتها خيول المسلمين ، ووقفت عند كاشغر .

مع أن الخليفة سليمان بن عبد الملك ، أقر قتيبة على ولاية خراسان ، فإنه لم يطمئن إلى ذلك ، بل جعل من هذا إجراء موقتاً ، وإن تغييره آتٍ على نحو ما جرى لنظرائه عمال الحجاج ، ولذلك أبدى إصراره للبقاء في ولايته حتى تطور خلافه إلى إعلانه خلع الخليفة سليمان ، بيد أن القبائل في خراسان لم تسانده ، وخطب خطبة لام فيها كل القبائل وأهانها ونال من شرفها .

كان من نتيجة سياسة قتيبة إزاء القبائل العربية ، أن نفرها منه ، فأجمعت على خلافه وعزله ، وانتهى الأمر أخيراً بقتله في سنة (96هـ/715م) ، واختفى بذلك قائد من قادة العرب الاكفاء ، دوخ الترك بغزواته المتواصلة وثبت السيادة العربية الإسلامية في ما وراء النهر ، وواصل فتوحاته حتى أطل على مشارف الصين.

وقد تولى ولاية خراسان بعد قتيبة وكيع ابن أبي سود التميمي ، غير أن الخليفة سليمان بن عبد الملك أقصاه عنها بعد تسعة أشهر ، وأسندها إلى يزيد بن المهلب الذي قدم إليها في سنة (97هـ/716م) . وليس في مصادرنا ما يشير إلى تسيير هذين الواليين اية حملة كبيرة إلى بلاد ما وراء النهر .

## فتح خوارزم

اتفق بعض الجغرافيين المسلمين في تحديدهم لإقليم خوارزم ، فذكروا أن حدوده من الغرب بلاد الترك ، ومن الجنوب خراسان ، ومن الشرق ما وراء النهر، ومن الشمال بلاد الترك أيضا . وعده الأصطخري من إقليم ما وراء النهر، في حين عده ياقوت الحموي أنه منقطع عن خراسان وعن ما وراء النهر.

وتعود بداية اهتمام العرب المسلمين بفتح إقليم خوارزم إلى سنة ( 85هـ/704-705م) – كما المحنا سابقا – وذلك عندما أمر الحجاج ابن يوسف يزيد بن المهلب بقصد خوارزم وفتحها ، ولكن يزيد لم ينفذ الأمر متذرعاً بأنها ((قليلة السلب ، شديدة الكلب)) . [ الطبري "1960-1969" 396/6 ] ولما رأى الحجاج مخالفة يزيد

لأمره ، كتب إليه يستدعيه من خراسان إلى واسط ، ولعله كان يهدف من ذلك إلى اعتقاله والتخلص منه ، ويبدو أن يزيد توجس خيفة من الحجاج فلم يجبه إلى طلبه ، بل قاد حملة إلى خوارزم ، وأصاب سبيا من أهلها الذين سارعوا إلى مصالحته ، وقفل عائداً في الشتاء حيث أصاب جنده برد شديد.

وظلت خوارزم بعيدة عن تفكير المسلمين بفتحها إلى حين ، ولعل ذلك يعود إلى انشغالهم في فتوح ما وراء النهر .

وفي سنة ( 93هـ/711م) واتت الفرصة قتيبة بن مسلم الباهلي لفتح خوارزم عندما كتب إليه ملكها جنغان سرا يدعوه إليه ليسلمه بلاده ، وكان سبب ذلك أن ملك خوارزم كان ضعيفاً فغلبه أخوه خرزاد على أمره ((فاذا قيل للملك قال لا أقوى به وهو مغتاظ عليه)) . [ ابن الأثير "1965-1966" 570/4 ] وقد اشترط الملك على قتيبة أن يدفع إليه أخاه وكل من يضاده ليرى فيهم أمره فوافق على طلبه . وقيل إن الملك بعث إلى قتيبة بمفاتيح مدائن خوارزم .

وفي مرو أعد قتيبة حملة بقصد خوارزم ، ووضع خطته بإظهاره أنه يريد الصغد، وجاء تنفيذ خطته مفاجأة للخوارزميين الذين لم يشعروا حتى نزل قتيبة في هزار سب دون النهر ، وحينئذ لم يلتفت الملك إلى رأي اهل خوارزم الذين أبدوا استعدادهم للمقاومة، وأقنعهم بضرورة مصالحة قتيبة ، وتم الصلح على ما كان قد اتفق عليه سابقاً.

وهكذا أوفى قتيبة لملك خوارزم ، وأكثر من هذا فإنه تعقب أخا الملك خرزاد وأسره مع كثيرين من أعوانه ودفعهم إلى الملك فقتلهم واصطفى أموالهم ودفعها الى قتيبة .

لقد عاد فتح خوارزم على النحو الذي تقدم بشيء كثير من الغنائم والأموال ، فاخرج قتيبة منها الخمس وبعث به إلى الحجاج بن يوسف في العراق ، وقسم باقي ذلك في المسلمين.

### فتح السند

تقع بلاد السند بين بلاد الهند وكرمان وسجستان ، وبعض البلدانيين يجعل مكران منها . يخصنا البلاذري من بين سائر المؤلفين القدامى بانباء الحملات العربية الأولى على بلاد السند في عهود الخلفاء الراشدين عمر وعثمان وعلي ﷺ، ويروي لنا كيف كان تقدم المسلمين نحو تلك الجهة انذاك، ونحن لا نريد هنا تفصيل القول في هذه الحملات التي مهدت لفتح السند ، قبل أن يستقيم الطريق إليها من جنوبي بلاد فارس وسواحل مكران .

أما في العصر الأموي ، وتحديداً في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان (41-

60هـ/661-679م) فقد غزا المهلب بن أبي صفرة أرض الهند في سنة (44هـ/664م) فسار إلى قنداببل وهي قصبة الندهة من أرض السند . وفي سنة ( 53هـ/673م) غزا عباد بن زياد قندهار وهي من بلاد السند فقاتل أهلها وهزمهم. ولكن هاتين الحملتين لم تسفرا في نتيجتهما عن فتح بلاد السند ، ولعل العرب المسلمين أرجأوا فتحها إلى أعوام مقبلة ، لانشغالهم في فتوح اقاليم المشرق الاخرى .

وفي عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (86هـ- 96هـ/705-715م) تمكن العرب المسلمون من فتح السند، وذلك حينما قرر الحجاج بن يوسف والي العراق بعد أخذه موافقة من الخليفة الوليد إرسال حملة كبيرة إليها بعد فشل حملتين سابقتين سيرهما إلى السند .

اختار الحجاج لقيادة الحملة ابن عمه محمد بن القاسم الثقفي عامله على فارس وكان هذا يستعد لمغادرة فارس إلى الري ، وقد جعل على مقدمته جهم بن زحر الجعفي ، عندما استدعاه الحجاج وأمره على حملة السند ، وبدلاً من توجه جهم إلى الري، صدر الأمر إليه بالتوجه نحو حدود السند، وكان ذلك في سنة (92هـ/710م ) .

وقام الحجاج باستعدادات كبيرة لتجهيز الجيش المتوجه إلى السند، وأمده بالعدد العسكرية، ومنها ثلاثة مجانيق ضخمة، أحدها المسمى العروس يحتاج لتشغيلــه الى خمسمائة رجل ، كما اهتم بتموين الجيش وتجهيزه بكل ما احتاج إليه .

سار محمد بن القاسم على رأس جيشه إلى مكران فاقام بها اياماً ، ثم واصل تقدمه ففتح بعض المدن الواقعة بين مكران والسند ، منها قنز بور وارمائيل وذلك في سنة (92هـ/710م ).

وفي سنة (93هـ/711م) زحف محمد ابن القاسم بجنده نحو الديبل وهي مدينة على ساحل بحر الهند، فوصل إليها بداية السنة المذكورة، وتزامن معها وصول السفن العربية محملة بالأسلحة والمؤن والرجال ، مما زاد في قوة الجيش الإسلامي . وفي الديبل جرى قتال شديد بين المسلمين وأهل السند الذين قادهم ملكهم داهر وكانوا في جمع كثير ومعهم سبعة وعشرون فيلاً ، وفي الميدان حلت الهزيمة بداهر الذي هرب مع البقية الباقية من أصحابه ، واستمر المسلمون في ملاحقتهم حتى تمكنوا من قتل داهر وعامة أصحابه ولاذ الآخرون بالفرار ، واتبعهم محمد ابن القاسم حتى أتى مدناً اخرى فافتتحها . [خليفة بن خياط "1967" 1/405-406 ]

ويبدو أن المسلمين واصلوا فتح مدن أخرى في السند ، خلال عام (94هـ/712م) ، وقدروا أنه لم يبق امامهم سوى الملتان التي كانت

آخر المدن الكبرى في السند ، وقد تمكنوا بقيادة محمد بن القاسم من فتحها في سنة (95هـ/714م ) . وأصابوا غنائم عظيمة .

وبينما كان محمد بن القاسم في الملتان بعد فتحها، أتاه خبر وفاة الحجاج سنة (95هـ/714م) فرجع الى الرور والبغرور ، وكان قد فتحهما ، ثم أتى مدينة كيرج فخرج اليه حاكمها دوهر فقاتله ، ولكن هذا هزم، وقيل بل قتل ، ونزل أهل المدينة على حكم محمد. [البلاذري "1959" 427 ]

وظل محمد بن القاسم مقيماً في السند ، ساعياً في نشر الأسلام وتوطيده بين أهلها، وظلت حاله هكذا حتى سنة ( 96هـ/715م) ، ففي هذه السنة مات الخليفة الوليد، وتولى الخلافة أخوه سليمان بن عبد الملك فأقدم هذا الخليفة على عزل محمد بن القاسم عن السند وولاها يزيد بن أبي كبشة السكسكي الذي بادر حال وصوله إلى السند بالقبض على محمد وقيده وحمله إلى العراق، حيث زجه صالح بن عبد الرحمن في الحبس بواسط، وأكب عليه يعذبه مع رجال آخرين من آل أبي عقيل (أسرة الحجاج) حتى قتلهم ، وأنما فعل صالح ذلك إنتقاماً لأخيه ادم الذي قتله الحجاج لأنه كان يرى رأي الخوارج . وعلى هذا النحو المأساوي انتهت حياة محمد بن القاسم الثقفي الذي تبوأ مكانة بين قادة العرب الكبار .

بعد ذلك إنتفض ملوك السند وعادوا إلى عروشهم ، ولما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى اولئك الملوك يدعوهم إلى الإسلام والطاعة ، على أن يظل كل منهم في مكانه ، وله ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، فاجابوه لما بلغهم من عدله وحسن سيرته، ودخلت بلاد السند كلها في طاعة المسلمين، وأسلم أهلها وملوكها وتسموا بأسماء العرب المسلمين .

### فتح جرجان وطبرستان

أسند الخليفة سليمان بن عبد الملك (96-99هـ/715-718م) ولاية خراسان إلى يزيد بن المهلب الذي قدم إليها في سنة (97هـ/716م) ليتولاها ثانية ، وبوصول يزيد إلى خراسان انتهت ولاية وكيع بن أبي سود التميمي عليها ، والتي دامت تسعة أشهر وكان قد تولاها بعد مقتل قتيبة بن مسلم الباهلي في سنة ( 96هـ/715م) .

إستهل يزيد بن المهلب ولايته الثانية لخراسان بتجهيز جيش بلغ تعداده – على ما قيل – مئة الف مقاتل من أهل الشام وخراسان فضلاً عن المماليك والمتطوعين ، وتأهب لقصد جرجان

وطبرستان الواقعتين شمال خراسان ، والغنيتين بمواردهما . [ المقدسي "1906" 357،359 ]

وفي سنة 97هـ/716م ، استخلف يزيد ابنه مخلداً على خراسان ، وخرج منها على رأس جيشه ، فابتدأ بغزو دهستان ، وهي من أعمال جرجان مما يلي خوارزم ، فحاصرها واضطر صاحبها (صول التركي) إلى تسليم المدينة ، فدخلها وغنم اموالاً طائلة.

بعد ذلك قصد يزيد بن المهلب جرجان، فلما دنا منها صالحه أهلها على أموال يؤدونها له فوافق على ذلك ، واستخلف عليهم رجلاً أزديا يدعى أسد بن عبدالله ، ثم واصل زحفه إلى طبرستان ، فاستجار صاحبها بالديلم سكان الجبال الأشداء لصد المسلمين، ولكن يزيد استطاع أن يهزمهم ، فاذعن صاحب طبرستان إلى مصالحته على سبعمائة ألف درهم وأربعمائة ألف نقداً وأربعمائة رجل وأشياء كثيرة اخرى .

وفي أثناء انشغال يزيد بأمر طبرستان نقض أهل جرجان صلحهم معه ، وانتفضوا على المسلمين الذين كانوا بينهم مع أسد بن عبدالله الازدي، فتوجه لمحاربتهم في سنة (98هـ/717م) على رأس جيش قوامه ثلاثون ألفا ، وأعطى الله عهداً لئن ظفر بهم ألا يقلع عنهم ولا يرفع عنهم السيف حتى يثأر منهم جزاء ما اقترفوه بحق المسلمين .

ولما علم صاحب جرجان بما اعتزم عليه يزيد بن المهلب ، التجأ هو وأصحابه إلى قلعة جبلية حصينة تدعى (وجاه) فحاصرهم يزيد في تلك القلعة مدة سبعة اشهر ، ثم وضع لهم خطة التفاف تقوم على المباغتة ، فانزل المسلمون بالأعداء خسائر فادحة . [الطبري 534،541،543/6 ]

حقاً ، لقد كان فتح جرجان وطبرستان يعد مثار فخر ليزيد بن المهلب ، لأنه استطاع أن يفتح ما عجز عنه أسلافه الفاتحون المسلمون الذين وطأت سنابك خيولهم مشارف تلك المناطق ووقفت عندها منذ عهد الخليفة عثمان بن عفانﷺ .

وقد عبر يزيد عن فخره واعتزازه بذلك النصر العظيم في كتابه الذي أرسله إلى الخليفة سليمان بن عبد الملك بهذا الشأن ، ومما قاله فيه :

"اما بعد ، فإن الله فتح لأمير المؤمنين فتحاً عظيماً ، وصنع للمسلمين أحسن الصنع، فلربنا الحمد على نعمه وإحسانه ، أظهر في خلافة أمير المؤمنين على جرجان وطبرستان ، وقد أعيا ذلك سابور ذا الأكتاف وكسرى بن قباذ وكسرى بن هرمز ، وأعيا الفاروق عمر بن الخطاب وعثمان بن

عفان ومن بعدهما من خلفاء الله ، حتـــى أفاء الله ذلك لأمير المؤمنين كرامة من الله وزيادة في نعمه عليه.." [ الطبري"1960-1969"544/6]

لقد حظيت جرجان بعناية فاتحها يزيد بن المهلب، فعمر المدينة المعروفة باسمهـــا وأحاطهـــا بسور، واختط بها أربعين مسجداً داخل قصـــبتها وبعضها في الربض ، ومن بينها مسجد لنفســـه . [السهمي "1950" 8 ]

## الخلاصة

بعد أن تتبعنـــا حركـــة الفـــتح العـــربي الإسلامي لأقاليم المشـــرق العديـــدة في العصـــر الأموي، وبينا مداها الزماني وحيزها المكـــاني ، لا يسعنا إلا أن نكبر – أيما إكبار – اولئـــك القـــادة العرب ورجال حامياتهم الذين لاقوا أهوالاً شديدة في إنجاز فتح تلك الأقاليم التي خضع أغلبها لكثير من حركات الإرتداد والإنتـــفاض والكفر ، ومن خلال قراءتنا لأخبار الفتوح في الجهة الشـــرقية ، يمكننا القول بأنه ما من إقليم منها لم ينتفض علـــى الفاتحين مرة أو مرات ، وهذا الذي يفســـر لنـــا تعاقب الحملات على مناطق كثيرة ، مما جعل عمل الولاة أو بعض الخلفاء الأمويين أن يســـتردوا مـــا كان عند فتحها من قبل .

ومما لاحظناه على سير فتـــوح المشـــرق أيضا، هو أن العرب المسلمين قدروا البعد ما بينهم وبين أمصارهم التي انطلقوا منها ، والشيء الثابت أنهم كانوا قلة ، وهذا ما نبه الخلفاء الأمويين على أن يجعلوا خراسان ولاية مستقلة وأن يجعلـــوا لهـــا واليا يعينه وإلى العراق أو يعينه الخليفة ، علـــى أن يكون تابعاً لوالي العراق على وفق ما كانت تقضي به ظروف الخلافة وضرورات السياسة . والواقع أن الخلفاء الأمويين أجادوا اختيار ولاة خراسان الذين لم يقصروا واجبهم على الناحية الإدارية فحسب ، بل كانوا قادة أكفاء شهدت لهم سوح الجهـــاد في ربوع المشرق . وتبين لنا من أخبار الفتـــوح ، أن قوة العرب المسلمين كانت تزداد اثناء العمليـــات العسكرية ، نتيجة إقبال الكثيرين من أهل المشرق على اعتناق الدين الاسلامي ، لما لمسوه فيه من قوة عقيدته السامية ، الأمر الذي ساعد على توطيـــد الفتوح ودفعها بزخم كبير ، فقد سجلت المصادر التاريخية مشاركة أهل البلاد المفتوحة في جيـــوش الإسلام .

والحق أن العرب المســـلمين لم ينـــهجوا سياسة عنصرية تجاه الشـــعوب الـــتي دخلـــت في سلطانهم ، فقد كان المجتمع الإسلامي مفتوحـــاً ، فاندمجت فيه مختلف الشـــعوب الخاضـــعة لدولـــة الإسلام التي ضـــمنت لغـــير العـــرب الحقـــوق والواجبات التي لإخوانهم في الدين الإسلامي مـــن العرب.

ونود القول أخيرا : إنه بعـــد أن هـــدأت حركة الفتوح في المشرق ، حدث هناك تفاعـــل اجتماعي كبير بين العرب المسلمين وأهالي الـــبلاد الذين اعتنقوا الإسلام ، وذلك من خلال التساكن

والمصاهرات والمصالح المشتركة ، مما ساعد على سيادة الإسلام ، بل تقهقر اللغات المحلية - كالفارسية والتركية - أمام اللغة العربية التي هي لغة القرآن الكريم ولغة العرب الفاتحين .

**أ.د. نافع توفيق عبود**

**المصادر والمراجع :**

ابن الاثير ، عز الدين علي بن محمد بن محمد الشيباني (ت630هـ/1232م) (1966) الكامل في التاريخ , بيروت دار صادر دار بيروت .

ابن أعثم ، أحمد بن أعثم الكوفي (ت314هـ/926م )

(1971) الفتوح ، حيدر اباد الدكن ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية .

ابن جعفر ، قدامة (ت337هـ/948م) (1981) الخراج وصناعة الكتابة ، تحقيق الدكتور محمد حسين الزبيدي ، بغداد ، دار الحرية للطباعة .

ابن خياط العصفري ، خليفة بن خياط (ت240هـ/854م) (1967) تاريخ خليفة ، تحقيق سهيل زكار ، دمشق، مطابع وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي .

ابن سعد ، محمد (ت230هـ/845م) (1985) الطبقات الكبرى ، بيروت دار صادر ، دار بيروت .

ابن العماد الحنبلي ، عبد الحي (ت1089هـ/1678م)(د.ت) شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، بيروت ,دار المسيرة.

ابن قتيبة الدينوري ، أبو محمد عبدالله بن مسلم (ت276هـ/889م) (1960) المعارف ، تحقيق ثروت عكاشة ، مصر ، دار الكتب.

أبو الفدا ، عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر (ت732هـ/1331م) (1840) تقويم البلدان ، اعتنى بنشره رينود ومالك كوكين وسلان، باريس .

الإاصطخري ، إبراهيم بن محمد (ت 341هـ/952م)(د.ت) الأقاليم (اوفست ، بغداد ، مكتبة المثنى) .(1961) المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال الحسيني ، مصر ، مطابع دار القلم .

البلاذري ، أحمد بن يحيى بن جابر (ت279هـ/892م) (1959) فتوح البلدان ، عني بمراجعته والتعليق عليه رضوان محمد رضوان ، مصر ، مطبعة السعادة .

الجهشياري ، محمد بن عبدوس (ت331هـ/942م) (1938) الوزراء والكتاب ، تحقيق مصطفى السقا واخرين ، القاهرة ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده .

الذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد (ت748هـ/1347م) (1351-1369هـ) تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، القاهرة ، نشر مكتبة القدسي . (1974) دول الإسلام ، تحقيق محمد شلتوت ومحمد مصطفى ابراهيم ،الهيئة المصرية للطباعة.

السهمي ، حمزة بن يوسف بن ابراهيم (ت427هـ/1035م) (1950) تاريخ جرجان أو معرفة علماء أهل جرجان ، حيدراباد الدكن ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية .

الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت310هـ/922م) (1960-1969) تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم ، القاهرة .

المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت346هـ/957م) (1973) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

القزويني ، زكريا بن محمد (ت682 هـ/1283م) (1960) اثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ، دار صادر، دار بيروت .

المقدسي البشاري ، أبو عبدالله محمد بن احمد (ت387هـ/997م) (1906) أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، باعتناء دي غويه ، ليدن ، مطبعة بريل .

ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبدالله (ت626هـ/1228م) (1957) معجم البلدان ، بيروت ، دار صادر ، دار بيروت.

اليعقوبي ، أحمد بن جعفر بن وهب (ت284 او 292 هـ/897 او905م) (1964) تاريخ اليعقوبي ، النجف، منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها .

**المراجع الحديثة (العربية والمترجمة) :**

بارتولد ، فازيلي فلاديميروفتش

(1908) تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، ترجمة أحمد سعيد السليمان ، القاهرة ، المطبعة الانجلومصرية.

حسن ، الدكتور ناجي

(1980) القبائل العربية في المشرق خلال العصر الاموي ،منشورات اتحاد المؤرخين العرب، بيروت، مطبعة الميمنة الحديثة .

دحلان ، أحمد زيني

(1935) الفتوحات الإسلامية بعد الفتوحات النبوية ، مصر ، مطبعة مصطفى محمد .

الشرباصي ، الدكتور أحمد

(1981) المعجم الاقتصادي الإسلامي ، بيروت ، دار الجيل.

شعبان ، الدكتور محمد عبد الحي

(1971) الثورة العباسية ، ترجمة عبد المجيد حسيب القيسي ، أبو ظبي .

العبود ، الدكتور نافع توفيق

( 1979) آل المهلب بن أبي صفرة ودورهم في التاريخ حتى منتصف القرن الرابع الهجري ، بغداد ، مطبعة الجامعة .

( 1978) الدولة الخوارزمية ، نشأتها ، علاقاتها مع الدول الإسلامي،

بغداد، نظمها العسكري والإدارية مطبعة الجامعة .

علي ، سيد امير

(1938) مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي ، نقله إلى العربية رياض رأفت ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

العلي ، الدكتور صالح أحمد

(1953) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري ، بغداد ، مطبعة المعارف .

فيصل ، الدكتور شكري

(1952) حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار العلم للملايين .

لسترنج ، كي

(1954) بلدان الخلافة الشرقية ، نقلة ألى العربية بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، بغداد ، مطبعة الرابطة .

مؤنس ، الدكتور حسين

(1987) أطلس تاريخ الإسلام ، القاهرة .

ولهاوزن ، يوليوس

(1956) الدولة العربية وسقوطها ، نقله إلى العربية يوسف العش ، دمشق ، مطبعة الجامعة السورية ،.

**المقالات والمجلات :**

السامر ، الدكتور فيصل

(1971) السفارات العربية إلى الصين في العصور الوسطى الإسلامية، مقالة مستلة من مجلة الجامعة المستنصرية ، العدد 2 ، السنة 1971 ،مطبعة نعمان الأعظمي ، بغداد .

العلي ، الدكتور صالح أحمد

(1973) إدارة خراسان في العصور الإسلامية الأولى ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، العدد 15 .

**الرسائل الجامعية :**

عبدالله ، نذير صبار (1988 ) إسكان القبائل العربية في العصرالأموي 41-132هـ- رسالة ماجستيرمطبوعة بالالة الكاتبة ، كلية الآداب ، جامعة بغداد.

كنعان ، عاصم إسماعيل (1995) الخلافة الأموية 41-60هـ/661-679م ، رسالة دكتوراه مطبوعة بالآلة الكاتبة ، كلية الآداب ، جامعة بغداد.

**المراجع الأجنبية :**

: Bosworth , Clifford Edmund
(1968)Sistan Under the Arabs from the Islamic Conquest to the rise of saffarids , 30 - 250 A.H. / 660 - 864 Rome.

: Gabrili , fransisco
(1968)Muhammad and the Conquest of Islam , tr . from Italian by virginia Rosand London .

.Gibb , H.A.R
(1923)The Arab Conquest in Central Asia London.

## 2. في المغرب

### مصطلح المغرب:

المغرب مصطلح جغرافي أطلقه العرب المسلمون على المنطقة الممتدة من الإسكندرية شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً وكانت قديماً تعرف باسم الليبو أو ليبيا عند الإغريق وعند الرومان باسم أفريقيا الذي أطلق فيما بعد على كل القارة الأفريقية.

قسم المؤرخون والجغرافيون المسلمون هذا الإقليم إلى ثلاث مناطق هي المغرب الأدنى والأوسط والأقصى, يشمل المغرب الأدنى الأراضي الممتدة من الإسكندرية حتى طرابلس الغرب, والأوسط من طرابلس حتى بجايه, والأقصى من تاهرت حتى المحيط الأطلسي.

لقد ورد لفظ المغرب والمشرق مصطلحاً في القرآن الكريم في عدد من السور هي:

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾، ﴿مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾، ﴿رَبُّ الْمَشَارِقِ﴾. [ سورة الرحمن، اية :17 ؛ سورة المزمل، اية :9 ؛ سورة الشعراء ، اية:28 ؛سورة الأعراف ، اية :137 ؛ سورة الصافات ، آية : 5 ]

وربما تأثر الجغرافيون المسلمون بهذه المصطلحات المذكورة في القرآن الكريم واستعملوها في تحديد الاتجاهات الإقليمية.

واختلف المؤرخون والجغرافيون المسلمون حول تحديد مصطلح المغرب فقد جعله بعضهم

يشمل كل الأراضي الممتدة من مصر إلى الأندلس وجميع الأراضي التابعة للمسلمين في جزر صقلية وسردينيا وكورسكا وميورقه ومنورقه.

ويرى آخرون أنه شمل في بعض الأوقات المناطق من الشام مروراً بمصر حتى الأندلس خاصة في عهد الدولة العباسية.

على أنّ أغلبية المؤرخين والجغرافيين المسلمين يرون أنّ المغرب يمتد من الإسكندرية شرقاً حتى المحيط الأطلسي. [مؤنس "1980" 9 ]

كانت بلاد المغرب تعاني سياسياً ودينياً واجتماعياً واقتصادياً من جراء الصراعات التي كانت تجري في عاصمة الدولة البيزنطية القسطنطينية, ففي سنة (602 م ) قتل الإمبراطور موريس (582-602م) أثر انقلاب قاده القائد فوكاس الذي أصبح إمبراطورا في سنة (602- 610م)، إلاّ أنّ هرقل الذي كان قائداً للقوات البيزنطية في المغرب لم يرض عن هذا الانقلاب فأعلن رفضه لتأييد فوكاس وانضم إليه الساخطون على فوكاس واتخذوا من المغرب مقراً لمقاومة الإمبراطور .

كان الإجراء الأول الذي قام به هرقل منع إمدادات القمح والأغذية التي كانت

تشحن من المغرب إلى الدولة البيزنطية، ثم عين ابنه هرقل الأصغر مرشحاً لمنصب الإمبراطور البيزنطي، وفي الوقت نفسه اختار ابن أخته ميسيتاس قائداً لجيش المغرب واستولى على الإسكندرية سنة (608م)، وفي الوقت نفسه كان هرقل الابن يقود أسطولا مغربياً للاستيلاء على القسطنطينية وتمكن من إسقاط حكم فوكاس سنة (610م).

وتوِّج هرقل الابن إمبراطوراً على الدولة البيزنطية سنة (610– 641) أصبحت المغرب في عهد هرقل مركزاً مهماً للدولة البيزنطية وشهدت في عهده تقدماً ملحوظاً في الزراعة والعمران, إلا أنها سرعان ما أخذت تعاني من الصراعات الدينية خاصة عندما اعتنق الامبرطور هرقل مذهباً جديداً يدعو إلى أن السيد المسيح ذو طبيعة واحدة إلهية وبشرية وقد قاد هذه الفكرة البطريك سرجيوس بطريرك القسطنطينية , وقد عرف هذا المذهب باسم الإرادة الواحدة أو المونوثيلية.

اعتقد الإمبراطور أن كل المسيحيين سوف يقبلون هذا المذهب، ولذلك أصدر بياناً بهذا الشأن سنة (638م) , أثار عاصفة شديدة من المعارضة في العالم المسيحي وأدى إلى قيام صراعات دينية متعددة، يهمنا منها ما جرى في المغرب.

قاد المعارضة ضد مذهب المونوثيلية الاسقف مكسيموس الذي كان يتمتع بتأييد واسع في المغرب. وفي الوقت نفسه جاءت إلى المغرب من مصر وفود من قساوسة يدعون لمذهب مسيحي جديد وهو مذهب المونوفيست، وقد أيد هذا المذهب قسطنطين الثالث ابن هرقل وسمح لهم بممارسة نشاطهم بحرية في المغرب, وقد اغضب هذا قساوسة المذهب الكاثولوليكي الذين أعلنوا انفصالهم عن الإمبراطورية . وعندما تولى كنستانز الثاني العرش سنة (21هـ / 641 ) بعد وفاة قسطنطين الثالث أيد المذهب المونوثولي ذا الإرادة الواحدة مما جعل الاسقف مكسيموس يدعو القبائل في المغرب إلى محاربة الإمبراطور وتنصيب جريجوريوس (جرجير في المصادر العربية) على العرش.

وقد التف الناس حول البطريك جريجوريوس الذي كانت له شعبية كبيرة في المغرب.

وفي سنة (26هـ / 646 م ) أعلن ريجوريوس استقلاله عن الامبراطورية البيزنطية وتلقب بالإمبراطور وأيد المذهب الكاثوليكي وضرب العملة باسمه وانتقل من قرطاجنة إلى مدينة سبيطلة التي كانت تقع في داخل إفريقية بعيداً عن البحر خوفاً من هجوم قد يشنه ضده الأسطول البيزنطي.

ومما لاشك فيه أن هذه الصراعات السياسية والدينية والعسكرية قد مهدت السبيل للفتح العربي الإسلامي للمغرب لاسيما عندما

علم الناس مدى تسامح الفاتحين العرب المسلمين اتجاه الديانات السماوية الأخرى.

وكانت الفتوحات العربية الإسلامية قد توقفت في المغرب العربي عقب الفتنة التي أدت إلى مقتل الخليفة عثمان بن عفان ﷺ والصراع الذي نشب بين الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ ومعاوية بن أبي سفيان. وعندما آلت الخلافة إلى معاوية (41هـ/661م) قرر مواصلة الفتوحات فاختار سنة (45هـ/665م) قائده معاوية بن حديج على رأس جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل كان فيهم عبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان وعبد الله بن عمر وغيرهم من كبار أبناء الصحابة وأشراف قريش. [ ابن عبد الحكم "1964" 64فما بعدها]

واستطاع ابن حُديج أن يفتح مدن سوسة وقابس وبترت وأنزل هزائم متتالية بالروم مما اضطرهم إلى الفرار إلى سفنهم في البحر. وغزا كذلك صقلية سنة (64هـ/667م) وبقي هناك بعض الوقت وعاد بغنائم وفيرة.

ولم يتمكن ابن حُديج من الاستمرار في علميات الفتح في إفريقية نظراً لأنّ الخليفة معاوية بن أبي سفيان عزله سنة (50هـ/670 م) وعيّن مكانه عقبة بن نافع الفهري. الذي كان قد اعتزل السياسة أثناء الفتنة الكبرى التي أدت إلى مقتل الخليفة عثمان ابن عفان ﷺ ، لكنه عاد إلى نشاط الفتح والغزو مرة أخرى عندما أصبح عمرو بن العاص والياً على مصر للمرة الثانية. فاختار عقبة لقيادة الجهاد في الصحراء الليبية سنة (50هـ/670م) متخذاً من برقة (المرج) مقراً له ثم انتقل إلى سرت ومنها بعث بحملات ضد بعض الواحات والجماعات التي نقضت عهدها مع المسلمين أو ارتدت عن الإسلام مثل ودَّان وكوار وغدامس ثم عاد إلى سرت ومنها قاد حملة إلى قفصه ثم وصل إلى معسكر كان قد أسسه معاوية بن حُديج لكنه لم يعجبه موقعه ليكون مدينة وقاعدة للمسلمين واختار بدلاً منه موقع مدينة القيروان. [ ابو عبيد "1857" 13 ]

ويرجع تأسيس عقبة بن نافع لمدينة القيروان سنة (50هـ/670م) لأسباب أهمها:

1- تطبيق برنامج الدولة الإسلامية في بناء الأمصار وامتداداً لما كان من تأسيس مدن البصرة والكوفة والفسطاط لتثبيت الإسلام ونشره.

2- بعد مدينتي برقة (المرج) وزويلة بوصفها مقراً لقوات المسلمين عن إفريقية وبقية المغرب العربي.

3- لتكون قاعدة للإمداد تنطلق منها الحملات وتستريح فيها الجنود القادمة من المشرق والعائدة من المغرب.

4- لتكون منبراً للإسلام ونشر تعاليمه.

اختار عقبة بن نافع موقع مدينة القيروان بعيداً عن الساحل خوفاً من الأسطول

البيزنطي فلما قال له أصحابه: نقرب من البحر ليتم لنا الجهاد والرباط قال لهم عقبة: "إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة فيملكها، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركها صاحب البحر، إلاّ وقد علم به". وقد روعيت شروط اختيار المدن الإسلامية والتي من ضمنها توفر المرعى والمحتطب ومواد البناء والماء ... الخ.

وقد توافرت عدة عوامل سياسية واجتماعية واقتصادية أدت في النهاية إلى أنْ عزل الخليفة معاوية بن أبي سفيان، عقبة بن نافع عن ولاية إفريقية والمغرب وضمها إلى مصر تحت ولاية مسلمة بن مخلَّد الأنصاري سنة (55هـ/654م )، فقد كان هذا الوالي يغار من ابن نافع ويحسده على سمعته الطيبة في المغرب وعلى الأموال الوفيرة التي ترد عليه من الفتوحات التي قام بها والتجارة بين بلدان جنوب الصحراء والبحر المتوسط. كذلك كان معاوية بن أبي سفيان يخشى من استقلال عقبة عن الدولة الأموية، خاصةً أنَّهُ فَضَّلَ عدم الاشتراك في الفتنة الكبرى التي أدت إلى مقتل الخليفة عثمان بن عفان ﷺ وآثر الوقوف على الحياد إلى أن ينجلي الموقف. [ ابن عذاري "1950" 19/1 ]

أخذ والي مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري يسعى لدى الخليفة معاوية بعزل عقبة إلى أن وافق على ذلك، فأرسل الأنصاري والياً من عنده يسمى خالد بن ثابت إلى المغرب فوصلها سنة (54هـ/654م) ولكن سرعان ما بدَّله بمولاه أبي المهاجر دينار الذي وصل إلى القيروان سنة (55هـ/655م) فأساء معاملة ابن نافع الذي غادر إلى دمشق وقابل الخليفة معاوية الذي اعتذر له، ووعده بإعادته إلى سابق ولايته ولكنه توفي دون أن يفي معاوية بوعدهِ.

تمر المصادر العربية بسرعة على مرحلة ولاية أبي المهاجر وتذكره بأنه بنى مدينة أخرى غير القيروان وقام بحملة ضد حلف تكون من قبائل أوربه بقيادة كسيلة بن لمزم والبيزنطيين لطرد المسلمين من إفريقية وقد تمكن أبو المهاجر من تحطيم هذا الحلف ووصل إلى منطقة تلمسان واستطاع إقناع كسيلة بقبول الإسلام. ثم قاد حملة سنة (59هـ/678م ) ضد معقل الروم في قرطاجة وافتتح بعض المدن المجاورة وعاد إلى مدينته التي أسسها عقبة. [ابن عبد الحكم "1964" 66 ]

وبعد وفاة الخليفة معاوية بن أبي سفيان وتولي ابنه يزيد الخلافة (60-63هـ/680-683م) أصدر أمراً بفصل ولاية المغرب عن

مصر وإعادة عقبة إلى سابق ولايته على المغرب، لأنَّهُ كان مقتنعاً بدورهِ في الفتح وفضله في الإسلام. ووصل عقبة إلى القيروان على رأس جيش من المسلمين كان فيه 25 رجلاً من الصحابة. ومنذ وصوله إلى المغرب اتخذ خطاً سياسياً مغايراً لما كان يتبعه سلفه أبوالمهاجر دينار فغيَّر سياسة المهادنة مع سكان إفريقية وأعلن الجهاد مما اضطر كسيلة زعيم قبيلة أوربة إلى الهرب إلى جبال أوراس والتحالف مع الروم ثانية ضد المسلمين.

وشكل عقبة قوة من 15000 مجاهد انطلق بهم إلى المغرب الأقصى بصحبة الوالي السابق أبي المهاجر دينار وقبل رحيله عيَّن زهير بن قيس البلوي نائباً عنه في القيروان.

ووصل عقبة إلى مدينة طنجة (62هـ/681م) ثم مدينة وليلى وتحالف مع يوليان حاكم سبتة، ثم سار إلى بلاد السوس الأقصى حتى المحيط الأطلسي وقد قبل الإسلام العديد من الناس ثم قرر العودة إلى القيروان. وفي طريق عودته انقض عليه كسيلة في جموع كبيرة من أنصارهِ يؤازرهم الروم في الوقت الذي كان عقبة قد أمر أغلب جيشه بالرجوعِ سريعاً للدفاع عن القيروان من تهديد كسيلة لها، وسار هو في قوةٍ صغيرة فاجأتها جموع العدو عند موقع تهوده، حيث دارت معركة غير متكافئة انتهت باستشهاد عقبة وأبي المهاجر دينار وأغلب رفاقهم سنة (63هـ/682م) . [ المالكي "1951" 22-25 ]

وكان لاستشهاد عقبة بن نافع ورفاقه في تهودة دويٌ كبيرٌ في المغرب والمشرق، وقد قرر زهير بن قيس الانسحاب من القيروان إلى برقة انتظاراً للمزيد من المدد. وفي هذه الأثناء توفي الخليفة يزيد بن معاوية، وتولى الخلافة مروان بن الحكم الذي توفي هو أيضاً بعد سنة من خلافته (63هـ/684م).

وكان من نتائج استشهاد عقبة بن نافع ومن معه أنْ قرر المسلمون في القيروانِ بقيادة زهير بن قيس الانسحاب إلى برقة كما ذكرنا انتظاراً لوصولِ مدد جديد من الدولة الأموية وتحاشياً لمزيد من الخسائر البشرية والمادية في صفوف المسلمين، لاسيما ان الروح المعنوية قد تأثرت كثيراً بسبب فقد عقبة بن نافع وصفوة رفاقه من المجاهدين.

لقد تصادف استشهاد عقبة بن نافع مع وفاة الخليفة الأموي يزيد بن معاوية الذي خلفه ابنه معاوية الثاني والذي توفي هو أيضاً بعد 40 يوماً من استخلافه. وقد تعرضت الدولة الأموية في هذه الأثناء إلى مشاكل داخلية عديدة بسبب الثورة في الحجاز التي قادها عبدالله بن الزبير، ثم التمرد الذي قاده في سوريا

الضحاك بن قيس، وقد أدت هذه الصراعات إلى تعطيل عمليات الفتح وإرسال مدد إلى المغرب لاسترداد القيروان وإفريقية من كسيلة الذي ازدادت سطوته في المنطقة.

وفي سنة (65هـ/684م) عقد الأمويون مؤتمراً في الجابية انتهى باختيار مروان ابن الحكم خليفة في دمشق وقد تمكن مروان من القضاءِ على تمرد الضحاك بن قيس وإخضاع مصر، إلاّ أنه توفى بعد سنة من توليه الخلافة، وخلفه ابنه عبدالملك بن مروان (65-87هـ/685-705م) الذي تمكن من القضاء على ثورة عبدالله بن الزبير في الحجازِ وبعدها أولى اهتماماً خاصاً بالمغرب لمعرفته بالإقليم، ولأنَّهُ سبق له الاشتراك في حملتين للفتح مع عبدالله بن أبي سرح ومع معاوية بن خديج، ويعلم أهميه المغرب للدولة الأموية، وعز عليه فقده بعد تلك التضحيات الكبيرة التي قام بها المسلمون، ولهذا اختار زهير بن قيس البلوي صاحب عقبة قائداً لحملة استرداد القيروان وإفريقية من كسيلة وحلفائه من الروم، وبعث إليه بمددٍ كبير من الرجال والأموال انطلق بهم زهير من برقة سنة (69هـ/688م) إلى إفريقية.

وعندما وصل إلى القيروان عسكر عند موقعٍ يسمى قرشانة، أما كسيلة فقد انسحب من القيروان خوفاً من انضمام سكانها إلى المسلمين وعسكر عند ساقية ممس جنوبي القيروان. وفي اليوم الرابع شنَّ زهير هجوماً كاسحاً على قوات كسيلة تمكن في نهايةِ اليوم من هزيمة كسيلة وقتله وتشتيت أنصاره. وتعد موقعة ممس من المواقع الحاسمة في تاريخ فتح المغرب العربي إذ أنها كسرت شوكة الروم وأنصارهم، خاصةً قبيلة أوربه التي كان يقودها كسيلة. [ البكري "1857" 146 ]

عندما أنهى زهير بن قيس مهمة إعادة فتح إفريقية وتحرير القيروان والثأر لمقتل عقبة ابن نافع قرر العودة إلى المشرقِ وعند مدينة درنة بالجبل الأخضر اعترضته قوة من الروم وهو في قلةِ من أصحابهِ ودارت معركة تشبه تلك التي حدثت لعقبة انتهت باستشهاد زهير ابن قيس ومعه 70 من أصحابهِ يعرف مقامهم حتى اليوم بمقبرة الصحابة.

واضطربت بلاد المغرب من جديد بعد استشهاد زهير بن قيس البلوي في درنة وتصارعت القبائل فيما بينها وقد برزت من خلال هذه الصراعات زعيمة عرفت في المصادر العربية باسم الكاهنة، وهي سيدة من قبيلة جراوة الزناتية تدعى داهبه بنت ماتيه بن تيغان كان مقرها جُبال أوراس. ومرة أخرى أعد الخليفة عبدالملك بن مروان جيشاً قوامه ستة

آلاف مقاتل انضم إليه عدة آلاف أخرى من مصر وبرقة ووضع على رأسه القائد القدير حسَّان بن النعمان الغساني سنة (74هـ/693م) . كانت خطة حسَّان تتركز في توجيه ضربة قاضية للروم في قاعدقم قرطاج انتقاماً لمقتل زهير بن قيس والقضاء على حلف الروم مع البربر. [ ابن عبد الحكم "1964" 76 ]

لذلك توجه حسان إلى قرطاج ونزل عند موقع يسمى ترشيش المكان الذي بُنيت عليه مدينة تونس فيما بعد. وقد تمكن من محاصرة قرطاج والفتك بالروم فيها ثم أمر بتخريبها لكي لا تكون ملاذاً لهم مستقبلاً، وقد أشار ابن عذارى إلى هذا قائلاً: "حتى صارت كأمس الغابر"، ثم وجه حسَّان ضربة عسكرية أخرى لتجمع رومي بربري في منطقة صطفورة فهزمهم مرة أخرى وشتت شملهم ثم رجع إلى القيروان للراحة لبعض الوقت .

وفي المرحلة الثانية استعد حسَّان للقضاء على الكاهنة، فالتقى بها بالقرب من مدينة بجاية عند وادي مسكيانه سنة (75هـ/694م) وقد أسفرت المعركة عن هزيمة لقوات المسلمين وأسر 80 رجلاً منهم مما اضطر حسَّان إلى التراجع إلى الشرق حيث عسكر في خليج سرت عند موقع أصبح يُعرف بقصور حسان إلى اليوم.

في هذه الأثناء اتخذت الكاهنة خطوة خطيرة كانت وبالاً عليها وهي أنها أمرت بتخريب مزارع الزيتون ومنطقة إفريقية لحرمان المسلمين من خيراتها وقد أدت هذه الخطوة إلى كراهية سكان هذا الإقليم لها وانضمامهم إلى المسلمين.

وفي الوقت نفسه استغل الإمبراطور البيزنطي الظروف فأرسل حملة بحرية استولت على قرطاج وفتكت بالمسلمين الذين وجدهم بها.

واستطاع الخليفة عبدالملك بن مروان في سنة (78هـ/697م) التخلص من أغلب مشاكله الداخلية، لاسيما القضاء على ثورات الخوارج في المشرق فأعد جيشاً ضخماً لم تشهد إفريقية مثله من قبل بلغ عدده 40.000 مقاتل، وأرسله إلى حسّان بن النعمان لاستعادة إفريقية والقضاء على الكاهنة وحلفائها.

والتقى حسَّان بن النعمان للمرة الثانية مع قوات الكاهنة بالقرب من مدينة قابس، حيث دارت الهزيمة على قوات الكاهنة التي فرت فلولها أمام المسلمين وأخذ حسَّان يطاردهم حتى سنة (78هـ/697م) حيث قتلها عند بئر أصبح يعرف ببئر الكاهنة. [ ابن عبد الحكم "1964" 63 ]

وتوجه حسان بعد ذلك إلى قرطاج لطرد الروم منها وتمكن من تحريرها للمرة الثانية وهرب الروم منها إلى البحر في سفنهم.

ولما رأى حسَّان بن النعمان أهمية موقع قرطاج وتكرار استيلاء الروم عليها قرر بناء قاعدة بحرية إسلامية بالقرب منها ووقع اختياره على موقع مدينة تونس على بعد 12 ميلاً شرق قرطاج، وأنشأ بها داراً لصناعة السفن وحفر قناة تصلها بالبحر وأحضر الصناع من مصر والشام والخشب من جبال المغرب وبنى بها المسجد المعروف بجامع الزيتونة وداراً للإمارة وثكنات للجنود وأصبحت ثغراً بحرياً مهماً للمسلمين. [ المالكي "1951" 37]

اتجه حسّان بن النعمان بعد ذلك إلى تنظيم بلاد إفريقية إدارياً فقسمها إلى مناطق إدارية ودوَّن الدواوين، ونظم الخراج وبعث العمال إلى كل المناطق وحرص على نشر الإسلام، فوزع الفقهاء على عدة مناطق ونشر اللغة العربية، فأقبل الناسُ على اعتناق الإسلام بحماسة كبيرة ، وجنَّد حسَّان القبائل البربرية حتى أصبح له جيشُ كبير منهم وقسَّم بينهم الغنائم حسب الشريعة الإسلامية.

وبهذه الطريقة تمكن حسان بن النعمان من فتح المغرب عسكرياً ومعنوياً واستطاع تحويل بلاد إفريقية كلها إلى الإسلام. ويبدو أنَّهُ حاول إعلان استقلال ولاية إفريقية عن مصر مما جعله يصطدم مع والي مصر القوي عبدالعزيز بن مروان شقيق الخليفة عبدالملك بن مروان، فأخذ يكيد له إلى أنَّ تمكن من عزله عن ولاية إفريقية سنة (85هـ/704م) وتوليه موسى بن نصير بدلاً عنه.

ورجع حسَّان بن النعمان إلى المشرق ماراً بمصر، وكان يحمل معه غنائم كثيرة حصل عليها من فتوحاته بالمغرب، وخوفاً من عبدالعزيز بن مروان والي مصر أخفى الجواهر والذهب في قرب الماء وأظهر الأمتعة والدوَّاب والرقيق وغيرها، فصادرها عبدالعزيز بن مروان.

ولما وصل حسَّان إلى دمشق، شكا للخليفة سوء معاملة أخيه عبدالعزيز له، وأفرغ له ما عنده من الذهب والجواهر الذي كان قد أخفاه، فغضب الخليفة على فعلة أخيه، ولكنه لم يفعل شيئاً ضده، ووعد حسَّان بن النعمان بإعادته إلى ولاية المغرب، إلاَّ أنَّ حسّان رفض ذلك قائلاً: لا أولى لبني أمية أبداً

وولي عبدالعزيز بن مروان موسى بن نصير على إفريقية بدلاً من حسَّان سنة (85هـ/704م) وكان موسى بن نصير عاملاً لعبدالملك بن مروان على العراق مع أخيه بشر ابن مروان الذي كان وزيراً ومشيراً له، وقد اتهم بالتقصير في الأمور المالية والإدارية مما جعل

الخليفة بن عبدالملك يعاقبه بغرامة مالية قدرها 100.000 دينار، ولكن تدخل عبدالعزيز بن مروان في الأمر وكانت تربطه به علاقة خاصة جعل الخليفة يخلي سبيله بعد أن دفع عنه عبدالعزيز 50.000 دينار ودفع هو الباقي خلال ثلاثة أشهر. [ ابن عبد الحكم "1964" 84 ]

وعندما عاد عبدالعزيز بن مروان إلى ولاية مصر اصطحب معه موسى بن نصير وعيَّنه والياً على المغرب دون مشورة الخليفة الذي أغضبه ذلك، ولكنه لم يكن يستطيع فعل أي شيء ضد رغبة أخيه عبدالعزيز والي مصر.

ولما وصل موسى بن نصير إلى المغرب اتخذ سياسة الجهاد المستمر فأمر بفتح كل القلاع والحصون التي لم تفتح بعد وغزا جزر صقلية وسردينيا ومالطة وأخضع كل القبائل التي لم تعترف بعد بسلطة الإسلام.

وفي سنة (86هـ/705م) أعد حملة كبيرة ضد المغرب الأقصى وتمكن من فتح أغلب مدنه في سنة (87هـ/706م) وقد أحدثت هذه الغزوة هزة كبرى استطاع بها فرض سيطرته على المغرب. ثم اختار 17 فقيها لتعليم الناس الإسلام الصحيح، فأسلم الكثيرين على يد هؤلاء الفقهاء و لم يبق من المغرب سوى سبتة وبليلة التي صالحت المسلمين على أن تبقى تحت حكم بوليان القوطي.

واستغرق الفتح العربي للمغرب مدة تقرب من 77 عاماً وهي مدة طويلة مقارنة بالفتح العربي الإسلامي للعراق والشام ومصر وبلاد فارس ، وهذا راجع بكل تأكيد إلى طبيعة سكان المغرب التي تشبه طبيعة العرب وكذلك إلى عدم وجود أسطول إسلامي يحمي الشواطئ المغربية من هجمات الأسطول البيزنطي. فضلاً عن الفتنة الكبرى وما تلاها من ثورات الخوارج والشيعة التي أدت إلى توقف الفتح بعض الوقت بسبب انشغال الخلافة بإخماد تلك الفتن والثورات.

إنَّ سياسة نشر الإسلام واللغة العربية في المغرب وتحويل السكان تدريجياً إلى مسلمين ومشاركتهم في عمليات الفتح والمساواة مع العرب أدت إلى التحام المغاربة مع الفاتحين العرب، ومن ثم تحويلهم إلى قوة رئيسة في الجيش الإسلامي الذي تمكن من فتح الأندلس.

والواضح أيضاً أنَّ التشابه الكبير في شؤون الحياة بين العرب والبربر أدى إلى وحدهم معاً ((وهكذا نجد أن الفتح العربي للمغرب قد مس صميم الحياة المغربية ونقلها من حالٍ إلى حال، فهو يختلف تمام الاختلاف عن الفتوحات السابقة له. لقد سبق للفينيقيين

والرومان والبيزنطيين أن فتحوا بلاد المغرب وسيطروا عليها مئات السنين، ولكنهم لم يحولوا المغرب إلى إقليم روماني أو بيزنطي، بل ظلوا مجرد جيوش احتلال فقط.

أما الفتح العربي فإنه كان أقوى تأثيراً، وأعمق أثراً من تلك الفتوحات السابقة، إذ نشأ عنه انتشار دين جديد، ولغة جديدة، وثقافة جديدة، فاندمج المغرب في جسم الدولة الإسلامية، وصار له طابعه العربي الإسلامي المعروف به حتى اليوم.

إنَّ هذا التحول الكبير الذي حدث في المغرب كانت له آثاره العميقة التي أدت إلى فتح الأندلس وتعميق العلاقة التجارية مع بلاد جنوب الصحراء الكبرى وبلدان البحر المتوسط وأوروبا والمشرق الإسلامي وما نتج عنه من حضارةٍ عربية إسلامية رائعة في مختلف المجالات.

وعندما استكمل موسى بن نصير فتح المغرب بدأ يتجه بنظرِه إلى الضفة الأخرى من القارة الأوروبية عبر المضيق الذي عرف فيما بعد بجبل طارق القائد الإسلامي الذي قاد أول قوة رئيسة عبرت إلى أوروبا وفتحت الأندلس.

## فتح الأندلس:

أُن مصطلح الأندلس مشتق من كلمة واندلوس، وهو اسم لقبائل الوندال التي اجتاحت أوروبا في القرن الخامس الميلادي واستقرت في نهاية المطاف في جنوب إسبانيا وأعطته اسمها الذي عرَّبه العرب وأطلقوه على كل شبة جزيرة إيبريا. وقد ظل هذا الاسم مستعملاً دلالة على كل إسبانيا حتى نهاية الحكم الإسلامي سنة (898هـ/1492م)، وانحصر بعدها على الجنوب الإسباني فقط، حيث لا يزال يعرف حتى اليوم بهذا الاسم.

وكان القوط قد سيطروا في سنة 429م على شبه جزيرة إيبريا (الأندلس) بعد أن طردوا منها الوندال الذين انسحبوا إلى شمال إفريقيا (المغرب العربي). ونظراً لأنَّ القوط كانوا يتبعون المذهب الأريوسي وسكان الأندلس يدينون بالمذهب الكاثوليكي، فإنَّ صراعاً دينياً بدأ يعصف بهذه المنطقة إلى أنْ قام الملك القوطي ريكاريدو (586-601م) بالتخلص من المذهب الأريوسي واتباع المذهب الكاثوليكي ديناً رسمياً للدولة، واتخاذ طليطلة عاصمة له لوقوعها في وسط البلاد.

لقد توالى حكم ملوك القوط على الأندلس حتى وصل الملك أخيكا إلى الحكم، وقد قام هذا الملك باضطهاد شديد لليهود مما خلق أزمةً دينية واجتماعية واقتصادية في البلاد. وفي عام (700 – 702م) تولى الحكم الملك غيطشة الذي حاول القيام ببعض الإصلاحات

في البلاد مما أغضب النبلاء والقساوسة الذين بدأوا يحيكون المؤامرات ضده وعلى الرغم من أنه استطاع كشفها والقضاء عليها، فإنه توفي سنة 710م أو قتل بمؤامرة دبرها لذريق حاكم مقاطعة بتيكا .

ولم يتمكن ابن غيطشة أخيلا من الاستمرار في الحكم فقد أطاح به لذريق فهرب هو وأخوته ولجأوا إلى صديق والدهم يوليان حاكم سبتة.

ومن هنا كان الوضع الداخلي في إسبانيا قبيل الفتح العربي الإسلامي مضطرباً ويعاني من عدة مشاكل أهمها:

1) الصراع الدائر حول العرش بين الأمراء والقساوسة، لاسيما بين أولاد الملك غيطشة والملك لذريق.
2) الاضطهاد الديني الذي فرض على اليهود الذين أجبروا على اعتناق المسيحية وإلا أصبحوا عبيداً.
3) الصراع الديني المسيحي بين المذهبين الأريوسي والكاثوليكي.
4) الصراع الطبقي بين فئات الشعب مما خلق هوة بين الحاكم والمحكوم ومهد الطريق أمام الفتح العربي الإسلامي.

وفي الوقت الذي كانت تسود فيه الفوضى والاضطراب والاضطهاد في الأندلس كان المغرب العربي تحت قيادة واحدة وتسوده حماسة دينية قوامها الرغبة في نشر الإسلام وتحت قيادة سياسية وعسكرية واحدة بقيادة موسى بن نصير وبمعاونة طارق بن زياد.

مراحل فتح الأندلس:

كان طبيعياً أنْ يتجه العرب المسلمون إلى فتح الأندلس لأنَّ كل المعطيات السياسية والاجتماعية والدينية في كلا الاتجاهين تشجع على ذلك، فمن ناحية المسلمين كان ثمة اتحاد وقوة سياسية وعسكرية وروح عالية ومن الجهة الأخرى في الأندلس كان الضعف والانقسام وتآمر بعضهم على بعض ومن ثم كان لابد أن يحدث الاتجاه إلى فتح الاندلس بصورة حتمية .

وكان موسى بن نصير وقائده طارق ابن زياد يراقبان الأوضاع في منطقة سبتة وطنجة وما يدور عبر المضيق وعندما قرر أنصار الملك غيطشة الاستعانة بالمسلمين للإطاحة بالملك لذريق بواسطة حاكم سبتة يوليان الذي اتصل بطارق عارضاً عليه غزو الأندلس وتقديم المساعدة للمسلمين أحاله طارق بدورِه إلى موسى بن نصير في القيروان بصفته الوالي المسؤول فاستأذن موسى الخليفة الوليد بن عبدالملك (86-102هـ/705-720م ) في دمشق، فوافق على الفتح ولكن على مراحل خوفاً على أرواح المسلمين، فقال لابن نصير:

((خضها بالسَّرايا حتى ترى وتختبر شأنها ولا تغرر بالمسلمين في بحرٍ شديد الأهوال)) [الحميري "1988" 8 ].

وتنفيذاً لأوامر الخليفة قام موسى بن نصير بعدة غزوات على جنوب الأندلس كانت الأولى بقيادة يوليان حاكم سبتة للتأكد من مدى صدق ولائه للمسلمين وليصبح عدواً للذريق بسبب غزوته هذه.

أما الغارة الثانية فقادها طريف بن مالك المعافري سنة (91هـ/710م) ونزل عند الجزيرة التي أصبحت حتى اليوم تعرف بجزيرة طريف بقوة تتكون من 100 فارس و400 مجاهد من المشاة وقد قام بنقل هذه القوة يوليان بواسطة سفنهِ الأربع التي كان يملكها.

وكانت نتائج هذه الغزوة ما يأتي:

1- إثبات صدق وإخلاص يوليان بوصفه حليفاً للمسلمين.

2- تقويم ردة الفعل العسكري لقوة القوط.

3- اختبار طريق العبور من العدوة المغربية إلى الشاطئ الأندلسي، ومدى إمكانية عبوره بقوات كبيرة.

4- الحصول على معلومات عسكرية وسياسية صحيحة عن الوضع في الأندلس.

وبناءً على نتائجِ هذه الغزوات قرر موسى بن نصير بدء عمليات فتح الأندلس واختار لقيادة الموجة الأولى من الفاتحين طارق ابن زياد على رأس قوة من سبعة آلاف مقاتل ثم أمده بخمسة آلاف آخرين، وقد تم نقل هذه القوات بواسطة سبع سفن كان طارق قد استولى عليها في البحر المتوسط، وكذلك بمعاونة سفن يوليان الأربع وأخذت هذه السفن تنقل الرجال والخيول والمعدات والمؤن من الجانب المغربي إلى الجانب الأندلسي.

كـــان نزول طارق بن زياد على الجبل الذي أصبح يعرف باسمه (جبل طارق إلى الآن)، في( 5 رجب 92 هــ/أبريل 711م) ، وقام على الفور بالبدء في بناء قلعة عُرفت بسور العرب والسيطرة على المنطقة المجاورة التي عُرفت باسم الجزيرة الخضراء. ولما أمَّنَ موقع نزول قواته بدأ في توسيع وجوده على الساحل الأندلسي فاستولى على حصن قرطاجة، ثم توجه بحذاء الساحل ثم نحو الشمال في اتجاه قرطبة وفي الطريق اعترضته قوة قوطية بقيادة ابن أخت لذريق الذي يدعى بنج واشتبك مع المسلمين ولكن تم التغلب عليه بسرعة وقتل فهربت فلول قواته إلى قرطبة.

في الوقت الذي نزلت فيه القوات العربية الإسلامية في الأندلس كان لذريق ملك القوط يقوم بغارة على شمال الأندلس في إقليم البشكنس (الباسك) لصد هجوم كان يقوم به ملك الفرنجة

على الإقليم. وعندما بلغه نبأ نزول المسلمين في جنوب الأندلس قرر العودة فوراً وإعلان التعبئة العامة واجتمع لديه جيش قدرته المصادر الإسلامية ما بين مائة ألف أو سبعين ألفاً أو أربعين ألفاً. [ مؤلف مجهول "1867" 7 ]

وطلب لذريق من أولاد الملك السابق غيطشة مساعدته بما يستطيعون لصد الهجوم الإسلامي وجعل أحدهم على ميمنة الجيش الإسباني والآخر على ميسرته. ويبدو أنَّ يوليان كان قد راسلهم واتفق معهم على التخلي عن مواقعهم والانضمام إلى المسلمين في الوقت المناسب للانتقام من لذريق المغتصب لعرش والدهم.

واستمرت المعركة بين المسلمين والإسبان بقيادة لذريق ثمانية أيام من يوم ( الأحد 28 رمضان 92هـ /19 يوليو 711م) وانتهت بهزيمة ساحقة لقوات لذريق الذي مات غرقاً في إحدى البحيرات وقد نتج عن هذه المعركة ما يأتي:

1- القضاء على القوة الرئيسة لقوات القوط وقتل ملكهم.

2- أصبح الطريق مفتوحاً أمام المسلمين للسيطرة على العديدِ من المدن المهمة والحصون الإسبانية.

3- الاستيلاء على كنوز لذريق وحصول المسلمين الذين شاركوا في هذه المعركة على الكثير من الغنائم ومنها 250 ديناراً لكل مجاهد أي حوالي 29 مليون دينار.

4- رفع الروح المعنوية للمسلمين.

5- شجعت موسى بن نصير على العبور إلى الأندلس بقوات كبيرة أخرى لاستكمال عمليات الفتح.

وقد توجه طارق بن زياد بعد انتصاره على لذريق في معركة لكه إلى مدينة استجَّة الحصينة حيث هربت فلول الجيش القوطي وتحصنت بها وبعد معركة عنيفة تمكن المسلمون من اقتحام هذه المدينة والحصول على الكثير من الغنائم ومن أهمها الخيول التي كان المسلمون بحاجة إليها. وقد التقى طارق بن زياد بحليفه يوليان واتفق الاثنان على خطة استكمال فتح الأندلس، وذلك بأن وزع المسلمون جيشهم إلى فرق اتجهت كل فرقة منها صوب مدينة معينة منها قرطبة ورية وغرناطة وقاد طارق معظم قواته متجهاً صوب العاصمة طليطلة التي أخذت تتجمع فيها فلول القوط وقد تمكنت الفرق الإسلامية من فتح المدن التي كُلفت بفتحها بكل سهولة ويسر.

في هذه الأثناء عبر موسى بن نصير بقوةِ قوامها 18000 مجاهد في شهر (رمضان 93هـ /يونيه 712م) واتجه بهذه القوات

صوب مدن شذونه، وقرمونة أشبيلية وماردة ولبله باجه. وقد ساعدت مجموعة من أصحاب يوليان القوات الإسلامية بخبرتهم في الأوضاع العسكرية في الوصول إلى هذه المدن والإبلاغ عن نقاط ضعفها ومواقع الحصون مما سهل فتحها بسرعة.

وبعد أن أتم موسى بن نصير فتح مدن غرب الأندلس أرسل إلى طارق بن زياد بدعوة إلى الالتقاء به عند طلبيره، وهنا تم الاتفاق على السير معاً نحو سرقسطة التي تم فتحها عنوةً ثم تواصل الزحف إلى حليقية وبلاد البشكنس ومقاطعة اشتورياس وفتحت مدينة برشلونة على حدود بلاد الفرنجة. وفي هذه الأثناء وصل رسول الخليفة الوليد بن عبدالملك قادماً من دمشق ومعه رسالة يأمر فيها بالتوقف عن استمرار الفتح وبعودة طارق وموسى بن نصير إلى دمشق. [ المقري "1949" 277-276/1 ]

وبناءً على أوامر الخليفة قرر موسى ومعه طارق الرجوع إلى دمشق، بعد أن نظم موسى بن نصير إدارة الأندلس، وعيَّن ابنه عبدالعزيز بن موسى والياً عليها وأمره أن يتخذ من إشبيلية عاصمة له وأن يتبع سياسة العدل والجهاد وكذلك عين ابنه عبدالله على إفريقية وابنه عبدالملك على بلاد طنجة والسوس.

عاد موسى وطارق عن طريق المغرب إلى مصر ثم إلى دمشق بصحبة الكثير من الغنائم والسبايا، ووصلا إلى دمشق قبيل وفاة الخليفة الوليد وتولية سليمان بن عبدالملك (96-99هـ/715-717م) والذي صب جام غضبه على هذين القائدين وأمر بتغريمهما أموالاً طائلة لم يستطيعا دفعها وقد بقي موسى ابن نصير بالمدينة المنورة حتى توفى سنة (98هـ/716م) أما طارق بن زياد فقد عاش بقية حياتِه منسياً في دمشق إلى أن توفي على الرغم مما قدم كل منهما من التضحيات في خدمة الدولة الأموية ونشر الإسلام في المغرب والأندلس .

## عصر الولاة في المغرب والأندلس 85-132هـ/704-750م:

عقب عزل موسى بن نصير عن ولاية المغرب تم كذلك عزل ابنه عبدالله من ولاية إفريقية وتوليه محمد بن يزيد القرشي (97-100هـ/715-718م) الذي ولاه الخليفة سليمان بن عبدالملك على المغرب كله وكان محمد بن يزيد رجلاً ورعاً اتبع سياسة اللّين والعدل والإنصاف، ولذلك ساد السِّلم والأمن في بلاد المغرب ومن أعمال هذا الوالي فتح

المناطق الداخلية من المغرب الأقصى وبعث جملات إلى الجزر المجاورة وكان يوزع الغنائم على الجند المشاركين في الغزوات مما جعله محبوباً بين جنوده وكان لسياسته هذه أثرها العميق في دخول أفواج جديدة للإسلام. [ ابن عذاري "1950" 47/1 ]

وبعد وفاة الخليفة سليمان بن عبدالملك اختار الخليفة عمر بن عبدالعزيز والياً جديداً هو إسماعيل بن عبيدالله بن أبي المهاجر دينار (100-101هـ/718-719م ) وكان والياً مصلحاً ومن خيرة الولاة الأمويين فأخذ على عاتقه سياسة تعليم الإسلام للقبائل المغربية ونشر اللغة العربية،وبعث معه الخليفة عمر بن عبدالعزيز عشرة من التابعين من أهل العلم والفضل لتنفيذ برنامج تعلم الدين الإسلامي وتم توزيع هؤلاء الفقهاء على مناطق المغرب وتحولت القبائل المغربية بفضل هؤلاء إلى الإسلام ولم يبق إلاّ جيوب منعزلة على المسيحية واليهودية. ويرى بعض المؤرخين أنّ المغاربة أسلموا كلهم في عهد إسماعيل بن أبي دينار. ويقول المؤرخ الفرنسي جورج مارسيه : ((في أقل من قرن واحد اعتنق العدد الأعظم من أبناء أولئك المسيحيين الإسلام في حماس يجعلهم راغبين في الشهادة وتمت النقلة النهائية خلال القرنين الأول والثاني للهجرة)).

وقد نتج عن هذه العملية انتشار الإسلام واللغة العربية في كل بلاد المغرب، وهذا ما يميز الفتح العربي من غيرِه من الفتوحات الأخرى، كالفينيقي والروماني. ففتح العرب المسلمين كان فتحاً ثقافياً بفضل الإسلام والقرآن الكريم.

## سياسة الأمويين ونتائجها في المغرب العربي:

في سنة (101هـ/719م) توفي الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز وتولى الخلافة بعده يزيد بن عبد الملك (101-105هـ/720-724م) الذي كان غير راضٍ عن سياسة التسامح واللّين التي اتبعها الخليفة عمر بن عبدالعزيز، وكان يرى سياسة الترهيب حلاً لمشاكل الدولة الأموية الاقتصادية والسياسية. ولذلك بادر إلى عزل إسماعيل بن أبي دينار واختار مكانه يزيد بن أبي مسلم وهو رجل قاس وكان أحد أصحاب الحجاج بن يوسف ورئيس شرطته. ووصل يزيد بن أبي مسلم إلى إفريقية سنة (102هـ/720م) وقد تشبه بصاحبه الحجاج واستعمل أسلوب الغطرسة والإرهاب للناس والاستخفاف بهم واشتط في جمع الأموال ويصفه المؤرخ ابن عذارى قائلاً: ((كان ظلوماً غشوماً)). [القيرواني "1968" 99] وقرر أن يكتب أسماء حراسة بالوشم على أيديهم مثلما يفعل الرومان

ولذلك سرعان ما تآمر عليه حرسه وقتلوه بعد شهر واحد من ولايته وأعادوا الوالي السابق محمد بن يزيد القرشي. وكتبوا للخليفة يشرحون سبب قتلهم ليزيد بن أبي مسلم، وإعادة الوالي السابق . فأقرهم الخليفة على ذلك وأنكر ما فعله بهم ابن أبي مسلم إلاّ أنّ الخليفة سرعان ما اختار لولاية المغرب والياً جديداً من عنده وهو بشر بن صفوان الكلبي (103هـ/721م) . الذي كان واليا على مصر عندما قتل يزيد بن أبي مسلم وقد أقام بشر سياسته على أساس المساواة بين العرب والبربر ولذلك ساد الأمن بعض الوقت ولكن يبدو أن الخليفة يزيد بن عبد الملك كان يتهم أولاً موسى بن نصير بتحريض مواليهم وأنصارهم ضد الولاة الذين عينهم الخليفة لذلك أمر بقتل عميدهم عبدالله بن موسى بن نصير ومصادرة أملاكهم وأموالهم.

في سنة (109هـ/727م) خرج بشر بن صفوان إلى صقلية غازياً وعندما رجع من هذه الغزوة مرض وتوفى. وتولى بعده عبيدة بن عبدالرحمن السُّلمى (109-114هـ/727-732م) وكان قيسيًّاً متعصباً فتحامل على أنصار الوالي السابق بشر بن صفوان فسجن بعضهم وفرض عليهم المغارم وتعصب لقبيلته مما دفع الخليفة هشام بن عبد الملك إلى عزله وتعيين بدله عبيد الله بن الحبحاب بدلاً منه سنة (116هـ/734م) . [ ابن عذاري "1950" 50/1 ]

وكان عبيد الله والياً على مصر وقد أثبت خلال ولايته عليها براعة وحزماً في الإدارة والقيادة لذلك اختاره الخليفة هشام بن عبدالملك لولاية المغرب والأندلس ، لكن ابن الحبحاب كان قيسياً متعصباً لعرب الشمال وللعرب دون غيرهم من الأجناس الأخرى، ولذلك بدأت تظهر في عهده نتائج سياسة العسف والجور فثارت القبائل بمنطقة السوس الأقصى فأرسل إليهم ابن الحبحاب قائده حبيب بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع سنة (116هـ/734م) ولقد أساء عمال ابن الحبحاب السيرة في المغرب بإتباعهم سياسة جائرة فأخذت نفوس الناس تغلي ضد مظالم الولاة والعمال الأمويين في الوقت الذي انقسم فيه العرب إلى مجموعتين عرب اليمن أو الجنوب وعرب الشمال القيسية. وفي هذه الأثناء وصلت وفود من الخوارج والشيعة هاربة من ظلم الأمويين بالمشرق وقد استغلت هذه الأحزاب تذمر الناس من السياسة الأموية الجائرة وبدأت تبث بين الناس المطالبة بالعدل والمساواة على وفق شريعة الإسلام التي حث عليها القرآن الكريم بين كافة المسلمين وإلى

الثورة ضد ظلم الأمويين وحكمهم الجائر وقد وجدت هذه الدعاية قبولاً لدى الكثير من قبائل المغرب.

## الثورة في المغرب:

### موقعة الأشراف 122هـ/739:

أخذ دعاة الخوارج في إثارة قبائل المغرب وحثها على الثورة ضد الحكم الأموي مستغلين هياج الناس وسخطهم على الإدارة الأموية التي وصفوها بأنها متعسفة في أحكامها الاقتصادية والإدارية لكن زعماء هذه القبائل رفضوا التمرد في البداية على الدولة الأموية وعلى رأسهم ميسرة المدغرى الذي آثر التريث حتى يعرض شكوى الناس من الولاة الأمويين بالمغرب على الخليفة الأموي في دمشق. ولذلك قاد ميسرة وفداً من عشرة أشخاص من الشيوخ والزعماء وسافر لمقابلة الخليفة ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك وبدلاً من الخليفة اجتمعوا مع الحاجب الأبرش وسلموه مطالبهم بالإصلاح وشكواهم من ولاة المغرب ورجعوا وهم مقتنعون بمدى ما وصل إليه الفساد الإداري للدّولة الأموية. [ القيرواني "1968" 110-111]

ولذلك عادوا وهم عازمون على إعلان الخلاف والثورة ضد الخلافة الأموية. كان ميسرة المدغري زعيماً لقبيلة مدغرة البترية وعالماً مستنيراً وقد ساءه أن لا يستمع الخليفة هشام بن عبد الملك لمشاكل المغرب فانضم إلى مذهب الصفرية الخارجي وتحالف مع قبائل أخرى مثل مكناسة وبرغواطه وتمت مبايعته بالإمامة ولقبوه بأمير المؤمنين وعلت سمعته في المغرب الأوسط والأقصى.

واستغل ميسرة المدغرى خروج القوة الرئيسة العربية في غزوة بحرية ضد جزيرة صقلية سنة (122هـ/739م) بقيادة حبيب ابن أبي عبده الفهري، فأعلن ثورته ضد الإدارة الأموية وتمكن من قتل الحاكم الأموي لطنجة عمر المرادي وهاجم منطقة السوس التي كان يحكمها إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب وهزمه وقتله ونظراً لهذه الاضطرابات اضطرم المغرب في ثورة عارمة عصفت بالحكم الأموي وقد ازدادت تبعاً لذلك شعبية ميسرة المدغرى وتحّرج موقف الوالي عبيد الله بن الحبحاب الذي اضطر إلى استدعاء قواته من صقلية لمواجهة الثورة. وفي الوقت نفسه جهز جيشاً من العرب بالقيروان ووضع على رأسه خالد ابن حبيب الفهري وتقدم هذا الجيش حتى وصل إلى قريب من تاهرت وهناك قابلته القوات القادمة من صقلية بقيادة والده حبيب ابن عبده الفهري والتي تقرر أن تعسكر في تاهرت أما قوات خالد الفهري

فقد زحفت على طنجة وهناك التحمت في معركة شديدة مع الثوار بقيادة ميسرة الذي أثر الانسحاب فاتهمه أنصاره بالجبن وقتلوه وأختاروا لقيادتهم أحد زعمائهم المتطرفين وهو حميد الزناتي الذي تمكن من هزيمة قوات خالد بن حبيب الفهري والقضاء عليها وقتل قائدها وأغلب أفرادها وفرسانها في موقعه عرفت بغزوة أو موقعة الأشراف سنة (122هـ/739م) نظراً لمقتل الكثير من قادتها وزعماء وأشراف العرب .

## موقعة بقدورة 741/124م:

وشجعت نتائج معركة الأشراف (122هـ/739م) الثوار في المغرب والأندلس فعمت الثورة في كل مكان وفي الأندلس وعزل الوالي عقبة بن الحجاج السلولي وتولى بدلاً عنه عبد الملك بن قطن الفهري. وازداد حرج موقف والي المغرب عبيد الله بن الحبحاب مما جعل زعماء العرب يعقدون اجتماعاً عاماً في القيروان قرروا فيه عزله عن الولاية . مما اضطر الخليفة هشام بن عبدالملك إلى استدعائه إلى دمشق سنة (123هـ/740م) وتعيين كلثوم بن عياض القشيري على ولاية المغرب وهو من عرب الشمال (القيسية) وسيَّر معه جيشاً عدته 12 ألف مقاتل من الشام وثلاثة آلاف من مصر وثلاثة آلاف من جند قنسرين وانضم لهم من طرابلس حشد كبير ووضع على قيادة الجيش بلج بن بشر القشيري ابن أخي كلثوم وأوصى هشام ان يكون بلج القائد الثاني وثعلبة بن سلامه العاملي القائد الثالث لهذا الجيش.

[مؤلف مجهول "1867" 35،30 ]

واجهت هذا الجيش منذ البداية مشكلة الصراع بين العرب اليمنية الموجودين بالمغرب والأندلس منذ الفتح وبين هذا الجيش القادم من المشرق وأغلبيته من عرب الشمال القيسية، وبالتالي ساءت روح التعاون معاً ضد العدو المشترك، في حين كان يستلزم الموقف نسيان الخلافات والأحقاد والوقوف ضد الخطر الذي يهددهم جميعاً.

وصل جيش كلثوم بن عياض إلى إفريقية سنة ( 123هـ/749م) وأخذ بلج بن بشر يعامل العرب البلديين بكل جفاء وغلظة فغضبوا منه وطلبوا من قائدهم حبيب بن عقبة الذي كان بتلمسان أن يأتي لمساعدتهم والتخلص من ظلم كلثوم وبلج بن بشر وجيشهما لكن الأمر سرعان ما تمت تسويته سلمياً مؤقتاً دون تصفية المشكلة نهائياً.

وسار كلثوم بن عباض وبلج بن بشر بالجيش الأموي من القيروان حتى التحقوا بقوات العرب بقيادة حبيب بن أبي عبده

الفهري المرابطة عند وادي شليف ولكن نزاعاً آخر ظهر بين القـــادة العرب نتيجة سب بلج بن بشر واستخفافه بحبيب بن أبي عبده ورفاقه وكادت الحـــرب أن تقـــع بين الطرفين وبعد جهد كبير تمكن كلثوم بن عباض من مصالحة الطرفين وفي هذا الصدد يذكر لنا المؤرخ ابن عذارى "أن هذا الخلاف كان سبب هلاكهم مع سوء رأى كلثوم وبلج".

والتحمت القوات الأموية مع قوات الثوار وانجلت المعركة عن هزيمة مروّعة لقوات كلثوم بن عياض الذي تم قتله مع حبيب الفهري وعدد كبير من زعمـاء وقادة العرب ولم ينج من هذا الجيش إلاّ الجزء الذي كان يقوده بلج بن بشر الذي احتمـى داخل أسوار سبتة والذي فرض عليه الثوار حصاراً طويلاً قاسياً حتى اضطر أفراده إلى أكلِ دوابهم وجلودها وأشرفوا على الهلاك.

وازدادت الثورة اشتعالاً في المغرب بعد الانتصارات التي أحرزها الثوار في معركة بقدورة وبرز منهم زعيمان هما: أبويوسف عبدالواحد الهواري وعكاشة بن أيوب الفزاري الصفرى وقد أخذ هذا الزعيمان يستعدان للزحف على القيروان وفي الوقت نفسه أخذ الخليفة هشام يستعد لوقف الثورة في المغرب فاختار والي مصر حنظلة بن صفوان لهذه المهمة فقلده ولاية المغرب وأمده بجيش ضخم من العرب.

خرج حنظلة من مصر سنة (124هـ/741م) وفي الوقت نفسه تقدم الثوار نحو القيروان وهنا اتخذ حنظلة خطة عسكرية موفقة حيث بادر بمقاتلة قوات الثوار كلاً على حدة، فأسرع إلى مهاجمة قوات عبدالواحد الهواري وهزيمتها عند موقع يعرف بالأصنام حيث قتل عبد الواحد وتشتت أصحابه وقضي على معظمهم. وعلى الفور أسرع لمواجهة قوات عكاشة بن أيوب الفزاري الذي تمت هزيمته وأسره وقتله هو أيضاً عند موضع القرن وهكذا تمكن جيش الخلافة من هزيمة ثوار المغرب. وكتب حنظلة إلى الخليفة هشام بما حققه من نصر على الخوارج فسرَّ بذلك سروراً عظيماً. [ القيرواني "1968" 115-122 ]

وساد الأمن والهدوء في المغرب بعض الوقت بفضل انتصار قوات حنظلة بن صفوان من ناحية وبسبب عدالته وسياسته المتوازنة نحو المجموعتين اليمنية والقيسية، إلاّ أنّ هذا الهدوء وهذا الاستقرار لم يدوما طويلاً فقد عكره نزول عبدالرحمن بن حبيب الفهري في تونس قادماً من الأندلس التي كان قد فرَّ إليها بعد معركة بقدورة.

كان عبدالرحمن بن حبيب هذا يسعى للوصول إلى السلطة، لاسيما أنه ينتمي إلى عقبة ابن نافع الفهري جده الأول ومعتمداً على رصيدهِ الكبير في نشر الإسلام في المغرب العربي، ولهذا وجدت دعوته قبولاً كبيراً لدى سكان إفريقية. وقد فكر حنظلة بن صفوان في مقاومته لكنه عدل عن ذلك وأرسل إليه وفداً من 50 رجلاً من القيروان لمفاوضته، غير أنَّ عبدالرحمن قبض عليهم وزحف بمؤيديه على القيـــروان. ولما رأى حنظلة إصرار ابن حبيب على القتالِ آثر الانسحاب من إفريقية حقناً لدماءِ المسلمين وتركها لابن حبيب، فخرج سنة (127هـــ/744م) متوجهاً إلى دمشق.

وتولـــى عبدالرحمن بن حبيب ولاية المغرب، وأقـــــره على ذلك الخليفة مروان الثاني (127-132هـــ/744-750م) الذي لم يكن له من الوقت لكي يعالج مشاكل المغرب نظراً لظروف الدولة الأموية الصعبة آنذاك بسبب بدايـــــة الثورة العباسية ضدها. ووجد ابن حبيب نفسه متورطاً في قتال مجموعة من الثائرين على حكمـــــهِ في كـــل من تونس وطرابلـــس ومناطق أخرى من المغرب لكنه استطاع بفضل دهائه وحنكته القضاء على هـــذه الثـــورات الواحـــدة تلو الأخرى.

إلاَّ أنَّ فتنةً مفاجئة برزت بينه وبين أخيه الياس بن حبيب أدت إلى مقتله على يد أخيه الياس ثم إلى مقتل الياس على يد ابن أخيه حبيب بن عبدالرحمن ثم مقتل حبيب على يد عبدالملك الصفري، وهكذا انتهى حكم أولاد بني حبيب الفهري.

وقد انتهى حكم الولاة في المغرب بسبب سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية سنة (132هـــ/750م) .

## الولاة في الأندلس: 95-138هـــ/713-755م:

أطلق المؤرخون المسلمون على المرحلة الأولى من الحكم الإسلامي للأندلس (95-138هـــ/713-755م) مرحلة أو عصر الولاة، وكانت الأندلس خلال هذه الحقبة من الزمان يحكمها والٍ معين من قبل والي المغرب بالقيروان الذي يتبع بدورهِ الخلافة الأموية بدمشق، لقد حكم الأندلس خلال هذه المدة 22 والياً.

لقد ساد الأندلس خلال هذه المرحلة الاضطراب وعدم الاستقرار بسبب الصراعات بين العرب من جهة، وبين العرب وغيرهم من جهةٍ ثانية. ولكن هذه الحقبة تميزت بغزوات

خارجية ضد جنوب فرنسا قام بها بعض الولاة الأندلسيين.

عيّن موسى بن نصير ابنه عبد العزيز والياً على الأندلس، وأمرهُ باتخاذ إشبيلية عاصمةً له. وكان من أهم أعمال عبد العزيز ابن موسى بن نصير قيامه بتنظيم الأندلس إدارياً وبتحصين البلاد، لاسيما ثغورها والقيام باستكمال فتح المدن التي لم يتمكن والده وطارق بن زياد من فتحها، وهي مدن مرسيه وتدمير. [ ابن خلدون "1870" 118/4 ]

ولم تدم ولاية عبدالعزيز بن موسى بن نصير طويلاً فقد تم اغتياله على ايدي كبار قادة الجيش الذين يُقال أنهم قاموا بذلك بناءً على أوامر من الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك الذي كان يخشى استقلال عبد العزيز بن موسى أو انفصاله عن الدولة الأموية بسبب العقاب الذي أنزله بوالده موسى بن نصير، وكذلك كان قد نقل إلى الخليفة تذمر عبد العزيز بن موسى من معاملة والده ونقده للإجراءات ضده وسعى أعداؤه لدى الخليفة فنشروا عنه إشاعات أدت إلى تصفيته جسدياً. [ ابن قتيبة "1963" 2/95-96 ]

تولى بعد عبد العزيز بن موسى، ابن عمته أيوب بن حبيب اللّخمي مدة ستة أشهر ثم جاء بعده الحر بن عبد الرحمن الثقفي (99-100هـ/717-718م) ثم تلاه السَّمح بن مالك الخولاني (100-102هـ/720م) الذي اختاره الخليفة عمر بن عبد العزيز (99-101هـ/717-720م) .

وقد حاول هذا الوالي تنظيم الأندلس إدارياً وتمكن من بناء قنطرة على الوادي الكبير بقرطبة ولكنه استشهد في غزوته ضد الفرنجة سنة (102هـ/720م) .

وتولى بعده في الميدان عبد الرحمن الغافقي (102-103هـ/720-721م ) الولاية الأولى، ولكنه عزل وعيُّن مكانه عنبسة ابن سحيم الكلبي (103-107هـ/721-725م) ، ومن أهم أعمال هذا الوالي متابعة سياسة الغزو ضد الفرنجة، فقام بغارة على مدينة قرقشونة الواقعة على نهر الأود وفتحها ثم تقدم إلى مدينة نيمش ثم إلى نهر الرون ثم نهر السِّين، حتى وصل إلى مدينة أوتون سنة (106هـ/724م) ثم تابع سيره حتى وصل إلى لوكسوي ثم عاد إلى الأندلس، ولكنه استشهد أثناء ذلك سنة (107هـ/725م) . [ المقري "1949" 220/1 ]

وتولى ولاية الأندلـــــس بعـــــد عنبســــــة بن سحيم، يحيى بن سليمان الكلبي (107-110هـ/725-728 م) ثم حذيفة بن الأحوص القيسي (110-

111هـ/728-729م) ، ثم عبد الرحمن الغافقي للمرة الثانية (113-115هـ/731-733م) الذي تابع سياسة الجهاد ضد الفرنجة فقاد حملة على جنوب فرنسا، سنة (113هـ/731م) ويعزو بعض المؤرخين سبب هذه الغزوة إلى خلاف مع حاكم الإقليم الواقع بين فرنسا وشمال إسبانيا، ويُسمى منوزا الذي كان حليفاً للمسلمين ونقض حلفه معهم، ووطد علاقته مع حاكم إقليم إكيتانيا بجنوب فرنسا المعادي للمسلمين، ويعرف باسم أودو.

لهذا السبب أعد الغافقي حملة ضد هذا الحلف المكون من منوزا وأودو وتم القضاء عليه. وبعد ذلك قرر عبدالرحمن الغافقي القيام بحملة كبيرة ضد أودو وقاد جيشاً كبيراً وقد تجمع هذا الجيش في مدينة بنبلونة ثم سار من هناك نحو بلاد الفرنجة عبر ممر رونسسفال إلى مدينة بوردو وهناك تمت هزيمة جيش أودو الذي فرَّ من الميدان وسقطت عاصمته مدينة بوردو.

وواصلت القوات الإسلامية تقدمها حتى فتحت مدينة بواتيه ثم وصلت إلى مدينة تورر التي كانت تتمتع بمركز ديني مهم لوجود قبر القديس سان مارتن فيها.

التجأ الدوق أودو إلى شارل مارتل حاجب القصر الميروفنجي ورئيس الأسرة الحاكمة في بلاد الفرنجة الذي شعر بقرب الخطر الإسلامي ضد بلاده فأعد لمواجهته جيشاً ضخماً من الفرنجة والقبائل الجرماتية والتقى مع القوات الإسلامية بالقرب من بواتيه واستمرت المعركة عدة أيام دون إحراز نصر حاسم، إلاَّ أنَّ الفرنجة تمكنوا من قتل عبدالرحمن الغافقي قائد الجيش الإسلامي مما اضطر المسلمين إلى الانسحاب ليلاً إلى الجنوب. [ سالم "1981" 144-146 ]

في سنة (116هـ/734م) عاود المسلمون الإغارة على جنوب فرنسا حيث استولوا على مدينة ليون وناربونه وبقوا هناك حتى سنة (142هـ/759م) وبعد معركة بواتيه استطاع المسلمون الاستيلاء على مقاطعة البروفانس سنة (120هـ/737م) وعلى آرل ودخلوا مقاطعة سان ترويز سنة (276هـ/889م) وبفشل المسلمين في معركة بواتية توقف زحفهم في اوربا .

أ.د.إدريس الحرير

**المصادر والمراجع**

**المصادر الأولية:**

**القرآن الكريم:**

ابن الأبّار، محمد بن عبد الله (ت 658هـ/1260م)

(د.ت) كتاب الحُلّه السَّراء ، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، الشركة العربية للنشر.

ابن الأثير، علي بن أحمد (ت 630هـ/1262م)

(1873) الكامل في التاريخ ، القاهرة، طبعة بولاق .

ابن حوقل ابو القاسم ، النصيبي (ت 367هـ/977م)

(1962) كتاب صورة الأرض، بيروت .

ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (ت 808هـ/1406م)

(1870) العبر وديوان المبتدأ والخبر، القاهرة بولاق .

(د.ت) المقدمة ، القاهرة، المطبعة التجارية .

ابن عبد الحكم ابو القاسم عبدالرحمن، (ت 257هـ/871م)

(1964) فتوح إفريقية والأندلس، تحقيق أنيس الطباع ، بيروت، دار الكتاب اللبناني .

ابن عذاري ابو العباس أحمد (كان حياً 712هـ/1312م)

(1967) البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب ، تحقيق بروفنسال ،بيروت ،دار الثقافة .

ابن قتيبة ، أبومحمد عبدالله بن مسلم (ت 276هـ/889م)

(1963) الإمامة والسياسية، ط3، القاهرة .

البكري، أبوعبيدة عبد الله بن عبد العزيز (ت 487هـ/1094م)

(1857) المُغرب في ذكر بلاد إفريقية - المغرب، الجزائر ، المطبعة الحكومية .

البلاذري، أحمد بن يحيى (ت 279هـ/892م)

(1932) فتوح البلدان ، طبعة محمد رضوان، القاهرة ، المطبعة المصرية .

الحميري، أبوعبدالله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت 866هـ/1461م)

(1988) الروض المعطار، تحقيق لفي بروفنسال، بيروت، دار الجيل .

القيرواني، الرقيق ابو اسحاق ، ابراهيم بن القاسم (ت بعد 417هـ/1026م)

(1968) تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي، تـونس ، نشـر رقيـق السقطي .
المالكي، أبـوبكر عبـدالله بـن محمـد (ت 453هـ/1061م)
(1951) رياض النفوس ، تحقيق حسين مؤمن، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، .
المقـــرى، تقي الدين أحمـــد بن محمـــد (ت 1041هـ/1631م)
(1949) نفح الطيـب مـن غصـن الأندلـس الرطيب، تحقيق محمد محـي الدين، القاهرة .
مؤلف مجهول
(1867) أخبار مجموعة ، حققه لافونتي الكنتره، مدريد .
ياقوت، الحموي شهاب الدين ابـو عبـد الله يـاقوت بـن عبـد الله الحمـوي (ت 626هـ/1258م)
(1955) معجم البلدان ، بيروت .

**المراجع العربية والمعربة :**

أرسلان. شكيب
(1983) تاريخ غزوات العرب، بيروت ، مكتب الحياة .

أبومصطفى، كمال السيد
(2003) محاضرات في تاريخ المغرب والأندلس، الإسكندرية، مركز الإسكندرية للكتاب.

زغلول عبدالحميد سعد
(1979) تاريخ المغرب العربي من بداية الفتح إلى عصور الاستقلال، الإسكندرية منشأة المعارف .

سالم السيد عبدالعزيز
(1981) المغرب الكبير، ج2، بيروت، دار النهضة العربية .

الصوفي ، خالد
(1971) تاريخ العرب في الأندلس الفتح وعصر الولاة، بنغازي، منشورات الجامعة الليبية .

العبادي، أحمد مختار
(1978) في تاريخ المغرب والأندلس، بيروت دار النهضة العربية .

العريني، السيد الباز
الدولة البيزنطية، بيروت، دار النهضة العربية .

عنان، محمد عبدالله
(1997) دولة الإسلام في الأندلس ، القسم الأول، ط4، القاهرة مكتبة الخانجي .

مؤنس، حسين
(1980) معالم تاريخ المغرب والأندلس، الإسكندرية دار المستقبل.

المراجع الاجنبية :

Cheynet Jean Claude,
(2005) Histoire De Byzance, Presses Universitaires De France .
Freeman G.S P.– Greenville,
(1995) Calendriers Islamique, Chretiens, Edition Garnet, France.

Marcais Georges,
(1964) La Berberie Musulmane et l'Orient An Moyen Age, Paris

Aubier Editions Montaingne,.

## ثالثا : النظم والمؤسسات

### الإدارة المركزية والولايات:

لم تتضح التقسيمات الإدارية في العهد الراشدي، لأنّ الفتوحات وإن تمَّ قسم كبير منها في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ (13هـ/634م- 23هـ/644م) فإنّها لم تستقر وتتخذ معالمها إلاّ في العصر الأموي، واتسمت تلك التقسيمات بالطابع العسكري، لأنّ العرب اتخذوا قواعد عسكرية يقومون منها بحملاتهم الحربية وفتوحاتهم، وجعلوها فيما بعد مراكز لإدارة البلاد والأقاليم التي يفتحونها، ولقد اتبع الخليفة عمر بن الخطابﷺ المركزية أسلوباً في الإدارة رغبة منه في أن يسود القانون والعدل على جميع الأفراد والأقاليم التي امتدَّ الفتح الإسلامي إليها، لأنه كان يؤمن إيماناً عميقاً أنَّ المسؤولية أولاً وأخيراً هي مسؤولية الخليفة، وقد ظهر ذلك بوضوح في الولاة الذين كان ينتقيهم وفي مراقبته الشديدة لهم ومحاسبته إياهم وفي ربط أكبر عدد ممكن من الولاة به مباشرة وفي تعيينه عمال الخراج والكتاب والقضاة .

فلما كانت خلافة عثمان بن عفان ﷺ (23- 35هـ /644-656م) يُلاحظ هذا الاتجاه لربط الولايات بالقاعدة التي تمَّ فتحها منها فجمع عثمانﷺ الشام والجزيرة لمعاوية بن أبي سفيان لأن فتوح الجزيرة اتصلت بفتوح الشام وضمَّ برقة وطرابلس لوالي مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وجمع لوالي البصرة عبد الله ابن عامر، خُراسان وسِجستان وفارس ولوالي الكوفة، الوليد بن عقبة ومن بعده لسعيد بن العاص، المناطق الشمالية والشمالية الشرقية كقزوين وزَنجان وأذْرَبيجان والرَّي.

ونظراً لأن الفتن استغرقت أيام الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ (35- 40هـ /656-661م) فقد اقتضى الوضع السياسي والاجتماعي الجديد في العصر الأموي، تنظيماً إدارياً جديداً اضطلع بوضع أسسه معاوية بن أبي سفيان (41- 60هـ /661-680م) الذي عمد إلى اتخاذ اللامركزية في الإدارة سبيلاً لإعادة الاستقرار في الدولة الإسلامية، والعمل على توسيع رقعتها، فلم يجعل أساس هذه الهيئة الإدارية الكفاءة وحدها ، ولكن ضرورة العمل على أن يكون رجالها من شيعته المخلصين أو ممن تربطهم بالبيت الأموي روابط مادية أو منافع يتطلبها التطور الجديد للدولة.

يُلاحظ عند دراسة الإدارة في الولايات التي ارتبطت بالخليفة بالشام مباشرة أن اللامركزية كانت تتسع أحياناً وتضيق أخرى، لأن درجة المزج بين المركزية واللامركزية من أدق الأمور على المشرِّع حين يتصدى للتنظيم الإداري، ومن ثمَّ فإن المشرِّع

كثيراً مايعدِّل في النظم التي يأخذ بها في ضوء ماتسفر عنه النتائج.

**ولاية الشام:**

حين آل الأمر إلى بني أمية اتخذ معاوية دمشق مركزاً للدولة العربية الإسلامية بسبب موقعها المتوسط وتقاليدها الحضارية، وأصبحت الشام الولاية المركزية التي خضعت للخلفاء الأمويين مباشرة؛ وكان الطابع الغالب على أهالي الشام هو الطابع العربي لكثرة القبائل العربية التي أقامت بها قبل الإسلام، ومعظم هذه القبائل إما يمنية من عرب الجنوب أو قضاعية ثم هاجر إلى الشام إثر الفتح الإسلامي كثير من العرب من قيس الذين انتقلوا إلى شمالي الشام .

اعتمد خلفاء بني أمية في إدارة ولاية الشام على عدد من الولاة، فكان لكل جند من أجناد الشام. قِنَّسرين وحمص ودمشق والأردن وفلسطين والٍ أو نائب عن الخليفة، إلّا أنّ صلاحياتهم لم تكن واسعة وإنما كانوا على حد تعبير ابن العديم "بمنزلة الشرط لايستقلون بالأمور والحروب" ، [ ابن العديم"1951"41/1] أي أن مهمة الوالي الرئيسة كانت حفظ الأمن فضلاً عن تعيينه العمال على المدائن والقرى.

حاول معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد من بعده (60- 64هـ /680 –684م) أن يقيما التوازن بين قيس ويمن، وأن يعهدا بإدارة الأجناد إلى زعماء من تلك القبائل حسبما توافر لهم من استقرار وكثرة، فكانت قنسرين والجزيرة بأيدي ولاة من عرب الشمال أو العرب القيسية وكانت حمص والأردن وفلسطين بأيدي ولاة من عرب الجنوب أو اليمانية إلاّ أنّ معركة مرج راهط (64هـ/684م) وما نجم عنها من احتدام العصبيات دفعت عبد الملك بن مروان (65- 86هـ /685 – 705م) رغبة منه في إبقاء الوحدة الداخلية، لمالها من أهمية كبرى في تثبيت دعائم الحكم، إلى أن يسند إمارة الأجناد إلى أبنائه أو إخوته أو أفراد من الفرع المرواني ، واتبع الوليد بن عبد الملك (86-96هـ /705-714م) والخلفاء من بعده هذا النهج ما عدا عمر بن عبد العزيز (99 – 101هـ /717-719م) الذي اتبع أسلوب معاوية في تعيين عمال وفق الأكثرية القبلية في المنطقة.

استمر التوازن نسبياً حتى مقتل الخليفة الوليد بن عبد الملك ( 126هـ/643م) وما نجم عن ذلك من انشقاق بين صفوف الأمويين وانشقاق القبائل فيما بينها، فكان ذلك من الأسباب التي أدَّت إلى إضعاف الأمويين وبالتالي سقوطهم.

**الجزيرة:**

كان إقليم الجزيرة وشمالي الشام وحدة يتمم بعضها بعضاً من حيث ارتباط حصونهما

وتعرّضهما لغارات البيزنطيين، وقد كثر السكان العرب هناك قبل الإسلام وقد قدموا غزاة أو مهاجرين حتى غدت الجزيرة بالنسبة لهم دياراً عرفت بأسماء القبائل التي استقرّت فيها مثل ديار ربيعة وديار مضر وديار بكر . وجاء فتح العرب للجزيرة مترتباً على السير في حركة الفتوح الإسلامية، وقد دعاهم إلى فتحها ارتباطها بالشام عن طريق نهر الفرات والمميزات الاستراتيجية التي يكفلها هذا الفتح لتأمين الشام من الشرق، وارتبطت الجزيرة بالشام إدارياً وحربياً عندما عهد الخليفة عثمان إلى معاوية بولاية الشام والجزيرة وثغورها وكانت الجزيرة في خلافة معاوية تابعة إدارياً لوالي قِنْسرين، فلما كانت خلافة عبد الملك فصل سنة ( 83هـ/702م) الجزيرة عن قنسرين، ويقال إنه فعل ذلك بناء على طلب أخيه محمد بن مروان، فجنّدها عبد الملك فصار جندها يأخذون أعطياتهم من خراجها. وضم إليه عبد الملك أذَربيجان التي كانت من فتوح الكوفة وضم إليه كذلك أرمينية والموصل.

وبقي محمد بن مروان والياً على الجزيرة وأرمينية وأذَرْبيجان طوال خلافة عبد الملك وابنه الوليد بن عبد الملك . واستمر الوضع على ذلك حتى خلافة يزيد بن عبد الملك (101-105هـ/719-723م) الذي عين على أرمينية والياً من قبله، وبقيت أرمينية منفصلة عن الجزيرة حتى خلافة هشام بن عبد الملك (105هـ/723م- 125هـ/742م) وعاد الخليفة الوليد بن يزيد فجمع لمروان بن محمد الجزيرة وأرمينية وأذَربيجان والموصل؛ وقد كانت أردبيل أكبر مدينة في أذَربيجان وعاصمة لها قبل الفتح، إلا أن مروان بن محمد أثناء ولايته اتخذ المرَّاغة معسكراً وبنى فيها دار الإمارة . [ البلاذري"1959" 325 ]

### ولاية العراق أو العراقين (الكوفة والبصرة):

عد خلفاء بني أمية ولاية العراق مركزاً للقسم الشرقي من الدولة العربية الإسلامية، ولذلك كان أمير العراق في الغالب يشرف على العراق والأقسام الشرقية والشمالية الشرقية المتاخمة والبعيدة، وعن المدائني قوله: "عمل العراق من هيت إلى الصين والهند والسند والرَّي وخُراسان وسِجستان وطَبَرستان إلى الدَّيلم والجبال، إنما قالوا ذلك لأن هذا كله في أيام بني أمية يليه والي العراق لا لأنه منه" . وكان أول وال جمع له العراقين (الكوفة والبصرة) زياد بن أبيه سنة ( 50هـ/670م). وسار على هذا النظام أكثر خلفاء بني أمية، حتى كان عدد الأمراء الذين تولوا العراقين اثني عشر أميراً حكموا مدة 64 سنة من تسعين سنة وهي مدة بقاء الدولة الأموية، أما الست والعشرون سنة الباقية، فقد اتبع الخلفاء التقسيم الذي كان

سائداً في عهد الخلفاء الراشدين حيث كان لكل من البصرة والكوفة ولاتهما الذين يشرفون على كل منهما وعلى الولايات التابعة لها، وكان الولاة يقيمون في كل من البصرة والكوفة فلما قضى الحجاج بن يوسف الثقفي (75-95هـ /694-713م) على ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، بنى مدينة واسط سنة 83هـ أو 84هـ ، لأنه رأى من حسن الإدارة أن يكون مقام والي العراقين قريباً من حاضرتيه الكبيرتين . وأصبحت واسط مقر ولاة العراق إلاَّ أن بعضهم اتخذ الحيرة مقرَّاً كيوسف بن عمر الثقفي (120-126هـ /737-743م) وعبد الله ابن عمر بن عبد العزيز (126هـ/743م - 127هـ/744م).

أولى خلفاء بني أمية هذه الولاية اهتماماً خاصاً لأنها كانت موطن القبائل المتمسكة بالروح القبلية، فضلاً عن وجود خليط عظيم معهم من سكان تلك المنطقة من الفرس والترك والهنود، وكان لهذا الخليط أمزجته المتباينة وثقافاته المتفاوتة، كما كانت العراق مسرحاً لمشاهد الخوارج والشيعة، كما أن طلائع الحركات الشعوبية أخذت جذورها تضرب في أعماق فارس. تطلب هذا الوضع نمطاً خاصاً من الولاة وعمال الإدارة من أصحاب الكفاءة العالية والتدريب العميق دون نظر إلى قرابة أو مكانة خاصة من البيت الأموي، واشتهر في عهد الفرع السفياني زياد بن أبيه (45- 53هـ /665-672م) وعلى عهد الفرع المرواني الحجاج بن يوسف الثقفي وخالد بن عبد الله القسري (105- 120هـ /723-73م).

فقد نجح زياد في الإدارة إلى حد بعيد، لأنه كان يؤمن بأن خير مايصلح الأموز في ولايته "لين من غير ضعف، وشدة من غير جبروت ولا عنف" ، [ الطبري "1971"219/5] وكان زياد يطلب من عماله في سبيل تسهيل إدارة ولايته استعمال عمال العذر أو المعذرة ، وتابع الولاة بعد زياد استعمال هذا النوع من العمال، فنرى عمر بن هبيرة (103- 104هـ /721-722م) يوصى مسلم بن سعيد حين ولاه خراسان أن يستخدم عمال العذرة فلما سأله ماعمال العذرة قال: مُر أهل كل بلد أن يختاروا لأنفسهم فإذا اختاروا رجلاً فوله، فإذا كان خيراً كان لك، وإن كان شرّاً كان لهم دونك وكنت معذوراً" . [الطبري"1971" 35/7 ]

ويورد ابن عبد ربه الرواية نفسها ولكنه لايستخدم عمال العذر وإنما عمال القرى.كان زياد لايسمح بأي تدخل من الخليفة إذا كان هذا التدخل يؤدي إلى إيذاء المصلحة العامة في ولايته، وفي هذا صورة عن اللامركزية واضحة، يذكر البلاذري رواية عن

المدائني، أنَّ مولى لفاختة بنت قرظة سأل معاوية أن يكتب له كتاباً منشوراً بأن يُخلي له سوق الطعام بالبصرة، فلا يبيع فيه أحد غيره حتى يُخرج مافي يده، فكتب له بذلك وقال له: ويحك إنِّي أُحذرك زياداً، فلما منع الناس من بيع الطعام، غلا السعر، فركب زياد فوجده على سطح وهو يناول الدنانير والرقاع فأمر به فأنزل وأمر أن تقطع يده وأن يدفعوا إليه منشوره ويده، فرجع إلى معاوية، فقال له: لقد نهيتك وحذرتك فأبيت... وكان لزياد فضل كبير في تثبيت سلطان البيت الأموي وتوطيده في الأقاليم التي عُهد إليه بإدارتها، وفي تثبيت روح الجماعة والانقياد للحكم المركزي هذه الأفكار التي حاول الإسلام زرعها في نفوس العرب، والتي لاقت مقاومة من القبائل منذ حياة الرسول ﷺ وفي عصر الخلفاء الراشدين.

ويُعد الحجاج كذلك خير من حمل لواء الإدارة اللامركزية في ولايته العراق التي امتدت مدة تقارب العشرين سنة، ومن الكوفة والبصرة أولاً ثم من واسط بعد ذلك، كان الحجاج يدير هذه الولاية الكبيرة التي امتدت كما في عهد زياد لتشمل خراسان وسِجستان وكِرمان وفارس وحوض السند والأهواز والبحرين .

ظل الحجاج يستمد قوته بالدرجة الأولى من تأييد الخليفة له، ويعد نفسه مسؤولاً أمامه، وإن كانت هذه القوة أكثر وضوحاً في خلافة الوليد بن عبد الملك، مما كانت عليه في خلافة عبد الملك، الذي كان يراقب سيرته وأعماله، ويوجه إليه بين الحين والآخر تعليمات وإرشادات أو انتقادات، ومع أن المصادر تتحامل على الحجاج إلا أنّها تكاد تَجمع على أمانته، وعدم تلاعبه بأموال الدولة أو محاباته لأقربائه وأصهاره والمقربين إليه، وأنّه كان يؤثر مصلحة الدولة على أي اعتبار آخر.

ووصف الحجاج سياسته التي كان يتبعها في إدارة ولايته في كتاب للوليد بن عبد الملك قال فيه "إني أيقظت رأيي وأنمت هواي، فأدنيت السيد المطاع في قومه، ووليت المجرِّب الحازم في امره، وقلَّدت الخراج الموفر لأمانته.. وصرفت السيف إلى النطف (الرجل المريب المسيء والثواب إلى المحسن البريء. فخاف المريب صولة العقاب، وتمسك المحسن بحظه من الثواب" . [ ابن عبد ربه"1949-1968" 36/5]

استطاع الحجاج بفضل الصلاحيات الواسعة التي كان يتمتع بها، وبفضل الإدارة اللامركزية التي طبقها خلفاء بني أمية، أن ينتقي قادة فتوحه في المشرق، فهو الذي وجَّه قتيبة بن مسلم الباهلي عامله على خراسان لفتح ماوراء النهر، فاتمَّ قتيبة مانُدِب من أجله، ووصل إلى حدود الصين، وهو الذي سير محمد بن القاسم الثقفي لفتح حوض نهر السند

والهند. ولم يكن الحجاج يخرج في الحملات العسكرية، وإنما كان يشرف على تجهيزها بنفسه ويزودها بكل ماتحتاج إليه كما أنّه كان يُمدِ القادة العسكريين بآرائه ونصائحه.

إن السلطات التي تمتّع بها كل من زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف الثقفي، كانت سلطات كالتي يتمتع بها الخليفة مع فارق واحد، وهو أنهما كانا مسؤولين تجاه الخليفة عن تصرفاتهما، وقد تمتع بهذه الصلاحيات معظم ولاة العراق، وكان أمير العراق عندما يعين نائباً عنه في أحد المصرين أو المصرين معاً. أثناء إقامته في واسط، يخول نائبه معظم السلطات التي يتمتع بها نفسه. وكانت الصلاحيات التي يتمتع بها الولاة والعمال في الأقاليم والمناطق التابعة إدارياً لأمير العراق مع خضوعهم لمراقبته ، قد ساعدت على تحقيق نوع من الانسجام بين الأقاليم والمراكز.

## ولاية مصر:

أولى الأمويون مصر عناية كبيرة بعد أن تبينت لهم أهميتها أثناء الصراع بين الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ ومعاوية بن أبي سفيان. وقدرة تلك البلاد بسبب موقعها الفريد ومواردها الوافرة على أن ترجح كفة من يسيطر عليها، واستطاع معاونه أثناء سعيه للحصول على الخلافة انتزاع مصر من التبعية لعلي بن أبي طالب ﷺ بفضل مهارة عمرو بن العاص وذلك سنة (38هـ/658م)، ثم استفاد منها في تحقيق النصر النهائي له.

فرضت أهمية مصر على الأمويين اختيار أمرائها من طبقتين متميزتين، الأولى من أصحاب الولاء التام للبيت الأموي مع القدرة العالية على التصرف السياسي والتنظيم الإداري، والثانية من أبناء البيت الأموي ومن أصحاب القربى المباشرة للخلفاء أنفسهم، فكان من أمراء مصر زمن الفرع السفياني عمرو بن العاص فاتح مصر، وصاحب الفضل على معاوية، وعتبة بن أبي سفيان أخو الخليفة نفسه ثم مَسْلمة بن مُخلَّد الأنصاري سنة (47هـ/667م ) . لمكانته من الخليفة عثمان ﷺ ودفاعه عنه، وكان مسلمة أول من جمعت له مصر والمغرب من طرابلس إلى طنجة وكانت ولايته عليها خمس عشرة سنة، وتوفي وهو والٍ عليها سنة (62هـ/681م ) .

أما في عهد الفرع المرواني، فقد كان من أهم ولاتها عبد العزيز بن مروان بن الحكم الذي وليها عشرين سنة (65هـ/684م – 85هـ/704م ) وتصرف في ولايته تصرفاً مطلقاً وكرَّس مواردها المالية لدعم إمارته والنهوض بمستوى المرافق العامة فيها، وكانت بلاد مصر كلها وبلاد المغرب وغير ذلك لعبد العزيز مغانمها وخراجها وجبايتها .

وتُعد ولاية قُرَّة بن شريك على مصر (90- 96هـ /708-714م) نموذجاً

لسياسة الأمويين في اختيار أمراء مصر من الشخصيات المشهود لها بالولاء مع الكفاءة الإدارية، فقد ساعدت أوراق البردي التي اكتشفت في كوم إشقاو على إلقاء شعاع من النور على حكم الولاة بمصر، وبوجه خاص في عهد ولاية قُرَّة بن شريك، وتضمنت أوراق البردي في تفصيل دقيق إدارة قُرَّة بن شريك من حيث أسلوبه في إسناد المناصب، ومراقبة العمال والإشراف على الشؤون المالية لولايته، وعن قوة الصلة بين الأمير في الفسطاط ورجال إدارته في سائر أرجاء البلاد، وسرعة إصدار الأوامر وسرعة تلبيتها في الوقت نفسه كما تشير إلى أن الإدارة في الفسطاط كانت ساهرة على كل شيء على الرغم من أنها كانت تحاول أن تتفادى إزعاج السلطات المحلية في إدارتهم المحلية.

إذا استثنينا عتبة بن أبي سفيان الذي عينه معاوية على الصلاة في مصر (43-44هـ /663-664م) فإنّ الولاة حتى نهاية خلافة الوليد بن عبد الملك كانوا على صلاتها وحربها وخراجها، وهذا كان يجعلهم مطلقي التصرف في شؤون الولاية، إلاّ أنه ابتداءً من خلافة سليمان بن عبد الملك، نجد فصلاً للإدارة المالية، إذ عيّن أسامة بن زيد التنوخي على خراجها .

واستمر الأمر في خلافة عمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك. وأصبح عامل الخراج مسؤولاً أمام الخليفة مباشره وليس أمام الوالي؛ وكان هذا يُحدُّ من سلطة الوالي كثيراً ويؤدي إلى توتر العلاقات بين الوالي وعامل الخراج، ولعلّ أبلغ مثل يرينا مدى ماوصلت إليه سلطة عامل الخراج هو عبيد الله بن الحبحاب عامل خراج مصر زمن الخليفة هشام بن عبد الملك، فقد ظلّ عاملاً على الخراج منذ أن ولي هشام سنة (105هـ/723م ) حتى خرج إلى ولاية إفريقية سنة ( 116هـ/734م ) . وخلال هذه المدة تتابع على حكم مصر أربعة ولاة، وامتدّ نفوذه إلى عزل الولاة وتوليتهم برضى الخليفة، ويعلق ابن تغري بردي، "أن ولاية الوليد بن رفاعة لم تطل على مصر إلا لخروج عبيد الله بن الحبحاب المتولي على خراج مصر منها، وتقدَّم عزل جماعة من العمال بمصر بسبب عبيد الله المذكور" . [ ابن تغري بردي 1929-1930"1/266 ] .

ولكن إذا كانت صلاحية الوالي قد قيدت في مصر، فإنها لم تقيد في العراق، في خلافة هشام بن عبد الملك، فقد تمتع خالد بن عبد الله القسري، ويوسف بن عمر الثقفي بكل الصلاحيات التي تمتع بها زياد والحجاج، وربما يكون الدافع إلى هذا الفصل بين الولاية على الصلاة والولاية على الخراج هو رغبة

الخلفاء في السيطرة على الأمور المالية. ولاسيما أن مصر لم تعد قاعدة مباشرة للفتوح في إفريقية بعد أن أصبحت ولاية مرتبطة بالخليفة مباشرة وقاعدة لمتابعة الفتوح في المغرب الأقصى والأندلس.

**ولاية إفريقية:**

كان العرب قد أخذوا لفظ إفريقية عن البيزنطيين، وكان الرومان قبلاً قد أطلقوا اسم ولاية إفريقية القنصلية ( Africa Proconsulari) على قرطاجنة وما حولها . وأخذ معنى هذا اللفظ يتسع تدريجياً حتى أصبح في العصر البيزنطي يطلق على كل مادخل في طاعة الروم من هذه القارة، من برقة إلى طنجة. أما المؤرخون العرب كابن عبد الحكم والبلاذري وابن عذاري فقد أطلقوا اسم المغرب على كل مايقع غرب مصر واسم إفريقية على المناطق الواقعة غرب بَرقة.

ظهرت ولاية إفريقية عندما بنى عقبة بن نافع مدينة القيروان (50-55هـ/670-674م) فبدأت أنظار العرب تتجه إليها، إذ أصبح لهم فيها عاصمة ومركز يتبعه الأقليم المحيط به ثم أصبحت قاعدة ومركزاً لكل المناطق التي فتحها الولاة حتى طنجة.

يلاحظ أنَّ عدداً من ولاة إفريقية كانوا من الموالي ومن أشهرهم أبو المهاجر دينار مولى مَسلمة بن مُخلد (55-62هـ/674-681م ) الذي وصلت غزواته إلى أبواب تلمسان، وكان من نتائج سياسته المتميزة أن دخل العديد من زعماء البربر في الإسلام أو في حلف المسلمين وكان من بينهم كُسيلة زعيم قبائل أوْربة في المغرب الأوسط .

وعين سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد مولى قريش من الشام والياً على إفريقية فكانت ولايته سنتين، وسار كما يقول ابن عذاري "أحسن سيرة وأعدلها في إفريقية . [ ابن عذاري"1968" 44/1 ] وفي سنة (100هـ/718م) ولّى عمر بن عبد العزيز إسماعيل بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم ولاية إفريقية وبها من قريش من بها . وكان أهم أعماله حرصه على نشر الإسلام بين البربر حتى أسلم بقية البربر بإفريقية بين يديه، وفي سنة ( 116هـ/734م ) ، ولَّى هشام بن عبد الملك، عبيد الله بن الحبحاب مولى بني سلول ولاية إفريقية، ويبدو أنه قام بعمليات تنظيمية في المغرب الأقصى بتقسيمه إلى قسمين السوس الأدنى، وهو طنجة وما والاها، والسوس الأقصى في الجنوب، وعيّن إبنه إسماعيل على السوس الأقصى، وعمر ابن عبد الله المرادي عاملاً على طنجة وهو الذي حدثت في ولايته ثورة البربر سنة (122هـ/739م ) .

**ولاية الحجاز:**

اهتم الأمويون اهتماماً خاصاً بولاية الحجاز، لأنها كانت تضم أبناء الصحابة الذين

تباينت مشاربهم، كما أن كثيرين من معتزلي السياسة كانوا يفدون إلى المدينة ليكونوا بعيدين عن الضوضاء.

انقسم الحجاز في العصر الأموي إلى أربع مناطق إدارية مركزها المدينة ومكة والطائف واليمامة . وكثيراً ماكان الخلفاء ينتقون لهذه الإمارة عُمَّالاً من البيت الأموي نفسه ومن أصحاب الخبرة والقادرين على فهم نفسية الأهالي ومواجهتهم بما يتفق وميولهم. ووضع أسس هذه السياسة معاوية بن أبي سفيان الذي جعل من مدن الحجاز مدرسة يدرب فيها أبناء البيت الأموي على إدارة تلك الولاية، والسماح لهم بالتدرج في تلك الإدارة، فكان إذا أراد أن يولي رجلاً من بني حَرب بدأ بأن عهد إليه بحكم الطائف، فإذا رأى منه خيراً أو نجاحاً ولاَّه معها مكة، فإن أحسن إدارة هاتين المدينتين ولاَّه إلى جانبهما المدينة، وقيل عنه حينئذ أنه حذق .

اشتهر من أمراء هذه الولاية مروان بن الحكم وسعيد بن العاص في الحقبة السفيانية. وأبان بن عثمان في عهد عبد الملك بن مروان، وأشهر من ولي الحجاز عمر بن عبد العزيز في خلافة الوليد بن عبد الملك (87-93هـ /706-711م) وهؤلاء كلهم ينتمون إلى البيت الأموي. وقد سلك عمر بن عبد العزيز حين دخل المدينة والياً مسلكاً يعيد للناس سيرة عمر بن الخطاب ﷺ لإرضاء أمزجتهم بالحكم، إذ دعا عشرة من فقهاء المدينة وأخبرهم أنّه دعاهم لأمر يؤجرون عليه يكونون فيه عوناً على الحق وأنه لايريد أن يقطع أمراً إلاّ برأيهم أو برأي من حضر منهم. وأنهم إذا رأوا أحداً يتعدَّى أو بلغتهم من عامل له ظلامة أن يبلغوه ذلك . واشترط عمر قبل أن يتولّى الإدارة أن تترك له حرية العمل فقال الوليد: "اعمل بالحق وإن لم تدفع إلينا درهماً". [ كرد علي "1968" 174/2]

بقي عمر بن عبد العزيز والياً على الحجاز حتى عزله الوليد بن عبد الملك بتأثير من الحجاج الذي كتب إلى الوليد يخبره. "أن مُرَّاق أهل العراق وأهل الشقاق قد جلَوا عن العراق ولجأوا إلى المدينة ومكة وأنّ ذلك وهن"، وكان ذلك ردّاً من الحجاج على كتاب كان قد أرسله عمر بن عبد العزيز إلى الوليد يخبره بعسف الحجاج أهل عمله بالعراق واعتدائه عليهم وظلمه لهم بغير حق ولا جناية". [الطبري "1971" 481/6-482 ]

كانت مكة والطائف كثيراً ماتسند إدارتهما لوالي المدينة وفي حالات أخرى كان هذان المنصبان يسندان لواليين مرتبطين بالخليفة مباشرة، فالطبري حينما يورد خبر عزل عمر بن عبد العزيز يشير إلى أنه عزل عن الحجاز (مكة والطائف والمدينة بما في ذلك اليمامة التي كانت دوماً تابعة إدارياً لوالي المدينة). وأن الوليد ولّى خالد بن عبد الله

القسري مكة وعثمان بن حيان المدينة، كما أنه بعد أن قُتل عبد الله بن الزبير، ولّى عبد الملك الحجاج بن يوسف الثقفي مكة والمدينة والطائف سنة (73هـ/692م). فلما شخص الحجاج سنة (75هـ/694م) إلى العراق، عين عبد الملك والياً على المدينة وآخر على مكة.

أما ولاية اليمن، فكانت تشتمل على تهامة ونجد اليمن ومهرة وحضرموت وبلاد صنعاء وسائر مخاليف اليمن، وقد جمعت اليمن كلها لوالٍ واحد في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، واستمر الأمر على هذا الوضع إلى نهاية العصر الأموي، حيث كان والي اليمن يعينه الخليفة الأموي بدمشق، ويتمتع بصلاحيات كتلك التي كان يتمتع بها ولاة الأمصار، وإن كانت المسؤوليات الملقاة على عاتقه أقل من المسؤوليات الملقاة على عاتق الولاة الذين كانت ولاياتهم قواعد للفتح.

إذا استثنينا ولاية الشام التي كانت مقر الخليفة الأموي، فإنه يتبين لنا أن الولايات التي كان يتم تعيين ولاتها من الخليفة مباشرة هي ولايات العراقين، والجزيرة ومصر والحجاز واليمن وولاية إفريقية، وأن الخلفاء بشكل عام منحوا ولاتهم سلطات واسعة، وعرَّف الفقهاء المسلمون في وقت متأخر هذا اللون من الإدارة اللامركزية بأنها إمارة استكفاء، وهي التي يعقدها الخليفة لمن يختاره من رجاله الأكفاء، فيكون فيها الأمير مسؤولاً عن تدبير الجيوش وترتيبهم في النواحي، وتقدير أرزاقهم، والنظر في الأحكام وتقليد القضاة والولاة، وجباية الخراج، وقبض الصدقات، وتقليد العمال فيها وتفريق ماستحق منها، وحماية الدين من أي تغيير أو تبديل، وإقامة الحدود في حق الله وحقوق الأشخاص، والإمامة في الجمع والجماعات أو يستخلف عليها، وتسيير الحجيج من عمله وإذا كان الإقليم ثغراً متاخماً للعدو، كان على الأمير واجب آخر، هو جهاد من يليه من الأعداء وتقسيم الغنائم في المقاتلة وأخذ الخمس لأهل الخمس. أي أن الأمير أو الوالي كان يتمتع خلال إشغال منصبه باستقلال ذاتي، ويتمتع بكل الصلاحيات التي يتمتع بها الخليفة، إلا أنه لم تكن له الصلاحية في أن يسير إلى الخليفة ويترك أمر ولايته إلا بإذنه، كما أنه كان مسؤولاً تجاه الخليفة ويعمل باسمه، وقد رأينا أنّ هذه الصلاحيات الواسعة كانت تقيد أحياناً تبعاً للأسلوب الإداري الذي يعتقد الخليفة أنه الأنسب لتحقيق مصلحة الدولة.

هذا ويجب الإشارة إلى أن القادة المسلمين في العهد الراشدي، تركوا الإدارة المحلية بيد الحكام المحليين في المدن والمقاطعات التي صولحت، واتبع الأمويون هذا الأسلوب فابقوا الحكام المحليين في بَلْخ والطَالَقَان، والفارياب والجُوزجان. وترك قتيبة بن مسلم

الباهلي فاتح ماوراء النهر للصُّغد والصَغانيان وخُوارِزم حكامها مقابل مبالغ محددة من المال والتزامات عسكرية، وإذا كان قُتيبة قد عيَّن الولاة في كثير من المقاطعات التي افتتحها فإن هؤلاء الولاة كانوا قادة عسكريين مهمتهم حفظ الأمن والنظام وعمال خراج، بينما كانت الإدارة المحلية في يد السلالات الحاكمة المحلية .

وعلى الرغم من المعارك العنيفة التي خاضها البربر ضد العرب، فإن أبا المهاجر دينار الذي وصل في فتوحه إلى تلمسان، ترك الزعيم كُسيلة بن لمزم الذي أسلم على يديه على تلمسان ونواحيها ، كما أنَّ حسان بن النعمان الغسّاني، أكرم أبناء الكاهنة بعد مقتلها، وأكرم سكان الأوراس واحترمهم، وعقد للأكبر من أولاد الكاهنة على قومه من جراوة، وعلى جبال الأوراس . وحينما قدمت كتامة على موسى بن نصير، صالحهم، وولَّى عليهم رجلاً منهم .

وهكذا يمكن القول إنَّ الإدارة العربية المباشرة اقتصرت على الأمصار ومدن الحاميات والمواقع العسكرية، بينما احتفظت المناطق التي صالحت بإدارتها المحلية مع الاعتراف بسيادة العرب، ولكن السيادة العربية المباشرة بدأت تتسع في القرن الثاني للهجرة مع انتشار الاسلام والعربية.

كان يساعد الوالي في العصر الأموي صاحب الشرطة الذي كان يُعد الرجل الإداري الثاني بعد الوالي، وكان بمثابة النائب للوالي، يؤم الناس في الصلاة إذا مرض الوالي أو إذا خرج من مقر ولايته... وكان صاحب الشرطة يعيّن أحياناً والياً على البلاد إذا ماعزل الوالي أو مات أو تنحى عن أمور ولايته، فمثلاً كان حفص بن الوليد على شرطة مصر قبل أن يلي مصر على صلاتها من الخليفة هشام بن عبد الملك .

أما في المركز فيلاحظ أن صاحب الشرطة كان يرافق الخليفة في حله وترحاله في حالة السلم والحرب ، ويمسك بزمام الأمور في حال وفاة الخليفة .

كان تنفيذ العقوبات التي يفرضها الخلفاء والولاة فضلاً عن ضبط الأمن والنظام من أهم المسؤوليات الملقاة على عاتق أصحاب الشرط، ولذلك كان على صاحب الشرطة أن يجنّد تحت إمرته رجالاً مخلصين وغير متحيزين، وكان يسعى لاختيارهم أحياناً غرباء عن المدينة أو عن الدائرة التي كان مسؤولاً عنها، فعندما ولّى مروان بن الحكم والي المدينة في خلافة معاوية بن أبي سفيان، مصعب بن عبد الرحمن شرطته قال مصعب: إني لأضبط المدينة بحرس المدينة فابغني رجالاً من غيرها، فأعانه بمئتي رجل من أهل أيلَة فضبطها ضبطاً شديداً. [ وكيع "1947-1950"119/1 ] وكان على

صاحب الشرطة أن يكون قوي الشخصية مهاباً مسموع الكلمة وموضع ثقة مطلقة من الخليفة أو الوالي ، ومن هنا لانعجب إذا رأينا مرتب صاحب الشرطة مرتفعاً، كما كان الحال زمن والي الكوفة بشر بن مروان (71-75هـ /690-694م) إذ بلغ مرتب عِكْرِمة بن رَبْعيّ بن عُمير صاحب شرطته مئة ألف درهم في السنة ، وقد شغل هذا المنصب أيضاً زمن الحجاج حيث يحتمل أنه كان يتقاضى هذا المرتب نفسه.

إلى جانب صاحب الشرطة الذي كان الوالي يعتمد عليه في إدارة ولايته وُجد القاضي الذي كان يُعد ركناً من الأركان التي تثبت السلطان، فقد أثر عن عمر بن عبد العزيز قوله: "إن للسلطان أركاناً لايثبت إلاّ بها، فالوالي ركن، والقاضي ركن، وصاحب بيت المال ركن والركن الرابع أنا" . [ الطبري "1971" 568/6 ] فالقاضي هو المسؤول عن تطبيق العدل، والعدل كما هو معروف أساس الملك.

كان معاوية أول خليفة امتنع عن القضاء ودفعه إلى غيره فكان له قضاة في قاعدة ملكه فضلاً عن قضاته في الأمصار وكان خلفاء بني أمية يختارون هم أنفسهم القضاة في عاصمة الخلافة ويتركون اختيار القضاة في الأمصار لأمرائها إلا أنه ابتداء من خلافة سليمان بن عبد الملك نجد عودة إلى جعل تعيين القضاة أمراً عائداً إلى الخليفة، وهذا مما يزيد في سلطة القاضي ويجعله أكثر استقلالاً إذ لايستطيع الوالي عزله إذا كان تعيينه صادراً عن الخليفة وبأمر منه.

كان القضاء في المسائل الجنائية من اختصاص الخلفاء والولاة في صدر الإسلام وإن كانت لاتوجد في ذلك العصر حدود دقيقة واضحة بين الاختصاصات القضائية لكل من الولاة والقضاة، وكان معاوية أول من دفع إلى قاضٍ حق النظر في مسائل محدودة من القضاء الجزائي، إذ كتب إلى القاضي سُلَيم بن عتر (40- 60هـ /660-679م ) في مصر يأمره بالنظر في الجراح وأن يرفع ذلك إلى صاحب الديوان، "فكان الرجل إذا أُصيب فجرح، أتى القاضي وأحضر بيِّنة على الذي جرحه، فيكتب القاضي بذلك الجرح قصته على عاقلة الجارح (والعاقلة هم القرابة من قبل الأب الذين يعطون دية قتل الخطأ) ويرفعها إلى صاحب الديوان فإذا حضر العطاء اقتص من أعطيات الجارح ماوجب للمجروح، وينجَّم ذلك في ثلاث سنين" . [ الكندي "1908"309]

ومع أنه ليس بين أيدينا سجلات تساعد على معرفة نوع القضايا التي كان يتولى القضاة النظر فيها، فإنه يمكن القول أن القضاة أضيفت إليهم تدريجياً مهام أخرى فضلاً عن الفصل بين الخصوم، كاستيفاء بعض الحقوق

العامة للمسلمين والنظر في أمر المحجور عليهم والمفلسين واليتامى وفي وصايا المسلمين وأوقافهم، ففي سنة (86هـ/705م ) تولى قضاء مصر عبد الرحمن بن معاوية حديج فنظر في أموال اليتامى وضمن عريف كل قوم أموال يتامى تلك القبيلة . وفي خلافة هشام بن عبد الملك نظر قاضيه توبة بن نمر الحضرمي (115-120هـ/733-737م ) في الأوقاف أي الأحباس كما كانت تسمى وأخذها من أيدي القائمين عليها قائلاً: " ما أرى مرجع هذه الصدقات إلاّ إلى الفقراء والمساكين فأرى أن أضع يدي عليها حفظاً من الضياع والتوارث" . [ الكندي "1908" 436]

وإنه مما يلفت النظر أن عدداً من القضاة في مصر كان يجمع لهم القضاء والشرطة وكان أول قاض جمع له القضاء والشرطة عابس بن سعيد المرادي من قبل الأمير مسلمة بن مُخلّد سنة ستين للهجرة، وجمع عبد العزيز بن مروان ليونس بن عطيّة القضاء والشرطة سنة أربع وثمانين كما أن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج كان على الشرط ثم ولي القضاء وجمعا له جميعاً سنة ست وثمانين. وكان أول قاض قضى على المدينة في خلافة معاوية لمروان بن الحكم. عبد الله بن نوفل وقد ضم مروان إليه الشرطة مع القضاء وولي مصعب بن عبد الرحمن الشرطة والقضاء في سنة (53هـ/672م) في المدينة . أما القضاة في الشام فكان يعهد إليهم أحياناً بإمرة دمشق أو بالغزو، إلاّ أنّ جهدهم الأكبر كان موزعاً بين القضاء وتفقيه الناس وتدريسهم.

كان بعض القضاة في العصر الأموي لايأخذون على القضاء أجراً، لأن القضاء علم والعلم لايباع وإنما يتبرع به لوجه الله، ويقال إن الوليد بن عبد الملك ألحّ على قاضي دمشق زُرعة بن ثُوب حتى أعطاه مزرعة مع خدمها وآلتها وحلف له أنها من صلب ماله، فقال: أقبلها منك وأشهدك أن ثلثاً منها في سبيل الله، والثلث الثاني ليتامى قومي ومساكينهم والثلث الثالث لرجل صلاح يقوم عليها ويؤدي الحق فيها، ثم إني أحب أن تأخذ مني ماأجريت علي من الرزق.. لأني لا أحب أن آخذ على ماعلمني الله أجراً . و لم يأخذ عبدُ الله بن يزيد بن خذامر في مصر عن القضاء درهماً ولا ديناراً ... ذلك ماكان يفعله بعض القضاة، أمّا القاعدة فهو أن يكون للقاضي رزق يجري عليه من بيت المال ليفرغ من هم المعيشة إلى هَمِّ القضاء. وقد فرض عمر بن الخطاب ﷺ للقاضي شريح مئة درهم في الشهر ، ويقال إن الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ رزق شريحاً خمسمئة درهم في الشهر . وعندما حاول زياد بن أبيه أن يزيده في رزقه أبى، فاقترح أن يوليه عملاً يجري عليه رزقه فولاّه بيت المال وأجرى عليه ألفاً . وكان رزق القاضي حجيرة الأكبر في ولاية عبد العزيز بن مروان، ألف دينار،

وهي مجموع رواتبه من القضاء والقصص وبيت المال مع عطائه وجائزته .

كان يساعد الوالي في إدارة ولايته أيضاً عدد من المؤسسات الإدارية التي عُرفت بالدواوين في العصر الأموي وهي أشبه ماتكون بالوزارات في وقتنا الحاضر.

## المؤسسات الإدارية : الدواوين

إذا كان المؤرخون يذكرون الديوان بشكل عام في خلافة عمر بن الخطاب وعثمان ابن عفان ﷺ كذكرهم لديوان المدينة والكوفة والبصرة، فإنّه يلاحظ ابتداء من خلافة معاوية ابن أبي سفيان ذكرهم لدواوين في الشام والأمصار لها اختصاصاتها، كديوان الخراج وديوان الجند، وديوان الرسائل وديوان الخاتم، وينفرد الجهشياري بذكر ديوان الصدقة في خلافة هشام بن عبد الملك (ت 125هـ/742م )، ومع أننا نجد معلومات متناثرة في مصادرنا عن البريد واهتمام الخلفاء به، فإنّ القلقشندي (ت 820هـ/1417م) هو أول من يذكره كديوان ظهر في العصر الأموي، ويرى المقريزي (ت845هـ/1441م) أن أهمَّ الدواوين على مر العصور الإسلامية، كان ديوان الخراج، وديوان الجند وديوان الإنشاء أو المكاتبات، لأنه لابد لكل دولة من استعمال هذه الأقسام الثلاثة ، مما يدل على أن الدواوين الأخرى لم تكن لها تلك الأهمية، وأنّها قد تظهر في مرحلة من المراحل ثم تضمحل وتتلاشى بزوال الأسباب التي دعت لوجودها.

ظهر في الخلافة الأموية نوعان من الدواوين: مركزية مقرها الشام ودواوين إقليمية مقرّها حواضر الولايات، وقد انتظم العمل في هذين النوعين من الدواوين على وفق قواعد واحدة في إدارتها وأهدافها ولاسيما في مجال دواوين الخراج والجند والرسائل.

ديوان الخراج: يُعد هذا الديوان من أهم دواوين الدولة لأنّه مصدر جميع الأموال للأقاليم والدولة، ومنذ أن أسس عمر بن الخطاب ﷺ الديوان، وجد في الكوفة والبصرة والشام ومصر، ديوانان، أحدهما بالعربية لإحصاء الناس وأعطياتهم، والآخر لوجوه الأموال بالفارسية في العراق, وبالرومية (اليونانية) في الشام ومصر، وإذا كان المقريزي يذكر أنها كانت بالقبطية في مصر ، فوثائق الخراج التي عثر عليها حديثاً دلَّت أنّ اللغة اليونانية كانت هي اللغة الرسمية، وإن كانت معها تعليقات بالقبطية .

استطاع معاوية بن أبي سفيان بمعاونة واليه زياد بن أبيه في المشرق وسرجون بن منصور صاحب ديوان الشام وأثناس (Athanasius) صاحب ديوان الخراج في مصر أن ينظم الأمور المالية بما يتفق

ومصلحة الدولة، فقد كان معاوية أول من أمر بتسجيل سجلات أو حفظها بمقادير الخراج (الجزية + الخراج) لكل منطقة أو إقليم . ولا شك أن ديوان الخراج المركزي كان يضم نسخاً من هذه السجلات لكي يطّلع الخليفة على الأموال التي كانت ترد إلى دواوين الخراج في الأمصار. وميّز معاوية تمييزاً واضحاً بين دخل أرض الخراج ودخل الصوافي ، وأنشأ مبدأ وضع الصوافي عموماً تحت سلطة البيت الحاكم . وأمر أن تسهم كل ولاية بإرسال الفائض إلى بيت المال بدمشق لأنه لم يكن أمام معاوية من دخل يعتمد عليه سوى دخل الشام، والشام كما قال معاوية، "ليس لها رجال العراق وأموالها" . [ ابن قتيبة "1967" 93/1 ] .

وكان ديوان خراج العراق من أهم دواوين الخراج، لما كان يدره سواد العراق والمناطق التابعة إدارياً لوالي العراق من أموال خراجية، لأنه منذ أن خططت الكوفة والبصرة في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ انقسم العراق إلى ولايتين، كل واحدة مستقلة عن الأخرى في تشكيلاتها الإدارية ومصادر فيئها، وساحات حربها فكان ديوان البصرة مسؤولاً عن جبايات المناطق التي فتحت على أيدي مقاتلة البصرة، وديوان الكوفة مسؤولاً عن جبايات المناطق التي فتحت على أيدي مقاتلتها، وإن كان الأمويون قد أحدثوا بعض التغييرات في الولايات المرتبطة بكل مركز، واستقر خراج العراق وما يضاف إليه مما كان في مملكة فارس في أيام معاوية باستثناء خراسان 655 مليون درهم، أي مايقارب 65 مليون دينار و500 ألف دينار، بينما كان خراج فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين والجزيرة وفقاً للقائمة نفسها التي يوردها اليعقوبي ( ت 292هـ /904م) 2.430000 دينار ، [ "1960" 233/2 ] وحينما أفرد عبد الملك الجزيرة عن قنسرين، وأصبحت مركزاً للمقاتلة أوجد فيها ديواناً للجند وآخر للخراج .

كذلك أسس الأمويون ديواناً للخراج في خراسان وآخر في ولاية إفريقية، ولم يشذ عن ذلك سوى الحجاز واليمن، لأن أرض الحجاز وأرض اليمن وأرض العرب التي فتحها الرسول ﷺ عُدت أرض عشر و لم يجعل على شيء منها خراج .

كان يسجل في ديوان الخراج كل مايرد من أموال الفيء (جزية + خراج + عشور التجارة التي تؤخذ من أهل الذمة وأهل الحرب) وهي نصف العشر من أهل الذمة والعشر على تجارة أهل الحرب، وإنما فرض عليهم العشر لأنهم كانوا يأخذون من تجار المسلمين مثله إذا وردوا بلادهم، ويحدّد أبو عبيد من هم التجار من أهل الحرب فيقول

"الروم كانوا يقدمون بلاد الشام" . ["1981" فقرة 1951،1655 ]

وكان يسجل في ديوان الخراج كذلك مساحات الأراضي الخراجية وحدود كل بلد ونواحيه إذا اختلفت أحكام النواحي وأحكام الضياع إن اختلفت في كل ناحية، فإن لم تختلف اقتصر على تفصيل النواحي، كما كان يُسجَل مافُرض على كل أرضٍ على وفق المحصول، أو خصوبة الأرض أو بعد المناطق عن الأسواق وقربها . ذلك أن عمر بن الخطاب ﷺ راعى في كل أرض ماتحتمله ، واتبع خلفاء بني أمية الأسلوب نفسه، ومما يؤكد ذلك أن أبا عبيدة بن الجراح أطعم أهل السامرة أرضهم، عندما صالحهم بالأردن وفلسطين، على أن يكونوا عيوناً وأدلّاء لهم وفرض عليهم الجزية فقط، فلما كانت خلافة يزيد بن معاوية (60- 64هـ /679- 683) وضع الخراج على أرضهم بفلسطين فجعل على رأس كل امرئ يملك أرضاً خمسة دنانير ووضع الخراج على أرضهم بالأردن وجعل على رأس كل امرىء يملك ارضاً دينارين . مما يدل على أن أرضهم في الأردن كانت إما أصغر مساحة أو أقل خصوبة من أرضهم بفلسطين، ومبلغ الدينارين أو خمسة الدنانير إنما تضم جزية الرأس وضريبة الخراج. كذلك نجد أن عبد الملك بن مروان عندما أراد إعادة تقدير الخراج على الغلات الرئيسة الثلاث في الشام والجزيرة وهي الحنطة والكروم والزيتون، جعل على كل مئة جريب مما قرب ديناراً وعلى كل مئتي جريب مما بعد ديناراً، وعلى كل مئة شجرة مما قرب ديناراً وعلى كل مئتي شجرة مما بعد ديناراً، وكانت غاية البعد، مسيرة اليوم أو اليومين وأكثر من ذلك، وما دون اليوم فهو من القرب . ومن الواضح أن هذه الفريضة ليست هي الخراج لأنها متواضعة بل هي إضافة نقدية محددة.

كان ديوان الخراج أيضاً مسؤولاً عن تسجيل من في كل بلد من أهل الذمة، وما استقرّ عليه في عقد الجزية، فإن كانت مختلفة باليسار والإعسار سُمّوا في الديوان مع ذكر أعدادهم ليختبر حال يسارهم وإعسارهم ، وإن لم تختلف في اليسار والإعسار جاز الاقتصار على ذكر عددهم، ويجب مراعاتهم كل عام لتثبيت من بلغ وإسقاط من دخل في الإسلام أو مات. وكل أرض خراجية إذا تحوَّلت إلى أرض عشرية يثبت ذلك في الديوان حتى يُسقط الخراج عن تلك الأراضي وعن أهل قراهم.

إذا كان العرب يحتفظون بسجلات للأرض والناس في الشام والجزيرة وسواد العراق ومصر، فإنّ هذه السجلات كانت بأيدي الرؤساء المحليين والعظماء والأمراء في الولايات الشرقية، لأنّ القادة العرب كانوا قد عقدوا معاهدات صلح مع معظم المدن الإيرانية

سواء منها في فارس أو خُراسان. وكان الذي يفاوض في هذه الاتفاقيات إما أولوا الأمر في الحكومة المحلية في المدينة أو أميرها الحاكم أو صاحب الإقليم، وهؤلاء هم الذين يجمعون الضرائب ويحتفظون بما يشاؤون، ولا يعطون للعرب إلاّ المبالغ التي صولحوا عليها، ومن ثم اضطر نصر بن سيار والي خراسان إلى إجراء إصلاحه سنة (21هـ/738م)هـ حين وجد كما يستنتج من خطابه الذي ألقاه، أنّ بهرامسيس كان مانح المجوس يمنحهم ويدفع عنهم ويحمِّل أثقالهم على المسلمين، وأنّ ابن جريجور كان مانح النصارى، وعُقيبة اليهودي مانح اليهود، فعيَّن نصر بن سيار – منصور بن عُمر بن أبي الخرقاء ليشرف على جمع الجزية والخراج، وأعلن "أنه أيّما رجل منكم من المسلمين كان يؤخذ منه جزية رأسه أو أثقل عليه في خراجه وخفف مثل ذلك عن المشركين، فليرفع ذلك إلى المنصور ابن عمر ليحوله عن المسلم إلى المشرك، "كما نظر نائب نصر في الشكوى الخاصة بثقل ضريبة الأرض وتقديرها بغير عدل على المسلمين" . [ الطبري "1971" 173/7 ] فقوَّم المنصور هذا الحيف، وصنف الخراج حتى وضعه موضعه ثم وظَّف الوظيفة التي جرى عليها الصلح.

كان يتولى شؤون دواوين الخراج موظفون من أبناء المنطقة الذين يتقنون لغتها فضلاً عن إلمامهم بالعربية قبل التعريب؛ وكانت هذه الظاهرة طبيعية بعد الفتح بحكم معرفة أولئك الموظفين التامة بقواعد الخراج ومقاديره وأسماء القرى والنواحي، وكان زياد بن أبيه ينتقي كتاب الخراج من رؤساء الأعاجم العالمين بأمور الخراج ويستخدم الموالي والدهاقين في جباية الأموال ، وكذلك فعل عبيد الله بن زياد، إلاّ أنّ الولاة كانوا يعينون أمناء من قبلهم على أعمال الدهاقين وتصرفاتهم خشية أن يتمادوا في ظلم الناس. وفي مصر كُلِّف الأقباط منذ البدء بجباية الخراج، إذ يذكر ابن عبد الحكم "أنه لما استوثق الأمر لعمرو بن العاص، اقرّ الأقباط على جباية الروم . [ ابن عبد الحكيم"1930" 152،153 ]

كان يشرف على موظفي الخراج رئيس يعرف بصاحب ديوان الخراج، وكان يتمتع بمكانة رفيعة عند الخلفاء والأمراء، ومن أشهر من تقلد هذا المنصب في العراق، زاذان فروخ بن بيري وابنه مردانشاه، ثم صالح بن عبد الرحمن الذي تم على يديه تعريب دواوين الخراج في العراق.

وفي الشام اشتهر سرجون بن منصور الرومي ومن بعده ابنه منصور حتى نقل سليمان بن سعد الديوان إلى العربية وبقي أثناس رئيساً لديوان الخراج حتى صرفه عبد الله بن عبد الملك والي مصر سنة

(87هـ/705م) ونقل ديوان مصر إلى العربية وجعل عليه ابن يربوع الفزاري

يستنتج من دراسة القوائم التي يوردها خليفة بن خياط (ت 240هـ/854م) في نهاية عهد كل خليفة أن ديوان الخراج وديوان الجند أوكل أمرهما في الشام طوال المدة الأموية إلى شخص واحد مما يشير إلى الصلة الوثيقة بين هذين الديوانين. لأن أعطيات الجند وأرزاقهم ومعاونهم، كانت تشكل وجهاً ضخماً من وجوه الإنفاق. ويبدو أن هذا كان مطبقاً في العراق كذلك، فإن زادان فروخ الذي كان على ديوان الخراج كان كما يبدو مسؤولاً عن ديوان الجند أيضاً، فالجهشياري يذكر، أنه عندما احترق ديوان البصرة، استطاع زادان فروخ الذي كان أحفظ الرجال، أن يكتب اسم المقاتلة والذرية عن ظهر قلب، وكان المقاتلة والذرية ثمانين ألفاً فلم يغلط بأحد إلا بامرأة من بني سُلَيم نسي اسمها.

وفي مصر، كان أثناس مسؤولاً عن ديوان الجند، يذكر تريتون اعتماداً على رواية سريانية أنه كان يتناول 60 ألف دينار كل سنة إلى جانب دينار واحد يأخذه عن كل جندي. وهذه الرواية وإن كان فيها بعض المبالغة، فإنّها تؤكد مسؤولية صاحب ديوان الخراج عن ديوان الجند، وقد تابع أبو العباس السفاح أول خلفاء بني العباس أسلوب الأمويين عندما قلّد خالد بن برمك ديواني الخراج والجند .

كان ديوان الخراج المركزي حتى خلافة سليمان بن عبد الملك مسؤولاً عن ضبط الواردات والنفقات، فلما كانت خلافته، جعل النفقات وبيوت الأموال والخزائن من اختصاص مسؤول واحد. فإذا افترضنا تأثر الأمويين بالفرس الذين كان لهم ديوانان، ديوان للخراج وآخر للنفقات، وأن ديوان النفقات يسجل كل ماينفق في جيش أو غيره. فإنه يمكننا القول إنّ هذا الديوان كان يقوم بتسجيل كل ماينفق على مرافق الدولة في الشام من أموال، بدلاً من أن تكون هذه المسؤولية، ملقاة على عاتق ديوان واحد، هو ديوان الخراج، أما دواوين الخراج في الولايات، فقد بقيت مسؤولة عن الواردات والنفقات التي تنفق على مصالح الولاية وأعطيات الجند.

### ديوان الجند أو المقاتلة:

إن الديوان الذي تأسس في المدينة في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ وأصبح له فروع في الولايات التي كانت قواعد للفتح، والذي كان باب العطاء فيه مفتوحاً للمقاتلة، ومن لحق بهم وأعالهم وأقام معهم. هذا الديوان ، أصبح يطلق عليه في العصر الأموي اسم ديوان الجند أو المقاتلة، لأن العطاء لم يكن يفرض فيه إلا للمقاتلة من أفراد القبيلة الذين يسجلون في الديوان، إذ كان من المتعذّر أن يبقى باب

العطاء مفتوحاً أمام كل عربي أو مسلم وافد إلى الأمصار، وإن كان يضاف بين آونه وأخرى عدد ممن لم يكونوا يأخذون العطاء، وخاصة عندما يكون الدخل وافراً وبيت المال قادراً على الدفع أو عندما تشتد الحاجة إلى المقاتلة، ولا ريب أنّ هذه الإضافات إلى أهل العطاء كانت تحدث بكثرة واستمرار في الأزمنة التي تطلبت الفتوحات فيها عدداً كبيراً من الجنود، ولدينا مثال عن مثل هذه الإضافات في عهد زياد بن أبيه إذ كان عدد المقاتلة في البصرة حين قدم زياد أربعين ألفاً فبلغ بهم ثمانين ألفاً ومقاتلة الكوفة ستين ألفاً .

ونتيجة للزيادات التي قد تطرأ على أهل الديوان فإنه من الطبيعي أن يصار إلى تدوين جديد بين مدة وأخرى، فقد مرّ ديوان مصر مثلاً بأربع مراحل، الأولى في عهد عمرو بن العاص الذي كان أول من دَوَّن هذا الديوان، ثم دوَّن عبد العزيز بن مروان التدوين الثاني في خلافة عبد الملك، ودوَّن قُرة بن شريك التدوين الثالث في خلافة الوليد بن عبد الملك، وأخيراً دون بِشْر بن صَفْوان التدوين الرابع في خلافة يزيد بن عبد الملك (101-105هـ/719-723م ) ويعود تعدد التدوين إلى الزيادات التي طرأت على أهل الديوان، فبعد أن كان عدد أهل الديوان في ولايةعمرو بن العاص الأولى هو ستة عشر ألفا، ارتفع على عهد معاوية بن أبي سفيان إلى أربعين ألفاً ويذكر المقريزي أنه لم يكن بعد تدوين بشر شيء يذكر إلاَّ ماكان من إلحاق قيس بالديوان في خلافة هشام بن عبد الملك.

وقد كان يتم نقل المقاتلة أحياناً من مركز إلى آخر، كما فعل زياد بن أبيه عندما نقل خمسين ألف مقاتل من المصرين، البصرة والكوفة إلى خراسان سنة ( 50هـ/670م). حيث أصبحوا يأخذون أعطياتهم من فيئها، وبقاء مقاتلة من أهل الشام في العراق ابتداء من ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي وأخذهم العطاء من فيء العراق. ودخول عشرة آلاف مقاتل من مقاتلة الشام مع بَلْج بن بشر إلى الأندلس، وكان قد أرسلهم هشام بن عبد الملك للقضاء على ثورة البربر سنة (123هـ/749م ). ففرقهم الوالي أبو الخطار على شبه منازلهم في كور شامهم وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة. وإسكان مسلمة بن عبد الملك، أربعة وعشرين ألفاً من أهل الشام مدينة باب الأبواب في خلافة هشام بن عبد الملك ، وكانت هذه التنقلات المستمرة توجب إسقاط أسماء المقاتلة الذين انتقلوا إلى المراكز الأخرى من دواوينهم وتسجيلهم في المراكز الأخرى التي انتقلوا إليها.

وقد كان يتحتم على الخلفاء والولاة التأكد من عدم تلاعب العرفاء الذين كانوا

يوزعون العطاء، ومن المعروف أنَّ زياد بن أبيه كان له فضل تنظيم العطاء في العراق على أسس جديدة غير تلك التي كانت متبعة سابقاً والتي أصبح فيها لكل عشيرة عريف خاص يتولّى توزيع العطاء على أفراد عشيرته المثبتين في الديوان، وبما أن هذا التنظيم هو تنظيم منطقي يسهل تطبيقه، وكان مطبقاً كذلك في مصر على هذا الأساس ، فإنه يمكننا أن نفترض أن توزيع العطاء في الشام كان يتم وفقاً للمبدأ ذاته، ولاسيما أن هناك إشارة إلى وجود عريف للسكاسك ، ووجود عريف لكل قوم ، وبما أن العريف كان مسؤولاً عن توزيع العطاء وعن تنفيذ الأوامر في زيادة العطاء لأي فرد، فقد كان بإمكانه أن يستغل وظيفته، فبمقدوره أن يعجِّل في تنفيذ الزيادة في العطاء أو يؤخرها أو يعرقلها. كما كان بمقدوره ألاَّ يخبر عن حالات الوفاة في عرافته ويستمر في دفع جزء من عطاء الموتى إلى أهليهم ويأخذ هو الباقي بالاتفاق معهم، ولذلك كان الخليفة يرسل من يضبط الإحصاء بين حين وآخر، فقد ورد في كتاب نسب قريش أنَّ معاوية بن أبي سفيان وجَّه عاصماً إلى المدينة ليصحح الديوان، فحبس عاصم أعطيات الناس وطلب منهم أن يأتوا إليه حتى يدفع إلى كل رجل عطاءه بيده، "وكانت العرفاء يأخذونها فلا يغيبون غائباً ولا يميتون ميتاً ويصدقون أهلها"، فيعطونها بعضاً ويأخذون بعضاً، فكره الناس ذلك لما كانوا يصيبون من حظ الموتى والغُيّب . [ الزبيري "1953"151 ]

ويورد اليعقوبي أن الوليد بن عبد الملك أحصى أهل الديوان وأسقط عشرين ألفاً، [ "1960" 290/2 ] وكان أول مافعله مروان بن محمد (127-132هـ /744 – 749م) عندما دخل دمشق أن أمر للمقاتلة بالعطاء وعدَّهم وعدَّ عيالاتهم .

كان الانضمام إلى الديوان اختيارياً من حيث المبدأ في العصر الأموي، إلاَّ أنه في حال تسجيل اسم الشخص في الديوان كان عليه الإجابة حين دعوته. وكانت أوصاف الرجل الجسمانية تكتب إلى جانب اسمه في الديوان منذ أيام زياد بن أبيه ، كما أنه كانت هناك شروط يجب أن تتوافر في المقاتل حتى يثبت اسمه في الديوان منها البلوغ، لأنَّ الصبي من جملة الذراري، وقد منع عمر بن عبد العزيز في كتابه إلى العمال أن يفرضوا لابن أربع عشرة سنة في القتال وأن يفرضوا لابن خمس عشرة سنة . ومنها الإسلام ليدافع الجندي عن الدين باعتقاده ويوثق بنصحه واجتهاده، وهذا يجعلنا ندرك الصلة بين ديوان الخراج وديوان الجند، فالذي يدخل في الإسلام من أهل الذمة ويريد أن يلتحق بديوان الجند، كان عليه أن يأتي ببينة تثبت إسلامه ليصار إلى إسقاط اسمه من ديوان الخراج وليتم تسجيله في ديوان الجند بعد ذلك.

لم يكن التسجيل في ديوان الجند في الشام اعتباطياً أو مفتوحاً للجميع، وإنما يخضع لتوجيهات الخليفة، فقد بقي الاعتماد على القيسيين في الشام قليلاً، فلما أراد مروان بن محمد التوجه من الجزيرة نحو الشام بعد أن علم بموت يزيد بن الوليد سنة(126هـ/743م فرض لستة وعشرين ألفاً من قيس وسبعة آلاف من ربيعة. وكان لايسمح بنقل اسم جندي من ديوان إلى آخر إلاّ بعد موافقة أولي الأمر، فقد رفض عبد الملك نقل اسم شبيب بن يزيد الشيباني وعطائه من ديوان الجند في الكوفة إلى ديوان الجند في دمشق، خوفاً من أن يكثر المتنسبون إلى بكر وتميم في بلاد الشام .

كان ديوان العطاء في العصر الراشدي مسؤولاً عن السجلات التي تضم أسماء المقاتلة ومقدار أعطياتهم ومسؤولاً أيضاً عن سجلات ذراري المقاتلة الذين يستحقون العطاء، وقد أطلق على هذه السجلات في العصر الأموي، اسم ديوان الذراري، وإن كان هذا الاسم لايرد صراحة إلاّ فيما يتعلق بالعراق في الحقبة السفيانية ، مع أن الروايات تشير إلى أن وضع أهل الشام كان أفضل من وضع أهل العراق فيما يتعلق بعطاء الذراري ، وقد طبق معاوية نظم عمر بن الخطاب ﷺ في العطاء إلا أنه فرض للفطيم دون المولود، فلما تولّى عبد الملك، قطع ذلك كله إلاّ عمَّن شاء .

وعندما أصبح عمر بن عبد العزيز خليفة فرض لكل منفوس ديناراً ولكل فطيم عشرة دنانير. ويورد الطبري (ت 310هـ922م ) رواية عن المجاشعي، يذكر فيها أنَّ عمر بن عبد العزيز طلب منه أن يقرع بين ذراري الرجال، فمن أصابته القرعة جعله في مئة درهم، ومن لم تصبه القرعة جعله في الأربعين درهماً، ومن يلتحق بعد ذلك بديوان الجند يعطى عطاء المقاتلة.

استمر عطاء الذرية في خلافة هشام بن عبد الملك إلاّ أنه اتبع سياسة عدم إلحاق كل الذرية في العطاء .وبما أن ذرية المقاتل كلها كانت تنال العطاء في المرحلة السفيانية، وفي خلافة عمر بن عبد العزيز فإنه كان يتوجّب القيام بإحصاء متواصل لمعرفة من بلغ ومن مات ومن وُلد، لكي يتم تصحيح الديوان وفقاً لذلك، يذكر ابن عبد الحكم أن معاوية جعل على كل قبيلة من القبائل العربية بمصر رجلاً يُصبح كل يوم فيدور في المجالس فيقول، هل وُلد الليلة فيكم مولود؟ هل نزل بكم نازل؟ فإذا فرغ من ذلك أتى الديوان ليثبت فيه من ولد ومن مات. ["1930"102 ] ويبدو أن الناس كانوا يميلون إلى كتمان موتاهم مما دفع عمر بن عبد العزيز إلى إرسال كتاب يُقرأ على الناس "أن ارفعوا كل منفوس نفرض له، وارفعوا موتاكم فإنّما هو مالكم نردّه عليكم" . [ ابن سعد "1904" 255/5 ]

يستنتج مما تقدم ضخامة المسؤولية الملقاة على عاتق دواوين الجند نتيجة للتغيرات التي كانت تطرأ على سجلات المقاتلة والذرية والتي كانت ترسل نسخ منها إلى دواوين الخراج الذي كان مسؤولاً في الولايات عن النفقات، ولاسيما أن نفقات الجند كانت تشكل وجهاً كبيراً من وجوه الانفاق.

ديوان الرسائل:

من الدواوين التي برزت في العصر الأموي بصيغة ديوان له اختصاصاته، ديوان الرسائل الذي كان يتولى المكاتبات في الدولة، ولاسيما إصدار النشرات والرسائل التي تشمل التعليمات الصادرة للولاة وعمالهم وللرعايا عامة.

كان لمتولي ديوان الرسائل مكانة رفيعة عند الخليفة يكاد أن لايكون عند الخليفة من هو أخص منه ولا ألزم بمجالسته، لأنه كان مؤتمناً على أمور الدولة وأسرارها وينظر في أمر البريد ومتعلقاته، ويقرأ الكتب الواردة على الخليفة. وكان هذا الواجب هو واجب الخليفة نفسه، ولمّا كان هذا متعذراً لكثرتها، واتساع الدولة وكثرة المكاتبين فوّض الخليفة هذا الأمر إلى صاحب ديوان الرسائل، واضطر هذا بدوره عندما ازدادت أعباؤه لانشغاله بقراءة الكتب بحضور الخليفة والإجابة عنها مع انشغاله بما يكتب في الديوان، أن يعتمد على كاتب يقوم مقامه، يتصفح مايكتب في الديوان من الولايات والمناشير والمكاتبات .
[ القلقشندي "1913" 113/1 ]

ومع أن القلقشندي يشير إلى تفوق الديوان المركزي وعظمة نشاطه واتساعه، وأن كل ماكان يصدر عن الولايات الأخرى كان ضئيلاً متصاغراً بالمقارنة مع مايصدر عن الديوان المركزي فإنّ هذا لاينطبق على العراق ولاسيما أن عدداً كبيراً من الولاة كانوا مسؤولين عن العراق والجناح الشرقي كله، وبالتالي كان الوالي يتخذ طائفة من الكتاب. وكان زياد بن أبيه ينتقى كتاب الرسائل من العرب والموالي المتفصحين واشتهر الحجاج بأنه كان كثير التعهد لرسائل قواده حتى إذا لفتته رسالة ببلاغتها سأل عن كاتبها وطلب مثوله بين يديه. وكان إذا أعجبه كاتب وملأ نفسه، ربما أرسله إلى عبد الملك ليسلكه بين كتابه على نحو ماصنع بمحمد بن يزيد الأنصاري، إذ كتب الحجاج إلى عبد الملك "إذا أردت رجلاً مأموناً فاضلاً عاقلاً وديعاً مسلماً كتوماً تتخذه لنفسك وتضع عنده سِرّك وما لاتحب أن يظهر، فاتخذ محمد بن يزيد"، فكتب إليه عبد الملك أن يرسله إليه واتخذه كاتباً وكان ذلك سنة (85هـ/70م).

كان صاحب ديوان الرسائل في الشام من العرب في خلافة معاوية وابنه يزيد ومروان بن الحكم، ثم لم تلبث هذه المكانة أن

انتقلت إلى الموالي، وكان أشـــــهرهم علـــى الإطلاق عبد الحميد بن يحيى مولى العلاء بـــن وهب العامري الذي تتلمذ على سالم مـــولى سعيد بن عبد الملك كاتـــب الرســـــائل في خلافة هشــــــام بن عبد الملك، وقد اتخـذه مروان بن محمد كاتباً له عندما كـــان عـــاملاً لهشـــام على أذربيجان وأرمينية، فلما تـــولّى الخلافة أصبح عبد الحميد الكاتب والمستشـــار والغالب عليه وقد تخرَّج على عبد الحميـــــد ولده إســـماعيل ويعقوب بـــن داود وزيـــر الخليفـــة العباســـــي المهـــــــدي (158-169هـــ /774-785م) وكان أبو جعفـــر المنصور (137- 158هـــ /754-774م) كثيراً مايقول بعد إفضاء الأمر إلى بني العبـــاس "غلبنا بنو مروان بثلاثة، الحجاج، وعبد الحميد الكاتب، والمؤذن البعلبكـــي" . [ الجهشـــياري "1938" 73 ]

ديوان الصدقات:

اسمه مأخوذ من آية الصدقات في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ ، [ سورة التوبة ، الآية: 60 ] والصـــدقة زكـــاة والزكاة صدقة يفترق الاسم ويتفق المســـمّى. ولا يجب على المسلم في ماله حـــق ســـواها، والأموال المزكاة نوعـــان: ظـــاهرة وباطنـــة، فالظاهرة مالا يمكن إخفاؤه، كالزرع والثمـــار والمواشي، والباطنة مايمكن إخفاؤه من الذهب والفضة وعروض التجـــارة، ولـــيس لعامـــل الصدقة النظر في زكاة المال الباطن وأربابه أحق بإخراجه منه.

وقد عين الرسول ﷺ منذ البدء عمالاً على الصدقات على كل قبيلة أو قبيلتين عامل ، وقاتل الخليفة أبو بكر الصديق ﷺ مـــانعي الزكاة، كما أنّ الخليفة عثمان ﷺ كان يبعث السعاة لقبض الصدقات ، وعلى الـــرغم مـــن كثرة الروايات المتعلقة بعمال الصدقة والوقت الذي يتوجه فيه السعاة لجمع الصدقات مـــن القبائل البدوية في نجد والحجاز، وتشدد بعض عمال الصدقة في جمـــع الأمـــوال في العصـــر الأموي فإنه لايـــرد ذكـــر لوجـــود ديـــوان للصدقات في المدينة حتى في خلافة بني أميـــة وإنما يرد ذكر لبيت المال والـــديوان. وهـــذا مايدفع الباحث إلى الاعتقاد أن موظفي هـــذا الديوان كانوا مسؤولين عن الإجراءات المتعلقة بالمقاتلة وأعطياقم وأعطيات الذراري، وما يرد المدينة من أموال الصدقات، أما في الشام فـــإن الجهشياري الذي أورد أسمـــاء العديـــد مـــن الدواوين التي ظهرت تباعـــاً خلال العصـــــر الأموي لايشير إلى وجود ديوان للصدقات إلا في خلافة هشام بن عبد الملك، مما يـــدفع إلى الاستنتاج أن هشام بن عبد الملك هو أول من أفرد هذا الديوان، وأن "ديوان الخراج في الشام كان قبل ذلك مسؤولاً عـــن أمـــوال الفـــيء

وأموال الصدقات، وأنه كان يحوي سجلات بما كان يجبى من المسلمين من زرعهم ومواشيهم وتجارتهم وليس في ذلك مخالفة للشرع لأن تأكيد أبي يوسف والماوردي إنما هو على عدم إدخال مال الصدقة في مال الخراج وعلى ضرورة استخدام عمال للصدقة غير عمال الخراج، وعلى صرف صدقة كل ناحية في أهلها. وكان الأمويون يعينون عمالاً للصدقات غير عمال الخراج.

ابتداء من خلافة عبد الملك (65هـ/684م) نجد ذكراً لبيوت الأموال في دمشق بدلاً من تعبير بيت المال مما يدل على أنَّ الأموال التي كانت تجبى في خلافة معاوية كانت تودع في بيت مال واحد كما أن بعض الروايات تشير إلى أنَّ معاوية لم يكن يجد مانعاً في استخدام مال الصدقة في غير الوجوه التي ذكرت في الآية الكريمة، فأبو عبيد يذكر أن معاوية حاول أن يعطى أهل المدينة أعطياهم وافرة غير منقوصة، ولكنه وجد عجزاً في المال، فكتب إلى مروان بن الحكم أن يأخذها من صدقة أهل اليمن، فرفض أهل المدينة ذلك، لأن مال اليمن صدقة، والصدقة لليتامى والمساكين وعطاؤهم من الجزية وعندما حجّ عبد الملك، أمر للناس بالعطاء فخرجت بدرة مكتوب عليها "من الصدقة" فأبى أهل المدينة قبولها وقالوا: "إنما عطاؤنا من الفيء". [الزبير بن البكار "1972" 573 ]

أما عمر بن عبد العزيز فكان يدخل كل نوع من المال في بيت مال خاص، فعن إسحاق بن يحيى أنه قدم على عمر بن عبد العزيز في خلافته، فوجده قد جعل للفيء بيت مال على حدة وللخمس بيت مال على حدة، وللصدقة بيت مال على حدة . [ ابن سعد "1904" 295/5 ]

وإذا لم يرد ذكر لديوان الصدقات في الحجاز، ولم يرد له ذكر في الشام وهي الولاية المركزية إلا في خلافة هشام بن عبد الملك، فإنه من الأحرى أن لانجد له ذكراً في الولايات الأخرى، وأن يقوم ديوان الخراج بمهام ديوان الصدقات، وإن كانت الروايات تشير إلى التزام الأمويين بتعيين عمال للصدقات غير عمال الخراج، ويبدو أن هذا لم يكن مطبقاً في العصر العباسي، فأبو يوسف في كتاب الخراج الذي ألفه للخليفة هارون الرشيد، ينصحه أن لايدخل مال الصدقة في مال الخراج وأن لايتولى عمال الخراج جباية الصدقات . [ابو يوسف "1346هـ" 95 ]

### ديوان الخاتم:

كان معاوية أول من اتخذ ديوان خاتم لضبط المعاملات المالية وصيانة الوثائق المهمة، وقلّده عبد الله بن محمد الحميدي وكان قاضياً. وكان الذي حمل معاوية على تأسيس هذا الديوان، أنه أحال رجلاً على زياد بن أبيه أمير العراق بمئة ألف درهم، فمضى ذلك الرجل

وقرأ الكتاب، وكانت تواقيعهم تصدر غير مختومة، فجعل المئة مئتين، فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية أنكر معاوية ذلك وقال: ماأحلته إلاّ بمئة ألف، ثم استعادها منه، ووضع الديوان، فإذا صدر توقيع من الخليفة بأمر من الأمور، أُحضر التوقيع إلى ذلك الديوان وأثبتت نسخته فيه وحزم بخيط وختم بشمع يطبع عليه وهو طري خاتم الخلافة. فإذا فتحت الرسالة قبل أن تصل إلى مرجعها عُرف ذلك إذ لاسبيل إلى فتحها إلاّ بتمزيق الخاتم.

لم يقتصر حفظ النسخ الإدارية وختم الأوامر قبل إصدارها على الحكومة المركزية فقد اعتاد زياد أن يحفظ نسخاً من جميع كتبه. وعن المدائني أنّ زياداً كان أول من اتخذ من العرب ديوان زمام وديوان خاتم. ولاشك أن الولاة في الولايات الأخرى كانوا يحتفظون بنسخ من كتبهم وإن لم تشر المصادر إلى ذلك.

## ديوان البريد:

لم يكن البريد في عهد بني أمية نظاماً يستعمله الشعب كما هو في الوقت الحاضر، وإنّما كان نظاماً رسمياً حكومياً لنقل الأخبار بسرعة من مقر الخلافة إلى الولايات التي كانت مراكز لغيرها ولتلقي الأخبار، ولكن ليس معنى هذا أنْ البريد كان ينقل فقط المراسلات بين الولاة والعمال من جهة والخلفاء من جهة أخرى، وإنما كان باستطاعة أي فرد من أفراد الشعب أن يرسل إلى الخليفة مايريده عن طريق بريده، وكان عامل معاوية على المدينة إذا أراد أن يبرد بريده إلى معاوية، أمر مناديه فنادى من له حاجة فليكتب إلى أمير المؤمنين . وكان بريد عمر بن عبد العزيز لايعطيه أحد من الناس إذا خرج كتاباً إلاّ حمله.

بما أنّ مهمة البريد هي وصول الأخبار بسرعة، فقد كانت أهم معالمه إنشاء محطات للبريد، كانت تعرف باسم السكة. وكانت توجد في هذه المحطات الدواب التي تستخدم في البريد من البغال والخيل والإبل حسب طبيعة الطرق التي تمر بها، فضلاً عن وجود أماكن للراحة وتوفير أسباب الحصول على الماء والطعام والعلف لدواب البريد، كما كان من الضروري عمارة الطريق، ووضع حدود على كل مسافة قدرها ميل حتى يعرف الرسول المسافة التي قد اجتازها، وقد اكتشف بالقرب من بيت المقدس نقوش معاصرة لعبد الملك بن مروان تشير إلى أوامره بصنع الأميال وبعمارة أربع طرق تخرج من إيلياء ومن دمشق، ويبدو أن الوليد بن عبد الملك أسهم في بناء الأميال على نطاق واسع مما دفع القلقشندي إلى القول إنّ الوليد هو أول من بنى الأميال .

استخدم عمال الدولة البريد للرحلات السريعة، وفي أيام الطوارئ كان البريد

يستخدم في نقل القوات العسكرية على وجه السرعة، كما حدث أثناء ثورة ابن الأشعث (81هـ/700م – 83هـ/702م) عندما جهز عبد الملك الجند على البريد فكانوا يصلون من مئة وخمسين وأقل من ذلك وأكثر . كما أرسل هشام بن عبد الملك المدد لسعيد الحرشي إلى أرمينية ومنطقة اللاّن على أربعين دابة من دواب البريد، فكان يبعث إليه كل يوم أربعين رجلاً .

كان المسؤول عن ديوان البريد يعرف باسم صاحب البريد، وكان واجبه الأساسي تنفيذ ما يصدر وتلقي مايرد ، وكان عبد الملك يأمر حاجبه أن يدخل عليه صاحب البريد متى جاء في ليل أو نهار "فربما أفسد على القوم سنة حبسهم البريد ساعة" .

لم يكن من مهام صاحب البريد، عرض الرسائل والتقارير المتراكمة لديه أو إنفاذها إلى الجهات المختصة فقط، وإنما كان من مهامه تعيين الموظفين المحليين في المدن المختلفة، والأشخاص المناسبين في المحطات على الطريق، وتعيين السعاة والاهتمام بدفع المرتبات والأرزاق لهم ، وتدبير أمر الدواب وبراذعها ومن يتولى عنايتها.

بلغت نفقات ديوان البريد في العراق في ولاية يوسف بن عمر الثقفي (120-126هـ /737-743م) أربعة ملايين درهم ويعلّق قدامة بن جعفر في صدد الحديث عن ديوان البريد "إن الذي يحتاج إليه صاحب هذا الديوان أن يكون ثقة في نفسه أو عند الخليفة القائم بالأمر في وقته لأن هذا الديوان ليس فيه من العمل مايحتاج معه إلى الكافي المتصفح، وإنما يحتاج إلى الثقة المتحفظ" .

فضلاً عن هذه الدواوين نجد ذكراً لدواوين أخرى في الشام، كديوان المستغلات الذي يرد اسمه لأول مرة في خلافة الوليد بن عبد الملك، وكان على المستغلات نَفيع بن ذُؤيب مولاه. وكان اسمه مكتوباً في لوح في سوق السرَّاجين. وديوان المستغلات هو الديوان الذي تسجل فيه أجور أراضي الدولة وأملاك الحكومة. ونقرأ في تاريخ دمشق لابن عساكر عن تأسيس ديوان للزَّمنى وأنّ إسحاق ابن قبيصة بن ذُؤيب الخزاعي كان على ديوان الزمنى بدمشق وأنّ الوليد قال لما ولاّه: لادعَنَّ الزَّمِنَ أحب إلى أهله من الصحيح .

أما في مصر فقد ظهر في أواخر العصر الأموي ديوان عُرِف بديوان الأحباس (الأوقاف) وعن ابن لهيعة قوله: أول قاض بمصر وضع يده على الأحباس توبة بن نمر في خلافة هشام بن عبد الملك وإنما كانت الأحباس في أيدي أهلها وفي أيدي أوصيائهم، فلم يمت توبة حتى صار الأحباس ديواناً عظيماً وكان ذلك سنة (118هـ/736) .

وفي العراق ظهر مايسمى بدار الاستخراج، وهي الدار التي كانت تصادر فيها

أموال الموظفين الذين يختلسون من أموال الجبايات ولا يؤدوها للدولة وكذلك أموال الدهاقين الذين يقصرون في الجبايات المقررة عليهم، كما صودرت فيها أموال الخارجين على الدولة أو الذين يشتبه بمساعدتهم للثائرين، وقد استمر هذا الجهاز حتى زمن الدولة العباسية حيث تحول إلى ديوان كبير عرف بديوان المصادرين .

## التعريب

### تعريب النقد وإصلاحه:

عرف العرب قبل الإسلام الدراهم الساسانية، وكانوا قد حصلوا عليها من تجارتهم الخارجية مع العراق وسواحل الخليج العربي، كما عرفوا النقود الذهبية والنحاسية البيزنطية لصلتهم الوثيقة بعرب الشام. ولقد كانت التجارة بينهم موسمية منتظمة، يحمل التجار من عرب الجزيرة حاصلات اليمن والحبشة والسواحل الإفريقية وربما بعض مايرد من الهند إلى الشام ويعودون بمنتجات الشام والنقود البيزنطية، وكانت النقود البيزنطية المتداولة قبل الفتح وبعده نقود الامبراطور فوكاس (602-610م) ونقود هرقل (610-641م) ولابّد أن تكون بعض نقود الأباطرة السابقين موجودة بدليل أن النقود التي قلدها العرب تحمل صورهم وكان النقد البيزنطي يسمَّى سوليدس (Solidus) ويزن 4,48 غ تقريباً.

وكانت الدراهم الساسانية التي في أيدي الناس حينما فتح العرب المسلمون العراق ثم إيران هي نقود يزدجرد (632-651) وخسرو الثاني ويتبين مما ورد في المصادر التاريخية أن الجزية والخراج وأعطيات الجند في الشام ومصر والمغرب كانت تدفع بالدنانير، بينما كانت الدراهم هي العملة المستخدمة في العراق والمشرق.

وأقدم درهم إسلامي هو الذي ضرب على الطراز الساساني، وزيد في لفظه "الحمد لله"، وفي بعض الدراهم محمد رسول الله وفي بعضها "لاإله إلا الله" ، [ الكرملي "1929" 32] وسكّ معاوية أيضاً في خلافته الدراهم والدنانير ويذكر المقريزي أنّ الدنانير التي ضربها عليها تمثاله متقلداً سيفاً، ولكن علماء الآثار لم يجدوا بعد ديناراً لمعاوية عليه تمثاله كما لم يذكر المؤرخون القدامى شيئاً عن الصورة إلى أن أتى المقريزي فأعطى معلومات أكثر تفصيلاً عن شكل النقود والمأثورات .

ويتساءل الأستاذ العش عما إذا كان المقريزي قد عثر على كتاب أو وثيقة ذكرت فيها هذه المعلومات . [ "1974" 280-281]

ولما قام عبد الله بن الزبير في مكة (64-73هـ /683-692م) ضرب الدراهم، ونقش على أحد وجهي الدراهم "محمد رسول الله" وعلى الآخر "أمر الله بالوفاء والعدل، وضرب أخوه مصعب بن الزبير الدراهم

بالعراق وأعطاها الناس في العطاء غير أن هذه المسكوكات لم تكن تعد رسمية في الدولة الإسلامية، إذ بقيت معظم معاملاتهم بالنقود البيزنطية الساسانية.

فلما ولى عبد الملك بن مروان الخلافة وتمهدت له الأمور في الدولة بعد القضاء على منافسيه والخارجين عليه أراد أن يصلح النقود ويوجد نسبة عادلة بين الدرهم والدينار لوضع حد للفوضى والصعوبات أثناء جباية الخراج والجزية. فمثلاً كانت الدراهم الفارسية ذات أوزان مختلفة، وكان الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ قد قسط الخراج في العراق وَرِقاً وعيناً والدراهم تؤدى فيه عدداً ففسد الناس كما يقول أبو هلال العسكري فكانوا يؤدونه بالطبرية ووزن الدرهم أربعة دوانق (أي عشرة قراريط لأن الدانق يساوي قيراطين ونصف) ويحتفظون بالوافي ووزنه مثقال (المثقال يساوي 8 دوانق يساوي 20 قيراطاً)، فلما ولي زياد بن أبيه طلب أداء الوافي فشقّ ذلك على الناس. لأن من كان يدفع على جريب الكرم 10 دراهم طبرية أصبح مجبراً الآن على أن يدفع عشرين درهماً طبرية أو عشرة دراهم وافية. ومن الطبيعي أن يؤدي ذلك إلى الشعور بالإجحاف بعد أن اعتادوا دفع الخراج بالطبرية، فلما كانت خلافة عبد الملك فحص عن النقود والمكاييل والأوزان وأمر أن يضرب الدرهم الشرعي على وزن أربعة عشر قيراطاً وزن كل 10 دراهم سبعة مثاقيل (المثقال يساوي 20 قيراطاً. و7 مثاقيل يساوي 140 قيراطاً يساوي 10 دراهم وزن 14 قيراطاً).

وبعث عبد الملك بالسكة إلى الحجاج فسيرها في الآفاق لتضرب الدراهم على السكة الإسلامية، وأن يكتب إليه في كل شهر بما يجتمع قبلهم من المال كي يحصيه عندهم وتحمل إليه أولاً فأولاً أي أن الحجاج أمر أن تضرب الدراهم في الآفاق على السكة الإسلامية وأن تسحب النقود الأخرى التي كان يجري التعامل بها تدريجياً.

كان يُظن أنّ أقدم درهم عربي خالص ضرب سنة ( 79هـ/698م ) من دون ذكر مكان الضرب وهو فريد حتى الآن في العالم، ولكن ظهر حديثاً في العراق درهم عربي خالص ضرب بأرمينية سنة ( 78هـ/697م)، وكان هذا حدثاً مهماً في عالم المسكوكات الإسلامية . [ العش "1974" 277 ]

مايلفت الانتباه في مأثورات الدرهم العربي كتابة الآيات القرآنية والعبارة الدالة على التوحيد مع كتابة تاريخ الضرب وذكر مدينة الضرب مما يدل على أن الخليفة فوَّض الولاة القيام بهذه المهمة؛ واستمر الولاة بضرب الدراهم حتى كانت خلافة هشام بن عبد الملك الذي أمر واليه على العراق خالد بن عبد الله القسري سنة (106هـ/724م) أن يبطل

السكك من كل بلد إلاّ واسط، وكذلك فعل يوسف بن عمر الثقفي عندما عُزل خالد سنة (120هـ/737م) ، فلما استخلف مروان بن محمد ضرب الدراهم بالجزيرة بحرّان.

وكان الحجاج أول من عمل الأوزان، فبعد أن كان الناس يأخذون الدرهم الوازن، فيزنون به غيره، وضع له سمير اليهودي الأوزان، وزن ألف، ووزن خمسمئة، ووزن ثلثمئة، إلى وزن ربع قيراط وجعلها حديداً.تشدد ولاة العراق في أمر الوزن وجودة الدراهم، وكان عمر بن هبيرة أول من فعل ذلك ثم اشتد خالد بن عبد الله القسري أكثر من ابن هبيرة، فلما ولي يوسف بن عمر أفرط في الشده، وكانت الهبيرية والخالدية واليوسفية أجود نقود بني أمية، ولم يكن المنصور الخليفة العباسي (136-158هـ /754-774م) يقبل في الخراج من نقود بني أمية وغيرها .

وكان عبد الملك هو أول من نقش كلمة درهم بالعربية على الدراهم، واستمرت كلمة درهم تكتب إلى مابعد سقوط الدولة العباسية واختفت باختفاء كلمة الدينار سنة (661هـ/1262م ) في بغداد وسنتي (747هـ/1346م و 748هـ/1347م ) في مصر في حكم سيف الدين الحجي أحد ملوك المماليك البحرية .

تعريب الدينار:

يذكر البلاذري أن تعريب القراطيس كانت سبباً لتعريب الدنانير فالقراطيس كانت تدخل بلاد الروم من أرض مصر، ويأتي العرب منهم الدنانير، وكان صناع القراطيس في مصر من الأقباط وكان أكثرهم لايزال على النصرانية، فكانوا يذكرون المسيح في رؤوس القراطيس وينسبون إليه الربوبية، وعندما وقف عبد الملك على فحوى الترجمة، أكبر أمرها، وكتب إلى أخيه عبد العزيز بن مروان والي مصر بإبطال ماكان يكتب في رؤوس القراطيس واستبدال صورة التوحيد (قل هو الله احد )بها فكتب ملك الروم إلى عبد الملك "إنكم أحدثتم في قراطيسكم كتاباً نكرهه، فإن تركتموه وإلا أتاكم في الدنانير من ذكر نبيكم ماتكرهونه"، فكبر ذلك في صدر عبد الملك لأنه كره أن يدع سُنَّة حسنة سنّها، فاستشار خالد بن يزيد بن معاوية فأشار عليه أن يحرِّم دنانير الروم، وأن يضرب للناس دنانير إسلامية. [ البلاذري "1959" 242،241 ] في الواقع إنَّ عملية التعريب التي بدأت بالقراطيس والدنانير ثم بتعريب دواوين الخراج في الشام كانت تستهدف تحرير الدولة الإسلامية من السيطرة البيزنطية اقتصاديا إذ كان من المتعذر أن تظل الدولة العربية معتمدة في نشاطها الاقتصادي على نقد أجنبي محدود الكمية باق من أيام الجاهلية أو يورد من بلاد العدو عن

طريق تجارة تهددها الحرب بالانقطاع من آن لآخر.

مرَّ تعريب الدينار بمراحل قبل أن يصبح عربياً خالصاً، وقد وجد دينار في سورية حوالي سنة 1954 وانتقل إلى لبنان ومنه اقتني لصالح متحف كراتشي حيث هو محفوظ، وهذا الدينار الجديد يعود إلى سنة (74هـ/693م ) وهو يمثل على الوجه شخص عبد الملك واقفاً متقلداً سيفاً مرتدياً ملابس مزركشة . [ Miles "1967" 212 ] وكتب في المدار حوله حسب اتجاه حركة عقرب الساعة (بسم الله، لا إله إلا الله وحده، محمد رسول الله) وعلى الظهر بدا في الوسط الصليب البيزنطي المحور وكتب في المدار حوله حسب اتجاه حركة عقرب الساعة "بسم الله، ضرب هذا الدينار سنة 74هـ/693م، هذا الدينار لايزال فريداً في العالم. وقد ضرب على نمطه دنانير في السنوات(77،76،75هـ/696،695،694م) .

كان هذا الدينار يمثل الخطوة الخامسة من مراحل تطور النقود الذهبية نحو التعريب. حيث كان التعريب واضحاً وإن كان التأثير البيزنطي لايزال موجوداً، أما الدنانير العربية الخالصة، فلا تحمل صوراً للخليفة وإنما تحمل مأثورات عربية صرفاً من ضمنها آيات قرآنية، وقد أثنى ابن خلدون على إبداع النقد العربي الصرف بقوله: "ونقش عبد الملك فيه كلمات لا صوراً لأن العرب كان الكلام والبلاغة أقرب مناحيهم وأظهرها مع أن الشرع ينهى عن الصور" . [ ابن خلدون "1970" 262/1 ]

أقدم دينار عربي إسلامي ضرب في آخر سنة (77هـ/696م) وهو يحمل المأثورات الأتية :

| الوجه | الظهر |
|---|---|
| لاإله إلا الله | الله أحد الله |
| وحده | الصمد لم يلد |
| لاشريك له | و لم يولد |
| محمد رسول الله أرسله | المدار: بسم الله |
| بالهدى ودين الحق | ضرب هذا الدينار |
| ليظهره على الدين كله | في سنة.... |

وكان قطر الدينار الأموي بين 18-22 مم، وكان وزنه بين4,20 - 4,30 غرام وهو أقل من وزن الدينار العربي المضروب حسب النمط البيزنطي، وكان ذلك ضرورياً من أجل نسبة عادلة بين الدينار الذهبي والدرهم الفضي وزناً وقيمة، إلى جانب الدينار صك الأمويون عملة قيمتها نصف دينار ووزنها 2,06 - 2,12 غرام وثلث

دينار وزنه 1,39 - 1,5غرام . [ العش "1974" 277 ]

لم يظهر اسم مكان الضرب على الدنانير العربية الأموية على الأكثر، وهذا يعني أن الدنانير كانت تضرب بدمشق في بادئ الأمر، ويرى الأستاذ العش أن الدنانير الأموية العربية الصافية في إفريقية ضربت في دمشق لصالح المغرب إذ أنها شبيهة بالنقود الشرقية، ولا تختلف إلا بذكر إفريقية، وأنّ الدارس إذا أمعن النظر في الخط على هذه الدنانير يرى أنه لايختلف عن الخط الشرقي وأسلوبه، ويوجد في متحف دمشق دينار فريد ضرب لصالح إفريقية سنة (110هـ/728م) حسب النمط الشرقي. وآخر في متحف دمشق ضرب سنة (116هـ/734م) ، أما الموجود في برلين فقد ضرب سنة (122هـ/739م) .

وحوالي سنة (100-102هـ/718-720م) ظهرت في الأندلس النقود العربية الصافية ومن جملة بقاياها الدينار، وضرب على الوجه الأول "لاإله إلا الله وحده" في الوسط وفي الأطراف "محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق" وعلى الوجه الآخر "بسم الله الرحمن الرحيم" في الوسط، وعلى الأطراف ضرب هذا الدينار بالأندلس سنة ثنتين ومئة . [ Codera "1879" 36 ]

أما تعريب الفلوس وهي النقود النحاسية البيزنطية فقد مرَّ بمراحل أكثر تعداداً وربما أطول أمداً، فقد قلَّد العرب الفلوس البيزنطية، ولكنهم أضافوا اسم مكان الضرب، بينما كانت الفلوس البيزنطية عامة خالية من أسماء المدن السورية ماعدا أنطاكية التي كان لها مترلة دينية، بينما نقش على الفلوس البيزنطية التي قلَّدها العرب اسم مكان الضرب كبيسان، وبعلبك، ودمشق، وطبرية إيلياء، فلما أصبحت النقود النحاسية عربية، وجد هناك أنواع عديدة تختلف في وزنها وحجمها ومأثوراتها، بعضها مغفل، وبعضها يحمل مكان الضرب والتاريخ، وفلوس تحمل اسم الخليفة ومكان الضرب والتاريخ أحياناً، وأخرى تحمل اسم الوالي ومكان الضرب والتاريخ، ولذلك فإن المعلومات التي تقدمها العملة النحاسية أكثر أهمية من تلك التي تقدمها الدراهم والدنانير .

بما أنّ سك النقود كان من مسؤوليات الإدارة، فكان لابد من مراقبة النقد ومعاقبة من يعبث به أو يحاول أن يضرب نقوداً خارج تلك الدور معاقبة شديدة فقد كاد الحجاج يقتل سمير اليهودي، لأنه ضرب نقوداً على غير سكة السلطان. ولم يعف عنه إلاَّ عندما دلَّه على شيء هو أفضل له من قتله ألا وهي الأوزان .

وقد أراد عبد الملك قطع يد رجل ضرب على غير سكة المسلمين، ثم ترك ذلك

وعاقبه . كما عاقب عمر بن عبد العزيز رجلاً فعل ذلك بسجنه وأخذ حديده وطرحه في النار وكانت عقوبة من يقطع الدراهم قطع اليد أو الضرب ثلاثين سوطاً كما فعل أبان بن عثمان وهو والٍ على المدينة، إذ كان يعاقب من يقطع الدراهم بضربه ثلاثين سوطاً وأن يطاف به ويعلق البلاذري "بأن هذا عندنا فيمن قطعها ودسَّ فيها المفرغة والزيوف (الزيوف جمع زيف وهو الدرهم الذي خلط به نحاس او غيره ففات صفة الجودة) . [ البلاذري"1959" 256]

وهكذا يمكننا القول أن عبد الملك هو أول من أوجد النقد القومي العربي للدولة الإسلامية.

وإذا كان تعريب الدرهم لم يؤد إلى ردود فعل سياسية أو اقتصادية فما ذلك إلاَّ لأن العرب كانوا قد قضوا على الدولة الساسانية، أما تعريب الدنانير وإصدار دنانير عربية ذهبية فقد رأت فيه الدولة البيزنطية تهديداً لمصالحها الاقتصادية، فكان أن تجددت الحرب بين البيزنطيين والمسلمين وعمدت الدولة البيزنطية إلى تطبيق إجراءات تعرقل النشاط الاقتصادي العربي ، ولكن عمل عبد الملك بقي لأنه قام على أساس علمي إذ حدد عياراً ثابتاً لكل من النقدين بنسبة معينة بينهما على وفق ماأقرَّه الشرع وكان عمله هذا ولاشك عظيماً إذ قضى على المفاسد التي كانت موجودة وأفادت منه الرعية كما أفادت منه الدولة وكان بمثابة حجر الأساس للنهضة التجارية الإسلامية.

### تعريب دواوين الخراج:

بدأت عملية تعريب الدواوين في خلافة عبد الملك بن مروان وتعد رواية الجهشياري عن أسباب تعريب دواوين خراج الشام في خلافة عبد الملك الرواية الأكثر منطقية، وإن كانت لاتعطي تفسيراً للدافع الذي حدا بعبد الملك أن يقوم بحركة تعريب واسعة شملت القراطيس والنقد أولاً ثم الدواوين ثانياً.

تذكر الرواية أنَّ عبد الملك رأى من سرجون بن منصور توانياً وتثاقلاً وتفريطاً وتقصيراً وإدلالاً منه عليه، فقال عبد الملك لسليمان بن سعد الخشني وكان يتقلد له ديوان الرسائل، "أما ترى إدلال سرجون علينا، وأحسبه قد رأى ضرورتنا إليه وإلى صناعته أفما عندك حيلة؟ قال: لو شئت لحولت الحساب إلى العربية، قال: فافعل فحوَّله . [ الجهشياري "1938" 40 ] ورواية الجهشياري نؤكد ماذكره البلاذري في صدد الحديث الذي دار بين زادان فروخ وصالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم والذي أخبره أنه أي صالح قد خفَّ على قلب الحجاج وقد يقدمه عليه، فقال له زادان: "لاتظن ذلك فهو أحوج إليَّ مني إليه، لأنه لايجد من يكفيه حسابه غيري، فقال

صالح: "والله لو شئت لحولت الحساب إلى العربية، فقال فحوَّل منه شطراً حتى أرى ففعل" . [ البلاذري 298 ]

تمَّ تعريب دواوين الخراج في الشام على وفق رواية البلاذري سنة ( 81هـ/700م) بينما عُرِّبت دواوين الخراج في العراق مابين سنتي (82-83 هـ) وقد استكتب الحجاج صالح بن عبد الرحمن الذي كان يتقن الفارسية والعربية فعرَّب الدواوين. وتأخر تعريب ديوان خراج مصر إلى خلافة الوليد بن عبد الملك وولاية أخيه عبد الله على مصر سنة (87هـ/706م ) حيث أمر بنسخ الدواوين إلى العربية، ولا يورد الكندي سبباً لهذا التعريب لأنه كما يبدو عده تتمة للإجراء الذي بدأه عبد الملك أولاً ثم الحجاج بن يوسف الثقفي من بعده . أما خراسان فقد بقي ديوانها بالفارسية حتى كتب يوسف بن عمر والي العراق سنة (124هـ/741م ) إلى عامله على خراسان نصر بن سيّار يأمره أن لايستعين بأحد من أهل الشرك في أعماله وكتابته وأن ينقل الديوان إلى العربية وقد تولى تعريبه إسحاق بن طليق .

إنَّ التعريب الذي بدأ في خلافة عبد الملك واستمر في خلافة الوليد ليتم في خلافة هشام ابن عبد الملك كان استكمالاً للسياسة التي سارت عليها الدولة تحقيقاً لشخصيتها واستقلالاً عن النفوذ الأجنبي، إذ أنه كان لايمكن أن تبقى دواوين الخراج وهي المختصة بالجبايات والحسابات تحت سيطرة موظفين أعاجم يظهرون دالتهم على الخلفاء والولاة.

كان من أهم النتائج التي نجمت عن تعريب الدواوين، ضبط أعمالها والإشراف عليها بدقة لمنع الغش والتزوير والتلاعب بالأموال، فقد اتهم سرجون بن منصور أثناس كاتب ديوان الخراج في مصر، بأنه مدَّ يده بالسرقة إلى بيت المال، ويصف ابن العبري الثروة الضخمة التي كانت لأثناس الذي كان يملك أربعة آلاف عبد وكثيراً من الدور والقرى والبساتين والذهب والفضة . ولذلك فإنه عندما توفي عبد العزيز بن مروان، أرسل عبد الملك الضحاك بن عبد الرحمن إلى مصر وأمره أن يقاسم يناس (كما يرد عند الجهشياري) كاتب عبد العزيز ماله . [ الجهشياني "1988" 28 ]

وفي العراق يورد البلاذري، أن مردانشاه بن زادان فروخ بذل لصالح بن عبد الرحمن 100 ألف درهم على أن يظهر العجز عن نقل الديوان ويمسك عنه، وما كان مردانشاه ليقدم على هذا العمل لولا شعوره بالخسارة المادية والمعنوية التي سوف يمنى بها هو وكتابه نتيجة لتعريبه، ولإشراف الولاة والمسؤولين على تدقيق الحسابات وقد ضعف بصر الحجاج لكثرة نظره في الدفاتر ؛ وتميز

هشام بن عبد الملك بتشدده أكثر من غيره بأمر الأموال ووجوه صرفها وينقل الطبري عن عبد الله بن عباس قوله: "جمعت بين دواوين بني مروان فلم أرَ ديواناً أصح ولا أصلح من ديوان هشام في أمر الخاصة والعامة والسلطان". [ الطبري "1971" 203/7 ]

ترتب على تعريب دواوين الخراج نتائج أخرى لها أهميتها، إذ كان التعريب سبباً في جعل اللغة العربية الرسمية في كل الدواوين، وفي إيجاد طبقة من الكتاب تتقن العربية والحساب أيضاً، ونظراً لأن دواوين الخراج كانت مسؤولة عن الجناح الشرقي من الدولة، فإنَّ عدد كتابه كان ولاشك كبيراً، ولذلك اضطر الفرس وهم كثرة والموالي إلى تعلم اللغة العربية لدينهم ودنياهم، فكانوا مضطرين إلى نوع من العلم يسهل لهم طريق التعلم، فمسّت الحاجة إلى وضع علم النحو، وكان السابقون إلى وضع النحو هم البصريين أولاً ثم الكوفيين، وتفوق البصريون لقربهم من بادية العرب وبعد الكوفيين عن البادية الفصيحة .

وحققت العربية كذلك في مصر تقدماً ملحوظاً نتيجة لتعريب دواوين الخراج لأنه كان من نتيجته أن اضطر الأقباط الذين كانت تستخدمهم الحكومة العربية إلى تعلم اللغة العربية منذ أن أصبحت لغة الدواوين الرسمية سنة (87هـ/705م ) وعلى الرغم مما يذهب إليه رينودو Renoudot من أنَّ اللغة القبطية انقرضت نهائياً في معظم القطر المصري بعد قرن من الفتوح ، [ "1808 " 304 ] فإن هناك دلائل تشير إلى بقائها لغة التخاطب بين الأقباط المصريين حتى نهاية القرن الثالث .

وفي المغرب استطاعت العربية أن تنتشر بسرعة في السواحل والبسائط وعلى مقربة من المدن، فاللغة اليونانية التي كانت اللغة الرسمية في ولاية إفريقية البيزنطية، لم تعش طويلاً على ألسنة الناس، لأنها لم تستطع أن تجد في المغرب كما وجدت في مصر والشام ملجأ في الدواوين والإدارات الحكومية، ذلك أن المسلمين استصفوا إفريقية وغلبوا عليها في عهد عبد الملك وبعده، وكان عبد الملك هو الذي نقل الدواوين إلى العربية، ومن الواضح أن ذلك شمل إفريقية منذ أن وطّد حسان بن النعمان الحكم العربي فيها، وأوجد نظاماً إدارياً وحكومة منظمة. أما في الجناح الشرقي فقد رأينا أن تعريب ديوان خراسان تأخر إلى سنة (124هـ/741م) لأن مهمة اللغة العربية في انتشارها كان قاسياً ليس لأنّ المدى بين العربية والبهلوية الفارسية عميق متسع فقط ، وإنما لأن اللغة الفارسية كانت لغة هؤلاء الذين عانوا الإدارة وتمرسوا فيها، وكان لهم سلطان وملك وحضارة، ولذلك لم تستطع اللغة العربية وهي بعد حديثة العهد في هذه المناطق أن تتسرب وتنتشر بسرعة، ومع ذلك فإن

انتشار الإسلام ساعد على انتشـــار العربيـــة، وإسكان العرب في خراسان وما وراء النـــهر كان خطوة أخرى في تعريب المنطقـــة، ممـــا ساعد بعد ذلك على إيجاد طبقة من المـــوظفين تتقن العربية والفارسية اســـتطاعت أن تُســـيِّر أعمالها.

**د. نجدة خماش**

**المصادر :**


ابن الأبار: (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) (ت 658هـ/1260م).

(1963) الحلة السيراء ــ جزءان، تحقيق حسين مؤنس القاهرة .

ابن الأثير، (أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني الجزري) (ت 630هـ/1232م).

(1983) الكامل في التاريخ، عشرة أجزاء، بيروت ، دار الكتاب العربي .

الأزدي أبو زكريا يزيد بن محمد بن إياس بن القاسم (ت 334هـ/945م).

(1967) تاريخ الموصل، تحقيق محمد علي حبيبة، القاهرة .

بحشل أسلم بن سهل الرزاز الواسطي (ت 292هـ/904م).

(د.ت) تاريخ واسط، تحقيق كوركيس عواد.

البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر) (ت 279هـ/892م).

(1959) فتوح البلدان، تحقيق محمد رضوان، القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى، .

(1959) أنساب الأشراف، الجزء الأول، تحقيق محمد حميد الله، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية.

(1972) أنساب الأشراف، القسم الأول من المجلد الرابع، مؤسسة الدراسات الإفريقية الإسلامية، الجامعة العبرية، القدس .

(1963) الجزء الخامس، مؤسسة الدراسات الشرقية، الجامعة العبرية، القدس.

البلخي (أبو زيد أحمد بن سهل) (ت 322هـ/934م).

(1919) كتاب البدء والتاريخ، الجزء السادس، باريز.

ابن تغري بردي (أبو المحاسن) (ت 874هـ/1469م).

(1929-1930) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية.

الجهشياري (محمد بن عبدوس أبو عبد الله) (ت 331هـ/942م).

(1938، 1988) كتاب الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ الشلبي. والنسخة التي قدم لها حسن الزين.

ابن خلدون عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي المغربي (ت 808هـ/1405م).

(1970) تاريخ ابن خلدون، 7 أجزاء، الجزء الأول يضم المقدمة، بيروت، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

خليفة بن خياط (ت 240هـ/854م).

(1967) تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق سهيل زكار، دمشق.

الدينوري (أحمد بن داود) (ت 282هـ/895م).

(1960) الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان) (ت 748هـ/1374م).

(1981) سير أعلام النبلاء، ثمانية أجزاء، مؤسسة الرسالة.

ابن رستة، (أبو علي أحمد بن عمر) (ت 390هـ/990م).

(1891) الأعلاق النفيسة، ليدن.

أبو زرعة عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان (ت 281هـ/894م ).

(1980) تاريخ أبي زرعة، جزءان، تحقيق شكر الله بن نعمة القرجاني، دمشق .

ابن سعد محمد (ت 230هـ/844م).

(1904) كتاب الطبقات الكبير، سبعة أجزاء، ليدن.

السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر) (ت 911هـ/1505م ).

(1951) تاريخ الخلفاء، تحقيق كوركيس عواد، بغداد ، مطبعة دار المعارف .

ابن طباطبا محمد بن علي (ت 709هـ/1309م) .

(1927) الفخري في الآداب السلطانية، مصر ، دار المعارف.

الطبري أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310هـ/922م).

(1971) تاريخ الرسل والملوك، عشرة أجزاء، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف الطبعة الثانية

الطرطوشي (محمد بن الوليد) (ت 520هـ/1126م ).

(1901) سراج الملوك، المطبعة الأزهرية، الطبعة الأولى.

ابن طولون شمس الدين (ت 965هـ/1546م).

(1956) الثغر البسام فيمن ولي قضاء الشام، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق .

ابن عبد الحكم أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت 257هـ/870م ).

(1930) فتوح مصر وأخبارها، ليدن.

ابن عبد الحكم عبد الله بن عبد الحكم (ت 214هـ/829م ).

(1954) سيرة عمر بن عبد العزيز، تحقيق أحمد عبيد، دمشق.

ابن عبد ربه أحمد بن محمد (ت 328هـ/940م).

(1949-1968) العقد الفريد، سبعة أجزاء، تحقيق محمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري.

ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج بن هارون الملطي (ت685هـ/1286م ).

(د.ت) تاريخ مختصر الدول، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية.

أبو عبيد، القاسم بن سلام (ت 224هـ/838م).

(1981) كتاب الأموال، تحقيق محمد خليل هراس، القاهرة .

ابن العديم كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد (ت 660هـ/1261م).

(د.ت) زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، دمشق.

ابن عذاري المراكشي، أبو العباس أحمد بن محمد (كان حياً سنة 712هـ/1313م)

(1968) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جزءان، بيروت .

ابن عساكر القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت 571هـ/1175م).

(1951،1954) تاريخ مدينة دمشق — المجلدة الأولى، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق ، المجلدة الثانية، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق .

ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت 276هـ/889م).

(1930) عيون الأخبار، القاهرة ، دار الكتب المصرية .

(1967) المعارف، تحقيق محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، بيروت.

(د.ت) الإمامة والسياسة، تحقيق طه محمد الزيني، مؤسسة الحلبي وشركاه.

قدامة بن جعفر (ت 327هـ/938م).

(1888) نبذ من كتاب الخراج وصناعة الكتابة، ليدن.

القلقشندي، أحمد بن عبد الله (ت 812هـ/1418م).

(1913) صبح الأعشى، 14 جزءاً، القاهرة.

(1964) مآثر الإنافة في معالم الخلافة، الكويت .

الكندي أبو عمر محمد بن يوسف (ت 350هـ/961م).

(1908) كتاب الولاة والقضاة، بيروت ، مطبعة الآباء اليسوعيين .

المالكي أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي عبد الله المالكي (ت 453هـ/1061م).

(1951) رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وزهادهم وعبادهم ونساكهم نشر حسين مؤنس، القاهرة.

الماوردي أبو الحسن علي بن محمد (ت 450هـ/1058م).

(1973) الأحكام السلطانية، مصر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت 346هـ/957م).

(1966) مروج الذهب ومعادن الجوهر، 4 أجزاء، دار الأندلس.

مصعب الزبيري أبو عبد الله مصعب بن عبد الله (ت 236هـ/850م).

(د.ت) نسب قريش، تصحيح وتعليق ليفي بروفنسال.

المقريزي أبو العباس أحمد بن علي (ت 845هـ/1441م).

(1853) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار 3 أجزاء عن طبعة بولاق، دار التحرير للطباعة والنشر.

مؤلف مجهول

(1971) تاريخ الخلفاء، بيروت .

النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 733هـ/1332م ).

(د.ت) نهاية الأرب في فنون الأدب ج 21. تحقيق محمد البجاوي.

أبو هلال العسكري الحسن بن عبد الله بن سهل (ت 395هـ/1005م ).

(د.ت) الأوائل، تحقيق محمد المصري، وليد القصاب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، إحياء التراث العربي.

وكيع محمد بن خلف بن حيان (ت 306هـ/918م ).

(1950-1974) أخبار القضاة، 3 أجزاء، تعليق عبد العزيز مصطفى المراغي، القاهرة .

ياقوت الحموي (ت 627هـ/1220م ).

(1977) معجم البلدان، بيروت ، دار صادر.

اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت 284هـ/897م ).

(1960) تاريخ اليعقوبي، جزءان، بيروت، دار صادر.

(1891) كتاب البلدان، ليدن.

أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم (ت 182هـ/798م ).

(1346هـ) كتاب الخراج ، القاهرة المطبعة السلفية .

**المراجع العربية والمعربة :**

إسماعيل كاشف (سيدة)

(1970) مصر في فجر الإسلام، القاهرة .

أمين (أحمد)

(1969) فجر الإسلام، بيروت .

ابن بدران عبد القادر أحمد (ت 1937م).

(1979) تهذيب تاريخ ابن عساكر، سبعة أجزاء، بيروت.

خماش نجدة

(1978) الإدارة في العصر الأموي، دمشق د، ار الفكر .

(1978) الشام في صدر الإسلام، دراسة للأوضاع الاجتماعية والإدارية، دمشق ، دار طلاس .

الدوري (عبد العزيز)

(د.ت) العرب والأرض في ديار الشام، بحث مطبوع في كتاب.

(1974) تاريخ بلاد الشام من القرن السادس حتى السابع عشر، الجامعة الأردنية .

السلاوي أبو العباس أحمد بن خالد الناصري (ت 1897م ).

(1954) الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى، الدار البيضاء.

صدقي العمد إحسان

(1973) الحجاج بن يوسف الثقفي، حياته وآراؤه السياسية، بيروت .

أبو الفرج العش (محمد)

(1974) النقود العربية الإسلامية، مصدر وثائقي للتاريخ، بحث طبع في كتاب تاريخ بلاد الشام من القرن السادس حتى السابع عشر، الجامعة الأردنية .

كرد علي (محمد)

(1968) الإسلام والحضارة العربية، القاهرة .

الكرملي (أنستاس)

(1929) النقود العربية وعلم النميات.

مؤنس (حسين)

(1949) فتح العرب للمغرب، القاهرة.

النقشبندي (محمود)

(1969) الدرهم الإسلامي، مطبوعات المجمع العلمي العراقي.

هنتس (فالتر)

(د.ت) المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها بالنظام المتري ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية.

**المراجع الاجنبية :**

Codera Y Zaidin,
1879Numesmatica Arabigo
Espanola, Madrid.

Levy, Reubens.
The Social Structure of Islam
2 nd Edition, Cambridge
University Press.

Lewis, Archibald,
Naval Power and Trade in
The Mediterranean A.D 500
-1100.

Miles.
1967The Earliest Arab Gold
Coinage.Quartremere,
1808Recherches Citique et
Historique sur La Langue et
La Litterature de L Egypt,
Paris.

Tritton. A.S
1930The Caliphs and their
Non - Muslim Subjects,
Oxford University press.

Walker.
1956The Arab Byzantin and
Post Reform Coins,
London,.

The Islamic Encyclopeadia, New
Edition.




دينار أموى خالص وهو الأسلوب الذى أقـــره الخليفة عبـد الملك منذ عــام 77 هـ وقد ضرب هذا الدينـار فى سنة 100 هـ




ديـنار عباسى ضرب فى 205 هـ فى عهد الخليفة المأمـون

## رابعا : البريد والطرق

### المعنى اللغوي والاصطلاحي للبريد:

إن مهمة البريد الرئيسة والأولى هي نقل الأخبار والرسائل بين العاصمة والولايات والأمصار في الدولة. أما المعنى اللغوي لكلمة (البريد)، فهو مسافة معلومة بين مركزين. والبريد أيضاً : الرسول، وابراد الشيء : إرساله، والجمع هو (برد). وبرد بريداً : أرسله. وقد سميت دابة البريد، بريداً ، لسيرها في البريد. كذلك سمي الرسول الذي يركب هذه الدابة بريداً. ثم أُطلق بعد ذلك على المسافة بين ( السكتين) ، وهي اثنا عشر ميلاً، [ الازهري "1964"106،107/14 ] أي نحو أربعة فراسخ، حسب تقديرات الفقهاء، وعلماء المسالك. [ البخاري "1938" 377/1 ] ويختلف الخوارزمي مع هذا التقدير، فهو يعد مسافة البريد فرسخين بالتقريب، ويعرف السكة، بأنها الموضع الذي يسكنه (الفُيوج) المرتبون من رباط ، أو قبة، أو بيت، أو نحو ذلك. وكان يرتب في كل سكة بغالاً. [الخوارزمي "1342هـ" 42 ] والفُيوج، جمع (فيج)، كلمة تطلق على الرسول الذي يسير على رجليه، وهي كلمة معربة، وغالباً ما يُقصد بها رسول السلطان الذي يسعى بالكتب، وينقل الأخبار من بلد إلى آخر. [الجواليقي "1969" 291 ]

وفي الاصطلاح، كان البريد يعني توفير وسائل نقل متعددة، لاسيما الخيل والبغال، في عدة أماكن، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها، وقد تعب فرسه، ركب فرساً مستريحاً غيره، وهكذا يفعل حتى يصل إلى مقصده بسرعة. وكانت تقام بين السكك التي أسلفنا الإشارة إليها، منازل، أي أماكن، عبارة عن قبة ، أو بيت، توضع فيه الدواب، لاستعمالها في نقل البريد.

### أصل الكلمة:

أما بالنسبة إلى أصل لفظة البريد، فهناك ادعاءات تجتهد في إرجاع أصول هذه الكلمة إلى اللاتينية، أو اليونانية أو الآشورية. وهناك من الكتّاب المسلمين من زعم أنها فارسية، وأصلها من " بُرِّيْدَة ذنب "، أي محذوف الذنب. [ الخوارزمي "1342هـ 42 ] أو " بُرِّيْدة دم "، أي مقطوع الذنب، لأن ملوك الفرس كانوا يقطعون أذناب الدواب المستخدمة للبريد تمييزاً لها من غيرها. وهذا رأي يفتقر إلى الدليل المقنع، كما ترى الباحثة خولة عيسى محمد صالح.["1985"20] لاسيما أن هذه اللفظة تطلق في الفارسية على كل شيء مقطوع ذنبه. يضاف إلى ذلك، فإن تحذيف أذناب

دواب البريد لم يكن يقتصر على الفرس حسب، بل إن هذه الظاهرة كانت موجودة عند الصينيين والروم، والمسلمين أيضاً. [ متز "1967" 410/2 ]

والواقع أن لفظة بريد عربية خالصة، معروفة منذ القديم، كما يقول ابن دريد ، ["1979" 221 ] الذي يستشهد بقول الشاعر أمرئ القيس في هذا المجال :

على كل مَقْصُوصِ الذُّنَابي مُعَاوِدٍ
بريدُ السُّرَى باللّيل من خَيلِ بَرْبَرا
[ المبرد "1956" 80/2]

كذلك أوردت المعاجم العربية الفعل الثلاثي " برد " و " أبرد "، كاشتقاق لكلمة " بريد ". [ الرازي "1983"47 ]

**تطور نظام البريد:**

البريد اختراع قديم جداً، ظهر في بلاد الرافدين، وفي وادي النيل. ولكن هناك من يزعم أن الفرس هم أول من ابتكر هذا النظام. وان الفضل يرجع إلى الملك دارا الأول (486-552 ق.م)، الذي عمل على تقدمه، واستفاد منه في ربط أجزاء الإمبراطورية الفارسية في الشرق الأدنى. والواقع أن الفرس هم الذين اقتبسوا هذا النظام من حضارة وادي الرافدين. فلقد كانت هناك تنظيمات بريدية عند السومريين، والأكديين، والبابليين، والآشوريين، فضلاً عن المصريين القدماء، والصينيين، والعرب، واليونان ، والرومان.

ويتبين من الدراسات القديمة، أن الإشارة إلى ذكر الرسائل والمراسلة، قد جاءت من العراق القديم، وأن أول ذكر لرسائل من هذا النوع جاء في رسالة باللغة السومرية من مدينة لجش في حدود (2800 ق.م). ثم أعقبتها رسائل أخرى، تم تبادلها في شمال العراق. كما عُثر على أنموذج نحاسي لعربة بريدية في تل أجرب، يعود تاريخها إلى نحو 2400 سنة ق.م. كذلك كان للأكديين ريادة في ميدان البريد، ومن الجدير بالذكر أن اللغة الأكدية ، وخطها المسماري كانت اللغة التي تفاهم بواسطتها حكام وملوك دول الشرق الأدنى القديم في مصر والشام والعراق وآسيا الصغرى في أواسط الألف الثاني قبل الميلاد، كما تشير إلى ذلك الرسائل الملكية الرسمية التي عثر عليها في تل العمارنة عاصمة الفرعون أخناتون . وقد اكتسبت هذه الرسائل شهرة عظيمة، وهي الرسائل المتبادلة بين حكام ذلك الوقت، لاسيما بين ملوك آشور وبابل والحثيين وقبرص وصقلية. وكانت اللغة الأكدية هي اللغة الرسمية المستعملة، أي كانت لغة الدبلوماسية المستعملة في المنطقة. وقد وصلت إلينا مجموعة من هذه الرسائل المكتشفة في تل العمارنة، منها الرسالة التي كتبها الملك البابلي الكشي " بورنابوش" إلى فرعون مصر " أمنوفس الرابع" أي أخناتون. أما في عهد حمورابي (1728-

1687 ق.م) فهناك شواهد على اهتمام الدولة في عهده بالطرق، وبنظام إرسال الرسائل السريع، لما في ذلك من فائدة كبيرة في ربط أجزاء البلاد، وإيصال أوامر الملك بسرعة. وكان هناك مراسلون لنقل الرسائل، كانوا يتوقفون في محطات معينة. وكان هؤلاء يحملون الرسائل، وهي مختومة، وعندما تصل إلى العاصمة، يفضها كاتم سر الملك، الذي يتلو على سيده محتواها، ويدوّن جواب الملك الذي يُرسل على الفور. ويشير هذا الاهتمام إلى مدى حرص الملك البابلي على ضبط أمور الدولة، التي كان البريد أبرز قنواتها للحصول على المعلومات ووصولها بالسرعة القصوى إلى المركز لمعرفة أدق التفاصيل عن كل أقاليم البلاد. وكان يُطلق على حملة الرسائل، ومنذ العهد الأكدي اسم (مار شبري Mar shipri)،الذي يعني حرفياً : "ابن الرسالة "، بمعنى: الرسول، واستمر استخدام هذا الاسم فيما بعد، لاسيما في العهد الاشوري. وكانت الرسائل تصنع من كتل طينية صغيرة تجفف تحت أشعة الشمس، وبعد أن تُكتب توضع في ظروف طينية للحفاظ على سريتها.

أما نظام البريد والمواصلات في العهد الآشوري،لاسيما منذ العصر الآشوري الوسيط (1400-900 ق.م)، فكان من أكفأ الأنظمة المعروفة آنذاك. ويدل على ذلك كثرة الرسائل التي تم العثور عليها خلال التنقيبات التي أجريت في العواصم الملكية القديمة، مثل نينوى وكالح، فقد اكتشف ما يزيد عن ألفين من الرسائل المرسلة من المقاطعات إلى مركز الإمبراطورية. مما يدل على وجود نظام مواصلات كفء يسر للحكام المحليين الاتصال الدائم بالمراكز الحكومية. وكانت الاتصالات تتم بواسطة الرسل المتهنين، لاسيما الموظف الذي يدعى (مار شبرى)، الذي كان يسافر على الطرق الملكية. وكانت هذه الطرق شرايين الإمبراطورية الرئيسة، وهي طرق منظفة فقط، وليست طرقاً معبدة حسب المفهوم الحديث أو الروماني. وعلى طول هذه الطرق عبر الإمبراطورية كان هناك محطات بريد تحت حراسة القوات الحكومية الدائمة، وعلى مسافة رحلة يوم (أي 20-30 ميلاً) بين المحطة والأخرى، حيث كان يتم في المحطة تبديل الخيل أو البغال، لكي يستخدمها الرسل في المحطة الثانية. لذا فقد كان المار شبري يسافر راكباً من محطة إلى أخرى مع قوات حرس صغيرة، وهو يحمل الرقيم الذي يتضمن رسالة حاكمه أو جواب ملكه. وفي المواسم التي كانت تتعذر فيها المواصلات بسبب سقوط الثلوج، استخدم الآشوريون رجالاً مهرة في تسلق الجبال، يسمى الواحد منهم ديالو (dayalu) أي الراكض، الذي يتمكن من أن يجد له طريقاً عبر المناطق التي لا يمكن

للخيل عبورها. ومن الحالات الأخرى التي لم يكن فيها استخدام المار شبري الاعتيادي عملياً، هي عندما كان يُراد إرسال المعلومات إلى الملك أو الحاكم شخصياً. وفي مثل هذه الحالات كان يستخدم مبعوث خاص يحمل رسالته الشخصية بالسرية اللازمة. [ ساكز "1979" 285،289،290]

فضلاً عن هؤلاء الموظفين المدنيين، كان للآشوريين ضباط استخبارات يزودون القيادة العليا بالرسائل التي تتضمن معلومات خاصة بالأعداء. وتتوفر في هؤلاء الضباط المقدرة الثقافية على الكتابة باللغة المسمارية، كما يجب أن تتوفر فيهم أيضاً المعرفة بشؤون المنطقة التي يعملون فيها من حيث تضاريسها وسكانها واقتصادها وسياسة الحكام فيها. وكان يجب على هؤلاء العناصر الاستخبارية تزويد رؤسائهم بالمعلومات والتقارير التي تُرسل بدورها إلى البلاط الآشوري، فهم بمثابة العيون والآذان للملوك، الذين كانوا يكتبون إلى ولاتهم على الأقاليم عبارة " أكتب لي كل شيء أنت تراه وتسمعه " . وهناك فيض من الرسائل الآشورية الباقية، والتي تشير إلى مراسلات هؤلاء، وتقاريرهم السرية المبعوثة بواسطة البريد من الأقاليم إلى مركز الدولة.

وتشير النصوص المصرية إلى وجود نظام متكامل للبريد في عهد المملكة القديمة (2700-2100ق.م). أما في عهد الإمبراطورية المصرية (1580-1085ق.م)، فقد بدأ عهد جديد من المراسلات والعلاقات الدولية التي كشفت عنها رسائل تل العمارنة، والتي يُستدل منها أن الفراعنة قد نظموا بريداً خارجياً على مستوى عالٍ، اعتمدوا فيه على رجال أشداء، يستخدمون العربات عبر الطرق المترامية الأطراف، لإيصال كتب الفرعون وتوجيهاته. [ باقر "1956" 2/68-69 ]

وفضلاً عن بلاد الرافدين، وبلاد وادي النيل، عرفت شعوب قديمة أخرى تنظيمات البريد، مثل الفرس والرومان واليونان. ويعود نظام البريد عند الفرس إلى عهد الملك كورش في حدود سنة (558ق.م). وقد حَسَّن هذا النظام بعد ذلك الملك دارا الأول، بإنشائه للطرق الملكية، والبريد المنظم بين مراكز الولايات والعاصمة. وهو الذي يُنسب إليه خطأً الفضل في ابتكار البريد، كما أسلفنا. وقد عرف اليونان نظام البريد في حدود القرن الخامس قبل الميلاد. أما الرومان، فلم يبلغ البريد عندهم شكله الدقيق، إلا في عهد الإمبراطورية، لاسيما أيام الإمبراطور أغسطس (63-14ق.م)، حيث وصل أعلى درجات التطور، وأسهم في تحقيق الاتصال بين أجزاء الإمبراطورية الواسعة المتباعدة. [ صالح "1985" 27 ]

### البريد عند العرب قبل الإسلام

عرف العرب قبل الإسلام البريد،واستخدموا الخيل والإبل والبغال لنقله. وكانت الخيل هي الأكثر شهرة في هذا المجال، استناداً إلى قول المُبَرد، : " وكانت بُرُدُ ملوك العرب في الجاهلية الخيل ". [ "1956" 80/2 ] وقد سبق أن أشرنا إلى ذكر الخيل في شعر امريء القيس. ويبدو أنه كانت هناك مراسلات بريدية منظمة بين العرب وبين حكام الدول المجاورة، مثل الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية، لاسيما بعد قيام ممالك عربية على حدود هاتين الدولتين، مثل المناذرة والغساسنة، ومملكة كندة. [ الجاحظ "1955" 71-72 ] وقد ورد ذكر البريد في أشعار تنسب إلى ورقة بن نوفل، منها على سبيل المثال ما قاله في وفاة عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العُزّى، الذي كان يتردد إلى قيصر الروم : [ الزبيري "1976" 210 ]

هَلْ اتى ابْنَتَيْ عُثمانَ أنّ أباهُما
حانتْ مَنِيَّتُهُ بِجَنْبِ المَرْصَدِ
رَكبَ البَريدَ مُخاطِراً عَنْ نَفْسِهِ
مَيْتَ المَظَنَّةِ للبَريدِ المُقْصَدِ

ولقد عُرِف أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة " براكب البريد ". وكان هناك نوعان من البريد عرفهما العرب، الأول: هو البريد الذي يحمله الراكب، والذي ينقله إلى مسافات بعيدة، والثاني: هو البريد الذي ينقله الرسول الذي يسير على رجليه، ويعرف " بالفيج "، وجمعها (فيوج)، وقد أسلفنا توضيح معناها. وهذا البريد هو بمثابة بريد محلي، ينقل الأخبار ضمن مسافات قصيرة. وقد يكون الفيج، كما يرى جواد علي، ["1978" 321/5 ] مخبراً ينقل ما يحدث وما يقع بسرعة إلى المراجع العالية. وكان هؤلاء الفيوج يتدربون على المشي منذ صغرهم، ويقطعون المسافات عدواً، ثم يصبحون عدائين وسعاة لنقل الرسائل بسرعة فائقة. وقد اشتهر من هؤلاء الفيوج العدائين، الشنفرى، الذي ضُرب المثل بسرعة عَدْوِه، فقيل فيه: "أعدى من الشنفري"، والسليك، الذي قيل فيه أيضاً: " أعدى من السليك ". وقد اشتهر السليك بقصة جريه حين رأى طلائع مقاتلين من عشيرة بكر بن وائل جاءوا للإغارة على تميم، فوصل إلى قومه وأنذرهم، فلم يصدقوه، فقال: [الميداني "1959" 2،46،47 ]

يُكَذِّبُني العمران عمرو بن جندب
وعمرو بن سعد، والمكَذِّبُ أكْذَبُ
سَعَيْتَ لَعَمْري سَعيَ غيرَ مُعْجِزٍ
ولا نأنأ لو أنني لا أُكَذَّبُ

## البريد في عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين:

ويظهر مما سبق أن البريد الذي كان عند العرب قبل الإسلام، لم يكن بريداً منظماً، لاسيما بريد الفيوج، الذي كان عملاً فردياً، لا يخدم المجتمع كله. وكذلك فإن البريد في عصر الرسول ﷺ، لم يصل إلى مرحلة متقدمة، على الرغم من ورود لفظة (بريد) في بعض الأحاديث النبوية الشريفة. مثال ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: " إذا أبردتم إليّ بريداً فاجعلوه حسن الوجه حسن الاسم"، و" إني لا أخيسُ بالعهد ولا أحْبس البُرْد ". [السجستاني "1950" 110/3] ومن المرجح أن الرسل الذين تولوا مهمة إيصال الخطابات المتبادلة بين النبي محمد ﷺ، وعماله، أو قادته، أو الملوك والحكام المعاصرين له، هم أشخاص توسم فيهم الثقة والكفاءة والقابلية لمثل تلك المهمات.، أمثال دحية بن خليفة الكلبي، رسول النبي (صلى الله عليه وسلم ) إلى قيصر الروم، والعلاء بن الحضرمي رسوله إلى المنذر ابن ساوي صاحب البحرين، وعمرو بن أمية الضمري رسوله إلى النجاشي ملك الحبشة، وحاطب ابن أبي بلتعة رسوله إلى المقوقس ملك الإسكندرية، وعمرو بن العاص السهمي رسوله إلى جيفر وعياد ابني الجلندي ملكي عُمان، وغيرهم. [ابن هشام "1955" 606/2-607 ]

وبعد وفاة الرسول ﷺ ، وقيام الخلافة الراشدة، تطلبت الظروف الجديدة، عناية أكبر بالبريد، لربط الاتصال بين القيادة المركزية في المدينة المنورة، والعمليات العسكرية، التي ابتدأت في هذا العصر، ممثلة بحروب الردة أولاً، وبالفتوحات ثانياً. فكانت عملية نقل الرسائل والأخبار بين الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقادته العسكريين سريعة، أدت إلى أن يكون الخليفة على علم تام بدقائق أحداث القتال في جميع ساحات المعارك التي جرت فيها حروب الردة. وهكذا كان للبريد دور في عمليات الفتوح في

عهد الخليفة الراشدي الأول. وعند وفاته إذ يشير أحد نصوص الطبري إلى ورود " البريد " على المقاتلين باليرموك، ينعى إليهم الخليفة، وفيه أيضاً أمر عزل خالد ابن الوليد.

واستخدم البريد بكثرة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ. وهناك نصوص كثيرة تشير إلى مراسلاته مع قادته في معركة القادسية، وفتوح الشام ومصر. فبالنسبة للقادسية، كانت الرسل تتواصل بين الخليفة والقائد سعد ابن أبي وقاص، إلى الحد الذي جعل دقائق أحداث المعارك تُنقل إلى الخليفة ، الذي كان بدوره، يُعطي توجيهاته وملاحظاته عن سير المعارك، وهو مقيم في المدينة. كذلك كانت أخبار الفتوح في بلاد الشام تصل إلى الخليفة أولاً بأول، ففي عام (14هـ/635م) وصل " البريد إلى عمر بفتح دمشق "، وكان يحمل هذا الخبر عقبة بن عامر الجهني، الذي قطع المسافة بين الشام والمدينة المنورة في مدة أسبوع واحد فقط. وعندما افتتحت مدينة الإسكندرية في مصر، بعث القائد عمرو بن العاص معاوية بن حديج الكندي، رسولاً إلى الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ ، ليبلغه بخبر هذا الانتصار.

وقد استعان العرب في حروب تحرير الشام بالفيوج من الأنباط في نقل الرسائل بين أمراء الأجناد من جهة، والمدينة المنورة من جهة أخرى، لغرض تنسيق المواقف الحربية. ويبدو أن معرفة هؤلاء الفيوج للطرق والمسالك، فضلاً عن قابليتهم على السير السريع، وأنهم كانوا موضع ثقة، قد أهلتهم للقيام بهذه المهام. ولا تشير المصادر العربية المتوفرة إلى الطرق التي سلكها هؤلاء الرسل الذين كانوا ينقلون الأخبار من المدينة المنورة إلى الشام والعراق ومصر، وبالعكس. ولكن يبدو أنهم كانوا يسيرون في طرق القوافل التجارية المعروفة، التي تتمتع بوجود محطات ومنازل خاصة بتقديم الخدمات على طول الطرق التي سلكها هؤلاء الرسل. وإن كانوا يضطرون أحياناً إلى تغيير الطريق، إذا ما تطلبت الضرورات العسكرية ذلك، فقد يسلكون طرقاً أخرى غير معروفة لضمان وصول الأخبار. كما أن الجيش قد يستعين بخبرة عمال البريد، للعبور من مسالك غير مطروقة للتمويه على الأعداء. ويبدو أيضاً أن وسائل النقل المعتادة لهؤلاء

الرسل، كانت الجمال، على الأغلب، ويتبين هذا من النصوص التي أشارت إلى قدوم المبشرين بالفتوح على المدينة المنورة. فلقد قدم البشير بخبر الانتصار في القادسية سنة (14هـ/635م) وهو على ظهر ناقة . [ ابن الأثير "1979" 484/2] كذلك وصل البشير بتحرير ساحل بلاد الشام سنة (19هـ/640م) على ناقته أيضاً. [الواقدي "1373هـ" 21/2 ] وينطبق الأمر ذاته مع الرسول الذي جاء مبشراً بفتح نهاوند سنة ( 21هـ/641م) . [ الطبري "1960" 117/4]

والظاهر أن مهمة نقل الأخبار هذه كانت منوطة ببعض الشخصيات العربية المعروفة، فضلاً عن الفيوج، الذين أسلفنا الإشارة إليهم. مثال ذلك أن عبد الرحمن بن حنبل الجمحي، كان هو الرسول الذي ينقل الرسائل بين الخليفة أبي بكر الصديق ﷺ ، وبين القائد خالد بن الوليد في العراق وبلاد الشام. كذلك عُرف عقبة ابن عامر الجهني بنقله البريد بين الخليفة عمر بن الخطابﷺ، وقادته في بلاد الشام.

ولا شك بأن التطورات السياسية والإدارية والعسكرية التي برزت بشكل واضح في عهد الخليفة عمر بن الخطابﷺ، قد أدت إلى زيادة الاهتمام بالبريد، لما له من أهمية واضحة في إطلاع السلطة المركزية في المدينة المنورة على مجريات الأمور في الأطراف. فلقد كان للبريد مكاتب خاصة به في الولايات، وأُفردت دور خاصة لدوابه، كما رُتِّبت مواعيد خروجه ودخوله إلى المدن والولايات. وتشير إحدى الروايات إلى وجود دار للبريد، يُرَجَّح أن يكون موقعها في طرف الكوفة، وكانت الرسل تترل فيها إذا حضرت من المدينة المنورة.، وقد صلى فيها أبو موسى الأشعري.

ومن المرجح أن الأمر لم يقتصر على الكوفة حسب، بل شمل معظم المدن والأمصار الرئيسة في الولايات، مثل البصرة ، والفسطاط، وغيرها. وكان بإمكان الناس أن يدسوا رسائلهم في دور البريد، لتذهب ضمن بريد الدولة إلى الجهة التي يريدونها، لاسيما إلى مناطق القتال. وهذه الخدمات لا تخرج عن نطاق المصلحة العامة، لأن نقل الرسائل بين المقاتلين وزوجاتهم في المدينة المنورة، وغيرها من المدن الأخرى، يهدف في النهاية إلى توفير الاستقرار النفسي لكلا الطرفين.

وقد توسع البريد في مهماته في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ ، فشمل الرقابة والاستخبارات، ومن خلاله كان الخليفة يتعرف على أمور عماله في الولايات. [ ابو يوسف "1984" 120 ] وكان لمسحه سواد العراق، وقياس مسافاته بالفراسخ، ما بين الموصل وعبادان طولاً، وبين عقبة حلوان والقادسية عرضا، أثر مهم في تحديد مراحل البريد وسككه فيما بعد، فضلاً عن الوقت الذي يستغرقه عمال البريد في قطع هذه المسافات. ولكن وعلى الرغم من هذه الترتيبات، واتخاذ الطين لختم الكتب في عهد عمر بن الخطاب ﷺ، وكذلك في عهدي عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، ﷺ ، فإنه لا توجد إشارة واضحة إلى وجود ديوان رسمي للبريد في عهد الراشدين، وأن هذا التطور حصل لاحقاً في العهد الأموي، كما سنرى.

### نشأة ديوان البريد في العهد الأموي:

بعد انتقال السلطة إلى الأمويين، برزت الحاجة بشكل واضح إلى البريد، نظراً لخطورته لأمن وسلامة الدولة، وتسهيل الاتصال بين أرجائها المترامية الأطراف. وقد أدرك الخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان (41_60هـ/661_680م) أهمية هذا النظام، فاهتم به اهتماماً كبيراً، الأمر الذي دفع الكثير من المؤرخين إلى القول بأن الخليفة معاوية هو أول من وضع نظام البريد. فيذكر العسكري، ["1987" 162 ] أن معاوية هو " أول من نظَّم البريد في الإسلام ". كذلك يشير العمري، إلى أنه رتَّب له الدواب، والمحطات ، لتصل إليه الأخبار من جميع أطراف البلاد، كما أنه استعان بذوي الخبرة في هذا المجال لتنظيم البريد على طرق ومناهج مخصوصة [ "1312هـ" 184،185].

ونحن نعلم بطبيعة الحال أن البدايات الأولى لهذا النظام، وضعت منذ عهد الراشدين.

ولا يتوفر في مصادرنا ذكر لمصطلح "ديوان البريد " في أيام معاوية بن أبي سفيان، ولهذا، فقد اختلف المؤرخون المُحْدَثون في نسبة نشوء هذا الديوان إليه. فمنهم من أكَّد هذه النسبة، أمثال عبد العزيز الدوري، ["1950" 196/1 ] وجرجي زيدان، ["1967" 230/1 ] وغيرهما. ومنهم من نفاها، وذهب إلى أن الخليفة عبد الملك بن مروان (65_86 هـ/685_705م) هو أول من وضع هذا الديوان. وعلى أي

حال، فإن وجود التسمية أو عدم وجودها، لا يغير من واقع الأمر شيئاً. فقد كانت هناك مؤسسة إدارية تُشرف على أعمال البريد وموظفيه في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان، لاسيما أنه ابتكر أموراً جديدة تدعم أعمال البريد وتضبطها، مثل ديوان الخاتم، وحزم الكتب، فضلاً عن وجود موظفين خاصين بالبريد، هم أصحاب البريد. وقد أهملت المصادر ذكر أسماء هؤلاء الموظفين في عهد الخليفة معاوية، باستثناء ما أورده ابن قيم الجوزية، من أن نصربن ذبيان والكميت كانا على البريد في أيام معاوية الأول، واستخدمهما في نقل الأخبار بين الشام والحجاز. [ "د.ت" 11] لذلك فمن المرجح بأن هذا الديوان قد أنشئ فعلاً في عهد معاوية بن أبي سفيان، ثم تطور بعد ذلك، حتى وصل إلى مرحلة متقدمة في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان.

وقد أولى هذا الخليفة الأخير أهمية خاصة إلى البريد، لما له من أثر في سرعة مواصلات الدولة. وأدخل على تنظيماته تحسينات عديدة، بحيث أصبح من أهم الدواوين الحكومية. وكان صاحب البريد في عهده، قبيصة بن ذؤيب، الذي يقرأ الكتب إذا وردت، ثم يُدخلها على الخليفة، ويُطلعه على ما فيها من أخبار. وكان قبيصة هذا، المتوفى في حدود سنة (86هـ/705م) ، يتمتع بصفات ممتازة أهلته لتولى هذا المنصب، فهو من علماء الأمة في ذلك العصر،ومن الرجال الثقاة الذين يُعتمد عليهم في رواية الحديث. لهذا فقد حظي بثقة الخليفة عبد الملك، الذي كان إذا ولى رجلاً البريد سأل عن صدقه وعفته وأمانته. وكان يقول: " إن كذبه يُشكّك في صِدْقه، وشرّه يحمله على كتمان الحق، وعجلته تهجم به على ما يُنَدِّمه ويُؤثمه". [البرالنمري "1962" 278/1 ] وكان عبد الملك من شدة حرصه على انتظام وصول البريد، يأمر حاجبه، ،بألا يحجب البريد عنه متى جاء من ليل أو نهار، أسوة بالمؤذن الداعي إلى الله، وطارق الليل، اللذين لا يجوز حجبهما. من هذا تتبين أهمية صاحب البريد، الذي أصبح فيما بعد يمثل أحد أركان الدولة، الذين يُعتمد عليهم في إدارتها وضبطها. وكان لابد في حالات تغيير الخلفاء، لاسيما في الانقلابات المفاجئة، أن يُحسب حسابه، فلقد اضطر يزيد بن الوليد، حينما همَّ بالبيعة لنفسه، وخلع الخليفة الوليد بن يزيد سنة (126هـ/743م) ، أن يحجز كبار موظفي الدولة، وكان منهم خزّان بيت المال، وصاحب البريد. [ الطبري "1960" 239/7-240 ]

وكان صاحب البريد يرتبط بالخليفة بصورة مباشرة، و لم يكن بينهما أية واسطة، وذلك لعدم السماح لأحد بالإطلاع على

الأخبار قبل أن يقرر الخليفة رأيه بشأنها، حسب ما تقتضيه مصلحة الدولة. وكانت تقع على عاتق صاحب البريد مسؤولية إدارة ديوان البريد، والإشراف على العاملين فيه، سواء في العاصمة دمشق، أم في الولايات، وكذلك العاملون في السكك أو الطرق التي كان يسير فيها البريد. وأصبح في كل عاصمة ولاية صاحب بريد مهمته الإشراف على مؤسسة البريد، ولم يكن عمله يقتصر على الإشراف على الرسائل حسب، بل يتعداه إلى إطلاع الخليفة على جميع الأحداث المهمة. وكان صاحب البريد في الواقع معتمداً سرياً للحكومة المركزية. وكان يقدم تقارير سرية عن أحوال الإمارة وسير الإدارة، وحالة الفلاحين والزراعة، وتصرفات السلطات المحلية، وحالة النقد، وكمية الذهب والفضة المسكوكة. وكان من جملة أعماله أيضاً حفظ الطرق وصيانتها من القطّاع، وانسلال الجواسيس من البر والبحر، وإليه ترد كتب أصحاب الثغور وولاة الأطراف، وهو يوصلها بأسرع ما يمكن، وينظر في حال القبائل والعشائر ومن فيهم على الطاعة والإخلاص للدولة. وكان لصاحب البريد أيضاً مهمة مراقبة أحوال الناس، فيروى أنه وفد على عمر بن عبد العزيز بريد من بعض الولايات، فسأله عمر عن حال أهل البلد، ومن بها من المسلمين وأهل العهد، وكيف سيرة العامل، وكيف الأسعار، وكيف أبناء المهاجرين والأنصار، وأبناء السبيل والفقراء، وهل أُعطي كل ذي حق حقه؟ [ ابن عبد الحكم "1967" 155]

وقد جاءنا في أوراق البردي ما يؤيد هذا، فتشير رسالة من قرَّة بن شريك، والي مصر في عهد الوليد بن عبد الملك، موجهة إلى عامله على أشقوة إلى دور صاحب البريد في هذه المنطقة، فهو يقول فيها: " فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإن صاحب البريد ذكر لي أنك أخذت قرى في أرضك بالذي عليهم من الجزية، فإذا جاءك كتابي هذا فلا تعترضن أحداً منهم بشيء حتى أُحدث إليك فيهم. سنة إحدى وتسعين، وكان القاسم بن سيار عامل البريد في قرية منختة ". [ جرو همان "1934-1974" 3/27-28 ]

وقد أجمل لنا قدامة بن جعفر اختصاصات صاحب البريد. وهنا يجب الانتباه، على أن قدامة كان يكتب في أوائل القرن الرابع للهجرة/ العاشر الميلادي( ت سنة 328هـ/939م )، حين تطور هذا الديوان في العصر العباسي. ولكن مع هذا، فإن هذا التطور لم يأت فجأة ، وما كان وليد ساعته، بل استند على التدرج الإداري الذي مر به هذا الديوان منذ العصر الأموي، الذي فيه تم وضع الأسس العامة لأعمال وصلاحيات صاحب البريد، والتي بقي الكثير منها سارياً في العصر العباسي،مع ملاحظة

التطور والاستقرار الذي تميز به هذا الـديوان لاحقاً، شأنه شأن بقية مرافق الدولة الأخرى. يقول قدامة:" يُحتاج في البريـد إلى ديـوان يكون مفرداً به، وتكون الكتب المنفذة مـن جميع النواحي، مقصوداً بها صاحبه، ليكـون هو المنفذ لكل شيء منها إلى الموضع المرسوم بالنفوذ إليه، ويتولى عرض كتب أصـحاب البريد والأخبار في جميع النواحي على الخليفة، أو عمل جوامع لها، ويكون إليه النظر في أمر الفُرْوانقيّين، والموقعين والمرتبين في السـكك، وتنجز أرزاقهم، وتقليد أصحاب الخـرائط في سائر الأمصار، والذي يُحتاج إليـه في هـذا الديوان، هو أن يكون ثقة، إما في نفسـه، أو عند الخليفة القائم بالأمر في وقته، لأن هـذا الديوان ليس فيه من العمل ما يحتاج معـه إلى الكافـي المتصفح، وإنما يُحتاج إلى الثقـة المتحفظ... " [ "1981" 77 ]

وتأكيد قدامة بن جعفر موضوع الثقة، يأتي من طبيعة عمل صاحب البريد، الذي يجب أن يتسم بالدقة، لما يورده من أخبار، لكي يطمئن الخليفة إلى صحة هذه الأخبار، حتى يـتمكن من اتخاذ القرارات المناسبة بشأنها. كما كـان على صاحب البريد أن يستعين بموظفين مـن أهل الكفاية والغِناء، لكي لا يحملوا إليه إلا ما يثبت عندهم، ويثقون بصحته. وكان لابـد لصاحب البريد من أن يكون صادقاً وأميناً، وهي من الأمور التي كان يتحراها الخلفـاء، وقد أسلفنا الإشارة إلى موقف عبد الملك بن مروان من هذا الأمر ، إذا ما أراد أن يعـين أحداً لهذا المنصب. وكان يطلب ذلك أيضـاً من موظفي البريد الذين يفدون عليـه مـن الولايات، لأنه كان يستفسر منهم عن أحوال تلك الولايات، ويطلب منـهم الصـدق في الحديث، حتى ولو كان أمير الولايـة أحـد اخوته. مثال ذلك استفسـار الخليفـة مـن موظف البريد الذي قدم عليه من العراق عـن سياسة واليها بِشْر بن مروان، فوصفه بـ " الشديد من غير عنف اللين في غير ضعف "، الأمر الذي سُرَّ منه عبد الملك. [ الطرطوشي "1412هـ" 121 ]

ويتبين من هذا أنه كان لكل ولاية عامل بريد، يعاونه في تصريف شؤون هذا الـديوان أتباع آخرون. وكانت أوامر تعـيين هـؤلاء العمال، تصدر من الخليفة مباشـرة. وكـان يُفترض بهؤلاء العمال، أن يتصفوا بالصـفات ذاتها التي يتصف بهـا صـاحب البريـد في العاصمة، لما لهم من أهمية في ربط الولايـات بالمركز، وموافاة الخليفة بالأخبـار بأقصـى سرعة. وكانت سلطة صـاحب البريـد في الولايات منفصلة عن سلطة الوالي، فهو الذي يختار موظفيه في هذه الولايات، إلا أن أوامـر تعيينهم كانت تصدر عن الخليفة. وقد يبدي صاحب البريد رأيه أحياناً حتى في تغيير الولاة، وذلك حسب التقارير التي يرسلها إلى مركـز

الخلافة بشأن هؤلاء الولاة، ومدى كفاءهم في إدارة الأحوال العامة في الولاية.فهـو بمثابـة وكيل للدولة في هذا المجال.

وقد أوردت المصـادر تسـميات لـبعض المـوظفين والعمـال الـذين يعملـون في البريـد، بعضـها كـان مستعملاً ومعروفاً في صـدر الإسـلام والعصر الأموي، والبعض الآخر ظهـر في عصور لاحقة، ومن هـؤلاء :

**الفيوج** : وهـم رسـل البريـد الذين ينقلون الأخبـار وقـد سـبقت الإشارة إليهم في بداية البحث.

**الفُرْوانقيـون** : وهـم الـذين كانوا يتولون قيادة البريـد في السـفر، ويلاحظون سـير السـعاة، والخيـل، وأحوال المحطـات، وهـم أشـبه مـا يكونـون بالمفتشـين علـى خطـوط البريد. وقد يقومـون بنقـل الرسـائل المهمة بأنفسهم، وكان يُسـتعان بهـم في الاسـتدلال علـى الطـرق. وقـد عُرف عنهم ذلك منـذ الحقبـة الـتي سبقت الإسلام، ويـدل علـى ذلـك قول امريء القيس [الجاحظ "1955" 71]

ونادمتُ قَيصَرَ في مُلكِهِ
فأوجَهَني وركبْتُ البَريـدا

وإذا ما إزْدَحَمْنا على سـكّةٍ
سَبَقْتُ الفُرانقَ سبقاً بعيـدا

**الشَّعْوَذيُّ** وجمعه (الشعاوذة)، وقد أُطْلِق هذا الاسم على عمال البريد، وعُرف أيضـاً بأنه رسول الأمراء على البريد، وهو مشتق من الشَّعْوَذة لخفة اليد والسرعة، وهو، كما يرى الفراهيدي، [ "1980-1985" 244/1 ] رسول أمير الجيش إلى صاحب البريد، الـذي يتولى نقل الأخبار إلى الخليفة، وهو مصـطلح ليس من كلام العرب،. وقد أشار الهرثمي إلى مصطلح (صاحب الشّعاوِذَة)، وأدرجه، هـو و(صاحب البريد)، ضمن الأشخاص الـذين يلتحقون في ميسرة القلب مـن تشـكيلات الجيش في الميدان أثناء الحروب. وقد ورد مـا يدل على استخدام هذا المصطلح في العصـر الأموي، ففي رواية لابن سعد، هناك إشـارة إلى شخص يُدعى (ربيعة الشعوذي)، ذكـر ذلك بقوله: " إن ربيعة الشعوذي حـدَّثَهم، قال: رَكِبْتُ البريد إلى عمر بن عبد العزيـز، فانقطع في بعض أرض الشام، فركبتُ السخرة حتى أتيتُه ... فقال: ما فعل جناح المسلمين؟ قال، قلت: وما جناح المسـلمين يـا أمـير المؤمنين؟ قال: البريد...". [ ابن سعد "1959-1960" 374/5 ] ويتبين من هـذا الـنص، أن البريد يمكن أن ينقطع في بعض الظروف التي لا يمكن السيطرة عليها، ولكن رسول البريـد

الماهر، كان لا يَعدم الأسباب التي تُمَكِّنه من الاستمرار في أداء مهمته. كذلك فإن إشارة ربيعة الشعوذي إلى ركوبه السخرة ، يدل على وجود، هذا النوع من الممارسات، التي قد يضطر إليها رسول البريد، نظراً للضرورة القصوى التي تتطلب وصوله السريع، لأداء مهمته. وأخيراً فإن استخدام الخليفة عمر بن عبد العزيز لمصطلح " جناح المسلمين " في وصف البريد، يدل على سرعة نقله للأخبار، على جناح السرعة، فهو جناح المسلمين، الذي يطيرون به ، لتحقيق أمن وسلامة الدولة.

**السُعاة** : وكان هناك عمال آخرون للبريد يُكَلفون أحياناً بنقل البريد على الأقدام، عن طرق السعي، أي الجري والركض، ويُسمون بالسُعاة، وكان يُستعان بهم إلى جانب راكبي الخيل والإبل والبغال. ويكون هؤلاء عادة رجالاً خفافاً تعودوا على الجري ، وقطع ثلاث مراحل في مرحلة واحدة. ومن الواضح أن مهمتهم هي أقرب ما تكون إلى مهمة (الفُيوج)، الذين ينقلون الرسائل جرياً على أقدامهم. وبطبيعة الحال، فإن دور هؤلاء لا يرقى إلى دور راكبي الخيول والبغال، من حيث السرعة. ويبدو أنه كان يُستعان بهم في حالات خاصة، لاسيما عند انقطاع الطرق، في أثناء مواسم الشتاء، أو في زمن الحروب والأزمات، التي يصعُب فيها إرسال البريد الاعتيادي.

وقد أشار قدامة بن جعفر في نصه المُطوَّل الذي أسلفنا الإشارة إليه، إلى موظفين آخرين، مثل :

**لمُرَتِّبون** : وهم المسؤولون عن تأمين نقل الخرائط، وهي الأوعية التي يوضع في داخلها كتب الولاة والعمال، وذلك في أوقات محددة، ومن سكة إلى أخرى.

**الموقعون** : وهم المسؤولون عن تثبيت انطلاق الرسل ووصولهم، لضمان عدم تأخرهم. وقد كان لهؤلاء الموقعين سجلات خاصة يكتبون فيها هذه المعلومات، تُسمى ب (الأسْكُدَار)، والتي هي لفظة فارسية معربة تعني مدرج يُكتب فيه عدد الخرائط, أو الأوعية، والكتب الواردة والصادرة، وأسماء أصحابها. وعملهم بهذا الشكل يقرب مما يُسمى في الوقت الحاضر بالبريد المسجل أو المضمون.

وتدل هذه الوظائف، دون شك، على دقة في عمل نظام البريد، وعلى الترتيب والضبط في محطات البريد، وعلى وجود سجلات خاصة مهيأة لهذا الغرض، فضلاً عن وجود

المفتشين، الذين يسهرون على المراقبة، لضمان سير العمل، ومعاقبة المقصرين والمتباطئين. ويُفترض أيضاً توفر عمال آخرين للاهتمام بتهيئة العلف لدواب البريد، والاهتمام بنظافتها، وبيطرتها، والإشراف على راحتها، وإعدادها لعملية التبادل، بعد أن تأخذ قسطاً من الراحة. ومما لاشك فيه، إن هذا الاهتمام والمتابعة كان يتطلب تخصيص مصروفات كثيرة لإدارة أعمال البريد. ولدينا نص يفيد بأن نفقات البريد في العراق في أثناء ولاية يوسف بن عمر بلغت أربعة ملايين درهم في السنة. [ الماوردي "1981" 273 ] وهذا الرقم يمثل ما تنفقه ولاية واحدة فقط من ولايات الدولة في العهد الأموي، وبالتأكيد فإن الولايات الأخرى كانت تخصص أيضاً مبالغ كثيرة تتناسب مع حجمها وأهميتها، وطرق البريد فيها، وعدد الموظفين التابعين لها. وقد ظهرت في عصور لاحقة، وظائف أخرى تتعلق بديوان البريد، مما له علاقة بالنسخ، والتوقيع، وديوان الإنشاء، وغيرها من الوظائف، [ المقريزي " 1913" 403/1] التي لا يتوفر عنها معلومات في العصر الأموي.

### وسائل نقل البريد:

استخدمت الدواب، مثل الخيل والبغال والجمال في نقل البريد بين المراحل المختلفة للطرق البرية. وتختلف سرعة البريد باختلاف الطرق، ونوعية الحيوانات المستخدمة، ولكن غالباً ما كانت الدواب التي تخصص للبريد هي من أفضل الأنواع، وأحسنها، وأكثرها استعداداً للسير السريع. ولا يتوفر لدينا نصوص تشير إلى النقل عن طريق الملاحة البحرية في هذا العهد المبكر. ويستثنى من ذلك الطريق البحري بين شمال إفريقية والأندلس،والذي سنشير إليه لاحقاً في أثناء حديثنا عن طرق البريد. كذلك لا توجد إشارات إلى استخدام الحمام الزاجل، باستثناء رواية واحدة تعود إلى عصر الحجاج بن يوسف الثقفي، والي العراق للحقبة من (75-95هـ/694-714م) الذي قال في معركة دير الجماجم عام (82هـ/701م) مع عبد الرحمن بن الأشعث الكندي : " أما كان عبد الرحمن يزجر الطير حتى رآني نزلت دير قرَّة ، ونزل دير الجماجم ". [ الطبري "1960" 347/6 ] وفي هذا إشارة إلى استخدام الحمام الزاجل في نقل الأخبار بين الطرفين المتحاربين، مما يدل على أن هذا النوع من النقل قد استخدم في العهد الأموي، ولكن على نطاق ضيق، لعدم وجود إشارات أخرى في هذا المجال.

وعلى الرغم من ذلك، فقد عمد الأمويون إلى الاعتناء بسرعة البريد البري، وتنظيم خطوط مواصلاته، إلى الحد الذي جعل البريد يصل بين أماكن متباعدة جداً

بسرعة فائقة، لاسيما في نقل الأخبار بين قادة الجيوش الفاتحة، ومقر قياداتها المركزية، في العاصمة، وفي الولايات. ولدينا في هذا المجال نص بالغ الأهمية، أورده البلاذري، في معرض حديثه عن حملة محمد بن القاسم الثقفي على الدَّيْبُل (موقع مدينة كراجي في باكستان الحالية)، وذلك زمن ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي على العراق. ويشير هذا النص إلى أن تبادل الكتب بين القائد محمد بن القاسم في الدَّيْبُل، والحجاج بن يوسف في واسط، كان يستغرق ثلاثة أيام ذهاباً، ومثلها إياباً. ["1959" 424،425 ] وكثيراً ما كان الحجاج في هذه المراسلات يُبدي توجيهاته في طريقة الفتح أو القتال، ويحاول أن يذلل العقبات التي تعترض سير الحملات، بعد إطلاعه على الرسائل التي تشير إلى الوصف التفصيلي لأرض المعركة. وقد حاولت إحدى الدراسات الحديثة، أن تتلمس الطريق من واسط إلى الدَّيْبُل، وحساب مجموع ذلك بالفراسخ، بالاعتماد على ما أورده كل من قدامة بن جعفر، وابن خرداذبة، والإصطخري، عن مقدار مسافات الطريق بين واسط والبصرة، وبين البصرة والأحواز، وبين الأحواز وشيراز، وبين شيراز والفهرج، وبين الفهرج والمنصورة، وبين المنصورة والدَّيْبُل، فبلغ مجموع ذلك بالفراسخ 690 فرسخاً، أي ما يقابل نحو 2070 ميلاً، وهذا يعني أن خيل البريد كانت تقطع هذه المسافة بمعدل 28 ميلاً في الساعة تقريباً، وأن تنظيمات البريد جنَّدت خدماتها ليلاً ونهاراً، لكي تصل الكتب بهذه السرعة المتناهية.

وبطبيعة الحال، فإن هذا النوع من البريد السريع لم يكن يستخدم إلا في أوقات الأزمات والحروب، وللاستخبار عن حالات معينة يمكن أن تمس أمن الدولة وسلامتها، فهو أشبه ما يكون بالبريد المستعجل. أما البريد الاعتيادي، الذي كان يُفترض فيه السرعة أيضاً، فكان يتم من خلاله توزيع مراسلات الدولة بأكملها بين الولايات، ومركز السلطة في العاصمة. وكانت قافلة البريد تتألف من دابة واحدة فأكثر، وقد يصل عدد دوابها إلى أربعين أو خمسين دابة، لاسيما إذا استخدمت لنقل القوات العسكرية، في أوقات الضرورات القصوى، أو في نقل موظفي الدولة وغيرهم ، إذا تطلب الأمر ذلك، لضمان سرعة وصولهم إلى المكان المطلوب. وسنشير إلى أمثلة على ذلك، حين الكلام على مهام البريد.

وكانت دواب البريد تتميز بوجود جلاجل في أعناقها، تُصدر أصواتاً عالية، كانت تُعرف بقعقعة البريد. [ زيدان "1967" 232/1] وكان لهذه القعقعة رهبة لدى الأمراء والولاة، خشيةً من الأخبار التي قد يأتي بها البريد، كأن

تكون عزلاً، أو عقوبةً، أو استدعاءً إلى مركز الخلافة. ويمثل قول والي البصرة عبيد الله بن زياد (56-62 هـ/675-681م) في هذا المجال خير دليل على ذلك، فقد نُقِل عنه قوله : " نِعم الشيء الإمارة، لولا قعقعة البُرد ...". [ الجاحظ "1948" 1/134-135 ]

وقد حرصت الدولة العربية الإسلامية في العهد الأموي على العناية بدواب البريد والاهتمام بها، من حيث توفير الأماكن اللائقة، والخدمات، والعلف، والعلاج. وكان الخلفاء يوصون بضرورة الرفق بها، فقد نهى الخليفة عمر بن عبد العزيز أن يجعل حامل البريد في طرف السوط حديدة ينخس بها الدابة، ونهى عن اللجام الثقيل. وكتب إلى صاحب السكك يوصيه في هذا المجال مشدداً على " أن لا يحملوا أحداً بلجام ثقيل... ولا يُنخس بمقرعة في أسفلها حديدة " . وكتب إلى عامله على مصر حيّان بن شريح : " أنه بلغني أن إبلاً نقالات يُحمل على البعير منها ألف رطلٍ، فإذا بلغك كتابي هذا فلا أعرف أنه يُحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل ". [ ابن عبد الحكم "1967" 159-160 ]

### خدمات البريد:

وُجد البريد في الأساس في الدولة العربية الإسلامية بصيغة مؤسسة لنقل الأخبار، والرسائل الرسمية الخاصة بالدولة. فهو مخصص لأعمال الحكومة بالدرجة الأولى. ولم يكن نظاماً للخدمة العامة، كما هو في الوقت الحاضر، وإنما نظام رسمي حكومي. ومع هذا، فقد كان بإمكان الناس أن يرسلوا إلى الخليفة ما يريدونه عن طريق البريد. فعلى سبيل المثال، كان عامل معاوية بن أبي سفيان على المدينة إذا أراد أن يُبْرِد بَريداً إلى الخليفة، أمر مناديه فنادى : " من له حاجة فليكتب إلى أمير المؤمنين، فكتب أيمن بن خُرَيْم كتاباً لطيفاً ورمى به في الكتب المرسلة... " . [الطبري "1960" 5/355 ]

وكان بريد الخليفة عمر بن عبد العزيز لا يمتنع عن نقل أي كتاب لعامة الناس، سواء من الولايات إلى دمشق، أم بالعكس، فكانت الرسائل تنقل مع بريد الحكومة وتسلم إلى أصحابها، غير أنه من العسير القول ما إذا كان هؤلاء يدفعون أجوراً لقاء هذه الخدمة. وقد استخدم الخلفاء نظام البريد في أول الأمر لنقل الأخبار بسرعة من مقر خلافتهم إلى الولايات المختلفة، ولتلقي الأخبار. ولدينا نصوص في هذا الجانب، تشير إلى هذا الموضوع. فقد نُقلت بواسطة البريد الأخبار بوفاة بعض الخلفاء، وانتقال السلطة إلى ولاة عهودهم، أمثال يزيد بن معاوية، الذي وصله البريد بوفاة والده معاوية، وهو مقيم في حُوارين.

فأسرع إلى دمشق، وأنشد قصيدة بهذه المناسبة، مطلعها:

جاءَ البريدُ بِقرطاسٍ يخث به

فأوجس القلبُ من قِرطاسه فَزِعا

قُلنا: لكَ الويلُ ماذا في كتابكم؟

قال الخليفةُ أمسى مُدْنفاً وجعــا

وجاء البريد أيضاً إلى هشام بن عبد الملك عندما كان بقرية من الجزيرة يقال لها الزيتونة، وهو يحمل إليه الخاتم والقضيب، وسلم عليه بالخلافة، فركب من الرصافة حتى أتى دمشق. كذلك تلقى الوليد بن يزيد نعي الخليفة هشام بن عبد الملك، وولايته للخلافة بواسطة البريد، حينما كان خارج دمشق سنة (125هـ/742م)، فأنشد قائلاً : [ ابن اعثم "1986" 328/8 ]

طالَ ليلي وبتُ أُسقى المُداما

إذ أتاني البريد ينعي هشاما

وأتاني بحلــةٍ وقضيـــب

وأتاني بخاتــمٍ ثم قاما

ولم يقتصر الأمر على تبليغ بعض ولاة العهد بتولي الخلافة، بل إن ديوان البريد تولى تأمين مراسلات الدولة كافة، وتوصيل تعليمات وتوجيهات وأوامر الخليفة إلى الولاة والموظفين في الأقاليم، مثل أوامر التولية، والعزل، والنقل، والعقوبة. كما استُخْدِم البريد لحمل بعض الأشخاص إلى الخليفة، أو الولاة، مثال ذلك قيام الحجاج بن يوسف بإعطاء الأوامر لتسفير يحيى بن يَعْمَر العدواني، كاتب يزيد بن المهلب بن أبي صُفْرة، على دواب البريد من خراسان إلى مقر الولاية في واسط، وذلك بعدما أُعجب بكتابته لرسائل الوالي يزيد. كذلك أمر الحجاج بحمل الشاعرة ليلى الأخيلية على البريد، بناء على طلبها لملاحقة الشاعر النابغة الجعدي إلى خراسان. واستُعْمِل البريد أيضاً في نقل جثة شبيب بن يزيد الخارجي إلى الحجاج سنة( 77هـ/696م)، بعدما قُتِل، وانتهت حركته التمردية. وفي عهد عبد الملك بن مروان، استخدم عامله المُعيَّن على مصر، قُرّة ابن شريك، دواب البريد للوصول سراً إليها. [ابن عبد الحكم "1920" 328] كذلك استقدم الخليفة عمر بن عبد العزيز أبا سلاّم الْحَبْشي على البريد، ليسمع منه حديثاً للرسول ( صلى الله عليه وسلم ). فقد روي عن أبي سلاّم قوله: " بعث إليّ عمر بن عبد العزيز، فأتيته على بريد، فلما قدمت عليه9، قال : لقد شققنا عليك يا أبا سلاّم في مركبك، قلت أجل والله يا أمير المؤمنين، قال ما أردت المشقة عليك، ولكنْ حديث بلغني أنك تحدّث به ... ." ابن ماجه " ويبدو من النص أن السفر على دواب البريد لم يكن

مريحاً، وهذا يعود بطبيعة الحال إلى سرعة هذه الدواب. وأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز أيضاً برد إحدى جواري زوجته إلى أهلها في البصرة على البريد، توخياً لسرعة وصولها. أما الخليفة يزيد بن عبد الملك، فقد استخدم البريد لحمل أحد المغنين من مكة إلى دمشق، فقد كتب إلى عامله على مكة قائلاً : " إذا أتاك كتابي هذا فادفع إلى فلان ابن لهب ألف دينار، لنفقة طريقه، واحمله على ما شاء من دواب البريد، ففعل ..." [ المسعودي "1967"3/208-209 ] كذلك طلب الخليفة الوليد بن يزيد أن يُحمل إليه معبد بن وهب المغني من الحجاز، فوجه البريد إلى المدينة، فأتى به، وبعد الاستماع إلى غنائه، أعاده ثانية على البريد. كذلك كتب هذا الخليفة إلى واليه على العراق، يوسف بن عمر: " أحمل إليّ حماداً الراوية على ما أحب من دواب البريد، وأعطه عشرة آلاف درهم معونة له ... " [ الاصفهاني "1986" 88/6] كما أرسل يوسف بن عمر، عامل الخليفة هشام بن عبد الملك على العراق، بعبد الكريم بن سليط، على البريد، حينما طلبه الخليفة لاستشارته في أمور خراسان، لأنه كان من العلماء العارفين بأوضاع هذا الإقليم.

و لم يقتصر البريد على حمل الرسائل والأشخاص حسب، بل نُقِلَتْ على البريد الحكومي مواد وبضائع مختلفة أيضاً، من ذلك مثلاً: أن الخليفة الوليد بن عبد الملك نقل بواسطته الفسيفساء المُذهب من القسطنطينية إلى دمشق، حيث صُفّت منه حيطان المسجد الجامع في دمشق، ومساجد مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف. وحمل البريد أيضاً الثلج إلى الحجاج بن يوسف في العراق. وكانت الفواكه أيضاً تنقل على دواب البريد لتصل طازجة إلى دمشق. ومما يُذكر في هذا الصدد أن أمير الأردن بعث بسلتي رطب إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز على دواب البريد، فرفض تسلمهما، باعتبار أن هذه الدواب هي ملك للمسلمين، وأمر ببيعهما، وجعل ثمنهما في علف هذه الدواب.

### مهام البريد في أوقات الحروب والأزمات:

لم يقتصر عمل البريد في العهد الأموي على مهمة نقل وتوزيع المكاتبات الرسمية، والإشراف على المؤسسات البريدية حسب، بل كان يتحول في أوقات الحروب والحملات العسكرية على أعداء الدولة في الداخل والخارج إلى مؤسسة ذات نشاط استخباري واسع تخدم الدولة في هذا المجال. فكانت تقارير أصحاب البريد تفيد في كشف تحركات المعارضين، من ذلك مثلاً أن صاحب البريد كتب في عام (88هـ/706م) إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك عن تصرفات

وأقوال خُبيب بن عبد الله بن الزبير المعارضة لأوامر الخليفة بهدم مسجد الرسول ﷺ، وتوسيعه، مما أثار الرأي العام في المدينة. [ مؤلف مجهول "1871" ¾ ] وعلى العكس من هذا كان المعارضون إذا ما أرادوا العصيان والتمرد، يبادرون بقطع البريد عن الخليفة، بغية إضعاف استعدادات الدولة لمواجهة هذه الحركات. وكان انقطاع البريد والأخبار عن الدولة الأموية، وعدم وصول تحذيرات والي خراسان نصر بن سيار إلى الخليفة، بسبب حبسها من قِبل والي العراق يزيد بن عمر، بسبب حسده لنصر بن سيار، يعد من أهم أسباب سقوط الدولة الأموية.

أما بالنسبة للحروب الخارجية، فقد أدى البريد دوراً مهماً جداً، من حيث الدقة في التنظيم، والرقي، وسرعة إيصال الأخبار وتبادلها بين القادة في ساحات القتال، وبين السلطة المركزية. وكان من جملة واجبات صاحب البريد في أوقات الحرب، حفظ الطرق، وصيانتها، ومنع تسرب جواسيس العدو إليها. كما كان عليه العمل على إيصال مراسلات أصحاب الثغور، وولاة الأقاليم في الأطراف بأسرع ما يمكن من اختصار الطرق، الأمر الذي كان يتطلب أحياناً مشاركته والاستعانة به ليُسهم في رسم خطة الحرب، والوقوف على أفضل الوسائل لمباغتة العدو.

ولقد تطور دور البريد الحربي في العهد الأموي بشكل واضح، من حيث سرعة نقل الأخبار، والعناية بطرق المواصلات. وقد أشرنا إلى سرعة وصول الرسائل بين الحجاج بن يوسف ومحمد بن القاسم الثقفي. ومن المؤكد أن هذا الأمر كان يتم أيضاً مع القائد قتيبة بن مسلم الباهلي، وغيره من قادة الفتوح الإسلامية. ويدل على ذلك، ما أورده الطبري، [ "1960" 430/6 ] أن مراسلات الحجاج انقطعت لمدة شهرين بينه وبين قتيبة، الذي كان مُحاصراً في بيكند وراء النهر سنة (87هـ/705م) ، فاشفق الحجاج على الجند، وأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد. وفي الوقت نفسه كان الخليفة عبد الملك بن مروان، وابنه الخليفة الوليد على اتصال مستمر بقادتهما، لاسيما في جبهة المغرب. وفي المشرق كتب الخليفة الوليد إلى القائد قتيبة بن مسلم، بعد أن فتح الشاش سنة (95هـ/713م) ، ورجع إلى مرو : " ولا تَغِبْ عن أمير المؤمنين كُتُبك، حتى كأني أنظر إلى بلادك والثغر الذي أنت به ". [ الطبري "1960" 492-493/6 ]

ومما يدل على دقة الرسائل وسرعة النقل أن أخبار فتوح سعيد بن عمرو الحرشي للخزر كانت تصل إلى الخليفة هشام بن عبد الملك بسرعة كبيرة، وفيها تطورات الموقف العسكري، وكان الخليفة على إطلاع على ما

يجري، وعلى التنافس بين أخيه مسلمة وبين هذا القائد. وكان الحرشي قد وصل إلى أرمينية مع أربعين رجلاً محمولين على دواب البريد، لسرعة الالتحاق من دمشق بالجبهة، ثم أرسل إليه الخليفة إمدادات تبلغ أربعين رجلاً محمولين أيضاً على دواب البريد. وهكذا نجد أن البريد استخدم أبان الحروب في نقل الإمدادات الحربية إلى ساحات القتال.ومما يُذكر في هذا الصدد أيضاً أن الحجاج بن يوسف الثقفي نقل إمدادات بشرية تبلغ نحواً من خمسمئة مقاتل على البريد، إلى عامل أصبهان البراء بن قبيصة، الذي تعرض إلى خطر وجود أحد المعارضين في إقليمه. وفي أثناء حركة عبد الرحمن بن الأشعث الكندي وتمرده عام (81هـ/700م) ، كان الخليفة عبد الملك بن مروان يبعث إلى الحجاج بن يوسف الرجال على دواب البريد بمعدل قد يصل إلى نحو مئة رجل في اليوم الواحد.وكانت كتب الحجاج تتصل بالخليفة في كل يوم، يخبره فيها عن تطورات هذه الحركة المعارضة للدولة. وهكذا نجد أن نظام البريد قد تطور في العهد الأموي، فلم يعد نظاماً يعتمد فقط على طريقة تبادل الخيل في المحطات البريدية ولنقل الرسائل، بل أصبح نظاماً يُستفاد منه في الحالات العسكرية والحربية، وحالات الطوارئ، لنقل القوات العسكرية على وجه السرعة.

كذلك استخدمت خطوط البريد في نقل الأسرى من ساحات الحروب إلى مركز الدولة. وقام رجال البريد بدور فاعل في عمليات فداء الأسرى, لاسيما في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، الذي كان يُرسل البريد إلى القسطنطينية للتفاوض بشأن إطلاق سراح بعض الأسرى. ومن الطبيعي أن يكون نقل هؤلاء الأسرى عن طريق وسائط البريد بعد أن يتم إجراء التبادل بين الطرفين.

وفي مجال آخر، قام البريد في أيام الأزمات والحروب، مقام دوائر الاستخبارات العسكرية، فشملت أنشطته القيام بمهام التجسس على الأعداء، لتحديد ورسم الخطط المناسبة لمنازلة العدو من جهة، ولتوفير الأمن للجيش الإسلامي في وجه تحركات العدو، من جهة ثانية. وكان لزاماً على الخليفة، أو القائد العسكري، حين يبادر بالخروج للقيام بعملية من العمليات العسكرية، أن تتقدمه العيون والجواسيس، ليتقصوا له الأخبار، ويختاروا له المنازل التي يترل فيها. وكان لابد لهؤلاء من أن يعرفوا الطرق والمسالك، وهذا من صلب مهام صاحب البريد وموظفيه. [ قدامة "1981" 78]

ولقد اتضحت إسهامات البريد الفعلية في عمليات الاستخبار على الأعداء في العهد

الأموي، ولو أنها ابتدأت منذ عهد الرسولﷺ، والخلفاء الراشدين. فكان للمسؤولين عن هذه العمليات في العهد الأموي قنوات متعددة يحصلون من خلالها على المعلومات. وأهم هذه المصادر كان ولا شك، هو ديوان البريد، الذي عمل العيون والجواسيس في إطاره، مستفيدين من مميزاته الإدارية والتنظيمية، وطبيعة التسهيلات التي يقدمها، لاسيما على صعيد النقل السريع. [البرهاوي "1998" 210-211 ] ويبدو أن زيادة صلاحية ديوان البريد، من مجرد وسيلة لنقل الأخبار، إلى مؤسسة تختص أيضاً بجمع الأخبار، وتنسيقها، لاسيما عن الأعداء، جاءت في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، الذي واجه تحديات هائلة في حكمه، سواء على الصعيد الداخلي أم الخارجي. ومما يؤثر عن نشاط أصحاب البريد في مجال الاستخبارات في عهد هذا الخليفة، ما رفعه إليه صاحب البريد في أحد الثغور الشامية، يعلمه أن خيلاً للروم ظهرت للمسلمين، فنفروا إليها، ثم عادوا، وقد جلبوا معهم رجلاً كان قد أُسر في أيام الخليفة معاوية بن أبي سفيان، أطلقه الروم الذين ذكروا بأنهم لم يأتوا لقتال، بل لتسليم هذا الرجل الأسير. وفي الثغور أيضاً استخدم أهل ملطية البريد لإرسال إستغاثة مستعجلة إلى الخليفة هشام بن عبد الملك لنزول أعداد كبيرة من الروم إلى منطقتهم. وفي مجال تقصي الأخبار، ورد عن الخليفة عمر بن عبد العزيز، أنه أرسل صاحب الخبر لمرافقة وفد من الروم جاءوا لزيارة دمشق، وسمح لهم بدخول مسجدها الأموي من باب البريد. وكانت مهمة صاحب الخبر هنا، هي التَسَمّع لما يقولون، وأن يُنهي قولهم إلى الخليفة. ويُفهم من قراءة هذا الخبر أيضاً أن الرجل المرافق للوفد كان يعرف اللغة الرومية التي يتكلم بها هؤلاء الضيوف، ويفهمها، وإلا كيف استطاع أن ينقل كلامهم وتعليقاتهم إلى الخليفة؟

## طرق البريد :

لاشك أن تنظيم طرق البريد، قد ساعد على سرعة المراسلات بين أقاليم الدولة، والسلطة المركزية، وأسهم في الضبط الإداري بشكل ملحوظ. ويرجع اهتمام العرب بالطرق والمواصلات إلى حقب سبقت بداية العهد الأموي. فقد كانت حركة المواصلات العالمية، والصلات التجارية بين مكة وبلاد الشام، على سبيل المثال، قد نشطت منذ عصور موغلة في القدم، وذلك بفضل موقع مكة المتوسط على الطريق التجاري المهم بين جنوب الجزيرة العربية والبحر المتوسط. وقد ابتكر سكان مكة من قبيلة قريش، سياسة الإيلافات، التي كانت تهدف إلى تأمين الطرق التجارية. وكانت

الكيانات السياسية اليمنية، مثل الدولة المعينية، والسبئية، والحميرية، تتعامل مع الفينيقيين والأنباط والرومان عبر الطريق الممتد من عدن إلى البحر المتوسط. وقد اهتم الرومان بشكل خاص، بإنشاء الطرق في بلاد الشام، والتي ظل أغلبها سالكاً ومستخدماً في العصور اللاحقة، لاسيما بين الحجاز والشام، والطرق التي تربط شمال إفريقيا على طول الساحل المحاذي للبحر المتوسط.

وكذلك كان العرب على دراية بالطرق التي تربط جزيرتهم ببلاد الرافدين والمشرق. ويدل على ذلك خبرة قادة جيوش الفتح الإسلامي بجغرافية الشام وشمال الحجاز بشكل خاص، وبقية الأقاليم المجاورة بشكل عام. فقد كانت هذه الدروب واضحة تماماً لدى هؤلاء القادة، واستخدموها بكفاءة عالية تدل على معرفتهم الواسعة بجغرافية المنطقة. وقد هيأ لهم هذا الأمر التفوق العسكري. ومن جهة أخرى، سهلت معرفتهم لهذه الطرق سرعة الاتصال البريدي بينهم وبين الخليفة في المدينة المنورة.

وقد ازدادت عناية المسلمين بالطرق لأسباب كثيرة، منها، اندفاعهم من شبه الجزيرة العربية إلى المناطق المجاورة، وسياستهم في الحفاظ على سرعة حركات الجيوش التي كانت لا تنقطع ذهاباً وإياباً، من المدينة المنورة، إلى العراق، والشام، ومصر، والمشرق وتأمين تلك الحركات . كذلك فإن الحاجات الإدارية اقتضت أن يتم ربط أطراف الدولة بالعاصمة، الأمر الذي كان يتطلب زيادة الاهتمام بطرق البريد، لتبليغ الأوامر الإدارية، والعسكرية، والمالية.وقد أدى ازدياد حركة التجارة، وارتفاع مستوى المعيشة، إلى كثرة التنقل، والاهتمام بهذه الطرق. وكان لفريضة الحج دور كبير في هذا الإتجاه، لاسيمابعد أن تحوّل مركز الدولة العربية الإسلامية إلى الشام في العهد الأموي، فازداد الاهتمام بطريق الحج إلى الحجاز، وسعى الخلفاء والأمراء والحكام في هذا العهد، وفي العهود اللاحقة أيضاً إلى العناية بالطرق التي تؤدي إلى مكة المكرمة من كل أطراف العالم الإسلامي.

إن البريد الذي خضع إلى تنظيم جيد في العهد الأموي، استدعى الاهتمام بمختلف الطرق، وإعداد رسوم تخطيطية لها. ومثل هذه الرسوم ، كما يرى المستشرق الروسي كراتشكوفسكي ، [ "1987" 73 ] قد وجدت بلا ريب في دواوين الحكومة، واستخدمها بعض المؤلفين في العهد العباسي في وضع مؤلفات في هذا الميدان. وكان الخليفة معاوية بن أبي سفيان من أول الخلفاء الذين اهتموا بطرق البريد، وإقامة المحطات للاستراحة والتزود بالمواد الغذائية والماء. وكانت المسالك الرئيسة في عهده قد قُسِمت

إلى مراحل، أو منازل، بين كل مرحلة وأخرى اثنا عشر ميلاً، ولكل مرحلة دواب خاصة معدة لنقل البريد. وحسب ما ذكره المقدسي، فإن أطوال هذه السكك لم تكن متساوية، بل كانت تختلف من منطقة إلى أخرى، فكان طول سكة البريد في العراق اثني عشر ميلاً( أربعة فراسخ)، وفي الشام ستة فراسخ، وفي خراسان فرسخين. ولا يمكن الجزم بأن هذه المسافات كانت هكذا في العصر الأموي، أو أنها تطورت لاحقاً، لأن المقدسي كان يكتب في القرن الرابع للهجرة/ العاشر الميلادي. [ "1906" 66 ] وقد نُصبت على جانبي طرق البريد حجارة لتوضيح المسافات، وهي ما يُسمى بالأميال. وكانت تبدأ من مركز الخلافة في دمشق. وقد عُثر على بعض هذه الحجارة، ونقوش معاصرة ترجع إلى عصر عبد الملك بن مروان، بالقرب من بيت المقدس في فلسطين. وتشير هذه النقوش إلى أوامره بصنع الأميال، وبعمارة أربع طرق تخرج من بيت المقدس ودمشق.

ولم يقتصر الأمر في الإهتمام بالطرق على كل من الخليفتين معاوية وعبد الملك، بل أسهم في ذلك بقية الخلفاء، أمثال الوليد بن عبد الملك (86-96هـ/705-715م)، الذي كتب إلى ولاته في البلدان، بتسهيل الثنايا في الطرق، وحفر الآبار. [الطبري "1980"] وذكر القلقشندي، [437/6 136/1 ] أن الخليفة الوليد بن عبد الملك، " هو أول من بنى الأميال في الطرقات ". وقد سبقت الإشارة إلى وجود هذه الأميال في عصر والده عبد الملك، ومع ذلك، فإن هذا النص يدل على استمرار الإهتمام بإقامة هذه الأميال والاعتناء بها في عصر هذا الخليفة. وقد أشار الطبري أيضاً، ["1960" 296/6 ] إلى أن الوليد وضع المنار في الطرقات. كما قام عامله على العراق، الحجاج بن يوسف الثقفي، باتخاذ المناظر، والربايا بين واسط، وبعض الثغور، مثل قزوين، زيادة في سرعة نقل الأخبار، فكان " إذا دخَّن أهل قزوين دخَّنت المناظر إن كان نهاراً، وإذا كان ليلاً أشعلوا نيراناً فتُجرد الخيل إليهم ". [ زيدان "1967" 234/1] كذلك أمر الحجاج باتخاذ الجسور على الأنهار تسهيلاً للمرور عليها، وقام ببناء الصهاريج بالقرب من البصرة، لتوفير مياه الشرب لأهل المواسم والقوافل. كذلك أمر بحفر الآبار في المناطق المقطوعة لتوفير مياه الشرب للمسافرين على الطرق. ومن باب أولى أن تكون طرق البريد قد نالت مثل هذا الإهتمام ، إن لم يكن أكثر، نظراً لأهميتها القصوى في نقل مراسلات الدولة.

أما الخليفة عمر بن عبد العزيز (99-101هـ/717-720م)، فقد اهتم هو أيضاً في إصلاح الطرق، وتوفير

أسباب الراحة فيها، وهو من الأوائل الذين بنوا الخانات في الطرقات للمسافرين. فقد كتب إلى والي خراسان سليمان بن أبي السري قائلاً : " أن اعمل خانات، فمن مرَّ بك من المسلمين فأقروه يوماً وليلة وتعهدوا دوابهم، وإن كانت به علة فأقروه يومين وليلتين، وإن كان منقطعاً فأبلغه بلده ". [ ابن الأثير "1979" 60/5 ]

ومن المرجح أن الخليفة عمر قد كتب إلى بقية ولاته في الأقاليم الأخرى بهذا المعنى. لأن المعروف عن هذا الخليفة أنه اتبع سياسة موحدة إزاء جميع الأقاليم، وكانت أوامره تصدر بالتتابع إلى الولايات لتنفيذ ما يراه صائباً، وفي مصلحة المسلمين. وكانت الخانات التي تقام على الطرق، تحتوي على الأغلب على غرف لإقامة رجال البريد، وإسطبلات لإيواء الدواب الخاصة بهذه المؤسسة، والعناية بها، فضلاً عما فيها من المؤونة اللازمة للطريق، وعلف الحيوانات. وكذلك يعدّ الخليفة هشام بن عبد الملك (105-125هـ/724-743م) من الخلفاء الأمويين الذين اهتموا بالطرق، فقد بنى عند بعضها القصور والحدائق المزودة بالماء والمنافع، مثل السدود والمخازن، والقنوات والآبار. وقد أولى هذا الخليفة عناية فائقة بالطرق، لاسيما بالطريق الذي يربط بين بلاد الشام والحجاز. وتعدّ القصور والقلاع والبرك المنتشرة في البادية الأردنية على طول طريق الحج الشامي، من مآثر الأمويين العمرانية التي تقف شاهداً على جهودهم في هذا المجال.

ويتميز كل من أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة المتوفى سنة (300هـ/912م) ، وأبي علي أحمد بن عمر ابن رستة المتوفى سنة ( 290هـ/902م)، من غيرهما من الجغرافيين، بأنهما أعرف بمراحل وسكك طرق البريد، نظراً لتوليهما منصب صاحب بريد في أيام الدولة العباسية. ولكن كتابات هذين الجغرافيين، وغيرهما من الكتّاب الآخرين جاءتنا متأخرة عن حقبة دراستنا، ولا يمكن الاعتماد عليها بصورة دقيقة عن العهد الأموي، لأن كلامها ينطبق على أحوال الطرق في زمنهم. ولم يصل إلينا وصف تفصيلي لطرق المواصلات والبريد من قِبل كتّاب وجغرافيين عاشوا في العهد الأموي، ولكن مع ذلك، فإن المنازل والطرقات كانت قد استقرت إلى حد ما، حتى القرن الرابع للهجرة/ العاشر الميلادي، عندما كتب ابن خرداذبة وقدامة، وغيرهما من الجغرافيين. يستثنى من ذلك أن بغداد أصبحت هي مركز الانطلاق، ومنها تُحدد معظم المنازل والمسافات. ومع هذا، فإنه يمكن تلمس خطوط الطرقات الخاصة بالبريد في العصر الأموي انطلاقاً من دمشق، لاسيما الخط

الذي يربطها مع الحجاز، وهو طريق الحج الشامي المشار إليه آنفاً ، وكذلك الطريق الذي يمتد من مكة إلى اليمن، وهذا الطريق " هو الذي عليه الأميال، وهو طريق العوامل والعمال ". [قدامه "1981" 83 ]

وهناك أيضاً الطريق الذي يصل بين العراق والحجاز، ابتداءً من الكوفة، ومروراً بموقع القادسية، الذي يبعد عنها نحو خمسة عشر ميلاً. ويتجه هذا الطريق نحو الجنوب خلال ممر يقع بين بحر النجف، وبحر الشنافية، ثم يمر بالرحبة، ثم يستمر بعد ذلك باتجاه الجنوب، حتى يصل إلى الحجاز. وهناك طرق أخرى تمتد من مناطق مختلفة من العالم الإسلامي باتجاه الحجاز، منها طريق البصرة ـ الخفير، الذي ينتهي إلى مكة، وطريق الفسطاط ـ الجب ـ البويب، الذي ينتهي إلى المدينة المنورة.

ونظراً لتوسع الدولة العربية الإسلامية في العهد الأموي نتيجة الفتوحات الهائلة التي تمت في هذا العهد في المشرق والمغرب، فقد نشطت الحاجة إلى الطرق في هذين الاتجاهين. فكان طريق المشرق ينطلق من واسط باتجاه البصرة، ومنها إلى الأحواز، فرامهرمز، وشيراز، وإصطخر، والسيرجان، وقهستان، وسجستان. ويتفرع عن شيراز طريق إلى أصبهان عن طريق نيسابور. ويمكن سلوك طريق آخر من الأحواز إلى أصبهان. ومن نيسابور إلى مرو، التي يتفرع منها طريقان؛ أحدهما إلى ناحية الشاش وبلاد الترك، والآخر إلى ناحية طخارستان، حيث يصل إلى مدن بخارى وسمرقند وفرغانة.

أما طريق الغرب، فكان يبدأ من دمشق باتجاه طبرية، ثم الرملة، ورفح، فالعريش إلى الفسطاط. ويبلغ طول هذا الطريق 333 ميلاً. ويأخذ الطريق بعد ذلك من الفسطاط إلى الإسكندرية، ثم يسير بمحاذاة الساحل باتجاه برقة، وطرابلس، إلى القيروان، التي كانت مركزاً لالتقاء معظم الطرق المتشعبة في المغرب، لاسيما المسالك المؤدية إلى المغرب الأقصى. أما الأندلس، التي كانت تتبع من الناحية الإدارية ولاية إفريقية ومركزها القيروان، فكان الطريق إليها يأخذ من هذه المدينة إلى مرسى تونس المنشأة حديثاً، ومنها بحراً إلى الساحل الشرقي لشبه الجزيرة الآيبيرية، ثم إلى قرطبة Cordoba المركز الإداري لولاية الأندلس. وكان الشمال الإفريقي يرتبط بالأندلس بشبكة من الطرق البحرية الأخرى، والتي تتفرع من عدد كبير من الموانئ الإفريقية. وقد دوّن الجغرافيون هذه الطرق، فالبكري، على سبيل المثال، يذكر هذه المراسي، وأسماء الموانئ التي تقابلها على

الشاطئ الإسباني، والمسافات التي تفصل بينهما، مثال ذلك مرسى قصر الفلوس الذي يقابل قرطاجنة، ومرسى تنس الذي يقابل سانت بول Sant pola في منطقة لقنت Alicante ، ومرسى عجرود الذي يقابل دلاية Dalias ، ومرسى جبل تماسان الذي يقابل مالقة Malaga ، ومرسى جنابية الذي يقابل دانية Dania. [البكري "1857" 81-83 ] ويتفرع من معظم هذه الموانيء الأندلسية طرق تتصل بالعاصمة قرطبة، التي تخرج منها شبكة واسعة من الطرق التي تربط بينها وبين القواعد الأندلسية الكبرى، مثل إشبيلية Sevillaوطليطلة Toledo وسرقسطة Zaragaza، وغيرها من أمهات المدن الأندلسية. [ ابن حوقل "1979" 110-112]

## طريق الحج الشامي:

ويعدّ طريق الحج الشامي من أهم الطرقات قاطبة في العهد الأموي. وكانت قاعدة انطلاقه هي دمشق، التي يجتمع فيها ركب الحجيج المتوجه إلى الحجاز عبر المنازل المخصصة في هذا الطريق. وإلى الجنوب من عمان كان الحُجَّاج يختارون أحد ثلاثة طرق، تقع إلى الشرق من وادي الأردن، وأودية البحر الميت. ولعل تغير موسم الحج من فصل إلى آخر سبب تغييراً في الطريق شرقاً وغرباً.

وقد اهتم الجغرافيون المسلمون بوصف هذا الطريق ومنازله، وكذلك بقية الطرق في الدولة العربية الإسلامية. ويأتي في مقدمة هؤلاء ابن خرداذبة وابن رستة، وقدامة بن جعفر، المتوفى سنة (328هـ/939م )، وابن الفقيه الهمداني، المتوفى في حدود (340هـ/951م). وقد أشار ابن خرداذبة، [ "1967" 60 ] إلى منازل طريق الحج الشامي، من دمشق إلى مكة، وتابعه بعد ذلك كل من اليعقوبي، وابن رستة، وقدامة بن جعفر، وغيرهم من الجغرافيين المسلمين. فبعد الخروج من دمشق تأتي الكسوة، ثم أذرعات، أو " ذات المنازل"، التي تعد من أهم المنازل التي يتوقف عندها الحجّاج، وهي منطقة درعا الحالية، وتسميتها بذات المنازل يشير إلى أهميتها. والمحطة التالية هي " سرغ "، التي هي أول الحجاز، وآخر الشام، بين المغيثة وتبوك، من منازل حاج الشام، كما وصفها ياقوت. [ "1977" 211،212/3 ] وهي بلدة المدورة الأردنية، التي تقع على الحدود الأردنية السعودية الداخلية. وقد ذكر أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي المتوفى سنة (198هـ/813م) ، ثمانية منازل ما بين درعا " أذرعات "، والمدورة " سرغ ". وهذه المنازل هي: الزرقاء، والقسطل، وقبال، وبالعة، والحفير، ومعان، وذات المثار، والمغيثة. ويشير درادكة، ["1969" 653 ] إلى أن ما

ذكره الحربي يبدو دقيقاً وواضحاً، وهو يتناسب مع المسافات المقدرة بين المترل والآخر من جهة، وأن هذه المنازل ما زال يحتفظ ببعض الآثار الأموية من جهة أخرى، وكل هذه المنازل تقع في شرقي الأردن.

والمنازل بعد سرغ إلى وادي القرى، هي تبوك- المحدثة- الأقرع- الجنينة- الحجر- ثم وادي القرى، ثم إلى الرحبة ثم إلى ذي المروة، ثم إلى السويداء، ثم إلى ذي خشب، فالمدينة المنورة. والطريق من المدينة إلى مكة عشر مراحل، وأول مكان على هذا الطريق بعد المدينة هو " ذو الحليفة " الذي يُحرم منه الحجاج إذا خرجوا من المدينة، وهو على أربعة أميال من المدينة. وقد أشارت المصادر إلى المسافات بين هذه المنازل، ومصادر المياه فيها، وهي تختلف عند الجغرافيين، فتزداد أحياناً وتنقص، ويعود ذلك إلى حرص بعض الجغرافيين على إيراد كل الأماكن التي يمر بها موكب الحجّاج، حتى وإن لم تكن من المنازل، مثل المساجد، والأماكن المقدسة، أو مصادر المياه، في حين تمسك بعض الجغرافيين بذكر المنازل فقط. وقد أشرنا في ثنايا هذا البحث إلى مظاهر اهتمام الخلفاء الأمويين بهذا الطريق، لاسيما محاولة حفر الآبار، وبناء القلاع، وشحنها بالحراس، ووضع العلامات، وجلب كل ما فيه راحة الحجيج.

إن ما أشرنا إليه من الطرق، لا يمثل سوى نماذج لأهم الطرق التي كانت موجودة في العهد الأموي. وقد تجنبنا ما أمكن ذكر التفاصيل والمراحل، ومقدار المسافات، التي غالباً ما حرص الجغرافيون المسلمون على إعطائها بالفراسخ، أو الأميال، أو المراحل، أو الأيام.

**أ.د. عبد الواحد ذنون طه**

## المصادر والمراجع

### المصادر الأولية:

ابن الأثير،عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم .( ت 630هـ/1233م).

الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، (1979) 12 جزء .

ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري (ت606هـ/1209م).

النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق، طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، القاهرة، المكتبة الإسلامية، (1963) (5 أجزاء).

الأزدي، أبو إسماعيل محمد بن عبد الله (ت231هـ/845م).

تاريخ فتوح الشام، تحقيق، عبد المنعم عبد الله عامر، القاهرة، مؤسسة سجل العرب، (1970) .

الأزهري أبو منصور محمد بن أحمد (ت370هـ/980م).

تهذيب اللغة، تحقيق، يعقوب عبد النبي، مراجعة محمد علي النجار، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مطابع سجل العرب، (1964) (15 جزء).

الإصطخري، أبو إسحق إبراهيم بن محمد (ت 346هـ/957م ).

المسالك والممالك،تحقيق، محمد جابر عبد العال، القاهرة، دار القلم (1961) .

الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد القرشي الأموي (ت356هـ /966م.

الأغاني، شرحه وكتب هوامشه، عبد أ. علي مهنا وسمير جابر، بيروت، دار الكتب العلمية (1986) (25 جزء).

ابن أعثم، أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي (ت نحو 314هـ/926م).

الفتوح، بيروت، دار الكتب العلمية، (1986) (8 أجزاء).

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت 256هـ/870م).

الجامع الصحيح، اعتنى بجمعه وتصحيحه لودوف كرهل، ليدن ، مطبعة بريل (1938) 4 أجزاء .

البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت 487هـ/1094م).

معجم ما استعجم، تحقيق، مصطفى السقا، القاهـرة، (1945-1949) (4 أجزاء).

المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، نشر، دي سلان، الجزائر (1857) .

البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت 279هـ/892م).

فتوح البلدان، تحقيق، رضوان محمد رضوان، القاهرة، مطبعة السعادة (1959).

التنوخي، أبو علي المحسن بن علي (ت 384هـ/994م).

الفرج بعد الشدة، تحقيق، عبود الشالجي، بيروت، دار صادر، (1978) (5 أجزاء).

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (255هـ/868م).

البيان والتبيين، تحقيق، عبد السلام محمد هارون،القاهرة، مكتبة الخانجي، (1948) (4 أجزاء في مجلدين).

القول في البغال، تحقيق، شارل بلا، القاهرة (1955).

الجواليقي، أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد (ت 540هـ/1145م).

المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، القاهرة، دار الكتب (1969).

الجهشياري، محمد بن عبدوس (ت 331هـ/249م)

،كتاب الوزراء والكتاب ، تحقيق، مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي (1938).

الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت 398هـ/1007م).

تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق، أحمد عبد الغفور عطا، ط4، بيروت، دار العلم للملايين، (1987) (6 أجزاء).

ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت 852هـ/1448م).

الإصابة في تمييز الصحابة، نسخة مصورة بالأوفست عن (طبعة مصر1328هـ )، بغداد، مكتبة المثنى (4 أجزاء).

ابن حوقل، أبو القاسم بن حوقل النصيبي (ت367هـ/979م).

صورة الأرض، بيروت، منشورات مكتبة الحياة (1979).

ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت نحو 300هـ/912م).

كتاب المسالك والممالك، نشر، دي غوية، ليدن، مطبعة بريل (1967).

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (808هـ/1405م).

مقدمة ابن خلدون، بيروت، دار إحياء التراث العربي (د.ت).

ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت 681هـ/1283م).

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة (1968) (8أجزاء).

الخوارزمي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب (ت 387هـ/997م).

مفاتيح العلوم، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة (1324هـ).

أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (275هـ/888م).

السنن، تحقيق، محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، مطبعة السعادة، (1950) ( 4 أجزاء بمجلدين).

ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي ( ت 321هـ/933م).

(1979) الاشتقاق، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، ط2، بغداد، منشورات مكتبة المثنى .

الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود (ت 282هـ/895م).

(1995) الأخبار الطوال، تحقيق، عمر فاروق الطباع، بيروت، دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر .

الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت 666هـ/1267م)

(1983) مختار الصحاح، الكويت، دار الرسالة .

ابن رستة، أبو علي أحمد بن عمر (ت كان حياً 290هـ/902م).

(1891) الأعلاق النفيسة، نشر، دي غوية، ليدن، مطبعة بريل .

الزبيري، أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب (ت 236هـ/850م).

(1976) نسب قريش، تحقيق، ليفي بروفنسال، ط2، مصر، دار المعارف .

ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن منيع البصري (ت 230هـ/844م).

(1959-1960) الطبقات الكبرى، بيروت، دار راصد، (8أجزاء).

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911هـ/1505م).

(1950) الوسائل إلى مسامرة الأوائل، تحقيق، أسعد طلس، بغداد، مطبعة النجاح .

الشنتمري، ؛ أبو الحجاج، يوسف بن سليمان بن عيسى(ت 47هـ/1083م).

(1974) شرح ديوان امريء القيس، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع .

ابن طباطبا، محمد بن علي المعروف بابن الطقطقي (ت 709هـ/1309م) .

(1966) الفخري في الآداب السلطانية،بيروت، دار صادر .

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310هـ/922م).
(1960) تاريخ الرسل والملوك، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط4، القاهرة، دار المعارف، (10 أجزاء).

الطرطوشي، أبو بكرمحمد بن الوليد الفهري المالكي (ت 520هـ/1126م).
(1412هـ) سراج الملوك، ط2، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي.

ابن عبد الحكم، أبو محمد عبد الله (ت 214هـ/829م).
(1967) سيرة عمر بن عبد العزيز، بيروت، دار العلم للملايين.
(1920) فتوح مصر وأخبارها، نشر، تشارلس توري، ليدن، مطبعة بريل .

ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن النمري القرطبي(ت 463هـ / 1070م).
(1962) بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس، تحقيق، محمد مرسي الخولي ومراجعة عبد القادر القط، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، (جزءان).

ابن عبد الله، الحسن بن عبد الله (كان حياً 708هـ/1308م).
(1295هـ) آثار الأول في ترتيب الدول، القاهرة، مطبعة بولاق.

ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن (ت 571هـ/1175م).
(1979) تهذيب تاريخ دمشق الكبير، هذبه، الشيخ عبد القادر بدران، ط2،بيروت، دار المسيرة، (7 أجزاء).

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت 395هـ/1004م).
(1987) الأوائل، بيروت، دار الكتب العلمية .

العمري، شهاب الدين أحمد بن فضل الله (ت 749هـ/1348م).
(1312هـ) التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة، مطبعة العاصمة .

الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت 175هـ/791م).
(1980-1985) العين، تحقيق، مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، بغداد، دار الرشيد للنشر، (8 أجزاء).

الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت 817هـ/1414م).
(1983) القاموس المحيط، بيروت، دار الفكر (4 أجزاء).

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت 276هـ/889م).
(1925-1930) عيون الأخبار، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، (4 أجزاء).
قدامة، أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب (ت 328هـ/939م).
(1981) الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتعليق، محمد حسين الزبيدي، بغداد، دار الرشيد .
القلقشندي، أحمد بن علي (ت 821هـ/1418م).
(1980) مآثر الانافة في معالم الخلافة، تحقيق، عبد الستار أحمد فراج، صورة بالأوفست عن بيروت ، عالم الكتب، (3 أجزاء).
ابن قيم الجوزية، محمد بن بكر الزرعي (ت 751هـ/1350م).
(د.ت) أخبار النساء، بيروت، دار الفكر.
الكرماني، محمد بن يوسف بن علي (ت 786هـ/1384م).
(1937) شرح صحيح البخاري، القاهرة، مؤسسة المطبوعات الإسلامية ، المطبعة البهية المصرية، (25 جزء).
ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ( ت 275هـ/888م).
(1953) سنن ابن ماجة، تحقيق، محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، (جزءان).
الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت 450هـ/1057م).
(1981) الأحكام السلطانية والولايات الدينية، بغداد، دار الحرية للطباعة .
المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت 285هـ/898م).
(1956) الكامل، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، والسيد شحاتة، القاهرة، دار نهضة مصر، ( 4 أجزاء).
مجهول المؤلف.
(1871) العيون والحدائق، (ج3) نشر، دي غوية، ليدن، مطبعة بريل .
المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت 346هـ/957م).
(1967) مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق، محمد محيي الدين عبد الحميد، ط5، القاهرة، مطبعة السعادة، (4 أجزاء).
المقدسي، محمد بن أحمد (ت نحو 381 هـ/991م).

(1906) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، نشر، دي غوية، ليدن، مطبعة بريل.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي(ت 845هـ/1441م).

(1913) المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، ليدن، (7 أجزاء).

ابن منظور،أبو الفضل محمد بن مكرم (ت 711هـ/1311م).

(1995) لسان العرب، بيروت، دار صادر، (15 جزء).

الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد (ت 518هـ/1124م).

(1959) مجمع الأمثال، تحقيق، محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، مطبعة السعادة، (جزءان).

الواقدي، محمد بن عمر (ت 207هـ/822م).

(1373هـ) فتوح الشام، القاهرة، جزءان في مجلد واحد.

الهرثمي، أبو سعيد الشعراني (ت بعد 234هـ/848م).

(1964) مختصر سياسة الحروب، تحقيق، عبد الرؤوف عون، ومراجعة محمد مصطفى زيادة، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

ابن هشام، محمد بن عبد الملك (ت 812هـ/338م)

(1955) السيرة النبوية، تحقيق، مصطفى السقا وابراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، مصر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت 334هـ/954م).

(1989) صفة جزيرة العرب، تحقيق، محمد بن علي الأكوع ، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة .

ياقوت، شهاب الدين أبي عبد الله الحموي (ت 626هـ/1228م).

(1977) معجم البلدان، بيروت، دار صادر، (5 أجزاء).

اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب (ت 292 هـ/904م)

(1891) كتاب البلدان، منشور مع كتاب الأعلاق النفيسة، لابن رستة، نشر، دي غوية، مطبعة بريل .

(د.ت) تاريخ اليعقوبي، بيروت، دار صادر، توزيع دار صعب (جزءان).

أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (ت 182هـ / 798م).

(1984) كتاب الخراج، تحقيق، محمود الباجي، تونس، دار بو سلامة للطباعة والنشر .

المراجع العربية والمعربة :

الأحمد، سامي سعيد

(1985) الإدارة ونظام الحكم/ العصور القديمة، فصل ضمن كتاب : حضارة العراق، بغداد، دار الحرية للطباعة والنشر.

(1983) العراق القديم، بغداد جزءان).

الأنباري، عبد الرزاق علي العمران .

(1985) تاريخ الدولة العربية في العصر الراشدي والأموي، بغداد، مطبعة الإرشاد .

بارتولد، ف .

(1966) تاريخ الحضارة الإسلامية، القاهرة، ترجمة، حمزة طاهر، ط4، مصر، دار المعارف.

باقر، طه .

(1956) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، بغداد، شركة التجارة والطباعة المحدودة (جزءان).

جروهمان، أدولف.

(1934-1974) أوراق البردي العربية، ترجمة، عبد الحميد حسن، وحسن إبراهيم، ومحمد مهدي، وعبد العزيز الدالي، القاهرة، دار الكتب المصرية، 6 أجزاء.

حسيني، عبد القادر السيد مولوي.

(1958) الإدارة العربية، ترجمة، إبراهيم أحمد العدوي، القاهرة، المطبعة النموذجية .

الدوري، عبد العزيز.

(1950) النظم الإسلامية، بغداد، مطبعة نجيب ، (جزءان).

زيدان، جرجي.

(1967) تاريخ التمدن الإسلامي، بيروت، دار مكتبة الحياة، (خمسة أجزاء في مجلدين).

ساكز، هاري .

(1979) عَظَمَةُ بابل، ترجمة وتعليق، عامر سليمان، الموصل، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر .

سعداوي، نظير حسان.

(1953) نظام البريد في الإسلام، الإسكندرية، دار مصر للطباعة .

سليمان، عامر والفتيان، أحمد مالك .

9(1978)محاضرات في التاريخ القديم، الموصل، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر .

شريف، إبراهيم .

(د.ت) الموقع الجغرافي للعراق وأثره في تاريخه العام حتى الفتح الإسلامي، بغداد، مطبعة شفيق .

طه، عبد الواحد ذنون.

(1985) العراق في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي، الموصل، مطبعة الجامعة .

عاشور، سعيد عبد الفتاح وعبد الحميد، سعد زغلول والعبادي، أحمد مختار .

(1986) تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، ط2، الكويت، دار السلاسل .

علي، جواد.

(1978) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط2،بيروت، دار العلم للملايين — بغداد، مكتبة النهضة.

عمر، فاروق.

(1983) النظم الإسلامية، العين، دار الخليج للطباعة والنشر .

الكتاني، عبد الحي بن عبد الكبير.

(1346هـ) التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلميةالتي كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية، الرباط، المطبعة الوطنية .

كراتشكوفسكي، أغناطيوس يوليانوفتش.

(1987) تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله إلى العربية، صلاح الدين عثمان هاشم، ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي

ماجد، عبد المنعم.

(1973) تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ط3، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية .

متز، آدم.

(1967) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، ترجمة ، محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط4، القاهرة — بيروت، مكتبة الخانجي، ودار الكتاب العربي .

المعايطة، زريف مرزوق.

(2000) نشأة الدواوين وتطورها في صدر الإسلام، العين، مركز زايد للتراث والتاريخ .

هنتس، فالتر.

(1970) المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة ، كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان .

ولسون، جون.

(1955) الحضارة المصرية، ترجمة، أحمد فخري، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية .

اليوزبكي، توفيق سلطان.

(1977) دراسات في النظم العربية الإسلامية، الموصل، مؤسسة دار الكتب .

البحوث والدراسات :

خماش، نجدة.

(1989) " الأجناد وإدارتها " ، بحث ضمن محاضر الندوة الثالثة للمؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام في العهد الأموي، تحرير، محمد عدنان البخيت، عمان .

درادكة، صالح .

(1989) طريق الحج الشامي في العهد الأموي " بحث نشر ضمن محاضر المؤتمر

الدولي الرابع لتأريخ بلاد الشام في العهد الأموي ــ الندوة الثالثة، تحرير محمد عدنان البخيت، عمان .

رشيد، فوزي.
(1981) " وسائل النقل المائية والبرية في العراق القديم ", مجلة النفط والتنمية، العددان 7 و 8 ، نيسان–مايس( أبريل– أيار) .

الزيباري، أكرم.
(1973) " أهمية الرسائل والمراسلات في العهد البابلي القديم "، مجلة النهرين، العدد الثاني، بغداد.

سماحة، ميشال أفندي .
(1903) " ترقي التواصل بسرعة التراسل "، مجلة المشرق، العدد الثامن عشر .

سورديل، د.
(1933) (بريد)، دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، مصر، مكتبة دار الشعب .

الشيبي، كامل مصطفى .
(1984)" البريد في العالم القديم "، مجلة آفاق عربية، العدد الثامن، نيسان (أبريل).

عواد، كوركيس.
(1943) " العداؤون والسعاة في العصور الإسلامية " ، مجلة المقتطف، العدد 103 .

هارتمان .
(1933) ( بريد )، دائرة المعارف الأسلامية ، الترجمة العربية، مصر، مكتبة دار الشعب .

**الرسائل الجامعية :**

البرهاوي، رعد محمود أحمد.
(1998) العيون والجواسيس في الدولة العربية الإسلامية منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى سنة 132هـ، أطروحة دكتوراه ، كلية التربية/ جامعة الموصل.

صالح، خولة عيسى محمد.
(1985) نشأة البريد وتطوره في الدولة العربية الإسلامية حتى عام 334هـ، رسالة ماجستير على الآلة الكاتبة، كلية الآداب/ جامعة بغداد .

## المراجع الاجنبية :

Eilers,Wihelm.
(1977) the A ssyrian Dictionary of the Oriental Institute of the University of Chicago, Chicago.

Goitein ,S.D.
(1965) fuyudj ,(**ThEncyclopaedia of Islam** ,New Edition , vol. II .
(1983) Cambridge History of Iran, editor, Ehsan Yarshate, Cambridge .

## خامسا : الجيش والأسطول

### اولا: الجيش

كان الجيش منذ أقدم حقب التاريخ عدة الأمم وذخيرتها، ومناط أملها على أرضها، وصون أمنها، وحماية مصالحها وكرامتها، ولم تكن مهمات الجيش العربي الإسلامي الذي وضع أسسه الرسول الكريمﷺ لتختلف عن ذلك، بل إن مهماته فاقت مهمات جيوش الأمم الأخرى، نظرا لمتطلبات الجهاد في حماية الدعوة الإسلامية والتصدي لأعدائها المطيفين بها.

ومن المعلوم أن الإسلام ألف بين قلوب العرب والمسلمين، ودفعهم للجهاد في سبيل نشر رسالته الإنسانية، فكانوا يلبون دعوة الرسولﷺ والخلفاءﷺمن بعده لنصرة الدين الحنيف، فلما كان عهد الخليفة عمر بن الخطابﷺ حدث تطور مهم في عملية تجنيد المقاتلين، وذلك باستحداث ديوان الجند في سنة (20هـ/640م) حيث سجلت في هذا الديوان أسماء المقاتلين وأوصافهم ومقدار أرزاقهم. واستمر تجنيد المقاتلين في عهد الخليفة عثمان بن عفانﷺ (23-35هـ/643-656م) يسير على الأسس التي وضعها الخليفة عمرﷺ. فقد كتب بعد تسنمه الخلافة إلى أمراء الأجناد:"أما بعد، فإنكم حماة المسلمين وذادهم، وقد وضع عمر ما لم يغب عنا، بل كان على ملأ منا، ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل". [الطبري "1960-1969"4/245 ]

وفي العصر الأموي(41-132هـ/661-749م) أخذ الاهتمام بالجيش حيزا كبيرا من سياسة الخلافة الأموية لان الدولة واصلت حركة التحرير والفتوح في المشرق والمغرب على حد سواء. وقد أظهرت هذه السياسة أن عملية تجنيد المقاتلين ارتبطت ارتباطا وثيقا بقوة الولاة وكفاءة تدابيرهم العسكرية والإدارية.

وإذا ما استعرضنا جبهات الفتوح الإسلامية والعمليات العسكرية التي خاضتها الجيوش العربية الإسلامية ـــ برا وبحرا ـــ في العصر الأموي، أمكننا أن نتصور بسهولة الأعداد الكبيرة من الجند المسجلين في الديوان، فضلاً عن المتطوعين غير المسجلين.

إن دراسة تاريخية جادة تخص الجيش في العصر الأموي، تحتم البحث في جملة موضوعات ترتبط ارتباطا وثيقا بتشكيلاته، وذلك من خلال التعرف على عناصره في مختلف أقاليم الدولة العربية الإسلامية، ثم دراسة الكيفية التي يتم فيها إعداد المقاتلين وصنوفهم وأنواع أسلحتهم، وأساليب التعبئة والقتال، وعقد الألوية، وإجادة اختيار الخلفاء الأمويين للقادة

الأكفاء ووصاياهم لهم، وغير ذلك من الأمور الأساسية المرتبطة بالجيش.

### عناصر الجيش:

#### العرب:

كان الخلفاء الأمويون يقدرون أن العرب مادة الإسلام ومادة الفتوحات، لهذا اعتمدوا عليهم في جيوشهم النظامية التي كان جندها مسجلين في الديوان، وكان العرب يشكلون القوات الرئيسة في الأمصار والأقاليم التي فتحوها واستقروا فيها منذ العصر الراشدي، وقد أدت ظروف التنظيم العسكري للعرب إلى أن تصبح العشيرة هي الوحدة العسكرية الأولى في الجيش، وحرص الخلفاء وولاتهم على تخفيف حدة العصبية القبلية وصولا إلى ممارسة الدولة لسلطاتها ومسؤولياتها في تنظيم الجيوش وترتيب القيادات والسيطرة على العطاء وتوزيع المقاتلين المستنفرين للجهاد .

وإذا تتبعنا سير الفتوح العربية الإسلامية في العصر الأموي ، لمسنا انتشار القبائل العربية في البلاد المفتوحة واتخاذها قواعد عسكرية خاصة بها، على النحو الذي يتجلى في خراسان التي اتخذها العرب قاعدة متقدمة للفتوح باتجاه الأقاليم الشرقية الأخرى ، ومثل ذلك اتخاذهم القيروان قاعدة عسكرية ثابتة للانطلاق منها لاستكمال فتح بلاد المغرب .

#### 1- الموالي:

إن لفظة(الموالي) في كتب التاريخ الإسلامي تدل على المسلمين من غير العرب مهما تباينت أصولهم وجنسياتهم، ومنهم الفرس والترك والهنود وغيرهم. والمعلوم تاريخيا أن أعداد هؤلاء الموالي قد ازدادت زيادة كبيرة باعتناقهم الإسلام نتيجة الفتوحات العربية الإسلامية، وكانوا مسلمين أحرارا، شارك البعض منهم في القتال دون أن يسجلوا في ديوان الجند، فكان ذلك مثار شكواهم وتذمرهم، ويبدو أن السلطة الأموية لم ترد إدخالهم في الديوان المذكور، كما أن القبائل العربية لم ترض أن يتساوى الموالي برجالها في العطاء(أرزاق الجند). والواقع أن أعداداً من الفرس ـــ مثلا ـــ شاركوا في حروب الفتوح بأواسط آسيا ضد الترك، ولكنهم لم يرضوا بالغنائم، بل طالبوا أن يكون لهم عطاء أو رزق، وقد أقر الخليفة عمر بن عبد العزيز(99-101هـ/717-720م) بهذه الحالة وعالجها في إطار سياسته لتأكيد وحدة عناصر الأمة في الإسلام، فقرر أنصاف الموالي بتخصيص العطاء لهم كالعرب.

أما في المغرب فقد أقبل البربر على اعتناق الإسلام والدخول تحت رايته، وهذا ما عبر عنه بن الأثير بقوله"دخل كثير من البربر في الإسلام، واتسعت خطة المسلمين"[ "1965"466/3] ولم يلبث العرب أن جندوا

البربر إخوانهم في الدين، واستخدموهم في فتح الأندلس، والذي ميز هذا الفتح من غيره من الفتوح العربية الإسلامية حتى ذلك الوقت، هو اشتراك البربر اشتراكا إيجابيا في الجيش العربي الإسلامي الذي فاجأ الإسبان بالعبور إلى بلادهم(الأندلس)، فهذا أحد الحكام الإسبان المحليين ويدعى(تدمير) قد كتب إلى لوذريق ملكهم قائلا " إنه قد وقع بأرضنا قوم لا ندري أمن السماء نزلوا أم من الأرض نبعوا؟" . [ابن قتيبه"1963"74/2 ]

## إعداد الجيش:

لما كان الجهاد فريضة على كل مسلم حماية للدين وصيانة لأرواح المسلمين ودفعا للظلم، فقد تطلب تهيئة الجند وإعدادهم ليكونوا على استعداد دائم لتلبية داعي الجهاد، وهكذا كانت الحال منذ عهد الرسول الكريمﷺ ومرورا بعصر الخلفاء الراشدين‌ﷺ.

وفي العصر الأموي أصبحت عملية إعداد الجند وتهيئتهم تأخذ الحيز الأكبر من سياسة الخلافة نظرا لتنشيط حركة الفتوح الإسلامية وتعدد جبهاتها التي شملت خراسان وما وراء النهر وجبهة الحدود مع الدولة البيزنطية وشمال أفريقيا والأندلس، مما تطلب الأعداد الهائلة من الجنود التي كانت تتطلبها تلك الجبهات، ولهذا دأبت المؤسسة العسكرية للدولة المتمثلة بدواوين الجند على تهيئة المقاتلين من أصحاب الديوان فضلاً عن المتطوعين .

وفي مستهل هذا العصر ظهرت البدايات الأولى للتجنيد الإلزامي منذ عهد معاوية بن أبي سفيان بوصفهاضرورة اقتضتها الظروف السياسية والعسكرية ويمكن اعتبار الإجراءات التي اتخذها زياد بن أبي سفيان الذي تولى البصرة سنة (45هـ/ 665م) بداية حقيقية للتجنيد الإلزامي وذلك لتشديده في النفير ومعاقبة المتخلفين، وسار الخلفاء الأمويون وولاتهم على هذا النهج في إعداد الجند ودفعهم للقتال، ومن أمثلة ذلك ما فعله عبد الملك بن مروان عندما قصد العراق لقتال مصعب بن الزبير سنة (72هـ/ 691م) ، حيث أمر الحجاج بن يوسف الذي كان على ساقه جيشه باستنفار من تخلفوا عن اللحاق بجيشه، فكان الحجاج "لا يمر على بيت رجل من أهل الشام تخلف ألا احرق عليه بيته فلما رأى ذلك أهل الشام خرجوا" . [ ابن قتيبه "1963"82/2 ]

وبإمكاننا أن نأخذ نظام الأجناد في بلاد الشام أنموذجا واضحا عن عملية إعداد الجند وتطبيق التجنيد الإلزامي في العصر الأموي، والأجناد في عهد معاوية هي : جند دمشق وجند الأردن وجند فلسطين وجند حمص، أما جند قنسرين فأستحدثه يزيد بن معاوية بعد أن أضاف إليها أنطاكية ومنبج ،

وكانت هذه الأجناد بمثابة وحدات إدارية استقرت فيها المقاتلة الذين كانوا أساسا من قبائلها .

أما عملية إعداد الجند في الأمصار والأقاليم الأخرى، فقد سارت على النمط الذي كان سائدا في الشام، وهو وجوب القتال على كل من ثبت اسمه في ديوان الجند من المقاتلة الذين يتقاضون العطاء وعلى الولاة تنفيذ ذلك.

### صنوف الجيش:

اعتمد الجيش العربي الإسلامي في بنيته الأساسية على صنوف عدة، متكاملة الأداء في ميادين القتال، وكل صنف يؤدي واجباته التي لا تقل عن واجبات الصنف الأخر، وسنعرض إلى صنوف الجيش في العصر الأموي بإيجاز حسب الأتي:

#### 1- الخيالة(الفرسان):

قدر العرب في تاريخهم قبل الإسلام وبعده أهمية الخيل، لأنها كانت عدتهم في حروبهم وحياتهم اليومية، لذلك عنوا بتحسين نسلها وحفظ أنسابها وألف بعضهم كتبا في الخيل والفروسية .

ولما جاء الإسلام وتطلب الموقف مجاهدة أعدائه، زادت عناية العرب المسلمين بخيولهم، لاسيما أن القران الكريم أشار إلى اقتران القوة بالخيل عند الإعداد للقتال كما يتجلى في قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾. [ سورة الأنفال, من الأية: 6 ] وعزز الرسول الكريم ﷺ هذا الاتجاه باقتنائه الخيول وحثه المسلمين على أقتنائها بقوله: "الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة ".[ابن عبد ربه"1965"152/1]

واهتدى الخلفاء والولاة والقادة العرب بهدي الرسولﷺ في العناية بالخيل والفروسية، وبفضل هذه العناية صار صنف الفرسان يمثل معظم القوة الضاربة في الجيش الإسلامي، نظرا لما يؤديه الفارس عند القتال من مقاتلة العدو والثبات له والمراوغة والاستطراد ، وكذلك حماية الرجالة وساقة العسكر عند المسير. وكانت أسلحتهم تشمل السيف والرمح والقوس.

وفي العصر الأموي حدث تطور مهم يتعلق بالفروسية العربية، وذلك عندما اتخذ المهلب(ت82هـ/701م) الركاب من الحديد بدلا من الخشب، وكان يصنع قبله من الخشب فينقطع، ويبقى الفارس يضرب ويطعن دون أن يكون له معين أو معتمد .

#### 2- الرجالة (المشاة) :

وهم الجند الذين يقاتلون وهم راجلون، وكانوا يؤلفون القسم الأكبر من الجيش العربي الإسلامي، وعليهم يقع عبء الالتحام المباشر مع العدو وتحطيم قوته الرئيسة، فيتقدمون

بصفوف متراصة، وقد لزموا الصمت واجتنبوا التلفت ، ولم تكن أصواتهم تعلو بالتكبير في حالات ميدان القتال إلا في حالات كمقتل قائد العدو أو فرار أعدائهم في الصولة الأخيرة، حيث يكون للتكبير أثره في خلع قلوب الأعداء وإضعاف روحهم المعنوية.

وللرجالة واجبات أخرى منها التصدي لفرسان العدو والحد من فاعليتهم بعقر خيولهم أو تنفيرها. كذلك القيام بالحراسات والسيطرة على المناطق الحيوية مثل المضايق والوديان والدروب، وهذه الواجبات كانت تعهد إلى الرجالة بإشراف القادة، ومثال ذلك أن القائد الكبير المهلب بن أبي صفرة (ت82هـ/ 701م) كان شديد الاحتياط والحذر في حروبه، لا يترل إلا ويخندق على جيشه ويتولى الحرس بنفسه، أو يستعين بأبنائه ومن يحل محلهم في الثقة، ولحرصه على جنده كان يأمرهم بالتحرز، ويحذرهم من المكيدة، ويبث الأحراس في الأمن والخوف على حد سواء، ويذكي العيون في المدن كما في الصحارى.

كانت اسلحة الرجالة تتألف من السيف والرمح والسهم، وقد أجادوا أستخدام هذه الأسلحة في حروبهم، والطريف أنهم كانوا يفضلون استخدام السيوف القصيرة للدلالة على شجاعتهم ونجدتهم، وفي هذا قال شاعرهم:

نصل السيوف إذا قصرن بخطونا
قدما ونلحقها إذا لم تلحق

أما زي الرجالة فيتكون عادة من القمصان المحبوكة على أجسامهم إلى ما تحت الركبة فوق السراويل ويضعون على رؤوسهم الخوذ ويلبسون الدروع الواقية من ضربات العدو .

### 3- الرماة (النشابون)

وهم الجند الذين يحملون الأقواس لرمي السهام، ويعد هذا الصنف من الصنوف الفعالة في الجيش الإسلامي، لاسيما أن العرب المسلمين قد تفوقوا على أعدائهم بإجادة استخدام هذا السلاح في المعارك التي غالبا ما كانت تبدأ بالتراشق بالنبل، فضلاً عن استخدامهم له في إحكام سيطرتهم على المناطق الحيوية والربايا ومن فوق الأسوار.

ويتردد ذكر الرماة في العصر الأموي، حيث اشتهرت بالبصرة فرقة منهم يدعون بالبخارية، قيل إن عبيد الله بن زياد قد قدم بهم من بخارى وأسكنهم في إحدى سكك البصرة ويدعون أيضا بـ(بخارية ابن زياد). [البلاذري"1959"369] واستخدمهم ابن زياد في مقاتلة بعض المتمردين باليمامة، ولما بنى الحجاج بن يوسف مدينة واسط نقل أكثرهم أليها.

وكان لقتيبة بن مسلم الباهلي فرقة من الرماة استخدمهم في معاركه في خراسان وما وراء النهر ويدعون بـــ( المرامية) .

4- المنجنيقيون والدبابون:

وهم الجند الذين يعملون على آلة المنجنيق لرمي حصون الأعداء وقلاعهم ومدهم بالمقذوفات الحارقة والحجارة الثقيلة، واستخدمت القوّات العربية الأعداد الكبيرة من المجانيق في معاركها، فقد استخدم القائد محمد بن القاسم الثقفي(ت94هــ/713م) في حصار مدينة الديبل بالسند، منجنيقا ضخما يسمى العروس كان يقوم على خدمته خمسمائة من رماته. واستخدم مسلمة بن عبد الملك في إحدى معاركه بأرمينية عشرين منجنيقا. ونصب الخليفة مروان بن محمد أثناء حصاره لسعيد بن هشام بن عبد الملك في مدينة حمص سنة (127هــ/ 74م) أكثر من ثمانين منجنيقا كانت ترمي المدينة المذكورة ليلا ونهارا والى جانب المنجنيقيين، يتردد ذكر طائفة من الجند يطلق عليهم (الدبابون) وهم يستخدمون الدبابة وهي الآلة التي تستخدم في التقرب إلى أسوار الأعداء بغية هدمها أو أحداث ثغرة فيها، ويبدو أن استعمال الدبابة لم يكن واسعا في العصر الأموي، كما هو الحال في المنجنيق .

5- صنف الخدمات التموينية والطبية:

لما كان الجيش العربي الإسلامي بحاجة إلى الأعمال الخدمية للجند ومنها إعداد الطعام وتوفير الماء ونقل الأمتعة وإخلاء الجرحى وغير ذلك من الأمور الخدمية الأخرى، فقد توافر في الجيش رجال أعدوا للقيام بتلك المهمات، وطبيعي أن القوات العربية كانت تزود بالمؤن من المدن والقرى التي تمر بها أثناء تقدمها، بل حتى عند إقامة معسكراتها في ربوع المناطق والأقاليم المفتوحة، ويمكن أن نعد مدينة باب الأبواب مثالا لهذه القواعد المتقدمة، حيث بنى فيها القائد مسلمة بن عبد الملك مخازن للطعام والذخيرة، وقد اشترط محمد بن مروان، الذي أعقبه على ولاية أرمينية، في معاهدات الصلح، أن يتعهدوا بحمل كميات معلومة من الحبوب والطعام إلى مخازن باب الأبواب.

أما الخدمات الطبية وإسعاف الجرحى الذين يصابون في الحروب، فقد شهدت تطورا كبيرا في العصر الأموي، إذ أصبحت من واجبات فئة متخصصة للقيام بهذا الغرض، وهذا يعني أن الخلفاء وقادتهم اهتموا بتوفير وسائل العلاج والإسعاف من خيم خاصة وأدوية وأطباء. وتشير إحدى الروايات إلى استخدام المحامل لنقل الجرحى إلى مواضع الإسعاف، وأن الحجاج كان أول من استحدث هذه المحامل لحمل الجرحى .

### 6- العيون(الجواسيس):

يقوم رجال هذا الصنف في الجيش باستطلاع أخبار جيش العدو وتحشداته وخططه، وتقديم المعلومات إلى قيادة الجيش الإسلامي التي تضع خطط القتال الصائبة استنادا إلى تلك المعلومات.

وفي العصر الأموي زادت الحاجة إلى هؤلاء العيون لتعدد جبهات القتال، فاستخدمهم المهلب بن أبي صفرة في جيشه حيث كان يذكي العيون في المدن كما يذكيها في الصحاري ، كذلك استخدمهم موسى بن نصير في جبهة المغرب ، كما استخدمهم قتيبة ابن مسلم في جبهة المشرق .

ونظرا لخطورة المهمة الموكلة إلى العيون، فلا بد من توافر شروط معينة فيمن يكلف بها، ومن هذه الشروط: توافر الصدق، وكتمان السر، وأن تكون له سعة إطلاع بالمناطق التي ينفذ إليها، فضلا عن معرفته بلغة أهلها، كذلك يجب أن يتمتع بلياقة بدنية عالية وصبر على التعذيب إذا ما ظفر به العدو، حتى لا يستفاد منه في كشف أخبار قومه وخططهم العسكرية .

### الأسلحة الهجومية والدفاعية:

عرف العرب في تاريخهم أنواعا عديدة من الأسلحة وأجادوا استخدامها ببراعة، لأنها كانت عدتهم في الدفاع عن أنفسهم ومواجهة أعدائهم، وللتعرف على الأسلحة التي استخدمها الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي، نقدمها بحسب طبيعة استخدامها إلى:

#### 1- الأسلحة الخفيفة:

وهي التي يستخدمها شخص واحد، وأهمها السيف الذي يعد أهم أسلحة المقاتل، وكان يصنع إما من الحديد ويسمى(السيف الأنيث) أو يصنع من الفولاذ ويسمى(السيف الفولاذ) ، وهو أمضى السيوف. وكانت أشكال السيوف على نوعين: المقوسة، والمعتدلة (المستقيمة) وكان العرب المسلمون يؤثرون استخدام النوع الثاني منها ولاسيما القصير دلالة على شجاعتهم في القتال .

أما الرمح فكان سلاح الفرسان والرجالة على حد سواء، وتتخذ قناته من خشب الزان أو الشوحط ويركب فيها سنان مدبب من الحديد .

وكان القوس والسهم من أهم أسلحة النشابين في الجيش، وهم رماة النشاب بأنواعها، وأتخذ العرب القوس والسهم من الخشب النبع، وهو خشب لين متين ويقوس كالهلال ويثبت فيه الوتر لغرض رمي السهام المزودة رؤوسها بقطع حديدية جارحة .

ولا يستبعد أن يكون بعض المقاتلة قد استخدموا أسلحة خفيفة أخرى كالخناجر والدبابيس والفؤوس المشحوذة، وهذه كلها من الأسلحة التي استخدمت في صدر الإسلام.

2- الأسلحة الثقيلة:

استخدم الجيش العربي في العصر الأموي، أنواعاً من الأسلحة الثقيلة أهمها المنجنيق والدبابة ورأس الكبش، وذلك لهدم الحصون والأسوار وحصار المدن وقذف أهداف العدو بالحجارة والمحروقات، وكان يتولى العمل بها وإعدادها عدد من الرجال المقاتلين.

المنجنيق :

وهو أحد الأسلحة الثقيلة التي استعملها الجيش الإسلامي في العصر الأموي، ويتكون في أبسط أنواعه من قاعدة خشبية سميكة مربعة أو مستطيلة، يرتفع في وسطها عمود قوي ينتهي بذراع المنجنيق بحيث يكون ربعه باتجاه الأسفل وثلاثة أرباعه باتجاه الأعلى، ويكون في نهاية الربع الأسفل من الذراع صندوق خشبي يملأ بالمقذوفات المراد قذفها، وعند القذف يجذب أعلى الذراع إلى الأرض بقوة الرجال، فيرتفع الثقل ثم تترك الذراع فيهوى الثقل إلى أسفل بينما يرتفع أعلى الذراع قاذفا ما وضع فيه إلى الهدف.

ويبدو أن أحجام المنجنيق مختلفة باختلاف الأهداف المراد رميها، فمنه النوع الضخم الذي يعمل عليه أعداد من المقاتلة، فقد نصب القائد محمد بن القاسم الثقفي، على قلعة الديبل في الهند منجنيقا ضخما يدعى (العروس) ويعمل عليه خمسمائة رجل، وكان بالديبل معبد يعرف بـ(البد) فرماه محمد بن القاسم فكسره، ثم وضعت السلالم وتم فتح المدينة المذكورة سنة (89هـ/ 707م) . [ البلاذري "1959"424 ]

واستخدم القائد قتيبة بن مسلم المجانيق في ضرب مدينة سمر قند في ما وراء النهر سنة 93هـ. ونصب الخليفة مروان بن محمد أثناء محاصرته لسعيد بن هشام وأنصاره بحمص نيفا وثمانين منجنيقا وكان ذلك في سنة (127هـ/ 744م) . [ الطبري "1960-1969" 326/7 ]

الدبابة (الضبر):

وهي من الأسلحة الهجومية الثقيلة التي تتمم عمل المنجنيق في دك الأسوار والحصون، وتتكون في صورتها البسيطة من الخشب السميك المغطى بالجلد القوي، يدخلها عدد قليل من الجنود، ثم تدفع على عجلات فتدب على الأرض دبيبا حتى تلتصق بالسور ، وحينئذ يعمل الجند والفعلة من حملة الفؤوس والمعاول على فتح ثغرة فيه، أو يسندون جدار السور بأعمدة خشبية سميكة فيحرقونها حتى يوهن السور ويسهل اقتحامه، ومن ذلك ما فعله قتيبة بن مسلم عند حصاره لمدينة سمر قند سنة ( 87هـ/ 705م) . [ الطبري "1960-1969"431/6 ] .

### رأس الكبش:

وعرف العرب المسلمون في العصر الأموي استخدام سلاح حديدي ثقيل يشبه الدبابة أطلقوا عليه (رأس الكبش) تشبيها، ويركب هذا الرأس الحديدي داخل برج خشبي، ثم يتدلى من أعلى البرج محمولا بسلاسل تربطه من موضعين، ويتم العمل بتعاون الرجال علىهدم السور مرات عديدة لتهشيم حجارته، مستعينين على ذلك بسلالم الحصار.

وقد استخدم الجنيد بن عبد الرحمن المري هذا السلاح في بلاد الهند سنة (107هـ/ 725م) ، عند فتحه مدينة الكيرج عنوة . [ البلاذري "1959"429 ]

### الأسلحة والأساليب والوسائل الدفاعية:

استخدم العرب المسلمون في حروبهم الأولى أسلحة دفاعية خفيفة ووسائل دفاعية ردا لكيد أعدائهم، فمن أسلحتهم الخفيفة التي استمروا في استخدامها خلال العصر الأموي الدروع التي كانت سلاح الفرسان بالدرجة الأولى، يرتدونها أقمصة على صدورهم للوقاية من ضربات السيوف، وأكثرها ما كان زردا من الحديد أو الفولاذ، وهي تصنع إما سابغة أو بتراء بدون أكمام، والدرع إذا غطى الصدر فقط سمي بـ(الجوشن)، وتعد البيضة والمغفر من ملحقات الدرع، فالأولى عبارة عن خوذة من الحديد تغطي الرأس وتحميه من ضربات السيوف أو السهام. أما المغفر فهو نسيج من حلقات حديدية مبطنة ببعض المواد اللينة ويتخذ لتغطية الوجه والرقبة ويتدلى إلى الصدر، وقد لبس الخوارج هذا النوع من المغافر في حربهم مع الأمويين، وهذا ما يفهم من إشارة للطبري في حوادث سنة (65هـ/684م ) بقوله:"جاؤوا (الخوارج) عليهم المغافر تضرب إلى صدورهم" . [الطبري "1960-1969"5/618 ]

أما الأساليب الدفاعية، فتشمل كل ما يتخذ من تحصينات دفاعية سواء كانت طبيعية أم من عمل الإنسان كالقلاع وأسوار المدن والخنادق والمطامير المحفورة والأنهار وغير ذلك . ومع أن الأسلوب الهجومي كان هو الغالب على العمليات العسكرية في العصر الأموي لارتباطه بنشاط حركة الفتوح الإسلامية الواسعة التي شهدها العصر المذكور، فإن القوات العربية لم تهمل الوسائل الدفاعية عن المدن والمعسكرات ضد هجمات الأعداء، ولاسيما في المناطق الحدودية الشمالية المتاخمة للروم البيزنطيين، حيث حصنت الثغور والعواصم في الجبهة الشمالية وجبهة أرمينية، وكان الخلفاء وولاتهم يعمدون عادة الى ترميم بعض تلك الثغور وأحكام تحصيناتها، على النحو الذي فعله كل من الخلفاء عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك ومروان بن محمد, كانت الأسوار تبنى بالحجر أو الملاط الذي يختلط بقطع الحجارة والصخر، وفتح أبواب

ومداخل بهذه الأسوار تنفذ بداخلها ممرات منكسرة، الهدف منها نصب كمائن في الجزء المنحني من الممر الداخلي، أو اتخاذ رباطات أو مسالح في المواقع الضعيفة من الدفاع، تشحن عادة بالجند والمجاهدين، أما القلاع فكانت تتخذ خارج المدن لتمكين الدفاع عنها في حالة هجوم الأعداء عليها.

وتعد الخنادق ضمن الأساليب والتحصينات التي اعتمدها الجيش في العصر الأموي، وهي لا تكلف جهودا كبيرة سوى حفر أخدود يحيط بالمدن أو المعسكرات. وكان المهلب بن أبي صفرة من أبرز القادة الذين اتخذوا الخنادق في أثناء محاربته للخوارج، فلا يترل موضعا إلا ويخندق على جيشه .

ومن أساليب الدفاع التي أتقنها العرب المسلمون، استخدامهم الحسك الشائك، وهو شوك صلب ذو ثلاث شعب، تنثر منه شعبتان في الأرض، وتبقى الثالثة بارزة لتعطب بها حوافر الخيل وأقدام العدو المغير، ولا يستبعد أن يكون العرب المسلمون في العصر الأموي قد صنعوه فيما بعد من اصابع حديدية مدببة، ذوات شعب ثلاث، ونشروه في حروبهم حول الخنادق والمعسكرات ليعرقلوا تقدم الخيل ورجال العدو .

## التعبئة وخطط القتال:

تعني كلمة (التعبئة) [ ابن منظور "1956" مادة عبأ ] لغة، أنها فن ترتيب الجند في مواضعهم وتهيئتهم للحرب تنفيذا للخطط العسكرية التي ترمي إلى توزيع قطعات الجيش، والأسلحة المتوافرة بشكل يؤمن الاستفادة منها إلى أقصى حد ممكن لإحراز النصر. وقد عرف العرب التعبئة منذ ما قبل الإسلام، واعتمدوا أسلوب الكر والفر في القتال .

وعندما جاء الإسلام حدث تطور جذري في أساليب القتال وفن الحرب، وتمثل هذا التطور باستحداث نظام الصفوف في ضوء قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ . [سورة الصف , الأية: 4 ] وظل العرب المسلمون يعملون بنظام الصفوف حتى أواخر العصر الأموي حيث استبدله الخليفة مروان بن محمد(127-123هـ/745-749م) بنظام الكراديس الذي قسم بموجبه الجيش إلى عدة مجموعات، دعيت كل مجموعة منها كردوس يتألف من ألف جندي وجعلوا لكل كردوس قائدا، وبين الكردوس والأخر فرجات مناسبة تتحكم بسعتها طبيعة الميدان.[الجنابي "1968" 168 ] ومما يجدر ذكره هنا، أنه كان يشترك في الجيش وحدات مدنية بالمؤخرة، منهم الوعاظ لتشجيع الجند على القتال، والفعلة لحفر الخنادق وإقامة

القناطر، وبعض المشتغلين بالتمريض للعناية بالجرحى، كذلك بعض الطباخين لإعداد الطعام للمقاتلة.

أما خطط القتال، فكانت تقوم على أسس منها: مقدمات المعركة، والهجوم، والمطاردة، والانسحاب، فضلا عن أساليب الخداع وتضليل العدو واصطناع الحيل. وكانت مقدمات المعركة تشمل ما يأتي:

أ – **التجسس وبث العيون** : كان هذا الاجراء ضروريا لتلقّط أخبار العدو، والكشف عن خططه الحربية، ومعرفة أعداد عسكره، ونوع أسلحته، ومواطن القوة والضعف فيه . [ ابن الأثير "1965"197/4 ]

ب– **الكمائن** : والكمين يعني وضع قوة من الجند في موضع خفي عن رصد العدو، واجبها الانقضاض على قوات العدو، لإعاقة تقدمه أو انسحابه أو لتحويله عن هدفه، ويتحقق ذلك عن طريق مفاجأته.

ومن الذين أجادوا استخدام الكمين في العصر الأموي، قتيبة بن مسلم الباهلي، الذي وضع أخاه صالح بن مسلم في كمينين أمام الصغد في معركة سمرقند في سنة 93هـ/711م، وأحل الهزيمة بهم . [ ابن الأثير 572/4 ]

ج– **الطلائع** : تعتمد هذه القوة العسكرية على الفرسان الشجعان ذوي البأس والنجدة والمراس في الحرب. ويقوم قائد الطليعة باختيار رجاله الذين يكونون تحت إمرته، ومن هنا تتجلى أهميته التي ندركها في وصية الخليفة مروان بن محمد لابنه عبد الله بشأن اختياره قائد الطليعة، ومما جاء في الوصية: "واعلم أن الطلائع عيون وحصون للمسلمين، وهم أول مكيدتك وعروة أمرك وزمام حربك..." . [ كرد علي "1954"197]

وقدر القائد قتيبة بن مسلم أهمية الخيول الجيدة للطلائع، فكان إذا عاد من غزاته كل سنة اشترى اثني عشر فرسا واثني عشر هجينا، فإذا تأهب للغزو ضمرها، وحمل عليها الطلائع للكشف عن مواقع العدو، وكان يجعل الطلائع فرسان الناس وأشرافهم . واستخدم موسى بن نصير والي المغرب طريف بن مالك المعافري على رأس سرية من خمسمائة مقاتل : أربعمائة من الرجالة ومائة من الفرسان إلى جزيرة لاس بالوماس سنة (91هـ/ 709م) كطليعة للاستيثاق من يليان.

د– **المبارزات الفردية ومباشرة القتال:**:

جرى التقليد عند مباشرة قتال العرب المسلمين لعدوهم، أن يتبارز قبل بداية المعركة فارسان من أشد وأقوى فرسان الجيشين المتواجهين في الميدان، ويستخدمان في المبارزة السيف والرمح عادة، وتنتهي المبارزة بمصرع أحدهما، وعلى الفور ينشب القتال بين

الجيشين المتقابلين، حيث تشتبك الميمنة مع الميسرة المقابلة، والميسرة مع ميمنة العدو.

ولا يستبعد أن يصحب القتال أناشيد حماسية تلقيها بعض النساء من وراء الكتائب، إذ كان شائعا في حروب العرب المسلمين أن ترافق الجيش بعض زوجات القادة والجند، على النحو الذي يتردد ذكره في عبور سلم بن زياد إلى ما وراء النهر ومعه زوجته ، ومثل ذلك صحب موسى بن نصير زوجته وذراريه أثناء فتح الأندلس، كما كان يوسف الفهري قد صحب امرأته وبناته . [ الانصاري "1961"41 ]

### اختيار القادة ووصايا بعض الخلفاء لهم:

أجاد الخلفاء الأمويون اختيار قادة الجيش العربي الإسلامي بوجه عام، والحق أن القادة الكبار الذين التمعت أسماؤهم في العصر الأموي، إنما اختيروا بعد تدقيق في مهاراقم وقدراقم القيادية التي استندت على صفات عديدة ينبغي توافرها في القائد منها: الشجاعة والإقدام، وحسن الرأي والتدبير، وسرعة اتخاذ القرار، والصبر على القتال .

وقد برز في العصر الأموي قادة كبار شهدت لهم ميادين الجهاد وجبهات الفتوح الواسعة التي كانت قائمة في ذلك العصر، فمنهم من اشتهر في فتوح الأقاليم الشرقية، من أمثال المهلب بن أبي صفرة وابنه يزيد، وقتيبة بن مسلم الباهلي، ومحمد بن القاسم الثقفي. ومنهم من كان له الأثر الكبير في فتح المغرب والأندلس من أمثال عقبة بن نافع الفهري، وزهير بن قيس البلوي، وحسان بن النعمان الغساني، وموسى بن نصير، وطارق بن زياد.

أما في الجبهة الشمالية، فقد اشتهر القائد مسلمة بن عبد الملك بجهاده ضد البيزنطيين وحسبنا ان ننوه هنا بقادة الصوائف والشواتي الذين ظلوا يشنون الغزوات على ديار البيزنطينيين براً وبحراً على مدى العصر الأموي، و نخص بالذكر منهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وبشر بن أرطأة ومالك بن هبيرة الفزاري وسفيان بن عوف ، ومالك بن عبد الله المعروف بـــ(مالك الصوائف) وغيرهم... [خليفة بن خياط "1967" ،ج2، ص40،243/38،241/ وما بعدها ]

ولم يكتف بعض الخلفاء الأموين بالتحقيق أو التحري عند اختيار القادة بل كانوا يزودونهم بتعليماتهم ووصاياهم، فهذا الخليفة عبد الملك بن مروان يوصي قائدا من قواده سيره إلى بلاد الروم قائلا:

"أنت تاجر الله لعباده، فكن كالمضارب الكيّس الذي إن وجد ربحا تجر وإلا تحفظ برأس المال" . [ ابن قتيبه "1963"248/2-249]

وأوصى الخليفة مروان بن محمد ابنه عبد الله في كتاب جاء فيه:

" فولّ أمر عسكرك أوثق قوادك عندك وأنفذهم بصيرة في طاعتك وأقواهم شكيمة في أمرك، وأمضاهم صريمة، وأصدقهم عفافا، وأكفأهم أمانة..... وأشدهم في دين الله أمانة... وليكن عالما بمراكز الجنود، بصيرا بتقدم المنازل، مجربا ذا رأي وتجربة وحزم في المكيدة..." [ كرد علي "1954"193-194 ]

### عقد الألوية:

لما كان عقد اللواء رمزا للقيادة وأمارة الجيش، فإن الخلفاء الأمويين راعوا هذا التقليد الرسمي، على النحو الذي سنه الرسول الكريمﷺ وسار عليه الخلفاء الراشدونﷺ [ الطبري"1960-1969" 3/ 248-249 ]

كان الجند يلتفون حول اللواء ويذودون عن حامله في ميدان المعركة، إذ إن بقاء اللواء مرفوعا دلالة على تماسك الجيش ومواصلة القتال، وبعكس ذلك فإن سقوط اللواء دلالة على انكسار الجيش.

وجدير بالذكر أن الأمويين اتخذوا اللون الأبيض لألويتهم تقليدا للواء الرسولﷺ في غزوة بدر التي كان فيها أبيضَ . [ عون "1961"، 81 ]

### ثانيا: الأسطول

عرف العرب ركوب البحر منذ أزمنه سحيقة قبل الإسلام، وكانت سفنهم تجوب البحر الأحمر والبحار الشرقية دون انقطاع، وكان أزد عمان ــ مثلاــ هم البحارة الماهرون الذين استعانت بهم فارس قبل الإسلام في جلب المتاجر إلى بلادهم منافسة في ذلك الرومان، وكانت قريش قبل الإسلام بنحو قرن تقصد اليمن فتنقل تلك المتاجر إلى بلاد الشام .

يمكن القول إن العرب كانوا على دراية طيبة بالبحار. واستخدموا سفنهم لأغراض تجارية، وقد نهضت التجارة البحرية أكثر في عصر الإسلام، وتميز العرب المسلمون بنشاطهم التجاري الذي غطى جميع المناطق التي كانت تشملها التجارة الرومانية من قبل.

وفي العصر الأموي فتح العرب المسلمون مصر في عهد الخليفة عمر بن الخطابﷺ فظهرت حاجة ماسة لحماية السواحل من هجمات الأسطول البيزنطي العريق، الذي كان يتخذ من الجزر المهمة في البحر المتوسط قواعد ينطلق منها ويهدد السواحل الشامية خاصة.

### البدايات الأولى لنشأة الأسطول الإسلامي:

أدرك معاوية بن أبي سفيان منذ ولايته على الشام في سنة (18هــ/ 638م) ذلك الخطر، فحاول إقناع الخليفة عمر بن الخطابﷺ بأن يأذن له بإنشاء أسطول عربي يقوى على التصدي للأسطول البيزنطي ويدرأ خطره، وينقل ساحة المنازلة البحرية إلى الجزر والسواحل البيزنطية. غير أن الخليفة المذكور لم يقتنع بالأمر، بل كتب إلى معاوية قائلا:

"...وتالله لمسلم أحب إلي مما حوت الروم، فإياك أن تعرض لي" [ الطبري "1960-1969" 259/4] وأمره بإقامة تحصينات دفاعية في السواحل وترتيب المقاتلة فيها، فأذعن معاوية لأمر الخليفة.

إن تحصين الثغور الساحلية لم يمنع البيزنطيين من مواصلة غاراتهم على السواحل، وتكرر ذلك في سنتي( 23هـ و24هـ) ، مما دفع معاوية إلى تجديد مناشدته للخليفة عثمان ابن عفان ﷺ بان يأذن له بركوب البحر لمجاهدة البيزنطيين، ولكن هذا الخليفة أبدى تردده بادئ الأمر .

لقد ظلت رغبة معاوية حبيسة في صدره، فكرر على الخليفة عثمان ﷺ طلبه وألح إلحاحاً شديداً، ويبدو أن إلحاحه وتطورات الموقف العسكري على السواحل واستعداده لإنشاء الأسطول العربي الإسلامي، جعل الخليفة المذكور يقبل رأي معاوية، فأذن له بركوب البحر لأهداف عسكرية، شريطة أن لا يكره أحدا على ذلك.

وهنا بادر معاوية إلى بناء السفن وأمطاها العرب المسلمين، وساعده على ذلك وفرة الأخشاب التي تصنع منها السفن والصواري والمجاديف، وهذه الأخشاب متوافرة في الشام ومصر، فأشجار الصنوبر القوي والرز والبلوط والعرعر تزخر بها جبال لبنان وسورية، كما أن أخشاب السنط المصري لعمل الصواري وضلوع جوانب السفن، وأخشاب الجميز والأثل واللبخ والدوم التي تصلح لصناعة المجاذيف متوافرة في مصر التي اشتهرت بصناعة السفن منذ القدم كذلك كان في إمكان معاوية استغلال معدن الحديد المتوافر في الشام ومصر واليمن لعمل المسامير والمراسي والخطاطيف والفؤوس، كما يتوافر بمصر القطران الوارد من ليبيا [ الشريف الادريسي "1893"136 ] ، وهو مادة لازمة لطلاء السفن، وكان هناك أيضا نبات يقال له الدقس تصنع منه حبال ربط السفن. [ الهمداني "1866" 66 ]

وفضلاً عن توافر المواد الضرورية لصناعة السفن، كانت تتوافر في الشام ومصر الأيدي العاملة الخبيرة، لاسيما الأقباط الذين قاموا بدور كبير في إنشاء الأسطول العربي الإسلامي، كما كان للملاحين العرب من الأزد والغساسنة خبرة في إدارة العمليات والمعارك البحرية، الأمر الذي سهل عمليات وإدارة الأسطول. ويمكن ملاحظة مدى قوة الأسطول العربي في عهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ عندما اشتركت سفنه من مصر والشام في معركة ضارية مع الأسطول البيزنطي سميت بـ(ذات الصواري) سنة (34هـ/ 656م) ، وقد كان مجموع سفن الأسطول العربي نحو مائتين، بينما بلغ عدد الأسطول البيزنطي أضعاف ذلك. وانتهت

المعركة بانتصار المسلمين الذين حولوا المعركة البحرية المذكورة إلى ما يشبه المعركة البرية .
[ ابن عبد الحكيم "1922"190-191 ]

**تطور الأسطول:**

ما كاد معاوية بن أبي سفيان يظفر بالخلافة في سنة (41هـ/661م) حتى عمل جاهداً على تدعيم الإسطول العربي الذي يعزى إليه الفضل في إنشائه إبان ولايته على الشام هذا من جهة، ومن جهة أخرى ازدادت أهمية وفاعلية الأسطول أكثر، لاسيما عندما أسس مسلمة بن مخلد الأنصاري والي مصر من قبل معاوية دار صناعة جزيرة الروضة في سنة (54هـ/ 673م) على إثر قيام البيزنطيين بمهاجمة بلدة البرلس في سنة (53هـ/672م) ، وفي هذا الهجوم قتل وردان مولى عمرو بن العاص، وعائذ بن ثعلبة البلوي، وأبو رقية عمرو بن قيس اللخمي في جمع كثير من الناس . [ الكندي "1908"38 ]

وكان للموقع الجغرافي لبلاد الشام ومصر أثر كبير في تطور البحرية العربية الإسلامية، حيث أسهمت خبرات مصر وملاحوها مع خبرات الشام ومصادرها الأولية في إنشاء أسطول إسلامي مشترك، حول الخطط الدفاعية البحرية إلى هجومية في مرحلة مبكرة من التاريخ الإسلامي. وبتوالي الأعوام اللاحقة من العصر الأموي أصبحت قوة الإسطول العربي الإسلامي أكثر قدرة وصلابة، لاسيما بعد أن أنشأ حسان بن النعمان الغساني دار صناعة السفن في تونس، وكان حسان قد طلب من الخليفة عبد الملك ابن مروان أن يرسل له عمالا أقباطا من مصر، ولبى الخليفة طلبه، فوصلت إلى تونس ألف أسرة قبطية اضطلعت بمهمة بناء الأسطول في شمال أفريقيا [ البكري "1875" 37-39 ] ، ولا يستبعد أن يكون لهذا الأسطول الأثر الكبير في عبور المسلمين إلى الأندلس أثناء فتحها، فضلا عن إجبار البيزنطيين على إخلاء بعض مواقعهم الحصينة في الشمال الأفريقي.

أما الأندلس، فيرجع الفضل إلى اليمنية في إنشاء أول قوة بحرية هناك، في وقت لم يكن للدولة الأموية أسطول بحري رسمي: فزياد بن عمرو اللخمي كان يمنيا، وهو الذي وجه إلى بلج بن بشر القشيري وأصحابه — وقد حصرهم البربر في سبتة سنة (124هـ/ 732م) — سفينتين مشحونتين بالميرة، وأبا فريعة وصاحبه تمام بن علقمة اللذين كان لهما بصر في ركوب البحر، وهما اللذان توليا نقل عبد الرحمن الداخل من أرض المغرب إلى ثغر المنكب بالأندلس سنة ( 138هـ/ 755م).

وكان هناك طائفة البحريين الذين يرابطون في سواحل الأندلس، ويغزون في البحر، وهم يمنيون من بني سراج القضاعيين، ومنهم بنو أسود الغسانيون .

بعد أن عرضنا بإيجاز إلى تطور الأسطول العربي الإسلامي في العصر الأموي، نود أن نتناول نشاط هذا الأسطول في منازلة الأسطول البيزنطي العريق في عرض البحر المتوسط والحد من غاراته على السواحل العربية، بل انتزاع سيطرته على الجزر المهمة، وإفقاده سيادته على البحر المذكور.

يضاف إلى هذا أن نشاط الأسطول الإسلامي، قد تعدى فتح أهم جزر البحر المتوسط، إلى بلوغه القسطنطينية ومحاصرتها مرتين خلال العصر الأموي-كما سنأتي على ذكره-.

وتعود البدايات الأولى لنشاط الأسطول العربي الإسلامي في البحر المتوسط إلى عهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ الذي أذن لواليه على الشام معاوية بإنشاء الأسطول الإسلامي ومن ثم أقيمت دور صناعة السفن الحربية في الشام ومصر وتونس –كما أسلفنا- وأثبت العرب المسلمون جدارة رائعة في مقارعة الأسطول البيزنطي، وشن حملاتهم على أهم جزر البحر المتوسط، وعن ذلك قال قدامة بن جعفر:" في بحر الروم مائة واثنتان وسبعون جزيرة، كان جميعها عامرا فأخرب المسلمون أكثرها بالمغازي إليها " .قدامة بن جعفر [ 146"1981]

ونظرا لكثرة هذه الجزر وتوالي الحملات العربية عليها طيلة العصر الأموي، آثرنا التركيز على فتح أهمها حسب الأتي:

### جزيرة قبرس (قبرص):

في سنة ( 27هـ/647م ) تأهب معاوية(والي الشام) لشن حملة بحرية على جزيرة قبرس، فأعد السفن اللازمة لهذا الأمر، وأستأذن الخليفة عثمانﷺ في نيته وهون الأمر عليه [ الواقدي "1896"144] ، ومع أن الخليفة وافقه على رأيه، إلا أنه شرط عليه أن يحمل معه أهله وولده، حتى يعلم أن الأمر هين، وكتب أليه قائلا:"لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم، فمن اختار الغزو طائعا فأحمله وأعنه"[الطبري"1960-1969/4/160]

وواضح من هذا حذر الخليفة على العرب المسلمين، وأنه توجس أن يغرر بهم في بحر شديد الأهوال.

عبأ معاوية المقاتلين الذين تاقت نفوسهم للجهاد في البحر، حتى إن بعضهم حمل أهله معه بدليل تردد ذكر أم حرام الأنصارية زوجة عبادة بن الصامت التي توفيت في قبرس، وكانت هذه الحملة في سنة (28هـ/648م) [ البلاذري"1959"158 ]، حيث أبحر معاوية في هذه السنة من عكا بمراكب كثيرة نحو قبرس، وساندته بعض السفن التي تحركت من مصر .

ولما بلغ حاكم قبرس البيزنطي نبأ قصد العرب للجزيرة، مال إلى مصالحة معاوية على مال قدره سبعة آلاف دينار يؤديها اليه في كل سنة، وأخذ معاوية عهدا وميثاقا أن لا ينقض أهل قبرس ذلك ولا يكتموا المسلمين أمر عدوهم . [ الطبري "1960-1969"262/4 ]

لقد نقض أهل قبرس العهد الذي قطعوه على أنفسهم في سنة (32هـ/654م) وذلك بإعانتهم البيزنطيين بمراكب أعطوهم إياها، "فغزاهم معاوية سنة ثلاث وثلاثين في خمسمائة مركب، ففتح قبرس عنوة، وبعث إليها اثني عشر ألفا كلهم أهل ديوان فبنوا بها المساجد، كما نقل إليها جماعة من أهل بعلبك وبنى بها مدينة" . [ البلاذري "1959" 158 ]

إن فتح جزيرة قبرس يعد هزيمة كبيرة للبحرية البيزنطية، إذ أن هذه الجزيرة كانت مركزا لصناعة السفن على ما يبدو، فضلاً عن كونها قاعدة انطلاق الأسطول البيزنطي في غاراته على السواحل العربية، لذلك كان معاوية محقا في فتحها والسيطرة عليها. واستمر أهل قبرس على ما صالحهم عليه معاوية حتى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان(65-86هـ/685-705م) حيث زاد عليهم ألف دينار، وظلت الحال كذلك حتى حطها عنهم الخليفة عمر بن عبد العزيز، ولكن الخليفة هشام بن عبد الملك أعادها إلى ما كانت عليه. ويبدو أن أهلها أحسوا بضعف الخلفاء المتأخرين فمالوا إلى الانتقاض، وهذا ما دعا الخليفة الوليد بن يزيد إلى توجيه حملة بحرية إليهم بقيادة الأسود بن بلال المحاربي وأمره أن يخير أهلها بين المسير إلى الشام إن شاءوا وإن شاءوا إلى الروم ثم إنه أجلى بعضهم إلى الشام لأمر اقمهم به، فأنكر الناس ذلك، فردهم يزيد بن الوليد إلى جزيرقم .

## جزيرة أرواد:

فتحت هذه الجزيرة في سنة (29هـ/ 649م) ، وكانت غاية معاوية من فتحها ضرب النشاط البحري البيزنطي وشله لتامين السواحل الشامية، وكان معاوية قد وجه جنادة بن أبي أمية الأزدي إلى أرواد على رأس أربعة ألاف مقاتل حملهم على عشرين مركبا، فتزلوا الجزيرة وقاتلوا أهلها حتى اضطروهم إلى أداء الجزية. ثم عاد جنادة بالغنائم إلى الشام. [إبن اعثم "1968-1975"145/2-146]

ويبدو أن فتح الجزيرة لم يكن مستقرا، ففي سنة (54هـ/ 647م) أرسل الخليفة معاوية جنادة الأزدي إليها ثانية، فأعاد فتحها وأسكنها معاوية المسلمين ، ولكن ابنه يزيد أمرهم بالعودة حذرا عليهم ، خاصة أنها قريبة من القسطنطينية حاضرة البيزنطيين.

## جزيرة رودس:

في سنة (29هـ/ 649م )انطلقت السفن العربية الإسلامية من صيدا قاصدة

جزيرة رودس الواقعة قبالة الإسكندرية على ليلة منها ، فلما بلغت القوة العربية ساحل الجزيرة، اصطدمت بمراكب أهلها وانتصرت عليهم، ودخل المسلمون الجزيرة عنوة وغنموا شيئا كثيرا.

وفي سنة (47هـ/667م) أمر الخليفة معاوية عتبة بن عامر يقصد رودس فقصدها، ولكن هذا لم يحقق شيئا، فأعاد معاوية الكرة عليها بإرساله جنادة بن أبي أمية إليها سنة (52هـ/672م) فأحرز هذا نصرا وأنزل المسلمين فيها .[ البلاذري "1959" 237 ]

وفي سنة (59هـ/678م ) قاد جنادة بن أمية وعلقمة بن جنادة وعلقمة بن الأهتم حملة إلى رودس. ويبدو أن هذه الحملة لم تحقق شيئا، مما دفع جنادة إلى معاودة غزوها ثانية في سنة (60هـ/679م) حيث تمكن من هدم حصونها، وقفل بالمسلمين عائدا . [البلاذري "1959" 237 ]

## جزيرة صقلية:

كانت هذه الجزيرة بالغة الأهمية بالنسبة للأسطول البيزنطي، وهي واقعة في البحر المتوسط قبالة أفريقية (تونس الحالية). وكانت قاعدة انطلاق البحرية البيزنطية باتجاه السواحل العربية، وقد قدر معاوية – وهو وال على الشام- أهمية صقلية، فوجه إليها ثلاثمائة مركب بقيادة معاوية بن حديج الكندي، وخاض العرب هناك عدة وقعات انتصروا فيها بادئ الأمر، غير أن وصول إمدادات بيزنطية إلى هذه الجزيرة، دفعت العرب إلى الانسحاب منها بما غنموا.

ويتضح لنا هدف المسلمين من الحملة المذكورة أيضا برغبتهم في ضم صقلية إلى حضيرة الإسلام، وهذا ما يفهم من قول موفد المسلمين لحاكمها:"قصدناكم لندعوكم إلى ان تدخلوا في الإسلام وتأمنوا على دياركم وأموالكم، نولي عليكم رجلا منكم... فإن أبيتم الدخول في ديننا فأقبلوا عهدنا وذمتنا، وأدوا الجزية وقروا في دياركم آمنين، فإن أبيتم ما عرضناه عليكم.... فأعلموا أن ما بيننا وبينكم إلا السيف" . [ ابن اعثم "1968-1975" 141/2 ]

وتذكر الرواية التاريخية أن تلك الحملة كانت في السنة التي استشهد فيها الخليفة عثمانﷺ أي في سنة (35هـ/656م) ، [ الواقدي "1896" 156] ونستبعد قول أحد الباحثين أنها كانت في سنة (32هـ/654م ) . [ الدوري "1980"21-22 ]

ويبدو أن العرب المسلمين أعادوا الكرة على صقلية في خلافة معاوية، وتذكر بعض المصادر أن هذا الخليفة أرسل معاوية بن حديج إلى صقلية . وجاء في رواية أخرى أن عبد الله بن قيس بن مخلد الدرقي غزا صقلية فأصاب أصنام ذهب وفضة مكللة بالجوهر،

فبعث بها إلى معاوية الذي بعثها بدوره إلى البصرة لتحمل إلى الهند لتباع هناك.

ولم يكف العرب المسلمون عن مواصلة حملاتهم البحرية على جزيرة صقلية طيلة العصر الأموي، ويتجلى ذلك واضحا من خلال متابعة نشاط الأسطول العربي في أفريقية(تونس) وحملاته على صقلية عبر السنوات (85-118هـ/704-736م). [خليفة بن خياط "1967" 506/2-515]

إن هذه الحملات البحرية العربية، وإن لم تسفر عن فتح صقلية، إلا أنها أقضت مضاجع البيزنطيين فيها، واضطرت أسطولهم إلى اتخاذ موقف دفاعي على مدى قرون عدة.

### جزيرة أقريطش(كريت):

تقع هذه الجزيرة في البحر المتوسط قبالة المغرب ، وقد غزاها جنادة بن أبي أمية بأمر الخليفة معاوية، وذلك في سنة (54هـ/674م) وتكمن أهميتها في كونها قاعدة من قواعد الأسطول البيزنطي التي تهدد سواحل المغرب. ويبدو أن العرب المسلمين لم يتمكنوا منها، وهناك إشارة تفيد أنه في عهد الوليد بن عبد الملك(86-96هـ/ 705-714م) قد" فتح بعضها ثم أغلق" . [البلاذري "1959" 237]

### جزيرة سردانية:

شن العرب المسلمون عدة هجمات بحرية على هذه الجزيرة الكبيرة الواقعة في بحر المغرب ، ففي سنة (87هـ/ 706م) ، وجه موسى بن نصير ابنه عبد الله إليها على رأس حملة بحرية من بلاد المغرب، فافتتح إحدى مدنها وغنم شيئا . [ الحميري "1984"،314 ] وفي سنة (89هـ/707م ) غزا الجزيرة عبد الله بن مرة بتوجيه من موسى بن نصير فافتتح بعض مدائنها وأصاب أموالا وذهبا وفضة .

وتوالت حملات العرب المسلمين على سردانية، ففي سنة (92هـ/ 711م) ، هاجمها المسلمون في عسكر موسى بن نصير وملكوها ، إلا أن سلطان الإسلام لم يثبت فيها، بدليل تكرار الحملات البحرية عليها في السنوات: (106هـ/، 109هـ/، 114هـ/، 117هـ/، 119هـ) . [ خليفة بن خياط "1967" 490،496،507،514،517/2 ] وقد أدت هذه الحملات إلى إضعاف قوة أهلها الذين اضطروا إلى اتخاذ موقف دفاعي عن جزيرتهم.

### جزيرتا ميورقة ومنورقة:

كان موسى بن نصير قد واصل توجيه الحملات البحرية على الجزر التي تتهدد سواحل الشمال الأفريقي، ورغب أيضا في فتح ما يمكن فتحه منها، فالتفت إلى جزيرتي ميورقة ومنورقة الواقعتين بين صقلية والأندلس، ووجه إليهما ابنه عبد الله في سنة (98هـ/ 708م) ، فاستطاع هذا أن يفتحهما في الغزوة المعروفة بـ(غزوة

الأشراف) لإسهام أشراف الناس فيها . [خليفة بن خياط "1967" 400/1 ]

وبعد أن عرضنا بإيجاز إلى فتح العرب لأهم الجزر المذكورة – وهي من جزر البحر المتوسط – فإنما قصدنا بها إظهار المقدرة الرائعة للبحرية العربية الإسلامية في إضعاف البيزنطيين والتضييق عليهم ودفع أخطارهم التي تهدد السواحل العربية الإسلامية.

## دور الأسطول العربي الإسلامي في حصار القسطنطينية:

### الحصار الأول(54-60هـ/ 673-679م):

ما كاد يستقر أمر الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان في سنة (41هـ/ 661م) حتى عقد هدنة مع الروم البيزنطيين، ولكن لم تمضِ سنة أي في سنة (42هـ/662م ) حتى اطمأن معاوية إلى توطيد أركان خلافته، فعمدَ إلى إلغاء المعاهدة، وحث العرب على مجاهدة الروم البيزنطيين وأوصاهم قائلا:" أن شدوا خناق الروم فإنكم تضبطون بذلك غيرهم من الأمم" [ خليفة بن خياط "1967" 280/1] لذا كان للأسطول الإسلامي نصيب كبير في هذا الجهاد، حتى طال القسطنطينية وحاصرها أكثر من مرة خلال العصر الأموي.

مهد معاوية للحروب التي خاضتها قواته البحرية والبرية حول القسطنطينية فيما بين عامي(54- 60هـ/673-679م) بحملات استطلاعية برية وبحرية متتابعة بقصد دراسة الطرق المؤدية إليها، نذكر من بينها شاتية بسر ابن أبي أرطأة بأرض الروم في سنة (43هـ/ 663م) التي بلغ فيها القسطنطينية، وفقا لما رواه الواقدي، وإن كان بعض المؤرخين قد طعنوا في صحة هذا التاريخ ، وهناك حملة بسر البحرية في سنة (44هـ/ 664م) وشاتية مالك بن عبد الله بأرض الروم في سنة (46هـ/ 666م) وشاتية مالك بن هبيرة السكوني بأرض الروم في سنة (47هـ/ 667م ) وصائفة عبد الله بن قيس الفزاري بحرا، وغزوة مالك بن هبيرة بحرا، وغزوة عقبة بن عامر الجهني في البحر سنة ( 48هـ/667م ).

وفي سنة (49هـ/668م) أرسل معاوية حملة برية نحو القسطنطينية بقيادة ابنه يزيد، فأوغلت الحملة في بلاد الروم حتى بلغت الحاضرة البيزنطية وحاصرتها بمساندة سفن الأسطول الإسلامي، وتحصن البيزنطيون في عاصمتهم واحتموا بأسوارها المنيعة . [الطبري "1960-1969" 130/6 ] وفي أثناء مدة الحصار التي استمرت من الربيع إلى الصيف في العام نفسه، أغار المسلمون على تراقية. ثم أثروا الانسحاب دون خسائر كبيرة، والجدير بالذكر أن الصحابي الجليل (أبا أيوب الأنصاري) استشهد في هذه الحملة ودفن إلى جانب أحد أسوارها. ومع أن هذا الحصار لم

يسفر بالنتيجة عن فتح القسطنطينية لمناعة أسوارها. واستخدام البيزنطيين النار الإغريقية التي لا يطفئها الماء وإلقائها على السفن العربية، إلا أنه دلّ على تهديد العرب المسلمين للعاصمة البيزنطية وإنزالها من عليائها.

وظل المسلمون يهاجمون الأراضي البيزنطية صيفاً وشتاءً في البر والبحر، حتى استولى الأسطول الإسلامي على أزمير وليليكا، كما استولى على جزر رودس وكوس وخيوس.

وفي سنة (54هـ/ 674م) بدأ الحصار الفعلي للقسطنطينية، واستدعى الأمر تعزيز القوة البحرية، فانضم إلى الأسطول الإسلامي المرابط في مياه القسطنطينية أسطول إسلامي بقيادة جنادة بن أبي أمية، الذي استولى على جزيرة أرواد القريبة من القسطنطينية [ الطبري "1960-1969" 164/3] ، فاتخذها المسلمون قاعدة بحرية متقدمة لإمداد الجيش المحاصر للعاصمة البيزنطية بالميرة والسلاح والرجال، ولقطع الطريق على سفن العدو.

وقد أحكم المسلمون الحصار البري والبحري طوال العام المذكور، الذي اشتبكت خلاله سفن بيزنطية مع السفن الإسلامية، كما استمرت المعارك البرية تدور مع البيزنطيين، ثم اضطر المسلمون إلى فك الحصار عن القسطنطينية عندما حل الشتاء، وأقام المسلمون في أرواد انتظارا لحلول الربيع لكي يستأنفوا عملياتهم الحربية، فلما حل الربيع تابعوا حصار القسطنطينية على مدى سبع سنوات أي حتى سنة (60هـ/679م) .

والواقع أن المسلمين أبدوا خلال تلك الحقبة شيئاً كثيرا من ضروب البسالة والإقدام، على الرغم من توسل البيزنطيين في الدفاع بوسائل كيميائية ومنها(النار الإغريقية). التي تسببت في حرق عدد كبير من قطع الأسطول الإسلامي، وأدرك معاوية في أخر أيامه أن لا جدوى من الاستمرار في محاصرة القسطنطينية، لهذا عقد مع الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الرابع معاهدة صلح في سنة (60هـ/ 679م) وأمدها ثلاثون عاما.

## الحصار الثاني للقسطنطينية (98-99هـ/717-718م):

لم يثبط الفشل الذي أصاب محاولة الخليفة معاوية في فتح القسطنطينية همم الخلفاء الأمويين من بعده في معاودة الكرة، و لم يقض على آمالهم في محاولة فتحها من جديد، ولكن هذا الأمر يتطلب دراسة وافية وإعدادات مسبقة، و استعدادات كاملة.

بدأ التأهب للحصار الثاني منذ بداية عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك(86-96هـ/705-715م) الذي تابع سياسة

تقوية الأسطول الإسلامي، وعمل على تنسيق التعاون بين القوتين البرية والبحرية. كما اتخذ من منطقة الثغور المحادة لبلاد الروم مجالا لتدريبات قواته. وفي سنة (94هـ/ 713م) شرع بإعداد حملة بحرية وبرية بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك، وما إن ترامت أخبار هذه الاستعدادات إلى البيزنطيين حتى راحوا يهتمون بتدعيم وسائل الدفاع البحري عن القسطنطينية، كما عنوا بتقوية الدفاع تحسبا لحصار قد يطول أمده، مثل ما حدث في الحصار الأول، ولكن وفاة الخليفة الوليد في سنة (96هـ/715م) أدت إلى إرجاء إنفاذ الحملة إلى مقصدها . [ خليفة بن خياط "1967" 413/1 ]

ولما تسنم سليمان بن عبد الملك الخلافة إثر وفاة الوليد، أخذ يجهز الجيوش لقصد القسطنطينية، ومهد لذلك بحملة بحرية بقيادة عمر بن هبيرة الفزاري على بلاد الروم في سنة (97هـ/ 716م) [ ابن الأثير "1965"26/5] ، وفي العام التالي حشد سليمان قوات كثيفة برية وبحرية جهزها بمقادير هائلة من المؤن والأقوات والسلاح استعدادا لحرب طويلة الأمد، وأسند قيادة الحملة إلى أخيه مسلمة، و أمره أن يتوجه إلى القسطنطينية وأن يقيم عليها حتى يفتحها أو يأتيه أمره . [ الطبري "1960-1969" 530/6]

وعندما سير الخليفة سليمان هذه الحملة أقام نفسه في مرج دابق على بعد أربعة فراسخ من دمشق(حوالي 22 كيلو متراً) وأعطى الله عهدا أن لا ينصرف حتى يدخل الجيش الذي وجهه إلى القسطنطينية.

وذكر أن مسلمة لمّا توغل في بلاد الروم هابه البيزنطيون، فاتصل به قائد أرمني أسمه (أليون) وكان هذا يتطلع إلى الظفر بالعرش الإمبراطوري ويدبر أمره لانتزاعه من ثيودوسيوس الثالث (الذي ولاه الجند في سنة 97هـ/ 716م ) بعد أن عزلوا أنستاسيوس الثاني) فاتفق أليون مع مسلمة على خطة تتيح للمسلمين فتح القسطنطينية، ولكنه ما كاد يصل إليها حتى غرر بهم وخدعهم بعد أن تحايل على تجريدهم من كل أقواتهم ، وتشير المصادر إلى أن أليون الأرمني الذي أعتلى العرش باسم ليوالثالث الأيسوري دخل القسطنطينية حيث توج إمبراطورا في مارس (98هـ / 717م ).

أما مسلمة فقد تابع سيره حتى وصل إلى مشارف القسطنطينية في أواخر سنة (98هـ/ 717م) ، وكان تحت قيادته ثمانون ألف مقاتل، سوى ما اجتمع للعرب تحت أسوار العاصمة في البر والبحر. وتمكن من محاصرة القسطنطينية برا وبحرا، ونصب عليها المجانيق، ولكن أسوارها المنيعة، وقوة الدفاع البيزنطي، وفعالية النار الإغريقية،

حالت دون اقتحام المسلمين لها على الرغم من هجماتهم القوية عليها، وحفر حول معسكره حفيرا عميقا، وأنتسف المزارع القريبة، ومنع الأقوات من التسرب إلى داخلها.

لقد أسهم الأسطول الإسلامي بدور فعال بإحكام الحصار على العاصمة البيزنطية في هذه الحملة، وتشير الروايات البيزنطية إلى أن قطع الأسطول الإسلامي بلغت ألف وثمانمائة سفينة، كان يتولى قيادتها قائد يقال له سليمان [الطبري "1960-1969" 456/6]، ولعله سليمان بن معاذ الأنطاكي أحد قادة الحملة.

لقد تمكن الأسطول الإسلامي الضخم من إغلاق الممرات المؤدية إلى البحر الأسود، ولكن عاصفة عاتية حطمت عددا من سفنه، وسببت خللا في مهمته، فانتهز البيزنطيون هذه الفرصة وسلطوا نيرانهم الإغريقية على السفن الإسلامية، فأحرقوا عددا كبيرا منها واستمر المسلمون بالرغم من ذلك يحكمون الحصار على القسطنطينية طوال السنة (98هـ/ 717م) إلى أن توفي الخليفة سليمان بن عبد الملك في العاشر من صفر سنة (99هـ/718م )، وهنا حل الشتاء ببرده وثلجه، فنفذت أقوات المسلمين، فتحملوا الجوع والمرض، كما توفي سليمان قائد الأسطول، فسببت وفاته اضطرابا في صفوف البحريين، وحل الضيق بمعسكر المسلمين حتى أكل الجند الدواب والجلود وأصول الشجر والورق وكل شيء غير التراب . [ الطبري "1960-1969" 531/6 ] وظل الأمر كذلك إلى أن كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى مسلمة يأمره بالعودة بمن معه من المسلمين، ووجه إليه خيلا عتاقا وطعاما كثيرا، وحث الناس على معونتهم . [الطبري 553/6]

وإزاء هذه الحال، عادت الحملة إلى قواعدها في الشام من غير أن تحقق هدفها هذه المرة أيضا في فتح القسطنطينية، ومع ذلك فإنها حققت هدفا بعيدا بتوجيه ضربة شديدة إلى الحاضرة البيزنطية، وأشعرت أعداءهم البيزنطيين أن بإمكان العرب المسلمين أن يطالوهم ويبعدوا خطرهم الذي يتهدد الدولة العربية الإسلامية برا وبحرا، وفي هذا الدلالة الأكيدة على قدرة العرب الفائقة في مجابهة الإمبراطورية البيزنطية، بل إنزال الضربات الشديدة بها وهي في عقر دارها.

**أ.د . محمود عبد العزيز سالم**

**أ .د . نافع توفيق العبود**

## المصادر والمراجع:

القران الكريم

ابن ألأثير، عز الدين علي بن محمد الشيباني(ت630هـ/1232م):

(1966) أسد الغابة في معرفة الصحابة، اعتنى بتصحيحه الشيخ أحمد الرفاعي، بيروت ، دار إحياء التراث العربي.

(1965) الكامل في التاريخ,بيروت، دار بيروت ، دار صادر.

ابن أعثم الكوفي، محمد بن أحمد (ت314هـ /926م):

(1968-1975) الفتوح، تحقيق محمد عبد العظيم ،حيدر آباد الدكن.

ابن جعفر، قدامة (ت337هـ/948م):

(1981) الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق الدكتور محمد حسين الزبيدي، بغداد ، دار الرشيد.

ابن حبان البستي، محمد (ت 354هـ/ 965م):

(1978) الثقات، حيدر آباد الدكن.

ابن الخطيب، لسان الدين محمد (ت 776هـ / 1374 م):

(1964) أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الأحتلام، القسم الثالث، تحقيق محمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكناني، الدار البيضاء .

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد(ت 808هـ/ 1405م):

(د.ت) مقدمة أبن خلدون ، القاهرة ، المكتبة التجارية .

خليفة بن خياط العصفري (ت240هـ/854م):

(1967) تاريخ خليفة بن خياط ،مطابع وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي .

ابن سلام، أبو عبيد القاسم(ت224هـ/ 845م):

(1975) الأموال، تحقيق وتعليق محمد خليل الهراس، ط2 ، القاهرة ، دار الفكر .

أبن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت257هـ/ 870م):

(1922) فتوح مصر وأخبارها، نشر جارلس توري ، نيوهفن .

ابن عبد ربه الأندلسي، أحمد بن محمد(ت328هـ/ 939م):

(1965) العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

ابن الفقيه الهمداني، أحمد بن محمد( ت حوالي 289هـ/ 902م):

(1866) مختصر كتاب البلدان ليدن.

ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت276هـ/ 887م).

(1963) الإمامة والسياسة (منسوب له) ط3 ، القاهرة ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت 711هـ/ 1311م):

(1965) لسان العرب، بيروت .

ابن النديم، محمد بن أحمد بن إسحاق(ت 380هـ/990م):

(1978)الفهرست ، بيروت ، نشر دار المعرفة .

أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل(ت395هـ/ 1004م):

(1966) الأوائل، تحقيق محمد السيد الوكيل، طنجة ، دار أمل .

الأوسي الأنصاري، عمر بن إبراهيم (ت814هـ/1411م):

(1961) تفريج الكروب في تدبير الحروب، تحقيق جورج سكانلون ، القاهرة ، مطابع دار المعارف .

البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت 487هـ/1094م):

(1857) المغرب في ذكر أخبار أفريقية والمغرب، الجزائر ، نشر دي سلان .

البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت279هـ/ 892م):

( 1959) فتوح البلدان مراجعة وتعليق رضوان محمد رضوان، القاهرة ، مطبعة السعادة .

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر(ت 255هـ/ 869م):

(1975)البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، ط4 ، القاهرة ، مكتبة الخانجي .

الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت حوالي 866هـ/ 1461م):

( 1984) الروض المعطار في خبر الأقطار، بيروت .

الشريف الإدريسي، محمد بن عبد الله(ت 560هـ/ 1164م):

(1893) نزهة المشتاق في إختراق الأفاق، نشره دوزي ودي غوية، ليدن.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير(ت310هـ/ 922م):

(1960-1969) تاريخ الرسل والملوك تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2 ، مصر،دار المعارف .

الطرطوسي، مرضي بن علي (ت 589 هـ / 1189 م):

(1938) تبصرة أرباب الألباء في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء ، بيروت .

الكندي ، محمد بن يوسف (ت 350 هـ / 961 م):

(1908) كتاب الولاة وكتاب القضاة ، تصحيح رفن كست ، بيروت ،مطبعة الآباء اليسوعيين .

المبرد، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر (ت 285 هـ / 898 م):

(1956) الكامل في اللغة والأدب ، نشر محمد ابو الفضل إبراهيم والسيد شحاته ، القاهرة ، مطبعة نهضة مصر.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 733 هـ / 1332 م):

(1955) نهاية الارب في فنون الادب ، القاهرة ، (نسخة مصورة عن مطبعة دار الكلتب المصرية) .

الهرثمي، ابو سعيد الشعراني (من اهل القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي):

(د.ت) مختصر سياسة الحروب ، تحقيق عبد الرؤوف عون (المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والنشر.

الواقدي ، محمد بن عمر (ت 207 هـ / 822م):

(1896) فتوح الاسلام لبلاد العجم وخراسان ، القاهرة .

ياقوت الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله (ت 626 هـ / 1228 م):

(1957) معجم البلدان ،بيروت ، دار صادر ، دار بيروت .

## المراجع العربية

أحمد، لبيد إبراهيم وآخرين:

(1992) تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر الأموي، دار الكتب للطباعة، جامعة الموصل.

الجنابي، خالد جاسم:

(1986) تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي، ط2 ، بغداد ، دار الحرية للطباعة .

حسن، ناجي:

(1980) القبائل العربية في المشرق خلال العصر الأموي، ط1، بيروت.

الدوري، تقي الدين عارف :

(1980) صقلية وعلاقاتها بدول البحر المتوسط ، بيروت .

الدوري، عبد العزيز:

(1988) النظم الإسلامية ، جامعة الموصل، مطابع دار الكتب .

زكي، عبد الرحمن:

(1956) السلاح في الإسلام، القاهرة.

(1957) السيف في العالم الإسلامي ، القاهرة .

سالم، السيد عبد العزيز :

(2000) تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس، الإسكندرية.

(د.ت) تاريخ مدينة المرية قاعدة أسطول الأندلس،الإسكندرية .

سالم، عبد العزيز السيد وأحمد مختار ألعبادي:
(1981) تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط، الإسكندرية،مؤسسة شباب الجامعة.

السامر، فيصل :
(1977) الأصول التاريخية للحضارة العربية الإسلامية في الشرق الأقصى، ط1، بغداد .

الصالح، صبحي :
(1965) النظم الإسلامية نشأها وتطورها، ط1 ، بيروت ،دار العلم للملايين .

العبود ، نافع توفيق
(1979) آل المهلب ابي صفرة في التاريخ حتى منتصف القرن الرابع الهجري ، بغداد ، مطبعة الجامعة.

عثمان ، فتحي:
(1966) الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري ، مصر، الدار القومية للطباعة والنشر .

العلي، صالح احمد :
(1953) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري بغداد ، مطبعة المعارف.

عنان، محمد عبد الله:
(1934) مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ، القاهرة .

عون، عبد الرؤوف:
(1961) الفن الحربي في صدر الإسلام، القاهرة ،دار المعارف .

كرد علي ، محمد:
(1954) رسائل البلغاء ،ط4 ، القاهرة ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر .

لوكاس ، ألفرد:
(1945) المواد والصناعات عند قدماء المصريين، ترجمة الدكتور زكي إسكندر ، القاهرة .

## المراجع الأجنبية :

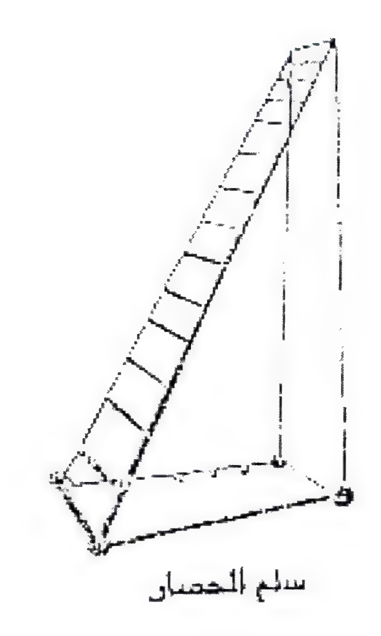
Canard,
(1926) les expeditions Arabes contre constaintinople dans histoire et dans la legende .(J.A.).

Diehl,
(1877)Le monde Oriental,p.241.Finlay,
History of the Byzantin Empire, oxford,.

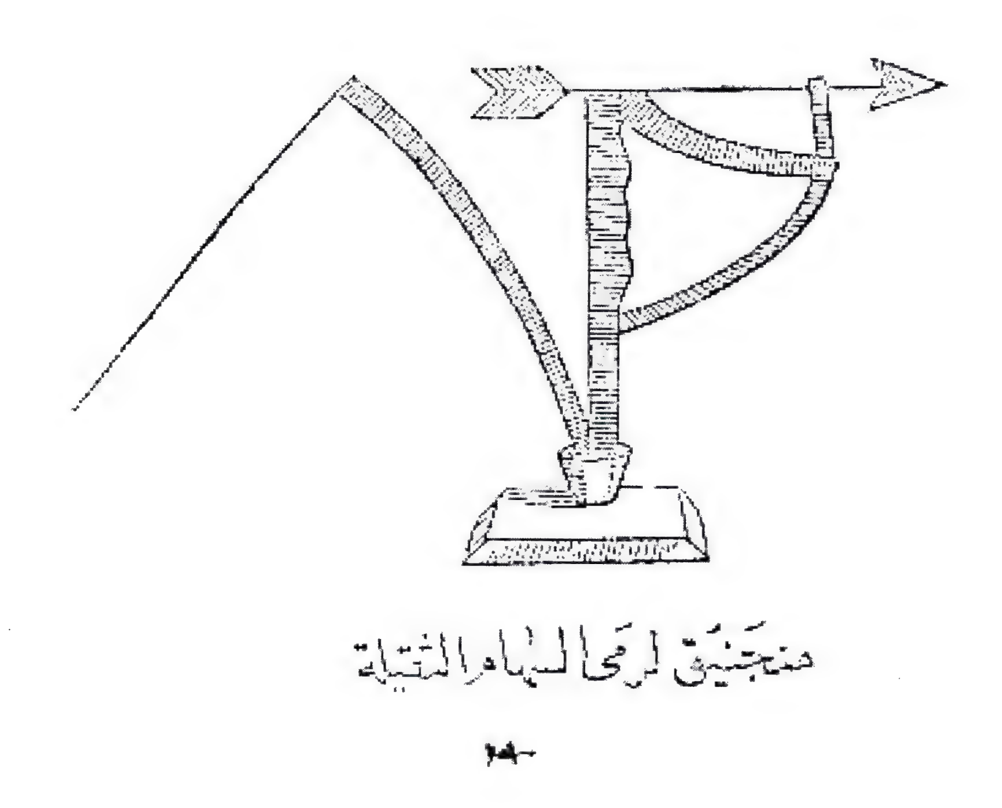
Ostrgorsky,
(1962)History of the Byzantin state,oxford..

Westostliche Abhandlungen R. Tschudi, Wiesbaden, p. 154- 174.

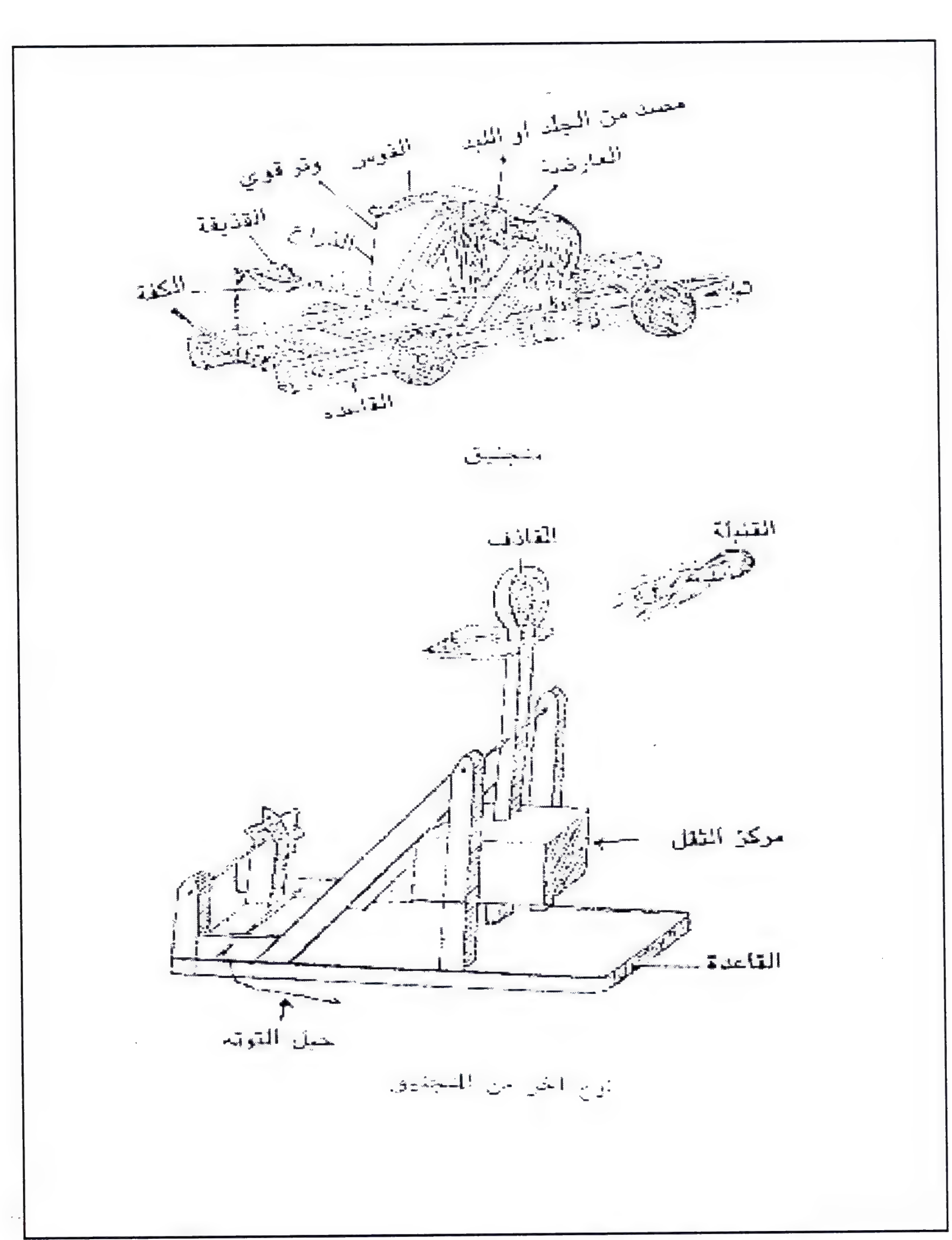
SAKLI Mondher,
(2000)Kairouan in Grandes villes méditerranéennes du Monde *Musulman* Médiéval, *Ecole française de Rome, p.57-85.*



سلم الحصار



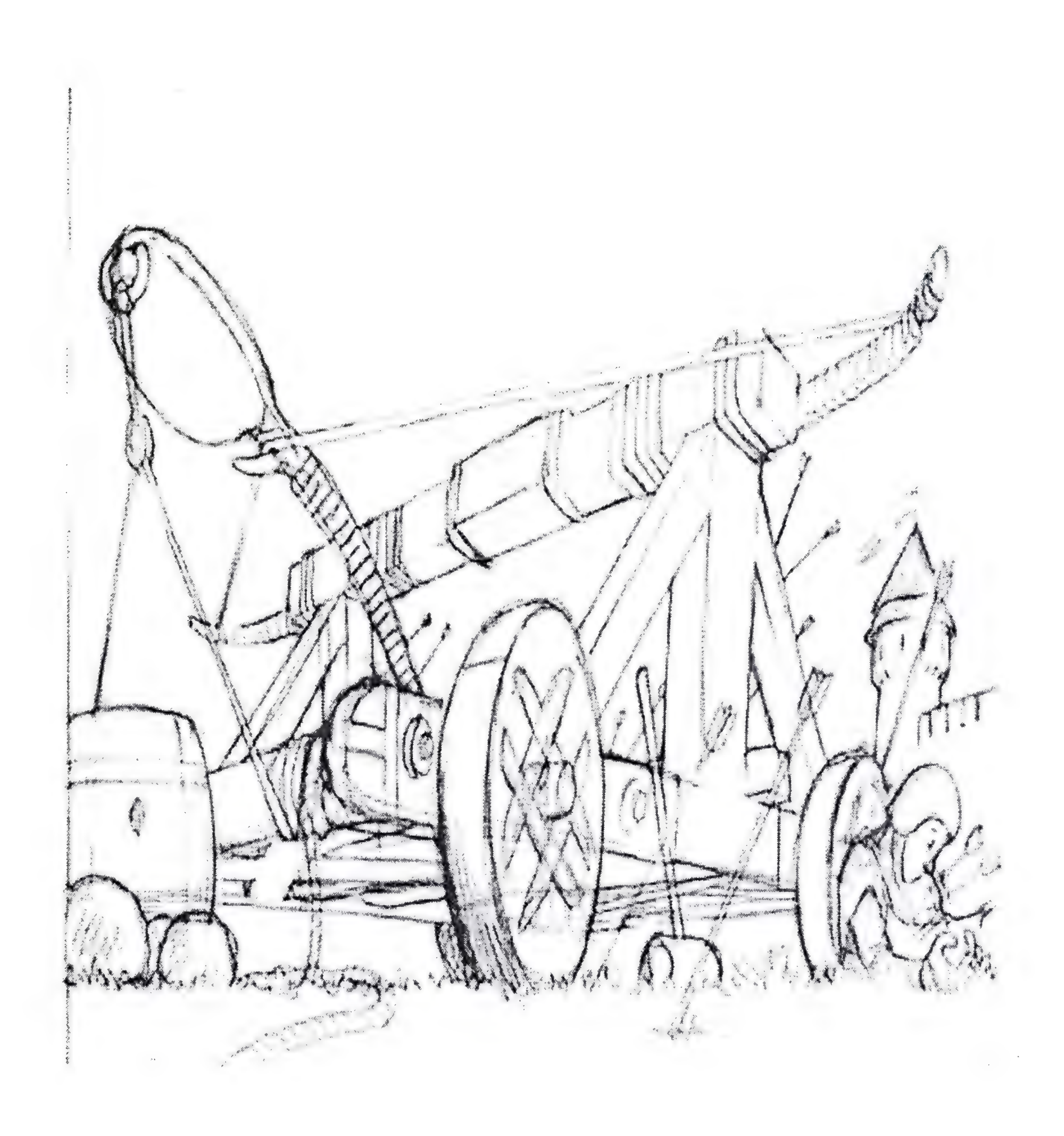
منجنيق لرمي السهام الثقيلة



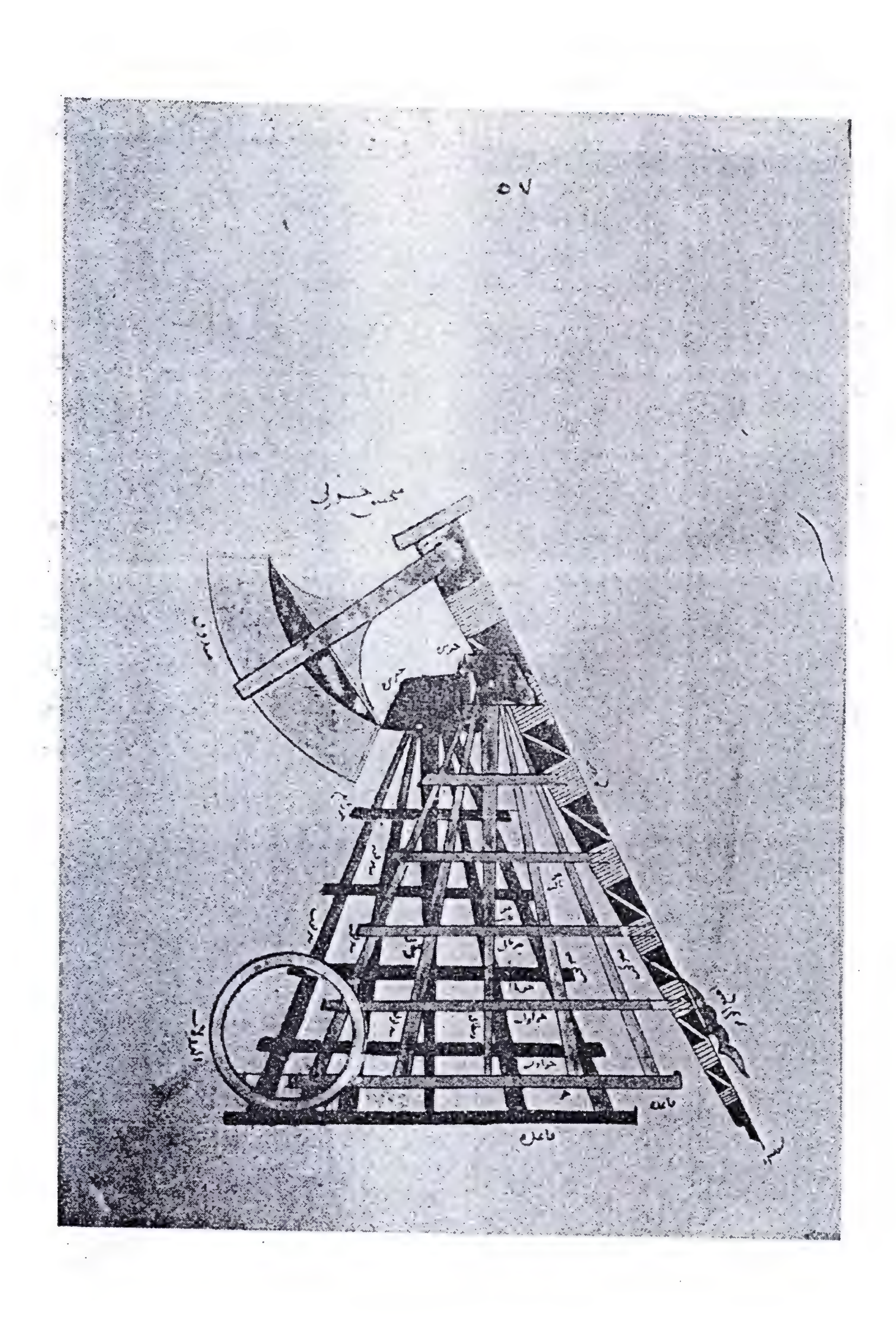

منجنيق

نوع آخر من المنجنيق

المصدر : الدكتور فارق عمر فوزي وآخرين / النظم الإسلامية / بغداد **1984**

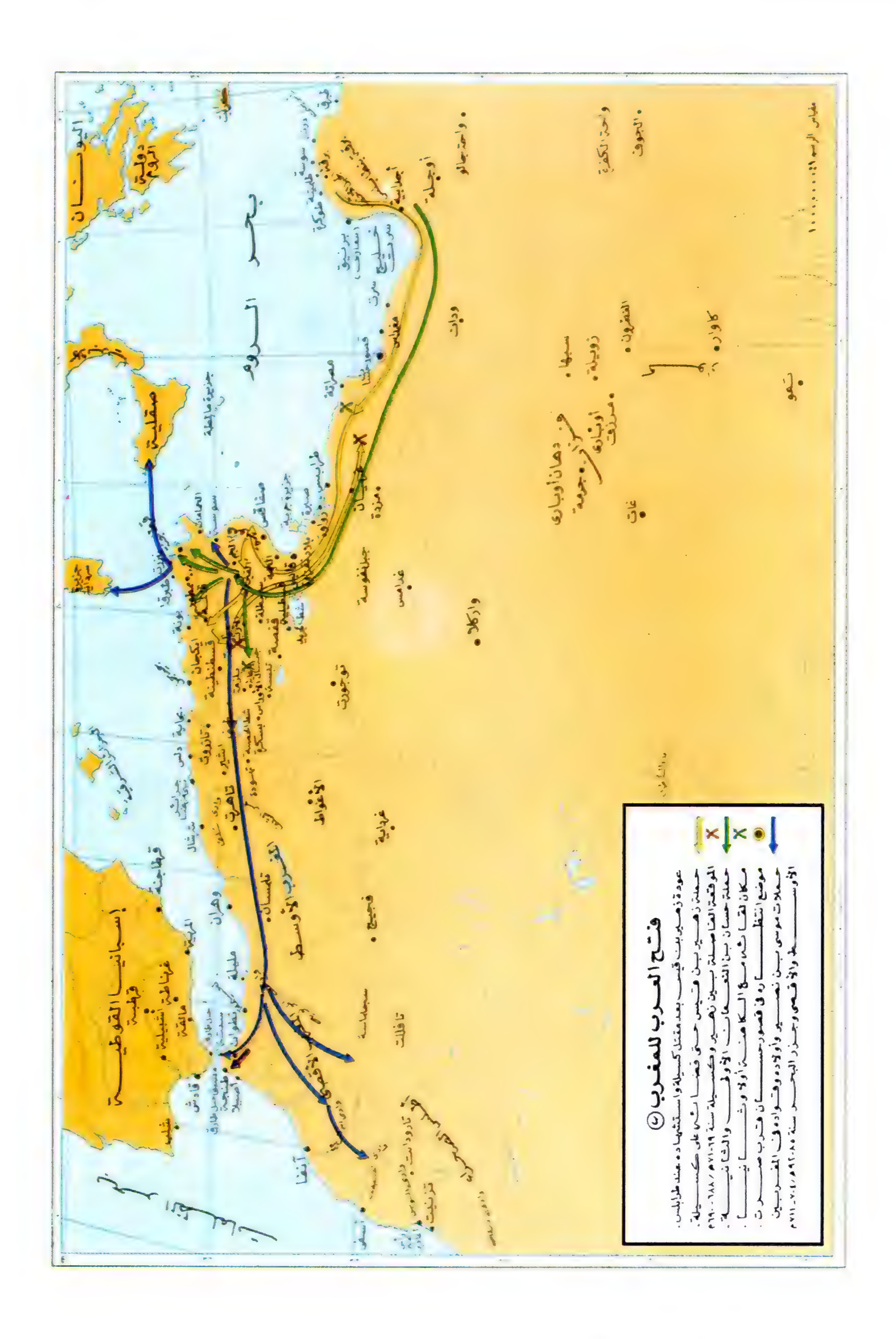


رسم للمنجانيق الإسلامي

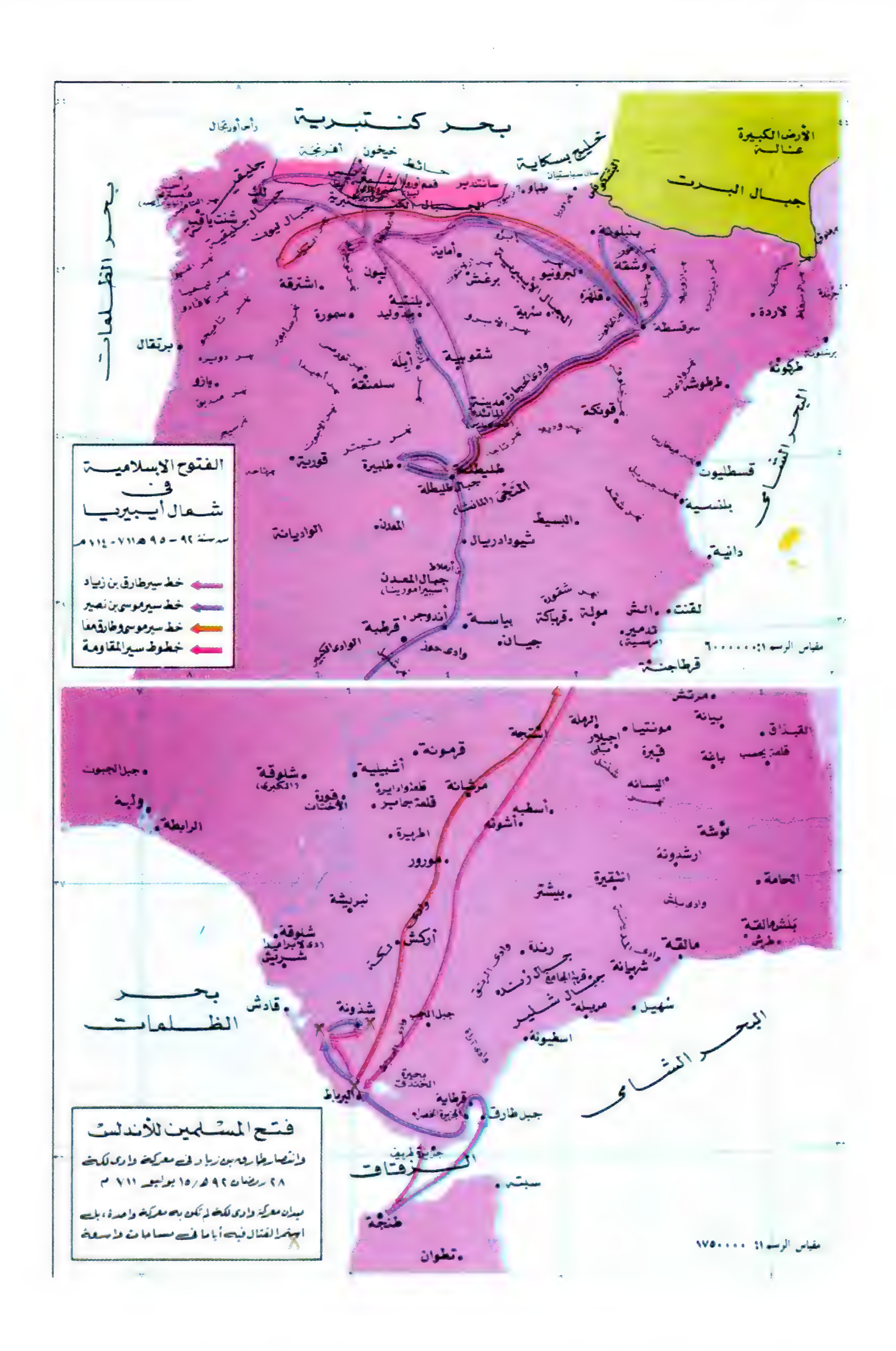


منجانيق حربي جاهز للرمي

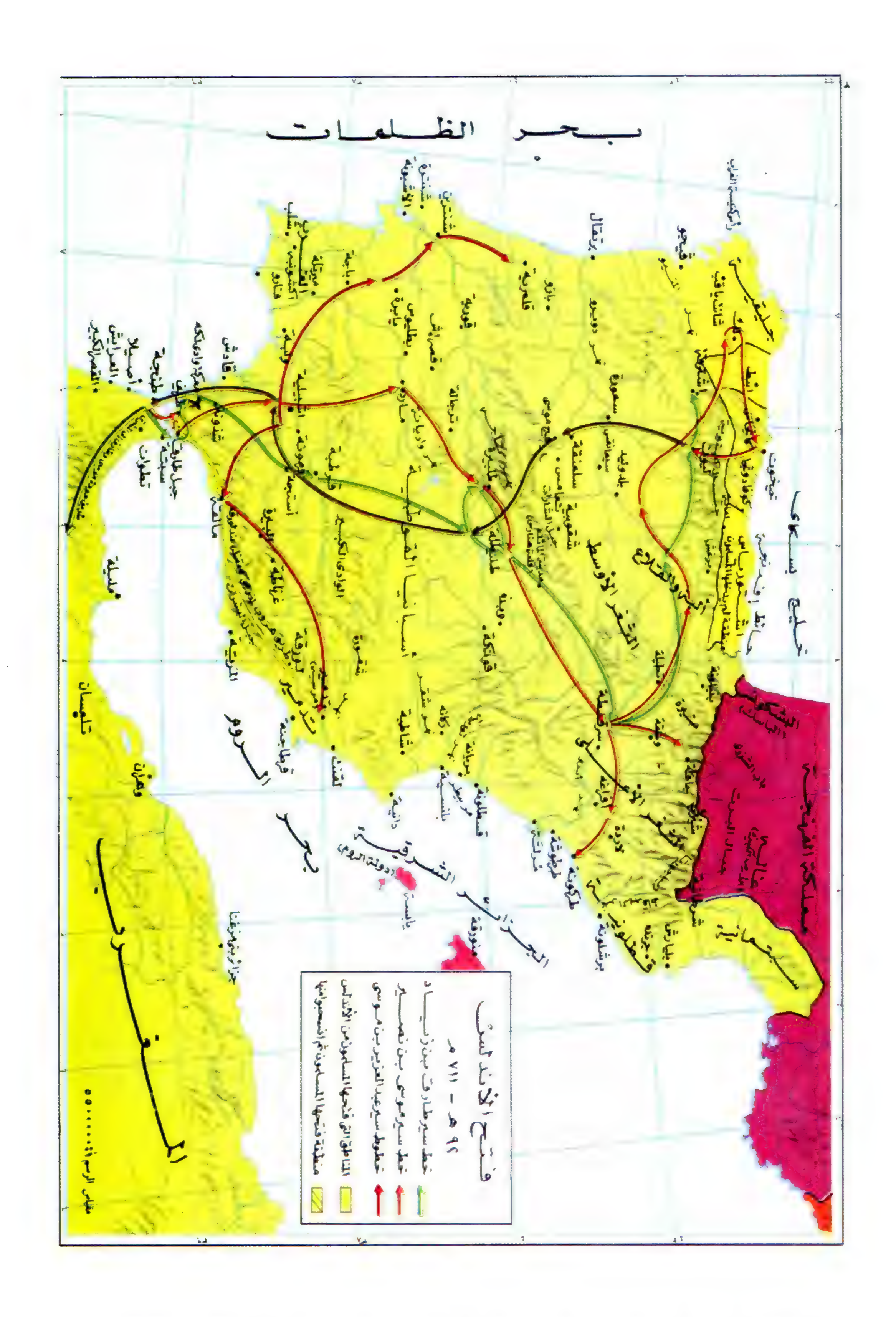
**المصدر : أطلس تاريخ الإسلام ـ د . حسين مؤنس مطبعة الزهراء ـ القاهرة 1984**




**المصدر : أطلس تاريخ الإسلام - د . حسين مؤنس مطبعة الزهراء - القاهرة 1984**

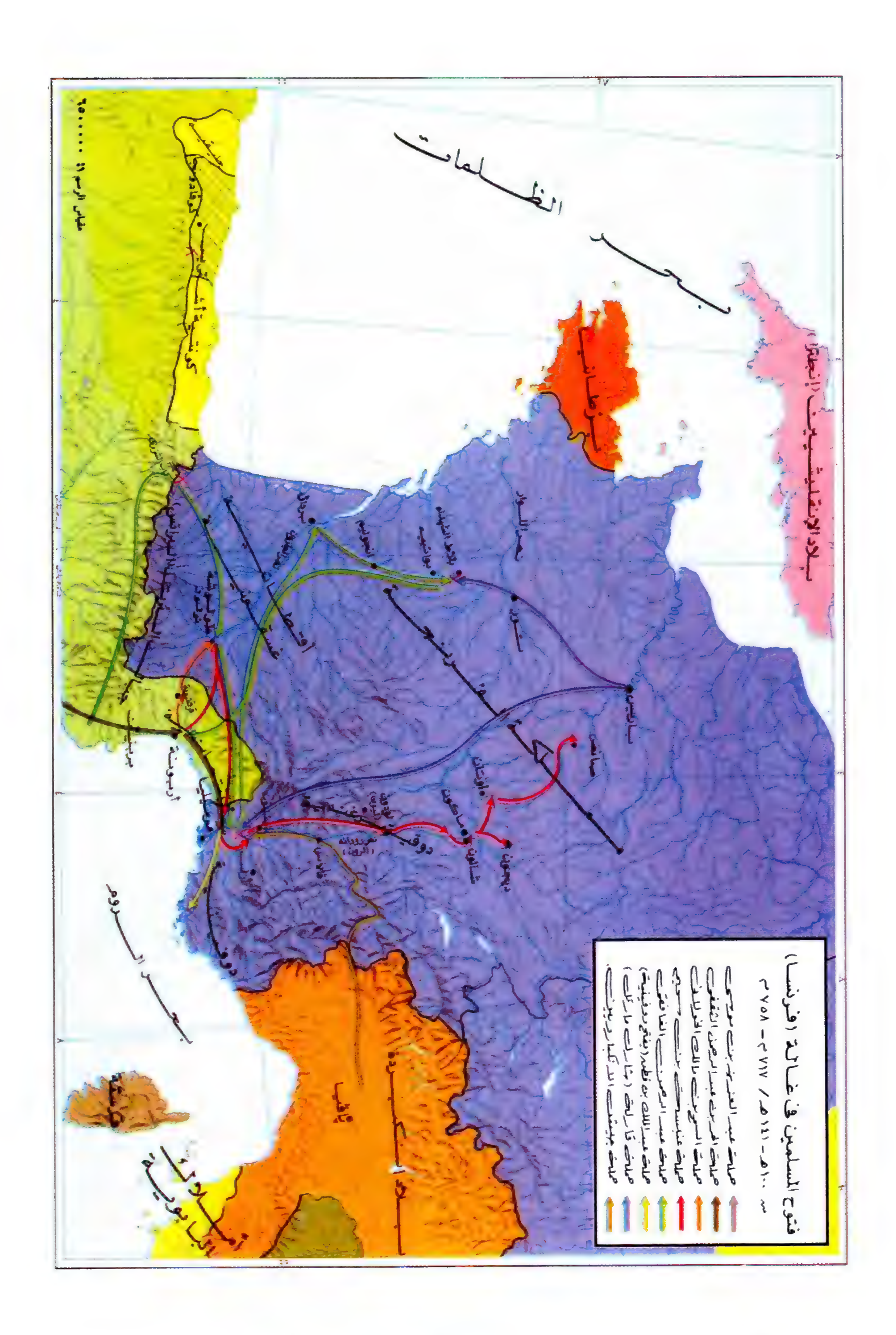



**المصدر** : أطلس تاريخ الإسلام ـ د . حسين مؤنس مطبعة الزهراء ـ القاهرة 1984




**المصدر : أطلس تاريخ الإسلام ـ د . حسين مؤنس مطبعة الزهراء ـ القاهرة 1984**

المصدر : أطلس تاريخ الإسلام ـ د . حسين مؤنس مطبعة الزهراء ـ القاهرة 1984




**المصدر** : **أطلس تاريخ الإسلام ـ د . حسين مؤنس مطبعة الزهراء ـ القاهرة 1984**










COL ΔAM AS METR



أجناد الشام
في العصر الأموي

مقياس الرسم ١ : ٣٠٠٠٠٠٠

**المصدر : أطلس تاريخ الإسلام - د . حسين مؤنس مطبعة الزهراء - القاهرة 1984**

## الفصل الخامس

# التحولات السياسية والاجتماعية والاقتصادية

أولاً : الدعوات السياسية والمذهبية والقبلية

ثانياً : طبقات المجتمع .

ثالثاً :العلاقات الخارجية

رابعاً : الأمويون والحجاز .

خامساً : الزراعة والتجارة .

سادساً : الحرف والصناعات

## الدعوات السياسية والمذهبية والقبلية

من المعروف أن الحياة السياسية عند العرب قبيل ظهور الإسلام كانت تقوم على أساس العصبية القبلية ، وانقسام العرب إلى قبائل متحالفة أو متصارعة ء بحسب توافق المصالح بينها أو تضاربها.

وقد سعى رسول الله محمد بن عبد اللهﷺ إلى توحيد هذه القبائل في ((أمة واحدة من دون الناس )). وقد أوضحت بنود الصحيفة التي أعلنها بعيد هجرته إلى المدينة لتنظيم العلاقات الدستورية بينه وبين سكان المدينة من الأوس ، والخزرج ، وقريش ، واليهود ، أن هذه الأمة تقوم على أساس الإيمان بالإسلام أو الولاء السياسي له ، فكل من آمن بالإسلام ووافق على الالتزام بأحكامه فهو من أبناء هذه الأمة ، وكل من منح ولاءه السياسي لهذه الأمة وارتضى العيش في ظل أحكام الإسلام يعد من أفراد هذه الأمة حتى لو لم يعتنق الإسلام . لذا فقد ضمنت الصحيفة ليهود المدينة حرية العقيدة من خلال النص على أن ((لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم )) ، كما ضمنت لهم الحماية والمساواة في المعاملة ، فنصت على أنه ((من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصر عليهم ) . [ ابن هشام "1955" 1/501-503 ].

ويلاحظ أن الصحيفة لم تحاول إلغاء النظام القبلي الذي كان يعيش الناس في إطاره منذ زمن بعيد ، بل إنها اعترفت به أساساً (تنظيمياً ) تقوم عليه التزامات الأفراد الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي أقرها الإسلام . كما تولت الصحيفة تعديل وتشذيب بعض المفاهيم القبلية لتتفق مع فكرة الأمة الواحدة كإلغاء العصبية القبلية وعادة أخذ الثأر. وهكذا أصبحت القبائل وحدات اجتماعية في داخل الأمة . [ السيد "1914" 54 ]

لقد غدت هذه الأسس مبادئ عامة في الدولة الإسلامية على الرغم من خرق بعض الأطراف لها في العمل السياسي، فلم يتخل الرسول ﷺ عن ضمان حرية العقيدة لأهل الكتاب حتى بعد أن نقض اليهود عهودهم معه مما اضطره لمعاقبتهم وإجلائهم عن المدينة . كما واصل المسلمون رعايتهم واحترامهم للانتماء القبلي والروابط القبلية حتى بعد أن استخدمت العصبية القبلية في حركات الردة ، وإذكاء الفتنة والانقسام في المجتمع الإسلامي .[ الطبري "1967" 3/185-297 ]

يتضح مما تقدم أن ((الأمة الواحدة )) كما نظمتها الصحيفة التي أعلنها الرسول ﷺ في المدينة قد مثلت الصيغة التي توازن بين المثل العليا التي جاء بها الإسلام على المستوى السياسي والاجتماعي والديني وبين المقتضيات التي يتطلبها الواقع الذي يعيش العرب في إطاره على المستوى القبلي والديني. ومن ثم ، فقد أصبحت ((الأمة – الدولة )) كياناً سياسياً مفتوحاً لانضمام كل الأفراد والقبائل والملل التي ترتضي العيش في

داخله . وبذلك أفسحت مجال النمو ((دولة – المدينة )) في يثرب لتتوسع ، وتتحول إلى دولة كبرى تضم معظم القبائل العربية في أواخر حياة الرسول ﷺ ، ثم لتتسع عن طريق الدعوة والفتوح لتصبح في عهد الخلفاء الراشدين والعهد الأموي دولة عالمية تضم شعوباً وقبائل وأدياناً متنوعة تعيش جميعاً في إطار النظام الإسلامي .

وقد واجهت هذه الدولة تحدياً خطيراً في حياتها وهي تودع رئيسها ومؤسسها محمد رسول الله ﷺ وهو ينتقل إلى الملأ الأعلى من دون أن يوضح لها توضيحاً لا يحتمل التأويل من سيخلفه في رئاسة الدولة . وهذا أمر قد أثار كثيراً من الخلاف والجدل، مما يستدعي التوقف عنده لدراسة أسبابه والإشارة إلى الآثار التي ترتبت عليه لاسيما ما يتصل منها بظهور الدعوات السياسية والمذهبية والقبلية .

## مسألة الخلافة وظهور التيارات والأحزاب السياسية في الدولة الإسلامية :

ظهرت الخلافة في الدولة الإسلامية بعد وفاة الرسول ﷺ مباشرة منصباً سياسياً لمن يخلف الرسول ﷺ في إدارة الشؤون العامة لأمته .

وقد تم ذلك في اجتماع سقيفة بني ساعدة ، وبنو ساعدة هي إحدى عشائر الخزرج من الأنصار. وقد دعا زعيمها سعد بن عبادة إلى هذا الاجتماع للنظر في أمر اختياره لتولي خلافة الرسول ﷺ في قيادة الدولة بحجة أن الأنصار أحق بهذا الأمر من المهاجرين لأنهم أهل المدينة وأنصار الإسلام ، وأنهم ((أهل العز والثروة ، وأولو العدد والمنعة والتجربة )) . [الطبري "1967" 220/3 ]

إن هذا الموقف السياسي الذي اتخذه الأنصار بعد وفاة الرسول ﷺ مباشرة يدل على أن الرسول ﷺ كان قد ترك أمر طريقة تداول السلطات السياسية في الدولة الإسلامية لاجتهاد المسلمين ، يقررونها على وفق ما تقضي به مصلحتهم وتقاليدهم في هذا المجال .

ويبدو أن السبب الذي دعا الرسول ﷺ إلى ترك مسألة الخلافة لاختيار المسلمين واجتهادهم هو أنه ﷺ ، لم يتسلم سلطته السياسية بصفته الشخصية ، وإنما تسلمها بصفته ((رسول الله )) يتنزل عليه الوحي من السماء بأوامر الله ونواهيه ويطيعه المسلمون لأنه ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى(3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾. [ سورة النجم ، الآيتان: 3-4 ]

ولما كانت صيغة الرسالة أو النبوة لا تورث ، فإن السلطة السياسية المنبثقة عنها هي أيضاً غير قابلة للوراثة أو التصرف وتعود بوفاة صاحبها إلى أصحابها الأصليين وهم أبناء الأمة ليختاروا من يولونه أمورهم السياسية طبقاً لما استقر في مجتمعهم من عرف وتقاليد في هذا المجال . يؤيد ذلك ما أكده القرآن الكريم .

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾. [ سورة الاحزاب ، الآية :40 ]

في ضوء ما تقدم، لم يتردد بعض كبار الصحابة من المهاجرين عن حضور اجتماع

سقيفة بني ساعدة ، حينما بلغهم خبره ، وهم كلٌ من عمر بن الخطاب ، وأبي بكر الصديق ، وأبي عبيدة بن الجراح ﷺ. ولم يتوقفوا عن الإسهام الإيجابي في الحوار الذي يسعى للتوصل إلى اختيار من يتولى إدارة أمور المسلمين العامة بعد وفاة الرسول ﷺ .

وتشير المصادر إلى أن أبا بكر وعمر بن الخطاب ﷺقد شاركا بفعالية وقوة في هذا الحوار . . . فبعد أن سمعا حجج الأنصار في الدعوة لأنفسهم بالخلافة ، قال أبو بكر الصديق ﷺ إن المهاجرين من قريش أولى من الأنصار بخلافة رسول الله ﷺ لأنهم : ((أول من عبد الله في الأرض ، وآمن بالله وبالرسول ، وهم أولياؤه وعشيرته ، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينازعهم في ذلك إلا ظالم ) . [ الطبري "1967" 220/3 ] وقد أضاف عمر بن الخطاب ﷺ إلى ذلك حجة أخرى وهي أن مسألة اختيار خليفة للرسول ﷺ ليست مسألة خاصة بالأنصار والمهاجرين وحدهم ، وإنما هي مسألة تهم العرب جميعاً. لذا فقد خاطبهم قائلاً : ((والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ، ولكن العرب لا تمتنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم ، وولي أمورهم منهم ) .

ويبدو أن حجج أبي بكر وعمر ﷺقد أضعفت من موقف الخزرج في الدعوة لزعيمهم سعد بن عبادة بالخلافة ، فاقترح الحباب بن المنذر على المهاجرين حلاً وسطاً يقضي بأن يكون على رئاسة الأمة أميران ، واحد من المهاجرين وآخر من الأنصار ، إلا أن عمر بن الخطاب ﷺ رفض ذلك على الفور بقوله : (هيهات لا يجتمع اثنان في قرن ) . أي أن ذلك غير ممكن من الناحية العملية ، وهو سيؤدي في حالة الأخذ به إلى الانقسام والفرقة . وهنا دب الخلاف في صفوف الأنصار فأعلن بشير بن سعد من الخزرج (( ان محمداً ﷺ من قريش وقومه أحق به وأولى)) .

وعند ذلك بادر أبو بكر الصديق ﷺ بدعوة المجتمعين إلى مبايعة عمر بن الخطاب ﷺ أو أبي عبيدة بن الجراح بالخلافة ، إلا أنهما رفضا ذلك ، وقالا: ((والله لا نتولى هذا الأمر عليك ، فإنك أفضل المهاجرين . . . ، فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك ، أبسط يدك نبايعك . فلما ذهبا ليبايعاه سبقهما إليه بشير بن سعد فبايعه )). [ الطبري "1967" 220/3-221 ]

وهكذا فقد كان أول من بايع أبا بكر الصديق ﷺ بالخلافة رجل من الخزرج ، فلما رأى أبناء قبيلة الأوس ذلك سارعوا هم أيضاً إلى تغيير موقفهم واندفعوا إلى مبايعة أبي بكر الصديق ﷺ لأنهم كانوا يشعرون بنوع من الحساسية تجاه الخزرج بسبب المنافسات القبلية القديمة التي كانت تفسد العلاقة بين الطرفين.

وهكذا ، ما كاد خبر مبايعة أبي بكر الصديق ﷺ بالخلافة في اجتماع سقيفة بني ساعدة ينتشر في المدينة حتى أخذ الناس يقبلون على مبايعته حتى ضاقت بهم الطرق. لذا فقد

جلس في اليوم التالي على المنبر في مسجد رسول الله ﷺ لتلقي البيعة العامة ، فبايعه عموم المهاجرين والأنصار بيعة الخلافة .

وقد أشارت بعض المصادر إلى أنه بينما كان أصحاب السقيفة يناقشون مسألة من يتولى الخلافة بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم ) كان آل بيت رسول الله ﷺ وعلى رأسهم علي بن أبي طالب وعمه العباس بن عبد المطلب ومعهم الزبير بن العوام ﷺ منشغلين بأمر جنازة رسول الله ﷺ وهو الأمر الذي منعهم من حضور اجتماع السقيفة والإسهام في بيان وجهة نظرهم فيمن هو أحق من غيره في خلافة رسول الله ﷺ . وقد أشارت بعض الروايات إلى أن علي بن أبي طالب ﷺ كان يرى أنه أحق بهذا الأمر من غيره بالنظر لقرابته من رسول الله (صلى الله عليه وسلم ) وسابقته في الإسلام . وكان عمه العباس وعدد من صحابة الرسول ﷺ يؤيدونه فيما يرى . ومع ذلك ، فلم يقدر لعلي بن أبي طالب ﷺ أن يدخل حلبة المنافسة في اجتماع السقيفة ، وتمت البيعة لأبي بكر الصديق ﷺ ، ووجد علي ﷺ نفسه مسوقاً في أن يدخل في البيعة حفاظاً على وحدة المسلمين وتماسك جماعتهم . وقد تفاوتت الروايات في تحديد تاريخ بيعته ، فمنها من يذهب إلى أنها لم تتأخر عن بيعة عامة الناس ومنها من يؤخرها إلى أكثر من ستة أشهر .

وقد استنتج بعض الباحثين من المناقشات والتطورات التي أحاطت بمسألة الخلافة وجود ثلاث ((نظريات )) تعبر عن آراء ثلاثة أحزاب إسلامية على الأقل ، وهي حزب الأنصار وحزب المهاجرين وحزب الشيعة . [امين "1964" 252-254 ]

والحقيقة أن وصف الآراء التي عرضت في اجتماع السقيفة وما بعده حول من هو الأحق بتولي منصب الخلافة ، بأنها ((نظريات))، وصف لا يخلو من المبالغة وذلك لأن ((النظرية)) في معاجم اللغة العربية : ((طائفة من الآراء التي تفسر بها بعض الوقائع العلمية أو الفنية )) ، [مجمع اللغة العربية "1985" 970/2 ] فالنظرية تمثل بنية فكرية متكاملة تقوم على المنطق والبرهان ، وهي أمور لا نجدها في المناقشات العفوية التي حصلت بين الصحابة حول اختيار من يتولى الخلافة في تلك المرحلة المبكرة من التاريخ الإسلامي ، وإنما ستظهر ملامحها بعد ذلك بأكثر من قرن من الزمان حينما سيظهر علم الكلام ويتولى المتكلمون من كل حزب أو فرقة صياغة آرائهم ونظرياتهم حول مسألة الخلافة .

كما أن وصف أصحاب هذه الآراء من الأنصار والمهاجرين وآل البيت بأنهم كانوا يمثلون أحزاباً هو أيضاً وصف لا يخلو من مبالغة. لأن الحزب في اللغة العربية هو ((الجماعة فيها قوة وصلابة ، وكل قوم تشاكلت أهواؤهم وأعمالهم )) . فهل ينطبق هذا الوصف على الأنصار مثلاً الذين تخلوا عن مرشحهم بمجرد سماعهم حجج المهاجرين واندفعوا يبايعون أبا

بكر الصديق ﷺ على خلاف رغبة مرشحهم سعد بن عبادة . وربما ينطبق الأمر ذاته على أصحاب علي بن أبي طالب ﷺ الذين بايعوا أبا بكر الصديق ﷺ بالخلافة كما بايعه هو بعد تردد و لم يختلفوا عن بقية المسلمين في آرائهم ومواقفهم حتى ظهور ((الفتنة )) والانقسام في أواخر خلافة عثمان بن عفان ﷺ.

يظهر مما تقدم ، أن الخلافات التي ظهرت بعد وفاة الرسول ﷺ حول مسألة من يتولى الخلافة من بعده ، إنما هي خلافات طبيعية في وجهات النظر وقد تم تجاوزها بسهولة ويسر، وهي لا تعكس انقساماً حاداً في المجتمع الإسلامي يستدعي ظهور أحزاب ونظريات . لقد أثبتت الأحداث التي أعقبت انتخاب أبي بكر الصديق ﷺ للخلافة أن المنطق الذي عالج به الصحابة مسألة الخلافة كان كما يقول الجابري : (أقرب ما يكون إلى (اختيار الأمة ) ، إلى العمل برأي (الأغلبية ) ، الأغلبية لا بالمعنى الكمي الذي يعتمد عدد الأفراد أو الأصوات ، بل بالمعنى (الكيفي). إن وزن المهاجرين كيفياً كان أقوى من وزن الأنصار ، كما أن مقام أبي بكر ﷺ في الدعوة لم يكن يعلوه مقام آخر غير مقام النبي ﷺ نفسه . والأمور في السياسة بنتائجها ، إن شبه الاجماع الذي انتخب به أبو بكر ﷺ قد تحول بمجرد الشروع بممارسة مهامه كخليفة للنبي إلى إجماع حقيقي وشامل في المركز)). [ الجابري "2000" 141-142 ]

ويقصد بالمركز هنا ، المدينة المنورة ، حيث ينتخب الخليفة وتصنع القرارات السياسية الكبرى ، وقد وقف إلى جانب المركز وتضامن معه مدينة مكة لأنها الموطن الأصلي للمهاجرين من قريش ، وكذلك مدينة الطائف لأن أهلها كانوا حلفاء لقريش .

وهكذا فقد تعاون وتضامن أبناء هذه المدن الثلاث في إدارة الدولة والدفاع عنها بقيادة رجال من قريش.

ويلاحظ أن الحال في الأطراف ، أي خارج مدن الحجاز ، كان على النقيض من ذلك فلم تتضامن مع أهل المركز وحلفائهم في البيعة لأبي بكر الصديق ﷺ بالخلافة وإظهار الطاعة له ، بل إنها استغلت وفاة الرسول ﷺ للتحلل من التزاماتها تجاهه وإعلان الردة ، وقد عبر أحد شعرائها وهو عبد الله الليثي عن موقفها أصدق تعبير بقوله :

((أطعنا رسول الله ما كان بيننا

فيا لعباد الله ما لأبي بكر

أيورثها بكرا إذا مات بعده

وتلك لعمر الله قاصمة الظهر)) .

[الطبري "1967" 246/3 ]

ويبدو من هذا النص ، وغيره من النصوص التي أوردتها المصادر أن هؤلاء المرتدين كانوا حديثي عهد بالإسلام ، إذ أن معظمهم كانوا قد أعلنوا دخولهم في الإسلام في السنة التاسعة من الهجرة وما بعدها . . . وكان إسلامهم في حقيقته تعبيراً عن الخضوع السياسي لسلطة الرسول ﷺ مراعاة لعوامل توازن القوى

والمصلحة وليس إيماناً قلبياً بمبادئ الإسلام وقيمه . وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ . [سورة الحجرات ، الآية : 14 ] فلا غرابة أن يستغل هؤلاء ، وكانوا يمثلون معظم العرب ، وفاة الرسول ﷺ ليعلنوا تحللهم من التزاماهم تجاه الاسلام ودولته وتصف إحدى الروايات التي أوردها الطبري عن هشام بن عروة عن أبيه الموقف الصعب والدقيق الذي وجد المسلمون أنفسهم فيه على النحو الآتي:

((لما بويع أبو بكر ﷺ ، وجمع الأنصار في الأمر الذي افترقوا فيه ... وقد ارتدت العرب، إما عامة وإما خاصة في كل قبيلة ، ونجم النفاق واشرأبت اليهود والنصارى ، والمسلمون كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية ، لفقد نبيهم ﷺ، وقلتهم ، وكثرة عدوهم )). [ الطبري "1967" 225/2 ]

أمام هذا الموقف الخطير، لم يكن أمام أبي بكر الصديق ﷺ سوى الاختيار بين أحد موقفين ، إما القبول بالأمر الواقع ، والتعامل السياسي مع المرتدين بحثاً عن الحلول الوسط التي ترضي الطرفين ، وهذا ما كان يدعو له كثير من المسلمين ، أو رفض هذا الواقع ، بصفته ردة وانحرافا ، وإعلان الجهاد على القبائل العربية التي ارتدت عن التزاماها تجاه الرسول ﷺ والإسلام سواء أكانت ردها ردة مباشرة عن الإسلام كما فعل الأنبياء الكذابون وأتباعهم ، وإما ردة غير مباشرة كالامتناع عن أداء الزكاة أو الصلاة أو غيرها من الواجبات الشرعية . وقد كان هذا ما اختاره أبو بكر الصديق ﷺ فأعلن الحرب على هذه القبائل المرتدة ، ونجح في إخضاعها الواحدة تلو الأخرى وأعادها إلى حظيرة الإسلام ودولته. وبذلك تحققت الوحدة لشبه الجزيرة العربية بفضل شجاعته وحزمه ، وبفضل تعاون وتكاتف أهل الحجاز معه وإسهام صحابة رسول الله ﷺ من قريش .

وهكذا فقد أكد هذا الانتصار مكانة قبيلة قريش وحلفائها في قيادة الدولة في إطار رسالة الإسلام ، وسمح لها بمواكبة حركة الدولة وتوسعها عن طريق الفتوح الإسلامية ، والاستفادة من المزايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي نشأت عن ذلك .

وفي المقابل ، فقد وجدت القبائل العربية الأخرى نفسها ، ولاسيما المرتدة ، في موقع الخاضع ، وفي أحسن الأحوال التابع لقيادة رجال قبيلة قريش حتى بعد أن سمح لهم الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ في الاشتراك بجيوش الفتح. وكان عليهم الرضا والقبول بالعطاء القليل ، والدور الثانوي في إدارة شؤون الدولة . ومن هنا ، سيظهر الشعور بالتفرقة والظلم بين أبناء هذه القبائل العربية ، وسيتطور إلى شكوى وتذمر ثم ليتحول إلى تيارات وأحزاب وفرق معارضة بعد أن تنضج العوامل والأسباب التي تساعدها على ذلك . وهو ما حصل في أواخر عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ﷺ بعد

حوالي عشرين سنة ، في إطار الأحداث التي وصفتها المصادر بـ (الفتنة ). فما هي هذه الفتنة ، وما أسبابها ، وكيف مهدت الطريق لظهور الأحزاب السياسية.

## الفتنة وظهور الدعوات والفرق السياسية المعارضة :

تشير معاجم اللغة إلى أن للفتنة معاني متعددة فهي تعني ((الاضطراب وبلبلة الأفكار)) وهي تعني ((الضلال ))، كما تعني التعرض للشدائد والصعاب لغرض الاختبار والابتلاء . [مجمع اللغة العربية "1985" 698/2 ] والحقيقة أن هذه المعاني كانت تعبر بصدق عن حقيقة مشاعر المسلمين تجاه الأحداث التي حصلت في أواخر عهد الخليفة عثمان بن عفانﷺ والتي أدت إلى قتله بيد عدد من الخارجين عليه من أهل الأمصار. وقد أعقب ذلك تولي علي بن أبي طالب ﷺ للخلافة ، الذي حاول أن يتصدى لمعالجة عوامل الفتنة بأقصى طاقته ولكن دون جدوى ، وسقط هو أيضاً شهيداً بسبب الآثار والانقسامات التي أفرزتها تلك الفتنة . لذا فإننا سنحاول في النقاط الآتية أن نتلمس الأسباب التي أدت إلى الفتنة ، وكيف انعكست آثارها السلبية على الوقائع والتطورات التي نشأت عنها [ الريس "1957" 45-46 ] :

1. أدت حركة الفتوح الإسلامية التي بدأت في عهد أبي بكر الصديق ﷺ وبلغت ذروتها في عهد عثمان بن عفان ﷺ إلى نشوء الأمصار واستقرار أبناء القبائل العربية في الكوفة والبصرة والفسطاط وغيرها. وكانت معظم هذه القبائل من الروادف الذين التحقوا بالفتوح في عهد الخليفة عمر ﷺ لأن أبا بكر الصديق ﷺ كان يرفض الاستعانة بهم في الجهاد لأنه سبق لهم أن ارتدوا عن الإسلام . ومن ثم كان عطاؤهم من بيت المال أقل كثيراً من عطاء غيرهم من المسلمين ولاسيما المهاجرين والأنصار.

وكان مما زاد من صعوبة وضعهم الاقتصادي أن الفتوحات في النصف الثاني من خلافة عثمان ﷺ كانت قد توقفت مما أدى إلى انقطاع إيراداتهم من الغنائم . فلا عجب أن شعروا بالضيق والحسد لقريش بسبب الرفاه الذي كان يعيش فيه الكثير من رجالها ، إذ كانوا يتمتعون بعطاء وافر يقدمه بيت المال لهم بالنظر لسابقتهم في الدين ، فضلاً عن تسنمهم وظائف الدولة العليا كالإمارة على الولايات وقيادة الجيوش وغيرها .

لقد أورد الطبري نصاً مهماً يعبر عن هذه الحالة أصدق تعبير. فقد ذكر وهو يصف أحداث سنة (33هـ/653م ) ، أن سعيد بن العاص ، وكان أميراً على الكوفة قال في مجلسه : إنما هذا السواد – وهي أراضي جنوب العراق – بستان لقريش ، فأجابه الأشتر بن مالك النخعي: أتزعم أن السواد الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك . والله ما يزيد أوفاكم فيه نصيباً إلا أن يكون كأحدنا . [الطبري "1967" 323/4 ]

2. وقد رافق الشعور بالغبن الاقتصادي شعور بالغبن السياسي ، إذ كان بعض أبناء هذه القبائل يعتقدون بأنهم لا يقلون أهلية لتولى المناصب الإدارية والسياسية في الدولة عن نظرائهم القرشيين لأنهم كانوا ينتمون إلى قبائل قوية ومتنفذة منذ عصر ما قبل الإسلام . وقد عبروا عن موقفهم هذا لدى حوارهم مع معاوية بن أبي سفيان الذي كان والياً على الشام في خلافة عثمان بن عفان ﷺ .

3. ويبدو أن الشعور بالغبن الاقتصادي والغبن السياسي قد ولد لدى أبناء القبائل من أهل الأمصار الاعتقاد بأن من حقهم المطالبة بعزل الولاة الذين لا ينالون ثقتهم ، ولو اقتضى الأمر اللجوء إلى القوة من أجل فرض إرادتهم ، إذا لم يستجب الخليفة لطلبهم . وقد لاحظ بعض الباحثين أن مرونة الخليفة عثمان بن عفان ﷺ في التعامل مع المعارضة في هذا المجال قد شجعهم على التطرف في المطالبة بعزل ولاتهم ، حتى وصل الأمر بهم إلى حد مطالبة الخليفة نفسه بالاعتزال ، وإلا فإن مصيره سيكون القتل، [ابن خلدون "د.ت" 1/381-382 ] وهو ما كان .

4. إن النظر في جوهر مطالب أهل الأمصار كمطالبتهم بالتسوية في العطاء ، والتسوية في المعاملة السياسية ، والمطالبة بالعدالة في الحكم والإدارة ، يدعو الناظر إلى التعاطف معها، وهو ما كان عليه موقف بعض كبار الصحابة وعلى رأسهم علي بن أبي طالب ﷺ ، وعمار بن ياسر، وأبو ذر الغفاري وغيرهم . وكان في استطاعة الخليفة عثمان ﷺ تلبية هذه المطالب، وتجاوزها لو لم يكن ذا نظرة محافظة ترفض التغيير وتسعى للالتزام بسنة من سبقه من الخلفاء. والحقيقة أن هذه النظرة تتجافى مع طبيعة التطور ، ومع ما تتطلبه التحولات الكبرى التي كان يمر بها المجتمع الإسلامي بسبب الفتوحات العظيمة التي تحققت في مدة قصيرة .

ويلاحظ أن أعوان الخليفة عثمان بن عفان ﷺ وجلهم من الأمويين كانوا لا يشجعونه على التغيير - ربما بسبب استفادتهم من سياسته المحافظة على المستوى الاقتصادي والسياسي - وكانوا يرون أن مطالبة أهل الأمصار بالتسوية إنما هي ذريعة تخفي وراءها دوافع خفية تسعى للانحراف عن قيم الإسلام ومثله والعودة بالمسلمين إلى نوع من الجاهلية ولاسيما أن معظم أهل الأمصار كانوا ينتمون إلى قبائل بدوية سبق لها أن ارتدت عن الإسلام. وقد عبر معاوية بن أبي سفيان عن رأيه فيهم في رسالة بعث بها إلى الخليفة عثمان ﷺ قال فيها: ((إنه قدم على أقوام ليست لهم عقول ولا أديان، أثقلهم الإسلام ، وأضجرهم العدل ، لا يريدون الله بشيئ ولا يتكلمون بحجة ، إنما همهم الفتنة ، وأموال أهل الذمة ...)). [ النوبختي "د.ت" 27-28 ]

5. وقد أورد الطبري والنوبختي روايات تشير إلى إسهام شخصية يهودية الأصل في قيادة أحداث الفتنة وتوجيهها . فذكر الطبري أن عبد الله بن سبأ ، وكان يهودياً من أهل صنعاء،

أسلم في عهد الخليفة عثمان ﷺ ، ثم أخذ ينتقل في الحجاز والبصرة والكوفة والشام ، ومصر ، محرضاً الناس على الخليفة وولاته حتى أفلح في إنشاء نوع من التنظيم المضاد للدولة (فبث دعاته ، وكاتب من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه ، ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم أظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم ، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك). [ الطبري "1967" 341/4 ]

وإن ما يجدر ذكره في هذا المجال أن الحسن بن موسى النوبختي، وهو من أعيان الشيعة في أواخر القرن الثالث الهجري ، قد أشار إلى أن عبد الله بن سبأ ((كان يهوديا فأسلم ووالى علياً عليه السلام ، وكان يقول وهو على يهوديته في يوشع بن نون بعد موسى عليه السلام بهذه المقالة (أي أنه وصيه من بعده ) ، فقال في إسلامه بعد وفاة النبي ﷺ في علي عليه السلام بمثل ذلك . وهو أول من شهر القول بفرض إمامة علي عليه السلام وإظهار البراءة من أعدائه وكاشف مخالفيه . فمن هناك ، قال من خالف الشيعة أن أصل الرفض مأخوذ من اليهوديه )) . [ النوبختي "د.ت" 27-28 ]

ويبدو مما أورده النوبختي أن عبد الله بن سبأ قد واصل نشاطه بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان ﷺ. وأنه كان يسعى لنشر الغلو والفتنة بين المسلمين . يقول النوبختي: ان أول من قال بالغلو من الشيعة فرقة تسمى (السبئية ) أصحاب عبد الله بن سبأ ، وكان ممن أظهر الطعن على أبي بكر وعمر وعثمان والصحابة ﷺوتبرأ منهم وقال أن علياً عليه السلام أمره بذلك . فأخذه علي ﷺوسأله عن قوله هذا فأقر به ، فأمر بقتله ، فصاح الناس إليه : يا أمير المؤمنين أتقتل رجلاً يدعو إلى حبكم أهل البيت وإلى ولايتك والبراءة من أعدائك ، فصيره إلى المدائن )).

ويضيف النوبختي أن ابن سبأ واصل غلوه في حق علي بن أبي طالب ﷺ ، فلما بلغه ((نعي علي في المدائن قال للذي نعاه : كذبت لو جئتنا بدماغه في سبعين صرة وأقمت على قتله سبعين عدلاً لعلمنا أنه لم يمت ولم يقتل ولا يموت حتى يملك الأرض ) .

يظهر من هذه النصوص التي أوردها النوبختي أن ابن سبأ كان قد أفلح في نشر أفكاره التي تتسم بالغلو في إظهار الموالاة للإمام علي ﷺ وآل البيت والقول بالوصية والرجعة والطعن في الصحابة ، حتى إن الإمام علي ﷺ حين أمر بقتله اعترض أنصاره على ذلك وحملوا الإمام علي ﷺ على تغيير موقفه . لذا فقد توصل بعض الباحثين إلى أن اسم الشيعة كان يطلق في النصف الأول من القرن الأول ((على فئتين من الناس : فئة معتدلة من الشيعة ترى تقديم علي ﷺ على عثمان ﷺ ، وفئة ربما كانت أقل عدداً تبعت عبد الله بن سبأ في ادعائه أن علياً ﷺ وصي محمد ﷺ الرسول وأنه خاتم الأوصياء ، وان من لم يجز وصية الرسول ووثب على وصيه وتناول أمر الأمة (يعني من تقدموا علياً ﷺ من الخلفاء الراشدين ) كان ظالماً منحازاً عن الحق .

وقد ذهبت هذه الفئة الثانية - أعني السبئية - إلى الغلو في حياته ثم بعد موته . . . ((وأسبغوا على علي صفات أرفع من صفات البشر ، ولما مات رفضوا التصديق بموته ، واعتبروه غائباً لا ميتاً وانتظروا رجعته )). [ القاضي "1974" 118-120 ]

ويلاحظ أن بعض الباحثين قد حاولوا التشكيك بوجود شخصية ابن سبأ ، ورأوا أن هذه الشخصية المزعومة ربما كانت من اختراع بعض الرواة في القرن الثاني الهجري لغرض إلقاء تبعات الفتنة على عاتقها . غير أن البحوث الحديثة ترى أن هذا التشكيك لا يقوم على أسس مقنعة . لذا فإنها تذهب إلى قبول الروايات التاريخية التي وصلت إلى أيدينا عن ابن سبأ مع ميل إلى استبعاد المبالغات والأقوال الأسطورية .

## اختيار علي بن أبي طالب ﷺ للخلافة ونشأة الفرق الإسلامية :

اضطرت الظروف الصعبة التي وجد المسلمون فيها أنفسهم إثر استشهاد الخليفة عثمان ﷺ ، علي بن أبي طالب ﷺ إلى قبول البيعة بالخلافة من الخارجين على عثمان ﷺ والذين كانوا يسيطرون على المدينة بالقوة ، كما أقبل كثير من المهاجرين والأنصار على البيعة وهم كارهون ، ليس بسبب عدم قبولهم لشخص الخليفة ، وإنما بسبب الظروف التي أحاطت بالبيعة .

كما ذكر أن عدداً من كبار الصحابة اعتزلوا البيعة ، منهم : سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وصهيب الرومي وزيد بن ثابت ، ومحمد بن مسلمة ، وكعب بن مالك ، وحسان بن ثابت ، وأبو سعيد الخدري ، والنعمان بن بشير ، ﷺ وغيرهم . وفضلا عما تقدم ، فقد أشير إلى أن بعض كبار الصحابة لاسيما طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام قد بايعا مكرهين وتحت التهديد بالقتل . فقد ذكر الطبري أنه ((لما قتل عثمان ﷺ واجتمع الناس على علي ، ذهب الأشتر وجاء بطلحة ، فقال له: دعني أنظر ما يصنع الناس ، فلم يدعه وجاء به يتله تلا عنيفاً ، وصعد المنبر فبايع )) . كما ذكر أن حكيم بن جبلة جاء بالزبير بن العوام ((حتى بايع ، فكان الزبير يقول : جاءني لص من لصوص عبد القيس فبايعت ، واللج ( أي السيف ) على عنقي)) . [الطبري "1967" 4/435 ]

لقد قدمت هذه الظروف التي تمت فيها البيعة لعلي بن أبي طالب ﷺ بالخلافة العذر لمناوئيه وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان الذي كان والياً على بلاد الشام في التشكيك بصحة البيعة ، ثم الطعن في خلافته لأنه تلقى البيعة من أيد ملطخة بدم الخليفة عثمان ﷺ.

وهكذا ، ما كاد علي بن أبي طالب ﷺ يتولى الخلافة حتى وجد نفسه في مواجهة تيارين قويين يتصديان له ، يقود التيار الأول طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين ﷺ، وهو يدعو إلى إخراج قتلة عثمان من المدينة ومعاقبتهم . ويقود التيار الثاني معاوية بن أبي سفيان ، وهو لا

يكتفي بتأكيد مطالب التيار الأول ، بل يزيد عليها بتحميل الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ مسؤولية مقتل عثمان ﷺ ، ومن ثم يعطي لنفسه حق المطالبة بدم عثمان ﷺ بصفته ابن عم الخليفة المقتول .

و لم يستطع علي بن أبي طالب ﷺ إقناع أصحاب التيار الأول بتأجيل تنفيذ مطلبهم بعض الوقت ريثما يستطيع توفير الإمكانيات اللازمة لتحقيقه بسبب قوة أهل الأمصار وغيرهم من الخارجين على عثمان ﷺ وسيطرتهم على المدينة ، وقد ساقت الأحداث كلا الطرفين إلى الصدام المسلح في معركة الجمل التي انتهت بانتصار جيش الخليفة علي ﷺ واستشهاد طلحة والزبير ﷺ.

وكان من الطبيعي أن يقود موقف معاوية بن أبي سفيان المتشدد من الخليفة علي ﷺ إلى المواجهة المسلحة ، وقد تم ذلك في معركة صفين . وكانت معركة صفين معركة صعبة وقاسية على الطرفين ، الأمر الذي حمل معاوية على المطالبة بتحكيم كتاب الله في النزاع بدلاً من الاحتكام إلى السيف . وكان لشعار ((التحكيم )) أثرٌ مدمرٌ على وحدة جيش الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ ، وذلك لأن فريقاً من أفراد جيشه وعلى رأسهم الأشعث بن قيس قد تأثروا بهذا الشعار وقالوا لعلي: ((قد أعطاك معاوية الحق ، ودعاك إلى كتاب الله ، فاقبل منه)). وحين وافق الخليفة علي ﷺ على التحكيم تحت إلحاح هذا الفريق من جيشه ، وتم الاتفاق على اختيار الحكمين وإجراءات التحكيم فوجئ بظهور معارضة قوية للتحكيم بين أفراد جيشه وقد ضمت بعض من طالبوا في البداية بقبول التحكيم . [ الملاح "1991" 427-455 ] وقد عرف هؤلاء المعارضون بـ ((الخوارج )) كما وصف الذين حافظوا على ولائهم لعلي بن أبي طالب ﷺ ونصرته ضد أعدائه بـ ((الشيعة )). لذا فإننا سنخصص المبحثين الآتيين لدراسة تاريخ هاتين الفرقتين وتطورهما قبل التعرض لتاريخ الفرق الأخرى كالمرجئة والمعتزلة.

### 1. الخوارج نشأتهم وآراؤهم :

تعود أصول الخوارج إلى أهل الأمصار الذين استباحوا لأنفسهم الخروج على الخليفة عثمان ﷺ واستعملوا السيف ضده بحجة مخالفته لقواعد الحق والعدل التي أمر بها الله تعالى في القرآن الكريم .

وقد كان هؤلاء الخارجون على عثمان ﷺ ممن بايع علياً ﷺ بالخلافة وممن قاتل تحت قيادته في معركة الجمل ومعركة صفين ، إلا أن موقف هؤلاء تعرض لاختبار شديد في مواجهة عرض معاوية الاحتكام إلى كتاب الله لفض النزاع بينه وبين الإمام علي ﷺ بدلاً من الاحتكام إلى السيف ، فقد ذكرت بعض المصادر أن حوالي عشرين ألف مقاتل منهم أقبلوا على علي ﷺ مطالبين إياه بقبول التحكيم وإلا سيكون مصيره كمصير عثمان ﷺ ، أي

القتل . و لم يستطع الإمام علي ﷺ إقناعهم بوجهة نظره بأن الدعوة إلى التحكيم خدعة تستهدف حرمانهم من ثمرة النصر ، فاضطر إلى التسليم برأيهم ، واضطر كذلك إلى قبول مرشحهم للتحكيم وهو أبو موسى الأشعري ليكون ممثلاً عنه في مواجهة ممثل أهل الشام عمرو بن العاص . [ ابن اعثم "1970" 313-312/9 ]

ولكن ما كاد الاتفاق على التحكيم يتم بين الطرفين ، حتى فوجئ الإمام علي بانقلاب جديد في موقف هؤلاء الذين دعوا إلى قبول التحكيم ، أو نسبة كبيرة منهم في الأقل ، إذ شعروا بخطأ موقفهم وندموا على ما كان منهم ، ومن ثم فقد اندفعوا بقوة للمطالبة برفض التحكيم واستئناف القتال من جديد.

وكان من الطبيعي أن يرفض الإمام علي ﷺ طلبهم لأنه ملزم باحترام كلمته وتعهده الأمر الذي قاد هؤلاء إلى الخروج عن طاعته والانشقاق عن جيشه ليصبحوا ((خوارج)) .

وهكذا فقد كان هذا الحدث بداية لحصول أكبر انقسام في صفوف أتباع الإمام علي ﷺ أو ما يسمى (شيعته ) . وقد ذكر الطبري لن أتباع علي ﷺ رجعوا من صفين إلى الكوفة وهم : ((يتدافعون الطريق كله ، ويتشاتمون ويضطربون بالسياط ، ويقول الخوارج : يا أعداء الله ، أو هنتم في أمر الله عز وجل وحكمتم، وقال الآخرون : فارقتم إمامنا، وفرقتم جماعتنا. فلما دخل علي ﷺ الكوفة لم يدخلوا معه ، حتى أتوا حروراء ، فترل بها منهم اثنا عشر ألفاً ، ونادى مناديهم : ان أمير القتال شبث بن ربعي التميمي ، وأمير الصلاة عبد الله بن الكواء اليشكري ، والأمر شورى بعد الفتح، والبيعة لله عز وجل ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)). [ الطبري "1967" 63/5-66]

إن هذا النص يشير إلى أنه كانت لهؤلاء الخوارج بعض المبادئ الأولية التي يتفقون عليها، فهم يرون أن البيعة لله أي للمبادئ التي جاء بها القرآن ، وأن إدارة شؤون المسلمين تتم عن طريق الشورى ، وإن على المسلمين ممارسة حقهم في المعارضة عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويبدو أنهم في هذه المرحلة لم يجدوا ضرورة لاختيار خليفة أو إمام ، واكتفوا باختيار أمير للقتال وآخر لإمامتهم في الصلاة . وان مما يؤكد تمسك الخوارج بهذه المبادئ في هذه المرحلة المبكرة من تاريخهم ما أورده الطبري عن الحوار الذي دار بنهم وبين الشيعة الذين حافظوا على ولائهم لإمامهم وقالوا له : ((في أعناقنا بيعة ثانية ، نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت ، فقالت الخوارج : استبقتم أنتم وأهل الشام إلى الكفر كفرسي رهان ، بايع أهل الشام معاوية على ما أحبوا وكرهوا وبايعتم عليا على أنكم أولياء من والى وأعداء من عادى . فقال لهم زياد بن النضر: والله ما بسط علي يده فبايعناه قط إلا على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ ، ولكنكم لما خالفتموه جاءته شيعته

فقالوا: ((نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت)) . [ الطبري "1967" 64/5 ]

لقد حاول الإمام علي ﷺ إقناع الخوارج بخطأ موقفهم ، والعودة إلى صفوف أتباعه ، فأرسل لهم في البداية عبد الله بن عباس الذي دخل معهم في مجادلات طويلة من أجل هذا الغرض إلا أنه لم يفلح . ثم حاول هو نفسه استمالتهم إلى موقفه بعد تذكيرهم بأن قبوله التحكيم جاء بناءً على طلبهم وإلحاحهم ، فأقروا بأن ذلك كان كفرا منهم ، وأنهم تابوا إلى الله تعالى منه ، وإن عليه أن يتوب منه وأن يتخلى عن تعهده بإجراء التحكيم ، كي يعودوا إلى مبايعته وطاعته ، فرفض ذلك . . . ثم أوضح لهم أن قبوله بتحكيم الرجال لا يعني التخلي عن حكم الله وحكم القرآن ، بل هو في حقيقته تحكيم الرجال من أجل تفسير القرآن ، فهذا القرآن ((هو خط مسطور بين دفتين ، لا ينطق ، إنما يتكلم به الرجال )) . [ الطبري " 1967" 66/5 ]

ويبدو أن الخوارج لم يقتنعوا بحجج الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ ، وإنما وافقوا على مجاراته والعودة معه إلى الكوفة على أمل الضغط عليه لحمله على عدم تنفيذ قرار التحكيم ، فلما فشلوا في تحقيق هذا الهدف ، وقام علي ﷺ بإرسال مبعوثه إلى مكان التحكيم – وإن كان بعد بعض التأخير – عادوا إلى معارضته من جديد وأخذوا يشغبون عليه في المسجد . فقد ذكر الطبري أن علي بن أبي طالب ﷺ قام يخطب فيهم في المسجد، فقال رجل من جانب المسجد: ((لا حكم إلا لله ، فقام آخر فقال مثل ذلك ، ثم توالى عدة رجال يحكمون ، فقال علي: الله أكبر ، كلمة حق يلتمس بها باطل ، اما ان لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتمونا: لا نمنعكم مساجد الله ان تذكروا فيها اسمه ، ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا ، ولا نقاتلكم حتى تبدأونا ، ثم رجع إلى مكانه الذي كان فيه من خطبته )) . [ الطبري "1967" 73/5 ]

وهكذا فقد استقر رأي الخوارج على الانفصال عن الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ ومحاربته بعد أن رفض طلبهم في عدم إرسال ممثله إلى التحكيم ، فاجتمعوا في منزل عبد الله بن وهب الراسبي فحثهم على مغادرة الكوفة بقوله : ((فاخرجوا بنا إخواننا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور الجبال أو إلى بعض المدائن ، منكرين لهذه البدع المضللة )) . [الطبري "1967 74/5 ] فوافقوه على رأيه وانتخبوه أميراً عليهم وبايعوه ، فسار بهم حتى نزل منطقة النهروان ، وكاتب أتباعهم في البصرة للالتحاق بهم ، فوافقوه على طلبه ، وسار لمناصرته منهم خمسمائة رجل بقيادة مسعر بن فدكي التميمي ، فأصبح مجموع الخوارج المجتمعين في النهروان حوالي أربعة آلاف رجل . وبذلك لم يتجاوز عدد الخارجين هذه المرة ثلث عدد من خرجوا إلى حروراء ، مما يدل على نجاح علي بن أبي طالب ﷺ في كسب من تبقى منهم إلى جانبه .

وبعد فشل التحكيم كتب إليهم الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ يدعوهم للانضمام إليه في محاربة جيش أهل الشام ، فرفضوا دعوته ، وطلبوا منه أن يقر على نفسه بأنه قد وقع في الكفر حينما قبل بالتحكيم ، وأن عليه أن يعلن التوبة من ذلك كي يقبلوا التعاون معه من جديد . . . فلما رفض طلبهم واصلوا معارضتهم له ، وأخذوا يتعرضون لمخالفيهم بالقتل ، لذا اضطر أن يتوجه لمقاتلتهم في حوالي سنة ( 38 هـ / 658م ) في معركة عرفت بمعركة النهروان ، حيث أجهز على قوتهم تماماً . ولكنهم على الرغم من ذلك تمكنوا من اغتياله في شهر رمضان من سنة (40هـ / 661م) على يد أحد أفرادهم ويدعى عبد الرحمن بن ملجم . ثم راحوا يلملمون صفوفهم في العصر الأموي لمقاومة أعدائهم الألداء خلفاء وحكام بني أمية .

لقد عانت الدولة العربية الإسلامية في العهد الأموي كثيراً من ثورات الخوارج حتى إن أحد الباحثين أحصى حوالي عشرين حركة ثورة أو خروج على الدولة قامت بها فصائل الخوارج المختلفة . ولا شك أن ذلك كان مصدر استنزاف كبير لموارد الدولة المالية والبشرية . [عمارة "1977" 145-148 ]

ويلاحظ أن فرقة الخوارج لم تبق موحدة الصفوف بعد ظهورها في معركة صفين، وإنما أدت اجتهادات قادتها إلى تفرقها وانقسامها إلى فرق متعددة أوصلتها المصادر إلى عشرين فرقة ، وقد حملت كل منها اسم مؤسسها وكان من أبرز هذه الفرق : الازارقة ، والنجدات، والاباضية ، والصفرية .

وقد كان القاسم المشترك بين هذه الفرق عدداً من الأفكار العامة التي هي محل اتفاق كبير بينهم . أما في التفاصيل فهناك اختلافات كبيرة لا تتسع هذه الدراسة العامة لذكرها. ونعرض فيما يأتي أهم هذه الأفكار العامة :

**أولاً**: ينطلق الكثير من أفكار الخوارج من تجربتهم التاريخية ذات الطابع السياسي ، وعلى الأخص ما يتصل منها بالخلافة :

**1**. فهم قد ((جوزوا أن لا يكون إمام أصلا ، وإن احتيج إليه فيجوز أن يكون عبداً أو حراً ، أو نبطيا ، أو قرشيا )).

ومن الواضح أن هذا المبدأ يعد خروجا على مبدأ حصر الخلافة في قريش كما يستجيب لطموحات القبائل العربية من غير قريش ولطموحات الموالي من المسلمين غير العرب .

**2**. ويفهم ضمنا من المبدأ السابق ، ومن ممارسات الخوارج في اختيار أمرائهم أنهم كانوا يرفضون مبدأ الوراثة أو الوصية في تداول السلطة ، ويدعون لاختيار الأصلح عن طريق الانتخاب .

**3**. يجب على من يتولى أمور المسلمين أن يكون إماماً عادلاً بعيداً عن الجور والظلم ، فإن ((غير السيرة وعدل عن الحق وجب عزله أو قتله )) . [ الشهرستاني "1961" 116/1 ]

**4**. ويرى الخوارج وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومن ثم فهم يرون ((الخروج على الإمام إذا خاف السنة حقاً واجباً)) . [ الشهرستاني "1961" 117/1 ]

ثانياً: أعطى الخوارج أنفسهم حق الحكم على أعمال المسلمين وتصنيفهم في ضوء ذلك إلى مسلمين مؤمنين أو كفار مشركين ، فهم يرون تكفير أهل الذنوب جميعاً (ولم يفرقوا بين ذنب وذنب ، بل اعتبروا الخطأ في الرأي ذنباً إذا أدى إلى مخالفة وجه الصواب في نظرهم ) . [ ابو زهرة "د.ت" 106 ]

لذا فإنهم لم يترددوا في الحكم على الإمام علي بن أبي طالب ﷺ بالكفر لأنه وافق على التحكيم ، وكذلك كفروا الحكمين أبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص ، وقد سبق لهم أن حكموا بالكفر على الخليفة عثمان ﷺ وعلى طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين ﷺ ، وكذلك على معاوية بن أبي سفيان ، وكل من شايعهم في مواقفهم المخالفة لرأي الخوارج وهكذا وصل الأمر عند غالبية فرق الخوارج إلى تكفير كل من لا يتبع مذهبهم من المسلمين ، وعدوهم كفاراً مشركين .

وقد ترتب على هذا الحكم أن أعلن أحد أبرز زعمائهم وهو نافع بن الأزرق أن جميع المسلمين - المخالفين لهم - ((في النار ، ورأى قتلهم ، وقال : الدار دار كفر إلا من أظهر إيمانه ، ولا يحل أكل ذبائحهم ، ولا تناكحهم ، ولا توارثهم ، ومتى جاء منهم جاء فعلينا أن نمتحنه ، وهم ككفار العرب ، لا نقبل منهم إلا الإسلام - أي بحسب مذهبهم الخارجي - ، أو السيف )) . . . [ الاسفراييني "1955" 46 ] ، وقد أضاف ابن الازرق إلى ذلك - بناءً على اقتراح أحد أتباعه من الموالي - ((أن أطفال المشركين في النار ، وإن من خالفنا مشرك ، فدماء هؤلاء الأطفال لنا حلال)) . [المبرد "د.ت" 284/3-285 ]

في ختام هذا العرض الموجز عن فرقة الخوارج ، يبدو للباحث أن تعصب الخوارج وغلوهم في تكفير مخالفيهم واستباحة دمائهم قد أثار ردة فعل مشابهة لدى خصومهم فحكموا عليهم بالكفر والضلال واستباحوا اضطهادهم وسفك دمائهم . وكم كان حرياً بالخوارج أن يأخذوا بالعرض الحكيم الذي قدمه لهم الخليفة الراشد علي بن أبي طالب ﷺ ، فيبقوا على وحدة المسلمين وجماعتهم ، ولهم بعد ذلك أن يحتفظوا برأيهم ، ويبشروا به إن شاءوا بالطرق السلمية .

## 2. الشيعة : نشأتهم وآراؤهم :

إن كلمة شيعة في اللغة مشتقة من المشايعة ، وهي المطاوعة والمتابعة ، وشيعة الرجل أتباعه وأنصاره ، وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة . ((وقد غلب هذا الاسم على كل من يتولى علياً وأهل بيته حتى صار اسماً خاصاً لهم )) . [ الفيروز آبادي "1983" 47/3 ]

وقد أشار طه حسين إلى أن معنى كلمة الشيعة أيام علي ﷺ هو نفس معناها اللغوي القديم الذي جاء في القرآن الكريم.[القصص،الآية:15] [سورة الصافات ، الآية: 37 ] فشيعة علي ﷺ أثناء خلافته هم أصحابه الذين بايعوه واتبعوا رأيه ، سواء منهم من قاتل معه ومن لم يقاتل. ولم يكن لفظ الشيعة أيام علي ﷺ مقصورا على أصحابه وحدهم ، وإنما كان لمعاوية شيعته أيضاً. وهم الذين اتبعوه من أهل الشام وغيرهم . [173"1975"]

ومن الواضح أن هذا المعنى اللغوي لكلمة الشيعة يختلف عن المعنى الاصطلاحي الذي يستعمله علماء الكلام والفقهاء للحديث عن الشيعة بعد أن أصاب التطور آراءهم وانقسموا إلى فرق متعددة في أواخر القرن الأول وبداية القرن الثاني الهجري. إن أهم ما يميز الشيعة من الفرق الإسلامية الأخرى هو القول بأن الإمامة من أصول الدين وهي ركن من أركانه ، لا يجوز للرسول ﷺ إغفاله وإهماله ، ولا تفويضه إلى العامة . لذا فقد ذهب علماء الشيعة إلى أن الرسول ﷺ قد أوصى بأن يتولى علي بن أبي طالب ﷺ الإمامة بعد وفاته ، ثم يورثها لأولادة من بعده .

في ضوء ما تقدم ، يرى علماء الشيعة أن نواة التشيع قد بدأت في عهد الرسول ﷺ ، إذ وجد بين الصحابة من وافقت مودته مودة علي ﷺ ، ومن هؤلاء الصحابة المقداد بن الأسود وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري ، وعمار بن ياسر ﷺ، وهم أول من سمي باسم التشيع . [ النوبختي "د.ت" 23-24 ]

ويذهب بعض الباحثين إلى أن بذرة التشيع قد ظهرت بعد وفاة الرسول ﷺ ومبايعة أبي بكر الصديق بالخلافة ، إذ رأى علياً ﷺ أنه أولى بالخلافة من أبي بكر ﷺ لقرابته من الرسول ﷺ وسابقته في الإسلام وقد وافقه على رأيه بعض أهل بيته وعدد من الصحابة ﷺ .

إلا أن هذا الرأي لا يلقى قبولاً لدى الكثير من الباحثين وذلك لأن علياً ﷺ ومن وافقه على موقفه قد بايعوا أبا بكر الصديق ﷺ بالخلافة وكذلك فعلوا مع عمر وعثمان ﷺ، وتعاونوا معهم شأنهم في ذلك شأن بقية المسلمين . ومن ثم ، فلم ينشأ حول علي ﷺ جماعة خاصة تمحضه التأييد والولاء قبل وقوع الفتنة في آخر أيام عثمان بن عفان ﷺ وتوليه الخلافة من بعده . يقول طه حسين في الدفاع عن هذا الرأي ما نصه : ((ولست أعرف نصاً قديماً أضاف لفظ الشيعة إلى علي قبل وقوع الفتنة ، فلم يكن لعلي قبل وقوع الفتنة شيعة ظاهرون ممتازون من غيرهم من الأمة)) . ["1975" 174 ]

ويرى فلهاوزن أنه ((بمقتل عثمان انقسم الإسلام إلى حزبين : حزب علي ﷺ ، وحزب معاوية ، والحزب يطلق عليه في العربية أيضاً اسم ((شيعة )) ، فكانت شيعة علي ﷺ في مقابل شيعة معاوية ، لكن لما تولى معاوية

الملك في دولة الإسلام كلها ولم يعد مجرد رئيس حزب ، أصبح استعمال اللفظ ( شيعة ) مقصوراً على أتباع علي ، ودخل هذا الاستعمال أيضاً في تعارضهم مع الخوارج )) . [ "1968" 146 ]

وقد لوحظ أنه حتى بعد ظهور شيعة الإمام علي ﷺ منذ معركة صفين ، فإن هؤلاء الشيعة لم يكونوا حزباً منظماً ، ولا شيعة مميزة ، وذلك - وبحسب تعبير الباحث غياض :((إننا لا نستطيع أن نعد في الشيعة جميع المسلمين الذين حاربوا مع الإمام علي في الجمل وصفين . فقد خذله قسم منهم ولحق بمعاوية وحارب معه . وانشق عليه قسم آخر وقاتله . أما ذلك القسم من جيشه الذي حارب معه بإخلاص في جميع المواقع، وكان يرى إمامته وفضله على سواه مخلصاً له النصرة والنصح ، فلا يمكننا أن نعده جميعاً في الشيعة . وحتى البيعة للحسن لا تعتبر عاملا مميزاً للشيعة عمن سواهم من المسلمين ، إذ أن قسماً كبيراً بايع له لموقفه العدائي من معاوية فقط وليس إقراراً لأهمية القرابة من الرسول ، ووجوب كون الإمامة في ولد علي من بعده . وهو المبدأ الأول والهام الذي تميزت به الشيعة عن بقية المسلمين )) . [غياض "1973" 23 ]

ويبدو للباحث، أن الشيعة - كحزب سياسي - بمحض ولاءه وإخلاصه الإمام علي ﷺ كان قد ظهر في هذه المرحلة ، ولكن ليس على أساس إقرار شيعة الإمام علي ﷺ بأهمية قرابته من رسول الله ﷺ ووجوب كون الإمامة في ولده من بعده ، وإنما لأنه كان في نظرهم أفضل من بقي من صحابة رسول الله ﷺ، وذلك لأن العرب لم يكونوا يعترفون بحق الأقربين في وراثة الرياسة وكأنها ملك خاص كما هو الأمر عند الفرس .

وهكذا فقد كان على هذا الحزب ((الشيعة )) أن يمر بكثير من التطورات السياسية القاسية كاستشهاد الإمام علي ﷺ على يد الخوارج ، وتنازل ولده الحسن ﷺ عن الخلافة لمعاوية ، واستشهاد ابنه الثاني الحسين ﷺ لدى خروجه إلى العراق ، ثم ما أعقب ذلك من اضطهاد للشيعة من قبل ولاة بني أمية ، كي تظهر المعالم الفكرية والعقائدية له . وكان مما ساعد على نضج وتكامل الملامح العقائدية للشيعة دخول اعداد كبيرة من الموالي في صفوفهم وإسهام تراثهم الثقافي القديم في رفد الفكر الشيعي بالعديد من المعطيات .

وكانت ((الكيسانية ))، وهي فرقة شيعية تنسب إلى كيسان مولى علي بن أبي طالب ﷺ أول الفرق الشيعية التي عبرت عن هذا التطور وقد تمثل ذلك في إضفاء صفات القداسة على شخصية ( الإمام ) ، وهو عندهم محمد بن علي ﷺ المعروف بابن الحنفية، (وبدأت منذ ذلك الوقت تتجسد فكرة الإمامية)، وتظهر نظريات (المهدية ) و((الوصاية)) ، ثم (الرجعة ) ... )) . [ الريس "1957" 55-58 ] ، وقد انتقلت هذه

النظريات في الإمامه بعد ذلك إلى الفرق الشيعية الأخرى التي ظهرت في أوقات لاحقة مثل الامامية الجعفرية والاسماعيلية والزيدية وغيرها.

يظهر مما تقدم ، أن حركة التشيع قد مرت بتطور طويل استمر أكثر من مائة عام حتى أخذت ملامحها العقائدية المعروفة لدى علماء الكلام . وعلى الرغم من وجود اختلافات كثيرة بين فرق الشيعة في تفاصيل المبادئ التي تقوم عليها عقيدتهم فإن هنالك قواعد عامة تعد بمثابة قواسم مشتركة بينهم ، وهي تتلخص بالقول إن الرسول ﷺ أمر بتولي علي وأبنائه الإمامة من بعده عن طريق النص والوصية ، وان من يغتصب الإمامه منهم فإنه ظالم وخارج عن أوامر الله ورسوله ﷺ وفضلاً عما تقدم ، فإنهم يعتقدون بعصمة الأئمة وكمالهم وتنزههم عن ارتكاب الذنوب كبيرة كانت أم صغيرة . [ الشهرستاني 139/1 ]

### 3. المرجئة : نشأتهم وآراؤهم :

إن كلمة ((المرجئة )) اسم فاعل مشتق من ((الإرجاء))، والإرجاء في معاجم اللغة يعني ((التأخير)) ، كما قد يعني ((إعطاء الرجاء)) . [ابن منظور "د.ت" 1/ 139 ]

وقد أطلق هذا الوصف على إحدى الفرق الإسلامية وهم ((المرجئة )) لأنهم كانوا يرون تأخير الحكم على صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة ، فهم على نقيض الخوارج الذين كانوا يسارعون إلى إصدار الأحكام على الناس بالكفر والإيمان . كما أطلق وصف المرجئة على من كانوا يرون تأخير علي ﷺ في استحقاق الخلافة من الدرجة الأولى إلى الدرجة الرابعة ، وعلى هذا ، فإن هؤلاء المرجئة يقفون إلى جانب أهل السنة في مواجهة الشيعة . وقد أشار الشهرستاني إلى أن هذه التسمية أطلقت على المرجئة لأنهم كانوا يمنحون الرجاء للعصاة بقولهم : ((لا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة)).

وتتفاوت المصادر في الحديث عن فرق المرجئة ما بين مكثر يوصل عددهم إلى اثنتي عشرة فرقة ، وما بين مقل يذكر أن عددهم أربع فرق . وهم في هذا الإحصاء لا يعتمدون معياراً دقيقاً في الحكم والتقسيم . لذا فقد اتجه الباحثون المعاصرون إلى دراسة المرجئة من خلال استخدام المنهج التاريخي الذي يرفض دراسة الأفكار دراسة مجردة ، بمعزل عن الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي أحاطت بنشأتها. وهكذا أصبح بالإمكان النظر إلى الإرجاء بصفته تياراً فكرياً واحداً اتخذ في مسار حركته أشكالاً متعددة بحسب الظروف التاريخية التي أحاطت به وهو في جوهره يقوم على فك الارتباط ما بين العمل والإيمان ، حتى لا تتوقف صحة الإيمان على الأعمال .

ويلاحظ أن ((الإرجاء )) في حقيقته ليس مسألة دينية اعتقاديه بحتة تدور حول الإيمان والكفر - كما يبدو في الظاهر - ، وإنما هو موقف سياسي يتصل بحق المواطنة وما يترتب

عليه من آثار خطيرة ((فالإيمان كان يحمل معه حق (المواطنة ) في الأمة الإسلامية ، وبالتالي فالطعن في إيمان المرء معناه إخراجه من (دار الإسلام ) ، الشيء الذي يعني إهدار دمه ، فالقضية خطيرة إذاً ، والاختلاف فيها مبرر تماماً)) .[ الجابري "2000" 315-316 ]

فلا غرابة إن قال بالإرجاء أشخاص وفئات تتعارض أفكارهم ومواقفهم تعارضاً شديداً . ومن هنا ، رأى الشهرستاني أن هنالك ((مرجئة الخوارج ، ومرجئة القدرية ، ومرجئة الجبرية ، والمرجئة الخالصة )) . [ الشهرستاني "1961" 139/1 ] لذا فإننا سنعرض في النقاط الأتية أبرز الاتجاهات التي ظهرت في تيار المرجئة بحسب سياق الأحداث في صدر الإسلام :-

1. ربما كان أول من مهد الطريق لظهور تيار (الإرجاء ) هم أولئك الرجال الذين عادوا إلى المدينة من الجهاد ، فرأوا الناس مختلفين بعد مقتل عثمان بن عفان ﷺ ، هذا مع عثمان ﷺ وأصحابه وذاك مع علي ﷺ وأنصاره ، فرفضوا الانحياز لأحد الفريقين ، وقالوا: ((كلهم ثقة وعندنا مصدق ، فنحن لا نتبرأ منهما ، ولا نلعنهما ، ولا نشهد عليهما (ونرجئ) أمرهما إلى الله حتى يكون الله هو الذي يحكم بينهما)). [امين "1964" 279 ]

2. ويبدو أن مقولة هؤلاء ، المرجئة قد تطورت إثر ظهور دعوات التكفير بين الأحزاب والجماعات الإسلامية المتصارعة حتى لم يسلم من التكفير أحد وبضمن ذلك الصحابة والخلفاء الراشدون ، فظهر بين المسلمين من يرجئ الحكم على أعمال هؤلاء الناس المختلفين إلى الله يوم القيامة ، ويقول : (( إن الفرق الثلاث، الخوارج والشيعة ، والأمويون مؤمنون، وبعضهم مخطئ وبعضهم مصيب ، ولسنا نستطيع أن نعين المصيب ، فلنترك أمرهم جميعاً إلى الله )) . [ امين " 1964" 280]

وقد ذكر الشهرستاني أن ممن كان يقول بالإرجاء من أئمة الحديث ، و لم يكفروا أصحاب الكبائر بالكبيرة ، و لم يحكموا بتخليدهم في النار : الحسن بن علي بن أبي طالب ، وسعيد بن جبير ، ومقاتل بن سليمان ، وحماد بن أبي سليمان ، وأبو حنيفة ، ومحمد بن الحسن ، وغيرهم .

ويشير أبو الحسن الأشعري إلى أن أبا حنيفة وأصحابه كانوا من المرجئة ، وهم : ((يزعمون أن الإيمان المعرفة بالله ، والإقرار بالله، والمعرفة بالرسول ، والإقرار بما جاء من عند الله في الجملة دون تفسير . . . )) ويضيف أن أكثر أصحاب أبي حنيفة ((يحكون عن أسلافهم أن الإيمان هو الإقرار والمحبة لله والتعظيم له ، والهيبة منه ، وترك الاستخفاف بحقه ، وأنه لا يزيد ولا ينقص )) . [ "1985" 202-204 ]

3. أشار بعض الباحثين إلى أن الأمويين قد استفادوا من موقف المرجئة لأنهم دعوا إلى إرجاء الحكم على أعمال الناس إلى يوم القيامة ، وربما كان ذلك صحيحا ، ولكن من الصحيح أيضاً أن بعض خصوم الأمويين كجهم بن صفوان من

مرجئة الجبرية ، وغيلان الدمشقي من مرجئة القدرية قد شجعوا الموالي على الثورة والعصيان ضد الحكم الأموي استنادا إلى مقولات الإرجاء نفسها ، وذلك لأنهم عدوا هؤلاء الموالي مسلمين مؤمنين بمجرد إعلان إسلامهم وبذلك تسقط عنهم الجزية وغيرها من التكاليف المفروضة على أهل الذمة . وحين طالب الأمويون هؤلاء الموالي بأن يبرهنوا على إيمانهم بالعمل وأداء الفرائض كي يقبلوا دعواهم بأنهم قد أصبحوا مسلمين ... رفضوا هذا الطلب وعدوه ظلما وتعسفا وخرجوا على سلطان الدولة تحت شعار الإرجاء ((لا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة )). وكان الشاعر ثابت بن قطنة قد شارك مع الجهمية في الثورة على الحكم الأموي إلى جانب موالي (السفد)، وعبر عن أفكار المرجئة في قصيدة جميلة كان من أبياتها [ عمارة "1977" 168-175 ] :

يا هند فاستمعي لي إن سيرتنا
أن نعبد الله لم نشرك به أحدا
نرجي الأمور إذا كانت مشبهة
ونصدق القول فيمن جار أو عندا
المسلمون على الإسلام كلهم
والمشركون استووا في دينهم
قددا
ولا أرى أن ذنبا بالغ أحدا
م الناس شركاً إذا ما وحدوا الصمدا
لا نسفك الدم إلا أن يراد بنا
سفك الدماء طريقاً واحداً جددا

## 4. المعتزلة : نشأهم وآراؤهم :

كان ظهور المعتزلة في أوائل القرن الثاني للهجرة ثمرة تفاعل وصراع عنيف بين مختلف تيارات الفكر السياسي والديني الإسلامي والتي تمثلت في الخوارج والشيعة والمرجئة وغيرها. ويبدو أن حركة الاعتزال قد تكونت في رحم حركة المعارضة للحكم الأموي وعبرت عن نفسها في مرحلتها الجنينية من خلال أفكار تتصل بالدعوة إلى حرية الإرادة الإنسانية أو (القول بالقدر) ، أي قدرة الإنسان على صنع أفعاله في معارضة (الاعتقاد بالجبر) وهو يعني عجز الإنسان عن اختيار أفعاله لأنه مسير من الله تعالى في شؤون حياته كافة وليس مخيرا. وقد اقترن بفكرة القول بالقدر الإيمان بالعدل الإلهي ، لأن الله لا يمكن أن يجبر الإنسان على فعل شيء ثم يحاسبه عليه (ثوابا أو عقابا). لذا كان من مستلزمات العدل الإلهي ، الإيمان بـ (الوعد والوعيد) أي أن ينجز الله وعده للمؤمنين بإدخالهم الجنة ، وينزل عقابه بالكافرين العاصين بإدخالهم نار جهنم يوم القيامة .

وقد تكامل مع المبادئ آنفة الذكر الإيمان بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنه أجلى تعبير عن ممارسة الإنسان لحرية الإرادة والسعي لإقامة حياة عادلة . لذا فقد عرف أصحاب التيار الذي حمل هذه المبادئ باسم ((أهل العدل والتوحيد)) ، كما أطلق عليهم وصف (( القدرية )).

وتشير المصادر إلى أن رجال هذا التيار من أمثال واصل بن عطاء (80هـ-131هـ)، وعمرو بن عبيد (80هـ - 144 هـ) كانوا يجتمعون في مجلس الحسن البصري (ت 110هـ) ويتصرفون كأنهم من أتباعه . وكانت من المسائل الساخنة التي يجري الكلام حولها في ذلك الوقت بيان حكم الشرع في مرتكب الكبيرة : هل هو مسلم كما هو الرأي عند الحسن البصري وغالبية فقهاء المسلمين مع التسليم بأن معصيته تجعله مستحقا لوصف منافق أو فاسق ، ومن ثم معاقبته بدخول نار جهنم مع احتمال أن يغفر الله له ويرحمه بسبب إسلامه ، أم هو كافر مخلد في النار كما كان يقول الخوارج . [ البغدادي "1973" 97-98 ] وقد صادف أن دخل رجل مجلس الحسن البصري ليسأله رأيه في هذه المسألة ، هل هو مع رأي الخوارج الذين يكفرون مرتكب الكبيرة أم مع رأي المرجئة الذين يرون أنه لا يضر مع الإيمان معصية ، فتفكر الحسن في ذلك : ((وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة ، مؤمن مطلقا، ولا كافر مطلقا، بل هو في منزلة بين المنزلتين : لا مؤمن ولا كافر، ثم قام واعتزل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن ، فقال الحسن : اعتزل عنا واصل ، فسمي هو وأصحابه معتزلة )) . [الشهرستاني "1961" 48/1 ]

وهكذا فقد أصبحت هذه الواقعة ، بداية تكامل أصول المعتزلة الخمسة ، إذ أضيف إلى أصولهم الأربعة السابقة وهي : العدل ، التوحيد، الوعد والوعيد ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الأصل الخامس ، وهو : المنزلة بين المنزلتين . وبذلك تميزوا من مدرسة الحسن البصري وخالفوا بقية الفرق الإسلامية ((فقال الناس يومئذ فيهما أنهما قد اعتزلا قول الأمة وسمي أتباعهما يومئذ معتزلة )) .

وقد أوضح الشهرستاني وجهة نظر واصل بن عطاء في أن مرتكب الكبيرة هو في منزلة بين المنزلتين بقوله : ((إن الإيمان عبارة عن خصال خير إذا اجتمعت سمي المرء مؤمناً ، وهو اسم مدح . والفاسق لم يستجمع خصال الخير ولا استحق اسم المدح ، فلا يسمى مؤمناً ، وليس هو بكافر مطلقا أيضا. لأن الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة فيه ، لا وجه لإنكارها، لكنه إذا خرج من الدنيا على كبيرة من غير توبة فهو من أهل النار خالد فيها ، إذ ليس في الآخرة إلا فريقان : فريق في الجنة ، وفريق في السعير ، لكنه يخفف عنه العذاب ، وتكون دركته فوق دركة الكفار)) . [الشهرستاني "1961" 48/1 ]

يظهر مما تقدم ، أن واصل بن عطاء الذي سيصبح مؤسس فرقة المعتزلة بعد إعلان هذه المقولة : أراد أن يتوسط في حكمه على مرتكب الكبيرة بين تشدد الخوارج وتسامر المرجئة ، وفضلاً عن ذلك : أن يتجاوز موقف

أستاذه الحسن البصري وغيره من الفقهاء والمحدثين في موقفه المتشدد من مرتكب الكبيرة . وهنا، قد يكون من الضروري التوقف للإجابة عن تساؤل : ما هي هذه ((الكبيرة )) التي يشير الحكم على مرتكبها كل هذا الخلاف والانقسام في المجتمع الإسلامي؟ . . . هل هي ارتكاب بعض المعاصي دينيا كشرب الخمر والزنا والقتل، أو التقصير في أداء الفرائض كالصلاة والصيام والزكاة والحج ، أم غيرها ؟ يبدو من استقراء النصوص التي أوردها المصادر أن سبب الخلاف لم يكن الموقف من أصحاب هذا النوع من المعاصي الدينية ، وإنما هو الموقف من الخلافات حول مسألة الخلافة وما دار حولها من صراعات منذ عهد الخليفة عثمان ﷺ حتى العهد الأموي، وكذلك الحكم على أعمال الخلفاء الأمويين والمظالم التي تنسب إليهم . وهكذا فإن أصحاب الخلاف حول الحكم على مرتكب الكبيرة قد أعطوا لأنفسهم الحق في إصدار الأحكام على أطراف التراعات السياسية من الصحابة والتابعين وغيرهم ما بين متوقف عن الحكم عليهم ، أو مكفر لهم ، أو مفسق ، كل بحسب المقولات التي قام عليها مذهبه . [البغدادي "1973" 102-99 ]

يظهر مما تقدم ، أن المعتزلة هي فرقة إسلامية استكملت عناصر تكوينها الفكري في أوائل القرن الثاني من الهجرة ، وكانت لها آراؤها الواضحة في (الفتنة ) ، وما دار حول مسألة الخلافة من خلاف ، وما ظهر في المجتمع الإسلامي من جدل في أمور الدين والدولة . لذا فإن من المستبعد أن تكون هذه الفرقة امتدادا لأولئك الصحابة الذين اعتزلوا الخلافات السياسية التي ظهرت في المجتمع الإسلامي إثر وقوع الفتنة والانقسام بين المسلمين .

**أ.د. هاشم يحيى الملاح**

## المصادر والمراجع :


القرآن الكريم

الاسفراييني ، أبو المظفر (ت 471 هـ/1076م) (1955) التبصير في الدين وتميز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين ، حققه محمد زاهد الكوثري ، بغداد .

الأشعري ، أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت 330هـ/941م))(1985) مقالات الإسلاميين ، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، ط2.

البغدادي ، عبد القاهر بن طاهر (ت 429هـ/1037م)(1973) الفرق بين الفرق الناجية ، بيروت .

ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت 878هـ/1405م )(د.ت) العبر في ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، بيروت، دار الكتاب اللبناني .

الزبيدي ، محمد مرتضى الحسيني (ت 205هـ/1790م )(د.ت) تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق عبد العليم الطحاوي .

ابن سعد، محمد (ت 230هـ/844م) (1960) الطبقات الكبرى ، بيروت، دار الراصد .

الشهرستاني ، محمد بن عبد الكريم (ت 479هـ/1086م )(1961) الملل والنحل ، تحقيق محمد سيد الكيلاني ، مصر .

الطبري ، محمد بن جرير (ت 310هـ/922م)(1967) تاريخ الرسل والملوك ، مصر ، دار المعارف .

ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت 276هـ/889م )(1957) الإمامة والسياسة ، منسوب مصر .

الكوفي ، أحمد بن أعثم (ت 314هـ/926(د.ت) كتاب الفتوح ، بيروت ، دار الندوة الجديدة .

المبرد ، محمد بن يزيد ( ت 295 هـ/898م )(د.ت) الكامل ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاتة ، مصر . (1976) أساليب تداول السلطة في الدولة العربية الإسلامية ، مجلة آداب الرافدين ، الموصل، كلية الآداب .

مجمع اللغة العربية في القاهرة(1985) المعجم الوسيط ، القاهرة .

النوبختي ، الحسن بن موسى (ت 310هـ/922م)

(د.ت) فرق الشيعة ، بيروت ، دار الفكر.

ابن هشام ، محمد بن عبد الملك (ت 218هـ/833م )

(1955) السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، مصر .

## المصادر العربية والمعربة :


أمين، أحمد

(1964) فجر الإسلام ، القاهرة ، ط 9.

الجابري ، محمد عابد.

(2000) العقل السياسي العربي، بيروت ، ط 4 ، أغسطس .

الريس ، ضياء الدين ،

(1957) النظريات السياسية الإسلامية ، القاهرة ، ط 2 .

أبو زهره ، محمد أحمد

(د.ت) المذاهب الإسلامية ، القاهرة سلسلة الألف كتاب 177 .

السيد ، رضوان ،

(1984) الأمة والجماعة والسلطة، بيروت ،دار اقرأ .

الشابي ، علي

(1977) مباحث في علم الكلام والفلسفة ، تونس .

طه حسين .

(1975) الفتنة الكبرى (علي وبنوه ) ، القاهرة ،دار المعارف .

عمارة ، محمد

(1977) الخلافة و نشأة الأحزاب الإسلامية ، بيروت .

غياض ، محسن

(1973) التشيع وأثره في شعر العصر العباسي الأول ، النجف .

فلهاوزن ، يوليوس

(1968) تاريخ الدولة العربية ، نقلا عن الألمانية د. محمد عبد الهادي أبو ريدة ، القاهرة .

(1968) الخوارج والشيعة ، نقلا عن الألمانية د. عبد الرحمن بدوي ، القاهرة .

القاضي ، وداد ،

(1974) الكيسانية في التاريخ والأدب ، بيروت .

الملاح ، هاشم يحيى

(1991) الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة ، الموصل

## العلاقات الخارجية

كان مصطلح " الدولة" ما يزال ملتبسا في خلافة بني أمية، التي شكلت المعادلة القبلية عنصر التوازن فيها، مما يعني أن " مؤسساتها " الإدارية والسياسية والعسكرية، ظلت محكومة بهذه المعادلة، حتى سقوطها نتيجة إختلال الاخيرة. وعندما تكون دولة، فمن الطبيعي قيام علاقات بينها وبين القوى المجاورة، تنظم في إطار الثقافة والإقتصاد والجغرافية، وما إلى ذلك من شؤون السلم والحرب.

ولعل السياسة الخارجية في المجتمعات القديمة، دون أن نستثني منها المجتمع الأموي، كان لها مفهوم آخر، تكاد تختصره العلاقات العسكرية. أما الحوار في مسائل تخص المصالح المتبادلة فكان مفقودا بينها، وإن وجد فهو لا يتعدى الهامش الصغير في سياساتها الخارجية. بيد أن ذلك لا يعني في المطلق أن الأمويين لم تكن لهم سياسة خارجية، وأن هذه غائبة تماما عن تراث المرحلة، فهي بدءا مع الإسلام وفي صميم دعوته الموجهة إلى العالم كافة، حاملة في خطابها النبرة الشمولية، التي جعلتها- أي الدعوة- تنفذ بسرعة إلى العقل، وليست فقط تجتاح الأراضي وتسقط الأنظمة العريقة. ويمكننا التأسيس هنا على تجربة الرسول ﷺ في المدينة، حيث كانت نواة السياسة الخارجية في العلاقة مع اليهود، وفقا للشروط المندرجة في " الصحيفة" ، بصدد التعايش بينهم وبين المسلمين، والتحذير من الإخلال بأمن المدينة، او التآمر عليها مع طرف خارجي. و لم تكن السرايا والغزوات التي انطلقت بعد شهور على "الهجرة" ، تتوخى أهدافا عسكرية فحسب، بل كانت ترمي إلى محاولة استقطاب القبائل في المنطقة، أو تحييدها، في الاقل، في الصراع بين الإسلام والوثنية. وقد نجد ملامح أكثر وضوحا في هذا السياق، في الحملات التي وجهت إلى تخوم الشام، أو توغلت مسافة في أراضيها، لاسيما حملتي مؤتة وتبوك.

ولعل كلا من الحملتين، كانت موجهة في الأساس إلى القبائل العربية المتنصرة في الشام ومتصلة بحدث يندرج في السياسة الخارجية للرسول ﷺ ، عنيت به "الكتب" التي وجهها إلى ملوك ذلك الزمن، يدعوهم فيها إلى الإسلام (العام السابع للهجرة –629م). ولسنا معنيين هنا بمناقشة هذه المبادرة التي ربما اتسمت برأي كثيرين بغير الواقعية، انطلاقا من التفاوت الكبير حينذاك في الموقع السياسي بين الرسول ﷺ وأولئك الملوك. ولكن هذه " الكتب" يمكن فهمها من منظور أكثر شفافية، عندما عبر الرسول (صلى الله عليه وسلم ) من خلالها، لاسيما بعد اطمئنانه إلى مسيرة الدعوة، عن ضرورة الإعلان عنها خارج محيطها، استجابة لخطابها التبليغي الشمولي كما سبقت الإشارة.

ولم تكن المسألة مبسطة إلى حد الاعتقاد بقبول أي من الملوك ما دعاه إليه الرسول ﷺ، بقدر ما توخى إشعار هؤلاء بما حدث من تغير في حياة المنطقة، لن تكون انظمتهم في منأى عنه على المدى القريب أو البعيد. كما أن العرب في الشام لن يكونوا خارج اهتمام الرسول ﷺ محذرا في كتابه إلى هرقل من سوء معاملتهم، وهم الذين أشارت إليهم الرواية التاريخية باسم الأريسين (الأكارين ) . [ الطبري "1964" 87/3].

ومن هذا المنطلق نفسر توجه حملة مؤتة (8 هـ/ 630 م ) التي تعكس سياسة الرسول ﷺ في هذا المجال، لا سيما وأن الشام كانت تشكل إمتدادا طبيعيا للحجاز، بما يحمله ذلك من أهمية على الصعيد الإقتصادي، فضلا عن التواصل المباشر مع القبائل العربية المنتشرة على طريق التجارة، هادفا في المقام الأول إلى " تحريرها" من النفوذ البيزنطي. ولم تكن الغاية من الحملة (السرية)، الصدام العسكري مع القوة العظمى في الشام، بقدر ما توخت لفت النظر إلى ما يجري في الحجاز، في وقت كان " هرقل" منصرفا إلى اعادة ترتيب أوضاع المنطقة في أعقاب استعادتها من السيطرة الفارسية، جاعلا القبائل العربية تحت سيطرته المباشرة، ولاغيا ما كان يعرف بـ" الحاجز" الممثل بالإمارة الغسانية التي تمتعت بشيء من الإستقلال، والنفوذ على القبائل النازلة إلى الجنوب منها. ولقد استطاعت الحملة التي توغلت حتى مؤتة في البلقاء، استدراج الجيش البيزنطي الكبير، من دون أن تنجر إلى صدام مباشر معه، على الرغم من استشهاد نحو عشرة من عناصرها، بمن فيهم القادة الثلاثة الكبار.

ولكن حملة مؤتة من منظور اخر، حققت انتصارا سياسيا على جبهة القبائل العربية الدائرة في الفلك البيزنطي، وسرعان ما توجة في هذا الإطار بعد عام فقط(9هـ /631 م )، بغزوة الرسول (صلى الله عليه وسلم ) إلى تبوك، والتي أسفرت عن معاهدات مع عدد من القبائل النازلة في أيلة وجرباء وأذرح ودومة الجندل وغيرها، مكرسة ما شرع في تنفيذه الرسول ﷺ، وهو "استعادة" هذه القبائل إلى فلكها العربي، وجعلها على احتكاك برسالة الاسلام . وسيؤدي ذلك إلى تمهيد الطريق أمام حملات الفتوح إلى الشام، حيث كان لهذه القبائل دور كبير في تسهيل حركة العرب المسلمين، ومد قادتهم بالمعلومات عن أوضاع الجيش البيزنطي وخططه وانتشاره، مما أسهم في تحقيق انتصاراتهم العظيمة.

واذا كان علينا ربط السياسة الخارجية بعمليات الفتوح، فإن خلافة بني أمية تحتل موقعا مهما في ما حققته من انتصارات باهرة في الشرق والغرب. ولكن هذه الموضوعة، منفصلة، أو ستحاول فصلها عن تلك العمليات بإصلاحها السائد في ذلك الحين. فقد قامت الخلافة الأموية في الشام، حيث كانت لهذه المنطقة ظروف خاصة، وضعت السلطة فيها أمام

تحديات صعبة، سواء على صعيد المبادرات الهجومية الملائمة، أم على الصعيد الدفاعي إذ كان التهديد البيزنطي أحد أبرز هواجسها المقلقة. فلم يكن البيزنطيون قد تخلوا عن فكرة العودة إلى الشام، الأمر الذي دفع الخليفة معاوية وإليها حينذاك إلى تحصين ثغورها البحرية، والشروع في تأسيس الأسطول في قاعدة عكا، بمساعدة خبراء من سكان الساحل الشامي. ولقد تطورت تلك السياسة في عهد بني مروان، حين اهتم الخليفة عبد الملك بتعزيز الجبهة الدفاعية على الساحل، وتحصين الثغور المواجهة للبيزنطيين في عمق آسيا الصغرى.

كما تقتضي الإشارة هنا إلى أن المشروع الرامي إلى إستعادة الشام، اعاقته أيضاً الخلافات العميقة في القسطنطينية ، مما جعل البيزنطيين يتحولون إلى الموقع الدفاعي، منهمكين في تحصين حدودهم أمام الثغور الأموية، لاسيما حماية عاصمتهم، بتامين الوسائل كافة لإفشال الحملات المستهدفة لها. بمعزل عن الفتوحات إذاً، يمكننا العثور على معطيات على الجبهة البيزنطية، تشكل إضاءات على موضوعة السياسة الخارجية، على الرغم من اندراج بعضها أو الكثير منها في المشروع الحربي التوسعي. كذلك سنجد معطيات ربما أكثر تعبيرا عن هذه السياسة على جبهة الخزر، وهي بمجملها لم تأخذ ما تستحق من الإهتمام في الدراسات التاريخية. ولن تكون خارج هذا الإطار، تلك العلاقات مع الترك، والتي بلغت ذروتها في عهد الخليفة عبد الملك وعامله على العراق والمشرق الإسلامي، الحجاج بن يوسف الثقفي.

### 1-العلاقة مع البيزنطيين :

خلافا لجبهتي المغرب والمشرق، حيث حققت الجيوش الأموية انتصارات باهرة، وصلت بالسيادة العربية الإسلامية الى أوروبا وإلى تخوم الصين ، فإن الجبهة الشمالية ( البيزنطية ) ظلت غير محسومة، وأعاقت توغل الجيوش بعيدا فيها، وذلك نتيجة تحديات تطلبت مواجهتها شروطا موضوعية لم يتوافر سوى القليل منها في ذلك الوقت. ولعلنا نستطيع مقاربة التحديات على هذه الجبهة، استناداً إلى الاسباب الآتية :

1- أن الدولة البيزنطية هي بقية الأمبراطورية الرومانية التي تمثل الصورة الساطعة في الوعي التاريخي الأوروبي، وما انفكت حاضرة فيه حتى انتشار المسيحية وانبعاث الأمبراطورية تحت مظلتها "المقدسة" بعد نيف وثلاثة قرون من الزمن. وهذا يعني أن الدولة البيزنطية كان لها بصورة عامة العمق الأوروبي الذي وفر لها حدا من الصمود، على الرغم من الخلافات الدينية بينها وبين الغرب.

2- إن هذه الدولة، على الرغم من الانحسار الذي آلت اليه، بعد فتوح الشام ومصر، استفادت من عاملين جغرافيين :

أ- طبيعة المنطقة الفاصلة في آسيا الصغرى، حيث واجه العرب المسلمون ضغوطا شديدة،

ليس في التوسع فحسب، بل في الحفاظ على الثغور في منطقة تتصف بالوعورة وبرودة المناخ.

ب-مناعة العاصمة البيزنطية ( القسطنطينية) بفضل موقعها المحاط بالمياه من جهات ثلاث، وأسوارها العالية، وتفوقها في السلاح البحري على الأمويين.

3- افتقاد القوات الأموية إلى الخبرة، ليس في الحروب البحرية فحسب، بل في التكيف عموما مع الظروف الصعبة التي واجهتهم، سواء ما تعلق بمستوى السلاح وأدوات الحصار، أم الوقت الذي فشلوا في توظيفه لمصلحتهم على هذه الجبهة.

وفي ضوء ما سلف، كان من الطبيعي أن يتنبه الأمويون مبكرا على خطر البيزنطيين على مركز نفوذهم في الشام، هذا الخطر الذي تجلى حينا في توتير جبهة الحدود عندما تسمح لهم ظروفهم السياسية بذلك، وحينا آخر في استغلال الإضطرابات الداخلية في خلافة بني أمية، بدفع احدى الفرق في جيشهم (المردة أو المردائيون)، إلى التوغل في بعض مناطق الشام، متحالفة مع فئات كانت ما تزال " تمالئ" الروم. [ البلاذري "1959" 164 ] وهذه الموضوعة تستحق وقفة لإضاءة الجانب الإشكالي الزمني فيها من جهة، ولكونها تندرج في السياسة الخارجية لخلافة بني أمية، بما انطوت عليه من عهود واتفاقات مع البيزنطيين من جهة ثانية.

وبداية يجب توضيح لبس أساسي في هذه الموضوعة، وهو أن الروايات التاريخية لم يرد فيها ذكر للمردة باسمهم، ولكن هؤلاء وردوا تحت اسم (( الجراجمة )) المنتسبين إلى (( الجرجومة)) ، تلك القرية التي خضعت للعرب المسلمين في سياق الفتوح الشامية. وقد عقد أبو عبيدة بن الجراح (ت 18 هـ/239م) مع أهلها اتفاقا بأن لا يكونوا " عيونا " لأعداء المسلمين ( البيزنطيون) عليهم. وظل المؤرخون العرب حتى اليوم، يلتبس عليهم الأمر، فيجعلون الجراجمة، الخاضعين لسلطة الخلافة، المردة انفسهم " الخارجين " إليها من الدولة البيزنطية ، حيث كانوا فرقة في جيشها كما سبقت الاشارة.

ولعل المصدرين الوحيدين في هذا المجال هما : " فتوح البلدان " للبلاذري ( ت 279 هـ / 892 م ) ، و " حولية " ثيوفانس المؤرخ البيزنطي ( ت 818 م ). فقد وصف الأول المردة- من دون ذكرهم باسمهم هذا – بخيل الروم ، " خرجت إلى جبل اللكام...ثم صارت إلى لبنان، وقد ضوت إليها جماعة كثيرة من الجراجمة وأنباط وعبيد أباق من عبيد المسلمين". [ "1959" 164 ] أما في نص " الحولية " فقد ذكروا باسمهم الاصلي Mardaitai ، المشتقة منه كلمة " المردة" ، وأنهم " دخلوا" إلى الشام ، متفقا في ذلك مع المؤرخ العربي. وهذا يعني أن تلك الفرقة وفدت على الشام من مناطق النفوذ البيزنطي، حيث انحازت إليها مجموعات كانت

ما تزال تتعاطف مع البيزنطيين وفي طليعتها الجراجمة.

وليست هذه الإشكالية ما تهمنا بالذات، وأنما العلاقات الأموية- البيزنطية في ضوء الحملات التي قام بتنفيذها المردة والتي كان توقيتها متوافقا مع حالات اضطراب سياسي في المنطقة الشامية. وكانت الحرب بين الطرفين قد توقفت بصورة عامة منذ هزيمة البيزنطيين في معركة " ذات الصواري" (34 هـ/ 656 م) البحرية، فوجد هؤلاء فرصة للتحرك بعد احتدام الصراع الداخلي في الشام، وسرعان ما توغلت فرقة من أولئك "المردة" في المنطقة بأمر من الأمبراطور البيزنطي . [ يحيى "1987" 17 ]

وقد تقرأ هذه المسألة من باب العلاقة بين البيزنطيين وأرمينية، وانعكاس ذلك على مصالح الخلافة الأموية في المنطقة. فقد روى ثيوفانس أن والي أرمينية سابوريوس تمرد على الإمبراطور البيزنطي، واتصل بمعاوية بن أبي سفيان الذي كان حينذاك عاملا للخليفة عثمان ﷺ على الشام، عارضا التحالف معه مقابل سيطرة العرب المسلمين على المنطقة الواقعة في دائرة النفوذ البيزنطي. فلم يتردد الإمبراطور بدوره في الاتصال بمعاوية، موجها إليه " سفيرا" يفاوضه على السلام وعدم مساعدة الحاكم الأرمني ويبدو أن عامل الشام، المنصرف حينذاك إلى تحضين ولايته، لم يرفض مبادرة الإمبراطور، ولكنه في الوقت عينه لم يستجب لرغبة الأخير في إنهاء حالة الحرب وعقد معاهدة سلام بين الطرفين. ولكن ما فشل فيه الإمبراطور كونستانس، عمل خليفته ( قسطنطين الرابع ) على تحقيقه، مستغلا انهماك معاوية في حروب صفين، فوجه تلك الفرقة المرابطة في الأناضول (المردة)، إلى الشام ، هادفا إلى إحراج واليها ودفعه إلى التفاوض على السلام معه. وكانت هذه الفرقة قد تسللت إلى جبال لبنان، وأخذت تشن غارات منه على مناطق في الشام، مما دفع معاوية إلى التجاوب مع الإمبراطور، مقابل سحب الفرقة من بلاده. ولكن ما رواه المؤرخ البيزنطي عن المعاهدة لم يرد ذكره في المصادر العربية، مما يحمل على الاعتقاد بأن الأمر لم يتعد الهدنة التي كان ثمنها حينذاك مفاوضة الإمبراطور على الصلح الذي تم لقاء ثلاثة آلاف قطعة من الذهب وخمسين عبدا وخمسين جوادا عربياً في كل سنة مقابل سحب فرقته العسكرية من الشام. فقد كانت الحرب مع البيزنطيين تنطلق من ثوابت في السياسة الخارجية لبني أمية ، وظلوا ملتزمين بها طوال عهودهم. ومن هذا المنظور نفسر مبادرة معاوية بعد أن أصبح خليفة إلى إقامة النظام الحربي المعروف بالصوائف ، والمخصص للغزوات الدورية ضد البيزنطيين.

وهكذا ظلت سياسة بني أمية تتسم بالعداء للبيزنطيين، وفي المقابل ظل هؤلاء يتربصون بالشام ويرصدون تطوراتها الداخلية، لا سيما بعد الفراغ الذي شهدته في أعقاب وفاة الخليفة يزيد (64 هـ/683 م) وسقوط الحكم السفياني. ومرة أخرى كان

المردة وسيلة البيزنطيين الضاغطة في هذا السياق، عندما لجأ الإمبراطور جستنيان الثاني إلى الضغط على الخليفة عبد الملك بن مروان، في وقت كان فيه منصرفا إلى تثبيت نظامه وإعادة توحيده، فهاجم أحد الثغور الأموية (المصيصة)، ولكنه فشل في استدراج الخليفة إلى الحرب، قبل الإنتهاء من مشاكله الداخلية، فصالحه وبعث بأموال كثيرة إليه . [ اليعقوبي "1960" 269/2]

و لم يلبث أن توفي الإمبراطور جستنيان، فخلفه ابنه يوستنيانوس الثاني الذي نقض الاتفاق السالف ، وأوعز إلى تلك الفرقة ( المردة) بالتحرك، فانتشرت مع حلفائها المحليين ما بين جبال لبنان وجبال الجولان. وهكذا فإن الخليفة عبد الملك، الذي كانت استعادة العراق من السيطرة الزبيرية ما تشغله في ذلك الوقت، لم يجد بدا من الاقتداء بسلفه معاوية، ومصالحة " طاغية الروم" على "مال يؤديه إليه"، متخوفا من" أن يخرج (الإمبراطور) إلى الشام فيغلب عليه". [ البلاذري "1959" 164 ] وإن الخليفة عبد الملك أظهر حنكة أمام عدوه "الضعيف البصيرة "، حين جره إلى الموافقة على صلح جديد، في وقت كان الخليفة يواجه أصعب ظروف في "دولته" . [ رستم "1955" 264/1-265 ] وهو ينطلق من رأي ثيوفانس في هذا الاتفاق، الذي نستنتج منه، أن ذكاء عبد الملك تغلب على ضعف يوستنيانوس، إذ حطم الأخير بيده السور النحاسي الذي كان يفصل حدود خصومه العرب المسلمين ". وهو ما سيتجلى بعد القضاء على حركة ابن الزبير حين عادت الحملات الأموية إلى انتظامها على الجبهة البيزنطية.

ومرة أخرى يؤكد الأمويون ثبات سياستهم إزاء أعدائهم التقليديين، فلا يتردد حينذاك الخليفة عبد الملك في الإفادة من الظروف الجديدة، ويعهد إلى أحد قواده بوضع حد لهذه المشكلة مع البيزنطيين، فينجح الأخير في توجيه ضربة قوية للمردة وحلفائهم، الذين شكلوا لبعض الوقت إرباكا للسياسة الخارجية الأموية. وفي هذا السياق وردت معلومات عن " حروب دارت رحاها في آسيا الصغرى، وأسفرت عن اندحار كبير (للبيزنطيين) أمام جيوش الأمويين " [ رستم 265/1-266 ] مما يعني أن الموازين أخذت في الاختلال بصورة واضحة لمصلحة العرب المسلمين.

وإذا كانت صفحة المردة قد طويت عسكريا في عهد الخليفة عبد الملك، فإنها كحالة استمرت، ولكن بصورة أقل خطورة عبر الجراجمة، حين ثار هؤلاء في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك بالتنسيق مع فرقة من البيزنطيين قدمت عن طريق الاسكندرونة. ولكن أخا الخليفة ( مسلمة بن عبد الملك) أفشل هذه العملية، بحصاره الجرجومة، التي سرعان ما استسلمت ، فتم تخريبها وتشتيت أهلها في عدد من قرى الشام. بيد أن العلاقة الأموية – البيزنطية، لم تنحصر في بعدها العسكري أو السياسي، وإنما كان لها بعد اقتصادي، لم يخل

من تاثير واضح في السياسة الخارجية لكل من الدولتين. ومن المعروف أن التجارة قلما تتاثر بالحروب، وغالبا ما يتم تحييدها إن لم تكن الأطراف المتصارعة مضطرة إلى استخدامها سلاحا ضاغطا فيما بينها... هكذا كان الأمر عموما بين البيزنطيين والفرس، ثم بين البيزنطيين والعرب المسلمين. وكانت ثمة وجوه أخرى للعلاقة خارج نطاق الحرب، خصوصا في مجال العمارة التي شهدت تطورا بارزا في ذلك الوقت، إذ زودت القسطنطينية الأمويين بالمهندسين وذوي الخبرة، في بناء المساجد والقصور وغيرهما من المنشات العامة. [ الطبري "1964" 436/6 ]

ولابد أن تحضرنا هنا حادثة تعريب النقد الأموي، وانعكاسها على العلاقة الأموية- البيزنطية، وفي هذا السياق يعتقد لويس (أرشيبالد) أن الخليفة عبد الملك بإقدامه على إصدار الدينار العربي الذي حل مكان الدينار البيزنطي، ثم إرسال الخليفة "الأتاوة " التي سبقت الإشارة إليها في معرض الحديث عن المردة، بالعملة الجديدة الخاصة بالأمويين، أثار أزمة في القسطنطينية ، خصوصا بعد توقف تصدير ورق البردي إلى " الدولة البيزنطية " . [ لويس "1960" 135 ] وكان " صناعه"- أي الورق- من الأقباط، قد اعتادوا وضع الشعار المسيحي عليه، فأمرهم الخليفة بأن يستبدل به الشعار الإسلامي.

وهذه الإجراءات التي واكبها تحريم التداول بالدينار البيزنطي، والتي أدت إلى تعزيز الشخصية السياسية لخلافة بني أمية، ثم " تحريرها" من الضغوط الخارجية، تندرج أيضا في الضغط الاقتصادي الذي مارسه الأمويون على أعدائهم، مما دفع هؤلاء إلى الرد عليه بإيقاف التجارة بين قبرص والشام. ولم تنفك هذه وسيلة ضغط متبادلة في العهود التالية، خصوصا التجارة البحرية التي كان البيزنطيون يمسكون غالبا بزمامها، ولكن دون أن تؤدي في النهاية إلى حصار اقتصادي فعلي على الخلافة الأموية التي كان لها حضورها أيضا في المواصلات البحرية.

ولعل التحالف على قاعدة العدو المشترك، كان أحيانا من سمات السياسة الخارجية لبني أمية. فعلى سبيل المثال استطاع الخليفة عبد الملك إبان إحدى حملاته على البيزنطيين ( معركة سيواس في آسيا الصغرى)، استمالة " السلاف" الذين انضموا إلى القوات الأموية [ الطبري "1964" 331 ] واسهموا في انتصارها على الجيش البيزنطي، مستفيدا من سوء العلاقة بينهم وبين الإمبراطور وتباين المصالح بين الطرفين. ولقد ساعد هذا التحالف مع السلاف على تسهيل انتشار الجيوش الاموية في آسيا الصغرى، حيث تم من خلالهم التعرف على طبيعة المنطقة ومعاقل البيزنطيين، مما كان له تاثير إيجابي في حركة الأمويين فيها.

وكانت ذروة هذا الصراع في حملة سليمان بن عبد الملك الشهيرة (98 هـ/ 716م) والتي اختصرت مشروعه المركزي في حسم الحرب على هذه الجبهة الصعبة. ولكن التحديات كانت ما تزال كبيرة وفتح القسطنطينية دونه عوائق، ليست للجيش الأموي القدرة على تذليلها. وكانت آخر "انتفاضة" للأمويين في هذا السياق على عهد الخليفة هشام بن عبد الملك، الذي صعد حركة " الصوائف"، ربما ليس بهدف الجهاد فحسب، بل بتوظيفها في تدعيم سلطته التي أخذت تتهاوى في النصف الثاني من ولايته، أمام الثورات المتفجرة في الأقاليم الشرقية والغربية من خلافة بني أمية.

ويبقى السؤال قائما ، حول ما إذا كان الخلفاء الأمويون جادين في سياستهم " الجهادية" ضد البيزنطيين، أم إن هذه كانت مرتبطة بالوضع الداخلي في "دولتهم" وخاضعة لمؤثرات تدفع في هذا الاتجاه، لما تعكسه الانتصارات، خصوصا على هذه الجبهة من أصداء ايجابية على جمهور المسلمين. فقد حقق الأمويون انتصارات مدوية في إسبانيا والسند وبلاد ما وراء النهر، وكانت مما عزز " شرعيتهم" التي واجهتها معارضات مختلفة، كانت ترفض هذه الشرعية أو تشكك بها. ولو قدر لهم النجاح في سياستهم البيزنطية، لربما استطاعت خلافتهم الصمود، والخروج سالمة من التحديات الداخلية الخطرة .

## 2- العلاقة مع الترك :

تعود العلاقة، بين العرب المسلمين والترك أو بدايتها ، إلى معركة نهاوند (21 هـ-642 م) التي انهارت فيها جيوش الفرس، حيث تراجع ملكهم ( يزدجرد الثالث )، ملتجئا لدى خاقان الترك في بلاد ما وراء النهر (جيحون) . والترك قبائل كثيرة عاشت في آسيا الوسطى، ثم اتخذت لها مناطق نفوذ في تلك الجهات وغيرها، ومنها : قبائل الغز والقرغز والخزر. ولكن الاحتكاك الفعلي بهم، بدأ في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان الذي حال انهماكه في استعادة وحدة الخلافة، دون توجيه حملات عسكرية إلى ما وراء النهر، الذي شكل حدا بين النفوذ الأموي ، وبين نفوذ الترك، باستثناء تحركات قصيرة المدى قام بها عامله على خراسان، المهلب بن أبي صفرة الأزدي. وما يهمنا في هذا السياق تتبع سياسة هذا الخليفة، أو بالأحرى عامله على العراق، الحجاج الثقفي. ذلك أن هذه المنطقة الواسعة، تم فتحها في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك، وأصبحت جزءا من خلافة بني امية، وبالتالي لم تعد العلاقة معها مندرجة في سياستها الخارجية.

ومارس هذه العلاقة مع الترك أكثر من خليفة، وهي ليست محصورة بالشأن التوسعي فقط... فثمة ملامح سياسية واجتماعية واقتصادية تعبر عنها هذه العلاقة، وبعضها ربما كان الحجاج يتحمل منفردا مسؤوليته، إذ توقفنا عند شخصية الخليفة ( عبد الملك) ونهجه غير

المتلائم تماما مع شخصية واليه الجانحة نحو الشدة والعنف، والتي ورطت الخلافة في عدة مواقف صعبة. وليس يعني ذلك أن الخليفة عبد الملك كان جانحا نحو اللين، ولكن سياسته اتصفت بالرصانة والموضوعية بشكل عام، خصوصا أنه الأكثر ثقافة بين خلفاء بني أمية، حيث نشأ على العلم في المدينة وأصبح من فقهائها البارزين. فقد كان العراق المضطرب، يأخذ طريقه حينذاك إلى الاستقرار، بعد إجراءات مشددة اعقبت القضاء على حركة ابن الزبير. ولم يكن ثمة شك بالدور الكبير الذي قام به الحجاج في تلك المرحلة ، متقربا ما استطاع من الخليفة الذي وثق به واطلق يده في تلك الولاية المهمة. والحجاج في النتيجة شخصية مركبة، ولكن لن يكون عبورنا إليها الباب المألوف لدى المؤرخين الذين بدا لهم طاغية، وكان القتل غريزة فيه، أكثر مما هو عقاب للخارجين على النظام. بيد أننا، استنادا إلى الروايات التاريخية التي تقدم لنا الحجاج أنموذجا للحاكم الظالم والإداري الناجح، فضلا عن القائد العسكري الجريء، سنحاول البحث عن منطلقات موضوعية دفعت به إلى الظهور بتلك الشخصية القاسية، دون أن تكون هذه المحاولة منفصلة عن الموضوعية، محور دراستنا، باعتبار أن سياسته الخارجية، تأثرت أحيانا بالوضع الأمني في ولايته. فقد كان – ولا جدال في ذلك- طموحا إلى أن يكون الرجل القوي بعد الخليفة، أو بالأحرى القيادي الذي لا يستغنى عنه، مما جعله يتمادى استرضاء لسيده، في استخدام أساليب قد لا تكون مقبولة بكاملها لدى السلطة المركزية التي كادت، نتيجة لذلك، تتخلى عنه ( إبان ثورة ابن الاشعث ) (81-82هـ/701-702م ) .

ولعل الأحداث التي عصفت بالعراق، وما خلفته من أزمات اجتماعية واقتصادية خلال أكثر من عقد من الزمن ، كانت من الشدة بحيث تطلبت معالجتها حلولا استثنائية. وكان القطاع الزراعي الأكثر تاثيرا بتلك الأزمات التي دفعت عددا غير قليل من الفلاحين إلى مغادرة أراضيهم، بعد عجزهم عن تحمل أعباء العيش في قراهم، وكان بعضهم قد اعتنق الإسلام تهربا من الضرائب الثقيلة. وقد ورد " أن عمال الحجاج كتبوا إليه أن الخراج قد انكسر، وأن أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار فكتب إلى البصرة وغيرها أن من كان له أصل من قرية فليخرج إليها . [ الطبري "1964" 381/6 ] ومن هذا المنظور، فإن الحجاج الذي واجه أزمة اجتماعية لا تخلو من بعد سياسي في العراق بادر إلى اتخاذ هذا الموقف خوفا من اتساع دائرة المعارضة في الحواضر، التي أخفق في وضع حل سريع لمشكلاتها المعقدة. ولذلك كان " الترحيل الجماعي " [ شعبان "1983" 124 ] ما لجأ اليه الحجاج تخلصا من هذه " الهجرات" ، خصوصا أن الأمصار تعج بالعناصر المتململة من الأزمة الاقتصادية، فضلا عن رواسبها السياسية التي جعلتها غير منخرطة تماما في النظام الأموي.

كان ذلك الوجه الداخلي لسياسة الحجاج، فيما الوجه الآخر تكشفت عنه العمليات العسكرية الموجهة إلى بلاد الترك، تلك المتاخمة شرقا لخلافة الأمويين، طامحا إلى تحقيق انتصارات خارجية تعزز موقعه السياسي، وتخفف من أعباء المشاكل الاقتصادية والاجتماعية في ولايته. وقد مرت العلاقة حينذاك مع الترك عبر مابين رئيسين: خراسان وسجستان، لاسيما الأخيرة التي ستكون منطلق أكثر العمليات في ذلك الحين. و لم يشأ العرب المسلمون، على الرغم من سيطرتهم خلال سنوات قليلة على الأمبراطورية الفارسية، التوغل في بلاد الترك، واقتصر الأمر على عمليات محدودة، ربما لأن سياسة العهد الراشدي لم تشجع على الانتشار في هذه البلاد، اذا توقفنا عند قول منسوب للخليفة عمر بن الخطاب ﷺ موجه إلى قائده الأحنف بن قيس : " فلا تجوزن النهر (جيحون) واقتصر على ما دونه " [ الطبري "1964" 264/4 ] أو لأنهم وجدوا مقاومة من قبائلها الشديدة المراس في القتال، فارجأوا ذلك إلى وقت تتوافر فيه الظروف الملائمة للتوسع.

و لم تختلف الصورة كثيرا في العهد الأموي، فقد استمرت المحاولات ولكن ببطء دون أن يخلو الأمر من علاقات سلمية بين الولاة العرب المسلمين، وبين بعض الحكام الترك في تلك الجهات. فقد جاء في "فتوح" البلاذري أن زياد بن أبيه ( عامل العراق والمشرق في عهد معاوية )، " ولى عبيد الله بن أبي بكرة سجستان، فغزا، فلما كان برزان بعث إليه رتبيل يسأله الصلح عن بلاده وبلاد كابل على ألف ألف ومائتي ألف، فاجابه إلى ذلك... ووفد عبيد الله على زياد فأعلمه ذلك فأمضى الصلح. ولكن أهل كابل نقضوا الاتفاق بعد وفاة الخليفة يزيد بن معاوية، مما جر إلى صدامات مسلحة انتهت بهزيمة للقوات الأموية . [ البلاذري "1959" 389]

وعلى الجبهة الثانية روى الطبري " إن عمال خراسان كانوا يغزون ( وراء النهر)، فإذا دخل الشتاء قفلوا من مغزاهم إلى مرو الشاهدان.. فيتعاقدون الا يغزو بعضهم بعضا ولا يهيج احدا احدا" . [ "1964" 471/5 ] ولعل هذه العمليات كانت تهدف إلى الضغط على القبائل التركية المجاورة لمناطق النفوذ الأموي، ودفع خطرها عن الاخيرة، ثم إرغامها على عقد اتفاقات صلح لم يخل بعضها من أتاوات مالية كبيرة كما سبقت الإشارة. وبمعنى أخر فإن قرارا فعليا بالفتوح في ما وراء النهر، لم يتخذ قبل الحملات الشهيرة التي قام بها قتيبة بن مسلم الباهلي، انطلاقا من خراسان، والتي حسمت الموقف في هذه المناطق لمصلحة العرب المسلمين في تسعينيات القرن الأول الهجري.

وإذا كان الباب الخراساني قد انفتح على عمليات عسكرية في عهد ولاية المهلب، مهدت الأرض لخليفته قتيبة، فإن باب سجستان ظل مغلقا على مثل هذه العمليات الجديدة، مقتصرا علىغزوات ملتبسة يصعب تصنيفها في

إطار السياسة الجهادية، المندرجة تحت مصطلح الفتوح. ولعل حملة عبيد الله بن أبي بكرة ( 79 هـ/ 698 م) ، كانت من تعبيرات الأزمة التي واجهها الحجاج في العراق، وكانت هذه موجهة إلى ذابلستان أو زابلستان، في وقت كان صاحبها ( رتبيل )" مصالحا . ويبدو أن " رتبيل" كان لقبا لحكام هذه البلاد، وليس اسما لحاكم معين عاصر الحملات الأموية المستهدفة له. [ البلاذري "1959" 391 ]

وفي رواية أخرى : " كانت العرب قبل ذلك تأخذ منه ( رتبيل ) خراجا، وربما امتنع فلم يفعل، فبعث الحجاج إلى عبيد الله بن أبي بكرة ( عامل سجستان ) أن ناجزه بمن معك من المسلمين، فلا ترجع حتى تستبيح أرضه وتهدم قلاعه وتقتل مقاتليه وتسبي ذريته " . [الطبري "1964" 322/6 ] فتوغل القائد الأموي بغير صعوبة في تلك البلاد، حتى بات على مقربة من حاضرتها ( كابل)، من دون أن يتنبه على الشرك الذي استدرجه إليه " الملك" التركي، حيث حاصره وضيق عليه الخناق، ثم فرض شروطه عليه ، بأن يصالحه على " خمسمائة ألف درهم ، ويبعث إليه بثلاثة من ولده... رهان ويكتب لهم كتابا أن لا يغزوهم ( الترك ) ما كان واليا ". [ البلاذري "1959" 391 ] ولكن ابن أبي بكرة الذي وافق على شروط رتبيل، وجد معارضة لدى بعض قادته، فجروه إلى حرب اتت على أكثرية الحملة .

ولعل ما يثير الاهتمام في هذا السياق، أن الطبري في إحدى مروياته، يستخدم مفردة العرب بدل المسلمين المألوفة لديه، في الإشارة إلى القوات الأموية المقاتلة في بلاد ما وراء النهر. ["1964" 326/6 ] وليس ثمة ما يخالف الواقع في ذلك، باعتبار- أو في الاقل ما هو سائد حينذاك- أن العرب شكلوا مادة الحرب أو الفتوح من دون الفئات الاخرى التي اقتصر دورها في المجتمع على الأعمال الحرفية، على الرغم من تحول جزء منها إلى الإسلام. ولكن السؤال الذي يواجهنا في هذا السياق، هو : هل كان العرب وحدهم قادرين على تغطية هذه الحملات والانتشار في تلك المناطق الشاسعة...؟ هذا إذا سلمنا بالمقاصد الجهادية للفتوح الأموية في بلاد الترك، والتي ستجعلنا اكثر تشكيكا بها في حملة ابن الأشعث، بعد أقل من عام على تدمير الحملة السالفة.

ولسنا معنيين بتفاصيل تلك الحملة، وما يرويه الطبري خصوصا عن علاقة غير ودية بين قائدها ( ابن الأشعث ) والحجاج، مما يعزز الراي بأن الاخير كان مهتما بإبعاده عن الكوفة، حيث ينتسب إلى قبيلة كبيرة ( كندة)، شأن آخرين وجد في إقصائهم إلى بلاد نائية، سبيلا إلى ترسيخ الأمن السياسي في ولايته، والتخفيف من عبء الأزمة الاقتصادية فيها. وعلى الرغم مما تنطوي عليه الأرقام عادة من المبالغة، فإن الرقم الذي تردد في المرويات لا يخالف هذا الاتجاه للعامل الأموي، إذ انتقى عشرين ألفا من

الكوفة ومثلهم من البصرة، وكلهم من ذوي الشجاعة والباس في القتال. وكان بينهم شيوخ من أولئك الذين عرفوا بـ" القـراء" [ الطبري "1964" 349/6،327 ] ممن عاصروا أحداثا مهمة سابقة، مثل "الفتنة" و"صفين" ، والذين كانوا في مواقفهم أقرب إلى المعارضة، منهم إلى الولاء للسلطة، فضلا عما تمتعوا به من تاثير معنوي في قبائلهم والحركة السياسية بشكل عام.

كان ذلك سنة (80هـ/699 م)

عندما انطلقت الحملة إلى سجستان التي عين ابن الأشعث (عبد الرحمن بن محمد ) واليا عليها، وأمر أن يغزو منها زابلستان، حيث معقل "الملك" التركي رتبيل. وإذ تناهت إلى الأخير انباء الحشود الكبيرة للقوات الأموية، بعث إلى الوالي الجديد يفاوضه على السلام، وكتب إليه" يعتذر إليه من مصاب المسلمين، ويخبره أنه كان لذلك كارها، وانهم الجؤوه إلى قتالهم، ويسأله الصلح ويعرض عليه أن يقبل منه الخراج " . [ الطبري "1964" 328/6 ]

ولا ندري إذا كان ابن الأشعث قد اطلع قادة الحملة على هذا الكتاب، أم أنه اتخذ قراره منفردا بالرفض للصلح، حين اجتاح بجيشه ذابلستان، متقدما إلى عمقها دون اعتراض جدي من قوات الترك. وحينذاك ساورته الشكوك بأن رتبيل يخدعه، كما فعل مع سلفه بن أبي بكرة، كما أن جيشه غير المقتنع بتلك الحرب، أخذ يتذمر من القتال على أرض صعبة المسالك، وليس فيها ما يحفز على الجهاد. وقد وجد ابن الأشعث في هذا الفتور من قادة الحملة وجنودها، ما يشجعه على التوقف، مكتفيا بما حققه من انتصار، وما وقع في يده من مال الغنائم ، فكتب إلى الحجاج يستأذنه في ذلك، على أن يستأنف الحرب في العام القادم، بعد أن يتعرف على طبيعة تلك البلاد، وتتوفر له معطيات أكثر وضوحا عن خطة عدوه الخطر. ولكن الحجاج رفض على الفور اقتراح ابن الأشعث، متهما إياه بالضعف و" التياث" الرأي، ثم مهددا بعزله : " امض لما أمرتك به من الوغول في ارضهم، وإلا فإن إسحاق بن محمد أخاك أمير الناس " . [الطبري "1964" 334/6]

ويرى بعض المؤرخين ، بما يشبه الجزم، أن القوات المشاركة في الحملة، أدركت أنها وقعت ضحية " تهجير قسري"، خصوصا بعد الموقف الصلب من الحجاج، وأمره " بمواصلة الزحف إلى قلب زابلستان ". [ شعبان "1983" 123 ]

وأخذت الخيارات تضيق أمام قادة الحملة الذين اتجهوا حينذاك إلى التمرد، إذ رأوا فيه الخيار الطبيعي للموقف الصعب الذي وجدوا أنفسهم فيه. وليس علينا الذهاب في الاعتقاد أن الجميع كانت تشدهم قضية واحدة، ولكن عوامل أخرى تدخلت في تمردهم، لاسيما العلاقة غير المستقرة مع السلطة الأموية التي تعاني أزمات اقتصادية في ذلك الحين، وربما الشعور بأن تجنيدهم في تلك الحملة كان نوعا من الإبعاد المتعمد عن العراق. ولعل هذا الاحتمال يتضح بعد تحول الحملة إلى "ثورة"، وانضمام أعداد

كثيرة إليها في طريق العودة، ممن جذبتهم الدعوة إلى اسقاط الحكم الأموي ، وليس فقط التمرد على ممثله في العراق.

ولعل هذه الثورة كشفت عن ثغرة كبيرة في السياسة الخارجية لخلافة بني أمية، والتي بدت وكأنها سياسة الضرورة، عند مواجهة مأزق الإخفاق أو عدم الحسم على الجبهة العسكرية. وكانت ما تزال موحدة إزاءها نظرة الخلفاء الامويين، مع تمايز ما للخليفة عمر بن عبد العزيز الذي كانت له قراءته المختلفة للسياسة الخارجية، بما فيها عمليات الفتوح التي رأى فيها رسالة تعبر عن مشروع الإسلام في بعده الحضاري، والتزاما بنص الجهاد في مضمونه القيمي والحضاري، وفرادته نمطا راقيا في العلاقات الإنسانية . [ ابن عبد الحكم "1967 "96،67 ]

وفي المحصلة، فإن " الثورة" اخفقت، لافتقادها إلى برنامج سياسي واضح الرؤية، وإلى موقف متماسك من أركانها، فضلا عن صلابة الجبهة الأموية التي مثلها حينذاك خليفة قوي ومتمرس في دمشق، وعامل جريء ومغامر في العراق. وكان من نتائجها على الصعيد الأمني بناء حاضرة جديدة لتكون مركزا للولاية في العراق، وهي "واسط" في منتصف المسافة تقريبا بين الكوفة والبصرة. فضلاً عن ذلك، فإن الإدارة الأموية في هذا الإقليم، وجدت نفسها عاجزة عن ضبط الأمور فيه، من دون القوات الشامية التي رابطت إحدى فرقها العسكرية بصورة دائمة في العراق.

ولعلها- أي " الثورة"- أكدت غياب سياسة خارجية واضحة لخلافة بني أمية، خصوصا على جبهة الترك، إذ يصبح العدو الذي تجند ضده الحملات العسكرية حاملة الأوامر بالقضاء، عليه حليفاً، أو في الأقل قابلا للتفاوض، عندما يتعلق الموضوع بأحد المتمردين على النظام، فيتم حينذاك التراجع عن التشدد إلى المرونة لقاء الانتقام منه. هكذا تحولت العلاقة مع " رتبيل" حين التجأ ابن الأشعث إليه، وما زال الحجاج "يرهبه مرة ويرغبه اخرى " [اليعقوبي "1960" 278/2 ] حتى قام بتسليم " صاحبه" إلى البعثة التي ذهبت لهذه الغاية إلى عاصمة " الملك" التركي. و لم يكن الأخير في الموقع الضعيف الذي أظهره من قبل لتفادي الحملات الأموية إلى بلاده، ولكنه فاوض الحجاج بشروط توائم التحديات التي واجهها الحكم الأموي في العراق ولعل مروية البلاذري تختصر الأداء المتعثر لسياسة هذا الحكم الخارجية، والذي كانت له سلبيات كثيرة على الوضعين الاجتماعي والاقتصادي في العراق. فقد جاء فيها أن الحجاج " صالح رتبيل على أن لا يغزوه سبع سنين، ويقال تسع سنين، على أن يؤدي بعد ذلك في كل سنة تسعمائة ألف درهم عروضا، فلما انقضت السنون ولى الحجاج، الأشعب بن بشر الكلبي سجستان، فعاسر رتبيل

في العروض التي أداها، فكتب إلى الحجاج يشكوه إليه فعزله.

وهكذا ، فإن هذه السياسة كان لها ثمن باهظ على الحكم الأموي، خصوصا في إحدى أبرز ولاياته وهي العراق. فعدا الخسائر البشرية الفادحة التي استترفتها، أفقدت بيت المال موردا مهما، كما نجح " رتبيل " بحنكته في إنهاء حالة الحرب لوقت طويل في بلاده، مما حمل قتيبة بن مسلم فيما بعد، على تجديد الصلح معه. وثمة ما تجب الإشارة إليه في هذا السياق، أن حالة سجستان لم تعبر عن السياسة الأموية عامة في هذه الجهات، إذ كانت لها خصوصية مرتبطة بالوضع الداخلي في مصري الكوفة والبصرة. وخلافا لذلك كانت الجبهة الخراسانية، وفي الوقت عينه، تشهد عمليات توسعية أكثر جدية، وأقل استفزازا للعناصر التركية المنتشرة بكثافة في البلاد الواسعة إلى الشرق من الجبهتين. وقد بلغت ذروتها إبان ولاية قتيبة على خراسان، حيث سار في خطة هادئة ومتكيفة مع التركيب الجغرافي والسكاني لبلاد الترك، متقدما بثقة فيها حتى بلغ تخوم الصين. ولم يكن الطابع العسكري ما اتسمت به كل حملاته، وإنما كان لها وجه سياسي يعبر عن نمط أقرب معنى إلى "الفتوح" من "الغزوات" ، المفردة المتداولة حينذاك في الروايات التاريخية.

وفي ضوء ذلك، لم تواجه قتيبة ممانعة دائمة من جانب الترك تاخذ به إلى قرار الحرب، بل كان يؤثر التفاوض والدخول صلحا إلى المدن التي يستهدفها بالفتح. ولقد أعطت هذه السياسة ثمارها في إحدى أكثر الجبهات صعوبة وتعقيدا، حين أسس لانتشار الإسلام في تلك البلاد، على الرغم من الأخطاء التي ارتكبها بعض الولاة الأمويين فيما بعد، إذ ادت سياساتهم المالية إلى كبح ذلك الاندفاع نحو الإسلام.

وفي المرويات- على ندرة المعطيات غير العسكرية- ما يعبر عن نهج متوازن لقتيبة في علاقاته مع تلك "الجمهرة" من "ملوك" ما وراء النهر. ففي سياق أحداث العام (86هـ/705م) ، أن الوالي الأموي غادر مرو (حاضرة خراسان ) غازيا، " فلما كان بالطالقان تلقاه دهاقين بلخ وبعض عظمائهم فساروا معه، فلما قطع النهر تلقاه... تيش الأعور ملك الصغانيان بهدايا ومفتاح من ذهب، فدعاه الى بلاده...(ثم) سار... إلى أخرون وشومان- وهما من طخارستان، فجاءه ( ملكها )، فصالحه على فدية أداها إليه ...". [ الطبري "1964" 425-424/6 ]

وعلى هذا النحو عموما، سار قتيبة في حملاته السنوية، ونهج في علاقاته مع " الملوك " الترك، وبعضهم عرف عنه التطرف، مثل "نيزك"، وكان لديه أسرى من المسلمين في طرخان. فلم يبادره الوالي الأموي بالحرب، ولكنه تحالف مع ملك شومان، " فخافه- حسب الرواية- نيزك، فأطلق الأسرى" ، كما وجه إليه " سفيرا يدعوه إلى الصلح. ولكن نيزك المراوغ، لم تنجح محاولات احتوائه بالوسائل

السلمية، فقد نقض الصلح وأعلن الحرب على الأمويين، فوجه إليه قتيبة قوات طاردته حتى معاقله، وتمكنت من القبض عليه وقتله، وكان ذلك في سنة (91هـ/709 م ).

و لم تخل سياسة قتيبة من عمليات اتسمت بالعنف أحيانا ضد الترك ، ولكن يجب ألا ننسى أنه كان يقود حربا صعبة، ولسنوات عدة، في بلاد كان يتقاسم النفوذ فيها عدد غير قليل من الحكام (الملوك) ومنهم من أبدى مقاومة شديدة لحملاته. فأخذ بعضهم بالصلح و لم يجد سبيلا مع الآخر غير الحرب، بما تحمله هذه من مواقف حدية، خصوصا في حالات الممانعة أو نقض الصلح. و لم يكن للخلافة الأموية حتى ذلك الوقت سياسة واضحة إزاء الفئات المنضوية تحت سيادتها، مما كان يجعل عمالها يتخذون أساليب متفاوتة، وغير خاضعة لمعيار محدد في العلاقة معها. وفي ضوء ذلك لا نستغرب التناقض في موقفي الخليفة ( عمر بن عبد العزيز)، وعامله على خراسان ( الجراح بن عبد الله الحكمي). فقد بعث الأخير إلى الأول بعد تلقيه الأمر بالعمل على نشر الإسلام في ولايته ووضع الجزية عمن اعتنقه، بأن الترك قوم ليس " يكفهم إلا السيف والسوط" ، فكان رد الخليفة الحازم : " لا تضربن مؤمنا ولا معاهدا سوطا إلا في حق " . [ الطبري "1964" 444/6]

وهكذا ساد الحكم الأموي في بلاد ما وراء النهر، و لم يسد فيها الإسلام الذي بقي لوقت طويل خارج نسيجها الاجتماعي والثقافي. وما فشل في تحقيقه العمال الذين حملوه- أي الإسلام- على أسنة الرماح، نجح العلماء والتجار والرحالة والناس الاعتياديون في تحقيقه. وليس مما يبعث على الغرابة أيضا في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك، أي في أواخر سنوات خلافة بني أمية، أن ملك فرغانة المعروف بـ" خاقان الترك" ، لم يخضع لسيادة العرب المسلمين، وما فتئ يقاوم نفوذهم في البلاد التي يسيطرون عليها في تلك المنطقة، وكان ما يزال حتى ذلك الحين يجعل كل الجهل عقيدتهم. وقد حقق انتصارا كبيرا على عامل خراسان حينذاك، سلم بن سعيد الكلابي ، مما جعل حركة الخاقان تشكل قلقا للخليفة الذي تعاطى معها بمرونة لم تشهدها الجبهات الأخرى المتفجرة في ولاياته، خصوصا الجبهة الأفريقية (المغرب).

ومن أبرز دوافع القلق لدى الخليفة هشام، أن الخاقان تحالف مع الثائر العربي الشهير الحارث بن سريج التميمي (ت 128هـ/745م) ، أحد قادة الأمويين في بلاد ما وراء النهر، قبل أن يتمرد على نهجهم ويندد بسياستهم إزاء الفئات الخاضعة لهم، فقاد ثورة دامت اثني عشر عاما (116 هـ/ 734 م-128هـ/745 م)، وكانت الدعوة إلى المساواة بين جميع المسلمين، مما نشرته من فكر إصلاحي أفاد منه العباسيون لاحقا في حركة التعبئة ضد الحكم الأموي في المنطقة. ولقد أمر الخليفة، الوالي الجديد ( أسد بن عبد الله

القسري) (ت 120هـ/738م) في خراسان ملاحقة الخاقان، الذي تراجع إلى الجبال ، [الطبري 123/7 ] تاركا للحارث مهمة القتال بعد أن امده بقوات كثيرة من الترك، شارك فيها ملك السغد وصاحبا الشاش وفرغانة . ولكن الحارث لم يستطع الصمود أمام الهجوم المباغت للجيش الأموي فتراجع مهزوما في الوقت الذي تعقبت فيه فرق من الجيش الخاقان في إقليم الجوزجان.

وقد روي أن الخليفة، اتقاء لخطورة الخاقان وفاعلية تاثيره في الترك الخاضعين للسيادة الأموية، حاول أخذ الخاقان بالسياسة، فوجه اليه وفدا يدعوه إلى الإسلام . ولكن الخاقان الذي بدا أنه لم يعرف عقيدة سوى الغزو، مضى في تعبئة الترك للحرب ضد العمال الأمويين، خصوصا في سمرقند أهم الحواضر في بلاد ما وراء النهر ، حيث كان التذمر على أشده من سياسة هؤلاء المالية، دون أن يجدي تحول بعض السكان إلى الإسلام من إعفاء السلطة لهم من الضرائب. ولكن حركته فشلت لانطلاقها من موقف عنصري في محاولته تجميع الترك تحت رايته ، وسوء تقدير لعلاقة عدد غير قليل منهم بالإسلام ، وذلك خلافا لحركة حليفه (الحارث) التي ضوت فيها العرب والترك والفرس. فعلى الرغم من الأداء الخاطئ لمعظم الولاة الأمويين، فإن المقارنة لم تعد قائمة بين العهد الإسلامي الذي فتح العقول على أفكار جديدة، وإن كانت القلوب ما تزال معلقة دونه، وبين العهد السابق القريب، حيث لا قيم لدى هذه القبائل سوى الغزو، كنمط اقتصادي أساسي في حياتها.

وفي ضوء ذلك، فإن السياسة الأموية التي تعرضت لنقد شديد في المرويات التاريخية، كان النص الإسلامي واضحا في خطابها، وأن جاء تطبيقه متعثرا، ومحكوما في الغالب بمصالح الولاة. بيد أن هذه السياسة، ومهما قيل فيها إزاء الترك، كانت اكثر مرونة من سياسة ملوكهم فيما بينهم، وبالتالي فهي ناجمة عن مفاهيم حضرية لم تعدم تاثيرا في البداوة الراسخة في تلك المجتمعات، ناشرة فيها القيم- النظرية في الأقل- للإسلام، فيما يتعلق بالعدالة والمساواة، فضلا عن الدعوة إلى الحوار قبل اللجوء إلى إعلان الحرب.

### 3- العلاقة مع الخزر :

سنواجه هنا إشكالية ليست خاضعة لتعقيدات السياسة الخارجية لخلافة بني أمية، بل تتصدى أساسا لموضوعة يحيط بها الغموض، وتنطوي على فجوات كبيرة في السياق التاريخي لمجموعة الخزر والتي يحاول المؤرخون ملأها،بالافتراض والتحليل والاستنتاج ، وذلك لضحالة المادة عن تاريخهم في المصادر الشرقية والغربية على السواء.

إن الخزر شعبٌ من أصول تركية، وكانوا قد " قدموا إلى بلاد القوقاز من آسيا الوسطى في حوالي منتصف القرن السادس الميلادي "ووصف ملكهم بالخاقان . وقبلهم روى ياقوت، ما يعزز هذا الاتجاه الأخير، واصفا

ملكهم بـ"الخاقان". [ ياقوت الحموي "1979" 368/2 ] وهو لقب تداوله حكام الترك، خصوصا" ملوك" فرغانة كما سبقت الإشارة. أما بلادهم فقد وصفها ياقوت بأنها" بلاد الترك خلف باب الأبواب المعروف بالدربند( وهي) إقليم من قصبة إتل. وإتل إسم لنهر يجري إلى الخزر من الروس وبلغار. وإتل مدينة، والخزر اسم المملكة لا اسم المدينة . [ "1979" 367/2 ] وفي المصادر العربية يتردد الخزر في المرويات عن أرمينية، وأحيانا عن "الروم" الذين كانت لهم قبل الإسلام السيطرة عليها ( أرمينية) فيما بدا أن الخزر المتصلين جغرافيا بأراضيهم كانوا مستقلين عنهم . [ البلاذري "1959" 197 ]

ولم يعدم خاقان الخزر تاثيرا في تاريخ تلك المرحلة السابقة على الإسلام فقد كانت بلاده متاخمة لإمبراطورية الفرس الساسانيين، الأمر الذي أدى إلى حروب بين الطرفين في القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، في الوقت الذي ساد التحالف بينه وبين البيزنطيين بصورة عامة. أما في الإسلام فقد ورد أن العرب احتكوا منذ وقت مبكر بالخزر، حين سار حبيب بن مسلمة الفهري إلى جرزان ( جورجيا) الخاضعة لهم فأتاه رسول " بطريقها" وأهلها "فأدى إليه رسالتهم وسأله كتاب صلح وأمان، فكتب حبيب إليهم" . [ البلاذري "1959" 204 ] ولكن الخزر ظلوا في منأى عن الفتوح الإسلامية التي بلغت حدود معاقلهم في القوقاز، بعد اجتياح دولتي الفرس والبيزنطيين. وعلى الرغم من رصانة أخبار البلاذري عادة، فإن ما جاء من كتاب الصلح السالف مع أهل جرزان ، يبعث على التساؤل إذا كان العرب المسلمون قد وصلوا في ذلك الوقت المبكر إلى المنطقة، بما تنطوي عليه من صعوبات تعوق حركة الفاتحين، فضلا عن الانشغال حينذاك بجبهات أكثر أهمية من تلك الجبهة بمناخها البارد ومسالكها المعقدة.

ويعتقد دنلوف أن الخزر كأمة كانوا قادرين على الصمود في وجه حملات الفتوح، مما أبعد الإسلام عن شرق أوربا، مقارنا بين دورهم هنا ودور الفرنجة في الغرب .[ "1992" 78-79 ] وهي مسالة خاضعة للنقاش، إذا توقفنا عند الظروف المختلفة بين الحالتين، خصوصا لدى الفرنجة والمتحصنين بالمدى الجغرافي في مواجهة تقدم العرب المسلمين من إسبانية، في وقت ربما كانت لهؤلاء خطة فعلية لاجتياح البلاد الأوروبية. أما الخزر فلم تحمل إلينا المرويات شيئا عن أخبارهم في هذا السبيل، إذ كانوا لا يزالون منكفئين عن حركة الصراع السياسي على النفوذ في تلك المرحلة، ولا يملكون – سواء على المستوى الحضاري أم العسكري- آليات مثل هذا الدور الذي يفترضه المؤرخ سالف الذكر. كما أن بلاد الخزر، لم تكن بين الاهداف الحيوية للعرب المسلمين، والتي أخذت مداها في الاتجاهات الملائمة للانتشار العسكري المرتكز إلى العقيدة والمشروع السياسي بشكل عام . بيد أنهم لم يتغاضوا تماما

عن هذه البلاد التي اصبحت في دائرة عملياتهم، الا انها لم تندرج في أولوياتهم في تلك المرحلة، لاسيما أنه لم يبدر منها ما يهدد مصالحهم، مما يفسر تراجع أخبارهم وغموض دورها حينذاك في المرويات التاريخية.

وعودة إلى بدء العلاقات بين العرب المسلمين والخزر، يروي الطبري أن بكير بن عبد الله اتصل بهم في العام (21 هـ/ 641 م)، وتبعه في السنة التالية سراقة بن عمرو [ "1964" 154/4-156 ] وكان على مقدمة الحملة عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي الذي أصبح قائدا بعد موت سراقة، وتلقى أوامر الخليفة عمر ابن الخطاب بمتابعة التوسع في بلاد الخزر. وقام عبد الرحمن بعمليات عدة في هذه الجهات، مستهدفا بصورة خاصة مدينة بلنجر، التي ربما كانت عاصمتهم أو إحدى مدنهم الكبيرة. ويبدو أن أخطر العمليات في هذا السياق، كانت في عهد الخليفة عثمان، وقد نفذها القائد نفسه (عبد الرحمن ) سنة ( 32 هـ/652 م) . وكان يتوق إلى حسم الموقف في الصراع على بلنجر، ولكن الأخيرة أبدت مقاومة شديدة، على الرغم من استخدام أدوات متطورة في حصارها ، فقد كانت المدينة محصنة ومفتوحة على المساعدات التي ما انفكت ترفد مقاومتها، الأمر الذي أدى إلى هزيمة المسلمين ومقتل قائدهم، ومعه عدد كبير من جنوده.

ولعل هذه العلاقة مع الخزر كانت تمر عبر أرمينية التي كانت هدفا عسكريا للعرب المسلمين منذ خلافة عثمان، ولكن المرويات العربية لم تحمل إلينا اخبارا موثقة في هذا السياق حتى أوائل القرن الثاني الهجري ( الثامن الميلادي). ففي سنة (104هـ/722 م)، كانت حملة أموية قد توغلت في أرمينية، فتصدى لها الخزر في مكان يعرف بمر الحجارة، " فاقتتلوا هناك قتالا شديدا، فقتل من المسلمين بشر كثير واحتوت الخزر على عسكرهم وغنموا جميع ما فيه " . [ ابن الأثير "1979" 110/5-111 ]

وكان الخليفة حينذاك يزيد بن عبد الملك، وقد بدا أن الصراع احتدم بين الطرفين على أرمينية التي شكلت خطا دفاعيا مهما للخزر، حيث حشدوا فيها قوات كثيرة. فعهد الخليفة يزيد إلى الجراح بن عبد الله الحكمي(ت 112هـ/730م )، وهو أحد ولاة الخليفة السابق ( عمر بن عبد العزيز) في خراسان، بالولاية على أرمينية، فسار إلى بلاد الخزر عابرا نهر الكر، حيث " قتل منهم مقتلة عظيمة ". كما عقد الجراح عهود صلح مع المدن التي سيطر عليها، مشتتا سكانها لغايات عسكرية، فنقل أهل حمزين إلى رستاق خيزان وجعل لهم قريتين منه". بيد أن الجراح بعد انحيازه إلى ناحية أردبيل، واجه حربا قاسية مع الخزر الذين شنوا هجوما عليه، " فاستشهد ومن معه فسمي ذلك النهر نهر الجراح " . [ البلاذري "1959" 208 ]

وثمة تباين بين هذه الرواية وتلك التي أوردها ابن الأثير متحدثة عن معارك عنيفة بين الطرفين آل النصر فيها إلى الجراح، فضلا عن

عهود الصلح السالفة، ولكنها تضيف بشأن القائد الأموي، انه كتب إلى الخليفة يزيد بن عبد الملك" يخبره بما فتح الله عليه... ويسأله المدد، فوعده إنفاذ العساكر إليه، فأدركه (الخليفة) أجله قبل إنفاذ الجيش، فأرسل هشام بن عبد الملك فأقره على عمله ووعده المدد". [ "1979" 113/5 ]

وفي ضوء ما سلف، فان العلاقة مع الخزر تندرج في " الاستراتيجية " المنبثقة بصورة ما عن مبدأ الجهاد الذي حقق الخلفاء الأمويون منجزات كبيرة في إطاره. ولكن ذلك غير منفصل عن المنحى " الإمبراطوري" الذي اتسمت به دولتهم، ودفع بها إلى تغليب النزعة التوسعية على حساب الإصلاحات الداخلية والعلاقة المتوازنة مع شعوب البلاد المفتوحة. ومن هذا المنظور نفتقد إلى معطيات تتعدى – إلا قليلا– العلاقة العسكرية مع الخزر، والتي أخذت اتجاها تصعيديا مع خلافة هشام بن عبد الملك، حيث تفجرت أطراف " إمبراطوريته" بالثورات وحركات التمرد. ويبدو أن الخزر قد تنبهوا على ذلك ، " فطمعوا وأوغلوا في البلاد حتى قاربو الموصل " . [ ابن الأثير "1979" 159/5 ] وعلى مدى سنين كانت ما تزال هذه العلاقة سجالية، واقتصرت على تقدم محدود للجيوش الأموية في بلاد الخزر، ومن ذلك ما حققه القائد سعيد بن عمر الحرشي الذي تولى القيادة بعد الجراح، فقام بحركة استنهاض وتعبئة للجهاد ضد الخزر، كان من نتائجها حصار " خلاط" والسيطرة عليها.

وكانت ولاية أرمينية قد عهدت إلى أخي الخليفة ( مسلمة بن عبد الملك )، وقد تمتع بكفاءة قيادية عالية واكتسب خبرة طويلة في القتال. فاتخذ نهجا جديدا في العلاقة مع الخزر، لا يعتمد على الغزوات فقط ولكن يؤدي إلى ترسيخ الوجود العربي الإسلامي في المنطقة. فقد روى البلاذري أن مسلمة " صالح... أهل خيزان وأمر بحصنها فهدم واتخذ لنفسه ضياعا... وسالمه ملوك الجبال... وصمد لمدينة " الباب" ، ففتحها.. وأسكن (فيها ) أربعة وعشرين ألفا من أهل الشام ". [ "1959" 209]

بيد أن التحول البارز في العلاقة الأموية – الخزرية– حدث إبان ولاية مروان بن محمد (ابن عم الخليفة)، وهو قائد متمرس أيضا، وقد شهدت له بذلك على الخصوص جبهة عريضة في تلك النواحي ( أرمينية ، والجزيرة، وأذربيجان ) ، حيث قاتل بشجاعة وقوة وصبر. وثمة رواية ترد تعيين مروان إلى رغبة شخصية منه، منتقدا سياسات الولاة السابقين في هذه البلاد، وطامحا إلى محو "العار" والانتقام من العدو .

ان الخزر ما كادوا يعلمون " أن مسلمة انصرف عنهم إلى بلاد الشام" ، حتى تمردوا على نائبه واستردوا البلاد التي انتزعت منهم . [ ابن اعثم "1968-1975" 69/8 ] فحشد مروان

قوات كثيرة من الشام والعراق والجزيرة، وسار فيها إلى بلاد الخزر ، متوخيا ترهيب ملكها (عظيمها ) ولكن من دون أن يبادره بالحرب. وقد أظهر القائد الأموي براعة في المناورة مع العدو الذي أقلق الخلافة لوقت طويل، وأوقع هزائم بجيوشها، فبعث إلى الملك رسولا " يطلب منه المهادنة، فأجابه إلى ذلك وأرسل إليه من يقرر الصلح " [ابن الأثير "1979" 178/5 ] حسب مروية ابن الأثير . ولكن الجواب كان مجرد مناورة أيضا، إذ عمد "الملك" إلى تضليل الرسول بتوجيهه إلى طريق طويلة، في الوقت الذي كان جيشه مستنفرا للتحرك إلى القتال، إلا أنه سرعان ما اكتشف أن مروان، قد سبقه إلى المداهمة وأصبح على مقربة منه.

وفي هذه الاثناء قر راي الملك الخزري ومستشاريه على التراجع مسافة بعيدة إلى الوراء، بينما "أوغل" مروان في بلاده، من دون أن يعترضه أحد، فارضا سيطرته على عدد من حلفاء الملك، حيث اجتاح مدنهم ووقع معهم معاهدات صلح ، عززت النفوذ الأموي في هذه البلاد. وبلغت هذه السياسة ذروة نجاحها في العام (119هـ / 737 م) ، وهو نجاح يعود الفضل فيه إلى مروان الذي أفاد من تجارب أسلافه، وحقق منجزات مهمة، مستخدما القوة والسياسة في آن. وقد عبرت عن ذلك مروية البلاذري التي جاء فيها : " لما بلغ عظيم الخزر كثرة من وطئ به مروان بلاده من الرجال، وما هم عليه في عدهم قوتهم نخب ذلك قلبه وملأه رعبا. فلما دنا منه أرسل إليه رسولا يدعوه إلى الإسلام أو الحرب. فقال : قد قبلت الإسلام، فارسل من يعرضه علي، ففعل، فأظهر الإسلام وواد مروان على أن يقره في مملكته " . ["1959" 210 ]

أن ملك الخزر بعد يأسه من مقاومة القائد الأموي الشجاع، لجأ إلى مفاوضته، فوجه إليه "سفيرا" ليتعرف على غايته من التوغل في بلاده، فأجاب مروان- حسب الرواية-" أريد منه أن يسلم أو أقتله وأخذ ملكه فاجعله عبرة لغيره... فاستأجله الرسول ثلاثة أيام حتى يرجع إلى خاقان وينصرف إليه بالخبر... فأجابه مروان إلى ذلك. فأرسل خاقان ... إني قد قبلت الإسلام، ولكن وجه الي برجل من أصحابك يشرحه لي... فوجه إليه مروان برجلين، أحدهما نوع بن السائب الأسدي والآخر عبد الرحمن الخولاني...". وتتابع الرواية، أنه بعد مناقشة مع الرسولين لبعض المسائل ومنها الخمر، اقتنع ملك الخزر بتفسيرهما، وقال لهما بواسطة ترجمانه : " أنتم المسلمون حقا... ثم أسلم.. وأسلم معه خلق كثير من أهل بيته وأهل بلده، فاقره مروان على ملكه ثم آخاه أُخوَّة الإسلام " . [ ابن أعثم "1975-1968" 8/73-74 ]

وهكذا انتهت حرب الخزر في العهد الأموي، والتي كانت امتدادا للتوسع في أرمينية وأذربيجان، وتتوجت في النهاية بالاتفاق الذي سلفت الإشارة إليه. ولعل ما ينبغي التوقف عنده، هو أن الاتفاق في طبيعته وآليته، ليس مما

يشبه العهود التقليدية مع ملوك وأمراء البلدان التي تم فتحها، إذ نجد مروان يضع الخزر أمام خيارين : " السيف أو الإسلام" ، فيما كان التقليد الإسلامي يندرج عادة في خيارات ثلاثة : الاسلام أو الجزاء ( الجزية )، أو المنابذة (الحرب). [ ابو يوسف "1396هـ"84-85 ] ولعل مرد ذلك إلى التحديات الصعبة التي واجهت القادة الأمويين في هذه البلاد، وإلى أن الخلافة اتجهت حينذاك إلى اختصار المسافة بين الخيارات، مسوغة لنفسها تغليب القوة على التسامح، بعد تفاقم الأخطار في الولايات النائية، والتي كان بعضها يتاثر بالتخوم غير الخاضعة للنفوذ الأموي.

وإذا كانت الخلافة الأموية في سنواتها الأخيرة لم تعد قادرة على الإمساك بزمام الأمور في ولاياتها، فانه من الطبيعي أن تكون قدرتها أقل فاعلية في البلاد غير الواقعة مباشرة تحت سيادتها. ومن هذا المنظور، فإن الاتفاق الذي تم بين مروان بن محمد وملك الخزر، متضمنا اعتراف الأخير بالإسلام والانضواء فيه، ليس في الحقيقة سوى اتفاق واه، ولا يعبر إطلاقا عن قناعات الملك الذي وجد نفسه مرغما على القبول به، نتيجة الهزائم التي تعرضت لها جيوشه أمام مروان. ومن البداهة أن التحول العقيدي يحتاج إلى معطيات موضوعية، لم تكن متوائمة مع المرحلة في ذلك الحين، خصوصا بعد الفشل الذي أصاب السياسات الأموية في إقامة علاقات إيجابية مع شعوب وقبائل البلدان المفتوحة.

كما يحتاج هذا التحول إلى وقت تتعمق فيه المعرفة بالدين الجديد وتترسخ القناعات بأفكاره ومبادئه، وهو أمر لم يتوافر لدى الخزر الذين حالت عقبات عدة أمام انتشار الإسلام في بلادهم، لا سيما أنهم كانوا أقرب إلى البداوة من التحضر، وأن طبيعة أرضهم المعقدة لم تشجع على التوغل بسهولة فيها، ثم الاحتكاك الفعلي مع سكانها.

ولكن التحول المثير في المجتمع الخزري، كان في اعتناق الملك لليهودية بعد سنوات ثلاث فقط على توقيعه " المعاهدة" مع مروان، والتي اعترف فيها بالإسلام دينا له ولجماعته. وقد تزامن ذلك مع عودة القائد الأموي إلى الشام، ليخوض معركة الخلافة بعد اضطرابات شهدتها دمشق، وانتهت بانقلاب لمصلحته تولى عبره الخلافة بدعم من القبائل القيسية. وهذا يعني أن مشكلة الخزر لم تعد بين أولويات الخليفة الجديد ( مروان )، الذي كان عليه مواجهة تحديات داخلية كبيرة، مما أتاح للخزر فك ارتباطهم بالإسلام.

وإذا كان تهود الخزر مما يثير الاهتمام، فإن هذه المسالة تبقى خارج نطاق بحثنا المحصور بالعلاقة الأموية معهم. وثمة تفاصيل في هذا الشأن يرويها "دنلوب" ، خصوصا في تحديده الزمني للتحول إلى اليهودية، ولكنها غير موثقة. فلم تشر أية رواية عربية إلى مثل ذلك، مما دفعه إلى الاعتماد على المصادر العبرية التي لا تخلو بدورها من غموض في هذه المسالة. ويعترف

" دنلوب" أنه " لا توجد بالعربية رواية واحدة مشهورة ومعتمدة حول تهود الخزر". [ "1992" 176 فما بعدها ] وفي معجم ياقوت مرويتان لا تخلوان من تناقض في هذا الصدد، إذ جاء في الأولى أن " ملكهم يهودي... والخزر مسلمون ونصارى وفيهم عبدة الأوثان، وأقل الفرق هناك اليهود، على أن الملك منهم ..." ، وفي الثانية ان " الخزر وملكهم كلهم يهود...". [ "1979" 368/2] وهذا يعني أن تنوعا ساد تلك البلاد، وأن اليهودية تأخرت على الأرجح في الدخول إليها حتى العصر العباسي. أما كيفية دخولها، فليس في المصادر ما يشير إلى ذلك، أو إلى الأسباب التي دفعت بالملك إلى اعتناقها، فقد يكون الحصار المفروض عليه من جانب المسلمين، والذي استمر حتى منتصف القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي)، دون أن يكون في مأمن من الأخطار البيزنطية، ما اسهم في هذا التحول الذي وجد فيه توافقا ونزعته الاستقلالية. أن الخزر خرجوا إلى بلاد الإسلام، " فاوقعوا بالمسلمين وأهل الذمة " [ ابن الأثير "1979" 162/6 ] ، مما يعني سوء علاقتهم بالدولتين العباسية والبيزنطية في آن واحد . وقيل إن ملكهم كان على النصرانية، قبل أن يتحول عنها، إثر هجرة قسرية لليهود من القسطنطينية إلى بلاد الخزر، حيث وجدت عقيدتهم مناخا ملائما لانتشارها. ولكن ابن حوقل، على الرغم من تركيزه على العقيدة اليهودية للملك، فإن هذه لم تتعد برأيه الملك والحاشية المحيطة به ، في الوقت الذي كانت " أخلاق أهل الأوثان " غالبة على اخلاقهم ، وكان من عاداتهم السجود للملك إذا دخل.["1979" 334 ]

إن موضوع التهود يكتنفه الغموض، شأن التاريخ الخزري برمته، والذي بقي لوقت طويل مشوشا ويفتقد إلى المعطيات الكافية في عصر الإسلام الأول، امتدادا إلى الحكم الأموي. ولعل سياسة الأمويين بدت على شيء من الوضوح، خصوصا في مطالع القرن الثاني الهجري ( الثامن الميلادي)، حين أخذت الحملات العسكرية تتوغل في تلك البلاد المجهولة، حاملة معها مؤثرات الإسلام الدينية والثقافية. وسواء كان الجهاد باعث العمليات العسكرية ضد الخزر، أم أن هذا تواءم مع النزعة التوسعية لخلافة بني أمية، فإن ثمة ما يجب الوقوف عنده، هو أن تلك النزعة أخذت حينذاك في الانكفاء نتيجة التحديات الداخلية التي واجهتها الخلافة. ولذلك فإن العمليات على هذه الجبهة عبرت أيضا عن هواجس أمنية إزاء الجيوب الداعمة لحركات التمرد في الأطراف وعلى التخوم، حيث كان البيزنطيون والترك، فضلا عن الخزر، يشكلون قلقا للخلافة الاموية في هذا المجال.

في ضوء ما سلف كان اختيارنا لهذه الجبهات الثلاث في موضوعة السياسة الخارجية للحكم الأموي الذي وجد نفسه في مواجهة عاصفة من الثورات في ولاياته البعيدة، خصوصا

في الأقاليم المتداخلة مع هذه الجبهات. وكان الخزر يهددون أرمينية التي لم تغب أيضا عنها أنظار البيزنطيين، حيث كانت الحملات الأموية مستمرة ضد مواقعهم في آسيا الصغرى. كما تاثر الترك الساخطون على سياسة الحكم الأموي، بمواقف القوى التركية المناوئة للأخير في فرغانة وزابلستان وغيرهما ممن ظل خارج نطاق الفتوح في تلك الجهات. وإذا كانت الروايات التاريخية قد انطوت على تفاصيل عن جبهتي البيزنطيين والترك، فان جبهة الخزر ظلت أخبارها مختصرة وغائمة. أما تفسير ذلك فيعود إلى أن الخزر لم يشكلوا محورا في مستوى المحور البيزنطي بما له من حجم كبير في السياسة الخارجية الأموية، فضلا عن المحور التركي الذي شكل عمق الحركة الإسلامية في الشرق. والرواية التاريخية تتجه عادة إلى مركز الضوء وتشدها الأحداث الساخنة مما جعل العمليات ضد الخزر هامشية فيها. ولذلك قد تفيدنا أحيانا الأخبار الجغرافية، أكثر من التاريخية في التعرف على هذه البلاد وبعض تفاصيل علاقتها بالحكم الأموي ، على غرار ما وجدناه من تفاصيل مهمة في " صورة الأرض" لأبن حوقل.

ولكن ثمة ما يجب تاكيده في هذا السياق، إن السياسة الأموية، وإن لم تستطع بسبب ظروفها الصعبة ترسيخ الإسلام في بلاد الخزر، فإنها نجحت بصورة جزئية في تحقيق حضور له في الإدارة، وعلى المستوى الشعبي بعد سقوط الخلافة الأموية. ولعل مروية ابن حوقل تكشف لنا بعض المعطيات في هذا السبيل، اذ جاء فيها : و"للملك سبعة من الحكام، من اليهود والنصارى والمسلمين وعبدة الأوثان ، وإذا عرض للخاصة والعامة أمر حكم فيه هؤلاء الحكام ولا يصل أهل الحوائج إلى الملك نفسه. ["1979" 334،330 ] وتبقى المحصلة النهائية، وهي أن الخلافة الأموية في طبيعة تكوينها، نظام عسكري تكمن قوته في التوازن القبلي، و لم تكن لها رؤية سياسية واضحة في علاقتها الداخلية والخارجية. بيد أنها – أي الخلافة – لا تحمل عبء المسؤولية كافة في هذا الصدد، إذ أن الدولة بمفهومها الذي ندرك الآن، لم تكن قائمة في الوعي التاريخي لتلك المرحلة. ولأنها تاسست على نحو من التحدي لبعض التيارات في الإسلام، فإن سياساتها ظلت محكومة بالهاجس الأمني، بما فيها التي طالت كيانات متاخمة لها. هذا فضلاً عن الهاجس الاقتصادي الذي جعل من " الخراج" ، قضية بارزة في العلاقة مع شعوب البلدان المفتوحة وقبائلها ، مما شكل أحد أهم عناوين الحركة الإصلاحية للخليفة عمر بن عبد العزيز لذي اكتنه خطورة هذه المسألة، وحاول تصويب مسيرة الحكم الأموي باتجاه مشروع " الدولة " بكل ما يقتضيه ذلك من حوار في الداخل، وانفتاح على الفئات المتذمرة من سياسات الخراج فضلا الالتزام بمفهوم الإسلام للفتوح وإعادة صياغة المفردة الأخيرة منهجا ومضمونا في إطار حركة الجهاد.

**أ.د. إبراهيم بيضون**

## المصادر والمراجع

ابن أالأثير عز الدين بن أبي محمد (ت 630هـ/1233م)، (1979) الكامل في التاريخ ، بيروت ، دار صادر .

ابن أعثم أحمد بن أعثم الكوفي (ت 314هـ/926م)، (1989) كتاب الفتوح، حيدر آباد ، دائرة المعارف العثمانية .

ابن حوقل،أبو القاسم بن حوقل النصيبي (ت 367هـ/979م) (1979)كتاب صورة الأرض ، بيروت ، دار مكتبة الحياة .

ابن خلدون،عبد الرحمن بن محمد (ت808هـ/1405م) (1979) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت ، دار الكتاب اللبناني.

ابن سيد الناس فتح الدين محمد بن محمد (ت734هـ/ 1333م) (1974) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، بيروت ، دار الجيل .

ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله (ت257هـ/870م)، (1967) سيرة عمر بن عبد العزيز، بيروت ، دار العلم للملايين .

ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم (ت 711هـ/1311م)،(د.ت) لسان العرب، بيروت دار صادر.

ابن هشام، محمد بن عبد الملك (ت 218هـ/833م)، (1975) السيرة النبوية، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، بيروت ، دار الجيل .

أبو يوسف يعقوبي بن إبراهيم ( ت 182هـ/798م) (1396) كتاب الخراج ، القاهرة ، المطبعة السلفية .

البلاذري أحمد بن يحيي بن جابر (ت 279هـ/192م) ، (1959) فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى .

الطبري محمد بن جرير ( ت 310هـ/922م) (1964) تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر ، دار المعارف.

ياقوت الحموي شهاب الدين أبو عبد الله الحموي (ت 626هـ/1228م) ، (1979)معجم البلدان ، بيروت ، دار صادر.

اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب (ت292هـ/904م)(1960) تاريخ اليعقوبي ، بيروت ، دار صادر

## المراجع العربية والمعربة :


بارتولد . و

(د.ت) "الخزر" دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة محمد ثابت الفندي ، أحمد الشنتاوي ، إبراهيم خورشيد ، عبد الحميد يونس ، المجلد الثامن .

بيضون إبراهيم

(1987) تاريخ بلاد الشام ، إشكالية الموقع والدور في العصور الإسلامية ، بيروت ، دار المنتخب .

حميد الله محمد

(1985) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدية ، بيروت ، دار النفائس .

دنلوب ، د.م

(1992) تاريخ يهود الخزر ، دمشق ، دار حسان للطباعة والنشر .

رستم أسد

(1955) الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ، بيروت ، دار المكشوف.

شعبان محمد عبد الحي

(1983) صدر الإسلام والدولة الأموية ، ترجمة الاهلية للنشر والتوزيع ، بيروت .

يحيى لطفي عبد الوهاب

(1987)حولية ثيوفمانس مصدر بيزنطي عن بلاد الشام في العهد الأموي " ، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام ، عمان .


## المراجع الاجنبية :


.Theophames ، Chronogoraphia ، ed Migne. De Boor.

(1857) Constantine perphgrogentus .

Bbarthold ، W. ، Goldem ، P.B .

(1978") Khazar The Encyclopaedia of Islam، New Edition ، Leiden E.J.Brill vol.، 4، pp 1172، 1181

## الأمويون و الحجاز

### حدود الحجاز :

سمي الحجاز حجازاً لأنه حجز بين تهامة و نجد . وقد اختلف الجغرافيون حول حدوده ، مما يجعل من العسير الخروج برأي قاطع عنها. وقد ذكر الفيروز آبادي أن الحجاز اثنا عشر داراً، عدّ منها المدينة ، وخيبر ، وفدك ، وهذه الترجمة للحجاز تجعل مكة خارجة عنها لأنها من تهامة . كما جعله بعضهم مكة والمدينة و اليمامة ومخاليفها [ "1389هـ"102 ] ومهما كان اختلاف المؤرخين والجغرافيين حول حدوده ، فإننا سنتناول في هذه الدراسة المنطقة التي تضم مكة و المدينة المنورة ، والطائف ، والمدن الساحلية ، مثل جدة ، والجار، والمناطق الواقعة بين هذه المدن فضلاً عن البوادي التابعة لها . وعاصمته المدينة المنورة .

### تبعية الحجاز للخلافة الأموية :

استغل معاوية بن أبي سفيان ــ و هو من دهاة العرب ــ مقتل الخليفة عثمان بن عفان ﷺ لصالحه و ترأس المطالبين بدم الخليفة عثمان بن عفان ﷺ ، فتمكن عن طريق هذا المطلب من الفوز بمنصب الخلافة . وفي سبيل تحقيق ذلك عمل على الوقوف في وجه خلافة علي بن أبي طالب ، مستغلاً تأييد أهالي الشام له ، بعد أن رأوا حسن سياسته فيهم ، أثناء ولايته عليهم التي بلغت عشرين سنة . [ ابن الأثير "1965" 293،277،203-294 ] وأول عمل قام به معاوية بن أبي سفيان للسيطرة على الحجاز ، إرساله بسر بن أرطاة أحد رجاله إلى المدينة مع ثلاثة آلاف رجل ، ففر أبو أيوب الأنصاري واليها من قبل الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ ، ودخل بسر المدينة فأمر أهلها بالبيعة لمعاوية، و هدم دوراً فيها ، فخاف أهلها ، وفر بعضهم منها .

أظهر بسر بن أرطاة فضل معاوية على أهل المدينة، و أعلن أنه لن يترك محتلماً إلا قتله لولا عهد معاوية إليه بألا يفعل ، و أنذر من لم يبايع من الأنصار ، و هدد بعض أسر أهل المدينة ، أمثال بني سلمة ، وأعلم أنه ليس لهم عنده أمان إن لم يبايعوا ، فبايعوا ، ثم تركها متوجهاً إلى مكة .

لم تدخل الحجاز في سلطان معاوية إثر قدوم بسر بن أرطاة إليها ، بل كان دخولها في طاعته بعد عام الجماعة سنة (41هـ / 661م). [ اليعقوبي "1960" 198/2 ] حيث قدمها معاوية في هذه السنة لتأكيد بيعته و فرض سلطانه . و تغيرت سياسته مع أهلها بعد تنازل الحسن بن علي ، فقد أخذ بسياسة الرفق واللين تارة ، و الشدة تارة أخرى لجعلهم إلى جانبه. فهدأت الحجاز وأخلدت إلى السكينة ، و انصرف أهلها إلى أعمالهم .وقد أبقى معاوية عدداً كبيراً من الأمويين في المدينة المنورة خاصة ، و في الحجاز عامة ليكون لهم ثقل فيها ، بوصفها مركز الزعامة التي تتطلع إلى الخلافة ، ولجعلهم عيوناً للخلافة الأموية في الحجاز لرصد الحركات المناوئة .

ومنذ أن استقر الأمر لمعاوية بن أبي سفيان ، واجتمع الناس على بيعته، ولى على الحجاز ولاة من الأمويين أمثال مروان بن الحكم، وسعيد بن العاص ، ووضح لأهلها بأنه وصل إلى منصب الخلافة بحد السيف ، وأنه لا فضل لهم عليه. و تمسك بالخلافة على أنها ملك لبني أمية ، وأنهم خير من يمثل السيادة ، و أنها لا تصلح إلا بهم . [البلاذري "1979" 20/1/4 ]

## التحولات السياسية و العسكرية :

لا شك في أن انتقال الخلافة إلى الأمويين تبعه العديد من التحولات السياسية و العسكرية في الحجاز ، ولا بد لكي تتضح هذه التحولات من أن ندرسها على مراحل متعددة :

## التحولات السياسة و العسكرية في الحجاز في خلافة كل من معاوية بن أبي سفيان و ابنه يزيد:

رضخت الحجاز في الحقبة بين سنتي ( 41 ــ 56هـ / 661 ــ 676م) لمعاوية بن أبي سفيان ــ تفادياً للفتنة التي كانت قد نشبت منذ خلافة عثمان بن عفان ﷺ حتى عام الجماعة ــ على الرغم من وجود بعض أبناء الصحابة الذين كانوا يرون أنهم أحق من معاوية بالخلافة، وينتظرون الفرصة السانحة للحصول على حقهم فيها ، حتى جاءهم معاوية بإعلان البيعة لابنه يزيد .

## بيعة يزيد بن معاوية بولاية العهد و أثرها :

أعلن معاوية سنة (57هـ / 676م) البيعة لابنه يزيد بتحريض من بعض أصحاب المصالح ، و صادف ذلك هوى في نفسه ، [الطبري " 1972" 5/301-305 ] فدعا بكتاب قرأه على الناس في دمشق باستخلاف يزيد إن حدث به حدث الموت ، فكانت هذه البيعة الشرارة التي أدت إلى إشعال الفتنة ثانية، و إلى ظهور ما كان يخفيه كبار رجالات الحجاز في نفوسهم إذ رفض خمسة من القرشيين البيعة ليزيد وهم الحسين بن علي ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر،وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وعبد الله بن العباس . وكان معاوية يخاف اثنين منهم ، و هما الحسين بن علي ، و عبد الله بن الزبير .

بدأ معاوية بمفاوضة المعارضين لبيعة يزيد كلاً على حدة ، وحاول ترغيبهم و ترهيبهم و كان يطلب من كل منهم ألا يخبر الآخرين بما دار بينهما . و لم يجد تجاوباً من الحسين بن علي، و عبد الله بن الزبير ، على حين أن عبد الله بن عمر أعلمه بأن الأمة إذا اجتمعت على يزيد فإنه سيدخل فيما دخلوا فيه ، و يتجنب الفتنة ، ورضخ عبد الرحمن ابن أبي بكر لواقع الأمر،و لم تذكر المصادر ما قاله عبد الله بن العباس .

هدأت الأوضاع في الحجاز ظاهرياً ، حتى وفاة الخليفة معاوية سنة ( 60هـ / 680م) . وكان قد أوصى ابنه وولي عهده يزيد ــ و هو على فراش الموت ــ بكيفية التعامل مع المعارضين لخلافته ، قائلاً : ( يا بني إني قد كفيتك الرحلة و الترحال، ووطّأت لك الأشياء، و ذللت لك الأعداء ، و أخضعت لك أعناق العرب ، و جمعت لك ما لم يجمعه أحد ، و إني

لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذي استتب لك إلا أربعة نفر من قريش ، الحسين بن علي ، و عبد الله بن عمر ، و عبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر . فأما عبد الله بن عمر، فرجل قد وقذته العبادة ، وإذا لم يبق أحد غيره بايعك ، و أما الحسين بن علي ، فإن أهل العراق لن يَدَعوه حتى يخرجوه ، فإن خرج عليك فَظَفِرْتَ به ، فاصفح عنه ، فإن له رحماً ماسة ، وحقاً عظيماً . و أما ابن أبي بكر فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم. و أما الذي يجثم لك جثوم الأسد ، و يراوغك مراوغة الثعلب، فإن أمكنته فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير...) . [الطبري "1972" 322/5-323 ]

ومع هذا التحذير من معاوية لابنه من بعض رجالات القرشيين، فإنه أوصاه بأهل الحجاز عامة ، دون تحديد فئة قائلاً : ( انظر أهل الحجاز ، فإنهم أصلك ، فأكرم من قدم عليك منهم، وتعاهد من غاب) . [ الطبري "1972" 323/5 ] وتوفي معاوية سنة ( 60 هـ/680م)، وترك الخلافة من بعده لابنه يزيد ، وقد نتج عن ذلك عدة نتائج أهمها خروج الحسين بن علي عن طاعة الأمويين إذ ما إن تولى يزيد بن معاوية عرش الخلافة ، حتى كتب للوليد بن عتبة بن أبي سفيان واليه على المدينة كتاباً يأمره فيه بأخذ البيعة من الرافضين لخلافته، قائلاً: ( أما بعد ، فخذ حسيناً و عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا ، و السلام ...) . [الطبري "1972" 338/5 ] فدعاهم الوليد بن عتبة لبيعة يزيد ، فبايع عبد الله بن عمر وفر الحسين بن علي، و عبد الله بن الزبير إلى مكة. وقرر الحسينﷺ الخروج إلى الكوفة بتحريض من عبد الله بن الزبير ، الذي أراد أن يخرجه ليخلو له الجو في الحجاز . و كان للحسين أنصار في الكوفة يكاتبونه ، و يطلبون منه الحضور إليهم لينصروه، فأرسل إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب ، ثم ما لبث أن تبعه إلى الكوفة ، و خرج معه أنصاره ، فقاتله الأمويون في معركة كربلاء في ( 10 محرم سنة 61هـ / 20 أكتوبر 680 م) ، و استشهد مع أكثر أفراد أسرته المرافقين له ، و قبض على البقية الباقية . وكان لاستشهاد الحسين نتائج على جانب كبير من الأهمية، على رأسها تفرق كلمة المسلمين ، وانقسامهم إلى شيع وأحزاب ، واستياء المهاجرين و الأنصار مما حدث ، و قيامهم بالثورة على يزيد. [ الطبري "1972" 347/5-469 ]

وبعد أن رأى يزيد بن معاوية تخاذل الوليد بن عتبة واليه على المدينة عن أخذ البيعة له، عزله ، وجعل على المدينة عمرو بن سعيد بن العاص، فقدمها في ( رمضان سنة 61هـ / يونيو 680 م) [ الطبري "1972" 342/5-343] وحدث بعد ذلك استشهاد الحسين بن علي ، وخروج عبد الله بن الزبير ﷺ على الأمويين ، ووقوف أهالي المدينة بكل فئاتهم الأنصار والمهاجرين وغيرهم إلى جانبه وساعد على ذلك ضعف جيش الأمويين في الحجاز ،

وقلة خبرة والي المدينة الجديد عثمان بن محمد بن أبي سفيان الذي كان فتى غراً حدثاً ، لم يجرب الأمور ، و لم يحنكه السن ، و لم تفرسه التجارب ، وكان لا ينظر في شيء من سلطانه ولا عمله. هذا إلى جانب أنه كان لاستشهاد الحسين أثر في شحن نفوس الناس بالبغضاء لبني أمية عامة ، وليزيد خاصة ، و اتخذ أهالي الحجاز من ذلك وسيلة لتشويه صورة يزيد ، و إثارة الناس ضده . وكانت المدينة المنورة تعاني أثناء خلافة معاوية من ضائقة اقتصادية أدت إلى غلاء الأسعار ، وذلك بسبب أن معاوية حبس عطاء أهل المدينة لمعارضتهم لبيعة يزيد، واستغل هذه الضائقة، فاشترى أراضي الصوافي من أهل المدينة بجزء من ثمنها ، و أخذ ينقل نتاج الصوافي في كل سنة إلى دمشق ، مع أن أهالي المدينة أحق بها .

استمر حبس عطاء أهل المدينة في مطلع خلافة يزيد ، فقد حبسه عنهم واليه عليها عمرو بن سعيد،و قد احتج أهاليها من وضعهم الاقتصادي إلى عثمان بن محمد بن أبي سفيان ، قائلين له : ( قد علمت أن هذه الأموال كلها لنا، وأن معاوية آثر علينا في عطائنا ، و لم يعطنا قط درهماً فما فوقه ، حتى مضنا الزمان ، و نالتنا المجاعة فاشتراها منا بجزء من مئة من ثمنها ). [ ابن قتيبة "د.ت" 175/1 ]

رأى يزيد أن يجد حلاً لشكوى أهل المدينة تجنباً للفتنة ، فطلب من واليه عليها أن يوجه إليه وفداً من أهاليها من المهاجرين والأنصار ليسمع مقالتهم، و يستميل قلوبهم إليه .

و لما حضر الوفد، أكرمهم يزيد وأعطاهم الأموال و الهدايا .من ذلك أنه أعطى عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري مئة ألف ، و أعطى بنيه العشرة كل واحد منهم عشرة آلاف سوى كسوتهم و حملانهم . فلما قدم عبد الله المدينة أتاه الناس ، فقالوا له :ما وراءك ؟ قال : ( أتيتكم من عند رجل ، و الله لو لم أجد إلا بنيّ هؤلاء لجاهدته بهم . قالوا : فإنه بلغنا أنه أكرمك وأعطاك ، قال: قد فعل ، وما قبلت ذلك منه إلا أن أتقوى به عليه ..). و أخذ في حض الناس على الخروج على يزيد ، ففعلوا و بايعوه على قتال بني أمية وشيعتهم حتى تعود الأمور إلى نصابها ، وبايعوا لابن الزبير ، وأظهروا شتم يزيد. [البلاذري "1979" 31/2/4 ]

إن ذكر المنكرات التي رآها ابن حنظلة من يزيد ، كام الهدف منها إثارة الناس عليه، ولايجاد المبررات لخلعه و الخروج عليه . و من غير المعقول أن يجهر يزيد بالمنكر أمام وفد من رجالات المدينة ، ولكن أهالي المدينة كرهوه لمقتل الحسين ، فضلاً عن ضعف واليه ، وساعدهم على ذلك قلة الجند ، و الضيق الاقتصادي المتعمد لإضعاف أهل الحجاز ، ومنع العطاء عنهم ، مما اضطرهم إلى بيع ممتلكاتهم في عهد معاوية ، فاشتراها بأبخس الأثمان.

حاول يزيد بن معاوية تهدئة الفتنة سلماً، فأرسل إلى المدينة النعمان بن بشير الأنصاري يحذر أهلها من الفتنة و يدعوهم إلى الطاعة ، ولزوم الجماعة قائلا له : ( ائت الناس، وقومك

الأنصار فافثأهم عما يريدون...) . [المنقري "1981" 445-449 ] وتخصيص يزيد للأنصار، دليل على أنهم كانوا أصحاب اليد الطولى في الخروج عليه و لم يدع النعمان القرشيين في المدينة يتدخلون في وساطته ، لأنهم — في رأيه — إذا وجدوا جيوش يزيد تهاجم المدينة ، فسيلحقون بمكة ، ويتركون الأنصار يقتلون في سكك المدينة.

لم يجد النعمان تجاوباً من قومه ، فقرأ عليهم كتاب يزيد الذي يحمله ، و فيه تهديد لهم إن لم يرتدعوا بجعلهم أثراً بعد عين ، و لكنهم استمروا في الخروج عليه ، و لما فشلت الشدة معهم ، رأى أن يعود ثانية إلى استعمال أسلوب الإغراء المادي ، بوعدهم بعطاءين في كل عام ، وأن يوفر لهم الحنطة دائماً و يرد لهم ما احتبس عنهم في خلافة معاوية ، والعطاء الذي حبسه عنهم عمر بن سعيد الأشدق . [ ابن قتيبة "د.ت" 8/2 ] وتدل مجريات الأحداث على أن أهالي المدينة رفضوا هذا العرض الذي عرضه يزيد — لأنه لم يشأ أن يضيف إلى تاريخه نقطة سوداء ، بعد الذي حدث في كربلاء — كما أن أهالي المدينة الذين ثاروا، رفضوا العروض الاقتصادية،مع أنهم كانوا بحاجة إلى ما عرض عليهم ، لأنهم كانوا رافضين لحكم يزيد والأمويين عموماً ، و أنهم أرادوا الدفاع عن مبادئ الدين الإسلامي ، لخروج يزيد عنه — حسب رأيهم — فضلاً عن أنهم كانوا يحاولون إعادة مركز الثقل السياسي في الخلافة إلى مدينتهم.

انضم الأنصار في المدينة إلى ابن الزبير ، لأنهم رأوا أنه صاحب حق بالخلافة بعد مقتل الحسين ، وكاشفوا يزيدَ بالعداوة و لما أراد عمر بن سعيد والي المدينة ليزيد إرسال جيش لقتال ابن الزبير ، منعوه ، و خاطبه رافع بن خديج الأنصاري قائلاً: ( اتق الله ولا تغزي الجيوش مكة، فإن الله حرمها ...) ، فأجابه : ( وما أنت وهذا ؟ لقريش علم لا تبلغه أنت و لا أصحابك...) [ البلاذري "1979" 312/1/4 ] وكان الأشدق يرى أن جل أهل مكة والمدينة مالوا لابن الزبير ورضوا بحكمه، و لم يكن مع ابن الأشدق من يستعين بهم لمناهضة الثورة .

عزل يزيد واليه و عين مكانه عثمان بن محمد بن أبي سفيان فطرده أهالي المدينة و حاصروا الأمويين فيها ،وعددهم حوالي ألف شخص ثم أخرجوهم منها بعد أن أخذوا عليهم المواثيق بألا يدّلوا جيش يزيد على عوراتهم، ولا يساعدوا عدوهم. ولكنهم خانوا العهد ،و دلوا مسلم بن عقبة المري قائد جيش يزيد على عورات المدينة ، فكان للمعلومات التي حصل عليها مسلم ، كبير الأثر في انتصاره .

شجع يزيد الناس على الالتحاق بجيش مسلم المتوجه إلى المدينة على أن يأخذوا أعطياتهم كاملة ، و معونة مئة دينار . و حدثت معركة الحرة بين مسلم بن عقبة المري ، وأهالي المدينة الذين كانوا تحت قيادتين — الأنصار يقودهم عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري ، والقرشيون

بقيادة عبد الله بن مطيع ــ بعد أن أمهلهم ثلاثة أيام و أعلمهم أن يزيد يكره إراقة دمائهم . ولكنهم أبوا العودة إلى طاعة يزيد ، و بدأ القتال، فكانت الجولة الأولى لأهالي المدينة . إلا أن جيش يزيد تمكن من دخول المدينة المنورة في يوم (الأربعاء 28 ذي الحجة من سنة 63هـ / آب، أغسطس 683م) ، [ خليفة بن خياط "1968" 291/1 ] بعد أن استشهد معظم زعمائها ، لأن مسلماً أسرف في القتل حتى سمي مسرفاً ، [ ابن الأثير "1965" 120/4 ] و كان أكثر الشهداء من الأنصار ثم المهاجرين مع الاختلاف في عددهم .

ومن أسباب هزيمة الحرة أن الخارجين على يزيد لم يوحدوا صفوفهم وقيادتهم ، كما لم تكن أوضاعهم المادية جيدة ، فلم يكن في المدينة من الميرة ما يكفيها لسد حاجتها أياماً . و لم يكن هدفهم الذي يريدون تحقيقه بعد خلعهم يزيد واضحاً، إذ أنهم لم يوحدوا صفوفهم مع ابن الزبير ، كما أن زعماء المدينة أمثال عبد الله بن عمر ، و ابن العباس، و علي بن الحسين ، ومحمد بن الحنفية لم يكونوا راضين عن الثورة ، وكذلك فإن بني حارثة خرجوا عن بني جلدتهم، وساعدوا الأمويين .

كانت هذه المعركة آخر محاولة جادة قام بها أهالي المدينة لاستعادة السلطة والتخلص من الحكم الأموي، حتى قيل إنه لم يقم لهم قائمة بعدها، وأخذوا بصرف جل اهتمامهم إلى أراضيهم الزراعية و قيل في ذلك:( كان أهل المدينة أعز الناس وأهيبهم حتى كانت الحرة ، فاجترأ الناس عليهم فهانوا). [ ابن قتيبة "د.ت" 188/1 ] وهكذا فإنه كان للأوضاع الاقتصادية في المدينة وشعور أهاليها بفقد مركزهم السابق ، فضلاً عن محاولة عبد الله بن الزبير ضمهم إلى صفه ، أكبر الأثر في خروجهم على الأمويين ومحاولة الاستقلال عنهم.

وما إن انتهت معركة الحرة حتى توجه جيش يزيد إلى مكة لقتال ابن الزبير، وكل من امتنع عن بيعة يزيد. وتوفي مسلم قائد يزيد قبل أن يصل إليها، فتولى القيادة بعده حصين بن نمير السكوني. فسار حتى وصل إلى مكة ، وكان قد انضم إلى ابن الزبير الفارون من المدينة بعد الحرة،كما انضم إليه نجدة بن عامر الحنفي مع أتباعه من الخوارج ، و حاصر حصين مكة ، وقاتل ابن الزبير طيلة الأشهر الثلاثة الأولى من سنة ( 64 هـ /683-684م) وقذف البيت الحرام بالمنجنيق، فاحترق .

توفي يزيد بن معاوية أثناء حصار الكعبة، وبويع بالخلافة بعده لابنه معاوية .و لما بلغ الخبر لابن الزبير ، صاح بجيش يزيد قائلاً : ( عمّ تقاتلون وقد هلك طاغيتكم ؟) . [ الطبري "1972" 499/5 ] و لما تأكد الحصين بن نمير من الخبر ، بعث إلى عبد الله بن الزبير ، وأخذ يفاوضه قائلاً: ( إن يك هذا الرجل قد هلك ــ يقصد يزيد ــ ، فأنت أحق الناس بهذا الأمر ، هلّم فلنبايعك ، ثم اخرج معي إلى الشام ...فو الله لا يختلف عليك اثنان،و تؤمن الناس و تهدر

الدماء ...). [البلاذري "1979"348/4/1 ]

ولكن ابن الزبير رفض و أخذ يهدد الحصين بأنه لا يرضى حتى يقتل بكل رجل ممن قتل في الحرة وغيرها عشرة. وأخذ الحصين يكلمه سراً و ابن الزبير يجهر جهراً ، ثم قبل أن تُؤخذَ له البيعة على أن لا يذهب إلى الشام،ولكن الحصين رفض ذلك .

استفحل أمر ابن الزبير في الحجاز وما والاها، وبايعه أهلها بيعة جديدة ، فاستناب عنه في المدينة أخاه عبيدة بن الزبير، و أمره بإجلاء من تبقى من بني أمية فيها . كما توسعت منطقة نفوذه خارجها ، فأصبح يحكم العراق بكامله، وامتد نفوذه إلى بلاد الشام و اليمن .أخذ عبد الله بن الزبير بتبديل ولاته المعينين على المدينة، فكان منهم ولاة من القرشيين والأنصار والموالي ، فقد عين ثمانية ولاة عليها في المدة ما بين (64-73هـ/683-792م). و يبدو أن غايته من ذلك إرضاء أهل المدينة من أنصار و قرشيين، مع إبقاء تبعية المدينة تحت طاعته.ولكنه فشل في تحقيق هدفه، حتى قال أهل المدينة متهكمين على ولاته : ( قد كان ليزيد ابن معاوية أبو قيس لا يضر ولا ينفع ، ولابن الزبير أبو قيس يضر ولا ينفع ...) . [ البلاذري "1979" 353/¼ ] وذلك لارتفاع أسعار المواد الأساسية في عهده ، و لحصول مجاعة. وقد يكون سبب ذلك قطع الميرة عن الحجاز من قبل عبد الملك بن مروان لإضعاف عبد الله بن الزبير.

### التحولات السياسية و العسكرية في الحجاز في خلافة كل من مروان بن الحكم و ابنه عبد الملك :

بعد معركة مرج راهط ومؤتمر الجابية ، [ الطبري "1972" 535/5-544 ] تولى مروان ابن الحكم عرش الخلافة الأموية ( 64-65هـ/ 683- 684م) . فقرر إرسال الجيوش لاستعادة الحجاز من عبد الله بن الزبير ، والتخلص من مناهضته ومناهضة مؤيديه للخلافة الأموية، ولينتقم لنفسه وللأمويين من أهالي المدينة الذين أخرجوه منها قبل موقعة الحرة .

بدأ الخليفة مروان بالحرب الاقتصادية ، فقطع ميرة الشام عن الحجاز ، فعانت من غلاء الأسعار والمجاعة ، حتى إن أهاليه لم يعودوا يحصلون إلا على حنطة و عدس ، ويأكلون وجبة واحدة من ليل إلى ليل . ثم أرسل مروان جيشاً جعل على قيادته حُبيش بن دُلجة القيني. و كان مع هذا الجيش يوسف بن الحكم الثقفي،وابنه الحجاج، فتمكن من دخول المدينة بعد أن فر واليها منها .

طلب ابن الزبير معونة من واليه على البصرة ، فاضطر حُبيش للخروج من المدينة لصده، فتمكن ابن الزبير من استعادة المدينة ، فجعل على ولايتها عباس بن سهل الأنصاري ، الذي لاحق جيش حُبيش إلى الربذة فانتصر عليه، وقتله، وعادت فلول جيشه إلى الشام .

توفي مروان بن الحكم في دمشق ، مستهل (رمضان سنة 65هـ / أبريل 685م) ، وتولى الخلافة بعده ابنه عبد الملك (65-86هـ / 684-705م) . فانشغل عبد الملك بمشاغل متعددة في أرجاء الخلافة الإسلامية، ومع ذلك فإنه أرسل جيشاً لقتال عبد الله بن الزبير سنة (66 هـ / 685-686م) بقيادة عبد الملك بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص فوصل إلى وادي القرى ، فأرسل ابن الزبير جيشاً لقتاله ، و تمكن من الانتصار عليه . [ الطبري "1972" 73/6-74]

في تلك الأثناء تمكن مصعب بن الزبير من السيطرة على العراق كله، بعد أن انتصر على المختار بن أبي عبيد الثقفي ، وصفا العراق كله لابن الزبير ، وأصبح تابعاً للحجاز كما تبعت له منطقة الجبال ، والسواد ، والموصل ، والجزيرة ، وأذربيجان ، وأرمينية ، فأرسل عبد الله بن الزبير العمال عليها . ولكن ابن الزبير لم يهنأ بذلك طويلاً ، إذ ما لبث الخليفة عبد الملك أن قاد الجيوش سنة (71 هـ / 690م) بنفسه لقتال مصعب بن الزبير ، فانتصر عليه وقتله على نهر الدجيل عند دير الجاثليق. وبذلك خرجت العراق عن طاعة ابن الزبير ، وبايع أهلها عبد الملك ابن مروان .

ما إن أهلت سنة ( 72 هـ / 691م ) حتى وجه الخليفة عبد الملك ، الحجاج بن يوسف الثقفي إلى الحجاز لقتال عبد الله بن الزبير ، وحمله كتاباً بالأمان إليه وإلى أنصاره إذا دخلوا في طاعته، فتمكن من دخول المدينة المنورة ، وإخراج طلحة بن عبد الله بن عوف آخر ولاة ابن الزبير منها . [ الخليفة بن خياط "1968" 341/1 ] ثم تابع مسيره إلى مكة المكرمة بعد أن وصلت إليه معونة من خمسة آلاف رجل ، فألقى الحصار عليها ، وحبس الميرة والماء عن أهلها ، فأصابهم ضيق شديد، فخرج بالأمان إليه ما يقارب من عشرة آلاف، فأمنهم وفيهم حمزة ، وخبيب ابنا عبد الله بن الزبير ، اللذان أخذا الأمان لنفسيهما . ودام حصار الكعبة ثمانية أشهر، وسبع عشرة ليلة ، رمى الحجاج الكعبة بالمنجنيق أثناءها. وما لبث ابن الزبير أن قتل ، وبايع من في مكة لعبد الملك بن مروان . [الطبري "1972" 187/6 ]

بعد أن خضعت مكة للأمويين ، توجه الحجاج ثانية إلى المدينة المنورة، فأقام بها ثلاثة أشهر يتعبث بأهلها ويتعنتهم ، وختم أعناق أصحاب رسول الله ﷺ ، فقد ختم على يد جابر بن عبد الله. [ البلاذري "1979" 373/5 ] وختم أنس بن مالك في عنقه يريد أن يذله بذلك ، كما ختم سهل بن سعد في عنقه . وترك العنان لخطباء المساجد التابعين له في الإساءة لأهل المدينة ، ووصفها بأنها مدينة ﴿كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾. [ سورة النحل، الآية: 112 ] ولكنها خرجت عن الطاعة، فعاقبها الله.

وهكذا خضعت الحجاز للأمويين ، وأخذ الخلفاء الأمويون منذ القضاء على خلافة

عبد الله بن الزبير بتعديل سياستهم مع أهاليه . فعملوا منذ أن ضمنوا انصراف أهالي الحجاز عن السياسة ، إلى زيادة أعطياتهم ، وإغداق الأموال عليهم ، ولكنهم لم يكونوا عادلين في توزيعها .

## الأوضاع العامة في عهد الخلفاء الأمويين بعد عبد الملك حتى سقوط الخلافة:

توفي عبد الملك بن مروان ، وبويع لابنه الوليد ، الذي حكم فيما بين عامي (86-96 هـ / 705-715م) فأحسن إلى أهالي المدينة ، فقسم فيهم رقيقاً كثيراً عجماً، وآنية من ذهب وأموالاً . وولى عليهم والياً عادلاً هو عمر بن عبد العزيز ، الذي أحسن إلى أهاليها ، وأخرج لهم ثلاث أعطيات في سنتين و أقل من خمسة أشهر . وقرب إليه الفقهاء والعلماء . فدعا عشرة من فقهاء المدينة و طلب منهم أن يكونوا له عوناً على الحق ، ووعدهم بأن لا يقطع أمراً إلا برأيهم ، و طلب منهم إن رأوا أحداً يتعدى أو بلغهم عن عامل ظلامة أن يُعلِموه . [ الطبري "1972" 427/6 ] واستعان على القضاء بأبي بكر ابن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري ، فعاشت الحجاز في هذه الحقبة حياة هانئة ، ونعمت بازدهار اقتصادي ، فكانت واحة فدك وحدها تغل في ولاية عمر بن عبد العزيز عشرة آلاف دينار .[ القلقشندي "د.ت" 290/4-291 ]

وما لبثت الأوضاع أن تغيرت ، فقد عزل الوليد عمر بن عبد العزيز عن الحجاز ، بسبب شكوى الحجاج منه، الذي كتب إلى الخليفة الوليد : ( إن من قبلي من مراق أهل العراق و أهل الشقاق ، قد جلوا عن العراق ،ولجأوا إلى المدينة ومكة وإن ذلك وهن ...). فكتب الوليد إلى الحجاج أن أشر علي برجلين ، فأشار عليه بعثمان بن حيان المري ، وخالد بن عبد الله القسري ، فولى خالداً مكة ، وعثمان المدينة، وعزل عمر بن عبد العزيز . [ الطبري "1972" 481/6-482 ] وقدم الواليان الجديدان إلى الحجاز ، فأخذا بإرسال العراقيين الذين في الحجاز إلى العراق ، و لم يدعوا بها أحداً من العلماء والتجار و غيرهم، و هددا كل من يؤوي عراقياً ، فقد أخرجا كلاً منْ سعيد بن جبير، ومجاهد بن جبر ، وطلق بن حبيب ، و عطاء بن رباح ، و عمرو بن دينار ، فمات طلق في الطريق، وحبس مجاهد حتى مات الحجاج ، و قتل سعيد ابن جبير . [ الطبري "1972" 488/6 ]

توفي الوليد بن عبد الملك سنة ( 96هـ/ 705م) وبويع سليمان بن عبد الملك بالخلافة (96-99هـ/715- 718م) فعزل عثمان بن حيان عن المدينة، و جعلها لأبي بكر بن محمد بن حزم .كما عزل خالد بن عبد الله القسري عن مكة، وجعلها لعبد العزيز بن عبد الله بن أسيد الأموي ، فتحسنت أوضاع الحجاز في خلافته . ومن محاسنه أن جعل ولاية العهد من بعده لعمر ابن عبد العزيز( 99-101هـ/718-720م) الذي استمرت الحجاز في عهده تعيش حياة آمنة مستقرة ، فقد عمل على سداد ديون من توفي من أهلهامن بيت

مال المسلمين .ولبى طلبات المعوزين والمحتاجين من أهل الحجاز،و أطلق الأسرى و أهل السجون، وأحسن إلى الناس .[ الطبري "1972" 546،550/6 ]

استمر وضع الحجاز حسناً في خلافة يزيد بن عبد الملك ( 101 – 105هـ / 720 –724 م) ، و لم يتعكر صفو الأمور فيها إلا في ولاية عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري القرشي (101 –104هـ /720 –723م) الذي أساء إلى أهلها ، مما أدى إلى عزله ومعاقبته من قبل الخليفة يزيد ، وتعيين عبد الواحد بن عبد الله النضري مكانه ، فأحسن إلى الأهالي وذهب معهم مذاهب الخير. [ ابن الجوزي "1992" 88-87/7 ]

بعد وفاة يزيد بن عبد الملك تولى الخلافة أخوه هشام ( 105-125هـ/724-743م)، فأراد أن يحسن لأخواله وأقاربه ويوليهم الولايات ، فجعل على المدينة خاله إبراهيم بن هشام المخزومي ، و بعده خاله محمد بن هشام ، و لم يوجه هؤلاء الولاة اهتمامهم إلى الحجاز ، بل كانت معاملتهم سيئة للأهالي مما أدى إلى نشوب ثورة في المدينة ، و لم يكن هشام راغباً في ذلك، وأراد أن يقضي على الثورة دون إراقة دماء ، ولذلك كتب إلى واليه على المدينة حين أخبره بوثوب أهلها عليه قائلاً (احفظ فيهم وصية رسول الله وهبهم له). [ ابن عبد ربه "د.ت" 260/4 ]

وقف أهالي الحجاز موقفاً حازماً من ثورة أبي حمزة المختار بن عوف الأزدي الخارجي الذي دخل مكة في موسم الحج سنة ( 129هـ/747م) موفداً من قبل عبد الله بن يحي طالب الحق من اليمن ، مظهراً الخلاف على الخليفة الأموي مروان بن محمد ، وجاء عرفة فخاف الناس منه ، فراسله والي الحجاز عبد الواحد بن سليمان في الهدنة حتى ينفر الناس من الحج ، ثم دخل أبو حمزة مكة دون قتال ، و مضى حتى دخل المدينة . وكان يأمل في مساعدة الأنصار له ضد حكم بني أمية ، ولكنهم لم يفعلوا ، بل شاركوا في قتاله وقتال جنده من الخوارج ، وانضموا للحملة التي أرسلها والي المدينة الأموي عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك فقاتلهم في قديد . وقد تكبد الأنصار نتيجة مشاركتهم في هذه المعركة أكثر من ثمانين شهيداً ، وأسر منهم عدداً آخر، فعفا أبو حمزة عنهم ، وقتل الأسرى من غيرهم ، وكان عدد الشهداء من أهالي المدينة بكل فئاتهم سبعمئة شهيد .

وعلى الرغم من أن الخوارج لم يكن في نيتهم إيذاء الأنصار ، وكانوا راغبين في التعاون معهم ضد الأمويين فإن أملهم خاب ، حين قاتلهم الأنصار مع قادة الأمويين . ثم ما لبث الخوارج أن انهزموا على يد جيش أموي ، أرسله الخليفة مروان بن محمد بقيادة عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي في موقعة وادي القرى ، فحاولوا اللجوء إلى المدينة هرباً من ابن عطية السعدي ، فانتقم الأنصار منهم ، وقتلوا من

الخوارج عدداً كبيراً .

بعد انتصار ابن عطية على الخوارج في وادي القرى توجه إلى صنعاء لقتال عبد الله بن يحيى ، فانتصر ابن عطية عليه وقتله . ثم عاد إلى مكة ليحج بالناس ، فلقيه في الطريق لصوص فقاتلهم ، فقتل على أيديهم . [ اليعقوبي "1960" 278/7 ] ثم ما لبث أن سقطت الخلافة الأموية، وقامت مقامها العباسية .

## أهم مظاهر الحضارة في الحجاز في خلافة الأمويين :

### إدارة الحجاز في خلافة الأمويين وهوية الولاة :

طمع كثير من رجالات الأمويين في تولي ولاية الحجاز لمكانتها، ومن هؤلاء زياد بن أبي سفيان ، وكان قد تولى لمعاوية بن أبي سفيان العراق فخاطبه قائلاً : ( قد ضبطت لك العراق بشمالي ويميني فارغة ، فاشغلها بالحجاز). [النويري "1975" 343/20 ] ولكن معاوية لم يعبأ بقوله .

جعل معاوية ولاية الحجاز لأفراد الأسرة الأموية غالباً ، و للقرشيين من غيرهم أحياناً ، ونادراً ما تولاها غيرهم ، و إذا حدث ذلك ، فإنه يكون أثناء الحملات العسكرية حيث يتولاها قادة الجيوش . [ انظر الملحق 1،2 ] وسار على هذه السياسة التي سنها معاوية معظم الخلفاء الأمويين. ومع تعيينه لأقاربه ولاة للحجاز ، فإنه لم يمكنهم من البقاء في الولاية طويلاً ، بل يعمد إلى تبديلهم بسرعة ، حتى لا يصبح للوالي مكانة كبيرة عند أهل الحجاز، تمكنهم من الاستقلال بالولاية وكان يعمل على تبديلهم حين يظهر عجزهم عن الوقوف في وجه الحركات المعارضة، أو لضعف شخصيتهم . كما كان التغيير يحدث حين يصل إلى الحكم خليفة جديد ، وتختلف سياسته عن سابقه ، أو بسبب شكوى الناس من الوالي . واتبع معاوية سياسة الاستيلاء على أموال الولاة بعد عزلهم ، حتى لا تكون الأموال سبباً في جمع الأعوان ، وسار على سياسته بعض الخلفاء الأمويين . فضلاً عن أنه كان يعمل على الإيقاع ورمي الضغينة والشحناء بين ولاته ، حتى لا يدع أحداً منهم يناصر الآخر ، ولا يصبح الخليفة حبيساً في يد أقاربه. [ الطبري "1972" 295-293/5 ].

استمر حكم الأمويين حوالي تسعين سنة، توالى على حكم الحجاز فيها خمسة وثلاثون والياً . وكان بعض الولاة يختصون بحكم المدينة المنورة وحدها ، وآخرون بحكم مكة و الطائف ، وجُمع الحجاز كله لأكثر الولاة . وكان من يجمع لهم حكم الحجاز يقيمون في المدينة المنورة غالباً باعتبارها عاصمة الولاية ويعينون نواباً من قبلهم للإشراف على شؤون بقية الولاية. وكان اتساع ولاية والي الحجاز ، أو اقتصارها على مدينة فيه، تعود إلى قوة الوالي ، ومكانته من الخليفة ، وقد تدفع الضرورة إلى ذلك .

حكم الحجاز ولاة من الأمويين لمدة ست وأربعين سنة،أي بنسبة ( 51%) من مدة حكم الأمويين له ، وحكم ولاة من بقية قريش لمدة ست وعشرين سنة ، أي بنسبة ( 29%)

من مدة الحكم الأموي ، و غالباً ما كان هؤلاء القرشيون أخوالاً للخلفاء الأمويين ، وبالتالي فإن نسبة حكم القرشيين للحجاز من أمويين و غيرهم بلغت اثنتين وسبعين سنة ، أي بنسبة ( 80%). وتولى الأنصار حكم المدينة فقط مدة بسيطة ، حوالي خمس سنوات أي بنسبة ( 5.5%) من مدة الحكم الأموي ، على الرغم من مكانتهم وأثرهم وكثرة أعدادهم. وحكم ولاة من قبائل العرب مدة ثلاث عشرة سنة أي بنسبة (14.5%) . وبذلك يمكن القول بأن الأمويين اعتمدوا في حكم الحجاز على الأمويين بشكل خاص وعلى القرشيين بشكل عام ، و لم يحسن كل ولاة الأمويين للأهالي بل أساء بعضهم إليهم.

لم تكن إدارة الأمويين واحدة طوال مدة الحكم الأموي للحجاز ، بل كانت تختلف حسب أوضاع الحجاز السياسية والعسكرية ، فقد استخدم معاوية مع أهالي الحجاز بعد تنازل الحسن بن علي سياسة الرفق واللين تارة ، وسياسة الشدة تارة أخرى وخاصة مع الأنصار لجعلهم إلى جانبه ، وذلك بسبب انحيازهم إلى علي بن أبي طالب ﷺ وأبنائه . [اليعقوبي "1960" 2/197-198 ]

تبدلت سياسة معاوية مع أهل الحجاز ، واتسعت شقة الخلاف بينه وبين أهلها، منذ أن رفض زعماء المدينة البيعة لابنه يزيد ، وكان هذا الرفض بداية الفتن في العصر الأموي . ومع شدة معاوية على أهل الحجاز بسبب ذلك، لجعلهم يرضخون لمطالبه، إلا أنه كان يرى أن من واجبه الإحسان إليهم، لذلك فإنه أوصى ابنه يزيد بهم قائلاً له : ( انظر أهل الحجاز ، فإنهم أصلك، فأكرم من قدم عليك منهم و تعاهد من غاب ...). [ الطبري "1972" 5/323 ]

استخدم الأمويون عدة وسائل للضغط على أهالي الحجاز وجعلهم يرضخون لحكمهم ، وعلى رأسها الحرب الاقتصادية التي مارسها معاوية بن أبي سفيان أحياناً، و اشتد إوارها بعد بيعة يزيد بن معاوية ، وفي خلافة عبد الله بن الزبير وغيرها. وقد أدى التضييق الاقتصادي على أهل المدينة إلى بيع كثير منهم لأراضيهم ودورهم لمعاوية بأرخص الأثمان . و لم يعط أهل الحجاز ليزيد بن معاوية فرصة للتفكير في نوع الإدارة ، فقد اضطره الخارجون عليه إلى اللجوء إلى الشدة. وتوالى في عهد الزبير أكثر من ثمانية ولاة ،ولم تحقق إدارته ما كان الأهالي يتمنونه من الرخاء الاقتصادي، وتوزيع المال بالعدل .

كان الخلفاء الأمويون يرصدون تحركات أهل الحجاز عن طريق العيون التي يبثونها في المنطقة ، وكان هؤلاء يعلمون الأمويين بكل ما يجري، وخاصة في عهد كل من معاوية ويزيد وابن الزبير. ومنذ أن استقر الأمر لعبد الملك، بعد القضاء على ثورة ابن الزبير ، مال أهل الحجاز إلى الهدوء ، و وجهوا اهتمامهم إلى العلم ، وخاصة العلوم الشرعية ، وظهر جيل يرى أن قبول الواقع خير من الفوضى السياسية والعسكرية.

لم تقتصر سيادة الأمويين على تولي ولاية

الحجاز، وجعل ولاة المنطقة منهم، بل جعلوا ولاة الحج منهم ، إلا في الحقبة التي سيطر فيها عبد الله بن الزبير على الحجاز ، وفي ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي فيها ، وفي ولاية أخوال الخليفة هشام.وولاية الحج ولاية دينية لها أهميتها الخاصة. [ ملحق رقم 3،4] وعلى العموم فقد كانت ولاية الحج للقرشيين عامة، و قد بلغ عددهم (83) ثلاثة وثمانين أميراً، ونسبتهم (92.2%). منهم ( 55) خمسة وخمسون أميراً من الأمويين ، ونسبتهم (61.1%) ، و(28) ثمانية وعشرون أميراً للحج من بقية القرشيين ، ونسبتهم (31.1) . وعدد أمراء الحج من بقية القبائل العربية أربعة أمراء ونسبتهم ( 4.4%) ،وعدد أمراء الحج من الأنصار ثلاثة، ونسبتهم (3.3%).

ويتضح مما سبق أن الأمويين استأثروا بولاية الحجاز ، وكان غالبية الولاة منهم ، وكذلك أمراء الحج .

## الأوضاع الاقتصادية في الحجاز في خلافة الأمويين :

لم تكن الحجاز من ولايات الخلافة الإسلامية الغنية ، فقد كانت بحاجة إلى المعونات الخارجية التي كانت تصل إليها من مركز الخلافة الإسلامية أو من مصر ، سواء أكانت مادية أم عينية. [ ابن عبد الحكم "1995" 193،192،191،128 ] كما تأثرت الأوضاع الاقتصادية في الحجاز في العصر الأموي بعدة عوامل ، على رأسها أن الحجاز لم يعد مركز العالم الإسلامي ، إذ أصبح هذا المركز في دمشق. كما تأثرت بالظروف العسكرية والسياسية . فقد عارض الأنصار في المدينة خلافة معاوية بن أبي سفيان ، ورأوا أن علياً ﷺ وأبناءه أحق منه بالخلافة — دون أن يتشيعوا — أو يرفعوا سلاحاً في وجهه . أما القرشيون فقد أيدوا خلافة معاوية تفادياً للفتنة ، ولما أعلن معاوية البيعة لابنه يزيد خرج عليه زعماؤهم. ولذلك فإن معاوية حرم الأنصار والخارجين عليه من القرشيين عطاءهم لمدة سنة كاملة. [ اليعقوبي "1960" 250/2 ] وحدث مثل هذا في خلافة هشام بن عبد الملك . وفيما عدا ذلك فإن الخلفاء الأمويين أغدقوا على زعماء الحجاز الأموال ، هادفين من وراء ذلك تحقيق أمرين، أولهما رعاية وتكريم سكان الحرمين، وثانيهما صرفهم عن التفكير في المواضيع السياسية .

هذا ولا بد من القول هنا ،بأن العطاء في الحجاز تفاوت بين علية القوم وغيرهم من السكان . كما تفاوت بين العناصر السكانية ، فقد كانت قمة العطاء لبني هاشم ، ويليهم القرشيون، ثم الأنصار ، فالعرب ، فالموالي. [ ابن بكار "1419هـ" 160/1-161 ]

كان عطاء أهل الحجاز يرسله الخليفة الأموي ، ويدفعه حامله إلى عرفاء القبائل، الذين يوزعونه على المدونين في ديوان العطاء. ولكن العرفاء تلاعبوا في توزيعه ، إذ أنهم استمروا في أخذ عطاء المتوفين والغائبين. كما إنهم كانوا لا يُصدِقون الناس ، فيعطونهم بعضاً ، ويأخذون

بعضاً ، ولذلك اتخذ الأمويون قراراً بدفع العطاء لكل شخصٍ في يده . [ الزبيري "د.ت" 154 ]

لم يكن الإنتاج الزراعي في الحجاز يفي بحاجاتها ، على الرغم من محاولة الخلفاء الأمويين تحسينه ، فحين رأوا قلة المياه و أنها غير كافية للزراعة ، عملوا على توفيرها عن طريق حفر الآبار ،وإقامة السدود الكثيرة في الطائف ، وبالقرب من المدينة المنورة وفي العقيق وغيرها ، وذلك بعد أن رأوا أن المزروعات كانت تتعرض للمشاكل حين تجف مياه الأودية ، وتحتاج الأراضي إلى السقاية التي لا يستطيع تأمينها إلا كبار المزارعين.

أما الأراضي الزراعية الخصبة ، فقد كانت متوافرة إلى حد ما، فضلاً عن اهتمام السكان بإحياء الأراضي وتملكها. فقد اهتم الأمويون بشكل عام بتملك الضياع والأراضي التي كانت تدر عائداً مادياً كبيراً . ذلك أنهم كانوا أقدر من غيرهم على فهم أهمية الأرض واستغلالها. واهتموا بالحصول على الإقطاعات الزراعية ، فقد كان لمعاوية عدد من الحوائط في ضواحي مكة المكرمة غنية بالمزروعات والنخيل، [ الازرقي "1416هـ" 2/229-230 ] كما تملك ثنية الشريد في المدينة المنورة ، وكانت تزرع أعناباً ونخلاً لم ير مثلها .كما اشترى الغابة في المدينة المنورة بمليوني درهم. [ السمهودي "1955" 3، 1066-1067؛ 127/4 ] كما كانت له أراضٍ في وادي القرى ، وتيماء ، وغيرها كثير ، وقد تكون غايته من شراء الضياع في الحجاز السيطرة على اقتصاده، لأنه كان من أهم مراكز المعارضة لحكم الأمويين، ولعل شراء معاوية للأراضي ازداد بعد إعلان بيعته لابنه يزيد، حيث حرم أهالي الحجاز أرزاقهم وعطاءهم، فاضطروا إلى بيع أملاكهم بأثمان زهيدة. وكان لمعاوية وكلاء يشترون ما يبيعه أهالي المدينة ، حتى أصبحت أملاكه كثيرة ، وتدر عليه مبالغ كبيرة. [ الزبيري "1953" 154، 389 ]وملك مروان بن الحكم سوق مهزوز بالمدينة ، وفدك التي أعادها عمر ابن عبد العزيز فيما بعد لأبناء وأحفاد علي بن أبي طالب ﷺ. وممتلكات كثيرة أخرى، [ البلاذري "1978" 47 ] وليزيد بن معاوية إقطاع في وادي القرى. [ البلاذري 48-49 ] ولعبد الملك أكثر من ضيعة قرب المدينة من أحسن الضياع. [السمهودي "1955" 1309/4 ] أما الوليد فقد كان له وادٍ من أودية المدينة. [ السمهودي "1955" 1201/4 ] وكذلك كان هناك إقطاعات لعمر بن عبد العزيز ، ولغيره من الخلفاء الأمويين ورجالات قريش . [ الزبيري "1953" 176 ] وأصبحت أملاك الأمويين تدر عليهم مبالغ كبيرة. [ ابن بكار "1419هـ" 376/1 ] ومن الذين اغتنوا وملكوا الإقطاعات آل علي وآل الزبير ، فقد كان لعلي بن الحسين عين تحنس فباعها من الوليد بن عقبة بسبعين ألف دينار . [السمهودي "1955" 1272/4 ] كما كان لعباد بن حمزة بن عبد الله بن الزبير عينان هما الرُّبُض

والنجفة بوادي الفرع بين مكة والمدينة تسقيان أكثر من عشرين ألف نخلة ، و لهما قدر عظيم. [ابن بكار "1419هـ" 298/1،118،117،116،115 ] ولمصعب بن عمر ابن مصعب بن الزبير ضياع ببطن نخل، [ابن بكار 347/1 ] وللزبير أرض في الغابة شراكة . [السمهودي "1955"1057/3 ] ومع ازدياد الطلب على الأراضي ارتفع ثمنها ، فقد اشترى معاوية العرصة بمليون درهم ، و قيل بثلاثة ملايين درهم .[ السمهودي "1955" 1057/3 ] وباع المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي نصف ضيعته بالبديع من أرض فدك بعشرين ألف دينار. [البكري "1945" 232/2 ] واشترى الوليد بن عقبة عين تحنس بسبعين ألف دينار .

هذا وقد توافرت الأيدي العاملة للزراعة نتيجة للفتوحات ، وأسرى الحرب من الرقيق ، كما توافرت رؤوس الأموال عند بعضهم ، وتنوعت المزروعات، فكان منها التمور، والشعير، والبرسيم ، والحبوب ، والفواكه ، والخضراوات، والكروم ، والرمان، والموز ، والتين ، والبطيخ ،والقثاء . [ المقدسي "1971" 84،79 ]

كانت الآفات الزراعية تؤثر في المواسم الزراعية أحياناً ، كما حدث في خلافة هشام بن عبد الملك . فقد كتب أهالي الحجاز له بأن عاهة أصابت ثمارهم ، وطلبوا منه أن يضع عنهم خراجهم فوضعه، [ الطبري "1972" 395/7 ] كما أصاب الناس قحط في ولاية خالد بن عبد الملك ، للخليفة هشام استمر سنوات ، وجلا الناس بسببه من بادية الحجاز ولحقوا بالشام ، وسميت تلك السنوات بسنيات خالد. كما كانت السيول تؤثر سلباً في الحياة الاقتصادية . ففي سنة ( 80هـ/699م) جاء سيل بمكة عرف بسيل الجحاف، لأنه جحف كل شيء مر به وكان يأخذ في طريقه الإبل مع حمولتها . وبلغ الماء الركن وجاوزه ، [ الطبري "1972" 325/6 ] فكان له تأثير سلبي في الحياة الاقتصادية . أما عن تربية المواشي ، فقد اهتم بها أهالي بادية الحجاز ، هذا فضلاً عن تربية الأبقار ، [ ابن أنس "1373هـ" 431-432 ] والخيول والإبل . [الاصفهاني "1983" 222/21-223 ]

أما الصناعات فقد كانت بسيطة ، وعلى رأسها صناعة التعدين مثل صياغة الحلي ، فضلاً عن الحدادة ، حيث يصنع الحدادون الأواني المترلية المتنوعة ، والأسلحة مثل الرماح ، والسهام، والنبال، والأقواس، و هناك صناعات أخرى ، وعلى رأسها صناعة دبغ الجلود وصباغتها، وصنع العطور ، ونقش الحجارة . وقد اعتمد الدباغون على استئجار أراضي الدولة من الولاة ، لإقامة المدابغ والأسواق ، والأرحاء و الطواحين . [ ابن حوقل "د.ت" 23 ]

استمرت التجارة نشطة في الحجاز في العصر الأموي ، وخاصة من مصر والشام والهند والصين ، فقد كانت الحجاز تستورد القمح من مصر والشام فضلاً عن مواد غذائية أخرى . [الحربي "1969" 651،650،649 ] وكان لها

تجارات رابحة مع الهند والصين . واستقر بالحجاز عدد من التجار الذين جنوا مكاسب كثيرة عن طريق التجارة . وكان موسم الحج فرصة كبيرة للنشاط التجاري مع التجار المسلمين القادمين من الأقاليم الإسلامية والحاملين لمنتوجات بلادهم . [المقدسي "1909" 79 ]

كانت هناك رسوم تجبى في الحجاز على المواد المتاجر بها ، سواء أكانت آتية عن طريق البحر أم البر . فقد كان ولاة المدن الساحلية يجبون الرسوم من المراكب الواصلة إلى الموانئ خاصة في ميناء جدة وتجبى براً من منافذ الجباية مثل ، القرين ، وبطن مر ، فقد كانت ضريبة حمل المسك التي تجبى في هذه المنافذ ديناراً ، وضريبة حمل البز نصف دينار . [ المقدسي "1909" 105 ]

أخيراً يمكن القول بأن الميزان التجاري في الحجاز لم يكن رابحاً. وكانت الحجاز تعتمد في سد حاجتها على مركز الخلافة ، مما ساعد الخلفاء الأمويين على استغلال ذلك لإعلان الحرب الاقتصادية على الحجاز كلما قامت فيها معارضة . و لم يقتصر ذلك على المرحلة السفيانية، بل استمر ذلك في العهد المرواني حتى اضطر السكان إلى الهجرة منها إلى الأمصار .
[ ابن شبة "1402هـ" 273-299 ]

## الأوضاع الاجتماعية في الحجاز في خلافة الأمويين :

سكن الحجاز مجموعة من القبائل العربية، استقر بعضهم في المدن وتحضروا كقبيلة قريش التي كانت تسكن مكة ، وانتقل بعض أفرادها للسكن في المدينة المنورة أو الطائف وغيرها. والأنصار هم الأوس والخزرج سكان المدينة المنورة ، وقد عاش معهم في المدينة المهاجرون من قريش وغيرهم من العرب . وقد حل في العصر الأموي، اصطلاح أهل المدينة محل اصطلاح المهاجرين والأنصار ، وجرى على لسان العامة والخاصة ، وأصبح لأهل المدينة موقف موحد تجاه القضايا العامة ، وذلك بسبب الوحدة الفكرية ، ووحدة المصير .

ومن أهم قبائل الحجاز أيضاً قبيلة ثقيف التي سكنت الطائف ، وقبيلة هوازن التي سكنت في المناطق القريبة منها أما قبيلة كنانة فقد استقر قسم منها حول مكة ، وآخر حول المدينة. [الهمداني "1977" 260،258 ]

وانتشرت قبيلة سُلَيْم في المناطق القريبة من المدينة المنورة ، وفي مناطق واسعة من نجد والحجاز. وقد اشتهرت بلادهم بالمعادن التي أكسبتهم ثروات كبيرة ، فتفوقوا بذلك على القبائل المجاورة لهم ، وتمثل ذلك في بنائهم الحصون لحماية ممتلكاتهم . [ ابن حزم "1998" 262 ]

أما قبيلة مزينة ، فقد استقرت بين المدينة ووادي القرى ، وسكنوا جبال رضوى. [ البكري "1945"2/88 ] واستوطنت جهينة في عدة مناطق من الحجاز. [ الهمداني "1302هـ" 273]، واستقرت غطفان حول المدينة المنورة . هذا ويجب أن نذكر أن عدداً كبيراً من أبناء

القبائل وخاصة من قريش لحقوا بالأمصار الإسلامية .

وإلى جانب القبائل قطن في الحجاز ، عدد كبير من الموالي ، وهم إما موالي عتاقة ، أو موالي من العرب الذين حالفوا القبائل العربية ، فأصبحوا موالي لها ، ونبغ العديد منهم في دراسة الحديث والفقه .كما وجد في الحجاز رقيق متعدد الأنواع ، فهناك البربر والصقالبة والأتراك والفرس والسودان ، [ مالك "1323هـ" 154/3] ولم تكن أعدادهم كبيرة ، وكانوا يمتهنون الزراعة والسقاية والرعي ، أو العمل في الصناعات .

تأثر المجتمع الحجازي بعدة مؤثرات ، فقد أدى توزيع العطاء المتفاوت، إلى وجود فئات متفاوتة في المركز الاجتماعي والثروة ، وتميزت كل فئة بنوع من العيش الدنيوي ، فقد وزع الوليد بن عبد الملك بين الناس رقيقاً كثيراً في المدينة المنورة ، وآنية من ذهب وفضة وأموالاً خص بها أناساً دون آخرين ، فرضي الذين نالوا الأموال وسخط غيرهم . وكانت أعطيات الأمويين لبعض رجالات المدينة تفوق الوصف، فقد جعل يزيد بن معاوية عطاء عبد الله بن جعفر أربعة آلاف درهم . [ ابن كثير "1966" 33/9 ] فبنى الذين يختصون بالعطاء الكبير من القرشيين ، والأمويين منهم خاصة القصور ، وعاشوا عيشة رفاهية . وقد كان وادي العقيق مسكن المترفين من سكان المدينة المنورة الذين بنوا القصور الواسعة ذات الحدائق الكبيرة التي تحيط بها . وقد احتاجت هذه القصور إلى عدد كبير من الخدم والعبيد ، فقد كانت دار سعد بن أبي وقاص في العقيق قصراً منيفاً له شرفات ،و أبوابه من الساج،وحوله الحدائق الغناء [ المسعودي "1964"341/2-343 ] كما كان قصر عنبسة بن عثمان بن عفان من القصور الفخمة . وكذلك كان قصر سعيد بن العاص ، وكثر سكان وادي العقيق ، حتى إنهم قدروا في ولاية سعيد بن العاص على الحجاز بأربعين ألفاً . [المطري "د.ت" 66 ]

أما في مكة ، فقد أكثر أهل مكة من بناء القصور بالآجر والجص. فقد بنى معاوية دوراً كثيرة لنفسه يقال لها الرقط لاختلاف ألوانها، ذلك لأنها بنيت بالجص الأبيض والآجر الأحمر . [ الازرقي "1416هـ" 293/2،284 ] كما كان في مكة قصر لعروة بن الزبير ، وآخر لعاصم بن عمرو بن عثمان .[ السمهودي "1955" 1043/3-1048،1045-1050 ]

وهكذا فإن حياة الترف والبذخ انتشرت في الحجاز ، ونعم بها شريحة من السكان ، وهم في الغالب من الأمويين والقرشيين. على حين أن بقية السكان لم يكونوا كذلك . فقد اضطر عدد من الأنصار إلى بيع أراضيهم وممتلكاتهم بسبب الضيق الاقتصادي والحصار الذي يحدث بين الفينة والأخرى.

## الحياة العلمية في الحجاز :

نشطت الحركة العلمية في الحجاز لأسباب متعددة ، على رأسها وجود الحرم النبوي والكعبة المشرفة فيها ،وهما محط أنظار

المسلمين عامة والعلماء خاصة، ونبوغ عدد من الصحابة والتابعين في العلوم الدينية فضلاً عن قدوم الأسرى المتعلمين إليها .

زخرت الحجاز بعدد من الفقهاء والمحدثين و الشعراء وغيرهم من أهل الحجاز ، أو من المجاورين فيها ، فقد أصبحت الحجاز مأوى العلماء ،ومقصد طلاب العلم ، والراغبين في جوار رسول الله (صلى الله عليه وسلم ) ، فأقبلوا على حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم )، فجمعوه وشرحوه ، واستنبطوا من القرآن والسنة الأحكام التي يحتاج إليها الناس . كما اهتموا بالشعر والتاريخ والتفسير .

ومن أشهر علماء الدين في الحجاز عطاء ابن رباح، وعروة بن الزبير ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن هشام، وأبو بكر بن سليمان بن خيثمة ، وسليمان بن يسار ، والقاسم بن محمد بن أبي بكر ، وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عبد الله بن عمرو ،وعبد الله بن عامر بن ربيعة ، وخارجة بن زيد بن ثابت، وسعيد بن جبير، وعلي بن الحسين ، وسعيد بن المسيب ، وطاووس مولى بجير بن ريسان الحميري . وأبو سعيد الخدري ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وجابر بن عبد الله الخزرجي وأبو بكر بن عبد الرحمن الحارث المخزومي، وسليمان بن يسار ، ونافع مولى عبد الله بن عمر ، والأعرج عبد الرحمن بن هرمز ، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري ، ومحمد بن المنكدر ومحمد بن سيرين، وأبو الزناد عبد الله بن ذكوان ، ويحيى بن سعيد الأنصاري. كما كان هناك بعض الأدباء والشعراء أمثال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، و عبد الله بن محمد الأحوص ، وغيرهما.وكان العلماء ــ عدا الشعراء ــ يعملون لكسب قوتهم، وتعففوا عن مد أيديهم إلى الخلفاء . كما كان بعض الولاة يستشيرونهم في أعمالهم ،وفي إدارة الولاية.

كانت الحلقات في المسجد النبوي كثيرة. فقد كان الرجل يدخل يسأل عن الشيء من فقه، فيدفعه الناس ــ لكثرة المجالس ــ من مجلس إلى مجلس [ البسوي "1981" 470/1 ] ، كما كانت حلقات العلم كثيرة في المسجد الحرام ، وكان العلماء يجلسون في المسجدين ، وحولهم المتعلمون في حلقات ، ومن أشهر الحلقات في المسجد النبوي ، حلقة جعفر الصادق ( ت 148هـ/765م )، وحلقة مالك بن أنس. كما كان لسعيد بن المسيب حلقة فيه ، استمرت أربعين سنة ، وكان يخصص يوم الجمعة للأسئلة . وكان للقاسم بن محمد حلقة بين القصر والمنبر وكانت حلقته وحلقة سالم بن عبد الله بن عمر واحدة ، وقد جلس فيها بعدهما عبد الرحمن بن القاسم،وعبيد الله بن عمر،ثم مالك بن أنس ، [ابن سعد "1957-1958" 141/5،140،97 ] كما كان يوجد حلقة للفقه، يجتمع فيها سبعة من أبرز فقهاء المدينة تطرح فيها المسائل الفقهية . وكانوا إذا جاءتهم المسألة دخلوا جميعاً فنظروا فيها ، ولا يقضي القاضي حتى ترفع إليهم ،

فينظرون فيها ، ثم يصدرون عن رأي يتبناه القاضي [ الزبيري "1953" 154 ] وكانت هناك حلقة ربيعة بن أبي عبد الرحمن ( ربيعة الرأي ) يحضرها مالك بن أنس ،والحسن بن زيد وأشراف المدينة. [ ابن خلكان "1969" 189/3 ] وكان لعبد الله بن عدي حلقة تسمى( مجلس القلادة ) وكان كل شرف وعلم في قريش يعرض فيها . ولاشك أن في المسجد الحرام حلقات كثيرة ومتعددة .

وكانت بعض الحلقات العلمية تعقد في الأسواق . فقد كان يحيى بن سعيد يحدث عن سعيد بن المسيب في السوق عند أصحاب العباء فضلاً عن مجالس الشعر والأدب والقصص ، ومجالس التاريخ ، فقد كان مالك بن عمارة اللخمي، وقبيصة بن ذؤيب ، وعروة بن الزبير يجلسون في ظل الكعبة ، ويخوضون في فنون الأحاديث وأيام العرب. [ التوحيدي "د.ت" 70/2] وكان لمحمد بن يحيى بن حبان بن منقذ بن عمرو بن مالك حلقة في مسجد رسول اللهﷺ. وكان كثير الحديث ثقة كما كان يفتي ، كما كانت هناك كتاتيب لتعليم القراءة والكتابة، وكان علقمة بن أبي علقمة مولى أم المؤمنين عائشة له كتّاب يعلم فيه العربية والنحو والعروض ، توفي في خلافة أبي جعفر المنصور

## الحركة العمرانية في الحجاز :

حدثت نهضة عمرانية في الحجاز في العهد الأموي ، وتوجه الاهتمام إلى العمران المدني والديني . فقد توسع العمران المدني في المدينة المنورة حتى وصل إلى جبل سلع، [ الهمداني "1302هـ" 25-26 ] وكذلك الأمر في مكة ، وبنيت القصور الواسعة العالية ذات الحدائق الكبيرة التي نافست قصور الشام ، وبنيت من الجص والآجر ، وجعلت أبوابها من الساج .هذا عدا عن حفر الآبار ، وتسهيل الثنايا، وعمل الفوارة ليسقى منها أهل المسجد .كما توجه اهتمام الولاة إلى بناء المساجد وتوسيع وإصلاح مسجدي مكة والمدينة ، فقد بنى الحجاج مسجداً في المدينة في بني سلمة ينسب إليه .

اهتم الأمويون بتجديد الكعبة ، وكان أول تجديد لها على يد ابن الزبير ، فبعد أن توقفت الحرب بينه وبين الحصين بن نمير السكوني إثر وفاة يزيد بن معاوية، وجد أن حيطان الكعبة قد مالت مما رميت به من حجارة المجانيق، فهدمها حتى سواها بالأرض ، وحفر أساسها وأدخل الحجر فيه ، وكان الناس يطوفون من وراء الأساس ويصلون إلى موضعه، فجعل الركن الأسود عنده ، وأعاد حلي البيت وما وجد فيه من ثياب وطيب إليه بعد أنْ أتم البناء. وقد أدخل الحجر بالحرم ، لأن أمه أسماء بنت أبي بكر حدثته عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لأختها عائشة : ( لولا حداثة عهد قومك بالكفر، لرددت الكعبة على أساس إبراهيم ، فأزيد في الكعبة من الحجر ).[ الطبري "1972" 622/5 ] ولما توذلى الحجاج بن يوسف نقض بنيان الكعبة،وأعادها على بنائها الأول .

وكان معاوية قد زاد درجتين في منبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم )بعد أن كان

ست درجات، كما وجه الأمويون اهتمامهم إلى مسجد رسول الله ﷺ، فقد أمر الوليد بن عبد الملك بهدم مسجد رسول الله ﷺ وبيوت أزواجه، وأدخلها في المسجد . وأمر عمر بن عبد العزيز بشراء ما في مؤخره ونواحيه حتى يكون مئتي ذراع في مئتي ذراع ، وأمره أن يقدم القبلة إن قدر ، ويدفع أثمان ما يأخذه ، وبعث الوليد الفعلة، وساعدهم كبار أهل المدينة ومعهم عمر بن عبد العزيز . وبدأ العمل في صفر من السنة نفسها. وبعث الوليد إلى إمبراطور الروم يطلب منه أن يعينه على بناء المسجد فبعث إليه بمئة ألف مثقال ذهب ، ومئة عامل ، وفسيفساء على أربعين حملاً ، فأرسلها إلى المدينة ، وتم البناء .
[الطبري "1972" 436/6 ]

**د. أمينة البيطار**

**المصادر و المراجع :**

الأبشيهي ، أحمد بن أبي الفتح ( ت 851هـ/1447م ) :
(د.ت) المستطرف من كل فن مستطرف، بيروت ــ دار الفكر .
ابن الأثير ، عز الدين علي بن محمد ( ت 630هـ/1233م ) :
(1965) الكامل في التاريخ ، بيروت ، دار صادر و دار بيروت .
الأزرقي ، محمد بن عبد الله ( ت 250هـ/864م):
(1416هـ) أخبار مكة و ما جاء فيها من الآثار ، تحقيق رشدي الصالح ملحس ، مكة المكرمة ، دار الثقافة ، ط8 .
الأصفهاني ، أحمد بن عبد الله ( ت 430هـ/1038م ) :
(1351) حلية الأولياء و طبقات الأصفياء، القاهرة ، ( د.م) .
الأصفهاني ، الحسن بن عبد الله المشهور بلغدة ( ت 318هـ/923م ) :
(1968) بلاد العرب ، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي، الرياض ، دار اليمامة .
الأصفهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين ( ت 356هـ/966م):
(1983) الأغاني : بيروت ، دار الثقافة .
البسوي ، أبو يوسف يعقوب بن سفيان ( ت 277هـ/ 890م)
(1981) المعرف والتاريخ ، ط2 ، تحقيق دكتور أكرم ضياء الدين العمري ، بيروت ، مؤسسة الرسالة .
ابن بكار ، الزبير ( ت 256هـ/869م ) :
(1419هـ) جمهرة نسب قريش و أخبارها، تحقيق محمود شاكر ، الرياض ــ مطبعة مجلة العرب ط2.
البكري ، عبد الله بن عبد العزيز ( ت 487هـ/1094م ) :
(1945) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، تحقيق مصطفى السقا ، القاهرة ، لجنة التأليف و الترجمة والنشر .
البلاذري ، أحمد بن يحيى ( ت 279هـ/892 ) :
(1979) أنساب الأشراف ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية .
(1978) فتوح البلدان،بيروت ، دار الكتب العلمية .
التوحيدي ، أبو حيان علي بن محمد ( ت 414هـ/1023م ) :
(د.ت) الإمتاع و المؤانسة ، تحقيق أحمد أمين و زميله ، بيروت ــ دار مكتبة الحياة .
ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي ( ت 597هـ/1200م )
(1355هـ) صفوة الصفوة، الدكن ، حيدر آباد .
(1992 ) المنتظم في تاريخ الملوك و الأمم، تحقيق محمد و مصطفى عبد القادر عطا وأخيه، بيروت .
ابن حبيب ، محمد بن حبيب ( ت 245هـ/859م):
(1942) المحبر، ايلزة ، ليختن .
ابن حجر، أحمد بن علي ( ت 852هـ/1448م):

(1327هـ) تهذيب التهذيب ، الدكن ، حيدر آباد.

ابن أبي الحديد ، عبد الحميد بن هبة الله ( ت 656هـ/1258م ) :

(1954) شرح نهج البلاغة ، تحقيق نور الدين شرف الدين و زميله ، بيروت ، دار الفكر .

الحربي ، إبراهيم بن إسحاق الحربي ( ت 285هـ/898م ) :

(1969) المناسك و أماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق حمد الجاسر ، بيروت ،مطبعة المتنبي .

ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد ( ت 284هـ/897م) ) :

(1989)جمهرة أنساب العرب ، منشورات محمد علي بيضون ، بيروت ، دار الكتب العلمية .

الحموي ، ياقوت بن عبد الله الرومي ( ت 626هـ/1228م ) :

(1907) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، القاهرة ، نشره مرجيلوث ، القاهرة ،مطبعة هندية .

ابن حوقل ، أبو القاسم بن حوقل النصيبي ( ت 367هـ977م ) :

(د.ت)صورة الأرض ، بيروت ، دار مكتبة الحياة .

ابن خرداذبة،أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ( ت 300هـ/941م ) :

(1967) المسالك و الممالك، ليدن ، مطبعة بريل .

الخزرجي ، أحمد بن عبد الله (ت بعد 923هـ/1517م ) :

(1322هـ) خلاصة تذهيب الكمال في أسماء الرجال ، القاهرة ، المطبعة الخيرية .

ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ( ت 808هـ/1405م ) :

(د.ت) المقدمة ، القاهرة ، المطبعة البهية .

ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد ( ت 681هـ/1282م ):

(1969) وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر.

خليفة ابن خياط ، العصفري (ت 240هـ/854م):

(1968)تاريخ خليفة ابن خياط ، تحقيق سهيل زكار ، دمشق ، وزارة الثقافة .

الدينوري ، أحمد بن داود ( ت 282هـ /895م):

(د.ت ) الأخبار الطوال ، بيروت ، دار المسيرة.

الذهبي ، محمد بن أحمد ( ت 748هـ/1347م):

(د.ت) تذكرة الحفاظ ، القاهرة ، دار إحياء التراث العربي .

(1962) سير أعلام النبلاء ، تحقيق محمد أسعد طلس ، القاهرة ، دار المعارف .

الزبيري ، مصعب بن عبد الله ( ت 236هـ/850م) :

(1953) نسب قريش ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ، دار المعارف .

ابن سعد ، محمد بن سعد ( ت 230هـ/844م)

(1957-1958 ) الطبقات الكبرى ، بيروت، دار صادر .

السلمي عرام ، ابن الأصبغ ( ت 275هـ/888م):
(1373هـ) أسماء جبال تهامة و سكانها ، تحقيق عبد السلام هارون ، نشر يوسف زينل ومحمد نصيف .
السمهودي ، نور الدين علي بن أحمد ( ت 911هـ / 1505م ) :
(1955) وفاء الوفا، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، بيروت ، دار الكتب العلمية .
ابن شبة،أبو زيد عمر ( ت 262هـ/875م ):
(1402هـ) تاريخ المدينة المنورة ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، طبع و نشر حبيب محمود أحمد ، ط2 .
الطبري ، محمد بن جرير ( ت 310هـ/922م):
(1972) تاريخ الرسل و الملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، دار المعارف،ط2.
ابن عبد الحكم ، أبو محمد عبد الله (ت 214هـ/829م ):
(د.ت) سيرة عمر بن عبد العزيز ، بيروت ، مطبعة الشرق .
(1995) فتوح مصر و المغرب ، القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية .
ابن عبد ربه ،أحمد بن محمد ( ت 328هـ/939م):
(د.ت) العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ، دار الفكر .
ابن عساكر ، الحافظ علي بن الحسن ( ت 571هـ/1175م ):
(1981) تاريخ دمشق ، دمشق ، طبع مجمع اللغة العربية ، مجلد عبد الله بن جابر ، عبد الله بن زيد.
ابن العماد الحنبلي ، عبد الحي بن أحمد ( ت 1089هـ/1678م ) :
(1979) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت ، دار المسيرة .
الفاسي ، تقي الدين محمد بن أحمد ( ت 832هـ/1428م ) :
(1985) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، تحقيق فؤاد سيد ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ط2 .
ابن الفقيه الهمذاني ، أحمد بن محمد ( ت نحو 340هـ/951م ) :
(1302هـ) مختصر كتاب البلدان ، ليدن ، مطبعة بريل .
الفيروز آبادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب ( ت 817هـ/1414م ) :
(1389هـ) المغانم المطابة في معالم طابة، تحقيق حمد الجاسر ، الرياض ، دار اليمامة للبحث و النشر.
ابن قتيبة الدينوري ، أبو محمد عبد الله بن مسلم ( ت 276هـ/889م ):
(د.ت) الإمامة و السياسة ، تحقيق طه الزيني، القاهرة ، مؤسسة الحلبي .
(1997 )والشعر و الشعراء ، تحقيق : عمر الطباع ، بيروت ، دار الأرقم بن أبي الأرقم ، ط1.
القلقشندي ، أحمد بن علي ( ت 821هـ/1418م) :
(د.ت) صبح الأعشى في صناعة الإنشا،

القاهرة، وزارة الثقافة و الإرشاد القومي .
(د.ت) ومآثر الأنافة في معالم الخلافة ، تحقيق عبد الستار أحمد فرج، الكويت .
(1959) ونهاية الأرب في معرفة أنساب العرب تحقيق إبراهيم الأبياري ، القاهرة ، الشركة العربية للطباعة و النشر .
ابن كثير ، إسماعيل بن عمر ( ت 774هـ/1372م ) :
(1966) البداية و النهاية، بيروت ، مكتبة المعارف .
مالك، أبو عبد الله بن أنس ( ت 179هـ/795م):
(1323) المدونة ، القاهرة ،مطبعة السعادة .
ابن مزاحم ، نصر المنقري (ت 212هـ/828م) :
(1981) وقعة صفين ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ، مكتبة الخانجي .
المسعودي ،علي بن الحسين ( ت 346هـ/957م):
(1964) مروج الذهب و معادن الجوهر ،تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، مطبعة السعادة ،ط4 .
المطري ، محمد بن أحمد (ت 741هـ/1369م) :
(د.ت) التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة، نشر أسعد درابزوني .
المقدسي ، ابن قدامة ( ت 620هـ/1223م ) :
(1971) الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار ،تحقيق علي نويهض ، بيروت ، دار الفكر .
المقدسي ، مطهر بن طاهر ( ت بعد 355هـ/965م ) :
(1909) البدء و التاريخ ، تحقيق كلمار هوار، باريس ، ( د.ط) .
المقدسي ، محمد بن أحمد ( ت 375هـ/985م):
(1909) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن ، بريل .
مؤلف مجهول:
(د.ت) العيون و الحدائق في أخبار الحقائق، بغداد ، مكتبة المثنى ( د.ت) .
النويري ، أحمد بن عبد الوهاب ( ت 733هـ/1332م ) :
(1975) نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .
الهمذاني ، الحسن بن أحمد بن يعقوب ( ت 334هـ/945م ) :
(1977) صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الأكوع ، الرياض ، دار اليمامة .
اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب ( ت 292هـ/904م):
(1891) البلدان ، ليدن ، بريل ، مطبوع مع كتاب الأعلاق النفيسة لابن رسته .
(1960) تاريخ اليعقوبي ،بيروت ، دار صادر.

**المراجع العربية والمعربة :**

ابن بدران ، عبد القادر بن أحمد ( ت 1346هـ/1927م ) :
(1407هـ) تهذيب تاريخ ابن عساكر ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي .
الدوري، عبد العزيز :
(1970) نشأة الإقطاع في المجتمعات

الإسلامية، بغداد ، مجلة المجمع العلمي العراقي.

السيف، عبد الله :

الحياة الاقتصادية و الاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي ، ( د.م.ط)

شراب محمد حسن :

المدينة في العصر الأموي ، المدينة المنورة ، مكتبة دار التراث ، دمشق و بيروت ، مؤسسة علوم القرآن ، ط1.

فالح ، حسين :

الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الأموي ، عمان ، مطابع دار الشعب .

كحالة ، عمر رضا :

(1349هـ) أعلام النساء ، دمشق ، د.م.

ماجد ، عبد المنعم :

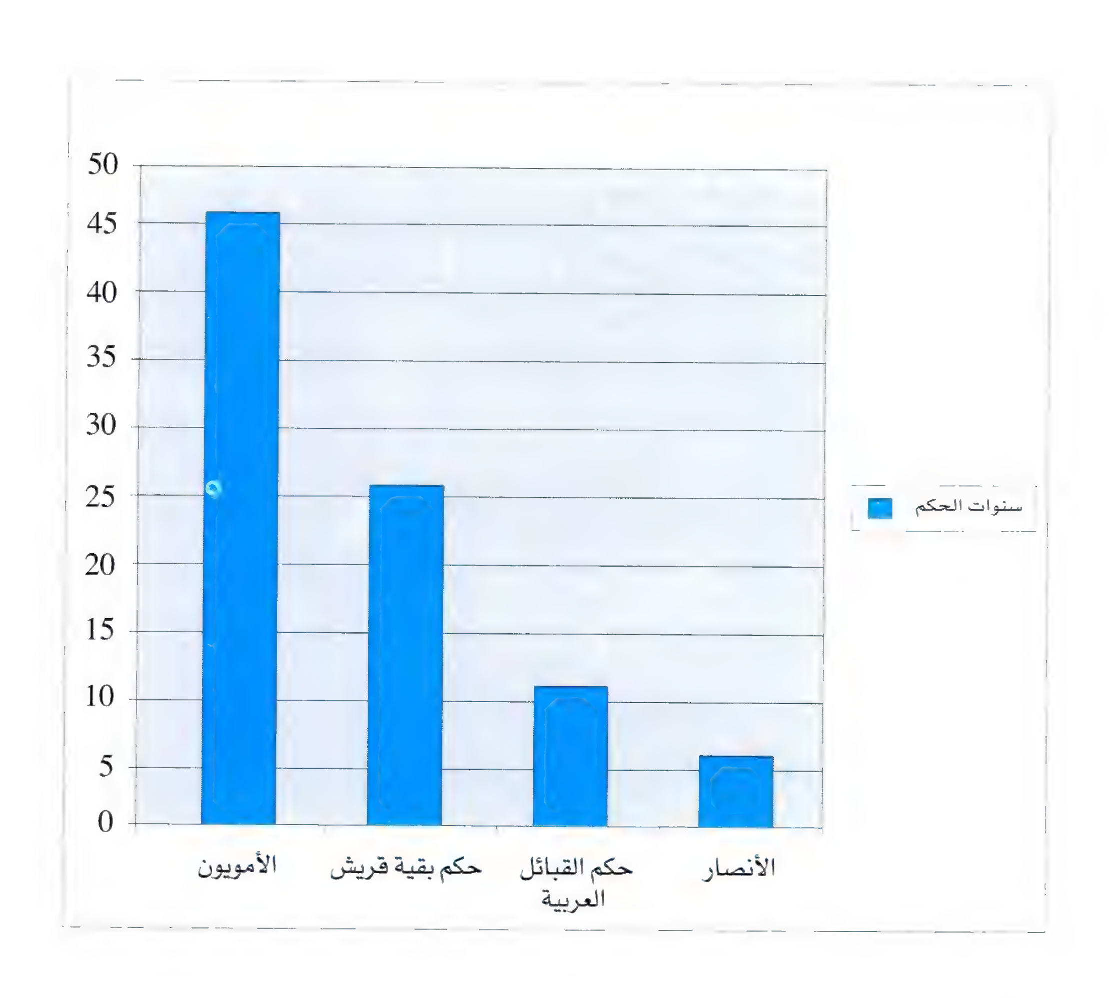
(1966) التاريخ السياسي للدولة العربية ، عصر الخلفاء الأمويين ، بيروت ، مكتبة الجامعة العربية ، ط3 .

الهاشمي ، علي بن الحسن :

(1974) تاريخ من دفن بالعراق ، بيروت ، دار الثقافة .

## ملحق رقم ــ 1 ــ

مخطط بياني يوضح عدد سنوات حكم الولاة المنتسبين إلى بني أمية و سنوات حكم ولاة من الأمويين و بقية القرشيين
و ولاة القبائل العربية الأخرى وولاة الأنصار




1. الخط العمودي يمثل سنوات الحكم .
2. المسافة بين كل خطين مقدرة بخمس سنوات.
3. الخط الأفقي يوضح أسماء القبائل

## ملحق رقم ــ 2 ــ

ولاة الحجاز في عهد الخلافة الأموية

| المناطق التابعة له | مدة ولايته | الوالي | الخليفة |
|---|---|---|---|
| مكة و المدينة | 42-41 | عتبة بن أبي سفيان ( أموي ) | معاوية بن أبي سفيان 41 – 60 هـ |
| المدينة<br>و مكة و الطائف منذ 44 | 49-42 | مروان بن الحكم ( أموي ) | |
| مكة فقط | 44-42 | خالد بن العاص بن هشام ( قرشي) | |
| مكة و المدينة و الطائف | 54-49 | سعيد بن العاص ( أموي) | |
| مكة و المدينة و الطائف | 57-54 | مروان بن الحكم ( أموي ) | |
| مكة و المدينة و الطائف | 60-57 | الوليد بن عتبة ( أموي ) | |
| مكة<br>مكة و المدينة و الطائف | حوالي سنة 60<br>و من 60-61 | عمرو بن سعيد بن العاص ( أموي) | |
| مكة و المدينة و الطائف | 63—61 | الوليد بن عتبة ( أموي) | يزيد بن معاوية 60 - 64 |
| مكة و المدينة و الطائف | 63-62 | عثمان بن محمد بن أبي سفيان ( أموي) | |
| مكة و المدينة و الطائف | 64 | روح بن زنباع الجدامي ( عربي) | |
| المدينة | 65-64 | عباس بن سهيل الأنصاري ( أنصاري) | عبد الله بن الزبير 64 – 73 |
| المدينة | 65 | عبيدة بن الزبير ( قرشي ) | |
| المدينة | 66-65 | مصعب بن الزبير ( قرشي) | |
| المدينة | 66 | ابن أبي ثور ( عربي) | |
| المدينة | 67 | الحارث بن حاطب الجمحي (قرشي) | |
| المدينة | 70-68 | جابر بن الأسود ( قرشي) | |
| المدينة | 70 | وهب بن متعب | |
| المدينة | 70 | أبو قيس | |
| المدينة | 72-70 | طلحة بن عبد الله بن عوف ( قرشي ) | |

تابع ملحق رقم ـــ 2 ـــ

ولاة الحجاز في عهد الخلافة الأموية

| المناطق التابعة له | مدة ولايته | الوالي | الخليفة |
|---|---|---|---|
| المدينة فقط | 72 | طارق بن عمرو ( مولى ) | عبد الملك بن مروان 73-87 |
| مكة و المدينة و الطائف و اليمن و اليمامة | 75-73 | الحجاج بن يوسف ( ثقيف ) | |
| | 76-75 | يحيى بن الحكم بن العاص ( أموي) | |
| مكة و المدينة و الطائف | 83-76 | أبان بن عثمان ( أموي) | |
| مكة و المدينة و الطائف | 87-83 | هشام بن إسماعيل ( قرشي) | |
| مكة و المدينة و الطائف | 93-87 | عمر بن عبد العزيز ( أموي ) | الوليد بن عبد الملك 87-96 |
| المدينة | 96-93 | عثمان بن حيان المري ( عربي) | |
| مكة | 96-93 | خالد بن عبد الله القسري | |
| المدينة فقط | 99-96 | أبو بكر بن محمد بن حزم ( أنصاري ) | سليمان بن عبد الملك 96-99 |
| مكة فقط | 96 | داود بن طلحة الحضرمي ( عربي ) | |
| مكة فقط | 99-97 | عبد العزيز بن عبد الله بن خالد ( أموي) | |
| المدينة فقط | 101-99 | أبو بكر محمد بن حزم ( أنصاري) | عمر بن عبد العزيز 99-101 |
| مكة فقط | 101-98 | عبد العزيز بن عبد الله ( أموي) | |
| مكة و المدينة | 101 | عبد العزيز بن عبد الله ( أموي) | يزيد بن عبد الملك 101 - 105 |
| المدينة | 102 | عبد الرحمن بن الضحاك ( عربي ) | |
| مكة | 102 | عبد العزيز بن عبد الله ( أموي) | |
| المدينة و مكة | 103 | عبد الرحمن بن الضحاك ( عربي) | |
| المدينة , مكة و الطائف | 105-104 | عبد الواحد بن عبد الله بن بشر النضري( عربي) | |
| مكة و المدينة و الطائف | 106-105 | عبد الواحد بن عبد الله النضري ( عربي) | هشام بن عبد الملك 105 - 125 |
| مكة و المدينة و الطائف | 114-106 | إبراهيم بن هشام بن إسماعيل (قرشي ) | |
| المدينة | 118-114 | خالد بن عبد الملك ( أموي) | |
| المدينة | 118 لمدة 6أشهر | أبو بكر بن عمر بن حزم ( أنصاري) | |
| مكة | 118 | محمد بن هشام بن إسماعيل ( أموي) | |
| مكة و المدينة و الطائف | 125-118 | محمد بن هشام بن إسماعيل ( قرشي) | |

تابع ملحق رقم ـ 2 ـ

ولاة الحجاز في عهد الخلافة الأموية

| المناطق التابعة له | مدة ولايته | الوالي | الخليفة |
| --- | --- | --- | --- |
| مكة و المدينة و الطائف | 126-125 | يوسف بن محمد الثقفي ( عربي) | الوليد بن يزيد 125-126 |
| مكة و المدينة و الطائف | 127-126 | عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ( أموي ) | يزيد بن الوليد 126-127 |
| مكة و المدينة و الطائف | 129-127 | عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ( أموي) | مروان بن محمد 127-132 |
| مكة و المدينة و الطائف | 130-129 | عبد الواحد بن سليمان ( أموي ) | |
| مكة و المدينة و الطائف | 131-130 | محمد بن عبد الملك بن مروان ( أموي) | |
| مكة و المدينة و الطائف | 132-131 | الوليد بن عروة بن محمد بن عطية ( عربي) | |

## ملحق رقم ــ 3 ــ

### ولاة الحج فيما بين سنتي ( 41-132 هـ)

| النسب | اسم الوالي | السنة | النسب | اسم الوالي | السنة |
|---|---|---|---|---|---|
| أموي | أبان بن عثمان | 83-82 | أموي | عتبة بن أبي سفيان و قيل أخوه | 41 |
| قرشي | هشام بن إسماعيل | 86-84 | أموي | عنبسة بن أبي سفيان | 42 |
| أموي | عمر بن عبد العزيز | 90-87 | أموي | مروان بن الحكم | 43 |
| أموي | الوليد بن عبد الملك | 91 | أموي | معاوية بن أبي سفيان | 44 |
| أموي | عمر بن عبد العزيز | 92 | أموي | مروان بن الحكم | 45 |
| أموي | عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك | 93 | أموي | عتبة بن أبي سفيان | 47-46 |
| أموي | مسلمة بن عبد الملك | 94 | أموي | مروان بن الحكم | 48 |
| أموي | بشر بن الوليد بن عبد الملك | 95 | أموي | سعيد بن العاص | 49 |
| أنصاري | أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم | 96 | أموي | معاوية بن أبي سفيان | 50 |
| أنصاري | سليمان بن عبد الملك | 97 | أموي | يزيد بن معاوية | 51 |
| أنصاري | عبد العزيز بن عبد الله | 98 | أموي | سعيد بن العاص | 53-52 |
| أنصاري | أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم | 100-99 | أموي | مروان بن الحكم | 56-54 |
| قرشي | عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري | 103-101 | أموي | الوليد بن عتبة | 58-57 |
| قرشي | عبد الواحد بن عبد الله بن بسر النضري | 104 | أموي | عثمان بن محمد بن أبي سفيان | 59 |
| قرشي | إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي | 105 | أموي | عمرو بن سعيد بن العاص | 60 |
| أموي | هشام بن عبد الملك | 106 | أموي | الوليد بن عتبة | 62-61 |
| قرشي | إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي | 112-107 | قرشي | عبد الله بن الزبير | 67-63 |
| أموي | سليمان بن هشام بن عبد الملك | 113 | أكثر من نسب | أربع ألوية ( ابن الزبير - الأمويون – ابن الحنفية - الخوارج ) | 68 |
| أموي | خالد بن عبد الملك | 114 | قرشي | عبد الله بن الزبير | 72-69 |
| قرشي | محمد بن هشام بن إسماعيل | 115 | ثقيف | الحجاج بن يوسف الثقفي | 74-73 |
| أموي | الوليد بن يزيد | 116 | أموي | عبد الملك بن مروان | 75 |
| أموي | خالد بن عبد الملك | 117 | أموي | أبان بن عثمان الأموي | 77-76 |
| قرشي | محمد بن هشام بن إسماعيل | 118 | أموي | الوليد بن عبد الملك | 78 |
| أموي | مسلمة بن هشام بن عبد الملك | 119 | أموي | أبان بن عثمان | 80-79 |
| قرشي | محمد بن هشام بن إسماعيل | 122-120 | أموي | سليمان بن عبد الملك | 81 |

تابع ملحق رقم ـــ 3 ـــ

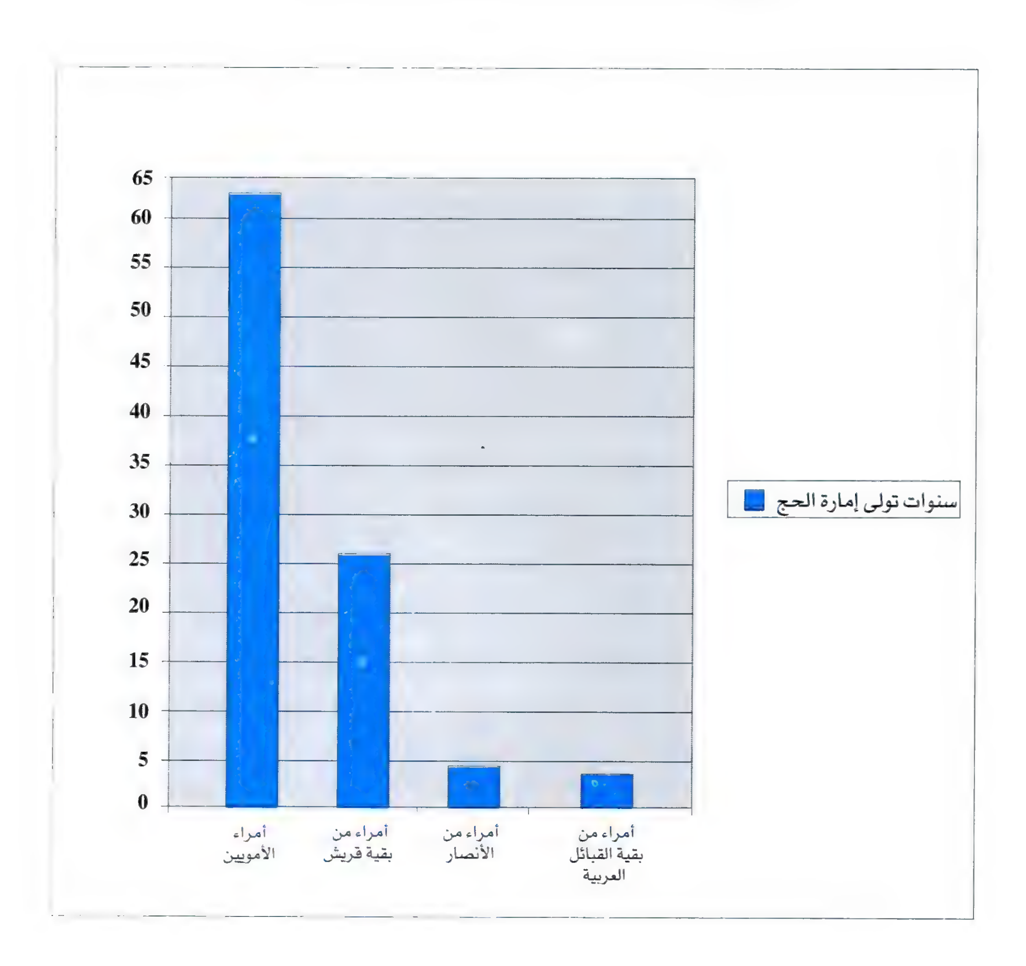
ولاة الحج فيما بين سنتي ( 41-132 هـــ)

| النسب | اسم الوالي | السنة | النسب | اسم الوالي | السنة |
|---|---|---|---|---|---|
| أموي | عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز | 127-128 | أموي | يزيد بن هشام بن عبد الملك | 123 |
| أموي | عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك | 129 | أموي | عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك | 124 |
| أموي | محمد بن عبد الملك بن مروان | 130 | عربي | يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي | 125 |
| عربي ( هوازن) | الوليد بن عروة بن محمد بن عطية السعدي | 131 | أموي | عمر بن عبد الله بن عبد الملك | 126 |
| عباسي | داود بن علي | 132 | | | |

## ملحق رقم — 4 —

مخطط بياني يوضح عدد سنوات تولي إمارة الحج لكل من

الأمويين و بقية القرشيين و القبائل العربية و الأنصار




1. الخط العمودي يمثل السنوات .
2. المسافة بين كل خطين مقدرة بخمس سنوات.
3. الخط الأفقي يوضح أسماء القبائل و الأسر التي تولوا على إمارة الحج

# الزراعة والتجارة

يرى بعض المستشرقين أن من أصعب البحوث التاريخية العربية ما يتطرق للتاريخ الاقتصادي، وخاصة في ميدان الزراعة والتجارة. وسبب ذلك عدم كفاية المعلومات عن تراث العرب الزراعي والتجاري، على الرغم من شغف العرب بالتجارة منذ أزمنة قديمة. وهم يرون أيضًا أن الإسلام وقف موقفًا معاديًا من التطور الاقتصادي. وما يراه بعض المستشرقين لم يستقم طويلاً، إذ انبرى ثلة أخرى منهم يفندونه ويبدون عوره. منهم بارثولد Barthold . . W. وآخرون . [ EI 2.nd " Trading " ]

ويتضح مدى تهافت رأي من قال بضعف الجانب الزراعي والتجاري عند العرب، من خلال ما نراه من كثرة أسماء النباتات والمعاملات التجارية التي تحمل أسماء عربية في اللغات الأوروبية. ومما لا شك فيه أن العرب أسهموا بدرجة معقولة في نقل مزروعات ونباتات ونظم تجارية إلى أوروبا وغيرها عن طريق مراكز الاتصال في الأندلس وصقلية وأقاليم المغرب الإسلامي وغيرها. بل إن قائمة النباتات والمزروعات التي أدخلها العرب إلى أوروبا طويلة، ويأتي على رأسها: الأرز، والقطن، والسكر، والليمون، والبرتقال، والرمان، والباذنجان، وبعض أنواع الحبوب، حتى إن الأرز والسكر أصبحا من المزروعات الرئيسة في الأندلس بعد دخول العرب إليها . [ شاخت وبوزوت "1988" 276/1-279]

وتُعد التجارة والزراعة عماد التحولات الكبرى التي شهدتها الأمة العربية. فالملاحظ أنه عندما استقر العرب في المناطق الجديدة الخصبة، واستغلوها صلح اقتصادهم، وارتقت أنظمتهم السياسية، ومن ثم ارتقوا في سلم الحضارة. أما عندما فسد نظامهم الاقتصادي فقد عرفوا عثرات اجتماعية وسياسية، وشهدوا تقهقرًا في مدارج الحضارة.

### مكانة الزراعة والتجارة في الفكر الإسلامي:

تبوأت التجارة والزراعة مكانة سامقة في الفكر العربي الإسلامي. ومع هذا فإن أدبياتهما لم تصل للمستوى المأمول. ولعل مرد ذلك إلى انشغال العرب في فجر دولتهم بأمور الدين والحرب والسياسة. لكن الشاهد أن العربي الذي تحول بسرعة من حياة البداوة، وتأقلم بسرعة مع متطلبات الاستقرار والاستيطان، سرعان ما أصبح تاجرًا مهنيًا، أو مزارعًا عارفًا. وأضحت كل من الزراعة والتجارة قاعدة كبرى لتدويل الفكر التجاري والزراعي، فبلغت قوافل العرب التجارية، ومنتجاتهم الزراعية أقصى أطراف المعمورة، واقتحم تجار العرب الأسواق الجديدة مصدرين ومستوردين. وتوطنت لدى العرب تقنيات ترفد تجارتهم وزراعتهم وخاصة في ميادين

التربة، والإصلاح الزراعي، والمياه، والقوانين الدقيقة التي تراقب الحقوق الفردية، وحقوق الدولة مثل أنظمة الضرائب، والغش، والري، والتصدير، والاستيراد، وتبادل العملات وأسعار صرفها. وما عدا ذلك فإن حرية رأس المال، وإشاعة نظام حر هما ما كان سائداً في عمر الدولة العربية، إلاّ فترات تُعد استثناءً.

### مصادر الموضوع:

بما أن نهاية الحد الزمني لهذا الفصل هو المائة سنة الأولى ونيّف بعد الإسلام. وهو ما يوافق الربع الأخير من القرن الثامن الميلادي. وهذه المرحلة الزمنية من عمر الدولة العربية لم تشهد تأليفًا وتدوينًا للفعاليات الاقتصادية. فإن مُعظم المصادر العربية عن الحالة الاقتصادية تتوزع على كتب الفقه واللغة والأدب والجغرافية وكتب الرحلات. وبدرجة أقل كتب التاريخ والطب ومعاجم اللغة ، وما خصص للزراعة والتجارة قليل مقارنة بغيرهما. وكلها تعود لقرون لاحقة، وأهم المصادر العربية القديمة عن الزراعة هي: كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية النبطي، وكتاب النخل للدينوري ومثله للسجستاني، وكتاب النبات لأبي الخير، وكتاب الفلاحة للأصمعي، وكتاب جوامع فوائد الملاحة في الفلاحة للغزي، وكتاب الفلاحة لابن العوام، وكتاب الفلاحة لابن بصال، وكتاب الشجر لابن خالوية، وكتاب إبداع الملاحة وإنهاء الرجاحة في أصول صنعة الفلاحة لابن ليون، وكتاب الفلاحة المنتخبة لنبيغا الشريك لامشي.

أما عن التجارة فأقدم كتاب وصل لنا خصصه صاحبه للتجارة هو: كتاب التبصر في التجارة من تأليف الجاحظ، واعتمد عليه كل من الثعالبي وابن الفقيه.

وأسهم الجغرافيون العرب، بإثراء الأدب الزراعي وخاصة ما يتعلق بالجغرافية الزراعية بمؤلفات سجلوا فيها التغييرات الواسعة التي طرأت على الزراعة والمحاصيل الزراعية ونباتات الزينة الجديدة التي جلبها العرب من الهند وجزر الهند والصين وفارس وغيرها. ومن المؤكد أن نباتات وأشجاراً قديمة أو جديدة عرفت طريقها إلى البساتين العربية. مثال ذلك ما أورده الجاحظ أن 360 نوعًا من التمور يُعرض في أسواق البصرة، بينما في القرن التالي لعصر الجاحظ يصعب حصر أنواع التمور أو عدها كما يقول ابن وحشية . [ "1971" م/1 ع 1-6/2 ]

### الزراعة:

#### الحاصلات الزراعية:

توسعت رقعة الدولة العربية منذ بدء الفتوحات الإسلامية في عصر الخلافة الراشدة، ولم يمض أكثر من نصف قرن إلا ورقعة البلاد العربية تمتد في مناطق شاسعة في الشرق الأوسط وشمال أفريقية. لهذا كله نجد تنوعاً في محصولاتها الزراعية، نتيجة لاختلاف التربة والمناخ. على أن منطقة وادي الرافدين والنيل هما أكثر المناطق العربية إنتاجًا للحبوب والفواكه والغلال. وهي عماد الموائد اليومية في كل مكان.

كان العرب يتغذون بالخبز المصنوع من القمح. ومن المؤكد أن القمح كانت له سيادة مطلقة على سائر الغلال في مرحلة فجر الإسلام وصدره. وكانت الحنطة معروفة للعرب منذ زمن بعيد. وكانت أكثر ما تزرع في وسط الجزيرة العربية والعراق والشام ومصر. وكانت مصر تصدر كميات من القمح إلى روما. وفي مرحلة الخلافة الراشدة وصل القمح المصري إلى الحجاز. ويمتاز القمح المصري بجودته، وخاصة النوع المعروف باسم (اليوسفي) وقد اشتهرت الفيوم وحطا بالقمح الجيد. وفي مدينة شمور بصعيد مصر كان يزرع قمحٌ يُعرف باليوسفي المجزّع .

ولا شك أن القمح له السيادة في المنطقة العربية على سائر ضروب الحبوب والغلال. وكانت الحكومات العربية تجني منه مُعظم موارد بيت المال، إذا استثنينا ما يأتي عن طريق غنائم الحروب. ولقدامة بن جعفر تقرير متأخر عن حقبة هذا البحث الزمنية، يتعلق بمقدار ما تحصله الحكومة عن زراعة القمح. وهو يشير إلى كمية كبيرة منه.

أما الأرز والشعير فيأتيان في مرتبة ثانية على التوالي. وانتشرت زراعة الأرز في المناطق غزيرة المياه كجنوب العراق وخاصة في كسكر، وعلى ضفاف نهر النيل في مصر والسودان. وتكثر زراعته في الفيوم والواحات الخارجية. ويزرع في أريحا وبيسان بفلسطين . واشتهرت واسط بزراعة الشعير. أما الذرة فقد بقيت منتشرة في جنوب الجزيرة العربية، مثل منطقة زَبيد باليمن، وعُمان، وبلاد النوبة، وفي مدينة طحا بمصر، وهي مشهورة بكيزانها الكبيرة المعروفة باسم البواقيل، وفي المناطق ذات الموارد المائية الشحيحة. ومع أن العرب عرفوا الأرز بعد الفتوحات الإسلامية المبكرة، فإنه لم يصبح مادة غذائية رئيسة، إلاّ في أزمنة متأخرة حوالي القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. بقي غذاء الفقراء .

ذكر الماوردي أن الكرم (العنب) لا يمكن عد أصنافه وأشكاله. أما ابن الفقيه فتوسع في ذكر أنواعه وأصنافه وخصائصه ومنافعه. وهو يدعوه بسيّد الثمار. ويرجح أن العنب جاء إلى بلاد العرب من اليونان كما ذكر سترابو. وقد اشتهرت به مدينة الطائف في الحجاز. وعُرف منه نوع يُدعى بالرامزي، الذي انتقل إلى العراق، واشتهر هناك. ويلائم مناخ اليمن أشجار العنب، لذا كثرت أنواعه، حيث بلغت سبعين صنفًا عند بعضهم. وكان العنب يدرك فيها مرتين في السنة. وفي صنعاء نوع من العنب كبير الحب يسمى المختَّم. وكذلك تعددت أنواع العنب في العراق، واشتهر منه نوع في بغداد يُسمى الملاحي. والسناوي والخمري بقرطبل، والصقلبي والأحمر بسامراء، والزرّاوي بالكوفة، والحلاوي والجرشي بالبصرة. واشتهر نوع من الشام يُدعى بعيون البقر . وانتشرت بساتين العنب في فلسطين، وفي منبج بالقرب من حلب، وفي نصيبين بالجزيرة .

وزاحم العنب كل من الأترنج والنارنج الذي نُقل من الهند إلى العراق. أما الليمون والبرتقال

فيبدو أن العرب عرفوهما في وقت متأخر. وأول بلد زرعهما هو عُمان، على ساحل الخليج العربي، ومنه انتقلت زراعتهما إلى معظم البلاد العربية، خاصة العراق وفلسطين ومصر، ويقول المسعودي إنهما جاءا من الهند. والليمون فاكهة اشتهرت في فلسطين. وقد عرفهما المقدسي، ووصف حسنهما وجودتهما . [ "1906" 181 ] وانتشر الليمون أيضًا في مصر على نطاق واسع. وهو من النوع الصغير الحلو.

وكان التفاح والرمان والمشمش واللوز والجوز والفستق والتين والكمثرى من الفاكهة المطلوبة. وقد اشتهرت بلاد الشام بها واليمن. وكان لها شأن عظيم . أما أكثر ما يباع في الأسواق العربية فهو البطيخ. وخاصة النوع المعروف بالعبدلي لذلك عُرف سوق الثمار والفاكهة في بغداد بدار البطيخ.

كان النخل شجرة غذاء وفاكهة في الوقت نفسه لمنطقة الجزيرة العربية والهلال الخصيب منذ أزمنة بعيدة. وقد زرع النخيل في معظم مناطق العراق، وخاصة البصرة وواسط والثرثار. والنخلة لا تدانيها شجرة مثمرة في مكانتها عند العرب، وقد أفردت لها كتب ضاع أكثرها، ومما وصل إلينا كتاب: النخل للسجستاني، وهو كتاب فريد في بابه، يبحث في كل ما يتعلق بالنخلة من حيث اللغة والزراعة.

ولكثرة إنتاج التمر والعناية به، ثم سعة المتاجرة فيه، عُرفت عائلات عربية في العراق باسم التمار (أي تاجر التمور). وعُرفت أشجار النخيل في مصر. وكانت بساتين النخل معروفة ومشهورة في يثرب بالحجاز، ومنها معاشهم وتجارتهم. وفي تيماء والبحرين (شرق الجزيرة العربية) واليمامة (وسط الجزيرة العربية) وفي بعض مناطق شمال أفريقيا، مثل برقة والقيروان وفاس وزويلة. وأصناف التمور كثيرة جدًا فقد أحصى الهمداني والمقدسي بعض أنواعه فبلغت ما يربو على الثلاثمائة نوع .

وكانت تجارة التمر واسعة، وتصدر بعض البلاد العربية كشرق الجزيرة العربية، والحجاز، والعراق التمر إلى أجزاء من البلاد العربية التي لا يزرع فيها النخل، وتصدره أيضًا إلى خارج البلاد العربية. ويُعد العراق وشمال أفريقية أكثر البلدان إنتاجًا للتمر. وفيما بعد أصبحت مدينة سجلماسة في جنوب مراكش مركز تجارة التمر وتصدره عبر الصحراء إلى بلاد السودان.

أما شجرة الزيتون فهي من نبات إقليم البحر الأبيض المتوسط وكانت بلاد الشام وشمال أفريقية تمدان بقية البلاد العربية كلها بالزيت. وكان أحسنه ما يأتي من الشام خاصة مدينة نابلس وطبريا وعكا والرقة. وكانت تونس والقيروان الممول الرئيس لروما من الزيت. ويوجد شجر الزيتون بكثرة في قابس وسفاقس. وفي مصر وما جاورها يستخرج زيت من بذور الفجل واللفت ويستعمل زيتًا للمصابيح ويسمونه الزيت الحار. والسمسم هناك قليل وزيته عزيز ، وزيت الزيتون رخيص . [ ناصر خسرو "1970" 76 ]

وكان السكر غالي الثمن يحتاج إلى تربة خاصة وماء وفير، ولذا تمت زراعته في البلاد التي تصلح له من حيث المناخ ووفرة المياه. وكانت البصرة وضواحيها أكبر مكان في بلاد العرب لزراعته، وكذلك في صور في بلاد الشام، وفي مصر. وقد اعتنى به العرب في الأندلس . وكانت اليمن ذات عناية فائقة بصناعة حلوى من السكر والفواكه والعسل، ويسمى الشهد الجامد وكانوا يضعونه في الشمس ثم يصب في قصب اليراع، ثم يوضع القصب أيامًا في مكان بارد، ثم تختم أفواه القصب بالقصّة ( بالجص) وتصدّر. [الهمداني "1974" 198 ]

وقد نمت وتطورت المزروعات الصناعية بجانب السكر مثل الكتّان. وأنتجت سورية وفلسطين كميات كبيرة من القطن. الذي وجد طريقه إلى أسواق أوروبا. ويظهر أن منطقة حلب والحولة وبانياس في شمال سورية من أكثر المناطق زراعة وعناية بالكتّان. وعرفت أرض الجزيرة في العراق، وحران زراعة القطن. وكانت عرابان مركزًا لتجميع قطن الجزيرة ومنها يُصدر إلى سائر البلدان. وعُرفت زراعة القطن في اليمن ويسمى العطب، وكان قطن مدينتي صنعاء وصعدة يضرب به المثل لصفرة لونه. واشتهرت مصر وبلاد المغرب بزراعة الكتّان، واشتهرت بوصير بمصر بمنسوجاتها القطنية الرفيعة، وكذلك في وادي شلف قرب تاهرت، وفي تونس .

اشتهرت مدينة لُربّس بالمغرب، وهي مدينة قريبة من باجة، بزراعة الزعفران. ومما يشبه الزعفران في لونه واستخدامه العُصفر وكان يزرع في وادي شلف قرب مدينة تاهرت في المغرب. وكذلك يزرع في اليمن، ويدعونه بالوَرس .

التسويق الزراعي:

أولت الدولة العربية الإسلامية في عاصمتها المدينة المنورة ثم في دمشق شؤون الزراعة اهتمامًا ملحوظًا، ذلك أن معظم الخراج المستوفى من الأراضي الزراعية يُشكل القسم الأكبر من إيراد بيت المال .ويظهر أن التسويق الزراعي ارتبط دائمًا بالعملية التجارية التي يجيدها العرب. و لم تنفصل عملية التسويق الزراعي عن التجارة كمهنة مستقلة إلا في مرحلة متأخرة. وكان نظام المزارعة الذي يختلف من منطقة عربية إلى أخرى أضحى نظاماً ساعد في تنويع طرق التسويق الزراعي، ونقل الإنتاج الزراعي .

ولخص المقدسي في قائمته الزراعية التوزيع الجغرافي الزراعي لمعظم المناطق العربية، ومن القائمة نعرف مقدار التنوع والتميّز الزراعي الذي يسود في الوطن العربي الكبير. وبالتالي نعرف أن التسويق الزراعي ونقل الأشجار والشتلات والثمار تم بصورة دؤوبة ضمن المناطق العربية، قبل أن يشق طريقه إلى خارج الوطن العربي . ["1906" 181 ] لم يكن هناك قوانين تمنع أو تضعف حركة نقل المزروعات والثمار بين المناطق العربية. وهذا يفسر سرعة انتشار وتبادل النباتات والثمار في الوطن العربي. مثال ذلك ما كان يحمل إلى دمشق من ثمار وأشجار لم تكن معروفة فيها من قبل، وانتقال زراعة النخيل من

جنوب العراق والجزيرة العربية إلى مصر والمغرب، أو نقل مزروعات الشام إلى الأندلس أيام الدولة الأموية.

ومن أساليب التسويق الزراعي تأتي عملية خزن الغلال، وذلك أن وسائل النقل لم تكن على درجة كافية من حيث حفظ الحبوب والثمار أو سرعة النقل. من هنا جاءت عملية الخزن والحفظ اللازمة. وقد درجت الحكومات العربية المتتالية وكذلك الأفراد على تخزين الغلال لمدة قد تصل إلى سنة. ولا شك أن العرب أضافوا إلى خبراتهم في هذا الميدان ما وجدوه من تراث يوناني في الشام ومصر. ويذكر أبو الخير الأندلسي أن العرب عرفوا عدة طرق وأساليب للتخزين منها: التجفيف أو خلط بعض النباتات، أو تزفيت أواني الحفظ وتطيينها، أو استعمال المطامير أواني للحفظ. وهي عبارة عن صهاريج تُحفر في الأرض تُستعمل مستودعات بعيدة عن الضوء وتقلبات الجو، وقد اشتهر منها مطامير قسنطينة بالمغرب الأوسط. والتمر يحفظ في غرف صغيرة تُبنى من الجص الخالص، وتوضع في مكان مظلم وبارد . [ "1938" 17-51 ]

وشجعت الحكومة العربية حركة نقل المزروعات والغلال، وسنّت قوانين تتعلق بالعملات والأسعار، ومنع الاحتكار، واستصلاح الأراضي، وحث الفقهاء على تقديم الحلول الشرعية للمشكلات الزراعية والمائية والعلاقات بين مالك الأرض والأجراء المعروف بنظام المزارعة. كما شجعت الحكومة الرعاة والمرتحلين على الاستقرار في الأراضي الزراعية. وكل هذا صب في صالح عملية التسويق الزراعي.

**الملكية الزراعية:**

ما تجب الإشارة إليه أن المصادر تقول بوضوح أن القوانين التي سنها الخلفاء بخصوص الزراعة والملكية الزراعية كانت قليلة ولا تلغي ما كان سائدًا قبل الفتوحات الإسلامية. من هذا أن العرب لم يصادروا كل الأراضي الزراعية خلال عمليات الفتوح، بل بقيت في يد أصحابها. وقد شجع الخلفاء عملية تملك الأراضي واستصلاحها في صيغة منح وعطايا. وكان الخلفاء يرمون بجانب استصلاح الأراضي إلى توطين العرب في المناطق المفتوحة، والتسريع بتعريبها وإسلامها.

يتبين أن استغلال الأراضي وملكيتها في صدر الإسلام كان من نصيب القبائل العربية المستقرة في الأمصار، لكن الملكية الفردية كان لها نصيبٌ أيضًا، بجانب نصيب الدولة. على أن القرنين الأول والثاني الهجريين/ السادس والسابع الميلاديين يمثلان أكبر ما وصلت إليه الملكية الفردية من توسع في الأراضي الزراعية. وقد تحدث الماوردي بشيء من التفصيل عن ملكية الأراضي الزراعية، وبيّن أقسامها من أراضي خواص، وأخرى وقف، وثالثة أراضي الدولة. قسّم الملكية أيضًا حسب ما فرض الفقهاء عليها من عشور أو خراج أو زكاة. وفي العموم فإن أراضي الدولة يمكن تقسيمها إلى: أراضي الحمى، وأراضي الأرفاق (المرافق) وأراضي الموات.

وكانت الدولة تقطع ما لديها من أراضٍ لكبار الموظفين أو علية القوم أو غيرهم .

وكان الخلفاء يستنون بسنة النبي ﷺ في الإقطاع كإقطاعه عليه الصلاة والسلام أرضاً لُمزينة وجهينة وغيرهم كثير. ولكن الإقطاع العربي لم يستمر في صورته التي طبقها الخلفاء في فجر الإسلام. وبدأ التغيير تدريجيًا في نظام الإقطاع مع قدوم الخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان، والخليفة الوليد بن عبد الملك اللذين أقطعا الجند أراضي بمنطقة الثغور المتاخمة للروم . لكن التطور الأكبر حدث فيما بعد عندما أصبح الإقطاع عسكريًا في العراق على يد نظام الملك في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي. أما في مصر فقد أصبح في عصر المماليك إقطاعًا مشابهًا لما عليه الإقطاع الأوروبي.

وبوجه عام فإن الملكية الزراعية لم تكن متروكة بدون تنظيم إداري، لأن الدولة العربية تعد الأرض أهم أسس السيادة الدينية والسياسية. وقد راعت الدولة بشأن ملكية الأراضي الزراعية خصوصية كل قطر أو ناحية. وكمثال لذلك، فقد قسمت الحكومة مصر بعد فتحها إلى ثلاثة أقسام: فما بين الفسطاط ورشيد سموه ريفًا، وما بين الفسطاط ومنطقة البجاة سموه بالصعيد، وما بين دمياط وتنيس سموه بالوجه البحري، ولكل قسم خاصية من حيث نظم الري، والتملك والإقطاع، ثم ما عليها من خراج وعشور.

[حركات "1996" 16 ]

التقنية الزراعية:

يأتي الري في أولويات التقنية الزراعية، لأهمية الماء للزراعة، ولكونه غير متاح لكثير من المناطق العربية بصورة طبيعية. ففي أنحاء كثيرة من البلاد العربية يتعين على المرء أن يتتبع مواقع الماء ليستنبطه. وقد اهتم العرب بالماء، بل إن التراث الفقهي الإسلامي المتعلق بالماء يكاد يُشكل وحده ثقافة متميزة. على أن التراث العربي لا يخلو من مؤلفات اختصت بقضية الماء والري مثل مؤلفات: ابن بصّال وابن العوام، وابن الأعرابي.

تشغل الصحراء مساحات واسعة من أراضي البلاد العربية، لهذا اعتمدت الزراعة في مُعظم البلاد العربية على الأمطار، وعلى الآبار، وكان الري المعتمد على وسائل بسيطة بمساعدة الحيوان هو الوسيلة الواسعة الانتشار في الجزيرة العربية وفلسطين وسورية وليبيا. أما في العراق ومصر فقد اعتمد نظام معقد للري. فقد انتشرت القنوات المائية والحواجز والسدود الترابية والصخرية. وهي وسائل كلفت الدولة أموالاً طائلة .

وصرفت الدولة أيضًا أموالاً لبناء وتحسين شبكات التصريف الأرضية، وتجفيف المستنقعات، وصناعة وصيانة الآلات الهيدروليكية، وهي وسائل باهظة مما يجعل انتشارها واستعمالها مقصورًا على الأثرياء، إلا ما قامت به الدولة، وخاصة في أراضيها الزراعية. وكان الخلفاء مهتمين جدًا بتقنية الزرع، وورد أن الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ صرف من بيت المال على حفر

قناة كبيرة زودت البصرة وما جاورها بمياه عذبة من شط العرب. ولما زاد الطمي في القناة أعيد حفرها وصيانتها أيام خلافة عثمان بن عفان ﷺ. كما أقام زياد والي العراق – الملقب بالمهندس في خلافة معاوية مشاريع إروائية كثيرة، وهو الذي أصلح نظام الري في غوطة دمشق. ويظهر أن الدولة الأموية صرفت أموالاً طائلة على تقنية الري، وإنشاء السدود، والقنوات في سورية والعراق والحجاز ونجد ومصر. وقدم من الصين إلى الشام والعراق، بطلب من الدولة، مهندسو المياه، وعلماء الحراثة، والأكّارة، وبنّاة الرخام للإشراف والعمل في ميادين مختلفة.

استعمل العرب تقنيات وأساليب عديدة لرفع الماء من الأنهار والأقنية والآبار، وهي أنواع ، النوع الأول: الناعورة، وهي دولاب ماء كبير، عليه سلسلة من الأواني يديره الماء الجاري، واستعملت في مناطق الأنهار، في كل من العراق وسورية، وفي المغرب وفي اليمن أيضا يدعونها بالسواني ومفردها سانية، والنوع الثاني: الساقية وهي دولاب تديره الجمال والثيران والبغال وربما الحمير، وانتشر استعمال هذا النوع في مصر. ويعرف في بعض مناطق مصر بالشادوف. وكانت أواني هذا النوع مصنوعة من الخشب. وترفع الماء بواسطة دولاب يديره الحيوان. والنوع الثالث الدالية: وهي تقنية بدائية تتألف من عمود خشبي له إناء على طرفه لجر الماء. وانتشرت هذه الطريقة في شرق العراق، وهناك بلدة عراقية أخذت اسمها من هذه الطريقة اسمها: ديالي،

والنوع الرابع: مد قنوات من أنابيب الملاط والأحواض المرصوفة بعضها فوق بعض من أجل جر الماء من الأنهار لري الحقول والبساتين .

والنوع الخامس:العيون والآبار السطحية، وكثرت العيون في مناطق عديدة من الجزيرة العربية. أما المناطق التي لا توجد فيها عيون فلجأ المزارعون بمساعدة الدولة إلى حفر الآبار. وهذا الأسلوب هو عماد الري في الجزيرة العربية وشمال أفريقيا، وبعض نواحي الجزيرة الفراتية. وهم يستخرجون الماء منها بواسطة تدعى السانية، وهي عبارة عن دلو مصنوعة من جلد الثور، مثبتة في حبل يدور على آلة خشبية تدُعى: المحال، والمحالة مثبتة في أعلى البئر، ويجر الحبل الحيوان، فترتفع الدلو من البئر مملوءة بالماء، ثم يفرغ الماء في بركة. ومن البركة تنطلق جداول لري الحقول والبساتين . ويدعونها بالأرحاء في شمال أفريقية، وهي كثيرة في ليبيا، وخاصة في مدينة طرابلس.

والنوع السادس: السدود والردوم، وقد أنشأت الدولة سدودًا كثيرة على الأنهار أو على ممرات الأودية الضيقة. وفي أفريقية وتسمى المآجل ومفردها ماجل وهي في اليمن كذلك. والنوع السابع: القنوات الأرضية، وهي تدعى في عُمان واليمامة بالأفلاج ومفردها فلج وتسمى في اليمن بالكظائم. وهي منتشرة أيضًا في أفريقية، وهي تقنية هيدروليكية معروفة في التراث الإسلامي، وهي عبارة عن مجرى للماء تحت الأرض، يتكون عن طريق الربط بين سلسلة من الآبار، ويستخدم في استنباط موارد المياه الجوفية.

ومن تقنيات الزراعة التي استعملها المزارعون العرب المحراث الخشب، ولكنهم أدخلوا عليه تحسينات كثيرة، منها استبدال أسنان حديد بأسنانه الخشب، وقد ساعدت خصوبة التربة التي كانت سائدة في معظم الأقاليم العربية على أن تأتي نسبة الغلة مرتفعة جدًا على الرغم من أن الفلاح العربي لم يلجأ إلى تحسينات وإضافات، واستعمل المزارعون في اليمن وفلسطين نظام المصاطب (المدرجات) من أجل وقف انجراف التربة، وخزن مياه الأمطار. وهكذا استقرت تربة السفوح بمصاطب متدرجة كل منها بارتفاع 90سم.

واهتم الأثرياء والأمراء بتحسين بيئة الزراعة. فقد ورد أن مسلمة بن عبد الملك استثمر في استصلاح الأراضي البور في العراق وسورية ما قيمته ثلاثة ملايين درهم. كما حفر قناة السيب في منطقة السورا قرب الكوفة. كما قام الخليفة معاوية بتوطين آلاف من الجند في شمال سورية، ومنحهم القطائع الخصبة . [ البلاذري "1951" 132-133 ]

تربية الحيوان:

تعد تنمية الثروة الحيوانية من متممات الزراعة والتجارة. ويشهد الواقع أن الثروة الحيوانية والدواجن تتوسع وتنمو جنبًا إلى جنب مع نمو الزراعة. وقد نشطت تربية الحيوان والدواجن في الوطن العربي دون استثناء، لأنه مصدر غذاء، ووسيلة نقلة، وكساء ورداء. وكانت تربية الدواجن مثل الدجاج شائعة في جميع الأقاليم. وورد أن البط كان كثيراً في مصر. كما اختصت مصرُ بتقنية فرعونية لتفريخ الدجاج لم تكن معروفة في سائر الوطن العربي، وهي عبارة عن حاضنة صناعية يوضع فيها البيض، وتُسلط على الحاضنة درجة حرارة محددة. وتربى في مصر البغال والجاموس والضأن والإبل والبقر والخيل. واشتهرت فيها الحمير البيضاء الصغيرة، التي تُعرف باسم المرّيسية.

وكان إقليم الجزيرة الفراتية غنيًا ومشهورًا بمراعيه الخصبة، التي تتربى فيها أحسن أنواع الضأن. واشتهرت تونس بتربية الأغنام . على أن إقليم الرحاب يُعد أوسع أقاليم الدولة العربية شهرة في تربية الضأن. واشتهرت المغرب بالبغال البربرية. ولكثرة الأغنام في أفريقية كانت الجلود تُحمل منها إلى مصر لدباغتها. ولا يفوق مدينة بونة أي مدينة عربية أخرى في تربية البقر . وفي السودان تكثر الضأن والبقر. أما الماعز فتكثر في الحجاز .

أما نجد فاشتهرت بخيولها العربية الأصيلة، بل هو موطن الخيول العتاق. وكذا الخيول الجياد موجودة بكثرة في الجزيرة الفراتية . وورد أن النجائب منتشرة ومشهورة في نجد وعُمان، وهي جمال ذات سنام واحد. واشتهرت اليمن بالنجائب المهرية. واشتهرت حضرموت بالإبل المعروفة بسرعة السير وبجسمها الرشيق، وهي من منطقة الشحر. وتميزت الجمال البُختية بمنطقة البُجاة بجمالها وطول أعناقها وسرعتها. أما الجاموس فقد جُلب من السند إلى العراق أيام

ولاية الحجاج، ثم انتشر في بعض الأقاليم العربية . على أن تكاثرها يرجع إلى الزط الذين نقلوها من السند إلى العراق، فتناسلت وكثرت، وانتشرت في الجزيرة الفراتية والشام ومصر .

**التجارة:**

كان للعرب قبل الإسلام تجارة واسعة، ومعرفة بفنون التجارة، ولهم علاقات وأحلاف وإيلاف تجارية مع الدول المجاورة، وخاصة مع الشام وفارس وبيزنطة. وكان زعماء مكة من التجار المتمرسين، وكانت تجارتهم تجارة تخصص ووكالات، لا تجارة دكاكين وتجزئة فقط. ويصح القول أن مكة كانت عاصمة التجارة العربية قبل الإسلام. وبعد الإسلام اهتم العرب بالتجارة وزاد اتصالهم بالأمم، وتقدمهم في ميدان الحضارة، فكثر عدد التجار، وصارت قوافل العرب وسفنهم تجوب الأمصار والأنهار والبحار. وأضحت مكة والمدينة واليمامة ودمشق والبصرة والكوفة والقرزم والفرما وعُمان والبحرين وعدن وطرابلس وأنطاكية أهم مراكز التجارة العربية وموانئها في تلك الحقبة. وقد شجع الخلفاء والفقهاء التجارة، بل أصبح عدد منهم في عداد التجار. وقد شغل الفقهاء بالمسائل التجارية الكثيرة التي تعرض للتجارة، ولم تكن معروفة من قبل. وقد استنبط بعضهم حيلاً فقهية ذكية لمسائل تجارية جديدة ضمن قواعد الشرع الإسلامي.

وكان التجار يستفيدون من التسهيلات التي تمنحها لهم الدولة، وخاصة عندما يسلكون طرق الحج ومنازله. بل إن الدولة وفرت سبل التجارة، وجعلتها في متناول التاجر مثل: تحديد الطرق، وتوفير الماء، والاستراحات، وحماية الطرق وتأمين سلامة القوافل. وربط الأنهار بعضها ببعض، أو ربط النهر بقناة إلى البحر . وتعد البصرة مثالاً على كلامنا، فالبصرة ميناء العرب على الخليج، أصبحت محطة للتجارة القادمة من الشرق، والقوافل الآتية من الغرب عبر الصحراء. وقد انعكس هذا على سكان البصرة، فجعلهم من المغامرين والمرتحلين، وقد قيل: أبعد الناس نجعة في الكسب بصري، ومن دخل فرغانة القصوى، والسوس الأقصى، فلابد أن يرى بصريًا. وكان سوق المِرْبَد مركزًا لتجارة البصرة مع البادية إلى جانب أهميته الأدبية. كما كانت الأبلّة مرفأ للبصرة ومركزًا لتجارتها البحرية . [ ابن الفقيه "1855" 191 ]

ونحن لا نستطيع أن نعد التجار أصحاب رؤوس الأموال الضخمة لكثرتهم. وقد اشتهر كل بلد بتجّاره أو سلعه. وكان التجّار ينقلون السلع من مكان إلى آخر، ولم يكن نشاط التجار في البحر بأقل من نشاطهم في البر. هذا وقد أثرت التجارة وحركتها الواسعة في الحياة العامة للعرب، وخاصة القاطنين في المدن والأمصار. وكان التأثر واضحًا في الميادين الاقتصادية والاجتماعية والعلمية. كما أشاعت التجارة في الناس خلق الاستقلال. [ امين "1966" 243/2 ]

إن النشاط التجاري العربي لم يكن يقوم في فراغ سياسي. فقد كان الخلفاء والولاة يؤثرون

في الاقتصاد، خاصة أن بعضهم كان يعرف التجارة تطبيقًا وممارسة قبل توليه منصبه، أو يجمع بينها وبين مركزه السياسي. وكان ثلاثة من أوائل الخلفاء تجارًا: فأبو بكر وعثمان ﷺ كانا بزازين، وعمر ﷺ كان مُبرطشًا (يكتري للناس الإبل والحمير) ولكن هذا لا يعني أن الحكومات العربية كانت تتدخل في حرية التجارة ومصالح التجار، أو كانت لا تبالي بها. فقد اعترف الإسلام بالملكية الخاصة، ولم يفرض قيودًا على التجارة، اللهم إلا الزكاة، ومنع الربا. على أن بيئة التجارة تأثرت ببعض الإجراءات الحكومية، ذلك أن أي تغيير في السياسة يؤدي إلى نتائج اقتصادية، مثال ذلك أن القمح المصري توقف تصديره إلى القسطنطينية بعد الفتح الإسلامي لمصر، واستمر التوقف حتى بزوغ العصر الحديث، ولمدة تزيد على عشرة قرون . [ شاخت "1988" 293/1 ]

وثمة سؤال لا بد من طرحه، وهو: هل يوجد لدى العرب أدب تجاري، كما يوجد أدب ديني؟ الواقع أن التجارة أدت دورًا كبيرًا في حياة الأفراد، وكانت تشكل واقعًا لا يمكن تجاهله. فالتجار الكبار في قريش هم الذين وقفوا ضد الدعوة الإسلامية في أول عهدها، خوفًا على امتيازاتهم، ووقف معهم الشعراء والكتاب. لهذا يصح القول إن لدى العرب تراثًا تجاريًا. ونستطيع أن نقول إن المؤلفين العرب في تلك المرحلة كانوا أكثر تعاطفًا مع التجار، بل أصبح التأييد يشكل قيمًا أيديولوجية تبنتها الطبقة الوسطى. ولا غرابة في ذلك إذا عرفنا أن الأدب العربي الإسلامي المبكر كُتب في بيئة تجارية. بل إن بعض التجار الأفراد وصلوا إلى مراكز عليا في الدولة العربية. وهي حالات تصدق أكثر في الدولة العباسية منها في عهد الراشدين أو الأمويين.

وتشهد اللغة والشعر والأمثال العربية بأثر التجارة. ومدى تأثيرها في عقلية العرب، وإشغالها أفكارهم. فاللغة العربية غنية بمفردات السفر والترحال من حط وترحال ونزول وصفقة رابحة أو خاسرة. ولم يجد العرب لفظًا يعبرون به عن بذل الطاعة للخليفة غير المبايعة، وهي كلمة تجارية صرف. ومن أمثالهم التجارية: (ماله سبد ولا لبد)، (والحمد مغنم والذم مغرم)، (وخير مالك ما نفعك). ومن أشعارهم: (ذريني للغنى أسعى فإني رأيت الناس شرهم الفقير). ومن الكلمات الأجنبية التي أدخلها التجار في القاموس العربي: الصنع والصولجان والفيل والجاموس والديباج والاستبرق والإبريسم. والقرآن الكريم يقول: (وإذا رأوا تجارة أو لهوًا انفضوا إليها). ويقول: (هل أدلكم على تجارة) . [ الافغاني "1993" 32-42 ]

والغريب أن بعض المستشرقين ما زال يجادل في صدقية لصوق التجارة بالعرب. وذهب بعضهم أن كلمة "تاجر" ليست عربية، بل آرامية الأصل، ومعناها "بائع الخمر". ويقول بعضهم أن المؤلفين الكلاسيكيين العرب لم يفردوا للتجارة مؤلفات قائمة بذاتها. ويزيد آخرون إن الإسلام أضعف التجارة العربية القديمة. وكل تلك الأقوال لا تصمد أمام النقد الموضوعي، والمعرفة الحقة

بتاريخ العرب القديم، وتاريخهم الإسلامي. فقد زاول الرسول عليه الصلاة والسلام العمل التجاري، وسافر في تجارة قريش. وكانت التجارة العمل شبه الوحيد للصحابة. ومنهم من خلف ثروات باهظة مثل الزبير بن العوام، وعبدالرحمن بن عوف، وعمرو بن العاص وزيد ابن ثابت ﷺ وغيرهم . [ اليعقوبي "1980" 13-17 ]

لا يقلل من تجارة العرب إن كان جذر كلمة (تجارة) عربي أو غير عربي، طالما أنها عربية الاستعمال منذ حقب طويلة. وقد وجدت آداب التجارة العربية من يعبر عنها خير تعبير عند عدد من الفقهاء، والمحدثين الذين خصصوا أبوابًا باسم التجارة، والأدباء المؤلفين كالغزالي في كتابه: إحياء علوم الدين، وهو يقول: إن السوق ساحة جهاد التاجر. وكذلك نجم الدين السبكي صاحب طبقات الشافعية في كتابه: (مُعيد النعم). لكن أبا الفضل جعفر بن علي الدمشقي الذي عاش في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. يُعد أكثر من بحث في أخلاقيات التجارة في كتابه: (الإشارة إلى محاسن التجارة)، حيث تحدث عن التجارة والتجار، الذين قسمهم إلى ثلاثة أقسام: الخزّان (تاجر الجملة)، والركّاض (التاجر المتجول)، والمجهز (المصدّر)، ومثله فعل ابن خلدون.

وأزعم أنني لا أحتاج لإيراد أقوال أخرى لمؤلفين عرب لدحض ما أوردناه من قول بعض المستشرقين. وعوضًا نورد خلاصة ما ذهب إليه بارثولد W. Barthold، الذي يُعد أول من بيّن سقط تلك الآراء، وتبعه فيما بعد بيكر C. H. Becker، ويونك E. Yunge، وبول Alfred Buhl، وماكس ويبر Max Weber وكلهم برهنوا بالبحث المعمّق أن الإسلام لم يقف موقفًا معاديًا من التجارة والتجار . [ Trading EI2 ]

## التجارة الداخلية:

ليست التجارة عمل شخص واحد، بل هي اشتراك أكثر من شخص في عملية تبدو بسيطة، ولكنها تغدو معقدة. وتلك النظرة إلى التجارة لدى العرب تتسم بالاحترام أكثر من المهن الأخرى. تمدنا كتب التاريخ والبلدانيات والأدب والفقه والرحلات بمعلومات لا بأس بها عن التجارة البينية. ونتيجة لوحدة البلاد العربية زمن الخلافة الراشدة والأموية فقد تنقل التجار والسلع بدون عوائق أو ضرائب، وأخذت حركة تنقل الأموال مسارب بعيدة وعديدة.

كانت مكة المكرمة مركزًا لتجارة العرب، ولكن سرعان ما برزت مدن أخرى مثل المدينة المنورة، ودمشق، والبصرة، والكوفة، والفسطاط، والإسكندرية، وهجر، واليمامة، وعدن (التي سماها المقدسي: دهليز الصين وفرضة اليمن وخزانة المغرب ومعدن التجارات). وكان المكيون هم أصحاب القوافل التجارية، يشاطرهم في ذلك عدد من تجار اليمامة واليمن والبحرين، وكانت أهم السلع هي الأقمشة والثياب (البزازة)، والزيت، والأدم.

كانت الثياب البعلبكية والموصلية والبغدادية مطلوبة في أكثر أقاليم العرب. وانتشرت تجارة القسي، والسروج المذهبة، والخيل المطهمة، والسناجيب، والسمور، والجمال البختية، والسكر، والتمر، والكتان الدمياطية، والحديد، والفضة، والسلاح بأنواعه، والأغنام، والمنتجات الزراعية والنباتية الأخرى. هذا وقد اشتهرت بعض الأقاليم العربية بمنتج واحد أو أكثر تصدره إلى سائر الأقاليم. ويُعرف باسم الإقليم أو المدينة مثل: سمن السروات وعسله، ورمان الطائف، وإبل عُمان ولؤلؤها، ومنسوجات اليمامة، وتمر هجر والبصرة، وفاكهة الشام وزيتها، وسكر مصر، وأصواف المغرب، والرماح اليزنية من اليمن، إن تجارة الأقاليم العربية في ما بينها تُشكل وحدة طالما نعم بها الشعب. [ العيني "1988" 301-315]

## التجارة الخارجية:

تضاءلت مكانة مكة المكرمة التجارية بعد الفتوحات الإسلامية في العهد الراشدي والأموي، لكن الدولة العربية سيطرت على أهم موانئ الخليج العربي والبحر الأحمر (بحر القلزم) والبحر الأبيض المتوسط (بحر الروم)، وهذا فتح المجال واسعًا للتحكم في التجارة الدولية. ليس هذا فقط، بل إن خطوط المواصلات البرية أضحت تحت سيطرة الدولة العربية، ولو قفزنا قليلاً من الحقبة الزمنية مدار البحث إلى حقبة لاحقة، وهي نهاية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وتوقفنا عند جملة لليعقوبي، وهو يصف ما كانت عليه أسواق بغداد، وتجارة بغداد، لوجدنا أنها حالة لم تحدث فجأة في القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي، بل كان لها إرهاصات وبدايات منذ منتصف القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي.

يقول اليعقوبي عن بغداد: تأتيها التجارات والميرة برًا وبحرًا بأيسر السعي، حتى تكامل بها كل متجر يحمل من المشرق والمغرب من أرض الإسلام وغير أرض الإسلام، فإنه يحمل إليها من الهند والصين والسند والتبت والترك والديلم والخزر والحبشة وسائر البلدان حتى يكون بها من تجارات البلدان أكثر مما في تلك البلدان التي خرجت التجارات منها . [ "1891" 4 ]

وأسارع وأقول إن ما أورده اليعقوبي نتيجة مشاهدات شخصية، ولكنه لم يُكمل الصورة، فالمعروف أن أمهات المدن العربية وخاصة دمشق والإسكندرية وأنطاكية وعدن والبصرة تجري فيها تجارة الجملة وإعادة التصدير، وكان التجار العرب يقومون بدور الوسيط بين الشرق والغرب.

تمثلت التجارة العربية الخارجية مع دول كبيرة منها: الهند، والصين. وكانت بضائع هذين البلدين تفرغ في عدن أو في عُمان، ثم يعاد شحنها إلى الشام أو الحجاز أو العراق أو مصر أو شمال أفريقية أو أوروبا. وكان يوجد في عدن جالية هندية وأخرى مصرية. وكانت البضائع التي ترد من الهند متنوعة منها: الأرز، والسكر، وجوز الهند، والتوابل، والعقاقير، والجواهر،

والمرجان، والنحاس، وبعض أنواع الحديد والرصاص، وخشب الأبنوس، والعطور والذهب، والسجاد، والزئبق، القرمز، والقطن، والصبر، والياقوت، والخيزران. [ ابن الأثير "1987" 122/9]

وفي مدينة مالابار (المليبار) وجزيرة تنومة، وجزيرة كَلة، وسيمور وسرنديب (سيلان) ومدينة صيبور المجاورة لمدينة بومبي، ومدينة دَيْبل السندية يجتمع التجار العرب والمراكب العربية، وقد شكل العرب فيها وكالات تجارية عربية، وكبرت الجالية العربية في الهند، وخاصة من عُمان. وعادة ما يذهب التجار العرب إلى الهند في الشتاء، ويعودون بتجارتهم في الصيف، ويحملون إلى الهند منتجات بلادهم أو منتجات أفريقية مثل: البخور الذي تستهلكه في معابدها، والخيل العربية، والعاج. أثراً واضحاً في الحضارة الهندية، بحكم أنهم يحملون تراثًا متقدمًا في الميادين العلمية والدينية والاقتصادية . [ حركات "1996" 162 ]

واحتلت تجارة العطور مرتبة عليا في التبادل التجاري بين البلاد العربية والهند، منها: العود الذي يجلب من شجر كبير، وهو على ثمانية عشر نوعًا أفضلها المندلي المنسوب إلى بلدة مندل، ومنها القافلي، والقماري، نسبة إلى جزيرة قمار، وهو مطلوب في المغرب العربي، ومن جاوا تجلب عطور أخرى منها: العود الجاوي، والكافوري، والقرنفل، واللبان. ومن التبت يجلب التجار العرب المسك والزباد والعنبر . [ اليعقوبي "1981" 117-120 ]

أما الصين فتعود معرفة العرب بها إلى عصر ما قبل الإسلام، لكن الاتصالات الرسمية والواسعة بدأت في عهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ وهو معاصر لحكم أسرة تانغ. وكانت كانتون، ميناء الصين العظيم الواقع على ساحل بحر الصين، هي المدينة التي تضم معظم وكالات العرب التجارية. وقد دعاها العرب باسم باجة الصين، ويسمون ملك الصين بالغبوغ (ابن السماء) وتأتي خانفو (بكين) بعد كانتون من حيث الأهمية لتجارة العرب . أما الصينيون فقد أطلقوا على العرب اسم داشي (التاجر) لأنهم لا يرونهم إلا تجارًا. وكان للعرب جالية محترمة، ولهم مساجدهم، ولهم بيوت لسكنى من يفد عليهم ضيوفًا من البلاد العربية، وأخذوا في السفر إلى الشرق، وربما وصلوا إلى فيتنام وكوريا واليابان.

ومن أهم ما يجلبه تجار العرب من الصين: الحرير، والثياب المزخرفة، والسروج، والقطن، والأواني (تدعى في البلاد العربية بالصينية) وقد عرف العرب الأوراق البنكية من الصين. ولعل ما أثار التجار العرب في الصين مقدار الإتقان في الصناعات اليدوية الخفيفة (الشعبي) مثل صناعات الفخار، وزخرفة الأواني المصنوعة من القصب، التي يدعوها ابن بطوطة بالدست . [حركات"1996" 164-166 ]

وتعامل العرب مع فارس وما وراء النهر قبل الفتح الإسلامي، إذ كان لفارس علاقات سياسية

وتجارية مع اليمن واليمامة، وكانت سيراف ميناء فارس على الخليج تُعد أضخم مراكز تجارة العرب، بل إنها مركز دولي للتجارة القادمة من الشرق. وفيها مستودعات لتجارة العطور والتوابل والأفاوية والخشب. وصف ياقوت سيراف قائلاً: أنها أغنى بلاد فارس. وبرز من مدن فارس أصفهان (أو أصبهان) وتتحكم في منتجات فارس وإيران من ثياب الحرير والقطن والزعفران والفواكه. ومن فارس اتصل تجار العرب بكل المناطق المحيطة بها مثل منطقة بحر قزوين، ومدينة براغة التي تعد ملتقى للتجار الروس والصقالبة والأتراك. وفيها يتاجر العرب بالدقيق والقصدير، وربما وصل التجار العرب إلى نهر الفولغا ومنطقة البلغار لشراء الفرو . [ ابن بطوطة "د.ت" 235/1 ]

أما تجارة العرب مع قارة إفريقية فقد اقتصرت في غالبها على الذهب والعاج والرقيق، ويذكر الإدريسي أن الجلود وخاصة جلود النمر، والحديد، وجدت طريقها للبلاد العربية أيضًا. وعندما أصبحت شمال إفريقية في عداد البلاد العربية زادت صلات العرب بالأفارقة. ويذكر المؤرخون أن مدينة قوص المصرية أدت دورًا كبيرًا، إذ أصبحت ملتقى تجار العرب بنظرائهم الأفارقة وغيرهم من الصين والهند واندونيسيا. وكان التجار من اليمن والمغرب العربي وخاصة من يرافقون حملات الحج هم اكثر من يراه المرء في مدينة قوص. ثم تجيء مدينة سفاقس في المرتبة الثانية من حيث التجارة المتبادلة بين أفريقية والعرب. وكانت سلعة زيت الزيتون تأتي في المرتبة الأولى مقارنة بالسلع الأخرى. فهي تشحن إلى كل الأقاليم العربية وإلى آسيا الصغرى وصقلية وإيطاليا. وتصدر أوروبا إلى تلك المراكز السيوف وخرز البندقية . [ ياقوت الحموي "1937" مادة سفاقس ]

وتجارة العرب مع دول أوروبا بدأت مع الصلات العربية الأوروبية منذ فجر الإسلام، وربما قبل الإسلام، ولكن على نطاق محدود. وكانت مدينة القسطنطينية التي عرفها تجار مكة المكرمة. وورد أن الخلفاء استوردوا المصنوعات البيزنطية، وخاصة المنسوجات والمصنوعات الفضية والذهبية. وعرف العرب التجارة مع الأوكرانيين، ويقول عنهم الأصطخري أن بلادهم شمال مملكة الروم. وقد استورد التجار العرب منهم: الخز وجلود الثعالب والسيوف. أما بعد استقرار العرب في الأندلس، فقد توسعت العلائق العربية الأوروبية، وكانت التجارة نافقة بين التجار العرب ونظرائهم الفرنسيين والألمان والإيطاليين.

لا نبالغ إذ قلنا إن (بحر الروم) البحر الأبيض المتوسط أضحى في العصر الذي تُعنى به هذه الدراسة بحيرة إسلامية، ذلك أن التجار العرب المسلمين كانوا يجوبون شواطئه إما تجارًا أو وسطاء. فقد وصل بعضهم إلى شمال أوروبا حيث النورماند (الفايكينج Vikings)، بينما شواطئه الشرقية والجنوبية والغربية أصبحت شواطئ عربية. واحتكرت السفن العربية تجارة البلدان

المطلة على سواحله. وكانت موانئ أمالفي Amalfi وباري Bari الإيطالية مركزًا للتبادل التجاري بين أوروبا والبلاد العربية في شمال أفريقية . [ البكري "د.ت" 30 ]

الطرق:

وردت في ما مضى إشارات إلى الطرق التجارية العربية الداخلية والخارجية، البرية والبحرية. وقد ذكرت كتب البلدانيات تلك الطرق، وهي كثيرة، بعضها رئيسي، وآخر فرعي، ويعد كتاب ابن خرداذبة الموسوم: (بالمسالك والممالك)، من أدق المصادر وأوسعها التي تعرضت لذكر الطرق، ذلك أن مؤلف الكتاب تولى وظيفة البريد مدة من الزمن، فهو يكتب عن معرفة وإطلاع وربما مشاهدة. ونحن نجد حديثًا مسهبًا عند الجغرافيين العرب عن الطرق وما يتعلق بمسافاتها ومراحلها، وما يكتنفها من صعاب، وما تتوافر عليها من تسهيلات. وقد حدد بعضهم المسافات بالفراسخ أو الأميال. ومنهم من استعمل المدة الزمنية. مثل قولهم إن الرحلة في منطقة النوبة تستغرق خمس ليال حتى الوصول إلى أسوان.

تبلغ المسافات البرية بين أقاليم البلاد العربية حداً كبيرا. ولو أخذنا على سبيل المثال المسافة بين مكة المكرمة وأقصى المغرب العربي لوجدناها تربو على ألف ومائتي فرسخ، وهذه المسافة مما قدرها الرحالة ناصر خسرو. وعليه يمكن تصور بقية مسافات الطرق البرية التي تخترق معظم البلاد، وتوصلها بطرق خارج الوطن العربي الكبير.

وأقدم الطرق ذكرًا في كتب البلدانيات الطريق الدولي الذي يبدأ من اليمن مرورًا بالحجاز وينتهي في الشام. ويتفرع من هذا الطريق عدة طرق فرعية، منها ما يغطي منطقة مكة المكرمة، أو الطائف، ومنها ما يعرج على يثرب (المدينة المنورة) ومنها ما يوازي ساحل بحر القلزم (البحر الأحمر) بعدًا وقربًا. وقبل أن ينتهي في غزة، يتشعب منه مسالك إلى مدن وسط الشام وشمالها، وينتهي بالقسطنطينية، هذا الطريق شهد تاريخًا تجاريًا، إذ مبدأ انطلاقه من عدن حيث تفرغ البضائع والسلع القادمة من الشرق، ثم يعاد شحنها برًا إلى الحجاز أو الشام. والعكس صحيح أيضًا. وورد ذكر هذا الطريق في القرآن، ويظهر أن قريشًا سيطرت على هذا الطريق شتاءً وصيفًا ردحًا من الزمان. [ الحربي "1969" 643 ]

وطريق آخر ينطلق من الحجاز متجها شرقا إلى اليمامة ثم ينتهي في البحرين في شرق الجزيرة العربية. ومن منتصف هذا الطريق، وبالتحديد عند بلدة ضرية يتشعب من هذا الطريق عدة طرق أحدها يتجه جنوبا إلى اليمن. والآخر شمالاً متجهًا إلى البصرة . [ ابن رسته "1981" 182 ] على أن هناك طريقًا آخر يربط العراق بالحجاز. وهو ينطلق من مكة المكرمة إلى المدينة ومنها إلى وادي القرى. وعند وادي القرى ينشأ طريق آخر يربط الحجاز بمصر وهو ينطلق إلى مدين ثم إيلة عند رأس الخليج المتفرع من بحر القلزم، ثم يواصل

السير إلى الفسطاط. ويوجد طريق آخر يطوق الجزيرة العربية يسير بمحاذاة سواحل بحر القلزم، والبحر العربي ثم الخليج، وهو بهذا يمر من جدة حتى تهامة اليمن ثم حضرموت، ثم يواصل سيره إلى عُمان.

ويرتبط العراق بالمشرق عن طريق دولي يبدأ من وسط العراق حتى يصل إلى نيسابور حاضرة خراسان، ويمر بعدة مدن، ثم يجتاز الجبال مارًا بقرميسين ثم همدان ثم نهاوند وينتهي في أصبهان. ويتجه فرع منه إلى خراسان وينتهي في مرو، بينما من مرو ينطلق فرع آخر متجهًا إلى آمل ثم بخارى فسمرقند فالشاش ثم ينتهي في فرغانة. وهذا الطريق سلكه التجار العرب الذين يتعاملون مع المشرق. وشهد نشاطًا واسعًا منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي . [ المقدسي "1906" 278 ]

ومن الطرق المعروفة طريق يربط وسط العراق بجنوبه، ويربط العراق بشرق فارس وبلاد ما وراء النهر والخليج. ينطلق هذا الطريق من غرب الفرات ويمر بالمدائن، فدير العاقول، ثم واسط، ثم البطائح وينتهي في البصرة. وعند البصرة يتفرغ إلى قسمين: أحدهما يتجه جنوبًا بمحاذاة ساحل الخليج ويمر بالعقير وقطر وينتهي في عُمان، أما القسم الثاني فينطلق من البصرة إلى الأحواز (الأهواز) ومنها إلى شيراز، ثم يصل إلى أصبهان ثم الري.

وهناك طريق يربط العراق بالشام ومصر وأفريقية، ينطلق من الأنبار حتى يصل إلى قرقيسيا ثم الرقة، حيث يتفرع إلى قسمين: الأول يذهب إلى دمشق مارًا بحلب وقنسرين ثم حماة وحمص، وبعلبك فدمشق. والآخر يربط الرقة بالثغور الجزرية مارًا بسميساط وحصن منصور ثم ملطية حتى يصل إلى مرعش. ومن الطرق المهمة الطريق الذي يربط دمشق ببيت المقدس عبر طبريا، ويمر بالرملة، ومنه فرع يتجه إلى الفسطاط بمصر مارًا بغزة ورفح والعريش.

لا شك أن الإسكندرية تمتعت بمكانة لسيطرتها على عدة طرق برية وبحرية، فمنها ينطلق طريق بري يربط الجزيرة العربية أو الشام أو العراق ببقية أقاليم الشمال الأفريقي ثم الأندلس. فهو ينطلق جنوبًا إلى الفسطاط، ومنها إلى جب عميرة، ثم عجرود، فالقلزم، فأيلة، ثم مدين، حيث يرتبط بالطريق الدولي إلى مكة المكرمة أو المدينة المنورة.

ويتجه الطريق الذي يربط مشرق الوطن العربي بمغربه من الإسكندرية ثم يتجه بمحاذاة الساحل إلى قابس، فصبرة، فطرابلس، ثم قصور حسان، ومغمداس، وسرت، ثم أجدابية بالقرب من برقة، على أن هناك طريقًا يعرف بالسكة أو الجادة العظمى، وهو يسير بمحاذاة الصحراء إلى القيروان. التي ينطلق منها الطريق عبر بلاد الزاب وينتهي بتهارت. وهذا الطريق عامر بالقرى والمزارع، مأهول بالسكان. ويجاور هذا الطريق جبال الأوراس في أفريقية، وجبال الونشريس في المغرب الأوسط، وسلسلة جبال

الأطلس في المغرب الأقصى . [ اليعقوبي "1891" 104 ]

أما الطرق البحرية فمنها ما ينطلق من ميناء جدة أو الجار على بحر القلزم متجهًا جنوبًا حتى عدن، ومنها إلى عمان فموانئ الهند أو الصين. وكان تصل إلى الجزيرة العربية سلع المشرق والصين والهند عبر هذا الطريق. أما ما يتجه شمال بحر القلزم فإنه يقف في أيلة. وقد تم حفر قناة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ تربط بحر القلزم بنهر النيل. وبهذا تم ربط الأقاليم العربية في آسيا بأخواتها في أفريقية. وقد تستمر السفن في المسيرة عبر نهر النيل متجهه إلى بحر الروم (الأبيض المتوسط) وترسو في أنطاكية أو عسقلان أو غزة أو تواصل سيرها محاذية موانئ شمال أفريقية حتى المغرب الأقصى . [ ابن خرداذيه "1889" 134-153 ]

ومما له صلة بالطرق استعمال الخانات والفنادق لنزول المسافرين، وخاصة من التجار الذين يكثرون الترحال. وقد انتشرت الخانات على طول الطرق في المشرق. والفنادق في المغرب. وكان بعضها وقفًا لا يحتاج النزيل فيه لدفع أجرة. وكان أحد الأثرياء قد أنشأ خانًا ذا شأن في عُمان. وكانت الخانات موجودة في الطريق الرابط بين العراق وسورية. كما يوجد فندق بمليله في المغرب الأوسط.

أما وسائط النقل فتأتي الإبل والخيل في مقدمة دواب النقل. على أن الإبل أكثر استعمالاً في المسافات الطويلة أو في البضائع. وقد ورد أن الخليفة عثمان بن عفان ﷺ جهز الجيش الإسلامي بتسعمائة وخمسين بعيرًا، وأكمل الألف بخمسين فرسًا، وذلك لغرض نقل أفراد الجيش ومؤنهم وسلاحهم. أما الخيل العربية فهي أرفع أجناسها لأنها متعددة الاستعمالات من سفر وسباق واشتراك في الحرب. ويأتي بعدها البراذين وتدعى في المغرب بالأكاديش، وتتميز بصبرها على السير الطويل والركض. وتعد البغال والحمير وسيلة مثلى لنقل السلع والأشخاص داخل المدن. وتكثر البغال والحمير في مصر. وكان الخلفاء يركبون في بساتينهم حمير مصر، وتشتهر بلدة مريس بمصر بحميرها ، ونقل العرب العربات من تركيا. واستعملت بكثرة في نقل البضائع داخل المدن، وخاصة في العراق. واستعملت لنقل الصخور في الإسكندرية، وكذلك لنقل أمتعة الجيش في سورية .

## الأسواق:

عرف العرب الأسواق منذ أزمنة بعيدة. وهي تعقد في البلدات الكبيرة. وغالب أسواق العرب في القديم موسمية. وأدت أسواق العرب دورًا في ميادين مختلفة مثل: الثقافة والأدب والدعوة والسلم والحرب، وهي أدوار قد لا تمت للتجارة بصلة. أطلق العرب على السوق التجاري اسم (الموسم). فقالوا عن سوق عكاظ المشهور: موسم عكاظ، وهذا المعنى نجده في القرآن الكريم، حيث موسم الحج، الذي يتعدى دوره النشاط الروحي التعبدي إلى نشاط مادي. فالحج موسم لتبادل المنافع.

تقع الأسواق العربية داخل المدن خاصة التي لها صفة الديمومة. أما الأسواق الموسمية السنوية فتعقد في أمكنة تقع على تخوم المدن. وأول سوق نشأ في ظل الإسلام هو: سوق المدينة المنورة. أنشأه الرسول ﷺ، الذي قال للتجار والباعة: (هذا سوقكم فلا يضيق ولا يؤخذ فيه خراج). وارتبطت الأسواق بالأشهر الحرم. حيث استأمن الناس، فيغدون ويختلفون إلى الأسواق. بل إن بعض الأسواق العربية قبل الإسلام وافق زمان قيامها زمن الحج، واختلط أمرها بشعائره مثل: سوق منى، وعكاظ، ومجنة، وذي المجاز. وهكذا الناس يغشون الأسواق لمآرب شتى . [ ابن شبة رشيه "1979" 304/1 ]

لقد كان للأسواق العربية قبل الإسلام دور في توحيد مشارب العرب، ولغتهم ، وتطلعاتهم السياسية والثقافية والدينية. فلا يمكن تجاوز دور سوق عكاظ في الجاهلية وسوق المربد في الإسلام لدورهما العظيم في كل مناحي الحياة. وقد اختلف المؤلفون في أسواق العرب قبل الإسلام، وفي زمن قيامها. فالقلقشندي يراها ثمانية أسواق. واليعقوبي والبغدادي يعدانها عشرة. وجعلها التوحيدي أحد عشر. والمرزوقي تبلغ عنده سبعة عشر. وأخيرًا يذكر الألوسي أربعة عشر سوقًا. [ "1342هـ"264/1،270 ] على أن أقدم من ألف في الأسواق هو: محمد بن حبيب المتوفى عام (245هـ/859م) ، الذي عد منها اثني عشر. وأياً يكن الأمر فإن أسواق العرب كثيرة. [ "1361هـ" 263-268 ] وما ذكره المؤلفون إنما هي أسواق موسمية مشهورة، وتركوا ماعداها.

وبعد الفتوحات الإسلامية تلاشت أو اندثرت أسواق العرب الموسمية، ذلك أن التسوق أصبح متاحًا في أسواق المدن العربية الدائمة، لكن سوقًا نشأ في الإسلام احتفظ بكثير من خصائص أسواق العرب في الجاهلية، ذلك هو:

سوق المربد: ويقع في ضواحي مدينة البصرة، والسوق على غرار عكاظ الجاهلية، وأعظم الشبه بينهما في ميدان الأدب واللغة والشعر خاصة، قام السوق في العصر الأموي. وتعرض في السوق كل السلع التي ترد إلى العراق.

ثم نشأت الأسواق المتخصصة، فيوجد في أمهات المدن العربية أسواق للمواد الغذائية، وسوق للبزازين، وآخر للدباغين، والحدادين، والأخير يعرف في المغرب العربي (بالسقاطين) وغيرها كثير، وعادة ما تتحلق أسواق المدن العربية حول مسجد، يكون هو محور الرحا للمدينة، وعرفت المدن العربية نظام القيساريات، ومن أقدمها قيسارية العسل بمدينة الفسطاط، وتوسع ابن الحاج العبدري في الحديث عن الأسواق وقضاياها في كتابه: (المدخل) وعرفت الأسواق العربية العرفاء، وهم المسؤولون عن الأسواق . [ وكيع "1947-1950"247/2 ]

## السلع:

ذكرنا عند الحديث عن التجارة الداخلة والخارجية وعن الأسواق جملة ما كان العرب

يتعاطونه من سلع من إنتاج أقاليم الوطن العربي أو مما كانوا يستوردونه أو يصدرونه، ويجمل أن نوجز بعض ما وقفنا عليه من السلع التي ازدانت بها أسواق المدن العربية.

ليست لدينا قوائم حصرية بالسلع في الحقبة الزمنية موضوع الدراسة، فكتاب الجاحظ: (التبصرة في التجارة) من مؤلفات القرن الثالث الهجري /الثامن الميلادي . ومع هذا فإننا سنستخدمه جنبًا إلى جنب مع بعض المصادر التاريخية والأدبية والفقهية وغيرها.

تأتي المواد الغذائية على كثرتها وتنوعها في مقدمة السلع في الأسواق العربية، وقد نشط التبادل التجاري فيها بين أقاليم الوطن العربي، فالقمح مثلاً يصدر من كسكر إلى البصرة. أو من مصر إلى الحجاز أو من اليمامة إلى البحرين والعراق والحجاز. وشهدت أسواق الفواكه نشاطًا ولكن موسميًا. فاستورد العالم العربي كثيراً من فواكه فارس وبلاد ما وراء النهر.

وجلب الجبن والسكر من الأهواز . أما الفضة فمن أصفهان وما جاورها إلى كل من العراق والحجاز وسورية، أما الذهب الذي كان تسك منه العملة الوحيدة للاتجار مع الصين والهند، فقد استورد من أفغانستان وما جاورها، وتنتج مصر منه مقدارًا لا بأس به .

ويعد الحديد عماد صناعة الأسلحة وهو يأتي من الشام واليمن والهند، ومع هذا فقد نشطت أسواق السلاح نظرًا لكثرة الفتوحات الإسلامية، فأصبحت أسواقه تعج بأنواع الأسلحة المصنعة محليًا أو المستوردة من الهند والصين وبلاد ما وراء النهر. ومثل الحديد يأتي الخشب لأنه يستعمل للأغراض المدنية والعسكرية. مثل صناعة الرماح والنبال والساج . وثمة سلعة أخرى هي: المنسوجات بأنواعها، وقد اشتهرت اليمن بأنواع المنسوجات التي وجدت طريقها لأسواق العرب أو خارجها، مثل: الثياب النجرانية والمعافرية، وفي البحرين اشتهرت الثياب القطرية والعمانية، واستوردت الأسواق العربية المنسوجات والثياب من بلاد ما وراء النهر، ومن الصين والهند، واشتهرت العراق بالخز والبز، ومصر بالمنسوجات القطنية ومثلها الشام، أما المنسوجات الحريرية فيأتي أغلبها من المشرق الإسلامي.

وفيما يأتي قائمة السلع المستوردة التي أوردها الجاحظ: من الهند النمور والفيلة والياقوت الأحمر، والصندل والأبنوس وجوز الهند، ومن الصين الحرير، والغضائر والمداد، والأواني الفضية والذهبية، والعقاقير، والديباج، والأقفال، ومن أفريقية: النمور والقراظ واللبود والبزاة السود، ومن الخزر: العبيد والإماء، والدروع والمغافر، ومن خوارزم: المسك، والقاقم، والسمور، والسنجاب، والفنك، ومن سمرقند: الكاغد، ومن بلخ ونواحيها: العنب والفوشنه. ومن مرو: الضرابون بالبرابط الجياد، والطنافس، والثياب المروية. ومن جرجان: العناب، والرمان، والابريسم. ومن آمد: الثياب الموشاه، والمناديل، والطيالسة الصوفية. ومن دباوند: نصول السهام. ومن الري: الخوخ، والزئبق، والأسلحة والثياب،

والأمشاط. ومن أصفهان الشهد (العسل)، والملح، والزعفران، والأشنان، والكحل، والفواكه. ومن كرمان: الكمون. ومن نصيبين: الرصاص. ومن فارس: الثياب الكتانية، وماء الورد، ودهن الياسمين. ومن عمان: اللؤلؤ. ومن ميسان: الوسائد. ومن الأهواز: السكر والديباج، والخبز. ومن السوس: الأترج، ودهن البنفسج. ومن الموصل: الستور والمسوح. ومن حلوان: الرمان، والتين والكامخ. ومن أرمينية وأذربيجان: اللبود والفرش والبسط والصوف . [ "1983" 27-33 ]

وجملة القول أنه لا يمكن عد السلع والبضائع التي تزخر بها أسواق العرب، المحلية منها أو المستوردة. وقد مر بنا عدد منها، شكلت العمود الفقري للتجارة العربية الداخلية والخارجية. على أن ثماني سلع شكلت عند العرب مكانة سامقة مقارنة بغيرها. وكان لها في حياة الإنسان العربي شأن خاص منذ ما قبل الإسلام. وهي: الملح والتوابل والأخشاب والبن و البخور والذهب والحرير والرقيق.

## النظم النقدية وأسلوب التعامل التجاري:

كانت التجارة من أسباب المعاش عند اليمنيين والحجازيين ، فعكفوا عليها وتمادحوا بها، وأخذوا يضربون الأرض مع قوافلهم إلى أماكن بعيدة عن بلادهم. فقد ذكر أنهم وصلوا إلى بيزنطة، وأن عبدالله بن جدعان، وهو من أثرياء مكة قبل الإسلام، وصل إلى مصر وتاجر بها.

وكان من تجار العرب من يجيد القراءة و الحساب. وكانوا يسجلون صكوكًا عند البيع، أشبه بسندات البيع والتمليك، وكان تجار قريش يعقدون المعاهدات التجارية (الإيلاف) . [ ابن حبيب "1361هـ"162 ] مع البلاد المجاورة وتختلف أسعار السلع من بلد إلى آخر. حسب توفر السلعة، وحسب سعر صرف العملة، ومقدار الربح، وحسب الأوزان والمكاييل. وحسب ما يضرب عليها من المكوس والضرائب، وتكاليف أجور اليد العاملة، والنقل، وكانت التجارة في البلاد العربية حرة. فلا قيود عليها، ولا تحديد للسعر. بل إن السوق هو الذي يتحكم في السعر. وهذا عكس ما ذهب إليه كاهين Cahen الذي يصف التجارة العربية الإسلامية بالاحتكار، إما من قبل التجار، أو من قبل الدولة فقوله مرجوح ولا سند عليه.

ومن أساليب المقاييس والموازين التجارية: الذراع، والقدح، والويبة، والإرداب، وكلها تستعمل في مصر، أما الغرارة والكيل فتستعمل في سورية وفلسطين. والمكوك والمد توجد في الحجاز. والكر والقفيز والرطل تنتشر في العراق. وفي المغرب يكثر استعمال الرطل والأوقية والوبية والصحفة. وقد يستعمل بلد مقاييس البلد الآخر أو مكاييله لكن تقديرها يختلف.

وكان العرب قبل الإسلام يستعملون النقد الفارسي، والحميري، والبيزنطي، وتعاملوا بسبائك الفضة، والذهب، ولم يكن للدولة العربية سكة موحدة إلا في زمن الخليفة الأموي عبدالملك

بن مروان، الذي اصدر دينار ذهب، ودرهم فضة، وفلس نحاس، والعملة العربية كانت توازن بواسطة صنوج من حديد، هذا وقد احتفظ العرب بدور السكة القديمة، وأخذوا على تعريبها تدريجيا. مثل ما فعل موسى بن نصير، الذي ضرب نقودًا على شكل الدينار البيزنطي السائد في أفريقية وسمكه . [ ابن الأثير "1987" 55/8 ]

وقد شاعت أنماط للبيع عند العرب قبل الإسلام. وكانت بعض الأسواق تقتصر على نمط أو أكثر اشتهرت به. مثل: (الرمي بالحصاة)، وصفته أن يلقي المشتري بحصاة على السلعة بسعر محدد. (والمنابذة)، وهي أن ينبذ البائع المشتري السلعة بسعر محدد، و(الملامسة أو الجس) وتعني فحص السلعة بلمسها باليد فقط، و(المعاومة) وهي بيع الثمار لعدة سنوات بثمن مقدم، و(المزابنة) وتعني بيع الرطب في رؤوس النخل كيلاً، و(المحاقلة) وهي من جنس (المزابنة)، ولكن تختص بالزرع، و(المخابرة) وهي المشاركة في السلعة، و(حبل الحبلة) وهي شراء الناقة وولدها الذي في بطنها، ثم ولد ولدها . [ ابن حبيب "1361هـ"262-268 ]

ومن تنوع أنماط البيع والشراء وصورها. ومن تعدد الأسواق عند العرب قديمًا، نستدل على مقدار اهتمام العرب بالتجارة وهو اهتمام قادهم إلى الاسهام في تطوير فن الاتجار وتوسعة رقعة التجارة في البر والبحر.

**أ.د. عبد الله العسكر**

## المصادر والمراجع :

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت630هـ/1233م)
( 1987) الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، بيروت، دار الكتب العلمية.
الإدريسي، الشريف محمد بن محمد (ت 560هـ/1164م)
( 1989) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت، عالم الكتب، آدم، يحيى بن آدم، كتاب الخراج، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة، مكتبة دار التراث.
الأصطخري، إبراهيم محمد الفارسي الكرخي (ت حوالي 330هـ/941م)
(1961) المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحسيني، بيروت، دار القلم.
الأصفهاني، أبو علي الحسن بن عبد الله (ت 311هـ/923م)
(1986) بلاد العرب، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي، الرياض، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر.
ابن الأعرابي، أبو عبد الله محمد بن زياد ( ت231هـ/845م)
( 1982) كتاب البئر، تحقيق رمضان عبد التواب، بيروت، دار النهضة العربية.
الأندلسي، أبو الخير
(1938 ) كتاب الفلاحة، فاس، المطبعة الجديدة.
ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي ( ت779هـ/1277م).
(د.ت ) رحلة ابن بطوطة، القاهرة، المكتبة التجارية.
ابن بكار، القاضي الرشيد بن الزبير
( 1984) الذخائر والتحف، تحقيق محمد حميد الله، الكويت، مطبعة الحكومة.
البكري، أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز (ت487هـ/1094م)
(د.ت )المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي.
البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (279هـ/892م)
( 1957) فتوح البلدان، تحقيق عبد الله وعمر الطباع، بيروت، دار النشر للجامعيين، 201.
البيروني، محمد بن أحمد أبو الريحان (ت440هـ/1048م)
(1355هـ ) الجماهر في معرفة الجواهر، حيدرآباد الدكن.
البيهقي، إبراهيم بن محمد (ت بعد 320هـ/بعد 932م)
( 1961) المحاسن والمساوي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، مكتبة نهضة مصر .
ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف الأتابكي (ت 874هـ/1469م)
(1963) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، دار الكتب المصرية.

الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد (ت 429هـ/1037م)
(1908) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، القاهرة، مطبعة الظاهر.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت 255هـ/868م)
(1983) كتاب التبصر بالتجارة، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، بيروت، دار الكتاب الجديد.

ابن حبيب، أبو جعفر محمد بن حبيب البغدادي (ت 245هـ/859م)
(1361هـ) كتاب المحبر، تحقيق إيلزة ليختن شتيتر، حيدآباد الدكن.

الحربي، إبراهيم بن آسحاق (ت385هـ/995م)
(1969) المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق حمد الجاسر، الرياض، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر.

الحميري، محمد بن عبد المنعم (866هـ/1461م)
(1948) الروض المعطار في خبر الأقطار، بيروت، مكتبة لبنان.

ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي النصيبي (ت367هـ/977م)
(1979) صورة الأرض، بيروت، مكتبة الحياة.

الخوارزمي، أبو عبد الله محمد بن يوسف (ت387هـ/997م)
(1342هـ) مفاتيح العلوم، القاهرة، المطبعة الأميرية.

الدميري، كمال الدين أبو البقاء محمد بن موسى بن موسى (ت808هـ/1405م)
(1954) حياة الحيوان الكبرى، القاهرة، مطبعة الاستقامة.

ابن رستة، أبو علي أحمد بن عمر (نحو 290هـ/902م)
( 1891 ) الأعلاق النفيسة، ليدن.

السجستاني، أبو حاتم سهل بن محمد (ت 455هـ868م)
(1985 ) كتاب النخل، تحقيق إبراهيم السامرائي، بيروت، مؤسسة الرسالة.

ابن سعد، محمد (ت230هـ/844م)
( 1905-1921) الطبقات الكبرى، تحقيق سخاو، ليدن.

ابن سيدة، أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت458هـ/1065م)
(د.ت ) المخصص، بيروت، المكتب التجاري.

الشابشتي، أبو الحسن علي بن محمد (ت388هـ/998م)
(1962) الديارات، تحقيق كوركيس عواد، بغداد، مكتبة المثنى.

ابن شبّة، أبو زيد عمر بن شبّة النميري (ت262هـ/875م)
(1979) تاريخ المدينة، تحقيق فهيم محمد شلتوت، جدة، دار الأصفهاني للطباعة.

شيخ الربوة، شمس الدين محمد بن أبي طالب الأنصاري (ت727هـ/1326م)،
(1928) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، تحقيق ميرين، ليبزج.

العيني، بدر الدين محمود بن أحمد (ت855هـ/1451م) ،

(1988) عقد الجمان، تحقيق عبد الرازق الطنطاوي، القاهرة.

ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد (ت365هـ/976م)

(1855) مختصر كتاب البلدان، ليدن.

القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد (ت821هـ/1418م )

(1963) صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للكتاب، 88/4، 248، 229/5.

الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد (ت 450هـ/1058م)

(1393هـ) الأحكام السلطانية والولايات الدينية، القاهرة، مطبعة البابي الحلبي.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت 346هـ/957م)

(1966) مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت، دار الأندلس.

المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت 375هـ/985م )

(1906) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن.

المقريزي، تقي الدين محمد بن علي( ت 845هـ/1441م)

(1956) الخطط والآثار، بيروت، دار العرفان، 273/1.

ناصر خسرو، أبو معين الدين القادياني (ت بعد 450هـ/1085م)

(1970) سفرنامة، ترجمة يحيى الخشاب، بيروت، الكتاب الجديد.

الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب ( ت 334هـ/954م)

(1974) صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع، الرياض، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، 198.

ابن وحشية، النبطي

(1971) كتاب النخل، تحقيق إبراهيم السامرائي، بغداد ، مجلة المورد .

وكيع، محمد بن خلف (ت306هـ/918م)

(1947-1950) أخبار القضاة، تحقيق عبد العزيز مصطفى المراغي، القاهرة، مطبعة الاستقامة، 347/2.

ياقوت الحموي، شهاب الدين بن عبد الله (ت626هـ/1228م)

(1937) معجم البلدان، القاهرة، دار المأمون، 16/4.

اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت292هـ/904م)

(1891) كتاب البلدان، ليدن.

(1980) مشاكلة الناس لزمانهم، تحقيق وليم ملورد، بيروت.

أبو يوسف، القاضي يعقوب بن إبراهيم الأنصاري (ت182هـ/798م)

(1392هـ ) الخراج، القاهرة، المطبعة السلفية.

**المراجع العربية المعربة :**

الألوسي ، محمود شكري
(1342هـ) بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ، عنيه بشرحه وتصحيحه وضبطه محمد بهجة الاثري ، القاهرة ، مطابع دار الكتاب العربي .

أشتور
(1985) التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ترجمة عبد الهادي عبلة، دمشق، دار قتيبة.

الأفغاني ، سعيد
(1993) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي.

أمين، أحمد
(1966) ظهر الإسلام، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية.

البكر، خالد
(1423هـ) الرحلة الأندلسية إلى الجزيرة العربية، الرياض.

حركات، إبراهيم،
(1996) النشاط الاقتصادي والإسلامي في العصر الوسيط، الدار البيضاء، أفريقيا والشرق.

شاخت، وبوزورث
(1988) تراث الإسلام، ترجمة السمهوري وآخرون، عالم المعرفة (233) الكويت، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب.

عبد الباقي، أحمد
(1991) معالم الحضارة العربية في القرن الثالث، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.

العلي، صالح أحمد
(1969) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر.

متز، آدم
(1941) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة، مطبعة التأليف والترجمة والنشر.

هويدي، فهمي
(1981) الإسلام في الصين، عالم المعرفة، الكويت.

**المراجع الاجنبية :**

Bosworth، C. E.، et.al،
The Encyclopedia of Islam Isla، 2nd edition، E. J. Brill Leiden.

Cahen، Claude
(1977) Les peoples musulmans dans l'histoire medievale، Damas .

Watson، A ،.
(1983) Agricultural Innovation in the Early Islamic World، London، Cambridge University Press،

## الحرف والصناعات

الصناعة تحويل المواد الأولية من معادن أو نباتات أو منتوجات حيوانية إلى ما يجعلها صالحة لاستخدام البشر. وعمادها الأساس هو المواد الأولية في الطبيعة، ولكن قوامها ما يدخله عليها الصناع بمهاراتهم لجعلها مفيدة للإنسان، وهي تعتمد على ما للصناع من مهارة وذوق وكفاءة لهذا التحويل. ويكون عملهم عند استمرارهم به حرفة لهم، وكثيرا ما يطلق عليهم "أهل الحرفة" أو الحرفيون تمييزا لهم من العمال الذين لا يتطلب عملهم دربة فنية.

ويرتبط ازدهار الصناعة وتوجهاتها بمدى التطور الحضاري للسكان وما يتطلبونه من سلع يفضلون الحصول عليها من مراكز الصناعة القريبة من إقامة المستهلكين، ولكن قد تكمل باستيرادها من مناطق بعيدة، أو قد تفيض عن حاجتهم فيصدرونها إلى البلاد الأخرى. وهي بذلك لها علاقة واسعة بالتجارة التي تمد الصناعة بما ينقصها من مواد أولية أو سلع لا تنتجها مراكز الصناعة المحلية، وقد تنقل الفائض من المنتوج إلى البلاد التي تحتاج إليه، ولكن هذا الارتباط لا يصل إلى حد التطابق، فالتجارة تقوم بنقل المواد الأولية وبعض السلع التي يطلبها المستهلك، أما الصناعة فتتعامل بصنع هذه المواد.ترتبط أحوال الصناعة بمستوى الحضارة المادية فيكون واطئا في المجتمعات البدائية كالبدو الرحل والرعاة والصيادين، وينمو في المراكز التي يقطنها ذوو الثراء الذين يعيشون حياة رافهة أو مترفة. وهي تتطور تبعا لتطور الحياة الحضرية، وتتباين سرعة هذا التطور وتوجهاته تبعا للأحوال العامة لاسيما ما يتصل منها بحياة العلية والمترفين.

تعتمد الصناعة على توافر الصناع، ويتوقف مستواها على مدى ما لهم من إبداع ومهارات وعلى أحوالهم المعاشية وحرية العمل مما يؤثر بدوره في تنظيماتهم في العمل ودورهم في الحياة ومكانتهم في المجتمع.

لم يصل إلينا من مصنوعات العهود الإسلامية الأولى سوى المسكوكات وعدد قليل من الأبنية المشيدة في أطراف بادية الشام وعمارة المسجد الأقصى وبعض المنسوجات في الفسطاط. فدراستنا عنها قائمة بالدرجة الأولى على ما ذكرته كتب اللغة والفقه والآداب والبلدان من معلومات متفرقة ومتباينة في سعتها ودقتها، علما بأن الكتب التي ذكرت هذه المعلومات ألفت منذ أواسط القرن الثاني، وأكثرها عما كان في الأمصار العربية وفي بعض بلدان الجزيرة، ولاسيما الحجاز واليمن وعمان وقطر والبحرين، وأغفلت ما في غيرها بما في ذلك ما كان قائما في أقاليم بلاد المشرق والمغرب التي أصبحت بعد توسع الإسلام جزءا من دولته، علما بأن أكثر المراكز الأولى تناقص فيها العمران و لم تعد لها المكانة السابقة.

نعتمد في بحثنا الحالي على المعلومات التي قدمتها هذه المصادر والمصادر التالية مما يعين

على توضيح وإكمال الصورة عن الأحوال في صدر الإسلام. ولا نغفل ما ورد في الدراسات الحديثة عما يتصل بالموضوع وأبرزها دراسات لومبارد عن المنسوجات وعن المعادن. ودراسات سارجنت عن المنسوجات علما بأن دراسة كل منهما امتدت إلى أزمنة تالية.

كانت أقاليم الشرق الأوسط قبل مجيء الإسلام تحكمها دولتان: الساسانية في المشرق والبيزنطية في المغرب وكل منهما غني بكثير من المنتوجات المعدنية والزراعية والصناعية، وقد شجعتا التجارة الداخلية والخارجية بحماية التجار، وفرضهما ضرائب غير باهظة لا تتجاوز العشر على التجارات ؛ وكانت لكل منهما نظم خاصة في الادارة والحياة الحضرية استقرت عبر قرون طويلة ويسرت الحياة الحضرية بما فيها الصناعة؛ ونمت في كل منهما طبقة من الأغنياء والمترفين الذين يعيشون حياة مادية رافهة تتطلب سلعا تناسبها.

## أهل الجزيرة

وبين بلاد هاتين الدولتين تقع جزيرة العرب يحيطها الفرات والخليج العربي من الشرق والبحر العربي من الجنوب، والبحر الأحمر من الغرب وتلاصق بلاد الشام، وأرضها واسعة تبلغ زهاء ألف كيلو متر عرضاً، وألفاً ومائتي كيلو متر طولاً.

ومناخ جزيرة العرب قاري: حار صيفا وبارد شتاء وأمطارها شحيحة متقطعة، تنبت العشب في الربيع فترعاه المواشي، ويغطي الربع الخالي مساحات واسعة من جنوبها وهو خال من المراعي والسكان.

تتوافر في جزيرة العرب مياه جوفية تغذي عددا كبير من الآبار، وبعضها قليلة العمق غزيرة المياه تكفي لإقامة مستوطنات يضم بعضها عدداً غير قليل من السكان، وتكثر هذه المياه في أطرافها الشرقية حيث كانت تكفي لإقامة مدن وبلدان وقرى.

تغزر الأمطار صيفا في اليمن وذلك ما يسّر نشوء حضارة زاهرة ترجع إلى أزمنة قديمة. وفي سواحل الجزيرة فرض نشأت فيها مدن اشتغل كثير من أهلها بالملاحة والتجارة مع بلاد المحيط الهندي والشرق الأقصى وفيما عدا بعض المناطق المحددة من الأطراف الشمالية والشرقية والجنوبية الشرقية فإن جزيرة العرب ظلت بمنأى عن هيمنة سياسية لأية دولة أجنبية، فكان يهيمن على حكمها دول من أهلها تختلف في سعتها ودوام حكمها. إلا أنها لم تكن منعزلة عما حولها، وإنما كانت لها صلات تجارية وحضارية مع البلاد الخارجة عنها؛ وكان ذلك من آثار موقعها الجغرافي وما فيها من ثروات معدنية وزراعية، فسواحلها الطويلة على البحر العربي والمحيط الهندي يسرت لأهلها من سكان مناطقها الساحلية أن يقوموا بالملاحة في تلك البحار، وينقلوا منها السلع إلى موانئ الجزيرة ثم تنقلها القوافل عبر مسالكها البرية إلى العراق والمشرق، أو إلى بلاد الشام ومصر وموانئ البحر المتوسط،

وفي المصادر إشارات إلى آثار تجارتهم في بلاد شمالي افريقية وجنوب إسبانيا وفرنسا.

عوامل الوحدة في أهل الجزيرة

لم يحجب التفكك السياسي في الجزيرة عوامل توحيد أهلها، وأبرز هذه العوامل اللغة العربية التي تحدث بها أهلها، ونظم شعراؤها، وتكلم بها حكماؤها، وكانت لغة القرآن الكريم الذي ذكر الله سبحانه وتعالى أنه نزل " بلسان عربي مبين " وأنه أنزله لساناً عربياً غير ذي عوج وهو " لسان العرب " ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [ سورة إبراهيم ، آية :4] ومفردات القرآن الكريم تبين سعة فكرهم وتوجهاتهم.

ومن عوامل وحدتهم الدين الذي وإن كانت تفاصيله تتباين عندهم، فإن أسسه متقاربة تتجلى في عبادة الله، والرحمان، وكان لهم بيوت مقدسة ومراسيم حج عامة.

ومن مظاهر وحدتهم اشتراكهم في مثل عليا توجههم ومبادئ أخلاقية يقدرونها وهي في أساسها إنسانية. وكان للتجارة أثر في إنماء علاقات سلمية قائمة على تقدير المصالح العامة، ففي الأشهر الحرم يحرم القتال، وفي أوقات السلم يؤمن سير القوافل ولا يعتدى عليها، وقد تعقد معاهدات لتعزيزها، وكانت التجارة تعتمد على الصدق دون الغش، وعلى تقدير المصالح المتبادلة، وهي توسع أفق مشاركيها بإطلاعهم على نظم الحياة والمعاملات في البلاد الخارجية وفي القرآن الكريم صور من ذلك في إشاراته إلى الأمم والدول والشعوب ونظم الإدارة في الأقطار الأخرى.

**الاسلام وأثره :**

أحدث الاسلام تطورا واسعا وعميقا في حياة العرب وتوجهاتهم، إذ أنه وحدهم في ظل سلطة عليا طاعتها واجبة بحكم القرآن والمصلحة العامة، وأعطى الفرد مكانة قانونية بأن جعله حرا في سلوكه ومسؤولا عن أعماله، وأوقف الغزو والقتال بين المسلمين، وعمل على سيادة السلم والأمن والاستقرار وعلى جلب الناس إلى حضيرته ماداموا يؤمنون بمثله "خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام ما فقهوا"، وولى كثيرا من مناصب الإدارة وقيادة الجيوش رجالا ممن أسلم حديثا دون النظر إلى ماضيهم؛ ولم يفرض ضرائب عالية، فقد فرض وعلى المزروعات العشر، وأعفى كافة المعادن من الضريبة.

وعمل المسلمون ولاسيما القرشيون في التجارة وجنوا منها أرباحا بعضها طائلة. وكان النظام الإسلامي مرتبطا بالواقع يعمل على إقامته على أسس سليمة تؤمن نمو الفرد والمجتمع، ودعا إلى الاعتدال في الإنفاق وإلى العمل على إنماء الثروات دون اكتنازها، وأمرهم بالاعتناء بألبستهم " خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ". [ سورة الأعراف ،الآية :31 ] تكوين الدولة الإسلامية وأثره

قامت الدولة الإسلامية في زمن الرسول ﷺ وكانت نواتها الأولى في المدينة ثم

توسعت سلميا فشملت معظم بلاد شبه جزيرة العرب، وثبتها أبوبكر الصديق ﷺ في كافة أرجائها، ثم توسعت في زمن خلافة عمر بن الخطاب ﷺ بعد انتصاره على الروم والفرس فشملت العراق وأطراف الهضبة الإيرانية في المشرق، وبلاد الشام والجزيرة الفراتية ومصر في الغرب، ثم توسعت شرقا فضمت بلاد الهضبة الإيرانية وخراسان، وامتدت في الغرب إلى تونس؛ ثم وسعها الخلفاء الأمويون إلى أواسط آسيا والسند في الشرق، وإلى البلاد الواقعة في شرق الأناضول شمالا، ثم ضموا إليها بلاد الأندلس إلى حدود جبال البرانس.

أتم العرب توسيع دولتهم بالحرب، ولكنهم عاملوا أهل البلاد المفتوحة معاملة حضارية، فلم يقتلوا أهلها و لم يخربوا عمرانها، ويسروا لأهلها الأمن والاستقرار والحرية في العمل والتنقل ومتابعة حياتهم ونظمهم مادامت لا تهدد الأمن أو تمس المبادئ العليا للإسلام وأبرزها احترام الإنسان المسؤول عن أعماله.

شملت دولة الإسلام عند وفاة الرسولﷺ معظم أرجاء الجزيرة، ثم ثبتها أبو بكر ﷺ على الجزيرة كلها، وتلاحمت العروبة مع الإسلام فصار الإسلام يضم كل بلاد العرب، وصار العرب قوام دولة الإسلام: فلما ولي عمر بن الخطاب ﷺ ضم أقاليم العراق وبلاد الشام ومصر إليها، وكان معظم سكان هذه الأقاليم من أرومة عربية وقليل من هؤلاء من خارجها.

وكان المهيمنون على قيادة الجيش وولاية الأقاليم والمقاتلة كلهم من العرب من أهل الحضر. وجلهم من قريش ممن كانوا قبل الإسلام منغمرين في أعمال التجارة، " فمن لم يكن منهم تاجرا لم يكن عندهم بشيء "، ويتجلى امتداد أثر التجارة في حياتهم في كثرة التعابير التجارية المستعملة مجازا في القرآن الكريم، ولغته صدى للغة قريش، ومن ذلك القرض والأجر والحساب والموازين فهم يقدرون التجارة ومتطلباتها، ومطلعون على كثيرٍ من نظمها وقوانينها وما يؤمن مصالحهم بأساليب رسمية.

أفاد القرشيون من خبراتهم في ممارسة التجارة وهي أكثر الحرف ملاءمة لتدريب الإداريين، فوجهوا الإدارة إلى ما ييسر التجارة وينميها، ولعل كثيرا منهم مارسها وجنى منها أرباحا كانت مصدر ثرواتهم الكبيرة التي أشارت المصادر إلى بعضها.

تأسست دولة الإسلام عند هجرة الرسول ﷺ وشملت في مطلع تأسيسها المدينة، ثم امتدت في حياته إلى معظم أرجاء شبه جزيرة العرب، وتثبتت عليها إبان خلافة أبي بكر ﷺ، ثم توسعت في زمن عمر ﷺ فضمت في السنوات الخمس الأولى من خلافته أقاليم العراق والأهواز في المشرق، وبلاد الشام والجزيرة العربية ثم مصر في المغرب، ثم امتدت في زمن الخليفة عثمان ﷺ إلى الهضبة الإيرانية وخراسان في المشرق، وليبيا وتونس في المغرب، وتابعت

امتدادها في زمن الخلفاء الأمويين إلى ما وراء النهر وأواسط آسيا في الشرق، وإلى المحيط الاطلسي في الغرب، ودخلت فيها بلاد الأندلس وإسبانيا إلى أطراف جبال البرانيس.

أحدث التكوين السريع للدولة تبدلات واسعة من أبرزها انهيار الطبقة العليا الساسانية التي كانت أكثر الجماعات استهلاكا للسلع الكمالية المنتجة في بلادها والمستوردة من الخارج وضعفت تجارة الترانسيت مع الدولة البيزنطية وبلاد أوربا ولاسيما ما كان منها حول البحر المتوسط وكان هذا الضعف مؤقتا، ثم عاد انتعاشه ونموه.

وحدث تطور داخلي واسع في انشاء الأمصار ليقيم فيها المقاتلة العرب وتكون مركزا للولاة ومهيمنة على البلاد التي فتحها هؤلاء المقاتلة، وترسل إليها موارد تلك البلاد ليوزع جلها على المقاتلة المقيمين في الأمصار، ووثق ذلك صلة الأمصار بالبلاد المفتوحة، وأنمت القدرة الشرائية للعرب المقاتلة المقيمين فيها، وارتفع المستوى المادي لمعيشتهم، وزاد طلبهم على السلع لاسيما ما يلائم حاجاتهم وأذواقهم منها ثم امتد إلى السلع المترفة لسد حاجات العلية والأغنياء. ونمت في هذه الأمصار أعمال السوق والصناعات، فعوضت النقص الذي أصابها من تضعضع مكانة المستهلكين القدماء ومن هجرة كثير من صناعها إلى الأمصار الجديدة ليضعوا فيها ما يلائم حاجاتهم وأذواقهم من السلع مما لا تزودهم به التجارات.

وأصبحت هذه الأمصار مراكز نامية للصناعات والتجارات، ومنها وردت معظم معلوماتنا عن النشاط الصناعي والتجاري في العهود الإسلامية الأولى.

## تطور أحوال أهل البلاد الاسلامية

حدثت بعد الفتوح تطورات واسعة في أحوال السكان وتوزيعهم، إذ هاجر إلى الأمصار كثير من أهل الجزيرة وانضموا إلى المقاتلة فأفقدوا الجزيرة كثيرا من عناصرها المقاتلة وأضعفوا من كان فيها من الرؤساء وأصحاب المكانة، وازداد استتباب الأمن بسيادة دولة لا تقر المنازعات الداخلية، وازدادت مكانة الرعاة والفلاحين ممن يسدون حاجة أهل الامصار من منتوجاتهم التي لبعضها أهمية في الصناعة؛ وكان كثير من أهل البوادي يبيعون سلعهم لأهل الأمصار ويتزودون منها بكثير من حاجاتهم وكان ذلك من عوامل إنماء صناعات وتجارات يحتاج إليها أهل البوادي.

وجلب الإزدهار الاقتصادي في الأمصار كثيرا من الصناع اليها لممارسة حرفهم، ولعل هذا كان مرجع ازدهار صناعة الوشي والعطور في الكوفة، وفي عدد من الأمصار الأخرى. ولعل هذا سبب كثرة باعة العطور من الحضارمة في المدينة ومكة وربما في الكوفة.

ولابد أن صناعا من الأقاليم الشرقية هاجروا إلى الكوفة والبصرة والمدينة لينقلوا مهاراتهم إليها ويُنَمُّوا الصناعة فيها.

البنـــاء :

المساكن من المستلزمات الأساسـية في حياة الإنسان وتتصل بها مشيدات تبنيها الدولة لأغراض عامة كالأبنيـة المخصصـة للعبـادة أو الإدارة العامة، وهي تتنـوع تبعـا للمـواد المستعملة فيها وطريقة بنائها وما يدخل فيها من زخارف ونقوش أو بما تتزود بـه مـن مـواد للاستعمالات وللزينة.

إن العامل الأول في تنوع البيوت هـو مدى الحاجة إليها وتوافر المادة الأولية لتشييدها. وأبسط المساكن الخيام وبيوت الشـعر للبـدو الرحل وجلهم ممن ديارهم الـبراري في شـبه جزيرة العرب وفي مناطق الهضبة الإيرانية وأرجاء من مصر ولعل كثيرا من الصيادين، ولاسيما من يعمل في صيد الأسماك كان يأوي إلى الخيام.

الخيام وبيوت الفلاحين :

تتخذ الخيام مما ينسج من شعر المـاعز، ولذا كثيرا ما تسمى "بيوت الشعر" وهي متباينة في حجمها ، وأغلبها مما ينسج في المراكز الـتي يرتادها البدو وفي المراكز القريبة من الصـحراء ولاسيما الأمصار التي شيدها العرب في أطراف شبه الجزيرة، ويعمل فيها الحياك.

تتطلب الخيام حبالا لشدها واعمدة من الخشب تقام عليها . أما الفلاحـون فكانـت أغلب بيوهم في الريف وفي مختلف ارجاء الدولة، وبيوت كثير من ذوي الدخل القليل في المـدن تبنى من الطين بعد تحوير شكله لـيلائم البنـاء ووردت معلومات عن أشكال بنـاء الطـين في المدينة في صدر الإسلام، فروى السمهودي خبرا عـن رجـل يحسـن عمـل الطـين ". [ "1326هـ" 237/1 ] ويبنى مـن الطـين الرهوص وهو حائط يصب طينه على لـوحين قائمين فيكون منه جدار.ويبدو ان استعماله ظل شائعا، فقد بنى المهدي قصره ببغداد بالرهوص . [ الخطيب البغدادي "1936" 82/1 ]

اللبن :

كان اللبن، وهو الطين المقطع قوالـبَ متشابهة من أكثر مواد البنـاء شـيوعا: فـبنى الرسولﷺ به المسجد بناءه الأول. كما بنيت به معظم بيوت الكوفة والبصرة.

وكان البناء باللبن شائعا وهو أشـكال منه اللبن الجعفري ذراع وزنها مائـة رطـل ، [الطبري "1979" 322/3 ] وبنى المنصور الجامع باللبن والطين، ثم أعاد الرشيد بنـاءه بـالجص والطابوق.وبنيـت قنـوات بغـداد بـالآجر والصاروج. وكان لِلَّبِن في البناء أشكال ابرزها " السميطة " لبنة على لبنة، والسعيدة لبنة ونصف، ثم الذكر والانثى وهما لبنتان.

وذكر من مواد البناء الجص واسـتعمل في بناء الكعبة الجص الأبيض والنورة والرمـاد والجص والجص الصناعي المطبوع صحيح غـير مفرن.

وذكرت في المدينة " القصة" وكانـت تعمل ببطن نخل وهي للتبيـيض ، فكـانوا إذا افرغوا الجص بيضوه بالقصة ، واشتهرت قصـة صنعاء وهي الجير .[ الازرقي "1979" 109/1 ]

ولا بد ان الجص كان يستعمل في بناء أو تبييض بيوت المترفين، وهو يصنع من حجر الكلس، ويكثر استعماله حيث يتوافر. ومنه بنيت قصور سامراء، وربما عدد من بيوت بلاد الشام، وقد يستورد من البلاد التي يكثر فيها إلى البلاد التي لا يتوافر فيها.

وفي بغداد بني بالآجر والجص قصر الذهب ، وعقود الدهاليز، والرحبة ، وعقود الطاقات، وأعمدة سقيفة صاحب الشرطة والقنطرة القديمة.

واستعملت الحجارة في أساس بناء المسجد، وحول معاوية بناء المسجد بالحجارة ، وبنى عثمان ﷺ دار مروان وكانت فيها الدواوين وبيت المال، بحجارة منقوشة ، وجعل جداره بالحجارة المنقوشة والقصب ، ولما أعاد عمر بن عبد العزيز إبان ولايته على المدينة بناء المساجد التي صلى فيها الرسول ﷺ كان كل مسجد من مساجد المدينة ونواحيها مبنياً بالحجارة المنقوشة المطابقة.

وكانت الحجارة متوافرة في عدد من الجبال المحيطة بمكة وأبرزها المقطع وثبير وأبي قبيس وحراء والمزدلفة ، وكذلك في المفجر.

وفي بغداد بنيت الرحبة الداخلية بالصخر . واستعمل المرمر وجعل حول المنبر.

ومما استعمل في مكة الرخام ومنه المسير الذي غلفت به جدران الكعبة ، وكانت منه الأساطين مطلية بالجص وجدد المهدي رخام الكعبة، وفرش أبو جعفر والمهدي والمعتصم الرخام على زمزم وفرش به أرضها.

كان المرمر ألوانا ذكر منها الأبيض والأخضر والأحمر ، وجلبه الزبير من صنعاء ، ونقله المهدي في بناء المسجد الحرام بالسفن من الشام إلى جدة بالبحر ثم نقله منها إلى مكة .

ومن أنواع الرخام البندنيجا.

واستعملت الفسيفساء في الزخرفة وكانت تعمل من القصة من بطن نخل وأول ذكر لاستعمالاتها كان في المدينة عندما جدد عمر بن عبد العزيز بناء مساجد المدينة وكان عمالها مستوردين فيذكر السمهودي ان الوليد بن عبد الملك كتب إلى ملك الروم بإرسال عمال فسيفساء فأرسل له أربعين . وفي رواية أربعين من الروم وأربعين من القبط ، ولعل الوليد أنفذهم دون الاستعانة بملك الروم الذي لم تكن له هيمنة على القبط انذاك.

ظل استعمال الفسيفساء قائماً إلى زمن العباسيين وامتد إلى مكة، فنقش أبو جعفر سطح الكعبة ، والإفريز إلى السطح والأساطين ووجه الطاقات ودواخلها وظهر زمزم بالفسيفساء . [الأزرقي "1979" 62/2، 87-89 ]

ولا بد أن الفسيفساء زخرفت بها مساجد وكنائس في بلاد الشام ومصر والجزيرة. ولم يذكر شيوعها في العراق.

لم تكن لأهل مكة عند ظهور الإسلام خبرة بتشييد الأبنية المترفة، فلما أرادوا بناء الكعبة قبيل الإسلام كانت " سفينة الروم"

أقبلت فلما كانت بالشعيبه انكسرت فاخذوا خشبها وروميا كان يقال له باقوم نجار بناء فبناها لهم سقفها وسطحها وجدرانها مداميك، مدماك من الحجارة ومدماك من الخشب : خمسة عشر من الخشب وستة عشر من الحجارة ، وجعلوا في دعائمها صور الأنبياء وصور الشجر وصور الملائكة والأنبياء، وتمثال مريم .

ولما توسعت الدولة بعد الفتوح ازدادت ثروة أهلها وعني الأغنياء ببناء كثير من البيوت الفخمة، ولا بد أن هذا ما كان شان المدينة. ولا بد أن عددا ممن قام ببناء البيوت المترفة كانوا من الأعاجم. فقد بنى لمعاوية دار الديلمي غلام ديلمي ، وأرسل الوليد بن عبد الملك صناعا من القبط، وكان الذي عمل المنبر غلام للمغيرة المخزومي عمله كما يصنع بالشام، وفي العصر العباسي الأول عمل أبو بحر المجوسي - وكان جاء به عيسى بن علي من العراق - سقوفا في داره التي تلي المرود وأبواب داره المسماة دار مخرمه وسقوفها

ووجه المتوكل رجلا من صناعه يقال له إسحاق بن سلمه لصائغ، شيخ له معرفة بالصناعات ورفق وتجارب، ووجه معه من الصناع من تخيرهم إسحاق بن سلمه من صناعات شتى من الصيوغ والرخامين وغيرهم من الصناع نيفا وثلاثين رجلا، ومن الرخام لألواح الثخان ليشق كل لوح منها به لوحين، مائة لوح، ووجه معه بذهب وفضة والات لشق الرخام ولعمل الذهب. فقدم إسحاق بن سلمة الصائغ بمن معه من الصناع والذهب والفضة والرخام والالات سنة (241هـ/855م). وعمل إسحاق الذهب على زاوية الكعبة . وكان الرخام الذي قدم به اسحاق معه رخاما يسمى الممير غير مشاكل لما كان على جدران الكعبة من الرخام فشق سواه واسم ذلك الرخام المسير.

ولا بد أن العمارة كانت متقدمة في اليمن لوفرة ما تحتاج إليه من مواد ، ولتقدم النظام السياسي فيها ولا بد أن هذا التقدم امتد إلى المراكز الأخرى للحضارة بما فيها اليمامه وبلدان الخليج، فضلا عن الأقاليم التي ضمتها الدولة في أقاليم المشرق والمغرب.

واشتهرت الحيرة بطراز البناء الحيري ذي الكمين وهو ثلاث غرف أمامها إيوان، وقد أخذ به المتوكل العباسي وعممه.

### الآبار والبرك :

الماء من ضرورات الحياة لكافة المخلوقات البشرية والحيوانية والنباتية، ويوجد على سطح الأرض بشكل أنهار وسيول وبرك، وتحت الأرض يخرج إلى سطحها بالعيون والينابيع أو من الآبار التي يحفرها الإنسان.

وفي بلاد الدولة الإسلامية أنهار بعضها كبير كالنيل في مصر ودجلة والفرات في العراق وسيحون في خراسان وخوارزم، وتطلبت الإفادة منها ومن العدد الآخر إضافة سدود لضبطها، وشق ترع لإرواء الأراضي حولها أو لتصريف الفائض منها، وإقامة كل هذا يتطلب درجة من

معرفة انحدار الأرض ونـوع التربـة. وبعـض الأعمال المتصلة بها يتطلب القيام بها حكومة لها خبرة في اختيار العاملين وضبطهم.

كانت في بلاد دولة الإسلام منظومات ري بعضها ضخمة ترجع إلى أزمنة قديمة عـني العرب بها، فحافظوا عليها ووسعوها، وأفـادوا من خبرات من كان يعمل فيها، وتطلبت المجاري الصغيرة مهارات في تنظيم مائها وتنظيف مجاريها وحفر الفقر للتغلب علـى عرقلـة العـوارض الأرضية.

وكانت للآبار أهمية خاصة في استنباط المياه وتوفيرها لأهل المدن وأهل الريف وقوافـل التجارات. وذكر عرام ما كان في تهامـه مـن مسك وهي حجارة تجمع لتكون سـدا، ومـن حبس وهي حجارة مجتمعة يوضع بعضها علـى بعض لتكون سداً ، وفقر وهي عيون تجري تحت الأرض وتوصل بعضها ببعض فتكـون مجـرى واحدا.

ولا بد أن اليمن كان على وديانها كثير من منظومات ري يسرت توسع الزراعة فيهـا. وكانت على أنهـار العـراق منظومـات ري ضخمة، وفي خوارزم كذلك منظومـات ري. وكانت كثير من المدن والبلدان في جزيرة العرب تعتمد على الآبار في تزويد أهلها بالماء وذكرت المصادر عددا كبيرا من الآبار، ومنها آبار مكة والمدينة التي لم تكف اهلها مياه الوديان فيها ولا بد أن الحاجة إليها ازدادت بعد النمو العمـراني الذي تلا تكون الدولة الإسلامية. وذكـر ابـن إسحق أنه كان في مكة عند ظهور الإسلام ثلاثة وعشرون بئرا، وذكر السـمهودي أحـد عشر بئرا في المدينة تجاوزت قيمة بعضها عشرين ألف درهم . [ "1326هـ"3/1 ]

يتطلب حفر الآبار دربـة خاصـة في تحديد مواقعها وفي ضمان صيانتها من الإنهيـار، وتطهيرها، وخاصة في الآبار العميقة والتي يصل عمق بعضها إلى خمسين مترا واكثر.

كانت مكة تعتمد في المياه على الآبـار التي حفرها عدد من رجال مكة قبل الإسـلام، والراجح إن حفاريها كانوا من أهل مكة غير إن عددها غير كبير وحفرت عبر سنوات. فلم يكن العاملون في حفرها وتنظيفها كثيرين.

وازدادت حاجة أهل مكة بعد الإسلام إلى المياه لتزايد السكان وتنوع الحاجات إلى المياه وضبطها، فانشئت ردم " سدود" لضبط الميـاه ذكر الأزرقي منها أحد عشر ردما أكبرها الردم الأعلى الذي عمله عمر بـن الخطـاب ﷺ ، وعمرت عليها عـدة بسـاتين يطلـق عليهـا "حوائط" واجرى معاوية في مكة عشرين عينا. وذكر الأزرقي سبعة برك انشئت أبرزها ما عمله خالد القسري إبان ولايته على مكة.

وفي المدينة بنى عثمان ﷺردمـا علـى وادي مذينيب لضبط مياهه وخليجا سمـي ردم عثمان وحفر معاوية عيونا في الأطرف الشمالية في المدينة احيت أراضي واسـعة ودرت مبـالغ ضخمة.

يتطلب حفر الآبار والفقر مهارة فنية، لاسيما الآبار العميقة التي تسمى " العادية" و"القلب"، فضلاً عن خبرة في تحديد مواقع المياه الجوفية وفي حفرها بالأعماق، وتثبيت جدرالها تجنبا من الهيارها ولعل أكثر ذوي الخبرة في ذلك من أهل البلاد، أما الحفارون فمن أهل البلاد والأعاجم والعبيد.

وذكر عرام وسائل الإرواء والمنتوجات الزراعية في المنطقة التي تقع بين رضوى وجنوب الطائف وبين البحر الأحمر وجبال الحجاز، ويتبين مما ذكره أن اكثر هذه المناطق تسقى مزارعها بالآبار والعيون، إلا إلها ضيقه ، والفلاج تروى بالمسك وهي حجارة تجمع لتكون سدا، وهي تشبه "الحبس" وهي حجارة مجتمعة يوضع بعضها على بعض .

وكان الفارع والخيف يسقى بالفقر وهي عيون تجري تحت الأرض توصل بعضها ببعض فتكون مجرى واحدا من العيون. وتسقى بعض مزارع الطائف بالكظم .

**الخشب وصناعاته :**

الخشب من المواد الأساسية في البيوت والأبنية، فهو يدخل في صنع السقوف والأعمدة، وتغطى به بعض الحيطان، ويدخل في صناعة عدد من أثاث البيت بما في ذلك الكراسي والمناضد والأبواب. وللخشب استعمالات أخرى من أهمها صناعة الزوارق والسفن.

والأخشاب من حيث العموم صنفان : اللينة، والصلبة كاشجار الجوز والبلوط والتوت ويتوافر كلا الصنفين في مختلف أرجاء الدولة الإسلامية ولاسيما حيث تتوافر الاشجار. ولكن بلاد العالم الإسلامي لا تنتج ما يسد حاجتها من الأخشاب الصلبة ولاسيما من الساج الذي يكثر استعماله في البناء ويستورد من الهند.

ذكر استعمال الساج في بناء المسجد الحرام، فقد سقفه كل من عبد الملك بن مروان والوليد بالساج ، واستعمل في بناء المسجد الحرام خشب ساج أصفر وأبيض وأحمر وجعلت بين الأساطين إلواح ساج وجعل سقف زمزم بالساج المذهب.

وفي المدينة جعل عمر بن عبد العزيز المقصورة من ساج وجعل عمد المسجد منقوشة بالساج.

كانت الاخشاب قوام صناعة السفن ومعظم آلاتها، وكانت سفن المحيط الهندي والبحر الأحمر تشد بالإلياف، ثم جعلها الحجاج تشد بالمسامير، و ظل كثير منها يشد بالألياف.

وتتوافر عن السفن الحربية معلومات واسعة مما جاء في البرديات والكتب. وكانت السفن في مصر تصنع من أخشاب البنج والسنط والجميز وجذوع النخل والسدر والصنوبر، ويتوافر كثير منها في البنها والاشمونين واسيوط وقوص ولخميم . [ ابن عبد الحكم "1920" 90 ]

ولا بد أن السفن من بلاد الشام صنعت من

أخشاب الأرز الذي تكثر غاباته في شمال لبنان وجنوبها.

والسفن الإسلامية انواع كثيرة لها أسماء تبعا لحجمها وصناعتها وتستعمل فيها مسامير الحديد والنحاس وتطلى الأجزاء الغاطسة منها بالرصاص ، وأكثر اشرعتها مثلثة من قماش قوي، ولبعضها سطوح، والواحها من الساج وتشد بألياف جوز الهند وصواريها من خشب الساج.

وتزود سفن المحيط الهندي بعدد من المقاتلة للدفاع عنها من هجمات القراصنة، ويطلق عليهم السيابجه والراجح أن أصولهم من جزر الهند الشرقية.

وعند ظهور الإسلام كانت مراكز السفن في الخط بقطر، وفي عمان التي اشتهر أهلها بالعمل في السفن " مزون" ولعلهم كانوا يقومون بصناعتها ، وذكر طرفة بن العبد في شعره السفن العدولية نسبة إلى ميناء في الصومال. ولا بد أن عدن كانت تسهم في الملاحة وصنع السفن، وتعتمد على الأخشاب في افريقية.

وفي القرن الثالث الهجري كانت جنابا مركز صناعة السفن الجنابية، ولعلها كانت كذلك منذ صدر الإسلام أو قبله . [ الطبري "1879" 1889/3 ]

أما الزوارق والمراكب والسفن الصغيرة فقد استعملت في نقل الناس والسلع في داخل المدن أو بينها، فلابد أنها كانت منتشرة وتزداد عند ازدياد الحاجة إليها في البلدان الواقعة على الأنهار أو سواحل البحر، وكثير منها يبنى من الأخشاب المحلية.

### المنسوجات والالبسة :

الألبسة من المستلزمات الأساسية للبشر، تعتمد موادها الأولية في الأكثر على المنتوجات النباتية ولاسيما القطن والكتان، ثم على بعض المنتوجات الحيوانية كالصوف والوبر والحرير والجلود، وتتوافر في الدولة الإسلامية المواد الأولية الضرورية للمنسوجات، فلا تستورد إلا القليل من السلع الكمالية، غير أن توزيعها غير منتظم ويسرت التجارة التنسيق بين مواضع إنتاجها ومراكز صناعتها واستهلاكها.يعتمد تنوع المنسوجات والألبسة على المادة التي تصنع منها والمهارات في هذه الصناعات، وملبوسات الصناعة من ذوي الدخل المحدود والمستوى الحضاري الواطئ أغلبها رخيصة في مادتها بسيطة في صنعها، يتم غزلها في البيوت، أما النسيج العالي المهارة فيتم على أيدي من لهم مهارة فيه بما في ذلك صباغ غزله وحياكته وخياطته.

وتتوافر في المصادر العربية معلومات كثيرة عن المنسوجات والألبسة متفرقة في كتب الفقه والآداب والتاريخ خاصة، ويتكون من حصيلتها صورة شاملة عن أحوالها.

كان كثير من الغزل يتم في البيوت، وقد ذكرت كتب الآداب عن اهتمامات النساء بالغزل [الحبيش "1308هـ" 57-59 ] وذكرت كتب الفقه " غزل الولائد" ، ولكن هذا الغزل

قلما كان بمستوى عال أو بمستوى سد كافة الحاجات، ولذلك كان في البلدان التي يتسع فيها الطلب غزالون لهم مكان خاص أو سوق يعملون فيه.

وللحاكة أدوات خاصة ذكرت كتب اللغة كثيرا منها ووردت أقوال كثيرة في ذمهم. والنسيج أما غزله طاق واحد ويسمى سحيلاً ، أو مفتول طاقين يسمى مبرماً وقد ينسج على نيرين ومشبرق.

## مراكز النسيج :

كان في بلاد العرب عدد من البلدان عرفت بالنسيج وزادت منتوجاته فيها عن حاجة أهله فكانت تصدر الفائض من نسيجها المنوعة سماته، وأبرز أماكن النسيج متنوعة في اليمن التي اشتهرت بالحلل والبرود والمطارف والحبرة والعصب. وسمي بعضها بأسماء أماكنها لعلها كانت مراكز صناعتها ومنها الجندية والمعاقرية والصبرية والسحولية والجيشانية والتزيدية والحميرية والعدنية والحضرمية الخضراء.

واشتهرت مناطق في شرقي الجزيرة العربية بما تصدره من منسوجات ومنها هجر التي تصدر البز، وقطر تصدر الأرز والبرود الحمراء، وصحار، وعمان.

وكان العراق ينتج البز والخز الموشى، وذكرت من مصنوعات مدنه الكوفية والبصرية والميسانية والنرسية والكسكرية والموصلية والواسطية والزطية وطنافس الحيرة. وكانت الشام تصدر الغوط.

أما مصر فقد اشتهرت بمنسوجات الكتان ومن أنواعها القبطية والاشموئية والشطوية والقسية والقرقبية، وتنيس ودمياط، واشتهرت في الأهواز تستر، والسوس وسوسنجرد وبصنا.

ذكرت مصادر القرن الثالث منسوجات منسوبة إلى مدن في الهضبة الإيرانية ولعلها ترجع إلى العهود الإسلامية الأولى. ومما ذكرته خز شيراز وديباجها، وإبريسم نسا وسابور، وقطن يزد ودارا بجرد، وذكرت أن أهل بم عامتهم حاكة.

وذكرت المصادر مصنوعات صوفية من بلاد أرمينية ومنها الكردية، وزلالي قاليقلا وصوف أرمينية. ومن مراكز النسيج في الهضبة الإيرانية أصبهان والري ونيسابور وقزوين والدامغان وطبرستان.

واشتهرت خراسان بالمنسوجات القطنية ومن مراكزها نيسابور ومرو وهراة ونسا وأبيورد، فضلاً عن سمرقند والطالقان في ما وراء النهر.

## الجلود :

تصنع بعض الألبسة وتسمى الغراء من جلود عدد من الحيوانات بما فيها الأغنام والبقر والإبل والأرانب والدببة وحيوانات تعيش في المناطق الباردة.

وتصنع من الجلد النعال والخفاف، واشتهرت منها في الحجاز أنواع كانت تصنع في اليمن منها اليمانية والحضرمية والسحولية.

وتصنع من الجلد الأنطاع وبعض القباب والأحزمة وحمائل السيوف، وبيوت السكاكين والخناجر وتصنع من جلود البقر والإبل التروس واليلب والجحاف وبعض الدروع.

ويصنع من الجلد الأديم الرقيق وغالب لونه الأحمر، ويستعمل للكتابة. ويصنع من جلد الماعز القرب والزقاق.

وترتبط صناعة الجلود بالدباغة وقد اشتهرت بها من جزيرة العرب الطائف وصعدة، ولا بد إنها كانت قائمة في عدد من المراكز الأخرى في شبه جزيرة العرب والبلاد الأخرى من أقاليم الدولة.

## الصناعات المعدنية :

المعادن أهم ما تعتمد عليه الصناعة، وتوجد موادها الأولية مدفونة في الأرض، ويتطلب جعلها صالحة للصناعة استخراجها ومعالجتها.

كانت بلاد الدولة الإسلامية غنية بأنواع كثيرة من المعادن منبثة في ارجائها وتسد معظم حاجات الناس، ولكن كان يعوزها بعض مما يتم توفيره باستيراده من البلاد الأخرى، ولاسيما من بلاد الهند وما حول المحيط الهندي حيث يستورد منها الفولاذ وبعض السيوف والآلات القاطعة والأحجار الكريمة. وأهم المعادن من حيث شيوع استعمالها هو الذهب والفضة والحديد يتلوها معادن أخرى من النحاس والقصدير وما يستعمل من الزينة والحلي.

## الذهب والفضة :

وللذهب والفضة مكانة خاصة لأن استعمالهما لا يقتصر على الزينة، وإنما يمتد إلى النقود المسكوكة مما له أهمية متميزة في الحياة الاقتصادية.

كان الذهب معدن الدينار وهو العملة الأساسية عند البيزنطيين ثم في الأقاليم التي ورثها العرب منهم وهي بلاد الشام ومصر، كما كان في الحجاز، وهو أساس التعامل في التجارة مع بلاد المحيط الهندي والشرق الأقصى، ولما كون العرب دولتهم أباحوا تصديره إلى أقاليم المشرق.

أما الفضة فكانت معدن الدرهم المستعمل في إقليم المشرق. وكان في العهود الساسانية حوالي ستين مركزا للسك أبقاها العرب قبل تعريب النقود سنة (74 هـ/693م) [ البلاذري "1978" 453 ] وأبقوا العاملين فيها، ويبدو أنهم كانت عليهم رقابة شديدة. فاحتفظ الدرهم بنقاوة معدنه وأشكاله. ويبدو أن العرب أبقوهم بعد التعريب في عملهم، وشددوا عليهم الرقابة في اتقان عملهم. وللناس حق سك ما لديهم [البلاذري "1978" 55 ] من المعادن بأجرة غير عالية.

وبجانب الدينار والدرهم كانت الفلوس من النحاس، وأثمانها رخيصة، وسكها غير متقن. كان الاعتماد عند ظهور الإسلام على ما يستورد من المسكوكات، ثم قام على ما يسك في بلاد الأسلام من مناجم اليمن والجزيرة، ويقوم بالسك في العراق وبلدان المشرق أفراد

تشرف الدولة على عملهم، ثم قامت بعد تعريب النقود بسكها في مؤسساتها.

توافرت في البلاد الإسلامية مناجم متعددة، يرجع استغلال كثير منها إلى عهود سابقة للإسلام واستمر استغلالها بعد الإسلام، وكثير منها كان مناجم كبيرة وغنية.

ففي شبه جزيرة العرب عرفت عند ظهور الإسلام مناجم في المناطق الغربية منها معدن فران، والفرع والقلعة ومعدن بني سليم. وفي اليمن مناجم في بيشة معطان، وبين صعده ونجران، وفي عقيق عقيل وأطراف صنعاء، والرضراض وعقيق نمره في الدواسر. وفي أواسط نجد معدن أبرق خترب عند وادي الرمة، وماوان عند الربذة، والأحسن بين ضرية والربذة، والعيصان وشمام وقساس والنميرة في بلاد نمير وفي ناضحة باليمامة، وفي الفلاحي في ديار بني حنيفة، وفي البقرة عند جبل ظلم.

وكانت مناجم الذهب في اليمن في عقيق عقيل أو عقيق جرم وهو أغزرها، وفي عقيق النمرة، وعند سبأ، وخلب ديار خولان، وفي القفاعة عند صعدة، وفي جبل نقم المطل على صنعاء.

وكانت الفضة في مناجم الرضراض لا نظير لها ثم أخربت في أواخر القرن الثالث. وكانت الفضة عند النقرة، وفي العوسج عند الجريب، وفي جبل الشرق جنوب غربي صنعاء . [ الهمداني "1987" مادة فضة ] وفي بلاد دولة الإسلام كانت أكبر مناجم الذهب في العلاقي في السودان وفي جنوب مصر عند اسوان ومنه في المشرق عند اشروسنة وإيلاق وهراة، وعند سمرقند وكانت أكبر مناجم الفضة في المشرق في الوخم والبدخشان وبنجهير شرقي بلخ، وترتبط بالمعادن صناعات من أولها استخراجها من مناجمها القريبة من سطح الأرض أو الغائرة في أعماقها، ويقوم بها المعدنون ممن يتطلب عملهم جهدا بدنيا كبيرا مع بعض المهارة في كشفها ونقلها وتصفية ما يعلق بها بسطحها من شوائب، وتصفيتها بالغسل أو بالنار ثم نقلها إلى أماكن صناعتها، وربما استخدم فيها عمال مأجورون من العرب والموالي والعبيد .

والراجح أن أكثر المعدِّنين من أهل المنطقة التي يظهر فيها المعدن، وبهذا يكون مستغلو معدن بني سليم من تلك العشيرة، ولعل مهارتهم في ذلك كانت سبب انتقالهم إلى الغرب بعد استهلاك تلك المناجم وإلى العلاقي في السودان حيث تكثر مناجم الذهب.

ولعل عددا من مناجم اليمن حول الرضراض كان يعمل فيها "الأبناء" من الفرس الذين كانت أبرز مساكنهم في صنعاء.

وذكر الهمداني أن معدن شمام في أطراف اليمامة كان يعمل فيه ألفان من المجوس الفرس ولهم فيه معبد نار . [ "1989" 274 ] ولعل مناجم أخرى كان معدنوها اعاجم نقلوا إليها أو عبيدا استخدمهم فيها أصحاب المناجم من العرب ومن اليهود الذين يكثر سكناهم في مناطق قرب المناجم.

كان العرب يعملون في بعض هذه المناجم ومنهم رجال من بلي كانت ديارهم الأولى في شمال الحجاز وكانوا يعملون في معدن فران الذي ذكر في التوراة، ولعلهم كانوا يعملون في معادن مدين التي زودت سليمان بالذهب. ثم هاجر أعداد منهم إلى المدينة واستوطنوها ، ولعل اختيارهم المدينة راجع الى ما كان قربها من مناجم.

وذكرت المصادر أن بني سليم انتقلوا في القرن الرابع إلى بلاد البجة في السودان حيث تتوافر مناجم الذهب ولعل ذلك راجع إلى ممارستهم التعدين في بلادهم الأولى وأن هجرتهم حدثت بعد استتراف مناجمها.

ويلاحظ أن الأبناء هم جنية فارسية بعثها انوشر وان لإسناد سيف بن ذي يزن في طرد الاحباش، وظلوا مقيمين في صنعاء قرب الرضراض وكانوا يزودون الفرس ثم المسلمين بالفضة التي هي أساس عملتهم، ويلاحظ أن دمار هذا المعدن تزامن مع تناقص الدرهم الفضي في العراق وحل محله الدينار الذهبي، وأن هؤلاء الأبناء لم يكونوا مقاتلة وإنما عمال وتجار. ولعل لليهود صلة بمعادن الذهب بالجزيرة فكان يعمل في عقيق عقيل مائتا يهودي ، [ الهمداني "1989" 229 ] وكان في الدوادم عند معدن العيصان عدد من اليهود.

وكان بنو قينقاع وعدد رجالهم ستمائة صياغا، وكان في زهرة ثلاثمائة صائغ ، كما كان في اليمن عدد من اليهود لعل لهم صلة بهذه المعادن في تجارتها وصناعتها إن لم يعملوا في استخراج معادنها.

ويتصل بصناعات الذهب والفضة الصياغة وتنقية هذه المعادن وإعادة صنعها لتكون صالحة للزينة، وكان في المدينة عند ظهور الإسلام من صياغ قينقاع ستمائة ، أقصاهم الرسول ﷺ، وكان في زهرة وأهلها من اليهود ثلاثمائة صائغ لم يقصهم الرسول (صلى الله عليه وسلم ). ولعلهم ظلوا يمارسون عملهم بعد الإسلام.

لم يرد ذكر سوق الصاغة في المدينة أو مكة او أي من الأمصار الإسلامية الأخرى بما في ذلك بغداد. وذكرت في مكة دار الصيارفة عند الصفا في دار كانت للعباس بن محمد بن عبد الله بن العباس ، [ الازرقي "1979" 260/1، 257/2، 260 ] ولا نعلم مكانهم قبل ذلك، وذكر الصيارفة ببغداد، ولم يذكر لهم مكان في أي من الأمصار الأخرى، علما بأن الصيرفة مهنة وليست صنعة.

### الحديد :

للحديد أهمية كبيرة في الصناعات لاسيما الآت القتال والاستعمالات في الحياة الحضرية وبعض مناجمه في جزيرة العرب ومنها تياس في بني أسد، وذمار بغرب صنعاء، وفي بلاد الشام وأرمينية. وقد أفاضت الكتب المعنية بالمعادن الكلام عليه وذكرت أن منه نوعين هما النرماهن اللين الطرق والشابرقان الصلب. ومن خصائصه الصلابة وسرعة التأكسد.

والحديد مادة عدد من المصنوعات الأساسية في الحياة الحضرية بما فيها الأقفال والمفاتيح والسكاكين والمقارض، ولكن الأكثر استعماله في الآلات الحربية بما فيها السيوف والدروع وسنان الرماح. فأما الدروع فكانت إما سابغة من ألواح أو مزرده من حلق متشابك فتكون مرنة تتكيف مع الجسم.

والسيوف أكثر ما تصنع من الحديد، وهي أهم الأسلحة وأكثرها شيوعا في الناس وفي تجهيزات المقاتلة.

تردد في المصادر ذكر أنواع من السيوف استعملها العرب في الجاهلية وصدر الإسلام وسمي أكثرها بأسماء بلاد لعل كلا منها كان مركزا لصناعة متميزة فيها، ومنها اليماني والمشرقي والحنيفي والمهند وكلها مما استعمله العرب وربما في جيوش دول الجزيرة وخارجها، ولابد أن العرب استعملوها إبان مشاركتهم في الفتوح وبعدها. إذ لم يرد ذكر لتجهيز الدولة المقاتلة بالسيوف في العهود الإسلامية الأولى.

وذكر الرشيدي أنه كانت في خزانة السلاح لأبي العباس السفاح عشرون ألف درع وثلاثون ألف جوشن ومائة ألف زج. وكان في خزانة الأمين عشرة آلاف مخلاة وخمسون ألف سيف وألف درع وعشرون ألف بيضة وعشرون ألف جوشن.

ولا بد أن الخلفاء الأمويين كانت لهم مثل هذه الخزائن.

ذكر الكندي مراكز صنع السيوف في الكوفة والبصرة في أول الإسلام، وذكر أن الكوفية كانت تسمى الزيدية باسم أول صانعيها، وأن السيوف البصرية محدثة ، وذكر السيوف البغدادية . [ "د.ت" 30-33].

ولعل صناع السيوف كانوا يصنعون كذلك الآلات القاطعة بما فيها الخناجر والسكاكين والمقاريض، وكان صناعها يدعون " القيون" وصناعها من العرب، ولعل منهم عدداً من العبيد والأعاجم.

ومما يصنع من الحديد الدروع وهي أنواع منها السابغة التي تصنع من الحلق والزرد، ومنها ما كانت تصنع ألواحا. وكانت بعض الدروع تصنع من الجلود.

ذكر الجاحظ في كتابه " التبصر بالتجارة" بلادا يستورد منها المسلمون السلاح ومنها دنباوند يستورد منها النصال، وما وراء النهر يستورد منها السلاح، والخزر تصدر الدروع والمغافر، واليمن منها الدروع والسيوف، وأفريقية منها السلاح . ["1935" 40-42 ]

استوردت البلاد الإسلامية الحديد من خارجها فكانت الخسروانية تطبع بفارس وحديدها من سرنديب للسلاح، وكانت الهند وسرنديب من أكبر مصدري السلاح، فأما الهند فان البيروني يقول " لا توجد أمة أبصر بأنواع السيوف من الهند ". [ "1355هـ" 254 ]

ومن أبرز السيوف الهندية المسماة القارن، وهو

أحد أقسام العتيقة الثلاثة، وجوهرها شبيه باليمانية، وذكر ابن المجاور ان الهندية أحد أنواع السيوف الثلاثة، وباستثناء النوعين الآخرين وهما الصنعانية والفرنجية.

أما السرنديبية فتطبع في سرنديب وخراسان واليمن والمنصورة وفيما وراء النهر . [ ابن المجاور "1951" 28-29 ] وكانت السيوف الخسروانية حديدها من سرنديب وتطبع بفارس ومن السيوف البيلمانية نسبة إلى بيلمان على الحدود ما بين السند والهند، ولعلها التي ذكر الكندي اسمها " السليمانية تحريفا حيث قال ان النرماهن تصنع منه سيوف تروم والشراة والفرنجية. [الكندي "د.ت" 11،10 ]

وذكر القلعي وهو أحد أنواع العتق الثلاثة ، والأخرى اليماني والهندي. وذكر ابن القصية السوفافي ميناك . وذكرت سيوف تصنع في كابل. [ ابن حوقل "1979" 328 ]

الرماح :

ومما استورده المسلمون الخيزران للرماح، وكان يستورد من الهند ويصنع أغلبه في بلدان الخليج التي اشتهرت منذ القدم بالرماح الخطية والسمهرية والردينية، ولا بد أنها تابعت صناعتها بعد الإسلام معتمدة على ما تستورده من موادها الأولية، وهي من الأسلحة الأساسية التي يجهز بها المقاتلة لنفسهم لأن الدولة في صدر الإسلام لم تجهز بها مقاتلتهم. علما بأن في المصادر إشارات إلى أسلحة ورماح كانت في مخازن الخلفاء.

### النحاس وادوات الزينة :

كان النحاس من المعادن المستعملة لأدوات الطبخ وصناعات أخرى، ومناجمه في التاريخ القديم في سيناء وعمان، وفي العهود الإسلامية ذكرت مناجمه في جيلان وأذربيجان، وفي فارس وكرمان وسجستان وفارس وهراة، وفي خوارزم وبخارى وأشروسنة وفرغانة وسمرقند وخوارزم.

واستعمل الرصاص في شد حجارة البناء، وربما في اكساء الاقنية ، وتصنع من المعادن كثير من أدوات الزينة بما في ذلك القلائد والأساور والمحابس والحجول، وكان يستعملها مختلف الفئات و من ضمنهم العامة والعلية. وكان أكثرها يصنع من الجزع والعقيق اللذين كانت اليمن أكبر مصدر لهما، ومن المرجان واللؤلؤ الذي يجلب من بلاد الخليج. وكان يستخدم في الزينة الفيروزج وأكبر مناجمه قرب نيسابور ، والماس. ويتطلب إعدادها للاستعمال دربة خاصة يقوم بها الصاغة.

ومن مواد الزينة الجزع وأكثره من اليمن. وله أنواع مسماة بأماكن وجودها وأكثرها قرب صنعاء ومنها العشاري، وهو سماوي وأبيض، والسعواني والنقي والبقراني وأغلاه المثلث وهو أن يكون وجهه أحمر فوق أبيض فوق أسود. ويوجد كذلك في مخلاف خولان وجبل شهاره غرب بلد همدان وظفار.

وكانت مناجم العقيق في الهان ومخلاف المنار وهو مخلاف البقراني، وفي جزيرة العرب

عدد من المعادن لا بد أنها صنعت منها الزمرد بخيبر ووادي القرى ، والدهنج وهو نوع من الفيروزج ويستخرج من حرة سليم ومن كرمان وكانت بلاد شواطئ الخليج تنتج اللؤلؤ ، والحجر الجرف الأسود والأخضر الذي يعمل منه نصب السكاكين.وكان البلور يؤخذ من سراة عدوان. ويؤخذ الطين الذي تعمل منه بواتق سبك الحديد من جبل البشر، والبورق من حمرة النار، والشب من الجير الأصفر غرب المدينة.

ويصنع الزجاج الفرعوني، وهو الزجاج العراقي القديم النقي الصافي في البصرة ، وتجلب مادته اليها من جزر الزنج والدبيج من شرق أفريقية. [البيروني "1355هـ" 189،184 ]

## الصناع وتنظيماهم :

كانت في بلاد الدولة الإسلامية منذ أول تأسيسها صناعات لمختلف السلع، وهي تتباين في حجمها تبعا لحاجات السكان التي تتزايد بتقدم الحضارة والإزدهار الاقتصادي، وقد تفيض عن الحاجات المحلية فتصدر إلى البلاد التي تحتاج إليها. وللمراكز الواقعة على المسالك العامة أهمية خاصة من حيث أنها تسهم في نقل الصناعات التي ينمو فيها ما تحتاج إليه القوافل. ولا بد أن هذه المراكز تعرضت بعد الإسلام إلى تطورات وتبدلات تبعا لما حدث في الأحوال العامة. وكانت منذ الأزمنة المبكرة لتأسيسها فيها عدد من المراكز الصناعية التي تنتج ما يفيض عن حاجة أهلها فتصدر الفائض من منتوجاتها إلى البلاد الأخرى وقد أشارت المصادر إلى عدد من المراكز الصناعية التي تنتج ما يفيض عن الحاجات المحلية لأهلها. فكان في كل من هجر وصحار وعمان مركز لمثل هذه الصناعات ولصناعة السفن ومتطلبات الملاحة وصناعات بعض الأسلحة كالرماح وبعض السيوف. وكانت في اليمن مراكز متعددة يتميز كل منها بسمات خاصة به مما يشير إلى أن كلاً منها يتبع أساليب خاصة وتقاليد احتفظ بها، وكان إنتاجها واسعا يفيض عن الحاجات المحلية لإهلها فيصدر إلى البلاد الأخرى. ولها مصانع كبيرة وقامت في اليمن كذلك مصانع للدباغة والجلود بما فيها الآدم والرقوق للكتابة، والنعال المنوعة. وكان مما وصف به أهلها أنهم كانوا بين ناسج برد ودابغ جلد وسائس قرد [ ياقوت الحموي "1866" 1036/4 ] وهذا يشير إلى سعة انتشار الحياكة والدباغة فيهم.

كل هذا يشير إلى العدد الكبير ممن يعمل في هذه الصناعات التي تقوم على " الإنتاج الواسع " وليس على أعمال أفراد متفرقين. ولابد أن ممن يعمل على هذه الصناعات هم "صناع" ذوو خبرة من أهل بلاد العرب، ولا يمنع هذا استخدام عدد قليل من الأغراب الأحرار والعبيد في العمل ببعض متطلبات الصناعة.

احتفظ الأعاجم بخبراتهم في الصناعة والتجارة وكان عددهم أوسع في أعمال "السوق" في المبايعات والتجارة لأنها لا تتطلب خبرة كما أنها تيسر فرصا أكبر للغش والخداع

مما كان مبعث الأقوال التي رويت في ذم أهل السوق ووصمهم بأنهم " سوقه" يختلفون في السوق من أهل قريش والمسلمين الأولين.

ولعل أعدادا من الصناع كانوا عربا هاجروا من البلاد التي عرفت فيها صناعاتهم إلى الأمصار لمتابعة عملهم، ومنها صناعة الوشي والعطور في الكوفة معتمدة على المهاجرين إليها من اليمن، وكان باعة العطور في المدينة من العرب من حضرموت.

لابد أن الأعاجم الذين هاجروا إلى الأمصار العربية احتفظوا بلغاتهم وتقاليدهم الخاصة التي ميزتهم من العرب، وأن عددا منهم احتفظ بدينه وعقائده السابقة، ولعلهم احتفظوا بتكتل في أماكن السكن، وتابعوا ارتباطهم بمنظماتهم الدينية، وكانوا قلة، إذ لم تعرف لهم منظمات واسعة في الأمصار العربية.

وأقبل عدد من الأعاجم في الأمصار على اعتناق الإسلام لتميز مبادئه بالبساطة والوضوح وملاءمته لحياة الحاضرة، ولأنه يضيق الفروق بينهم وبين العرب ذوي المكانة العليا ويؤمن لهم حماية من يسلمون على يده، وحماية الدولة. واتقن عدد منهم العربية وأقبلت أعداد كبيرة منهم على دراسة العلوم الإسلامية بروح التقدير لها مما هو خارج عن نطاق بحثنا.

## الأمصار وأهل الحرف :

لما أتم عمر بن الخطاب ﷺ فتح العراق وبلاد الشام ومصر أمر بتشييد مراكز يقيم فيها المقاتلة العرب والولاة إقامة دائمة ، وسميت الأمصار وهي البصرة والكوفة في العراق والفسطاط بمصر وأدخل فيها المدينة في الحجاز. وكانت هذه الأمصار تشترك بمميزات منها أن كافة أهلها تقريبا من العرب المقاتلة ينتمون إلى عدة قبائل ممن هاجرت من الجزيرة، وانضمت طوعا إلى الجيوش الإسلامية، وقاموا بالفتوح وتوسيع الدولة وصيانة حدودها، وتثبيت الأمن والاستقرار فيها، وكان النظام القبلي أبرز سماتها إذ قسمت مساكن أهلها خططا لكل عشيرة يتقاسمها أفرادها. وللعشائر مقابر مشتركة ومساجد مما يبنونها جماعة أو أفراداً. ولكل عشيرة عريف يعينه الولاة يشرف على استتباب الأمن فيها وتوزيع العطاء على أفرادها وتبليغ أوامر أصحاب السلطة.

وكان يوزع على كافة أهلها عطاء سنوي بالنقود يتراوح بين مائتي درهم وهو الحد الأدنى لمتطلبات الحياة، وألفين وخمسمائة درهم وهو يكفي لمعيشة رافهة دون الغنى، ويوزع على الأفراد إضافة رزق عيني شهري يسد الحاجات المعاشية. وتسد هذه النفقات من موارد جباية الأقاليم التي فتحها مقاتلة ذلك البلد ، ويطلب من المقاتلة مقابل ذلك المشاركة في تعزيز الحدود مرة كل ثلاث سنوات وفي الحملات الطارئة وإخماد الثورات.

كانت إدارة الأمصار مكيفة وبسيطة، فالوالي يمثل الخلافة وهي ذات السلطان الأعلى، وسلطة الوالي لا يعلى عليها وهي فوق سلطة العشائر وشيوخها والمتنفذين فيها، والأبنية العامة

محدودة مقصورة على الجامع وبيت وإلى المصر وبلصقه بيت المال والدواوين وساحة واسعة تحيطها، وليس في شوارعها أقواس أو زخارف. ولم يراع في تنظيمها الأسس العسكرية فلم يقسمها إلى خطط الرجالة والفرسان وأهل الخدمات العسكرية الأخرى، ولم تخصص رقعة لتدريب الجند وعرضهم.

وقد يسَّر العطاء ووقت الفراغ الطويل للمقاتلة متابعة اهتماماتهم في الفكر والآداب والشعر، وأصبحت هذه الأمصار المراكز الرئيسة للحركة الفكرية.

لم يعمد العرب المقاتلة وهم جل أهل الأمصار إلى الاندفاع في جمع الثروات أو حياة البذخ والترف، ولكن الثروة التي انصبت على الأمصار من الجبايات، وارتفاع دخل الفرد من العطاء قاد إلى نمو تدريجي متتابع في الحياة المادية.

وضمن العطاء والرزق للمقاتلة العرب في الأمصار موردا يسد حاجاتهم المعاشية فلم ينغمروا في العلم أو في التجارة أو الصناعة، ما عدا عدد محدود فضل العمل بالتجارة والسوق والعيش على مواردها دون العطاء، وقد اقتصر ذلك على الأمصار وحدها ولم يعم كافة العرب، وأضعف توزيع العطاء على العرب مشاركتهم في التجارة والصناعة مما يسر للأعاجم القيام بها في هذه الأمصار. وكان عدد منهم من أسرى الحروب أو من الرقيق يعملون لسيدهم فيرتبطون به في العمل وفي التبعية ويكونون معه شبه نقابة، إلا أنها لم تتخذ كيانا رسميا كالذي صارت إليه الأصناف من الحرفيين في الأزمنة التالية.

كان أكثر الصناع من الأعاجم الأحرار الذين هاجروا إلى الأمصار لحاجة أهلها للعمل أو بدافع شخصي وصاروا قوام أهل السوق والصناعة، وأبيح لهم العمل في السوق والصناعة، وعمل عدد من الأرقاء في الصناعات لقاء مبلغ من المال يدفعونه لمواليهم وقد يتحررون بعد ذلك . وذكرت المصادر مبالغ كبيرة دفعها بعضهم لأسياده مما يدل على مدى الأرباح الكبيرة التي كانوا يجنونها، ولعل منها المكاتبات الضخمة التي ذكرت المصادر إنهم دفعوها لأسيادهم، ولا بد أن أرباح كثير منهم من التجارات، وربما بعضها من الصناعات التي يحتاج إليها المجتمع مما لم تشر إليه المصادر. وكانت هذه الأحوال قائمة في الأمصار ولم تعم كثيرا في المراكز الحضرية الأخرى.

## السوق مكان العمل :

لم يكن لأصحاب الحرف والصناعات مكان محدد لعملهم، فكان بعضهم يعمل في بيته أو أي محل يختاره، وكان بعضهم يقيم في دور خاصة. ففي الكوفة كان أصحاب الأنماط في دار ابن حكم وأصحاب الخز في دار عمرو بن حريث، وفي دار الوليد القصارون وبقربهم السراجون ثم الرفاؤون. وكان الحدادون في رحبة حذاء المسجد الجامع.

وفي البصرة اشترى عبد الله بن عامر دورا هدمها وشيد فيها سوقا وكان العطارون

في دار عون ، والدباغون في المربد والطحانون على نهر الأرحاء ، وكانت للقصابين رحبة وكان في الكلاء دار الزبير يترلها البحريون ولها بابان ينفذ أحدها إلى الخلالين والآخر إلى أصحاب السقط، وبقربها الذباحون.

وفي الفسطاط لم تذكر أسواق كثيرة، وإنما ذكر ابن عبد الحكم قيصريات وهي أسواق مسقفة لوقايتها من الأمطار في الشتاء والشمس في الصيف، ولكل منها عدة أبواب ويشعر اسمها بانها كانت كالتي تسمى في بلاد الروم (الباسيليكا )، ولعل عددا منها كان في بلاد أخرى و لم يرد ذكر لوجود الخانة في أي مكان.

أسواق المدينة ومكة

تتوافر عن أسواق المدينة ومكة عند ظهور الإسلام معلومات تفوق ما لغيرها من البلدان. فأما المدينة فإن ابن شبة ذكر أنه كان فيها عند الهجرة ستة أسواق سوق بزبالة، وسوق بيثرب، وسوق في بني قينقاع، وبالصفا صف بالعصبة سوق، وسوق يقوم في زقاق لابن حبين كانت تقوم في الجاهلية وأول الإسلام . والأسواق الثلاثة الأولى في شمالي المدينة، وهي سوق قينقاع في مناطق سكن اليهود. ولعل كافة هذه الأسواق كانت تبيع السلع المستوردة والمصنعة في المدينة. و لم يرد ذكر سوق في زهرة التي كانت في الأطراف الشرقية من المدينة وفيها قبل الإسلام ثلاثمائة صانع.

وذكر ابن شبة أن الرسول (صلى الله عليه وسلم ) جعل في بقيع الغرقد سوقا ، [ "1996" 206] ولعله لم يبطل الأسواق السابقة وإنما أضاف إليها سوقا في بقيع الغرقد قرب منازل المهاجرين ولابد أن السوق التي وضعها النبي (صلى الله عليه وسلم )كانت كالأسواق التي قبلها في ساحة مكشوفة تعرض فيها مختلف أنواع السلع المصنعة في المدينة والمستوردة إليها. و لم تكن فيها أبنية ثابتة وقد ازداد النشاط فيها منذ زمن الرسول (صلى الله عليه وسلم ) بفضل نشاط المهاجرين خاصة في أعمال التجارة ثم تطورت هذه الأسواق وظهر منها ما يختص بالحرف والصناعات ، ذكر منها سوق لكل من القداحين والصفارين عند دار النعمان بن عدي والحكاكين والجلادين وباعة الجلود أو صناعها والخبازين . وذكرت أسواق للباعة من التمارين والحطابين والجزارين وأصحاب الفاكهة وكلهم باعة وليسوا صناعا.

وفي مكة ذكر الأزرقي أسواقا تتصل بالصناعة منها الحدادون والحذاؤون والعطارون والبانون والغزالون والبرامون والنجارون، كما ذكر سوقا للبقالين وأصحاب الخلقان والعلافين والصيارفة والحمارين وأصحاب البيرق والجزارين، وذكر سوق الليل والسوق الصغير .[ "1979"75/2 90، 91، 98 ]

و لم تذكر المصادر سعة أي سوق أو من كان يعمل فيها ومتى ظهرت ومدى نموها. ولا بد أن كلا من هذه الأسواق شملت حوانيت لبيع سلعة واحدة تسمى عادة باسمها ، أو قد يضم حوانيت لبيع اكثر من سلعة تتجمع في أمكنة

متقاربة وتكون سوقا فرعية للسوق الأكبر الذي كثيرا ما يكون شارعا عريضا تتوزع الحوانيت على جانبيه أو في دروب منها ويكون عدد هذه الحوانيت وحجمها متباينا تبعا لرواج السلعة والعاملين في بيعها.لا يتبع تنظيم توزيع حوانيت المبيعات في الأسواق قواعد عامة ثابتة، وإنما يكون أصحاب الحرف المضرة بالصحة والمؤذية للبشر كالجزارين والحدادين والصفارين في أماكن نائية عن غيرهم تجنبا لأضرارها.

عني الخليفة هشام بن عبد الملك بإنشاء أسواق في عدد من الأمصار العربية ففي المدينة أمر بتشييد سوق ضخمة ليرضى عنها أهل المدينة فلما توفي هدموها. وفي الكوفة شيد واليه خالد القسري حوانيت جعل سقوفها أزاجا معقودة بالجص والآجر وفي البصرة احتفر بلال بن أبي بردة والى هشام نهر بلال وجعل على جنبتيه السوق التي نقلها إليه ، وجعل ذلك ليزيد بن خالد القسري. وكان عبد الله بن عامر قد اشترى دورا هدمها وجعلها سوقا في البصرة وشيد هشام بن عبد الملك في الفسطاط قيساريته التي تعرف بقيساريه هشام يباع فيها البزّ الفسطاطي في الفضاء بين القصر والبحر وكان عبد العزيز بن مروان قد سبقه في بناء القيساريات ( قيسارية العسل ، وقيسارية الحبل، وقيسارية الكباش ) . [ ابن عبد الحكم "1920" 136 ]

إن وجود سوق لأية سلعة دليل على حاجة أهل البلد إليها ورواجها سواء كانت مصنعة فيها أو مستوردة لها والغالب أن حوانيت أصحاب الحرفة الواحدة تتقارب وقد يقوم في البلد الواحد أكثر من سوق لحرفة واحدة في المكان فتكون السوق الأكبر، وهو عادة شارع عريض تقوم فيه أو تتفرع منه أسواق لأصحاب الحرف، ويتسم السوق الأكبر بسمات خاصة تميزه في المكان وممن يشغله ويسمون " أهل السوق" مقابل خطط العرب التي محورها المساجد. ويروى أن شريحاً القاضي كان يشهد على سوء التصرف في المساجد من كان عربيا وفي السوق من كان من أهله. ولعل هذا التميز كان قائما في الأمصار العربية الأخرى.

وكانت الخياطة والحجامة يعمل فيها الأعاجم ويحتقر العرب المغالون في التعالي على العجم في المدينة من يمتهنها . ولم تذكر حرفة استخف بأهلها إلا الحياكة.

وينطبق كثير مما ذكرناه على صناعات البلاد الأخرى في دولة الإسلام التي وفرت الحرية للصناع في عملهم وتنقلهم وأباحت لهم العمل على وفق تقاليدهم، وفي هذا قال شريح القاضي لجماعة من الغزاليين انضموا إليه اذا كانت بينكم سنة أعجمية فسنتكم بينكم . [ ابن سعد "1905" 94/6 ] ولعل هذا الحكم لم يقتصر على الغزالين وإنما امتد إلى عدد من أصحاب الحرف والصناعات الأخرى، ولعل هذا الحكم يسري عليه نص البلاذري (قال أبو يوسف إذا كانت في البلاد سنة أعجمية قديمة لم يغيرها

الإسلام و لم يبطلها فشكاها قوم إلى الإمام لما نالهم من مضرتها فليس له أن يغيرها. وقال مالك والشافعي يغيرها وان قدمت لأن عليه نفي كل سنة جائرة سنها أحد من المسلمين فضلا عما سن أهل الكفر ) . [ "1978" 453 ] وهذا يدخل في "العرف" الذي أباحه الفقهاء ، ولعله مما يدخل ضمن ما ذكره القرآن الكريم من وجود الأخذ بالعرف أي السائد بين الناس مما لا يناقض مبادئ الإسلام الأساسية. وأن الأعراف هي ممارسات يقر الناس بسلامتها فيسيرون عليها آماداً غير قصيرة فتستقر وتصبح ثابتة راسخة، وقد تكون منوعة يسود كل نوع عند قوم معينين وينقض ما عند آخرين، وهذا ما أكده فقيه مصر الليث بن سعد في رده على مالك الذي كان لا يرى شرعية ما لم يكن عند أهل المدينة.

ولعل تباين الأعراف المحلية التي أقرها الفقهاء هو أحد مصادر اختلاف الفقهاء ، وأن أحكامها دخلت في أبحاث الفقهاء عن أحكام الخلافات بين أصحاب الحرف والتجار. و لم يرد ذكر في مشاركة أهل السوق وأصحاب الحرف في الفتن والثورات التي حدثت في صدر الإسلام.

ولاة السوق وتدخل الدولة

ذكرت المصادر عددا ممن ولي السوق في صدر الإسلام ، وممن ذكروا الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس بن خلف بن عبد الله بن عدي بن كعب وقد ولاها عمر السوق في المدينة وولى زياد بن أبي سفيان جرير بن بهيس على السوق في البصرة وولي لابن الزبير سعيد بن مينا على سوق مكة ، [ الازرقي "1979" 215/1 ] ولعل آخرين لم تذكرهم المصادر ولوا السوق في الأمصار والاقاليم وغيرها .

و لم تحدد المصادر نطاق عمل العامل على السوق وهل كان مقصورا على فض النزاعات في البيوع أم امتد إلى الإشراف على تصرفات أهل السوق، أم جمع الضرائب على التجارات والمبيعات التي تتم فيه، علما أن الدولة فرضت منذ زمن الخليفة عمر على تجارة الحر العشر وعلى تجارة الأمي نصف العشر وعلى تجارة المسلم ربع العشر وهي تعادل فريضة الزكاة عليه، وولى عمر عشور التجارات في العراق رجالا يقيمون في مداخل المدن ولاسيما عند مداخل الأنهار وينصبون عليها سلسلة تسمى الماصر ويسمى الذي يليها العاشر والضريبة على التجارات تؤثر بصورة غير مباشرة في الصناعات .

وقد ورد أن عاصم الأحول كان في الكوفة على الحسبة في المكاييل والأوزان، وأن محمد بن عبد الرحمن ثم إياس بن معاوية كان على الحسبة في واسط . ثم ذكر في بغداد أول تأسيسها عبد الجبار المحتسب ، و لم تذكر طبيعة عملهم.

ومما ذكرت المصادر مما يتصل بالصناعة والبياعات ، ما رواه الخطيب أن أبا حنيفة أرادوه أن يكون عريفاً على الحاكة [ "1936" 67/3]وأشار وكيع إلى عريف سوق السنانير

وعريف سوق الــدجاج [ "1950" 341/2 ]
وكلا النصين يتعلقان بالكوفة في أوائل الخلافــة
العباسية ولعله أحدث قبل ذلك دون أن تحــدد
المصادر أول نشأته وسياق النص يقضــي أنــه
المشرف عليهم والمنظم لعملهم.

**أ.د. صالح أحمد العلي** (رحمه الله )

## المصادر والمراجع

### المصادر الأولية


القران الكريم

ابن أبي الحديد ، محمد بن هبة الله ، ( ت 656هـ/1258م)

(د.ت) شرح نهج البلاغة ، القاهرة.

الأزرقي ، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن احمد (ت 223هـ /837م )

(1979) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، طبعة رشدي الصالح الأندلس ، بيروت .

ابن الأخوة ، محمد بن محمد بن أحمد (ت 729هـ/1328م)

(1937) معالم القربة في أحكام الحسبه ، تصحيح روبين لوبي ، كمبرج ، (طبعة مكتبة المثنى في أوكسيد ) .

ابن الاصبغ ، عرام السلمى ، ( ت ، القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادي )

(1955) جبال تهامة وسكانها وما ينبت عليها من الأشجار وما فيها من المياه

الأصفهاني ، أحمد بن عبد الله ، أبو نعيم (430هـ/1038م )

(1930) حلية الأولياء ، القاهرة .

الأصفهاني ، علي بن الحسين ، ( ت ، 356هـ/951م )

(1930) كتاب الأغاني ، القاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية .

(1949) مقاتل الطالبيين ، القاهرة ، طبعة محمد صقر .

الأصفهاني ، أبو لغدة ، الحسن بن عبد الله ، (350هـ/961م )

(1968) بلاد العرب ، تحقيق حمد الجاسر ، والدكتور صالح أحمد العلي ، الرياض ،دار اليمامة .

أبن بسام محمد بن أحمد

(1968) نهاية الرتبة في طلب الحسبه ، تحقيق حسام الدين السامرائي ، بغداد ، مطبعة المعارف .

ابن تيمية تقي الدين أحمد بن عبد الحليم (ت 728هـ/1327م)

(1900) الحسبه في الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية ، القاهرة ، مطبعة المؤيد .

ابن أعثم الكوفى ، أبو محمد احمد ، ( ت 314هـ/ 927م )

(1968) كتاب الفتوح ، حيدر اباد ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية .

ابن أنس مالك ، ( ت 179هـ/759م )

(د.ت) المدونة الكبرى ، القاهرة ، مطبعة السعادة .

البلاذرى ، أبو الحسن احمد بن علي ( ت 279 هـ/ 892م )

(1883) أنساب الأشراف ، ليدن ، مطبعة اهليورت .

(1398هـ ) فتوح البلدان ، راجعه وعلق عليه رضوان محمد رضوان ، بيروت ، دار الكتب العلمية .

البيروني ، أبو الريحان ، محمد بن احمد ، ( ت 430 هـ/ 951م )

(1355هـ) الجماهر في معرفة الجواهر ، حيدر اباد ، الدكن ، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية .

الثعالبي ، عبد الملك بن محمد ، ( ت 429هـ/ 1037م )

(1936) فقه اللغة ، القاهرة .

الجاحظ، أبو عثمان ، عمرو بن بحر ، ( ت 255هـ/ 868م )

(1948) البخلاء ، القاهرة ، طبعة طه الحاجرى ، .

(1948) البيان والتبيين ، القاهرة ، طبعة السندوبى .

(1935) التبصر في التجارة ، مصر ، المطبعة الرحمانية .

(1323هـ) الحيوان ، القاهرة ، طبعة محمد سامى .

الحبيشي ، محمد بن عبد الرحمن (ت 782هـ/1380م )

(1308هـ) البركة في فضل السعي والحركة، القاهرة.

ابن حزم الأندلسي ، على بن احمد بن سعيد ، ( ت 456هـ/1063م )

(1962) جمهرة أنساب العرب ، القاهرة ، دار المعارف .

ابن حوقل ، أبو القاسم النصيبى ، (ت 380هـ/990م )

(1979) صورة الأرض ، بيروت ، مكتبة الحياة .

الخطيب البغدادى ، أحمد بن على ، (ت 463هـ/1070م )

(1936) تاريخ بغداد ، القاهرة .

ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، ( ت 808هـ/1405م )

(د.ت) العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني .

ابن سعد ، محمد بن منيع ، (ت 230هـ/844م)

(1905) الطبقات الكبرى ، تحقيق أدوارد سخاو ، ليدن .

ابن سعيد المغربى ، ( ت 685هـ/ 1286م)

(1970) كتاب الجغرافيا ، بيروت .

السمهودى ، أبو الحسن بن عبد الله ، ( ت 911هـ/ 1500م )

(1326هـ) وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، القاهرة ، مطبعة الآداب والمؤيد .

ابن سيده ، على بن إسماعيل ، ( ت 458هـ/ 1065م )

(1316هـ) المخصص ، القاهرة .

السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن ، ( ت 911هـ/1505م )

(1983) تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، بغداد ، مطبعة منير .

ابن شبّه ، عمر بن شبة النميري ، ( ت 262هـ/875م )

(1996) تاريخ المدينة المنورة ، تحقيق على دندل ، بيروت ، دار الكتب العلمية.

الشيزرى ، عبد الرحمن بن نصر ، ( ت 774هـ/1372م )

( 1964) نهاية الرتبة في طلبا الحسبة ، نشره السيد الباز العريني ، القاهرة .

الطبرى ، محمد بن جرير ، ( ت310هـ/922م )

(1879) تاريخ الرسل والملوك ، ليدن ، طبعة دى غوية ،.

ابن عبد الحكم ، أبو القاسم ، عبد الحمن بن عبد الله ، ( ت 328هـ/939م )

(1920) فتوح مصر وأخبارها ، ليدن ، طبعة ليدن ، .

الغزولي ، علاء الدين علي بن عبد الله ( ت 815هـ/1412م)

(1881-1882) مطالع البدور في منازل السرور ، القاهرة ، مطبعة الوطن .

ابن الفقيه الهمدانى ، أبو بكر ، أحمد بن محمد ، (ت 290هـ/ 902م )

(1320هـ) مختصر كتاب البلدان ، ليدن ، مطبعة بريل .

ابن قتيبة الدينوري ، عبد الله بن مسلم ، ( ت 276هـ/889م )

(1966) الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة ، دار المعارف .

(1930) عيون الأخبار ، القاهرة ، دار الكتب المصرية .

(1934) المعارف ، طبعة إسماعيل الصاوى ، القاهرة.

قدامة بن جعفر ، ( ت 310هـ/922م )

(1984) الخراج وصناعة الكتابة ، تحيق محمد حسين الزبيدى ، بغداد.

القرشي ، محمد بن محمد بن احمد ، ( ت 729هـ/1328م )

(1938) معالم القربة في أحكام الحسبة ، ليدن.

الكندي ، يعقوب بن اسحق ، ( ت حوالي 260هـ/873م )

(د.ت) رسالة السيوف ، مصورة من الأستاذ فالزر .

الماوردى ، أبو الحسن ، على بن محمد ، ( ت 450هـ/1058م )

(1966) الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، القاهرة ، مطبعة مصطفى البابى .

المبرد ، محمد بن يزيد ، ( ت 285هـ/ 898م )

(1847) الكامل في اللغة والأدب ، تحقيق رايت ، ليبزك .

ابن المجاور ،جمال الدين يوسف بن يعقوب ، (ت 690هـ/1291م )

(1951- 1954) صفة بلاد اليمن (المسمى تاريخ المستبصر) ، ليدن .

المسعودى ، أبو الحسن ، على بن الحسين ، ( ت 346هـ/957م )

(1973) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق يوسف أسعد داغر دار الأندلس.

المقدسي ، أحمد بن على ، ( ت 375هـ/985م)

(1877) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ليدن ، طبعة دى غوية .

المقريزى ، تقى الدين ، أبو العباس ، أحمد بن على، ( ت 845هـ/1441م )

(1967) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، ط1 ، القاهرة ، دار الكتب العربية.

(1970) كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المسمى الخطط ، بغداد ، مكتبة المثنى .

ابن منظور ، جمال الدين ، محمد بن مكرم الأنصاري ، ( ت 711هـ/1311م )

(د.ت) لسان العرب ، الدار المصرية للتاليف والترجمة ، القاهرة ، طبعة بولاق.

ابن هشام ، محمد بن عبد الملك ، ( ت 213هـ/828م )

(2003) السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى بن العدوى ، المنصورة ، دار ابن رجب .

الهمدانى ، الحسن بن أحمد بن يعقوب ، ( ت 345هـ/956م )

(1987) الجوهرتين العتيقتين المائتين الصفراء والبيضاء ، نشره حمد الجاسر ، الرياض ، المطابع الاهلية .

(1989) صفة جزيرة العرب ، بغداد .

وكيع ، محمد بن خلف ، ( ت 306هـ/918م )

(1950) أخبار القضاة ، القاهرة ، طبعة عبد العزيز مصطفى المراغى .

ياقوت الحموي ، ياقوت بن عبد الله البغدادي ، (ت 626هـ/1258م)

(1866) معجم البلدان ، ليبزك ، طبعة وستنفلد .

اليعقوبي ، أحمد بن يعقوب ، (ت 292هـ/904م)

(1891) البلدان ، ليدن ، طبعة دي غوية

أبو يوسف ، يعقوب بن إبراهيم ، ( ت 182هـ/833م )

(1979) الخراج ، دار المعرفة ، بيروت.

## المراجع الحديثة

البري ،عبد الله خورشيد

(1967) القبائل العربية في مصر في القرون الثلاث الأولى للهجرة ، مصر ، دار الكتاب العربي .

البكر ، منذر

( 1975) بحث تاريخي في جغرافية شبه جزيرة العرب ، مجله آداب ، البصرة،عدد9.

بيغوليفسيكيا ،نينا

(1985) العرب على حدود بيزنطة وإيران ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، الكويت .

دراج ، احمد

(1959) نشوء الأصناف والحرف في الإسلام ،مجلة كلية الآداب ، العدد الأول ، بغداد .

دوزي ، رينهارت

(1971) المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب ، ترجمة أكرم فاضل ، بغداد ، دار الحرية للطباعة والنشر .

زاده ، طاشكبري

(د.ت) مفاتيح السعادة ،ط1.

الزبيدي ،محمد حسين

(1984) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة في القرن الأول الهجري ،ط1 ، بغداد .

سالم ،السيد عبد العزيز
(1973) تاريخ البحرية في مصر وبلاد الشام ، بيروت ، دار النهضة .
الشيخلي ، صباح إبراهيم
(1976) الأصناف في العصر العباسي ، نشأتها وتطورها ، بغداد ، دار الحرية .
علي ،جواد
(1976) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ،بغداد .
العلي ، صالح احمد
(1953) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول للهجرة ، ط1 ، بغداد .
(1988) الدولة في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم ) ،ط1 ، بغداد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي .
ماسنيون ، لويس
(1979) خطط الكوفة ، ترجمة تقي محمد المصعبي ، النجف الأشرف ، مطبعة الغري الحديثة
متز ، آدم
(1958) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
مولوي ، حسيني
(د.ت) الإدارة العربية ، ترجمة إبراهيم أحمد العدوي ، القاهرة ، المطبعة النموذجية .

## المراجع الأجنبية

Cook، M.A.
(1970) Studies Economic History of the East from the rise of Islam to the present day، London .
Goitien ، S.D .
(1968) Studies in Islamic History and Institution ، leiden .
Hassan،Hadi
( 1928) Persian Navigation in the Persian Gulf. London.
Hourani ، A.H. and Stern ، S.M.
(1967) The Islamic City ، Oxford .
Kinderman
(1934) Schoff in Arabischen ،Bone.
Lammens ، H. ،
(1907) Etudes sut la regne Caliph Omayyade Mo'awiah، Bairut .
Lewis ، Bernard
(1937) The Islamic Guilds ، Economic History Review ، Vol. 7 .
Rostortzeff ، Mi.
(1942) Social and Economic History of the Hellenistic World Oxford.

Shahid ، Irfan ،(1978) pre- Islamic Arabia ، the Cambridge History of Islam ،Cambridge .

Walker ، J. ، (1941 ،Catalogue of Mohammedan Coins in the British Museum ، London

الفصل السادس

# المظاهـر الحضاريـــة

أولاً : الفنون والعمارة .

ثانياً : الكتابة وبدايات التدوين .

ثالثاً : المربد والشعر والغناء .

رابعاً : تمصير الأمصار

## الفنون والعمارة

لقد كان نصيب العرب في قيام الفنون والعمارة كبيراً وكان دورهم ظاهراً وبارزاً في جمعهم شتى الأساليب الفنية القديمة التي كانت في البلدان التي حرروها فضلاً عما كانوا يملكونه من خلفية حضارية طبعت بطابع دينهم الجديد فنشأ من ذلك فن إسلامي يتميز من غيره من الفنون التي تأثروا بها.

وقد ظهرت حكمة العرب وحسن استعدادهم في إقبالهم على استخدام الفنيين المحليين في البلاد التي حرروها لصناعة ما يحتاجون إليه وارتاح الفنيون من أهل الذمة إلى هذه السياسية فولد الفن الإسلامي الذي نما وازدهر بمرور الزمن ليصل إلى أقصى درجات الرقي والنضج والتطور في ظل الإسلام وبرعاية الدول الإسلامية سواء أكان الفنيون أنفسهم من المسلمين أو من أهل الذمة وسواء أكانت العمائر التي بنيت والتحف التي صنعت للمسيحيين أم للمسلمين .

وللحقيقة يقال أن ولادة هذا الفن كانت مع ولادة الإسلام عندما انشأ النبي -ﷺ- مسجده في المدينة المنورة ، وكان انتقال عاصمة الدولة الإسلامية بعد ذلك إلى دمشق خاتمة لعصر الخلفاء الراشدين الذي غلبت عليه البساطة وتجنب البذخ والترف وعاش المسلمون في بلاد الشام حيث ازدهرت من قبلهم مدارس من الفنون الهلنستية والمسيحية الشرقية فتأثروا بعمائر أهالي تلك البلاد وفنونهم ونشأ على أيدي الجميع الطراز الأموي الذي نقله المسلمون معهم إلى سائر الأقاليم الإسلامية بفضل نظام الاستدعاء (او المشاركة او الليتورجيا Leiturgia) وقوامه مشاركة أقاليم العالم الإسلامي بتقديم الصناع والفنيين ومواد الصناعة الى الحكومة المركزية كل بما يختص به لغرض القيام بما تحتاج إليه الدولة في اعمالها الكبيرة.

ولما كان تشييد المدن وبناء المساجد والقصور مقياسا للرقي والتطور فقد اهتم الخلفاء الأمويون بتجديد وتوسيع بعض المساجد التي أنشئت في عصر الخلفاء الراشدين الذين مصروا الأمصار لتكون دار هجرة لجيوشهم ومقاما لاسرهم وعيالهم وازدهرت هذه المدن في ظل الدولة الجديدة وصارت مضرب الأمثال في مظاهرها العمرانية وأنماطها الاجتماعية ومناشطها الثقافية والفنية فكان لبعض هذه المدن طابع عسكري كالبصرة والكوفة والفسطاط وبعضها لها طابع إداري وعسكري كالقيروان وواسط وظل الإسلام مصدر الوحي والإلهام للعرب في فن تخطيط المدن وعمارتها وكان لكل جماعة من الجند ومرافقيهم ما تحتاج إليه من العمائر متأثرة

بالنظام الذي تعودته في موطنها بعد إخضاعه لمطالب الدين الجديد .

وكان للعامل العسكري أثره الكبير في تشكيل عمائر الأمويين الذين كان عصرهم عصر فتح وتوسع فاتجهوا إلى بناء الحصون والقلاع والأسوار وغيرها من الاستحكامات الدفاعية فضلاً عن المساجد والقصور والدور وكانت أكثر القصور التي عثر عليها في البلاد الإسلامية ذات طابع ومظهر عسكري وتتميز بجدران مدعمة بالأبراج ومزودة بمرامي النشاب (المزاغل) والساقطات وغيرها من العناصر الدفاعية. وقد اكتسبت القصور هذا الطابع لأن معظمها بعيدة عن العمران فكان على الباني تأمين سلامة ساكنيها من أي اعتداء خارجي . [ حمزة "1990" 51 ]

والمساجد الجامعة من أهم الأبنية التي عني بها المسلمون عناية كبيرة تناسب مكانتها عندهم خاصة أن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة قد شجعا على ذلك . فالمساجد حارسة عالم الإسلام وحصونه المنيعة وهي مراكز الإسلام ورموزه وكل مسجد أيا كان مستواه من الفخامة والرفعة يعد صورة جمالية منفردة والكثير منها يعد آية من آيات الفن والجمال ومن مظاهر التقدم الحضاري العربي الإسلامي.

والفن الإسلامي بمعناه العام من أهم مظاهر الحضارة الإسلامية بصفته مظهرها المادي الملموس وهو يتمثل بالمدينة الإسلامية في عمارتها على وجه الخصوص من حيث التخطيط والشوارع والأسواق والمباني العامة والخاصة ثم ما يتبع ذلك من مصالح أو مرافق عامة ويبرز بين كل ذلك المسجد الجامع " أحب البقاع الى الله تعالى فهو قلعة الإيمان وحصن الفضيلة " [ وانلي "1971" 3 ] ورمز حضارة العرب والإسلام والترجمة المادية لها. [ عبد الحميد "1986" 207 ]

والمسجد بناء أساس في تخطيط المدينة العربية الإسلامية وعمارته وزخرفته هي النموذج الأول لفنونه ، وتطوره دليل ملموس على تجدد حضارة الإسلام وحيويتها ونموها فهو النواة الأولى لنشأة المدينة العربية وهو من أجمل الأوابد التي أقامها المسلمون في البلاد المفتوحة لأنه عنوان دينهم ورمز قوتهم وانتشارهم ، فمدينة المسلمين تتميز دائما بمسجدها فتطوره رديف لتطور الحضارة الإسلامية في حالاتها المختلفة [ حتي وآخرون "1965" 327/1 ]

وقد اعتاد العرب المسلمون الأوائل عند تمصيرهم للأمصار أن يبدأوا ببناء مسجد جامع رئيس يشكل مع دار الأمارة والسوق وحدة متكاملة في وسط المدينة الممصرة وكانت مدينة

الرسول ﷺ المثال الأول لنشأة المدينة الإسلامية فكان مسجده أول ما اختط في وسط المدينة المنورة عند وصوله اليها [ السمهودي "1971"

718/1] وتبعت الأمصار الإسلامية هذه القاعدة وهذا ما فعله المسلمون في مدن البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وواسط وغيرها وانسحب أيضا على المدن القديمة التي فتحها المسلمون كدمشق وحلب وصنعاء والموصل وغيرها ولعل السبب في اختيار الموقع المتوسط للمسجد في المدينة هو ليكون قريبا من جميع السكان فيسهل عليهم الوصول اليه لاداء الشعائر الدينية فيه . [عثمان "1988" 235 ]

وعلى الرغم من اندثار المساجد الأولى فإن المصادر المكتوبة حفظت لنا أوصافها الأولى ثم التغيرات والإضافات التي جرت عليها كما أن الحفريات والتنقيبات الأثرية التي أجريت في مواقعها أظهرت تطابقا تقريبا مع ما أشارت اليه تلك المصادر.

لقد تصاعد نمو مدينة البصرة في العصر الأموي وأصبحت متقدمة في العمران والتطور ومنها أبنيتها الدينية والمدنية وزاد زياد بن أبيه اثناء ولايته على البصرة في مساحة مسجدها الجامع وبناه بالاجر والجص وسقفه بخشب الساج واقام دار الأمارة في قبلة المسجد بعد ان كانت بعيدة عنه فكان الإمام يخرج ألى رواق القبلة مباشرة من الباب المفتوح في حائط القبلة وقد جعل زياد رواق القبلة خمسة صفوف من الأعمدة التي جلب معظمها من أبنية قديمة واضاف الى هذا الجامع منارة بناها بالحجر وتعد أقدم منارة ورد ذكرها في المراجع العربية وهو أول من عمل المقصورة في هذا الجامع [ محمد "1989" 55] وأجرت دائرة الآثار العراقية ومن بعدها جامعة البصرة حفريات واسعة في موقع هذا الجامع فظهرت بقايا أسس يرجح أنها تعود إلى العصر الأموي فنكون بذلك قد وضعنا أيدينا على أقدم مسجد تصل بقاياه الينا .

أما مسجد الكوفة فقد أعيد بناؤه وتوسعته على يد زياد بن أبيه سنة (51هـ/671م )وبذل فيه مالا وجهدا وعناية لا تقل عن العناية التي بذلها في جامع البصرة وجلبت إليه الأعمدة الطوال " المنحوتة قطعة على قطعة مفرغة بالرصاص والقسي عليها " وتدل الروايات التاريخية على أن هذا الجامع كان يتكون في العصر الأموي من رواق القبلة ذي خمسة أساكيب ومؤخرة ومجنبتين ذات رواقين (محمد "1989" 56) وقد أجرت دائرة الآثار العراقية مجسات اختبارية حول مسجد الكوفة من الخارج ثبتت بها حدوده الأصلية كما أجرت تنقيبات في دار الأمارة الملاصقة له ولمواسم متعددة فأماطت اللثام عن هذه الدار والأدوار البنائية التي مرت عليها وأظهرت بقايا زخارف هندسية منفذة بأسلوب اختلاف وضع الآجر كما عثرت على زخارف محفورة بالجص أو مرسومة بالألوان المائية وكذلك كتابات بالخط الكوفي فضلاً عن بعض اللقى الأثرية من

مسكوكات وفخار وخزف وزجاج ومعادن تنسب إلى العصرين الأموي والعباسي كما أظهرت التنقيبات حدود المسجد الذي تبين أنه مربع الشكل تقريبا بانحراف قليل عن زاوية القبلة وأن جدرانه كانت تدعمها من الخارج أبراج نصف اسطوانية ارتفاعها بارتفاع الجدران وتتكرر على أبعاد متفاوتة. كما أن التنقيبات التي أجريت داخله مؤخرا اثبتت ما سطره الرحالة ابن جبير عن هذا الجامع.

أما جامع عمرو بن العاص في الفسطاط فقد انشىء سنة (21هـ/641م) ويتميز في البداية بصغر مساحته وبساطة مواده البنائية وخلوه من الصحن (ابن دقماق "1893" 59/4-71).

وفي العصر الأموي قام الوالي مسلمة بن مخلد سنة (53هـ/672م) بهدم المسجد وإعادة بنائه وتوسيعه وأضاف إليه صحنا يتقدم رواق القبلة وأربعة صوامع (مآذن) في أركانه الأربعة وجعل لها سلما من خارج المسجد [ المقريزي "1853" 248/2 ] ثم توالت عليه التجديدات والإضافات خلال العصر الأموي منها زيادة قرة بن شريك سنة (93هـ/711م) وقيل إنه أمر باضافة محراب مجوف في جدار القبلة . [ ابن دقماق "1893" 65/4،64]

وفي مدينة القيروان اختط عقبة بن نافع مسجده سنة (50هـ/670م) وتضمن في حينه رواقا للقبلة و لم تكن له مجنبات (أروقة جانبية) ونال المسجد عناية كبيرة في العصر الأموي وخاصة في زمن الخليفة هشام بن عبد الملك سنة (105-125هـ/723-742م) وجزء كبير من بنائه الحالي يرجع الى هذه المرحلة وأعمدته وتيجانه مجلوبة من أبنية قديمة وهو يمتاز بأقواسه وببلاطة المحراب التي تعلوها قبتان كما يمتاز بصومعته المربعة الشكل التي تعد من أقدم المآذن القائمة في شمالي افريقيا . [ فكري "1961" 68-69 ] إذ يرجع الطابقان السفليان منها إلى زمن الخليفة هشام بن عبد الملك أما الطابق العلوي فيرجح أنه يرجع إلى القرن الخامس الهجري . [المسعودي "1893" 360 ]

ومسجد واسط في العراق أنشىء مع تاسيس المدينة في سنة (83هـ/702م) أو (84هـ/703م ) بناه الحجاج بن يوسف الثقفي ملاصقا لقصره .

ونتيجة للتنقيبات التي أجرتها دائرة الاثار العراقية في موقع المسجد ودار الإمارة ابتداءا من سنة 1936م ولمدة ستة مواسم ظهرت أسس المسجد الذي بناه الحجاج فكان يتكون من صحن مكشوف تحيط به أربعة أروقة أكبرها رواق القبلة الذي يتكون من خمسة أساكيب متساوية عدا أسكوب المحراب فهو أقل سعة من البقية وفي كل صف منها ثمانية عشر عمودا مكونة تسع عشرة بلاطة غير متساوية عرضا فقد

اتسعت بلاطة المحراب وصغرت البلاطتان المتطرفتان قليلا أما المجنبتان ففي كل منهما صف واحد من اثني عشر عمودا أما المؤخرة ففيها صف واحد من ثمانية عشر عمودا ولهذه الأعمدة أسس تتصل بعضها ببعض من الجهات الأربع تساعد على زيادة تحمل الأرض لثقل البناء و لم يعثر على محراب مجوف في هذا الجامع لأن المحاريب المجوفة دخلت المساجد بعد هذا التاريخ كما يرجح .

وعثر أثناء التنقيب في هذا الموقع على قطع إسطوانية الواحدة فيها أشبه بالطبل هي أجزاء من أعمدة من الحجارة الرملية يرجح إنها كانت مستخدمة في بنائه إذ تزينها زخارف نباتية وهندسية محفورة بأسلوب يشبه إلى حد كبير زخارف آثار العصر الأموي فتركيبها شبيه بتركيب أعمدة جامع الكوفة في أنها تتكون من قطع أسطوانية مركبة بعضها فوق بعض ومثبتة بسفافيد معدنية تمر من خلال ثقب في وسط كل منها وقطر كل من هذه القطع يتراوح بين 90سم و110سم وظهر أن جدران المسجد كانت مدعمة من الخارج بأبراج تتناظر مع صفوف أعمدة المسجد لتقلل من قوة الدفع (الرفس) التي تحدث نتيجة لثقل السقوف فوق العقود وقد ظهر في قبلة المسجد الأول انحراف عن اتجاه القبلة الصحيحة حوالي 34 درجة ولذلك هدم المسجد الأول في العصور التالية وأعيد بناؤه على سمت القبلة وعلى أسس جديدة . [محمد "1989" 66-67 ]

ونال مسجد الرسول ﷺ في المدينة المنورة عناية خاصة في العصر الأموي فقد كان في البداية غاية في بساطة التخطيط والبناء انشأه النبي ﷺ بوحي من الإسلام وحده دون الاقتباس من أبنية أخرى وتطور حسب الحاجة والظروف وطرأت عليه تغييرات وإضافات في العصور اللاحقة حتى تكامل شكله في زمن الوليد بن عبد الملك عام 88هـ/706م حين أوعز إلى عامله عمر بن عبد العزيز بهدم المسجد وإعادة بنائه وكان المسجد وقتها يضم رواقا للقبلة فيه خمسة اساكيب تفصلها خمسة صفوف من الأعمدة كل صف منها سبعة عشر عمودا مكونة ثمانية عشرة بلاطة وأضاف في الجهة الشمالية أربعة صفوف كما أحاط الصحن بمجنبتين شرقية ذات ثلاثة أروقة وغربية ذات أربعة أروقة وتطل جميعا على الصحن ببوائك تعلوها الشرفات ويذكر أن المسجد كان خاليا من محراب مجوف أضافه اليه عمر بن عبد العزيز كما أضاف إليه مقصورة من خشب الساج وأربعة مآذن في اركان الأربعة فضلاً عن ميازيب من الرصاص . [ السمهودي "1908-1909" 1/369،368-481 ]

وفي عهد الوليد بن عبد الملك أيضا تم تعمير المسجد الحرام في مكة المكرمة عمارة متينة

محكمة فكان أول ما جلب إليه أعمدة الرخام من مصر والشام ونقلها من هناك إلى مكة على العجل وجعل على رؤوسها صفائح الذهب وسقف المسجد بخشب الساج المزخرف كما أزر الجدران الداخلية بألواح الرخام وكسى أقواسه بالفسيفساء الزجاجية الملونة وأضاف الشرافات باعداد كبيرة إلى أعالي الجدران . [ الازرقي "1858" 309 ]

ويظهر أن المساجد الأولى في صنعاء كانت خالية من الصحن المكشوف إلا مسجدها الجامع فهو أول مسجد أسس في صنعاء زمن النبي ﷺ وزاد فيه الوليد زيادة كبيرة في أواخر القرن الأول الهجري من قبلته القديمة الواقعة في مؤخرته الحالية إلى موقعها الحالي وبناه بناء محكما وغطى محرابه الجديد بحلة قشيبة من الزخارف والنقوش الجصية العجيبة . ولم يذكر شيء عن زخارف فسيفسائية في هذه الزيادة .

والواقع أن المساجد الأولى لم تكن لها مآذن ولا منابر ولا مقصورة ولا محاريب مجوفة أو مكبرية .

فالمئذنة من أبرز عناصر العمارة الإسلامية نشأت وتطورت في ظل الإسلام واصبحت من أهم سمات المسجد في المدينة الإسلامية لمناداة المسلمين خمس مرات في اليوم والليلة مرددة نشيدا إلهيا واحدا إيذانا بأوقات الصلاة .

ولم يكن في المسجد في بداية تكوينه مئذنة ولا حتى نداءً خاصا يجمع المسلمين للصلاة وإنما كانوا يتحينون اوقاتها من غير دعوة وعندما شرع الأذان كان بلال ينادي به من أعلى سطح منزل مجاور للمسجد. والمئذنة وأن لم يكن لها وجود زمن النبي ﷺ إلا أن نواتها ابتدأت بالظهور على عهده وأخذت بالتطور الذي أملته الحاجة والظروف ويجب أن لا نغفل دور العرب ومشاركتهم في البناء وتنفيذ الفكرة .

وعلى الرغم من انفراد المئذنة بشكلها بين الأبراج القديمة المختلفة الأغراض فقد حاول المستشرقون وغيرهم القول باشتقاقها من مصادر غير عربية وغير إسلامية .

لقد تأخر بناء المآذن في المساجد عموما فبعد أن مصر المسلمون مدينة البصرة أعاد زياد بن أبيه بناء جامعها بالآجر واضاف إليه مئذنة حوالي سنة (45هـ/665م) فكانت أول واقدم مئذنة يرد ذكرها في المراجع التاريخية. وتعد المئذنة التي بناها عقبة بن نافع سنة (50هـ/670م) ثاني مئذنة بنيت في الإسلام عندما اختط مسجده في مدينة القيروان . [ سامح "1982" 174 ]

وفي سنة (53هـ/672م) تمت توسعة جامع عمرو بن العاص بالفسطاط في ولاية مسلمة بن مخلد بأمر من الخليفة معاوية ابن أبي

سفيان فبنيت أربع صوامع – كما سميت – في أركان المسجد الأربعة [ ابن دقماق 4/62-63 ] ويرجح أنها كانت ذات شكل مربع نقله الأمويون من سوريا الى مختلف أنحاء العالم الإسلامي وأقدم القائم منها في شمالي أفريقيا هي مئذنة جامع سيدي عقبة في القيروان .

أما المنبر فهو مرقاة الخطيب ويروى أنه دخل المسجد زمن النبي ﷺ سنة (8هـ/629م) او سنة (9هـ/630م) . [ السمهودي "1908-1909" 1/268 ] وكان قبل ذلك يسند ظهرهﷺ إلى جذع نخلة وكان منبره يتكون من مرقاتين (درجتين) ومقعدة مصنوع من خشب الأثل او الطرفاء وموضوع إلى حائط القبلة إلى يمين المحراب واكتسب شكله الحالي حوالي سنة (90هـ/708م) في زمن الوليد بن عبد الملك [ Rivoira "1918" 3 ] وللأسف الشديد لم يبق لنا شيء من المنابر التي ترجع الى العصر الأموي إلا ان المراجع تشير إلى أن هذه المنابر كانت حتى خلافة مروان الثاني 132هـ/749م قليلة الارتفاع ومتنقلة [sauvaget "1947" ff87، 144ff ] ويعد منبر جامع القيروان أهم وأقدم المنابر الخشبية القائمة في العالم الإسلامي حتى الوقت الحاضر ويروى أنه نقل إلى هذا الجامع من بغداد في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي.

والمقصود بالمقصورة بصورة عامة سياج من الخشب يحيط بكل من المحراب والمنبر في مقدمة رواق القبلة وهي مخصصة للإمام الذي كان في العصر الإسلامي الأول هو الخليفة أو من ينوب عنه . وقيل إن أول من اتخذها وكانت مبنية باللبن هو الخليفة عثمان بن عفان ؓ في مسجد الرسولﷺ -في المدينة ولكن يرجح آخرون أن الذي أحدثها أولاً هو معاوية بن أبي سفيان بعد محاولة الإعتداء على حياته وكانت من الخشب . [ حسن "1948" 36 ]

والمحراب المجوف عنصر عماري ابتكره المسلمون في المسجد ويتوسط جدار القبلة على الأغلب ويحدد اتجاهها ويقف فيه الإمام لإداء الصلاة موفرا صفا إضافياًمن المصلين داخل رواق القبلة وقد اختلفت الآراء في الزمن الذي ادخل فيه هذا العنصر الى المسجد ، وارجحها تميل إلى أن مسجد النبيﷺ كان خاليا من المحراب المجوف في زمنه ﷺ وفي زمن الخلفاء الراشدين من بعده وأن الأمويين هم الذين أدخلوه كغيره من العناصر التي أضافوها إليه . وأقدم المحاريب المكتشفة في المساجد عموما هو محراب جامع سيدي عقبة في القيروان (50هـ/670م) ومحراب جامع إسكاف بني جنيد في العراق (105-120هـ/723-737م) . [التوتونجي "1976" 49-51 ]

والمكبرية (دكة المبلغ) أو كما تسمى أيضا " سرير " دخلت الى المسجد في العصر الأموي على الأرجح وتكون عادة على هيئة

شرفة منفذة بالرخام أو الحجر أو الخشب يحيطها محجر (درابزين) ذو ارتفاع منخفض ومحمولة على أعمدة رخامية أو كوابيل (مساند) وتبنى على محور المحراب في مقدمة رواق القبلة أو في مؤخرة إيوان القبلة في المساجد ذات الإيوانات ويؤدي اليها سلم من عدة درجات .

والوظيفة الأساس للمكبرية هي أن تكون مكانا للمؤذن يلقي من فوقها الأذان الثاني لصلاة الجمعة داخل المسجد ويقيم الصلاة من فوقها أيضاً داعيا المصلين للإصطفاف خلف الإمام وليردد من فوقها أثناء الصلاة تكبيرات الإمام في بدء الصلاة وفي الركوع والقيام والسجود والقعود والتسليم وإيصال صوته إلى الصفوف الخليفة البعيدة ، فالأذان والإقامة والتبليغ كلها تلقى في صلاة الجمعة من فوق هذه الدكة .

ونحن نتكلم على هذه العناصر لابد لنا من الإشارة إلى أن بعض الفقهاء قد وقفوا من هذه المحدثات التي أدخلت إلى المسجد موقف الكاره المعارض وعدوها من البدع التي يجب إزالتها لأنها استحدثت بعد زمن النبي ﷺ ولم تكن من فعله ولا من فعل الخلفاء الراشدين من بعده وكان بعض هؤلاء الفقهاء بين مقاوم لها أو ساكت عنها ولعل السبب في هذا السكوت يرجع إلى أنها لا تتعارض ولا تتقاطع مع مبادئ الإسلام الحنيف .

وأبدع العمائر الأموية القائمة في بلاد الشام هي المسجد الاقصى وقبة الصخرة ببيت المقدس والمسجد الجامع بمدينة دشق :

أما المسجد الأقصى فالراجح أن الخليفة عبد الملك بن مروان هو الذي بناه عند تشييده لمسجد الصخرة وأنه ابتدأ بناءه سنة (66هـ/685م) ولبس أبوابه بالذهب والفضة ويتضح من النتائج التي توصل إليها هاملتون في تحرياته عن هذا المسجد أنه كان له في العصر الأموي بوائك عقودها قائمة على أعمدة رخامية تتجه من الشمال إلى الجنوب ولم يكن له بلاطة وسطى متسعة كما تبين أن أرضيته تقع أسفل الأرضية الحالية بحوالي 80 سم وأنها كانت مغطاة بألواح الرخام كما استنتج أن المسجد كان اعرض وأقل عمقا من المسجد الحالي وأن بلاطاته تتجه منذ أقدم عصوره عمودية على جدار القبلة. [ Hamilton "1947" 54،75 ]

والحق يقال إن بناء هذا المسجد قد حدث فيه من التعديل والتجديد والزيادة منذ العصر العباسي ما يجعلنا لا نعده مثالا صادقا للعمارة في العصر الأموي .

وعندما نتكلم عن الفن والعمارة الإسلامية فقبة الصخرة التي انشئت تكريما وتخليدا للصخرة المشرفة أفضل مثل عليها لما فيها من بساطة التخطيط وجمال الزخرفة والهندسة والذوق فهي في ظاهرها نصب تذكاري وفي

حقيقتها مصلى ومسجد فهي أقدم نماذج القباب في العصر الإسلامي وأجمل الآثار التي خلفها لنا التاريخ ويجمع المتخصصون على أنها أقدم أثر إسلامي يتحدى الزمن ويحتفظ بتخطيطه وجمال زخارفه الأصلية حتى الوقت الحاضر .

ولنا في بعض ما سجله القدامى والمحدثون خير شاهد على أهمية هذا الأثر وتأكيده ما وصل إليه أسلافنا في فن العمارة والزخرفة . يقول المقدسي " لم ار في الإسلام ولا سمعت في الشرك مثل هذه القبة" . [ "1906" 170 ] وكتب ابن بطوطة " من أعجب المباني وأتقنها وأغربها شكلا قد توفر حظها من المحاسن وأخذت من كل بديعة بطرف"[ "1938" 33/1 ] ويستمر في وصفها "وفي ظاهرها وباطنها من أنواع الزواقة ورائق الصنعة مما يعجز الواصف وأكثر ذلك مغشى بالذهب فهي تتلألأ نوراً وتلمع لمعان البرق يحار بصر متأملها في محاسنها ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها" .

أول من فكر بإقامة بناء عند الصخرة المقدسة هو الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ وبقي بناؤه بسيطا إلى أن فكر الأمويون ببناء مناسب يصون الصخرة ويحميها فقرر الخليفة عبد الملك بن مروان بناء قبة فوق الصخرة وبدئ بالبناء سنة (66هـ/685م ) وأكمل سنة (72هـ/691م) إذ نجد النص " بنى هذه القبة عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين سنة اثنتين وسبعين " مثبت بالخط الكوفي البسيط المنفذ بالفسيفساء المذهبة على أرضية زرقاء أسفل السقف فوق التثمينة الوسطى في النهاية الشرقية للواجهة الجنوبية من الداخل . [ العارف "1951" 388 ]

ويظهر أنه قد جرى على هذه الكتابة التذكارية تحريف في زمن الخليفة العباسي المأمون (198-218هـ/813-833م) فقد أجريت ترميمات على القبة وأزيل اسم عبد الملك من الكتابة ووضع اسم المأمون بدلاً منه وفات على المرمم أن يغير التاريخ (72هـ) بعد أن غير الإسم إذ يقع هذا التاريخ في عهد عبد الملك وليس في عهد المأمون وهذا يتفق مع ما روته كل المراجع التاريخية من أن الباني هو عبد الملك بن مروان كما يلاحظ أن لون الأرضية الفسيفسائية يختلف عن لون فسيفساء أرضية باقي الكتابة وان اسم المأمون ولقبه كثير الحروف بالنسبة للمساحة التي كتبت فيها ولذلك جاءت الكلمات مضغوطة في هذا الجزء من الكتابة.

وبناء مسجد الصخرة مثمن الشكل كانت جدرانه مغطاة بألواح الرخام وبالفسيفساء من الخارج ومن الداخل وله أربعة مداخل في الاتجاهات الأربعة الرئيسة وداخل القبة يتكون من دائرة مركزية من الأعمدة والأكتاف تحيط بالصخرة وتحمل فوقها تركيبة القبة . وبين

الدائرة المركزية والجدران الخارجية رواق سقفه محمول على ما تخطيطه مثمن من العقود المحمولة على أكتاف وأعمدة مكونة رواقين بين الصخرة والجدران الخارجية.

وتعلو الأعمدة والأكتاف حدارات تستند عليها روابط خشبية مغطاة بصفائح معدنية غاية في دقة الصناعة ومزخرفة بالزخارف من أوراق وتلافيف وعناقيد العنب وتعلو هذه الروابط العقود المغطاة بالزخارف الفسيفسائية ويعلو العقود كتابات كوفية منفذة بالفسيفساء من زمن عبد الملك بن مروان يبلغ طولها حوالي 24م منفذة بالفص المذهب قوامها آيات قرانية فضلاً عن اسم الباني عبد الملك وتاريخ البناء 72هـ .

ومما يمتاز به هذا البناء أن المهندس المخطط قد بنى الأعمدة والأكتاف بإسلوب مدروس ودقيق بحيث أن الداخل من أي من الأبواب الأربعة يستطيع أن يراها في الجانب البعيد دون أن تحجزها التي أمامها وذلك بعمل انحراف بسيط (Twist) في روافع الدائرة المركزية عن المثمن الأوسط [ Creswell "1940" 169/1 ]

وتعلو الدائرة المركزية في هذا البناء رقبة القبة المغطاة بالزخارف الفسيفسائية المكونة من أوراق العنب وتفريعاتها وهي تخرج من زهريات وآنية فضلاً عن زخرفة النباتات الأُخرى التي تتدلى من آنية جميلة .

وكما أشرنا سابقا إن الفسيفساء كانت تغطى الجدران الخارجية فضلاً عما موجود داخل المبنى ، وقد تعرضت الفسيفساء في الخارج إلى التلف بفعل العوامل الطبيعية فعمل السلطان العثماني سليمان القانوني على إستبدال ألواح القاشاني بها وذلك في سنة (960هـ/1552م) [ Quncan "1972" 32 ] أما الفسيفساء الداخلية فهي تشمل الجزء العلوي من الأساطين والأكتاف ثم واجهات العقود ومن تلك الأجزاء أيضاً كرسي القبة أو رقبتها .

وفسيفساء هذا البناء مصنوعة من زجاج ملون وغير ملون وشفاف وغير شفاف وكذلك من حجر وردي وأبيض ورقائق الصدف وضعت جميعا في وضع أُفقي عدا المكعبات ذات اللون الذهبي أو الفضي فقد وضعت بميل قليل لتعكس الضوء .

والألوان الغالبة على الزخارف الفسيفسائية هي الأخضر بدرجاته المختلفة وكذلك الأزرق والبنفسجي والأبيض والأسود .

والموضوعات الزخرفية التي نراها في هذه الفسيفساء كثيرة من فروع نباتية تخرج من آنية متنوعة وبين كل فرعين أشبه بالشمعدان تعلوه زخرفة مجنحة كما نرى أشجار النخيل بثمرها ورسوم الفاكهة وباقات زهور وقرون الرخاء

كما نرى رسوما للجواهر والحلي وكذلك رسوم أهلة ونجوم وأوراق نباتية وأشجار متنوعة ولا نرى بين هذه الزخارف رسوماً لكائنات حية وهي التي لا نراها في مثل هذه الأبنية بصورة عامة .

وقد ثار جدل كبير حول جنسية الصناع الذين قاموا بتنفيذ هذه الزخارف الفسيفسائية وانتهى البحث الذي قامت به فان برشم إلى أن فسيفساء قبة الصخرة من صنع عمال سوريين عرب وليست من صنع عمال بيزنطيين .

واعتقد كثير من مؤرخي الفنون والعمارة الإسلامية أن تخطيط قبة الصخرة وزخارفها ما هي إلا اقتباس حرفي لتخطيط وزخارف كنائس وأبنية كانت في بلاد الشام قبل فتح العرب المسلمين لهذه البلاد حتى أنهم حللوا أجزاءها وعناصرها المعمارية والزخرفية ونسبوا كل جزء منها إلى بلد معين أو بناء أو طراز معين وتوصلوا إلى انها سورية بيزنطية رومانية وبنسب مئوية متفاوتة .

والحقيقة أن مثل هذا التحليل والتقسيم غير مقبول أصلا في مثل هذه الدراسات فبالرغم من أن التخطيط المثمن تخطيط محلي سابق للفتح العربي الإسلامي لهذه المنطقة فإننا نعلم أن طبيعة الفنون واحدة بصورة عامة كل فن يأخذ من الفنون التي سبقته ثم يصوغها الفن الجديد حسب ما تمليه عليه الظروف السياسية والحضارية والاتجاهات الفنية وعلينا عند دراسة قبة الصخرة أن نبحثها بجملتها وتفصيلها فهي بناء عربي إسلامي في زخارفه وتفصيلاته ، بني بإشراف عرب مسلمين وبإسلوب يتلاءم وذوقهم ولا يتعارض مع مبادئهم ودينهم وإنه بناء فريد أنشئ لتخليد ذكرى الصخرة المقدسة والمحافظة عليها وحمايتها من عبث الطبيعة والإنسان وماذا يعنينا هنا إذا كان قد اشترك في بنائها معماريون غير عرب ما دامت النتيجة التي أمامنا عملا رائعا يتحدث عن العروبة والإسلام بأجلى بيان؟.

فشكلها المثمن ببساطته وفي تناسق أجزائه يتلاءم كل الملاءمة مع هذا الغرض ولا يتلاءم مع بناء المساجد عموما التي تعتمد نظام الصفوف الطويلة المتصلة في الصلاة ولذلك نرى أن هذا التخطيط لم يتكرر في بناء المساجد .

أما الجامع الأموي في دمشق فهو " بكر الدهر ونادرة الوقت وأعجوبة الزمان" بناه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك الذي كان واحدا من أبرز البناة في تاريخ الدولة الإسلامية إذ لم يقتصر نشاطه العماري على بلاد الشام وحدها وفي عاصمتها دمشق فحسب بل تعداها إلى الجزيرة العربية حيث ركز اهتمامه ونشاطه على مكة والمدينة وغيرها من مدن الحجاز وشمل كذلك أقاليم إسلامية اخرى كثيرة .

كان موقع هذا المسجد معبدا وثنيا قديما يرجع إلى القرن الإول الميلادي حول إلى كنيسة

في العهد المسيحي (379-408م) ولما فتح المسلمون مدينة دمشق سنة (14هـ/635م) زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ شاركوا المسيحيين موقع كنيستهم واتخذوا نصفه مسجدا لإقامة شعائرهم الدينية وفي سنة (86هـ/705م) تملك الخليفة الوليد كامل الموقع مع الكنيسة بعد أن استرضى أهلها وهدمها قبل بناء مسجده مكانها . [ البلاذري "1866" 825 ]

وقد ذكر أنه بُدئ بهدم الكنيسة في أواخر عام (86هـ/705م) وابتدأ البناء سنة 87هـ/706م وإلى هذا يشير المسعودي " فأمر الوليد أن يكتب بالذهب على اللازورد في حايط المسجد ربنا الله لا نعبد إلا الله أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين في ذي الحجة سنة سبع وثمانين ، وهذا الكلام مكتوب بالذهب في مسجد دمشق إلى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة " . [ "1067"3/ 167]

وتتفق المراجع العربية وعدد من المراجع الأجنبية على ان الوليد هدم كامل مرافق الكنيسة سوى أجزاء من جدرانها وقد أكدت التحريات الأثرية التي أجراها عدد من المستشرقين. صدق ما ثبته المؤرخون العرب من أن الوليد " بنى كل ما كان داخل حيطان المسجد وزاد في سمك الحيطان" .

فالجامع " وثيق البناء أنيق البهاء قد بني بالحجر والكلس إلى منتهى حوائطه وشرف بالشراريف في أعاليه واتخذت له ثلاث منائر " اثنتان في جناحي قبلته شرقا وغربا والثالثة في شامه وتعرف بالعروس" . [ابن كثير "1351-1358هـ" 16/9 ]

يتكون المسجد من صحن كبير مكشوف تحيط به أروقة من الجهات الأربع أكبرها رواق القبلة الذي يبلغ طوله 136متراً وعمقه 36متراً ينقسم إلى ثلاثة أساكيب بثلاثة صفوف من أعمدة الرخام بطبقتين التحتانية منهما أعمدة ضخمة تعلوها عقود كبيرة وفوقها أعمدة أصغر حجما فوقها عقود صغيرة ترفع سقفا جملونيا . ويعترض هذه الأساكيب بلاطة المحراب التي تقسمها في القسمين وتعلوها " قبة النسر " .

وفي صحن المسجد عدة قباب أشهرها " قبة بيت المال " التي يقال إن مال الجامع كان يختزن بها وهي قائمة على ثمانية أعمدة من الرخام ومزخرفة بفصوص الفسيفساء الملونة ومسقفة بالرصاص .

أما الأروقة المحيطة بالصحن فتتكون من طابقين من الأعمدة والأكتاف التي تعلوها الأقواس ويغطيها سقف منحدر .

ويبلغ عدد شمسات الزجاج الملونة (ستائر النوافذ) التي في الجامع أربعا وسبعين

شمسة موزعة على القباب وجدران رواق القبلة فضلاً عن سبع وأربعين شمسة في ظهر الجدار إلى الصحن فضلاً عن بضع نوافذ من الرخام فيها أقدم نماذج الزخارف الهندسية في الإسلام .

وأرضيات المسجد مفروشة بالرخام وجدرانه مؤزرة بلوحات الرخام إلى قامة إنسان تعلوها زخارف الفسيفساء تمثل صورا رمزية لمدينة دمشق وقراها ومبان ضخمة ونهر بردى وكذلك صور الاشجار المثمرة والحدائق المزهرة كما نفذت بالفسيفساء صورة الكعبة المشرفة فوق المحراب وباقي البلاد عن يمينها وشمالها والثابت أن كل الزخارف الفسيفسائية في الجامع ترجع إلى العصر الأموي .

وقيل إنه اجتمع في ترخيم الجامع اثنا عشر الف مرخم وإن الوليد استقدم للمسجد الصناع والعمال من شتى البلاد الإسلامية (نظام الإستدعاء) .

ويبدو أنه كان في هذا المسجد أكثر من ساعة واحدة لتحديد أوقات الصلاة واحدة منها كانت عند ما يعرف بـ (باب الساعات) .

ويقال إن الوليد أنفق على بناء المسجد اموالا طائلة . وبلغ ما أنفقه على الكرمة التي في قبلي المسجد وحدها سبعين ألف دينار عملت بالفسيفساء المربعة المبطنة بالذهب والألوان .

ولما انتصب المسجد على أرض دمشق كان آية من آيات الزخرفة والبناء حتى كان حديثه على كل لسان واثار إعجاب من رآه من المسلمين وغيرهم على مر العصور : فقال عنه الخليفة العباسي المهدي " لا أعلم على ظهر الأرض مثله ". وقال عنه المأمون " بنيانه على غير مثال متقدم " . [ الربعي "1950" 43]

ووصفه بعض أهل دمشق أنه " جامع المحاسن كامل الغرايب معدود من إحدى العجائب قد زوق بعض فرشه بالرخام وألف على أحسن تركيب ونظام .. وهو متره عن صور الحيوان إلى صنوف النباتات وفنون الأغصان" [ ياقوت "1866-1870" 2/590-591 ]

لقد ساعد الرخاء الإقتصادي الذي عم البلاد تحت حكم الأمويين على الإلتفات إلى الحياة الدنيا في مجالاتها المختلفة فصرفوا الأموال الطائلة ، على بناء المساجد وزخرفتها لتضاهي في عظمتها كنائس النصارى وبنوا القصور الضخمة داخل المدن كما بنوا قصورا لراحتهم وللصيد خارجها وكانوا يأوون إليها عند إنتشار الأمراض والأوبئة في المدن وكانت بعض هذه القصور أشبه بالحصون الصغيرة يتحصنون فيها عند حدوث الأخطار ، فالخلفاء الأوائل الذين تربعوا على عرش الدولة الأموية الواسعة قد حملوا معهم عاداتهم البدوية وحنينهم إلى الصحراء التي جاؤا منها فكانت أكثر منازلهم وقصورهم تقع بعيدا عن العاصمة.

**وعمارة القصور** : تعد من الأبنية المهمة في دراستنا لأنها تلقى الضوء على حياة الخلفاء والحكام المسلمين عبر تاريخ حياة الفن الإسلامي عموما عمارة وزخرفة .

وتدل قصور الخلفاء والأمراء المسلمين على أن هؤلاء الحكام قد أقاموا فيها واستفادوا منها فهي بمثابة متاحف بما تحويه من رسوم فسيفسائية وصور بالألوان المائية ومنحوتات كما سجلت بعض الموضوعات التي توضح طريقة حياتهم وحياة المجتمع في ذلك العهد الذي لم توضح فيه المدونات التاريخية كل نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفنية .

وكانت بادية الشام تعج بالقصور الفخمة التي عكست الحضارة العربية الإسلامية في العصر الأموي وما وصل إليه الفن المعماري والزخرفي في تلك الحقبة .

فقد وضع الأب لامنس وهرتسفلد قائمة بمنازل وقصور الأمويين الصحراوية كما عدد سوفاجيه ، ثلاثين قصرا أمويا فالخلفاء الأمويون الذين جاؤوا بعد الوليد لم يقيموا في دمشق بصورة متواصلة بل أقاموا في قصور تقع على تخوم البادية قريبا من الأراضي الزراعية لعدم ألفتهم لحياة المدن بسبب توالي الأوبئة والأمراض على دمشق [ Lammens "1930" 196] فضلاً عن رغبة الخلفاء في التقرب من أهل البادية الذين تربطهم بالخليفة رابطة العشيرة والعادات

ويسعى الخليفة عادة لكسبهم في الملمات فضلاً عن سعي الخلفاء إلى الهدوء والراحة في البادية حيث يمارسون القنص والصيد فضلاً عما سبق فإن البادية مدرسة للأمراء الأمويين الذين كانوا يتعلمون بها العربية الخالصة ومن أشهر تلك القصور :

**قصير عمرة** : الواقع في واحة الأزرق على بعد حوالي 100كم من مدينة عمان على مرتفع قريب من مجرى وادي بطوم الذي يصب باتجاه الشرق في وسط منطقة صحراوية لا تسقط عليها إلا كميات قليلة من الأمطار .

وفضلاً عن المبنى الرئيس للقصر فهناك ملحق به من ناحية الشمال الغربي وعلى بعد

300 متر منه تقوم أطلال بناء صغير فيه مجموعة من الغرف تطل على فناء مكشوف كانت تستخدم لإقامة حاشية الخليفة وحراسه على الأغلب . [ الماغرو/ماتين وآخرون "1975" 14]

وكشف في هذا الموقع أيضا عن برج للمراقبة يمكن الحرس من الإشراف على مساحة واسعة من الموقع كما تم الكشف عن آثار أبنية للماء على الناحية الشرقية من القصر تتكون من بئر وساقية .

وكل القصر والمنشآت الملحقة به كانت محاطة بأسوار عريضة وقليلة الارتفاع بالقرب من

الوادي لغرض حماية التربة من الانجراف بالسيول الكثيرة أيام المطر .

وتتكون بناية القصر من قسمين رئيسين: القسم الأول منهما قاعة للإستقبال يتصدرها حنية على جانبيها مقصورتان صغيرتان ، أما القسم الثاني فهو جناح الحمام .

وقاعة الإستقبال واسعة مستطيلة الشكل يغطيها ثلاثة أقبية برميلية متوازية تستند على الجدران من جهة وعلى عقدين عرضيين من جهة أخرى . ومثل هذه الطريقة في التسقيف ظهرت بعد ذلك في دار السلام (مدينة بغداد المدورة) في الممرات الأربعة ذات الطاقات الكبرى التي استخدمت في البداية أسواقاً ثم أصبحت بعد ذلك مقرا لحرس الخليفة المنصور كما استخدمت هذه الطريقة أيضا في بعض الوحدات البنائية في حصن الأخيضر الذي ترجح نسبته إلى العصر العباسي.

وفي نهاية القبو الأوسط لقاعة الاستقبال وبمواجهة المدخل توجد حنية كبيرة أطلق عليها اسم " حنية العرش " يغطيها قبو نصف إسطواني أقل ارتفاعا من أقبية سقف القاعة . وعلى جانبي حنية العرش غرفتان صغيرتان مظلمتان يغطي كلاً منهما قبو نصف إسطواني أكثر ارتفاعا من قبو حنية العرش وأقل رتفاعا عن أقبية قاعة الاستقبال وفي كل من بداية الأقبية الكبرى ونهايتها فتحت نافذة لإدخال الضياء الكافي إلى القاعة فضلاً عن الضياء الداخل إليها من المدخل.

وإلى يسار الداخل إلى قاعة الاستقبال باب صغير يؤدي إلى الحمام الذي درس دراسة موسعة وهو يشبه الحمامات التي كانت معروفة عند الرومان ويشتمل على ثلاث غرف رئيسة هي : الغرفة الباردة ويدخل إليها من قاعة الاستقبال ومسقوفة بقبو نصف إسطواني محوره عمودي على محور قاعة الاستقبال . وتلي القاعة الباردة قاعة دافئة يغطيها قبوان متقاطعان ويدخل إليها من القاعة الباردة أما القاعة الأخيرة فهي القاعة الساخنة وتغطيها قبة نصف كروية محمولة على أربعة مثلثات كروية والحمام مجهزة بأنابيب الماء التي أخفيت في الارضية أو في الجدران . [حسن "1948" 44-45 ]

ومادة بناء الحمام هو الحجر الجيري الأحمر المغطى بطبقة سميكة من الملاط ، أما الأرضية فمبلطة بألواح المرمر .

ويلحق بالحمام أيضا الموقد أو المشعل وخزان للماء ومرافق أخرى . وترجع شهرة قصير عمرة إلى احتوائه على صور جدارية في مثل هذا الوقت المبكر من العصر الإسلامي في ذات الوقت الذي نادى فيه كثير من الفقهاء بتحريم التصوير وخاصة صور الكائنات الحية إذ يزين جدران هذاالقصر وأقبيته من الداخل صور منفذة بالألوان المائية (فريسكو) متنوعة المواضيع

دب التلف إلى معظمها بعد أن صورتها البعثة العلمية التي ترأسها موزيل والتي أتيح لها أن تكشف هذا البناء لعلماء الآثار منذ سنة 1898م . وقد قامت مؤخرا بعثة إسبانية بترميم تلك الصور وإعادتها إلى سابق عهدها .

وتمثل النقوش التي تفذت على الجدران رسوم راقصات ونساء شبه عاريات ورسوم صيد واستحمام وصور رمزية تمثل الهة الشعر والفلسفة والنصر والتاريخ والحب عند الاغريق داخل مناطق مربعة أو معينية الشكل فضلاً عن صور أخرى متعددة داخل مناطق مربعة الشكل وكل مربع يتضمن مشهدا من مشاهد العمل كالفخاري والنجار والمزارع وغيرهم كما عالج الفنان مواضيع أخرى تعبر عن الهدف من بناء هذه المجموعة السكنية فهي تمثل مشاهد صيد الظباء وذبحها وسلخها كما تظهر مشاهد استحمام وتمارين رياضية وأوضاع مصارعة ومنازلة فضلا عن بعض الصور لنساء عاريات .

وفضلاً عما تقدم من مشاهد على الجدران فهناك ثلاثة موضوعات متميزة : الموضوع الأول مشهد قبة للسماء مزينة بالنجوم والكواكب داخل القاعة الساخنة من الحمام وهي صورة رمزية للسماء وما فيها من أجرام تدل على تفهم عميق للظواهر الطبيعية أما الموضوعان الآخران فأحدهما في صدر حنية العرش يمثل الخليفة جالسا على عرش ومحاطا بهالة من نور حول رأسه ويحف به شخصان وتظله مظلة تستند على عمودين حلزونيين وكانت على عقد المظلة كتابة كوفية أصابها التلف . أما المشهد الثالث والمهم فهو ما عرف باسم "صورة أعداء الإسلام" وقوامها ستة اشخاص يرتدون ملابس فاخرة مرسومين بصفين : ثلاثة منهم في الصف الأمامي وثلاثة في الصف الخلفي وفوق أربعة منهم كتابة بالعربية والإغريقية لا تزال باقية. فالشخص الأول من يسار الصف الأمامي كتب فوقه كلمة قيصر بالعربية واليونانية والثاني وهو في الصف الخلفي كتب فوقه كلمة يرجح أنها لوذريق آخر ملوك الغوط الإسبان وقد قتل حين قضى العرب على جيشه في معركة (شريش سنة 93هـ/711م) أما الشخص الثالث وهو في الصف الأمامي فقد سجل فوقه كلمة ( كسرا) ملك الفرس والرابع وهو في الصف الخلفي كتب فوقه كلمة النجاشي ملك الحبشة .

وقد رجح المستشرق السويسري فان برشم أن الأشخاص المرسومين في الصف الأمامي هم ملوك إمبراطوريات كبيرة في حين أن المرسومين في الصف الخلفي هم ملوك دول صغيرة ورجح أن الشخص السادس ربما كان أحد الأمراء الترك الذين حاربهم قتيبة بن مسلم الباهلي قبل أن يفتح سمرقند سنة (93هـ/711م) وربما كان داهر ملك السند

الــذي قتلــه محمــد بــن القاســم سـنة (93هـ/711م) حين فتح تلك الأقاليم .

وأعد ((فان برشم )) هؤلاء الأشخاص " أعداء الإسلام " عامة وأعداء الوليد بن عبـد الملك خاصة ، وعلى أساس هذه الصورة فقـد رجح أن القصر يرجع إلى المرحلة الواقعـة بـين معركة شريش سنة (92هـ/710م) أو سقوط سمرقند سنة (93هـ/711م )ووفاة الوليد بـن عبد الملك سنة 96هـ/714م . [حسن"1948" 46-47 ]

إن الصور المنفذة في هذا القصر هلنستية الطراز بوجه عام وذلك واضح في الرسوم الآدمية ورسوم آلهة الحب والنصر والشـعر والتـاريخ والفلسفة فضلاً عن الشبه الكـبير في الملابـس والزخارف مع مثيلاتها ببعض الكنائس والقبـور السورية الهلنستية .

وعلى الرغم من أن الرســوم الســابقة تعكس الطابع الكلاسيكي إلا أن شخصية الفنان العربي واضحة فيها وخاصة في عمليات التحوير والتبسيط التي بدت في رسوم الهيئات الآدمية مما ينسجم مع مفهوم الفن العربي وليس من شـك إطلاقا في هوية الفنان الذي نفذ هذه الصـور ، فهو عربي آرامي أو عربي مسلم من السـوريين نفذ صوره بالطريقة التقليدية التي كانت سـائدة في ذلـك القطـر . [بهنسـي "1980" 183 ] فالرسوم تتميز بالتنوع في الموضوعات والسـعي لتقسيم المشهد إلى وحدات أصبحت فيمـا بعد من صـفات التصـوير عنـد العـرب . [ ايتنكهاوزن "1973" 29 ]

وهناك من يقول بأن القاعة الرئيسـة في قصير عمره قد تأثرت بتخطيط البازيليكا الـتي تتكون من ثلاثة أروقة متوازية وهو قول مردود لأن أروقة البازيليكا يفصلها بعضها عن بعـض بائكات تتكون الواحدة منها من جملـة عقـود يحملها صف من الأعمدة تجعل كل رواق منـها يكاد أن يكون قائما بذاته فضلاً عن أن الرواق الأوسط في النظام البازيليكي يكون أعرض كثيرا من الرواقين الجانبيين وكل ذلك ينفي الصلة بين التخطيطين وإن تسقيف القاعة الكـبرى بهـذه الصورة يعـود إلـى صعوبة الحصـول علـى ألواح الخشب التي تكون عرضة للسرقة أيضـاً . [شافعي "1970" 185/1 ]

ويرجح أن فكرة الحمام بوحداته الثلاث الملحقة بقصير عمرة قد جاءت من حمامات قديمة عثر على بقاياها في بلاد الشام . وكلها صـور مصغرة للحمامات الرومانية ولكـن الجديـد في قصير عمرة أن الحمام أصبح جزءاً عضوياً مـن البناء وليس مستقلاً بذاتـه . [Creswell 276-278 Figs 321-322 ]

ولم يعثر على حمام مشابه بعـد هـذا الحمام إلا حمام الصرخ الذي يؤرخ من نحو سنة (115 هـ / 733 م ) ويظهر من مقارنته مع

الحمامات الرومانية الفارق الكبير بين التصميمين.

ويبدو واضحا في رسوم هذا الحمام أن هناك يداً فنية مستقلة قامت بتنفيذ مشاهد معينة على جدران الحمام لأنها تختلف عن رسوم القاعة الكبرى في هذا القصر .

ومن العناصر العمارية البارزة في قصير عمرة الأقبية الطويلة والأقبية المتقاطعة وهي مشيدة بالحجر . وكانت معروفة قديماً واستمر استخدامها في العصور التالية.

أما القبة المشيدة فوق القاعة الساخنة فهي شامية الأسلوب ويرجع الفضل في استعمال الحجر في بنائها إلى البنائين الشاميين الذي مهروا في استعمال الحجر المنحوت في البناء وكذلك الإقبال على استخدام المثلثات الكروية في تحويل القاعدة المربعة إلى دائرة تقوم عليها القبة فالفضل في ابتكارها أو في الوصول بها إلى مرحلة النضج يرجع أيضاً إلى الفنانين والصناع الشاميين. علماً أن هذه الظاهرة التي استخدمت في العصر الإسلامي المبكر لم تستمر إلا قليلاً .

: من أبرز الآثار الأموية في خربة المفجر على بعد 5 كليو مترات إلى الشمال من أريحا وتظهر عظمة هذا القصر بمشاهدة القطع المختلفة التي جمعت وركبت في المتحف الفلسطيني في القدس ، كما تخيلها المختصون من رجال الآثار وهناك تتم الزيارة الحقيقية للقصر .

فهو من أعظم القصور الأموية على الإطلاق ويضيف صفحة لامعة الى صفحات تاريخ الأمويين لما حواه من نفائس الفنون المرسومة والمحفورة والمنحوتة فضلاً عن الزخارف الفسيفسائية .

وقد نسب هذا القصر إلى هشام بن عبد الملك عاشر خليفة من بني أمية بويع بالخلافة سنة (105 هـ / 723 م) وامتدت خلافته نحو عشرين عاماً واشتهر بحبه للبناء وقد عثر بين أنقاض هذا القصر على كسرة من الرخام كتب عليها هشام أمير المؤمنين . كما عثر على قطع مسكوكات هي مما تركة العمال في هذا القصر ويظهر من أسمائهم أنهم كانوا مسلمين كجعفر وعنان وسعيد ومسيحيين كقسطنطين وسيمون ويوحنا ومرقص وقد عملوا معاً في إنجاز هذا العمل .

يتكون القصر من ثلاثة أقسام رئيسة هي : القصر والمسجد والحمام والأقسام الثلاثة بنيت على امتداد ضلع ساحة كبيرة تتقدمها وكانت هذه المنشآت محاطة بسور يمتد حوالي كيلومترين باتجاه نهر الأردن لعل الخليفة كان يمارس هوايته في الصيد ضمن نطاقه .

والساحة الأمامية لهذا القصر محاطة برواق معمد من الجهات الشمالية والشرقية والجنوبية ويتوسطها بركة جميلة تشبه قبة الصخرة في تخطيطها ومظهرها ، والنافورة تقوم تحت قبة

في وسط البركة يحيط بها أعمدة جميلة وبوائك صغيرة . [ Baramki "1969" 206-207 ]

القصر بتخطيطه أشبه بالقلاع الرومانية فهو مربع الشكل تقريباً ( 5 ، 64 متر × 25 ، 64 متر ) . وكانت فتحات بعض النوافذ مغطاة بالزجاج وبعضها بمشبكات من معجون الجص أو الحجارة المخرمة .

ومدخل القصر يقود إلى إيوان مسقف بقبوين متقاطعين جدرانه مكسوة بطبقة من الجص ومؤزرة بالزخارف النباتية والهندسية التي تتخللها رؤوس عليها العمائم ورؤوس لنساء عليها الخمر مما لا يدع مجالاً للشك في عروبة هذا القصر وبعضها تمثل أشكالاً لنساء شبه عاريات جالسات ويحملن باقات الزهور ومن تلك الأشكال أيضاً رؤوس لطيور ولحيوانات برية ومدجنة .

ويؤدي الإيوان إلى صحن القصر الذي تحيطه خلوات يتقدمها رواق من جميع الجهات .

وفي وسط الجناح الجنوبي للقصر مسجد ومحراب صغير ومئذنة يرجح أنه مسجد خاص بالخليفة وحاشيته وكانت جدرانه مغشاة بالرخام أما محرابه فبسيط وخال من الزخرفة . [Baramki 206-212]

والجناح الغربي للقصر كان سكن الخليفة ويتكون من العديد من الغرف والقاعات تتصل بعضها مع بعض بأبواب داخلية دون أن يضطر الساكن للخروج إلى الرواق أو الى الصحن .

أما الجناح الشمالي فيتكون من قاعة كبيرة يحتمل أنها كانت تستخدم للمناسبات وفي الجناح الشرقي منه العديد من الغرف على شكل مجموعتين لا تتصلان إحداهما بالأخرى.

أما الطابق العلوي للقصر فمهدم تماماً ولكن بقاياه من الأعمدة والزخارف الجصية والفسيفسائية فضلاً عن رسوم منفذة بالألوان المائية وجدت بين الأنقاض في الطابق الأرضي.

وكانت جدران غرف الطابق العلوي مكسوة بالجص وعليها الزخارف المنفذة بالألوان المائية بعضها تمثل أشكالاً آدمية .

أما الحمام فيقع في الجانب الغربي ويترل إليه بدرج وأرضية القسم الأمامي منه مغطاة بالفسيفساء ، ولهذا الحمام بابان أحدهما يؤدي مباشرة إلى القصر ويرجح أنه كان لاستعمال الخليفة والمقربين إليه بينما ينفتح المدخل الرئيس على صحن صغير .

وبناء الحمام مربع الشكل ذو ثلاث خلوات كبيرة في الجهات الشمالية والشرقية والغربية ، وقد بني مدخله على شكل برج مربع تعلوه قبة وفي واجهته حنايا في أحدها تمثال من الجص يرجح أنه للخليفة هشام واقفاً على أسدين وتمثال آخر يمثل جندياً مسلحاً ، أما باطن القبة

فمزين بصف من الخراف الجالسة المنفذة بالجص الملون وفي كل حنية تمثال لشخص مسلح ومحاط بإطار مزخرف.

والقاعة الرئيسة للحمام يقسمها (16) دعامة ضخمة يتصل بكل منها أربعة أعمدة مندمجة في الأركان وفي الجهة الجنوبية من هذه القاعة توجد بركة . أما الغرفة الدافئة فتقع في الجهة الشمالية من القاعة الرئيسة وهناك عدة أبواب يؤدي كل منها إلى خلوات وغرف جدرانها مغشاة بالفسيفساء ، وإحدى الغرف مزودة بمقاعد وبلطت أرضيتها بالفسيفساء كما بلطت إحدى الحنايا بزخارف فسيفسائيةممثلة بمشهد فني جميل جداً يمثل شجرة رمان ضخمة محورة عن الطبيعة وعلى الجهة اليسرى منها غزالان يقضمان أوراق الشجر وعلى الجهة اليمنى أسد يفترس غزالاً ثالثاً ، ويحيط بالمشهد ما يشبه السجادة استعمل في تنفيذها ستة عشر نوعاً من الحجر . فضلاً عن لوحات أخرى تمثل رسوماً هندسية تحيط بها إطارات من حلقات ودوائر وواضح في هذا المشهد أثر الأساليب المحلية القديمة في رسم الشجرة وفي رسم الحيوانات التي روعي فيها قسط وافر من الواقعية والقرب من الطبيعة . [ حسن "1956" 560 شكل 59 ]

ومن رسوم هذا القصر أيضاً فتيات جميلات يرتدين ثياباً نفيسة ويلففن حول خصورهن قطع القماش الزاهية الألوان ويحملن الرياحين والأواني المليئة بالزهور ومن بينهن خصيان نصف عراة . [ العابدي "1973" 53،56]

ومن أشهر القصور التي أنشأها الأمويون في البادية **قصر المشق** في البلقاء على بعد عشرين ميلاً جنوب شرقي عمان .

وللأستاذ ليرد الفضل في الكشف عن هذا القصر سنة ( 1840 م) ثم ترسترام سنة (1872م ) وقام بدراسته أيضاً شولتز واعتمد عليهم من جاء بعدهم من علماء الآثار ومنهم كريزويل . [ سامح "1982" 43 ]

والمشتى قصر صحراوي غير تام البناء وفي حالة مهدمة عند اكتشافه ونقلت أهم أجزائه من الزخارف المحفورة على الحجر الجيري في الواجهة الجنوبية منه إلى متاحف الدولة في برلين مهداة من السلطان العثماني عبد الحميد إلى القيصر الألماني غليوم الثاني. [سامح "1982" 4]

يحيط بالقصر سور مربع الشكل طول ضلعه ( 144متراً ) وسمك الحائط الداخلي (1.70 متراً ) ويكتنفه خمسة وعشرون برجاً إسطوانياً تبتعد بعضها عن بعض ( 19 متراً ) وقطرها ( 5.25 متراً ) ، أما برجا المدخل فكل منهما نصف مثمن .

ويمتاز القصر بكثرة الوحدات البنائية فيه فهو مقسم إلى ثلاثة أجنحة تمتد من الشمال إلى الجنوب ، الجناحان الجانبيان منها لم يتم إنشاؤهما

أما الجناح الأوسط فعرضه (57متراً ) وهو الوحيد الذي تم بناء بعض أجزائه وهو مقسم إلى ثلاثة اقسام يضم القسمان الشمالي والجنوبي منها الأبنية الرئيسة للقصر أما القسم الأوسط فهو بشكل ساحة مكشوفة .

والجزء الشمالي من الجناح الوسط كان مقراً للخليفة ، أما الجزء الجنوبي فهو ممرات وحجرات عديدة فضلاً عن مسجد وإلى هذا الجزء ينفتح المدخل الوحيد إلى القصر والذي كانت تزينه من الخارج الواجهة الحجرية المشهورة

ويضم القسم الجنوبي المتاخم للمدخل بهواً واسعاً ومجاميع من الغرف تتكون من طابقين كما توجد إلى يمين المدخل غرفة مستطيلة الشكل في حائطها الجنوبي حنية مجوفة يرجح الها محراب وأن تلك الغرفة كانت " مسجد القصر".

أما القسم الشمالي من الجناح الأوسط فيتألف من صالة ثلاثية الحنايا متصلة بممر طويل وحولها دهاليز عديدة تؤدي إلى مجموعات من الغرف تشكل أربعة بيوت مستقلة كل بيت مكون من زوجين من الغرف يفصلها فناء مكشوف ومسقوفة بأقبية. [ الالفي "1984" 154 ] ويلاحظ أن الأبواب فيها تتوسط الجدران المطلة على الفناء الأوسط كما يلاحظ أن أقبية الغرف مبنية بسمك طابوقة ونصف أما العقود فهى مدببة والأبراج المتصلة بالجدار الخارجي إسطوانية الشكل يلاحظ في بعضها دورات مياه لاستخدامات الحرس .

وأشهر وأهم ما في هذا القصر من بقايا هي اللوحات الفنية ذات الزخارف الجميلة الدقيقة والتي كانت تزين الواجهة الجنوبية منه وكان ارتفاع هذه الواجهة ستة أمتار وقد لفت الأستاذ ستريجفسكي نظر القيصر الألماني غليوم إليها واستطاع الأخير أن ينال هذه الواجهة هدية من السلطان العثماني عبد الحميد سنة (1903م)وتم نقلها إلى متحف القيصر فردريك في برلين حيث أصبحت نواة للقسم الإسلامي الذي افتتح في متاحف الدولة في برلين سنة (1932 م ) .

وتقوم هذه الواجهة فوق قاعدة منخفضة وثمة شريط زخرفي من نبات الأكانتس يرتفع وينخفض فيقسم الواجهة إلى مثلثات عديدة بعضها قائم على قاعدته والبعض الآخر قائم على إحدى زواياه . بحيث تظهر في مجموعها على شكل شريط منكسر وفي وسط كل مثلث فيها حيوانان متقابلان يفصل بينهما إناء وتحيطهما زخارف نباتية بعضها شبيه بالزخارف المنفذة على التحف القبطية في مصر.

وتبدو في زخارف هذه الواجهة لقصر المشتى محاولات الفنانين القلقة لإشاعة الانسجام

في التأليف بين التفافات الزخارف النباتية في المثلثات . [ كونل "1966" 25-26]

والملاحظ على عشرة من المثلثات المزينة للواجهة أنها خالية من رسوم الطير والحيوان ونلاحظ في بعضها رسوماً مركبة ومراوح نخيلية مجنحة فضلاً عن الفروع النباتية وعناقيد العنب . أما باقي المثلثات والبالغ عددها اثني عشر مثلثاً فنلاحظ فيها رسوماً للطير والحيوانات الخرافية والطبيعية .

وقد اختلفت الآراء في تحديد هوية قصر المشتى وتاريخه ووضع العلامة كريزويل قائمة طويلة بهذه الآراء وهي تنسب القصر إلى الأخميين أو إلى المناذرة أو إلى الغساسنة أو إلى الأمويين ويؤكد كريزويل رأي هرتسفلد القائل بأن هذا القصر أموي وأن بانيه هو الخليفة الأموي الوليد الثاني بين عامي ( 125-126 هـ / 742-743م ) مستنداً إلى إشارة لصاحب كتاب الأغاني من أن الوليد الثاني أنشأ قصراً في البلقاء وبمقارنة هذا القصر مع قصور ومساجد أموية أخرى رجح هذه النسبة .

وأشار لا منس إلى كتاب ساويرس بن المقفع الذي ينسب إلى الوليد الثاني الشروع في بناء مدينة لنفسه في الصحراء جمع لها العمال والصناع من جميع البلاد ومات كثير منهم بسبب الإرهاق وقلة الماء فثار عليه رجل يسمى إبراهيم فقتله واستولى على مقاليد الأمور وأطلق العمال الذين تفرقوا قبل أن يتم البناء فرجح ان هذا القصر هو المشتى . [بهنسي "1980" 162-163]

ومما لا جدال فيه أن مثل هذا البناء الضخم لم يكن ليستطيع التفكير في بنائه إلا خليفة أو شخص ذو سلطان توافرت له الأموال الطائلة واستطاع أن يجمع خيرة العمال والصناع والمهارات من أنحاء مملكته لتنفيذه فضلاً عن أن مادة البناء وبعض العناصر العمارية تؤكد نسبة قصر المشتى إلى بداية العصر الإسلامي ولا سيما مادة الآجر والعقود والأقبية كما أن بعض العناصر الزخرفية تشبه إلى حد كبير زخارف قبة الصخرة فضلاً عن الحنية التي رجحنا أنها كانت محراباً لمسجد القصر.

وقد ذهب الذين ينسبون القصر إلى العصر الأموي مذهبين الأول نسبه إلى يزيد الثاني ( 101-105هـ / 719-723م ) وأما الفريق الثاني فينسبه إلى الوليد الثاني ( 125-126هـ/ 742-743م ) ومهما يكن من أمر فإن كلا الرأيين يشيران إلى أن القصر يعود إلى العصر الأموي دون شك. [حسن "1948" 52 ]

لقد تميز قصر المشتى باستعمال الآجر المربع وكتل الحجارة المنتظمة الشكل بوقت واحد وهي طريقة عرفناها في قصر ابن وردان من القرن السادس الميلادي ، كما تبين أن

جدرانه الداخلية وأقبيته قد بنيت بالآجر على قاعدة من الحجر أما عقوده وأركانه فقد بنيت بالحجر الجيري وواضح أيضاً أن البناء قد اعتمد التقسيم الثلاثي الذي لم يتبع في بناء آخر قبل هذا القصر . [ حسن 50 ]

أما بالنسبة لتخطيط قاعة العرش ذات الحنايا نصف الدائرية في الجناح الأوسط من هذا القصر فهي نظام بابلي واتبع في سوريا في (قصر القسطل) على بعد 6كم إلى الغرب من المشتى كما وجدناه في الطابق العلوي من قصر حرانة المرجح نسبته إلى ما قبل الإسلام . أما الحنيات الثلاث نصف الدائرية فقد وجدناها قديماً في الحمامات الرومانية في تونس والجزائر كما وجدناها في بيت المقدس. [ الشافعي "1970" 1/186-187 ]

أما في **ميدان الفنون الزخرفية** فقد حرص الإنسان منذ أقدم العصور على زخرفة البناء بالمواد المختلفة وأن اختلفت الوسائل من مادة إلى أخرى وعندما بزغت شمس الإسلام انصرف المسلمون عن هذا الميدان خاصة في زمن الرسول ﷺ وخليفتيه أبي بكر وعمر ﷺ لانشغال المسلمين آنذاك بفتح البلاد وتثبيت أركان الدين الإسلامي الحنيف إلا أن هذه النظرة تبدلت ابتداءً من زمن الخليفة عثمان إبن عفان ﷺ إذ وسع مسجد الرسول ﷺ في المدينة وأعاد بناءه بالحجارة المنقوشة والجص وسقفه بخشب الساج المحمول على أعمدة من الحجارة المنقوشة بعد أن كان مبنيا بالطين وسعف النخيل وجذوعه ، كما سمح للرعية بالاستقرار والبناء في المدن والامصار الجديدة.

وفي العصر الأموي ظهرت الفنون الزخرفية مرتبطة بعمارة المساجد والقصور بصورة خاصة فانطلق المسلمون في ميدان البناء والزخرفة فشيدوا قصورا ومساجد رائعة زينت بزخارف نفيسة غاية في الدقة والجمال لا تزال تذكر بفخر ويشار إليها باعتزاز ومادون عنها في الكتب وما هو قائم منها حاليا يدل على فخامة البناء وعظمة البنائين والفنانين وكان لتشجيع الخلفاء وذوي السلطان لهذه الفنون دافع قوي على تطويرها وازدهارها وتفاعل عناصرها فولدت منها عناصر إسلامية بحتة بعيدة عن الأصول التي اشتقت منها أو تأثرت بها وأقبل الفنانون على الزخرفة بها وتنفيذها في الميادين المختلفة وعلى المواد المتنوعة وما هو قائم من تلك الآثار في الوقت الحاضر يطرز بقاعا مختلفة من العالم ويملأ المتاحف والمكتبات وهو يشهد لهذه الامة بالبراعة ويؤكد ما وصل إليه المسلمون في ميدان الفنون والعمارة .

**الزخرفة على الجص** : وكان الجص المادة الرئيسة في تجميل الكثير من الأبنية الدينية والمدنية في العصر الأموي . [ ديماند "1958" 90-95 ] وبطرق مختلفة كالحفر الغائر والحفر

البارز والحفر النافذ وكذلك الزخرفة بالألوان المائية فوق أرضية جصية فضلاً عن استخدامه في صنع التماثيل وقد شاهدنا كل هذه الزخارف في قصر هشام في خربة المفجر إذ عثرنا فيه على تماثيل وستائر جصية مخرمة تسد بعض فتحات نوافذ القصر فضلاً عن الألواح ذات الزخارف المحفورة والمرسومة بالألوان المائية.

ووجدنا في قصر الحير الغربي زخارف جصية غاية في الدقة والجمال منها مجموعة من الزخارف النافرة في واجهة القصر قوامها أوراق الاكانتس وأوراق العنب والمراوح النخيلية وزخارف هندسية مختلفة كما عثرنا أيضا على لوحات جصية عليها أشكال نباتية محورة عن الطبيعة أو هندسة مجردة بارزة أو مفرغة فضلاً عن النحت التشبيهي والذي منه تمثال لشخص يرجح أنه الخليفة هشام بن عبد الملك وتماثيل نصفية لنسوة وتمثال لرجل مضطجع وإلى جانبه امرأة وتمثال لفارس وآخر لرجل جالس فضلاً عن قطع جصية منحوتة لخراف وحيوانات متنوعة وتمثال نسر. [بهنسي "1980" 184-186،185-188 ]

**اما الزخرفة على الحجر**: فقد أبدع فيها الفنان العربي في هذا العصر لاسيما في الأماكن التي تتوافر فيها هذه المادة . وقد أظهرت التحريات والتنقيبات الأثرية الكثير من مثل هذه الزخارف متخلفة عن القصور والدور والمساجد التي شيدت أيام حكم الأمويين ومن جاء بعدهم وتدل هذه الزخارف على عظمتها وروعتها . ويعد قصر المشتى الأموي من أعظم آثار القرن الثامن الميلادي في دراسة الزخارف على الحجر وتعد واجهته من أبدع وأجمل النماذج في هذا الميدان وقد أشرنا إليها سابقا .

فضلاً عن الزخارف الفسيفسائية ففي قبة الصخرة لوحان من الرخام ذي الزخارف المحفورة يمكن نسبتهما إلى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان وتجمع زخارفهما بين العناصر الهلنستية والساسانية فضلاً عن محراب أسفل الصخرة يرجع ألى التاريخ نفسه على الأرجح وكان الجامع الأموي في دمشق مشهورا بالزخارف الرخامية الجميلة التي كانت تغطى أرضياته وتؤزر جزءاً كبيرا من جدرانه . ومما يمكن نسبته إلى عصر بناء الجامع ستائر النوافذ الست المصنوعة من الرخام المفرغ في أشكال هندسية متداخلة . [ Creswell "1940" 139-141 ]كما عثر في هذا المسجد على لوح من الرخام عليه زخارف نباتية جميلة ترجح نسبته إلى نهاية القرن الأول الهجري .

وبقي أن نشير إلى مثال آخر هو محراب عثر عليه في جامع الخاصكي في بغداد ومحفوظ الآن في المتحف العراقي يتكون من قطعة واحدة من الرخام الأبيض المصفر على شكل حنية بيضوية مجوفة ويحف به من كل جانب عمود

ويحمل العمودان عقدا نصف دائري وبين العمودين شريط راسي زخرفي بارز قليلا تزينه زخارف نباتية متنوعة وآنية وقرون الرخاء وكيزان الصنوبر والراجح أن هذا المحراب يرجع إلى عهد الخليفة العباسي المنصور ولكن الأساليب الأموية بقيت متبعة أثناء النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي وهي مرحلة الانتقال التي يمر بها كل فن بعد زوال السلطان السياسي . فالأسباب الفنية التي عرفها المسلمون في نحت الحجر والجص في العصر الأموي بقيت سائدة في بداية حكم بني العباس إلى أن ظهر الطراز العباسي في الزخرفة.

**وميدان الزخرفة بالفسيفساء** : من الميادين الواسعة التي عرفت قبل الإسلام ثم أقبل عليها المسلمون في العصر الأموي على وجه الخصوص .

وكلمة الفسيفساء مشتقة من اللغة اليونانية ، ويقصد بها أساسا الموضوعات الزخرفية التي تتكون عن طريق لصق قطع صغيرة أو فصوص أو صفائح الصدف أو غير ذلك وتثبيتها بعضها إلى جانب بعض فوق مادة لاصقة كالملاط أو الجص على وفق تصميم سابق للشكل المراد تنفيذه وبالألوان المحددة لتكوين الزخرفة المطلوبة وكان للأغريق ثم الرومان شهرة واسعة في تنفيذ الأشكال الزخرفية بالفسيفساء الحجرية على الأرضيات بصورة عامة ثم اتسع نطاق استعمالها في الفن البيزنطي بالفسيفساء الزجاجية على الجدران والقبوات واستخدمها المسلمون ابتداءا من العصر الأموي على الجدران والأرضيات معا ونفذوها بالمكعبات الزجاجية الصغيرة وأضافوا إليها في بعض الأحيان المكعبات الحجرية والصدفية . [ غالب "1988" 301-300 ]

وأجمل ما وصل إلينا من زخارف الفسيفساء الإسلامية هي التي تغطي الجدران والأرضيات والعناصر العمارية في قبة الصخرة والمسجد الأقصى والجامع الأموي بدمشق وقد تكلمنا عليها سابقا بشيء من التفصيل .

كما وجدنا الزخارف الفسيفسائية في كثير من القصور الأموية التي شيدها الخلفاء داخل المدن أو في البادية ، وأجمل القطع الفنية الفسيفسائية وجدناها في قصر هشام بخربة المفجر والتي تحدثنا عنها سابقا . أما في قصر خربة المنيا فقد وجدت أرضيات بعض القاعات فيه مغطاة بلوحات فسيفسائية جميلة السائد فيها هو الطابع الهندسي من خطوط مجدولة وأشكال مربعات ومعينات ونجوم أو دوائر بالألوان الأسود والأبيض والأحمر والأصفر . [ حسن "1956" 564 شكل 961-962 ]

**أما في ميدان الصور والرسوم المنفذة بالألوان المائية** على الجدران فأهمها على الإطلاق ما نفذ على جدران قصير عمره وقد أشرنا إليها

سابقا كما نفذت مثل تلك الصور على جدران قصر الحير الغربي الذي شيده الخليفة هشام على الأرجح فقد صورت تلك الجداريات رسوماً لرؤوس بشرية وأحدها يمثل صورة نصفية لسيدة تمسك برداء فيه فاكهة لعلها تمثل الآلهة جينا آلهة الأرض تطوق عنقها أفعى . [ أحمد "1989" 162 ]

أما الصورة الثانية في تلك الجداريات فتتكون من مستطيل مقسم إلى ثلاثة اشرطة : العلوي منها يشغله موسيقيان أحدهما إمرأة تعزف على العود والثاني رجل ينفخ في مزمار إتجه أحدهما نحو الآخر ويلاحظ تحتها شاب يمتطي جوادا يطارد غزالين يسقط أحدهما على الأرض جريحا بينما يهرع الآخر مذعورا .

و لم يكن الإهتمام كبيرا في **ميدان التحف والصناعات المعدنية** في بداية العصر الإسلامي وظل الاقتباس واضحا في كل التحف التي ترجع إلى فجر الإسلام ، وثمة أطباق من الفضة ترجع إلى هذه الحقبة تزينها مناظر صيد وموضوعات آدمية فضلاً عن مجموعة من الأباريق البرونزية ومجموعة تحف على شكل حيوان أو طائر (اكوامانيل) .

وأجمل الأباريق التي وصلت إلينا وأكثرها شهرة هو إبريق محفوظ في متحف الفن الإسلامي في القاهرة ينسبه معظم علماء الآثار إلى الخليفة الأموي مروان بن محمد ويتكون من قاعدة فوقها بدن كروي ذو رقبة إسطوانية ومقبض جميل وصنبوره على هيئة ديك مبسوط الجناحين .

أما التحف المصنوعة على شكل حيوان أو طائر فقد نسب أكثرها إلى بداية العصر الإسلامي وهي مباخر أو آنية للماء أو ديك أو غزال أو حصان أو أسد وغيرها. [ حسن "1948" 508-512، 510 ]

إلا أن أجمل الصناعات المعدنية من هذه الحقبة والتي لها صلة مباشرة بالعمائر التي أنشأها الأمويون هي الصفائح المعدنية التي غطيت بها الروابط الخشبية في قبة الصخرة والتي تعد من أجمل ما أنتجه الفنان في العصر الأموي وتعتمد عناصرها الزخرفية بالدرجة الأولى على عناقيد العنب وأوراقه وتفريعاتها فضلاً عن المراوح النخيلية وكيزان الصنوبر وكلها منفذة بطريقة الضغط من الخلف . والأجزاء البارزة من هذه الزخرفة مذهبة أما أرضيتها فملونة باللون الأسود. والزخرفة تضم على أية حال معظم العناصر المألوفة في الطراز الأموي والتي نجدها في زخارف قبة الصخرة وقصر المشتى والجامع الأموي بدمشق ومنبر جامع القيروان وغيرها .
[ حسن "1956" 454 شكل 443، 442 ]

**والنقش في الخشب** : عرف عند العرب قبل الإسلام لا رتباطه الوثيق بحياتهم وكان للإسلام فضل كبير في بروز هذه الصناعة

وتطورها وأصبحت من الميادين البارزة في تاريخ الفنون الإسلامية .

وقد تأثر الصناع في فجر الإسلام بالأساليب والعناصر الزخرفية التي كانت منتشرة في البلاد المحررة إلا أنهم طوروها تدريجيا ونفثوا فيها من روحهم فكانت لهم أساليبهم الخاصة المميزة . [ مرزوق "1974" 165-166 ]

لقد وصلت إلينا من هذه المرحلة قطع خشبية كثيرة تمثل الفترة الأولى من مراحل تطور الفن الإسلامي وأول تلك القطع التي تتمثل فيها سمات الطراز الأموي باب محفوظ الآن في متحف بناكي بمدينة اثينا وتغطي هذا الباب زخارف على هيئة عقود مفصصة وزخارف نباتية متنوعة شاعت في العصر الأموي وهناك قطعتان خشبيتان محفوظتان في متحف المتروبوليتان في نيويورك زخارفهما تشبه زخارف باب بناكي وخير ما يمثل الأخشاب المزخرفة في بلاد الشام من العصر الأموي وكسوات أطراف العوارض الخشبية الحاملة لسقف البلاطة الوسطى للمسجد الأقصى والتنوع الكبير في زخارفهما يشهد بمهارة فنية عالية.

أما في مصر فلم يكن غريبا أن يزدهر فن الحفر في الخشب وهناك مجموعة من التحف الخشبية في متحف الفن الإسلامي في القاهرة ترجع إلى أواخر القرن الأول الهجري أو إلى القرن الثاني الهجري تظهر عليها تأثيرات التحف التي وجدت في العراق أو تلك التي وجدت في بلاد الشام وتوضح بأن مراحل التطور في مصر أسرع بكثير مما آلت إليه في بلاد الشام وكل القطع الخشبية التي تنسب إلى هذه الحقبة توضح أن الفن الإسلامي كان مزيجا من تقاليد وعناصر وأساليب المدارس الفنية في البلاد التي دخلت في نطاق الدولة الإسلامية وأن المسلمين طوروا في تلك الأصول التي أخذت منها .

وإذ ننهي بحثنا هذا لا بد من الإشارة إلى أنه عندما قامت الدولة العباسية لم تدخل الأندلس في نظامها السياسي وقامت فيها دولة أموية غربية ظلت تحكم فيها حتى سنة (422هـ/1030م) وكان الفنيون الأندلسيون في عصرها يحتفظون بمعظم الأساليب الفنية (عمارة وزخرفة) التي عرفها الأمويون في بلاد الشام فالتقاليد التي كانت سائدة في الشرق انتقلت في ظلهم إلى اسبانيا ونراها واضحة في الميادين المعمارية والزخرفية في النحت في الجص والحجر وفي الزخرفة بالفسيفساء .

**أ.د. غازي رجب**

## المصادر والمراجع:

القران الكريم

ابن الأثير عز الدين علي بن محمد (ت 630هـ/1232م)
(1867-1874) الكامل في التاريخ، ليدن ، مطبعة بريل.

ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله (ت 779هـ/1377م)
(1938) رحلة ابن بطوطة "تحفة النظار في غرائب الأمصار" ، القاهرة ، مطبعة مصطفى محمد ، جزءان .

ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن أحمد (ت 614هـ/1217م)
(1907) رحلة ، ليدن ،بريل .

ابن الحاج أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري (ت 737هـ/1336م)
(1929) المدخل ، المطبعة المصرية بالأزهر ، 4 ج .

ابن حنبل ، أحمد بن محمد (ت 241هـ/855م)
(1949-1953) المسند ، ط3 القاهرة 12 جزء .

ابن دقماق ، إبراهيم بن محمد (ت 809هـ/1406م)
(1893) الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، الجزءان الرابع والخامس ، القاهرة ، نشر فوللرس .

ابن رستة ، أبو علي أحمد بن عمر (ت نحو 290هـ/902م)
(1967) الأعلاق النفسية ، ليدن، بريل.

ابن سعد أبو عبد الله محمد بن سعد (ت 230هـ/844م)
(1904-1914) كتاب الطبقات الكبير ، 9 ج ، تحقيق أدورد سخاو ، ليدن.

ابن شداد ،أبو عبد الله محمد بن علي (ت 684هـ/1285م)
(1953-1956) الأعلاق الخطيرة ،دمشق.

ابن عساكر ، علي بن الحسن (ت 571هـ/1175م)
(1329-1331) التاريخ الكبير ، 7 ج ، مطبعة روضة الشام. (1951-1954) تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، دمشق ، مطبوعات المجمع العلمي العربية .

ابن الفقيه ، أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني (ت نحو 340هـ/951م)
(1873 ) مختصر كتاب البلدان ، ليدن ، بريل .

ابن كثير ، عماد الدين ابو الفدا إسماعيل بن عمر ( ت 774هـ/1372م)
(1351-1358) البداية والنهاية ، القاهرة ، مطبعة دار السعادة ، 14 ج

الازرقي ، أبو الوليد محمد بن عبد الله (ت 250هـ/864م)
(1858) كتاب أخبار مكة ، تحقيق فستنفلد ،ليبزك .

البخاري ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت 256هـ/870م)
(1862-1908) الجامع الصحيح ،ليدن ، مطبعة بريل .

البلاذري ، أحمد بن يحيى (ت 279هـ/892م)
(1866) فتوح البلدان ، تحقيق دي كويه ، بريل .

الحنبلي ، مجير الدين عبد الرحمن بن محمد (ت 941هـ/1521م)
(1968) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ،النجف .

الرازي ،أحمد بن عبد الله (ت 460هـ/1067م)
( 1974 ) تاريخ مدينة صنعاء ، تحقيق حسين عبد الله العمري وعبد الجبار زكار، دمشق .

الربعي ، أبو الحسن علي بن محمد ( ت 444هـ/1052م)
(1950) فضائل الشام ودمشق .

السمهودي ، نور الدين علي بن عبد الله ( ت 911هـ/1505م)
(1909) وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، القاهرة ، مطبعة الآداب والمؤيد .

الطبري ، محمد بن جرير( ت 310هـ/922م)
(1887-1901) تاريخ الرسل والملوك ، بريل .

العمري ، ابن فضل الله شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت 749هـ/1348م)
(1924) مسالك الأبصار ، تحقيق أحمد زكي ، القاهرة .

المسعودي ، علي بن الحسين (ت 346هـ/957م)
(1893) التنبيه والإشراف ، ليدن.
(1976) مروج الذهب و معادن الجوهر، مطبعة السعادة ، القاهرة .

المقدسي محمد بن أحمد (ت 375هـ/985م)
(1906) أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ليدن ، مطبعة بريل .

المقريزي ، أحمد بن علي (ت 845هـ/1441م)
(1853) المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ، دار التحرير للطباعة والنشر عن مطبعة بولاق.

النعيمي ،عبد القادر بن محمد (ت 927هـ/1520م)
(1948) الدارس في تاريخ المدارس ، تحقيق جعفرالحسني ، دمشق ، مطبعة الترقي .

ياقوت ، شهاب الدين ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت 626هـ/1258م)
(1866-1870) معجم البلدان ، 6 اجزاء ، ليبزك .

**المراجع العربية والمعربة :**

ابن ادريس ، عبد الله
(1982) مجتمع المدينة في عهد الرسول ﷺ ، الرياض .

أحمد عبد الرحيم إبراهيم
(1989) تاريخ الفن في العصور الإسلامية ، مكتبة عالم الفكر .

الأعظمي ، خالد خليل
(1980) الزخارف الجدارية في آثار بغداد ، بغداد ، دار الرشيد للنشر .

الألفي ، ابو صالح
(1969) الفن الإسلامي ، اصوله فلسفته مدارسه ،ط3 ، القاهرة ، مطابع دار المعارف بمصر .

ايتنكهاوزن ، ريتشارد
(1973) فن التصوير عند العرب ، ترجمة وتعليق عيسى سلمان وسليم التكريتي ، بغداد .

بهنسي ، عفيف
(1980) الشام لمحات آثارية وفنية ، دار الرشيد للنشر .
(1986) الفن الإسلامي ، دمشق ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر .

التوتونجي ، نجاة يونس
(1976) المحاريب العراقية ، بغداد ، وزارة الأعلام مديرية الاثار العامة .

حتي ، فيليب وآخرون
(1965) تاريخ العرب المطول ، ط4 .

حسن ، زكي محمد
(1948) فنون الإسلام ،القاهرة ،مكتبة النهضة المصرية .
(1956) أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية ، مطبوعات كلية الآداب والعلوم ببغداد ، مطبعة جامعة القاهرة .

حمزة ، حمزة حمود
(1990) النوافذ في العمارة العباسية ، اطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى قسم الآثار ،كلية الاداب ، جامعة بغداد .

ديماند م .س
(1958) الفنون الإسلامية ،مترجم ،دار المعارف بمصر .

زايد ، عبد الحميد
(1974) القدس الخالدة ، القاهرة.

سامح ، كمال الدين
(1982) العمارة في صدر الإسلام ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

سلمان ، عيسى وآخرون
(1982) العمارات العربية الإسلامية في العراق ، بغداد ،3ج ، دار الرشيد للنشر.

شافعي ، فريد
(1952) الأخشاب المزخرفة في الطراز الأموي " مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة.

(1970) العمـــارة العربيـــة في مصـــر الإسلامية ، القاهرة الهيئة المصرية العامـــة للتأليف والنشر .
(1982) العمارة الإسلامية ماضـيها وحاضرها ومستقبلها ، جامعة الملـك سعود ، الرياض .
الطنطاوي ، علي
(1961) الجامع الأموي دمشق ، ط2 ، دار الفكر بدمشق .
العابدي ، محمود
(1973) الآثار الإسلامية في فلســطين والأردن ، عمان .
العارف ، عارف
(1951) تاريخ القدس ، القاهرة.
العاني ، علاء الدين أحمد
(1992) مآذن مدينة السلام ، إطروحة دكتوراه غير منشورة ، مقدمة إلى قســم الآثار ، كلية الآداب ، جامعة بغداد .
عبد الحق ، سليم عادل
(1951) إعادة تشييد جناح قصر الحير الغربي ، مجلة الحوليات الآثرية السورية .
عبد الحميد ، سعد زغلول
(1986) العمـــارة والفنـــون في دولـــة الإسلام ، إسكندرية .
عثمان ، محمد عبد الستار
(1988) المدينة الإسلامية ، سلسلة عالم المعرفة 128 ،الكويت .
غالب ، عبد الرحيم
(1988) موسوعة العمارة الإسلامية ، بيروت ، المطبعة العربية .
فكري ، أحمد
(1936) المسجد الجامع في القـــيروان ، مطبعة المعارف .
(1949) بدعة المحاريب " مجلة الكاتب المصري ، م4 .
(1961) مساجد القاهرة ومدارســـها ، المدخل ، الإسكندرية ، دار المعارف .
(1965) مساجد القاهرة ومدارســـها ، العصر الفاطمي ، مصر ، دار المعارف .
كونل ، ارنست
(1966) الفن الإسلامي ، ترجمة أحمـــد موسى ، بيروت ، دار صادر .
الماغرو ماتين وآخرون
(1975) قصير عمرة ، سكن وحمامات أموية في بادية الأردن ،مدريد .
محمد ، غازي رجب
(1989) العمارة العربيـــة في العصـــر الإسلامي في العراق ، بغـــداد ، مطبعـــة التعليم العالي والبحث العلمي .
(1980) الجامع الكبير في صنعاء دراسة تاريخية آثرية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد.
(1999) قبة الصخرة البداية العظمى لفن العمارة العربية الإسلامية " وقائع نـــدوة العمارة العربية الإســـلامية ، منشـــورات المجمع العلمي العراقي .

مزورق ، محمد عبد العزيز
(1973) الفنون الزخرفية الإســـلامية في العصر العثماني ، القاهرة ، الهيئة المصـــرية العامة للكتاب .

الموسوي ، مصطفى عباس
(1982) العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإســـلامية ، بغـــداد ، دار الرشيد للنشر .

النيفر ، المنجى
(1969) الحضارة التونسية من خـــلال الفسيفاء ، تونس .

وانلي ، خير الدين
(1971) المسجد في الإسلام ، دمشق .

## المراجع الاجنبية :

Baramki ، D.C :
(1969) The Art and Architecture of Ancient Palestine ، Beirut .

Creswell ، K.A.C ،
(1940) Early Muslim Architecture ، Oxford .

Dickie A.C.Art.
(1897) The Great Mosque of the Omeiyade " PEFQS .

Duncan ، A :
(1972) The Noble Sanctuary ، London .

Hamilton ، R :
(1947) The Structural History of the Aqsa Mosque ، London ،

Lammens ،
( 1930) La Badia et La Hira Le Siecle des Omayyades .

Philon ، H :
( 1980) Islamic Art ، Benaki Museum Athens .

Rivoira ، G.T :
(1918) Moslem Architecture ، Edinburgh

Sauvaget ، J. ،
(1947) La Mosquee Omayyade Medine ، Paris .

Schacht ، J :
(1957) An Unknown Type of Minbar and Its Historical Significance Ars Orientali.

## الكتابة العربية وبدايات التدوين :

تعددت طروحات العرب ورواياتهم حول نشأة خطهم، وهي في مجملها بين رأيين، أحدهما يرى أن الخط توقيف من الله ، والآخر يذهب إلى أنه صناعة وابتكار ، وفي سياق الرأي الأخير تشعبت النظريات وتعددت الآراء. ولسنا في هذا المقام بصدد عرض الآراء والنظريات المتعددة حول نشأة الخط العربي أو مناقشتها ؛ سواء ما ورد منها عند المؤرخين العرب أم ما ورد فيها عند من سار على نهجهم ؛ أم تلك التي ترجع الخط العربي إلى القلم السرياني أو قلم المسند أو غيرهما، فلقد كفتنا الأبحاث والدراسات العلمية على مدى العقود الماضية الخوض في ذلك بما عرضته من أدلة تؤكد أن قضية اشتقاق الخط العربي من القلم النبطي قضية قد حسمت بشكل لا مجال للشك فيه، وهي أدلة قامت على تتبع الأبجديات من خلال قراءة عدد من النقوش المكتشفة ودراستها ومقارنتها ، تبين من خلالها أنها الأصل الذي انبثق منه القلم العربي . [النقشبندي "1947" 129-142 ]

ومن الحقائق التي لابد من تثبيتها هنا أن الكتابة النبطية سارت -منذ القرن الأول الميلادي حتى نهاية القرن الرابع الميلادي - في اتجاهين ونمطين كتابيين مختلفين؛ الأول منهما تمثل في نمط كتابي حافظ على هيئة الحروف النبطية التقليدية المعروفة، واستمر حتى نهاية القرن الرابع الميلادي.

وثانيهما تمثل في نمط كتابي يجمع بين الأشكال النبطية لبعض الحروف وأشكال جديدة تمثل -في حقيقة الأمر- بواكير أشكال الحروف العربية، بدأت بالظهور منذ القرن الأول الميلادي. ويمكننا -بناء على الدراسة الوصفية التحليلية المقارنة لأشكال الحروف العربية- تصنيفها حسب ظهورها إلى ثلاث مجموعات: المجموعة الأولى منها تمثل غالبية الحروف الهجائية العربية. وقد وضحت معالم هذه الحروف العربية منذ بداية القرن الأول الميلادي، واستمرت بهيئتها العربية نفسها في النقوش العربية التي تعود للقرنين الثالث والرابع الميلاديين وما تلاهما من قرون، فضلاً عن استمراريتها بالهيئة نفسها في النقوش الإسلامية المبكرة. أما المجموعة الثانية فتمثلها حروف الألف والسين، والشين، التي وجدت شواهدها في برديات ونقوش القرنين الأول والثاني الميلاديين جنباً إلى جنب مع مثيلاتها النبطية، بيد أن النقوش العربية العائدة للقرنين الثالث والرابع الميلاديين احتفظت بالهيئة النبطية لهذه الحروف، ولم تعاود الظهور بهيئتها العربية إلا في مطلع القرن السادس الميلادي. بينما تمثلت المجموعة الثالثة في حروف حافظت على هيئتها

النبطية في نقوش القرنين الأول والثاني الميلادي ؛ فضلاً عن النقوش العربية العائدة للقرنين الثالث والرابع الميلاديين، و لم تتحور و لم تتطور لهيئتها العربية الصرف إلا في مطلع القرن السادس الميلادي.

ويمكننا القول -بكثير من الاطمئنان- إن الإرهاصات الأولى للخط العربي تمثلت في البرديات والنقوش النبطية التي تعود للقرنين الأول والثاني الميلاديين؛ حيث تمثلت بهما سمات الحروف العربية ومعالمها وجذورها ، وان وجود هذه الأشكال المبكرة للحرف العربي منذ القرن الأول الميلادي يقودنا إلى نقطتين مهمتين:- إحداهما تمكيننا من معرفة جذور حروفنا العربية؛ وهذا بدوره دليل قاطع على أن حرفنا العربي قد انبثق من القلم النبطي منذ بداية القرن الأول الميلادي إن لم يكن قبل ذلك، والأخرى أن كافة النقوش العربية المبكرة التي سبق أن عول عليها في دراسة نشأة الخط العربي؛ لا تمثل -في واقع الأمر- النشأة الأولى بقدر ما هي مرحلة من مراحل تطور الكتابة العربية؛ التي استقام عودها، واستقلت استقلالاً تاما- كما سبقت الإشارة- في مطلع القرن السادس الميلادي. [ الجبوري "1977" 77 ]

كانت هذه هي حال الخط العربي عند نشأته وتطوره في مرحلة ما قبل الإسلام، إلا أنه عندما بعث الرسول ﷺ ، وبزغ فجر الإسلام، حظي الخط العربي بمدٍّ ودفع قويين، حيث كان الإسلام بصفة عامة، والرسول ﷺ على الخصوص، يحثان على تعلم القراءة والكتابة وخير دليل على ذلك أن أول أية نزلت على الرسول ﷺ بدأت بكلمة "إقرأ"، وهي ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْأِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْأِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)﴾ ،[ سورة العلق ، الآيات : 1-5 ] والقرآن الكريم مليء بالآيات الكريمة التي تحث على تعلم القراءة والكتابة، منها -على سبيل المثال لا الحصر- الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ [سورة البقرة ، الآية :282 ] وغيرها من الآيات الكريمة. أما الرسول ﷺ فقد كانت أحاديثه الشريفة، وأفعاله الكريمة تدل دلالة واضحة على ما أولاه للقراءة والكتابة من اهتمام، فمن أحاديثه الشريفة "قيدوا العلم بالكتابة" [ القلقشندي "1913" 36/1 ] وكذلك: "ما حق امريء له ما يوصي فيه يبيت ثلاثاً إلا وصيته عنده مكتوبة" ، [ ابن سعد "1322هـ" 108/4 ] ومن أفعاله الكريمة ما قام به بعد غزوة بدر من طلبه من أسرى بدر ممن لا يستطيع افتداء نفسه أن يعلم عشرة من صبية المسلمين . وما إلى ذلك

من الأفعال العديدة التي تنم عن مدى أهمية تعلم القراءة والكتابة بين مجتمع الدولة الإسلامية.

بيد أننا نفتقد إلى نماذج من كتابات عصر الرسول ﷺ، وخليفته الأول أبي بكر الصديق ﷺ، وإن كان ما ذكره حميد الله عن كتابات جبل سلع العائدة لمرحلة غزوة الخندق لا تمثل إلا إنموذجاً وحيداً [ "1939" 13/4 ] هذا إن كانت فعلاً تعود للسنة الخامسة من الهجرة!، وما ظهر متداولاً الآن، أو محفوظًا في المتاحف مما يُدَّعى أنه رسائل الرسول ﷺ، فمشكوك في صحتها [ الجبوري "1977" 79-92 ] ، بل إن أكثر المختصين يميلون إلى أنها مزورة ، وسنسوق منها هنا –على سبيل المثال– رسالة الرسول ﷺ إلى هرقل عظيم الروم (الشكل 1)، فهي خير دليل على تزوير، مثل هذه الرسائل، وخير شاهد على ذلك أنها مؤرخة في السنة الثانية عشرة من الهجرة النبوية الشريفة، فكيف يكون ذلك؟ هل كتبها الرسول ﷺ بعد وفاته؟ وهل كان المسلمون قد بدأوا استخدام التاريخ الهجري منذ ذلك الوقت المبكر؟ علمًا أنه من المعروف والشائع أن أول من عمل بالتاريخ الهجري هو الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ، وذلك منذ السنة السابعة عشرة للهجرة ، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، إن أسلوب كتابة هذه الرسائل من الناحية الخطية لا يمثل كتابات ذلك العصر ، وعلى أية حال، إذا كنا نفتقد لنماذج من عصر الرسول ﷺ وخليفته الأول، فإن لدينا شواهد أثرية عديدة من عهود الخلفاء الراشدين عمر، وعثمان، وعلي ﷺ، وهي بلا شك تمثل نمط الكتابة في عصر الرسول ﷺ، منها –على سبيل المثال لا الحصر– ما نقش بالخط العربي على المسكوكات ابتداء من سنة (20هـ/640م ) في عهد الخليفة عمر بن الخطاب [ الجبوري "1977" 98-104 ] ، وكذلك ما يتضح في كلٍ من بردية اهناسيا ، ونقش زهير ، ونقش أسوان ، [ المريخي "1999" 31-71 ] هذا فضلاً عما تبرزه في هذا الجانب النقوش الإسلامية العديدة المؤرخة في القرن الأول الهجري / السابع الميلادي .

إن جميع هذه النماذج من الكتابات الإسلامية تعطي صورة واضحة عن مسيرة الخط العربي، وتجلي غموض كثير من قضاياه، فمن خلال هذه الكتابات يمكننا الآن أن نصحح كثيرًا من المفاهيم المغلوطة، التي منها –على سبيل المثال– قضية الشكل والاعجام ، [ الاسد "1956" 84 ] فهذه النماذج من الكتابات الإسلامية المؤرخة، التي لا يرقى إليها الشك توضح بجلاء أن الخط العربي كان منقوطًا منذ سنة (22هـ/642م ) ، إن لم يكن قبل ذلك ، وما ذكر في المدونات التاريخية والأدبية عن إصلاح نصر بن عاصم ويحي بن يعمر، على أنهما أدخلا الإعجام على الحرف العربي، فإنه –

في ضوء ما لدينا من شواهد مادية- وفي ضوء هذه الشواهد الأثرية اقتصر كما يبدو على كتابة المصاحف ، بل يمكننا أن نجمل القول بأن الإصلاحين الأول والثاني، أي إصلاح أبي الأسود الدؤلي الخاص بوضع نقط الشكل، وإصلاح نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر، الخاص بوضع نقط الإعجام، اقتصرا على كتابة المصاحف . ومما لا شك فيه أن إرتباط كتابة القرآن بالحرف العربي هيأ لهذا الحرف الإعزاز وعلو الشأن، فأولي الاهتمام والعناية ، [ الباشا "1979" 295-332 ] ومن بين مظاهر العناية به إدخال الشكل والإعجام في كتابة المصاحف، والشائع أن هذه الإصلاحات قد تمت على ثلاث مراحل،

### أ – المرحلة الأولى:

هي ما قام به أبو الأسود الدؤلي من إدخال الشكل على كتابة المصاحف، ولعل مرد ذلك دخول أقوام لا تجيد العربية الدين الإسلامي، فنتج عن ذلك نشوء ذرية من أبوين لدى أحدهما ملكة العربية وليس لدى الآخر منها شيء ، فنشأت أجيال فشا اللحن في كلامها، وأخذ الفساد طريقه إلى العربية التي تنطقها فضلاً عن قراءتها القرآن الكريم، إلى أن قيض الله من يعمل لإصلاح هذا الخلل. حيث تذكر المصادر أن زياد بن أبيه –وكان واليًا على البصرة– طلب من أبي الأسود أن يضع طريقة لإصلاح الألسنة وتجنيب اللحن عن قراءة القرآن الكريم، إلا أن أبا الاسود أبى ،[ ابن خلكان "1948-1949" 21/2] فعمد زياد بن أبيه إلى حيلة ليجبر أبا الأسود على وضع عملية الإصلاح، فطلب من أحد رجاله أن يقعد في طريق أبي الأسود، وقال له عندما يقترب منك أبو الأسود اقرأ شيئًا من القرآن وتعمد اللحن، فذهب الرجل وجلس في طريق أبي الأسود، وعندما اقترب منه رفع الرجل صوته بالقراءة، وقال: "أن الله بريء من المشركين ورسولِه"، بكسر اللام في كلمة "رسوله"، فعظم ذلك عند أبي الأسود، وقال: عز وجه الله أن يبرأ من رسوله، فعاد إلى زياد وقال له: أجبتك إلى ما طلبت، ورأيت أن ابدأ بإعراب القرآن الكريم .

وقد كانت طريقته أن استحضر كاتبًا وأمره أن يتناول المصحف، وأن يأخذ مدادًا يخالف لون المداد المكتوب به القرآن، فإذا رأى الكاتب أبا الأسود قد فتح شفتيه، وضع نقطه فوق الحرف فيكون هذا هو الفتح، وإذا خفض شفتيه عند آخر الحرف نقط نقطة أسفله، فيكون هذا هو الكسر، وإذا ضم شفتيه جعل الكاتب النقطة بين يدي الحرف، فيكون هذا هو الضم، وإذا كان الحرف ساكنًا لا يضع له شيئا، وإن تبع من هذه الحركات غنة (أي تنوين) نقط نقطتين. وكان كلما أتم الكاتب صفحة راجعها أبو الأسود، حتى أتم المصحف كله . [ الداني "1960" 3 ]

**ب – المرحلة الثانية:**

وهي المرحلة التي قام بها كلٌ من نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر بإدخال نقط الإعجام على حروف المصحف الشريف. ففي ضوء المكتشفات الأثرية يمكننا -في واقع الأمر- أن نجزم بأن إصلاحهما إقتصر على كتابة المصاحف، التي كانت تكتب إلى وقتهما من غير نقط الإعجام، هذا مع العلم أن الإعجام كان معروفًا منذ عصر الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين، حيث إن المصادر التاريخية، تعضدها الأدلة المادية الأثرية تؤيد ذلك. فقد روي أن الرسول ﷺ قال: "إذا اختلفتم في الياء والثاء فاكتبوها بالياء"، [ ابن الأثير "1937" 193/1 ] وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: "لكل شيء نور ونور الكتاب العجم"، [ القلقشندي "1913" 155/3 ] كما ورد عن عبيد بن أوس الغساني -كاتب معاوية بن أبي سفيان- أنه قال: "كتبت بين يدي معاوية كتاباً فقال لي يا عبيد أرقش كتابك، فإني كتبت بين يدي رسول الله ﷺ فقال يا معاوية أرقش كتابك. قال عبيد: وما رقشه يا أمير المؤمنين؟ قال: أعط كل حرف ما ينوبه من النقط". فضلاً عن ذلك فإن المصادر التاريخية أوردت نصوصًا يستشف من مضامينها أن النقط كان موجودًا في القرآن الكريم نفسه، وإن الصحابة جردوه من النقط عمدًا في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه لما كتبوا تلك المصاحف، والأدلة المادية تعضد ذلك، فبردية اهناسيا المؤرخة في سنة (22هـ/642م) كثيرٌ من حروفها منقوط، ونقش زهير المؤرخ في سنة (24هـ/644م) نقط كثير من حروفه، ونقش سد معاوية المؤرخ في سنة (58هـ/677م) حمل كثير من حروفه الإعجام، وكذلك الأمر في نقش حفنة الأبيض المؤرخ في سنة (64هـ/683م).

لقد بقيت المصاحف مجردة من الإعجام ما يقرب من أربعين سنة حتى كثر التصحيف في قراءة القرآن الكريم خصوصًا في العراق، وكان الحجاج بن يوسف الثقفي واليًا على العراق، فلما سمع عن كثرة التصحيف استدعى كُتَّابةً، وطلب منهم أن يضعوا حلاً لهذا الإشكال، وتذكر المصادر أنه في نهاية الأمر أسند الأمر لكل من نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر، فقاما بإصلاحهما المعروف، حيث جمعا الحروف المتشابهة رسمًا وفرقوا بينها بالنقط أفرادًا وأزواجًا، سواء فوق الحرف أو أسفله، وحتى لا يختلط إصلاحهما بإصلاح أبي الأسود الدؤلي، يبدو أنهما قررا أن تكون نقط الإعجام بنفس مداد الحرف، ونقط الشكل على ما كانت عليه من مداد يختلف عن مداد الحرف، على اعتبار أن نقط الإعجام هي جزء من الحرف، ونقط الشكل دخيلة عليه. [الجبوري "1977" 58 ]

## ج – المرحلة الثالثة:

استمر الناس على اتباع الشكل والإعجام بهيئة النقط، فكانوا يكتبون الشكل بالمداد الأحمر، والإعجام بمداد الحروف نفسه ، وذلك حتى العصر العباسي، فلما تقدمت فنون الكتابة ونشطت العلوم، أرادوا أن يجعلوا الشكل من مداد الكتابة نفسه تسهيلاً وتيسيرًا للأمر، هذا فضلاً عن أنه قد لا يتيسر للكاتب أكثر من لون واحد من المداد، فتصدى لهذا الأمر الخليل بن أحمد الفراهيدي ، ورأى أن يصلح طريقة الشكل، وأن يبقي على نقط الإعجام، وذلك لسهولته أولاً ، وعلى إعتبار أن نقط الإعجام هي جزء من الحرف ثانياً ، فأبدل نقط الشكل بثماني علامات هي الفتحة، والكسرة، والضمة، والسكون، والشدة، والمدة، والصلة (الوصل)، والهمزة ، [ حموده "د.ت" 52 ] فاتبع الناس هذا الإصلاح الجديد، وأهملوا الشكل القديم منذ ذلك الوقت إلى وقتنا الحالي.

كان الصحابة رضوان الله عليهم يدونون ما يوحى إلى الرسول ﷺ على اللخاف والعظام والعُسب والجلد والكرانيف ،حيث يستدل على ذلك مما ورد عن زيد بن ثابت بعد أن أمره أبو بكر ﷺ بجمع القرآن الكريم عندما قال: "فجعلت أتتبعه من الرقاع والعسب واللخاف". [ السيوطي "1967" 168 ]

وبالرغم من أن القرآن قد دوِّن في عهد الرسول ﷺ ، إلا أنه بقى متفرقًا، ولم يجمع في صحف منظمة إلا بعد وفاة الرسول ﷺ . فبعد أن تولى أبوبكر الصديق ﷺ الخلافة قامت حروب الردة، واستشهد فيها كثير من صحابة الرسول ﷺ وحفظة كتاب الله عز وجل .

وتذكر المصادر أن عمر بن الخطاب ﷺ أشار على الخلفية أبي بكر الصديق ﷺ أن يدون القرآن الكريم، وبعد اقتناع أبي بكر ﷺ كلف الصحابي الجليل زيد بن ثابت بهذه المهمة الجليلة [الحمد "1982" 29 ] ، فقام زيد بتتبع القرآن وجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال، وأنجز المهمة فجُمِع القرآن الكريم في صحائف حفظت عند الخليفة الراشد أبي بكر الصديق ﷺ، وبعد وفاته نقلت هذه الصحائف لخليفته عمر بن الخطاب ﷺ ، وظلت عنده حتى وفاته، فآل أمرها من بعده إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب.

بقيت هذه الصحائف عند أم المؤمنين إلى أن عظم الخلاف بين القراء في عهد عثمان بن عفان ﷺ، وتداركاً منه ﷺ للأمر، وخوفًا من إستفحاله، بعث بطلب الصحائف من عند أم المؤمنين حفصة بنت عمر على سبيل الإعارة، وأمر زيد بن ثابت، وعبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام بأن

ينسخوا الصحف في المصاحف . [ البخاري "1311-1312هـ " 89 ]

وبعد أن أنجزوا المهمة، رد الصحائف إلى أم المؤمنين، وبعث إلى كل إقليم بمصحف مما نسخوا، فأصبحت المصاحف العثمانية أمهات المصاحف .

لا شك أن هذه المصاحف قد دونت بالخط المدني، وهو الخط الذي كان سائدًا في تلك الحقبة ، ولكن من غير المعروف بشكل قاطع عدد النسخ التي أرسلها الخليفة عثمان بن عفان ﷺ إلى الأقاليم، فهناك روايات تذكر أنها أربع نسخ ، وأخرى تذكر أنها خمس، وفي رأي آخر -وهو الأرجح- أن عددها ست نسخ، [ زايد "1992" 81 ] أرسلت منها أربع إلى الكوفة والبصرة والشام ومكة، وأبقي واحد لأهل المدينة، واختص الخليفة منها واحدًا لنفسه. [العلوجي " 1989" 72 ]

وتحتفظ بعض المكتبات الإسلامية، والمتاحف، والمساجد الأثرية التاريخية بنسخ من المصاحف المنسوبة إلى عثمان بن عفان ﷺ، فما هي حقيقة هذه المصاحف؟

مما لا شك فيه أن المصاحف العثمانية قد اختفت، وما هو موجود الآن، سواء في متحف طاشقند، أو المشهد الحسيني بالقاهرة أو متحف الآثار الإسلامية باستانبول، أو متحف طوب قبو سراي باستانبول هي نسخ متأخرة زمنيًا عن عهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ حيث يتضح من خطوط هذه المصاحف الأربعة المنسوبة إلى الخليفة عثمان بن عفان ﷺ أنها لم تكتب بخط واحد و لم تدون في عصر واحد، ويرجح أنها نقلت عن أصل عثماني قديم، فبعضها يعود للقرن الأول الهجري، وبعضها الآخر يعود إلى القرنين الثاني والثالث الهجريين.

**أ.د. مشلح بن كميخ المريخي**

**المصادر والمراجع :**

**المصادر :**


ابن الأثير، عزالدين أبوالحسن علي بن محمد ت(630هـ/1232م)
(1937) *أسد الغابة في معرفة الصحابة*، طهران، المطبعة الإسلامية .

البخاري، أبوعبدالله محمد بن إسماعيل ت(256هـ/869م )
(1311-1312هـ) صحيح البخاري، القاهرة ، مطبعة بولاق .

ابن خلكان، أبوالعباس شمس الدين بن محمد ت (681هـ/1282م)
(1948-1949) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، حققه وعلق حواشيه وصنع فهارسه محمد محيي الدين عبدالحميد، مصر ، مطبعة السعادة .

الداني، أبوعمرو عثمان بن سعيد ت (444هـ/1052م)
(1960) المحكم في نقط المصاحف، تحقيق عزة حسن ، طبعة دمشق .

الزبيدي، محمد بن محمد مرتضى ت (1205هـ/1790م )
**(1869-1870) تاج العروس** من جواهر القاموس ، القاهرة ، المطبعة الوهبيه .

الزرقاني، محمد بن عبدالباقي ت (1122هـ/1710م)
(1952) مناهل العرفان في علوم القرآن، القاهرة ،مطبعة دار إحياء الكتب العربية.

ابن سعد، محمد بن سعد كاتب الواقدي ت (230هـ/844م )
(1322هـ) الطبقات الكبرى، تصحيح إدوارد سخاو، مطبعة بريل.

العسكري، أبو أحمد الحسن بن عبدالله بن سعد ت (382هـ/993م)
(1908م) كتاب التصحيف والتحريف وشرح ما يقع فيه، القاهرة ، مطبعة الظاهر.

القلقشندي، أبوالعباس أحمد بن علي ت (821هـ/1418م)
(1913) صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة ، المطبعة الأميرية .


**المراجع العربية :**


**أحمد يوسف**
**(1933) الخط الكوفي**، مطبعة حجازي، الرسالة الأولى.

الأسد، ناصر الدين
(1962م) **مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية**، مصر ، مطبعة دار المعارف .

الباشا، حسن
(1979م) **مدخل إلى الآثار الإسلامية**، القاهرة ، دار النهضة العربية.

الجبوري، سهيلة ياسين
(1977م) أصل الخط العربي وتطوره حتى نهاية العصر الأموي، بغداد.

الحلوجي، عبدالستار
(1989) **المخطوط العربي**، جدة، مكتبة مصباح.

الحمد، غانم قدوري
(1982م) **موازنة بين رسم المصحف والنقوش العربية القديمة**، بيروت، مؤسسة المطبوعات العربية.

حموده، محمود عباس
(د.ت) **دراسات في علم الكتابة العربية**، م القاهرة، طابع غريب.

زايد محمد يوسف
(1992) تاريخ كتابة المصحف الشريف، جدة، مؤسسة كعاظ للصحافة والنشر.

شبوح، إبراهيم
(1970م) خط البرديات العربية المصرية المبكرة ومدى تأثيرها بحركات إصلاح الكتابة، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة.

الصالح، صبحي
(1968) مباحث في علوم القرآن، بيروت، مطبعة دار العلم للملايين.

العش، محمد أبو الفرج
(1973م) " نشأة الخط العربي وتطوره: الخط العربي قبل الإسلام"، **الحوليات الأثرية العربية السورية**، مج23، ج1، 2، ص ص55-82.

الفرماوي، عبدالحي
(1978م) **قصة النقط والشكل في المصحف الشريف**، القاهرة، دار النهضة العربية.

الفعر، محمد فهد
(1984) **تطور الكتابات والنقوش في الحجاز منذ فجر الإسلام حتى منتصف القرن السابع الهجري**، جدة.

المريخي، مشلح
(1999م) "نقش رقوش بالحج (مدائن صالح): رؤية جديدة"، **دول مجلس التعاون لدول الخليج العربي عبر العصور**، ص ص31-71.

المنجد، صلاح الدين
(1979) **دراسات في تاريخ الخط العربي منذ بدايته إلى نهاية العصر الأموي**، بيروت، منشورات دار الكتاب الجديد.

نامي، خليل يحيى
(1935م)"**أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام**"، مجلة كلية الآداب، الجامعة المصرية، مج3، الجزء الأول، ص ص1-110.

النقشبندي، ناصر

(1947م) "منشأ الخط العربي وتطـــوره لغاية الخلفاء الراشدين"، سومر، العــــدد 3، ص ص129-142.

**المراجع الاجنبية:**

Abbott، N.،
(1939) The rise of the North Arabic Script and its Kur > anic development، with full description of the Kur> an manuscripts in the Oriental Institute. University of Chicago Oriental Institute Publications 50. Chicago.

Beeston، A. F. L.، With Johnston، T. M.،
Sergeant، R.B.، and Smith، G. R.،
(1983) the Arabic Script، the Cambridge History of Arabic Literature، Arabic Literature to the end of the Umayyad period، Cambridge.

Bellamy، J. A.،
Grohmann، A.
(1962)Arabic inscriptions،expedition philby- Rychmans- Lippens en Arabie، lle partie، Textes epigraphiques، Louvain.
From the world of Arabic papyri، Cairo (1952).

Gruendler، B.
(1993) The devlopment of the Arabic scripts from the Nabatean era to the first Islamic century according to dated texts، Harvard Semitic Series 43، Atlanta.

Healey، J .F.،
(1990-1991) Nabataean to Arabic: Calligraphy and Script development among the pre-Islamic Arabic، Manuscripts of the Middle Esat 5، pp. 41-53 Ter Lugt Press، Leiden.

Healey، J. F.، and Smith، G. Rex،
(1989)JS 17 the earliest dated Arabic document (AD 267)، Atlal، xii، pp.77-84.

Healey، J. F.،
(1990)The Early Alphabet، British Museum Publication.

Milik، J.،
(1958)Nouvelles Inscriptions Nabateennes، Syria 35، pp. 227-251.

Al- Moraekhi، M.،
(1995)A Critical and Analytical Study of Some Early Islamic Inscriptions from Medina in the Hijaz، Saudi Arabia، (University of Manchester PH. D. thesis).
.

Naveh، J.،
(1987)Early History of the Alphabet: an Introduction to West Semitic Epigraphy and Development، Jerusalem.

Winnett، F.، and Reed، W.،
(1970)Ancient Records from North Arabia، University of Toronto Press، Toronto.

جدول رقم (1)

يوضح أشكال حروف المجموعة الأولى.

| الحروف | القرنين الأول والثاني الميلاديين | القرن الثالث الميلادي | القرن الرابع الميلادي | القرن الخامس الميلادي | القرن السادس الميلادي | القرن الأول الهجري |
| --- | --- | --- | --- | --- | --- | --- |
| الباء | | | | | | |
| الجيم | | | | | | |
| الحاء الخاء | | | | | | |
| الصاد الضاد | | | | | | |
| الطاء الظاء | | | | | | |
| العين الغين | | | | | | |
| الفاء القاف | | | | | | |
| الكاف | | | | | | |
| اللام | | | | | | |
| الميم | | | | | | |
| النون | | | | | | |
| الهاء النهائية | | | | | | |
| الواو | | | | | | |
| الياء | | | | | | |

جدول رقم (٢)
يوضح أشكال حروف المجموعة الثانية.

| الحروف | القرنين الأول والثاني الميلاديين | القرن الثالث الميلادي | القرن الرابع الميلادي | القرن الخامس الميلادي | القرن السادس الميلادي | القرن الأول الهجري |
|---|---|---|---|---|---|---|
| الألف | | | | | | |
| السين والشين | | | | | | |

جدول رقم (٣)
يوضح أشكال حروف المجموعة الثالثة.

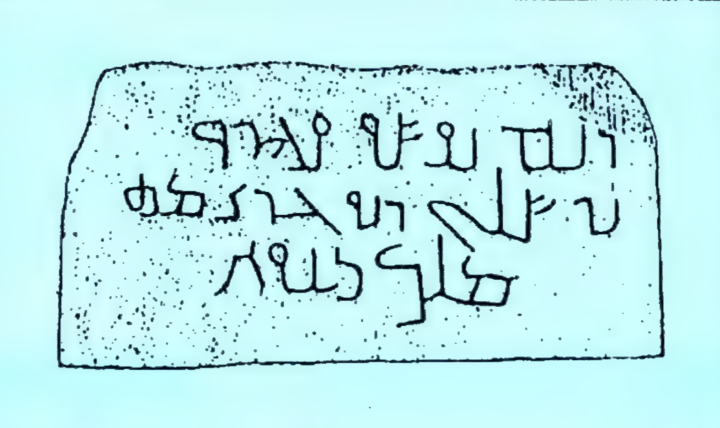
| الحروف | القرنين الأول والثاني الميلاديين | القرن الثالث الميلادي | القرن الرابع الميلادي | القرن الخامس الميلادي | القرن السادس الميلادي | القرن الأول الهجري |
|---|---|---|---|---|---|---|
| التاء الثاء | | | | | | |
| الدال الذال | | | | | | |
| الراء | | | | | | |
| الزاي | | | | | | |
| الهاء المتدلية | | | | | | |

جدول رقم (٤)
يوضح حرف اللام ألف..

| القرنين الأول والثاني الميلاديين | القرن الثالث الميلادي | القرن الرابع الميلادي | القرن الخامس الميلادي | القرن السادس الميلادي | القرن الأول الهجري |
|---|---|---|---|---|---|
| | | | | | |

شكل رقم (5)

تفريغ لنقش رقوش بمدائن صالح المؤرخ بعام ٢٦٧م

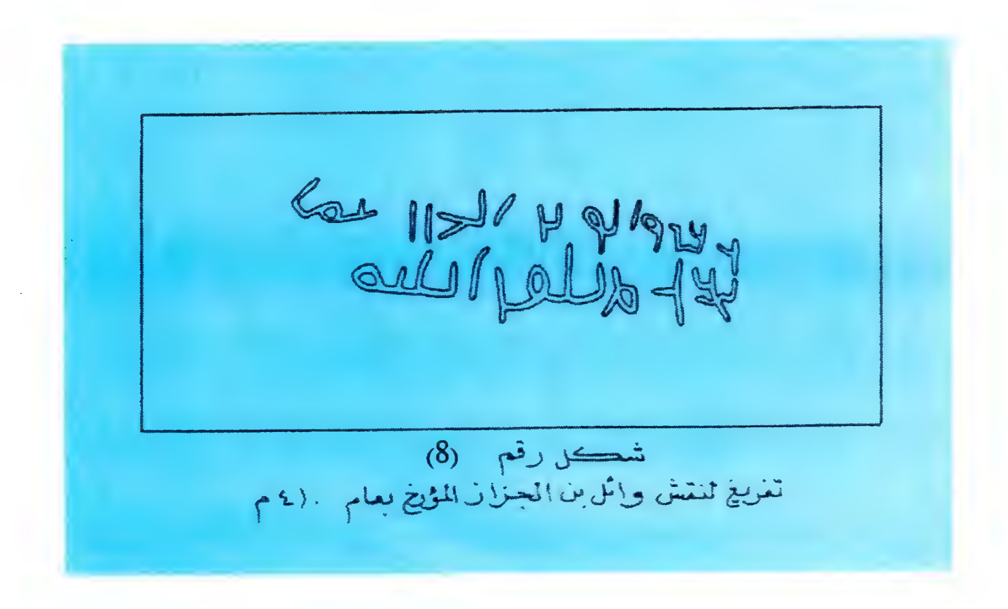


شكل رقم (6)

-- تفريغ لنقش أم الجمال الأول المؤرخ فيما بين ٢٥٠-٢٧٠م

شكل رقم (7)

تفريغ لنقش النمارة المؤرخ بعام ٣٢٨ م

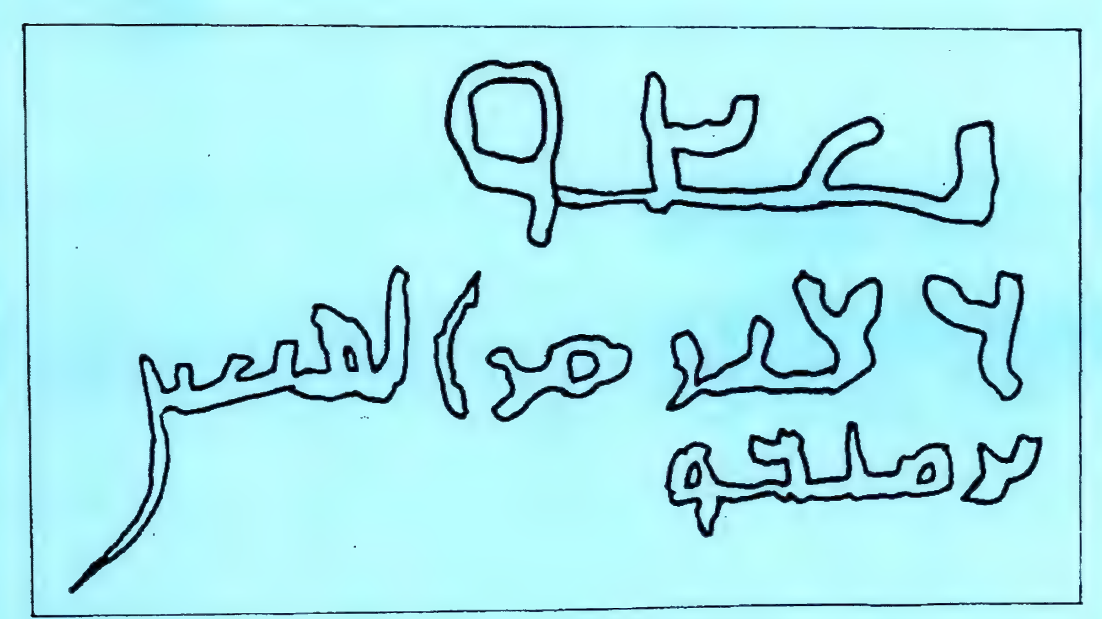


شكل رقم (8)

تفريغ لنقش وائل بن الجزان المؤرخ بعام ٤١٠م

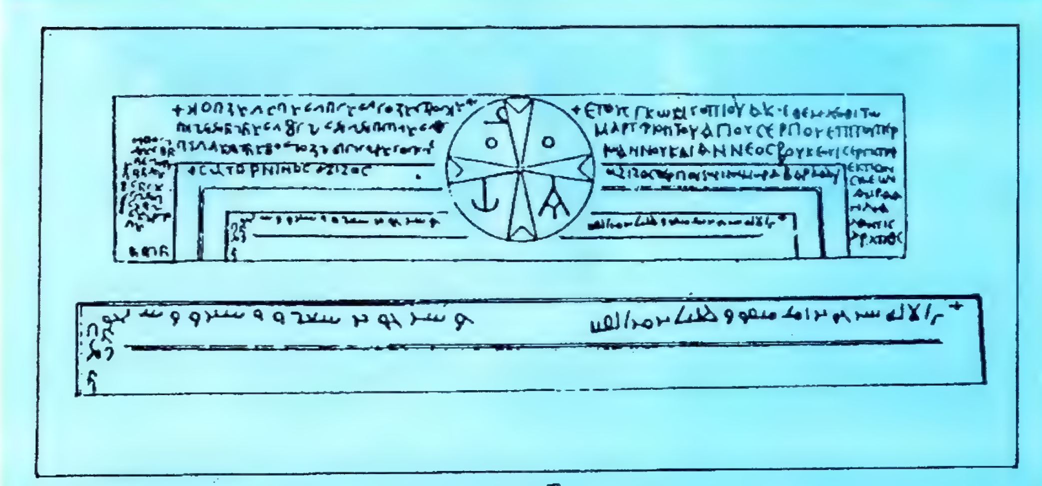
شكل رقم (9)

تفريغ لنقش سكاكا رقم (١) [ ق ٤ - ٥ م ]



شكل رقم (10)

تفريغ لنقش سكاكا رقم (٢) [ ق ٤ - ٥ م ]



شكل رقم (11)

تفريغ نقش زبد المؤرخ بعام ٥١٢ م.

شكل رقم (12)

تفريغ لنقش جبل أسيس المؤرخ بعام ٥٢٨م

شكل رقم (13)

تفريغ لنقش حران المؤرخ بعام ٥٦٨ م

شكل رقم (14)

- تفريغ لنقش أم الجمال الثاني المؤرخ في القرن السادس الميلادي

## المربد والشعر والغناء

كان بزوغ فجر الرسالة الإسلامية إيذانا ببداية مرحلة جديدة في حياة الأمة، بعد أن وضحت لأبناء الأمة آفاق الحياة الجديدة التي تنتظرهم، والتي انفتحت عليها نفوسهم بفضل إيمانهم، وإقرارهم بوحدانية الله تعالى. فتحولت طاقات المؤمنين، وهي تمتثل لإرادة الله تعالى، في نشر قيم السماء وإشاعة مبادئ العدل والمساواة إلى طاقات هائلة، كان لها أثرها الواضح في امتداد رقعة الإسلام، وانتشار جحافل المؤمنين في أرجاء المعمورة حاملين مبادئ الخير والتسامح، وداعين إلى قيم الخير والمحبة. وبفعل الأجواء الإنسانية، والمثل النبيلة التي أشاعها الإسلام، توسعت رقعة الدولة وامتدت حدودها إلى أرجاء واسعة من العالم، وأنشئ الكثير من المدن الإسلامية. والبصرة واحدة من تلك المدن التي استحدثت في زمن الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ، حيث كانت قاعدة للجيوش التي انطلقت إلى الشرق، وقد أنشئتْ سنة أربع عشرة للهجرة على مقربة من مصب نهر دجلة، و روعي فيها أن تكون على حافة البادية، وقد أقاموا بجانبها سوقا كبيرة، هي "سوق المربد"، التي تحولت في العصر الإسلامي والعصور اللاحقة إلى سوق أدبية يتناشد فيها الشعراء أشعارهم، ويتحاور فيها النقاد والعلماء ولكل ناقد رأيه وطريقته في النقد والموازنة.

وكان المربد كيانا موّحداً، استقرت في تقاليده نماذجهم، وعرفت في مواسمه أسماؤهم، واتصلت من خلاله علاقاهم، حتى عدوه اجتماعا تلتقي فيه المشارب، وتجمعا تتنافس فيه القبائل، وتسجل روائع الأيام تمجيداً لما أحرزوه من مواقف، وتعظيما لما استذكروه من مآثر. وكانوا يجدون في لغتهم التي هي أقرب إلى لغة البداوة مظهرا متميزا من مظاهر قوميتهم، ويحفظ لهم تاريخهم وهويتهم، وهم يواصلون سماع أحاديثها، ويطلعون على براعة تراكيبها، ويستمعون إلى صيغ بلاغتها وبيان فصاحتها، فاللغة العربية أصبحت لغة الدولة التي يشترك فيها الجميع، وهم يتفقون على اختيار النماذج الخاصة، وفي كل لقاء من هذه اللقاءات كانت الثروة اللغوية تزداد، ومخزونهم الشعري يثرى، وآفاقهم البيانية تتسع، وهم يجدون في براعة المتميزين ما يغني هذا الخزين أو يضيف إلى هذا الموروث ما يجعله أقرب إلى الحداثة، وألصق بالواقع، وأشد اتصالا بثقافة العصر.

وقد نضجت في مربد البصرة حركة "النقد الأدبي"، واتسعت معارف الشعراء، وترسخت بعض قواعد النقد التي بدأت تتبلور

لتمنح حركة الشعر العربي فرص ارتياد آفاق حضارية جديدة.

وللسوق عند العرب خصائص توحد مشاربهم، وتوفق بين تقاليدهم، على وفق المواسم التي يتوافد إليها الناس، وطرق التعامل التجاري التي كانت تمارس فيها، والتي تعطي لكل سوق سماته المميزة، وتضفي عليه من خلال العرض الواحد أشكالا و ألوانا تترك لهؤلاء المرتادين حرية الاختيار، ومجال التنافس وامتداد الذوق ووجاهة المعروض.

فالسوق "وحدة" من وحدات البناء العام لوحدة التفكير، وصوت تتداخل فيه أصوات الإحساس بالمشاركة، وقوة من القوى القادرة على كبح جماح النفس إذا حاولت أن تتجاوز حدودها الإنسانية، وكأن عرف السوق أصبح عاملا حاسما من الأعراف التي تحد من سلطة الفرد، وتوقف من نزواته حين تضعه بإزاء الفكر الجماعي والقيم التي لا موضع للرأي الفردي في تجاوزها.

وقد اقترنت مواسم الأسواق بالأشهر الحرم التي كانت سلطة أخرى توحّد عليها الناس، والتزموا بفرائضها، واتفقوا على المبادئ الإنسانية التي تحكم مواقيتها، لقداستها وقوتها في نفوسهم، وتمكنها في أعماقهم. ولهذا فقد احترموا شعائرها ، وحافظوا على تقاليدها، حتى أصبح الخارج عنها و المتجاوز على حدودها موضع نقد اجتماعي، وسميت الأيام التي خرج فيها بعضهم على سلامها بأيام الفجار.

وكان أول أيام الفجار بين كنانة وهوازن، والثاني بين قريش وهوازن، أما الفجار الثالث فكان بين كنانة وهوازن، وحدث الفجار الرابع بين قريش وكنانة من جهة وقيس عيلان من جهة أخرى، وشهده الرسول ﷺ وهو ابن أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة، وسميت حروب الفجار؛ لأنها حدثت في الشهر الحرام ففجروا فيه. [ ابن هشام "1986" 184/1]

وإذا كان عكاظ وذو المجاز قد حققا في بلاد العرب الدور المطلوب ثقافة وتجارة وفكرا، فإن مربد البصرة (بكسر الميم وسكون الراء وفتح الباء الموحدة والدال المهملة، كان له دوره الخاص وصورته المميزة في الموروث الفكري والأدبي عند العرب.

وقد أشار ياقوت الحموي إلى أن المربد اسم موضع، وليس بجار على فعل. ["1936" 97/5] ، والمربدان هما سكة المربد بالبصرة، والسكة التي تليها من ناحية بني تميم، فهما مربدان، وهناك طريق آخر يساوي سكة المربد إلى الجبان، (مقبرة البصرة الرئيسة). فالمربدان ينتظمان المربد وما يليه مما جرى مجراه. والمربد في اللغة (الجرين)، وهو الموضع الذي يوضع فيه التمر بعد الجني لييبس، وبه سمى مربد البصرة، وقيل لأنه كانت تحبس به الأبل. ويشير الأصمعي

إلى أن المربد "كل شيء حُبستْ فيه الأبل، وبه سُمي مربد البصرة، وإنما كان موضع سوق الإبل". [الزبيدي " د.ت" مادة ربد ] ووصف صاحب اللسان مربد البصرة بانه ارض صلفة لا نبت فيها، أومكان غليظ، وقيل عنه صلف أسيف لأنه لا ينبت شيئا [ ابن منظور "د.ت" مادة صلف ] ، ولعل ما يمكن إضافته إلى معاني المربد ما وجد في "لسان العرب" في مادة (ثعلب). أن النبي ﷺ استسقى يوما ودعا فقام أبو لبابة، فقال: يا رسول الله إن التمر في المرابد، فقال رسول الله ﷺ : اللهم اسقنا حتى يقوم أبو لبابة عريانا يسد ثعلب مربده بإزاره أو ردائه، فمطرنا حتى قام أبو لبابة عريانا يسد ثعلب مربده بإزاره. [ ابن منظور "د.ت" مادة ثعلب ]

وذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن المربد كان موجودا قبل أن ينفذ عتبة بن غزاون التخطيط الذي وضعه الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ لمدينة البصرة سنة (14هـ/635م)، وذهب بعضهم إلى أنه كان موجودا قبل الإسلام، ويعد أحمد أمين من الأوائل الذين نادوا بهذا الرأي، وتابعه في ذلك أحمد كمال زكي، بقوله: "كان المربد – فيما يروى – سوقا يترل إليها العرب بأغنامهم، وإبلهم قبل الفتح" [ "1961" 45] . وكلاهما اعتمد على ما رواه الطبري وابن الأثير، فالطبري في حديث عن حوادث سنة (14هـ/ 635م) قال: "بعث عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان، فقال له: انطلق أنت ومن معك حتى إذا كنتم في أقصى أرض العرب فأقيموا، فأقبلوا حتى إذا كانوا بالمربد، وجدوا هذا الكذان، وقالوا: ما هذه البصرة" ["1969" 591/3] . وحاكاه ابن الأثير في حديثه عن حوادث تلك السنة [ "1965" 486/2-487] . وأشار أبو علي القالي إلى أن البصرة إنما سُميت البصرة للحجارة البيض التي في المربد. [ "1960" 20]

وقد اتصلت العمارة بين المربد والبصرة، بل أصبح المربد حيا بارزا من أحياء البصرة، وقيل أن البصرة بنيت فيه. وكان جعفر بن سليمان الهاشمي يقول: "العراق عين الدنيا، والبصرة عين العراق، والمربد عين البصرة" [ ابن قتيبة "1925" 222/1] ، ويقال أن البصرة بنيت بالمربد.

فالمربد على وفق هذه الروايات: منجز حضاري استحدث، وتعاظم دوره مع بدء حركة الفتوحات الإسلامية في الشرق، والتي كانت البصرة قاعدة انطلاق جيوشها إلى الأجزاء الشرقية .

وموقع المربد كما تشير إلى ذلك الراويات التاريخية في ظاهر البصرة، وفي الجزء المتاخم لأرض الجزيرة، وهو يكون المدخل المواجه للقادم من جهة المدينة. ويؤكد هذا الموقع أن موكب أبي موسى الأشعري، حين استعمله الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ على البصرة، أقبل فكان اول موضع أناخ به هوالمربد. والمربد متصل

بالبصرة بسكك تفضي إلى دور معروفة فيه مثل دار عمر بن حبيب، ودار اسحاق بن سليمان، وقصور مذكورة مثل القصر الأبيض وقصر ظفر بن الهيثم.

والمربد من أشهر أحياء البصرة يقع في الغرب منها، وهو قديم قدم المدينة نفسها، وقد جعله هذا الموقع مستراحا لقوافل البادية قبل رحيلها إلى البصرة، ومنطلقاً لها إذا أخذت طريقها إلى ديارها، ولذلك اعتادت أن تقضي فيه أوطارها، وتتبلغ بمرافقها خلال الاستقرار والترحال، وقد اتخذت القبائل منه سوقاً لتصريف البضائع الفائضة وللحصول على حاجياتها المحدودة، وكانت أهم الأسواق تربض في ساحة المربد. [ العلوجي "1986" 15].

وحين قدم طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وعائشة أم المؤمنين إلى البصرة، تلقاهم الناس بأعلى المربد حتى لو رموا بحجر ما وقع إلا على إنسان. ومن هنا تتجلى سعة المكان الذي كان يشغله المربد، وذلك ما تردد على ألسنة الشعراء، الذين كانوا يجدون في جو المربد الثقافي أسلوبا من أساليب التثقيف، وقناة من قنوات الإعلام السريع الذي يجعل الآخرين في حالة تواصل معرفي، حتى أصبحت ساحة المربد أقرب إلى المسرح الذي تعرض فيه الأعمال الأدبية، لإثارة مشهد، أو تقويم فصل غنائي من خلال قصيدة أو مقطع شعري، ومعنى هذا أن سوق المربد قد عرف الغناء والموسيقى مثلما عرف الشعر والإنشاد.

وربما تكون بداية العقد السادس من (القرن الأول الهجري/ السابع للميلاد) البداية التي هيأت لمربد البصرة أن يأخذ هذه المكانة، بالتحديد كانت ولاية أبي خالد الحارث بن أبي ربيعة لابن الزبير في حدود سنة (65-67هـ/684-686م) هي البداية الدقيقة لنشاط سوق المربد، وانتعاشه سياسيا وتجاريا وأدبيا. ولعل مضامين بعض القصائد تعطي هذه الدلالة من خلال ذكر الوالي في قصيدة جرير: [ ابو عبيد "1908-1911" 720 ]

أبا خالد أبليتَ حزماً وسؤددا
وكل امرئٍ مثنى عليه بما يبلى

أبا خالدٍ لا تشمتن أعاديا
يودون لو زلتْ بمهلكةٍ نَعلي

**ومن الأسواق الفرعية:** التي يذكرها الرواة التي كانت موجودة في المربد سوق البزازين، وسوق الصفارين، وسوق القصابين، ويشير بعض المؤرخين إلى تجمع الدباغين في طرف المربد. [العلي "1969" 306]

ومن القصور التي شُيدت في المربد قصر زربي، وهو قصر أقامه في سكة المربد مسلم بن عمرو بن قتيبة بن مسلم، وكان غلامه زربي يشرف عليه. وكان للصحابي أنس بن مالك

قصر في أطراف العمران قرب المربد. وأقيم في المربد الأعلى إلى الشمال قصر ضمرة بن المهلب، ثم مافتئ العمران يتكاثف حتى صار المربد في أوائل الدولة العباسية مكانا يبني فيه كبار القوم دورهم، كما فعل جعفر بن سليمان الهاشمي الذي وصفت داره بأنها عين المربد.

وانتشرت الدور في محال المربد مثل دار الصحابي صفوان بن المعطل ودار الحكم بن الحارث الصحابي الذي غزا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات، ودار عمرو بن فضيل، ودار محجن بن الأدرع ، وهو الذي اختط المسجد الجامع بأمر عتبة بن غزوان. ويظل لسوق المربد ميزته الخاصة، ونكهته المميزة، فعلى الرغم من كونه امتداداً لأسواق العرب المعروفة فإنه كان يحمل من علامات الإضافة ما جعله يمثل تجديدا لتلك الأسواق، ونمطا آخر من اللقاءات، ارتفعت أعلامه ليجتمع الناس فيه، ويعرضوا ما عندهم في حوار أدبي، ونطاق نقدي، ودائرة تحسن التحكيم، ويترل الناس فيها منازلهم. وقد كثر الحديث عن المربد حتى قيل فيه إنه شهد من اللقاءات والمناظرات ما لم يشهده سوق عكاظ، ولابد أن يأخذ المربد هذه المكانة بعد أن أصبحت البصرة أول محطة تحط فيها ركاب المقاتلين المسلمين المتجهين إلى ساحات الجهاد في سبيل نشر الرسالة الإسلامية، وهكذا صارت البصرة بعد أن نزلها القائد العربي المسلم عتبة بن غزوان بأمر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ موئل القبائل التي بدأت مع التحرير. كما أن هذه المدينة بدأت تأخذ مكانتها في قلوب الوافدين إليها، وهي تجمع نفسها وتبني دورها، وتخطط سككها ودروبها، مستهدية بتوجيهات الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ، ومنتفعة من طبيعة الأحوال التي يفرضها موقعها، وحفاظها على التقاليد التي تهيئ للقادمين إليها السكن الملائم والجو النفسي المطلوب، والحس الاجتماعي الذي ينسجم مع الحياة المألوفة.

ويبدو أن سوق المربد كان يعج بالحوانيت التي يزدحم الناس عليها في المواسم، ويسرعون إلى الشراء منها ومما يشير إلى ازدحام الناس في السوق ما روي من أن أهل المربد كانوا يقولون لا ترى الإنصاف إلا في حانوت فرج الحجام، لأنه كان لا يلتفت إلى من أعطاه الكثير دون من أعطاه القليل، ويقدم الأول ثم الثاني ثم الثالث حتى يأتي على آخرهم. على ذلك يأتيه من يأتيه، فكان المؤخر لا يغضب ولا يشكو [ ابو عبيد"1908-1911" 113] . وتظهر لنا هذه الحكاية ان صاحب الحانوت كان يلتزم بنظام الترتيب الذي لا يظلم المتقدم، وقد أدرك الناس في المربد هذه الأصول فتكاثروا عليه وميزوه من غيره.

كما يوحي سوق المربد بأن أسواقا في داخله كانت تخصص لأصناف موحدة من الطعام

يقصدها الناس، حين يرغبون في تناول صنف من أصنافها، فللضباب سوق تقوم في ظل دار جعفر، ولذلك قال أبو فرعون في كلمة طويلة. انتهى فيها إلى أن سوق الضباب خير سوق في بلاد العرب. وكان أيوب يواظب على أكلها في زمانها، كما كان يرتادها أبو إسحاق إبراهيم النظام. ومثل ما كان المربد سوقا للأدب، ومركزا للتجارة تنفق فيه البضائع. ومكانا يرتاده المهتمون بالشعر والنقد والغناء، فقد اتخذ محلا تجمع فيه النياق يختار منها ما يختار، ويباع منها ما يباع. [ الجاحظ "1965-1968" 78/6 ]

وكان المربد محاطا بالبيوت التي يسكنها الناس الذين يمدون الحياة فيه بما يجعلها دائمة متواصلة، وتنتهي هذه البيوت بصحراء فسيحة تأخذ بخطام النياق إلى مرابع القبائل، ومواضع الأصالة، حيث تعيش اللغة صافية نقية، وتؤخذ الأخبار صحيحة موثقة، وتعتمد الفصاحة بينة بليغة.

وقد تنزل به بعض القبائل حين تحاول الخروج على النظام أو إظهار المعارضة للوالي، كما صنعت بنو عمرو بن تميم، فبعث إليهم يزيد بن المهلب من حمل عليهم فهزمهم. وعلى الرغم مما أورده أبو الفرج الأصفهاني في "الأغاني" من النوادر التي تجعلنا نعتقد بأن المربد كان امتدادا لسوق عكاظ، حيث تجري المسابقات التي تجتذب الشعراء والمغنين والنقاد، الذين يحاولون استثمار الفرصة للظهور والتفوق على أقرانهم في مثل هذه المناسبات، يبقى سوق المربد متميزا بوضعه الخاص، إذ ذاع صيته في القرن الأول الهجري، حيث كانت تتحلق القبائل حول شعرائها فتثير فيهم روح المنافسة، وتذكي في نفوسهم أسباب الاعتزاز، وتدفعهم إلى تقديم النموذج الأفضل والأحسن لتذيع شهرتها، وتتسع دائرة معارفها، وتكبر حلقة المعجبين بأداء شاعرها ومنشدها، وهي مسألة كانت تأخذ حجمها في وسط للشهرة فيه دورها، وللتميز مكانته، حيث كان يتبارى الشعراء والخطباء والنقاد للفوز بها، وكان الناس يؤمون هذه الحلقات ليستمعوا إلى ما ينشد، ويقفوا على أخبار أنسابهم، وأحاديث الأيام، والقصص التي ترد على ألسنة الشعراء، لأنهم يجدون فيها أسلوبا من أساليب صقل المواهب والنقائض الأدبية، ومجالا من مجالات إشاعة الأدب بفنونه وأغراضه المختلفة.

"وسجل المربد في العصر الأموي أزهى عصوره، إذ أصبح بجدارة باب البصرة يمر به من أرادها من البادية، ويمر به من خرج من البصرة إلى البادية، ويقطنه قوم من العرب كرهوا معيشة المدن، ويقصده سكان البصرة، يستنشقون فيه هواء البادية. كانوا يحيون فيه حياة تشبه الحياة العربية التي عاشها العرب قبل الإسلام، من تفاخر بالإنساب وتعلق بالكرم والشجاعة، وكان الناس

يخرجون كل يوم إلى المربد.. يعرف كل فريق مكانه فيجلس فيه، وكان لكل شاعر حلقة ينشد فيها شعره، وحوله الناس يستمعون إليه". [ الطبري "1969" 581/6 ]

إن هذه المزايا التي تفرد بها بالمربد، فضلا عما انفرد به من خصائص حضارية تطلبتها طبيعة الحياة الجديدة في ظل الإسلام جعلت من المربد ميدانًا للتجارة والسياسة والأدب، ومجالا رحبا لإقرار مبادئ العمل والسلام، وساحة للبطولات، ومعرضا للمفارقات، ومنتجعا للعشاق، ومعقدا للمنازع الدينية، وموطنا للدعوات السياسية. وفضلا عن ذلك فإن المربد لم يقتصر دوره على مجال إشاعة الشعر، وإنشاده أو روايته فحسب، بل كان يقع فيه التصحيح، ويتم التعديل، فإذا قُرئ بيت شعر صححت مفرداته إن كان به خلل، وإذا روي حديث عدلت أسانيده، وقوَّم متنه. [ الطبري "1969" 50/8 ]

لقد أشاع جو المربد هذا نوعا من الحرية التي لم تمنع من أن تكون ساحته ميدانا للاقتصاص من الخارجين عن النظام ليكونوا عبرة لكل مفسد. "وكان المربديون ومعهم الذين يحضرون مواسم المربد، يعلمون جيدا أن حرية القول مكفولة للجميع دونما استثناء، وأنها مباحة حتى للمجانين". فقد شوهد الشاعر الأموي ذو الرمة ينشد بالمربد والناس مجتمعون إليه، واذا هو بخياط يطالعه، وينقد شعره نقدا شديدا، ويسخف بعض تشبيهاته، ويقول: يا غيلان

أأنت الذي تستنطق الدار واقفا
من الجهل هل كانت بكن حلول

فقام ذو الرمة وفكر زمانا، ثم عاد فقعد في المربد ينشد، فإذا الخياط نفسه قد وقف عليه، ثم قال:

أأنت الذي شبهت عنزا بقفرة
لها ذنب فوق أستها أم سالم

فقام ذو الرمة، فذهب و لم ينشد بعدها في المربد حتى مات الخياط.

ومما يروى عن الفرزدق وبعض أخباره أنه كان بالمربد يوما، ومر به الشاعر خلف بن خليفة وكان قد سرق فقطعت يده، فصنع كفا وأصابع من جلود، فأراد العبث به، فقال الفرزدق، يا أبا فراس من القاتل:

هو القين وابن القين لاقين مثله
لقطع المساحي أو لجدل الأداهم

فقال الفرزدق: هو الذي يقول:

هو اللص و ابن اللص لالص مثله
لنقب جدار أو لسرق دراهم

[ البيهقي "1970" 462 ]

وكان الشاعر معن بن أوس المزني يوما ينشد في المربد، فوقف عليه الفرزدق وأراد العبث به، فقال: يا معن من الذي يقول:

لعمرك ما مزينة رهط معن
بأجفان تطاق ولا سنام

فقال معن: أتعرف يا فرزدق من الذي يقول:

لعمرك ما تميم أهل فلج
بأرداف الملوك ولا كرام

فرآه الفرزدق صلبا، فتنصل، وقال له: حسبك .. إنما جربتك.. فأجابه بلهجة الحازم: قد جربت وأنت أعلم. [ الاصفهاني "د.ت" 158/10 ]

وقد أسهم هذا الجو الأدبي والثقافي والفكري الذي شهده المربد في إنضاج المعرفة، وتعميم الثقافة، وتسهيل إيصالها إلى الجمهور من خلال النقاش المدعوم بالحجة، والحوار المسند بالدليل، كما أعطى صورة من صور المعرفة التي لم تترك الأقوال سائبة، حتى أصبح للمربد أهل يجتمعون به، ويعرفون بترددهم عليه، تعقد فيه مجالس أهل الأدب، وتذكر فيه أشعار العرب، وتسمع أخبارهم، وتروي أيامهم. وكان خلف الأحمر والأصمعي والعتبي ممن يرتادونه، وأصبح مورداً لقصائد الشعراء، تقرأ فيه القصائد، فيتناشدها الناس، وتنقل أخبارها إلى الذين تخصهم. فقد ذكر ابن سلام أن مسلمة بن محارب، قال: كان الفرزدق عند أبي في مشربة له (غرفة) فدخل رجل، فقال: وردت المربد قصيدة لجرير تناشدها الناس فانتقع لون الفرزدق، قال: ليست فيك يا أبافراس، فقال: ففيمن؟ قال: في ابن لجأ التيمي، قال: أفحفظت منها شيئا. قال: نعم، علقت منها بيتين قال: ما هما؟ فأنشدهما، وحين اطمأن إلى أنهما ليسا فيه استرد أنفاسه، واستقرت سريرته وعاود الحديث. [ ابن سلام "1974" 376-377 ]

كما وجد الشعراء متنفسا في رحاب المربد حين تشتد بهم حالة التعبير، وتضطرهم موجة التدفق الشعري، وتبقى حكاية جرير والراعي النميري حالة من حالات التوثب التي أثارت جريرا، وهو يستمع إلى تفضيل الفرزدق عليه، وما جرى في المربد حتى عاد إلى بيته وكان نازلا عند امرأة من كليب، وقد بات ليلته لا ينام يتردد في البيت حتى ظن أنه عرض له جني، أو سنح له بلاء حتى فتح له، فقال:

أقلي اللوم عاذل والعتابا
وقولي إن أصبت لقد أصابا

حتى قال:

إذا غضبتْ عليك بنو تميم
حسبتَ الناس كلهم غضابا

ثم أصبح فغدا إلى المربد، فقال يا بني تميم قيدوا – أي اكتبوا – فقال قصيدةً ذكر فيها:

فغض الطرف إنـــــك من نمير
فلا كعبـــــاً بلغتَ ولا كلابا

فكانت القاضية التي مـــات الراعـــي في سنتها، وقيل إنه كمد لما سمعهـــا. [ ابـــن ســـلام "1974" 436-437 ]

كذلك شهد المربد حكايـــات بعـــض العشاق الذين تزخر كتـــب الأدب بقصصـــهم وأخبارهم، "وقد روي عن بعض أهل الأدب عن محمد بن أبي نصر، أنه رأى بالبصرة مجنوناً، قاعداً على ظهر الطريق بالمربد، فكلما مر به ركـــب قال:

ألا أيها الركبُ اليمانون عرجوا
علينا فقد أمسى هوانا يمانيا
نسائلكم هل سَال نعمان بعدكم
وحُبّ إلينا بطن نعمان واديا

فسألت عنه، فقيل: هـــذا رجـــل مـــن البصرة، كانت له ابنة عم يحبها فتزوجها رجـــل من أهل الطائف، فنقلها، فاستوله عليها". [القالي "د.ت" 126/2 ]

وكان الشـــعراء في العصـــر العباســـي يقصدون المربد ومعهـــم ألـــواحهم، يطلبـــون الفصاحة (كما كان يصنع أبو نواس). وكـــان علماء اللغة يستقصون مفردات اللغة، ويستمعون إلى الأعراب الذين بقيت لغتهم نقية مـــن الدخيل، فكان المربد موئل الباحثين عن فصاحة اللغة بعد ان بدأت العجمة واللحن يتسللان إلى ألسنة الناس ويفسدان اللغة التي نزل بها كتـــاب الله.

وشهد المربد إقامة العديـــد مـــن المباريـــات واللقاءات الأدبية التي كشـــفت عـــن قـــدرات الشعراء والنقاد ومواهبهم، فقد روى أبو الفرج الأصفهاني عن أبي زيد، عن المدائني أن النابغـــة الجعدي وأوس بن مغراء اجتمعا في المربد فتنافرا وتهاجيا وحضرهما العجاج والأخطل وكعب بن جعيل. وقال كل منهما ما يريد، فأعان الأخطل أوس بن مغراء وحكم له، وهذا يعـــني تغليـــب أوس، وأخذ الحكم له وصلخ حكمه شعرا فقال:

وإني لقاض بين جـــــعدة عامر
وســـــعد قضاء بين الحق فيصلا
أبو جعدة الذئب الخبيث طعامه
وعوف بن كعب أكرم الناس أولا

[ الاصفهاني "د.ت" 130/4 ]

وقد تأخذ المحاكمة أحيانا جانب الخشية ابتعادا عن سلاطة اللسان، أو خوفا من هجـــاء الشعراء؛ فيعمدون إلى الإخفاء والتورية والإبهام. فقد ذكر صاحب "الموشح" عن عبد الله بن يحي العسكري، قال: مر رجل من بـــني ربيـــع بـــن الحارث على الفرزدق، وهو ينشد قصيدة لـــه،

وقد اجتمع الناس عليه، فمـر في أبيـات هـي للمخبل قد سرقها، قال: فقلت: والله لئن ذهبت قبل أن أعلمه إن هذا لشديد، ولئن قلت له قدام الناس ليفعلن بي. فقلت: أكلمه بشيء يفهمه هو، ولا يدري الناس ما هو، فقلت: يا أبـا فـراس، قصيدتك هذه نثول، فقال: اذهب عليك لعنـة الله، وفطن، و لم يفطن الناس. ومعنى نثـول: أن البئر إذا حفرت ثم كبست ثم حفرت ثانية، قيل لها نثول. فيقول قصيدتك أحييت بعدما ماتـت. [المرزباني "1965" 111 ]

وذكر المرزباني عن أبي عبد الله الحكمي عن أحمد بن يحيى ثعلب عن أبي عبيـدة، قـال: وقف ذو الرمة، ينشد قصيدته التي يقول فيها:

إذا أرفض أطراف السياط وهللت
جروم المطايا عذبتهن صيـدح

قال فاجتمع الناس يسـمعون، وذلـك بالمربد، فمر الفرزدق فوقف يستمع، وذو الرمـة ينظر إليه حتى فرغ، فقال: كيـف تسـمع يـا أبافراس؟ قال: ما أحسن ما قلت! قال: فما لي لا أعد مع الفحول؟ قال: قصُر بـك عـن ذلـك بكاؤك في الدمن، ونعتك أبوال الظباء والبقـر، وإيثارك وصف ناقتك وديمومتـك. ثم ارتحـل الفرزدق، وهو يقول:

وديمومة لو ذو الرميمة رامهـا..

وذكر البيتين. [ "1965" 274 ]

وذكر المرزباني عن يموت بن المزرع عن أبيه، قال: إني لفي يوم من أيامي بالمربد إذ أقبـل رجل على راحلة، فتشوق له الناس — فقلت: من هذا؟ فقالوا: محمد بن منـاذر، فعـدلت إليـه، فقلت: سلام عليك أبا عبد الله! قال: ومن أنت؟ قلت: أنا ابن يموت العبدي. قال: كيف حالك؟ قلت: بخير، قال: من شاعر العراق اليوم؟ قلـت: الحسن بن هانئ، قال: أفٍ لك؟ هو الذي يقول:

فلو قد زرتـنـا بيـن
سمـاع وقواقيـز
شربنا أبـدا صـرفـا
على وجهـك بالكوز

أف لكم! قلت: أبـا عبـد الله إن في الحسن دعابة، وهو الذي يقول:

فقلت لها، واستعـجلتها بـوادر
جرت فجرى في جريهن عبير
ذريني أكثّر حاسديك برحلة
إلى بلد فيه الخصيـب أمير

فقال لي: خير هذا بشر ذلك.

ويكتب لأبي نصر بن أحمد الخبـزأرزي الشاعر الأمي المجيد أن يستقر خبازا بدكان له في المربد يخبز الأرز، فكان يخبز وهو ينشد ما يقوله

من الشعر، فيجتمع الناس حوله، ويزدحمون عليه لاستماع شعره وملحه، ويتعجبون من إجادته في مثل حاله وحرفته، وهو لا يتهجى ولا يكتب، وكان أحداث البصرة يلتفون حوله، ويحفظون شعره لسهولته ورقته، وكان يجتمع في دكانه في مربد البصرة ابن لنكك وابن المفجع والأكفاني والسماك، وهو ينشدهم شعره، ويتطارح معهم الإخوانيات. [ ابن خلكان "د.ت" 376/5 ]

أما الخطباء فقد وجدوا في سوق المربد منبرا ينشرون فيه حكمهم، ويعبرون عن تجاربهم، فحين أراد الرياحي أن يخطب في قومه، جمعهم في المربد وألقى خطبته ناصحا وموجها ، فقال: "يا بني رياح لا تحقروا صغيرا تأخذون عنه، فإني أخذت من الثعلب روغانه، ومن القرد حكمته، ومن السنور ضرعه، ومن الكلب نصرته، ومن ابن آوى حذره، ولقد تعلمت من القمر سير الليل، ومن الشمس ظهور الحين بعد الحين". [ابن عبد ربه " 1967" 258/2 ]

كما كان المربد مألف الأشراف يقفون فيه يتبادلون الأحاديث ويسمعون الوصايا، ويستذكرون الفضائل. "إن المربد ليدفع المرء إلى الإيمان بأنه جمع على أرضه بطولة القوة والجبروت، ونعمة السلام إلى جانب الإبداع الفني في الشعر والخطابة. فهو على عهد الخلفاء الراشدين وفي صدر الدولة الأموية كان حقلا للنشاط السياسي". [العلوجي "1986" 27 ]

وكان الناس غالبا ما يلتقون في المربد بعد مسألة يصعب حلها، أو أمر يفضي إلى خصومة، ولكن العقلاء يدفعون السيئة بالحسنة، والشر بالخير حفاظا على أرواح الناس، وتعزيزا لوحدة الصف، لأنهم لا يجدون لهم حاجة في الشر. وكثيرا ما كانت الألوية ترفع بالمربد فخرا بنصر، واعتزازا بمأثرة، وصونا لمكارم، وذلك ما يقف وراء قول الفرزدق، وهو يفخر بقومه، إذ يقول:

ألــم تر أنــي دارم
زرارة منا أبــو معبــدد
ومنا الذي منــع الوائدات
وأحيــا الوئيد فلم تُوأدد
ألسنا بأصحــاب يوم النسار
وأصحــاب ألوية المربدد

وبقى المربد – كما أثنى عليه الفرزدق – موضع فخر الشعراء الذين طالما استدعوا ذكريات الامس التي وجدوا فيها ما يستدعي الذكر من أحداث ومواقف فردية او قبلية رائدة فها هو الفرزدق نفسه يستذكر أحداث قومه فيصوغها في قوله :

ومنا الذي أعــطى يــديه رهينة
لغاري معد يوم ضرب الجماجم
عشية ســال المــربدان كلاهما
عجاجة موت بالسيوف الصوارم
[ الفرزدق " 1960" 173/1 ]

لقد شهد المربد في أيام الدولتين الأموية والعباسية، ما لم تشهده الأسواق الأدبية الأخرى، واتسم بميزات أفردته عن بقية الأسواق الأخرى، وفي مقدمة تلك الميزات "ترسيخ اللغة العربية على أساس علمي استخدمه النحاة في تكوين قواعدهم النحوية التي عززوها بشواهد لا تحصى مما رووها عن فصحاء العرب، ومنها أيضا كثرة حلقاته، ومجالسه الأدبية، ونواديه، واكتظاظه بمئات الشعراء، والرجاز، والطلاب والرواد الذين كانوا يحملون معهم الأقلام، والمحابر والألواح". [ العلوجي " 1986" 12 ]

ومن الحقائق التي ينبغي تسجيلها بشأن مربد البصرة، أنه لم يكتف بخصائص الأسواق العربية البائدة، وإنما سجل مواقف جديدة تتجاوب مع روح العصر. ومن هنا جاءت جدارته، وتفرده، وكان من حسناته أنه يترامى مكانا ملائما لتقديم العون لمن يطلبه. فقد شهد المربد مواقف وصورا إنسانية عبرت عن جانب من جوانب الأخلاق العربية، وهي تستجيب لمن يطلب المساعدة، وتجود على من يروم العون والمساندة. وما يروى من تلك الصور أن الأصمعي وقف بالمربد في يوم شديد البرد، فإذا أعرابي ومعه صبية له صغار، وهو يقول:

أنا أبوهنّ ثلاثهن
وطفلة في المهد صغراهنّ
وخامس في البيت أمهن
والشيخ بعد الخمس
سادسهنّ
يمددن للكسرة أيديهن
قد شفني الجوع وشفّهنّ
قد كَلَبَ القرّ فآذاهن
لولا شبا الجوع لصنتهنّ
فهل فتى منكم يعيشهنّ؟

فبكى رحمة له من سمعه. فأقبلت إحدى بناته وهي تقول:

لئن بكيتم رحمةً لهنّ
لمثلكم بالفضل واساهِن
فقد بدت والله فاقَهنّ

فوثب الناس إليه بالعطية فأنعشوه، فأنشأ يقول:

سألتكم ما غايتي غير شبعة
فجاوزتم ظني وما كنت آمل
فمثلكم واسى وجاد بفضله
وفعل الندى والعرف منكم شمائل
فكافاكم الرحمن عني بجنة
إذا انصرفت هذي الليالي القلائل
[ الوشاء "1976" 41/2 ]

"وهكذا كان المربد يعمل عمله في بناء الحضارة العربية، ويؤدي دوره في توجيه الأمزجة، وتكوين العقول وتفتيق الأذهان". فقد

ازدهرت الحياة الأدبية في المربد وتجاوبت مع متطلبات التطور الذي شهدته الحياة السياسية، ولعل عودة سريعة لما أفرزه ذلك التطور من انعكاسات ونتائج؛ توضح أن سوق المربد كان ميداناً لاحتضان و احد من أبرز الاتجاهات الشعرية التي شهدها العصر الأموي، ألا وهو فن النقائض الأموي، حيث شهدت سوق المربد تطاير قصائد النقائض بين جرير والفرزدق فخرا بانتمائهما، وهجاء بعضهما لبعضهما الآخر. وقد أفرزت هذه المباريات الأدبية معارك شعرية اشترك فيها ثمانون شاعرا، واستمرت أربعين عاما، حيث شغل جرير والفرزدق والأخطل وجحافل هؤلاء الشعراء مربد البصرة بأشعارهم ونقائضهم.

ومثلما ازدهر الشعر في مربد البصرة، فقد انتعش النقد الأدبي شأنه في ذلك شأن الشعر. ومما يروي عن ذلك أن أبا عمرو بن العلاء لقى الفرزدق، واستنشده بعض شعره، فأنشده:

كم دون مية من مستعمل قذف
من فلاة بها تستودع العيس

فقال له أبو عمرو: أو هذا لك يا أبا فراس فأجابه الفرزدق: اكتمها عليّ، والله لضوال الشعر أحب إلي من ضوال الأبل. [المرزباني "1965" 176 ]

وقد شهد سوق المربد الكثير من الوقائع والأحداث، وقامت في ساحاته العديد من المناظرات والمهاجاة، التي كانت تجري بين الشعراء، وهي عموما لم تكن في جميع أشكالها تهجما، وتحمل بين دواخلها دافعا للعدوانية، بل كانت في جانب منها دفاعا عن الموروث العربي، وبعض القيم العربية الأصلية، وقد عبر عن هذه الحقيقة الشاعر الأموي جرير في قوله: (إن أهلي ساقوا بي وبراحلتي حتى وضعوني بقارعة الطريق بالمربد. والله ما أكسبهم دنيا ولا أخرى إلا لأسب من سبهم من الناس). [ المرزباني "1965" 274 ]

ومن صور المهاجاة التي كانت تجري بين الشعراء، وكان للجمهور دور في التحكيم بين المتهاجين، ما يروي عن (خروج الشاعر العجاج متحفلا أي – متزينا – وعليه جبة وعمامة من خز، على ناقة له قد أجاد رحلها، حتى وقف بالمربد، والناس مجتمعون فأنشدهم قوله: قد جبر الدين الإله فجبر... فذكر فيها ربيعة وهجاهم، فجاء رجل من بني بكر بن وائل إلى أبي النجم العجلي، وهو في بيته، فقال له: أنت هنا وهذا العجاج يهجونا بالمربد قد اجتمع عليه الناس. قال: صف لي حاله وزيه الذي هو فيه، فوصفه له، فقال: ابغني جملا طحانا قد أكثر عليه من الهناء أي (القطران)، فجاء بالجمل إليه، فأخذ سراويل له فجعل إحدى رجليه فيها وائتزر

بالأخرى، وركب الجمل، ودفع خطامه إلى من يقوده، فانطلق حتى أتى المربد، فلما دنا من العجاج، قال: اخلع خطامه، فخلعه أنشد: تذكر القلب وجهلا ما ذكر..

فجعل الجمل يدنو من الناقة يتشممها، ويتباعد عنه العجاج لئلا يفسد ثيابه ورجله بالقطران.. حتى إذا بلغ قوله: "شيطانه أنثى وشيطاني ذكر". تعلق الناس هذا البيت، وهرب العجاج عنه). [ العباسي "1974" 20/1 ]

وشهد المربد وفود الشعراء والخطباء والنقاد وعلماء اللغة من كل الأرجاء والأنحاء، وتذكر لنا الأخبار و الروايات وفادة بعض هؤلاء من أمثال الشاعر الفضل بن قدامة الذي أنشد شعره في سوق المربد.

"ولذلك لم يكن عجيبا أن تعمل لقاءات المربد عملها في بناء الحضارة العربية، وتؤدي دورها في توجيه الأمزجة،و تكوين العقول وتفتيق الأذهان.. وكان المربد أيضا مجتمع العرب ومنتداهم، ومتتره النساء والرجال والأطفال، ممنْ ضاقوا برخاوة المدن، ورتابة سلوكها اليومي". ولهذا وجدنا إقبال الأعراب الذين كانوا يتمتعون بالفصاحة والبلاغة والبيان على المربد، وهذا ما دفع الأصمعي، وهو يحاور أبا عمرو بن العلاء إلى الاعتراف بما لأعراب المربد من فضل عليه، وقد نقل عن الأصمعي أنه قال: "جئت إلى أبي عمرو بن العلاء، فقال لي: من أين أقبلت فقرأت عليه ما كتبت في ألواحي، فمرت به ست أحرف فلم يعرفها، فخرج يعدو، وقال: شمرت في الغريب". بل لقد وجد الأدباء أن من شروط إجادتهم اتصالهم بعرب المربد. وهذا ياقوت الحموي يروي عن الجاحظ "أنه أخذ النحو عن الأخفش، وأخذ الكلام عن النظام، وتلقف الفصاحة من العرب شفاها بالمربد". [ ياقوت الحموي " 1936" 56/6 ]

لا غرابة بعد ذلك أن يصبح عرب المربد موضع عناية علماء اللغة والنحو، وأن يكون منهج التعليم في مثل هذه العلوم قائما على الخروج إلى مثل تلك المتلقيات الأدبية، وقد وجدنا الأدباء والعلماء يرون أن من شروط إجادتهم اتصالهم بعرب المربد. فالجاحظ كما – هو معروف – أخذ النحو عن هذا الطريق. وأصبح المربد غرضا يقصده الشعراء لا ليتهاجوا، ولكن ليأخذوا الكلمة الشعرية عن الأعراب، يحتذونهم ويسيرون على منوالهم، وهذا ما فعله بشار وأبو نواس وأمثالهما. وكان اللغويون يأخذون اللغة عن أهل المربد، ويدونون ما يسمعون، وكان الأعراب هدف هؤلاء اللغويين.

ونظرا لما تمتع به سوق المربد من هذه المزايا والخصائص، فقد احتفظ بعناصر التشويق والجذب التي كانت تدفع كل من يحضره إلى مواصلة الحضور، وهو يستمتع بمتابعة الشعراء والخطباء وعلماء اللغة والنحو والإخباريين

وغيرهم، وهذا النمر بن تولب الشاعر المخضرم الذي أدرك أيام الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ، وقد بلغ سنا عالية، يقال إنه هاجر إلى البصرة، لفتنته بالمربد وحبه لأهله.

وظل المربد يحتفظ بهذه المترلة الواسعة في نفوس الناس، لما حفل به من وجود الشعراء والخطباء وعلماء اللغة والنحو والنقاد، "ولكنه لم يسلم من سنة التطور، إذ هدأت الحزازات، ومات الفحول، واستراح الناس من الجدل والمنافرة، فأخذ المربد يتغنى بالقصص والأخبار التي تصور بطولة القدماء، فتثير الحماسة في نفوس الجماهير، وتؤثر في الحياة الاجتماعية والأدبية تأثيرا عميقا". [ زكي " 1961" 48 ]

وقد تعرض المربد شأنه شأن الأسواق الأخرى إلى الحريق أحيانا بسبب كثافة الزائرين وازدحام البضائع، ونزول الناس في أرجائه. وقد ذكر ياقوت الحموي أن أبا القاسم نصر بن أحمد الحميدي دخل على أبي الحسين بن المثنى في آخر حريق كان في سوق المربد، فقال له أبو الحسين بن المثنى، يا أبا القاسم ما قلت في حريق المربد، فقال: ما قلت شيئا، فقال له، وهل يحسن بك وأنت شاعر البصرة والمربد من أجمل شوارعها، وسوقه من أجل أسواقها، ولا تقول فيه شيئا فقال: ما قلت ولكني أقول، وارتجل هذه الأبيات:

أتتكم شهود الهوى تشهد
فما تستطيعون أن تجحدوا
فيا مربديون ناشدتكم
على أنني منكم مجهد
جرى نفسي صعدا نحوكم
فمن أجله احترق المربد
وهاجت رياح حنيني لكم
وظلت به ناركم توقد
ولولا دموعي جرت لم يكن
حريقكم أبدا يخمد
[ ياقوت الحموي "1977" 98/5 ]

وشهدت ساحة المربد حين حاول الزنج استباحة البصرة ومربدها قتالا عنيفا وموقفا بطوليا رائعا دفاعا عن المربد والبصرة، وتشتد حدة القتال بحضرة دار (بريه) حتى قتل من الزنج قوم كثيرون، يحاول أصحاب هذا الخبيث أن يدخلوا البصرة مرة أخرى من ثلاثة أوجه ناحية بني سعد والربد والخريبة، هي المناطق التي كانت تحيط بالبصرة سنة مائتين وسبع وخمسين للهجرة .. وتبقى طرق المربد ميدانا لمعارك دامية طوال الأيام التي خاضتها المدينة البطلة، وهي تدفع الشر،وتلوي سيوف الطغاة، وترد هجمات الزنج. [ الطبري "1969" 483/9-485 ]

وكما وقف الفرزدق في المربد يفخر بمآثره ومآثر قومه، كانت ذكريات العشاق العزيزة تجد فيه سمة التواصل حيث يلتقي في

رحابه الأحبة، ويسعد المحرومون، وتنشد أشعار الحرمان، وقد ذكر أبو الفرج أبياتا لمحمد بن أبي العباس يقول فيها:

يا قمر المربـــــد قــد هجْت لي
شــــوقا فما أنفك بالمربد
أراقب الفرقد من حبكم
كأنني وكــــلت بالفرقد

أهيـــــم ليلي ونهاري بكم
كأنني منـــكم على موعد
علقتها ريا الشوى طفلة
قريبة المـــــولد من مولدي
جَدّي إذا ما نُسبت جدها
في الحســـــب الثاقب والمحتد

والله ما أنســـــــاك في خلوتي
يـــــا نور عينَيَّ ويا مشهدي
[ الاصفهاني "د.ت" 357/14 ]

وتختفي أخبار المربد بعد أن قَلَّ قاصدوه، وانصرف الناس عنه، وحيلت بينه وبين مرتاديـه مجالس أخرى، وأماكن وجـدوا فيهـا مـوردا ينهلون منه، وأصبح بائنا "كما قـال يـاقوت الحموي" عن البصرة، بينهما نحو ثلاثة أميـال، وكان ما بين ذلك كله عامرا، وصـار المربـد كالبلدة المفــردة في وســط البريــة. ["1977" 98/5]

وخلاصة القول

إن مدينة البصرة – التي أسست سنة 14 من الهجرة في عهد عمر بن الخطاب – قامت علـى أنقاض مدينة قديمة في المكان نفسه على مقربـة من مصب نهر دجلة شــاطئ خلـيج العـرب. وكانت تقع أيضا على حافة البادية. ومن أهـم القبائل التي سكنتها تميم وعبد القـيْس وبكـر وتغلب والأزد وبعض العشائر الأخرى. وهذا ما جعلها مؤهلة لصراع العصبيات القبلية في البداية، ثم صارت ميدانا للصراع بين العروبة والشعوبية فيما بعد، حيث نزل بها بعض الأعاجم وكثير من الرقيق الفارسي الذين أسروا في الحروب، كمـا وفد إليها بعض الهنود والأحباش. وعلــى هـذا صارت مدينة غنية، تعتمد في ثروتها على الزراعة والتجارة خططت تخطيطا قبليا بحيث يكون لكل قبيلة خطتها ومحلتها. وكانت ســوقها "المربـد" سوقاً شاملة يُباع ويشترى فيها كل شيء: ابتداء من الرقيق والجواري وانتهاء بتمر البلح و أصناف الطعام والحلوى، لذلك يعد المربد أهم حيّ مــن أحياء البصرة، ويقع غرب المدينة، وكان يتصـل من طرفه الجنوبي بالبادية، وهذا ما هيأ البصـرة لسكنى كثير من البدو والأعراب وأهل الحضر من فارس والعراق، وهذا ما أَهَّل المدينـة وســوقها المربد، لأن يكونا مجالاً للصراع القبلي والتنافس الأدبي والعلمي والتجاري والشعوبي فيما بعــد. من هنا أسهمت البصرة وسوقها في بناء الحضارة

وتأسيس دعائمها العربية الأولى. ولا ريب في أن المربد كان أكثر أحياء المدينة الوليدة ثراء وازدحاما بالبشر. غير أن المربد لم يكن سوقاً للتجارة وإنشاد الشعر وإلقاء الخطب فحسب، بل كان أيضا مكانا للهو والمجون وحانات الخمر والغناء وأماكن بيع الجواري، أي أنه صار مجالا خصبا للترف والطرب والغناء.

وتلك نتائج طبيعية للثراء والتحضر والرفاه.. وأصبحت هناك دور معروفة للطرب والغناء واللهو بجوار أماكن أخرى للقاء أهل الأدب والعلم والمناظرة والخطابة والنقد. وذلك كله يعكس نهضة الجو الاجتماعي والأدبي والعلمي و الديني. ومن المعلوم أن المدينة كان لها مدرسة خاصة بها في النحو هي "المدرسة البصرية" التي تعد من أكثر المدارس النحوية اعتدالا وتأثيرا حتى اليوم. ومن أهم روادها: عبدالله بن أبي إسحاق، والخليل بن أحمد، وعيسى بن عمر، وأبوعمرو بن العلاء، وسيبويه، والكسائي، والأصمعي، ويونس بن حبيب، والأخفش، والمبرد.

- كانت البصرة موطنا لكثير من القبال والعشائر العربية.. و في الوقت نفسه معقلا للخوارج – الذين خرجوا على معاوية وعلي .. وهذا ما أدى إلى أن يكثر فيها شعر النقائض بين جرير والفرزدق ثم بين جرير والأخطل، والشعر السياسي الذي يدافع عن مصعب بن الزبير، أو عن البيت الأموي أو عن الخوارج. بيد أن شعر الفرق السياسية لم يكن وحده المسيطر على الحياة الأدبية، وإنما كان هناك شعر الوصف والحب والطرد والزهد والأراجيز، ومن أهم الأعلام الأدبية والعلمية التي أثرت تأثيرات قوية في مسيرة الحضارة العربية، وتركتْ بصمة في تاريخ الثقافة العربية حتى اليوم، ومن أهم هذه الأعلام: جرير و الفرزدق و الأخطل و ذو الرمة و الراعي النميري و رؤبة بن العجاج و عمران بن حطان و بشار بن برد و أبو نواس وعبد الله بن قيس الرقيات و يزيد بن مفرغ الحميري و حارثة بن بدر الغداني التميمي ومنهم أيضا: الحسن البصري و واصل بن عطاء و أبو عمرو بن العلاء و الخليل بن أحمد والنظام و الجاحظ و أبو الحسن الدائني و ابن المقفع و أبو موسى الأشعري و الأحنف ابن قيس و عبدالحميد الكاتب و الأصمعي و سيبويه و أبو عبيدة ورؤبة بن العجاج و أبو الأسود الدؤلي و خالد بن صفوان و أبو حمزة الشاري و سهل بن هارون و عدي بن زيد العاملي.

**أ.د أيهم عباس القيسي**

**أ.د طه عمران وادي**

## المصادر والمراجع


ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم (630هـ/ 1232م)

(1965) الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت.

الاصفهاني ابو الفرج علي بن الحسن (ت356هـ/966م)

(د.ت) كتاب الاغاني ، (د.م) .

البكري، أبو عبيد الله بن عبد العزيز (487هـ/941م )

(1403هـ) معجم ما استعجم تحقيق: الطبعة الثالثة ، مصطفى السقا ، بيروت، عالم الكتب.

البيهقي إبراهيم بن محمد ( ت 320هـ/932م )

(1970) المحاسن والمساوئ ، دار صادر، بيروت.

ابن حجر العسقلاني، احمد بن علي (852هـ/ 1448م )

(1992) تحقيق على البجاوي ، دار الجيل، بيروت الطبعة الأولى.

الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (463هـ/ 1070م )

(د.ت) تاريخ بغداد ، دار الكتاب العلمية، بيروت.

ابن خلكان احمد بن محمد (ت 680هـ/1281م)

(د.ت) وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت.

الجاحظ عمرو بن بحر (ت 255هـ/868م)

(د.ت ) البخلاء ، تحقيق طه الحاجري ، القاهرة .

(1965-1968) الحيوان ، تحقيق عبد السلام ، هارون ، القاهرة .

خليفة بن خياط ابن ابي هبيرة العصفري ( ت 240هـ/ 854م)

(1966) كتاب الطبقات، تحقيق سهيل زكار ، دمشق.

الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (848هـ/ 1448م )

(1413هـ) سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الارناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

الزبيدي، السيد محمد بن محمد مرتضى (ت 1205هـ/1790م )

(د.ت) تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد العزيز مطر .

ابو سلام محمد بن سلام الجمحي (ت 232هـ/846م)

(1974) طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود محمد شاكر ، القاهرة .

الطبري، محمد بن جرير (310هـ/ 922م )

(1969) تاريخ الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة.

أبو الطيب اللغوي عبد الواحد بن علي (ت 351هـ/961م )
(د.ت) مراتب النحويين، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة.
العباسي ، عبد الرحيم بن عبد الرحمن (ت 963هـ/1555م )
(1947) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة.
ابن عبد ربه ابو عمر احمد بن محمد ( ت 328هـ/ 939م )
(1967) العقد الفريد، تحقيق: أحمد أمين وإبراهيم الأبياري وعبد السلام هارون ، القاهرة.
أبو عبيد معمر بن المثنى ( ت 210هـ/ 825م )
(1908-1911) نقائض جرير والفرزدق، تحقيق: انتوني اشلي بيفان ، ليدن.
الفرزدق همام بن غالب ( ت 114هـ/732م )
(1960) ديوان الفرزدق ، دار صادر، بيروت.
القالي اسماعيل بن القاسم البغدادي (ت 356هـ/ 966م)
(د.ت) الامالي ، طبعة بالأوفسيت عن طبعة القاهرة، بيروت.
ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (276هـ/ 889م )
(1966) الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر ، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية.
(1964) عيون الأخبار ، مصر ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب.
المرزباني، محمد بن عمران (ت 384هـ/ 954م )
(1343هـ) الموشح ، المطبعة السلفية، القاهرة.
ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (711هـ/1311م )
(1965) لسان العرب ، القاهرة ،نسخة مصورة عن طبعة بولاق ، بإشراف الدار المصرية للتأليف والترجمة.
ابن النديم، محمد بن اسحاق (385هـ/955م )
(1978) الفهرست ، دار المعرفة، بيروت.
ابن هشام، أبو محمد عبد الملك (218هـ/833م )
(1986) السيرة النبوية ، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين ، طبعة مصورة عن طبعة القاهرة، مطبعة منير، بغداد.
الوشاء، محمد بن أحمد (325هـ/ 936م )
(1976) الفاضل في صفة الأدب الكامل، تحقيق: يوسف يعقوب مسكوني ، دار الحرية للطباعة، بغداد.
ياقوت الحموي، أبو عبد الله (626هـ/1258م )
(1936) معجم الأدباء، تحقيق : أحمد فريد رفاعي.
(1977) معجم البلدان ،بيروت ، دار الفكر .

المراجع العربية والمعربة :

أمين أحمد

(1949) فيض الخاطر ، القاهرة.

بيلا شارل

(د.ت)الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ترجمة د. إبرااهيم الكيلاني، دار اليقظة العربية.

زكي أحمد كمال

(1961) الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، دار الفكر، دمشق .

ضيف شوقي

(1963) تاريخ الأدب العربي ، العصر الإسلامي ، دار المعارف، القاهرة.

(1981) التطور والتجديد في العصر الأموي، دار المعارف .

(1967) الشعر والغناء في مكة والمدينة، دار الثقافة، بيروت .

العلوجي عبد الحميد

(1971) أيام في المربد ، بغداد .

(1986) المربد مواسم ومعطيات ، دار الشئون الثقافية، بغداد.

العلي صالح أحمد

(1969) التنظيمات الاجتاعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري ، بيروت.

القط عبد القادر

(1979) في الشعر الإسلامي والأموي، النهضة العربية، بيروت .

## تمصير الأمصار وأنتشار العرب

أفلحت الجيوش الإسلامية خلال السنوات الخمس الأولى من خلافة عمر بن الخطاب ﷺ في دحر جيوش الروم والقضاء على جيوش الفرس بعد معارك ضارية ضموا فيها بلاد الساسانيين وبلاد الشام والجزيرة الفراتية إلى دولتهم و لم تكن تلك البلاد ضمن جزيرة العرب ولا الأقاليم الخصبة في شمالها التي تفصلها جبال الزاغروسMonts Zagros والطوروس Monts Taurusعن هضبة آسيا الصغرى، وكان جل أهل تلك البلاد والتي ضمنها دولتهم من أرومة واحدة في أصولهم ولغاتهم ونظم حياتهم الاجتماعية والسياسية والدينية وتختلف عما كان عليه أهل البلاد الجبلية التي وراءها.

أوقف الخليفة عمر ﷺ توسع الدولة إلى ما وراء هذه الحدود الجبلية الوعرة، ويروي أنه قال بعد وصول الجيوش الإسلامية إلى مشارف المرتفعات الشرقية : " ليت بيني وبينهم جبلا من نار فلا يصلون إلينا ولا نصل إليهم" [ البلاذري "1957" 350 وما بعدها ]، وأمر قادته ألا يندفعوا في التوغل في هضاب أرمينية شمالا ومنع عمرو بن العاص من الإندفاع في التقدم في إفريقية ومن هنا كان سكان هذه البلدان المفتوحة مرتبطين بروابط عرقية ولغوية وحضارية وسياسية تيسر التفاهم بينهم.

انصرف الخليفة عمر ﷺ بعد إتمام هذه الفتوحات إلى تنظيم إدارة البلاد بما يكفل بقاءها ضمن الدولة وديمومتها وتثبيت الاستقرار وتيسير الإزدهار في حياتها، وتابع عمل الرسول ﷺ لتوطيد الإسلام و قيمه بما يؤمن للفرد سلامته وطمأنينته وحريته في الكلام والعمل والتنقل على وفق مبادئ تيسر تثبيت مجتمع سليم متنام يقوم على أساس أخلاقي. وأثبت من ناحية أخرى سلطة مركزية تطغى على ما كان من سلطات ضيقة متناثرة تؤثر في أن قضى تفكيك وحدة الأمة، وكان أبو بكر ﷺ إبان خلافته القصيرة قد أفلح في تعميمها على كل جزيرة العرب بعد على حركات الردة والانشقاق المتعددة والقائمة على أسس ضحلة.

### الاهتمام بالمقاتلة وتوطينهم :

كان من أول ما عمله الخليفة عمر ﷺ إقامة مراكز يقيم فيها المقاتلة العرب الذين فتحوا هده البلاد وكان عليهم واجب حفظ الأمن والإستقرار وتثبيت حكم الدولة الإسلامية فيها وحماية حدودها وتوسيعها. واشترط أن تقام هذه المراكز على أطراف جزيرة العرب متصلة بها لا يفصل بينهما ماء أو أي عائق جغرافي معرقل، وأن يكون مناخها كمناخ جزيرة العرب من حيث الجفاف "فإن العرب لا يصلح لها إلا ما

يصلح للإبل" [للبلاذري "1957" 288 ]، وسميت هذه المراكز الأمصار وهو تعبير عربي أصيل يعني الحدود، فكأنه قصد منه أن تكون مراكز حدودية بين الجزيرة العربية والأقاليم المفتوحة المعروفة بازدهار الزراعة ووفرة المياه.

اختار الخليفة عمر ﷺ من هذه الأمصار اثنتين في العراق هما الكوفة والبصرة، وواحدة في مصر هي الفسطاط، وكل منها يقع قرب مركز حضري قديم، فالبصرة قريبة من الأبلة، والكوفة بلصق الحيرة، والفسطاط متصلة بهليوبوليس "مدينة الشمس"، واقتضت المتطلبات العسكرية أن يجعل وحدة كل من جواثا في البحرين، والجابية في بلاد الشام، كما عدّ المدينة مصرا ، وبذلك كانت الأمصار التي ثبتها الخليفة عمر ﷺ ستة، ثم ألغى في وقت مبكر كلا من جواثا لضعف أهميتها، والجابية التي عوضت بمراكز متعددة في بلاد الشام، وفي سنة (50 هـ/ 670 م) أنشأ عقبة بن نافع القيروان وجعلها قاعدة للمقاتلة العرب في شمال إفريقيا، ثم شيد الحجاج في سنة (82 هـ/ 701م) واسط على الجانب الأيسر من دجلة مقابل كسكر التي كانت على الجانب الأيمن منه.

## التخطيط الأساس الأول

تولى رجال من المقاتلة تنفيذ قرار الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ مراعين المتطلبات الملحة في حينها، فحدد في وسط كل منها رقعة واسعة محاطة بحائط، وفيها الجامع الذي يتسع لكافة الرجال المصلين من أهل المصر و بجانبه دار الإمارة لإقامة الوالي، والدواوين، تحيط بها رحبة واسعة بعدها مرمى سهم و لم يشيد غيرها بناءً عاما.

أدرك الخليفة عمر ﷺ تأصل الروابط القبلية في أهل الأمصار فراعاها في المخطط وتوزيع العطاءات وتنظيم الإدارة، وكان معظم أهلها من المقاتلة مما يعطي انطباعا أنه استهدف من تأسيسها إقامة قواعد عسكرية. غير أن الدراسة العلمية تظهر أنه أرادها أن تكون مراكز حضرية وليست عسكرية، فلم يرتب خططها على أساس تنظيم الجيش ، و لم ينشئ في أي منها مراكز لصنع الأسلحة وخزنها، أو ساحات لتدريب الفرسان والرجالة، و لم يجعل لقادة الجيوش مكانا متميزا في موضع التخطيط .

أحدث الاستيطان في الأمصار أحوالا كان من شأنها إضعاف التكتل العشائري الضيق، فقد أصبح كافة الأفراد والعشائر تعلوهم سلطة لا يعلى عليها هي سلطة الخليفة ومن يمثله في الأمصار من الولاة، أو من يعينهم من القادة أو ولاة الشؤون الأخرى وهكذا تضاءلت علة وجود العصبية.

خصصت الأراضي وراء الساحة لسكن العشائر و قام بتوزيعها رجال اختارهم الولاة وقبل الناس اختيارهم فقسموها خططا وجعلوا

لكل عشيرة خطة يقطنها أفراد العشيرة المرتبطون بعضهم ببعض برابطة النسب وتسمى باسم العشيرة التي خصصت لهم، وكانت تمتد بعد الخطط شوارع واسعة ومنها دروب أضيق، وروعي في توزيع الخطط الروابط النسبية، فجعلت للعشائر المتقاربة في النسب خطط متقاربة في المكان، وبمرور الزمن حدثت كثير من التبدلات في الخطط فقد هاجر من بعضها أفراد وجماعات وتركوا منازلهم منتقلين إلى مدن أخرى أو استوطنوا خططا ليست لهم بأهلها علاقة نسبية، وخصصت جبانات لكل عشيرة أو لمجموعة عشائر تسمى باسم العشيرة التي كانت فيها. وكانت كثير من هذه الجبانات ساحات تجمع لا سيما عند حدوث الاضطرابات.

وبنيت في الخطط مساجد عديدة متفرقة سميت باسم العشيرة التي بنيت في خططها أو الشخص الذي بناها، وكان كل منها مركزا لإقامة الصلوات أو الاجتماعات أو التدريس. وهي مفتوحة للكافة. وإن كان الغالب على من يؤمها رجال العشيرة التي بني في خططها المسجد.

كان جل البيوت في المراحل الأولى من تشييد الكوفة والبصرة، وربما الفسطاط أخصاصا من القصب والبناء البسيط، ثم تطور البناء فصارت البيوت تشيد باللبن ثم بالطابوق والآجر، وشيد عدد من ذوي المكانة والثروة دورا واسعة أغلبها قرب الجامع في وسط المصر، وحفظت في الأطراف منازل الأشراف، و لم تحط الأمصار بأسوار وخنادق تحدد توسعها وفي زمن خلافة أبي جعفر المنصور شيد للكوفة والبصرة سور يحيطها، و لم يذكر بناء سور للأمصار الأخرى.

## الأسس القبلية في تنظيم أهل الأمصار

كان جل أهل الأمصار الأولين من الأعراب الذين دخلوا الإسلام بعد القضاء على حركات الردة والانشقاق، وكانوا قد ألفوا النظام البدوي من الاعتداد بالعروبة ونصرة إخوانهم عند الشدائد، وكان لرؤسائهم وذوي المواهب مكانة مرموقة تقضي الأحوال مراعاتها، غير أن استقرار العدد الكبير من المقاتلة في مكان واحد للمعيشة والاستعداد للقتال المطلوب منهم كان يقضي وضع تنظيمات تؤمن الحاجات الجديدة، فقد كان في كل مصر عدد كبير من العشائر المتباينة في عدد أفرادها، وعدد كبير من الرؤساء القدماء الموزعين بصورة غير منتظمة على العشائر، وهم يعتمدون في مكانتهم على شخصياتهم وتمسك عشائرهم بهم، كما أنهم لا يقومون بكل ما تحتاج إليه الدولة من متطلبات، روعيت القبلية في تخطيط الأمصار، فأسكنت كل عشيرة في خطة من الأرض يتوزعها الأفراد بينهم، ويشركون المتأخرين في القدوم معهم في السكن، مع الأقارب تبعا لنظام محدد ويؤول في التطبيق إلى أن العشيرة ترث من لا وريث له

وللأفراد حق في شراء أرض تباع في الخطة، وهم يشاركون في دفع دية القتل الخطأ.

وذكر سيف بن عمر أن عمر بن الخطاب ﷺ عندما أسس الكوفة قسم أهلها إلى عرافات [ البلاذري "1957" 289 ]، لكل عرافة عريف يأخذ مائة ألف درهم يقسمها على أفرادها تبعا لما يستحقون من العطاء، أي أن عدد أفراد العرافات متباين، و لم يرد غير هذا الخبر في غير هذا المكان، وإنما تردد ذكر تقسيم أهل الكوفة في زمن الخلفاء الراشدين إلى أسباع كل سبع ينتمي أصحابه إلى عشائر من النسب نفسه، أما المدينة فكان أهلها ثلاث مجموعات كبيرة هم الأنصار، ومهاجرة قريش وأهل الحجاز، و لم تذكر المصادر تنظيم العرب في الفسطاط.

ولما استقرت الخلافة للأمويين أدخلوا تعديلات على تنظيم العشائر، فجعل زياد الكوفة أرباعا كل ربع من مجموعتين إحداهما من القبائل الشمالية والأخرى من القبائل الجنوبية، وجعل البصرة أخماسا كل خمس من قبيلة واحدة كبيرة و يبدو أن الفسطاط جعلت أرباعا، وظل هذا النظام معمولا به طيلة العصر الأموي.

روعي الترابط القبلي وجعلت كل وحدة عشائرية مكونة من ألف مقاتل، فقسمت العشائر الكثيرة العدد، وحكمت العشائر الصغيرة إلى غيرها للتنسيق مع هذا العدد، وجعل لكل عشيرة عريف يحفظ سجلات بمقاتلتها وعوائلها، ويقوم بتوزيع العطاء على أفرادها، ويتابع حفظ الأمن والنظام، ويبلغ أفراد العشيرة أوامر الوالي.

ثم جمعت العشائر بمجموعات كبيرة، وكانت خمسة من البصرة، وأربعة في الكوفة، وروعي في البصرة أن يكون كل خمس من عشائر متقاربة في النسب وفي مواطن سكناها في الجزيرة العربية، أما في الكوفة فقد جعل كل ربع من مجموعة عشائر متباينة في نسبها ، ووضع لكل من هذه المجموعات الكبيرة رئيس يقر الخليفة تعيينه من ذوي المكانة المتميزة، وكثيرا ما يقود عشيرته في الحملات.

وفي زمن الخلافة الأموية بدأت تتجلى آثار التطورات التي حدثت في أحوال الدولة والمجتمع، وهي تطورات سبقت خلافتهم، وظلت آثارها تجري إبان حكمهم. ومن أبرز هذه التطورات أن المقاتلة في الأمصار ألفوا حياة الاستقرار واجتماع أفراد وعشائر متعددة في مكان واحد، فتكونت بينهم علاقات جديدة بالتزاوج والاختلاط والمعاملات، وسارت هذه العلاقات مع الروابط القبلية، وبالتدريج طغت عليها، وازداد تفهم الناس لمتطلبات الإسلام ومثله الأخلاقية التي تدعو إلى التعاون وقطع التشاحن، والنظرة الواسعة التي تسمو على العشائرية الضيقة، ثم إن الدولة استقرت حدودها بعد التوسع السريع الذي تم إبان السنين الأولى من

الفتوح، حيث امتدت إلى خراسان شرقا وإلى أطراف بحر قزوين شمالا، وأصبح عبء القتال ملقى بالدرجة الأولى على القواعد الجديدة قرب حدود الدولة، ومنها قزوين ومدن خراسان وخاصة مرو.

تطلبت الأحوال وضع تنظيمات تراعي أحوال الأفراد وحاجات الدولة فمنذ السنين الأولى لتأسيس الأمصار وضعت تنظيمات خاصة لا نعلم من تفاصيلها إلا ما أقيم في الكوفة حيث قسمت على أسباع، يضم كل سبع عددا من العشائر تبلغ ما بين ثلاث وخمس عشائر رئيسة يضم كل منها عددا من العشائر الأصغر، ولعل التنظيم في المدينة راعى تقسيم السكان إلى أوس و خزرج ( الأنصار ) و قريش (المهاجرين )، وعشائر الحجاز، أما الفسطاط فلم ترد عنها إشارة. وأما بلاد الشام فقد تطلب طول حدودها المعرضة لهجمات الروم، إلى توزيع القوات الإسلامية في أماكن متعددة، روعي فيها الوضع الجغرافي للبلاد أكثر مما روعي تنظيم العشائر، أما البصرة فكانت في السنين الأولى من تأسيسها تمر بنمو سريع واسع لا يجري على وفق خطة مرسومة واضحة المعالم. و لا بد من الإشارة إلى أن كل سبع تكون من عشائر متقاربة في النسب وفي مواطن السكن في الجزيرة، غير أن هذا المبدأ لم ينطبق حرفيا، فقد ضمت بعض الأسباع عشائر متباعدة في نسبها وفي مواطنها في الجزيرة.

## التنظيمات المالية، الموارد وتنظيمها :

عندما وضع الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ تنظيم الدولة قرر أن تصرف على مقاتلة كل مصر جبايات البلاد التي فتحوها بعد إرسال خمسها إلى المدينة لتصرف في عطاء أهلها وظل هذا القرار معمولا به مع تعديلات محدودة خصصت للمقاتلة المقيمة في واسط [ أبو يوسف "1303 هـ" 4 ].

قرر الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ أن تصرف جبايات الأقاليم على أهل المصر وفي ما يتطلبه المصر ويرسل كل مصر خمس موارده إلى المدينة لسد نفقات عطاء مقاتلتها، والتعديل الذي أجراه معاوية هو بإرسال موارد كسكر إلى الكوفة وهي من فتوح مقاتلة البصرة، مقابل إرسال موارد نهاوند إلى أهل البصرة وهي من فتوح مقاتلة الكوفة [ البلاذري "1965" 407 ]

و تذكر المصادر أن زيادا كان يجبي من كور البصرة ستين ألف ألف، يعطي المقاتلة منها ستة وثلاثين ألفاً، ويعطي الذرية ستة عشر ألفاً وينفق نفقات السكان ألفي ألف، ويجعل في بيت المال للبوائق والنوائب ألفي ألف، ويحمل إلى معاوية ثلثي الأربعة آلاف [ البلاذري "1996" 227/5 ].

قرر الخليفة عمر ﷺ أن يصرف لكل عربي من أهل الأمصار رزقا شهريا من المواد العينية لمعيشته ويصرف للذكور عطاء سنويا

يختلف مقداره تبعا لتاريخ مشاركته في الغزوات والفتوح، وكان أكبر مقدار في المدينة لمن شارك في غزوات الرسولﷺ فأعطى المشاركين في معركة بدر ستة آلاف درهم سنويا ويتناقص حتى يصل إلى ثلاثة آلاف لمن شارك في فتح مكة. وفضل في العطاء زوجات الرسول ﷺ وعددا محدودا من شباب الصحابة، أما المقاتلة في الأمصار وجلهم ممن إنضموا إلى الجيوش الإسلامية بعد وفاة الرسول ﷺ فقد صنفهم في العطاء تبعا لأقدميتهم في المشاركة، فأعطى في الكوفة لكل من شارك في المعارك الأولى قبل القادسية، ويسمون أهل الأيام، ثلاثة آلاف [الطبري "1960" 590/2 ] و لم تذكر المصادر حكمه على أمثالهم ممن قاتل في أطراف بلاد الشام.

وجعل في الكوفة عطاء كل من شارك في معركة القادسية ألفين وخمسمائة درهم، ثم نوع مقدار العطاء لمن لحق بعد ذلك من الروافد تبعا لتاريخ التحاقهم، وكان الحد الأدنى الذي قرره مائتي درهم في السنة وهو أقل مقدار يؤمن العيشة اللائقة لمن يستحق الصدقة. [البلاذري "1957" 635] والراجح أن هذا التنوع في التقدير سرى على كافة المقاتلة في كل الجبهات ثم أن الخليفة عمر ﷺ قرر مقدار العطاء منوعا تبعا لمنجزات المقاتلة الأوائل، فكان أفراد العشيرة يختلفون في مقدار عطائهم، إذ يأخذ كل من السابقين في المشاركة في المعارك مقدارا أكبر مما يأخذ من تأخر في الإلتحاق، و لم يضع قواعد لرفع عطاء المتأخرين علما بأن السابقين في المشاركة تضعف قدراتهم على القتال، ويصبح الناشئة منهم أقدر على القتال ممن كبر سنه وضعفت طاقته على القتال مما يكون مصدر إستياء الناشئة وحسدهم للكبار وقد يدفعهم إلى اتخاذ مواقف عدائية. وأن أعلى مقدار في العطاء، ويسمى شرف العطاء كان مقداره ألفين وخمسمائة درهم في الأقاليم التي تتعامل بالدرهم الفضي في المشرق وهو يساوي مائتين وخمسين دينارا في أقاليم الشام ومصر والمغرب التي تتعامل بالدنانير الذهبية، ولعل هدا المقدار ثبت في زمن خلافة معاوية.

اقتصرت التنظيمات المعاشية التي وضعها الخليفة عمر ﷺ على الأمصار العربية التي أنشأها وعلى أهل المدينة التي كانت قاعدة دولة الإسلام ومقام الرسول ﷺ في السنوات الإحدى عشرة الأخيرة من حياته ثم مقام الخلفاء الراشدين الأولين. ولا شك في أنها تؤمن لأهل هذه الأمصار الحد الأدنى للمعيشة ولحياة مترفة ووثقت ارتباطهم بالدولة التي صارت مصدر تأمين معاشهم وجعلت من مصلحتهم العمل على ديمومتها، وأباحت لذوي الرغبة والكفاءة العمل لزيادة مواردهم وثرواتهم. وكان من مصلحتهم استقرارها وقوتها، ولكنها يسرت نمو

طبقة ثرية قد تستغل ثروتها لطغيان نفوذهم وإثارة حفيظة من لا تتوفر له فرصة الثروة وخاصة من الناشئة والشباب فتثير حفيظتهم وقد تدفعهم إلى الإنضمام إلى المتذمرين والمشاركة في الحركات المعارضة، وقد أدرك الخليفة عمر ﷺ توجهات الشباب و عمل على إرضائهم بما يعين على الاستقرار، وكان إذا ألم به الأمر المعظل دعا الفتيان فاستشارهم وكان يتبع حرية عقولهم.

أما في الأمصار غير المدينة فجعل مقدار العطاء منوعا تبعا لقدم مشاركة الأفراد في المعارك، ففي الكوفة وضع الحد الأعلى لمن شارك في الأيام الأولى، يتلوهم من شارك في القادسية، ويعادلهم من شارك في المعارك التالية تبعا لتسلسل مواعيدها [ الطبري ، "1960" 590 و ما بعدها]. وجعل تقدير العطاء للأفراد، وبذلك لم تتميز عشيرة من غيرها وإنما تميز الأفراد، وصار في كل عشيرة أفراد يتباين عطاؤهم تبعا لتسلسل قدمهم في المشاركة في الفتوح.

و لم يرد ذكر لوضعه قواعد لمعالجة التطورات التالية المتوقع حدوثها، مثل من يحل محل من يأخذ العطاء عند وفاته، وكيف يؤمن توفيره عند تزايد الهجرات التالية، علما بأنه استوعب في تنظيمه الأول كل موارد الدولة و لم يبق احتياطا يدفع من عطاء لمن يهاجر بعد ذلك إلى الأمصار فيكون روادف مستعدة أفرادها للقتال، وتتطلب أحوالها توفير هدا العطاء. لقد عالج الخليفة عمر ﷺ مشكلة آنية كانت قائمة عند وضعه ديوان العطاء، و لم يضع في الحسبان التطورات التي حدثت فيما بعد.

## العطاء وتأمين الحياة الاجتماعية

وضع الخليفة عمر ﷺ أسسا لتنظيم موارد الدولة على المقاتلة بمقادير لكل فرد، وميزهم تبعا لمشاركتهم في المعارك، وقد جعل الحد الأعلى لعطاء الأفراد سنويا ألفين وخمسمائة درهم في الأقاليم الشرقية التي تعتمد الدراهم الفضية في معاملتها، ومائتي دينار في الأقاليم الغربية التي تعتمد الدينار الذهبي في معاملاتها، وهذان الرقمان متساويان إذ كان سعر تبادل الذهب ¼ و لم يحسب إحتمال تغير نسبة التبادل وهو ما لم يحدث إلا بنسبة قليلة، وهدا المبلغ غير قليل وهو الحد الأدنى للمعيشة. وهو يكفي لتأمين المعيشة الاعتيادية، ومن يحصل على أقل منه يعد فقيرا ، وفي أي حال فإن التباين غير كبير، وقرر تنظيم العطاء تبعا للتقويم القمري الذي ينقص سنويا أحد عشر يوما عن التقويم الشمسي الذي تتم فيه جبايات المزروعات وهي الأساس الأكبر لموارد الدولة. وكان هذا التباين مصدر مشاكل في تثبيت موعد توزيع العطاء. ثم إنه أباح التجارة و لم يقيدها أو يفرض عليها قيودا ثقيلة، وأباح للناس حرية العمل، فكان ذلك مصدر موارد تخفف من آثار الأزمات، غير أنها تتيح المجال لظهور أفراد يمتلكون ثروات طائلة قد

تكون مصدر حسد قد تخففه الزكاة الواجب دفعها .

## الأعاجم في الأمصار العربية

أوطن عمر بن الخطاب ﷺ الأمصار العربية أعاجم استسلموا طوعا للمسلمين وأباح لهم الاحتفاظ بمنازلهم الأولى التي أمر بتأسيسها وخصص لهم قطائع يسكنونها، ويأخذون العطاء والرزق أسوة بالعرب، وكانوا يقاتلون مع العرب في المعارك، ويقومون بحراسة بعض المؤسسات العامة كالمساجد ودار الإمارة والدواوين والسجن، وأبرز هؤلاء المقاتلة الأعاجم في البصرة الأساورة والسبابجة والزط [ البلاذري "1957" 519]، وفي الكوفة حمراء الديلم، وفي الفسطاط حمراء الروم والعنقاء ، وأبيحت لمواطني الدولة الإسلامية من غير المقاتلة العرب الهجرة إلى هذه الأمصار طلبا للرزق حيث نشطت الحياة الاقتصادية وازدادت الثروة، وكانت لهم سيطرة ملحوظة على السوق وغلبوا العرب عليه، وتعلموا العربية وأسلم جلهم، وبرز عدد منهم في العلوم الإسلامية كما احتفظ الصناع وأصحاب الأعمال بتقاليد في الأعمال.

لم يخصص الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ في الأمصار التي أمر بتأسيسها مكانا للأسواق فكانت البياعات تتم في الساحات الخالية، وهي غير ثابتة. وخصص بعض أصحاب الدور الكبيرة بيوتهم لذلك. و لما ولي هشام بن عبد الملك الخلافة (105 هـ / 723 م) شيد سوقا في كل من هذه الأمصار يأخذ من شاغلها أجرة ولكن هذه الأسواق أهملت بعد وفاته [ جعيط "1987" 286 ـ 319 ] .

احتفظ كثير من هؤلاء الأعاجم بأديانهم. ولعل كثيرا منهم سكنوا متقاربين واحتفظوا بحرفهم واتبعوا رؤساء دينهم فاقترنت حرفهم بدياناتهم فكان جل الأطباء نصارى، والجزارين والصباغين من اليهود، والصرافين من أهل السند، وكانت تفرض على كل من أهل البصرة والكوفة بعوث سنوية أحيانا ولكنها لا تستوعب أكثر من ثلث المقاتلة، فضلا عن أن هذه البعوث لا تقضي خارج المصر في أدائها الواجب أكثر من ثلاثة أشهر، وبذلك توفر لكل من المقاتلة أو غيرهم من أهل كل مصر وقت غير قصير يقضونه في المصر، وكان كثير منهم يقضي هدا الوقت في الإهتمام بالقضايا الفكرية من شعر وأدب، أو في الأبحاث السياسية والدينية التي لم يكن للاشتراك فيها تنظيمات مقيدة، أو متطلبات مالية معرقلة، وإنما كانت حرة عامة شعبية. وقد أمن العطاء والرزق للمقاتلة موارد لمعيشتهم التي تتميز بما تعودوا عليه من البساطة، فلم يكونوا بحاجة إلى صرف وقت للحصول على موارد العيش، وزاد هذا في تيسير أوقات الفراغ، وأدى

إلى تنامي الحركة الفكرية بالاتجاهات التي عنـوا بها.

## الحركة الفكرية :

كان العرب منذ القديم يهتمون بـالفكر المعني بالإنسان والمعبر عنه بالكلم الطيب والقول الحسن، وتابع العـرب في الأمصـار الاهتمـام بتدارس موروثهم الصحراوي من الحكم والأمثال والشعر والأدب وأخبار مآثرهم وأمجادهم التي لم تشر إليها المصادر كثيرا، وليس من المبالغة القول أن الحركة الفكرية إنما ازدهرت في هذه الأمصار الأولى وكانت جذورها تضرب في عمق أرضية العروبة والإسلام.

أمن العطاء للمقاتلة العرب مصدر معيشة لائقة غير مترفة يعتمد فيها على ما توزعه الدولة، والعرب من حيث العموم لا يهتمون بالبذخ في حياتهم المعاشية من مأكل ومسكن وملبس، وكانت البعوث والمشاركة في الحملات لا تشغل كثيرا من أوقاتهم، فالمقاتل لا يقع عليه البعث إلا مرة واحدة كل ثلاث سنوات، ولا يتجاوز انشغاله فيه أكثر من ثلاثة أشهر، مما يمنحه وقت فراغ طويل يتجاوز السنتين والنصف.

أدرك الخليفة عمر ﷺ أهمية مـا يمـلأ أوقات فراغ الأمة في توجهاتها المستقبلية، فحرص على أن يشغله بما يؤمن السلام والاستقرار وإنماء الجوانب التي تكون الأساس لحياة مزدهرة ناميـة تكفل طمأنينة الفرد واستقراره وتقدمـه، واستقرار المجتمع السليم ليكون أساس حضـارة دائمة. وكان مرتكزه الأساس قرآنا عربيا غـير ذي عوج وحكما عربيا يدعو إلى تثبيت مبادئ الخير والإصلاح للمجتمع.

أولى الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ تعلم القرآن الكريم المكانة الأولى، فشجع على نشره، وقدر المعنيين به، ويروى أنه كان يثيب عليـه، وأرسل إلى كل مصر من الأمصار عددا محـدودا يقال إنهم عشرة، ممن يثق بعلمهم وحرصهم على تعليم القرآن. ولا بد أنه كان بهذا القرار يعبر عن إدراكه أهمية القرآن في تحديد معـالم الإسـلام وتوجهاته، فهو الموضـح الأسـاس في التوجـه الإسلامي، وأساس القوة للسمة العامة للأمة [ابن سلام "1975" 323].

شدد الخليفة عمـر ﷺ علـى قصـر الاهتمام بقراءة القرآن فحسب، ومن البديهي أن هذه القراءة تشمل الفهم الـواعي لمعانيـه، أي الاقتصار على استيعابها وقراءتها وما يتصل بذلك من تفهم ظاهر هذه المعاني، ولم يرد ذكر خلاف ظهر في زمنه على ضبط المفردات، وتنظيم السور في الآيات، ومما عزز ذلك أن المعلمـين الـذين أرسلهم كانوا حججـا معتمـدين في عملـهم وإخلاصهم، والواقع أنه لم يرد ذكر لخلاف ظهر في أي من الأمصار على القراءات، وإنما الخلاف

الذي احتدم كان بين قراء الأمصار، فتعصب كل أهل مصر إلى قراءته.

### تحاشي التدوين والتأويلات

شدد الخليفة عمر ﷺ على تجنب التأويلات لأنها قد تؤدي إلى اجتهادات شخصية، تخضع القرآن المترل إلى اجتهاد الأفراد وعقولهم التي مهما سمت فهي شخصية تخضع لتوجهات شخصية قد ينفرد فيها الناس بعضهم عن بعض، ويعرضون عن الاقتصار على النص الأولي وقد يجر ذلك إلى انقسامات في الإسلام كما حدث في عدد من الأديان التي كانت قائمة في زمنه وذكر الخطيب أن عمر بن الخطابﷺ اراد أن يكتب السنن، فاستشار في ذلك اصحاب رسول الله صلى الله عليه، فأشاروا عليه أن يكتبها فطفق عمر يستخير الله فيها شهرا، ثم اصبح يوما وقد عزم الله له، فقال : أني كنت أردت أن أكتب ألسنن؛ أني ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتبا،فاكبوا عليها، وتركوا كتاب الله تعالى، أني والله لا ألبس كتاب الله بشئ أبدا. "[ " 1974 49" ]

تظهر هذه الروايات أن الخليفة عمر ﷺ حصر اهتمامه بقراءة القرآن الكريم، تجنبا لما حدث لأصحاب الأديان الأخرى، الذين أدى هم اهتمامهم بالشروح إلى إهمال كتبهم المقدسة وما تلاه من انقسامات بسبب الاهتمام بمؤلفاتهم دون الكتاب المقدس.

وكانت السمة العامة المشتركة لكافة الأمصار هي اللغة العربية والدين الإسلامي بالمفهوم الشامل غير أن توسع الحركة الفكرية ونموها رافقه تنوع كبير في توجهاتها، فنمت في الكوفة دراسة الشعر والأحاديث النبوية وتطورت فيها تيارات مختلفة، ودرست في المدينة جوانب من سيرة الرسول ﷺ بينما توجه الاهتمام في البصرة إلى دراسة قواعد اللغة العربية ومفرداتها وإلى الاعتزال والزهد الذي هو بذرة التصوف.

وحدث تقدم كبير في دراسة هذه الجوانب وكانت لها سمات مميزة فعدت "العلوم الإسلامية " ولم يبد في أي من هذه الأمصار، اهتمام بدراسة وإنماء العلوم القديمة من رياضيات وطب وطبيعيات، بالرغم من أن كلا من أمصار العراق والشام ومصر كان بلصق مراكز قديمة وأقاليم تعنى بدراسة " علوم الأوائل " علما بأن العرب شعبا وحكاما لم يضطهدوا هذه الدراسات.

### الإدارة:

كانت الأمصار العربية في دولة الإسلام مقرات السلطة العليا وكان مقام الخلفاء الراشدين الثلاثة الأولين في المدينة، ثم نقل الأمويون مقر الخلافة إلى دمشق، علما بأنهم كانوا ينتقلون شخصيا في عدة أماكن من بلاد الشام، والخليفة يعين لكل مصر واليا يمارس سلطات الخليفة ويصدر إليه الأوامر الموجهة ويراقبه ويعزله متى

شاء، وللوالي إبان ولايته سلطات واسعة لا تحدها إلا مبادئ الإسلام الأساسية، وتشمل سلطاته ميادين إدارية وتنفيذية ومالية وقضائية، ويعين ويعزل من يتولى الأمور الفرعية، ويمتد سلطانه إلى كل البلدان التي فتحها مقاتلة ذلك المصر [الماوردي "1987" 30 ].

يعتمد الوالي في سلطاته على كونه ممثلا للخليفة وللسلطة العليا، وعلى مكانته الشخصية، وربما على ثروته. وتحت تصرفه بحكم المنصب قوات من الحرس، ومن الشرطة الذين كان أول وجودهم في الكوفة في زمن الخليفة علي ﷺ. وكان للجامع حرس كانوا في البصرة من السبابجة وعددهم خمسمائة ولم تذكر المصادر عددهم في جوامع الأمصار الأخرى.

وكان الخليفة والوالي كثيرا ما يستشير أو يسمع المقترحات ويدرسها، غير أن القرارات تصدر باسمه وتنسب إليه، والغالب أن قرارات الوالي تصبح بعد موافقة الخليفة قواعد يتبعها من يتلوه، وقد دونت كتب التاريخ والأدب عددا غير قليل من هذه القرارات، كما أن كتب الفقه دونت ما رضيت عنه منها وكانت تسمى الآثار وهي ممارسات أصبحت أساسا لأحكام الفقه.

و في كل مصر عدد من الدواوين لتمشية أمور المصر، وأهم الدواوين ديوان العطاء وولاته العرب، ومعاملاته بالعربية،و يحفظ سجلات بأسماء من في العطاء، ومقدار ما لكل فرد. ويشرف ديوان الخراج على تقدير المدخولات وجبايتها من المزروعات، علما بأن أكثر الأراضي حول البصرة عشرية. ومن الوظائف المالية العشور على التجارات ولا سيما الخارجية عن طريق البحر إلى الأبلة [ أبو يوسف "1303 " 142 ].

وكان والي كل مصر يقوم بإدارة الأقاليم التي فتحها مقاتلة المصر وبهذا يكون مسؤولا عن تعيين الولاة والجباة عبر تلك الأقاليم، وعن الأشراف على جباية خراجه، وكل هذه الأمور تسبغ على متوليها مكانة وجاها، وتدر له أرباحا، فكان هذا يدفع ذوي الطموح إلى التقرب إليه للتعيين بهذه المناصب والحصول على المنافع التي تدرها، وبذلك أخذ الطامعون يتقربون إلى الوالي ويعملون على توثيق الصلة به، مما أضعف تدريجيا صلتهم بعشائرهم وزاد من قوة مكانته.

ومما عزز مكانة الوالي الحرس الخاص الذي خصص له منذ زمن ولاية زياد على البصرة والكوفة، وكان عددهم حوالي خمسمائة، وهم مرتبطون به، ويأتمرون بأمره، ويثبتون مكانته، وكذلك الشرط الذين بدأ تكوينهم منذ زمن الخليفة عثمان ﷺ ، وكان عملهم حفظ الأمن وتنفيذ الأوامر ضمن نطاق عملهم.

وكانت الأمور المالية تتكون من الموارد والمصروفات، لكل منها ديوان خاص، فأما المورد

الرئيس فيها فهو الخراج، وكان ينظمه ديوان يعمل فيه كتاب مدربون يعملون على وفق تقاليد ألفوها، وكانوا يستخدمون اللغة الفارسية في العراق، والإغريقية في بلاد الشام ومصر، وأغلب الكتاب من أبناء البلاد يأخذون رواتب حدها الأدنى ثلاثمائة درهم في السنة، ولا بد أنهم كانوا منظمين بطريقة ليست لدينا عنها معلومات، لأن المصادر لم تذكر سوى أسماء رؤسائهم، وأكثرهم أعاجم وفي أواسط العقد السابع من القرن الأول الهجري ألزموا باستعمال العربية في سجلاتهم، غير أنهم احتفظوا بمناصبهم يسيرون في أعمالهم على تقاليد استقرت عبر أزمنة طويلة.

أما النفقات فكان الباب الرئيس لها هو عطاء المقاتلة العرب وكان لها ديوان يرأسه عربي، ويحفظ سجلات مفصلة بمن كان في العطاء وأوصافهم وسلاحهم، فكانت مكاتباته بالعربية، ولا بد أن العاملين في هذا الديوان كانوا من العرب نظرا لما يتطلبه التعامل مع المقاتلة العرب، غير أنه لا تتوفر معلومات عن عددهم وتنظيمهم، سوى أنهم ينفذون القواعد والقرارات عن العطاء، ولعلهم مسؤولون أيضا عن النفقات الأخرى القليلة التي تتطلبها الحاجات العامة.

وكان الوالي في المصر يعين قاضيا للنظر في ما يعرض عليه من خلافات، وتدل الأخبار التي نقلت عن القضاة أن أكثر ما ينظرون فيه هي المشاكل المتعلقة بالأسرة من زواج وطلاق ونفقات وميراث ورضاعة، وكذلك في بعض الخلافات في المعاملات الصناعية والتجارية، وفي بعض قضايا الجنايات. غير أن القاضي لا يحتكر النظر في هذه القضايا، فقد ينظر فيها الوالي ويكون حكمه نافذا، وقد ينظر فيها ذو المعرفة فيصدر فيها فتاوى بالتقدير والاحترام القائم على مكانة من يصدرها، ولكنها غير ملزمة وفي رسالة الصحابة لابن المقفع إشارة إلى وجود عدة قضاة في المصر الواحد في أواخر زمن خلافة الأمويين، لا سيما في الكوفة حيث تتباين أحكامهم الواجبة التنفيذ غير أن المصادر لم تذكر ما يوضح ذلك أو يؤيده، إلا إذا إفترضنا أن حكم أصحاب الفتوى من الفقهاء البارزين واجب التنفيذ. والقواعد المتبعة أحكام متعددة لا ينظمها قانون، ينفذ فيها ما جاء صريحا في القرآن الكريم كأحكام الزواج والطلاق والرضاعة والوراثة وكتابة العقود والجنايات، وينفذ فيما لم يرد فيه نص في القرآن على ما عمله الرسول ﷺ أو على التقاليد المقبولة.ويلاحظ أن أغلب القضاة الأولين في الكوفة والبصرة لم يكونوا من أهل المدينة، وأن أكثرهم كانوا من أهل اليمن.

حدثت في الإدارة تطورات من أبرزها تزايد مكانة الوالي في المصر، حيث كان يتمتع منذ السنين الأولى لتأسيس الأمصار بصلاحيات واسعة ناجمة عن أحوال المواصلات والاتصال، ولكن سلطانهم كان محدودا بسبب التركيبة

الاجتماعية لمقاتلة المصر، ثم تزايد نفوذه على أساس أنه كان يمثل الخليفة، وهو صاحب السلطة العليا في الدولة، وأنه كان ينظر في المصالح العامة التي تهم كل المصر والأقاليم التابعة له دون الاقتصار على فريق محدود منه. من ناحية أخرى كان معظم الولاة الذين يختارهم الخليفة من ذوي المكانة والمزايا الشخصية من رجال الدولة عموما، وليس من عشيرة أو مدينة محددة أو إقليم محدد، وقد امتلك بعض الولاة ثروات كبيرة، وكانت لكل منهم عمالات سنوية ضخمة، فعمالة الحجاج كانت قرابة مليون درهم، وهذه الثروة تعزز مكانته وتيسر استخدامه في تعزيز مكانته.

## الأسس القبلية للتنظيم وتطورها

كان جل أهل الأمصار التي أمر الخليفة عمر ﷺ بإقامتها وأشرف على توجيهاتها العامة من المقاتلة العرب الذين قدموا من مختلف أرجاء الجزيرة العربية، وكانت أسس تنظيماتهم الاجتماعية قائمة على تجمعات قبلية كبيرة تتدرج في حجمها وعدد أفرادها ومدى تماسكها وعلاقاتها بالعشائر الأخرى، وقد أشار المعنيون بدراسة تنظيم العشائر إلى أسماء هذه التكتلات الصغرى من أسرة وبيت وفخذ وعشيرة وقبيلة وشعب، ورسموا الترابط بينها دون أن يحددوا حجم كل منها، ونوعية العلاقات الاجتماعية.

كان هذا التنظيم القبلي قائما على أسس من الدم وهو قوام العصبية، التي أبدع ابن خلدون في توضيحها وبيان آثارها في الحياة الاجتماعية والسياسية، وهو أوضح وأقوى أثرا عند البدو الأعراب في مواطنهم في البوادي وكان أساس تماسكهم عند الشدائد والتعرض إلى التهديدات الخارجية، امتد إلى أهل الريف والمدن التي تولد الحياة فيها تنظيمات مهما كانت قوتها في الحياة الاقتصادية والسياسية فإنها كلما تتسع تحل محل كل التكتلات القائمة على الأسس العشائرية والدم ["1996" 193 فما بعدها ] .إن العصبية تعبر عن روح الجماعة وتدفع الأفراد إلى التماسك " **أنصر أخاك ظالما أو مظلوما** " وتتطلب منهم هذه النصرة حتى إذا لم تكن على أساس القناعة الشخصية للأفراد، إلا أنها لا تفقد الفرد كيانه الخاص حيث إن مكانته في المجتمع تعززها مواهبه الشخصية وتوجهاته في سلوكه تجاه الآخرين. إذن للفرد مكانته التي يكون لها مظهر أوضح في الأوقات السلمية التي هي أكثر من أوقات الأزمات، وتكون أساسا لمكانته الاجتماعية وللشرف، وأحيانا في الحياة الفكرية والسياسية.

كان جل أهل الأمصار الأولى ممن أسلم في أواخر حياة الرسول ﷺ وشارك كثير منهم في حركات الردة والانشقاق وأجبرهم الخليفة أبو بكر ﷺ على الانضمام إلى دولة الإسلام

وظلت روحهم البدوية تسري في الأمصار وتؤثر في كثير من توجهاتهم الفكرية حتى إن الخليفة عمر ﷺ وصف أهل الكوفة منهم بأنهم أعراب، وتطلب هضمهم لمثل الحياة الحضرية والإذعان إلى السلطة المركزية زمنا طويلا.

## انتشار العرب

### بلاد الشام :

بلاد الشام إقليم واسع لا يفصله عن الحجاز حاجز جغرافي، ويمتد إلى جبال الطوروس التي تفصله عن هضبة الأناضول. أما أطرافه الشرقية فتتصل ببادية الشام التي تقرب من المدن المتعددة في أطرافه الشرقية وجل أهل بلاد الشام من أرومة أهل الجزيرة في أصولهم العرقية ولغتهم ونظم حياتهم، ولكن استقرارهم جعل كثيرا منهم يحترفون الزراعة والصناعة والتجارة. وقسم الروم إدارة بلاد الشام إلى خمسة أقسام هي دمشق، وكانت مركز الوالي الأكبر وحمص وأنطاكيا والأردن وفلسطين، ولما ضمها المسلمون إلى دولتهم أبقوا هذه الأقسام الخمسة وسموا كلا منها جندا [البلاذري "1957" 80 ].

ثم أضاف إليها يزيد بن معاوية مركزا خامسا في فنسرين وجعل لها أنطاكية ومنبج وتوابعها وكانت الجزيرة تتبع قنسرين فأخرجها الخليفة عبد الملك بن مروان وافردها فصار جندها يقبضون من خراجها، كانت هذه الأقاليم منذ أواسط القرن الرابع قبل الميلاد يحكمها البطالمة، ثم الرومان، ثم الدولة البيزنطية منذ سقوط روما بيد الجرمان، ومن أبرز ما تتميز به هذه الأنظمة هو أن الحاكم الأعلى فيها الإمبراطور يتولى منصبه بالانتخاب، وليس عن طريق الوراثة، وعندهم مجالس بعضها منتخبة وبعضها معينة، تسهم في تقرير شؤون الإدارة والسياسة في البلد الذي تقوم فيه، وأساس التعامل الإداري مع المدن التي تحدد القوانين كيانها وسلطاتها وحقوقها، كما تنظم علاقاتها بالحكومة المركزية، وقد عمل الأباطرة المتأخرون على توسيع السلطة المركزية بما فيها دور الإمبراطور، وعلى إضعاف سلطات المدن ومجالسها، ولكنهم لم يزيلوها كليا.

كانت اللغة الإغريقية مستعملة في المكاتبات الرسمية ودواوين الخراج والمالية، وما يكتب على العملة المسكوكة، علما بأن الراجح أن موظفي الدواوين كانوا من أبناء البلاد المحليين الذين يجيدون اليونانية ويعملون على وفق نظم إستقرت عبر أزمنة طويلة، بما في ذلك عددهم وتوزعهم وتنظيم معاملاتهم.

كانت اللغة الإغريقية في العهود الأولى من سيطرة الدول الهلنستية لغة الثقافة والفكر العامة، وظلت كذلك إلى زمن سيطرة الرومان، ثم تناقصت أهميتها بتدهور الإهتمام بالدراسات العلمية، وانحسرت ليقتصر استعمالها على الكنائس، وخاصة التي تتبع المذهب

الأرثوذوكسي، وبدأت تسود السريانية في بلاد الشام والجزيرة، والقبطية في مصر، واللغات المحلية في المغرب العربي وإسبانيا.

ساد في الأقاليم التي كانت تابعة للبيزنطيين الدين المسيحي، وكانت له تنظيمات خاصة تشمل كنائسه ورجاله الذين يمتد نفوذهم إلى معتنقي المسيحية من أبناء الشعب، وإلى السلطات الحاكمة. غير أن المسيحية في الدولة البيزنطية انقسمت على فرق ومذاهب، وتفاعل هذا الانقسام مع التكوين العرقي، فانتشرت الأريوسية في شمال إفريقية، والملكانية في أقباط مصر، واليعقوبية في كثير من القبائل العربية المقيمة شرقي الشام وفي بعض مدن الجزيرة الفراتية، والنسطورية في الجزيرة الفراتية. أما الفرقة التي كان يدين بها الحكام وربما كثير من المدن الرئيسة فهي الملكانية أو الأرثوذوكسية ولعل فرقا أخرى أصغر منها كانت قائمة أيضا في هذه الأقاليم الواسعة التي ضمها العرب إلى دولتهم من الروم.وكانت لكل فرقة رجال دين منظمون على وفق ترتيبات ثابتة، وكنائس وأديرة يضم كل منها عددا من الأفراد يسيرون على وفق نظم خاصة، ولكل منها موارد من هبات أو أوقاف بعضها واسعة، وهي تتطلب إدارة خاصة كان يقوم بها رجال من الفرقة التي تعود لها هذه الأملاك، غير أن ذلك لا يمنع من حد خلافها مع الدولة .

## الأردن :

يقع الأردن في جنوب بلاد الشام، ويتصل بالحجاز دون أن تفصل بينهما حواجز جغرافية معرقلة. وجل أرضه سهول متموجة، ويجري فيه نهر الأردن واليرموك وفيه البحر الميت، وفيه عدد من الآبار التي تعتمد على المياه الجوفية. تقع في الأردن ديار بلي ولخم وجذام، و قد هاجر عدد من بلي إلى المدينة حيث شارك منهم مع المسلمين في معركة بدر أكثر من عشرين، ولكن لم تذكر لهم في المدينة خطة باسمهم مما يدل على تفرق منازلهم فيها. و لعل من أسباب هجرتهم استتراف مناجم مدائن صالح، ومحاولتهم متابعة عملهم في مناجم الذهب في أطراف المدينة.

و لم تشارك عشائر الأردن في حركات الردة والانشقاق. لكن بعد وفاة الرسول ﷺ وكان في الأردن عدد من المراكز الحضارية ومنها مدينة صور من مراكز الأسطول وقد هاجمها الروم وأخرجها ثم جددها الخليفة عبد الملك (65 - 88هـ /681 ـ 704 م ) فأسكن فيها خلقا من الروم ثم نزع إليها أهل بلدان شتى فنزلوها، ويذكر أن الخليفة هشام بن عبد الملك نقل صناعة السفن إلى صور، ومن أجل كور الأردن قدس، و بيسان و فحل وجرش وأهل هذه الكور من أخلاط العرب والعجم [ البلاذري "1891" 327 ـ 328 ].

ولما قضى الخليفة أبو بكر ﷺ على حركات الردة والانشقاق وأمن سيادة دولة الإسلام، كان أول ما فعله توجيه ما تيسر له من المقاتلة إلى جبهة بلاد الشام، وانضم كثير من أهلها إلى هذه الجيوش وقاتلوا الروم، غير أن بعضهم قاتل بصف الروم في هذه المعارك الأولى.

و كانت أكبر عشائر الأردن لخم وجذام قد قاتلت إلى جانب المسلمين في فتوح بلاد الشام وشاركوا في فتح مصر واستوطن كثير منهم مصر ولم يسهموا في أحداث الفتنة الأولى ولعلهم شاركوا في جل الحملات التي خرجت من الفسطاط لقتال الروم وللتقدم في شمال إفريقية. ولما فتح العرب الأندلس كان جند الأردن إحدى الوحدات العسكرية غير أنه لم يرد ذكره بصفته وحدة متميزة في فتوح الشام والجزيرة.

**فلسطين:**

تقع فلسطين في شمال الأردن ويحدها من الغرب البحر المتوسط، و من الشرق البلقاء وجند دمشق وكانت أرضها متموجة، وأمطارها غزيرة، وتكثر فيها نباتات أقاليم البحر المتوسط ولا سيما الزيتون والأعناب. كما تمر بفلسطين الطرق البرية بين مصر وبلاد الشام والحجاز وفيها مراكز للتجارة وأبرزها غزة.

ولفلسطين عدة كور منها إيليا وهي بيت المقدس وعمواس، و نابلس والسامرة وعلى الساحل نذكر قيسارية ويافا وعسقلان وغزة وبيت جبرين وغيرها و أهل جند فلسطين أخلاط من العرب مَن لخم و جذام وعاملة و كندة و قيس و كنانة. أما الرملة فقد بناها الخليفة سليمان بن عبد الملك و نقل لها أهل مدينة اللد القديمة [البلاذري "1957" 188 ] .

**دمشق:**

دمشق من أقدم وأكبر مدن الشام والمشرق الأوسط، وكانت عندما تقدم العرب لفتحها بعد انتصارهم الساحق في اليرموك محاطة بسور حصين مرتفع وفيه أربعون سرحا حصينة. و لم يكن العرب شهدوا من قبل مدينة محصنة بسور، و لم يألفوا مثله ولذلك حاصروا المدينة إلى أن تمكنوا من فتحها. و لا بد أن عددا كبيرا من ذوي المكانة من العرب اتخذوا منازلهم في داخل دمشق ومنها ما كان الروم قد يتصرفون فيها. أما المقاتلة فسكنوا أطرافها، ولا سيما المزة، ويتبع جند دمشق عدة مدن منها صيدا وصور وبيروت وطرابلس وجبيل على الساحل و أهلها قوم من الفرس نقلهم إليها معاوية بن أبي سفيان ولجند دمشق من الكور الغوطة وأهلها غسان وبطون من قيس وبها قوم من ربيعة وحوران ومدينتها بصرى ثم الجولان وبها قوم من قيس وبها نفر من اليمن [ اليعقوبي"1891" 325 — 327].

## حمص:

تقع حمص في شمال دمشق، وهو إقليم واسع تتصل أطرافه الشرقية ببادية الشام، وأطرافه الغربية بالبحر المتوسط، وله على السواحل اللاذقية، وجبلة وبلنياس وأنظرسوس ورقيه وقاسرة والسقي وأشهرها الخمسة الأولى وتضم حمص من مدن شيزر وحماة وصوران وكفرطاج ولبنان واسويدا في الداخل، وقد ازدادت أهميتها العسكرية بعد انسحاب الروم إلى أطراف جبال الطوروس فأصبحت أراضيها متصلة بالبلاد التي يهيج عليها الروم ويقومون بالغارات على الدولة الإسلامية، لذلك عززها المسلمون بقوات كبيرة.

ذكرت المصادر أسماء عدد كبير من أهل حمص والعشائر المنسوبة إليهم ومنهم حضرموت والسكون وكندة وحمير وزبيد والكلاع والسحول وخولان وسندح وعنس وقضاعة والأزد وعدد من قبائل الحجاز [ اليعقوبي "1891" 324 ـ 325 ] .

## الجزيرة الفراتية :

بعد أن دحر العرب جيوش الروم في معارك الفتوح الأولى أمنوا سيادهم على بلاد الشام وضموها إلى دولتهم، وانسحب الروم إلى ما وراء جبال الطوروس و أخربوا البلاد في أطرافها الجنوبية وأجلوا جل سكانها، لوقف العرب عن متابعة تقدمهم في هذه الأطراف، فوجه العرب جيوشهم شرقا نحو الجزيرة الفراتية لضمها إلى دولتهم.

تقع أراضي الجزيرة الفراتية في جنوب جبال الطوروس وأراضيها متموجة متصلة ببلاد الشام لا يفصلهما حاجز جغرافي، كما أنها مفتوحة على بادية الشام والعراق. وجل أهلها من الآراميين و من الساميين إلى جانب العرب و بعض الأقليات من الإغريق و الفرس واليهود. وتجري فيها أنهار الفرات ودجلة وروافدها وفيها كثير من الينابيع والمياه الجوفية، وأمطارها غير شحيحة مما يسر انتعاش الزراعة فيها ولا سيما زراعة الكروم والزيتون وأشجار عدد من الفاكهة و تمر في الجزيرة الفراتية طرق التجارات بين العراق والمناطق الجبلية في شماله، وبين بلاد الشام وآسيا الصغرى.

وازدهرت فيها مدن وبلدان متعددة، وسادت عليهم دولة الأباجرة الذين يشير اسمهم إلى أصولهم العربية واتخذوا مركزهم في حران، وحكموا قرونا إلى أن أزال دولتهم الرومان، ولكنهم لم يزيحوا السكان ، وكان فيهم عدد من الصابئة ممن يعبدون إله القمر سين، ولكن جل السكان اعتنقوا المسيحية واتبعوا المذهب اليعقوبي الذي بلوره يعقوب الرهاوي وكانت له في طبيعة المسيح آراء تخالف ما كان يراه النساطرة الذين ساد مذهبهم في العراق والمشرق، كما أنه يخالف

في تفاصيله آراء النصارى من ملوك الروم وكثير من أهل بلاد الشام [عباس "1990" 153 ].

ولما ظهر الإسلام كانت الجزيرة الفراتية تابعة لدولة الروم وتمتد حدودها الجنوبية إلى أطراف سنجار، فتقدم العرب في سنة (18 هـ/ 639 م) لفتحها بقوة قوامها خمسة آلاف مقاتل فأبدت مدنها مقاومة ضعيفة متفرقة قادها رجال دينهم، وكانت أولى المدن التي حاصروها الرها فاستسلمت بعد أن أمن المسلمون حرية سكانها وديانتهم ثم تقدم المسلمون وفتحوا بقية المدن ومنها حران وكفرتوثا و نصيبين وسنجار وسميساط ومنبج وعين الوردة ومیافارقين وقرقيسيا و دارا و غيرها من الحصون و قد تمت كل هذه الفتوحات طوال سنة 19 و بداية سنة (20 هـ/ 640 م) حرص العرب على تثبيت سلطاهم بإقامة المساجد وتوطين المقاتلة، فبنى سعيد بن عاد وهو من قواد أوائل الحملات مساجد في الرقة وفي مراكز أخرى. يذكر البلاذري أن معاوية لما ولي الشام و الجزيرة للخليفة عثمان ﷺ أمره "أن يترل العرب بمواضع نائية من المدن والقرى... فأنزل تميم الرابية، وأنزل المازحين والمديبر أخلاطاً من قيس وأسد وغيرهم ... و رتب ربيعة في ديارها، وألزم المدن والقرى والمسالح من يقوم بحفظها ويذب عنها من أهل العطاء" [ البلاذري "1957" 245 ] . ورتبت في سميساط رابطة من المسلمين مع عاملها وشحنها معاوية بجماعة من أهل الشام والجزيرة وغيرها، وفتح العرب في خلافة عمر ﷺ مرعش وأسكنها جنداً ، وكان أهلها قد جلوا عنها أول الفتوح ثم مصرها العباس بن الوليد بن عبد الملك وخصها ونقل الناس إليها وبنى لها مسجدا وكان يقطع في كل عام بعثا إليها . [ البلاذري "1957" 266 ]

### أرمينيا واستيطانها :

بعد أن أتم العرب الفتح السريع لبلدان الجزيرة الواسعة اتجهوا لفتح بلاد أرمينية، وهي منطقة وعرة تمتد فيها سلاسل جبال أرادات وكانت مكونة من أربعة أقسام تمتد أراضي الرابع منها( أرمينية الرابعة ) في الأطراف الشمالية من الجزيرة الفراتية وأبرز مدنها شمشاط وقاليقلا وخلاط وارجيش وباجنيس، وفي شمالها أرمينية الثالثة وأبرز مدنها البسفرجان ودبيل وسراح ملير وبفروند يتلوها شمالا الثانية ومدينتها جريان، ثم الأولى ومدينتاها أران والسيسجان.

كان الخزر يهيمنون على جرزان وربما السيسجان ، أما بقية البلاد فقد هيمن عليها الروم، ثم أرسل الفرس في عهد قباذ حملة انتزعت أران وأراضي نهر الرس إلى شروان وجميع ما كان في أيدي الروم من أرمينية، وأسكن قباذ في هذه المواضع أقواما، وهادن ملك الترك، وبنى في حدوده سدا طويلا يفصله عن بلاد الترك. ورتب في البلاد التي هيمن عليها

عددا من الأمراء وصالح ملوك جبل الضيق وظلت أرمينيا بيد الفرس حتى جاء الإسلام فغلب الخزر والروم على ما كان بأيدي الساسانيين. غير أن هيمنتهم كانت ضعيفة لوعورة البلاد وبعدها عن مراكز قوة الروم في غرب الأناضول.

ولما استخلف عثمان بن عفان ﷺ أمر معاوية وكان يلي الشام والجزيرة وثغورها فوجه حبيب بن مسلمة الفهري في قوة من أهل الشام والجزيرة قوامها بين ستة آلاف وثمانية آلاف رجل، ففتح قاليقلا، وجلا كثير من أهلها ولحقوا بالروم ثم أمده بألفي رجل من أهل الشام والجزيرة وأسكنهم قاليقلا وأقطعهم بها قطائع وجعلهم مرابطة فيها. ثم أمدهم عامل الكوفة بجيش قوامه ستة آلاف رجل بقيادة سلمان بن ربيعة الباهلي ، فثبتوا أقدام المسلمين وتقدموا إلى ديبل وظلت قاليقلا بيد المسلمين، إلى أن هدمها الروم سنة (133 هـ / 750 م) ، ثم أعاد أبو جعفر المنصور بناءها وتحسينها سنة (139 هـ / 756 م ) ، وندب إليها جندا من أهل الجزيرة وغيرهم.

أما ما كان من أمر حبيب بن مسلمة فإنه تقدم إلى خلاط وصالح عددا من المدن، وفتح ديبل والنشوى ومدناً أخرى. وفتح سلمان بن ربيعة بأمر من الخليفة عثمان ﷺ مدينة البيلقان وبرذعة وما حولها . وانتفضت أرمينية في فتنة ابن الزبير، ولكن المسلمين أعادوا سيطرتهم عليها فيما بعد، وقام مسلمة بن عبد الملك بتثبيت حكم المسلمين فيها وأسكن الباب والأبواب أربعين ألفا من أهل الشام ورمم المدينة وبنى فيها أهراء ، وصالح الخزر وفرض عليهم مدياً للإهراء في كل سنة، وصالح بعد ذلك أهل نومان على أن يقدم ملكها ثلاثين ألف مدي تصب في أهراء الباب في كل سنة، واشترط على أهل سندان أن يقدموا في كل سنة إلى أهراء الباب خمسة آلاف مدي ووضع على أهل طيرهان عشرة آلاف مدي في كل سنة تتحمل إلى أجزاء [ البلاذري "1957" 292 ـ 294 ].

## الموصل وأذربيجان

تقدمت قوة إسلامية بعد فتح تكريت إلى الموصل بقيادة هرثمة بن عرفجة البارقي ففتحها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ ، وكان فيها حصن وبيع للنصارى و محلة اليهود فمصرها ، فأنزل العرب منازلهم واختط ثم بنى المسجد الجامع. وكان هرثمة فتح الحديثة وهي قرية فيها بيعتان و أبيات النصارى وأسكنها قوما من العرب ولما وليها محمد بن مروان في خلافة عبد الملك نقل إليها الأزد وربيعة. وكانت فيها رابطة من ألفين عندما ولي العباسيون الخلافة.

وتقدم المسلمون إلى أذربيجان، وهو إقليم جبلي واسع ومدينته أردبيل وقد غزاها حذيفة بن اليمان في زمن الخليفة عمر ﷺ

فصالحهم المرزبان على ثمانمائة ألف درهم. ثم وليها الأشعث بن قيس الكندي في خلافة عثمان ﷺ ففتحها من جديد بعدما انتفضت وأسكنها ناسا من العرب من أهل العطاء والديوان وأمرهم بدعاء الناس إلى الإسلام. ويؤكد البلاذري أنه في عهد علي بن أبي طالب ﷺ "أنزل الأشعث أردبيل جماعة من أهل العطاء والديوان من العرب وبنى مسجدها، وتلت إليها عشائر من المصرين(الكوفة والبصرة ) ومن الشام وغلب كل قوم على ما أمكنهم وابتاع بعضهم من العجم الأرضين وألجئت إليهم القرى للخفارة. [البلاذري "1957" 460]. وعسكر مروان بن محمد وهو والي أرمينية و أذربيجان بالقرب من قرية المراغة فابتناها وتألف وكلاؤه الناس فكثروا فيها للتعزز وعمروها ، وأما بقية قرى أذربيجان فقد استوطن فيها العرب في العهد العباسي الأول.

## الدفاع عن البلاد المفتوحة:

توسعت الدولة منذ زمن خلافة عمر بن الخطاب ﷺفضمت العراق وبلاد الشام والجزيرة الفراتية ومصر، ثم امتدت في زمن خلافة عثمان ﷺ إلى إفريقية (البلاد التونسية) غربا، وضمت أرمينية في الشمال، كما ضمت الأقاليم الإيرانية وخراسان وفي زمن الأمويين امتدت إلى بلاد السند وما وراء النهر، وإلى الأطلس غربا، وأصبحت حدودها في القارة الإفريقية الصحراء، وفي إسبانيا جبال البيريني، وفي الشمال جبال القوقاز وبحر قزوين. وكانت معظم هذه الأقاليم قبل أن تضم إلى الدولة الإسلامية تابعة إلى دولتي الروم والساسانيين، ولكل منهما تنظيمات خاصة استقرت عبر قرون طويلة من التطورات، غير أن السمات العامة وكثيراً من التفاصيل عن الأوضاع كانت في كل منهما مباينة للأخرى.

## الحاميات:

اقتضت حماية الحدود والحفاظ على الأمن في أرجاء الدولة إقامة حاميات في الأماكن ذات الأهمية العسكرية، وكان المقاتلة العرب المقيمون في البلاد المصرية هم الذين يقومون بهذا الواجب، فكان يرسل منهم من يقيم في تلك الأماكن، وكانوا يتبعون التنظيمات القائمة في مصر، إذ إن العرب بدأوا فتوحهم بتوجيه جل جيوشهم الأولى في زمن خلافة أبي بكر ﷺ، وأفلحوا بعد انتصارهم في عدد من أكبر المعارك التي خاضوها بضمها إلى دولتهم في وقت مبكر بعد أن دحروا جيوش الروم وأفقدوا هرقل الأمل باستردادها، ولكنهم لم يفلحوا في القضاء على الدولة البيزنطية التي احتفظت بأراض واسعة وراء جبال الطوروس وبقيت تحت تصرفهم موارد كبيرة من المال والرجال ، كما أن البحر المتوسط في أطرافها الغربية كون مصدر خطر على العرب لأنه مفتوح وللروم فيه أسطول قوي

يمكنه أن يهدد ما يختار من البلدان الواقعة على سواحله.

### شحن الموانئ الشامية:

كانت سيطرة العرب على بلاد الشام منذ فتحها مهددة من البحر الذي يمتد على طول الشواطئ القريبة التي تطل على البحر المتوسط وتمتد إلى مصر وإفريقية وهي مفتوحة لأساطيل الروم التي تهدد مدنها الساحلية و لم يكن للمسلمين عند بدء تقدمهم للفتوح أسطول، علما بأنه كان للعرب قبل الإسلام خبرات قديمة في الملاحة ولا سيما أهل اليمن. إلا أن الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ لم يسمح باستخدام المقاتلة العرب السفن في الفتوح واستغل الروم هذه الثغرة فشنوا من البحر غارة لكن العرب صدوها ولما تبين أنه ليس بإمكانهم تهديد سيطرة العرب على بلاد الشام، واسترجاع ما حصلوا عليه من البلاد عمد معاوية إلى جبلة التي كان بنى لها حصنا خارجا من الحصن الرومي القديم فوضع فيه قوة من المقاتلة وأسند إليهم القطائع [ البلاذري "1957" 182].

وكان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر ما تحتاج إليه من المسلمين وفي زمن عثمان ﷺ أمر معاوية بتحصين السواحل وشحنها وأقطع من يترلها القطائع. وكان معاوية يقطع الراتب ويعطيهم ما جلا عنه أهله من المنازل ويبني المساجد، ثم إن الناس بعد أن نزحوا إلى السواحل من كل ناحية ، قام بشحن السواحل وتحصينها ومنها اللاذقية وجبل وجبيل والطرسوس. و كان يوجه إلى السواحل جماعة كثيفة من الجند يشحنها بهم ويوليها عاملا، فإذا انغلق البحر يسحبهم ويبقي قوة يسيرة وظل الأمر على هذا المنوال على أيام عبد الملك بن مروان.

أدرك الخليفة عمر ﷺ أهمية أنطاكية فكتب إلى أبي عبيدة أن يرتب جماعة من المسلمين أهل نيات وحسبة، ويجعلهم رابطة ولا يحبس عنهم العطاء. وأوطن معاوية في أنطاكية سنة (42 هـ/ 662 م ) جماعة من الفرس وأهل بعلبك وحمص ومن المصرين (الكوفة و البصرة) ونقل الزط والسبابجة إلى سواحل الشام وأنزل بعضهم أنطاكية ونقل الوليد بن عبد الملك إلى انطاكية قوم من الزط السند ممن حمله محمد بن القاسم إلى الحجاج فبعث بعم الحجاج إلى الشام . [ البلاذري "1957" 201]

### الجلاء وآثاره في المساكن:

كانت انتصارات العرب الأولى في جبهة بلاد الشام واسعة وسريعة ومفاجئة وغير مسبوقة إذ هالت من كان يقيم في بلاد الشام من الروم ومؤيديهم، فجلا عدد منهم إلى البلاد التي ظل الروم مهيمنين عليها، وذكرت المصادر عددا من المدن في بلاد الشام التي جلا أهلها، فقد لحق الكثير من أهل دمشق بهرقل كما لحق به أهل

رأس العين وأهل بالس وأنطاكية والمصيصة وطرطوس وأهل الحصون التي تليها وطرابلس، وأهل جبلة وأجلى الروم حصن الحدث، ولا بد أن أفرادا وجماعات أخرى لحقت بالروم من مؤيديهم ومنهم عدد من ذوي الخبرة في الإدارة والحياة الاقتصادية والفكر، وفقدت بلاد الشام بجلائهم عناصر لها كفاءة و لم يكن هربهم بسبب عنف أبداه العرب في الإدارة، وإنما بضعف تفهم لحسن إدارة العرب في هذه المرحلة المتقدمة. ولعل أكثر العناصر التي تم إجلاؤها كانت من غير العرب وبذلك تخلصت بلاد الشام من عناصر كان بعضها يفيد في إعمار البلاد. وربما كان أغلبية من جلا من الوجهاء ومن ذوي الثراء وكانت لهم بيوت متفرقة في البلد الذي جلوا عنه فأصبحت ثرواتهم للدولة الإسلامية ولكن يصعب القول إن المقاتلة العرب سكنوها، لأن هذا يفرق مساكن العرب، ويترلهم منازل لا تتناسب مع أحوال المقاتلة والمتطلبات الإدارية والاجتماعية التي تقضي أن يترل هؤلاء المقاتلة في قطائع متقاربة منظمة على أسس عشائرية فتشغل جانبا من المدينة دون أن يتفرق أفرادهم في السكن. وعلى أي حال فإن سكن المقاتلة العرب في المدن القديمة يجعلهم على صلة بأهلها القدماء، وقد يؤثر في نشر اللغة والمثل العربية بينهم، ولكنه بدوره يزيد من مجالات اقتباس العرب لكثير مما عند الأعاجم من مظاهر حضارية ومما ذكر عن أحوالهم في خراسان " أنك لا تفرق بين العربي والأعجمي في الزي ولعل هذا سار في المدن الأخرى ".

وعلى الأرجح أن من جلا أخذ معه عند جلائه بعض ما يملك من أموال منقولة من النقود وبعض الملابس، وهي قليلة بسبب صعوبة نقلها وتركوا الأراضي والمساكن وكثيراً من الأثاث وهي لا تعد من الغنائم التي توزع على الناس ووضعت الدولة يدها على العقار، فأما الأرض المتروعة فإن البلاذري ذكر أن الخليفة عمر ﷺجعلها عشرية وكل عشري بالشام فهو مما جلا عنه أهله فأقطعه المسلمون وما أحيوه فكان مواتا مما لا حق فيه لأحد فأحيوه بإذن الولاة [ البلاذري "1957" 627 ] ولا بد أن هذا التحول تطلب وقتا أصاب فيه المنتجات الزراعية تدهور ثم استعاد مكانته وحققت الدولة من العشر الذي فرضته موارد لا يستهان بها وهي بأي حال لا توازي موارد الدولة. إذن أفاد هذا الجلاء العرب بتخلصهم من كثير من العناصر المناوئة التي قد تحدث قلقا في الأمن .غير أن جلاء الروم ومؤيديهم عن البلاد التي كانت في الشام لم يكن عاما، فقد بقي جل أهل البلاد وخاصة سواحل المدن وأهل البوادي، كما بقي كثير ممن يعمل في الدواوين، وأباح المسلمون متابعة استعمال اللغة الإغريقية في معاملاتهم بالرغم من عدم إطلاع الولاة العرب على تلك المعاملات،

وظلت الحالة معمولا بها إلى أن أمر الخليفة عبد الملك بن مروان بتعريب الدواوين فصارت المعاملات تكتب بالعربية فألزم العاملين في الدواوين باستعمال العربية، فأخذ جلهم باستعمال العربية التي لم تكن غريبة عليهم في الدواوين، فلم يصحب تعريب الدواوين تقليص عدد من كانوا يعملون فيها ويستعملون الإغريقية في المعاملة [ Mantran R ،137 " 1969 " ] وكانت الإغريقية لغة أهل كثير من فروع العلم، فلم يلزمهم العرب بإبدالها بالعربية، ولكن طبيعة الأحوال قضت أن يهاجر كثير من المستمسكين بها إلى بلاد الروم فتناقص عددهم في بلاد الشام وضعف دورهم العلمي وان لم يقض عليهم .

**الخطط :**

أشارت بعض المصادر إلى مواقع خطط العرب في العديد من مدن الشام القديمة التي استوطنوها بجانب سكانها، وروى البلاذري أن السمط بن الأسود الكندي، قسم حمص خططا بين المسلمين حتى نزلوها و "أسكنهم في كل مرفوض جلا أهله أو ساحة متروكة ] "1957" 179 ]، و لم توضح المصادر طريقة التقسيم، علما بأن بعض الروايات تذكر أن أهل دمشق صولحوا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ومدينتهم وأن لا يسكن في دورهم والراجح أن المسلمين أخذوا التي جلا منها أصحابها، لم يرد في المصادر عن غير الموصل و جرجان ذكر لقطائع نزلها العرب في أي من المدن الممصرة ; وإنما قصرت هذه المصادر على ذكر ما فيها من أسواق، ومنازل البارزين من العرب، أو على ذكر العشائر التي نزلت فيها دون تقديم معلومات عن مواقع خططهم أو مساجدهم المنسوب أكثرها إلى أفراد وليس إلى عشائر.

كان بين الإسكندرونة و طرسوس حصون ومسالح للروم فربما أخلاها أهلها وهربوا إلى بلاد الروم خوفا، وربما نقل إليها من مقاتلة العرب من تشحن به. وكان هرقل عند انتقاله من أنطاكية أدخل أهل هذه المدن معه، فكان المسلمون إذا غزوا لم يجدوا بها أحدا غير بعض الكمائن التي تغير على المتخلفين عن العسكر والمنقطعين عنه، فكان ولاة الشواتي إذا دخلوا بلاد الروم خلفوا بها جندا كثيفة إلى خروجهم ["1957" 223 ــ 224 ]،

وقد استغل الروم الاضطرابات التي حدثت في فتنة ابن الزبير فأناخوا على المصيصة، وفي سنة (84 هـ / 703 م) غزا عبد الله بن عبد الملك الروم ودخل من درب أنطاكية فأتى المصيصة فبنى حصنها على أساسه القديم ووضع بها سكانا من الجند فيهم ثلثمائة انتخبهم من ذوي البأس، كما بنى فيها مسجدا فوق تل الحصن، وأسكنها المسلمين لأول مرة . وكانت الطوالع من أنطاكية تطلع عليها في كل عام تتواجد ثم تنصرف وعددهم ما بين ألف

وخمسمائة إلى ألفين، وبنى الخليفة عمر بن عبد العزيز لأهلها مسجدا واتخذ فيه صهريجا، ولا بد أن مدن السواحل كانت فيها أراضٍ خالية لمن جلا عنها غير أن الراجح أن المقاتلة العرب لم يشغلوا إلا قليلا منها وأقاموا مجتمعين في مناطق كانت مسكنا لهم وذلك أيسر لإدارتهم وتعاونهم وقد أفلحوا في صد الروم من دخول بلاد المسلمين.

وفي البلاد المصرية كان المصر الرئيس هو الفسطاط، ولكن أقيمت حاميات في الإسكندرية و دمياط ، ثم أقيمت في إفريقية قاعدة في القيروان بعد أن كانت الحملات في شمالي إفريقيا ترسل من مصر.

وتمت مثل هذه الإجراءات في الأندلس بعد فتحها، فتوزع المقاتلة العرب في عدد من مدنها، وكانت تنظيماتهم مشابهة لتنظيماتهم في الأقاليم الأخرى. ومع أن إقامة الحاميات كانت بصفة دائمة، إلا أن الغالب في السنين الأولى أن رجالها كانوا يرسلون مؤقتا لمدة محدودة، ثم يرسل مكانهم آخرون، ومن بين هذه الأماكن نذكر في العراق الموصل، ودستبي والمدائن، ومنها أيضا بغداد قبل أن يؤسس المنصور مدينة السلام.

وفي زمن خلافة الأمويين اتخذت مراكز جديدة لإقامة العرب بصفة دائمة في المشرق، وهذه الأماكن هي قزوين، والري وأصفهان، وقد نقل إليها من مقاتلة الكوفة، وخراسان وخاصة مرو و نيسابور وطوس وبلخ، وقد نقل إليها مقاتلة أكثرهم من البصرة، وكانت لهم تنظيمات خاصة تشبه التنظيمات في الأمصار الأولى ولكن معلوماتنا عنها غير وافية.

ذكر اليعقوبي في كتابه البلدان الأحوال العرقية لعدد من مدن الهضبة الإيرانية، فذكر مدناً أهلها من العجم، ومنها حلوان وأكثر أهلها العجم والفرس والأكراد، ورستاق فريدين من اصبهان أهله العجم السفلي الذين يسميهم أشراف عجم أصفهان، وقومس أهلها قوم من العجم ["1891" 269 ] . كما ذكر عددا من المدن الأخرى أهلها أخلاط من العرب والعجم ومنها نيسابور والسيروان والصيمرة، وأذربيجان "أخلاط من العجم الآذرية والجاودانية". أما نهاوند والكرج فأهلها من العجم ومن آل عيسى بن إدريس العجلي ومن انضوى إليه من العرب. و مدينة قم أهلها الغالبون عليها قوم من الموالي، واصبهان أكثر أهلها عجم من أشراف الدهاقية، وبها قوم من العرب انتقلوا إليها من الكوفة والبصرة من ثقيف وتميم وبني حنيفة ومن عبد القيس وغيرهم. وقاسان فيها أشراف الدهاقين وقم من أهل اليمن من همدان، ورستاق اردستال، والتميز ويسكنها قوم من العرب من بني هلال من بطون قيس ، أخلاط بالنسبة للري فإن أهلها أخلاط من العجم وعربها قليل، وطوس أكثر أهلها عجم وبها قوم من العرب

وغيرهم، و مرو التي تعد أجل كور خراسان أهلها أشراف من دهاقين العجم وبها قوم من العرب من عبد القيس و تميم و غيرهم .

ويذكر اليعقوبي أنه يوجد في جميع مدن خراسان قوم من العرب من مضر وربيعة وسائر بطون اليمن والراجح أن أصول أكثر العرب من المقاتلة نزلوها منذ العصر الراشدي والأموي، ثم انضم إليهم عدد من أصحاب الأعمال واحتفظ كثير منهم بذكرى أصولهم القبلية ["1891" 275 ـ 280 ].

## إستيطان العرب في الأندلس

تقدم العرب في سنة (92 هـ / 711م) بقوة صغيرة بإمرة طارق بن زياد لفتح إسبانيا فعبرت مضيق جبل طارق، ثم تلتها في السنة التالية قوة كبيرة بقيادة موسى بن نصير انضمت إليها قوة طارق بن زياد ودحرت روذريق ملك الأندلس وشتتت جيشه وتوغلت في شبه جزيرة إسبانيا دون أن تلقى مقاومة جدية معرقلة، وبقى المقاتلة العرب الذين قاموا بالفتوح الأولى في إسبانيا، ولا بد أنهم قدموا مع عوائلهم، وكانوا يسمون البلديين تمييزا لهم من المقاتلة التي قدمت بعدهم.

و لم تفصل المصادر في تكوينهم القبلي وتنظيمهم، وإنما وردت عنهم إشارات متفرقة تشير حصيلتها إلى أن جلهم من أهل اليمن، وأن منهم الأنصار موزعين في سرقسطة وشذونة و طليطلة و قرطبة والبيرة، و بجيلة في أريونة، ومراد في قرطبة وعبس في قلعة يحصب. وفي هؤلاء البلديين رجال من غافق وجذام والمعافر وتجيب وسعد العشيرة وقضاعة ومهرة وهذيل وقريش وضبة ومزينة ومنهم سليم وعبس و ذبيان. وهؤلاء الأخيرون كانوا ممن قدم من مصر [Guiichard " 2000 " 22].

ثم أرسل الخليفة هشام بن عبد الملك جيشاِ قوامه ثلاثين ألف مقاتل استقر منهم في الأندلس، عشرة آلاف، منهم ثمانية آلاف عربي وألفا مولى على وفق نظام جديد تبعا للتقسيمات التي كانت للعرب في بلاد الشام، وسموا بها فكان جند دمشق في البيرة، وجند حمص في إشبيلية وبلة، وجند قنسرين في جيان، وجند الأردن في رية، وجند فلسطين بين شذونة والجزيرة والخضراء، وجند مصر في أكشونية وتدمير وباجة ولعل هذا يدل على الأصول الشرقية التي أنفذوا منها وكان كل جند يضم مقاتلة من عشائر متعددة. فجند دمشق أكثرهم من القبائل التي ديارها القديمة في الحجاز وأطرافه، من محارب وهوازن و ثقيف وسليم و قشير ونمير ومرة و فزارة وغطفان وثقيف وجند حمص فيه من ضبة و سلول ولخم وفيهم من أهل اليمن حمير، وألهان وحضرموت و الكلاع و يحصب. وجند قنسرين فيه من كلاب وعقيل و قشير وباهلة وكنانة وربيعة، كما أن فيه من أصبح و جند

فلسطين فجل عشائره من لخم وجذام، وجند الأردن فيه من لخم وجذام وعاملة والأنصار وجند مصر فيه من تميم وأسد وربيعة وغسان وجذام و همدان.

تدل التسميات أن التقسيم لم يقم على أسس قبلية ففي كل جند عشائر متباينة الأصول، وبعض العشائر توزع رجال كل منها على أكثر من جند. و لم تذكر المصادر عدد المقاتلة في كل جند، ولا ما إذا كان رجال الأجناد متساوين في العدد لأن هذا التنظيم ينسجم مع متطلبات الاستقرار الحضري أكثر من متطلبات التنظيم العسكري إلى رجالة وفرسان وميمنة وميسرة وغيرها. ولعل من دوافع تطبيقه أن إسبانيا استسلمت للحكم العربي الإسلامي وتناقصت الحاجة إلى القتال وما يتطلبه من تنظيمات.

لم تذكر المصادر تنظيمات كل جند من عرافة ونقباء كما أهملت ذكر مقدار العطاء والرزق لكل مقاتل وعياله، مما كان معمولا به في المشرق، في المقابل وردت إشارات عن استيطان العرب في سرقسطة وطليطلة، وفي إشبيلية والبيرة و قد استقرت الأزد و لخم في تدمير، وغافق في إشبيلية وقرطبة، وتجيب في الثغر، والمعافر وحضرموت وخولان في الجزيرة الخضراء، وبجيلة في أربونة، ومراد في قرطبة، وعنس في قلعة بحصبة، وأود في لشبونة، وسعد العشيرة في وادي أش ، و أخيرا زبيد في إشبيلية، سميت مواطن الأجناد بأسماء المدن، ولكنها لا تستلزم جزما أن العرب قصروا سكناهم على المدينة، وإنما قد يكون استيطانهم شاملا إقليم المدينة وقراها، وفي حالة اقتصار سكناهم على المدينة، فقد يكونون تفرقوا في أرجاء المدينة متداخلين مع السكان الأصليين وأنهم سكنوا في قطاع خاص منها وفي أرض فضاء في اطرافها ، وفي هذه الحالة كان تنظيم هذا القطاع وأسواقه وحماماته وقربه من مكان إقامة المولى قد حدد حريتهم في التنقل وبالتالي في التطور الذي حدث في حياتهم الحضرية وتحولهم إليها من الحياة العسكرية.

### العرب في خراسان :

خراسان إقليم واسع في الهضبة الإيرانية التي تمتد في غربها صحراء لوط الموحشة، وفي شرقها نهر أموداريا الذي يفصلها عن بلاد الصغد وفيها مدن متعددة أبرزها مرو وفيها مقام الوالي، ونيسابور و مرو الروذ وهرات وبلخ و طوس، وقد اشتهرت بالمنسوجات ولا سيما القطنية التي كان كثير منها يصدر إلى بغداد، وفيها بعض مناجم الأحجار الكريمة والفضة .

تقدم العرب بقيادة عبد الله بن عامر بعد ضمه إقليم فارس من أطرافها الجنوبية متحاشيا اختراق صحراء لوط وفتح هرات ثم بقية المدن بمدة قصيرة وعاد إلى البصرة ثم ذهب إلى الحج يشكر الله على ما حققه.

ثم حدثت الفتنة والنزاع بين الخليفة علي ﷺ ومعاوية وفقد العرب سيطرتهم على خراسان ولما آلت الخلافة إلى معاوية أرسل قوة استعادت سيطرة العرب عليها ثم جعل إدارة خراسان مستقلة عن البصرة وولاها الربيع بن زياد وأرسل معه خمسين ألفا جلهم من البصرة ورتبوا أخماسا كل خمس من عشرة آلاف وهم تميم و الأزد وأهل العالية "الحجاز" وعبد القيس. وكانت مرو القاعدة الأساس وكان المقاتلة موزعين في مرو و مرو الروذ ونيسابور وهرات وبخارى وبست [ مؤلف مجهول 1961 ].

إن استقرار العرب في أرجاء الدولة و توزعهم خارج الأمصار الإسلامية الأولى سواء في الشرق أم في الغرب ترتب عنه انتشار الإسلام و اللغة العربية بحيث أصبح المجال العربي الإسلامي موحدا من الناحيتين الدينية و الثقافية في بداية القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد وأصبحت الدولة العربية الإسلامية من أكبر القوى السياسية عالميا .

**أ.د . صالح احمد العلي (رحمه الله )**

## المصادر و المراجع

### المصادر العربية:


الازدي ابو زكريا يزيد بن محمد (ت 334هـ/945م )
(1967) تاريخ الموصل ، تحقيق دكتور علي حبيبة ، القاهرة .

الاصطخري ابراهيم بن محمد (ت 346هـ/957م)
(1927) مسالك الممالك ، ليدن .

ابن بطوطة محمد بن ابراهيم اللواتي ( ت 779هـ / 1377م )
(1964) رحلة ابن بطوطة ، بيروت .

البلاذري أبو العباس أحمد بن يحيى ( ت 279هـ / 892 م )
(1996 ) أنساب الأشراف، بيروت ، طبعة دار الفكر .
(1957) فتوح البلدان ، بيروت ، طبعة دار العلم للجامعيين .

الجاحظ عمرو بن بحر (ت 255هـ/868م )
(1966) التبصر بالتجارة ، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ، بيروت .

ابن حوقل محمد بن علي النصيبي ( ت 367هـ/977م )
(1937) صورة الارض ، ليدن .

ابن خرذابه عبيد الله بن عبد الله بن احمد ( ت 300هـ/912م)
(1889) المسالك والممالك ، ليدن .

ألخطيب البغدادي أحمد بن علي بن ثابت (ت 463هـ/1070م)
(1974) تقييد العلم، صدره وحققه وعلق عليه يوسف العش، بيروت،دار احياء السنة النبوية .

ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد ( ت 808 هـ / 1405 م )
(1996) المقدمة ، بيروت ، طبعة دار الفكر .

الدينوري احمد بن داود (ت 282هـ/895م )
(1960) الاخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة .

أبو عبيد القاسم العروي بن سلام ( ت 224 هـ / 838 م )
(1975) كتاب الأموال ، القاهرة ـ بيروت ، منشورات دار الفكر .

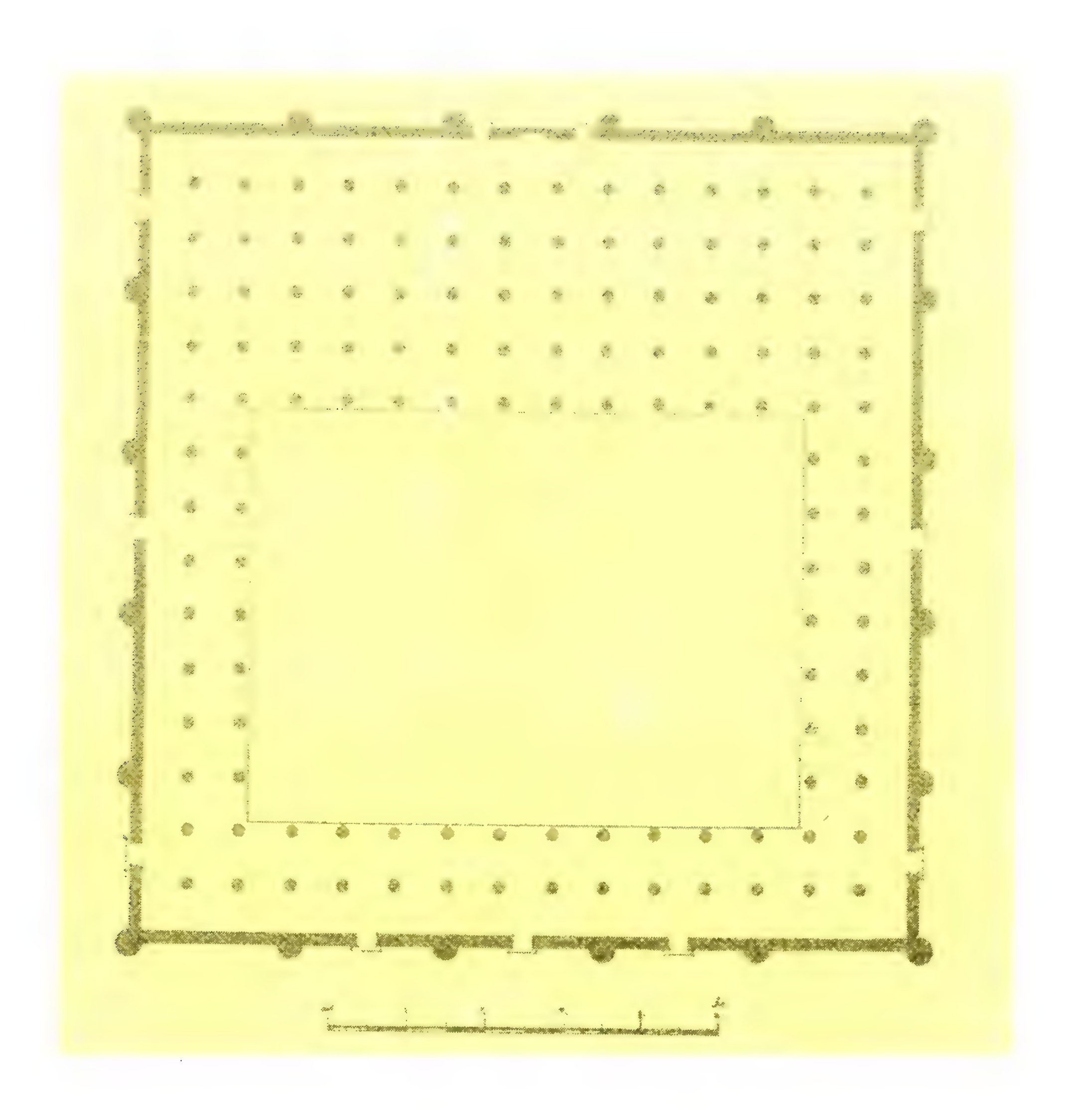
الطبري محمد بن جرير ( ت 210 هـ / 922 م )
(1960) تاريخ الرسل و الملوك ، القاهرة ، طبعة دار المعارف .

الماوردي أبو الحسن علي بن محمد ( ت 450 هـ / 1058 م )
(1978 ) الأحكام السلطانية و الولايات الدينية ، طبعة بيروت .
المقدسي محمد بن أبي بكر ( ت 375هـ/985م )
(1906) احسن التقاسيم في ذكر الاقاليم، ليدن .
مؤلف مجهول ( من القرن الثالث للهجرة)
(1971) أخبار الدولة العباسية ، تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي، طبعة ، بيروت .
ياقوت الحموي شهاب الدين أبي عبد الله ( ت 626هـ/1258م )
(1956) معجم البلدان ، بيروت .
اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب ( ت 292 هـ / 904 م )
(1891) كتاب البلدان ، بريل ، طبعة ليدن.
(1970) كتاب تاريخ اليعقوبي ، بيروت، دار بيروت للطباعة و النشر .
أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم ( ت 182 هـ / 7981 م )
(1303هـ) كتاب الخراج ، القاهرة ، بولاق .

## المراجع العربية و المعربة والبحوث :

البراقي حسين أحمد
(1960) تاريخ الكوفه ، النجف .
بيضون إبراهيم
(1978) الدولة العربية في أسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة (92- 422 / 711- 1031 ) ، بيروت ، دار النهضة العربية
جعيط هشام
(1987) الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية ، بيروت ، دار الطليعة .
الجنحاني الحبيب
(1968) القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي ، تونس.
الحربي عبد الوهاب خضر
(1988) توزيع العطاء على الجند في فترتي صدر الإسلام و العهد العباسي الأول ، مجلة المورد، المجلد السابع عشر ، العدد 3 ، ص 21- 31
حسيني مولوي
(د.ت) الادارة العربية ، ترجمة الدكتور إبراهيم أحمد العدوي ، القاهرة .

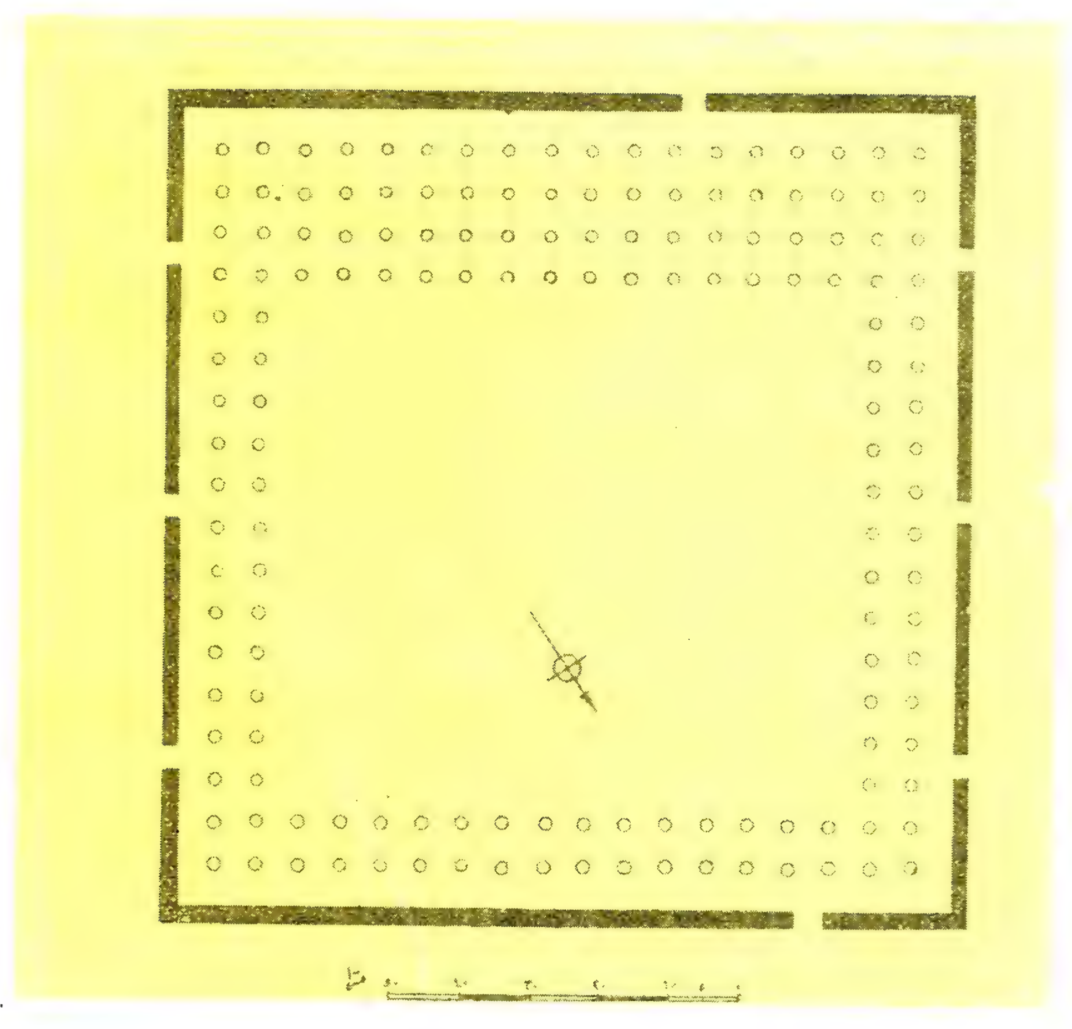
حمدان جمال
(1977) جغرافية المدن ، القاهرة .
(1964) المدينة العربية ، معهد الدراسات العربية ، القاهرة .
الدوري عبد العزيز
(1960) بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، طبعة بيروت
الريس ضياء
(1968) الخراج والنظم المالية ، القاهرة ، دار المعارف .
شعبان محمد عبد الحي،
(1977) الثورة العباسية ، ترجمة عبد المجيد حسيب القبيسي، أبو ظبي ، دار الدراسات الخليجية،
(1983) صدر الإسلام و الدولة الأموية ، بيروت .
شوفاني إلياس،
(1995) حروب الردة ، دراسة نقدية في المصادر ، بيروت ، دار الكنوز الأدبية .
الصوفي خالد ،
(1971) تاريخ العرب في الأندلس. الفتح و عصر الولاة ( 92- 711/138-756 ) بنغازي
عباس إحسان،
(1990 )بلاد الشام من ما قبل الإسلام حتى نهاية العصر الأموي ( 600-661 ) ، طبعة الجامعة الأردنية ، عمان
العلي صالح أحمد
(1969) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، بيروت ، دار الطليعة.
(1952 ) دراسات أولية في خطط البصرة، *مجلة سومر ، المجلد 8* .
(1989) دراسات في الإدارة في العهود الإسلامية الأولى ، بغداد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي .
فيصل شكري
(1952) حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول الهجري، دار الكتاب العربي .
مصطفى شاكر
(1988) المدن في الإسلام حتى العصر العثماني ، دار السلاسل ، الكويت .



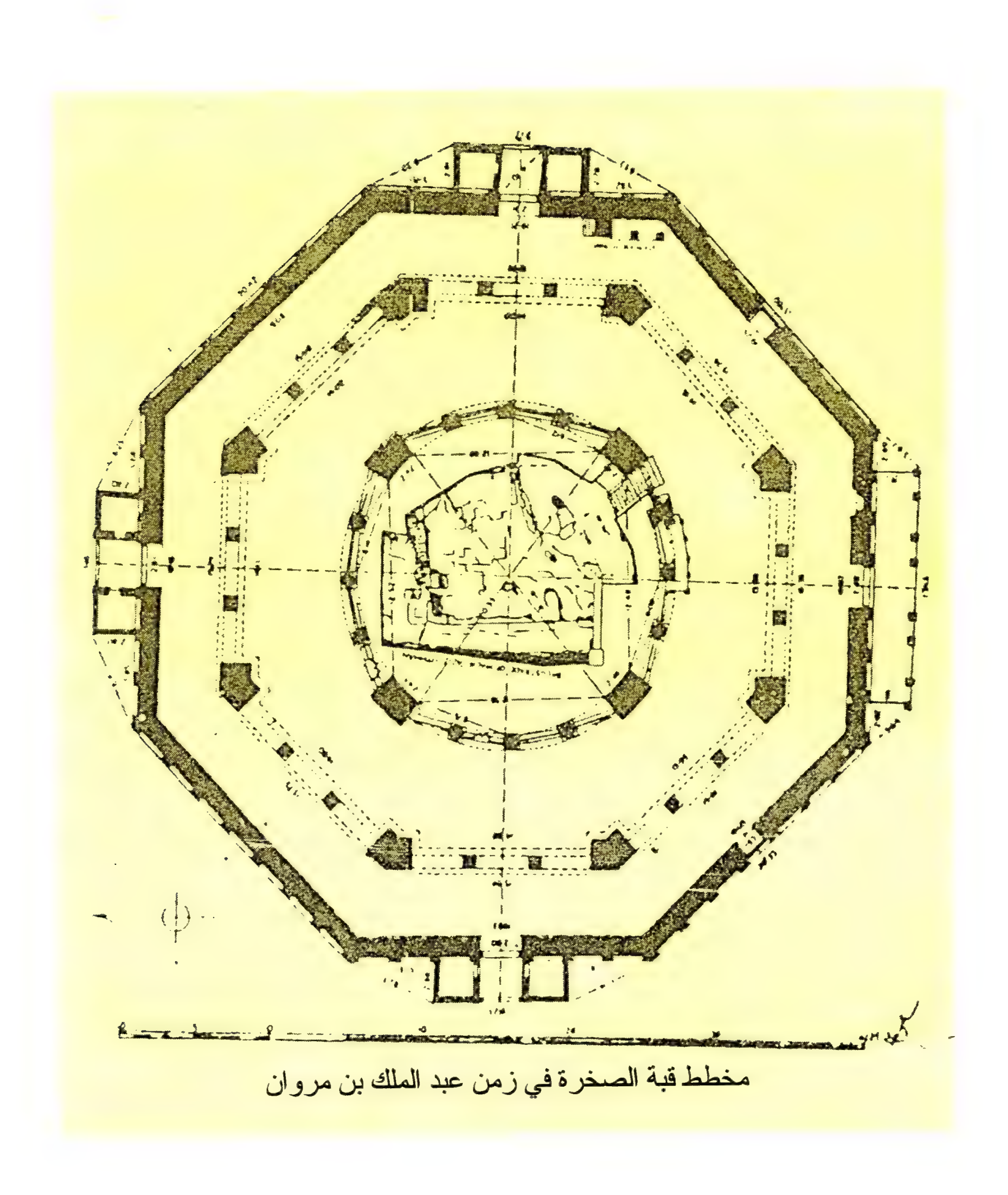
مخطط جامع البصرة في ولاية زياد بن ابيه



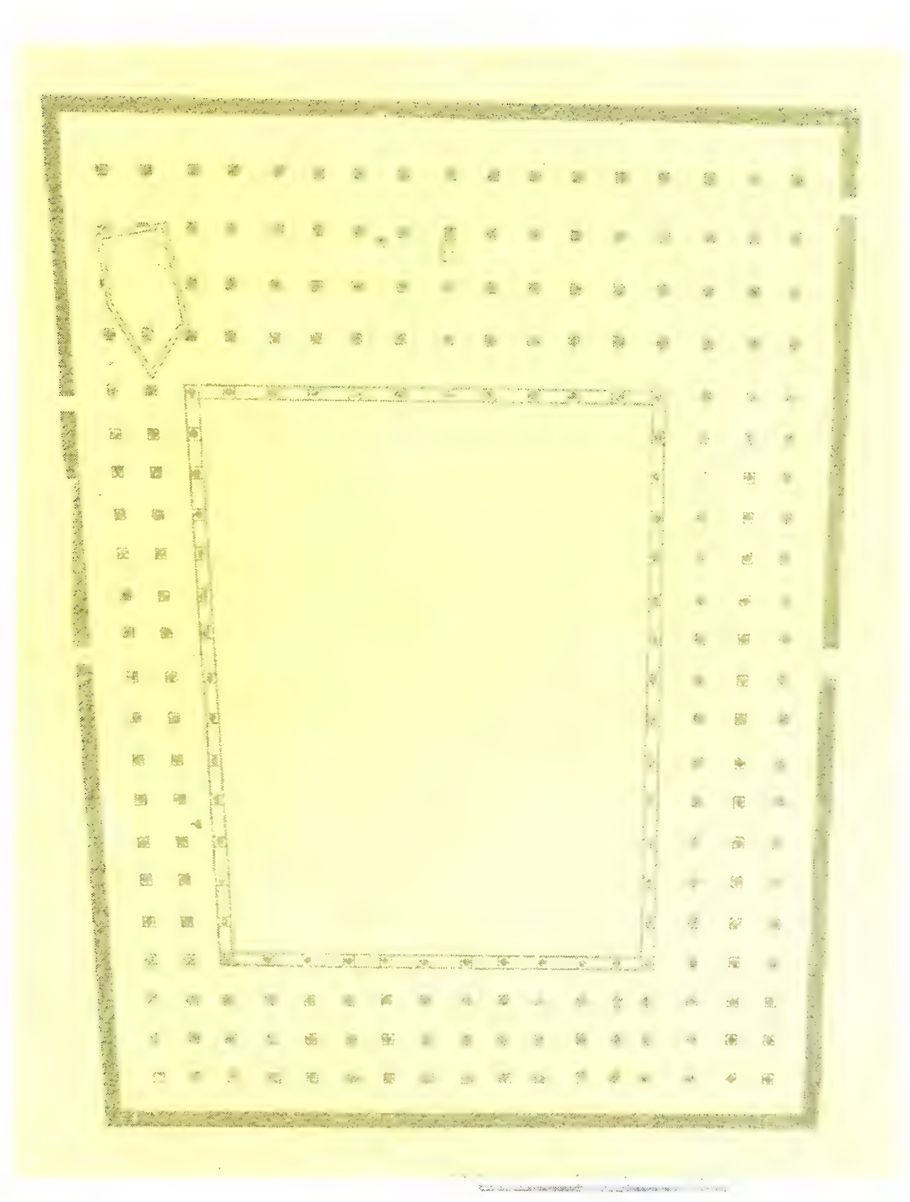
بقايا الأعمدة في جامعَ الحجاج في واسط



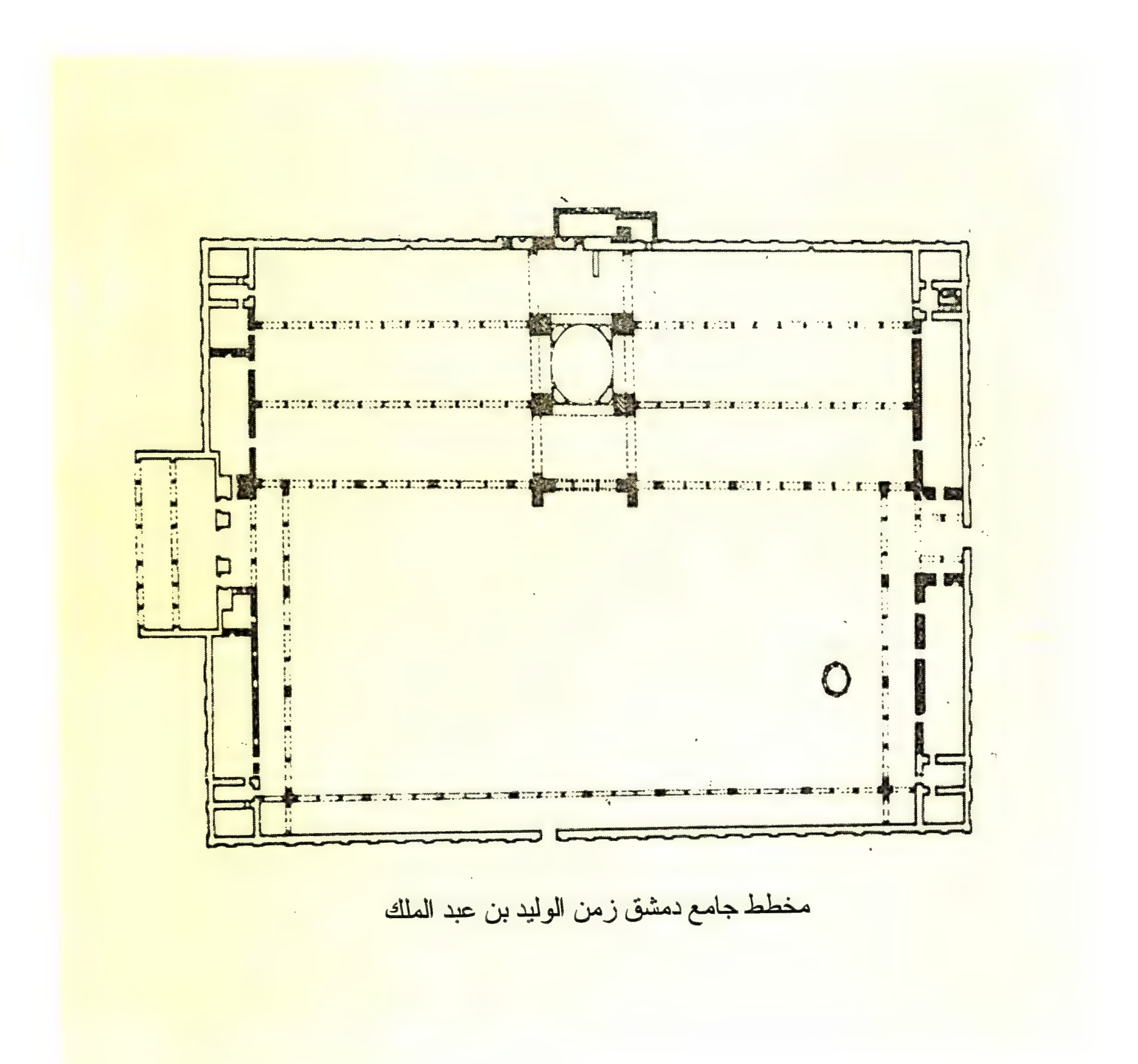
مخطط جامع الكوفة في ولاية زياد بن أبيه



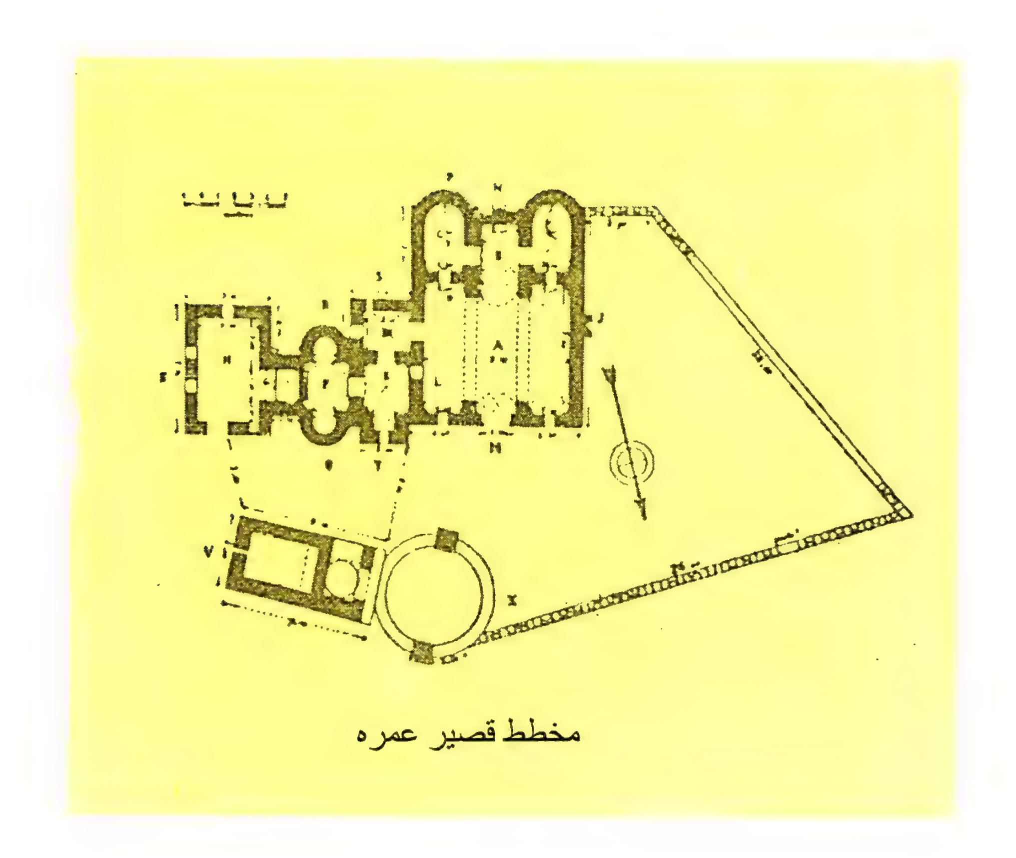
مخطط قبة الصخرة في زمن عبد الملك بن مروان



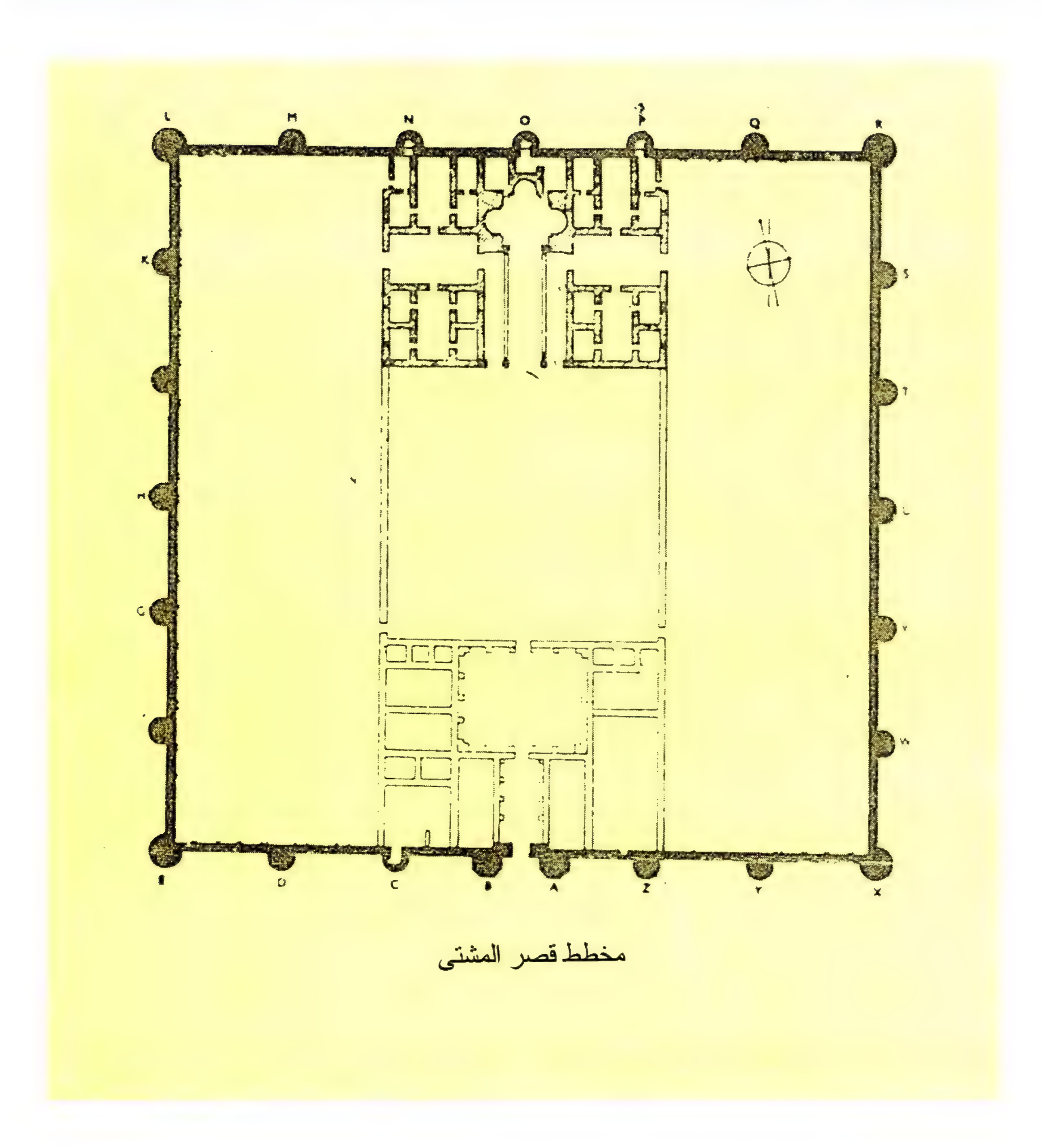
مخطط مسجد النبي (ص) في زمن الوليد بن عبد الملك



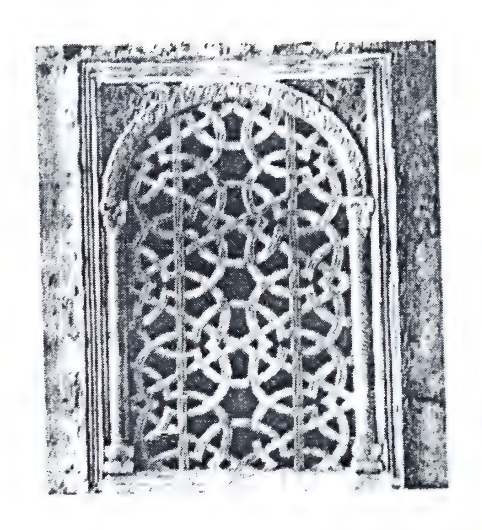
مخطط جامع دمشق زمن الوليد بن عبد الملك



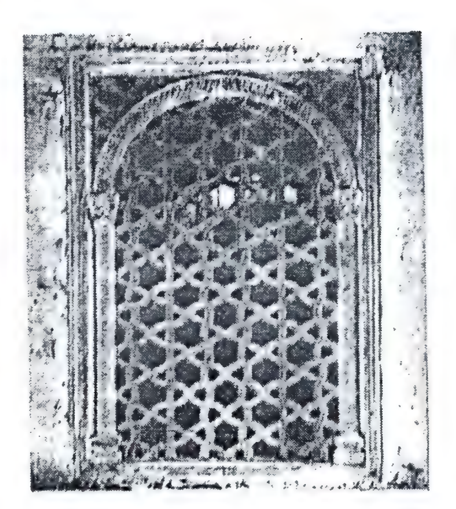
مخطط قصير عمره



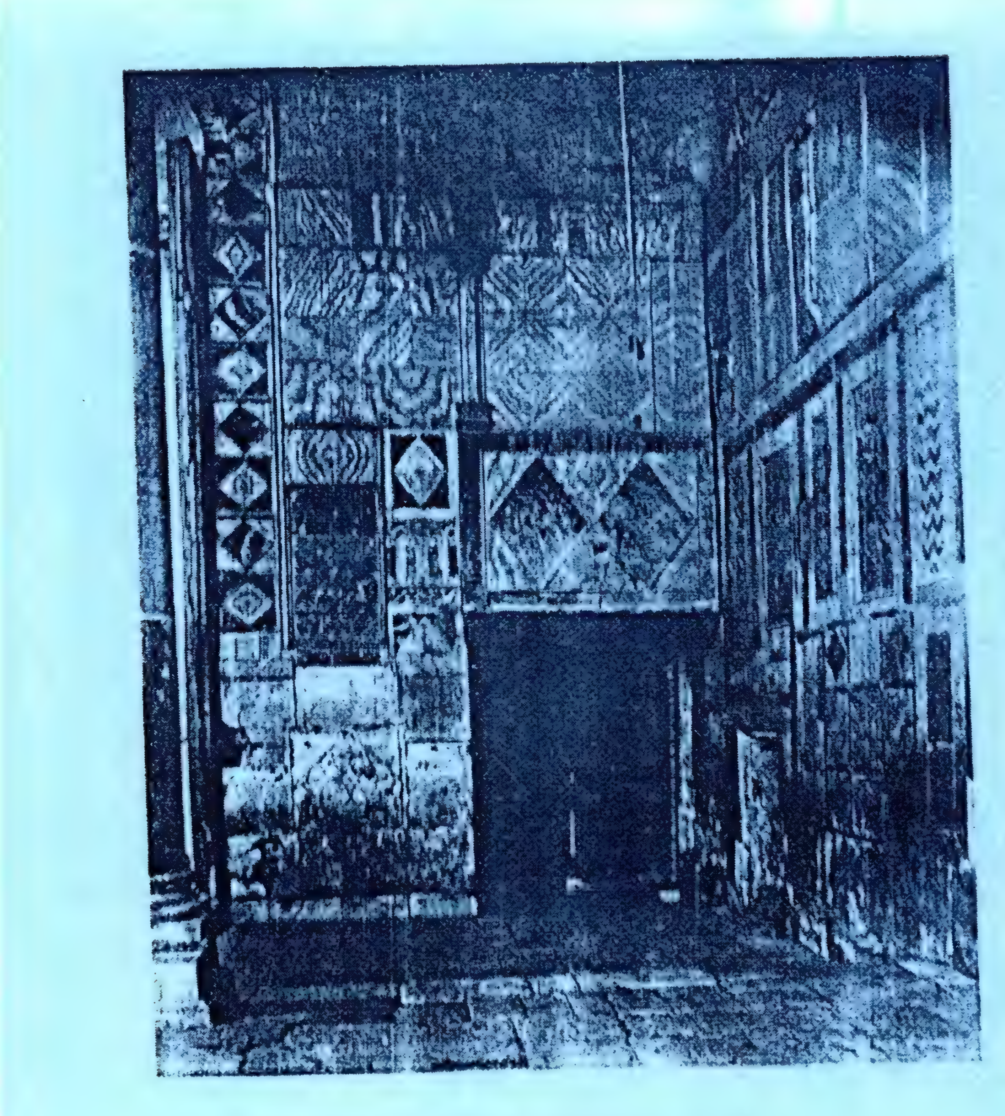

مخطط قصر المشتى



شكل 9 ستائر رخامية لنوافذ
فى جامع دمشق



ستائر رخامية لنوافذ في جامع دمشق



ألواح رخامية تغطي الجدران في جامع دمشق



تمثال من الجص لعله يمثل الخليفة هشام بن عبد الملك ـ خربة المفجر



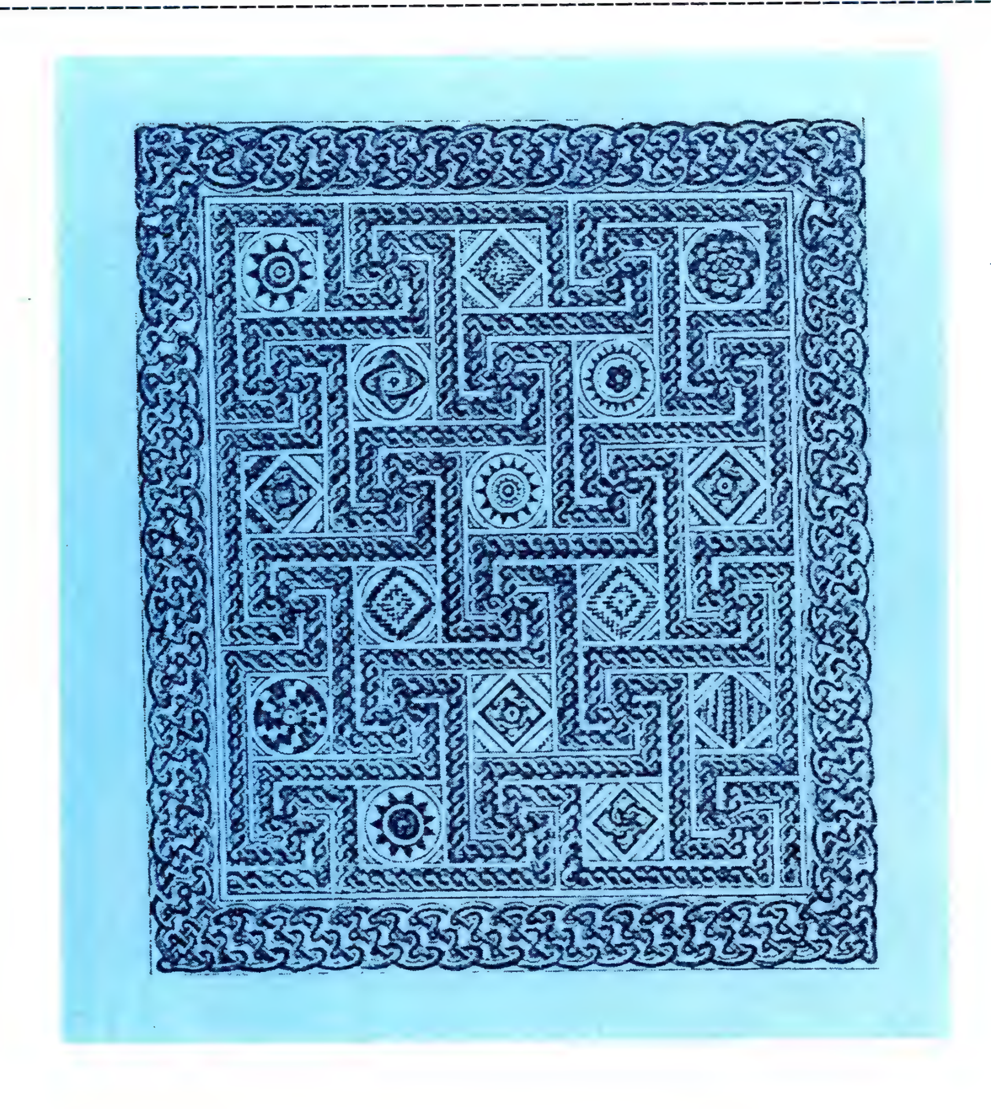
تمثال من الجص لامرأة في قصر هشام ـ خربة المفجر

ستارة جصية مخرمة في قصر هشام - خربة المفجر

زخارف فسيفسائية في قبة الصخرة

زخارف فسيفسائية في جامع دمشق

لوحة فسيفسائية في حمام قصر هشام ـ خربة المفجر



لوحة فسيفسائية من قصر أموي - خربة المنيا



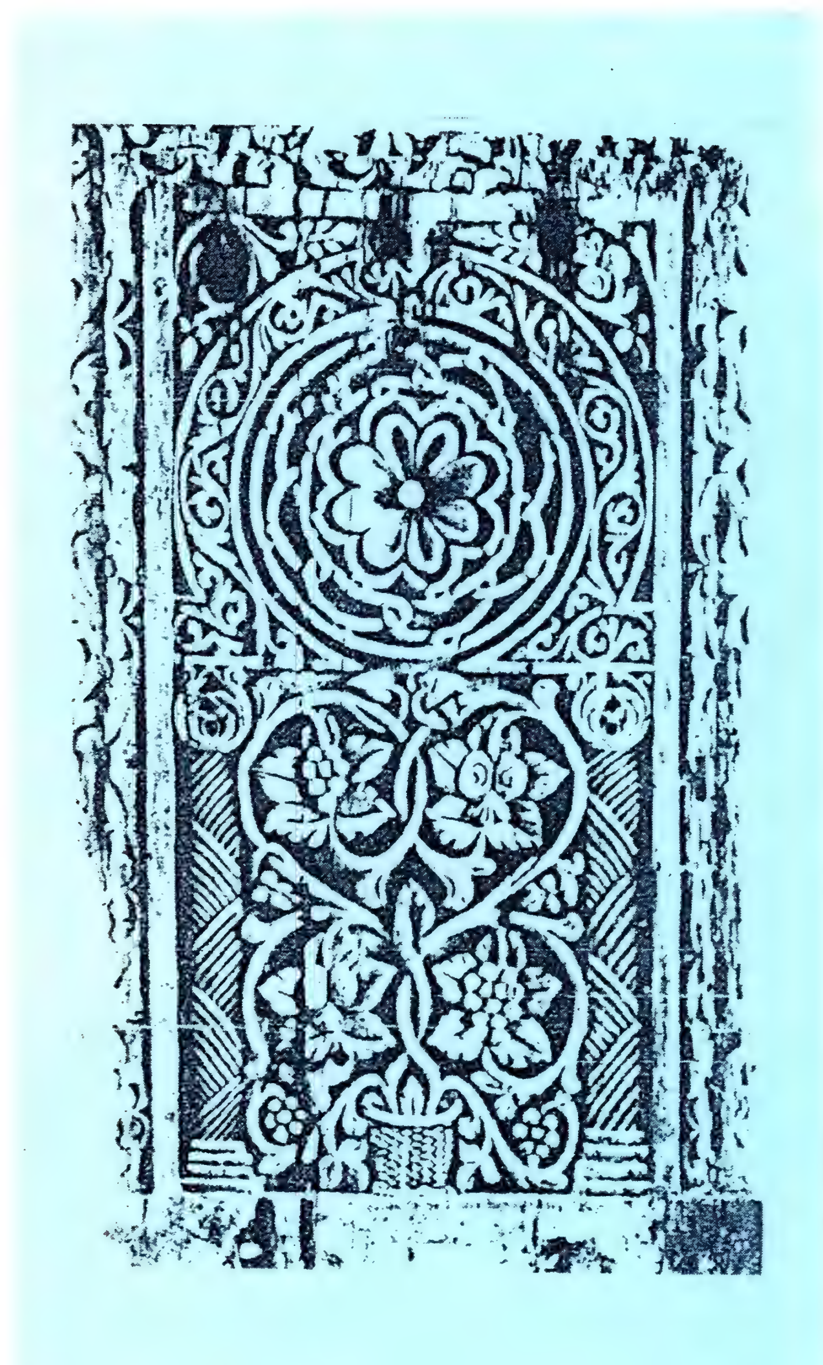
رسوم بالألوان المائية ـ قصير عمرة



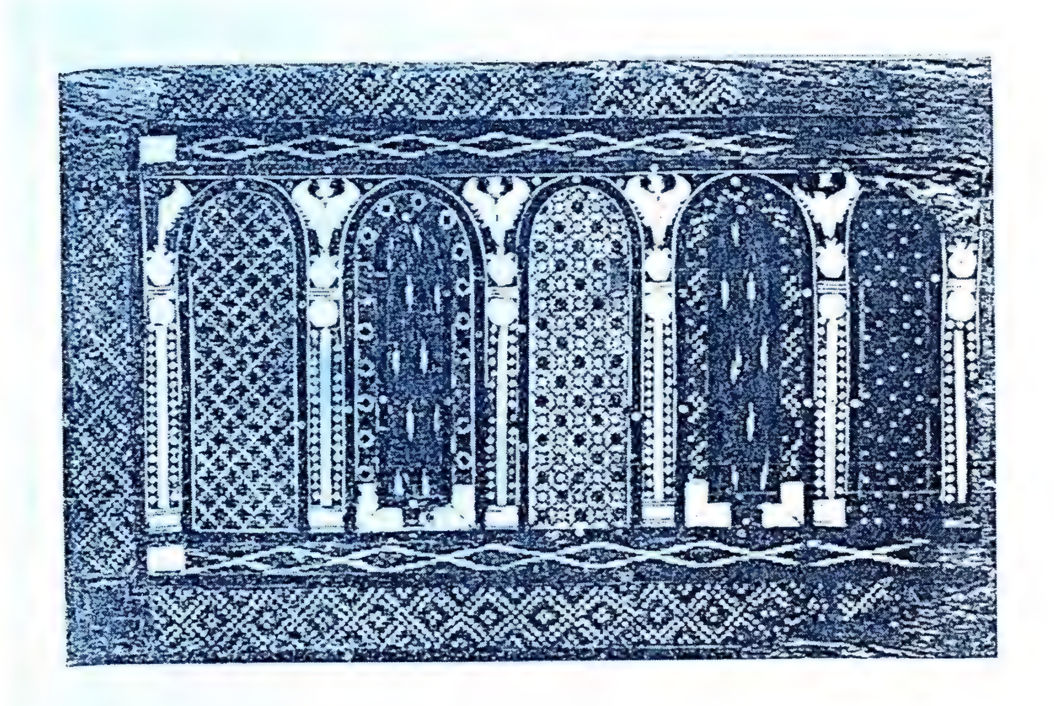
صورة " أعداء الإسلام " بالألوان المائية ـ قصيرة عمرة



صورة بالألوان المائية ـ قصر الحير الغربي



حشوة خشبية من كسوات عوارض المسجد (القرن الثامن )



حشوة من الخشب ذي الزخارف المطعمة من مصر (القرن الثامن )

# الفهرس

# فهرس الموضوعات

**الفصل الرابع – الدولة العربية ( الاموية ) :**



**الفصل الخامس – التحولات السياسية والاجتماعية والاقتصادية :**



**الفصل السادس – المظاهر الحضارية :**

طبع بمطبعة جامعة الدول العربية